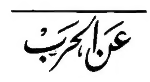
الجنرال كارل فون كلاوزفيتز



ترجمة : سليم شاكر الامامي




عن الحرب

عن الحرب - كلاوزفيتز / عسكري
سليم شاكر الإمامي (عقيد ركن متقاعد) / مترجم من العراق
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقة الجنزير ، بناية برج الكارلتون .
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
®
الصف الضوئي :
الشروق ، عمّان



General Carl von Clausewitz

ملاحظات الناشر

قد يتساءل القارئ عن السبب وراء اصدار ترجمة انكليزية ثالثة لكتاب «عن الحرب Vom Kriege » ما دامت هناك ترجمتان سابقتان ، اصدر اولاهما العقيد جي ، جي كراهام عام ١٨٧٤ وقد اعيد طبعها في لندن عام ١٩٠٩ ، واصدر الثانية البروفسور أو. جي ماتيس جوليس ، في نيويورك عام ١٩٤٣ . كانت ترجمة كراهام وعدى عن اسلوبها القديم غير دقيقة ومليئة بالاخطاء ، بينما كانت الاخرى اكثر دقة ووضوحاً ، الا انها اعتمدت نصاً المانيا يختلف كثيراً عن الطبعة الاولى التي ظهرت عام ١٩٣٢ ، لكتاب « عن الحرب » .

يدل تزايد الاهتمام بنظريات كلاوزفيتز وكتاباته التاريخية والسياسية على أن الوقت قد حان لترجمة جديدة كلياً للكتاب . لقد اعتمدنا في ترجمتنا هذه على الطبعة الأولى التي صدرت عام ١٨٣٢ المعززة بالهوامش والتعليقات التي أضافها البروفسور ويرنر هالفيج على النص الألماني عام ١٩٥٢ ، ما عدى بعض الغموض في الطبعة الاصلية – والتي لم يتسنى لكلاوزفيتز نفسه مراجعتها – فيمكن اعتبار هذه الطبعة الاوثق والتي يمكن الركون اليها دون تعديل كبير .

لقد اقتفينا هنا التقسيم والترتيبات التي اتبعت في النص الاصلي الا في امر واحد ، فقد احتوت الطبعة الأولى اربعة ملاحظات لكلاوزفيتز حول نظرياته ،كتبها في فترات مختلفة ما بين ١٨١٦ ، ١٨٣٠ وقد اعتبرت هذه كمدخل تمهيدي لكتاب «عن الحرب» نفسه – وقد سارت معظم الطبعات التي ظهرت له سواء في الالمانية او اللغات الاخرى على نفس المنوال وقد اثرنا التخلي عن هذا التقليد

العشوائي وفضلنا ان نضع الملاحظات الاربع ضمن سياق الكتاب وحيث اعتقدنا انها يجب ان تكون ، وقد ساعدتنا قراءتها بالتتابع على تصور كيفية تكون «عن الحرب» في ذهن كلاوزفيتز ، بل وحتى على كيفية تطوير كتابه لو امتد به العمر لما يكفي لاكماله كما كان يريد . لقد ادخلنا في هذه الطبعة ، المقدمة التي كتبتها زوجته السيدة ماريا فون كلاوزفيتز للطبعة الاولى للأعمال الكاملة لكلاوزفيتز والتي ظهرت بعد وفاته ، وقد اضافت مقدمتها تلك مزيداً من الضوء على كيفية تكون « عن الحرب » ، والطريقة التي اعدت فيها مسودات الكتاب للنشر . لقد حذفنا ملاحظة موجزة ادخلتها السيدة كلاوزفيتز في مطلع المجلد الثالث للأعمال الكاملة لكلاوزفيتز ، والذي يبدأ مباشرة بعد الكتاب السابع من « عن الحرب » لان تلك الملاحظة لا تتعلق اساساً بكتاب عن الحرب بل عن كتابات نظرية وتاريخية اخرى .

لقد حاولنا تقديم افكار واطروحات كلاوزفيتز بادق صورة ممكنة مع المحافظة على نمطه في الكتابة بافضل ما نستطيع مع استخدام احدث التعابير والكلمات وبالقدر الذي تسمح به اللغة الانكليزية المعاصرة ، الا اننا لم نتوانى عن ترجمة بعض المصطلحات بطريقة مختلفة عندما نرى ان سياق النص يتطلب ذلك ، وعلى سبيل المثال فقد ترجمنا مصطلح (Moral) – (Moralische Kraft) بأشكال مختلفة مثل (morale) و (moral) و (Psychological) لأن كلاوزفيتز نفسه لم يكن ثابتاً ودقيقاً في اختيار التعابير والمصطلحات، وهذا امر متوقع من كاتب كان جلّ اهتمامه منصباً على بناء عقيدة او منظومة كاملة، اكثر من تحقيق تفهم ووضوح في استخدام المصطلحات . فنراه مرة يستخدم مصطلح (Geistes Krafte) و (Seelenkrafte) وحتى « سايكولوجي » بدلاً عن (moralishekraft) أو (Moralische) وما شاكل ذلك من مرونة وحرية تميزان استخداماته لمصطلحات اخرى مثل « الوسائل Means» و «الغرض Purpose » والاشتباك Engagement ، والمعركة Battle ... الخ .

لقد كتب في الفصل السابع من الكتاب الخامس ان « التمسك الجامد بالمصطلحات سوف لن يؤدي الا لشيء اكثر بقليل من مجرد تمييز نظري متحذلق ».

قام بمهمة الترجمة المستر انجوس مالكولم الموظف في وزارة الخارجية البريطانية سابقاً والذي توفي قبل اكمالها ، ولكن بعد ان انجز القسم الاعظم من العمل الذي ندين له بالشكر لاجله ، كما نود ان نتوجه بالشكر الى السيدة اليزابيث لي–وين المشرفة على تحرير مجلة (السياسة العالمية) والى البروفسور بيرنارد برودي من جامعة

كاليفورنيا لتفضلهم بمراجعة النص وازالة الكثير من الغموض ، والى السيدة هيربرت بيلي ، ولويس بيتمان من مطبعة جامعة برنستون لعنايتهم الفائقة في اعداد المسودات للطبع . لقد سهلت الاعانة المالية من « مركز الدراسات الدولية » في جامعة برنستون المراحل الاولى من عملنا ، واخيراً يسعدنا التعبير عن شكرنا للبروفسور كلاوس كنور من جامعة برنستون ، وكوردون كريك من جامعة ستانفورد واللذان ما كان لهذا العمل ان يتم دون تعاونهما وتشجيعهما .

ملاحظة على طبعة عام ١٩٨٤

لقد صححنا بعض الاخطاء كما حاولنا ازالة بعض العبارات غير المناسبة في ترجمتنا لنصوص كلاوزفيتز ، ومع ذلك وكما في الماضي نرى ان هذا الكتاب في حاجة الى مترجمين يجمعون بين الاحترام العميق للكاتب والرغبة في البحث عن المرادفات ، لأن المصطلح القريب جداً من الأصل قد لا يؤدي الا للتكلف والزيف .

اما في بحوث واطروحات المقدمة فقد اجرينا تعديلات طفيفة على البحث الخاص بـ« نشوء الحرب» . واضفنا مقطعين من التفسير الماركسي لكلاوزفيتز الى «تأثير كلاوزفيتز». والتغيير الوحيد الباقي على النص الاصلي هو اضافة « الفهرس» الذي اعدته السيدة روزالي وبست ، وعلى غرار الفهرست الذي اعده البروفسور ويرنرهالفيج على الطبعات الالمانية التي صدرت في اعوام ١٩٥٢ ، ١٩٧٤ ، ١٩٨٠ لكتاب « عن الحرب » .

مايكل هوارد　　　بيتر باريت
جامعة اوكسفورد　　　جامعة ستانفورد

اطروحات تمهيدية

بقلم

بيتر باريت ومايكل هوارد

برنارد برودي

نشوء كتاب « عن الحرب »

بقلم بيترباريت

يظل « عن الحرب » وبغض النظر عن شموليته ومعالجاته الدقيقة ، ونمطه الواضح، عملاً غير كامل ، أي لم ينجز نهائياً وبالصورة التي أرادها مؤلفه ، ويتضح ذلك من طرائق تفكيره وكتاباته . لقد كان كلاوزفيتز في العشرينيات من عمره عندما بدأ تدوين أفكاره الاولى وملاحظاته عن طبيعة العمليات العسكرية Military Processes وعن المكانة التي تحتلها الحرب في الحياة الإجتماعية والسياسية . كان هناك إحساس عميق بالواقعية ، وتشكك دائم بالمسلمات والنظريات المعاصرة ، يطبع تلك الملاحظات والأطروحات التي دونها كلاوزفيتز، كما اكتست بشيء من التأملات والافتراضات الممتزجة بالماضي مما يسبغ عليها نوعاً من التقويم والإصرار الداخليين ، ولسنا نغالي كثيراً لو اعتبرنا كتاباته قبل عام ١٨٠٦ كتصورات لارابط بينها – كقطع الصخر التي تعد مقدماً لبناء لم يتم تصميمه بعد .

يوحي لنا العثور على بعض أفكاره الأولى في كتابه «عن الحرب» ثبات قناعاته السابقة ، ومحافظة أفكاره على جدتها ، وعلى ثقته بها ، والسياق الذي تطورت فيه ، مع أن وجود مثل تلك الأفكار في عمل محكم يجعلها تبدو وكأنها أجزاء من عملية حوار أو جدلية تفوق كلاوزفيتز في صياغتها ، واستخدمها كثيراً في كتاباته لعقدين من السنين ولأغراضه الخاصة ، وكمثال على ذلك مفهومه عن دور «العبقرية» في الحرب ، والذي يشكل أحد أقرب العناصر إلى مجموع جهده النظري

(المبدأي» ، وكمثال آخر على نوع مختلف لأفكاره ، هي تعريفاته للأستراتيجية والتعبية والتي صاغها وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، أو مقارنته المتميزة بين الحرب والتجارة ، وابتدائهما في وقت (عصر) واحد . لقد توسعت معظم أفكاره واكتسبت ثراءً وغنىً واوجهاً جديدة في الفترة ما بين انتصار نابليون على بروسيا ، وحملته في روسيا (١٨٠٦ - ١٨١٢ على التوالي) . كان كلاوزفيتز أحد أعضاء الطرف الخاسر من ذوي العقليات والأفكار الإصلاحية من العسكريين والمدنيين الذين حاولوا تحديث المؤسسات العسكرية البروسية وحققوا بعض النجاح في ذلك الوقت، كانت فعالياته المختلفة كضابط ركن ، وكمدير إدارة ، وكمعلم (عسكري) قد حفزت اهتماماته الفكرية وقدراته الخلاقة ، لقد أعاد طبع مقاطع كاملة من مذكراته ومحاضراته وأطروحاته التي كتبها في إعادة البناء تلك في كتابه « عن الحرب» ثانية ودونما تغيير كبير . وبعد عام ١٨١٥ ، يوم أن بلغت كتاباته في السياسة والتاريخ والفلسفة والاستراتيجية والتعبية ، آلاف الصفحات ، بدأ كلاوزفيتز العمل في مجموعة من الأطروحات والبحوث لتحليل مختلف جوانب الحرب ، وقد تنامت هذه الدراسات أو التحمت بالأحرى في نظرية شاملة تبحث في تعريف العالم ، والعناصر الدائمة في الحرب على أساس من التفسير الواقعي للحاضر والماضي ، وأنجز خلال عقدين من السنين ستاً من الكتب (الأقسام) الثمانية التي خطط لإكمالها ، وأعد مسوّدات القسمين الأخيرين ، وبحلول عام ١٨٢٧ كان قد طور فرضيات جديدة لما دعاه بالطبيعة « الثنائية» للحرب ، والتفحص المنتظم والدائم الذي كان يتطلب تنقيحاً صعباً لمجموع العمل (الكتاب) ، الا أن كلاوزفيتز مات قبل ان يتم اعادة كتابة اكثر من الفصل الاول من الكتاب الأول [1]

(١) اعتمدت معظم الدراسات الادبية القديمة والتي تبحث في مختلف جوانب كتاب (عن الحرب) على مصادر مبتسرة لا يمكن التعويل عليها . وما زال الكتاب الصغير الذي اصدره (كاميرير) عام ١٩٠٥ عن كلاوزفيتز في برلين ، ذو قيمة كبيرة جداً حتى اليوم ، وكذلك المقال الرائع بقلم (تطور عمل فون كلاوزفيتز - عن الحرب -) في المجلة التاريخية العدد (١٥١) عام ١٩٣٥ص ٢٧٨ - ٩٣ ، والذي عدل واضيف اليه الكثير من قبل السيد أي . كيزيل (البداية التاريخية لعمل كلاوزفيتز - عن الحرب) في المجلة التاريخية العدد (١٥٢) عام ١٩٣٥ ص ٩٧ - ١٠٠ . كذلك تاملات دبليو.ام . شيرينك في دراسته التحليلية لكتابات كلاوزفيتز ، الروح والعمل (شتوتكارت ١٩٤١) الا انها مليئة بالتناقضات والاخطاء ، ويبدو أنها كانت أخر ما قدمه الباحث قبل اختفاءه مع نهاية الحرب العالمية الثانية ومع ذلك لا يمكن تجاهل شروحه كلياً .وفي دراسة رائعة عن « كلاوزفيتز» في المؤلف الرائع رواد الاستراتيجية الحديثة باشراف اي . ام. ايرل (١٩٤٣ برنستون) كتب اج روثفلز ص ١٠٨ «كلاوزفيتز ينقح الكتاب الثامن واجزاء على الاقل من الكتاب الأول (لعلها الفصول ١-٣) ومن الكتاب الثاني (الفصل الثاني بالتأكيد) ». =

هكذا يقدم « عن الحرب » افكار مؤلفه في مختلف مراحل صياغتها وهي تتراوح ما بين التتابع الافتتاحي الرائع للفرضيات المنطقية في تناميها ، الى المناقشات الغنية ولكن المتناقضة والاحادية الجانب احيانا من الكتاب الثاني وحتى الكتاب السادس ، والى الفصول الباقية في الكتابين الاخيرين والتي يقرب كل منها ان يكون بحثاً كاملاً ، والتي تشير وبشكل بارع الى ما كان النص النهائي سيكون عليه . ما من شيء بوسعه ان يحل محل النسخة التي لم تكتب ، لكن علينا تذكر أن قرار كلاوزفيتز عام ١٨٢٧م تنقيح مسوداته لم يتضمن استبعاد نظرياته الاولى – بل اراد فقط توسيع وتنقيح ما كتبه . بوسعنا ونحن نقرأ «عن الحرب» اليوم تحديد نوايا كلاوزفيتز ، تقريباً على الاقل ، في احتفاضه بفرضياته الوثيقة الصلة بالطبيعة الثنائية للحرب ، وسمتها السياسة ، حية وواضحة في ذهنه . لعل من المفيد ، في نهاية هذه المناقشة ، العودة الى فرضياته النهائية واجمال معظم جوانبها المهمة طالما انه لم يطور مضامينها الى نظرية .

يقدم « عن الحرب » ورغم عدم انتضام صياغته، نظرية متماسكة واساسية في نظرية الصراع ، تظهر لنا بجلاء القدرة الخلاقة لمنهج وافكار كلاوزفيتز ، وكل من يحاول السير على منهجه في التفكير والاستنتاج والمقدمات والبراهين لابد سيمسك بافكاره الخالدة عن جوانب الحرب . الا ان قراءتنا لكتاب « عن الحرب» مفيدة فقط في التعرف على نشوئها وللقرائن الفكرية وكيفية تأثير الخبرات السياسية والعسكرية على كاتبها؟ وما هي الافتراضات والنظريات التي عارضها ؟ وما هي برأيه المتطلبات المنهجية لتحليل محكم وصائب ؟ وحتى النظرة العاجلة على تلك الاسئلة ستلقي الضوء على تطور افكار كلاوزفيتز وعلى طريقة تشكل وتتابع نظرياته

= الا انه اضاف بان كلاوزفيتز يعتبر ان الفصل الأول من الكتاب الأول فقط قد اكمل . واعتقد ان روثفلز يبالغ في حجم ما نقحه كلاوزفيتز بعد ١٨٢٧م . ولم يورد أي سبب يؤيد ما ذهب إليه عدى بعض اللمحات في الكتاب ، الا ان الفقرات التي استشهد بها من الكتاب الثاني كبرهان على التنقيح الذي تم فيما بعد يمكن أن نراها في معظم المسودات التي تركها كلاوزفيتز عن الاستراتيجية عام ١٨٠٤ . لعل افضل تقييم وضعه خبير عارف حول الامر كله وجمع ما تم التوصل إليه خلال قرن من البحث هو دراسة (اي . كيزيل) الرائعة «تطور الحرب الحديثة» في .
Wehrwissenschaftlich Rundschau,3 (1953) no-9, pp405-423.

في مختلف الطبعات التي ظهرت لكتاب « عن الحرب »[٢] .

ولد كلاوزفيتز ، لملازم أحيل على التقاعد بعد اصابته وعين بمنصب صغير في مصلحة الواردات في بروسيا ، وواجه الحرب لاول مرة وهو في الثانية عشر من عمره عام ١٧٩٣ برتبة جندي أول. كانت الجمعية الوطنية الفرنسية قد اعلنت الحرب على النمسا في العام السابق. وكانت بروسيا ترتبط مع النمسا بتحالف دفاعي عقد مؤخراً. وكان السبب وراء العمل الفرنسي هو المصالح الوطنية وليس السياسة الداخلية ، الا انه فجر حرباً استمرت لثلاث وعشرين عاماً ما بين فرنسا الثورة التي تحولت الى امبراطورية وباقي اوروبا . والى جانب الهجوم الاول لدوق برونزويك، والذي توقف عند بلدة (فالمي) فقد ابلى البروسيون بلاءً حسناً في تلك الحرب رغم انهم لم يخصصوا لها الا بعض مواردهم العسكرية وانتصروا على الفرنسيين في منطقتي الالزاس والسار واعتقلوا آلاف الاسرى ، وعندما انتهى القتال عام ١٧٩٥ كانوا قد سيطروا على خط نهر الراين ، الا انهم لم يحصلوا مقابل ذلك على اية مكاسب سياسية وكما هو متوقع عادة فان الحرب وبكلما ما تعنيه من انهاك ودماء ونتائج غير متوقعة قد اثرت وبقوة على الشاب كلاوزفيتز وقد كتب فيما بعد عن تلك التأثيرات على افكاره وعواطفه في السنوات التالية وكان قد استقر أيامها في جامعة صغيرة وتوصل إلى بعض الاستنتاجات الاولية من تلك التجارب المبكرة . قدر لثلاث منها بشكل خاص ان تكون دائمة التأثير : **ليس للعبقرية في الحرب معيار واحد فقط**. كان لسياسات وخطب الثورة الفرنسية الموجهة للأجيال الصاعدة دور كبير في اضعاف جيوش الانظمة القديمة . فالمرتزقة ، والمجندين بالقوة، من الفلاحين ، وبقيادة ضباط أعتمد في اختيارهم على المنبت الارستقراطي لا على الخبرة المهنية ، والذين اثبتوا جدارتهم في «الكرة والصولجان» والحفلات المكلية . من الناحية

---

(٢) ان اي تفسير لعبقرية فكر كلاوزفيتز في الحرب يجب ان لا يستند فقط على كتاباته في النظرية والتاريخ العسكريين بل وكذلك على كتاباته في موضوعات مثل التعليم ، والسياسة ونظرية الفن ، ومراسلاته . قدم اج. روثفلز في كتاب « كلاوزفيتز - السياسة والحرب » - برلين ١٩٢٠ - تحليلاً قيماً لجوانب تطور فكره الواسعة وكذلك في المقدمة التي كتبها اي . كيزل لكتاب « كلاوزفيتز - (Strategie aus dem Jahr) عام ١٨٠٤ (هابورج ١٩٣٧) وقد ناقشت الاول والثاني في كتابي (كلاوزفيتز والدولة) - نيويورك ١٩٧٦ والذي اعتمدت عليه في معظم ما سيرد هنا .

الاخرى فقد فشل التدريب البروسي في اكتساح الجيوش الثورية . مع رسوخ اقدام الجمهورية (فرنسا) بالاستقرار والتجربة فسيكون لديها الكثير مما تعلمه أعدائها الذين ما زالت قدرتهم على التعلم والاستجابة محدودة وموضع شك. علمته هذه الاحداث ، وقراءته الاولى للتاريخ ان ليس من نظام واحد قادر على التفوق على الاخرين . تعتمد المؤسسات العسكرية ، والطريقة التي يستخدمون فيها العنف على الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لدولهم الخاصة . واكثر من ذلك فالبنية السياسية ، كالحرب لا يمكن تقييمها بمعيار واحد . تأخذ الدول اطرها بفعل وقوة ماضيها الخاص، وظروفها الحالية ، ومهما كانت مختلفة الاشكال فكلها صالحة ، وكلها معرضة الى تغير مستمر.

يرتبط بهذا الرأي الفردي واللاعقلاني عن التاريخ وعن المؤسسات الاجتماعية والعسكرية **الاستنتاج الثاني** الذي وضع الضابط الشاب ضد الرأي السائد في بروسيا، وفي الحقيقة في اوروبا . لقد رأى ان **من الخطأ الاعتقاد بسهولة اتقان الحرب بالتمعن في هذه او تلك من مجموعات القواعد** . اذ لا يمكن ضبط تنوع وثبات التغيير كليا بنظام . ولا بأية تبريرات فكرية لتبسيط ذلك – كالقول باعتماد النصر على التحكم بالنقاط الحيوية على سبيل المثال ، او انه يعتمد على تمزيق خطوط مواصلات العدو – وليس ذلك اكثر من تزييف للواقع . لعل كلاوزفيتز كان وقتها قد فقد ثقته بقناعات معظم المنظرين العسكريين : كأمكانية تضيق نطاق الصدفة في الحرب او ضرورة ذلك الى اضيق حد باستخدام عقائد تعبوية وعملياتية وعمليات صحيحة . لقد كان من الصعب على من ارادوا تفهم الحرب بعمق وجداني وبطريقة موضوعية ومنتظمة ، القبول بقوة الصدفة ؛ لكن كونه في منتصف العشرينيات من العمر أنذاك والوسط الذي يعيش فيه ومنطقية موقفه من التحولات التاريخية قاده الى اعتبار الفرصة لا كعنصر محتوم لابد منه بل وكذلك كعامل ايجابي في الحرب .

اخيراً ، فحملتي عامي ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ وضعتا كلاوزفيتز على طريق تفهم **الحرب « كظاهرة سياسية** Political Phenomenon ». تشن الحرب وكما يعرف الجميع لغرض سياسي ، او على الاقل لها دائماً نتائجاً سياسية وليست مضامينها التي تلي ذلك سهلة او مفرحة . فان كانت الحرب معنية بتحقيق هدف سياسي فكل ما سيدخل في الحرب كالاستعدادات الاقتصادية والإجتماعية ، والتخطيط

الاستراتيجي ، وادارة العمليات ، واستخدام العنف في جميع المستويات – لابد ان تتقرر على ضوء ذلك الهدف ، او على الأقل انسجاماً معه . حتى لو كان على الجنود امتلاك خبرات خاصة ، والعمل والاداء فيما يعرف من بعض الوجوه بعالمهم الخاص (المنفصل)، فليس من الواقعية بشيء السماح لهم بتنفيذ اعمالهم الدموية دون تدخل من أحد حتى تسمح هدنة ما بعودة رؤسائهم السياسيين إلى التسوية . كما تعكس الحرب ومؤسساتها بيئتهم الاجتماعية تماماً ، فلابد من تلوين وغمر كل جانب من جوانب القتال بالدافع والبواعث السياسية ، سواء كانت هذه كثيفة أو معتدلة . لقد شغلت العلاقة المناسبة بين السياسة والحرب كلاوزفيتز طوال عمره ، وحتى كتاباته ورسائله المبكرة توضحان ادراكه لقوة التفاعل بينهما .

السهولة التي يُنسى بها هذا الارتباط – المقبول نظريا على الدوام – في حالات بعينها ، واصرار كلاوزفيتز على عدم اغفالها ومراقبتها بدقة ، يصوران برفضه المؤدب في اخريات ايامه للمعضلة الاستراتيجية التي اثارها رئيس هيئة الاركان البروسية في ضرورة التمعن في جميع التفاصيل العسكرية عن الجانب المعادي ، دونما اشارة إلى اغراضها السياسية . وعندما عرض عليه صديق له هذه المعضلة للتعليق عليها رد كلاوزفيتز باستحالة صياغة خطة عمليات دون الاشارة الى الظروف والاوضاع السياسية للدول المعنية ، وعلاقاتها فيما بينها . فـ « الحرب ليست ظاهرة مستقلة ، بل استمرار للسياسة بوسائل مختلفة»؟. وعليه فالخطوط الرئيسية لاي خطة استراتيجية كبيرة هي **سياسية في طبيعتها والى حد كبير** ، وتتزايد سمتها السياسية كلما اتسع نطاق الخطة ليشمل الحملة كلها ، والدولة ككل خطة الحرب نتاج مباشر للظروف السياسية للدولتين المتجاربتين ، وكذلك لعلاقتيهما بقوى ثالثة تنتج خطة الحملة من خطة الحرب ، وغالبا – لا سيما عند عدم وجود اكثر من مسرح عمليات واحد – ما تتطابق معها . الا ان العامل ينفذ حتى الى الاجزاء المنفصلة للحملة ، ونادراً ما يكون ذلك دون تأثير على الاحداث الكبرى للحرب كالمعركة وغيرها . فلا مجال للحديث وفقاً لوجهة النظر هذه او التساؤل عن تقويم عسكري محض للموضوع الاستراتيجي الكبير او عن مشروع عسكري صرف لحله[٣] .

خطى الشاب كلاوزفيتز في النصف الثاني من عام ١٧٩٠ ، اولى خطواته في

---

(٣) كتب كارل فون كلاوزفيتز الى ك . ف رويد ، (١٨٢٧/١٢/٢٢) رسالتين عن موضوع خاص لكلاوزفيتز في اصول المعرفة العسكرية نشر في (١٩٣٧/٣/٢) ص٦ ، هوفيد الترجمة الى الانكليزية .

رحلته الفكرية التي ستقوده الى ذلك الاستنتاج ، لكن وكما أقترحت انفاً فقد سلك هذا المنحى مع القليل من التوقفات او الانحرافات ، ولم تكن السنوات الخمس التي قضاها كضابط صغير في بلدة (Neuruppin) سوى سنوات ضائعة او سنوات ركود، الا إن كُتّاب سيرته تمسكوا بالتعابير الحرفية التي وردت في تعليق قدمه كلاوزفيتز بعد سنوات عن تلك المرحلة من حياته اتسم بنقد ونقد ذاتي . وفي الحقيقة لم يكن وضعه انذاك دون فائدة . اذ وبدلاً من الخدمة في وحدة عسكرية في منطقة مغمورة ، فقد انتسب الى كتيبة(Regiment)كان من بين ضباطها احد اعضاء العائلة المالكة ،الامير فيرديناند الذي كان كولونيل الكتيبة (القائد الفخري) وراعيها . وعلى مقربة من البلدة كان هناك قصر امير آخر من عائلة (هوهنزلورن) هو الامير هنري ، المع اخوة فردريك الكبير الذي كانت مكتبته ، والمسرح والاوبرا مفتوحة للضباط ، والاهم من كل ذلك ان تلك الكتيبة قد اشتهرت في الجيش بالاسلوب التعليمي المبتكر الذي طبقته وتحمّل الضباط انفسهم معظم تكاليفه . وبعد عودة الكتيبية من فرنسا انشأت مدرسة ابتدائية واخرى مهنية لابناء ضباط الصف والجنود ، ومدرسة عليا للضباط التلاميذ (Cadet) ولأبناء الطبقة العليا ويحتمل ان كلاوزفيتز تولى التدريس في المدرسة العليا كباقي الملازمين ، وما من شك أن اطلاعه على مناهج تدريس جادة قد عمق عنده الاهتمام الذي كان قد بدأه بالتعليم . وكما كتب فيما بعد فقد أُعجب وهو في الخامسة عشرة من عمره بالفكرة ، فاكتساب المعرفة سيؤدي الى تطوير الشخصية وزيادة القدرة البشرية وسرعان ما تعزز هدف تحسين المجتمع بتأكيد التطوير الذاتي للفرد ، كما اقترنت رغبته بالتعليم باهتمامه بمنهجية التعليم . وبالطرق التي تعكس الافكار المجردة ، او تنقل الحقيقة بدقة ، والاسلوب الذي يتعلم به الرجال تَفهُم الحقيقة ، والغاية النهائية للتعليم – التي يرى انها لا تعني بنقل الخبرة الفنية بل في تطوير استقلالية الحكم – وقد اصبحت كلها من الاعتبارات الاساسية في الدراسات النظرية لكلاوزفيتز .

قُبل كلاوزفيتز عام ١٨٠١ في كلية الحرب الجديدة التي انشأها الجنرال شارنهورست في برلين بعد ان نقل من الخدمة في جيش هانوفر ، كان كلاوزفيتز الاول في دفعة عام ١٨٠٣ وعُين مساعداً للأمير الصغير ، وابن آمره القديم الامير فيرديناد وهو منصب مكنه من البقاء في العاصمة وقريباً من استاذه (شارنهورست)، الذي اثر كثيراً على حياة وتطور افكار كلاوزفيتز اذ كان الاول يتمتع بقدرات استثنائية ، وجندي شجاع وباحث علمي وسياسي موهوب – وكفاه فخراً جمعه

هذا المزيج من القدرات التي تبدو دون انسجام ، ويعجز حتى افضل تلامذته عن مجاراته فيها . ولا مجال هنا لمناقشة اراءه في الاستراتيجية ، وفي التجنيد الالزامي ، وفي القيادة وفي تنظيم الاركان والتي كانت تشكل ظاهرة اذعان القديم للحديث ، والمهم لنا هنا استقلاله الفكري الذي تناول فيه الموضوعات العسكرية الاساسية لعصره ، وكذلك تعاطفه مع الغايات الإنسانية للتعليم وقناعته بان دراسة التاريخ هي اساس لاي دراسة متقدمة للحرب . لقد تأكدت اهتمامات وتوجهات كلاوزفيتز في النظرية العسكرية وفي التعليم وتوجهت بشكل افضل بفضل شارنهورست ، الذي عمق كذلك ادراك كلاوزفيتز للقوى الاجتماعية التي تتحكم بالنموذج العسكري وطاقات الدولة . كان شارنهورست ابن فلاح اجير ووصل الى رتبة (رأس عرفاء سرية) كما قضى فترة صعبة في جيش هانوفر حيث كان يعامل بازدراء مرة بعد اخرى وتخطته الترقية لصالح بعض اقرانه من النبلاء ولم تحوله التجربة الى رجل ديمقراطي ، كما انها – سيما بعد ان حقق نجاحاً مهنياً ونيله رتبة نبيلة (لقب) – لم تدفعه الى السقوط في احضان الجاه والثروة وكان ما يشغله ليس بنية اجتماعية معينة ولا الشكل الذي اتخذته مؤسساتها ، بل الروح التي كانت تحركها . ولاعطاء مثل محدد على ذلك من المدرسة التي انشأتها الكتيبة لأبناء الجنود في (Neuruppin) والتي شهد فيها كلاوزفيتز شيئا من الرعاية الإنسانية والابوية للفقراء مما يعد سمة واضحة لعصر النهضة المتأخرة في بروسيا، وقد أفهمه شارنهورست ان ذلك لم يكن كافيا لا للأفراد ولا لدولة ، وان كانت الثورة الفرنسية قد برهنت على اي شيء فهو أن على الدول الراغبة بصيانة استقلالها أن تكون اكثر فاعلية في استخلاص وتنمية قدرات شعوبها . هناك نخبة في كل مجتمع ، وهي ستبرر وجودها طالما عملت على تقوية وتقدم المجتمع ، وعلى استعداد لتطوير ملكاتها ، والمواهب المتفوقة ، وما من شيء يبرر دوام الامتيازات والسطوة التي تحمي العجزة ومحدودي الذكاء بينما تحرم الدولة من قدرات وحماس الرجل العادي . وقدر لهذا التوجه بعد سنوات قليلة ان يرسم خطوط حركة الاصلاح البروسية – الاقل اهتماما بالجانب المدني منها بالجانب العسكري وبزعامة الجنرال شارنهورست ورفاقه الاقربون . هناك مصدران متوازيان تقريباً ساهما في تكوين افكار كلاوزفيتز هما ، **الموقف** غير العقائدي (الجامد) اساساً حول الترتيبات الاجتماعية والسياسية والذي تعلمه من شارنهورست الى حد ما والذي عبر عنه بوقت مبكر يعود إلى عامي ١٨٠٤ – ١٨٠٥ ، والاخر هو **المقترب** غير المحدد بنهج معين عن الحرب. على رجل الدولة والقائد استبعاد التقاليد

والقناعات، واية تأثيرات تتعارض وانجازهم لاهدافهم الكبرى ، كذلك على المُنظّر الراغب في تفهم طبيعة الدولة وطبيعة الحرب ان لا يسمح لافكاره بالانزلاق بعيدا عن العناصر المركزية لكليهما – اي السلطة (Power) في السياسة والعنف في الحرب.

كان الواجب الاهم الذي واجه القادة البروسيين في مطلع القرن التاسع عشر هو التفاهم فكريا ، ومن حيث المؤسسات ، مع الطريقة الفرنسية الجديدة في الحرب فخلال عقد واحد من السنين نجحت فرنسا في حشد قدر من الموارد للحرب لم يسبق له مثيل في الضخامة . والاعداد الكبرى من الجنود الذين تحت قيادة الجنرالات الفرنسيين سهل شن الحملات التي تتضمن مخاطراً كبيرة ، وخوض عدد اكبر من المعارك ، والانتشار فوق مساحات اكبر من الارض ، وتوخي تحقيق أهداف سياسية اكبر مما كان بوسع جيوش الانظمة القديمة قبوله . لقد استخدم نابليون هذا الاسلوب الجديد ببراعة احدثت صدمة لا تقل عما تسببه قسوته . لقد صعب على معظم الالمان تفهم طريقته التي تجمع بين الموهبة غير العادية ، والانجازات الاجتماعية والادارية والنفسية للثورة الفرنسية ، وكلها مما لم يعهدوه سابقاً . إذ من الصعب على منظري أية قومية أو امة اخرى الاقرار باستراتيجية وتعبية نابليون كظاهرة تاريخية وموضوعات خالدة لا تتغير الا كما تتغير الحرب ، واعتبارها كمعايير للبراعة والعبقرية للماضي والحاضر والمستقبل .

تزخر الادبيات العسكرية الاوروبية بالتعليقات والملاحظات الغنية بالادراك والتبصر في عناصر تلك المنظومة ، إلا انها وكما لاحظ كلاوزفيتز مبكراً ، فشلت عند محاولة إخضاعها لتحليل شمولي . قدمت افضل الدراسات في هذا المجال من قبل المنظر البروسي هنريش فون بيلو (Bulow) ، وضابط الركن الفرنسي – السويسري انطوني جوميني ، واللذان ساعدت كتاباتهما في اغناء وتأطير مهارات كلاوزفيتز الفكرية في السنوات التي سبقت هزيمة بروسيا عام ١٨٠٦ ، والسنوات التي تلتها مباشرة . لقد تنبه (بيلو) الى قيمة وإهمية مثل هذه التطورات التعبوية الحديثة التي تمثلت في ضخامة اعداد المقاتلين ، وسرعة التنقلات ، والنيران المصوبة ، الا انه وفي الوقت نفسه قلل من فاعلية المعركة في العصر الجديد ، بإعتبارها « ملاذاً لليائسين » مركزاً اهتمامه بدلاً عن ذلك في منظومة أستراتيجية تعتمد على النقاط الحاكمة ، ومسالك الاقتراب الامر الذي يظهر قدراته واختصاصه الهندسي بطريقة

فذة ، مع تمجيد لطبيعة المقاتل الحر. وتضمن اول كتاب نشر لكلاوزفيتز اطروحة طويلة عن (بيلو) اعترف فيها بفوائد بعض مصطلحات (بيلو) ، كما لمس بعض الجدارة في مفاهيم جوميني الا انه اشار الى عدم دقة تحليلاته وامتلائها بالاخطاء كما لم تكن استنتاجاته معقولة . وفي مسعاه لترشيد الحرب وتحويلها الى علم يمكن التنبؤ بمسارها. اعتبر (بيلو) ان للعوارض الجغرافية ومنظومة الامداد دور حاسم ، بينما تجاهل كثيراً التأثيران المادي والمعنوي اللذان قد تسببهما تحركات غير متوقعة للعدو ، او بسبب العنف او حتى سوء الحظ . ينّصب إعتراض كلاوزفيتز على أن الاستراتيجية «لا تشمل العوامل العصية على التحليل الحسابي ، فقط ، كلا ، فقد اتسع مجال الفن العسكري حيثما تكتشف قدراتنا الفكرية أية مصادر لما يمكن ان يفيد جنودنا معنوياً .. » [٤] .

اقترب جوميني كثيراً من الواقعية الحديثة ، الا انه اخطأ كما يعتقد كلاوزفيتز في تعامله مع احد أجزاء الحرب – جيوش كبيرة تبحث عن نصر حاسم – على اعتباره (الكل). اما ادعاءه باستخلاصه المبادئ العامة للحرب من عمليات نابليون ، ومن العمليات المشابهة وان كانت على نطاق اصغر ، اي عمليات فردريك الكبير. فقد استسخفها كلاوزفيتز وكتب عام ١٨٠٨ ، بان مبادئ جوميني ستفقد قيمتها وصلاحيتها لو أمكن إيضاح أن للقادة الاوائل مبررات أكيدة لتجاهلها . فالقيصر ، او، ايوجين اوف سافوي (فيلدمارشال فرنسي ١٦٦٣ – ١٧٣٦) قد استجابوا للحقائق الاجتماعية والفنية والسياسية لأيامهم ، وليسوا اقل شأناً من نابليون لانهم لم يقاتلوا بالطريقة التي ابتكرتها الثورة الفرنسية . فكما ان الماضي لا يمكن ان يفهم الا وفق لغته ومصطلحاته ورجاله ، فكذلك يجب تفسيره من خلال شخوصه وليس تجريدياً لقد فرض جوميني[٥] معياراً عقلانياً واحداً للسلوك على رجال من مستويات

---

(٤) كلاوزفيتز "Bemerkungen uber die reine und ungewandte strategic desherrn von . Bulow" Neue Bellona , 9 (1805) , No, 3 , p. 276.

(٥) جوميني (١٧٧٩ – ١٨٦٩) ، انطونيو هنري من اقليم (فو) في الجزء الفرنسي من سويسرا ومن عائلة ايطالية ، عمل في احد مصارف باريس ثم حصل على مركز غير رسمي في هيئة الاركان الفرنسية ، اعانه المارشال ناي كثيراً في خدمته ونشر كتبه كما اختاره رئيساً لاركانه في معركة أوسترلتز ، ثم عين قائد لواء عام ١٨٠٦ الا انه لم يتولى قيادة مستقلة ثم تحول الى خدمة قيصر روسيا وتنقل بعدها كثيراً . صدرت كتاباته التاريخية في ٢٧ مجلداً أربع منها عن نابليون واشهر كتبه دراسة في فن الحرب ومن أفضل شراح نابليون (رواد الاستراتيجية الحديثة باشراف اي . أيرل ترجمة عبد الفتاح ابراهيم الجزء الأول ص ٢٨٠ القاهرة . ١٩٥٧ – المترجم) .

وشخصيات مختلفة كفردريك الكبير ونابليون ، كما تجاهل الى جانب ذلك اختلاف تجاربهم وخبراتهم ، التي ووفقاً لها يتصرف كل منهم ، وعلى طريقته الخاصة(٦).

ان لم يوفر لنا الحاضر، المثال النموذج الذي يمكن قياس حروب الماضي على معاييره ، فان كلاوزفيتز يصر بالمقابل على ان حروب نابليون لا تشكل معاييراً مناسبة للمستقبل(٧). لكن ماذا يعني ذلك للنظرية ؟ لقد كان الجواب واضحاً بالنسبة لكلاوزفيتز . فنظرية اية فعالية ، وحتى ان توخت اداءً مؤثراً ، وليس تفهماً شاملاً ، عليها اكتشاف العناصر الدائمة والاساسية لتلك الفعالية ، وتمييزها عن الاعراض الوقتية. العنف والتأثير السياسي كلاهما من السمات الدائمية للحرب وهناك سمة أخرى هي التحرك الحر للذكاء البشري ، والارادة والعواطف . تلك هي القوى التي تتحكم بفوضى وارباك الحرب ، لا تلك الرسوم التخطيطية التي اخترعها (بيلو) كقاعدة العمليات ، ولا توصية جوميني بالحركة على الخطوط الداخلة .

ما من جديد في التأكيد على أهمية العوامل النفسية في الحرب . لكن حتى أولئك الكتاب الذين يولون الكثير من السطوة للعواطف ، لا يمتلكون سوى القليل مما بوسعهم قوله عنها من اشياء ذات قيمة ، كمناقشة الشجاعة والخوف ، والاطار المعنوي، على هامش مؤلفات موريس دي ساكس(٨). وهنري

---

(٦) بالاضافة إلى اطروحته « في المبادئ المجردة للأستراتيجية » في طبعة اضافية . لكتابه في الاستراتيجية عام ١٩٥٤ طبع في كتاب – (Strategie aus dem Jahr - 1804 - PP - 71 - 73) .

(٧) راجع على سبيل المثال اطروحة (في بيان عن نظرية عسكرية) كتبها في العشرين من عمره ، بدأها باعلان قال انه وعلى خلاف اعتقاد بعض الكتاب فلم يكمل فن الحرب بعد « فاي فرع من فروع العلم – ما لم يشبه المنطق الذي يعد كاملاً بذاته – يجب ان يكون قادراً على الدوام على النمو والاتساع . وعلى أية حال فليس من السهل ان نضع حدوداً على الذكاء البشري Geistund Tat, p.52 .

(٨) موريس دي ساكس (١٦٩٦ – ١٧٥٠) الماني المولد ، وابن غير شرعي للملك بولندا ، مارشال وقائد الجيوش الفرنسية خلال حرب الوراثة النمساوية ، انتصر في معركتي فونتينوي ولوفيلد وخدم تحت قيادة الامير ايوجين اوف سافوي وهو في الثالث عشر في الفلاندزر ، اصبح مركيز ساكسوني وتدرج حتى اصبح قائداً عاماً للجيوش الفرنسية ايام لويس الخامس عشر ولعله من بين العسكريين القلائل الذين جمعوا بين العمل والفكر فقادوا وكتبوا ، متعدد الانتصارات في ساحات الحرب والغرام وواصل حملاته رغم اصابته بداء الاستسقاء ومات في الرابعة والخمسين من عمره ، عن (جذور السوق ترجمة عم . كنعان خورشيد) و Military Biography , by M. Windrow و F.Mason . Parnell Book London 1975Book club Edition) . المترجم

لويـــد[9] . وعلى العكس من ذلك فقد وضع الشاب كلاوزفيتز الجوانب النفسية في قلب تأملاته النظرية . لكن وطالما لم تتخذ الجوانب النفسية شكلاً منتظماً ، بل ما زالت محاولات اولية بدائية لم تزوده الا بالقليل من ادوات التفسير ، ومعايير التصنيف اللتان يحتاجهما، ففعل ذلك بطريقة قد يراها المعاصرون غامضة ، فقد صنف جزءً كبيراً من بحوثه وشروحه للخصائص والسمات العاطفية والمعنوية ضمن مفهوم العبقرية . من المهم أن نفهم أن كلاوزفيتز لا يعني بالعبقرية الاصالة والابداع في اعلى مستوياتها فقط ،و بل وكما كتب هو نفسه في « عن الحرب » مواهب العقل والطبع عموماً . كانت العبقرية اداته التحليلية المفضلة في تنظير «Conceptulize» مختلف القدرات والمشاعر التي تؤثر في سلوك الرجال العاديين جداً كما في الرجال الاستثنائيين (المتميزين) .

لم يواجه كلاوزفيتز اية مصاعب حتى في كتاباته المبكرة في كشف عدم كفاية القواعد التقليدية في مواجهة وسائل وبراعة العقل والروح . وكتب في اطروحته عن «بيلو» ان لا يكون هناك صراع بين الاحساس العام ، والنظرية المحكمة طالما تعتمد هذه على الاحساس العام وعلى العبقرية ، او تعطيهما مثل هذا الانطباع[10] . كان قد تمسك بهذه الفكرة بقوة ، والتي ستتكرر كثيراً في كتابه «عن الحرب»، ليس في الفصل الخاص بالعبقرية العسكرية بل في اقسام عديدة اخرى منها على سبيل المثال الفصل الخاص «في نظرية الحرب» والتي ترتبط بشكل متميز بالهجوم الساخر على بناة القواعد والأنظمة امثال (بيلو) ، وجوميني واستسلامهم امام الزخم غير المتوقع للروح «كل ما لا يمكن تحقيقه بالحكمة الهزيلة لوجهات نظر متحيزة احادية الجانب بعيداً عن الأطر العلمية : فهي ضمن نطاق العبقرية ، **والتي ترتفع فوق القواعد والقوانين** . من المؤسف ان الجندي الذي يفترض زحفه وسط

---

(٩) هنري همفري ايفانز لويد (١٧٢٠ - ١٧٨٣) جنرال روسي وكاتب عسكري (المترجم) .

(١٠) كلاوزفيتز « الملاحظات » Neue Bellona ، ٩ (١٨٠٥) العدد -٣ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

تلك القواعد البالية التي لا تلائم العبقرية، والتي بوسع هذه تجاهلها والسخرية منها . كلا. فما تفعله العبقرية هو القاعدة الافضل وبوسع النظرية ان تفعل اكثر من مجرد الكشف عن، متى، وكيف، ينبغي ان تكون الحال كذلك . ويا لبؤس النظرية التي تتصادم مع المنطق[11] فالنظرية ونتائجها العقائدية تظلان خاضعتان للموهبة الخلاقة العظيمة ، ولعالم المنطق والمشاعر التي تعبر عنها .

ما زال كلاوزفيتز نفسه بعيداً عن صياغة نظرية تفسر ، متى وكيف ينبغي أن يكون عمل العبقرية القاعدة الأفضل . كان عليه تطوير ادوات تحليل اضافية قبل التقدم كثيراً ، ولابد من اضافة ، انه لم يتغلب كليا على الصعوبات المتأصلة في الدور الثنائي الذي خص به مفهوم العبقرية . مع ذلك فمعضلات النظرية لا تتطابق مع معضلات التفهم التاريخي ، فقد امتزج تركيزها على مشاعر الافراد والجماعات بسهولة، مع الاعتقاد بخصوصية الاحداث الماضية . وفي البحث الذي كتبه كلاوزفيتز عن الملك السويدي غوستاف ادولف الثاني (١٥٩٤– ١٦٣٢) في حرب الثلاثين عاماً بين البروتستانت والامبراطورية الرومانية المقدسة (الكاثوليكية) ، هذا البحث الذي وضعه عام ١٨٠٥ تقريباً وأرسى فيه اولى محاولاته البارعة في دمج هذين المبدأين في التفسير وعلى نطاق واسع[12] ، فيما يعد محاولة ناجحة للغاية، والاولى فقط في سلسلة من الدراسات التاريخية تولى اصدارها خلال حياته . ولو عولنا على كمية وحجم الانتاج كمقياس اساسي فسيعتبر كلاوزفيتز مؤرخاً اكثر منه منظراً (ايديولوجياً) ، فهناك ميل الى تجاهل ابداعه في فرع المعرفة هذا ، ربما لان كتاباته التاريخية لم تطبع لعشرات السنين ، ولأن المؤرخين الالمان سرعان ما طوروا

---

(١١) « في نظرية الحرب » الكتاب الثاني . الفصل الثاني من (عن الحرب) .

(١٢) دراسة « غوستان ادولف ١٦٣٠ – ١٦٣٢» حجمها بحدود مائة صفحة طبعت عام ١٨٣٧ في المجلد التاسع من اعمال كلاوزفيتز . ويعد غوستاف ادولف الثاني من المع العقليات العسكرية في التاريخ وقد تميز بكثرة ما ابتكر من الاجهزة والمعدات في جيشه وفي دوره بالمزج ما بين الاسلحة والصنوف المختلفة (المشاة والخيالة والمدفعية) كان لقائد مدفعيته الفيلد مارشال تورستينسون الذي يعتبر الاب الروحي لمدفعية الميدان واشهر رجال المدفعية في عصره ، أثر في انتصاراته واستولى غوستاف علي موانئ البلطيق وأبعد خطر الامبراطورية الرومانية عن السويد ، وقوى الوجود البروتستانتي في المانيا . يعد اعظم ملوك السويد على الاطلاق ، وأحد اشهر القادة في التاريخ كما لقبه شعبه باسد الشمال ويتمتع بحنكة ودراية رائعتين . مات فور انتصاره على القوات البولندية في لايزك راجع (سابق) (2) .P . Miltitary Biography المترجم .

ووسعوا النهج الذي كان كلاوزفتيز من بين رواده الاوائل ، بينما يظل فريداً لا مثيل ولا خليفة له كمنظر . وكرجل متميز في عصره فقد اتخذ مسلكاً مستقيماً وصريحاً وغير عادي إزاء الماضي . ولم يخف ولعه الساخر بعواطفه ونواقصه الشخصية ، وعلى الاخص عند الكتابة عن احداث معاصرة وبالمقابل فنادراً ما كان يظهر تحاملاً عقائدياً او انحيازاً وطنياً . وبذل كلما بوسعه لاكتشاف كيف ومتى وقعت هذه او تلك من الاحداث أو الأشياء وبالطريقة التي جرت فيها . تعززت محاولاته بالتمسك بالموضوعية بقوة إعتقاده المستند على اهتمامه الشخصي وتعاليم (شارنهورست) ، في أن النظرية العسكرية تعتمد وبطرق عديدة ومختلفة على التاريخ . اما استنتاجاته المدروسة بدقة فقد نوقشت على ضوء علاقاتها الدقيقة عند بحثنا حول كتاب (عن الحرب) .

اكد انهيار بروسيا عام ١٨٠٦ رأي كلاوزفيتز عن عدم امكانية دراسة الحرب في الفراغ ، أو معزولة . وكعمل عسكري من حيث الاساس فقد كان واضحاً له أن سياسات العقد السابق قد حسمت الأمر الى حد كبير قبل بدء القتال ، بينما أوجدت الظروف الاجتماعية التي عاشت طويلاً مع الملكية البروسية ، أوجدت مؤسسات عسكرية وتوجهات اثبتت عجزها بوجه خصم متفوق عددياً واكثر استيعاباً لاشكال القتال الجديدة . لم تكن الحملة بالنسبة لكلاوزفيتز شخصياً سوى حرب أخرى لجندي المشاة ؛ وخدم هو مع فوج رماة الى ان اضطرت وحدته الى الاستسلام . وبعد فترة أسر قصيرة في فرنسا ، واقامة مؤقتة في سويسرا عاد ال بروسيا ربيع عام ١٨٠٨ ، وعمل للسنوات الاربع التالية كامين للسر لاستاذه السابق شارنهورست ، الذي استخدمه في مناصب متنوعة كلها ذات علاقة بعملية تحديث الجيش تنظيمياً ، وفي اعادة تجهيز القطعات ، واصدار كراسات تعليم جديدة في التعبية والعمليات ، ونشر وتصميم العقيدة الجديدة باعتباره معلماً في كلية الحرب ، وكمرشد عسكري لولي العهد . واخيراً فقد لعب كلاوزفيتز دوراً اكبر مما يتوقع لضابط صغير في حمى وزحمة التفكير والعمل السياسي والاستراتيجي لدعاة الاصلاح . فالخبرة العملية التي تجمعت لديه واسعة بشكل غير عادي ، وعززت كثيراً الاتجاه الذرائعي (Pragmatic) الذي شاع خلال كتاباته النظرية وكذلك التاريخية . لقد تزوج كلاوزفيتز خلال تلك السنين ، وكانت زوجته على مستوى عالٍ من الثقافة الفكرية وكرم المحتد فشاركته اهتماماته الادبية والفلسفية ، كما دعمت وبقوة استقلاله المتنامي سياسياً ومهنياً ، كان زواجاً ناجحاً بدرجة استثنائية لولا حرمانه من الاطفال . لقد اقام

كلاوزفيتز صداقة دائمة مع الزعيم الثاني لحركة الاصلاح العسكري ، الجنرال جنيسناو [١٣] ، هذه العلاقة التي كانت ستحدد وترسم معظم خطوط وجوانب خدمته . وبعد اجبار بروسيا على ارسال احد فيالقها الى الجيش الذي كان نابليون يحشده لغزو روسيا أستقال من الخدمة ، وقبل في ربيع ١٨١٢ منصب ضابط ركن في الجيش الروسي .

كان ثراء وغزارة كتاباته خلال تلك السنوات الجمة النشاط مثار الدهشة ، ولو أردنا فقط إجمال الفرضيات والاطروحات الرئيسية التي قدمها كلاوزفيتز في مجالات تبدو مختلف كالاستراتيجية العليا والخصائص الوطنية فسيحتاج ذلك مساحة اكبر مما يتسع له المجال هنا ، بل وحتى التمهيد الموجز لا يجوز له تجاهل الاستنتاجات التي توصل اليها عن طبيعة واداء النظرية العسكرية طالما كانت تلك الاستنتاجات ستقرر المسلك الذي اتبعه في « عن الحرب » ولابد من قول شيء ما حول طريقة التحليل التي طورها ، واخيراً فيمكن إيجاز انجازاته العديدة والمتقدمة في

---

(١٣) الفيلدمارشال ويلهلم فون جنيسناو (١٧٦٠-١٨٣١) ضابط ركن لامع وقائد فذ يذكر له الجميع دفاعه في كولبرج عام ١٨٠٧ ودوره كرئيس لاركان بلوخر عام ١٨١٥ في معركة واترلو ، وهو من القلائل الذين جمعوا بين القيادة الميدانية والقدرة التنظيمية والبصيرة المتوقدة . لعب دوراً بارزاً مع شارنهورست في إحياء العسكرية البروسية . ولد في ١/٢٧ لاب نبيل وضابط مدفعي في جيش ساكسوني . تخرج من جامعة ايرفورت والتحق بالجيش النمساوي ثم ذهب عام ١٧٨٢ الى اميركا ليقاتل الى جانب الانكليز ضد الامريكيين الا أنه وصل متأخراً فعاد بعد عام وانضم إلى الجيش البروسي كنقيب ركن وخدم للعشرين سنة التالية في مختلف الوحدات الساليزية وقاتل عام ١٨٠٦ معركتي (سالفيلد) و(ينا) ورفع الى منصب أمر فوج كما نال وسام الاستحقاق عما فعله في (كولبرج) ثم ترك الخدمة وزار روسيا وبريطانيا لتنظيم المقاومة ضد نابليون . كان يتعاطف مع الروس ولا يحب الانكليز . انظم عام ١٨١٣ الى هيئة أركان شارنهورست كضابط ركن أول فتولى التخطيط الاستراتيجي للحملة الروسية البروسية في ربيع ١٨١٣ . بعدها أصبح رئيساً لاركان الجيش البروسي . كان مثالياً في افكاره فنال دعم الكثيرين من زملاءه ومعاصريه كما كسب الكثير من الأعداء . عمل بقوة مع بلوخر كرئيس لهيئة اركان حربه عندما تولى هذا قيادة جيش أسفل الراين عام ١٨١٥ ، كما تولى جنيسناو وخلال حملة واترلو مداولة كل تفاصيل تنقلات الجيش بمهارة لا تجارى ، الا انه أوشك متعمداً على تدمير خطط التحالف ضد نابليون لعدم ثقته بالانكليز ، الا ان بلوخر أصر على بذل كل ما بوسعه من جهد للوصول الى واترلوا واسناد الانكليزي ويلنكون . ترك جنيسنا والخدمة بعد سقوط نابليون الا أنه استدعي عام ١٨٢٥ ومنح رتبة فيلدمارشال كما تولى عام ١٨٣١ قيادة القوات البروسية في الشرق اثناء الثورة البولندية ومات في ٢٣/اب / ١٨٣١ بداء الكوليرا (المترجم) نفس المصدر في (١٢) اعلاه ص ١١٠.

محتوى النظرية ، باستعراض احداها والذي يمثل « التنظير المفاهيمي » لتلك المرحلة – وهو مفهوم الاحتكاك (Friction) الذي أتم به افكاره الاولية وجعلها اكثر ابداعاً وجدوى في البحث العلمي .

مع عام ١٨٠٨ كان كلاوزفيتز قد ميز بدقة ووضوح بين الانجاز المنفعي ، والقدرة التعليمية ، والقوة الفكرية للنظرية . ويعد الاول منها – الذي زاد من فاعلية الجندي – أهمها ، وغالباً ما يعد الغاية التي يسعى اليها المنظرون العسكريون المعاصرون . لقد شاطرهم كلاوزفيتز رغبتهم هذه في تحديد وتقدير الموضوعات العملية للحرب الحديثة ، ولم يكن في ذلك أفضل مما كان عليه في السنوات التي انشغل فيها وبكل حماس في عملية إعادة بناء الجيش البروسي للمنازلة الثانية المحتومة مع نابليون . الا انه واستناداً الى قوة المنطق والى الواقع كذلك بدأت شكوكه تتزايد حول الارتباط المباشر بين النظرية وبين الاداء الذي يعتبره المنظر العسكري أمراً مفروغاً منه أو تحصيل حاصل . لقد زودته دراسته لفلسفة (كانت) قبل ١٨٠٦ ، ببعض الادوات الفكرية التي يحتاجها لازالة شكوكه على الأقل – كانت اكبر استعاراته هو الموقف من النظرية التي تبناها مفكروا عصر النهضة المتأخرون وماكتبوه عن الظاهرة الجمالية ، ومفهومهم عن « الوسيلة » و « الغاية » ، والذي سيلعب دوراً كبيراً وسيتكرر في «عن الحرب» . كما ان اطروحته عن « الفن ونظرية الفن» تصور استخدامه للجمالية في استكشاف فن العنف في تدمير اعداءنا . لقد كتب ، إن «**الفن** طاقة متطورة ، فان أريد لها التعبير عن نفسها فلابد لها من **هدف** ، كما في تطبيق أي نوع اخر من انواع القوة ، والتوجه نحو الهدف يستلزم توفر الوسائل ... وان دمج الهدف والوسائل هو الابداع (الخلق) . الفن هو القدرة على الابداع ». ونظرية الفن **ترشدنا** الى ذلك المزيج (بين الغاية والوسيلة) والى الحد الذي بوسع المفهوم أن يذهب إليه. وهكذا بوسعنا القول : **تمثل النظرية الفن بواسطة أو عن طريق المفاهيم** . وبسهولة يمكن أن نرى أن هذا التأسيس (Constitutes) الكلي للفن ، مع استثنائين هما : **الموهبة** ، وهي اساسية لكل شيء ،**والممارسة** وليس أياً منهما مما يمكن للنظرية إنتاجه[١٤]. الخلاصة، فحتى اكثر النظريات واقعية تعجز عن مجاراة الواقع ، يلي ذلك أن جميع المحاولات لايجاد قواعد حاكمة ستكون بلا جدوى في انشطة معينة

(١٤) اطروحة (Geist Und Tat, P , 159) ومع انها ليست مؤرخة لكن يحتمل انها كتبت خلال مرحلة الاصلاح .

كالقتال ، ولا يمكن ان تكون النظرية العسكرية ذات نفع فوري . وكما كتب كلاوزفيتز في نفس الاطروحة .. « لا تتوخى القواعد الحالات المنفردة ، اذ يمكن القرار على العمل في الحالة المنفردة ، فقط (بتطبيق مفاهيم) الغاية والوسيلة[١٥] . وكلما بوسع النظرية فعله هو اعطاء الفنان أو الجندي نقاط ارتكاز أو معياراً للتقويم في مجالات محددة للعمل، والغاية النهائية للنظرية ليس هي رسم سبل العمل له ، بل لتطوير وتحسين قوة الحكم عنده

إن عملية تهذيب وتطوير ملكة التمييز ، و«البراعة الغريزية» ، هاتين للشخص العامل ، هي التي تؤسس الوظيفة التدريسية للنظرية ، لا القواعد التي تستخلص كي تحفظ عن ظهر قلب .(هناك جانب تدريسي آخر مهم لكلاوزفيتز شخصياً وذو علاقة بعملية الخلق، اذ وبتطوير اطار تحليلي للحرب نمى كلاوزفيتز قدراته الفكرية، واكمل منهج التعليم الذاتي الذي تمسك به منذ سني مراهقته) الا أن البحث الفكري الجاد فقط قادر على تحرير العقل ، وبعتقد كلاوزفيتز أن معظم الرجال ليسوا قادرين على إمتلاك تفوق فكري في المجالات المعقدة للنشاط البشري ، ولا مهتمين كثيراً حتى، ولمساعدتهم وسط فوضى الحرب فهم في حاجة الى دليل حازم . فكيف سيتوفر ذلك؟ واستناداً الى كلاوزفيتز فالتجارب والخبرات قد ذهبت بعيداً ، الا انه وفي النهاية يمكن أن ينمو الموجهات الدقيقة للادارة عبر التحليل العلمي والشامل فقط.

هذا هو الجانب الفكري (التأملي) للنظرية ، اما التحليل اللامنفعي فيهتم فقط بالوصول الى تفهم اعمق ، وقد يحقق الكثير من التطوير في الانجازين العملياتي والاستراتيجي . ويرى كلاوزفيتز ألا حاجة للبحث العلمي الى مبررات او تفسيرات. ومع انه لم يفقد اهتمامه حالياً فان تفهماً كهذا هو ما كان يهمه كثيراً في آخر الامر، ولهذه المهمة بالذات كرس كتابه «عن الحرب» .

عندما بدأ كلاوزفيتز لاول مرة التفكير بكتابة دراسة تستكشف وتبحث في الحرب ككل ، وليس بعضا من اجزائها ، اختار كنماذج فكرية كتباً مثل «روح القوانين » لمونتسكيو ، و« نقد العقل التجريبي » للفيلسوف عمانوئيل كانت وان كان « عن الحرب » سيحمل في طبعته الاخيرة قليلاً من الشبه لتلك الكتب ، فانها تشير نوعا ما الى الطرق المستخدمة من قبل كُتابها . وقد دعوت تلك الطريقة ابتداءً بانها

---

(١٥) نفس المرجع ص – ١٦٢ .

«جدلية dilectical». وهي كذلك فعلاً ، ولكن بمعنى خاص . وبدون شك فهو لم يتابع تلك الطريقة بشكلها وبنائها المعروفين بكل دقة . كما ان اسلوب هيغل والاطروحات المضادة والذي غالباً ما يلاحظ في كتاب (عن الحرب) رغم انه لا يبدو مقترباً مناسباً لكلاوزفيتز ، كالاساليب الاخرى ، اذ لم يتضمن ذلك سوى تناسق منطقي وفكري ولكن على حساب الحقيقة . الا انه غالباً ما طوّر افكاره هو فيما قد يدعى بشكل متطور لنهج هيغل في الاطروحات والاطروحات المضادة ، والذي سمح له بالاستفادة من السمات المحددة لظاهرات بعينها وبدرجة عالية من الدقة والاداء . فالغاية والوسيلة ، والاستراتيجية والتعبية ، والنظرية والواقع ، والنوايا والتنفيذ ، والصديق والعدو – وتلك هي بعض الأضداد التي حددها وقارن بينها ليس فقط للحصول على تفهم اوثق لكل واحد من هذه الازواج المتضادة ، ولكن كذلك لمتابعة الارتباط الحي (الديناميكي) الذي يشد جميع عناصر الحرب في حالة من التفاعل الدائم . ان إحدى السمات البارزة والمثيرة لطريقة التفكير هذه ، هي انها تحدد كل عنصر بادق ما يمكن ، بينما يصر على الغاء التحديدات المنفصلة . وبوسعنا ذكر اضدادٍ أخرى كالحرب والسياسة ، والهجوم والدفاع ، والذكاء والشجاعة ، فهي ليست اضداداً مطلقة بل انها قد تتداخل في بعضها البعض .

مرة اخرى تتولى الفلسفة الالمانية سوية مع الفرضيات التحليلية والمركبة للعلوم الطبيعية ، تزويد كلاوزفيتز بتوجه اساسي والات (ادوات) فكرية للتعبير عنها كذلك الاعتقاد بالحاجة الى التدقيق المبني على التجربة العلمية لجوهر كل ظاهرة ، او فكرتها المنظمة – فالعنف لدى كلاوزفيتز كان الفكرة الجوهرية لظاهرة « الحرب» – ممتزجة مع موقف شامل ، واحساس بان التفاصيل الصغيرة تمتلك المفاتيح الى عوامل اكبر ، فمعرفة زهرة واحدة شيء اساسي لتفهم طبيعتها ، أو أن معرفة كيف ولماذا يقاتل الرجل اساس لتفهم الحرب .

تحاشى كلاوزفيتز انسجاماً مع هذه النظرية الحضارية الواسعة ، ومع اهتماماته الشخصية ، تحاشى الاغراق في العموميات ، رافضاً في الوقت نفسه فوضى الذرائعية الصرف . كانت غايته هي انجاز بناء منطقي من الواقع . لقد اعتقد بامكانية إتمام ذلك ان كان البحث عن الافكار المنظمة وتفرعاتها ، محدداً ومسيطراً عليه باحترام الباحث للواقع في الماضي والحاضر . وبناء على ذلك فان طريقته تكمن في تبادل دائم ما بين الملاحظة ، والتفسير التاريخي ، والتأمل المنطقي . ومع مضي عملية

التحليل فانها تحاول ان تدخل في حسابها كل عنصر من عناصر الحرب في ابعاده الحالية وفي الماضي ، ملائماً كل عنصر مع الاخريات ، مندمجاً معها دون التركيز على اي واحد منها على حساب رفض أو استبعاد الاخريات . وسنرى ان لتلك السمة حقيقة النظرية التي تتولد، وتطفو كما يقول كلاوزفيتز ما بين الظواهر الرئيسية للحرب ، دون التأكيد على احداهن بالذات . وبذا يمكن تجنب الكثير من الاشكالات الى حد كبير مثل المبالغة ، والانخداع اللاعلمي بالظروف المعاصرة ، ناهيك عن التحزب المغرض .

كمثال عن طريقه كلاوزفيتز في تحويل الواقع الى شكل قابل للتحليل ، هو تطويره لمفهوم **الاحتكاك** . لقد استخدم المصطلح لاول مرة خلال حملة ١٨٠٦ ليصف المصاعب التي واجهها شارنهورست في محاولة اقناع القيادة العليا للوصول إلى قرار ، والمصاعب الاخرى والاشد في تنفيذ القرار بعد اتخاذه، فالمجهول ، والاهمال ، والفوضى ، والانهاك والرعب وما لايحصى مما لا يمكن تحديده بدقة – وكلها تتداخل وتؤثر سلباً على التطبيق الفعال للقوة . وسّع كلاوزفيتز المفهوم خلال مرحلة اعادة البناء ، وربطه مع افكار اخرى حتى حوالي عام ١٨١٢ حين استطاع الامساك بمضمونه المفاهيمي (النظري) الكامل . وفي اطروحة رفعها الى ولي العهد في نهاية عمله كمرشد له ، تضمنت قسماً خاصاً عن الاضطرام ، اصبح في مضمونه وكلماته اساساً لفصل « الاحتكاك في الحرب » في كتاب « عن الحرب» ، ولاية اشارة أو مناقشة للأحتكاك وردت في الكتاب [١٦] . لقد كتب كلاوزفيتز قائلاً «ان شن الحرب شيء صعب ، الا إن الصعوبة ليست أمراً لازباً ، وهناك حاجة الى مواهب عظيمة ... ليس هناك فن عظيم تستنبط منه خطط عمليات جديدة . تكمن الصعوبة كلها في أن **نظل مخلصين في عملنا للمبادئ التي وضعناها لأنفسنا** .

كي يوضح كلاوزفيتز لماذا ينبغي ان يكون الأمر كذلك ، لجأ الى تشبيه : .. «تماثل ادارة الحرب عمل الة معقدة مع قدر هائل من الاضطرام ، لذا فان هذا المزيج المركب الذي تم تخطيطه بسهولة على الورق ، يمكن تنفيذه فقط ببذل قدر عظيم من

---

(١٦) اطروحة (Die Wichtigsten Grundsatze des Kriegfuhrens) التي ترجمت الى الانكليزية من قبل اج . كاتزك تحت عنوان مظلل هو « مبادئ الحرب » – (مطبعة هارسبرج . بنسلفانيا ١٩٤٢) . بوسع الراغب مقارنة ترجمتي للمقتبسات التالية مع ترجمة كاتزك أنفة الذكر الصفحات ٦٠–٦١ ، ٦٧ .

الجهد . وعليه فستجد ارادة القائد الحرة، وفكره، نفسيهما مقيدتان عند كل استدارة او منعطف طريق ويتطلب ذلك قدراً كبيراً من القوتين العقلية والروحية للتغلب على تلك العوائق . حتى لو ضاعت او دمرت الكثير من الافكار الجيدة بفعل الاضطرام وتوجب علينا مواصلة الاداء بسهولة وتواضع وهدوء ، فان ما يبدو كثير التعقيد قد يعطي نتائجاً جيدة» .

يواصل كلاوزفيتز كتابته ... فالاضطرام وحتى إن وجد بفعل قوى وعوامل مادية – كالطقس السيء على سبيل المثال ، او الجوع – له تأثيرات نفسية معوقة دائماً ، ولابد ان تلعب الطاقة المعنوية دوراً في التغلب عليها : « في العمل ، فان الصورة المادية وقوة التصور لدينا اكثر حيوية من الانطباع الذي تكون بين ايدينا بفعل الانعكاسات التي فحصت بتمحص ، الا انها تظل مجرد ظواهر خارجية للأشياء ، التي وكما نعرف ، نادراً ما تتطابق وجوهرها بدقة، لذا سنواجه مخاطر التضحية بتلك الانعكاسات المدروسة للأنطباعات الاولى » . وعلى الرجال في مواجهة تلك الضغوط التمسك بقناعاتهم والاحتفاظ بثقتهم بمعرفتهم وملكة الحكم (البصيرة) لديهم ، والا فليس امامهم الا الخضوع والانسياق لقوة الاضطرام، يستنتج كلاوزفيتز من ذلك في كتاب « عن الحرب» ان الاضطرام هو المفهوم الوحيدة تقريباً الذي يتضمن الامور التي تميز الحرب الحقيقية عن الحرب على الورق[١٧] .

وضع كلاوزفيتز بابتكاره مفهوم الاحتكاك ، لبنة أحد أهم عناصر لوحته عن الحرب – الصدفة – موضوعاً لتحليل نظري . وبقدر تدخل الاحتكاك باعمال المرء ، فانه يصمد فقط للجوانب السلبية للصدفة . اما الجوانب الايجابية للصدفة فقد مثلت بقوة انتشار معادلة للأحتكاك على الجانب المعادي . ولتقويم أهمية هذا التطور علينا تذكر الكتاب العسكريين لعصر النهضة ، ففي الوقت الذي اقروا فيه غالباً بقوة الصدفة والحظ السعيد ، فعلوا ما بوسعهم لتقليل نطاق وتأثير الصدفة . وجاء خلفائهم الروحيون (بيلو) وجوميني من اجل نفس الهدف بادوات أو منظومات وسعّت كثيراً القواعد المفصلة والعديدة جداً للقرن الثامن عشر للمسير والتعسكر ، والاستحضارات التعبوية وللاستراتيجية . يمكن ضمان النجاح باختيار الاساليب «الصحيحة». وادعى كتاب آخرون بان الحرب الحديثة تميل الى الفوضوية ، وعرضة

---

(١٧) (الاضطرام في الحرب) الكتاب الاول ، الفصل السابع « عن الحرب » .

فقط للمعالجة التجريبية . وعلى عكس ذلك فقد توصل شارنهورست الى أن السلوك الطبيعي للمجتمعات والافراد في الحرب امر يمكن فهمه وبالتالي يمكن توجيهه بدرجة ما ، وصاغ كلاوزفيتز هذا الاعتقاد في اطار مفاهيمي . وبرأيهم فان رفض او إنكار الصدفة يعني الوقوف بوجه الطبيعة . في الحقيقة يجب ان نرحب بالصدفة لانها جزءٌ من الواقع ، انها ليست تهديداً فقط ، فهي ايضاً قوة ايجابية يمكن الافادة منها . لقد عبر نابليون عن هذه الفكرة بطريقة رائعة في احدى حكمه العملياتية : (اشتبك بالعدو وانظر ما سيحدث) . يضع القائد نفسه بين يدي الصدفة ، فالقوة بين يديه وستمكنه ارادته على استخدامها من تحويل الصدفة الى حقيقة جديدة .

العبقرية هي القوة القادرة وباقصى فاعلية على خلق هذه الحقيقة واستثمارها ، وهكذا يتحول الاحتكاك ليشكل الجانب المضاد في الحياة الخارجية ، لنتائج التحليلات المبكرة لكلاوزفيتز للحياة الداخلية للأفراد . لقد قادته ملاحظاته وافكاره الى رفع العبقرية – هذا المركب المتناغم للمواهب الاستثنائية ، والى تعزيز ومضاعفة مكانة الميزات الفكرية والعاطفية عموماً – الى مكانة مركزية في بناءه المفاهيمي للحرب . هذا التفاعل المشترك والمتبادل والمتعدد الاوجه لمفاهيم العبقرية والاحتكاك والصدفة، سهل على المنظرين الان اخضاع العديد من مجالات الواقع العسكري الى تحليل منطقي منتظم .

خدم كلاوزفيتز خلال حرب عام ١٨١٢ كضابط ركن مع عدة قادة روس ، وحدد جهله اللغة الروسية دوره الى مجرد مراقب حتى نهاية ديسمبر (كانون أول) عندما شارك في اللقاء بين السلطات الروسية وقائد الفيلق البروسي في الجيش العظيم Grand Armee والذي ادى الى فصل القوات البروسية استراتيجياً وسياسياً عن سيطرة القوات الفرنسية ، هذا الفصل الذي كانت له اهمية كبيرة . وعند تحول القتال غرباً استنبط كلاوزفيتز خطة لتنظيم مليشيا بروسيا الشرقية ، في خطوة مهمة اخرى لابعاد بروسيا عن سيطرة فرنسا. وفي حملة عام ١٨١٣ ، ومع ان كلاوزفيتز ما زال يرتدي البزة العسكرية الروسية فقد عمل مستشاراً لشارنهورست ثم لجنيسناو حتى وفاة الاول، فاصبح بعدها رئيساً لاركان جيش أممي صغير تولى جناح البلطيق

للحلفاء ومع استمرار الملكيين المتزمتين بل والملك نفسه على استيائهم من رفض كلاوزفيتز اتباع الخط الرسمي للدولة والقتال في سبيل فرنسا ، فقد نال عملياً قبوله كضابط في القوات البروسية . وعمل خلال حملة واترلو كرئيس أركان لاحد الفيالق الاربعة التي تألف منها جيش الميدان البروسي وقاتل في (ليني Ligny)[١٨] و(ويفر Wavre) حيث نجح الفيلق بتثبيت قوات المارشال كروشيه ، المتفوقة ، حتى ساء موقف الجيش الفرنسي . ولن تجديه اية مساعدة نفعاً بعد . ثم اصبح عام ١٨١٦ رئيس اركان القوة الجديدة التي يقودها جينسناو ومقرها في (كوبلنز) على نهر الراين ، ونقل بعد عامين الى برلين كمعلم اقدم في كلية الحرب . لم تكن وظيفته الجديدة مرهقة ولا مجزية ، لذا حاول عدة مرات ترك الجيش الى وظيفة في السلك الدبلوماسي ، ولكن اتجاهاته الاصلاحية جعلته غير مقبولٍ من قبل البلاط لذا ظل في منصبه الاداري لاثني عشر عاماً ، ولم يحزنه ذلك في النهاية قياساً بالفرصة التي وفرها له منصبه والمزيد من الوقت للدراسة والتأليف .

وفي تلك السنوات الاولى من السلام التي تلت فترات العنف لأخر حملة ضد نابليون، تسنى لكلاوزفيتز التفرغ جدياً لاعماله الفكرية. لقد عثر بين اوراقه على ملاحظة اقتبستها زوجته في مقدمتها لكتاب (عن الحرب)، وتشير الى ابتدائه منذ ايام وجوده في منطقة الراين، كتابة بحث موجز عن الاستراتيجية عنوانها الى خبير[١٩]

---

(١٨) معركة ليني في ١٨١٥/٦/١٦ سبقت معركة واترلو بيومين ولو نجحت خطة نابليون فيها لحطم قوات التحالف نهائياً الا ان مماطلة المارشال ناي في احتلال (كواتر – براص) اتاحت الفرصة للدوق ويللنكتون بتنظيم دفاعاته وصد الهجوم الفرنسي . اما المارشال كروشيه فهو أحد قواد نابليون الذي يعاب على نابليون اعتماده عليه وعلى ناي وترك قادة آخرين اكثر براعة وستظل معركة ليني وواترلوا من اشهر معارك نابليون والغرب (المترجم) .

(١٩) مقدمة ماريا فون كلاوزفيتز لـ(عن الحرب) يظهر هذا المقتبس من كتابات زوجها في (ص٨٩) وكانت وقت كتابتها هي الثانية من اربع ملاحظات تمهيدية لكلاوزفيتز حول « عن الحرب» . الاولى هي «مقدمة المؤلف» مؤرخة من ١٨١٦ – ١٨ ، وتشير الى اطروحة كتبها كلاوزفيتز انذاك (ص٨٧–٨٨) اما الثانية وتشمل مقدمة زوجته فتشير الى التوسيع الذي ادخله على المشروع . اما الثالثة فتاريخها ١٠ /تموز/ ١٨٢٧ وتشكل النصف الاول من « الملاحظة» وتذكر خطة كلاوزفيتز لاكمال تنقيح الكتب الست الاولى ، ومسودات الكتابين السابع والثامن (ص٩٦–٩٧) . كتب القسم الثاني من « الملاحظة» فيما بعد ، وربما عام ١٨٣٠ ، ويشير الى عدم تقدم كلاوزفيتز كثيراً في تنقيح العمل . (ص٩٨)

(expert) . ولم يكتب لاي من تلك المقطوعات البقاء ، الا ننا نمتلك على الاقل دراسة اولية امل كلاوزفيتز ان يستخلص منها بحثه الرائع الذي كان يسعى وراثه «في تقدم وتوقف الانشطة العسكرية » كما وفرت له اسس الفصل السادس عشر في الكتاب الثالث من « عن الحرب » والذي طور بدوره احدى الحجج الرئيسية في الفصل الاول من الكتاب : تظل الحرب الحقيقية ادنى من العنف الكلي الذي هو جوهرها نظرياً لأن الحرب ومن بين جملة اسباب اخرى لا تتكون من عمل منفرد ، ولا من مجموعة اعمال متزامنة ، لكنها تمتد عبر الزمن مع فترات عمل او توقف عن العمل بالتناوب . وشيء آخر ، اقل اهمية بكثير ، هو اطروحة تضمنت بحثاً في تنظيم الجيش كانت تطبع عادة كملحق في الطبعات الالمانية لكتاب « عن الحرب » . ويمكن العثور على نقاطها الاساسية في الفصل الخامس من الكتاب الخامس .

تلك الاطروحات ، وبالايجاز التي هي عليه لا تماثل الايجاز الشديد لفصول كتب مونتسكيو والتي اعترف كلاوزفيتز كتابة بانها خدمته كنموذج عام في ذلك الوقت . كما لم يكن بناء بحوثه ومناقشاته هو الاخر يتشابه وما لدى مونتسكيو . الا ان اسلوب « روح القوانين » وشخصية مؤلفه تشيران بوضوح كاف الى جذور احساس كلاوزفيتز بالصلة القوية بينهما . وكمثال واحد ، لنأخذ المقدمة التي احتوت جملاً كان كلاوزفيتز نفسه سيكتبها ؛ « انا اطلب خدمة اخشى ان لا انالها – وهي الا تحكموا على عمل عشرين سنة من خلال ملاحظات صغيرة ، فيقبل العمل بكامله او يرفض ، وليس بعضاً من اجزاءه . وعلى من يريد معرفة نوايا المؤلف، فليتحراها فقط في المشروع العام للعمل » . وفي فقرة لاحقة يعلن مونتسيكو انه وخلال كتابته « عرف ان لا القاعدة ولا الاستثناء »، مما يصعب تطويرهما ، كوصف لتوجه كلاوزفيتز الى دراسة الحرب .[٢٠]

لتلك الاطروحات التي يتناول كل منها وعلى انفراد احدى ظواهر او مفاهيم الحرب ، فائدة الكشف عن السمات الرئيسية لكل منها وبدرجة كبيرة من الوضوح. الا أن التشتت الذي لابد منه في تلك التحليلات لم يقنع او يرضي كلاوزفيتز. وهكذا ومع اضافة أية اقسام جديدة او تنقيح الموجود منها ، فان ما تجمع لديه من حكم واقوال مأثورة والتي تميز عمله ، فتحت الطريق امامه لمعالجة كاملة تتلائم

(٢٠) روح القوانين . مونتسكيو . جنيف ١٧٤٩ ص ٣-٦ من المقدمة .

ومسعاه بتطوير نظام من الافكار وتطبيق منسق للمفاهيم باكبر قدر تتسع له الظاهرة. وفي الوقت نفسه فقد شعر بان تحليلاً اوسع واكثر وضوحاً سيكون افضل لنطاق اكبر من القراء الذين نوى مخاطبتهم منذ البداية ، كانت نتيجة ذلك كتاب « عن الحرب» كما نعرفه اليوم ، عدى بعض التعديلات التي ادخلت عليه منذ عام ١٨٢٧ وما بعدها .

قد يسأل قراء هذا الكتاب والدراسات التي قادت اليه عن سبب شعور كلاوزفيتز بضرورة التأكيد وباستمرار على ان العنف هو جوهر الحرب ، واستبعد ان يكون تكراره وتأكيده هذان على سبيل التعليم كما يفعل المعلم المتحذلق في تكراره لاشياء واضحة . يؤكد كلاوزفيتز على هذه النقطة ليس لأن التجربة ودراسة الماضي قد اقنعاه بقوتها وحقيقيتها ، بل وكرد على عدد كبير يثير الدهشة من المنظرين الذين نادوا باستمرار بامكانية ربح الحرب بالمناورة ودون سفك الدماء . والمهم على اية حال هي الاستنتاجات التي استخلصها من البديهيات . لقد كتب وهو في الرابعة والعشرين من العمر ان الحرب ستشن دائماً وباقصى قدر ميسر من الطاقة – وذلك فقط « لأن معظم العمليات الحاسمة تنسجم مع طبيعة الحرب » .[٢١] وبعد ثماني سنوات اوضح لتلميذه، ولي العهد ، أن الحرب تتطلب دائماً التعبئة الكاملة للموارد ، واستغلال طاقتها القصوى[٢٢] . لقد استنبط هنا مضامين محددة من مفهوم **الحرب المطلقة** ، الحرب التي ينبغي شنها مثالياً باقصى العنف – ومثالياً ، لان العنف الاقصى يتطابق وطبيعة الحرب . وان كانت الحرب من اعمال القوة فليس بوسع كلاوزفيتز تمييز اي منطق « داخلي Internal » ، او تحديدات ذاتية على استخدام القوة . لقد نتج اصراره على التطرف خلال عهد نابليون طبعاً ، وليس فقط من قوة المنطق وحسب ولكن من الموقف التاريخي، فقد تطلب الامر ما بين ١٨٩٢ – ١٨١٥ ، جهداً استثنائياً وتقبلاً للمخاطر الهائلة من اجل صيانة استقلال اوروبا ، او لاستعادته . لكن وحتى في سنوات التحدي الاعظم ، ادرك كلاوزفيتز ان الحاجة الي العنف المطلق او بحدوده القصوى ، وان كان مقبولاً منطقيا ، لكنه نادراً ما كان كافياً في الواقع . الحرب المطلقة شي خيالي ، وتجريد أُستخدم لتوحيد كافة الظواهر العسكرية ، وللمساعدة في تسهيل معالجتها نظرياً . يميل استعمال القوة في التطبيق لأن يكون

---

(٢١) « خطة العمليات » Plan of Operation "Strtegie aus dem Jahr , 1804 , pp. 51 - 52.

(٢٢) . مبادئ الحرب ص ٤٦ .

محدوداً . تقلل قوة الاحتكاك من التجريد المطلق الى الدرجة المعتدلة التي يفترض انه عليها في الواقع . والقسم الاعظم الذي لم ينقح من « عن الحرب » تسيطر عليه العلاقات الجدلية المشتركة الوضوح بين الحرب المطلقة والحقيقة .

لكن هل ان الحرب الحقيقية تلطف دائماً من التجريد المطلق حقاً ؟ ، وثانياً ، أيصح الاستنتاج من مفهوم المطلق أن جميع الحروب ، واياً كانت اسبابها أو أغراضها يجب أن تشن باقصى جهد ؟ كان كلاوزفيتز قد ميز عام ١٨٠٤ ما بين حروب تشن «لابادة الخصم ، وتدمير نظامه السياسي » وبين حروب تشن لاضعاف الخصم بما يكفي «لفرض الشروط (عليه) في مؤتمر الصلح»[٢٣] وحتى اثناء توصل كلاوزفيتز الى هذا التمييز فقد انكر ان الغايات المحدودة تبرر تقليص الجهد ، فحتى لو لم نطالب باكثر من اكراه الخصم على قبول شروطنا يرى كلاوزفيتز ان لابد من تحطيم قوته وارادته على المقاومة . لاسباب سياسية واجتماعية ، كما لاسباب عسكرية كذلك فان الطريقة الافضل لتحقيق النصر هي الطريقة الأقصر ، والاكثر مباشرية ، ويعني ذلك استخدام كل القوات الممكنة . لانه وكما ذكرت فان التجارب تدعم مقتضيات المنطق . ليس من الصعب الاعتقاد بان فرنسا قد خرجت منتصرة منذ الحملة الاولى للثورة (الفرنسية) وحتى حروب ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ ، لأن اعدائها لم يجهدوا انفسهم الى الحدود القصوى . ويعود ذلك جزئيا لأن الحقائق المعاصرة تبدو وكأنها تؤكد حقيقة كون كل حرب هي تحوير للمطلق ، وينبغي ان تشن كل حرب دون تحديدات تفرض على التطبيق العقلاني للقوة ، وان تلك الحجج تستعيد ما يمكن ان تدعوه بالتفوق الاساسي في مؤلفات كلاوزفيتز حتى عندما وصل به الامر الى اعتبارها متحيزة واحادية الجانب .

تشير اطروحته عن « التقدم والتوقف » ، أن كلاوزفيتز لم يعد حوالي عام ١٨١٧ قانعاً بنسبة كل تحوير في الانشطة العسكرية الى قوة الاحتكاك كلياً . ولأن الحرب تتألف من سلسلة من التفاعلات المتداخلة ما بين الخصوم ، فمن الواضح منطقياً وواقعياً في آن واحد ان لا تمر جميع دقائق وتفاصيل الحرب في اعلى درجات الجهد والعنف . هناك العديد من التلميحات التي تنمو في نفس الاتجاه في الكتاب الاول وحتى الكتاب السادس من « عن الحرب » . حوالي منتصف عشرينيات القرن التاسع عشر ، ادرك كلاوزفيتز كلياً ان النوع الثاني لحرب حقيقية – حرب تشن

---

(٢٣) «خطة العمليات ، Strategie aus dem Jahr 1804, p-51.

لاهداف محدودة – ليست بالضرورة تحويراً أو تشويهاً للمبدأ النظري للحرب المطلقة كما اوضح في « ملاحظته» ، وفي التنقيح الاخير للفصل الاول من الكتاب الاول ، بوجود حرب من نوع ثان ، صحيحة وشرعية كالحرب المطلقة ، ليس ميدانياً فقط ولكن فلسفياً ايضاً . قد تكون الحروب المحدودة تحويراً للمطلق ، لكنها لا تحتاج لذلك ان كانت الاهداف التي شنت لاجلها محدودة كذلك . يظل العنف جوهر الحرب ،والفكرة المنظمة حتى للحروب المحدودة التي تشن لغايات محدودة ، لكن في حالات كهذه لا يتطلب الجوهر كل قدرته الممكنة . لقد اصبح مفهوم الحرب المطلقة سارياً على اية حال ، وسيواصل دوره بانجاز تحليلات حاسمة ، الا انه اتصل الان بمفهوم الحرب المحدودة .

عبر كلاوزفيتز عن الطبيعة الثنائية للحرب وكما صاغها في سني حياته الاخيرة، بزوجين من انواع الصراع (Conflict) الممكنة ، ويتحدد كل منهما بالاهداف ذات العلاقة : تشن الحرب بهدف التدمير الكامل للعدو ، لاجل :

١. تدميره كنظام سياسي ، أو .

٢. لاجباره على قبول اية شروط ومهما كانت .

كما تشن الحرب لاكتساب (احتلال) الارض لاجل :

١. للأحتفاظ (ضم) ما تم اكتسابه ، او .

٢. للمساومة على الارض المحتلة في مفاوضات السلام .

اوضح كلاوزفيتز في « الملاحظة» عزمه على تنقيح نصوص كتابه « عن الحرب» كلها لتطوير تلك الانواع المختلفة من الحرب بصورة منظمة ، الا انه ذهب الى ابعد من ذلك . وكفكرة رئيسية ثانية فقد تتبع التنقيح السمة السياسية للحرب . كان التمييز الذي وضعه بين الفكرتين محيراً طالما ان الفقرات السابقة توضح بان الدوافع السياسية ستقرر ما اذا كان الصراع محدوداً ام لا . لم يشرح كلاوزفيتز تقسيمه (فصله) للطبيعة الثنائية للحرب ، والسمة السياسية للحرب ، واقترح ايبرهارد كيزيل سبباً يستند الى حجج ومناقشات تتكرر في كتابات كلاوزفيتز[٢٤]. تتأثر

---

(٢٤) كيزيل " Zur Genesis der modernen Kriegslehre . pp. 415 - 417 " راجع ايضاً ولنفس الكاتب Die doppelte Art des Knieges " Wehrwissenschalftliche Rundschau , 4 .(July 1954) No.7

الحرب بعوامل سياسية موضوعية وذاتية . تتضمن العوامل الموضوعية السمات المحددة وقوة الدولة المعنية ، والسمات العامة للعصر - سياسياً واقتصاديا ، وتكنولوجيا ، وفكريا واجتماعياً . تتألف العوامل الذاتية من الارادة الحرة للقائد والتي ينبغي ان تتطابق مع الحقائق الموضوعية ، الا انها غالباً ليست كذلك . لقد وصفها بشكل مختلف ، اذ فصل كلاوزفيتز العواقب السياسية للظروف العامة ، وتلك التي تنشأ من الذكاء والعواطف والعبقرية الفردية . لعله كان يبحث عن وضوح تحليلي بربط بحثه عن الحقائق السياسية الموضوعية بشكل رئيسي بمفهوم الطبيعة الثنائية للحرب ، وربط موضوع القيادة بشكل رئيسي بمفهوم السمة السياسية للحرب . لكن وكيفما كان سيفسر العرض المبرمج لكلاوزفيتز ، فسيجد قارئ « عن الحرب » نفسه متفقاً مع الكاتب اذ أعطى الدوافع السياسية وخصائص الحرب اهمية اكثر مما اعطيت في معظم النص ، واكثر من ذلك ، فلو انه عدل الاقسام غير المنقحة ، لتأكيد عدم كون الحروب المحدودة تطويراً ، بل لاقرار وجود نوعي الحرب المتساويان في صلاحيتهما نظرياً وعملياً .

لقد توصل كلاوزفيتز الى ادراك الطبيعة الثنائية للحرب ، ويعود ذلك وبدرجة كبيرة الى دراساته التاريخية التي اقنعته بان الصراعات المحدودة كثيراً ما حدثت ليس لان زعماء الدولة منعوا تخصيص الجهد الكافي او لان قادتها قد ترددوا أو انهاروا ، بل لان نواياهم كانت محدودة جداً لتبرير اي شيء أخر. وفي مواجهة الدلالات التاريخية فلابد من تصحيح النظرية. ولقد اصر كلاوزفيتز طوال حياته موضحاً أن ليس للحاضر حق ادعاء التفوق او الافضلية على الماضي ، وليس ذلك صحيحاً حتى، ولابد للنظرية ان تكون سارية المفعول عالمياً . ومنذ البداية وكما نعرف فقد اعانه التاريخ على توجيه افكاره عن الحرب ، ولعل ذلك يبدو صعباً بشكل غير عادي . تماماً كما فشل بعض المنظرين في ادراك الدور الذي تلعبه العوامل النفسية في الحرب، مع ان معظمهم اقروا بقيمة ودور التاريخ العسكري في تفهم عميق للحرب . وما في ذهن كلاوزفيتز يختلف الى حد كبير عن العرض العشوائي ، والتفسير النفعي للـ«قوانين » الاستراتيجية والتعبوية التي شاعت في الكتابات العسكرية عبر التاريخ . فهو لا يعتبر التاريخ كتاباً يزخر بالأمثلة التي بوسع الجندي التعلم منها مباشرة او

بالتحليل والمقارنة[٢٥] . لقد مكنته طريقة تفكيره المتفردة من عزل او تمييز عاملي الشخصية والذكاء وسط تصادم حشود الجيوش ، ودور المؤسسات والمجتمعات والامم كشخصيات اكبر – تختلف وتنفصل عن بعضها البعض – في توسيع موقفه وتفهمه للماضي . يزخر التاريخ ايضاً ، بثوابت متنوعة ، عصية على التأطير او التنميط Patterns – فمسيرة التقدم على سبيل المثال ، أو بحث الإنسان عن الله تعالى – مما يعده كلاوزفيتز وببساطة فرضيات خلقتها قدرات رفيعة ، هي نفسها دائمة التغير . فكل مرحلة تقوم بمفردها ، وليست كجزء من مشروع ضخم ، ولا يمكن فهمها الا ضمن ظروفها ومعطياتها . هناك وبالتأكيد ، افكار كبيرة تتكرر وباستمرار عبر العصور ، وتستنبط من الرغبة البشرية الفطرية ، بالامن والقوة والمعرفة ، الا انها تبدو باشكال متغيرة ومتنوعة . التاريخ كالنظرية العسكرية «Military theory» لا يملك دروساً او قواعداً ليقدمها لدارسيه ، لكنه قادر على توسيع تفهمهم وتقوية قدرة الحكم النقدية فقط .

للتاريخ في اعمال كلاوزفيتز التدريسية ، والنظرية ، انجاز اضافي في توسيع وتعميق خبرات القارئ او التلميذ ، او تعوضه عنها ما لم تكن لديه مسبقاً . التاريخ يصور الحقيقة ، ويعمل بدأب لاجلها . بل وعلى العكس من ذلك ، فدور النظرية ، وكما اعلن كلاوزفيتز ذات مرة انما يقتصر على مساعدتنا في فهم التاريخ – تبادل شديد في الادوار قلّ من بين المفكرين والمنظرين الاخرين ، من أقره أو حتى فهمه[٢٦].

يفرض هذا الادراك مطالباً معينة على دراسة وكتابة التاريخ ، الامر الذي يؤدي إلى فرض المزيد من الاختلافات بين كلاوزفيتز ومعظم معاصريه ، فهو يرى ان لا فائدة من اي تدوين او استعراض عامين للماضي ، والأفضل من ذلك كثيراً ، كما يعلن، هو ان ندرس احدى الحملات بتفاصيلها الدقيقة بدلاً من الأكتفاء بمعرفة عامة سطحية عن حروب عديدة . تشير كتاباته التاريخية الى اهتمامه باحداث معينة ، أعتبرت استثنائية في ايامه ، واكثر من ذلك ومنذ كانت الاحصائيات العديدة ، والتنظيمات والمخططات والخرائط التفصيلية تمتزج مع جميع التاملات المركزة في

---

(٢٥) ولكنه كان كذلك فعلاً والى حد كبير ، بل ان الكثيرين من القادة العظام بما فيهم نابليون أكدوا على اعتمادهم في فهم الحرب كثيراً علي قراءة وتفهم احداث التاريخ العسكري – لا النظريات بل المعارك والمناورات والحملات . فما جدوى فهم الحرب والتاريخ العسكري والمعارك ان لم يكن للتعلم منها ، للكاتب الحق في اعتبار ذلك مطلقاً او لازباً – المترجم .

(٢٦) مبادئ الحرب ص ٦٧ .

النوايا (الغايات) والمضامين . يزخر كتاب عن الحرب بالاشارات التاريخية ، والتي غالبا ما تعرضت للنقد وحتى حذفت في بعض الأحيان – كاشياء ليست ضرورية ، وتفاصيل فات أوانها ، الا انها في الحقيقة تصور الحقائق التي لها وحدها تثبيت البنية الفوقية للنظرية ، الامر الذي ينبغي ان يحفز القارئ المعاصر ليعكس كل ذلك على تجاربه الخاصة ، وللأستعانة بمعرفته باحداث عصره وكذلك باحداث الماضي .

عندما قرر كلاوزفيتز وجوب اعادة صياغة نصوص (عن الحرب) ، كي تتناول وبشكل واف الطبيعة الثنائية والسمة السياسية للحرب ، لم يتح له ذلك ، وتحول بدلاً عنه الى البحث التاريخي . كما قطعت عليه وظيفته الجديدة ما بين (١٨٢٧ – ٣٠) متابعة اعماله، ولم يتم تنقيح الا بضعة فصول فقط من كتاب عن الحرب وخصص معظم وقته لكتابة تاريخ حملة ١٨١٥ وحربين محدودتين هما حملتا (١٧٩٦)، (١٧٩٩) الايطاليتين[٢٧]. كان في حاجة لتفهم الطريقة التي تعمل فيها افكاره في الواقع قبل ان يتسنى له المضي في العملية والتحول الى المعالجة المبدأية المنتظمة . وعندما كان يشعر باستعداده للعودة الى (عن الحرب) كانت الظروف الخارجية تحول دون ذلك . كما اضطره نقله الى مفتشية المدفعية الى التأقلم مع فرع الخدمة الجديد هذا الذي لا يعرف عنه سوى القليل نسبياً ، ولم يمضي وقت طويل عليه في منصبه هذا حتى فرضت الثورة الفرنسية عام ١٨٣٠ تغييراً جديداً . لقد استدعي صديقه جنيسناو الى الخدمة الفعلية لقيادة الجيش الذي حشدته بروسيا ، وقد طلب هذا ، كلاوزفيتز كرئيس لهيئة اركانه . وبسبب السياسة الخارجية الحذرة للنظام الفرنسي الجديد ، والثورة البولندية ضد روسيا ، فقد تحول مركز الأزمات شرقاً ، لذا انفتحت قوات جنيسناو على طول حدود بروسيا الشرقية لحماية البلاد ضد العصابات البولندية ، ووباءالكوليرا الذي انتشر من روسيا ال بولندا . لم يكن من السهل ايقاف الوباء ، وفي اب /١٨٣١ كان جنيسناو نفسه احد ضحاياه . وفي ١٦/نوفمبر (تشرين اول) وبعد عودة كلاوزفيتز بقليل الى منصبه السابق في المفتشية العامة لمدفعية سيليزيا ، توفي فجأة ، بسبب نوبة قلبية ربما جاءته من اصابة خفيفة نسبياً بالكوليرا .

ادرك كلاوزفيتز وحتى بعد التنقيح النهائي ، حاجة افكاره الى المزيد من

---

(٢٧) وقد نشرت في المجلدات ٤ ، ٦ ، ٨ من اعماله الكاملة ويزيد حجمها على (١٥٠٠) صفحة . اما الحملتين الايطاليتين فهما من اوائل حملات وحروب نابليون بونابارت في ايطاليا .

التطوير والتنقيح ، كما تشير مقاطع من كتاب (عن الحرب) ، وفي مراسلاته في سنواته الأخيرة الى الحاجة الى اضافات مهمة الى النظرية التي لم ينجزها بالكامل . كما يوضح الكتاب السادس على سبيل المثال ان الطبيعة الثنائية للحرب تنطبق على الحرب الدفاعية ، وكذلك على الحرب الهجومية ، الا ان التعريف الذي ورد في الفصل الأفتتاحي للكتاب يشير فقط الى الطرف الذي يشن الحرب . لعل ذلك احد الاسباب وراء ما ورد في « الملاحظة» من ان بحثه في الدفاع ليس سوى اكثر بقليل من مجرد محاولة اولية لابد من اعادة كتابتها بالكامل . ومرة اخرى يفترض تعريفه أن الاهداف السياسية والعسكرية النهائيتين متوازيتين ، حتى مع ادراكه بميل العلاقة بينهما لتكون أكثر تعقيداً ، وان تلك الاهداف قد تتغير خلال سير القتال . وبغض النظر عن اكتشافه المثير لمفهوم « التصعيد Escalation » ، الا أن كلاوزفيتز لم يستفد كما يجب من الطرق المتعددة التي يستطيع احد الطرفين بواسطتها التأثير على الطرف الاخر ، خصوصاً في الدفاع . الا ان هذه مجرد تعليقات وليست انتقادات . انها تذكرنا مرة اخرى بالطريقة التي صاغ وهذب افكاره فيها . كما تؤكد ايضاً حيوية تلك الافكار التي لم تنتظم بعد في شكل او صيغة نهائية ، بل قادت الى افتراضات ما زالت وبعد قرن ونصف تؤكد قدرتها على التنامي المستمر الذي يرى كلاوزفيتز انه المؤشر على صحة النظرية .

تأثيركلاوزفيتز

تعلم – مايكل هوارد[1]

عندما نشرت ارملة كلاوزفيتز كتاب زوجها عن الحرب ، عام ١٨٣٢ ، اي بعد عام من وفاته ، استقبل الكتاب باحترام وترحيب ربما يعودان الى مكانه وسمعة كلاوزفيتز كواحد من جيل كبار الاصلاحيين العسكريين في بروسيا ، وتلميذ الجنرال شارنهورست ، والزميل المقرب للمارشال جنيسناو ، وليس لكون الكتاب دراسة عميقة وواسعة في محتوياتها . « كالسيل الذي تنهمر بلوراته الطافية فوق شذرات الذهب النقية » كما يحذرنا احد المعلقين اللبقين ، ويتابع « انها لا تطفو في الغدران الهادئة او انهار الاراضي السهلة ، بل في الوديان الصخرية الضيقة المحاطة بالنصب الضخمة ، وتقف على مداخلها الروح القوية كملاك حارس شاهراً سيفه ، معيداً الى الوراء كل الذين توقعوا السماح لهم بالدخول بنفس الثمن المعتاد دفعه لدخول المسرحيات الخيالية[2] وبكلمة اخرى لقد وجد من الصعب عليه مواصلة القراءة ، ومن الواضح انه ليس القارئ الوحيد في ذلك . فلم تكن الطبعة الأولى من الكتاب (١٥٠٠ نسخة) قد نفذت من الأسواق حتى بعد عشرين عاماً على صدورها ، يوم قرر الناشر اصدار طبعة جديدة ، ولكن بعد معالجة وتوضيح العديد من الفقرات الغامضة في النص الأصلي – لعل هذا الغموض الكثير لابد منه عند نشر عمل بهذا الحجم والتعقيد الكبيرين بعد وفاة مؤلفه من قبل ارملة مخلصة لكن دون خبرة – من قبل صهره الكونت فردريك فون بوهل الذي تولى تنقيح وتصحيح الكثير منها . ولم تصدر طبعة جديدة بعد حتى عام ١٨٦٧ ، فقد خصص الناقد العسكري ويلهلم روستو في ذلك العام فصلاً عن كلاوزفيتز في كتابه عن (فن

---

(١) استاذ التاريخ في جامعة كاليفورنيا .

(٢) مجلة الأدب العسكري البروسي (١٨٣٢) . اقتبست من قبل ويرنرهالفيك في مقدمته للطبعة السادسة عشر لكتاب « عن الحرب » – بون ١٩٥٢ – وسنكتفي بالاشارة إليها بـ (هالفيك) فيما بعد .

الحرب في القرن التاسع عشر » ، وقال فيه انه – اي كلاوزفيتز « مشهور جداً لكن لم يقرأه. الا القلة » وكانت نبؤة في غاية الدقة والى يومنا هذا . لكن حتى من لم يقرأوه يعرفون ان مذهبه يتمثل في حرية التفكير ، والتأكيد على العمل الخلاق للفرد ، وفي الابتعاد عن الاطر والصياغات الشكلية ، وكلها تجد جذورها في نهج شارنهورست لاصلاح الجيش البروسي ، والذي حاول خليفة شارنهورست كوزير للحرب ، (هيرمان فون بوين) المحافظة عليه خلال الفترة المجدبة والرجعية في اربعينيات القرن التاسع عشر . لقد فضل العسكريون المحافظون مذهب الجنرال (فون ويلزين) الذي ارست نظريته في الحرب الكبرى (١٨٤٠) قواعداً عملية ، ومبادئاً تنسجم وعقيدة جوميني (Jomini) . لعل المكانة العالية التي حضي بها هذين الرجلين في ذلك الوقت لعبت دوراً في منع انتشار افكار كلاوزفيتز على نطاق واسع (٣) .

إلا أن السبب الأساسي للغموض الذي يحيط بكلاوزفيتز يكمن او يجب البحث عنه في نصوص الكتاب نفسها ، وكذلك في الاختلافات الكبيرة في الشروح والتفاسير التي ظهرت عنه ، وكلاوزفيتز نفسه ، توقع ان عدم اكماله للعمل خلال حياته سيترك وراءه « افكاراً عديدة جداً لا شكل لها » وستفسر باشكال مختلفة ولما لا يحصى من المرات ، وستكون « هدفاً لانتقادات عشوائية » . كما انها تُشكل حشداً أو معينا من الافكار التي ولأن كلاوزفيتز لم يعش حتى يكمل صبها في شكل نهائي متماسك ، سيجد الكُتاب من بعده في افكاره وعباراته صيداً سهلاً لما يتلائم وحاجة بحوثهم ونظرياتهم هم ، وفي أيامهم . وهكذا بات على كلاوزفيتز ان لا يخشى نقاده بقدر ما يخشى المعجبين به من المحترفين .

لقد أوضح كلاوزفيتز في ملاحظته التمهيدية التي كتبها عام ١٨٢٧ موقفه بصراحة ، وكان قد انجز انذاك ستة كتب وما زال الكتابين السابع والثامن مجرد مسودات بعد ، وبعد إنجازهما كان سيعود الى مراجعة العمل بكامله من جديد ، والبحث في الموضوعين الرئيسين واللذان سيأخذان صيغتهما النهائية في الكتاب الأخير . كان الموضوع الأول هو « الطبيعة الثنائية » للحرب ، وكاداة يمكن

---

(٣) هالفيك . ص ١٢ – ١٣ . نشرت اعمال روستوف Die Feldherrnkunst des Aeunzehnt – Jahrhunderts (Zurich 1867) كذلك راجع Eugene - carrias , La Pens'ee militaire allemande (Paris 1948) PP 224 - 226 .

استخدامها اما لتدمير العدو او لانتزاع تنازل محدود منه . اما الموضوع الثاني فهي النقطة « التي يجب ايضاحها تماماً ، وهي بالذات أن الحرب وببساطة استمرار للسياسة بوسائل اخرى» . ويؤكد لنا ان هذه « واذا تمسكنا بها بشدة وعلى الدوام... فستسهل علينا دراسة الموضوع كثيراً ، كما سيكون من السهل تحليل الكل » – راجع ص(٩٦) فيما يلي – لكن كان عليه الاعتماد على القارئ ليضع ذلك نصب عينيه . ولم يذهب في التنقيح لأبعد من الفصل الأول في الكتاب الأول حيث قدم لنا العناصر الثلاث لنظريته ؛ **العنف هو جوهر الحرب** ، **والدور المسيطر لسياسة رشيدة** في تحديد الحرب والسيطرة عليها ؛ **والصدفة بكل أبعادها** وجوانبها البالغة الاهمية .

ما استشهدنا به اعلاه يوضح لنا إن لو امتد العمر بكلاوزفيتز حتى انجاز العمل بكامله فان العنصر الثاني من العناصر الثلاث أعلاه كان سيحضى بأقوى التأكيد ؛ وهو ، السيطرة التي للغاية السياسية ان تمارسها على الوسائل العسكرية . إذ وكما هي عليه فليس لكلاوزفيتز سوى القليل ليقوله عنها حتى في الكتاب الثالث عن الاستراتيجية . فقد عرف الاستراتيجية وبصراحة شديدة بـ« استخدام الاشتباك من اجل اهداف الحرب » . ص (٢٤٥) في أدناه – فهنا وجدنا العقيدة التي تمسك الكتاب الذي جاءوا بعده بها بشدة وحيوية « الاستراتيجية الافضل ، هي في أن نكون أقوياء جداً : في كل مكان أولاً ، ومن ثم في النقاط الحاسمة » – ص(٢٨٥). في ادناه – اما نوعا الحرب واحتمال إدارة كل منهما وفقاً لمبادئ مختلفة فلم ينالا هنا سوى إشارات سطحية . وعموما فالاستراتيجية التي عولجت في هذا الكتاب هي وببساطة الاستراتيجية كما يراها كلاوزفيتز ، استراتيجية نابليون ، إستراتيجية الحرب كشيء «مطلق» ، وكما بوسع الدوافع السياسية القوية ان تمليها .

يمكن تطبيق نفس التحديدات وبقوة اكبر حتى على الكتاب الرابع «الاشتباك». ولا نجد هنا كلمة واحدة عن نوعي الحرب او فائقية الهدف السياسي ، فموضوع هذا الكتاب هو « المعركة الرئيسية Hauptschlacht » ونتائجها اللاحقة والذي دعاه كلاوزفيتز « مركز الثقل الحقيقي للحرب » مع ان « الحروب المحدودة » بالتعريف تقريباً بانها صراعات لا يصل الامر فيها الى قرار حاسم كهذا . لعل من المناسب بيان أن ذلك الكتاب يؤكد على تناقض مركزي لكل حرب ، والعلاقة الجدلية ما بين قوى العنف ، وقوى المنطق ، ومن ان المتطلبات السياسية لسيطرة عقلانية لا يمكنها التقليل كثيراً من الطبيعة العنيفة اساساً للوسائل ، باكثر من محاولة

تخفيف شعلة (الاوكساسيتيلين) باخفاء لهيبها . لقد اسف كلاوزفيتز كثيراً لحذفه لهذه النقطة من الفصل الأول المنقح من الكتاب الأول ، والذي يجب اعتباره الرأي النهائي في الموضوع « قد يرى ذوي القلوب الرحيمة أن هناك طريقة بارعة لتجريد العدو من سلاحه ، أو حتى تدميره دون المزيد من سفك الدماء ، وقد يتصورون أن ذلك هو الهدف الحقيقي لفن الحرب . ورغم هذه الصورة البراقة لها فلابد من كشف هذا الزيف » راجع ص (١٠٤) . وهكذا فما من سبب لافتراض أن كلاوزفيتز كان سيحذف في صيغته المنقحة ايا من المعتقدات التي قدمها في **الكتاب الرابع** ، والتي صبها في عبارات شديدة الى حد مفزع ، نتيجة لتجاربه المريرة عام ١٨٠٦ ، وما بين ١٨١٢ – ١٥ . لكن لعله قد تمعن بعمق في كيفية تخفيف تلك الشعلة المدمرة التي لا ترحم ، والسيطرة عليها خدمة للنهايات السياسية التي يعتبرها الاعلى والأسمى .

لكن الذي حدث هو ان كلاوزفيتز لم يعش لاجراء تلك التنقيحات . ونجد في النصوص التي تركها خلفه أن من بين العناصر الثلاث في نظريته ، فان العامل السياسي الذي خصه باعظم الاهمية ، لم يتعامل معه الا في الكتاب الاخير (الثامن) فقط وفي الفصل الأول من الكتاب الأول . إلا ان العنصرين الاخرين ، اي العنف الجوهري للحرب ، والوجود الدائم للصدفة (Omnipresence) [٤] ، سوية ومع المطالب التي يفرضها هذان العاملان على الخصائص المعنوية ، هما اللذان جرى التأكيد عليهما في باقي الكتاب – يستثنى بالحقيقة منها الكتاب السادس الطويل والغني والمعقد في الدفاع ، والذي بحاجة ماسة جداً للتنقيح لو أريد ايضاح الدروس التي يحتويها .

تلك هي بالتأكيد ملامح وجوانب عمل كلاوزفيتز والتي عبر عنها بقوة الكثير من الابناء والأحفاد ، ليس آخرهم هيلموت فون مولتكة الكبير الذي اصبح رئيسا لهيئة الاركان العامة البروسية عام ١٨٥٧ ، والذي لعب دوراً مهما في لفت انتباه مواطنيه الى اعمال كلاوزفيتز . لقد وضع مولتكة ، « عن الحرب » سوية مع

(٤) Omnipresence وتعني الحضور الدائمي وفي كل مكان ولم استطع القول الهيمنة الدائمة فقد يكون ذلك تحميلاً غير مطلوب للمعنى . قاموس المورد . ص ٦٣٢ . طبعة عام ١٩٨٥ – المترجم) .

هوميروس والانجيل ، كاحد اهم الاعمال الملهمة التي صاغت تفكيره (٥). لقد كان مولتكة (٦) تلميذاً في اكاديمية الحرب يوم كان كلاوزفيتز أمراً لها ، ولانعدام العلاقة المباشرة بين الامر وتلاميذه فلا مجال للحديث عن اي تأثير مباشر لكلاوزفيتز على مولتكة(٥) . اكثر من ذلك وكما ورد في احدث كتاب عن سيرة مولتكة فان العديد

---

(٥) ايرهارد كيزيل (مولتكة) - شتوتكارد - (١٩٥٧) ص ١٠٨ .

(٦) الفيلدمارشال كارل كراف مولتكة (١٨٠٠ - ١٨٩١) . رئيس الاركان العامة للجيشين البروسي والالماني ومهندس الانتصار في حرب الاسابيع السبعة ، وفي الحرب الفرنسية - البروسية واحد أعضاء الثالوث العسكري البروسي الكبير بقيادة المستشار الحديدي بسمارك صاحب سياسة الحديد والنار . لقد حقق الثالوث سحق فرنسا وبناء الامبراطورية الالمانية بزعامة بروسيا . ولدمولتكه لعائلة نبيلة فقيرة ودخل فيلق الضباط الملكي في كوبنهاكن وتخرج ملازماً في الجيش الدنماركي ثم التحق كملازم في الجيش البروسي وعمل في أواخر العشرينيات في دائرة المساحة العسكرية ونقل عام ١٨٣٣ الى الاركان العامة البروسية برتبة نقيب وأرسل عام ١٨٣٥ مستشاراً للسلطان محمد الثاني للأشراف علي تحديث الجيش التركي الا أنه أثر الخدمة في ذلك الجيش ورافق حافظ باشا في حملته في سوريا الا انهم فشلوا في إخراج المصريين منها ويعزى الفشل في ذلك الى إهمال قائد الحملة لأراء وخطط مولتكه الذي عاد عام ١٨٣٩ الى بروسيا وركز اهتمامه على الدور الذي يمكن ان تلعبه السكك الحديدية في ادارة الحرب إلا أن احداً ما لم يهتم بدراساته الا بعد عشرين عاماً كما اهتم بوحدة المانيا عسكرياً تحت سيطرة بروسيا . منح رتبة عقيد عام ١٨٥١ وعين مرافقاً للأمير (الامبراطور فيما بعد) فردريك ويلهلم الامر الذي فرض عليه التجوال الدائم والمراقبة الدقيقة للأساليب التعبوية والتطورات الفنية مما اعانة عند ترأسه للأركان العامة البروسية عام ١٨٥٧ حيث أصبح أحد الثلاثة الكبار في قمة السلطة العسكرية البروسية الى جانب بسمارك ووزير الحرب فون رون . وقدر لهذا الثالوث أن يعيد رسم خريطة أوروبا بعد (١٤) عاماً وانهاء النفوذ الفرنسي وتثبيت بروسيا زعيمة لالمانيا. إهتم مولتكه بتنامي الخطوط الحديدية الالمانية لاعتماد خططه لاعادة تنظيم الجيش الالماني على الاستخدام الواسع لها في انفتاح سريع للقطعات وتقليل الوقت المضيع في التنقل على الاقدام وعلي ظهور الخيل وطبق مفهومه لأول مرة في حرب الاسابيع السبعة ضد النمسا (حزيران - تموز ١٨٦٦) وكانت خطته بنقل القوات على أوسع جبهة ممكنة وجمعها في المنطقة المختارة للمعركة فكانت السرعة التي حشد بها قواته مرعبة لخصومه ، فحقق انتصارات مذهلة في معركتي (لا نجنسا لزه) في ٢٧ - ٢٩ حزيران ، ومعركة (كونيكراتز) (٣ - تموز) وقد أوضح له ذلك أن التحشد قد يكون مهماً وجيداً الا ان ادارة هجوم جيوش كبيرة في أن واحد ومن إتجاهات مختلفة تتطلب درجة من السيطرة لم تكن متيسرة أنذاك . كما أكدت له تلك الحرب أهمية استراتيجية التحشد في ساحة المعركة والأهمية القصوى لتحسين التنسيق في القيادة والمواصلات . تلك الدروس التي أحسن تعلمها خلال السنوات الاربع القادمة . وسرعان ما تدهورت العلاقات الفرنسية البروسية بسبب رغبة بسمارك باختيار أمير بروسي لعرش اسبانيا ، المشروع الذي رفضه نابليون الثالث خوفاً من تطويق فرنسا من جبهتين فعجل أعلان الحرب على بروسيا حتى قبل اكمال حشد الجيش الفرنسي ، وتحرك مولتكه بسرعة حيث حشد ثلاثة جيوش حسنة التدريب وتضم نصف مليون رجل خلف الراين ، بينما ظل الجيش الفرنسي مبعثراً في ثمانية فيالق ميدان كما نظم مولتكه عمل الاستخبارات =

من الافكار التي نعتبرها من افكار كلاوزفيتز الخاصة والتي عدها مولتكة مهمة في حملاته – ابادة قوة العدو الرئيسية ، وحشد الجهد في النقطة الحاسمة ، والاهمية القصوى للمعنويات ، والحاجة الى الاعتماد على النفس لدى القادة ، والمرونة في الاساليب التعبوية – والتي كانت شائعة بين صغار الضباط البروسيين الذين ساهموا في حروب نابليون . وكما هو الحال مع العديد من المفكرين فان الكثير من الافكار التي صاغها كلاوزفيتز وخلفها للأجيال المقبلة ، ربما تكون هي الأخرى شائعة ولو بشكل غير كامل بين معاصريه ، فليس من الغريب لطالب شديد الذكاء والادراك مثل مولتكة ان يلتقط هذه الأفكار بسرعة من وسط البيئة المحيطة به لذا يمكن اعتبار فكر مولتكة كتأكيد وتطبيق لافكار كلاوزفيتز اكثر من كونه وبساطة وليدها او نتاجها .

مع ذلك فان انجازات مولتكة في حروب التوحيد ما بين عامي ١٨٦٦ – ٧٠ هي التي لفتت الانتباه الى روعة وحيوية اعمال كلاوزفيتز . ونجد في كتابات مولتكة المرة تلو الأخرى الكثير من الفقرات والمقاطع التي تعد صدى لكلاوزفيتز «النصر بواسطة القوات المسلحة هو العامل الحاسم في الحرب ... ليس احتلال قطعة من الأرض ، ولا احتلال القلاع بل تدمير قوات العدو هو ما سيقرر نتيجة الحرب . وهكذا فالتدمير سيشكل الموضوع الرئيسي للعمليات » وعبارة اخرى « الاستراتيجية هي منظومة وسائل . انها اكثر من علم ، انها علم يطبق في الحياة كل يوم ... فن العمل تحت ضغوط اكثر الظروف قسوة[٧]» . ومن ثم ما لعله الاقتباس الذي يعكس أقوى التأثيرات جميعاً (في الحرب غالباً . ليس لما يفعله المرء سوى اهمية أقل . مما لكيف يفعله . التصميم الشديد ، والاصرار على التنفيذ باسلوب وافكار بسيطة أضمن الطرق الى الهدف[٨]). وهذه مجرد نماذج للأشياء التي تجتذب الجنود المجربين.

= البروسية بدقة كما حدد وبوضوح هدف الجيش بتدمير الجيش الفرنسي في الميدان واحتلال باريس وقد تحطمت المقاومة الفرنسية في معركة سيدان (١/ايلول) وأحتلت باريس (٧١/١/٢٨) لقد تحقق بفضل دبلوماسية بسمارك وعبقرية مولتكة العسكرية إنشاء امبراطورية المانيا لموازنة القوتين العظميين الفرنسية من جهة والنمساوية – الهنغارية من جهة أخرى وقيل بحق إن استرتيجية بروسيا كانت كلاوزفيتزية تماماً فالحرب كانت إمتداداً للدبلوماسية : عن Military Biography By M. Martin . F. Mason , London (1975) . P. 194 (المترجم) .

(٧) راجع المقتبس في (كارياس) – Carrias, La Pensee Militaireallemande- pp-238-41

(٨) كيزيل (مولتكة) ص ٥١١ .

لكن ما لا يجده المرء لدى مولتكة ، أو بالحقيقة ولا حتى عند اي من مريديه او خلفاءه ، هو اي تقليد او محاكاة لاصرار كلاوزفيتز على الحاجة لاخضاع الوسائل العسكرية للغايات السياسية . فلم يظهر لنا (مولتكة) اية اشارات لا في كتاباته ولا في اعماله كرئيس للاركان تفهماً لاشتراط كلاوزفيتز ان تكون الحرب متعددة الاغراض ان اريد لها ان تخدم الهدف السياسي . فلم تكن الحرب بالنسبة لمولتكة اكثر من اداة للسياسة كقدر محتوم في حياة الإنسان ، لينظر إليها بوقاروتدار بكفاءة وفعالية . لقد قبل بالتأكيد علوية السلطة السياسية طالما كانت هذه ممثلة بالملك نفسه ، القائد الاعلى ، الذي يعمل (اي مولتكة) في خدمته ، والذي أقسم له يمين الولاء . الا ان ذلك لا يمتد إلى مستشاري الملك السياسيين الذين ليس لهم أي دور برأي مولتكة للتدخل في الشؤون التي كلفه الملك بها . وعندما تندلع الحرب ، يرى مولتكة .. « حال اعلان التعبئة العامة فعلى المستشارين السياسيين أن يصمتوا ، ولا يجوز لهم تولي زمام الامور ثانية ، الا بعد ان يكون الاستراتيجي (اي القائد العام) قد أبلغ الملك بعد التدمير التام للعدو بان مهمته قد أنجزت » [٩] .

لا ينسجم هذا كله طبعاً مع منهج كلاوزفيتز حول العلاقة بين السلطات السياسية والعسكرية كما اوضحها في الكتاب الثامن من (عن الحرب) . ويفترض هذا استمرار توجيه الحملة من قبل الوزارة ككل ، ويشير في الحقيقة الى ضرورة أن يصبح القائد العسكري عضواً في الوزارة كي يكون بوسعها اتخاذ القرارات الاستراتيجية الحاسمة [١٠] . الا ان رأي مولتكة لا كلاوزفيتز هو الذي اصبح سائداً في الامبراطورية الالمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر رغم ان كلاوزفيتز وفي تلك السنوات بالذات اصبح محط الانظار واكثر شهرة . ظهرت **طبعة رابعة** من «عن الحرب» عام ١٨٨٠ . ويمكن الحكم على المكانة التي بات كلاوزفيتز يحتلها في المانيا من الكلمات التي افتتح بها (كولمار فون دير غولتز) مؤلفه الشهير « الامة المسلحة Das Volk Im Waffen » ، والذي ظهرت له عدة طبعات متتالية بسرعة وترجم الى الانكليزية بعنوان « The Nation in Arms» وقال غولتز فيها « سيتعرض

---

(٩) راندولف سادلمان ، مولتكه والدولة (كريفيلد ١٩٥٠) ص - ٢٠٦ .

(١٠) لاهمية الفقرة راجع - ص(٨٤٠) ادناه .

كل كاتب عسكري ، سيكتب بعد كلاوزفيتز عن الحرب ، لنفس المخاطر التي سيتعرض لها الشاعر الذي سيحاول كتابة « فاوست » بعد غوتيه ، أو «هاملت» بعد شكسبير ، فكلما له اهمية لأن يقال عن طبيعة الحرب يمكن ان تجد نصوصه ومعانيه في الأعمال التي تركها اعظم المفكرين العسكريين [١١] .

صدرت عام ١٩٠٥ طبعة خامسة مع مقدمة طويلة وتعليقات لرئيس الاركان العامة الالمانية انذاك الكونت الفريد فون شليفن [١٢] ، كما صدرت ثلاث طبعات اخرى لكتاب (عن الحرب) قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وما لا يقل عن خمس طبعات أخرى خلال الحرب نفسها .

لم يهمل خلال تلك الفترة موقف كلاوزفيتز من العلاقة ما بين السياسة والحرب . فقد سبب في الحقيقة الكثير من الحيرة بين مريديه ، وأسهم الجنرال فون

---

(١١) كولمار فون ديرغولتز (الامة المسلحة) . لندن - ١٩١٣ ص ١ .

(١٢) الفريد فون شليفن (١٨٣٣ - ١٩١٣م) دخل الكلية الحربية عام ١٨٥٨ وتنقل كضابط في مناصب الركن في القطعات والاركان العامة . قاد كتيبة الحرس الأولى لسبع سنوات عاد بعدها في ١٨٨٣ الى الاركان العامة حتى تقاعده عام ١٩٠٦ وظل رئيساً للاركان (١٥) عاماً . نال خبرة عملية مع القطعات وشارك في معركة سادوفا (١٨٦٦) وحملة اللوار . ورغم أنه لم يأبه للسياسة ومشكلاتها فقد أعتبر اكبر اعمدة الاستراتيجية ومن اساطين المدرسة العسكرية الالمانية . كانت المعضلة الاستراتيجية الي تواجه المانيا وكما وصفها شليفن هي « كيفية القيام بحروب قصيرة حاسمة ضد عدو اكبر » (وهي كما يتضح لنا نفس الاستراتيجية التي تبنتها اسرائيل في حربها معنا) اما معضلة المانيا فكانت وقوعها بين طرفي تحالف قوي روسي - فرنسي مع وجود بريطانيا المتحفزة لاستغلال الفرص ، على المانيا اذن خوض حرب على جبهتين. وفضل مولتكه دفاعاً أولياً في الغرب وهجوماً قوياً في الشرق ، الا أن شليفن بنى خطته الشهيرة عام ١٩٠٥ على مهاجمة وتدمير فرنسا واخراجها من الحرب وحرب دفاعية في الشرق تعد هذه الخطة من أشهر الاحداث العسكرية اهمية وتستحق كتاباً لوحدها وقد طبقت في الحربين العالميتين ولكن بعد تحويرات كبيرة وجذرية خلافاً لمخططها الاساسي . يشكل شليفن مع كلاوزفيتز وشارنهورست وجنيناو، ومولتكة الكبير بناة العسكرية الالمانية بل والحرب الحديثة كلها . راجع .

A - Longman English Larousse Dicit . London 1968 - p - 1043 .

ب - رواد الاستراتيجية الحديثة - الكتاب الثاني . اشراف ميرل ترجمة محمد عبد الفتاح القاهرة ١٩٥٧ .

C- Encyclopedia of Military Histoary - R. Dupuy & N. Dupuy New York - 1970 - P - 821 .

المترجم

كاميريرا الذي يعد من ابرز تلامذة كلاوزفيتز في جيله بلفت الانتباه الى الاختلاف ما بين كلاوزفيتز ومولتكة في هذا الشأن ، وعبر عن قناعاته هو ، بـ « صحة وجهة نظر كلاوزفيتز من جميع الوجوه[١٣]» . لقد عبر الجنرال دير غولتز عن رأي الأغلبية برفض ذلك ، ليس لانه تجاهل العنصر السياسي في ثلاثية كلاوزفيتز بل لأنه لم يعد يراها ذات صلة بعد ، اذ اعلن أن الموقف قد تغير كثيراً عما كان عليه ايام كتابة كلاوزفيتز . اما الان .. « فلو اصطدمت قوتان أوروبيتان من الدرجة الأولى فسرعان ما ستتحرك قواتيهما المنظمة وعلى الفور لحسم الصرع ، وستتهاوى جميع الاعتبارات السياسية التي سيتمخض عنها اؤلئك المترددون من مؤيدي حروب التحالف » . فالحرب اداة سياسية بالتأكيد ، لانها انما تنشأ من موقف (وضع) سياسي ، الا انه يواصل ... « فالحرب لن تكون لذلك قليلة الاهمية أو محدودة الاستقلال لو اتفق القائد العام ورجل الدولة على انه وفي جميع الظروف ستخدم الحرب الغاية السياسية **بصورة افضل بالتدمير الكامل للعدو** ، وسيسمح الانتباه الى هذه القاعدة باستخدام القوات المقاتلة على اوسع نطاق[١٤]» .

وهكذا استخلص فون دير غولتز وببراعة أفضل ما في الاثنين ، فقد أقر بعلوية السياسة ، وباستقلالية القائد . ولو راعينا تزايد المصاعب التي يواجهها التخطيط العسكري كالتزايد المستمر في حجم الجيوش ، وقلة المرونة ووقوعها تحت رحمة جداول حركة القطارات ، فلعل ذلك كان افضل ما يمكن عمله لتطبيق أفكار كلاوزفيتز على ضرورات ومقتضيات النهج العسكري في عهد ويلهيلم .

لم يكن النظر الى اراء كلاوزفيتز في تلك الموضوعات في بداية القرن العشرين كمقارنات تاريخية بالية مقصوراً على المانيا فقط . فقد كتب العقيد (المارشال فيما بعد) فوش عام ١٩٣٠ في كتابه **مبادئ الحرب** .... « لذلك عليك التدقيق في كل تحديد للعثور على غاية الحرب . وطالما ان الطرف الخاسر لم يعد يستسلم الان قبل تجريده من جميع وسائل الرد ، فما يجب ان تضعه نصب عينيك هو تدمير جميع تلك الوسائل [١٥]. وهناك رأي فرنسي اخر اكثر توازنا بكثير ، للعقيد كولن ، الذي

---

(١٣) رادولف فون كاميرير « تطور العلوم الاستراتيجية في القرن التاسع عشر » لندن – ١٩٠٥ ص ٨٦ .

(١٤) فون دير غولتز « الامة المسلحة » ، ص ١٤٣ .

(١٥) فرديناند فوش ، « مبادئ الحرب » ، (لندن – ١٩١٨) ص ٣٧٠ .

يُعدّ كتابة « تحولات الحرب» وحتى الآن من بين أفضل واشمل الخلاصات للموقف العسكري في اوروبا عشية اندلاع الحرب الكبرى، فقد كتب وبنفس اللهجة تماماً : « بدون الحديث عن العواطف التي تثير الكثير من العدوانية ، فلم تعد الشروط المادية للحرب الحديثة تسمح بتجنب القرار الحاسم بالمعركة . يتجه الجيشان اللذان احتلا معظم منطقة مسرح العمليات ، نحو بعضهما ، وما من قضية اخرى سوى النصر ... لذلك تقتصر التوجيهات التي تصدرها الحكومة الى القائد عن الهدف السياسي الى شيء مختصر جداً . إذ وحالما يتخذ قرار الحرب ، يجب وكضرورة مطلقة أن تترك للقائد حرية تامة في ادارتها ، وبطريقته الخاصة ، على أن يدرك بانه سيعفى من القيادة لو استخدم حرية التصرف بطاقة أقل أو بطريقة غير مرضية [١٦]» .

تلك كانت الفلسفة التي اثارت لا الالمان فقط ، بل كل القوى المتخاصمة في مطلع الحرب الكبرى . لكن لا المفكرين الاستراتيجيين ، ولا حتى المتطلبات التكنولوجية العسكرية ، هما اللذان صاغا احداث وتجارب عام ١٩١٤ والسنوات المرعبة التي تلت ذلك . كان كلاوزفيتز نفسه قد كتب .. « يجب أن تخضع الغايات التي يضعها الطرف المحارب، الموارد التي يستخدمها، للسمات والظروف الخاصة بموقفه، الا انها ستطابق كذلك وروح العصر وسماته العامة[١٧] . وعلى ضوء هذه القاعدة او الحكمة يمكن تفهم احداث وتجارب الحرب العالمية الأولى .

ان كانت هناك اسباب تقنية أو سياسية أو نفسية يمكن فهمها للأعتقاد بان رأي كلاوزفيتز في تبعية الوسائل العسكرية للغايات السياسية لم يعد ذي موضوع عام ١٩١٤ ، فيمكن ولو بصعوبة قول نفس الشيء عن ارائه في إعتبار الدفاع الشكل الأقوى للحرب ، الاراء التي زادت اهمية وقوة مع كل تطور جديد في التكنولوجيا العسكرية منذ عام ١٨٧٠ وقد اقرها مولتكة الكبير نفسه وكذلك كاميريا [١٨] ، ومن الناحية الاخرى فالقليل جداً من الكتاب الالمان أقروا ذلك ، والاقل من ذلك ايضاً بين الفرنسيين ، ويعد دير غولتز نموذجاً لتلك القلة ، فقد كتب « ان تحارب يعني أن تهجم» وتابع قائلاً « سعيد هو الجندي الذي خصه القدر بمهمة الهجوم

(١٦) جي ، كولن – تحولات الحرب (لندن – ١٩١٢) ص ٣٤٣ .

(١٧) راجع ص ٨٢١ في ادناه .

(١٨) كاميريا ، تطور العلوم الاستراتيجية . ص ٩٥ .

assailant» . وفي استنتاج صورة لمعركة وهمية أوجزه بقوله .. « لو اردنا وصف معركة ، فسنجد انفسنا مدفوعين رغما عنا بتصوير معركة تعرضية . ماذا بوسع الجندي الألماني سوى الهجوم ؟ » . في الحقيقة لقد فعل جندي الماني أخر غير ذلك ، وذلك هو كلاوزفيتز نفسه . فصورة المعركة التي قدمها في الفصل الثاني من الكتاب الرابع، لم تكن معركة استنزاف d'usure قاسية ، ولا تختلف كثيراً عن معركة بمقياس صغير لتلك التي تطورت اليها معارك الجهة الغربية ما بين ١٩١٥ - ١٧ . يرى دير غولتز ان كلاوزفيتز ربما يكون قد « غير رأيه في تفوق الدفاع على الهجوم لو اتيحت له الفرصة في تنقيح دقيق لكتابه » . وهي حجة يتداولها غالباً المعجبون بكلاوزفيتز - ولا يقرها الكتاب المعاصرون - والذين يرون العديد من الجوانب في اعماله لا تتفق كلياً وارائهم.

لو تجاهلنا اراء ومذهب كلاوزفيتز في الدفاع وفي العلاقة ما بين الحرب والسياسة وأعتبرت بالية ولا تتلائم والعصر الحاضر ، فلم يحضى اذن بكل هذا الإعجاب في الجيش الالماني ؟ أيكون ذلك أولاً وأساساً لانجازاته كما يعلن هانز روثفلز عن ذلك[١٩] . أم في ابعاد الفكر الاستراتيجي عن الاهتمامات التقليدية والعلاقات الهندسية « الى الرجل ، واعماله وسط اجواء الشك والغموض التي هي عنصر ملازم للحرب » ويفرد كاميريرا الفصول التي تبحث في « العبقرية العسكرية»، « الاضطرام في الحرب » و «التوتر والراحة في الحرب» سوية مع الكتابين الاول والثالث ويعدها عموماً الاكثر تأثيراً في تعليم الجيش البروسي ، « لقد حررتنا من كل تلك الصيغ المتكلفة التي تدعي لنفسها مكانة في نظرية الحرب ، واوضحت لنا في النهاية ما هي حقيقة تلك النظرية [٢٠]» وكذلك فان ويلهيلم بلوم يعكس في كتابه الرائع الواسع الانتشار « الاستراتيجية» الصادر عام ١٨٨٤ لاول مرة أصداء كثيرة لكلاوزفيتز عندما كتب بان « كل نظرية ... تسعى لربط العمل المتبادل للقوى الحية نظرية ميتة ، لابد من استبعادها لانها ستؤدي في التطبيق العملي إلى نتائج مدمرة [٢١] »، وإلى هذا الجانب من اراء كلاوزفيتز جلب الكونت فون شليفن الانتباه

---

(١٩) هانزر وثفيلز « كلاوزفيتز » دراسة في رواد الاستراتيجية الحديثة بإشراف اي . ام . ايرل (برنستون ١٩٤٣) ص ١٠٠ ويمضي قائلاً « بطريقة ما ، فان هذه ثورة كوبرنيكوسية» وهذا تحليل غير موفق لان كوكبرنيكوس انزل الانسان عن أن يكون مركز الكون ، فاعاده كلاوزفيتز ومعاصروه .

(٢٠) كاميريرا « تطور العلوم الاستراتيجية » ص ٨٢ .

في مقدمته للطبعة الخامسة من (عن الحرب) عام ١٩٠٥ . اذ كتب بأن كلاوزفيتز قد اوضح ضرورة النظر والتمعن في كل قضية في الحرب على ضوء حقيقتها وجوهرها (Nach Seiner Eigenart) اذ أن هذا وكما يقول « ايقاض لهذا الادراك والتفهم للواقع والذي يدين به البروسيون والجيش الالماني كله الان بالشكر العميق والدائم لهذا المفكر العظيم »[٢٢] .

الثاني . يُستشهد بكلاوزفيتز في تأكيده على تفوق العوامل المعنوية في الحرب، وقد شاعت عبارات ومصطلحات كلاوزفيتز عن قوة ارادة القائد ، وحاجته الى العزم، والثقة بالنفس ، والبداهة واللمحة الخاطفة ، التي شاعت في الكتابات العسكرية الالمانية ، رغم ان ذلك الفضل قد يعزى الى تأثير مولتكة الكبير الذي اكد على أهمية تلك المؤهلات في جميع مستويات القيادة وليس لدى القائد العام كما اراد كلاوزفيتز فقط . ان التأكيد على البساطة والمباشرية أكثر مما على الابداع في المناورة، وعلى العزم والتصميم اكثر مما على الدقة ، وعلى المبادرة الجريئة اكثر مما على الحسابات الدقيقة وكل هذه مما يمكن العثور عليه في كل كتاب او بحث المانيين بين عامي (١٨٧٠ و ١٩١٤) [٢٣] . واستمر ذلك بل وتزايد نظراً لان ظروف حروب القرن العشرين قد جعلت من تلك المؤهلات اكثر اهمية في التقدم والنجاح العسكري مما كانت عليه في عهد نابليون . ففي جيوش عام ١٩٠٠ البالغة الضخامة، التي تعتمد مواصلاتها في الافضل على تلفونات الميدان الواهنة ، كما ان حجوم وتعقيدات تلك الجيوش تجعل المناورات المحكمة الاعداد امر خارج الصدد ، لم يكن بوسع القائد العام سوى اصدار توجيهات عامة الى مرؤوسيه والاعتماد على قدراتهم الفكرية وروح المبادرة لتنفيذها بالتفصيل . قد يجد صغار الضباط انفسهم معزولين وسط ميدان المعركة الواسع وفي ظروف غريبة بل وحتي لا تطاق احياناً ، ودون سند أمين يشد قواهم الداخلية لمواصلة الاداء ، ويحفظ احساسهم العام ليريهم ما عليهم عمله . وبالنسبة لظروف كهذه فان مذهب كلاوزفيتز كان مناسباً بدرجة رائعة كما أحسن مريدوه في التأكيد عليه بشكل جيد .

ولكن ما غاية كل ذلك العزم والتصميم ، والاحساس العام ؟ مرة اخرى يقدم

---

(٢١) اقتبست من كتاب (كاريس) .الفكر العسكري الالماني ، ص ٢٦٣ .

(٢٢) كلاوزفيتز ، عن الحرب ، الطبعة الخامسة (برلين - ١٩٠٥) المقدمة ص ٣ - ٥ .

(٢٣) راجع الامثلة في المرجع (٢١) اعلاه (P. 268 FF) .

لنا كلاوزفيتز اجابة بسيطة وواضحة هي **تدمير العدو**. هذا الجانب من مذهب كلاوزفيتز الذي اكد عليه الكونت شليفن في مقدمته للطبعة الخامسة لـ «عن الحرب». اما ان كان ذلك دائماً وبالضرورة هكذا ، اما اذا كانت عقيدة كلاوزفيتز عن نوعي الحرب لا تتضمن هدفاً بديلاً صالحاً **لاستنزاف العدو** ، فقد ثارت حول ذلك خلافات مذهبية وجدال بين الباحثين وفي الكتب والدوريات العسكرية والتاريخية طوال ثلاثين عاماً ، خلاف تركز لدى المؤرخ العسكري هانزديلبروك ، الذي وضع اطروحة بوقت مبكر يعود الى عام ١٨٨١ أوضح فيها ان لو اتيح لكلاوزفيتز ان يحيا لينقح عمله فسيخصص الكثير من الاهتمام والتقدير لاستراتيجية الاستنزاف Strategy of Attrition التي ميزت حروب القرن الثامن عشر وحملات فردريك الكبير ، وكنقيض لاستراتيجية الابادة Strategy of Annihilation التي ميزت حروب نابليون [٢٤] .

لقد كانت تجارب الحرب العالمية الاولى اشد قتامة لتؤكد أو تبرر رأي (ديلبروك) في ان الاستراتيجية الاولى (الاستنزاف) ليست اقل صلاحية من الثانية ، ولما لم تجد هذه الاراء صدىً او رواجاً يذكر في المؤلفات العسكرية الالمانية قبل ١٩١٤ ظل الموضوع نظرياً (اكاديمياً) . لقد تعلم الجندي الالماني ان هدف الاستراتيجية هو تدمير القوات المسلحة المعادية في معركة ، وكلما كانت المعركة

(٢٤) عرض دلبروك حججه اولاً في (-Zeitschrift Fur Preussiche Geschichte und Landes kunde- Vol - 11, 12 (1881)

ثم اعادها في مؤلفه (تاريخ فن الحرب ضمن اطار التاريخ السياسي Geschichte der Kriegskunstim Rahmen der Politicnhen (Berlin, 1920), 4:439 - 444)

ولم يظهر الخلاف الا عام ١٩٢٠ في مناظرة مع (اوتوهنتز) Forschungenzur brandenburgichen und Preussichen Geschichte, Vol.33.

راجع كذلك الاطروحة عن دلبروك بقلم كوردون كريج في رواد الاستراتيجية الحديثة باشراف (أيرل). **تعليق للمترجم** (ترجم كتاب دلبروك الى الانكليزية بعنوان (History of The Art of War) (تاريخ فن الحرب) في اربع مجلدات عام ١٩٩٠ عن مطبعة جامعة نبراسكا – لنكولن ولندن، ووضع فيه نظريته الشهيرة عن نوعي الاستراتيجية – الافناء Annihilation والاستنزاف Attrition. يعد دلبروك المؤرخ العسكري الاول في العصر الحديث وقد اعتمد في بحوثه على مذهب نقدي يستند الى دراسة الارض اولاً والى الظروف السكانية في تحديد حجوم الجيوش المتحاربة وحول مدى استيعاب ميدان المعركة لذلك القتال والمناورات.

اكبر، كلما كبر تأثير انجاز ذلك الهدف .

كل هذا بطبيعة الحال مما يمكن العثور عليه لدى كلاوزفيتز . ليس لأن لمفهوم المعركة مكانة مركزية في فكره الاستراتيجي فقط ، بل ولانه كتب حولها بحيوية وحماس يجعل تلك الفصول تتطاير من بين الصفحات كرذاذ قرمزي يتوهج على ارضية البحث الرمادية[٢٥] . لقد اقتبست عباراته الشهيرة حول حتمية المذابح الدموية في المعارك الناجحة ، وعن المعارك الدموية في الاستراتيجيات الناجحة . لقد استشهد بها بنوع من الاصرار الممزوج بالإعجاب الشديد وبدرجة غير مألوفة في الكتابات العسكرية الرصينة وكذلك في الكتابات العسكرية الرائجة شعبياً لفون دير غولتز ، وفون بيرناردي ، ومالا يحصى عددهم من امثالهم من رايخ ويلهيلم . لقد اقترن اسم كلاوزفيتز في اذهان الناس بالمعارك والدماء. كذلك الحال بالنسبة للمختصين من العسكريين فقد احتل مفهوم التدمير كهدف للأستراتيجية مكانة لا تقل أهمية – وان يكن ذلك فقط لعجزهم عن رؤية او تصور امكانية اخرى في ظروف الحروب التي نشبت في مطلع القرن العشرين ، وعلى الأخص الحروب التي خاضتها المانية على جبهتين وكيف كانت ستربح تلك الحروب . لقد كتب شليفن نفسه .. « لا يمكن ادارة اية استراتيجية استنزاف عندما تصل نفقات اعاشة بليون مقاتل عدة مليارات ماركات[٢٦] » ، فما لم تستطيع المانيا تدمير هذا الخصم او ذاك من اعدائها الرئيسيين بالسرعة والحجم الذي دمرت فيه القوة العسكرية الفرنسية عام ١٨٧٠ فمن المحتمل ان تسحق هي نفسها بين رحى اعدائها ، والى الحد الذي تبدو فيه استراتيجية الافناء لابد منها . وما اهمله شليفن ومن جاء بعده هو تحديدات الخطة الاستراتيجية ، والتي اثارت بتركيزها على تدمير قوة برية Land Power رئيسية ، أثارت عداء قوة بحرية كبرى . الا ان كلاوزفيتز نفسه لم يبحث في اهمية القوى البحرية في حروب نابليون . ومع كل عمق وبراعة كلاوزفيتز ركز فكره الاستراتيجي وبشدة على جانب واحد ، كما لو كان محصوراً ضمن اطر ومساحة بروسيا المطوقة بدول برية. واستناداً الى تعريفه هو فان الاستراتيجية معنية بتحركات الجيوش ، ولم يحاول اي

(٢٥) لمزيد من التاملات المفيدة في الأسباب النفسية لذلك راجع بحث برنارد برودي « كلاوزفيتز : عواطف للحرب » مجلة السياسة الدولية الامريكية (كانون ثاني / ١٩٧٣) .

(٢٦) كراف فون شليفن – الاعمال الكاملة – المجلد الثاني – برلين ١٩١٣) ١٧:١ .

من مريديه التمعن ومعرفة كيف يمكن تطبيق منهج كلاوزفيتز على ما يستلزم للامبراطورية الالمانية الطامحة لان تغدو قوة عالمية .

لقد تمعنا حتى الآن في تأثيرات كلاوزفيتز على الجيش الالماني فقط. الا ان هذا الجيش كان في مطلع القرن العشرين يعد نموذج لكل الجيوش الاخرى ، ومن خلال تقليدها لاساليب تدريبه ولعقيدته التعبوية فقد تشربت بالتالي بوعي ودون وعي بعقيدة كلاوزفيتز . وفعل الفرنسيون ذلك بوعي تام فقد صدرت ترجمة لكتابه (عن الحرب) بوقت مبكر يعود إلى عام ١٨٤٩ ، وبعد اربع سنوات من ذلك صدرت عنه دراسة نقدية من قبل البروفسور كارياس[٢٧] في الكلية العسكرية الفرنسية (سان سير) . ولا يبدو ان ايا من البحثين قد أقرا في الجيش الفرنسي الذي ظل معتمداً على الابداع الفطري لدى قادته ويؤكد على ضرورة خضوع صغار الضباط واطاعة الاوامر (الثبات على ظهور الخيل والاندفاع بشجاعة تحت النيران). الا ان معارك ١٨٧٠ اثبتت عدم كفاية كل ذلك لمتطلبات ومسؤوليات الحرب الحديثة ، لكن وكنتيجة لذلك فقد توجه معظم الكتاب والنقاد العسكريين الفرنسيين الى البحث لا في أسباب انتصار الجيش البروسي ، ولكن فيما كان نابليون العظيم سيفعله في مواجهة نفس المعضلة . لقد أعتبر كلاوزفيتز ، واكثر من اي شيء آخر، كواحد من بين العديد من شراح العقيدة الحقيقية لنابليون ، والذي ما كان يعكس في الغالب الأشعاع الزاهي لتلك الحقيقة المقدسة[٢٨]. الا ان كاتباً فرنسياً بدأ وبجهد مستقل الكشف عن العلاقة بين العوامل المادية والمعنوية – العقيد اردنت دوبك – الذي قتل في معركة (متز) عام ١٨٧٠ والذي حاز كتابه «دراسة عن الحرب» الذي نشر بعد عشر سنوات من وفاته شهرة ونجاحاً سريعين ، لذا سرعان ما تركز الاهتمام على **قضيةالمعنويات** وما لبث احد معلمي مدرسة الحرب (الفرنسية) هو لوسيان كاردو وبعد تأثره بكتابات فون دير غولتز أن أعد فصلاً دراسياً (كورس) حول كلاوزفيتز عام ١٨٨٤ ، وقد قُدر لهذا العمل أن يفرض تأثيره على جيل بكامله من الضباط الفرنسيين ، الجيل الذي قُدر له صياغة الفكر العسكري للجيش الفرنسي في

---

(٢٧) ايوجين كارياس (الفكر العسكري الفرنسي) (باريس ١٩٦٠) ص ٢٥٢ .

(٢٨) راجع على الأخص كتابات الجنرال بونال والعقيد كامون حول امثلة مفصلة عن توجهاته العنصرية (الشوفينية).

نهاية القرن (التاسع عشر) والذي سيقود ذلك الجيش خلال الحرب العظمى [٢٩].

لقد ركز هولاء الضباط على اراء ومذاهب كلاوزفيتز حول المعنويات ، والمعركة ، والروح التعرضية ، وتناولوها وعرضوها بحماس فاق ما لدى الألمان انفسهم . ولقد اثير حماسهم بالمشاعر الوطنية حول الغضب الفرنسيFuria Francese، الفلسفة المعاصرة الشهيرة لهنري بيرغسون وبكلما فيها من تأكيدات على الحيوية الأساسية L'elan Vital ، كان هذا توجهاً اكثر منه عقيدة ، هذا التوجه الذي يمكن ان نجد افضل شروحه لدى احد الضباط الذين اشتركوا في الفصل الدراسي للوسيان كاردو ، وهذا الضابط هو فرديناند فوش . وفي الحقيقة كان الجيش الفرنسي ومنذ نهاية القرن التاسع عشر قد تشرب كلياً تلك الافكار المبسطة حد التشويه للكلاوزفيتزيه الجديدة كحال خصومهم في الجيش الألماني . وتُقدم لنا نظامات الخدمة السفرية لعام ١٨٩٥ دليلاً حياً على ذلك فقد جاء فيها .. (قد يكون القتال تعرضيا أو دفاعياً الا انه في النهاية يتوخى تحطيم ارادة العدو بالقوة ، وان نفرض عليه ارادتنا . والتعرض وحده يسمح بتحقيق نتائج حاسمة . وليس نهاية الدفاع السلبي الا الهزيمة المؤكدة ، لذا لابد من استبعاده نهائياً [٣٠] .

ويبدو ان هذا المذهب قد تعزز بالدروس التي اظهرها الصراع الكبير التالي بين قوتين كبيرتين هما اليابان وروسيا في حرب ١٩٠٤ ، وحيث اظهر الجيش الياباني من خلال ادارته للعمليات جميع الخصائص التي مجدها كلاوزفيتز ، مثل : الروح التعرضية ، والاستراتيجية البسيطة والمباشرة ، والمبادأة في كل مستوى ، كنقيض لجمود وسلبيات خصومهم الروس . اما السؤال حول ما اذا كان اليابانيون سيتصرفون بنفس الطريقة لو لم يكونوا قد دربوا من قبل احد تلامذة ومريدي كلاوزفيتز وهو الجنرال فون ميكيل ، فسؤال يستحق المزيد من التفكير ؛ الا ان الاكيد هو ، ترجمة عن الحرب الى اليابانية ، كما اعترف القادة اليابانيون وبكل اعتزاز بفضله عليهم [٣١] .

---

(٢٩) دلاس ارفن « اكتشاف الفرنسيين لكلاوزفيتز ونابليون » مجلة معهد الجيش الامريكي العدد الرابع (١٩٤٠) ص ١٤٣ .

(٣٠) استشهد به دلاس ارفن .

(٣١) ارسل دوملر فيرلاك ناشر (عن الحرب) عام ١٩٠٤ نسخاً اولى من الطبعة الخامسة قبل صدورها الى القائد الياباني الكونت كوروكي . وقد اجاب هذا بان الكتاب قد تمت ترجمته الى اليابانية وله اثر قوي في ادارة الحملة . هالفيك . ص ٥٢ .

لفت هذا الفضل نظر المراقبين العسكريين في امبراطورية جزيرية اخرى هي بريطانيا التي راقبت اداء حليفها الجديد في الشرق الأقصى باهتمام خاص[٣٢] ، فبعد السلوك المتوحش للجيش البريطاني ضد جمهورية البوير في جنوب افريقيا ١٨٩٩ – ١٩٠٢ ، انتعش منحى جديد في الفكر العسكري في بريطانيا – انتعاش عززه وعجل به الادراك المتنامي لاحتمال انهماك بريطانيا في مستقبل ليس ببعيد بحرب برية ضد الجيش الالماني . ظهرت ترجمة انكليزية لكتاب عن الحرب عام ١٨٧٤ من قبل العقيد جي . جي . كراهام لكنها كانت قد نفذت منذ وقت بعيد . كان الاهمال والازدراء الذي يحمله الجيش البريطاني لكلاوزفيتز عاماً ، ولعله أُجمل بشكل جيد من قبل احد معلمي كلية الاركان البريطانية (كمبري) وهو العقيد هندرسون، والذي القى محاضرة له في معهد الخدمات المتحدة الملكي (Rusi) عنوانها «دروس من الماضي للحاضر» ، لم يذكر فيها كلاوزفيتز الا على سبيل السخرية ، وبلا مبالاة إذ قال « كلاوزفيتز ، وهو اعمق الكتاب في الحرب يقول ان الجميع يفهمون ماهية العامل المعنوي وكيفية تطبيقه. الا ان كلاوزفيتز كان عبقرياً ، وللعباقرة والاذكياء من الرجال عادات غريبة مزعجة هي إفتراظهم ان بوسع الجميع تفهم كلما هو واضح تماماً بالنسبة لهم [٣٣] » .

هذه الطريقة الناعمة واللاعقلانية والتي كانت سائدة لوقت طويل في الجيش البريطاني الذي احس بسرور احمق في تعلم جميع دروسها بطريقة باهظة التكاليف، قد تزعزعت في السنوات العشر التي سبقت ١٩١٤[٣٤] . بدأ كلاوزفيتز يحضى باهتمام زائد في كلية الاركان البريطانية في كمبرلي ، كالذي خص به في كليات الاركان الاخرى في القارة (الاوروبية) ، وظهرت ترجمة موجزة بقلم (تي . ام. ماكيور) عام ١٩٠٩ مع طبعة جديدة لترجمة العقيد كراهام مع مقدمة للعقيد (اف . ان . مود) جلبت الانتباه لعلاقتها بجيش يحتمل ان يجابه الجيش الالماني ، وصدرت هذه الطبعة بثلاثة مجلدات حمراء قُدر أن يتعرف بواسطتها العديد من الضباط

---

(٣٢) راجع بشكل خاص مقالة مراسل التايمز العسكري العقيد رينكتون والذي اعيد طبعه في تاريخ التايمز للحرب في الشرق الأقصى (لندن ١٩٠٥) ص ٥٤٨ – ٥٣ .

(٣٣) اعيد طبعه في كتاب « علم الحرب » للعقيد جي ١٠ ف ١٠ ، هندرسون (لندن ١٩٠٥) ص ١٧٣ .

(٣٤) راجع جون كوش « خطط الحرب : الاركان العامة والاستراتيجية العسكرية البريطانية ١٩٠٠ – ١٩١٦ (لندن ١٩٧٤) .

الانكليز والامريكيين على كتاب (عن الحرب) طوال السنوات السبعين التي مضت . من المثير جداً أن كلاوزفيتز قد درس بامعان من قبل المؤرخ البحري البريطاني الشهير السير جوليان كوربيت[٣٥] ، الذي أعتمد في كتابه « مبادئ الاستراتيجية البحرية » – ١٩١١ على محاضرات كان قد القاها في الكلية البحرية الملكية في (كرينتش) ، واوضح فيها صلة كلاوزفيتز بمعضلات الحرب البحرية كما اضاف بعداً جديداً وهاماً لمفهومه عن الحرب المحدودة . يعد كوربيت من بين المفكرين القلائل الذين لم يكتفوا بتقديم وشرح كلاوزفيتز لابناء جيلهم بل وطوروا افكاره بطريقة بناءه .

لم يكد كلاوزفيتز يغدو معروفاً ومقروءً في العالم الانكلوسكسوني حتى قام ضده رد فعل قوي . لقد رأى القراء الانكليز فيه بعد عام ١٩١٤ وعلى الاخص في شروح (الفون بيرناردي) و(فون دير غولتز)، رأوا فيه نبياً «للبروسيانية Prussianism» المتعطشة للدماء ، التي حملوا السلاح ضدها . الا ان المتنورين من القراء على جانبي المحيط الاطلسي اتخذوا من نسخة ليست دقيقة حول أفكار كلاوزفيتز عن العلاقة بين الحرب والسياسة كدليل على الروح العسكرية البحتة والعدوانية . لا شك ان شعبية كلاوزفيتز في المانيا خلال الحرب العظمى سبب كاف للاشعبيته بين اعداء المانيا، وتواصلت هذه المشاعر اللاشعبية ضده وتأصلت في اجيال ما بعد الحرب الذين رأوا في فضائع ومأسي الحرب العالمية الاولى نتائجاً مباشرة لافكار ومبادئ كلاوزفيتز. وهم ليسوا مخطئين كليا في ذلك ، الا أن من الصعب توجيه اللوم الى كلاوزفيتز حول تلك المفاهيم المدمرة عن التعرض والتي تسببت بموت ما يقرب من مليون شاب فرنسي عامي (١٩١٤ ، ١٩١٥) اما في المعارك الطاحنة وحرب الاستنزاف عامي ١٩١٦ – ١٧ ، والحجج التي أثيرت في تبريرها ، فيمكن للمرء وبسهولة تتبع فلسفة كلاوزفيتز على المستوين التعبوي والاستراتيجي . فالتشكيك في المناورة الاستراتيجية ، وحشد أقصى قدر من القوة في النقطة الحاسمة لتدمير قوة العدو الرئيسية في معركة ، وادارة العمليات بالشكل الذي يوقع اكبر قدر ممكن من الخسائر

---

(٣٥) جوليان كوربيت . كاتب انكليزي له دراسات عن الجوانب الدبلوماسية والعسكرية للحروب الكبيرة في عصر السفن الشراعية وشروح كثيرة لنظريات الفريدماهان وللمزيد راجع عنه اطروحة دونالدشومان « تعليم البحرية : تطوير الفكر الاستراتيجي البحري البريطاني ما بين ١٨٦٧ – ١٩١٤ (لندن – ١٩٦٥) من اشهر كتبه « (حملة الطرف الاغر) ورغم ورود الاشارة الى كوربيت في العديد من امهات المصادر الا انها تخلو من أية تفاصيل عن حياته بل ان قاموس وبستر يتحدث عن ملاكم بنفس الإسم دون الاشارة الى هذا المفكر الرائد في الحرب البحرية . المترجم .

بالعدو واجباره على استخدام احتياطاته بطريقة ومعدلات اسرع مما يريد ، ورفض التوقف بعناد عن مواصلة الضغط على العدو بسبب جسامة الخسائر ، ولقد استخدمت كل هذه المبادئ المألوفة لدى كلاوزفيتز لتبرير استمرار مواصلة الهجمات في الجبهة الغربية من قبل القادة البريطانيين الذين جسدوا ودون وعي تقريباً تلك الخصائص والسمات، كالهدوء والعزم والصمود التي طالما ابدى كلاوزفيتز اعجابه الشديد وتمسكه بها بقوة .

لذلك لم يكن من المستغرب بالنسبة لاكبر منتقدي استراتيجية الحرب في الجبهة الغربية النقيب بي . ا ج . ليدل هارت ، أن يشمل نقده واستهجانه كلاوزفيتز نفسه وكذلك مريديه وتلامذته . لقد اقر ليدل هارت في كتاباته المتعددة ان اؤلئك المريدين غالباً ما اساءوا فهم كلاوزفيتز بسبب « غموض» كتاباته ، الا ان تعليقات ليدل هارت هي الأخرى غالباً ما تكشف بدورها سوء فهم مقابل لكلاوزفيتز ، وعلى سبيل المثال فقد كتب ليدل هارت بان كلاوزفيتز «قد اعلن سيادة قوة وفعالية الارادة في الانتصار، والقيمة الفريدة للتعرض الذي يشن بعنف لا محدود من قبل امه معبأة تحت السلاح ، **وقوة العمل العسكري وتفوقه على اي شيء اخر**[٣٦]» وعلى ضوء اصرار كلاوزفيتز الواضح والمتكرر على ضرورة اخضاع الوسائل العسكرية للغايات السياسية ، لأن مثل هذا التأكيد النهائي أمر محير. والاكثر غرابة من ذلك أن ليدل هارت قد فرض تحريماً على كلاوزفيتز في كتابه شبح نابليون الذي صدر أيام اشتداد النقد وردود الفعل القاسية ضد استراتيجية الجبهة الغربية عام ١٩٣٣ حيث قال ليدل هارت واصفاً كلاوزفيتز بـ « مصدر عقيدة الحرب المطلقة» او نظرية القتال حتى النهاية ، هذه العقيدة التي بدأت بحجة كلاوزفيتز الشهيرة بكون « الحرب مجرد استمرار لسياسة الدولة بوسائل اخرى » وانتهت بجعل السياسة عبداً للأستراتيجية .. لقد اهتم كلاوزفيتز بنهاية الحرب فقط ، وليس الى ما وراء الحرب والسلام الذي سينتج عنها[٣٧]».

لقد ادرك كلاوزفيتز ، ويقر ليدل هارت نفسه ذلك ، « تكيفاً مع الواقع» كما علّمنا ..«أن الهدف السياسي هو الذي يقرر الجهد المطلوب » لكن « ولسوء الحظ لم

---

(٣٦) ليدل هارت ، (فوش ، رجل من اورليان) – لندن ١٩٣١ – ص ٢٢ .

(٣٧) ليدل هارت (شبح نابليون) – لندن – ١٩٣٣ – ص ١٢١ .

ترد هذه المؤهلات الا في الصفحات الاخيرة ، وقدمت بلغة فلسفية تربك الجندي البسيط ، ذو العقل الصلب اساساً[٣٨]» وبطبيعة الحال فقد جرى التأكيد على تلك «المؤهلات» بقوة وعرضت كجزء أساسي من حجج وطروحات كلاوزفيتز ، لكن «لا في الصفحات الاخيرة » بل وفي الفصل الأول بالذات ، والذي كتب عنه ليدل هارت .. « لا يحتمل ان يتمكن واحد من كل مائة قارئ متابعة تعقيدات منطقة ، او الاحتفاظ بتوازن حقيقي وسط كل هذه الشعوذة الفلسفية[٣٩] » وللقارى وحده الحق في الحكم على صحة هذه الاتهامات .

اخيراً وبعد تجريح ليدل هارت القاسي لمفهوم « الحرب المطلقة » يقترح وكبديل عنها « استراتيجية الغاية المحدودة ويرى ان الحكومة قد :

> ترغب بالانتظار او حتى تقليص جهدها العسكري على الدوام في الوقت الذي تتولى الاعمال الاقتصادية او البحرية (Naval) الامر. وقد تنتهي في حسابها الى أن مهمة التفوق على قوة العدو العسكرية هي واجب فوق قدرتها بالتحديد ، أو انه لا يستحق الجهد المبذول — وان أهداف سياسة الحرب يمكن ان تتحقق باحتلال الارض التي بوسعها أنذاك — اي الدولة — اما الاحتفاظ بها أو المساومة عليها في محادثات الصلح ... هناك اذن اساس للبحث فيما اذا كانت هذه السياسة العسكرية « المحافظة» تستحق مكاناً في نظرية ادارة الحرب[٤٠].

لا يحتاج المرء الذهاب بعيداً في قراءة كلاوزفيتز — ليس أبعد ، على وجه الدقة من الفقرة الاولى من « ملاحظة» ١٠/تموز/١٨٢٧ — قبل العثور على أوضح عرض لعقيدة « الغاية المحدودة » هذه .

تظل انتقادات ليدل هارت ، لكلاوزفيتز سليمة ومقبولة من اوجه عدة : فتكرار التأكيد على المعركة ، والإهتمام الضئيل بالمناورة ، وتعريف الاستراتيجية الذي يتجاهل كلما عدى الوسائل العسكرية الصرفة ، وتجاهل العوامل الاقتصادية

---

(٣٨) المرجع السابق . ١٢٣ .

(٣٩) ليدل هارت — (استراتيجية التقرب غير المباشر) الطبعة الثالثة — لندن — ١٩٥٤ — ص ٣٥٥ . ويحتوي هذا المصدر العديد من الانتقادات لكلاوزفيتز والتي ظهرت لأول مرة في كتاب شبح نابليون ، ترجم هذا الكتاب الى العربية ولكن بعنوان « الاستراتيجية وتاريخها في العالم » الهيثم الايوبي — دار الطليعة .

(٤٠) الاستراتيجية ص ٣٣٤ .

والبحرية ، والعناء وسمة التناقض – الذاتي في معظم كتاباته ، وجميع تلك المبتسرات والجمل القصيرة المتقطعة ، التي وان امكن فهمها ضمن سياقاتها الا انها في حاجة الى الكثير من التوضيح . الا ان الصورة النهائية التي رسمها ليدل هارت لكلاوزفيتز واراءه تظل مشوهة ، وغير دقيقة ولا امينة حتى . ونظراً لان ليدل هارت ربما كان أوسع الكتاب العسكريين شهرة وقراءً في زمانه في العالم الناطق بالانكليزية، فقد قُبلت هذه ايام الحرب العالمية الثانية ، عموما على انها حقيقة .

لم يفقد كلاوزفيتز شيئاً من شعبيته ومكانته في المانيا . لقد واصل الجنرال فون سيكيت (Von Seeckt)[41] خلال عشرينيات القرن تغذية جيش الرايخ بالدروس التي استخلصها له فون شليفن في أهمية المبادأة والروح المعنوية ، والمرونة والاعتماد على النفس ، وفي دراسة الامثلة التاريخية كدليل عمل [42] . صدرت الطبعة الرابعة عشر من « عن الحرب » عام ١٩٣٣ في الذكرى المئوية لميلاد شليفن ، كما اعلن القائد العام للجيش الالماني الجديد ، الجنرال فون بلومبرج .. « بغض النظر عن التحول الأساسي في جميع الوسائل الفنية يظل كتاب عن الحرب لكلاوزفيتز المصدر الأساس لكل التطورات العقلانية في فن الحرب على مر العصور[43] » وتوالى اصدار عدة طبعات شعبية خلال الثلاثينيات بالاضافة الى طبعة كاملة عام ١٩٣٧ ، الى العديد من المقالات والبحوث في المجلات التاريخية والعسكرية الدورية لكتاب امثال

---

(٤١) الجنرال فون سيكيت . الذي تولى بعث الجيش الالماني بعد هزيمته في الحرب الأولى وشروط معاهدة فرساي القاسية التي حددت تعداده بـ (١٠٠ ألف) منهم اربعة آلاف ضابط . تولى سيكيت قيادته وله كل الفضل في تدريب وزيادة حجم هذا الجيش . ركز على التدريب والمعنويات (احترام النفس) ووحدة الجيش بعيداً عن السياسة وتحديثه ، وكان يرى أن جيشاً الياً صغيراً أفضل كثيراً من جيش ضخم قديم البناء . أحيل على التقاعد عام ١٩٣١ وتوفى عام ١٩٣٦ فعل للجيش الالماني ما فعله شارنهورست وجنيسناو بعد هزيمة (ينا) على يد نابليون . المترجم .

(٤٢) راجع مجموعة خطب فون سيكيت في « تأملات جندي » – لندن (١٩٣٠) .

(٤٣) المعرفة والدفاع (wissen und wher) ١٩٣٣ – ص ٤٧٧ .

كارل لينتباخ، وهانز روثفيلز ، وهيربرت روزنسكي و(والترشيرنك) وايبرهارت كيزل[٤٤]. ونظراً لاعتبار كلاوزفيتز رائداً للقومية الالمانية ، واعظم الكتاب في الحرب فقد حضي بمكانة عالية جداً في المحافل النازية .

لا يمكن قول نفس الشيء عن جميع تلامذته بل ، ان اثنين من اكثرهم تأثيراً واهمية ، وهما (هانز روثفيلز) و(هيربرت روزنسكي) قد طلبا اللجوء الى الولايات المتحدة هرباً من الملاحقة العنصرية . ظلت معظم دراسات روزنسكي عن كلاوزفيتز دون نشر ، عدى بعض التعليقات الفكرية التي تضمنها كتاب « الجيش الألماني – ١٩٢٠» ، الا ان محاضراته في الجامعات والكليات الحربية قدمت اعماله الى عدد اكبر من القراء والمستمعين . اما هانزروثفيلز فقد نشرت دراسته الشهيرة عن كلاوزفيتز في كتاب « رواد الاستراتيجية الحديثة » الذي صدر باشراف اي . ام ايرل عام (١٩٤٣) وضم اربع وعشرين دراسة ، وقد تولت تعريف الاجيال الجديدة بكلاوزفيتز الذي ظل موضع دراسة واعجاب الباحثين والقادة العسكريين الالمان لوقت طويل ، كما ساعدت هذه الدراسة في ازالة الصورة الزائفة التي رسمت لكلاوزفيتز بين الناطقين بالانكليزية ، منذ عام ١٩١٤ . كما صدرت ترجمة جديدة بقلم او . جي. ماتجيز جوليس عام ١٩٤٣ في الولايات المتحدة ، ازالت بدورها الكثير من الغموض والاخطاء التي ظهرت في ترجمة كراهام لـ «عن الحرب» .

ليس هناك سوى القليل مما يوحي بدراسة كلاوزفيتز بامعان وتركيز في المدارس العسكرية الاميركية ما بين الحربين . وقد اوضح بيرنارد برودي بأن تأثير جوميني ظل سائداً ودون منازع تقريباً هناك منذ الحرب الأهلية . الا ان تلك الجوانب التي سيطرت على التفكير الاستراتيجي عام ١٩١٤ من فكر وعقيدة كلاوزفيتز ، قد عبرت المحيط الاطلسي دون شك مع نهاية الحرب العالمية الأولي . لقد تضمنت

---

(٤٤) راجع بشكل خاص المجلة التاريخية عامي ١٩٣٥ ، و ١٩٤٣ ، كذلك (ويزن) و (فين) للسنوات ١٩٣١ – ٣٣–٣٦ . ففي المجلة التاريخية لعام ١٩٤٣ كتب المؤرخ جيرهارد رتر تحليلاً قاسياً لأفكار كلاوزفيتز عن المفهوم السياسي للحرب وصعوبة تطبيقها في ظروف القرن العشرين . واعيد طبع هذا التحليل في كتابه ١٩٥٤ ص ٦٧ – ٦٩ الجزء الأول ميونيخ (Staatskunst und Kriegshandwerk) (اما دراسة هانز روثفيلز عن كلاوزفيتز فقد استبعدت من طبعة عام ١٩٨٦ لكتاب رواد الاستراتيجية الحديثة وحلت محلها دراسة بقلم بيترباريت (الجزء الثاني – الفصل السابع) بالاضافة إلى تعديلات واضافات عديدة لطبعة عام ١٩٨٦ (جامعة اوكسفورد – نيويورك) باشراف بيترباريت وهو قيد الترجمة ونأمل اصداره بعد كتاب عن الحرب ان شاء الله سبحانه – المترجم).

نظامات الخدمة السفرية للجيش (الامريكي) عام ١٩٢٣ « الهدف النهائي لكل العمليات العسكرية هو تدمير القوات المسلحة للعدو بالقتال . التدمير الحاسم في معركة يحطم ارادة العدو للحرب ويجبره على البحث عن السلام [٤٥] ».

تلك هي التوجهات التي قادت الجنرال مارشال بالتأكيد ، عند وضع الخطط لتدمير المانيا في الحرب العالمية الثانية الى التمسك بشدة بمراعاة خططه كحشد القسم الاعظم من القوات الامريكية في النقطة الحاسمة ، شمال غرب اوروبا (اي بريطانيا)، المكان الوحيد الذي يمكن منه تدمير قوة الجيش الالماني في معركة [٤٦].

الا أن الصراع الكبير التالي الذي شاركت الولايات المتحدة فيه في كوريا (١٩٥٠ – ٥٣) هو الذي تسبب بظهور دراسات جديدة وجادة لكلاوزفيتز على جانبي الأطلسي . اذ أجبرت تلك الحرب ، الحكومة الامريكية على التعامل مع اثنين من المعاضل التي درسها كلاوزفيتز بعمق اكبر ، وهما ، العلاقة بين السلطتين المدنية والعسكرية في ادارة الحرب ، وادارة الحرب لغاية محدودة – أي الحرب التي لا تستهدف التدمير الكامل للعدو . لقد كان قائد القوات الامريكية في الشرق الأقصى الجنرال (دوكلاس ماك ارثر) يؤمن بشدة بالعقيدة التي سادت بين المفكرين العسكريين الاوروبيين عام ١٩١٤ ، وصاغها بعبارة تذكرنا بمولتكه نفسه ، اذ قال مخاطباً اعضاء الكونكرس كأنه يتذكر :

> لا يتحدد قائد الساحة بالتعامل ومعالجة قواته فقط ، فهو يسيطر علي كل المنطقة (Area) سياسياً واقتصادياً وعسكرياً . وفي تلك المرحلة من اللعبة حيث يفشل السياسيون ويتولى العسكريون الامر فعليكم ان تثقوا بالعسكرية .. واعلن هنا ودون مواربة ، انه وحال اشتباك الرجال في المعركة ، ينبغي الا يظل هناك مكان بعد لاي حذلقة او الاعيب بأسم السياسة التي لن تؤدي الا الى عرقة عمل الرجال وتقليل فرصهم في النصر ، ووقوع المزيد من الخسائر [٤٧] .

---

(٤٥) اقتبست من قبل موريس ماتلوف في « النظرة الأمريكية للحرب ١٩١٠ – ١٩٤٥» ، ومايكل هيوارد في الكتاب الذي أشرف عليه « الحرب في النظرية والتطبيق » لندن ١٩٦٥ ص ٢٢٣ .

(٤٦) راجع خصوصاً موريس ماتلوف ، وادوين سنيل التخطيط الاستراتيجي لحروب التحالف Coalition Warfare ١٩٤١ – ٤٢ » واشنطن ١٩٥٣ ص ١٧٤ – ١٩٧ وللباقي راجع سي . برج و (جورج مارشال) – المحنة والأمل ١٩٣٩ – ٤٢ – نيويورك – ١٩٦٦) ص ٣٠٣ ٣٢٠ .

(٤٧) اقتبست في كتاب « الأسلحة والدولة » لوالترمليز (نيويورك – ١٩٥٨) ص ٣٢٥ .

سبب هذا البيان والتوجهات التي عبر عنها اهتماماً عميقاً بين الدوائر الحكومية في الولايات المتحدة من جهة وبين المجموعات المتنامية من المفكرين الاستراتيجيين على جانبي الاطلسي . كان تطوير الاسلحة النووية من قبل الطرفين قد جعل من المحتمل ان يؤدي ذلك النوع من الحل العسكري الذي دافع عنه الجنرال ماك ارثر الى التسبب بدرجة غير مقبولة من التدمير المتبادل والذي سيؤدي تزايد الاسلحة النو–حرارية الى مضاعفته الى مستوى غير معقول من الضخامة . وغدى من المستحيل تصور اية اهداف سياسية تبرر استخدام اسلحة كهذه . من الضروري جداً قراءة كلاوزفيتز مجدداً للتمعن في مفهوم « الحرب المحدودة ». فهم كالمسيوجردان بطل موليير[٤٨] الذي اكتشف بعد وقت طويل ان ما كان يقوله طول حياته هو النثر ، كذلك الحال مع القوات الامريكية وحليفاتها في انها كانت تقاتل في كوريا تلك «الحرب المحدودة» التي عناها كلاوزفيتز دون ان تدري .

من بين الكتاب الكثيرون الذين كتبوا في الخمسينيات حول «الحرب المحدودة»، قليل منهم فقط اقروا بضرورة الاعتراف بالشكر لكلاوزفيتز[٤٩] اذ رأوا انهم توصلوا الى الفكرة بانفسهم ، الا ان البعض منهم ، وبالذات (روبرت اوزكود)، (وبرنار برودي) قد وجدوا لدى كلاوزفيتز نمطاً من الفكر كالذي اسهموا في صياغته فاعترفوا له بالفضل ، ومن خلال تأثير هؤلاء الكتاب واخرين غيرهم بدأت دراسات مجددة حول كلاوزفيتز ، كما حضي من جديد بقراءٍ أوسع مما كان في السابق[٥٠] كما لم تقتصر قراءة كلاوزفيتز هذه المرة على الجنود (القادة) المعنيين بادارة الحرب بل وكذلك التلامذة والباحثين في السياسة الدولية المعنيين بصيانة

---

(٤٨) جوردان بطل مسرحية السيد البورجوازي، هذا المتحذلق الذي يقلد علية القوم بشكل يجعله مثاراً للسخرية وقد اكتشف هذا السيد ان الاخرين إن قالوا الشعر فانه كان يتكلم ما يعرف بالنثر طول حياته :

Dictionary of Phrase and Fable - Brewers London - 1975 p. 594 .

(٤٩) اجملت الكتابات حول الحرب المحدودة في هذه المرحلة من كتاب « الحرب المحدودة في العصر النووي » لمورتون هيلبرين (نيويورك – ١٩٦٣) .

(٥٠) روبرت اوزكود « الحرب المحدودة : التحدي لأستراتيجية امريكا (شيكاغو ١٩٥٧) وكتاب «الاستراتيجية في عصر الصواريخ » بيرنارد برودي (برنستون – ١٩٥٩) .

السلام . إن كان القرن التاسع عشر قد ركز التأكيد على اراء ومبادئ كلاوزفيتز حول العوامل المعنوية، فعلى القراء في منتصف القرن العشرين التركيز – وربما بنفس القدر أو أكبر على تأكيد كلاوزفيتز باسبقية الهدف السياسي .

تلك هي القضية بالتأكيد بالنسبة لمن درسوا كلاوزفيتز من اساطين الماركسية . وعندما تعرف فردريك أنجلز لأول مرة علي كتاب « عن الحرب» ، لم تكن هذه الجوانب من كتابات كلاوزفيتز هي التي اثارت اهتمامه في الحقيقة وبقوة ، بل تلك الصلات والتشابه ما بين الحرب والتجارة هي التي لفتت نظر ماركس « انها طريقة بارعة في التفلسف حول الموضوع » وتابع تعليقه قائلاً «الا انها طريقة جيدة للغاية» كما عبر ماركس عن انطباع مشابه « لدى هذا المشعوذ إدراك متبصر في تحليل القضية»[٥١] . الا ان الذي ركز عليه لينين في دراسته المعنونة بـ « الاشتراكية والحرب – ١٩١٥ »هو مفهوم « الحرب كاستمرار للسياسة بوسائل (العنف مثلاً) اخرى » فكتب قائلاً .. « لقد اوضحت هذه المقولة وبشكل كامل من قبل أحد أكبر الذين كتبوا في معضلات الحرب » ولقد أعتبر الماركسيون على الدوام هذه الاطروحات وبحق كأساس نظري لارائهم في أهمية ودلالة أي حرب [٥٢] .

لقد أوضح ، في هذا الجزء والاجزاء التي تلته ، ان كل حرب ترتبط وبشكل لازب مع النظام السياسي الذي انبثقت منه ، وبالسياسة التي تضعها وتتابعها الطبقة الحاكمة ، (لا تتحدد سماتها بعد ، او في النقطة التي تتخذ فيها الجيوش المتحاربة اماكنها (ولكن بـ) السياسة التي تنفذ بالحرب ، وبالطبقة التي تتولى زمام الحرب والأهداف المتوخى تحقيقها في مسارها [٥٣] .

لقد منح هذا الثناء الكريم ، اعترافاً بهذا الفيلسوف البورجوازي في اعين الماركسيين – اللينيين . الا ان ستالين وكممثل « للطبقة العاملة اليدوية » رفضه إذ ليس لديه ما يفيد ويعلم العصر الصناعي ، الا ان اشارات التكريم والاطراء تواصلت في الكتابات العسكرية الروسية ، حتى أحس الجيل الجديد بضرورة تطهير الفكر

---

(٥١) ماركس أنجلز – الاعمال (Werke) برلين ١٩٦٣ ص ٢٥٢ ٢٣٦ .

(٥٢) اقتبست من « الماركسية وعلم الحرب » باشراف بيرنارد سميل (اوكسفورد – ١٩٨١) ص – ٦٧ .

(٥٣) ويرنر هالفيك . مقدمة لكتاب عن الحرب (بون ١٩٨٠) ص ٩٨ .

السوفيتي من طفيلي غريب كهذا . الا ان دراسة شاملة أعدها (بي . بابلي) واخرون أظهرت انه وبرفض السياسة الطبقية فان كلاوزفيتز (يطرح موقفاً سياسياً مثاليا ، وزائفاً يدعوه هو بالعقل المتجسد للدولة ... (فهو) يتجاهل كلياً حقيقة ان السياسة تتشكل بفعل وقوة اسباب عميقة الجذور في النظام الأقتصادي للمجتمع)، ويطرحون بدلاً عن ذلك تعريفهم الخاص في أن « الحرب استمرار لسياسات طبقات ودول محددة بوسائل اخرى[٥٤] » وهكذا سمح لكلاوزفيتز الذي أُخضع لتحويرات ماركسية باستعادة مكانه في الهيكل الماركسي ، مع أن عدة مراجع ماركسية في الاستراتيجية لم تسهم في أي اطراء وثناء على كلاوزفيتز .

وهكذا يتضح لنا في النهاية ان كتاب « عن الحرب» يستحق كلياً أن يُدرّس في الجامعات كما في الكليات العسكرية . على ان لا ننسى أن كلاوزفيتز كان جندياً وكتب اساساً لأقرانه الجنود ، وأنه نظر مقدماً الى استمرارية الحرب كشيء طبيعي ومحتوم ، وان مبادئه وتعاليمه موجهة الى الأجيال اللاحقة من المقاتلين الوطنيين الالمان دفاعاً عن أرض الاجداد – وليس لرجال الدولة الذين يوجهون السياسة الدولية في عصر الانتشار النووي . هناك الكثير مما لا يصلح للقراءة من كتابات كلاوزفيتز ، كما لا يجوز لنا ان نتوقع منه اكثر مما قصد إليه بنفسه . وسيبقى المعيار المعول عليه لعبقريته هو انه ورغم ان العصر الذي كتب له اصبح من الماضي ، فما زال بوسعه تقديم الكثير من الأفكار التبصر الوثيقي الصلة بعصر ذو طبيعة ومعضلات ليس بوسعه استباق توقعها بسهولة .

---

(٥٤) الماركسية اللينينة عن الحرب والجيش (موسكو ١٩٧٢) ص ١٧ – ١٩ .

الصلة المستمرة لـ « عن الحرب »

بقلم : بيرنارد برودي

وصف المرحوم هيربرت روزنسكي في دراسته الممتازة «الجيش الألماني» كتاب « عن الحرب » بانه اعمق واشمل وأرتب دراسة ظهرت حتى الآن حول الحرب . كما ان لدى روزنسكي ملاحظات واهتمام حول تأثيرات ذلك الكتاب ، لانه كتب في مكان آخر قائلاً : « الحقيقة انه يعلو على جميع المؤلفات العسكرية والبحرية الاخرى ، متوغلاً في مجالات لم يحاول أي مفكر عسكري آخر الاقتراب منها ، وهذا هو السبب الذي ادى الى أن يساء فهمه[1] .. » .

مع أن سوء الفهم هذا موجود في الأغلب ، الا أن شروح روزنسكي اغفلت النقطة الأساسية حوله ، يُعد روزنسكي تلميذاً وباحثاً مجداً لكل من كلاوزفيتز وللحرب ، كما إن تصويره للكتاب كان رائعاً الى حد كبير ، لكن وعندما يساء فهم كتاب « عن الحرب» فليس ذلك بسبب اية صعوبات متأصلة في تفهم افكاره . رغم ان افكار كلاوزفيتز تنهال وتتراكم بكثافة الا انها عموماً بسيطة وقد أُحسن التعبير عنها في معظم اقسام الكتاب وبلغة يسهل فهمها سواء في الاصل الألماني أو في الترجمات الحديثة ، ومثل هذه الخصائص قد تخدع القارئ العادي وتقوده الى التفكير بان ما يقرأه ليس سوى موضوعات عادية مبتذلة . لعل هذا الفهم السطحي كان السبب الذي دفع بضابط بريطاني متقاعد ذو رتبة كبيرة وليس محروماً من الثقافة ، ليقول لكاتب هذا المقال قبيل سنوات « لقد حاولت مرة قراءة كلاوزفيتز الا اني لم اخرج من ذلك بطائل » . ولو انه قد صادف افكاراً استراتيجية جديدة يتطلب فهمها بعض الجهد والعناء – كبعض الاطروحات الاستراتيجية الحديثة التي تستخدم الرياضيات ، ونظرية

---

(١) الاستشهاد الاول من روزنسكي من الطبعة المنقحة لكتاب الجيش الالماني (واشنطن ١٩٤٤) ص ٧٣ . اما الثاني فمن الطبعة الأصلية (لندن ١٩٤٠) ص ١٢٢ .

اللعبة وما شابه ذلك – فسيبذل انذاك ذلك الجهد وربما سيتولد لديه شعور بنيله شيئا ذا قيمة تتناسب وجهده . بدلاً عن ذلك فقد واجه الحكمة الا انه اعتقد الا جديد فيها . ولعله وجد أيضاً في بعض الافكار التي لا يحبها والافكار التي لا تحضى بالقبول سبباً عاماً وقوى لاساءة فهمها .

لابد للأطروحة التمهيدية من هدف يكفل توسطها بين القارئ وموضوعه ، وهدف هذه الاطروحة هو وعلى الاغلب مساعدته لتجنب ما وقع فيه صديقي (البريطاني) العسكري المتميز . واحدى طرق تجنب ذلك هي بعدم قراءة كلاوزفيتز طبعاً ، وتلك كانت الطريقة التي اختارها الجميع ما عدا جزء قليل من المثقفين بما فيهم تلك النسبة الكبيرة من الذين لم يتوانوا عن الاستشهاد به والاقتباس منه. لم يقرأ المدنيون اعمال كلاوزفيتز لانهم اعتقدوا دون مبرر معقول أن موضوعاته عويصة ومبهمة ، او ربما بعيدة عن مجال اهتمامهم ، اما العسكريون وباستثناء قلة قليلة منهم فقد تجاهلوه ولكن لأسباب اخرى . اما القارئ الحديث فان تناول كتاب كلاوزفيتز فمن الواضح أن لديه تصميم أفضل ، وليتأكد ومنذ البداية ان ليست هناك لغة عويصة لا تفهم ولا افكار لا يُسبر غورها ، وليست الكتب التي تبحث في الاستراتيجية هي من هذا النوع ، فقد تكون غير واضحة او غريبة ولكنها نادراً ما تكون صعبة .

هناك دون شك بعض المعضلات في قراءة كلاوزفيتز ، ولكن ما علينا سوى محاولة الاحاطة بها واستكشافها ، لأن المواجهة المباشرة لتلك المعضلات ستساعد على ازالتها . وكمثال على تلك المعضلات فان اقساماً كبيرة من الكتاب قديمة حقاً ، واقساماً كبيرة اخرى تبدو اكثر قدماً مما هي عليه فعلاً لان الامثلة التاريخية التي استُشهد بهدا لتصوير احداثها كانت من ازمنة غابرة دون محالة . كما إن كتاب « عن الحرب» عمل يمكن ان يفقد القارئ فيه رؤية الغابة بسبب انشغاله بالاشجار . كما انه كتاب طويل جداً وفيه ما لاحصر له من الموضوعات والخصائص التي تتعلق بانشائه ، والتي تضاف لهذه السمة ، واخيراً فهو بالتأكيد ليس على نفس المستوى الرفيع في كل اقسامه.

لقد اوضح كلاوزفيتز نفسه في « الملاحظة» التي تركها مع مسودة الكتاب بان التنقيح الذي خطط لتنفيذه على عمله سيكون جذرياً وشاملاً ، و«سيخلص الكتب الستة الأولى من الكثير من المواضيع الزائدة ، وملئ مختلف الثغرات الباقية كبيرة

كانت تلك او صغيرة ، وتحديد الكثير من العموميات من حيث الموضوع او الشكل وجعلها اكثر تركيزاً » . لقد كان يعني ما يقوله في تعبيره عن عدم رضاه عن المسودات كما هي ، مع أن العديد من اخلص مفسريه ينسون ذلك كما يبدو . وهناك تناقض واختلافات كبيرة بين الفصل الذي عده كلاوزفيتز كاملاً ومنقحاً وهو الفصل الاول من العمل ، وبين العديد من الفصول الاخرى . الخلاصة علينا التهيؤ للتعامل مع عمل غير كامل ويعوزه التنظيم وحافل بالحشو والتكرار وحتى غير المترابط أحياناً . من الناحية الاخرى فهناك احيانا اضافات زائدة ، وبين أونة وأخرى نرى ان المعنى الدقيق لواحدة أو أكثر من النقاط ، تجريدي أو غامض ليس بسبب صعوبة متأصلة تحول دون فهمها ولكن لان الكاتب لم يحدد المعنى الذي يريده بوضوح كاف . وعلى سبيل المثال فما الذي كان يقصده بالضبط بمفهومه المهم عن « نقطة ذروة الانتصار » حين أستبعد وبادراك وليس مصادفة ، مسيرة نابليون الى موسكوكمثال على ذلك ؟ . الحقيقة ان حذفه لها يشكل قرينة أو مفتاحاً للمعنى الذي يريده ، مع أن القارئ العادي سوف لن يلحظ ذلك .

ومع ادراكنا التام لاستحقاق كلاوزفيتز ان يقرأ الان لانه لم يكتب لعصر معين ، وكل امرؤ هو إبن عصره وثقافته الا الذين تستغرقهم افكار جديدة وطموحة فلن يتحددوا بزمن معين بطريقة خاصة جداً . لقد لاحظنا حتى الآن وسنقول الكثير حول قدم الكثير من كتابات كلاوزفيتز وكلنا سنواجه ايضاً عبارات اصطلاحية خاصة ليس في الجانب اللغوي فقط بل وحتى فكرياً احياناً . هذا الرجل الذي كان شاباً في مطلع القرن التاسع عشر (والذي ستنتهي حياته قبل انتهاء الثلث الأول منه)، والعالي الثقافة ولكن المحروم في الوقت نفسه من التعليم الرسمي ، العميق الحساسية والعاطفة والذي يحي في عصر ، وارتبط بمهنة عرضاه كلاهما الى تجارب غير عادية مع الحرب ، والذي ومثلنا جميعاً لديه خصائص معينة في الشخصية والأسلوب ، سيكتب دون شك بطريقة تعكس والى حد ما تلك الاشياء . ومع كلاوزفيتز وليس باكثر مما مع اي مفكر وكاتب كبير سنتعامل بفكر متحرر .

قد يكون من العبث بل ولعله متعباً ايضاً وهو على اية حال خارج نطاق، ولا علاقة له حتى بمحاولتنا القيام بهذا العمل الذي كان وعلى الدوام مزعجاً ومعقداً اي بربط بعض الافكار الخاصة التي عبر عنها كلاوزفيتز بما نعرفه عن تجربته ، او ما نفترضه عن شخصيته ، وهذا ما يصعب تجنبه او الافلات منه احياناً . لقد فوجيء الكثير من

القراء على سبيل المثال وهم بعد في الصفحات الاولى من « عن الحرب » بفكرة الكاتب عن « الحرب المطلقة » – هذا المصطلح الذي سيرد في هذه الترجمة بأقل مما يرد في الترجمات الاخرى – ، وكذلك بسبب عملية التشويه التي تطالع القارئ في الصفحات الاولى ، من التركيز على الحاجة الى ، وخاصيات « المفهوم النقي » للحرب، الى مناقشة اشياء اكثر عملية . والى كل ذلك فما الذي يمكن أن يعد طبيعياً لكاتب عاش في عصر ، ونفس البلد الذي عاش فيه كانت وهيجل ، والذي قرر كتابة ما سيعترف القارئ بانه اكثر البحوث عمقاً ونفاذاً وكذلك شمولية عن الحرب كُتب حتى الآن ؟ لقد حشر كلاوزفيتز بعض الاشارات الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) المربكة في عمله ، الامر الذي سبب بعض المعضلات التي لا يصعب شرحها بكلمات قليلة نسبياً مع أنها ستختفي بعد تلك الصفحات الاولى ، والعن ما نتج عن ذلك هي تلك السمعة التي لصقت كلاوزفيتز حتى لدى اؤلئك الذين يفترض فيهم معرفته جيداً كفيلسوف عميق حتى بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة. كان معاصره وخصمه انتوني هنري جوميني قد اشاع مثل هذه الامارات عنه – بالاضافة لوصفه اعمال كلاوزفيتز بـ«العجرفة المفرطة» – والتي رافقته حتى الآن .

تنحو الصيغة التي تناولنا فيها كلاوزفيتز الى التأثر بكل الاشياء الغريبة والمجحفة التي كتبت عنه وعن عمله الرئيسي . فروز نسكي الذي استشهدنا به قبل قليل قال عن كلاوزفيتز ما يلي ايضاً .. « فمن بين ما ورثه عن شارنهورست من نتف وأقوال مأثورة تمكن من تطوير نظرية سليمة البناء ، محكمة الربط ، كاملة ومتوازنة ومنتظمة ، وحيث استقر كل عامل ، وكل جانب ، وكل حجة قد اخذت مكانها الذي يصعب ابعادها عنه دون تعريض التوازن الدقيق للبناء كله الى مخاطر مؤذية . كذلك ، فمن التقييم العميق للثورة في فن الحرب الذي ادخله نابليون ، توصل كلاوزفيتز الى مفهوم غاية في الاتساع وتتشابك ضمن اطاره المرن وسلطانه الكاسح جميع انواع الحروب والاستراتيجية التي يمكن تصورها [٢]) . ولقد انكر كلاوزفيتز نفسه هذا الغلو المفرط، اذ كيف يقال عن كتاب لم ترد فيه ولا كلمة واحدة عن الحرب البحرية بانه قد غطى جميع انواع الحروب والاستراتيجية التي يمكن تصورها » حتى ما كان منها على ايامه

---

(٢) الجيش الالماني – الطبعة الثانية (١٩٤٤) ص ٧٣ .

اذ لاحظنا على التو بان كلاوزفيتز كان قد خطط لتنقيح كان بالتأكيد سيحذف بعض «العوامل» و «الحجج».

لقد اعد باحث فرنسي من جيل سابق كتاباً عن كلاوزفيتز وصفه فيه بانه «اكثر الالمان المانية ... وعند قراءته يحس المرء انه ضائع وسط ضباب ميتافيزيقي [٣]» وليس هذه سوى سخافات ويمكن تكديس الكثير من الاستشهادات المشابهة وضعت من قبل اناس يعرفون او يتظاهرون بمعرفة اعمال كلاوزفيتز بعمق ومودة، كما فعل روزنسكي بالضبط. قد تكون الخشية هي المزاج المناسب في المواقف لا سيما المناسبات الدينية، الا انها ليست بالمناسبة لدراسات هادئة ومتمعنة وبالتالي نقدية.

سبق لنا القول عن القراء الذين لا يحبون جميع افكار كلاوزفيتز، وينطبق ذلك على العسكريين والمدنيين وان كان ذلك غالباً لاسباب مختلفة. فالجندي الذي تدرب وتشبع باحترام الروح التعرضية لن تسعده اطلاقاً الحجج التي تؤكد ان الدفاع هو الشكل الاقوى للحرب، كما لا يحب بشكل خاص ان يقال له ان الغايات العسكرية يجب أن تتبع دائماً الاهداف السياسية التي يحددها القادة المدنيون. اما بين المدنيين فهناك من يشعر بوجود اكثر من مجرد عزلة نسبية والكثير من القسوة في كلاوزفيتز، مع ان هذا المنحى ليس السمة الملازمة لأولئك الذين قرأوا الكتاب حقاً بل للذين كونوا ارائهم بالسماع. كان كلاوزفيتز يدرك ان الحرب ليست موضوعاً بهيجاً ويسعده ان يدرك القارئ ذلك على الفور ايضاً كي يواصلا معاً العمل الذي بدأه – وهو ان نفهم بشكل اساسي ما الذي تعنيه الحرب وفي جميع مستوياتها ودرجة الانغمار فيها، وعنفها. ان احد اهداف مثل هذا التفهم هو لزيادة فرص النجاح في هذا المطلب الاكثر الحاحاً.

اما الان فان الفكرة القائلة بان الحرب شرّ متأصل وغالباً ما تكون حماقة مريعة قد غدت فكرة قديمة. كما اوضح مواطنه والاكبر منه سناً عمانوئيل كانت، والذي عرف كلاوزفيتز كتبه واحترمها، في إطروحة صغيرة له صدرت عام (١٧٩٥) وعنوانها «السلام الدائم» اعاد فيها تأكيد تلك الفكرة ضمن اطار المعرفة الجديدة

---

(٣) هو برت كامون – كلاوزفيتز – (باريس – ١٩١١) ص ٧ (المقدمة) وقد اقتبسها ا ج. روثفيلز في بحثه عن كلاوزفيتز المنشور في «رواد الاستراتيجية الحديثة» جمع اي. ام. ايرل (جامعة برنستون ١٩٤٣).

لعصره . الا أن وجهة النظر هذه لم تحظ الا بقبول يقل عما تلقاه الان وهو كاف على كل حال كي لا يعد من الأشياء العامة المبتذلة . وعلى كل حال فهذا رجل بدأ مهنته العسكرية وهو بعد في الثالثة عشرة من العمر ، وفي جيش ما زالت تسيطر عليه تقاليد وهيبة فردريك الكبير وفي ايام سجلت بداية ما يقرب من ربع قرن من الحروب مع فرنسا الثورية والنابوليونية ، هناك ايضاً لمحات مما تركه في رسائله وسلوكه الشخص حول طبيعة وجوانب حياته الداخلية ويبدو منها، ان لديه شيء اخر عدى الرغبة النفسية بالاعتراف به (الشهرة والتقدير) والتي ما كانت لتأتيه الا من خلال توجه وانجاز رائعين في المهنة التي وجد نفسه فيها . وهكذا فما من سبب للدهشة من تكريسه نفسه لهذا الموضوع البالغ الصعوبة . لقد كان حساساً جداً ازاء قساوة وفوضى الحرب والثمن الباهض الذي تتسبب به ، والتي لم يكن محظوظاً بالدرجة التي تنجيه عن خوض غمارها ، والى ايلاءه اهمية بالغة ازاء العجز عن ادارتها بخبرة وكفاءة وبالتالي مع أمل أو فرصة اكبر للفوز . وهناك ايضاً موضوع اكثر ندرة، فقد اعطى اهمية مماثلة الى تفهم هدفها (الحرب) .

لعل لدى القارئ اهتمام آخر واكثر عناداً . فقد يسأل هذا قائلاً ، ايعقل ان كتابا صدر قبل قرن ونصف وفي الحرب من بين كل الاشياء الاخرى ما زال يستحق الاهتمام؟ ومثل هذا السؤال قد يطرح حتى لو لم تخترع الاسلحة النووية بعد ، مع ان هذه الاسلحة قد أدت الى قيام عالم جديد كلياً . ولكن افعلت ذلك حقاً ؟ فقد حدثت حروب كثيرة دون اسلحة نووية منذ استخدام القنبلتين النوويتين ضد اليابان عام ١٩٤٥ ، بما فيها بعض الحروب التي اعتبرت من قبل بعض المشاركين فيها كحروب عامة . السمة العامة والكلية للحرب كوسيلة لتسوية الخلافات ما بين القوى الكبرى على الاقل والتي تمتلك اسلحة نووية قد اصبحت أبعد وفوق كل ادراك، ورغم ان هذه السمة لم تغدو بعد حقيقة منظمة الا انها تعد احتمالاً قوياً وكبيراً . فلِمَ نقرأ كلاوزفتز بعدُ اذن ؟

ليس كافيا في عالمنا المزدحم اليوم الادعاء بان لكتاب ما قيمة استثنائية . وهناك العديد من الكتب المماثلة ، ولا وقت لدينا لقراءتها . الالتزام بقراءة كتاب هام وكبير كالذي بين ايدينا يمثل وبشكل مثير جداً لعبة ما يدعى في الاقتصاد بـ « ثمن الصدفة»[١] (ذلك الجزء او الربح الذي قد يتحقق بنفس وحدات القيمة) . كما ان وقت القراءة حتى بالنسبة لمعظم محبي القراءة سلعة محدودة جداً . فقراءة كتاب جدي هي دائماً

(١) Opportunity cost

عملاً جاداً ومضني ويمكن قياسه عقلانياً على شكل السؤال التالي : هل ان قراءة هذا الكتاب في هذا الوقت تفيدني اكثر من قراءة أي من الأعمال الاخرى التي استطيع قراءتها في نفس الوقت ؟

لحسن الحظ نحن لا نضع هذا السؤال في مقدمة ما يدور في اذهاننا والا كنا سنقلق كثيراً حول اختيار ما نقرأ ، وهل هو الاختيار الافضل، وليس لدينا ما هو افضل منه . ومع ذلك وما عدى بعض الظروف حيث يقرر الاخرون لنا كما في قبل اتمام دراستنا ، وكنا في الحقيقة نحتفظ بهذا السؤال في احدى زوايا عقلنا الخلفية . فنحن نلتقط ونختار من بين ما لدينا من كتب ونترك اخرى قبل اكمال قراءتها ، ومن بين ما ندع الكثير من الكتب الرائعة وعلى الاخص ما ليس ادبياً محضاً منها ، لاننا ننحو الى الافتراض اولاً ، أنها ومهما كانت رائعة ومفيدة في ايامها فهي ليست بالضرورة ملائمة او مفيدة لنا ، والثاني ، هي انها مهما أحتوت من حكم ومأثر وثيقة الصلة بعصرنا ، فلابد أن الكتّاب المعاصرين قد استوعبوا تلك الحكمة واودعوها كتبهم الحديثة.

لا يتطابق مؤلف كلاوزفيتز « عن الحرب واي من الافتراضين . قد تستحق اعمال كلاسيكية اخرى احيانا قيمة قراءتها لامتلاكها لسحر خاص ، ونكهة لم يوفق الكتاب المحدثون بعرضها أو الأمساك بها رغم أنهم نجحوا بتمثيلها (امتصاصها) وتنقيح فكرهم – يرد الى ذهني الان كتاب (داروين) الشهير « اصل الانواع» وغيره كثير. يظل عمل كلاوزفيتز شامخاً بين تلك القلة من الكتب القديمة التي اسهمت بتقديم تفهم اصيل وبالغ الضخامة ولم يجري امتصاصه او استيعابه بشكل كاف من الكتابات اللاحقة . لن تقرأ كتب كهذه طبعاً الا من قبل الذين تشدهم اليها بعض الاهتمامات الخاصة والقوية ، وفق المادة او الموضوعات التي يشير اليها عنوان الكتاب سواء كان أولئك القراء من المحترفين او غيرهم ، ما دام يعد في نظرهم كتاب لا غنى عنه . هناك دون شك كتب اخرى في نفس الموضوع وتستحق القراءة هي الاخرى بالاضافة الى كلاوزفيتز ، وبعضها على وجه الدقة يتناول موضوعات معاصرة وعلى الاخص موضوعات الاسلحة النووية ولكن اياً منها لا يعادله في الأهمية او يحل محله في لازمانيته.

لقد كان عمل كلاوزفيتز اوثق صلة واكثر مباشرية في تناوله معضلات وموضوعات الحرب العالمية الأولى من كتاب الماريشال فرديناندفوش « مبادئ الحرب »

الصادر عام ١٩٠٣ اي قبل احد عشرا عاماً من نشوب تلك الحرب . فبالنسبة للمارشال فوش ومن تلاه ، كانت فكرة سيطرة الغاية السياسية التي ركز عليها كلاوزفتز كثيراً ، كانت وبكل بساطة غير قابلة للتطبيق في العصر الحديث. بالاضافة الى ذلك فقد اضافوا رومانتيكية (عاطفية) على دور القائد ، واطنبوا في تمجيد التعرض الى درجة الخيال، وهذا بدوره يؤكد الاعمال التي طبقت وفقاً لذلك والتي كان ثمنها باهظاً جداً . لقد امتدح فوش كلاوزفيتز واعلن انه قد قرأه بامعان واستوعب افكاره ، الا ان كتاباته كانت مختلفة عنه كلياً .

لقد اعطى كلاوزفيتز أهمية كبيرة لدور القائد العام ، الا انه كان واقعياً ومعقولاً في ذلك اكثر من فوش . لقد وازن وبدقة عالية العلاقة ما بين التعرض والدفاع وخلص من ذلك الى اعتبار الدفاع الشكل الاقوى للحرب . وان كان الأمر كذلك في ايامه فانها كانت اكثر صحة في ايام فوش الذي اتخذ موقفاً معارضاً لوجهة النظر هذه . ففي الحرب التي دارت ما بين ١٩١٤–١٨ لم يكن كتاب فوش الذي لعب دوراً مؤثراً قد اصبح كتاباً قديماً الا انه كان مخطئاً بشكل مروع وقد احتاج الامر الى بحر كامل من الدماء لتأكيد ذلك الخطأ . ما من فائدة بعد في قراءة فوش الان ، الا من اجل الوقوف على المدى الذي انحرف فيه فكره في هذا الميدان ، وكيف والى اي مدى يمكن أن يؤدي اليه التوجه العام السيئ الذي قاد النهج العسكري للأمم الكبرى . كما ان قراءة فوش قد تساعد المرء على تفهم الكوارث الحمقاء التي تدعى الحرب العالمية الأولى .

هناك عمل اخر كتب بعد الحرب وكان له تأثير كبير وبشكل خاص على تنظيم القوات الامريكية وعلى شن الحملات الكبرى في الحرب العالمية الثانية ، ذلك هو كتاب (جوليو دوهيه) والذي اصبح الان من مقتنيات المتاحف . ضم الكتاب عدة اطروحات جمعت معاً تحت عنوان اكثر تلك الاطروحات شهرة وهو « قيادة الجو » ، وهي موضوعات جيدة رغم انها ضيقة الافق ، في نظرتها الاجمالية ولا عقلانية وخاطئة في جميع تصوراتها المحددة كما اثبتت ذلك تجارب الحرب العالمية الثانية . يشير مؤيدوا القوة الجوية الى «دوهيه» باحترام وتبجيل باعتباره « نبي القوة الجوية » لذلك فسيرفضون دون شك تقويمنا له وربما بغضب بالغ . الا أن كل ما يحتاجونه هو قراءته بتمعن وتفحص نبؤاته بشئ من الدقة وعلى ضوء خبرات الحرب العالمية الثانية التي كانت بالنسبة له «حرب المستقبل» التي كتب عنها . لقد ادعى أن المعارك الخطية

على الأرض ستظل ساكنة (مستقرة) وإن القرار سيفرض بقوة قاصفات الامة خلال بضعة أيام ، وليس ذلك ما حدث بالتأكيد ، وما من شك في ان افكاره كانت ستكون اكثر انطباقاً على الأسلحة النووية منها على القاصفات التي تصورها ، وصحيح ايضاً ان العصر النووي ليس في حاجة الى (دوهيه) أو غيره ليخبره عن نوعيه المصائب والاهوال والرعب الذي يمكن ان تسببه تلك الاسلحة . وعلى اية حال فإن تصوراته ووصفاته المحددة باتت غير ذات موضوع الان . مرة اخرى وكما كان الحال مع كتاب (فوش) لدينا الان مؤلف اخر لا نفع فيه اليوم .

وعودة الى ايامنا هذه فان كلاوزفيتز ما زال وثيق الصلة بقضايا عصرنا الراهن كمعظم الدراسات الاختصاصية التي كتبت حول الحرب النووية . بوسعنا التقاط عدد كبير من الكتب المفيدة سيما في التكنولوجيا وفي موضوعات اخرى ولكننا سنحس عادة بغياب ذلك العمق وسعة الافق اللذان يشكلان الطابع المميز كلاوزفيتز . وسنفتقد بشكل خاص متابعته العقلانية لفكرة أن الحرب وفي جميع صفحاتها يجب ان تقاد وتوجه بعقلانية وحكمة اهداف سياسية واضحة وذات مغزى . هذا التصور الباهر لا نستطيع تلمسه في معظم الكتب المعاصرة بما فيها كتاب يوحى عنوانه بامكانية مقارنته دون خوف مع الكتابات الخالدة وذلك هو كتاب هيرمان كاهن «الحرب النوو–حرارية » . ولعل كاهن ودون تعمد اسند حجته الرئيسية – في قدرة الولايات المتحدة على البقاء، لذا عليها ان لا تخشى كثيراً مخاطر حرب « نو – حرارية» مع خصمها الرئيسي – على اعتبارات فنية لم تعد موجودة اطلاقاً ، وسواء كانت تلك الاعتبارات واقعية ام لا، حين صدر كتابه في زمن ليس ببعيد (عام ١٩٦٠) . كذلك فكتاب (كاهن) لا يملك الكثير مما هو وثيق الصلة بحرب فيتنام على عكس الحال مع كلاوزفيتز مع إن تلك الحرب كانت قائمة وتدخلت الولايات المتحدة فيها ، وسببت لها تبعاً لذلك الكثير من الضياع الروحي (الاخلاقي) والالم وبدرجة تقل كثيراً عما تحملته الامة التي قامت الحرب لانقاذها . قد لا يزال (كاهن) مفيداً في اضافاته كلاوزفيتز ولكن بمحدودية تقتصر على مجرد كونه اكثر حداثة كما انه لا يمكن ان يغني عن أو يساعد في تجاوز كلاوزفيتز .

نستنتج من كل ذلك ضرورة توفر شيئ ما حول موضوعات الفكر الاستراتيجي، والى كتابات توضح اختلافها عن ميادين النشاط الفكري الاخرى ، أما في معظم الميادين الاخرى فان مؤلفات الكتاب القدماء اما ان تكون غير ذات موضوع

او انها لم تتأكد صحتها . لعله من الممتع قراءتها لاسباب تاريخية وغالباً ما نفعل ذلك ايضاً لمؤهلات جوهرية مختلفة ولكننا سرعان ما ننساها دون عناء . لقد ذكرت اسم «داروين » لانه (كما هو الحال مع فرويد في ميدان اخر) يعد مكتشفاً كبيراً لم يجاريه في ذلك اي من لاحقيه . لكن هناك المخترع (المبدع) الكبير «ادم سمث» الذي تلاحكت حياته مع حياة كلاوزفيتز ، والذي كتب في مجال قريب جداً من الاستراتيجية في جوانب عدة ، بما في ذلك الاهتمام بدقة وكفاءة استخدام الموارد لاجل اهداف محددة ، مع حلول تبدو ذرائعية سواء كانت تؤكد قوانين تحديد السلوك الثابت ام لا .

يُعد مؤلفه الكبير « ثروة الأمم – ١٧٧٦» عموماً اساس الاقتصاد الحديث ، وقد يكون مدينا بعض الشيء لأخرين الا انه مع ذلك يؤشر انفصالاً متميزاً مع تقاليد الميركانتيليه (التجارية) التي سبقته والذي ما من اقتصادي يستحق التسمية الا ويعود اليه منذ ذلك الحين . الا ان هذا العمل الكبير وجد بعده الكثير من المؤلفات الجيدة خلال القرنين اللذان مرا على طبعة ، كما استمر البحث والتأليف في هذا الميدان وبشكل مثير للغاية طالما انه من المجالات التي تجذب الكثيرين من ذوي العقليات العلمية الموهوبة. لقد أمكن استيعاب كل مساهمات وابداعات ادم سمث الجوهرية كلياً كما وطورت نحو الأفضل من قبل كتاب جاءوا بعده واعترفوا على الدوام بفضله عليهم. ومن الناحية الاخرى يمكن مقارنة كلاوزفيتز وبكل بساطة بامثال «ادم سمث» فليس بين من تبعوه من يمكن مقارنته في ابداعه والمعيته .

هكذا اذن ففي اكثر الكتابات براعة في الاستراتيجية هناك فجوات ولا تماسك لا مثيل لهما في الميادين الاخرى ويعود السبب في ذلك جزئياً الى ان تلك الميادين تزخر وما زالت بالكثير جداً من المهتمين والكتاب الطامحين اما في الجزء الاخر فلان الحرب نفسها ليست متماسكة هي الاخرى . ومع ان للعبقرية قيمة نادرة في كل ميادين النشاط الانساني الا ان لها ندرة خاصة في مجال الكتابات الاستراتيجية وسبب ذلك ان الجنود نادراً ما يكونوا اساتذة أو باحثين الا فيما ندر كما ان القليل جداً من المدنيين ممن يهتم بدراسة الاستراتيجية . ان عبقرية كلاوزفيتز أمرٌ لا جدال حوله كما يمتاز بتفرده بميدانه .

لذا نجد انفسنا امام سببين على الأقل في استمرارية استحقاق كلاوزفيتز للدراسة الدقيقة والمستفيظة الى حد كبير ، **الاول** ، انه كافح دائماً وبنجاح حققه بكفاءته وقدرته العظيمتين وكذلك من طاقته الهائلة على العمل الدؤوب للوصول إلى لب

وجذور كل موضوع تصدى له ابتداءً من الطبيعة الاساسيه للحرب نفسها ، **والثاني** ، وهو تفرده الفعلي في ما انجزه . لذا فكتابه ليس الاعظم وحسب بل انه الكتاب الكبير والوحيد حقيقة عن الحرب . وحيث حاول مختلف الكتاب الاخرون في ذلك الموضوع ان يكونوا محللين وليس مجرد مؤرخين ، فهم قد يستحقون الاحترام لما انجزوه ولكن وعند مقارنتهم مع كلاوزفيتز فالاستنتاج الذي لا مفر منه هو انهم لا يمكن ان يجاروه .

للمرء ان يحكم وفقاً لذلك ، وعلى سبيل المثال على عمل « الفريد ثايرماهان» الذي قصر جهده على الجانب البحري للحرب والذي تتسم كتاباته بالتاريخية غالباً . وتنعكس سماته وبعده كمفكر في انه يعتبر نفسه مدينا بقوة الى جوميني ، وتصعب مقارنته مع معاصر هذا الاخير ، اي كلاوزفيتز . وهناك مؤرخ بحري ومحلل معاصر لماهان ، وهو « جوليان اس . كوربيت » الذي اهتم كثيراً بعمل كلاوزفيتز الامر الذي افاده هو نفسه . قد نلاحظ عرضاً وطالما نحن بصدد كتب قديمة ، أن ماهان وكوربيت قد عاشا وكتبا في عصر السفن الحربية البخارية ، الا أن كتاباتاهما أثر ت والى درجة كبيرة جداً وعلى الأخص (ماهان) ، في تطوير عقيدة أستنبطت كلياً تقريباً من الحرب البحرية ايام السفن الشراعية.

ومع ذلك فعلينا معارضة مسألة كونها كتب عتيقة ، ونرى الى اي حد سيقلل هذا العامل من فائدة قراءتنا كلاوزفيتز اليوم . من الواضح إن المؤرخ العسكري سوف لن يخسر شيئاً مطلقاً بل سيجد الكتاب وعلى العكس مفيداً بل وضرورياً حقاً كي يقرأ. فاذا تساءل على سبيل المثال عن سبب انتشار جيوش ويللنكتون وبلوخر فوق هذه الاراضي الواسعة عندما جاء نابليون لمقاتلتهم في حزيران ١٨١٥ فسيجد بعض الضوء في الفصل الثالث عشر من الكتاب الخامس ،الذي تناول موضوع « ايواء » المقاتلين ، والوصف الذي يقدمه لذلك الموقف يغدو جديراً بالاعتبار، وكذلك الوضوح الكافي من حقيقة كون كلاوزفيتز قاتل ايامها مع الجيش البروسي وخاض غمار معركتين متتاليتين . والأهم من ذلك هو ان كلاوزفيتز نفسه يعد مؤرخاً عسكرياً جيداً – لا يشكل كتاب عن الحرب الا اقل من ربع انتاجه الكتابي الذي وجد طريقه إلى النشر نهائياً ، ومعظم الباقي يعد تاريخياً بطبيعته – كما كان قد تنبه الى التغييرات في الممارسات العسكرية التي فصلت عصره عن الأجيال التالية . لقد وجد الكثير من ملاحظاته اللاذعة في تلك الموضوعات طريقه ولو بأسلوب موجز للغاية في الكتب المعاصرة .

لا يشكل المؤرخون العسكريون بطبيعة الحال سوى جزءٍ صغيراً من مجموع الناس ، وحتى بين هؤلاء فالقليل منهم فقط يودون قراءة كلاوزفيتز . ومع ذلك فاي امروء لديه اهتمام كاف فيما يمثله كلاوزفيتز والى حد يدفعه إلى قراءة كتابه عليه ان لا يتوقف عن ذلك لانه سيخرجٍ من عملية القراءة هذه ولو ببعض التصور عن كيفية خوض الحرب في عصره . يعدّ جيلنا فريداً ، وان كان ذلك محزناً في انتاج مدرسة من المفكرين الذين يدعون الخبرة والتفوق في الاستراتيجية العسكرية ، ولا يخفى اختصاصهم في الدراسات العسكرية بكل تأكيد الا أنهم لا يعرفون الشيء الكثير في التاريخ العسكري بما في ذلك تاريخ اكبر حروب هذا العصر ، وهم مع ذلك وكما يبدو لا يأبهون لجهلهم هذا . وليس هناك من شك في براعتهم في تحليل العمليات وربط فروع وقواعد تُعد خفية على الاخرين ولذلك قيمة عظيمة في مساعدتهم على رسم طريقهم ما بين الحجج والادعاءات المتضاربة لمختلف الخصوم والدعاة المشهورين من مختلف الانواع والاتجاهات في هذا العصر الزاخر بالاسلحة المتنوعة والبالغة التعقيد بشكل استثنائي وحتى الآن فان التفاصيل التجريبية الوحيدة التي لدينا حول كيفية ادارة الرجال للحرب وسلوكيتهم تحت عنفها وضغوطها هي من تجربتنا معها في الماضي ، مهما كان حجم ما لدينا لوضع احكام للتغيرات اللاحقة في الظروف .

والى ان تطورت هذه المدرسة الجديدة في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية فقد كان من البديهي أن المعرفة الجوهرية لتاريخ اية حرب يُعدّ شرطاً لازباً لتفهمها . يؤمن كلاوزفيتز بذلك بعمق ، فقد كتب في الفصل السادس من الكتاب الثاني قائلاً « ما من شك في أن المعرفة الأساسية لفن الحرب، هي معرفة تجريبية» كما كتب ايضاً « توضح الشواهد التاريخية كل شيء كما توفر أفضل انواع البراهين في العلوم التجريبية» . كما لم يختلف مع هذا التعميم ، بل وبدلاً عن ذلك ذهب في تحليل نفاذٍ ومتميزٍ للطرق والكيفية التي ينبغي وفقها استخدام التاريخ العسكري من اجل بناء نظرية .

لم نستطع بعد تجنب التفكير بالعودة إلى الحقيقة القائلة ان كلاوزفيتز قد مات منذ قرن ونصف قبل كتابة هذه السطور . ويؤثر ذلك دون شك على الاستفادة من عمله حالياً وبطرق عديدة ، قد اشرنا على التوالي معظمها . ويؤكد كلاوزفيتز نفسه بان الاستفادة من تصوير تاريخي ما ، يتناسب عكسياً مع عصره كما أعلن عن رغبته

بتجنب ايراد الامثلة التاريخية التي سبقت حرب الوراثة النمساوية التي بدأت عام ١٧٤٠ والتي تزامنت مع بداية الحرب السيليزية ، في كتبه ، واكثر من ذلك في الأهمية قبول فردريك الثاني الذي دعي فيما بعد « الكبير » عرش بروسيا . وكلما مضينا خلال « عن الحرب» فسنجد من الصعب علينا تجاوز التطرق الى عبقرية والمعية رجل آخر في الحرب ، الا وهو دوق مارلبورو وزميله البارع (الامير ايو جين اوف سافوي) اللذان تعاونا في الحملة البارعة التي انتهت مع « بلنهايم» قبل ست وثلاثين عاماً من تتويج فردريك الكبير .

هكذا وكما اوضح (بيتر باريت) فان كلاوزفيتز كتب ايضاً دراسة عن غوستاف ادولف والزم نفسه في هذا العمل عدى بعض الاستثناءات بامثلة تاريخية مستنبطة مما دار في السنوات الخمس والسبعين التي انتهت بمعركة واترلو والتي تعد أخر المعارك التي عرفها قبل وفاته التي جاءت بعد ستة عشر عاماً منها . لقد امعن النظر وباسهاب في التغييرات الهامة وغير الاستثنائية في فن الحرب والتي حدثت في تلك الفترة ، ولا نستطيع المساعدة في ملاحظة أن تلك التغييرات يجب ان تقارن مع التغيرات الاخرى التي حدثت منذ ذلك الحين بسبب الثورة التكنولوجية السريعة والواسعة في الحرب والتي بدأت ايام وفاته . واخيراً فان الاسلحة التي استخدمت ايام فردريك الكبير لا تختلف الا قليلاً عما استخدم ايام نابليون ، وبالنسبة لنا فمن الواضح ان كل تغيير بارز في الممارسة والعمل يمكن ان يحدث بغض النظر عن قلة وضآلة التغيير في انواع وحجوم الأسلحة، هذا دون أن نذكر شيئاً عن التغييرات في وسائط النقل والمواصلات .

وعلى اية حال فان الامثلة التاريخية التي استخدمها كلاوزفيتز ستضرنا مرتين ، الاولى وهي ان اخر تلك الامثلة بات بعيداً جداً عنا في الزمن والظروف حتى ان كلاوزفيتز نفسه ووفقاً لمعاييره الخاصة في قبول واختيار الأمثلة ما كان عليه استخدامها نهائياً ، والثانية وسببها هو ذلك البعد التاريخي فان قلة قليلة من قراءه لديهم اية معرفة مسبقة نهائياً بكل ذلك العدد الكبير من الحملات والمعارك التي اشار اليها . بوسع المرء ان يفترض أن أي انسان يعرف شيئاً ما حول غزو نابليون لروسيا عام ١٨١٢ ، وقد ألف الموسيفار تشايكوفسكي افتتاحية موسيقية مشهورة عن ذلك كما الف الكاتب تولستوي رواية كبيرة وعظيمة حولت الى عدد من الافلام السينمائية والتلفزيونية ، ولكن من يا ترى من الناس إلى جانب ذوي الاختصاص ممن يعرف اي شيء عن

حملات فردريك الكبير ، او ما دمنا بخصوص نابليون فمن يعرف شيئاً حتى عن حملات نابليون الاخرى ؟

كان كلاوزفيتز في استخدامه للمثل التاريخي ولحسن الحظ، غالباً ما يضيف ايضاحات كافية حوله كي يعطينا فكرة واضحة حول احداثه وعلاقته بالنقطة التي يريد ايضاحها لنا . الا انه احيانا لا يفعل ذلك . علينا لذلك تقبل الامر بسهولة وفقاً لوجهة النظر المعروضة، لقد خسرنا قدراً كبيراً من ثراء تحليلاته بالشكل الذي تبدو فيه لمعاصريه . بوسعنا طبعاً اتخاذ الخطوات المناسبة لتلافي هذا النقص بدراسة شيئ ما عن التاريخ الذي استشهد به – هذا العبء الاقل عناء وقوة من تعلم اللغة اليونانية للأستمتاع بقراء اشعار « سافو[٤] – Sappho » – لكن علينا في النهاية حذف هذا العامل او عدم اعتباره كنقيصة او مأخذ .

هناك في الحقيقة جانب آخر للموضوع ، فالحرب كما اوضح كلاوزفيتز ذات مرة « **مختلفة عن اي شيء آخر** » وهكذا ومهما كان حجم أو قدر تغيرها من عصر لآخر ، فان خاصيتها الاساسية تظل في تفردها وتميزها عن اية اهتمامات اخرى يتابعها الإنسان . وفوق ذلك فلم يكن بحثنا دون جدوى عن خصائص اساسية معينة لا تتغير الا قليلاً ، هذا ان تغيرت. لا نقصد هنا أية مبادئ ثابتة لا تتغير كالتي لدى جوميني، بل عن اشياء اكثر مبدأية . يتعلق ذلك العامل اساساً حول لماذا نقرأ كلاوزفيتز الذي اقترب كثيراً من كشف تلك المبادئ لنا باكثر مما فعله أي رجل أخر ، الا انها تؤثر ايضاً على مسألة الامثلة التاريخية لديه .

بوسع القارئ نفسه ، ومهما كان مقدار ما لديه من المعرفة التاريخية والتجارب الشخصية ، اختيار مثال ما لتأكيد ما اذا كانت النقطة موضوعة البحث صالحة او على الاقل ما اذا كانت تنطبق في اوقات لاحقة لعصر كلاوزفيتز بكثير . هكذا وبينما اختار الاخير (اي كلاوزفيتز) الامثلة من حملات فردريك الكبير ونابليون مسلماً بوجود استثناءات لقاعدة التحشد (التي كان يصر خلاف ذلك على التمسك بها) ، ويرى ان هناك اوقاتاً ينبغي على القائد فيها تجزأة قواته في مواجهة العدو ، فبوسع المرء اذن تذكر

---

(٤) شاعرة يونانية غنائية عاشت اواخر القرن السابع واوائل القرن السادس قبل الميلاد – المورد عام ١٩٩٤ – المترجم .

مدى براعة الجنرال (لي) حين تصرف وفق ذلك في معركة (جانسلورفيل[٥]) وكيف فشل الاميرال « هالسي»[٦] وبحماقة في مراعاة ذلك في معركة « خليج لايتي Leyte». ثم يصاب القارئ بدهشة كالتي يحسها المكتشف حين يطالعه فجأة وفي الفصل الاخير من الكتاب (العمل) ، نمط من الافكار يشكل دون شك مفهوماً ملهماً للجوانب العسكرية لخطة شليفن الشهيرة . لعل من المفيد أن يتذكر المرء أن الكونت (فون شليفن) كان تلميذاً لفترة كافية لكلاوزفيتز مما يؤكد استيعابه للقواعد التي كانت تتكرر لدى استاذه حول عدم ترك الاهداف العسكرية لتتحكم بالغايات السياسية ، والمسجل عنه تأكيده كتابة قوله ، **اذا فشلت الخطة** وهذا ما حدث فعلاً عام ١٩١٤، على المانيا السعي للتفاوض من اجل السلام ، ولسوء حظ المانيا والعالم اجمع ان من بين اكثر افكار كلاوزفيتز الرائعة فقد تجاهل خلفاء شليفن هذه الفكرة كما تجاهلها مولتكة الصغير بدوره . تحمل خطة شليفن في بنائها الذاتي عيباً قاتلاً لا ينسجم وأفكار كلاوزفيتز وذلك أنها تفرض على المانيا احتلال بلجيكا (وفي الاصل لابد من احتلال هولندا) ومثل هذه الخطوة ستدفع بريطانيا الى دخول الحرب .

من الدروس والخبرات التي لا غنى عنها لاي من دارسي الحرب او العلوم السياسية هي دراسة بعض المعضلات القديمة وكيف تمت معالجتها من اجل التوصل الى حلول للمشاكل القائمة الان . وسرعان ما اصبح ذلك امراً طوعياً لانه بات يطرح العديد من المصاعب الفكرية . كما ادركوا وبسرعة ان بعض الافكار والمعايير ما زالت تحتفظ بقوتها حتى الآن ، بينما لا تقدم افكار اخرى سوى المساعدة في تفهم التاريخ العسكري او السياسي بصورة افضل .

---

(٥) معركة جانسلورفيل (مايس ١٨٦٣) قادها الجنرال الانفصالي (روبرت لي) ضد قوات تفوقه عدداً بقيادة الجنرال الاتحادي هوكر الذي تحول الى الدفاع في الحرب الأهلية الامريكية .

(٦) معركة خليج لايتي (١٩٤٤م) معركة بحرية (وبرمائية) بين القوات البحرية الامريكية واليابانية وتعتبر من اكبر المعارك البحرية في التاريخ من حيث حجم القوات التي خاضتها ان لم تكن اكبرها ، ولاهمية المعركة نرجو مراجعة الهامش عنها في الملحق الخاص بـ دليل (لقراءة كلاوزفيتز) بقلم برنارد برودي عند معالجته (الكتاب الثالث- الفصل العاشر) - المترجم .

نقر بأن ما يشكل ازعاجاً اكثر من مجرد الامثلة ، هو تلك الافاضات الطويلة والاستطرادات حين يتناول كلاوزفيتز اساليب المسير والامدادات وما شاكل ذلك مما بات ملك الماضي السحيق وما من عودة لها . وقد لا يشمل هذا كلما ورد في الكتب الرابع وحتى السابع ولكنها من ناحية اخرى لا تخلو منه وقد يجد القارئ نفسه امام ذلك وليس بوسعه سوى الاسراع في القراءة – وان كان سيضطر إلى تخفيف سرعته بين أونة واخرى – ولكن لابد ان يكون القارئ في عجلة من امره ليتجاوزها كلياً . يحاول الكاتب خلال تلك الفقرات اشراكنا في كلما يعرفه عن ادارة الحملات على أيامه ، كما عانى بعض المشقة من اجل أن يجعلنا ندرك كيفية حدوث تغييرات معينة عما كان يحدث قبل أيامه . لقد تخلصت بعض الطبعات الموجزة من تلك الافاضات أو حذفت بعض تلك الفقرات ولكن الافضل يظل في ان ندع للقارئ كي يقرر لنفسه فيما اذا رغب في مرافقة كلاوزفيتز في تلك المحاولات. لم ينشر بالانكليزية الا القليل من اعمال كلاوزفيتز ولا أعتقد الا ان قليلين فقط هم الذين يرغبون برؤية عمله ناقصاً . سيجد القارئ أنه وحتى في أثقل الصفحات فسيجد بعض الملاحظات الحكيمة والنفاذة مما تتسم به كتابات كلاوزفيتز عادة ، ولتلك الملاحظات الان نفس القيمة التي كانت لها انذاك .

بغض النظر عن القدم والتداعي ، فهناك خصائص وسمات اخرى لكلاوزفيتز مما ستعد مناقب وفوائد لا كمعايب تحول دون الاقرار باصالته وانجازاته ، ويظل على رأسها في ذلك كراهيته الصريحة لايجاد أطر او بديهيات (مسلمات) كدليل عمل ، بل غالبا ما كان يستعرض امامنا ما يؤكد تهافت ولا جدوى مثل هذه البديهيات . تشكل هذه الخاصية اقوى ما كان يميز كلاوزفيتز عن جوميني ، كما تميزه وبنفس الدرجة عن جميع من جاءوا بعده. ذلك هو احد الأسباب الرئيسية في عدم ارتياح العسكريين لكلاوزفيتز فقد اعتاد هؤلاء وعلى الأخص خلال مراحل التدريب في حياتهم على قناعات تتعارض واي منهج صارم لقواعد زمنية محددة في ادارة العمليات ، كما انعكس

ذلك في الاستخدام الواسع لمصطلح العقيدة او المذهبية . اما كلاوزفيتز فهو وعلى العكس من ذلك يدعو قراءه للتجوال معه بحرية في الطبيعة المعقدة للحرب ، وحيث أن كل قاعدة ترفض اية استثناءات ، فمن الواضح انها لا تستحق البحث فيها .

تتضح هذه الخاصية لديه اكثر في موقفه من موضوعات وافكار كالتي بدأنا ندعوها بـ « مبادئ الحرب » ورغم صعوبة تجنبه ارساء نوع من تعميم مشابه يعد لا محالة نتيجة وغاية للدراسة التحليلية ، فقد رفض وباصرار خاص فكرة ان ادارة الحرب يمكن ان ترسم وتوجه والى حد كبير بفعل وتأثير مجموعة صغيرة من القواعد والمبادئ البالغة القوة ، لذا كان جوميني لا كلاوزفيتز مسؤولاً عن المقولة التي يكررها الكثيرون دون ملل ، والتي تقول « تتبدل الأساليب اما المبادئ فخالدة » والى ذلك والى حد كبير يعزى سبب التأثير العظيم لجوميني على التفكير العسكري في ايامه وحتى بعدها لا سيما خارج المانيا . والى جوميني هذا كان طرفا الصراع في الحرب الأهلية الامريكية ينظران بحثاً عن مرشد وموجه في تلك الحرب التي امتد بجوميني العمر ليشهد نهايتها . وكما رأينا فان جوميني هذا هو من عناه ما هان بـ « افضل اصدقائي العسكريين » .

لذا فبعد الحرب العالمية الأولى فقط، بدأت كافة انواع كراسات التدريب في الميدان (وهي امريكية اصلاً) بالظهور في محاولة لا يجاز وحشد تجارب وخلاصات المجلدات في سطور وكلمات قليلة صفت في عدد من « مبادئ الحرب » مثل « مبدأ التحشد » و« مبدأ الاقتصاد في القوة » و«مبدأ المباغتة» وغيرها . ورغم أن كتباً عديدة قد صدرت لشرح وصياغة تلك المبادئ ، فان التركيز قد اتجه نحو ابقائها قليلة وانيقة — لجعلها سهلة التداول في دورات التدريب القصيرة التي لا تزيد عن بضعة ايام مما تنظم في كليات الحرب ويتولى التدريب فيها كل من يتصادف تكليفه بمهمة تدريسية في تلك الدورات وللأغراض المحددة لها . كذلك لكي يسهل تنفيذ مضمون تلك الكراسات في العمليات والمواقف القتالية . كانت محاولة مثل هذه سترعب كلاوزفيتز

دون ان يدهشه مثل هذا الغباء الاحمق الذي غُلف وقدم تحت اسم « مبادئ » . لقد اطلق على بعض من حاولوا شيئاً من ذلك في ايامه بـ« المتحذلقين من كويتبي المنظومات والخلاصات الوافية » .

كان ثمن القبول بالبديل الكلاوزفيتزي بالتأمل العميق والمتأني ، واحيانا في صفحات ضغطت فيها الافكار والمعارف بشدة ، هو التزام بالاستجابة السريعة . يتطلب ذلك نوعاً مغايراً من القراءة والفهم لما اعتدناه من قبل . تعطى الدورات التدريبية اليوم لزيادة سرعة القراءة والفهم ، ولا يمكن ان يشك احد في منافع القراءة السريعة مع كل هذا الكم الهائل من المواد التي بات على المحترفين قراءتها . اما مع كلاوزفيتز فعلى المرء أن يتأنى كثيراً ، وان يهيء نفسه لمثل ذلك وللتوقف كثيراً للتأمل والتفكير . رغم ان رغبة كلاوزفيتز الاساسية حول كتابه [عن الحرب] لم تكن رغبة متواضعه، فسيكافىء كل من سيحققها .

«كان طموحي» قال كلاوزفيتز في ملاحظة وجدت بين اوراقه ، « أن اضع كتاباً لا ينسى بعد عامين أو ثلاثة ، وان يكون مما يعيد مراجعته ولأكثر من مرة ، اولئك المهتون بالموضوع » .

اعتقد اننا وضعنا ما يكفي من التعليقات والشروح ما بين صفحة العنوان والنص، كما وضعنا في نهاية الكتاب « دليلاً لقراءة عن الحرب» المشرفون. Eds .

مقدمة المؤلف

لمخطوط لم ينشر عن نظرية الحرب ،

كتبت ما بين عامي ١٨١٦ – ١٨١٨

ما من حاجة بنا لتكرار القول بأن المسلك العلمي لا يتكون لوحده تلقائياً ، كما لا يتشكل كلياً في منظومة كاملة وعقيدة تامة . ومن الناحية الشكلية فإن هذا العمل الذي بين يديك لا يتضمن مثل هذه التركيبة . كما انه وبدلاً عن تقديمه لنظرية كاملة ، فهو لا يقدم سوى مادة لبناء نظرية .

تندرج السمة العلمية لهذا الكتاب ضمن محاولته البحث والغوص في ظاهرة الحرب ، ولايضاح الصلة ما بين تلك الظاهرة وبين الطبيعة الخاصة لاجزائها المركبة . لم يُغفل هذا الكتاب اي استنتاج منطقي ، لكن وحالما احس ان الارض لم تعد صلبة تحت قدمي وأن خيط المنطق يغدو رقيقاً وواهيا كنت ساعتها اتوقف واقطع ذلك الخيط وأعود الى الظاهرة الوثيقة الصلة بالتجربة . وكما ان بعض النباتات لا تحمل ثمارها الا بعد ارتفاعها كثيراً عن الارض ، كذلك الحال في الفنون التطبيقية لذا لابد من تشذيب أوراق وازهار النظرية وان يظل النبات قريباً من التربة الصالحة له – اي التجربة .

سيكون من الخطأ الواضح أن نقرر شكل حبة الحنطة بتحليل العناصر الكيميائية للسنبلة ، طالما كان ما يحتاجه المرء لاجل ذلك هو الذهاب الى حقول القمح ورؤية حياته في مراحل نموها . ينبغي ان لا يتعارض التحليل والملاحظة والنظرية والتجربة ، وان لا تستبعد احداهن الاخرى او تتعالى عليها (تزدريها) ، وعلى العكس ان تتعاون وتتساند فيما بينها . لذلك فكل ما يريده هذا الكتاب ان يكون جسراً او دعامة تستند اليها بديهياتهم ومسلماتهم في بناء متكامل ورصين اما بفعل وقوة التجربة او بطبيعة الحرب ذاتها وبذلك سيغدو دعامة قوية وفريدة [١].

---

(١) لم تكن الحال كذلك مع العديد من الكتاب العسكريين وعلى الاخص أولئك الذين حاولوا التعامل مع الحرب باسلوب علمي ، ويتضح ذلك من الامثلة سيما عندما تتعارض وبشدة مسلمات ومبررات وحجج منطقهم والى حد الاختلاف بل والازدراء الكاملين، وحتى لا يبقى احدهما على شيء للآخر وهما حتى ليسا كالاسدين اللذين اكلا بعضهما البعض دون ان يتركا سوى ذيليهما . استشهاد تالٍ لكلاوزفيتز .

قد لا يكون من المستحيل صياغة نظرية منهجية ، وغنية فكراً ومادة عن الحرب، الا أن النظريات التي بين ايدينا الان مختلفة جداً ، فبالاضافة الى روحها اللاعلمية فانها تحاول وبشتى الوسائل ان تكون نظريات متماسكة وكاملة ، الا انها مليئة بالبديهيات والأشياء المبتذلة والسخافات من كل نوع . ولتكوين فكرة واضحة عن طبيعة وخصائص تلك النظريات يكفي المرء قراءة بعض ما كتبه «ليشتنبرغ(٢)» تحت عنوان - مقتطفات من تعليمات مكافحة الحرائق :-

« اذا اندلعت النار في دارٍ ما ، علينا العمل وقبل كل شيء على حماية الجدار الايمن للدار التي على اليسار ، ومن جهة اخرى علينا حماية الجدار الايسر للدار التي على اليمين . إذ وعلى سبيل المثال لو حاول احدهم حماية الجدار الايسر للدار التي على اليسار ، فعليه ان يتذكر ان الجدار الايمن للدار هو على يمين جدارها الايسر ، وهكذا وطالما ان النار قد شبت على يمين هذا الجدار ، كما قد شبت في الجدار الايمن (لاننا افترضنا ان الدار تقع يسار النار) فالجدار الايمن اقرب الى النار من الجدار الايسر، والجدار الأيمن للدار قد يحترق ان لم تؤمن حمايته قبل وصول النار الى يسار الجدار المحمي : وبناء على ذلك فان شيئاً ما قد يحترق ما لم يكن محمياً ، وسيحترق بسرعة وقبل غيره ، حتى اذا كان هذا « الغير» ليس محمياً ايضاً ، وعليه فان هذا الاخير يجب ان يترك لحاله ، اما الاول فلابد من حمايته . لتثبيت هذه القاعدة في الذهن ما على المرء الا أن يتذكر ما يلي ! ان كانت الدار تقع الى يمين النار ، فما يهمنا هو الجدار الايسر ، اما اذا كانت الدار على اليسار فالمهم هو الجدار الأيمن » .

لا يريد المؤلف ازعاج القارئ المثقف واغراقه بمثل هذه الحكمة المبتذلة ، كما لا يريد إفساد الجيد القليل الذي لديه بعرضه بمثل تلك الطريقة المربكة . اذ لابد ان سنوات من التفكير في الحرب ، ورفقة طويلة مع رجال اكفاء عرفوا الحرب ، ومع قدر كبير من التجربة الشخصية في خوضها ، لابد انها زودته بافكار وقناعات معينة يود ان يقدمها بشكل مضغوط (مركز) كشذرات من معدن نقي. بهذه الطريقة تشكلت فصول الكتاب ، التي لا ترتبط ما بينها ظاهرياً الا بشكل جزئي الا اني أرجو ألا تكون كذلك في جوهرها ، اي ان لا تكون دون تماسك داخلي قوي . ربما سيظهر قريباً مفكر عظيم ليستبدل هذه الشذرات المنفردة بعقد كامل يصاغ من معدن صافٍ وصلبٍ وخالٍ من جميع الشوائب .

---

(٢) جورج كريستوف ليشتنبرغ (١٧٤٢ - ١٧٩٩) عالم فيزياء وكاتب ساخر . (المترجم)

تعليق للمؤلف

عن اصول الخطوط الأولى عن نظرية في الحرب، كتبت حوالي عام ١٨١٨ (١)

تعالج البيانات التالية ما يشكل في رأى العناصر الرئيسية للأستراتيجية. واعتبرها مسودات اولية، قد وصلت في مجموعها النقطة التي يمكن فيها صهرها في عمل واحد.

لم تخضع هذه المسودات لاية خطة مسبقة. لقد كان مقصدي في الاصل تدوين خلاصة استنتاجاتي حول العناصر الأساسية لهذا الموضوع في بيان موجز ودقيق ومتماسك ودونما أعتبار لاية روابط شكلية أو منهجية. لقد كانت الطريقة التي عالج فيها «مونتيسكيو» موضوعه حاضرة في ذهني ولو ليست بقوة. ورأيت ان مثل هذه الفصول الموجزة والمحكمة والتي اود ابتداءً ان اعتبرها البذرات التي ستجذب اهتمام القارئ المثقف بما تقدمه من جهة وبما تعبر عنه او توحي به من جهة اخرى، وبعبارة اخرى فاني اخاطب قارئ مفكر ماثل امامي، والذي تعرّف وتفهم هذا الموضوع. وتلك هي طبيعتي التي تقودني دائماً الى التطوير والتنظيم، والتي اكدت ذلك بنفسها مرة اخرى هنا. لقد كتبت عدداً من الدراسات في مواضيع مختلفة من اجل التوصل

---

(١) راجع المقدمة التي كتبتها السيدة ماري فون كلاوزفيتز في (ص٩٠) ادناه.

الى تفهم كامل لتلك الموضوعات ، ولقد تعودت منذ زمن ان استخلص منها اكثر الاستنتاجات اهمية فقط ، ومن ثم اركز خلاصات تلك الاستنتاجات على اضيق نطاق. ولكن يبدو ان نزوعي هذا قد ذهب بي بعيداً ، ولقد توسعت في ذلك قدر ما استطيع ولكني لم انسى بطبيعة الحال القارئ الذي لم يعتد كلياً بعد على هذا الموضوع.

كلما افضت في الكتابة والاستجابة لنزعة التحليل ، كلما اقتربت الى المسلك المنهجي ، وهكذا وجدتني انهي فصلاً بعد آخر .

قررت ان انقح كلما كتبته في النهاية ، وتقوية الروابط الهشة في الاطروحات الاولى ، عسى ان يكون بوسع المرء في النهاية جمع عددٍ من التحليلات في استنتاج راحد ، وصولاً الى بناء كلي معقول ، يكفي لتكوين مجلد صغير مركز ، لكن وهنا ايضاً اود وبأي ثمن تجنب كلما هو عادي ومبتذل ، وتجنب كل ما يثبت لي تكراره من البيانات مئات المرات حتى بات من المسلمات العامة. لقد كان طموحي هو أن أضع كتاباً لاينسى بعد عامين او ثلاث ، وان يكون مما يعيد مراجعته ، ولاكثر من مرة ، اولئك المهتمون بالموضوع .

مقدمة

بقلم السيدة ماريا فون كلاوزفيتز للطبعة التي ظهرت لاعمال زوجها بعد وفاته، بما فيها « عن الحرب » .

يحق للقراء ان يدهشوا لأن امرأة تجرأت على كتابة مقدمة لعمل كهذا . لا يحتاج اصدقائي لاي تفسير ولكن أمل ان تذكرة بسيطة بالاحداث التي دفعتني للقيام بهذه الخطوة ستزيل اي انطباع يفترض تولده في اذهان من لا يعرفوني .

هذا الكتاب الذي تشكل هذه السطور مقدمة له قد اشغل وقت زوجي الحبيب كله تقريباً طوال السنوات الأثنتي عشرة الاخيرة من حياته . لسوء الحظ فقد فقدناه انا وارض الاجداد بوقت مبكر كثيراً واكمال عمله هذا كان اعز امنياته الا انه لم يفصح عن ذلك للآخرين ابان حياته ، وعندما كنت احاول اثنائه عن عزمه هذا غالباً ما كان يجيبني بلهجة مرحة بعض الشيء ، وربما بما يشبه النبوءة بموته المبكر «عليك ان تتولي نشره» . هذه الكلمات (التي كانت تطلق العنان لدمعي في الايام الاكثر سعادة في حياتي رغم اني ما كنت انظر اليها بجدية) قد الزمتني كما يرى اصدقائي بان امهد لاعمال زوجي الحبيب والتي نشرت بعد موته ببضعة اسطر . قد يختلف القراء معي حول هذه النقطة ، الا انهم بالتأكيد سوف لن يسيئوا تفسير الدافع العاطفي الذي شجعني على تخطي الخوف ، الذي جعل من الصعب جداً على امرأة ان تظهر في قراءة عامة حتى ولو بشكل ثانوي .

لا حاجة بي للتأكيد ان ليس في نيتي اعتبار نفسي او تولي مهمة المحرر (editor) الحقيقي للعمل الذي يظل اكبر وابعد من افقي الفكري . لكن وكرفيق متعاطف معه اود ان ابذل ما بوسعي لتعريف العالم به . لعلي كنت اطالب بدور كهذا ، طالما كلفت بشيء مماثل في اعداد وتطوير هذا الكتاب . والذين عرفوا شيئاً عن زواجنا السعيد ، وكيف اننا كنا نشترك في كل شيء ، ليس الافراح والاتراح فقط بل كل الاهتمامات الاخرى كذلك بما فيها متعلقات الحياة اليومية ، سوف يدركون ان مهمة من هذا النوع ما كانت لتستحوذ على اهتمام زوجي الحبيب دون ان تغدو وفي الوقت نفسه مألوفة

وبكل وضوح لي كذلك . وللسبب نفسه فليس بوسع اي كان ، بما فيهم انا ، ان يبذل كل ذلك القدر الهائل من الطاقة والحب (التفاني) اللذان كرس نفسه بهما للمهمة ، والامل الذي ظل يملاءه ، والاسلوب والوقت اللذان استغرقهما تكوينه . كان عقله النفاذ ومنذ مطلع شبابه يدرك الحاجة الى النور والحقيقة ، وبينما كان يتم تعليمه باوسع نطاق كانت اهتماماته موجهة اساساً نحو الشؤون العسكرية لما لها من اهمية قصوى في خير ورفاهية الامم ، والتي كانت تشكل مهنته الاساسية . كان الجنرال شارنهورست[1] اول من وضع قدميه على الطريق ، فقد اختاره كمعلم في كلية الحرب ، وكذلك في منحه شرف توجيه صاحب السمو الملكي ولي العهد في دراسة

---

(١) الجنرال جيرهارد جوهان ديفيد شارنهورست (١٧٥٥ – ٨١٣) ، المصلح العسكري البروسي ايام نابليون والذي يعزى الى عمله في اعادة التنظيم الكبرى الدور الرئيس في القضاء على نابليون عام ١٨١٣ كما ارسى القواعد لبعث العسكرية البروسية في منتصف القرن التاسع عشر ولد شارنهورست في (بورديناو) من اعمال (هانوفر) لوالد فلاح اجير دخل جيش هانوفر في العشرين من عمره وخدم كضابط صف اقدم في المدفعية نال رتبة ضابط بعد ثلاث سنوات ، وقد تأثر بسياسة الاصلاح التي نفذها (وليم فون شامبورك – ليب) – الذي اشرف على عملية اعادة تنظيم الجيش البرتغالي قبل عشرين سنة – وشارك بشكل متميز في حملة الفلاندرز للجيش الفرنسي الثوري (١٧٩٣–٩٥) عين بعدها وهو برتبة رائد (Major) كرئيس اركان للكونت فون فالمودن القائد العام لجيش هانوفر . عرض خدماته عام ١٨٠١ على جيش بروسيا ، ورغم ادراكه لاهمية الدور الذي يشغله النبلاء في سلاح تلك الامة اقدم على خطوة جريئة ببدء عملية اعادة التنظيم بجيش بروسيا ، وقد تقرر منحه رتبة مقدم ودخوله طبقة النبلاء ، ولدعم مقترحاته لاعادة التنظيم تقدم عام ١٨٠٤ بثلاث اطروحات مفصلة اقرت جميعها . ثم دخل اكاديمية الحرب في برلين فاقترح على الفور وضع نظرياته لاصلاح شامل للعسكرية البروسية وكان من بين تلامذته في تلك الاكاديمية كارل فون كلاوزفيتز ، كما انشأ شارنهورست جمعية برلين العسكرية التي اهتمت بالدراسات العسكرية وتطوير الاسلحة . ثم نقل قرب نهاية ١٨٠٤ الى هيئة اركان دوق برونسويك مع الاشراف على استعدادات القطاعات التي اعدت لمواجهة نابليون عام ١٨٠٦ . جرح شارنهورست في معركة قرب (اويرشتاد) وأخذ ومعه (بلوخر) اسيري حرب بعد معركة ينا (١٨٠٦) ثم اطلق سراحه في عملية تبادل للأسرى . عين في تموز ١٨٠٧ رئيساً للجنة اصلاح الجيش حيث توفر له الوقت لتحقيق اكبر انجازاته وهو تطوير بنية الجيش البروسي كما اتيح له الالتقاء والعمل مع عسكريين من طراز فريد مثل (اوكست فون جينسناو) ، ورغم اخلاصه لنهج فردريك الكبير (الا ان جيشاً جمع ضباطه من النبلاء ومـا زال يحتفظ بالولاء الاقطاعي عاجز – كما يرى – عن الدفاع عن بروسيا ومركزها الحرج في وسط اوروبا) . لقد اثبتت معركة ينا الشهيرة توقعاته فهو يرى أن جيشاً من ابناء الوطن لفترة خدمة محدودة (نظام كروبير) أفضل من جيش من المرتزقة المحترفين . ترك شارنهورست برلين رافضاً الخدمة في جيش=

الحرب الامر الذي منحه مبرراً اضافياً لتركيز بحوثه وجهوده نحو شؤون ومعضلات الحرب وكذلك بصب ما توصل اليه كتابة . والاطروحة التي ضمنها وصاياه وتوجيهاته لصاحب السمو ولي العهد عام ١٨١٢ ، قد ضمت بين دفتيها بذور اعماله المقبلة . الا انه لم يعاود بحوثه الا عام ١٨١٦ في كوبلنز «Coblenz» حينما بدأ بتجميع نتاجه الذي انضجه خلال تجربته الغنية طوال اربع سنوات قضاها في خوض غمار حرب ضروس . كبداية فقد طور اراءه في أطروحات صغيرة لاتجمعها سوى روابط هشة للغاية أو حتى دونما صلات مع بعضها البعض . والملاحظة التالية وغير المؤرخة والتي كانت بين اوراقه والتي تعود كما يبدو الى تلك المرحلة المبكرة (راجع تعليق المؤلف (ص ٨٩) اعلاه) .

كلف كلاوزفيتز بعدة واجبات في كوبلنز ، لذا لم يكرس سوى بضعة ساعات بين اونة واخرى لدراساته الخاصة . ولم يتوفر له الوقت الا عام ١٨١٨ حين عين امرأ لكلية الحرب العامة في برلين حيث اتسع له المجال ليكرس المزيد من الوقت لتوسيع نطاق كتاباته واغنائها بالامثلة والشروح التاريخية المستقاة من اكثر المعارك والحروب حداثة . هذا التفرغ الجديد اقنعه ايضاً بقبول منصبه الجديد الذي ما كان ليرضيه على ضوء اعتبارات اخرى ، اذ ان المنهج التعليمي للكلية لم يعد من مسؤولية مديرها بل

= بروسيا الى جانب فرنسا في حربها ضد روسيا (١٨١١-١٢) ولكن عند بدء التراجع الفرنسي عن روسيا عاد الى الخدمة وعين رئيساً لهيئة اركان بلوخر وشارك في معركة (لوتزن) الا انه اصيب بجراح خطيرة لم يشف منها فارسل الى براغ في مهمة لدى حكومة النمسا ومات هناك يوم ٢٨/حزيران/١٨١٣ . لم ير بعينه ثمار جهوده وهي تتحقق في معركة لايبزك (او معركة الأمم) التي ساهم الجيش البروسي الجديد فيها في القضاء على التفوق الفرنسي العسكري. لم يكن شارنهورست ولا الاخرين من المصلحين العسكريين في القرن التاسع من القادة الميدانيين وذلك أمر يلفت النظر . الا انه أوجد منظومة او مفهوم الاركان العامة الذي ما زال معمولاً به في كل جيوش العالم ولكن يظل الانجاز الاعظم له ان استطاع وهوابن الفلاح الاجير ان يفرض نفسه على جيش كانت مناصبه العليا حكراً على السادة النبلاء .

A concise Dictionary of Military Biography
- M. Windrow - and F. H. Mason .
by - Purnell Book Services . LTD .
The camelot Press LTd. southampton . (1975) .

المترجم .

تُعده لجنة خاصة للدراسات . وبعد ان تحرر من معظم الارتباطات التافهة ، وبسبب من روحه (الانا) الطموحة والتي لا تعرف الراحة ، وشعوره الحاد بالحاجة لان يكون مفيداً وان لا يدع ما منحه اياه الله سبحانه وتعالى من مواهب تذهب سدى . وهو لم يشغل خلال خدمته اية مناصب تؤمن له متابعة غاياته تلك ، وكان لديه بعض الامل في ان يصل لمثل ذلك المنصب يوماً ما . وعليه فقد تركزت كل جهوده نحو مجال التفهم العلمي ، وكان تحقيق الفوائد التي امل ان تتوج اعماله قد اصبح هدفه في الحياة . ولو أن الامر ليس كذلك ، وكان اكثر تصميماً على عدم نشر كتابه الا بعد موته ، افلا يعد ذلك افضل دليل على عدم وجود ولارغبة صغيرة حتى بالمزيد من الثناء والتقدير ، ولا لوجود أي أثر من الطموح الاناني ، الى جانب هذا التمسك النبيل بالعظمة والاثر الخالد .

لقد واصل العمل بجد فائق حتى ربيع عام ١٨٣٠ حيث نقل الى المدفعية . لقد ذهبت به طاقاته وهمته الى هدف مختلف ، والى الحد الذي دفع به ، في الوقت الحاضر على الاقل ، للتخلي عن أية كتابات ادبية . لقد رتب اوراقه في مجموعات بعد ان ختم كل واحدة منها على انفراد وودع بحزن واسى هذا النوع من النشاط الذي اوشك ان يعني الكثير في حياته . نقل في (اب) من تلك السنة الى (بريسلاو) حيث عين رئيساً للمفتشية الثانية للمدفعية ، الا انه استدعى ثانية الى برلين في ديسمبر من نفس العام وعين رئيساً لاركان الفيلدمارشال الكونت جينسناو (للفترة التي تولي فيها الاخير القيادة في الشرق) . في اذار ١٨٣١ رافق قائده وموضع اعجابه الى (بوزين) . الا انه عاد الى برلين في نوفمبر حزينا محطم النفس بسبب فقده لرئيسه (موت جنيسناو) الا انه تغلب على الامه ولربما شعر بغبطة معزيا نفسه باحتمال استئنافه لعمله الذي قد يتمه خلال الشتاء . الا ان مشيئة الله تعلى ارادت غير ذلك ، ومع انه عاد في (٧) نوفمبر الى برلين فقد توفي في السادس عشر منه وبقيت رزم ومجموعات الاوراق التي ختمها بيده على حالها ولم تفتح الا بعد موته .

لقد نشرت اثاره الادبية تلك في المجلدات التالية وبالحالة التي عثر عليها فيها بالضبط ودون اضافة او حذف ولا حتى كلمة واحدة ، ومع ذلك تطلب نشرها بصورتها هذه قدراً كبيراً من الجهد والعمل في ترتيب موادها والاستشارات حولها وأشعر شخصياً بامتنان عظيم للعديد من الاصدقاء الاوفياء لمساعدتهم اياي في انجاز تلك المهمات واخص منهم بالذكر الرائد (اويتزل) الذي تبرع بقراءة المسودات ورسم

الخرائط التي ستطبع مع القسم التاريخي للطبعة . كما سأسمح لنفسي بذكر اخي الحبيب الذي وقف الى جانبي ايام محنتي وقدم لي العديد من الخدمات المختلفة في تهيئة المخطوطات للنشر . ومن بين اشياء اخرى خلال مرحلة الفحص والتدقيق واعداد المواد فقد عثر أخي على الفصول المنقحة التي اشار زوجي الحبيب اليها على انها مشروعه المقبل في الملاحظة التي كتبها عام ١٨٢٧ والتي نشرت في الصفحات التالية. لقد ادخلت التنقيحات في مكانها من فصول الكتاب الاول وحيث كان معداً لها ان تكون (ولم يتجاوز التنقيح ذلك) .

اود ان اعبر عن شكري لعدد كبير من الاصدقاء لنصائحهم وتعاطفهم وعونهم وما اظهروه لي ولكن لن استطيع ذكر جميع الاسماء ولكني على ثقة من ادراكهم لعظيم امتناني لهم وعرفاني ولهذا الامتنان طابع خاص يزيد من عظمته طالما كنت على قناعة تامة بان كلما قدموه وفعلوه لم يكن لي وحدي بل الى ذلك الصديق الذي توفاه الله سبحانه واخذه من بينهم في وقت مبكر .

لقد عشت واحداً وعشرين عاماً من السعادة الغامرة الى جانب رجل كهذا . لقد ترك لي كنزاً من الذكريات ، والامل ، وثروة من العواطف الاصيلة الصادقة التي ادين بها الى الرفيق الراحل الحبيب ، كما ان المعنى الرفيع بان تفوقه النادر قد بات موضع تقدير واعتزاز عام قد ضاعف سعادتي رغم خسارتي التي لا تعوض بفقده .

التقدير الذي دفع اميراً نبيلاً واميرة الى استدعائي الى جانبيهما يُعد فضلاً جديداً ونعمة أشكر الله تعالى عليها [٢] . لقد وفر لي ذلك مهمة وقيمة جديدتين يسرني ان اكرس نفسي لهما بكل جور . ليبارك الله عملي الجديد هذا ، كما ارجو ان يتاح للأمير الصغير العزيز الذي وضع تحت رعايتي الان ، قراءة هذا الكتاب يوماً ما وان يسعى بدوره لوضع كتاب مثله من حيث القوة والفكر كما فعل سلفه العظيم .

كتبت في قصر المرمر في بوتسرام ٣٠ حزيران ١٨٣٢

ماريا فون كلاوزفيتز

---

(٢) عينت السيدة ماريا فون كلاوزفيتز مربية للأمير فردريك وليم الذي اصبح فيما بعد الامبراطور فردريك الثالث

ملاحظتان للمؤلف حول خططه
لتنقيح مسودات « عن الحرب »

ملاحظة في ١٠ تموز ١٨٢٧

اعتبر الكتب الستة التي انتهيت للتو من صياغتها بشكلها الأخير مجرد مسودات اولية لا شكل لها ولابد من اعادة كتابتها مجدداً . سيحدد التنقيح الذي اريده نوعي الحرب بوضوح كبير في كل نقطة . وستغدو كل الافكار حينئذ اكثر تبسيطاً ووضوحاً ، كما ستؤثر الانعطافات الرئيسية بوضوح اكثر ، وستورد تفاصيلاً اكبر عن تطبيقاتها .

يمكن ان تتخذ الحرب احد شكلين ، بمعنى ان هدفها اما هو التغلب على العدو - بشله سياسياً او تعجيزه عسكرياً ، واجباره بذلك على قبول اي نوع نريده من السلام. او ان تتوخى فقط احتلال بعضاً من مناطقه الحدودية وعندها اما نعمل على ضمها الى اراضينا او لاستخدامها كورقة رابحة في مفاوضات الصلح . يحدث التحول من نوع لاخر من نوعي الحرب بطبيعة الحال في معالجتي ، الا ان الحقيقة التي يجب ان تظل ماثلة في الذهن على الدوام هي ان اهداف نوعي الحرب هذين مختلفة تماماً ، وان تكشف للعيان نقاط الاختلاف والتضاد هذين .

يظل هذا التمايز بين نوعي الحرب حقيقة قائمة . وهناك امر اخر، له نفس القيمة العملية والاهمية ولابد من تقديمه بوضوح تام، وهذا الامر تحديداً هو أن الحرب لا شيء سوى إستمرار السياسة بوسائل اخرى . ولو جعلنا هذا الامرنصب أعيننا بقوة فسيسهل علينا ذلك والى حد كبير دراسة الموضوع ، كما سيساعدنا في تحليل الموضوع الكلي (الشامل) . ومع أن التطبيق الرئيسي لهذه النقطة لن يتم الا في الكتاب الثامن ، الا انها قد تبدأ بالتطور في الكتاب الأول وان تلعب دورها كذلك في تنقيح الكتب الستة الأولى . سيخلص التنقيح الكتب الستة الاولى من الكثير من

الاضافات والمواد الزائدة ، وسيملأ الكثير من الثغرات الصغيرة والكبيرة كما سيعيد صياغة الكثير من العموميات بوضوح اكثر فكراً (مضموناً) وشكلاً أما الكتاب السابع « عن الهجوم » – وهو فصول مختلفة ما زالت بعد مسودات اولية فلابد من اعتباره المقابل او النقيض للكتاب السادس «عن الدفاع» ، والذي سيكون التالي الواجب تنقيحه على ضوء التصور الواضح المشار إليه في اعلاه . بعدها فما من حاجة الي اية تعديلات اذ سيغدو بدوره مرجعاً واساساً في تنقيح الكتب الستة الأولى .

سيعالج « الكتاب الثامن» – خطط الحرب – ما يخص تنظيم الحرب ككل . لقد تم اعداد مسودات عدد من فصوله ، ولكن لا يمكن اعتبارها في شكلها النهائي باي حال من الأحوال اذ انها في الواقع لا اكثر من صيغ اولية فجة ، أعدت بامل أن العمل بها ومن خلالها سيوضح لنا ماهية المعضلات الحقيقة . وهذا هو ما حدث في الحقيقة ، وعندما أكون قد أنهيت الكتاب السابع سابدأ وعلى الفور بالكتاب الثامن بكامله . سيكون اهتمامي الرئيسي هو تطبيق المبدأين أنفي الذكر مع ملاحظة تدقيق وتبسيط كل شيء . وآمل كذلك بالتخلص في الكتاب الثامن من الكثير من العقد التي ما زالت في عقول الاستراتيجيين ورجال الدولة «Statesmen» ، وأن أوضح وعلى أية حال، حول ماذا يدور الامر كله ، وما حقيقة المعضلات التي يجب إدخالها في حسابنا في حرب حقيقية . إن كان انجاز الكتاب الثامن سيساعد في توضيح افكاري ، وأن يسهم في تحديد السمات الرئيسية للحرب ، فسيغدو من اليسير عليّ عندها تطبيق نفس المعيار على الكتب الستة الأولى ، وايضاح نفس تلك السمات للعيان خلالها . وعندما اصل الي تلك النقطة فقط ، بوسعي البحث فيما اذا كان عليّ البدء بتنقيح الكتب الستة الأولى .

اما اذا انهى موتي المبكر هذا العمل فلن يزيد ما كتبته حتى الان بطبيعة الحال على مجرد مجموعة مزدحمة ولا شكل لها من الافكار وستغدو عرضة لما لا نهاية له من الشروح والتفاسير ، وستكون هدفاً للعديد من الانتقادات الفجة ، ففي موضوعات من هذا النوع سيشعر كل انسان أن بوسعه ان يكتب وينشر كلما يخطر على باله او يدور في رأسه بعد التقاطه القلم ، وسيرى عندها وكأن افكاره أو كلماته حكم واقوال مأثورة وحقائق ناصعة كما ان اثنين زائداً اثنين يساوي اربعة . ولو تجشم هؤلاء النقاد عناء ومتاعب التفكير في الموضوع المطروح لسنوات متصلة ، وتفحصوا كل استنتاج على ضوء التاريخ الحقيقي للحرب ، كما فعلت انا فسيكونون بالتأكيد اكثر دقة وحذر فيما سيقولوه .

ومع ذلك فاني اعتقد بان القارئ المنصف والباحث عن الحقيقة والتفهم سيدرك حقيقة أن الكتب الستة الاولى ورغم نواقصها من حيث الشكل ، تضم ثمار سنوات من التأمل والدراسة المتأنية للحرب ، كما قد يجد أنها تحتوي على الافكار الاساسية التي قد تحدث ثورة في نظرية الحرب .

ملاحظة ناقصة ، يفترض انها كتبت عام ١٨٣٠

لا يمكن اعتبار المخطوط الذي يتناول ادارة العمليات الكبرى وبشكله الحالي اكثر من مجموعة مواد أولية يمكن استخلاص نظرية في الحرب منها . وما زلت غير راضٍ عن معظمها ، ولا يمكن وصف الكتاب السادس باكثر من مخطط اولي . وفي نيتي اعادة كتابته ثانية بكامله ، وسأجرب العثور على حل او صيغة اخرى .

الا اني اعتقد بأن الافكار (ideas) الرئيسية التي ستبدو الاقوى والمسيطرة على مجموعةالمواد (المسودات) هي الافكار الافضل إن نظرنا اليها على ضوء حرب حقيقية . انها خلاصة دراسة واسعة وعميقة : كما تفحصتها بدقة على ضوء معطيات الواقع الحي ، كما كنت وعلى الدوام اضع نصب عيني الدروس والعبر التي استخلصتها من تجاربي الشخصية ومن معايشتي للعديد من العسكريين البارزين .

يعني الكتاب السابع والذي ما زال بعد مجرد مخطط موجز ، بدراسة «الهجوم Attack »، كما يعنى الكتاب الثامن بخطط الحرب وقد اردت التركيز فيه وبشكل خاص على الجوانب السياسية والانسانية للحرب .

استطيع القول ان الفصل الأول من الكتاب الاول وحده قد أخذ شكله النهائي. وهو على الأقل سيخدم الكتاب كله بتحديده المسار الذي قررت اتباعه في الاقسام الاخرى كلها .

تثير نظرية العمليات الكبرى (او ما تدعى بالاستراتيجية) مصاعباً استثنائية ، وبصراحة فان القليل جداً من الناس لديهم أفكار واضحة عن تفاصيلها – اي الافكار التي استنبطت منطقياً من ضروريات سياسية . يعمل معظم الرجال اعتماداً على الموهبة الطبيعية (الغريزه Instinct) فقط ، كما يعتمد ما يحققوه من نجاح على مقدار مواهبهم الموروثة .

لقد تصرف جميع القادة العظام بقوة مواهبهم ، وحقيقة ان مواهبهم تلك حية

علي الدوام يعد جزئياً مقياساً لعظمتهم وعبقريتهم الفطرية . وبقدر تعلق الامر بالعمل (Action) فسيكون ذلك هو القضية على الدوام وما من حاجة لأي شيء اخر ، اما ان لم يعد الامر مقتصراً على ان يعمل المرء بنفسه بل بحث الاخرين على ذلك ، فهناك حاجة الى افكار واضحة مع مقدرة على ايضاح ارتباطها مع بعضها البعض . ومع ان القليل فقط من الناس قد امتلكوا القدر الكافي من المهارة لاداء ذلك فستظل معظم المناقشات مجرد حشو وكلمات تافهة ، وسينتهون اما بترك كل انسان ليغرق مع افكاره ، او أنهم سيوافقون جميعاً على التوصل الى اتفاق ولكنهم لن يصلوا إلى شيء ملموس أو محدد .

للأفكار الواضحة المحددة في موضوعات كهذه بعض القيمة العملية واكثر من ذلك فالعقل البشري متعطش وعلى الدوام للوضوح ، ويسعى ليحس انه جزء من مشروع منظم للأشياء .

ان بناء نظرية علمية في فن الحرب مهمة بالغة الصعوبة ، وقد فشلت محاولات عديدة سابقة في هذا الشأن حتى ظن معظم الناس انها مستحيلة طالما إنها تتناول موضوعات يصعب ايجاد قانون دائم لها . وقد يقتنع المرء بذلك ويتخلى عن المحاولة ، الا ان ذلك لا يتفق والحقيقة التي سبق بيانها والقائلة بامكانية استعراض جميع المقترحات والافتراضات دون صعوبة ، من ان الدفاع هو الشكل الاقوى للحرب وهدفه سلبي ، وان الهجوم هو الشكل الاضعف مع ان هدفه ايجابي ، ومن ان النجاحات الكبرى تساعد في تحقيق نجاحات اصغر ، وبذا يمكن تعقيب النتائج الاستراتيجية بالرجوع الى نقاط حاسمة (turning - point) بعينها ، ومن ان الاستعراضات (عرض العضلات) هي اضعف استخدام للقوة من هجوم حقيقي . وانه وتبعاً لذلك لابد من تبريره بوضوح ، ومن ان الانتصار لا يتم بالسيطرة على ساحة المعركة ، بل بتدمير القوى المادية والمعنوية للعدو ، الامر الذي لن يتحقق الابمطاردة العدو بعد انتصار مدوي في معركة ، ومن ان النجاح يكون اعظم على الدوام في النقاط التي يتحقق فيها الانتصار ، وتبعاً لذلك فان التحول من خط عمليات الى اخر ، ومن اتجاه الى اخر مما يمكن اعتبارهما في افضل الاحوال كشر لابد منه ، ومن ان حركة الاحاطة لا يمكن تبريرها الا بتفوق عام او بامتلاك خطوط افضل للمواصلات او للأنسحاب ، مما لدى العدو ، ومن أن المواضع – الجنبية محكومة بنفس الاعتبارات ، ومن أن كل هجوم يفقد زخمه مع الوقت .

الكتاب الأول

عن

طبيعة الحرب

الفصل الأول
ماهي الحرب؟

١. تمهيد

اريد التمعن ابتداءً في مختلف **عناصر** الموضوع ، ومن ثم في **مختلف اجزاءه او اقسامه** واخيرا **التمعن في الموضوع ككل في بنائه الداخلي** . وبكلمة اخرى فسأمضي صعوداً من السهل الى الاصعب . الا أن في الحرب واكثر مما في اي موضوع اخر علينا ان نبدأ بالنظر إلى طبيعتها ككل ، إذ هنا واكثر مما في أي مكان اخر لابد من التفكير بالجزء والكل في آن واحد (سوية).

٢. تعريف

لن ابدأ بصياغة تعريفٍ فج واخباري للحرب بل سأتجه مباشرة الى لب الموضوع، الى المبارزة . فالحرب ليست في النهاية سوى مبارزة على نطاق واسع . وان بوسع ما لا يحصى من المبارزات ان تصنع حرباً ، الا ان صورتها ككل يمكن أن تتشكل بتصور اثنين من المتصارعين ، يسعى كل منهما وبفعل قوته المادية لاجبار خصمه على الخضوع لمشيئته ، **وغايته الانية هي القاء خصمه** ارضاً لجعله عاجزاً عن ابداء أية مقاومة.

وهكذا فالحرب عمل من اعمال القوة لاجبار العدو على تنفيذ مشيئتنا.

القوة ، وكي تجابه القوة المعادية ، تجهز نفسها بما يتاح لها من مبتكرات العلوم والفنون . هناك بضعة تحديدات مفروضة ذاتياً ولا اهمية لها ، تعرف بالقانون الدولي ، والتقاليد، والتي ورغم وجودها الا انها نادراً ما تضعف القوة . فالقوة – واعني القوة المادية فليس للقوة المعنوية وجود عدى ما يعبر عنه في الدولة والقانون – هي لذلك ، **وسائل** الحرب ، وفرض ارادتنا على العدو هو هدف الحرب. لتحقيق ذلك

الهدف لابد من جعل العدو بلاحول او قوة ، وهذا من الناحية النظرية هو الغاية الحقيقية للحرب . تحل هذه الغاية محل الهدف وتجعله شيئاً ما ، وليس جزءً حقيقياً من الحرب نفسها .

٣. الاستخدام الاقصى للقوة

قد يرى ذووا القلوب الرحيمة أن هناك طريقة بارعة، لتجريد العدو من سلاحه أو حتى تدميره دون الكثير من سفك الدماء ، وقد يتصورون أن ذلك هو الهدف الحقيقي لفن الحرب . لكن ورغم الصورة البراقة لهذه الفكرة فلا بد من كشف هذا الزيف، فالحرب عمل بالغ الخطورة ، والاخطاء التي تسببها الطيبة والسذاجة هي من أسوأ الاخطاء . لا يمكن مقارنة الاستخدام الاقصى للقوة مطلقاً مع الاستخدام المتزامن للفكر . فان استخدم أحد الطرفين القوة دون ندم ، ودون أن يأبه لسفك الدماء الذي سينجم عن ذلك، في الوقت الذي يحجم فيه الطرف الاخر عن فعل ذلك فستكون اليد العليا للأول الذي سينجح باجبار الطرف الاخر على ان يحذو حذوه[1] ، وسيدفع كل طرف الاخر الى النهاية القصوى ، وعوامل التحديد الوحيدة هي التوازن المتقابل المتأصل في الحرب .

هكذا يجب أن يبدو الموضوع ، وسيكون من العبث الذي لا طائل وراءه – وحتى خطأً – أن يغلق المرء عينيه عن ماهية وحقيقة الحرب ، ما بين مخاطرها الهينة الى الوحشية القاسية .

---

(١) ورد في النص الانكليزي «Follow suit» اي اجبار العدو ان يحذو حذوه وفي ذلك شيء من التوسع اذ المقصود هنا أن الاقوى أو من يملك زمام المبادرة سيجبر الاخر على التحرك في المحيط الذي رسمه له و«الرقص على موسيقاه» أو أن تكون تحركاته لا من ابداعه وبمحض ارادته ولصالحه ووفقاً لما يريد أو خطط له مسبقاً بل لا أكثر من ردود فعل ومتابعة لافعال الخصم أي أن يصبح في وضع أشبه بالشلل، واخذ زمام المبادرة وتحويله الى مجرد تابع أو التالي في التحرك أو المجيب على افعال الاخر ولعل هذا هو اقصى ما يطمح له القائد الذي امتلك زمام المبادرة، في ان يضع فكرته للمعركة قيد التطبيق بكل تفاصيل الوقت والمكان والحجم والاتجاه . وفي حال كهذا لا تصبح الاستراتيجية صراع ارادات كما يقول (فوش) بل صراع سادة واتباع ، ايجابيين وسلبيين وخير مثال على ذلك معارك رومل في شمال افريقيا قبل مجيء مونتغمري على رأس الجيش الثامن البريطاني – المترجم –

وان كانت الحرب بين الامم المتحضرة أقل وحشية وتدميراً من الحروب بين الهمجيين فالسبب يكمن في الظروف الاجتماعية لتلك الدول نفسها ، وفي علاقاتها مع بعضها البعض وتلك هي العوامل التي تفجر الحرب ، وهي نفس العوامل (القوى) التي تحدد الحرب وتلطف من حدتها . الا انها هي نفسها ليست جزءً من الحرب ، ذلك لانها موجودة فعلاً قبل نشوب القتال . ان ادخال مبدأ الاعتدال في نظرية الحرب نفسها ، سيقود دائماً الى منطق غير معقول .

هناك نوعان مختلفان من الدوافع التي تجعل الرجال يقاتل بعضهم بعضاً : **المشاعر العدائية، والنوايا العدوانية**. يستند تعريفنا الى النوع الثاني طالما انه عنصر عام (جامع) . ولا يمكن تصور وجود او نشوء حتى اشد العواطف وحشية وكما هي عليه فعلاً ، وبما فيها العواطف الغريزية ، والحقد المرير دون نوايا عدوانية . هذه النوايا العدوانية، ومن الناحية الاخرى ، غالباً ما لا تترافق مع اي نوع من المشاعر العدائية – او على الاقل من ذلك النوع المسيطر مسبقاً . فالشعوب المتخلفة محكومة بعواطفها اما المتحضرين فمحكومين بالعقل . ويكمن الاختلاف الى حد ما لا في الطبيعة الخاصة للتمدن والهمجية ، بل في الظروف السائدة ، والمؤسسات وما شاكل ذلك . فالاختلاف لا يفرض نفسه في كل حالة ودائماً بل يفعل ذلك في معظم الحالات . والخلاصة فحتى اكثر الشعوب تمدناً يمكن ان تهيج بفعل حقدها على بعضها البعض

سيكون من العبث بناءً على ذلك أن نتصور أن الحروب التي تنشب بين شعوب متمدنة هي وعلى الدوام بفعل الارادة العقلية ، أو كعمل مدروس من وجهة نظر حكوماتها فقط ، أو لتصور أن حرباً ما ، يمكن أن تتخلص تدريجياً من العواطف والنزاعات والى حد لن يحتاج المرء في النهاية الى الاستخدام الفعلي للقوات المقاتلة – وأن مجرد المقارنة بين حجم قوتيهما سيكون كافياً . ستغدو الحرب عندها من اعمال الجبر (Algebra) .

كان المنظرون قد بدأوا فعلاً بالتفكير على هذا النحو عندما بدأت الحروب الحديثة تلقنهم دروسها . فان كانت الحرب عملاً من اعمال القوة (العنف) [٢] فلن

---

(٢) القوة والعنف ترجمة لكلمة (Force) الواسعة والمتعددة المعاني – المترجم .

تعجز العواطف عن التورط فيها. قد لا تندلع الحرب بفعل هذه العواطف الا ان هذه ستظل مؤثرة فيها بدرجة ما ، وسيعتمد مدى ودرجة هذا التأثير لا على مستوى التمدن والحضارة ، بل على مقدار أهمية المصالح المتنازع عليها وعلى المدى الذي سيستغرقه الصراع .

فان لم تقتل الامم المتمدنة أسراها أو تدمر المدن والاقاليم (المعادية) فلأن الفكر يلعب دورا اكبر في اساليب القتال وادارة الحرب ، ولانه أرشدهم الى طرق اكثر فاعلية في استخدام القوة من مجرد اطلاق العنان للغرائز الوحشية .

لعل اختراع البارود والتطور المستمر في الاسلحة النارية يكفيان لاظهار عجز التقدم الحضاري من الناحية العملية عن تغيير أو كبت الرغبة العارمة لتدمير العدو والتي ما زالت تشكل قضية مركزية في الفكرة الاساسية للحرب .

لابد اذن من اعادة الفرضية، وهي ان: الحرب عمل من اعمال العنف ، وما من تحديد منطقي على تطبيق ذلك العنف ، لذلك فكل طرف سيجبر خصمه على الخضوع لمشيئته (Follow suit) ، ثم يبدأ العمل المتبادل والذي سيقود من الناحية النظرية الى الحد الاقصى ، تلك هي **الحالة الاولى للتفاعل** ، والتطرف «**النهاية**» الاولى التي نصادفها .

٤ . الغاية هي تجريد العدو من سلاحه

قلت ان غاية الحرب هي تجريد العدو من سلاحه، وقد آن لنا نظرياً على الأقل، ان نثبت صحة ذلك . فلو أريد إجبار العدو على الخضوع فلابد من وضعه في موقف اسوأ حتى من التضحيات التي نطالبه بتقديمها، وان لا تكون مصاعب هذا الموقف الذي نضعه فيه عارضة أو مؤقتة بطبيعة الحال – أو أن لا تبدو كذلك على الأقل . والا فسوف لن يستسلم العدو، بل سينتظر لحين تحسن الظروف او الموقف. لذا فلابد أن يكون كل تغيير سيحدث بفعل استمرار القتال، ولو نظرياً على الأقل، من النوع الذي سيزيد من حراجة موقف العدو. إن أسوأ الظروف التي يمكن ان يجد الطرف المتحارب نفسه فيها، هي عند عجزه كلياً عن الدفاع . لذلك فان كنت ستجبر العدو باعلانك الحرب عليه بالخضوع لمشيئتك، فعليك إما جعله عاجزاً عن الدفاع بالمعنى الحرفي للكلمة ، او بوضعه في موقف يجعل ذلك الخطر وارداً . بعدها وبالضرورة

يجب ان يكون التغلب على العدو او نزع سلاحه – او سم ذلك ما شئت – وعلى الدوام ، غاية الحرب .

الحرب مع ذلك ليست عمل قوة حية ضد كتلة ميتة (اللامقاومة الكلية ليست حرباً) ، بل انها وعلى الدوام اصطدام قوتين حيتين . والغاية النهائية لشن الحرب ، وكما صيغت هنا ويجب ان ينظر إليها، على انها تنطبق على الطرفين . مرة اخرى هناك تفاعل متبادل . وما دمت لم اقهر خصمي بعد فسأخشى ان يقهرني هو ، هذا يعني اني لست المسيطر ، وهو يملي على ارادته كما افعل انا معه . وهذه هي **الحالة الثانية للتفاعل والتي تقودنا الى « النهاية »** الثانية .

٥ . الجهد الاقصى للقوة

عليك ان اردت قهر خصمك موازنة جهدك وفقاً لقوة مقاومته ، التي يمكن التعبير عنها كناتج لفعل عاملين لا ينفصلان ، اي **الوسائل الكلية التي تحت تصرفه ، وقوة ارادته** . ان اتساع نطاق الوسائل التي تحت تصرفه – وان لم يكن كلياً – هي مسألة حجوم أو أرقام ، لذا لابد من قياسها وتحديدها . الا انه ليس من السهل قياس قوة ارادته ، الا بشكل تقريبي وبقوة وحيوية الباعث الذي يحركها . ولنفترض انك وفقت بهذه الطريقة الى تقدير لقوة مقاومة العدو ، فبوسعك تحديد وترتيب جهدك وفقاً لذلك، اي انك قادر اما على تصعيد جهودك حتى تتفوق على ما لدى العدو أو إن كان ذلك فوق طاقتك فبوسعك زيادتها الى اكبر حد ممكن . الا ان العدو سيفعل الشيء نفسه ، وستكرر المنافسة ثانية ، وستفرض على الطرفين ، من الناحية النظرية الصرفة الاندفاع الى الحدود القصوى « التطرف» وهذه هي **حالة التفاعل الثالث ، (النهاية) الثالثة .**

٦ . تعديلات في التطبيق العملي

وهكذا لن يستريح العقل الباحث في ميدان الفكر التجريدي حتى الوصول الى النهاية القصوى ، لانه يتعامل هنا مع شيء نهائي : اصطدام قوى تعمل بحرية تامة ولا تخضع لاي قانون سوى قوانينها الذاتية . وعلى ضوء المفهوم النظري الصرف للحرب فقد تحاول استنتاج مصطلح ثابت وأساسي للهدف الذي تتوخاه ، وللقرار على

الوسائل الكفيلة لتحقيقه ، ولكنك ان فعلت ذلك فان التفاعل المستمر سيؤدي بك الى النهاية التي لا تعني شيئاً اكثر من لعبة خيالية تتولد من تتابع غير مرئ لبعض اللمحات المنطقية الخرقاء . ولو فكرنا بدقة في مصطلح ثابت فبوسعنا تجنب اية مصاعب بجرة قلم ، والاعلان بمرونة منطقية بان النهاية وما دامت ستكون هي الهدف فلابد اذن من بذل اعظم الجهود . ان اي اعلان كهذا ليس سوى قرار تجريدي ولن يترك اثراً ما في عالم الواقع .

حتى لو افترضنا إن هذا الجهد النهائي هو كمية مطلقة يمكن حسابها بسهولة فعلينا ان نفهم بان العقل البشري قد لا يستسلم لمثل هذا المنطق الخيالي ، ولن ينتج عن ذلك على الاكثر سوى تبديد القوة الامر الذي لا ينسجم والمبادئ الاخرى في فن الحكم وادارة شؤون الدولة . سيتطلب الامر جهداً ارادياً لا يتناسب والهدف موضوع البحث ، الا أن ذلك لا يمكن تحقيقه طالما ان دقائق المنطق لا تحرك الارادة الانسانية .

الا ان كل ذلك سيبدو مختلفاً كلياً لو انتقلنا من التجريد (الفراغ) الى الواقع . فللتفاعل قوة طاغية في عالم التجريد ويجبرنا ذلك على الافتراض بان طرفي الصراع لا يسعيان نحو الكمال بل قد احرزاه . فهل هذا ما يحدث في الواقع فعلاً ؟ نعم سيكون الامر كذلك أن :

أ – كانت الحرب عملاً معزولاً كلياً ، يحدث فجأة وليست نتاجاً لاحداث سابقة في العالم السياسي .

ب – احتوت على عمل حاسم واحد او مجموعة من الاعمال الحاسمة تحدث في آن واحد .

جـ – كان القرار الذي أُنجز ، تاماً ومثالياً بنفسه ، ولم يتأثر باية تقارير مسبقة للموقف السياسي الذي تسبب باتخاذ ذلك القرار .

٧. لم تكن الحرب عملاً منعزلاً ابداً

اما بالنسبة للشرط الاول اعلاه فلابد من التذكر بان اياً من الخصمين ليس شخصاً مجرداً بالنسبة الى الاخر ، حتى ولا الى حد ذلك العامل في قوة المقاومة ، اي الارادة ، والتي تعتمد على المظهر الخارجي . ليست الارادة عاملاً مجهولاً كلية ، ويمكن ان يعتمد تصورنا لما ستكون عليه غداً على ما كانت عليه اليوم . لا تندلع

الحرب كلياً بصورة مفاجئة ودون توقع ، ولا يمكن ان تنتشر جزافاً . لذلك بوسع كل طرف ان يزن الاخر والى حد كبير بما هو عليه وما فعله ، بدلاً من الحكم عليه ، واقول ذلك تحديداً ، بما يحتمل ان يكونه او يفعله. سيظل الإنسان وقضاياه وعلى الدوام دون حدود الكمال ولن يتحقق الكمال المطلق . وتوثر مثل هذه النتائج المحدودة على الطرفين معاً وتؤلف تبعاً لذلك قوة تعادل وموازنة .

٨. لا تتكون الحرب من ضربة قصيرة ومنفردة

يثير الشرط الثاني اعلاه الملاحظات التالية :

ان تألفت الحرب من عمل حاسم واحد ، او من مجموعة من القرارات المتزامنة فستنحو الاستعدادات عندها نحو الشمولية ، اذ لا يمكن تصحيح اي اهمال . ومقياس الاستعدادات الوحيد الذي يمكن للواقع توفيره سيكون مجموعة المعايير التي يختارها الخصم – وبقدر ما هو معلوم منها ، اما الباقي فلن يعدو ، مرة أخرى مجرد حسابات تجريدية . اما اذا تألف القرار في الحرب من عدة اعمال (Acts) متتابعة ، عندها سنرى ان كلاً منها وعلى ضوء القرائن الخاصة به ، سيؤمن مقياساً للعمل الذي سيليه . هنا مرة اخرى سيستبدل عالم التجربة بواقع حي وسيعدل التوجه نحو النهاية المتطرفة كثيراً .

لكن ، ومن غير ريب ، إذا أمكن إستخدام جميع الوسائل المتيسرة ، أو امكن استخدامها في آن واحد ، فان جميع الحروب ستختصر طوعياً الى عمل حاسم واحد او مجموعة متزامنة منها – والسبب في ذلك هو ان اي **قرار معاكس** يجب أن يقلل كمية الوسائل المتيسرة ، اما اذا **أشركت كافة تلك الوسائل** في العمل الاول فليس من مجال بعد لعمل ثان وستُعدُ كل عملية عسكرية لاحقة كجزء من العملية الاولى – وبكلمةٍ أخرى ، مجرد إمتدادٍ او ملحقٍ لها .

الان وكما اوضحت اعلاه فحالما تبدأ الاستعدادات لحرب ما فسيفرض الواقع نفسه على عالم الفكر التجريدي (عالم النظريات) ، وتحل الحسابات المادية محل الإفتراضات المفرطة واللاواقعية ، ولهذا السبب وحده ان لم يكن ذلك لسبب اخر فان التفاعل ما بين طرفي النزاع ينحو الى التوقف قبل حدود الجهد الاقصى . لذا فلن يعبئا كل مواردهما على الفور .

إلى جانب ذلك فان طبيعة تلك الموارد ، وطبيعة استخدامها تعني عدم امكانية

نشرها (deployed) كلها في وقت واحد والموارد موضوعة البحث هي **قوات مقاتلة ممتازة ، الوطن** بعوارضه الطبيعية وسكانه ، **والحلفاء.**

البلاد – بعوارضها الطبيعية والسكان – هي اكثر من مجرد كونها مصدراً لكل القوات المسلحة المناسبة ، فهي بذاتها عنصر متكامل قائم بذاته من بين العوامل الفاعلة في الحرب – ولو ان ذلك يقتصر بطبيعة الحال على الجزء الذي يشكل المسرح الفعلي للعمليات او الذي له تأثير ملحوظ عليه .

يمكن ودون شك استخدام جميع القوات المقاتلة المعبأة في آن واحد ، الا ان ذلك لا يتحقق دون توفر الحصون ، والانهار والجبال ، والسكان وغيرها كما لا يشمل ذلك كل البلاد ما لم تكن بلاداً صغيرة بحيث يغطيها العمل الافتتاحي (الاولي) للحرب . واكثر من ذلك فلن يسهم الحلفاء في الحرب بالقدر الذي يرغب فيه المتحاربون ما دامت العلاقات الدولية على ما هي عليه ، فان مثل هذا التعاون المطلوب لن يتحقق فعلاً الا في المراحل اللاحقة من الحرب ، او أنه سيتزايد عندما يختل التوازن فقط وتدعو الحاجة الى تصحيح ذلك الاختلال فعلاً .

ظهر وفي العديد من الحالات ان ذلك الجزء الذي يتعذر زجه فوراً من وسائل المقاومة يظل اعلى بكثير مما كان يظن لاول وهلة . وحتى لو زجت قوة كبيرة في الفصل الأول الى الحد الذي يُربك فيه التوازن بقوة ، فيمكن مع ذلك استعادة حالة التوازن (Equilibrium) . وستعالج هذه النقطة بالتفصل خلال هذا البحث، ويكفي في هذه المرحلة ايضاح ان طبيعة الحرب تعيق **التحشيد المتزامن لجميع القوات** . وللتدليل على ذلك لا يمكن اعتبار هذه الحقيقة بذاتها اساساً او قاعدة لعمل اي شيء عدى الحد الاقصى من الجهد للحصول على القرار الاول ، لأن الهزيمة ضرر مدمر لا يعقل ان يتقبل انسان مخاطره برضاه . وحتى لو لم يكن الاشتباك الاول هو الاشتباك الوحيد ، فإن تأثيره على الاعمال اللاحقة يتناسب وحجمه . الا أن بذل الجهد الاقصى امر لا ينسجم والطبيعة البشرية التي تميل دائماً الى اختلاق الحجج والمعاذير للتلكوء وتأجيل موعد اتخاذ القرار الى ما بعد . تكون النتيجة عادة ان الجهد وما يحشد من القوات للقرار الأول ليس بالقدر المطلوب . كما أن كلما يحذف بسبب ضعف أحد الطرفين فَسيُعدّ شيئاً ايجابياً لصالح الطرف الآخر ويبرر له تقليص جهوده ، وأن التوجه نحو النهاية القصوى سيتقلص هو الاخر بقوة هذا التفاعل .

٩. في الحرب لن تكون النتائج نهائية ابداً

واخيراً فحتى النتائج الاخيرة لا تعتبر نهائية دائماً . وغالباً ما تعتبر الدول المهزومة مثل تلك النتائج كشر موقت (عارض) ما زال بالامكان تلافيه أو ايجاد العلاج المناسب له في ظروف سياسية قادمة . من الواضح ان هذه ايضاً يمكن ان تخفف التوتر وتقلص من قوة ومفعول الجهد .

١٠. احتمالات الواقع الحي تحل محل التطرف ، والمطالب المطلقة للنظرية.

هكذا تخفف الحرب من المتطلبات النظرية الصارمة التي يطبقها تطرف القوة (العنف) . وحال زوال الخوف من التطرف ، او انه لم يعد غاية بذاته فلا يعدو الامر ان يصبح ، في القرار على الدرجة المطلوبة من الجهد : الأمر الذي يعتمد على ما يدرك في عالم الواقع فقط ، وعلى **قوانين الاحتمالات** . ويوم يتحول الخصم من مجرد افتراضات أو تلفيقات نظرية تسطر على الورق أو تقال في غرف الدرس ويغدو شيئاً حقيقياً ، دولاً او حكومات قائمة ، وعندما لم تعد الحرب مجرد قضايا نظرية بل سلسلة متصلة من العمليات التي تخضع لقوانينها الخاصة ، انذاك فقط يمدنا الواقع الحي المحيط بنا بكل التفاصيل الضرورية التي نستخلص منها المجهول الذي سينتظرنا .

بوسع كل طرف ، واستناداً الى **قانون الاحتمالات** ، ومن تفهمه لشخصية (طبيعة وسمات) خصمه ومؤسساته ، ونوعية وحالة قضاياه وشؤونه ، وموقفه العام ، صياغة وتصور المسلك المحتمل ان يختاره عدوه وليقرر بالتالي ما يتوجب عليه عمله وفقاً لذلك .

١١. عاد الهدف السياسي الان الى الصدارة ثانية

يعود الموضوع الذي ناقشناه في الفقرة (٢) اعلاه ليفرض نفسه علينا مرة اخرى، واعني به **الهدف السياسي للحرب** ، والذي طغى عليه حتى الان قانون التطرف ، والعزم على قهر العدو وتجريده من كل حول وقوة . لكن وحالما يبدأ هذا القانون بفقد قوته ، ومع تراخي العزم تعود الغاية السياسيه لتأكيد نفسها . فان كان الامر لا يعدو حساب احتمالات يبنى على ما بين ايدينا من ظروف واشخاص ، **فالهدف السياسي** والذي كان الباعث **والمحرض الاساسي** ، يجب ان يكون العامل الرئيسي

في المعادلة . وكلما تضاءل حجم التنازل الذي تريده من عدوك كلما قل توقعك ان لا يحاول هو بدوره حرمانك منه ، ومن جهة أخرى ، فكلما تضاءلت الجهود التي يبذلها العدو كلما تقلص مقدار ما تحتاجه انت بدورك من جهد بل واكثر من ذلك فكلما اعتدل او تواضع هدفك السياسي كلما تضاءلت الاهمية التي توليها لذلك الهدف ، وكلما سهل عليك التنازل او التخلي عنه إن توجب عليك ذلك . **يشكل ذلك سبباً اخراً كي يكون جهدك اكثر اعتدالاً وتواضعاً** .

يحدد الهدف السياسي – والذي يعد الباعث الاول والاساسي لاندلاع الحرب– كلاً من الهدف العسكري الواجب تحقيقه ، والحجم المطلوب من الجهد لذلك . ليس بوسع الهدف السياسي **بذاته** توفير المعايير الاساسية . نظراً لكوننا نتعامل هنا مع واقع حي ، لا مع تجريد او في فراغ ، فبوسعه ذلك على ضوء ظروف ومحيط الدولتين المتحاربتين فقط ، كما بوسع نفس الهدف السياسي استثارة **ردود فعل مختلفة** عند شعوب مختلفة ، بل وحتى من نفس الشعوب ولكن في ظروف مختلفة. لا يمكن اتخاذ الهدف السياسي كمعيار فقط اذا فكرنا في **التأثير الذي له على القوات المعني بتحريكها.** تستدعي طبيعة تلك القوات الدراسة ، وستتنوع النتائج اعتماداً على ما اذا كانت سماتها ستزيد او تضعف قوة الدوافع نحو عمل او اعمال معينة ، ويمكن ان ينشأ مثل هذا التوتر ، او يتوفر مثل هذا الحشد من المواد الشديدة الإنفجار بين اي شعبين او دولتين ، والى الحد الذي يمكن ان يتسبب فيه اقل واصغر قتال ، تأثيراً كبيراً لا يتناسب وحجم ذلك القتال – اي انفجار حقيقي .

ينطبق ذلك ايضاً على الجهود التي يتوقع من الهدف السياسي اثارتها في اي من الدولتين ، وكذلك الحال بالنسبة الى الاهداف العسكرية التي تسعى سياسات الدولتين الى تحقيقها . يحدث ان **تتطابق الاهداف السياسية والعسكرية احياناً** – وعلى سبيل المثال في احتلال منطقة ما . الا انه وفي حالات اخرى فان الهدف السياسي لا يشكل هدفاً عسكرياً مناسباً ولابد في حالات كهذه من اختيار هدف عسكري آخر يخدم الغرض السياسي ويمثله في مفاوضات السلام . لكن هنا ايضاً لابد من الانتباه الى خصائص وميزات كل دولة ذات علاقة . هناك اوقات لابد فيها من التركيز على ان البديل سيكون مهماً بدرجة كبيرة ، ان اريد للهدف السياسي ان يتحقق فيها . وكلما قل انشغال ومشاركة السكان ، وكلما قل أو خف التوتر داخل وفيما بين الدولتين ، كلما زاد تحكم وسيطرة المتطلبات السياسية الى حد تغدو فيه حاسمة .

لذلك فليس من المستبعد ظهور مواقف يكون الهدف السياسي فيها هو العامل المسيطر الوحيد تقريباً .

عموماً ، يمكن القول أن الهدف العسكري الذي يتناسب والهدف السياسي في الميزان ، سيتعرض لنفس التأثيرات ، فلو تقلص الهدف السياسي ، فسيتقلص الاخر ، وبنفس النسبة ، وسيتأكد ذلك اكثر كلما تزايدت سيطرة واهمية الهدف السياسي . وهكذا سيؤدي ذلك ودون اي تضارب او خلاف لأن يكون لكل الحروب نفس الدرجة من الاهمية والكثافة (الشدة) ، وتتراوح عندها تلك الحروب ما بين حروب ابادة Extermination ، ونزولاً الى الاستطلاع المسلح Armed Observation البسيط. يقودنا كل ذلك الى سؤال مختلف جداً لابد لنا من تحليله والاجابة عليه .

١٢ . عدم اطراد الانشطة العسكرية ، لم يفسر باي شيء حتى الان

مهما كانت المتطلبات السياسية لاي من طرفي النزاع لينة ومتواضعة ، ومهما صغرت الوسائل المستخدمة ، ومهما كان الهدف العسكري محدوداً ، فهل يمكن ايقاف مسار وتتابع الحرب ابداً ، وحتى للحظات ؟ انه سؤال ينفذ عميقاً الى لب (جوهر) القضية.

يحتاج كل عمل الى وقت محدد لاكماله ، وتعرف تلك الفترة بمدة العمل أو أمده (duration) . يعتمد طول تلك المدة على السرعة التي سينجز المرء فيها ذلك العمل . ولا حاجة بنا للأنشغال بالتفاصيل والاختلافات هنا ، فكل امرؤ سينجز عمله بطريقته الخاصة ، فالرجل البطيء سوف لن ينجز عمله ببطاءة اكثر لانه يريد صرف المزيد من الوقت في ذلك ، بل لان طبيعته هو تفرض عليه الحاجة الى مزيد من الوقت . ولو اسرع في عمله فسينجزه بكفاءة أقل ، لذا فان سرعته ستتقرر هنا لاسباب موضوعية ، وهي عامل مؤثر في المدة الحقيقية للواجب (Task) .

والان فلو سمح باعطاء كل عمل في الحرب مدة مناسبة له ، فسنوافق ولو في البداية على الأقل ، بان اية اضافة في الوقت – اي ايقاف او تعليق العمل العسكري – ليست سوى مضيعة للوقت . عليه يجب ان نتذكر بهذا الصدد ، أن ما نتحدث عنه ليس التقدم الذي يحرزه هذا الطرف او ذاك ، بل عن تقدم وتتابع التفاعل العسكري ككل .

١٣. اعتبار واحد فقط بوسعه تعليق العمل العسكري .
ويبدو أن ذلك لا يمكن ان يظهر ابداً لدى اكثر من طرف واحد

اذا استعد طرفان للحرب ، فلابد أن بعض الدوافع العدائية قد اوصلتهم الى تلك النقطة ، وستدوم قوة وفعالية هذا الحافز العدائي ما دام الطرفان تحت السلاح (دون البحث عن تسوية) . ولن يكبح جماحهما سوى اعتبار واحد هو :**الرغبة في انتظار اللحظة الافضل قبل التحرك** . قد يفكر المرء لاول وهلة بان تلك الرغبة لا يمكن ان تتحكم وتفعل فعلها في اكثر من طرف واحد طالما كان خصمه سيتحرك بعده تلقائياً . اما ان كان العمل سيحقق منفعة ما، لاحد الطرفين فقط ، عندها فمن مصلحة الطرف الاخر أن ينتظر .

لا يمكن ان يحدث التوازن المطلق في القوات ، أو ان يؤدي الى التوقف التام (Stand Still) ، فلو وجد مثل هذا التوازن ، فستكون المبادأة وبالضرورة بين يدي الطرف ذو الغاية الايجابية – اي المهاجم .

مع ذلك فبوسع المرء تصور حالة التوازن التي يكون الطرف ذو الغاية الايجابية فيها (الطرف الذي لديه منطلقات اقوى للعمل) هو الطرف الذي يمتلك قوات اضعف. عندها سينشأ التوازن من التأثيرات المتشابكة **للغاية والقوة** . وما دامت تلك هي القضية فمن حق المرء القول، إن لم يكن بعض التحول في ميزان القوى متوقعاً ، ينبغي على الطرفين التوصل الى السلام ، ومن الناحية الثانية ، فإن كان هذا التحول امراً ممكناً فبوسع احد الطرفين فقط توقع الاستفادة من ذلك – وحري بحقيقة كهذه أن تدفع الطرف الاخر الى العمل . لذلك دعونا نفترض أن لاحدى الدولتين غاية ايجابية – كأن تسعى لاحتلال جزءٍ من اراضي العدو لاستغلالها في المفاوضات على مائدة الصلح . فحالما يتحقق ذلك وتصبح الجائزة التي ارادتها بين يديها ، عندها يكون الهدف السياسي قد تحقق : فما من حاجة بعد لمزيد ، وبوسعها أن تدع الامور لتهدأ . فان كانت الدولة الاخرى على استعداد لقبول الموقف فعليها حينئذٍ البحث عن السلام، وبخلاف ذلك عليها القيام بشيء ما. اما اذا اعتقدت بانها ستنظم نفسها بشكلٍ افضل خلال اربعة اسابيع فمن الواضح أن لديها ما يبرر عدم قيامها بعمل ما فوراً .

لكن ومنذ تلك اللحظة وما بعدها، يبدو أن المنطق يفترض عملاً من الطرف الآخر–الهدف هو حرمان العدو من الوقت الذي يحتاجه لانجاز استعداداته. لقد افترضت خلال ذلك كله، أن كلا الطرفين وبطبيعة الحال يتفهمان الموقف بشكل كامل .

١٤ . هكذا تتحقق الاستمرارية في العمل العسكري ، وستزيد حدة كل شيء ثانية

لو وجدت هذه الاستمرارية في الحملات فعلاً فسيؤدي تأثيرها ثانية الى دفع كل شيء حتى التطرف (Extrems) . وليس عدم توقف للأنشطة كهذا فقط ما يثير مشاعر الرجال ، ويملأهم بالمزيد من الانفعالات وعناصر القوة ، بل أن الحوادث ستتوالى واحدة بعد اخرى وبارتباط وثيق كما انها محكومة بسلسلة الضوابط المعتادة . وسيكون كل عمل منفرد اكثر اهمية ، وبالتالي اكثر خطورة .

لكن نادراً ما تظهر الحرب مثل هذه الاستمرارية (التتابع) . وفي العديد من النزاعات لم يشغل العمل فيها الا جزءً صغيراً من الوقت الكلي ، اما القسم الاكبر من الوقت فيمر دون فعاليات . ولا يمكن اعتبار ذلك كاستثناء على الدوام . يجب أن يكون تعليق (Suspension) العمل في الحرب ممكناً . وبكلمة اخرى ، ليس ذلك تناقضاً في التعبير . ولأستعرض هذه النقطة ، ولأشرح اسباب ذلك .

١٥ . هنا نقدم مبدأ الثنائية

Principle of Polarity

بالتفكير في تضارب مصالح القائدين مع بعضهما البعض وبدرجة متعادلة ، نكون قد قبلنا بثنائية تامة . وسيخصص فصل كامل لهذا الموضوع لاحقاً ، ومع ذلك فلا بد من اثبات ما يلي حوله :

يعد مبدأ الثنائية صالحاً فيما يتعلق باحد الطرفين فقط ، ومع نفس الهدف ، وحيث تلغي المصالح الايجابية والسلبية بعضها البعض تماماً . ففي المعركة يستهدف كل طرف الانتصار ، وهذه هي احد قضايا الثنائية الحقيقية ، طالما سيلغي انتصار احد الطرفين انتصار الطرف الاخر . مع ذلك فعندما نتعامل مع شيئين مختلفين مع ارتباطهما بعلاقات عامة خارجية عنهما ، فالثنائية لا تكمن في **الاشياء** بل في علاقاتها .

١٦ . الهجوم والدفاع شيئان مختلفان في النوع ، وليسا متعادلان في القوة ، ولا تنطبق الثنائية عليهما

لو اقتصرت الحرب على شكل منفرد ، وليكن مهاجمة العدو ، وان لا وجود للدفاع ، او ، ولنضع ذلك بطريقة أخرى ، فان كان الاختلاف الوحيد بين الهجوم والدفاع يكمن في حقيقة ان للهجوم غاية ايجابية لا تتوفر للدفاع ، وان اشكال القتال متتطابقة ؛ عندها فكل ميزة (فائدة) يكسبها احد الطرفين ستشكل خسارة (ضرراً) معادلاً للآخر – ستظهر هنا ثنائية حقيقية .

الا أن هناك شكلين متميزين من العمل في الحرب هما : الهجوم والدفاع . وكما سيتضح لنا فيما بعد وبتفصيل واف فان هذين الشكلين مختلفان للغاية ولا يتساويان في القوة . لا تكمن الثنائية (القطبية) في الهجوم او الدفاع ولكن في الهدف الذي يسعيان لتحقيقه : أي الحسم . إن اراد احد القائدين تأجيل القرار ، فلا بد أن الطرف الآخر سيحاول تعجيل اتخاذه ، مفترضين دائماً أن الطرفين يخوضان نوعاً واحداً من القتال . فان لم يكن من مصلحة (أ) ان يهاجم عدوه (ب) الان ، بل ان يهاجمه بعد اربعة اسابيع ، عندها فليس من مصلحة (ب) أن يُهاجم بعد اربعة اسابيع بل الآن . يقدم لنا هذا الموقف مثالاً على تصادم فوري ومباشر للمصالح ، ولكن لن ينتج من ذلك أن من مصلحة (ب) ان يشن هجوماً فورياً على (أ) . فذلك وكما هو واضح يشكل قضية أخرى .

١٧ . غالباً ما يدمر تفوق الدفاع على الهجوم تأثير القطبية ، وهذا يفسر تعليق العمل العسكري

الدفاع هو الشكل القتالي الاقوى من الهجوم وكما سنوضح ذلك . بناءً على ذلك علينا ان نسأل ما اذا كان **تأجيل القرار** ميزة كبيرة لاحد الطرفين وبنفس حجم ميزة **الدفاع** للطرف الآخر . ومتى لم تكن كذلك فلن توازن ميزة الدفاع ، وستؤثر بهذه الطريقة على مسار الحرب . وسيتضح عندها بان الزخم الذي ينجم عن قطبية المصالح سيستنفذ وسط الاختلاف ما بين قوتي الهجوم والدفاع ، وقد يصبح لذلك دون جدوى ، أي معطلاً .

وعليه ، فإن كان الطرف الذي تعد الظروف الحالية لصالحه ، ليس قوياً بما يكفي

لان يعمل دون المزايا المضافة للدفاع ، فعليه القبول بالتأجيل والعمل تحت ظروف غير مواتية في المستقبل . لعل خوض معركة دفاعية تحت تلك الظروف غير المواتية ، أفضل من أن يهاجم على الفور ، أو أن يسعى لاتفاق سلام . انا مقتنع بتفوق الدفاع (اذا فهم جيداً) تفوقاً كبيراً ، واكبر مما يبدو لاول وهلة . وهذا هو ما يفسر ودون أي لبس أو غموض ، الكثير من فترات الجمود والتعطل التي تقع في الحرب . كلما كانت دوافع العمل اكثر ضعفاً ، كلما امكن حجبها او تحيدها بهذا التفاوت بين الهجوم والدفاع ، وكلما تكرر تعليق العمل – وكما تؤكد ذلك التجارب .

١٨ . قضية ثانية هي عدم الاحاطة بالموقف

ما زال هناك عامل آخر بوسعه ايقاف العمل العسكري : المعرفة غير الكاملة بالموقف . إن الموقف الوحيد الذي يعرفه القائد كلياً هو موقفه الخاص ؛ اما موقف خصمه فلا يستطيع معرفته الا من استخبارات غير مؤكدة . لذلك قد يكون تقييمه خاطئاً وقد يقوده الى الافتراض بان المبادأة[1] في يد الخصم بينما ما زالت في واقع الحال في يده هو . إن تقويماً خاطئاً كهذا قد يؤدي الى عمل اسيئ توقيته ، او الى توقف عن العمل في غير اوانه ، وما من شيء يتسبب في إبطاء سرعة العمليات اكثر من العمل على تصعيد تلك السرعة . مع ذلك فلا مناص من وضعه مع جملة الاسباب الطبيعية ، التي **وبدون أن يلي ذلك اي تضارب ، بوسعها ايقاف العمل العسكري** . يميل الرجال (القادة) دائماً عند اعدادهم لتقارير الموقف عادة الى تضخيم قوة العدو كثيراً، واكثر مما الي التقليل منها ، وهكذا هي الطبيعة البشرية. ولو اخذنا ذلك بنظر الاعتبار فبوسع المرء الاقرار بان التجاهل الجزئي للموقف يعد عموماً عاملاً رئيسياً في اعاقة تقدم العمل العسكري وفي تخفيف المبدأ الذي يحمله .

لأمكانية توقف العمل العسكري تأثير اضافي في تخفيف تقدم الحرب، بتمييعه، ان جاز لنا قول ذلك، في الوقت المناسب بتأخير الخطر، وبتعزيز وزيادة وسائل أستعادة التوازن ما بين الطرفين. كلما كان التوتر الذي ادى الى اندلاع الحرب

---

(١) لو اختصرنا القيادة الناجحة بكلمة واحدة لقلنا انها « المبادأة » التي على القائد العمل بكلما لديه من طاقة لامتلاكها والاحتفاظ بها وحرمان خصمه منها فان ضاعت ضاع هو وضاعت المعركة – المترجم .

اكبر ، كلما كان الجهد الحربي من جراء ذلك اكبر ، وكلما تقلصت فترات التعطل (inaction) تلك . وعلى العكس وكلما ضعفت الدوافع التي قادت الى الحرب فكلما طال وقت فترات التوقف ما بين الاعمال . فالحوافز القوية تزيد من قوة الارادة ، وان قوة الإرادة وكما نعلم ، هي وعلى الدوام جزء من القوة وناتجة عنها معاً .

١٩. تكرر فترات التوقف تبعد الحرب اكثر عن نطاق المطلق وتزيد من كونها قضية حساب احتمالات

كلما ابطأ التقدم اكثر ، وكلما زادت فترات التقطع في العمل العسكري ، كلما سهل اصلاح الاخطاء ، وستكون الجرأة هي المحك الاكبر للقائد وستزيد معها قدرته على تجنب التطرف النظري ، وتمكنه من اسناد خططه الى احتمالات واستنتاجات . سيفرض اي موقف حساب الاحتمالات على ضوء الظروف ، والوقت الذي سيخصص لحساب كهذا سيعتمد على سرعة العمليات الجارية انذاك .

٢٠. لذلك نحتاج لعامل الصدفه فقط لجعل الحرب مقامره وما غاب هذا العامل ابداً

لقد اصبح واضحاً الآن ، كيف ان الطبيعة الموضوعية للحرب جعلتها وبدرجة كبيرة قضية تقدير للأحتمالات . ولا نحتاج لاكثر من عامل واحد لتحويل الحرب الى مقامرة – الحظ : ولعله اخر ما ينقص الحرب !! فما من فعالية انسانية اخرى يطوقها الحظ كلياً وباستمرار . ومع إن الحظ مسألة تخمين وصدف الا انها باتت تلعب دورا كبيراً في الحرب .

٢١. ليس طبيعة الحرب الموضوعية فقط ، بل وكذلك طبيعتها الذاتية ، ما يجعل الحرب مقامرة

لو تمعنا قليلاً في **الطبيعة الذاتية** للحرب–الوسائل التي تخاض الحرب بواسطتها –فستبدو واكثر من اي شيء اخر كمقامرة. ان الوسط او العالم الذي تحيا فيه الحرب هو الخطر . ولا شك في ان افضل السمات المعنوية في ايام المخاطر هي**الشجاعة** .

وتنسجم الشجاعة الان تماماً مع الحسابات الحكيمة مع ان الاثنين على طرفي نقيض ، اذ ينتميان لعاملين نفسيين مختلفين . والجرأة ، من الناحية الثانية والاقدام ، والاندفاع ، والاعتماد على الحظ ليست سوى اشكال اخرى للشجاعة ، وكل تلك السمات الشخصية تبحث عن الوسط المناسب لها – الحظ [1] .

الخلاصة فالمطلق ، او ما يعرف كذلك رياضياً ، انما هو مجموعة عوامل ليس لها اساس ثابت في الحسابات العسكرية . كان هناك ومنذ البداية تفاعل داخلي ما بين ، الممكن والمحتمل والحظ الحسن والسيء ، وكلها تصول وتجول طولاً وعرضاً وسط النسيج . وعلى اتساع مدى وافاق النشاط البشري تظل الحرب المثال الاكثر قرباً للعبة القمار (ورق القمار) .

٢٢ . كيف تتلائم هذه عموماً وبأفضل شكل مع الطبيعة البشرية

رغم أن فكرنا يتطلع دائماً نحو الوضوح واليقين ، فان طبيعتنا غالباً ما تنجذب نحو الخيال والأثارة . فهي تفضل احلام اليقظة في اجواء الصدفة والحظ على التعامل مع الفكر في مجاز البحث الفلسفي الضيق والمليء بالمصاعب ، ليضل فقط – ودون ان ندري كيف – وسط اجواء غير مألوفة ، ضاعت فيها كل العوارض الارضية والعلامات المعتادة ، ولأننا لسنا محكومين بالضرورة الضيقة (الملزمة) ، فقد يتكشف ذلك لنا عن مجالات وإمكانيات غنية تستثير الشجاعة والجرأة للخوض في عاملي الاندفاع والخطر كالسابح الذي لا يخشى قوة التيار .

هل ينبغي على النظرية ان تتركنا هنا ، كي نمضي بارتياح نحو استنتاجات مطلقة ووصفات جاهزة ؟ اذن ، ما من فائدة ما مطلقاً في الواقع الحي . كلا فلا بد من ادخال العامل البشري في الحسبان ، وأن نجد مكاناً للشجاعة والجرأة بل وحتى للأندفاعات

---

(١) كان نابليون يضع وكشرط اخير لترقية ضباطه ، حسن الحظ في المعارك وكذا فإن الجيش البريطاني يضع الحظ كاخرواهم شروط الانتصار في المعارك رغم ما عرف عنهم من حذر قاتل وبطاءة تفرض اكمال ١٠٠٪ من الاستعدادات قبل التحرك. نقول اذن بان الحظ الذي يكون الحكم الاخير هو تعبير حي عن ارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى والا فكيف نجى حشد الايمان في معركة الاحزاب والذي يقوده اشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم – المترجم . .

الحمقاء . يتعامل فن الحرب مع الحياة ، ومع الجوانب والعوامل المعنوية . وعليه فلن يتمكن من تحقيق المطلق او المؤكد ، ولابد على الدوام من ابقاء هامش ما للمجهول (غير المؤكد uncertainty) ، سواء كان ذلك في امور جسيمة أو حتى صغيرة . لو وضعنا المجهول وغير المؤكد في كفة ميزان ، فلابد من وضع الشجاعة والثقة بالنفس في الكفة الأخرى لتصحيح التوازن . وكلما كانت تلك كبيرة كلما كبر حجم الهامش الذي يمكن تركه تحسباً للحوادث . وهكذا يتضح أن الشجاعة والثقة بالنفس أمران اساسيان في الحرب ، وليس على النظرية سوى اقتراح القواعد التي تعطي مجالاً واسعاً لتلك المناقب والسمات العسكرية الاعلى قيمة ، والتي يصعب الاستغناء عنها وفي جميع درجاتها وحالاتها الا باقل ما يمكن . هناك وحتى في الجرأة طرق واساليب ، واحتراس ، الا انها تقاس هنا بمعايير مختلفة .

٢٣ . مع ذلك فالحرب وسيلة جادة للوصول إلى نهاية جادة : تعريف اكثر وضوحاً للحرب

هكذا هي الحرب ، وهكذا هو القائد الذي يديرها ، وهكذا هي النظرية التي تتحكم بها . ليست الحرب تسلية او تمضية للوقت ، وليست للحصول على مزيد من البهجة والفوز ، وما من مكان فيها للحماس الاهوج اللامسؤول . **انها وسيلة جادة نحو نهاية جادة** ، وكل صورها النابضة بالحياة تشبه تلك التي في لعبة الحظ . وكلما تحتويه من عواطف ، وشجاعة ، وخيال وحماس وغيرها من السمات المتقلبة ليس الا من سماتها الخاصة فقط.

عندما يخوض المجتمع كله الحرب – اي كل الشعب ، وعلى الاخص الشعوب المتمدنة – فالسبب يكمن دائماً والى حد ما في الموقف السياسي ، والظرف الاني لها لابد متعلق بهدف سياسي ما . **فالحرب ، لذلك ، عمل من اعمال السياسة** . فإن كانت الحرب مظهر مطلق وصريح وكامل وغير مقيد للعنف حقاً (وكما يوحي بذلك مفهومها الخالص) . فانها وباستقلالها الذاتي ستحل محل السياسة منذ اللحظة التي تتولى السياسة فيها اشعال (خلق) الحرب ، وهي سوف تبطل عمل السياسة ، وتحكم وقف القوانين التي تنسجم وطبيعتها هي ، كاللغم الذي لا ينفجر الا بالطريقة والاتجاه الذي يقرره زارعه مسبقاً . وهذا ، في الحقيقة هو الموقف الذي يمكن اتخاذه حول الامر كلما تسببت الاختلافات بين السياسة وادارة الحرب في اثارة فروق نظرية من

هذا النوع . الا إن الامور هي خلاف ذلك في الواقع ، وان هذا الموقف خاطئ تماماً . لان الحرب في الحقيقة ليست كذلك، وكما اتضح لنا فليس عنف الحرب كذلك النوع الذي يتفجر بضغطة واحدة ، بل هو تأثير القوة الذي لا يتطور دائماً بنفس الطريقة ، ولا بنفس الدرجة . فهي تتسع كثيراً احياناً لما يكفي للتغلب على مقاومة الاستمرارية (القصور الذاتي) او الاحتكاك ، بينما تضعف جداً في إحيان أخرى والى الحد الذي ينعدم فيه أي تأثير . الحرب اذن طوفان من العنف ، مختلف في القوة ، ولذا ستختلف في السرعة التي سيتفجر بها ويفرغ طاقته . تتحرك الحرب نحو اهدافها بسرعات متفاوتة ؛ الا انها تستغرق دائماً ما يكفي كي يمتد تأثيرها على الهدف ، ولتغيرمسارها بطريقة أو اخرى – بكلمة اخرى ، بطول يكفي لأن تكون الحرب من عمل وموضوعات الفكر المتفوق ، ولو تذكرنا دائماً بان الحرب تنبع من هدف سياسي ما ، فمن الطبيعي ، ان يظل للسبب الرئيسي لوجودها ، الاعتبار الاعلى في ادارتها . ولا يتضمن ذلك بطبيعة الحال ان للغاية السياسية مكانة طاغية ، اذ عليها أن تنسجم مع الوسائل المختارة ، وهي عملية يمكن أن تغيرها جذرياً ، مع بقاء الغاية السياسية كاعتبار أول . عندها ستنفذ السياسة الى جميع العمليات العسكرية ، ومن ثم والى الحد الذي سيسمح به العنف الطبيعي لتلك العمليات ، ستواصل (اي السياسة) تأثيرها عليها .

٢٤. الحرب ليست سوى استمرار للسياسة بوسائل اخرى

عليه ، فمن الواضح أن الحرب ليست من عمل السياسة فقط ، بل انها اداة سياسية حقيقية ، انها استمرار للنشاط السياسي بوسائل اخرى . اما الذي يتبقى خاصاً ومميزاً للحرب ، فهو وببساطة الطبيعة المتميزة لوسائلها . فالحرب عموماً والقائد وفي اي قتال او موقف بعينه ، مطالب بالتأكد من عدم تعارض توجه وتصميم السياسة مع تلك الوسائل . ليس هذا بطبيعة الحال بالمطلب اليسير ، لكن وبالقدر الذي قد يؤثر فيه على الغاية السياسية في قضية بعينها ، فهي لن تفعل اكثر من تطويرها . المطمح السياسي هو الهدف ، والحرب هي وسائل تحقيقه ، ولا يمكن التمعن في الوسائل بمعزل عن غاياتها .

٢٥. تنوع طبيعة الحرب

كلما قويت واتسعت بواعث الحرب ، كلما زاد تأثيرها على الأمم المتحاربة ، وكلما اشتد عنف وقسوة التوتر الذي يسبق اندلاع الحرب ، وكلما أقتربت من مفهومها المجرد، وكلما زادت اهمية تدمير العدو، وكلما زاد تزامن الغايات السياسية والاهداف العسكرية ، وكلما زاد المظهر العسكري وقل المظهر السياسي للحرب ، لكن ومن الناحية الاخرى ، فكلما قلت شدة البواعث ، كلما قل التوجه الطبيعي للعناصر العسكرية نحو عنف يتزامن مع التوجه السياسي ، والنتيجة هي ، ان الحرب ستتجه بعيداً عن مسارها الطبيعي ، وسيزداد اختلاف الهدف السياسي ، مع غاية الحرب المثالية ، وسيبدو الصراع اكثر سياسية في سماته .

عند هذه النقطة ولمنع القارئ من الظلال ، لابد من ملاحظة أن مصطلح ، او عبارة التوجه الطبيعي Natural tendency ، قد استخدمت بمعناها الفلسفي والمنطقي الصرف فقط ، ودون الاشارة الى توجهات القوات المشتبكة في القتال فعلا - بما في ذلك وعلى سبيل المثال معنويات وعواطف المقاتلين . يحدث احيانا ، في الحقيقة ، أن تلك العوامل تتصاعد بشكل يصبح معه من الصعب على العامل السياسي التدخل للسيطرة عليها . رغم أن صراعاً من هذا النوع لا يحدث كثيراً ، فلو كانت البواعث بالغة القوة فلابد عندها من وجود سياسة بحجم مناسب . ومن الناحية الأُخرى فلو وجهت السياسة نحو اهداف صغيرة فقط ، فان عواطف وانفعالات الحشود ستكون قليلة الشأن وستدعو الحاجة الى تنشيطها لا الى اخمادها أو كبحها .

٢٦. يمكن اعتبار كل الحروب اعمالاً سياسية

آن لنا ان نعود الى الاطروحة الاساسية ، وملاحظة ان السياسة ، وبينما تبدو متخفية ظاهريا في نوع واحد من الحرب ، مع انها جلية وبقوة في نوع اخر ، فكلا النوعان سياسيان بنفس الدرجة لو نظرنا الى الدولة كانسان ، والى السياسة كنتاج لعقله، عندها ومن بين الاحتمالات التي يتوجب على الدولة التهيؤ لها ، احتمال حرب يستدعي كل عنصر فيها ، سياسة يطوقها العنف . اما اذا اعتبرت السياسة لا نتاجاً لتقدير موقف للقضايا ، بل - وكما هي عادة - عمل احترازي ، ومراوغة ، بل وحتى ليس أميناً ، وتنفر بعيداً عن القوة ، عندها فقط يمكن ان يبدو النوع الاخر من الحرب اكثر « سياسية » من النوع الأول .

٢٧ . تأثير هذا الرأي على تفهم التاريخ العسكري ، وعلى تأسيس نظرية

أولاً : علينا وكما هو واضح تجنب التفكير بالحرب **كشيءمستقل بذاته** ، بل بكونها **وعلى الدوام اداة للسياسة** ، والا سيقف كل تاريخ الحرب ضدنا . وهذا المسلك فقط قادر على مساعدتنا في النفاذ الى المعضلة بذكاء ودقة .

ثانياً : ستظهر لنا طريقة النظر هذه الى الحرب ، كيف يجب ان تتنوع الحرب وفقاً لطبيعة بواعثها والمواقف التي اثارت تلك البواعث .

الاول هو الافضل ، والقرار الاصعب في الوصول إليه ، والذي على رجل الدولة والقائد القيام به ليرسي من خلال ذلك الفحص نوع الحرب التي يباشرونها . وكي لا يخطئا فيها او يحاولا تحويلها الى شيء اخر مغاير لطبيعتها . هذا هو السؤال الاول الذي يسبق ما عداه والاكثر شمولاً في الاستراتيجية ، والذي سيحضى بدراسة مفصلة فيما بعد في الفصل (الكتاب) الخاص بخطط الحرب .

يكفينا وحتى الآن وصولنا هذه الصفحة ، وارسائنا وجهة النظر الاساسية[1] التي نبدأ منها عملية تفحص الحرب ، ونظرية الحرب .

٢٨ . نتائج منطقية للنظرية

الحرب اكثر من مجرد حرباء حقيقية تكيف خصائصها كيفما اتفق على القضية المطروحة . وكظاهرة شاملة فان توجهاتها الحاكمة تجعل الحرب دائماً ، ثلاثية غير عادية – تتألف من عنف بدائي ، وحقد ، وعدوانية ، ويمكن اعتبارها قوة طبيعية عمياء، من اللعب ، والحظ ، والاحتمالية ضمن وحيث تكون الروح المبدعة حرة في الانطلاق، وكذلك من عناصر او اجزاء ثانوية ، كمادة للسياسة ، الامر الذي يجعلها موضوعاً للفكر وحده .

---

(١) وجهة النظر الاساسية . ترجمة لـ (Cardinal Point of View) وتعني الجهات الاساسية الاربع (قاموس وبستر – كوليج ايد شين) وتعني وجهة النظر الشاملة التي تغني عما عداها ونعتقد ان المؤلف يقصد انه ارسى مسارات البحث الرئيسية للعمل (الكتاب) كله . المترجم .

يتعلق اول تلك الجوانب بالشعب بشكل اساسي ، اما الثاني فبالقائد وجيشه ؛ اما الثالث فبالحكومة . لابد ان تكون العواطف التي ستثيرها الحرب متأصلة في الشعب ، اما النطاق الذي تصول فيه الشجاعة والذكاء (الموهبة) في محيط الاحتمالات والحظ والفرص فيعتمد على السمة الخاصة بالقائد والجيش ، الا أن الغايات السياسية هي من عمل واختصاص الحكومة حصراً .

تلك التوجهات الثلاث، تشبه ثلاثة قواعد قانونية عميقة الجذور في موضوعها وان كانت ما زالت متنوعة في علاقاتها مع بعضها البعض. النظرية التي تتجاهل أية واحدة منها أو تبحث في خلق وتثبيت علاقة عشوائية بينها ستتعارض مع الواقع والى الحد الذي تغدو فيه – أي تلك النظرية – ولهذا السبب وحده عديمة الفائدة كلياً.

لذلك يغدو واجبنا هو تطوير نظرية تحفظ التوازن بين تلك التوجهات الثلاث، كشيء معلق بين ثلاثة أحجار مغناطيسية.

اما الخط الافضل الواجب إتباعه لأنجاز هذا الواجب الصعب، فسنبحث فيه في الكتاب الذي يتناول نظرية الحرب (الكتاب الثاني). على أية حال، فالمفهوم الاولي الذي صغناه عن الحرب يلقي اول حزمة ضوء على البناء الاساسي للنظرية، ويمكننا من إعداد التفاضل (التمييز) الاولي، وتحديد الاقسام الرئيسية لها.

الفصل الثاني

الغاية والوسيلة في الحرب

اوضح لنا الفصل السابق ان للحرب طبيعة معقدة ومتغيرة. واسعى هنا للبحث في كيفية تأثير طبيعتها على غايتها ووسائلها .

لو تمعنا ابتداءً في هدف اي حرب معينة ، والذي سيوجه العمل العسكري لو اريد العمل بدقة خدمة لانجاز الهدف السياسي ، وجدنا ان هدف اي حرب يمكن ان يتنوع على امتداد غرضها السياسي وظروفها الواقعية .

اذا تمعنا الان في المفهوم الصافي للحرب ، فينبغي علينا القول ان الغرض السياسي للحرب لا علاقة له بالحرب نفسها ، فإن كانت الحرب من اعمال العنف المعنى باجبار العدو للخضوع لارادتنا فان غايتها **ستكون وعلى الدوام واحدة لا غير بقهر العدو وتجريده من السلاح** . لقد استنبطت تلك الغاية من المفهوم النظري للحرب، وما دامت حروب كثيرة قد اقتربت كثيراً من تحقيقه فدعونا نتفحص هذا النوع من الحرب قبل كل شيء .

بعد ذلك ، وحين نعني بموضوع خطط الحرب ، فسنتحرى وباوسع تفصيل ما يعنيه **تجريد بلد من سلاحه** . ولكن علينا التميز وعلى الفور ما بين ثلاثة اشياء ، او ثلاثة موضوعات واسعة ، وتغطي فيما بينها كل شيء وهي : **القوات المسلحة ، والبلد، وارادة العدو** .

يجب **تدمير القوات المقاتلة** : ويعني ذلك ان **نضعها في موقف لا تستطيع معه مواصلة القتال** . وحيثما استخدمنا عبارة « تدمير قوات العدو » فلا نعني به شيئاً غير ما او ضحناه .

يجب احتلال البلد ، والا فبوسع العدو تعبئة وزج قوات نشطة جديدة .

وحتى مع تحقيق هذين الامرين فلا يجوز اعتبار الحرب ، او العدوانية والتأثيرات المشتركة للعوامل العدائية ، قد انتهت طالما لم يقظى على **ارادة العدو** ، وبكلمة اخرى طالما لم تسعى (تجبر) حكومة العدو وحليفاتها من اجل طلب السلام ، او ابدى الشعب استعداده للإستلام .

قد نحتل البلد المعادي بكامله ومع ذلك يمكن ان تتجدد الأعمال العدائية ثانية في الداخل ، او ربما بمساعدة الحلفاء . ويمكن ان يحدث ذلك ايضاً بطبيعة الحال بعد توقيع معاهدة الصلح ، الا ان ذلك يوضح لنا فقط بان كل حرب ستقود بالضرورة الى قرار نهائي وتسوية . لكن حتى لو نشبت الاعمال العدائية ثانية ، فان معاهدة الصلح كفيلة باخماد الكثير من الشرارات التي كان يمكن ان تستمر ساكنة تحت الرماد . واكثر من ذلك فان التوتر سيتداعى لان عشاق (محبي) السلام (وهؤلاء موجودون وسط كل شعب وفي جميع الظروف) سيكبحون اية تطلعات لاعمال اخرى . ما دام الامر كذلك فعلينا دائماً اعتبار السلام يعني بأن الحرب قد انجزت عملها الى النهاية .

من بين الموضوعات الثلاثة المذكورة فان القوات المقاتلة هي التي تضمن سلامة البلاد ، والنتيجة الطبيعية هي تدميرها اولاً ومن ثم اجتياح البلاد . وبعد انجاز هذين الهدفين واستثمارنا قوة موقفنا فبوسعنا عندها جر العدو الى مائدة المفاوضات . كقاعدة تنحو عملية تدمير قوات العدو لأن تتم بعملية تدريجية ، كما يحدث تماماً عند اجتياح واحتلال البلاد المعادية . ويؤثر هذان العاملان ويتفاعل احدهما مع الآخر ، اي ان خسارة الأرض تضعف القوات المقاتلة ، الا أن هذا التتابع المنطقي ليس اساسياً او لازباً لذلك ليس بالدائم الحدوث . فقد تتراجع قوات العدو الى مناطق بعيدة قبيل تعرضها لخسارة قاسية ، أو حتى بالانسحاب الى بلد آخر . وفي تلك الحالة فسيتم احتلال معظم او كل البلاد المعادية .

إلا إن غاية تجريد **العدو من سلاحه** (وهي **هدف الحرب التجريدي** والوسيلة النهائية لتحقيق هدف الحرب السياسي والذي يجب ان يجسد كل ما عداه) أمر لا نجابهه دائماً في الواقع ، لذا لا يجوز اعتبار الانجاز الكلي له شرطاً للسلام . وليس للنظرية وفي جميع الاحوال أن ترفعه الى مرتبة القانون اللازب . فقد تم التوصل الى العديد من المعاهدات قبل إمكانية إعتبار أحد الخصوم قد بات بلا قوة – حتى قبيل ان يميل ميزان القوى بدرجة خطيرة . واكثر من ذلك فاعادة النظر في مواقف حقيقية تظهر لنا ان التقسيم الشامل للحرب والذي تبدو فيه **فكرة تدمير العدو ، فكرة لا واقعية**، سيما تلك الحروب التي يكون العدو فيها **الأقوى** مادياً .

السبب في ان هدف الحرب الذي ينبثق في النظرية قد لا يكون مناسباً في صراع واقعي ، هو ان الحرب يمكن ان تكون على نوعين مختلفين جداً ، وقد سبق لنا مناقشة ذلك في الفصل الأول . ان كانت الحرب كما يفترض ان تكون في النظرية

الصرف ، فان حرباً تنشب بين دولتين متباينتين في القوة كثيراً تعد حرباً لا معنى لها ، بل ومستحيلة . وفي الغالب فان التباين المادي لن يذهب الى ابعد مما يمكن ان تعوضه العوامل المعنوية ، وان تكون الظروف الاجتماعية كما هي عليه اليوم في اوروبا فليس بوسع العوامل المعنوية أن تفعل الكثير . الا ان حروباً كثيرة قامت بين دول **متباينة القوة كثيراً ، لان الحرب غالباً ما تبتعد عن المفهوم الصرف الذي تفترضه النظرية** . يمكن الاستعاضة عن العجز عن مواصلة الكفاح فعلياً بقاعدتين أخريتين للتوصل الى السلام : الاولى لا امكانية تحقيق النصر ، والثانية الثمن الباهض الواجب دفعه .

وكما رأينا في الفصل الأول ، فلو أخذت الحرب ككل فانها تنحو الى التحول من قانون صلب للمصالح الاساسية الى الاحتمالات وكلما سهلت الظروف التي فجرت الصراع مثل هذا التحول كلما تقلصت حدة بواعثها وحدة التوتر الذي تسببت به . وهذا ما يسهل تفهم امكانية ان يؤدي تحليلاً ما للأحتمالات الى السلام نفسه . فلا تحتاج كل حرب أن تستمر حتى ينهار احد الطرفين . فعندما تكون دوافع الحرب وتوترها قليلاً الاهمية فبوسعنا تصور أن مجرد ظهور فكرة التدمير ستدفع احد الطرفين الى التوقف أو الاستسلام . ولو اقتنع احد الطرفين منذ البداية بامكانية دفع الخصم الى ذلك فمن المؤكد انه سيركز على تحقيق تلك **الامكانية** بدلاً عن متابعة القتال حتى النهاية وتدمير العدو كليا .

ومما له اهمية أعظم في القرار للتوصل الى السلام هو ادراك ماهية كل الجهود التي بذلت حتى الآن والجهود التي ستبذل بعد . وطالما لم تكن الحرب من اعمال العواطف المتبلدة ، بل تخضع كليا لهدف سياسي ، فستحدد قيمة ذلك الهدف حجم التضحيات التي ستقدم لاجله في **الحجم** وكذلك في **المرحلة** . وحالما تتجاوز الجهود المبذولة قيمة وحدود الهدف السياسي فلابد عندها من التخلي عن ذلك الهدف والسعي لاجل السلام .

عندها سنرى ، فان عَجَزَ أحد الطرفين عن تجريد سلاح خصمه كلياً فستنبثق الرغبة في السلام أو تختفي مع احتمال تحقيق المزيد من النجاح ، ومع مقدار الجهد المطلوب لها . وان كانت تلك الحوافز متعادلة لدى الطرفين فسيتوصلان الى حل للخصومة السياسية بالإلتقاء في منتصف الطريق . اما اذا تصاعدت الحوافز لدى جانب واحد فقط فلابد انها ستختفي لدى الجانب الاخر . وسيتحقق السلام عندما يصل

الطرفان الى ما يكفي مما لديهما – مع ان الطرف الاقل حرصاً للوصول الى السلام سيكون الأفضل في المساومة بطبيعة الحال .

لقد تجاهلتُ احدى النقاط متعمداً الان – الاختلاف الذي قد ينتج عن السمات **الايجابية والسلبية** للغايات السياسية في الممارسة العملية . وهذا الاختلاف مهم كما سنرى ، ولكن وفي هذه المرحلة علينا إتخاذ موقف اكثر اتساعاً لان الاهداف السياسية الاصلية يمكن أن تتغير الى حد كبير خلال مسار الحرب ، وقد تتغير كليا في النهاية **ما دامت تتأثر بالاحداث ونتائجها المحتملة** .

السؤال الذي يرد الان هو كيف يمكن جعل النجاح اكثر احتمالاً . احدى الطرق في الاجابة طبعاً هي باختيار اهدافٍ تجعل إنهيار العدو أمراً طارئاً – **بتدمير قواته المسلحة واحتلال اراضيه** ، الا ان اياً منهما لن يكون كافياً أو ما نسعى اليه إن كان هدفنا الحقيقي هو التدمير الكلي للعدو . فان هاجمنا العدو ، فالامر الاول أننا نعني ان عمليتنا الاولى هذه ستليها عمليات أخرى حتى يتم القضاء على مقاومة العدو ، وسيكون الامر مختلفاً جداً إن كانت غايتنا مجرد تحقيق نصر منفرد ، من اجل جعل العدو في وضع حرج (غير أمين) ولاظهار تفوقنا عليه ، ولزرع الشكوك في صفوفه حول مستقبله . فان كان هذا هو مدى إتساع غايتنا فسوف لن نستخدم من القوة اكثر مما هو ضروري على الإطلاق . وبنفس الطريقة فإن إحتلال الاراضي مسألة مختلفة ما لم يكن انهيار العدو هو الهدف . فأن أردنا تحقيق انتصار كامل فإن تدمير قواته المسلحة هو العمل المناسب جداً والأكثر تلائماً ولا يعدو احتلال أراضيه عن كونه نتيجة ثانوية وامراً لاحقاً . ينبغي اعتبار احتلال ارض العدو قبل تدمير جيوشه شر لابد منه في احسن الاحوال . ومن الناحية الاخرى فان لم نستهدف تدمير الجيش المعادي ، وان كنا مقتنعين بان العدو لا يبحث عن حل دموي ، بل انه حتى **يخشى** امراً كهذا عندها فان احتلال بعض المناطق المدافع عنها بقوات صغيرة أو غير المدافع عنها يشكل **ميزة بذاته** ، ولابد ان تكون هذه الميزة بحجم كافٍ لجعل العدو في رعب من النتائج، ويمكن اعتبارها خطوة سريعة على طريق السلام .

مع ذلك فهناك طريقة اخرى . فمن الممكن زيادة احتمالات النجاح دون تدمير القوات المعادية . واشير هنا الى عمليات كان لها **تأثير سياسي مضاعف ومباشر** ، والتي صممت اساساً لارباك التحالف المعادي ، او الى شلّهِ ، وسيكسبنا ذلك المزيد من الحلفاء الجدد ، وسيؤثر لصالحنا على المشهد السياسي ... الخ . ان كانت عمليات من

هذا النوع ممكنة فمن الواضح انها يمكن ان تحسن موقفنا العام كثيراً ، كما يمكن أن تشكل طرقاً أقصر بكثير الى الهدف ، من تدمير الجيوش المعادية .

السؤال الثاني هو في كيفية التأثير على مجموع ما ينفقه العدو على المجهود الحربي ، وبعبارة اخرى في كيفية جعل الحرب باهظة التكاليف بالنسبة له .

يشمل ما ينفقه العدو من جهد في **خسارة قواته – بتدميرنا اياها** ؛ وفي **فقدان اراضيه – باحتلالنا لها** .

ستوضح لنا الدراسة الوثيقة ان كلا هذين العاملين يمكن ان يتغيرا في اهميتهما مع تغير الاهداف . وكقاعدة فان الاختلاف سيكون طفيفاً ، الا ان ذلك لن يظللنا ، ففي الواقع ، وعندما لا تكون هناك بواعث قوية ماثلة فان الامور الصغيرة وحتى التافهة، ستقرر في الغالب الاستخدامات المختلفة للقوة . كل ما يهمنا الان هو أن نبين أنه وفي ظروف معينة تتوفر عدة طرق **ممكنة** للوصول إلى الهدف وانها ليست **متعارضة**، ولا **منافية للعقل** ولا حتى **خاطئة** .

بالاضافة الى ذلك هناك ثلاث طرق مباشرة اخرى تتوخى زيادة الانفاق على مجهود العدو . اولى تلك الطرق هي **الغزو** Invasion اي **احتلال ارض العدو ، ليس بهدف الاحتفاظ بها** ، بل لفرض المزيد من الانفاق المالي ، أو لتحويلها الى ارض خراب . الهدف الاني هنا ليس هو احتلال بلاد العدو ولا تدمير جيشه ، بل انه وببساطة **التسبب بالمزيد من الدمار العام** . الطريقة الثانية هي في اعطاء الاسبقية للعمليات التي ستزيد من معاناة ومصاعب العدو . من السهل تصور نوعين من البدائل : عملية تحوى الكثير من المزايا ان كان هدفها تدمير العدو ، وعملية اخرى تكون اكثر منفعة ان تعذر تحقيق ذلك . يمكن وصف العملية الاولى بانها اكثر « عسكرية» بينما تعد الثانية كبديل سياسي اكثر . ومع ذلك فلو نظرنا اليهما من اعلى مستوى ، فان احداهما تبدو عسكرية بنفس الدرجة التي تبدو فيها الثانية ، وكلاهما لا تعدان مناسبتان ما لم تتلائمان والظروف الخاصة . اما الطريقة الثالثة ، وهي الطريقة الأكثر أهمية بكثير ، وذلك استناداً الى كثرة استخداماتها ، **فهي تمزيق العدو ارباً** . وهذا التعبير اكثر من مجرد عنوان ؛ فهو يصف العملية بدقة ، كما انها ليست فكرة مجازية كما تبدو لاول وهلة . اذ يعني تمزيق العدو ارباً في الصراع ، استخدام **فترة الحرب لانهاك العدو تدريجياً واستنزاف مقاومته المادية والمعنوية** .

لو اردنا الصمود والاستمرار لفترة اطول مما بوسع العدو فعلينا القبول باصغر

اهداف ممكنة ، فمن الواضح بان اهدافاً كبيرة ستحتاج الى جهد اكبر مما تحتاجه الاهداف الصغيرة . واصغر الاهداف إطلاقاً هو مجرد **الدفاع عن النفس** ، وبعبارة اخرى ، القتال دون هدف إيجابي . ستكون قوتنا النسبية مع نهج (Policy) كهذا على اعلى درجة ، وهكذا ستزداد امكانية تحقيق نتائج افضل لنا . لكن الى أي مدى يمكن مواصلة هذه السلبية ؟ من المؤكد ، ليس الى حد (نقطة) اللافعالية المطلقة ، لان التحمل المطلق لا يعد قتالاً نهائياً . اما المقاومة فهي احد أشكال العمل وتستهدف تدمير قدراً من قوة العدو لاجباره على الكشف عن نواياه . وكل عمل مفرد لمقاومتنا يوجه نحو ذلك العمل وحده وهذا هو ما يجعل نهجنا سلبياً .

وبدون شك فإن عملاً مفرداً ، يفترض نجاحه لن يخدم غاية سلبية الا بأقل مما يفعله لغاية ايجابية . الا ان ذلك هو بالضبط الاختلاف ؛ لان الاولى (السلبية) هي الاوفر حظاً بالنجاح وبالتالي لان تمنحك أمناً اكثر . وما ينقص من فعاليتها الانية فستلافاه مع الوقت ، اي باطالة مدة الحرب وهكذا فان الغاية السلبية والتي تكمن في قلب المقاومة الصرفة ، هي ايضاً الوصفة الطبيعية للتفوق على العدو في الصمود والاستمرار ، وتمزيقه ارباً .

هنا يكمن اصل وجذر التمييز الذي يسيطر على مجمل الحرب ؛ الفرق بين **الهجوم والدفاع** . وليس لنا متابعة القضية الان ، ولنكتفي بالقول ان: من الغاية السلبية تستنبط كل المزايا والفوائد ، وكل انواع القتال الاكثر فعالية ، وهي تجسيد للعلاقة الفعالة ما بين اهمية وارجحية النجاح. وسنعالج كل ذلك فيما بعد .

اذا اعطت الغاية السلبية – اي ، استخدام اية وسائل متوفرة للمقاومة الصرف – ميزة ما في الحرب ، فيكفي لتلك الميزة ان **توازن** اي تفوق قد يمتلكه العدو ، كي يبدو في النهاية أن هدفه السياسي لا يستحق الجهد الذي سيبذل لاجله . عندها يتوجب عليه التخلي عن نهجه . من الواضح ان هذه الطريقة ، اي تمزيق العدو ، قد طبقت في العدد الاكبر من الحالات ، التي حاول الطرف الضعيف الاستمرار في مقاومة الاقوى فيها .

ما كان بوسع فردريك الكبير ، ابداً قهر النمسا في حرب السنوات السبع ؛ ولو أنه حاول ان يقاتل على طريقة شارل الثاني عشر فكان سيدمر نفسه لا محالة . بل واصل ولسبع سنوات الاقتصاد بقوته بنجاح ، وأقنعهم في النهاية بان عليهم بذل ما لم يكن في حسبانهم من الجهد ، وعليه فقد أثر الحلفاء عقد الصلح .

بوسعنا ان نرى الآن ان العديد من الطرق توصل الى النجاح في الحرب ، ولا تتضمن جميعها التدمير التام للعدو . تتراوح تلك الطرق ما بين **تدمير قوات العدو ، واحتلال اراضيه** ، الى **احتلال او غزو مؤقت** ، **واية مشاريع ذات غايات سياسية انية** ، **واخيراً بانتظار سلبي لهجوم العدو** . يمكن استخدام اي من تلك الطرق لقهر ارادة العدو ؛ ويعتمد الاختيار على الظروف . هناك نوع اضافي من العمل، ويختصر الطريق الى الهدف ولابد من ذكره هنا : وبوسع المرء تسميته ، **حجج عاطفية** [1] فهل يخلو اي مجال أو ميدان يخص قضايا البشر من مكان للعلاقات الشخصية فيه ، وهل من جانب ما لا تطاله الشرارات التي تفجرها تلك العلاقات في كل الاعتبارات العملية؟ تمثل شخصيات رجال الدولة والقادة نوعاً من العوامل المهمة التي تعد في الحرب فوق كل ما عداها في الاهمية الى الحد الذي لا يجوز معه الاستهانة بها ، يكفي ان نذكر النقطة التالية : سيكون من باب التحذلق غير المجدي ، محاولة وضع تصنيف منهجي . ويمكن القول مع ذلك ، ان تلك التساؤلات عن الشخصيات والعلاقات الشخصية ، توجد عدداً من الطرق الممكنة لانجاز هدف السياسة اللامحدودة .

التفكير في تلك الطرق المختصرة (Short cut) كاستثناءات نادرة ، او تقليل الاختلافات التي تسببت بها في ادارة الحرب ، يعنيان اساءة تقييمها والاستهانة بها . لتجنب هذا الخطأ نحتاج فقط تذكر مدى اتساع المصالح السياسية التي يمكن ان تقود الى الحرب ، او للتفكير ولو للحظة في البون الذي يفصل بين حرب الابادة ، (War of annihilation) ، والكفاح لاجل الوجود (النظام) السياسي ، عن حرب نعلنها مكرهين نتيجة لضغوط سياسية لحليف لم يعد يفكر او يهتم بالمصالح الحقيقية للدولة ، ويكمن ما بين هاتين النهايتين المتطرفتين عدد كبير من المراحل او المستويات المتدرجة . ولو استبعدنا ولو واحد منها لاسباب نظرية فقد نضطر الى استبعادها جميعاً وقطع الاتصال مع الواقع .

---

(١) ad hominem (مصطلح لاتيني) يعني موجه الى مشاعر وعواطف الإنسان لا الى عقله (قاموس المورد) .

قلنا الكثير حول النهايات التي نتابعها في الحرب [1] ، ولنتحول الان الى الوسائل.

هناك وسيلة واحدة فقط : القتال (Combat) ، ومهما تعددت الاشكال التي يتخذها القتال ، والى اي مدى بعُد ، او أبعد عن التفجر المتوحش للحقد والعدوانية للقوى المادية المتصادمة ، ومهما تعددت القوات المتدخلة فيه مع انها نفسها ليست جزءً من القتال ، فالمتأصل في جوهر مفهوم الحرب **ان كل شيء يحدث يجب ان يستنبط اساساً من القتال** .

من السهل ايضاح أن الامر كان كذلك على الدوام ، مهما كانت الاشكال التي يتخذها في الواقع . وكل شيء يحدث في الحرب هو نتيجة لوجود القوات المسلحة : **لكن اينما استخدمت القوات المسلحة** ، اي الافراد المسلحون ، فلابد ان تمثل فكرة القتال .

تشمل الحرب كلما له علاقة بالقوات المتحاربة – كلما له علاقة مع تشكيلها ، وادامتها واستخدامها .

ومن الواضح ان خلق وادامة القوات المقاتلة ليسا سوى وسائل فقط ، الا أن استخدامها هو الذي يؤسس النهاية .

ليس القتال في الحرب صراعاً بين اشخاص . بل انه كلٌ (شيءٌ) تام (Whole) مكون من عدة اجزاء ، ويمكن تميز عنصرين اثنين في ذلك البناء ، يقرر **الموضوع** أحدهما ، اما الاخر فيقرره **الهدف** . تشكل حشود المقاتلين في اي جيش عناصراً متجددة لا حصر لها ، تشكل بمجموعها اجزاءً من بناء اكبر . تؤسس الفعاليات القتالية لكل من تلك الاجزاء عنصراً محدداً بوضوح تقريباً . اكثر من ذلك فالقتال نفسه يصنع أحد عناصر الحرب من غرضها ، **وبموضوعيتها** .

---

(١) كثيرة هي الحروب التي حققت الغاية المحددة بدرجة او اخرى وبالمقابل فهناك الكثير من الحروب التي لم تؤدي الا الى المزيد من المشاكل دون ان تفتح طريقاً الى السلام ويرجع ذلك وبدرجة كبيرة الى أندلاع ذلك العدد من الحروب دونما غاية محددة وليس حرب فيتنام الا مثالاً واحداً على عدم وضوح ولا تحديد الغاية – المترجم .

كل عنصر من تلك العناصر التي تغدو متميزة عن غيرها عبر مسار الحرب (القتال) يسمى **اشتباكاً** .

ان كانت فكرة القتال ، اساس يسبق كل استخدام للقوات المقاتلة ، فان استخدامها يعني حينئذ وببساطة تخطيط وتنظيم سلسلة من الاشتباكات .

لذلك يجب ان ترتبط الانشطة العسكرية ككل ، ومباشرة او لا مباشرة بالاشتباكات . التي هي الغاية النهائية التي يجند الجيش ويجهز ويسلح ويدرب لاجلها، كما ان الهدف الشامل لفعالياته اليومية من مأكل ومشرب ونوم ومسير هو **وببساطة ان عليه ان يقاتل في الوقت والمكان المناسبين** .

ان كانت كل خيوط الانشطة العسكرية ستؤدي الى الاشتباك ، عندها فان سيطرنا على الإشتباك فسنتفهمها جميعاً . كل نتائج الاشتباكات لا تعدو كونها حصيلة للاوامر التي تصدر، وبتنفيذ تلك الاوامر ، وليست مباشرة ابداً في ظروف اخرى. طالما ان كل شيء في الاشتباك يركز على تدمير العدو ، **أو قواته المسلحة** الى حد ما واللصيقة في لب مفهوم العدو ، يلي ذلك أن تدمير القوات المعادية يشكل وعلى الدوام الوسيلة التي ينجز الاشتباك بها هدفه .

قد تكون الغاية موضوع البحث هي تدمير القوات المعادية ، الا إنها ليست كذلك بالضرورة ، وقد تكون مختلفة جداً . لان تدمير العدو، وكما اوضحنا ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق الهدف السياسي ، سيما مع وجود اهداف اخرى كانت وراء شن الحرب . وسيحدث فيما بعد ان تلك الاهداف الاخرى يمكن ان تغدو بدورها اهدافاً للعمليات العسكرية ايضاً ، وهدفا للأشتباك كذلك .

حتى عندما تنحو اشتباكات ثانوية مباشرة الى تدمير القوات المعادية ، فلن يظل ذلك التدمير موضع اهتمامها الاول والاني .

آخذين في اعتبارنا البنية المفضلة لجيش ما ، والعوامل العديدة التي تقرر استخدامه فبوسع المرء أن يرى أن الانشطة القتالية لقوات كهذه تظل موضوعاً لتنظيم معقدٍ ، ومجموعةٍ من الانجازات (Function) ، والتركيبات . غالباً ما يجب ان يخصص للقطعات المنفصلة واجبات لا تتعلق بذاتها بتدمير القوات المعادية ، والتي قد تتزايد خسائرها فعلاً الا إن ذلك لا يتم مباشرة فقط. فلو صدرت الاوامر الى احد الافواج بازاحة العدو عن ذلك التل ، او الجسر او ... الخ. فالهدف الحقيقي هو عادة

احتلال تلك النقطة . اما تدمير القوة المعادية[1] فليس سوى وسيلة للوصول الى نهاية، اي مسألة ثانوية . ولو كان التظاهر فقط ، أو عرض العضلات كافٍ لدفع العدو الى اخلاء مواضعه ، فسيتم تحقيق الهدف ، لكن وكقاعدة فان التل أو الجسر سيحتل فقط حتى لو سبب ذلك الكثير من الدمار للعدو . فان كان الامر كذلك في ساحة المعركة، فسيكون حتى اكثر من ذلك في ساحة العمليات ، وحيث لا يواجه جيشان بعضهما البعض وحسب، بل حيث تتقابل دولتان ، وشعبان وامتان . وسيزداد كثيراً مجال الظروف المحتملة وبالتالي ستزداد الخيارات المتاحة ، كما تتنوع ترتيبات وانفتاح القطاعات بدورها ، وكذلك فان تدرج الاهداف في مختلف مستويات القيادة ، سيزيد من الفصل ما بين الوسائل الاولى ، والغايات النهائية .

وهكذا فهناك اسباب عديدة لكي لا يكون تدمير القوات المعادية هدف الاشتباكات ، اي القوات المعادية التي في مواجهتنا مباشرة . قد يكون التدمير وسيلة لغاية اخرى . وفي هذه الحالة فلن يظل التدمير الكلي هو القضية ، **فليس الاشتباك سوى تجربة للقوة** . ليس لها بذاتها اية قيمة ، وتكمن اهميتها في النتائج التي ستكون لتلك التجربة .

عندما تكون احدى القوتين اقوى بكثير من الاخرى . فقد تكفي نظرة متفحصة أو تقدير للموقف. ولن يكون هناك أي قتال ، اذ سيستلم الطرف الاضعف فوراً .

الحقيقة هي أن الاشتباكات لا تستهدف دائماً تدمير القوات المعادية ، اذ غالباً ما يمكن تحقيق اهدافها دون اي قتال نهائيا ، ولكن وبمجرد تقييم للموقف ، مما يفسر لنا كيف يمكن ادارة الحملات كلياً وبطاقة كبيرة حتى لو لم يلعب القتال الفعلي دورا مهماً فيها .

يقدم لنا تاريخ الحرب مئات الامثلة على ذلك . لكن ما يعنينا هنا هو فقط ان نوضح **امكانية ذلك** ؛ ولسنا في حاجة الى التساؤل عما اذا كان ذلك هو المناسب غالباً ، اي وبعبارة اخرى **ان كان ذلك منسجماً مع الهدف الكلي** ، اي لتجنب المجابهة وامتحان المعركة ، أو ما اذا كانت السمعة التي ستبنيها مثل هذه الحملات ستصمد في الامتحانات الحاسمة والمواقف العصبية .

---

(١) هنا على الاقل يؤكد لنا كلاوزفيتز انه لا يسعى على الدوام للخوض وسط بحار من دماء الاعداء في معركة حاسمة ورهيبة وفي غاية العنف . كما يركز على ذلك تلامذته ونقاده والمعجبون به حتى ، (المترجم) .

هناك وسيلة وحيدة في الحرب ؛ هي القتال . الا ان تعدد الاشكال التي يفترض ان يتخذها القتال تقودنا الى اتجاهات مختلفة وبالعدد الذي سينتج عن تعدد الغايات ، لذا لا يبدو ان تحليلنا قد حقق أي تقدم . الا أن الامر ليس كذلك : فحقيقة وجود وسيلة واحدة فقط ستوجد لنا خطاً فاصلاً يمر عبر شبكة الانشطة العسكرية كلها ويتولى ربطها الى بعضها البعض .

لقد اوضحنا بان تدمير القوات المعادية هو واحد من بين العديد من الاهداف التي يمكن متابعتها في الحرب ، وقد تركنا جانباً ، مسألة اهمية ذلك الهدف بالنسبة الى الاهداف الاخرى . وسيعتمد الجواب في كل قضية يتم بحثها على الظروف ؛ ولابد من ايضاح اهميتها للحرب ككل . ينبغي علينا الان بحث ذلك السؤال ، وسنرى القيمة التي تعزى بالضرورة لهدف التدمير ذاك .

القتال هو القوة الفاعلة الوحيدة في الحرب ، وغايتها هي تدمير القوات المعادية كوسيلة الى نهاية أبعد . وهذا امر مقبول حتى لو لم يحدث قتال حقيقي لان النتائج تتوقف على افتراض مفاده أن لو حدث قتال فسيدمر العدو ، يلي ذلك ان تدمير القوات المعادية يجمل كل الاعمال العسكرية ، كما ستعتمد كل الخطط عليه نهائياً ، وتستند اليه كما يستند الجسر على دعامته . بناء على ذلك ستنفذ كافة الاعمال باعتقاد مفاده ان لو كان الفحص النهائي [1] للسلاح لابد ان يقع فعلاً ، فستكون النتائج **رائعة** (لصالحنا) . تعادل عملية تسوية الحساب (decision) بالسلاح لكل العمليات الكبيرة والصغيرة في الحرب ما تعنيه تسوية الحساب نقداً في التجارة . بغض النظر عن درجة تعقيد العلاقة ما بين نوعي العمليات ، وبغض النظر عن قلة عدد المرات التي تتم فيه مثل هذه التسويات في الواقع ، الا انهما لا يمكن أن تكونا غائبتان كلياً .

اذا كان الحسم بالقتال هو اساس كل الخطط والعمليات ، فيلي ذلك ان بوسع العدو **احباط كل شيء عبر معركة ناجحة** . لا يحدث هذا فقط عندما تكون التأثيرات المتقابلة عاملاً أساسياً في خططنا ، بل حين يكون أي نصر يتحقق ، بحجم هام . فكل انتصار مهم – اي تدمير قوات معادية – سينعكس على جميع الامكانيات الاخرى . اذ انها وكالسوائل (في الاواني المستطرقة) ستستقر عند مستوى جديدة

---

(١) الفحص النهائي لاي سلاح هو استخدامه فعلاً في معركة – المترجم –

وهكذا يتضح لنا ان تدمير القوات المعادية هو الوسيلة الافضل دائماً ، والاكثر تأثيراً ولا يمكن مقارنة الوسائل الاخرى بها .

لكن بوسعنا بطبيعة الحال القول فقط بان تدمير العدو اكثر فاعلية لو امكن الافتراض بان جميع الشروط الاخرى متعادلة . وستكون خطيئة كبرى لو استنتجنا من هذه المناقشة بان الاندفاع المتهور أفضل من الحذر البارع دائماً . فالعدوانية العمياء ستدمر الهجوم نفسه ، وليس الدفاع ، وليس هذا بالضبط ما نبحث فيه . لا تتعلق التأثيرات الاعظم **بالوسائل بل بالغاية** . فنحن وببساطة نقارن تأثيرات نتائج مختلفة.

عند الحديث عن تدمير القوات المعادية فلابد لنا من التأكيد على ان شيئاً ما لن يلزمنا بقسر تلك الفكرة على القوات المادية ؛ ولابد من مراعاة العنصر المعنوي ايضاً . فكلاهما يتفاعلان خلال ذلك ؛ وليسا منفصلان . لقد ذكرنا تواً التأثير الذي لعمل تدميري كبير – نصر كبير مثلاً – على كل الأعمال الاخرى لا محالة ، وهو كذلك تماماً في اوقات يكون فيها العامل المعنوي ، ان جاز لنا القول ، اكثر العوامل سيولة، وسينتشر لذلك بسهولة ليمد تأثيره على كل شيء آخر . الميزة التي لتدمير العدو على ما عداها من الوسائل الاخرى توازن بالثمن الذي تفرضه وبالخطر ، ولتلافي هذا الخطر فقط تستخدم سياسات اخرى .

لاخلاف في ان طريقة التدمير باهظة التكاليف ، وهذا أمر يمكن تفهمه؛ وكذلك الحال مع الاشياء الاخرى ، وكلما اشتد عزمنا على تدمير القوات المعادية كلما توجب ان تزداد جهودنا.

الخطر في تلك الطريقة هو أنه وكلما كبر حجم النجاح الذي نسعى اليه ، كلما سيكبر حجم الدمار الذي سيقع لو فشلنا .

الطرق الاخرى لذلك اقل تكلفة لو نجحت واقل دماراً ان فشلت ، مع ان ذلك يظل صحيحاً فقط ان تطابق عمل الجانبين ، واذا تابع العدو نفس المسار الذي اخترناه . وان كان سيسعى للحسم عبر معركة كبيرة **فسيجبرنا اختياره وضد رغبتنا لفعل نفس الشيء** . عندها ستكون نتيجة المعركة حاسمة ، الا انه من الواضح – مرة اخرى ستكون الاشياء الاخرى متساوية – باننا سنتعرض الى اضرار شاملة ، طالما ستهدف خططنا ومواردنا الى انجاز اهداف اخرى الى حد ما ، بينما لا يضطر العدو الى ذلك . هناك اذن هدفان ليس احدهما جزءٍ من الاخر ، ويتبادلان المنع والحصر . ولا يمكن إستخدام قوة واحدة لكليهما في آن واحد . لذلك، إن سعى احد القائدين

للبحث عن الحسم عبر معارك كبرى فستوفر له فرصة للنجاح اذا تأكد من متابعة خصمه لنهج مختلف . على العكس من ذلك فبوسع القائد الذي يريد تطبيق وسائل مختلفة أن يفعل ذلك اذا افترض بان خصمه ليس راغبا وبنفس الدرجة بالاحتكام الى معارك كبرى .

ما قيل حول الخطط والقوات التي وجهت لاستخدامات اخرى يشير فقط الى **غايات ايجابية** (Positive) ، ليست تدمير القوات المعادية ، ومما يمكن متابعته في الحرب. وهو مناسب **بلا ريب للمقاومة الصرف** ، التي تسعى لتمزيق قوة العدو . ليس للمقاومة الصرف **اية نوايا ايجابية** : وبوسعنا أستخدام قواتنا فقط لكبح توجهات العدو، لا تحويلها نحو اهداف اخرى .

علينا التمعن هنا في الجانب السلبي لتدمير القوات المعادية – اي المحافظة على قواتنا ، يسير هذان الجهدان سوية على الدوام ، كما يتفاعلان . انهما جزءان متكاملان لهدف واحد ، ونحتاج فقط للتمعن في النتائج اذا سيطر هذا او ذاك منهما . الجهد تدمير القوات المعادية هدف ايجابي ويؤدي إلى نتائج ايجابية تكون غايتها النهائية انهيار العدو . اما المحافظة على قواتنا فلها غاية سلبية ، انها تربك توجهات العدو – اي اللجوء الى المقاومة المجردة التي بوسع غايتها النهائية اطالة الحرب حتى استنفاذ طاقات العدو .

يطالب النهج ذو الغاية الايجابية بضع العمل التدميري ، اما النهج ذو الغاية السلبية فينتظر ذلك .

اما الى اي مدى قد او ينبغي لهذا التوجه للأنتظار أن يستمر فمسألة يجب ان تدرس بارتباط مع نظرية الهجوم والدفاع ، لعلاقة العناصر الاساسية لها بذلك . نحتاج في هذه اللحظة فقط القول بان نهج الانتظار يجب ان لا يصبح عبأً سلبياً، اي ان كل عمل يرتبط به قد يسعى بدوره كذلك الى تدمير القوات المعادية كما بالنسبة لاي هدف آخر . سيكون من الخطأ المميت تصور أن الغاية السلبية تتضمن تفضيلاً لحسم دون دماء على تدمير العدو . قد يقود الجهد السلبي المتفوق بطبيعة الحال الى خيار كهذا ، لكن دائماً مع مخاطر ان لا يكون ذلك هو المسلك المناسب : ويتوقف ذلك على عوامل لا نقررها نحن بل الخصم . عندها لا ينبغي ان يعتبر تجنب سفك الدماء كعمل من اعمال السياسة ان كان اهتمامنا الرئيسي هو المحافظة على قواتنا . وعلى العكس من ذلك فان لم تتلائم سياسة كهذه والموقف المخصوص فسيؤدي ذلك بكارثة لقواتنا . لقد سقط العديد من القادة (الجنرالات) بسبب هذا الافتراض الخاطئ .

إن احدى التأثيرات الاكيدة للنهج السلبي المتفوق هو في تأجيل الحسم وبعبارة

اخرى سيبدل العمل الى انتظار للحظة الحاسمة . وهذا عادة يعني **أن العمل قد تأجل** في الوقت والمكان ، وحتى يغدو المكان مناسباً وتسمح الظروف . إذا حان الوقت وبات المزيد من الانتظار يعني اضراراً اخرى ، عندها تكون منافع النهج السلبي قد استنفذت . وعليه فان تدمير العدو – الغاية التي اؤجلت حتى الان ، الا انها لم تستبدل باعتبارات اخرى – ستظهر ثانية .

اوضحت مناقشتنا انه ومع وجود عدة طرق مختلفة يمكن ان تقود إلى الهدف ، والى تحقيق الغاية السياسية ، فان القتال هو الوسيلة الوحيدة الممكنه. وكل شيء محكوم بقانون اعلى ، **الحسم بقوة السلاح** ، واذا سعى العدو الى المعركة ، فهذا الملاذ لا يحرمه ذلك . والقائد الذي يفضل استراتيجية اخرى ، عليه التأكد اولاً من ان عدوه اما سوف لن يلجأ الى ذلك الحكم الاعلى – القوة – او انه سيخسر الدعوى لو فعل ذلك . لا يجاز كل ذلك : فمن بين كل الغايات الممكنة في الحرب ، يبدو تدمير القوات المسلحة المعادية الاعلى من بينها وعلى الدوام .

سنرى في مرحلة لاحقة وتدريجياً ما الذي يمكن لانواع اخرى من الاستراتيجية ان تنجز في الحرب . وكلما علينا فعله الان هو القبول **بامكانية وجودها بشكل عام** ، وامكانية الانحراف عن المفهوم الاساسي للحرب تحت ضغط ظروف خاصة . لكن حتى وفي هذه النقطة علينا ان لا نغفل التأكيد بان **الحلول العنيفة للازمات** ، والرغبة بابادة القوات المعادية ، هي الابن البكر للحرب . فاذا كانت الغايات السياسية صغيرة فستكون البواعث كذلك هي الاخرى ، والتوتر قليل ، والقائد الحصيف قد يبحث عن أي طريق لتجنب الازمات الكبيرة والاعمال الحاسمة ، واستغلال اية نقاط ضعف في الاستراتيجية العسكرية والسياسة للخصم ، والوصول في النهاية الى تسوية سلمية . فإن كانت افتراضاته صالحة وتعد بالنجاح فلن ننحو عليه باللائمة . لكن عليه ان لا ينسى ابداً انه يسير وسط مسالك غامضة قد يفاجئه اله الحرب وهو في حال من الغفلة وعليه ان لا تغفل عيناه عن عدوه كي يكون على استعداد كاف فيما لو تعرض لهجوم مباغت بقوات كبيرة .

تتعلق هذه الإستنتاجات بطبيعة الحرب واداء وفعالية غاياتها ووسائلها ، تختلف الطريقة التي تنحرف فيها الحرب عن مسارها بدرجات متفاوتة عن مفهومها الاساسي الصارم ، آخذة هذا الشكل او ذاك ، لكن يجب ابقاءها دائماً جزءً من ذلك المفهوم الأساسي ، وكما لو انه قانونها الاعلى ، ويجب ابقاء جميع تلك النقاط ماثلة في الذهن في تحليلاتنا اللاحقة ان كنا نريد تفهم الروابط الحقيقية ما بين جميع جوانب الحرب ، والاهمية الحقيقية لكل منها ، وان كنا نود تجنب السقوط المستمر في تناقض فاحش مع الواقعية بل وحتى مع حججنا نحن .

الفصل الثالث
في العبقرية العسكرية

يحتاج كل نشاط معقد الى موهبة فكرية مناسبة ، ومزاج خاص ، ان اريد تنفيذه باي درجة من البراعة الفنية . فان توفرت هذه المزايا وافصحت عن نفسها بشكل وفي انجازات غير استثنائية ، جاز لنا وصف مالكها بـ « **العبقري** » .

نحن نعرف بان هذه الكلمة قد استخدمت باوجه عديدة ، تختلف فيما بينها في الدرجة والنوع ، ونعرف ايضا ان بعض تلك المعاني جعلت من الصعب تحديد المعنى الحقيقي للعبقرية . لكن ما دمنا لا ندعي خبرة او تخصصاً فلسفياً او نحوياً ، فقد يسمح لنا باستخدام الكلمة بمعناها الاعتيادي الذي تشير فيه « العبقرية » الى جدارة عقلية عالية ومتطورة في حرفة او اختصاص معين .

دعونا نناقش هذه الملكة العقلية (Faculty) ، وهذا السمو العقلي للحظات ، عارضين موضوعها بتفصيل واف ، وصولاً الى تفهم افضل لمفهومها . لكننا لن نستطيع حصر مناقشتنا بالمعنى الدقيق للعبقري ، كاعلى درجة في سلم الذكاء ، فمثل هذا المفهوم يعوزه التحديد . ما يتوجب علينا عمله هو استعراض كل تلك المواهب العقلية والامزجة التي تحيا مجتمعة في الفعالية العسكرية ، والتي لو اخذت مجتمعة فانها تشكل **جوهر العبقرية العسكرية** . لقد قلنا **مجتمعة** ، لانها وبكل دقة تعد **جوهر العبقرية العسكرية** ، التي لا يمكن ان تحتويها اياً من المواهب العقلية بمفردها – الشجاعة على سبيل المثال – في الوقت الذي تكون فيه المؤهلات العقلية الاخرى والامزجة مطلوبة أو انها غير مناسبة للحرب . تنسجم العبقرية في **مزيج متناغم من العناصر** ، قد تحتل فيه هذه القدرة أو تلك مكان الصدارة واليد العليا ، الا أن اياً منها لن تتعارض مع الاخريات .

لو احتاج كل جندي لدرجة من العبقرية العسكرية فستكون جيوشنا ضعيفة للغاية ، لان المصطلح يشير الى شريحة خاصة من القوى (Powers) العقلية او المعنوية التي يندر توفرها في الجيش حيث يفرض على المجتمع استخدام قدراته في مناطق مختلفة. وكلما ضاق نطاق انشطة الامة ، وكلما زادت سيطرة العامل العسكري ، كلما تعاظم بروز العبقرية العسكرية . مع ذلك يظل هذا حقيقي في توزيعه فقط لا في

نوعيته . ويعتمد الاخير على **تطور فكري عام** للمجتمع المعني ، فروح القتال اكثر شيوعاً في اي مجتمع بدائي أو جنس محارب منها بين الشعوب المتمدنة . ففي الشعوب الأولى توجد تلك الروح في كل مقاتل تقريباً ، اما في الشعوب المتمدنة فلا تستثير مثل هذه الروح سوى الضرورات الملحة ، وفي الشعب ككل ، نظراً لافتقار تلك الشعوب للاستعداد الطبيعي لذلك . ومن الناحية الاخرى فلا يمكن ان نجد اي قائد كبير حقيقي بين الهمجيين ، ولا يمكن ان نجد سوى القليل جداً ممن يمكن اعتبارهم من العبقريات العسكرية ، طالما ان هذه تستلزم قدراً من القوى الفكرية يعد أبعد مما بوسع الشعوب البدائية تطويره لديها. بوسع الشعوب المتمدنة وكما هو واضح أمتلاك السمات القتالية بدرجات قليلة او كثيرة ، وكلما تعاظم وجودها كلما زاد عدد الرجال المشبعين بالروح العسكرية في جيوشها . يتزامن إمتلاك العبقرية العسكرية مع ارتفاع درجة التمدن ؛ وكلما زاد ذلك في المجتمعات كلما أنتجت قادة لامعين اكثر ، كما اظهر لنا الرومان والفرنجة . ومع هؤلاء وكما مع أي شعب اشتهر في الحرب ، فان الاسماء اللامعة لا تظهر قبل وصول المجتمعات الى مستوى عال من التمدن .

بوسعنا ان نخمن الان ضخامة دور القوى الفكرية في اعلى اشكال العبقرية العسكرية . ولنتفحص الان القضية عن قرب . الحرب ساحة الخطر لذا **فالشجاعة** هي اول مستلزمات الجندي .

تكون الشجاعة على نوعين : شجاعة في مواجهة خطر شخصي ، وشجاعة في تحمل المسؤولية اما بوجه سطوة قوى خارجية أو أمام قوة ضمير الانسان نفسه، والنوع الاول فقط سيناقش هنا .

تنقسم الشجاعة في مواجهة الخطر الشخصي هي الاخرى الى نوعين ايضاً . فقد تكون تجاهلاً للخطر الذي قد يكون نابعاً من التكوين الشخصي للأنسان ، او لأسترخاصه لحياته ، او بحكم العادة . وفي جميع الاحوال يجب اعتبارها **كشرط** دائمي . والنوع الاخر هو أن الشجاعة قد تنتج من بعض الحوافز الايجابية **كالطموح**، او **الوطنية**، او حماس من اي نوع كان ، وفي هذه الحالة فان الشجاعة شعور او فعل عاطفي وليست حالة دائمة .

يعمل نوعا الشجاعة هذين بطرقٍ مختلفة . النوع الأول اكثر ضماناً ويمكن التعويل عليه ، حتى ليُعد كطبيعة ثانية ، ولن تخون صاحبها . اما النوع الاخر فغالباً ما تكون الاقوى في الانجاز . هناك الكثير من الاعتماد (التعويل) في الأول ، والكثير من

الجرأة في الثاني . يترك الاول العقل هادئاً ، بينما يميل الثاني الى الاثارة ، الا انها يمكن ان تكون عمياء . **واعلى انواع الشجاعة هو مزيج من الاثنين** .

الحرب مجال الاجهاد المادي والمتاعب ، وستدمرنا هذه ما لم نمكن انفسنا من تجاهلها ، على ان تزودنا هذه القدرة الفطريه (بالولادة) او المكتسبة (بالمران) بقوة بدنية وروحية كافيتين . فلو امتلكنا مثل تلك المؤهلات ، عندها وحتى لو لم تمتلك شيئاً عدى الحس الجماعي لتوجيهها فقد اصبحنا حسني الاستعداد للحرب ؛ وتلك المزايا بالضبط هي ما تمتلكه الشعوب البدائية وشبه المتمدنة .

لو تتبعنا المتطلبات التي تفرضها الحرب على ممارسيها ، فسنصل الى المنطقة التي تتحكم فيها **قوة الفكر** Powers of intellect. الحرب مجال الضبابية واللامعلوم ؛ وتغرق ثلاثة ارباع العوامل التي يعتمد عليها العمل الحربي في ضباب يزيد او ينقص من اللايقين. ستدعو الحاجة الى قرار متفهم ومتميز في دقته؛ وفكر ثاقب لتحري واكتشاف الحقيقة .

قد يدرك الذكاء المتوسط الحقائق احيانا ، وقد تتحول الشجاعة الاستثنائية بين اونة واخرى الى قوة عشوائية ، الا ان الذكاء الاعتيادي المحدد سيتكشف من خلال انجازاته المحددة الاهمية.

[**الحرب مجال الصدفة** . وما من فعالية بشرية اخرى تفسح لها مجالاً اكبر مما تفسحه لها الحرب ؛ وما من فعالية اخرى لها مثل هذا التواصل ، والتعامل المنوع مع هذا المتدخل المتطفل . تجعل الصدفة كل شيء محتمل وغير مؤكد كما انها تتدخل في المسار الكلي للأحداث.]

طالما ظلت جميع المعلومات والافتراضات عرضة للشك ، ومع وجود الحظ (الصدفة) في كل زاوية ونقطة من نقاط العمل ، وسيجد القائد وباستمرار بان الامور لا تجري كما كان يتوقع لها . وان ذلك سيؤثر على خططه او على الأقل على الافتراضات التي اعتمدها فيها . فان بلغ هذا التأثير حداً من الحجم والاهمية ليتسبب في تغيير تلك الخطط ، توجب عليه عندها اعداد خطط جديدة عادة ، الا ان المعلومات الضرورية لهذه الخطط الجديدة قد لا تكون متيسرة أنياً ولابد من اتخاذ القرارات الضرورية أثناء العمليات وفورياً ، وقد لا يتيسر الوقت الكافي لاعادة النظر في الموقف او حتى للتفكير فيه بوضوح . المعتاد بطبيعة الحال ان لا تكون المعلومات الجديدة ، واعادة التقيم كافيتان لدفعنا الى التخلي عن مقاصدنا ، بل تجعلها عرضة

للشكوك والتساؤل . نحن نعرف الان اكثر ، الا ان ذلك جعلنا اكثر لا أقل تشككاً. وآخر التقارير لا تصل جميعها تواً ، بل تتوالى ببطائة قاتلة ، وتواصل تدخلها وعرقلتها لقراراتنا ، ولابد ان يتسلح عقلنا بطاقة فولاذية كي يستطيع متابعة تعامله معها ان جاز قول ذلك .

اذا اريد للعقل ان يخرج دون اذى من صراعه المرير مع ما ليس متوقعاً ، فلا يمكن الاستغناء عن ميزتين :

الأولى ، ذكاء متوقد حتى في اشد الساعات حراجة ، وقادر على الاحتفاظ ببعض ومضات من النور الداخلي الذي يقود الحقيقة .

الثانية : الشجاعة لمتابعة ذلك الضوء الخافت حيثما اتجه.

وصفت الميزة الاولى بالمصطلح الفرنسي الذي يعني .. « **الفهم بلمحة خاطفة** Coup d' Oeil » والثانية بـ « **العزم** determination » .

الاشتباك هو الجانب الذي يجتذب اكبر قدر من الاهتمام من بين جوانب الحرب الاخرى ، ولان الوقت والمسافة عاملان مهمان في الاشتباك ، بل وكان لهما اهمية خاصة في الايام التي كان هجوم الخيالة فيها العامل الحاسم ، **فقد اعتمدت فكرة القرار السريع والدقيق** ، اولاً على تقدير الوقت والمسافة ، ثم وبناء على ذلك اخذت الفكرة اسماً جديداً يشير الى التقويم البصري فقط . وقد استخدم الكثيرون من منظري الحرب هذا المصطلح في ذلك المعنى المحدد ، إلا انه سرعان ما جرى استخدامه في اي قرار مهم يتخذ خلال أو اثناء العمل ايضاً – كتحديد وادراك النقطة الصحيحة التي يجب مهاجمتها وغير ذلك. مصطلح «اللمحة الخاطفة Coup d'oeil » لا يشير الى الرؤيا المادية (بالعين المجردة) ، بل الى ، وعلى الاكثر « العين الداخلية» – البصيرة –. وهذا المصطلح ، وكالميزة نفسها اكثر انطباقاً دون شك في التعبية دائماً، مع وجود مكان لاستخدامه في الاستراتيجية ايضاً طالما دعت الحاجة هنا ايضاً الى القرار السريع وكما يحدث دائماً. بتجريد المصطلح من مجازيته ومن التحديدات المفروضة بالمصطلح نفسه ، فسيشير المفهوم فقط الى الادراك السريع للحقيقة التي لن يلتقطها العقل العادي او قد لا يدركها الا بعد دراسة وتمعن طويلين .

العزم في مثال واحد ليس الا تعبيراً عن الشجاعة ، اما اذا اصبح سمة شخصية ، أصبح عادة عقلية . الا اننا لا نشير هنا الى شجاعة مادية بل الى الشجاعة في تحمل

المسؤولية ، شجاعة في مواجهة خطر معنوي . وغالباً ما تدعى هذه **بالشجاعة الروحية**، لانها من صنع العقل : انها من اعمال الطبع (المزاج) . فالفكر لوحده ليس شجاعة ؛ وغالبا ما نرى ان اكثر الاذكياء من المترددين . طالما كان الرجل عند تسارع الاحداث محكوما بمشاعره اكثر مما بفكره ، سيحتاج الفكر لاستثارة ميزة الشجاعة ، ثم دعمها والمحافظة عليها خلال العمل .

لو نظرنا الى العزم بهذه الطريقة فدوره تقليص مخاوف الشك وخطر التردد عندما لا تكون دوافع ومحفزات العمل كافية . كما ينطبق هذا المصطلح العام والدارج[1] ، اي – العزم Determination – بلا ريب للأشارة ايضاً الى الميل والنزعة الطبيعية، الى الجرأة والتحدي Daring ، والاقدام والجسارة ، او حتى التهور والطيش Temerity . لكن عندما تتوفر للرجل مستلزمات واسس كافية للعمل – ذاتية او موضوعية صالحة كانت ام كاذبة – فلا يمكن وصفه بـ « العزوم » . اذ يعادل ذلك ان يضع الإنسان نفسه في مكانه ويوازن ما في كفته مع الشك والحيرة اللتين لم يعاني منهما . وليس الامر في حالة كهذه سوى قضية قوة او ضعف . ولست ذلك المتحذلق الذي سيقف بوجه الاستخدام العام لكلمة اسيء استخدامها قليلاً ، والغاية الوحيدة لهذه الملاحظات هي ازالة اي التباس او سوء فهم .

العزم الذي يتجاوز ويبدد الشك ، ميزة يمكن اثارتها بالفكر فقط ، وبنوع خاص من الصفات العقلية المميزة . يحتاج خلق العزم الى اكثر من مجرد اقتران حدس متفوق مع عواطف ملائمة . قد يتسبب بعض العزم بدفع اشد العقول توقداً وذكاء الى معضلات معقدة ومأسي ، كما انهم قد يتحلون بشجاعة وقدرات على تحمل المسؤولية، الا انهم وحال مواجهتهم لمواقف صعبة فسرعان ما يجدون انفسهم عاجزين عن الوصول الى قرار . فشجاعتهم وعقولهم يعملان منفصلان لا سوية ، لذا فلن يتولد العزم ، الذي لا يتولد الا **بعمل عقلي** : فالعقل يوحي للرجل أن الجرأة مطلوبة ، وبذا يحدد الاتجاه لارادته . هذه الصفة العقلية الخاصة ، التي تستغل الخوف من **التمزق والتردد** لكبح اية مخاوف اخرى ، هي القوة التي تجعل الرجال الاشداء عزومين .

---

(١) Colloquially ، يعني مما يستخدم في اللغة المحكية من تعابير ، والعزم في اللغة العربية الدارجة قد يوصف بـ « المرجلة » و«زلمة» وابو فلان او ابو الفوارس وغيرها – المترجم –

لذلك لا يمكن ان يمتلك محدودي الذكاء من الرجال العزم بالمعنى الذي تعنيه الكلمة هنا . قد يتصرفون دون تردد في مواجهة الازمات ، ولكنهم حتى اثناء ذلك فانهم يعملون **دون تفكير وروية** ، والرجل الذي يعمل دون تفكير لا يمكن ان تزعجه او تقلقه الشكوك . قد يبدو عملاً من هذا النوع مناسباً من حين لآخر ، لكن وكما قلت انفاً ، فهو **الناتج المعتاد** الذي يشير الى وجود العبقرية العسكرية . قد تدهش هذه الحقيقة القارئ الذي عرف بعض ذوي العزم من ضباط الخيالة الذين لا يأبهون بالتفكير العميق (الرصين) إلا قليلاً ، ولكن على ذلك القارئ ان يتذكر باننا نتحدث هنا عن نوع خاص من الذكاء ، وليس عن العدد الاكبر من متوسطي الذكاء .

الخلاصة ، نحن نعتقد أن العزم ينبثق عن عقل من نوع خاص ، العقل القوي وليس اللامع ، وبوسعنا تقديم برهان آخر على هذا التفسير ، وذلك بايراد الكثير من الامثلة عن رجال اظهروا كثيراً من البسالة وقوة العزم عندما كانوا ضباطاً صغاراً [1]، الا انهم فقدوا ذلك مع تقدمهم في سلم الرتب . فهم ومع ادراكهم قوة الحاجة لأن يكونوا حازمين ، يدركون ايضاً ابعاد ومخاطر اي قرار خاطئ . وطالما لم يعتادوا بعد المعضلات التي باتوا يواجهونها ، فقدت عقولهم جديتها ووضوحها . كلما ازداد تعودهم على زجهم في اعمال جاهزة ، كلما تزايد خوفهم وجبنهم ، مع تصاعد ادراكهم لمخاطر التردد الذي وقعوا فيه .

بعد مناقشة موضوعي البراعة او « اللمحة الخاطفةCoup d'Oeil » والعزم ، فمن الطبيعي الانتقال الى موضوع أخر متصل بهما وهو : **الحضور العقلي**Presence of mind » ، ويجب ان يلعب هذا دوراً كبيراً في الحرب ، في مجال، ما ليس متوقعاً، وطالما لم يكن هذا سوى زيادة في القدرة على التعامل مع غير المتوقع « المفاجئ » . نحن نقدر الحضور العقلي في سرعة البديهة والبراعة ، كما يعجبنا التفكير السريع في مواجهة الخطر ، ولا يستلزم أن يكون هذين خارقين او بشكل استثنائي . طالما لم يتعد الامر مواجهة الموقف . قد يبدو القرار او « رد الفعل » الذي يحدث بعد تمعن وتفكير طويلين شيئاً تافهاً ومبتذلاً تماماً ، اما الاستجابة الفورية فهي وعلى العكس تبعث السرور

---

(١) سألت احد كبار القادة عن هذه الظاهرة فعزاها الى عامل واحد رئيسي اسماه الخوف من المسؤولية ، اضافة الى عوامل عديدة اخرى كاتساع محيط العلاقات العائلية والاجتماعية والبحث عن المستقبل وضماناته وغيرها – المترجم .

والبهجة في النفس . يصور تعبير « الحضور العقلي » وبوضوح كاف السرعة والبداهة للمساعدة التي يقدمها العقل .

اما إن كانت هذه الميزة الرائعة نتاج عقل متميز او اعصاب قوية ، فامر يعتمد على طبيعة الحدث ، الا ان اياً منهما لا يمكن ان ينعدم وجوده كلياً. تظهر لنا سرعة الاستجابة، حاجه الثبات والدهاء (الصلابة) بوجه الخطر الماجئ ، واكثر من اي شيء اخر اعصاباً حديدية .

اربعة عناصر تشكل مناخ الحرب ، وهي الخطر ، والجهد والمجهول ، والفرصة ، ولو تمعنا فيها مجتمعة فسيتضح لنا مقدار الحاجة الى العقل المتفتح والشخصية المتزنة لتحقيق التقدم في التعامل ووسط تلك العناصر الطاغية ، بشيء من النجاح والطمأنينة . يستخدم كتاب ومؤرخوا الحرب ووفقاً للظروف مصطلحات مثل ، **الطاقة ، والصلابة ، والصمود ، والتوازن العاطفي ، وقوة الشخصية** . ويمكن استخدام تلك المصطلحات التي تعد نتاجاً لطبيعة البطولة ، على انها شيء واحد ، وتشير الى عامل واحد – هو قوة الارادة – التي تتكيف وتلائم نفسها وفق الظروف الانية : إلا أن تلك المعاني ورغم ارتباطها الوثيق مع بعضها البعض ليست متطابقة . لذا فان دراسة مركزة لتفاعل القوى والعوامل النفسية في العمل تستحق الجهد .

يتطلب الفكر الواضح وكبداية أن نضع نصب أعيننا احدى النقاط : وتتعلق هذه بالوزن (Weight) ، او العبء او المقاومة ، – أو سمها ما شئت – والتي تتحدى **القوى النفسية للجندي** ، فان جزءً صغيراً فقط منها ، هو **النتيجة المباشرة لانشطة العدو، ومقاومته ، أو عملياته** . يقع التأثير الاولي والمباشر لانشطة العدو على الجندي كشخص ودون أن تؤثر عليه في نطاق عمله كقائد . وعلى سبيل المثال ، فلو قاوم العدو لاربع ساعات بدلاً من اثنتين فسيتعرض القائد الى خطر مضاعف ، لكن وكلما ارتفعت مرتبة الضابط كلما تضاءلت اهمية ذلك العامل ، حتى انه لا يعود يعني شيئاً بالنسبة للقائد العام .

الطريقة الثانية التي تؤثر فيها مقاومة العدو على القائد **مباشرة** هي الخسائر التي تسببها اطالة المقاومة ، وكذلك التأثير الذي يفعله ذلك على احساسه بالمسؤولية . كما أن القلق العميق الذي سيساوره يؤثر على قوة ارادته ويضعها على المحك ، مع اننا نعتقد

أن ذلك وفي جميع الأحوال ليس العبء الاكبر الذي على القائد تحمله ، لانه ليس مسؤولاً سوى امام نفسه ، ومع ذلك فكل التأثيرات الاخرى لاعمال العدو والتي سيعيشها الرجال الذين بامرته **ستنعكس من خلالهم عليه** .

طالما كانت الوحدة تقاتل برغبة وعن قناعة ، وبروحية جيدة وحماس ، فلن تدعو الحاجة الى قوة ارادة[1] كبيرة الا نادراً ، الا انه وحالما تلوح في الافق بعض المصاعب او الظروف السيئة ، وكما ولابد سيحدث دائماً ، وعندما لم تعد الامور تسير كالماكنة الحسنة التزييت . ستبدأ الماكنة نفسها عندئذ المقاومة وسيحتاج القائد الى قوة ارادة هائلة للتغلب على هذه المقاومة . لا تحتاج **مقاومة الماكنة** لان تتضمن عدم طاعة واعتراض ، وان حصل ذلك كثيراً بين الجنود كافراد . بل ما يهم هو تأثير انحسار او تقلص القوى المادية والمعنوية ، الناجمين عن المشاهد التي تدمي القلوب للجرحى والقتلى والتي على القائد الصمود امامها – اولاً بنفسه هو ، ومن ثم لدى كل اؤلئك الذين وثقوا به بمشاعرهم وافكارهم وآمالهم ومخاوفهم مباشرة او غير مباشرة . ومع تلاشي قوة كل رجل ، ولحظة ادراكه انها لم تعد تستجيب لارادته ورغباته فان التراخي والقصور الذاتي يلقي اعبائه تدريجياً على قوة ارادة القائد وحده. وعلى القائد وبقوته وحماسه الروحي ان يحي شعلة الحماس من اجل الهدف لدى كل الاخرين ، وان يحيي بقواه وناره الداخلية آمالهم . وبالقدر الذي سينجح فيه بهذا الصدد فسيغدو بوسعه احكام وادامة سيطرته على رجاله . وحال فقدانه لهذه السيطرة، وحالما تعجز شجاعته الشخصية عن استثارة شجاعة رجاله ، فسيجروه الى عالم الغباء المتوحش ، حيث يسيطر الخوف ويفر الجميع امام الخطر وينعدم الحياء . كذلك هي الاعباء التي يواجهها القائد في المعركة، والتي يتوجب عليه قهرها بشجاعته وقوة ارادته ، ان كان يريد ويأمل تحقيق نجاح رائع . تتزايد اعباء القائد مع تزايد اعداد الرجال الذين تحت قيادته ، لذلك وكلما علا مركزه كلما زادت قوة الشخصية التي يحتاجها لتحمل عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه .

تختلف **الطاقة** في العمل وفقاً لقوة وحجم الحوافز ، وسواء اكانت هذه نتيجة لقناعات فكرية او عاطفية . ومع ذلك فلا تتولد القوة بسهولة ما لم تكن هناك عواطف.

---

(١) لابد من التساؤل هنا ، كيف تقاتل الوحدة بحماس ورغبة ، لكن دون ارادة كبيرة الا نادراً ؟ وهل تكفي الدوافع او العوامل الاخرى لتزج الوحدة بنفسها في جحيم الحرب – المترجم –

من بين جميع المشاعر التي تذكي حماس الرجل في المعركة ، فليس اياً منها ، وهذا ما يجب ان نقر به ، أقوى واكثر ثباتاً ، من التطلع الى الشرف والشهرة . وتغمط اللغة الالمانية هاتين القيمتين الرائعتين حقهما بان الحقت بهما صفتين وضيعتين في المعنى فاضافت «الطمع» و«الجري وراء الشهرة –Ruhmsucht» الى الشرف (Ehrgeiz). ألحق سوء استخدام هذين المطمحين النبيلين دون ريب ألعن أنواع الازدراء بالجنس البشري ، الا ان جذورهما وقيمتهما الاصليتين تضعهما بين أرفع المناقب في الطبيعة البشرية . وتؤديان في الحرب عملاً مشابه لعنصر الحياة في كتلة خامدة . قد تكون عواطف اخرى اكثر شيوعاً واكثر توقيراً – الوطنية ، والمثالية ، والثأر ، والحماس مهما كان نوعه – الا انها لا تشكل بديلاً للتعطش للشهرة والشرف . وهي قد تدفع الجموع للعمل وتلهب حماسها الا انها عاجزة عن اعطاء القائد مطمح الصمود والكفاح أطول من الاخرين ، وكما يتوجب عليه ذلك ان كان يريد ان يميز نفسه . كما ان تلك المناقب الاخرى لا يمكن ان تعطيه ، كالطموح الذي يجعله الشخص الذي له مصلحة شخصية ملحة كالتملك في كل جانب من جوانب القتال ، كي يحول كل فرصة الى ميزة مفيدة بافضل ما يستطيع – كالزارع الذي يحرث ارضه بنشاط ، ويزرعها بحدب بأمل انضاجها الوفير . انها اساساً هذه الروح الملهمة للقادة في جميع المستويات ، هذا الابداع ، والطاقة ، والحماس التنافسي التي تؤجج الحيوية في الجيش وتصنع انتصاراته . اما بالنسبة للقائد العام فقد نتساءل عما اذا عرف التاريخ يوماً ما قائداً عظيماً لم يكن طموحاً ، او ما اذا كان مثل هذا القائد سيوجد يوماً ما حقاً.

يحدد لنا **الصمود** Staunchness مقاومة الارادة لضربة منفردة ، أما **التحمل** Endurance فيشير الى اطالة المقاومة .

ومع تشابه المصطلحين واستخدامهما غالباً في معنى واحد ، الا أن الاختلاف بينهما كبيراً ولا يمكن أن نخطأه . فالصمود في مواجهة ضربة واحدة قد يكون نتيجة لعواطف قوية ، بينما يساعد الذكاء في ادامة التحمل . فكلما طال العمل كلما أصبح التحمل اكثر اهمية وتحكماً ، وهذه هي احد مصادر قوته .

نعود الآن الى **قوة العقل** ، او **الشخصية** ، وعلينا أن نسأل ابتداءً ما الذي نعنيه بهذين المصطلحين .

كلا ، فمن الواضح ان العرض المتقد للمشاعر ، او المزاج العاطفي ، سيحددان معنى العبارة (Phrase) ، ونعني بذلك القدرة على حماية الإنسان (رأسه) في ساعات

الضغوط والمصاعب الاستثنائية والعواطف العنيفة . هل بوسع قوة الفكر وحدها أن تكون مبعث هذه المقدرة الشخصية ؟ نحن نشك بذلك . ونقيض ذلك بطبيعة الحال لا ينبع من حقيقة كون بعض الرجال من ذوي القدرات الفكرية الرائعة قد فقدوا سيطرتهم على انفسهم : اذ يمكن الاعتراض بان العقول القوية وليست المتفتحة هي المطلوبة . مع ذلك قد يظل قريباً من الحقيقة أن نفترض أن تلك المقدرة الشخصية المعروفة **بالسيطرة على النفس** – أي الموهبة في المحافظة على الهدوء حتى في أشد المواقف حراجة – تتجذر في الطبع الانساني . وهي بحد ذاتها شعور يعمل على موازنة المشاعر العاطفية في الشخصيات القوية دون تدميرها ، وان هذا التوازن وحده هو ما يؤكد سطوة الفكر . وما نعنيه بقوة التوازن المقابلة هي وبيساطة الشعور الإنساني بالكرامة ، والكبرياء النبيلة ، وما نحتاجه اكثر واعمق من اي شيء اخر ، اي : الدافع **لأن نتصرف بعقلانية في جميع الاوقات**. لذلك سنؤكد على أن الشخصية القوية هي تلك **التي لا تفقد توازنها ولا بتأثير أقوى العواطف** .

لو تمعنا في مسألة إختلاف الرجال في ردود افعالهم العاطفية فسنجد اولاً مجموعة منهم لا يمكن استثارتها الا قليلاً ، ويعرف هؤلاء بـ « البلداء» أو « اللامبالين» .

ثانياً : هناك رجال شديدوا الفعالية حدّ التطرف ، الا أن مشاعرهم لا تعلو فوق حد معين ، رجال نعرف انهم حساسون الا انهم هادئون .

ثالثاً : هناك صنف آخر من الرجال يسهلُ تأجيج عواطفهم بسهولة ، رجال يتوقد أهتياجهم فجأة الا انه يُستنفذ ويخمد بسرعة ، كالبارود . واخيراً نصل الى ذلك النوع من الرجال الذين لا يتأثرون امام القضايا الصغيرة ، والذين تتصاعد ردود افعالهم تدريجياً وليس بشكل مفاجئ ، الا ان عواطفهم تتضمن قوة كبيرة ومتينة . واؤلئك هم الرجال ذوي المشاعر القوية والعميقة والخفية .

قد يتعلق هذا التنوع **بالعوامل المادية الفاعلة** في الوجود البشري – انها جزء من ذلك النظام المزدوج الذي ندعوه الجهاز العصبي ، قسمه الاول مادي والاخر نفسي (سايكولوجي) . ولست بقادر بما لدي من معلومات محدودة في العلوم ، ان اذهب ابعد من ذلك في هذا الميدان الصعب ، مع ذلك فمن المهم ملاحظة الطرق التي يمكن لهذه المركبات النفسية ان تؤثر من خلالها على الانشطة العسكرية ، والى اي مدى بوسع المرء النظر والبحث عن شخصية بالغة القوة بينهم .

يصعب جداً افقاد البلداء والاغبياء توازنهم ، الا ان النقص الفضيع في النشاط

والفاعلية لا يمكن أن يعتبر قوة في الشخصية . ولا يمكن أن ننكر مع ذلك أن رباطة الجأش لدى رجال كهؤلاء تعطيهم فائدة محدودة في الحرب . انهم نادراً ما يستثارون بقوة ، وتنقصهم المبادأة وروح الابداع وعليه فهم ليسوا فعالين بشكل خاص ، وبالمقابل فهم نادراً ما يقعون او يرتكبوا اخطاء خطيرة (من لا يعمل لا يخطأ – المترجم) .

اما النقطة البارزة حول رجال المجموعة الثانية ، فهي ان اشياء ثانوية تافهة قد تحفزهم للعمل ، في الوقت الذي قد تذهلهم وتشل حركتهم اشياء بالغة الاهمية . هذا النوع من الرجال قد يندفع بسعادة غامرة لمساعدة انسان ما ، الا ان كارثة تعم شعباً بكامله قد لا تثير فيه سوى القليل من الحزن والاسى ، بل انها لن تدفعه الى العمل .

لا يظهر رجال كهؤلاء نقصاً في الطاقة او التوازن في الحرب ، لكن لا يحتمل ان ينجزوا اي شيء ذا قيمة ما لم يتوفر لهم **فكر بالغ القوة** لاعطائهم الحافز المطلوب . الا ان من النادر وجود مزيج يجمع بين طبع كهذا وفكر مستقل وقوي .

تظل العواطف المتأججة ، والمشاعر السريعة الاستثارة قليلة الجدوى عموماً في الحياة العملية ، وبالتالي ستظل قليلة الجدوى كذلك في الحرب . فايقاعاتها قوية الا انها قصيرة فان امكن الجمع ما بين طاقة رجال كهؤلاء وشجاعة وطموح، فانهم غالباً ما يثبتون كفاءة عالية في مستويات القيادة المتوسطة ، وذلك ببساطة لان الاعمال التي يتولى صغار الضباط تنفيذها وادارتها لا تستغرق الكثير من الوقت . وغالباً ما يكفي في مواقف وحالات كهذه قرار شجاع واحد ، او انفجار قوة عاطفية . ان الصولة الجريئة هي عمل لبضعة دقائق ، بينما قد يستغرق القتال الضاري يوماً بكامله ، اما الحملة فقد تستمر لعام كامل .

تضاعف العواطف المتفجرة لمثل هؤلاء الرجال ، الصعوبات التي يواجهونها للأحتفاظ بتوازنهم ، وغالباً ما يطيش صوابهم، وليس هناك ما هو اسوء من ذلك في الخدمة الفعلية . مع ذلك ليس صحيحاً القول بان العقول السريعة الاستثارة لا يمكن ان تكون قوية – ذلك لعجزهم عن الاحتفاظ بتوازنهم حتى تحت اقوى الكوابح . لماذا لا يحس هؤلاء بكرامتهم طالما كانوا يعدون من بين اصحاب افضل الطبائع ؟ الحقيقة هي ان لدى هؤلاء احساس كهذا ، ولكن ينقصه الوقت ليفعل فعله. اذ وحال زوال الازمة يميل اؤلئك الرجال للشعور بالخجل من سلوكهم . فان امكن ، بالتدريب ، ومعرفة النفس ، والتجربة، تعليمهم عاجلاً او اجلاً كيفية حماية انفسهم من نوازعهم واندفاعاتهم ، عندها وفي الازمات الكبرى ستفصح قوة التوازن الداخلي عن نفسها وبشكل يمكن معه اعتبارهم من ذوي الشخصيات القوية .

اخيراً نصل الى الرجال الذين يصعب تحريكهم مع امتلاكهم لمشاعر قوية – رجال يُعدّون امام النوع الاول كالحرارة (الجمر) امام سيل من الشرارات . وهم الرجال الافضل قدرة على حشد القوة الهائلة التي يتطلبها امر ازاحة الاعباء الهائلة التي تعترض الفعاليات في الحرب . وتتحرك عواطفهم كما هي الحال في عواطف الجماهير (الجموع) – بطيئة ولكن لا تقاوم .

هؤلاء الرجال لا تستغرقهم عواطفهم كما هو الحال مع رجال المجموعة الثالثة ، الا ان التجارب اظهرت انهم ايضاً يمكن ان يفقدوا توازنهم وان تسيطر عليهم المشاعر العمياء . ويمكن ان يحدث ذلك كلما اختفى لديهم الاعتزاز بنبل السيطرة على النفس، او لم يكن هذا بالقدر المطلوب . كثيراً ما يلحظ مثل هذا الشرط بين الرجال العظام في المجتمعات اللامتمدنة حيث تنحو العواطف للسيطرة بسبب نقص الانضباط الفكري . بل وحتى بين الرجال المتعلمين والمجتمعات المتمدنة، غالباً ما يطيش صواب الرجال بفعل العواطف ، تماماً كما في العصور الوسطى يوم كان لصوص الصيد يصرون على الجري وراء طرائدهم داخل الغابة .

نعيد القول ثانية : لا تكتفي قوة الشخصية بامتلاك مشاعر قوية لوحدها ، بل بالمحافظة على توازن المرء بغض النظر عن تلك المشاعر . ورغم عنف المشاعر يجب ان تظل المبادئ وقوة القرار تفعلان فعلهما كالبوصلة في توجيه السفينة ، والتي تسجل حتى اقل التغييرات مهما اضطرب حال البحر .

نحن نقول ان للرجل شخصية قوية ، او نكتفي بالقول ببساطة انه ذو شخصية ، اذا تمسك بقناعاته سواء كانت هذه قد أشتقت من ارائه او اراء الاخرين ، او انها تمثل مبادئ ، او توجهات ، او حدث مفاجئ ، او اية عوامل عقلية اخرى . لا يمكن ان تفصح هذه الصلابة Frimness عن نفسها بطبيعة الحال اذا واصل الرجل تغيير اراءه ومواقفه . ولا يتطلب ذلك ان يكون نتيجة لتأثيرات خارجية : وقد يكون السبب في ذلك قناعات فكرية شخصية ، الا ان ذلك يدل على عقلية قلقة وغريبة . ومن الواضح ان الرجل الذي يغير افكاره باستمرار ، حتى لو كان ذلك استجابة لافكاره الانعكاسية، لا يمكن ان يوصف **بانه ذو شخصية** . بل ان المصطلح ينطبق فقط على الرجال الذين تتميز ارائهم ومواقفهم **بالتوازن والثبات** . ولعل ذلك يعود الى انهم يفكرون بعمق ، ووضوح ، ونادراً ما يغيرون افكارهم ، او، وكما بالنسبة للرجال الكسالى ، فالسبب ان رجالاً كهولاء لم يعتادوا على بذل جهد عقلي ، لذلك فما من

سبب يدعوهم الى تغير مواقفهم وارائهم، واخيراً ، لان القرار الحازم الذي يستند الى مبادئ اساسية استنبطت بعد تفكير طويل ، هو قرار محصن نسبياً ضد اي تغيّر في الرأي.

ليس من فعالية اخرى كالحرب بما فيها من انطباعات حية ومثيرة ، والشكوك التي تحيط بكل المعلومات والاراء، في حرمان وتجريد الرجال من ثقتهم بأنفسهم وبالاخرين وحرفهم عن خطوط عملهم الاصلية .

امام كل هاتيك المخاطر والالام تستطيع العواطف وبسهولة ان تعلو وتتفوق على القناعات الفكرية ، كما يصعب وسط جو القلق (الضباب) النفسي تكوين اي تقدير واضح وكامل يغدو معه التبدل في المواقف مفهوماً ومقبولاً . لا يمكن ان يستند العمل على شيء اكثر صلابة من الحدس الغريزي ، والاحساس بالحقيقة . ليس من مكان آخر، بالتالي تكون اختلافات الرأي فيه حادة وشديدة كالحرب ، كما ان الاراء الجديدة (الطازجة Fresh) لا تتوقف أبداً عن الطرق فوق قناعات المرء . ليس بوسع اي درجة من الهدوء توفير الحماية الكافية ، والانطباعات الجديدة قوية جداً ، ومفعمة بالحيوية ، وتهاجم العواطف دائماً كما تفعل مع الفكر .

بوسع تلك المبادئ والتوجيهات العامة فقط والناتجة عن **تفهم عميق** وواضح ان توفر **دليلاً شاملاً للعمل** . والى تلك المبادئ ينبغي أن ترتكز الاراء في المعضلات المحددة . والصعوبة هي في التمسك باحكام بنتائج تلك الدراسات الفكرية وسط ضغط وعذاب تسارع الاحداث والاراء الجديدة. غالباً ما تكون هناك ثغرة (فجوة) ما بين المبادىء والاحداث الواقعية، والتي لا يمكن سدها (تجسيرها) بسيل من الاستنتاجات المنطقية، لذا لابد من درجة معقولة من الثقة بالنفس ، كما ان نسبة من الحذر (التشكك) مفيدة ايضاً . ولا يمكن غالباً لاقل من مبدأ اساسي وملزم ، أن يكون كافياً ، وهو ليس جزءً مباشراً من العملية الفكرية ، بل يتحكم فيها. ذلك المبدأ هو أن **على المرء وفي جميع الحالات المليئة بالشكوك ، التمسك برأيه الاول ورفض تغييره ما لم يضطر الى ذلك بتأثير قناعات واضحة واكيدة.** لابد من ثقة قوية بالحقيقة الطاغية للمبادئ موضع التجربة ، وان لا نسمح **لحيوية وتدفق** الانطباعات العابرة والانية أن تنسينا أن حقائقاً كهذه وكما هي أقل اثراً. باعطاء الاسبقية ، في حالة الشك ، الى قناعاتنا الاولية وبالتمسك بها بعناد سنحقق. تلك النوعية من الثبات والاصرار التي يعبر عنها بقوة الشخصية .

كلنا ندرك مدى اعتماد قوة الشخصية على الطبع المتوازن؛ لذا فمعظم الرجال العاطفيين بقوة وتوازن ، هم من ذوي الشخصيات القوية جداً كذلك .

يمكن ان تنحدر قوة الشخصية الى مجرد عناد حرون. وان كان من الصعب في اكثر الاحيان التمييز أو رسم الخط الفاصل بينهما في اي موقف او حالة منفردة ، الا ان من السهل بالتأكيد التميز بينهما نظرياً .

ليس العناد **انحطاطاً فكرياً** ، اذ اساسه رفض اعتراف المرء بانه على خطأ ، ومن غير المنطق ان يعزى ذلك الى العقل ، لان العقل مركز الحكم والقرار. **العناد هو عيب في الطبع** . يتولد العناد وعدم تحمل المعارضة من نوع خاص من **الانانية** ، التي تصنع **رضاها وسعادتها باستقلالها الفكري الذي على الاخرين الانحناء امامه**، فوق اي شيء آخر . يمكن أن يعتبر ذلك غروراً Vanity ، ان لم يكن شيئاً اكبر من ذلك حتى ، يرضى الغرور بالمظاهر وحدها ، اما العناد فيريد اشياء ملموسة وواقعية.

بوسعنا القول الان ان قوة الشخصية تتحول الى عناد حالما يعترض الرجل على وجهة نظر اخرى ، ليس اعتماداً على حدس أو بصيرة متفوقة ، أو رجوعاً الى مبدأ اعلى ، بل لانه يعترض **غريزياً وتلقائياً** . أُقر بان هذا التحديد قد لا يكون مجدياً عملياً، الا انه سيساعدنا الى حد ما في تجنب تفسير آخر بان العناد وببساطة ليس سوى شكل اقوى (مكثف) من قوة الشخصية . الا ان هناك اختلافاً اساسياً بين الاثنين . ومع انهما متقاربان بشدة ، الا ان احدهما ابعد كثيراً من مجرد كونه درجة اعلى ، أو اقوى من النوع الاخر ، اذ يمكن حتى ان نجد رجالاً متطرفي العناد الا انهم أغبى بكثير من أن يمتلكوا شخصية شديدة القوة .

قلنا الكثير عن الصفات المميزة التي يحتاجها القادة العظام في الحرب ، مع الصفات التي يعمل بها العقل والطبع معاً . علينا الان التوجه نحو احدى ملامح النشاط العسكري – ولعلها اكثرها اثارة حتى وان لم تكن اكثرها اهمية – والتي لا علاقة لها بالطبع ، وتخص الفكر فقط . واعني بها العلاقة ما بين الحرب Warfare والارض Terrain .

ابتداء نقول ان العلاقة بينهما **عامل دائمي** – والى الحد الذي بوسع المرء معه ان يتصور ان جيشاً نظامياً لا يمكن ان يعمل الا في مجال محدد . الامر الثاني هو ان اهمية تلك العلاقة حاسمة في اعلى المستويات لانها تؤثر على عمليات جميع القوات،

بل وحتى تغيرها كليا في بعض الأحيان . والامر الثالث هو اننا قد نلاحظ تأثيرها حتى **في اصغر العوارض الارضية** ، الا انها يمكن ان تسيطر وتتحكم **في مناطق شاسعة**.

بتلك الطرق تتحكم العلاقة ما بين الحرب والأرض بالسمة الفريدة والمميزة للعمل العسكري . ولو تمعنا بالفعاليات الاخرى ذات العلاقة بالتربة – كالبستنة ، والبناء والزراعة ، والمحطات المائية ، والمناجم ، والصيد ، أو الاحراش – فلن يمتد اياً منها لاكثر من مساحة محدودة جداً ، وسرعان ما يمكن معرفة تلك المنطقة والاحاطة بما فيها ، اما القائد فلابد أن يترك مثل هذا العمل الى احد رفاقه، فالارض التي لا يستطيع استطلاعها كلياً ، كذلك وبسبب التنقل المستمر والتبدلات التي يخضع لها فلن يتمكن من معرفتها على حقيقتها . وبالتأكيد فان العدو ليس في موقف افضل ، ولكن العجز سيظل عجزاً حتى ولو كان يعم الجميع ، والرجل الذي يمتلك ما يكفي من الذكاء والتجربة سيحصل على ميزة واضحة . وعموماً فان المصاعب واحدة للطرفين ، ولكن وفي أية حالة خاصة فالمدافع عادة يعرف المنطقة بشكل افضل بكثير من خصمه .

انها معضلة فريدة ويحتاج التغلب عليها موهبة خاصة ، أُعطيت اسماً محدداً بدقة هو « الاحساس المكاني [1] » Sence of locality. انها **المقدرة الشخصية السريعة والدقيقة على الاحاطة بطبوغرافية (سطح) الارض لاية منطقة** ، والتي تمكن الرجل من معرفة طريقه وسطها في اي وقت . من الواضح ان ذلك يعد من اعمال قوة التخيل والبصيرة . فالاشياء تتشكل والى حد ما بطبيعة الحال ، بقوة العين المجردة في جزء منها والى العقل في الجزء الاخر ، حيث يملاء العقل الفراغات بالتخيل المعتمد على التعلم والمران ، وهكذا يتم اكمال لوحة عامة من مجموعة الاجزاء التي تراها العين، اما اذا أمكن استحضار ذلك الكل بحيوية امام العقل ، وطبعها في الذهن كالصورة، أو كخريطة وبدون اغفال او تشويه التفاصيل ، **الامر الذي لا يمكن انجازه الا بفعل الموهبة العقلية التي ندعوها التخيل** . قد يندهش الشاعر او الرسام لو عرف ان مصدر الوحي والالهام الذي يدعوه التخيل ، يتحكم كذلك بمثل

---

(١) او ما يعرف بمعايشة الارض وبتعبير اكثر دقة مما يستعمل في العسكرية العراقية بمعنى « قراءة الارض» وهو أمر في غاية الاهمية بل من اول مستلزمات القيادة – المترجم –

هذه الانشطة ، وان بدى من الصعب عليهما القول أن حارس طرائد الصيد الشاب في حاجة الى قوة تخيل غير اعتيادية كي يكون كفوءً في عمله . فان كان الامر كذلك فسنقبل وبرضاً بان ذلك يعني تطبيق المفهوم بشكل محدود وعلى اعمال ثانوية بسيطة . لكن ومهما كانت الروابط ضئيلة ، فستظل قدرته مستمدة من تلك الموهبة الطبيعية ، فان إنعدمت ملكة التخيل كلياً فسيصعب عندها جمع التفاصيل في صورة واضحة ومتماسكة . نقر ايضاً بالمساعدة الكبيرة التي تقدمها الذاكرة القوية ، لكن هل بوسعنا اعتبار الذاكرة موهبة عقلية منفصلة ، او اعتبار ان التخيل يتولى في النهاية طبع تلك الصور في الذاكرة بوضوح اكبر ؟ لابد من ترك السؤال دون اجابة ، خصوصاً ما دام يبدو من الصعب حتى مجرد التفكير بعمل هذين العنصرين بصورة منفصلة .

بوسع العقل المدرب والممارس ان يفعل الكثير دون شك في هذا المجال . وقد كتب بوسيكور[1] – مدير الميرة والتوين للمارشال لوكسمبرج – انه وفي بداية حياته المهنية كان قليل الثقة باحساسه المكاني ، وعندما كان يذهب راكباً لاي مسافة ما لا جل الحصول على كلمة السر كان كثيراً ما يفقد طريقه .

يتوسع نطاق هذا الذكاء الطبيعي مع السلطة المتزايدة ، ويجب على ضابط الخيالة (Hussar) او الاستطلاع (Scout) ان يجد طريقة بسهولة وسط الطرق والنباسم. كلما يحتاجه لهذا الغرض بضعة علامات ارضية مميزة ، وقدر متواضع من قوة الملاحظة والتخيل . وبالمقابل فعلى القائد العام توخي امتلاك معرفة شاملة بتكوين المنطقة ، او البلاد بكاملها ، وأن يلم بدقة ويحتفظ في ذهنه بصورة حية وواضحة لشبكة الطرق ، وخطوط الانهار ، وامتداد الجبال ، دون ان يفقد احساسه ابداً بما يحيطه مباشرة . بوسعه طبعا استخراج المعلومات العامة من وسط التقارير المتنوعة ، ومن الخرائط ، والكتب والمذكرات الرسمية . تتولى هيئة ركنه ومساعديه توفير اية تفاصيل اخرى ضرورية . رغم ذلك فمن المؤكد ان امتلاكه لاحساس مكاني سريع ودقيق سيمكنه من توزيع قواته بطريقة اسرع واضمن ، وستقل كثيراً المخاطر التي يتعرض لها بسبب ما قد يعتور مفهومه من عيوب ونواقص ، كما سيقل اعتماده على الاخرين .

---

(١) المارشال الفرنسي ، المركيز جاك – فرانسوا بوسيكور (١٦٥٥ – ١٧٤٣) .

نعزو تلك القدرة الى التخيل ، الا ان ذلك يخص فقط الخدمة الوحيدة التي يمكن ان تطلبها الحرب من آلهتها اللعوب والقادرة وفي معظم الشؤون العسكرية على التسبب بالأذى اكثر من المنفعة .

عند هذه النقطة ، نعتقد اننا وصلنا الى نهاية مناقشتنا حول القوى المادية والمعنوية التي تحتاجها الطبيعة البشرية وتعتمد عليها في الحرب . والمساهمة الحيوية للفكر واضحة وجلية للعيان في كل مكان ولا نعجب بعد ذلك لأن الحرب ورغم انها قد تبدو غير معقدة ، لا يمكن شنها وادارتها بشكل متميز الا من قبل رجال من طراز عال وقدرات فكرية عالية جداً (١) .

حال تطبيق هذه الفكرة ، فما من حاجة بعد للتفكير بان تطويق موضع للعدو سيحتاج الى المزيد من الجهد الفكري (وقد تم فعل ذلك كثيراً ولعدد كبير من المرات) او لتنفيذ الكثير من العمليات المماثلة .

من المسلم به اننا عادة نعتبر الجندي الكفوء ، والبسيط كنقيض للباحث المتأمل ، او المفكر المبدع وما يتمتع به من معرفة باهرة . ليس هذا التضاد غير واقعي ، الا انه لا يثبت أن بوسع الشجاعة لوحدها خلق الجندي الكفوء ، او ان امتلاك الذكاء وإستخدامه ليسا بالامر المهم ليكون المرء مقاتلاً جيداً . علينا ان نصر مرة اخرى : فما من قضية اكثر شيوعاً من قضية الضابط الذي تتناقص قدراته مع رقيه في سلم الرتب ونيله لمناصب فوق مستوى قابلياته . لكن علينا ايضاً تذكير القارئ ، ان ما يهمنا هنا هو الجهد المتميز ، من النوع الذي يمنح القادة اسماءً لامعة . لكل مستوى قيادي قدر او مقياس فكري خاص به ، وله مستلزماته الخاصة للشهرة والشرف (المجد) .

هناك فجوة واسعة ما بين القائد العام – القائد (الجنرال) الذي يقود الجيش ككل، او القائد في ساحة العمليات – وبين اقدم الجنرالات الذي يليه مباشرة ، لسبب بسيط هو ان : المستوى الثاني (الادني) يخضع لسيطرة واشراف شديدين ، وبالتالي لا يحضى الا بنطاق اضيق من الاستقلال الفكري . لذا يعتقد الناس ان القدرة الفكرية العالية حكر لمن هم في قمة سلم القيادة ، وان الذكاء العادي كاف لانجاز كل

---

(١) مديح لا تستحقة الحرب ولا مشعلي نيرانها حتى من الناحية المهنية او النظرية الصرف ، وكلما يمكن ان يقال عنها انها شر او كارثة لابد منها لذا لا بد من الاستعداد لها على اتم وجه ، وباقل ما يمكن من الخسائر وان تستهدف – ولعل هذا مبررها الوحيد – الوصول الى السلام . المترجم.

الواجبات والاعمال الاخرى بكفاءة . وهكذا فان جنرالاً ذو مسؤوليات اقل ، اي ضابط قد شاب شعره في الخدمة ، وتبلد عقله بسبب العديد من سنين الروتين، غالباً ما يعد من الذين اكتسبوا من جراء ذلك غباءً متخما ؛ قد يحترم لرتبته ومنصبه الا أن سذاجته تدفعنا الى السخرية منه . ولا نريد تحويل هؤلاء الى ابطال او ندفعهم علواً في سلم الرتب، فلن يجدي هؤلاء الرجال الطيبين نفعاً او يزيد من قدراتهم، بل حتى قد لا يسعدهم ذلك الا قليلاً ، بل كل ما نريده هو استعراض الحال كما هو ، كي لا يعتقد القارئ ان بوسع رجل شجاع ولكنه غبي ان يحقق اية اعمال باهرة في الحرب .

مادمنا نرى حتى مراكز القيادة الصغيرة بحاجة الى مقدرة عقلية باهرة كي تحقق نتائجاً رائعة ، وطالما يتصاعد المقياس مع كل خطوة في سلم القيادة ، الامر الذي يعني ادراكنا نوعية وحجم القابليات الضرورية المطلوبة أن اريد اشغال المناصب الثانية في الجيش ، من ضباط متميزين . قد يبدو امثال هؤلاء الضباط بسيطين الى حد ما، مقارنة مع الباحثين الموسوعيين ، أو رجال الاعمال الكبار، ورجال الدولة ، لكن ينبغي علينا ألا نغفل قيمة ذكائهم العملي . يحدث احيانا ان من حضي بسمعة جيدة في رتبة ما ؛ سينقلها معه بطبيعة الحال عند ترقيته ، دون ان يستحق ذلك فعلاً ، فان لم يتعرض الى تجارب جديدة للحكم على مواهبه ، أو انه تجنب بشكل او آخر الكشف عن عجزه ، فمن الصعب في حالة هذا الضابط القرار على المكانة الحقيقية التي يستحقها[1]. غالباً ما تسبب حالات كهذه التقليل من شأن الضباط الذين كانوا سيبدعون في مناصب اقل .

لابد من موهبة مناسبة في جميع المستويات ان اريد تقديم خدمة متميزة .الا ان التاريخ والاجيال المقبلة لا تضفي صفة ، « العبقرية » الا لمن ابدعوا في اعلى المراكز – كالقائد العام – طالما تدعو الحاجة هنا الى قدر كبير جدا من القوى الفكرية والمعنوية.

لتحقيق نتائج جيدة في حرب ما ، او في احدى حملاتها ، يتطلب ذلك تفهم وادراك دقيقين للسياسة الوطنية «National Policy» ، ففي ذلك المستوى تندمج الاستراتيجية والسياسية ، **فالقائد العام رجل دولة في آن واحد** .

---

(١) يتهم كلاوزفيتز بالاغراق في التفاصيل احيانا ، ولعل هذا احد الامثلة التي تمنح نقاده مثل هذا الحق ، رغم ان هذا الفصل مخصص للعبقرية العسكرية ، وقد يقول البعض انه لا يريد ان يترك بقية لمستزيد – المترجم .

لا ينظر الى الملك السويدي شارل الثاني عشر ـ ١٦٨٢ – ١٧١٨) كعبقري عظيم لانه لم يستطع اخضاع مواهبه العسكرية لحكمة وبصيرة ارفع ، كما لم يحقق اهدافاً كبرى بها. كما لا ننظر الى الملك الفرنسي هنري الرابع بنفس الطريقة ، فقد قتل هذا قبل ان يستطيع التأثير بمهارته على العلاقات بين الدول . لقد حرمه الموت فرصة اثبات مواهبه في تلك المقامات العليا ، وحيث تتبدى المشاعر النبيلة ، والسخاء الكريم التي تلطف كثيراً من الهياج الداخلي ، لو واجهت خصماً اكثر عناداً .

لقد اشرنا في الفصل الأول الى العمل المتعدد الاوجه والواسع النطاق الذي على القائد الاعلى استيعابه بسرعة وسهولة ، وتقييمه بدقة . واوضحنا ان القائد العام يجب ان يكون « رجل دولة Statesman » أيضاً ، على ان لا ينسى دوره كقائد . فهو يتفهم من ناحية، الموقف السياسي العام ويعرف من الناحية الاخرى ما بوسعه انجازه بالوسائل الموضوعة بتصرفه .

تتغير الظروف بكثرة هائلة في الحرب ، كما انها مما يصعب تحديدها ، اذ يتطلب ذلك تقويم ودراسة كم هائل من العوامل معظمها على ضوء الاحتمالات وحدها . على الرجل المسؤول عن تقييم هذا الكم أن يشرك في عمله ميزة الحدس والبديهية التي تلمح أو تلتقط الحقيقة في اية نقطة . والا نشأت حالة من فوضى وتضارب الاراء والاعتبارات ، تؤدي في النهاية الى تشابك الاحكام والقرارات بشكل مأساوي مرعب. لقد اصاب نابليون بونابرت حين قال بخصوص ذلك بان العديد من القرارات التي يواجهها القائد العام مشابهة للمعضلات الرياضية التي تحتاج الى عقليات فذة كالتي لأسحق نيوتن او « يولر [1] Euler» لحلها .

ما يحتاجه هذا الواجب بالنسبة للمواهب الفكرية العالية هو الاحساس بالوحدة، وقوة حكم ترقى الى مستوى عالٍ من التبصر بوسعه الامساك واستبعاد الاف الاحتمالات البعيدة بسهولة ، كان العقل العادي سيجهد نفسه حد الارهاق والتمزق من اجل تحديدها ، ومع ذلك سيظل هذا الرجم بالغيب الرائع للحدس ولقدرات العين

---

(١) ليونارد يولر (١٧٠٧ – ١٧٨٣) رياض سويدي ، يعد من بين واضعي اسس التحليل الرياضي الحديث ، كما ساهم في تنقيح جميع فروع الرياضيات . عاصر أسحق نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) الذي يعتبر من اشهر واكبر العلماء في التاريخ – المترجم .

العبقرية ، دون مستوى الاهمية التاريخية ، بدون قدرات وميزات الشخصية والطبع اللذان وصفناهما .

الحقيقة نفسها ليست كافية لدفع الرجال الى العمل الا نادرا ، لذلك تظل المسافة طويلة ما بين الادراك (Cognition) والاختيار (Volition) ، من المعرفة الى القدرة. يكمن اقوى مصدر للعمل في عواطف الرجال . يستمد الرجل معظم دعمه القوى ، ان جاز لنا استخدام مصطلح كهذا ، من ذلك المزيج من العقل والعواطف الذي بوسعنا تمييزه من بين خصائص العزم ، والصلابة والصمود ، وقوة الشخصية .

من الطبيعي بمكان ، ان قوة شخصية القائد ، وتفوقه الفكري وما لم تعبرا عن نفسيهما في النجاح النهائي لعمله ، وعدتا كمية مجردة أو تحصيل حاصل ، فلن يحققا اية اهمية تاريخية الا نادرا.

يصعب وصف ما بوسع الرجل العادي معرفته عن مسار الاحداث العسكرية . فالاعمال متشابهة ، ومن غير الممكن تصور نوعية المصاعب والعراقيل التي ظهرت وامكن التغلب عليها او تجاوزها من مجرد استعراض للأحداث . لكن يحدث احياناً ، ومن قراءة مذكرات القادة ، او ممن هم موضع ثقتهم او كتاب سيرة حياتهم ، او كنتيجة لدراسة تاريخية وثيقة، يمكن عندها الكشف عما لا حصر له من الخيوط التي تشكل هذا النسيج العريض . يتم اخفاء كل او معظم المناقشات وتضارب الاراء التي تسبق اية عملية كبيرة ، بشكل مدروس ومفصل لان مثل هذه الامور تمس المصالح السياسية ، او انها اهملت او نسيت ببساطة ، او اعتبرت من دعامات البناء (السقالات) التي لابد من ازالتها عند اتمام البناء .

اخيراً ودون المخاطرة بوضع تعريف دقيق للذرى والافاق العالية التي تصلها الروح ، دعنا نؤكد ان العقل البشري (وبالمعنى العادي للمصطلح) بعيد عن الانتظام والتماثل . لو تساء لناعندها عن العقل المؤهل لعرض سجايا العبقرية العسكرية اكثر من غيره ؛ لاظهرت لنا التجربة والملاحظة انه العقل الباحث (inquiring) وليس الخلاق (Creative) ، الشمولي وليس ذو المسلك المحدد ، العقل الهادئ وليس السريع الهياج الذي سنختاره في الحرب ونأتمنه على مصير اخوتنا وابناءنا ، وعلى أمن وشرف البلاد.

الفصل الرابع
عن الخطر في الحرب

تبدو فكرة الخطر بالنسبة لمن لم يتعرض للمخاطر فكرة جذابة أكثر منها تحذيراً مرعباً . فانت تهاجم العدو، متجاهلاً الاطلاقات والخسائر ، في جو من الهياج والانفعال . وتلقي بنفسك وسط برودة الموت مغمض العينين ، دون ان تدرك ما اذا كنت انت او سواك سيفلت منه ، كل ذلك قبل ان تضع يدك على الجائزة الذهبية ، النصر ، او الثمرة التي ستروي عطش الطموح . ايمكن ان يكون هذا بالغ الصعوبة ؟ كلا ، بل انها تبدو اقل صعوبة مما هي عليه . الا أن مثل هذه اللحظات نادرة ، كما انها ليست وكما هو شائع عموماً ، قصيرة كضربات القلب ، بل تأتي الى حد ما كالعلاج، في جرعات متتالية ، يذوي مذاقها مع الوقت .

دعونا نرافق مجندا جديداً الى ساحة المعركة ، ومع اقترابنا تبدأ لعلعة الرصاص بالارتفاع ، مختلطة مع شظايا ودوي القنابل التي ستجذب انتباهه ، ثم يزيد اقتراب تساقط وضرب المقذوفات منا ، فنسرع بتسلق المنحدر حيث استقر القائد العام وهيئة ركنه الكبيرة . وحيث تزداد الشظايا والانفجارات ، كما تبدو الحياة اكثر اهمية مما كان الشاب يتصور . وفجأة ترى واحداً ممن تعرف وقد اصيب بجراح ، ثم سقطت شظية وسط ضباط الركن ، وتلاحظ ان بعض الضباط قد تصرفوا بشيء من الحيرة ، وانت نفسك لم تكن رابط الجاش ومتماسكاً في مكانك ، فحتى الشجاع جدا قد يذهل قليلاً. لقد دخلنا المعركة الآن ، يحتدم عنفها امام اعيننا ، وما زالت كعائق كبير ، ونلتحق الى اقرب قائد فرقة . ما زالت الشظايا تتساقط كوابل المطر ، ويسهم دوي مدافعنا في مضاعفة الضجيج، نواصل تقدمنا باتجاه العميد (أمر لواء) ، وهو ضابط مشهود له بالشجاعة الا ان الحذر دفعه الي الاستتار خلف ساتر ما ، او دار ، أو مجموعة اشجار . سمعت جلبة تشير بالتأكيد الى تزايد الخطر – قرقعة قنابل عنقودية على السطوح وعلى الأرض . تتطاير القنابل ، وازيزها في كل اتجاه ، ويبدأ ازيز رصاص البنادق حولنا . نصل بعد قليل خط النار حيث يتحمل المشاة ثقل الموقف لساعات بثبات رائع . لقد امتلاء الجو برصاص البنادق المتطاير كالصرخات الحادة عند مرورها قريباً من رأس المرء . وكصدمة اخيرة فان مشهد القتلى والمشوهين يزيد من لوعات قلوبنا واسانا .

لن يستطيع المبتدأ اجتياز تلك المشاهد التي يزداد فيها الخطر كثافة دون الإحساس بان الافكار محكومة هنا بقوة عوامل اخرى ، اذ يتموج منطق الاشياء بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة المعتادة في التفكير الاكاديمي . وليس بوسع غير الرجل ذو القدرات الاستثنائية المحافظة على قدرته باتخاذ قرارات سريعة سالمة ان لم يكن تعرض لمثل هذه التجربة سابقاً . من المؤكد انه (وبحكم العادة) ، التي اصبحنا معتاديها فان الانطباع الاولي سيختفي ، وسيصعب علينا خلال نصف ساعة متابعة ما يدور حولنا ، ولن يعود بوسع الرجل العادي متابعة حالة عدم اهتمام كاملة بحيث يواصل عقله العمل بمرونة عادية . ندرك هنا ثانية ان المؤهلات الاعتيادية لا تكفي ، وكلما اتسعت منطقة المسؤولية ، كلما اصبح هذا الادراك اشد تأكيداً. لابد من توفر وحضور العناد ، والتهور ، أو الشجاعة الفطرية المتأصلة ، والطموح الطاغي ، او التعايش الطويل الامد مع الخطر – وان يكون هذا الحضور بدرجة معقولة ان لم نرد للعمل في هذا الوسط الواهن ان يتوقف قبل انجازه حتى ليبدو للباحث وكانه ليس اكثر من امر عادي .

الخطر جزء من الاحتكاك[1] Friction في الحرب وبدون مفهوم واضح للخطر فلن نتفهم الحرب ، ولهذا السبب تناولته بالبحث هنا .

---

(١) يبدو لي ان اختيار كلمة Friction (الاحتكاك في الميكانيك) ليست كافية لوصف محيط او اجواء الحرب ، اذ يقتصر في الذهن فعل او مفهوم الاحتكاك على الفعل المادي بينما تختلط في الحرب مجموعة عديدة من التفاعلات والانفعالات. والاحتكاك في خليط كفيل بافقاد اهدأ الناس صبره ، وقد جاء في الفصل المعنون بـ «الحرب هي عالم الاحتكاك » وفي الحاشية ان الجيش الامريكي يستخدم (Friction) بمعنى (Confusion) او (Snafu) التي اثرنا ترجمتها بـ (الاضطرام) راجع Root of strategy, vol, 3 (stackpole Book- Harrisburg , Pa,1991) . المترجم .

الفصل الخامس
حول الجهد المادي

ان لم يكن لاي انسان الحق في اعطاء رأيه في العمليات العسكرية ، ما عدى حين يتجمد ، او ينهار بفعل الحرارة والعطش ، او الحزن والانسحاق بفعل الحرمان والانهاك ، ستكون الاراء الدقيقة الموضوعية حتى اكثر ندرة على ما هي عليه ، الا انها ستكون مع ذلك صالحة موضوعياً على الأقل ، لأن خبرة المتحدث هي التي ستصوغ احكامه بوضوح . ويتأكد ذلك بقوة كافية عند ملاحظة باي قدر من الانتقاص، والحسد واللهفة يتحدث الرجال عن فشلٍ بعض العمليات التي شهدوها ، وتزداد مرارتهم اكثر لو كانوا قد شاركوا فيها فعلاً . ونرى أن ذلك يؤشر مقدار تأثير الجهد المادي المبذول ، ولا يضاح مقدار ما يسمح به في جميع تقاريرنا .

من بين العديد من العوامل التي لا يمكن قياسها في الحرب ، يظل الجهد المادي اكثرها أهمية . وما لم يذهب سدى فان الجهد المادي هو معامل مضاعف لجميع القوى، ولا يمكن القرار على حدوده بدقة ، الا انه هام للغاية ، فكما نحتاج الى احد رماة السهام الاقوياء لشد القوس لاكثر من المعدل الاعتيادي ، سنحتاج الى عقل بالغ القوة ليدفع جيشاً الى حدود طاقته النهائية . وانه لأمر مهم لجيش قد هزم بقسوة ، وتطوقه الاخطار من كل جانب ، وبدأ يتفكك كما يتداعى البناء العتيق ، أن يجد الملاذ الامن في اقصى وآخر مجهود مادي . يختلف الامر كليا بالنسبة للجيش المنتصر الزاهي بفرح وحبور انتصاره وسيضل الة طيعة بين يدي قائده . نفس هذا الجهد الذي لم يكن بوسعه في الحالة الاولى وعلى احسن حال سوى اثارة العطف والشفقة [على المهزوم] ، والذي يثير الاعجاب في الحالة الثانية [الانتصار] وحيث سيكون من الاصعب ادامته .

يبدأ المراقب غير الخبير بادراك أحد العناصر التي يبدو انها تقيد الروح ، وتمزق طاقات الرجال بيد خفية.

رغم اننا نتعامل فقط مع الجهود التي بوسع القائد ان يطلبها من قطعاته ، او من مرؤوسيه من القادة ، وبعبارة أخرى ، ومع اننا نهتم بالشجاعة التي يحتاجها لتأمين المطلوب ، والمهارة للمحافظة على متابعة الاستجابة ، علينا ان لا ننسى الجهد البدني

المطلوب من القائد نفسه ، ما دمنا قد واصلنا تحليلنا للحرب بوعي حتى هذه النقطة ، علينا التعامل مع هذه البقية من النتف كذلك

السبب الذي يحدونا لمعالجة الجهد البدني هنا ، هو انه كالخطر ، وأحد اكبر مصادر الاضطرام في الحرب . وبسبب ان حدوده وابعاده مجهولة فانه يمثل احدى المواد التي تجعل ليونتها من الصعب قياس وتحديد درجة اضطرامها .

لمنع سوء استخدام تلك الملاحظات والتقييمات للظروف الوشيكة للحرب ، لدينا دليل طبيعي من احساسنا . ليس بوسع احد الركون الى التعاطف اذا ما تقبل إهانة أو سوء معاملة لانه اعلن عجزه بدنياً . اما اذا قصد الدفاع او الانتقام لنفسه ، فان الاشارة الى عجزه البدني ستكون لمصلحته. وبنفس الطريقة فليس بوسع القائد ، ولا الجيش ازالة عار الاندحار بالتحجج بالاخطار ، والمصاعب ، والعناء الذي تحملوه ، لكن وكي تصور حالهم اضف الكثير من الامتيازات لصالح المنتصر . لقد منعنا من اعداد بيانات رنانة لتبرير ذلك بمشاعرنا ، التي تعمل هي بدورها كاعلى حكم .

الفصل السادس

الاستخبارات في الحرب

نعني بـ « الاستخبارات » كل انواع المعلومات عن العدو وبلاده – كما انها وباختصار اساس خططنا وعملياتنا – لو تمعنا في الأسس والمصادر الحقيقية لهذه المعلومات ، وكيف انها لا معقولة ومتضاربة فيما بينها ، سرعان ما سندرك أن الحرب بناء هش ويمكن ان ينهار بسهولة ليدفننا تحت انقاضه . تؤكد كراسات التدريب على ضرورة تصديق الاستخبارات المعقولة فقط ، وان نواصل التشكيك بها ولا نركن الى أي شيء منها بسهولة أبداً ، لكن ما جدوى مثل هذه الحكم الواهية : انها من نوع الحكمة القائلة : عند احتياجك لاي شيء ، فمن الافضل أن تسطر مجموعة من القواعد والخلاصات الوافية للرجوع اليها عند نفاذ الافكار .

يتضارب الكثير من تقارير الاستخبارات في الحرب فيما بينها ، حتى ان الكثير منها كاذب ، ومعظم الباقي ليس مؤكداً .اما الشيء المعقول الذي يمكن طلبه من ضابط ما فهو ان عليه امتلاك معيار للأحكام ، يمكن ان يحصل عليه فقط من خلال معرفته بالرجال والقضايا المطروحة ، ومن ادراكه العام وفطنته . كما ينبغي عليه السير وفق قوانين الاحتمالات . وهي قوانين صعبة للغاية في التطبيق ، عندما تعد الخطط في المكاتب وبعيدا عن ساحة واجواء العمل ، ويصبح الواجب صعباً بدرجة لا حدود لها في اجواء القتال الشديد، ومع تواصل سيل التقارير . سيكون المرء محظوظاً لو وصل التناقض حداً تلغي معه التقارير بعضها البعض تاركة نوعاً من التوازن الذي يمكن تقويمه بشكل حاسم وجذري . سيزداد الامر سوءً للقادم الجديد ان لم يسعفه الحظ بالطريقة انفة الذكر ، والا لتوالت التقارير ، يطابق بعضها الاخر ، او يؤكده ، او يضخمه ، او يعدل من الوانه ، حتى يتوجب عليه اتخاذ قرار سريع – سرعان ما سيدرك انه خاطئ ، تماماً وسيكتشف ان التقارير كاذبة ، ومبالغ فيها ، ومغلوطة ، وما شاكل ذلك، الخلاصة ان معظم الاستخبارات خادعة ، وسيدفع تأثير الخوف الى تضخيم الاكاذيب والتخيلات . سنرى وكقاعدة أن معظم الرجال يميلون الى تصديق الانباء السيئة اكثر من الجيدة ، بل ويميلون الى المبالغة ومضاعفة الانباء السيئة . الخطر هنا ان التقارير سرعان ما تخبو وتضمحل كالامواج ، الا انها وكالامواج ايضاً تستمر بلا انقطاع ، دون سبب واضح . على القائد الوثوق باحكامه وان يصمد كالصخرة التي تتحطم

عليها الامواج ، وليس ذلك بالامر اليسير كما يبدو ما لم يكن تحت تصرفه طوق نجاه ، فما لم تعلمه تجارب الحرب ، وما لم تنضج وتهذب قوة الحكم فيه ، فالافضل له وكقاعدة ان يكبح جماح قناعاته الشخصية ، ويحول منافع الشك صوب اماله لا مخاوفه وهكذا فقط بوسعه المحافظة على توازن معقول .

تشكل صعوبة **الادراك الدقيق** هذه ، أحد أهم مصادر الاضطرام في الحرب، بجعل الاشياء تبدو بشكل مختلف كلياً عما كان المرء يتوقعه .ان الاحساس لا التفكير المنظم هو الذي يولد الانطباعات الاكثر حيوية – والى الحد الذي اشك فيه أن يشن القائد عملية مهما كان حجمها ما لم يضطر الى كبح هواجسه وشكوكه منذ البداية . يميل الرجال العاديين الذين يتبعون مبادرات الاخرين الى فقدان ثقتهم بانفسهم عند الوصول الى ساحة العمل ، فالاشياء لم تكن كما كانوا يتوقعون . وستظل حالهم على ما هي عليه طالما تركوا للآخرين ان يتحكموا فيهم . لكن حتى الرجل الذي خطط العملية وينظر اليها الان وهي قيد التنفيذ ، قد يفقد هو الاخر ثقته باحكامه الاولية ، رغم ان الاعتماد على النفس افضل دفاع ضد ضغوط اللحظة . للحرب طريقة بتطويق المسرح بمشاهد وحشية ملطخة باشباح الرعب . وحال استبعاد مثل هذه المشاهد وينجلي الافق ، ستؤكد له الاحداث والتطورات قناعاته الاولية – انها احدى اكبر الفجوات ما بين التخطيط والتنفيذ .

الفصل السابع
الاضطرام في الحرب

ان لم يخض المرء غمار الحرب بنفسه فليس بوسعه تفهم كيفية تكون المصاعب التي ذكرناها وبشكل ثابت ومستمر ، ولا لماذا يحتاج القائد الى اي براعة وقدرات استثنائية. اذ يبدو كل شيئ بسيطاً ، ولا تبدو المعرفة المطلوبة شيئاً ملحوظاً وذو اهمية، والخيارات الاستراتيجية واضحة المعالم جداً حتى ان مقارنتها مع ابسط معضلات الرياضيات العليا يترك انطباعاً بالاهمية العلمية . حالما تبدأ الحرب فعلاً تغدوا المصاعب واضحة ؛ لكن ما زال من الصعب جداً وصف ما لا يُرى ، اي تلك العناصر المتناثرة هنا وهناك والتي تسبب هذا التغيير في المخطط العام .

كل شيء في الحرب بسيط [1] ، الا ان ابسط الاشياء صعب . تتراكم المصاعب وتنتهي بخلق نوع من الفوران الذي تصعب رؤيته ما لم يكن المرء قد جرب الحرب بنفسه . لنتصور مسافراً تأخر في النهار فقرر قطع مرحلتين اضافيتين قبل قدوم الليل . قد لا يتطلب الامر سوى اربع او خمس ساعات أخرى في المسير على طريق معبد بعد استبدال الخيول المتعبة ؛ ما اسهلها من رحلة . لكن وفي المحطة التالية لا يجد المسافر خيولاً مرتاحة ، بل بضعة افراس متعبة ؛ وتبدأ الارض بالوعورة والارتفاع ، وتسوء حالة الطرق ويبدأ الظلام ، واخيراً فانه وبعد هذه المصاعب المتعددة سيسعده جداً عثوره على مكان للراحة حتى بابسط متطلبات الاقامة والمبيت . وذلك مشابه كثيراً لما يحدث في الحرب . حيث ما لا حصر له من الحوادث الصغيرة – مما لا يخطر على بال أحد تصور وقوعه – والتي تسهم مجتمعة في خفض المعدل العام للأداء ، بشكل يتعذر معه على المرء دائما تحقيق الهدف المنشود . الارادة الحديدية قادرة على التغلب على هذا الفوران ؛ وتجاوز جميع الموانع ، الا انها تضعف وتنهك ماكنة الاداء كذلك . ينبغي علينا العودة غالباً الى هذه النقطة . فالروح الابية الطموح ستسيطر على فن الحرب كما تعلو المسلة على الساحة الرئيسية في المدينة وحيث تلتقي وتتفرع كل الطرق .

(١) كالافعى في نعومة الملمس والسم القاتل وكالبحر الهادئ السطح الهائج الاعماق . المترجم .

الاضطرام هو المفهوم الوحيد تقريباً المتعلق بالعوامل التي تميز الحرب الحقيقية عن حرب نظرية تسطر على الورق . فالالة العسكرية – الجيش وكل ما يخصه – اساساً بسيطة للغاية لذلك يبدو من السهل معالجتها وادارتها . لكن ينبغي علينا ان نتذكر بان جميع مكوناتها لا تتألف من قطعة واحدة ؛ اذ يتألف كل جزء من مجموعة وحدات اصغر ، ولكل منها قوته المحتملة للأحتكاك ، ويبدو ذلك من الناحية النظرية معقولاً بشكل كاف ؛ فواجب أمر الفوج هو تنفيذ ما يصدر اليه من اوامر ، والضبط يكتل الفوج معاً ، ولابد ان يكون أمره رجلاً قد تأكدت قدراته ، وهكذا يستمر الشعاع العظيم في دورانه حول المحور الحديدي باقل قدر من الاحتكاك . الا ان الامر في الحقيقة مختلف ، فكل خطأ او مبالغة في النظرية تنكشف على الفور في الحرب . فالفوج مؤلف من افراد بوسع اقلهم اهمية ولو صدفة عرقلة الاشياء ، او جعلها تنحرف خطأ عن مسارها . لا ينفصل الخطر عن الحرب ، والجهد البدني الذي تريده الحرب يمكن أن يزيد من تفاقم المعضلة الى حد يبدو وكانه السبب الرئيسي وراءها .

هذا الاحتكاك الهائل الذي لا يمكن ، وكما في الميكانيك تقليصه إلى بضعة نقاط ، هو في كل مكان وعلى تماس مع الصدفة متسبباً في تأثيرات يصعب قياسها ، لا لشيء الا لكونها اكبر من الصدفة . واحدها هو ، وعلى سبيل المثال ، الطقس . فالضباب يمنع رصد العدو في الوقت المناسب ، والمدافع من الرمي في الوقت الضروري، والتقارير من الوصول الى القادة . والمطر يمكن ان يمنع وصول الفوج ، مسببا تاخيراً اخراً باحتجاز الفوج ، فيصبح وقت المسير لا ثلاث بل ثماني ساعات ، كما يتسبب المطر بافشال صولة الخيالة بعد ان غاصت الخيول في الاوحال .. الخ .

لقد قدمنا هذه الامثلة ببساطة لتصوير الموقف بشكل مبسط يساعد القارئ على متابعة المناقشة ، وسنحتاج الى مجلد كامل لتغطية جميع الصعوبات الاخرى ، ونستطيع اجهاد القارئ حتى النهاية بسرد تفاصيل مثل هذه الصور فقط لو حاولنا معالجة جميع تلك المشاكل الصغيرة التي لابد من مواجهتها في الحرب . ويعذرنا القراء الذين عرفوا مقدما ما الذي نعنيه ولن تزعجهم الامثلة القليلة التي اوردناها .

العمل في الحرب كحركة في وسطٍ مقاوم . وكما يحدث مع ابسط الحركات واكثرها طبيعية ، اي المسير ، الذي لا يمكن انجازه ببساطة في الماء ، وكذلك الحال في الحرب اذ يصعب على الجهد الطبيعي تحقيق نتائجاً متوسطة حتى. يشبه المنظر العبقري معلم السباحة الذي يعلم تلاميذه ممارسة السباحة على الارض على افتراض ادائها في

الماء . وستبدو مثل هذه الحركات لمن لم يفكروا بالسباحة ، غريبة ومثيرة للسخرية ومبالغ فيها . للسبب نفسه فالمنظر الذي لم يسبح ابداً ، او الذي لم يتعلم استقراء التجارب ، ليس سوى خيالي وأحمق ؛ فهم لا يعلمون الا اشياء مبتذلة معروفة للجميع: كيف تسير .

اكثر من ذلك ، فكل حرب غنية بالمآسي الفريدة ، وكل منها بحر لم يسبر غوره ومليء بالصخور الناتئة . قد يتحسب القائد لمثل هذه النتوئات الصخرية حتى قبل أن يراها ، عليه الان قيادة سفينته عبر تلك الصخور في الظلام، فلو هبت رياح معاكسة ، وحدثت احدى الصدف المزعجة فسيحتاج الى اعظم المهارات والى جهده الشخصي وكلما يسعه احضاره من قوة عقلية ، رغم ان كل شيء بيد وعلى ما يرام ويسير بسهولة للناظر من بعيد. يشكل تفهم الاحتكاك جزءً كبيراً من ذلك الشيء العجيب ومحط الاعجاب الا وهو معايشة والاحساس بالحرب الذي يفترض بالقادة العظام امتلاكه . وافضل القادة بلا ريب ليس هو الاكثر تعوداً على فكرة الاحتكاك ، او الذي يتعامل معه بجدية (وهذا هو من النوع القلق وهو النوع الشائع بين القادة المجربين). على القائد الجيد معرفة الاحتكاك كي يتغلب عليه متى امكنه ذلك ، ولا جل ان لا يتوقع مستوى قياسياً من الانجاز في عملياته اذ يحول هذا الاحتكاك دون ذلك ويجعله مستحيلاً. يمكن القول عرضا انه قوة (عامل) يصعب على النظرية تعريفه بدقة ابداً. وحتى لو استطاعت فستظل هناك حاجة لتطوير القدرات الطبيعية والبراعة ، كما ان نوعاً من الاجتهاد والقرار اكثر ضرورة في ميدان يعج بما لا نهاية له من المعوقات الصغيرة ، اكثر جداً مما في موضوعات خطيرة وكبيرة تحل بتمعن، على انفراد او بالمناقشة مع اخرين . وكما هو الحال مع الرجل المجرب ، اذ تصبح المقدرة، الطبيعية بحكم العادة تقريباً ، اذ يعمل ، ويتكلم ، ويتنقل على افضل ما يرام ، وعليه فالضابط المجرب فقط سيتخذ القرار الجيد في القضايا الصغيرة والكبيرة – في كل نبضة من نبضات الحرب . تحدد الممارسة والخبرة الجواب : هذا ممكن ، وذاك لا وهكذا نادراً ما يرتكب اخطاءً خطيرة ، اخطاء كالتي يمكن ان تؤدي في الحرب الى زعزعة الثقة ، ويمكن ان تغدو خطيرة للغاية ان تكررت .

الاضطرام ، كما اخترنا ان نسميه ، هو العامل او القوة التي تجعل ما يبدو بسيطاً، صعب جداً لذا ينبغي علينا العودة الى هذا الموضوع غالباً ، وسيتضح لنا ان القائد الفذ في حاجة لاكثر من الخبرة والرغبة القوية ولابد له من قدرات استثنائية كذلك .

الفصل الثامن

ملاحظات استنتاجية عن الكتاب الأول

لقد اعتبرنا الخطر ، والجهد البدني ، والاستخبارات والاضطرام الهائل (Friction) على انها العناصر التي تشكل مجتمعة مناخ الحرب ، وتحولها الى وسط معيق للفعالية ، وبسبب تأثيراتها المحددة يمكن جمعها في مفهوم واحد هو الاضطرام العام . فهل هناك من « زيت Lubricant » لتقليل التأكل ؟ هناك واحد فقط ، وليس متوفراً لدى قائد ما ولا عند جيشه ، وعلى الدوام ، انه : الخبرة القتالية (Combat experience)

﴿تقوي العادات جسم الانسان ، وتعينه على تحمل المزيد من الاجهاد ، كما تقوي القلب وقت الشدائد ، وتحصن قوة الحكم ضد الانطباعات الاولية . كما تولد او تخلق العادات تلك الميزة التي لا تقدر بثمن ، وهي الهدوء ، الذي ومروراً من «الخيّال» الى جندي البندقيات وصعوداً حتى القائد نفسه ، سيسهل مهمة القائد كثيرا. ﴾

يتصرف الجندي المتمرس في الحرب بطريقة مشابهة لعمل العين البشرية في الظلام ، اذ تتسع حدقة العين لتسمح بدخول اي بصيص من النور ، ثم تبدأ بتمييز الاشياء بالتدريج ، حتى تراها بوضوح اخيراً ، وعلى العكس من ذلك حال غير المجرب الذي سيسقط في الظلام الدامس .

ما من جنرال قادر على تعويد جيشه على الحرب . والمناورات التي تجريها القطعات وقت السلم بديل ضعيف للحقيقة ، الا انها ستمنح الجيش الذي يجري مثل تلك المناورات ميزة ملحوظة بالنسبة للجيوش التي يظل تدريبها روتينياً ومجرد سياقات آليه رتيبة . فاعداد وتخطيط مناورة بشكل يظهر فيها بعض عناصر الاضطرام التي تُدرّب وتنمي قوة الحكم والادراك العام والعزم في الضباط تعد مشروعاً مهما وبالغ الحيوية ، ويستحق كلما يبذّل لاجله وباكثر مما قد يتصور بعض من لم يروا الحرب باعينهم أو عديمي الخبرة ، ومما له اهمية بالغة ان لا ينتظر اي جندي ومهما كانت رتبته ، الحرب كي تعرض له تلك الجوانب التي تدهشه وتربكه في الخدمة الفعلية وذلك عند مجابهته لها وجهاً لوجه لأول مرة ولو كان قدرأها ولو مرة واحد قبلاً لبدأ التعود عليها وبات وقعها اخف كثيراً ، وتلك حقيقة تنطبق حتى على الجهد البدني لذا لابد من

ممارسة الجهد ولابد من جعل العقل اكثر تعايشاً مع هذا النوع من الممارسة واكثر من البدن حتى . عندما يتطلب الحال في الحرب بذل جهود استثنائية ، فحري بالمجند الظن بان ذلك ليس سوى نتيجة لبعض الأخطاء او الحسابات المغلوطة او الارتباك في قدمات القيادة العليا . ونتيجة لذلك فقد تخفض معنوياته بحدة مضاعفة . فان استهدفت المناورة تهيئته لبذل الجهد المطلوب فسوف لن يتحقق ذلك .

الطريقة المفيدة الاخرى وان كانت اكثر تحديداً في خلق التعود (المعايشة) مع الحرب في زمن السلم هي باستدعاء ضباط اجانب شاركوا في خدمة فعلية . فلم يرفرف السلام دوما على اوربا ، ولا حتى في العالم اجمع . وعلى الدولة التي عاشت بسلام لسنين عديدة محاولة استدعاء ضباط مجربين – على ان يكونوا بطبيعة الحال من ذوي الخدمة المتميزة .والاسلوب البديل هو بان ترسل بعضاً من ضباطها لحضور ومراقبة عمليات الجيوش الاخرى كي يتعلموا ما تعنيه الحرب .

مهما قل عدد مثل هؤلاء الضباط بالنسبة لجيش ما ، فان تأثيرهم يمكن ان يكون ملموسا، فخبراتهم ، ونفاذ بصيرتهم ، ونضج وقوة شخصياتهم ستؤثر كثيراً في مرؤوسيهم وفي زملائهم من الضباط . وحتى لو لم يحصل هؤلاء على مناصب قيادية عليا فينبغي اعتبارهم موجهين يعرفون البلاد جيداً ، ويمكن استشارتهم في احداث وحالات خاصة .

الكتاب الثاني

في

نظرية الحرب

الفصل الأول
تصانيف فن الحرب

الحرب هي ومن حيث الاساس « قتال Fighting » ، لان القتال هو المبدأ المؤثر الوحيد في الانشطة المتنوعة لما يعرف بالحرب . والقتال بالمقابل تجربة للقوى المعنوية والمادية خلال وسط مادي . لا يمكن استبعاد القوة المعنوية بطبيعة الحال ، إذ تمارس العوامل النفسية تأثيرا حاسماً على العناصر المكونة للحرب .

الحاجة الى القتال قادت الإنسان وبسرعة الى اختراع الوسائل المناسبة لجني الفوائد في القتال ، كما احدثت تلك الوسائل بدورها تغييرات كبيرة في اشكال القتال. وبغض النظر عن الكيفية التي تبلور فيها مفهوم القتال فقد ظل هذا دون تغيير . وهذا ما نعنيه بالحرب .

تشمل اولى المبتكرات ، على الاسلحة ، والمعدات المستخدمة من قبل الافراد المقاتلين ، فقد تطلب الامر إنتاجها وفحصها قبل بدء الحرب ، كما روعي تلائمها وطبيعة القتال الذي بدوره يتحكم في تصميمها . ومع ذلك فمن الواضح ضرورة تمييز تلك الفعالية عن المعنى الدقيق للقتال ؛ فهي ليست سوى تمهيد أو استعداد له، لا ممارسته. ولا شك بان الاسلحة والمعدات ليست من اساسيات القتال طالما أُعتبرت المصارعة كاحد انواع القتال .

يقرر القتال ويتحكم في طبيعة الاسلحة المستخدمة ، وتؤثر هذه بدورها على القتال ، وهكذا ، نرى ان هناك تفاعلاً متبادلاً بين الاثنين .

الا أن القتال بالمعنى الدقيق يظل فعالية متميزة ، ويزداد ذلك وضوحاً كلما ترافق ذلك مع عامل غريب آخر - أي الخطر .

وهكذا ، فان كان لابد من التمييز ما بين الفعاليتين ، فسنجد ذلك التمييز هنا . ولأيضاح الاهمية العملية لهذه الفكرة ، يكفي ان نتذكر كيف يبدو الرجل الكفوء في ميدان ما ، عاجزاً وبلا فائدة في مجالات اخرى .

في الحقيقة ، ليس من الصعب ابداً التمعن في تلك الفعاليتين كلا على حدة ، اذا تقبل المرء فكرة ، أن قوة مقاتلة ما مسلحة ومجهزة كما هي عليه: كوسيلة لا يحتاج المرء لمعرفة أي شيء عنها، عدى تأثيرها الرئيسي ، من اجل استخدامها بالشكل المناسب .

لذلك ، ففن الحرب اساساً ، هو فن استخدام الوسائل المقررة في القتال ؛ وما من مصطلح افضل لوصفه من **ادارة الحرب** التي تشتمل في اوسع معانيها بكل تأكيد فن الحرب وجميع الأنشطة التي تخص الحرب كانشاء وتدريب وتطوير وتسليح وتجهيز القوات المقاتلة .

من الضروري لشرعية النظرية التمييز ما بين ذينيك الفعاليتين . ومن السهل رؤية ان فن الحرب يبدأ دائماً بانشاء قوات مسلحة ، واعدادها وفقاً لمتطلبات موقف خاص ، كما يمكن استخدامها فقط في عدد من الحالات تكون فيها القوات الميتسرة متناسبة ومتطلبات الموقف . من الناحية الاخرى فلو اراد المرء نظرية صالحة للقسم الاعظم من الحالات ، وليست غير مناسبة كلياً لاي من الحالات ، فلابد أن تستند على اكثر الوسائل ذات العلاقة ولاكثر تأثيراتها اهمية .

لذا تتضمن ادارة الحرب في تخطيط وادارة القتال . واذا اقتصر القتال على عمل منفرد فما من حاجة الى تقسيمات فرعية اخرى . الا انه يتألف من عدد يزيد أو ينقص من **الاعمال المنفردة ، كل منها تام بذاته** ، والتي وكما اشرنا اليها في الفصل الاول من الكتاب الاول ، تدعى « اشتباكات» وتشكل كيانات (entity) جديدة. وهذا يفتح الباب لفعالية مختلفة كلياً **في تخطيط وتنفيذ تلك الاشتباكات نفسها وكذلك في تنسيقها مع بعضها البعض** من اجل تعزيز هدف الحرب . سمي احدهما **التعبية** ، والاخر **الاستراتيجية** .

اصبح التمييز بين التعبية والاستراتيجية الان عالميا تقريباً . ويعرف كل امرؤ الى اين يعود كل عامل منفرد دون ان يفهم بوضوح سبب ذلك . وطالما باتت مثل هذه التقسيمات تستخدم دون تدقيق ، فلابد من أرساء اسباب منطقية ومقنعة لذلك . لقد حاولنا تحديد هذا التميز ، وبوسعنا القول انه يكمن في هذا الاستخدام العام الذي يقود إليه . ونرفض من الناحية الاخرى تلك التعاريف المصطنعة التي جاء بها كتاب معينون نظراً لانهم لم يتمعنوا في الاستخدام العام لهما .

فالتعبية ، وفقاً لتقسيمنا **تعني استخدام القوات المسلحة في الاشتباك** ، اما **الاستراتيجية ، فهي استخدام الاشتباكات من اجل هدف الحرب .**

ان مفهوم اشتباك منفرد ، او مستقل بذاته ، والشروط التي يعتمد عليها في توحده ، يمكن تحديدها بدقة فقط بعد تفحصها بانتباه وعن كثب . ونكتفي الان بالقول انه وفيما يخص المسافة (Space) – اي حول تزامن الاشتباكات – فان وحدتها مؤكدة بنطاق **القيادة الشخصية** . اما من حيث الوقت – اي التتابع القريب للأشتباكات – فهو متواصل حتى تجاوز نقطة التحول التي تميز جميع الاشتباكات .

قد تكون هناك حالات مشكوك فيها – منها على سبيل المثال امكانية اعتبار عدد من الاشتباكات كاشتباك واحد . الا ان ذلك لن يغير اسس تقسيماتنا ، نظراً لانطباق هذه النقطة على جميع الاساليب العملية للتقسيم ، حيث يتبدى التمييز تدريجياً على مقياس تنازلي . وهكذا فقد تكون هناك اعمال مفردة قد تعود ، وبدون اي تحول في وجهة النظر ، اما الى الاستراتيجية او الى التعبية ، وعلى سبيل المثال ، المواضع الواسعة جداً والتي هي اكبر قليلاً من سلسلة مواضع ، أو استحضارات لاحدى عمليات عبور الانهر .

ينطبق التصنيف الذي اخترناه فقط على **استخدام واستنفاذ القوات المقاتلة**. كما تخدم الحرب بالعديد من الانشطة التي تختلف عنها تماماً ، للبعض منها علاقة وثيقة ، بينما البعض الاخر بعيداً جداً ولكل هذه الانشطة صلة **بادامة القوات المقاتلة** . وفي الوقت الذي يسبق فيه انشاء القوات المسلحة استخدامها الفعلي ، تكون الادامة عمل متواصل وشرط ضروري لها . ومع ذلك يمكن القول حصراً بان كل هذه الانشطة مما ينبغي اعتبارها كفعاليات سابقة للمعركة ، ومن نوع وثيق الصلة بالعمل ، لانها جزء من العمليات العسكرية وتنظم مع **الاستفادة الفعلية** . وهكذا فللمرء الحق في استبعادها وجميع الانشطة التمهيدية الاخرى من المفهوم الدقيق لفن الحرب – اي الادارة الفعلية للحرب . وعلينا فعل ذلك حقاً ان اردنا للنظرية ان تؤدي دورها في خدمة الهدف الاساسي في **التمييز ما بين العوامل المتباينة** . ولا يحتاج المرء الى التمعن في كافة جوانب اعمال الادامة والشؤون الادارية ، كجزء من **الادارة الفعلية للحرب** . رغم ان لهذين الامرين صلة وثيقة وتفاعل مع الاستفادة من القطعات ، الا انهما مختلفان جداً من حيث الاساس .

لقد اوضحنا في الفصل الثالث من الكتاب الاول أنه **لو عرف** القتال او الاشتباك على أنه وحده الفعالية المؤثرة فسيشمل ذلك جميع خطوط الفعاليات والانشطة الاخرى لانها تؤدي كلها الى القتال . يعني ذلك أن جميع تلك الانشطة محددة بالغرض الذي عليها العمل لاجله ، كلا وفقاً لقانونها الخاص بها . ولنتمعن في هذا الموضوع بمزيد من التفصيل المدروس .

الانشطة التي تظهر بالاضافة الى الاشتباك تختلف كثيراً.

يعتبر بعض تلك الانشطة من ناحية ما ، جزءً من القتال بمعناه الدقيق ويتطابق معه، بينما تعتبر من ناحية اخرى في خدمة ادامة القوات المقاتلة . تقتصر علاقة البعض الاخر من تلك الانشطة بالادامة فقط ، والتي لها تأثير على القتال بسبب تفاعلها مع نتائجه فقط .

اما الامور التي تعد جزءً من القتال بشكل ما فهي ، **المسير** ، **والتعسكر** ، **والايواء** «Billets»[1] ، ويتعلق كل منها بصفحة منفصلة من وجود «Existence» القطعات، وعندما يفكر المرء بالقطعات فلابد من حضور فكرة القتال امامه على الدوام.

تتعلق الامور الاخرى بالادامة فقط ، وتشمل ، **التموين**، **والخدمات الطبية**، **وادامة الاسلحة والمعدات** .

تتطابق المسيرات تماماً مع استخدام القطعات ، والمسير **في الطريق للأشتباك** (ما يعرف عادة بالانفتاح)[2] «Deployment» بينما لا يستلزم ذلك ، الاستخدام

---

(١) «الايواء» تفريقاً له عن « المأوى » الذي تستخدمه القطعات للمبيت وانجاز بعض الامور الادارية وحتى الاختباء قبل الهجوم اما الايواء فاسلوب في اعاشة واسكان القطعات لم يعد قيد الاستعمال ويتم توزيع المقاتلين باعداد مناسبة لحجم وقدرة البيوت التي سيقيمون فيها طول توقف الوحدة في المنطقة ويتحمل اهل البيت نفقات اقامتهم – المترجم .

(٢) الانفتاح او (Evolution) في الالمانية ويشير الى انفتاح القطعات ضمن المعركة كنقيض للمناورات العامة للعمليات – (المشرف) . يشمل الانفتاح كافة الاعمال التي تجريها القطعات من لحظة استلامها الامر الانذاري «Warning Order» بالتهيؤ لتنفيذ مهمة ما ، وحتى الخطوة الاخيرة التي تسبق الاشتباك بالعدو وهي اكمال احتلال الموضع الدفاعي في الدفاع والوصول الى خط الشروع «Start line» في الهجوم ، وتعرف كافة هذه الاعمال بسياقات الانفتاح وتعد جزءً مهماً من الاوامر الثابتة (S.O.P) للوحدة والتي يفترض ان تنفذ تلقائياً اختصاراً للمزيد من الاوامر وتجنباً لاي تفاوت في اعمال الوحدات – المترجم .

الفعلي للأسلحة فهو قريب جداً ولا يمكن فصله عنه وكأنه جزء اساسي مما يعد اشتباكاً. اما المسير الذي لا ينفذ على طريق اشتباك ما فهو وببساطه جزء من خطة استراتيجية. تقرر هذه **متى ، واين ، ومع اي قوات تقرر خوضها الاشتباك** . والمسير هنا وسيلة فقط لتنفيذ خطة ما .

والمسير الذي ليس جزء من اشتباك فهو اذن اداة للأستراتيجية ، الا انه ليس من قضايا الاستراتيجية حصراً . ونظرا لان القوات المنفذة للمسير قد تتورط في اي لحظة باشتباك ما ، لذا يخضع تنفيذ المسير هنا الى قوانين التعبية والاستراتيجية معاً . لو أمر احد الارتال بالسير على طريق محاذٍ لنهر أو سلسلة تلال ، فذلك تدبير إستراتيجي، ويتضمن ذلك ، ان كان لابد من خوض اشتباك على خط المسير فالافضل ان يتم ذلك على الجانب القريب لا البعيد [للعارضتين] .

من الناحية الاخرى ، فان سلك رتل ما طريقاً قرب خطوط مرتفعات بدلاً من الطريق المار في الوادي ، او الانقسام الى ارتال صغيرة تسهيلاً للأمر ، فتلك كلها تدابير تعبوية: تتعلق **بالطريقة** التي تستخدم فيها القطعات عند وقوع اشتباك ما .

تتناول الاوامر الداخلية للتنقل دون شك القواعد الثابتة ذات العلاقة بدرجة الاستعداد للقتال وهي لذلك ذات طبيعة تعبوية ، وهي لا اكثر من الترتيب الاساسي الاول لمجابهة اي اشتباك محتمل .

المسير هو الاداة التي تمارس بها الاستراتيجية عناصر تأثيرها ، اي الاشتباك من خلاله . الا ان تلك التأثيرات كثيرا ما تتضح في نتائجها وليس خلال مسارها الفعلي . لذلك فلا مفر من الوقوع عند مناقشة الالة في اشكال ، والخلط بينها وبين العناصر المؤثرة . فقد يتحدث المرء عن مسيرات حاسمة نفذت ببراعة بينما يعني في الحقيقة مجموعة الإشتباكات التي ادت او انتهت اليها . هذا التبدل في المفاهيم أمر طبيعي ، كما ان الايجاز في التعابير امر مرغوب فيه كثيراً ولا داع للتغيير . وليس ذلك سوى تداخل سلسلة من الافكار ، ولابد للمرء ان يتمسك بالمعنى الدقيق نصب عينيه تجنباً لاية عثرات .

يقع خطأ مثل هذا عندما نعتقد بان للتراكيب الاستراتيجية قيمة ما بغض النظر عن نتائجها التعبوية . قد يجري احدهم مسيرات ، وقد ينفذ مناورات ، ويحقق اهداف دون خوض معركة ، ومن ثم يستنتج ، أن من الممكن دحر العدو دون قتال .

لكن وفي المراحل الاخيرة من كتابنا هذا فقط سنكون قادرين على اظهار الابعاد والمضامين الكبيرة لهذا الخطأ .

رغم امكانية اعتبار المسير جزءاً متمماً للقتال ، لكن لا علاقة لجوانب معينة منه بذلك ، فهو لذلك ليس تعبوياً ولا استراتيجياً . تشتمل تلك الجوانب على كافة التدابير التي تتخذ من اجل راحة القطعات فقط ، كتعبيد الطرق ، وانشاء الجسور وغير ذلك . وتعد كلها من الاستعدادات المسبقة لكن وتحت ظروف معينة قد تكون وثيقة الصلة باستخدام القطعات ، ومتطابقة عملياً معه – وعلى سبيل المثال عند انشاء جسر ما تحت رصد العدو . الا ان تلك الانشطة تختلف وبشكل اساسي عن ادارة الحرب ، كما لا تندرج تلك الانشطة ضمن نظرية الحرب .

يستخدم مصطلح «التعسكر Camp » للتعبير عن اي تحشد للقطعات استعداداً لعمل ما ، وتمييزاً لذلك عن « الايواء Billets » . فالمعسكرات هي اماكن للراحة والتعويض (سد النقص) ، كما تتضمن رغبة استراتيجية للقتال حالما تدعو الحاجة الى ذلك . الا ان اماكن المعسكرات تحدد وترسم الخطوط الاساسية للأشتباكات – وتعد هذه الخطوط شرطاً رئيسياً لكل الاشتباكات الدفاعية . لذا فهي تعد اجزاء اساسية من التعبية والاستراتيجية في آن واحد .

تستبدل المعسكرات بالايواء متى ما احتاجت القطعات الى المزيد من التعويض وسد النقص . لذا فهي كالمعسكرات ايضاً ، استراتيجية في مواقعها واتساعها ، وتعبوية في تنظيمها الداخلي الذي يتلائم والاستعداد للعمل .

المعسكرات والمأوي ، وكقاعدة بطبيعة الحال ، يخدمان وبالاضافة الى اراحة القطعات ، غاية اخرى ، كأن تكون على سبيل المثال حماية منطقة معينة ، او الاحتفاظ بموقع ما . وقد يكون الغرض وببساطة مجرد اراحة القطعات . علينا ان نتذكر بان الاستراتيجية قد تسعى وتتابع مجموعة واسعة ومتنوعة من الاهداف فاي شيء يمكن ان يوفر ميزة أو فائدة ما ، يمكن ان يغدو هدفاً لاشتباك ما ، كما ان ادامة الة الحرب غالباً ما تغدو هي نفسها هدفاً لتركيب استراتيجي معين .

لذا وفي حالة اقتصار الغاية الاستراتيجية بالمحافظة على القطعات ، فلا حاجة بنا الى التوغل بعيداً ، فما زال استخدام القطعات هو صلب الاهتمام لان ذلك هو ما يقرر نشرها في اي مكان من مسرح الحرب .

من ناحية أخرى فان ادامة القطعات في المعسكر او المأوى قد يتطلب بعض الفعاليات التي لا تشكل اساساً لاستخدام القوات المقاتلة ، كانشاء الملاجئ ، وتثبيت الخيم وخدمات التموين والطبابة ، وتلك انشطة ليست تعبوية ولا استراتيجية بطبيعتها .

وحتى التخندق والتحصينات وتغيير مواضعها واستحضاراتها وكما هو واضح جزء من نظام المعركة وبالتالي تعبوية ، إلا انها ليست جزءً من ادارة الحرب **بقدر تعلق الامر بحقيقة انشائها** . وعلى العكس من ذلك فلابد من تعليم القطعات المهارات الضرورية والمعلومات كجزء من تدريبها . وهي امور بديهية في نظرية القتال .

من بين الانشطة والموضوعات التي تتعلق بالاشتباكات وتخدم مهمة ادامة القطعات فقط ، فان التموين «Supply» هو الامر الذي يؤثر وبشكل مباشر جداً على القتال . وهو امر متواصل ويحدث في كل يوم تقريباً ويؤثر على كل فرد ، وبهذا فهو يتخلل وبكل وضوح في الجوانب الاستراتيجية لكل عمل عسكري . والسبب في ذكرنا للجوانب الاستراتيجية هو ان مسار وطبيعة تموين اي شتباك نادراً ما تسبب تغييرا ما في الخطط الموضوعة – ولو ان تغييرا كهذا يظل ممكناً تماماً – لذلك سيكون التفاعل المتبادل سمة غالبة ما بين الاستراتيجية وقضايا التموين ، وما من شيء اكثر شيوعاً من ملاحظة ان اعتبارات التموين تؤثر على الخطوط والملامح الاستراتيجية للحملة او للحرب . مع ذلك ، وبغض النظر عن اهمية وحجم ونطاق تلك الاعتبارات، فان مهمة تموين القطعات تظل فعالية منفصلة اساساً عن استخدام القطعات، اما تأثيراتها فتظهر في نتائج استخدام القطعات فقط .

العمل الاداري الآخر الذي ذكرناه، يعد حتى ابعد كثيراً عن عملية استخدام القطعات ، فمع ان الخدمات الطبية ضرورية جدا لسلامة الجيش فان تأثيرها لا يتضح الا من خلال شريحة صغيرة من رجاله، لذا فليس لها سوى تأثير ضعيف وغير مباشر على استخدام الاخرين والافادة منهم . اما ادامة المعدات ، فبالاضافة الى كونها مهمة ثابتة للقوات المقاتلة ، فانها تجري دورياً وفي فترات ، لذا فنادراً ما تؤخذ في الحسابات الاستراتيجية .

علينا عند هذه النقطة توخي عدم الوقوع في سوء فهم . ففي اية حالة تؤخذ على انفراد قد تكون تلك الامور حاسمة في اهميتها حقاً فالمساحة التي يقرر على ضوءها انفتاح مستودعات التموين والمستشفيات، قد تصور لنا وبسهولة السبب الذي يكمن وراء أية قرارات استراتيجية مهمة – ولا نريد تجاهل او تقليل قيمة هذه الحقيقة .

ومع ذلك فلسنا هنا بصدد الظروف الحقيقية لاية حالة منفردة ، وما يهمنا هو النظرية البحت . لذلك فنقطة الخلاف هي ان هذا النوع من التأثير نادر الوقوع لذا فما من حاجة بنا لاعطاء موضوع الخدمات الطبية وسد نقص العتاد اي مكانة بارزة في نظرية ادارة الحرب . لذلك وخلافاً لتموين (اعاشة) القطعات ما من حاجة كما يبدو لدمج مختلف الطرق والمنظومات التي قد تطرحها تلك النظريات ولا حتى نتائجها في نظرية ادارة الحرب .

والخلاصة . فقد رأينا بوضوح ان الانشطة التي تميز الحرب قد تنقسم الى مجموعتين رئيسيتين : تلك التي **تعد مجرد استحضارات للحرب ، والحرب نفسها** . ولابد من وضع نفس هذا التميز في النظرية نفسها كذلك .

اما المعرفة والمهارة الخاصتين بالاستحضارات فستدرس سوية مع انشاء وتدريب وادامة القوات المقاتلة . وليس مهما الاسم أو العنوان الذي نضعه لها ، الا ان من الواضح ضرورة أن تشمل موضوعات وامور كالمدفعية والتحصينات ، وما يعرف بالتعبية الاساسية ، وكذلك الشؤون الادارية والتنظيمية للقوات المسلحة وغير ذلك. تهتم نظرية الحرب الدقيقه ، من الناحية الاخرى باستخدام تلك الوسائل ، حال تهيئتها للاغراض الحربية . وكلما هو مطلوب من المجموعة الاولى هو النتيجة النهائية ، وتفهم لسماتها الرئيسية . وهذا ما ندعوه بـ « فن الحرب » بالمعنى الضيق ، او «نظرية ادارة الحرب» ، او « نظرية استخدام القوات المقاتلة » ، وهي ولاغراض هذه المناقشة لها المعنى ذاته .

تتعامل تلك النظرية المحدودة بعدها مع الاشتباك ، مع القتال نفسه ، وتعالج موضوعات مثل المسيرات ، والمعسكرات ، والايواء كشروط قد تتطابق معها قليلاً او كثيراً . ولا تتناول مسألة الاعاشة ، الا انها ستأخذ ذلك في الحسبان بنفس **الاسس التي تناولت فيها العوامل الاخرى المشار إليها** .

حان الان دور فن الحرب وبالمعنى الضيق له، لان ينقسم بالمقابل الى تعبية واستراتيجية . والاولى تختص باشكال كل اشتباك على حدة ، وتختص الثانية باستخدام تلك الاشتباكات . وكلاهما يوثران على ادارة المعسكرات والمأوي ، ومن خلال الاشتباكات فقط تصبح هذه تعبوية او استراتيجية بقدر تعلق الامر اما بالاشتباك نفسه او باهميته واثاره .

سيرى الكثير من القراء دون شك ان لا جدوى لمثل هذا التقسيم الدقيق بين شيئين وثيقي الصلة ومتداخلين كالتعبية والاستراتيجية ، لانهما لا تؤثران مباشرة على ادارة العمليات . ومن المعروف ان كبار المتحذلقين فقط سيتمسكون بهذا التقسيم النظري لايضاح النتائج المباشرة في ميدان المعركة .

الهدف الرئيسي لكل نظرية هو ايضاح المفاهيم والافكار التي يعمها الارباك والفوضى والتشعب . ليس بوسع المرء تحقيق اي تقدم في تفحص المعضلة بوضوح وببساطة واقناع القارئ بمشاركته في وجهة نظره قبل التوصل الى تحديد وتعريف المصطلحات والمفاهيم موضوعة البحث . التعبية والاستراتيجية فعاليتان متداخلتان فيما بينهما في الوقت والمسافة [1] إلا انهما وبعد كل ذلك تختلفان بشكل جوهري . ولا يمكن تفهم علاقاتهما المشتركة ولا قوانينهما المتأصلة دون تفهم شامل لكليهما .

ومن لا يأبه لمثل هذه الامور وكأن لا معنى لها ، فاما سيرفض اي تحليل مفاهيمي اطلاقاً ، أو أن ذكاءه أقوى من ان يتأثر بمثل هذه الفوضى والافكار المتضاربة التي كثيراً ما نقرأ او نسمع عنها في الموضوعات والبحوث عن ادارة الحرب . فليس لاولئك الناس اية وجهات نظر ثابتة توصلهم الى استنتاجات مقنعة ، كما يبدو هؤلاء اللامبالين احيانا مبتذلين ، وغامضين ، كما يطفون احيانا فوق بحر من العموميات التافهة، وسبب كل ذلك هو ان هذا الموضوع لم يتم بحثه وتمحيصه وتفحصه بروح البحث العلمي الا فيما ندر .

---

(١) عامل الوقت المسافة يعد مع عاملي الارض والعدو من اهم مفاهيم الفكر التعبوي ، بل لعل الوقت والمسافة هما السيف او الحكم النهائي للقرار على ما هو ممكن واساسي ولابد من تعديل الخطط لتلائم وحسابات الوقت والمسافة - المترجم -

الفصل الثاني

حول نظرية الحرب .

لم يكن مصطلح « فن الحرب» يعني في الأساس سوى تهيئة القوات

استخدم مصطلحا « فن الحرب » او « علم الحرب» في السابق للدلالة فقط على مجموعة المعارف والمهارات المتعلقة بالعوامل المادية . لقد كان تصميم وانتاج واستخدام الأسلحة ، وانشاء التحصينات والخنادق ، والتنظيم الداخلي للجيش ، وإلية وسياقات التنقلات ، هو جوهر هذه المعرفة والمهارات ، وكلها تسهم في انشاء وترتيب قوات مقاتلة كفؤة . وتلك كانت قضية معالجة اسس مادية ، وفعالية احادية الجانب ، ليست اساساً اكثر من تدرج متصاعد من العمل والمهارات اليدوية الى فن آلي متقدم . وعلاقتها بالقتال مشابهة تقريباً لعلاقة حدادة السيوف بفن المبارزة Fencing ، وهي لم تشتمل بعد على استخدام القوات في ظروف الخطر ، الذي يشكل موضوعاً لتفاعل مستديم مع عدو ما ، كما لم تشتمل على المجهود الروحي والشجاعة لتحقيق الغاية المرجوة .

ظهرت الحرب الحقيقية اولاً في

حروب الحصار

اعطت حروب الحصار اللمحة الاولى لادارة العمليات ، وللجهد الفكري؛ الا ان هذه لا تفصح عن نفسها عادة الا في ذلك النوع من الاساليب الجديدة كالتقرب ، والخنادق ، والمسالك المضادة ، والقصف وما شاكل ذلك ، وقد تميزت كل مرحلة ببعض تلك المنتجات او المبتكرات . ولم يكن الامر يتطلب اكثر من خيط يجمع ويربط تلك المبتكرات المادية . ونظراً لان تلك الطريقة كانت هي الوحيدة تقريباً ليعبر الفكر فيها عن نفسه بوضوح وكان ذلك في حروب الحصار ، لذا استقرت الامور على ما هي عليه .

ثم اضيفت اللمسة التعبوية للموضوع

حاولت التعبية فيما بعد تحويل بنية اجزائها المركبة في منظومة عامة ، مستندة في ذلك الى الصفات الخاصة لآلتها [1]. وقادت هذه بكل تأكيد الى ساحة المعركة ، وان لم يحن بعد خلق فعالية فكرية . وكانت النتيجة بالاحرى جيوش تحولت بتشكيلاتها ونظام معركتها الى قوة ذاتية الحركة صممت لاطلاق قدرتها كاجزاء الساعة التي تنطلق الى العمل حال اصدار الامر لها بذلك .

لم تظهر الادارة الفعلية للحرب الا عرضاً وبشكل خفي

لم تعتبر الادارة الفعلية للحرب – اي الاستخدام الحر للوسائل المتيسرة ، والمناسبة لكل موقف معين – موضوعاً مناسباً لنظرية ، بل مجرد موضوع يستحسن ان يترك للخيار الطبيعي . وتقدمت الحرب تدريجياً من قتال رجل لرجل كما في العصور الوسطى الى شكل اكثر انتظاماً وتعقيداً . ثم قبلنا ان على العقل البشري تخصيص بعض الجهد الفكري لهذا الامر ؛ الا ان من المعروف ان تأثيراتها لم تظهر الا عرضاً أو صدفة ، وتحت اسماء مختلفة في المذكرات والسير والتواريخ .

التأمل في وقائع الحرب قاد الى الحاجة الى نظرية

مع تنامي وتزايد اعداد هذه التأملات والنظريات ، وتطور الكتابات التاريخية فقد ظهرت حاجة ملحة الى مبادئ وقواعد يمكن بواسطتها ايصال المناقشات والجدل الذي يعتبر امر عادي في التاريخ العسكري – الخلاف بين الاراء المتعارضة – الى حل ما . وانتهى سيل الاراء التي يعوزها الاساس المبدأي والقوانين الواضحة التي يمكن أن تتبلور حولها ، انتهى كل ذلك الى مجرد عبء فكري .

---

(1) اي القوات المسلحة – المشرف .

مساع لصياغة نظرية ثابتة

بُذلت بعد ذلك جهود لتزويد ادارة الحرب بالمبادئ والقواعد وحتى المنظومات، وقد شكل ذلك هدفاً ايجابياً الا أن المعنيين فشلوا في تقدير قيمة وحجم ما لا نهاية له من التعقيدات في ذلك . وكما رأينا فان لادارة الحرب تفرعات تمتد في كل الاتجاهات تقريباً ودون حدود أو نهايات واضحة ، في الوقت الذي لكل منظومة أو أنموذج طبيعة محددة كالتي لاي مركّب أو نتيجة لقد حدثت خلافات حادة تصعب تسويتها ما بين نظرية من هذا النوع والممارسة الفعلية .

تحديد على العوامل المادية

سرعان ما ادرك المنظرون مدى صعوبة الموضوع وشعروا بان هناك ما يبرر لهم تجنب المعضلة واعادة تركيز مبادئهم ومنظوماتهم نحو العوامل والقضايا المادية والانشطة الاحادية الجانب ، وكما في العلوم التي تتعلق بالاستعدادات للحرب ، فقد سعوا لصياغة مجموعة موثوق بها وايجابية من الاستنتاجات ، ولهذا السبب تمعنوا فقط في العوامل التي يمكن تعدادها والتعامل معها حسابياً .

التفوق العددي

التفوق العددي عامل مادي . لقد اخترناه من بين كل العوامل التي تصنع النصر، اذ وباستخدام مزيج عاملي الوقت والمسافة يمكن ان ندخل عامل التفوق العددي في منظومة رياضية للقوانين . كان البعض يرى امكانية تجاهل كافة العوامل الاخرى اذا افترض تساويها لدى الجانبين ، اذ يلغي احدهما الاخر . وكان ذلك مما يمكن قبوله موقتا ، او كوسيلة آنية لدراسة خصائص هذا العامل المنفرد ، اما لو اردنا تحويل الوسيلة الى شيء دائم وقبول التفوق العددي كقاعدة واحدة ووحيدة وتقليص الطلسم الكلي والشامل لفن الحرب الى صيغة للتفوق العددي **في وقت معين وفي مكان معين**، فليس ذلك سوى تبسيط مفرط واعجز من ان يصمد ولو لحظات في مواجهة حقائق الحياة .

التموين Supply

هناك معالجة نظرية أخرى تسعى لتقليص عامل مادي اخر ومختلف وتحويله الى منظومة ، ذلك هو التموين (الاعاشة) ؛ وتعتمد على افتراض مفاده ، أن جيشاً كان قد نظم بطريقة معينة ، فان تموينه يرقى لان يكون الحكم النهائي في ادارة الحرب .

كما انتج هذا المقترب بعض الاشكال الثابتة والمتماسكة ، الا انها تعتمد على سيل من الافتراضات الاعتباطية لذلك فهي غير قادرة على الثبات امام التجارب العملية .

قاعدة Base

حاول احد المبدعين تلخيص مجموعة من العوامل المرتبة التي ترتبط بروابط فكرية مع بعضها البعض في مفهوم منفرد دعاه « القاعدة Base » . ويشمل ذلك **تأمين اعاشة الجيش ، وتعويض خسائره في الرجال والمعدات ، وضمان مواصلاته مع الوطن ، بل وحتى تأمين انسحابه في حالة اضطراره الى مثل ذلك** . وبدأ ذلك المبدع باحلال مفهوم القاعدة بدلاً عن كل تلك العوامل المنفردة ، ثم استبدل المنطقة او اتساع القاعدة مكان المفهوم نفسه ، ثم انتهى به المطاف بان استبدل هذه المنطقة بالزاوية او الانحراف الذي يحدثه تقدم القوات المقاتلة مع خط القاعدة . [١] لقد ادى ذلك كله الى نتائج هندسية بحتة وعديمة الجدوى كليا. وهذه اللاجدوى كما يبدو لابد منها على ضوء الحقيقة التي مفادها استحالة تحقيق اي من تلك البدائل دون تشويه الحقائق واسقاط بعضاً من محتوى الفكرة الاصلية . يظل مفهوم القاعدة ضرورياً واداة اساسية في الاستراتيجية ، كما يستحق الكاتب الثناء على اكتشافه لها ، الا انها غير قابلة للتطبيق تماماً وبالطريقة التي قدمت بها . لانها ستؤدي الى استنتاج احادي الجانب تدفع المفكر الى اتجاه معاكس للغاية بالاعتقاد بالتأثير الهائل لعمليات تطويق المواضع .

---

(١) المقصود بذلك معاصر كلاوزفيتز . وهو (١ ج . دي فون بيلو) راجع بحث بيترباريت « عن الحرب» ص٢٢ اعلاه – المشرف .

الخطوط الداخلية

بعد ذلك برز مبدأ هندسي آخر كرد فعل على تلك المغالطات ، وعرف هذا المبدأ الجديد بالخطوط الداخلية. ومع ان هذا المعتقد يستند على ارض صلبة – في حقيقة كون الاشتباك هو الوسيلة المؤثرة الوحيدة في الحرب – ألا ان سمته الهندسية الصرف ستجعله هو الاخر مبدأً لا متوازن أو أعجز من ان يتحكم في موقف حقيقي(١) .

يمكن الاعتراض على كل تلك المحاولات

يمكن ومن الناحية التحليلية فقط القول بان تلك المحاولات حول النظرية تعتبر تقدماً ضمن مجال الحقيقة ، اما من حيث التركيب ، وعلى ضوء القواعد والانظمة التي تعرضها فهي ما زالت دون جدوى.

انها تتوخى قيماً محدودة ، الا ان كل ما يحيط بها مليء بالشكوك ، ولابد من اجراء الحسابات على كميات متنوعة ومتعددة .

وهي توجه بحوثها كلياً نحو كميات مادية، بينما تمتزج كل الاعمال العسكرية مع العوامل والتأثيرات النفسية .

كما انها تعني بالاعمال الاحادية الجانب فقط بينما تتألف الحرب من تفاعل مستمر بين الاضداد « اطراف متصارعة» .

لقد استبعدو العبقرية عن القاعدة

كل ما لا يمكن الوصول إليه بالحكمة المجردة لوجهة نظر احادية الجانب كهذه اعتبر بعيداً عن السيطرة العلمية : ويدخل ضمن نطاق العبقرية ، التي تسمو فوق جميع القواعد والاعتبارات .

---

(١) اشارة الى الجنرال أي. أج. جوميني . راجع بيترباريت « اصول عن الحرب » ص (٢١-٢٢) اعلاه– المشرف.

تعساً للجندي الذي يفترض به تلمس طريقه بين ركام تلك القواعد ، التي لا تعد مناسبة للعبقرية ، والتي بوسع هذه تجاهلها ، او الهزء بها . كلا فما تفعله العبقرية يعد افضل قاعدة . وليس بوسع النظرية ان تفعل افضل من اثبات، كيف، ولماذا ينبغي ان يكون الامر كذلك .

تعساً للنظرية التي تتناقض مع المنطق والعقل : ليس بوسع اي قدر من التذلل تجاوز هذا التناقض او تسويته ، وفي الحقيقة كلما ازداد الاتضاع ، كل ما أقترب وقت ابعادها [اي النظرية] عن ميدان الواقع بفعل السخافة والازدراء .

معضلات تواجه النظرية عندما تشمل العوامل المعنوية

تغدو النظرية صعبة بدرجة غير محدودة حال اقترابها من نطاق القيم المعنوية . فالمهندس المعماري (Architects) ، والرسام يعرفون تماماً ما هم مقدمين عليه طالما كانا يتعاملان مع ظاهرة مادية . ولا خلاف حول البنيات البصرية او الميكانيكية ، لكن لو تحولنا الى جمالية (aesthetics) [1] اعمالهم ، حين يسعون الى احداث تأثير معين على العقل او الاحاسيس ، فستحلل القواعد الى شيء لا يزيد عن افكار باهتة .

يعني الطب عادة بالظاهرة المادية . انه يتعامل مع النظام الحيواني الذي يظل عرضة للتغيير المستمر ، وبذا لن يكون هو نفسه من لحظة الى اخرى . الامر الذي يعقد العمل الطبي ويزيد مصاعبه، ويجعل احكام الطبيب تنحو الى ما يفوق معرفته . لكن كم ستزداد هذه الصعوبات ، بعد اضافة العامل العقلي ، وكم سيزيد تقديرنا للمعالج النفسي (Psychiatrist) !!

لا يمكن تجاهل القيم المعنوية في الحرب

لا توجه الانشطة العسكرية ضد القوى المادية وحدها ، بل تتوخى وفي آن واحد العوامل المعنوية التي تمنحها الحياة ، كما لا يمكن فصل نوعي العوامل هذين .

---

(١) الجمالية او وصف وتفسير الظواهر الفنية والتجربة الجمالية بواسطة العلوم الاخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع - المورد عام ١٩٩٤ ص ٣١ .

لا يمكن ادراك القيم المعنوية الا بالبصيرة (العين الداخلية) التي تختلف من شخص لأخر ، بل وغالباً ما تختلف لدى الشخص الواحد نفسه من وقت لاخر .

نظراً لأن الخطر عنصر عام ، وكل شيء في الحرب يتحرك ضمنه أو معه ، فالشجاعة ، واحساس المرء بقوته، هو العامل الرئيسي الذي يؤثر في قرارات المرء . وهي العدسة ، ان جاز لنا قول ذلك التي تنتقل الانطباعات من خلالها الى العقل .

لا يمكن وجود اي شك في أن الخبرة ستوفر درجة من الموضوعية لتلك الانطباعات .

يعرف الجميع حجم التأثير المعنوي للكمائن او لهجوم على الجناح او المؤخرة . والجميع يقللون من شجاعة العدو حالما يدير هذا ظهره ، ويتقبلون مخاطراً اكثر في مطاردته ، تفوق كثيراً ما سيتقبلوه لو كانوا مكانه . كل امروء يقيس قوة وبراعة خصمه على ضوء ما عرف عن مهارته المشهود بها ، وعمره ، وتجاربه ، فيتصرف بالتالي تبعا لذلك ، كما يحاول كل امروء تقويم معنويات ومزاج قطعاته وقطعات خصمه . وكل تلك وما يشبهها من تأثيرات تدور في محيطي الروح والعقل ، قد طورت بفعل الخبرات والتجارب ، كما انها تتكرر باستمرار ، لذا فهي جديرة بنيل ما تستحقه كعوامل موضوعية ، فماذا سيكون حال نظرية تتجاهل عواملاً كهذه يا ترى ؟

يجب وبطبيعة الحال ان تتجذر تلك الحقائق في التجربة ، ولا ينبغي على اي مُنظر (مفكر) او قائدٍ أن يزعج نفسه بالسفسطة الفلسفية والنفسية .

معضلات رئيسية في صياغة نظرية عن ادارة الحرب

لاعطاء فكرة واضحة عن المصاعب التي تواجه صياغة نظرية في ادارة الحرب، ولكي نكون قادرين على تحديد سمتها علينا النظر وتفحص السمات الرئيسية للأنشطة العسكرية عن قرب .

السمة الاولى : العوامل المعنوية والتأثيرات

المشاعر العدائية

تتألف اولى تلك السمات المقصودة من العوامل المعنوية والتأثيرات التي تنتجها.

القتال في الاساس تعبير عن **المشاعر العدائية** . الا ان هذه المشاعر العدائية تتحول في القتالات الواسعة النطاق او ما ندعوه بالحرب ، الى نوايا عدوانية مجردة . وفي جميع الاحوال فليس هناك عادةً مشاعر عدائية ما بين الافراد ، رغم ان مشاعراً من هذا النوع لا يمكن اختفائها كليا في الحرب ، ونادراً ما تتفجر الحروب الحديثة بدون مثل هذا الحقد بين الامم ؛ ويفيد هذا كبديل تقريبي عن الحقد بين الافراد . وحتى بدون هذا الحقد والعداء الوطنيين ، وبدون عدوانية للبدء بها فان القتال نفسه سيؤجج المشاعر العدائية ؛ والعنف الذي سيمارس على اعلى المستويات سيثير النوازع والرغبات في الانتقام والثأر ضد ممارسي العنف ، ضدنا اكثر مما ضد السلطات التي امرت به وهذا أمر أنساني (او حيواني إن شئت) ، الا انه حقيقة قائمة ويميل المنظرون الى النظر للقتال تجريدياً كممارسة للقوة دون تدخل للعواطف . وهذا واحد من الآف الاخطاء التي يقعون فيها دون وعي اذ ليس لديهم أية فكرة عن مضامينها .

وبغض النظر عن العواطف المتأججة بفعل طبيعة القتال ، هناك مشاعر اخرى لا ترتبط بالقتال بسهولة ، لكن وبسبب التشابه الاكيد فانها تقترن مع القتال بيسر ، كالطموح وحب السلطة ، والحماس من جميع الانواع ، وما شاكل ذلك .

تأثيرات الخطر

الشجاعة

فتح القتال الباب أمام عامل الخطر الذي تتحرك ضمنه الانشطة العسكرية وتحيا معه ، كالطيور في الهواء والاسماك في الماء . مع ذلك ينتج تأثير الخطر رد فعل عاطفي، اما كرد غريزي فوري ، أو دون وعي . يؤدي النوع الاول الى محاولة تجنب الخطر ، أو ، وحيث يتعذر ذلك سينتهي الامر بالخوف والقلق . اما اذا اختفت تلك التأثيرات او لم تظهر فان الشجاعة تكون قد طغت على الرد الغريزي ، الا أن الشجاعة وفي جميع الاحوال عمل واعٍ ، وهي كالخوف عمل عاطفي . يتصل الخوف بالمادة اما الشجاعة فبالثبات المعنوي . الشجاعة هي الغريزة النبيلة ، لذلك لا يمكن ان تعامل كحالة جامدة تؤدي دورها كما رسم لها ببساطة ، لذا ليست الشجاعة مجرد معادل معاكس للخطر ويستخدم لاجل تجميد أو شل تأثيرات الخطر ، بل انها سجية خاصة بذاتها .

اتساع التأثير الذي يمارسه الخطر

لاجراء تقويم دقيق لتأثير الخطر في الحرب ، ينبغي على المرء أن لا يحصر مجال البحث على المخاطر المادية وقتها . فالخطر يتحكم بالقائد ليس بتهديده شخصياً بل يتعداه الى تهديد كل منْ أودعوا بين يديه ، وليس في الاوقات التي يتمثل فيها الخطر فعلياً ، ولكن في تصور الخطر كذلك ، وفي جميع الاوقات الاخرى وحيث لا يتمثل الخطر مباشرة وحسب ، بل وحتى في اشكال غير مباشرة من خلال الاحساس بعظم المسؤولية التي تضاعف الاعباء الملقاة على كاهله الى عشرة اضعافها . ومن الصعب عليه اقتراح او القرار على معركة كبرى دون احساس أكيد بالتوتر والضيق من التفكير بالخطر وبعظم المسؤولية ، الامران اللذان يتضمنهما اي قرار مهم وحاسم كهذا. بوسع المرء التأكيد على ان العمل في الحرب وبقدر كونه حركة حقيقية وليس مجرد شيء موجود فلا يمكن ان يخلو من الخطر ابداً .

عوامل عاطفية اخرى

عند التمعن في العواطف التي تستثار بالعدوانية والخطر كاشياء لصيقة بالحرب ، فلا يعني هذا استبعاد المشاعر الاخرى التي ترافق المرء خلال حياته . ولها مكان في الحرب كذلك . وقد يحدث فعلاً ان تتوقف بعض المشاهد والادوار العاطفية التافهة او الثانوية في مواجهة المهمات الخطيرة والجدية للحرب ، الا ان ذلك كثيراً ما يقتصر حدوثه بين ذوي الرتب الصغيرة من الرجال الذين يندفعون من موقف شاق ومجهد ومليىء بالمخاطر الى موقف اخر مماثل مما يفقدهم الاحساس بالاشياء الاخرى في الحياة ، مترفعين عن النفاق والازدواجية لان الموت لا يابه لمثل هذه التوافه ، وهكذا يتسامون

الى البساطة والعفوية للجندية الحقة ، والسمة التي تمثل العسكرية في افضل حالاتها.[١] يختلف الامر في المراتب العليا ، اذ وكلما علت رتبة المرء كلما زاد اتساع أفقه وأراءه، كما تختلف اهتماماته وتتنوع وتتوزع عواطفه واحاسيسه ، جيدة كانت او سيئة ، وعلى كل الجوانب الحسد ، والكرم ، والفخر ، الاعتزاز والضعة ، الغضب والانفعال – وكلها قد تبدو عوامل مؤثرة في هذه المسرحية الكبرى .

المزايا الفكرية

بالاضافة الى الخصائص والمزايا العاطفية ، فالخصائص الفكرية للقائد هي الاخرى كبيرة الاهمية . وللمرء أن يتوقع أن يعمل العقل الحالم والواسع الخيال والمتهور وغير الناضج بشكل مختلف عن العقل القوي والبارد .

تنوع السمات الفكرية يؤدي الى تعدد الطرق الى الهدف

يلاحظ تأثير التنوع الكبير في الخصائص الفكرية بشكل اوضح واعمق في المراتب العليا ، ويتزايد كلما تدرجنا صعوداً في سلم القيادة وهو السبب الرئيسي في تنوع الطرق الى الهدف – كما نوقشت في الكتاب الاول – وكذلك في عدم تجانس الجزء المخصص للعبة الاحتمالات والصدفة في القرار على مسار الاحداث .

---

(١) يصل كلاوزفيتز هنا قمة الابداع في تصويره للحظات السمو التي تتساوى فيها امام المقاتل قيم الحياة والاستشهاد ، انها لحظات من الصفاء والسمو الروحي والسعادة الداخلية تبدو فيها حتى ساحة القتال المليئة بالموت اوضاً جميلة تشيع فيها البراءة ويشعر فيها المقاتل انه حتى اخف وزنا وانه قادر على الارتفاع الى السماء، لقد احسن وصدق كلاوزفيتز في وصفه الذي لابد وان يكون عاشه بنفسه والا لما استطاع ابتكاره – المترجم–

سمة ثانية : رد الفعل الايجابي

السمة الثانية التي نعزوها للعمل العسكري هي وجوب توقع ردود فعل ايجابية ، وكذلك عملية التفاعل التي تنتج عن ذلك . نحن لا نعني هنا بمعضلة حساب ردود فعل كهذه – وتلك في الحقيقة جزء من المعضلة التي سبقت الاشارة اليها في حساب العوامل النفسية – بل ما يهمنا الى حد ما هي حقيقة ان الطبيعة الحقيقية للتفاعل تميل الى جعل تلك الحسابات مما يصعب التنبؤ بها . والتأثير الذي سيتركه اي اجراء على العدو هو العامل الاكثر اهمية من بين جميع مفردات العمل الاخرى كلها . وعلى كافة النظريات التقيد بمجموعات من الظواهر ، ولن يمكنها الاكتفاء بالتحسب لحالة منفردة حقاً ؛ بل يترك ذلك الى الموهبة وقوة القرار . وهكذا فمن الطبيعي ان الفعالية العسكرية التي تستند خططها على ضرورة عامة والتي غالباً ما تتعرض للكثير من التقطع والتغيير بفعل احداث استثنائية غير متوقعة ، ينبغي ان تعتمد على الموهبة الى حد بعيد ، ولن تجدي الوصايا والتوجيهات النظرية كثيراً هنا عما في اي مجالات اخرى .

سمة ثالثة : غموض كل المعلومات

اخيراً فان اللامعقولية التي تسود جميع المعلومات ، تشكل معضلة خاصة في الحرب ؛ وكل عمل يجري لا يزيد في شكله عن لون الفجر الكاذب ، ان جاز لنا قول ذلك ، او كالضباب او ضوء القمر ، وغالباً ما يظهر الاشياء على نحو غريب ومغاير للواقع وحتى اكبر من حجمها الحقيقي .

وكلما يختفي عن النظر وسط هذه الاضواء الشاحبة يجب تخيله او افتراضه بقوة الذكاء والمقدرة ، او وبكل بساطة يترك للصدفة . وهكذا ومرة اخرى وبسبب نقص المعرفة الموضوعية على المرء اللجوء او الاعتماد على المقدرة او على الحظ .

لا يمكن صياغة عقيدة ملائمة

بعد اخذ طبيعة الموضوع بنظر الاعتبار ، علينا ان نتذكر ، وببساطة استحالة بناء نموذج ما لفن الحرب يمكن ان يشكل « سقالة » او دعامة بوسع القائد الاعتماد عليها ساعة يشاء . وحيثما يتطلب الموقف الرجوع والاعتماد على موهبته الفطرية ، فسيجد

نفسه بعيداً عن ذلك النموذج بل ومختلفاً معه ؛ بغض النظر عن تعدد اوجه ذلك الرمز فالموقف يقود دائماً الى النتائج والعواقب التي المحنا اليها على التو : **تعمل الموهبة والعبقرية بمعزل وخارج نطاق القواعد ، كما تتعارض النظرية مع الممارسة .**

البدائل التي تيسر النظرية

تفاوت الصعوبات في الحجم

هناك طريقان للخروج من هذا المأزق

ففي المكان الاول لا ينبغي ان يؤخذ تعليقنا العام عن طبيعة النشاط العسكري ، وكأنه ينطبق وبنفس الدرجة على العمل (Action) في جميع المستويات . ما نحتاجه بشكل ملح في المستويات الدنيا هو الشجاعة والفداء ، لكن تظل هناك بضعة معضلات قليلة لابد من تدخل الفكر وملكة التميز لحلها . فميدان العمل محدود كثيراً ، والوسائل والغايات قليلة العدد ، والمعطيات اكثر دقة ؛ وان اقتصرت عادة على الملموس وما يمكن رؤيته . اما في المراتب العليا ، فكلما تدرجنا صعوداً كلما تضخمت المعضلات وصولاً الى اعلى الدرجات اي القائد الاعلى . فكل الحلول تقريباً يجب ان تترك عند هذا المستوى الى الفكر الجوال الواسع .

وحتى لو جزأنا الحرب الى **انشطتها المتنوعة** فسنجد أن المصاعب لا تنتظم ولا تتماثل خلالها . وكلما زادت ماديّة الفعالية كلما قلت المصاعب التي تواجهها . وكلما اصبحت الفعالية فكرية اكثر ، وتحولت الى دوافع تمارس تأثيراً قوياً ومحدداً على ارادة القائد ، كلما تزايدت المصاعب . وهكذا فمن السهل استخدام النظرية لتنظيم وتخطيط وادارة اشتباك ما ، اكثر من استخدامها في القرار على هدف الاشتباك . ينفذ القتال باسلحة مادية ، ومع ان الفكر يلعب دوره في ذلك ، فالعوامل المادية هي السائدة . الا اننا وحين نصل الى تأثير الاشتباك ، وحيث يتحول النجاح المادي الى محفزات لعمل اضافي ابعد ، فالفكر وحده هو الحاسم هنا . والخلاصة فان التعبية سوف تثير من المصاعب اقل بكثير مما تسببه الاستراتيجية .

الطريقة الثانية للخروج من هذا المأزق هي بالبرهنة على عدم حاجة النظرية لأن تكون عقيدة موضوعية **كراسة تدريب**. طالما تتعامل فعالية ما، اساساً والمرة بعد الاخرى مع نفس الاشياء - بنفس الغايات وبنفس الوسائل، حتى لو كانت هناك اختلافات ومتغيرات صغيرة، وما لا يحصى من التركيبات المتنوعة - فستظل تلك الاشياء عصية على الدراسة العقلانية. من الواضح ان البحث والتحري، يعدان الجزء الاكثر اهمية **لاي نظرية**، تستحق فعلاً تسمية كهذه. فان البحث التحليلي هو الذي يقود الى **المعرفة الوثيقة** بالموضوع، والتطابق مع التجربة العملية - وهي في هذه الحالة التاريخ العسكري اذ تقود الى **تعايش** حميم معه. وكلما زادت اقتراباً من ذلك الهدف، كلما زاد شوطها اقتراباً من الشكل الموضوعي للعلم منها الى البنية الذاتية للمهارة، وكلما اثبتت انها اشد تأثيراً في المجالات التي لا تسمح فيها طبيعة الحالة موضوعة البحث باي تخبط عشوائي ولا تقر الا بالمهارة والموهبة. ستغدو في الحقيقة جزءً فعالاً من الموهبة العالية الفعالية. ستنجز النظرية مهمتها الرئيسية عندما تستخدم لتحليل العناصر الاساسية المكونة للحرب، ولتميز وبوضوح ما يبدو لأول وهلة مشوشاً، ولتفسر بشكل كامل ما تمتلكه من وسائل مستخدمة، ولاظهار تأثيراتها المحتملة، ولتحدد بدقة طبيعة النهايات (الغايات) موضوعة البحث، ولالقاء الضوء على جميع صفحات الحرب ببحث نقدي واضح. عندها تغدو النظرية دليل عمل لكل من يريد التعلم عن الحرب من الكتب، وستنير طريقه، وتيسر تقدمه، وتنمي ملكة الحكم والقرارلديه وتساعده على تجنب المكاره والعثرات.

الاختصاصي الذي قضى نصف عمره محاولاً التعمق والسيطرة على كافة جوانب واحدٍ من الموضوعات الصعبة، سيواصل بحوثه ويمضي قدماً دون شك، وبشكل افضل من رجل آخر يحاول انجاز كل ذلك بوقت قصير. النظرية موجودة فلا حاجة بنا الى البدء من جديد في كل مرة، مكررين نثر ما لدينا من مواد ومعطيات ومتابعين التحري وسطها، بل سنجدها جاهزة بين ايدينا وبشكل جيد ومنتظم. وهي تعنى باعداد وتدريب عقول قادة المستقبل، وان اردنا الدقة اكثر، نقول لتقوده في عملية التثقيف الذاتي، دون ان تلازمه حتى ساحة المعركة، تماما كما يفعل المعلم الحكيم الذي يوجه ويستثير العقل المبدع لتلميذه، ولكن الحذر في الوقت نفسه في عدم قيادته بيده لما تبقى من عمره، اي تجنب التوجيه المباشر.

ان انتجت بحوث ودراسات المنظرين وبصورة تلقائية مبادئاً وقواعدا ، وان كانت الحقيقة تتبلور تلقائياً في تلك الصيغ والاشكال ، فلن تتعارض النظرية اذن وهذا الميل الطبيعي للعقل . وعلى العكس من ذلك فحيث تتراكم احجار الحقيقة في اسس ومرتكزات كهذه ، فهي انما تؤكد ذلك الميل. كما يتم وببساطة ، ووفقاً للقانون العلمي للمنطق لتحديد النقطة التي تلتقي عندها جميع الخطوط ، دون تشكيل صيغة رياضية (Algebraic) لاستخدامها في ساحة المعركة . اذ وحتى تلك القواعد والمبادئ فانما تهدف لتزويد الرجل المفكر باطار يسهل الركون اليه ، او كمرجع في التحركات التي تدرب على تنفيذها ، لا لتكون هي نفسها كموجه او دليل جاهز يتولى عندما يحين العمل، تحديد المسار الواجب اتباعه بدقة .

ستسهل وجهة النظر هذه وضع النظرية ، وتلغي تعارضها مع الواقع

ستسمح وجهة النظر هذه بامكانية ايجاد نظرية مقنعة عن الحرب – نظرية مجدية فعلاً ولن تتعارض مع الواقع . ولن تحتاج الا لمعالجة فكرية لجعلها تتطابق مع العمل ، ولانهاء الاختلاف التافه ما بين النظرية والتطبيق والذي غالباً ما تثيره نظريات لا معقولة . هذا الاختلاف الذي يتحدى المنطق السليم ، وغالباً ما استخدم كدليل وحجة من قبل الجهلاء ومحدودي الفكر لتبرير عجزهم الموروث .

وهكذا تدرس النظرية طبيعة الاهداف والوسائل

الاهداف والوسائل في التعبية

لذلك فمن واجب النظرية ، دراسة طبيعة الاهداف والوسائل .

فالوسائل في التعبية هي القوات المقاتلة المدربة للقتال ، اما الهدف فهو النصر . سنقدم تعريفاً اكثر وضوحاً لهذا المفهوم فيما بعد ، في الفصل الخاص بـ « الاشتباك » . يكفي ان نقول هنا بان انسحاب العدو من ساحة المعركة هو علامة النصر . وبهذا تنال (تحقق) الاستراتيجية الاهداف (النهاية) التي حددتها للأشتباك وهي النهاية التي تشكل

اهميتها الحقيقية. نقران لهذه الاهمية أثر اكيد على نوع النصر الذي تم تحقيقه . والنصر الذي يستهدف اضعاف القوات المقاتلة المعادية ، يختلف عن النصر الذي يستهدف احتلال موضع معين، لذلك فقد يكون لاهمية اشتباك ما تأثير ملحوظ على تخطيطه وتنفيذه ، وانه سيدرس لذلك بالارتباط مع التعبية .

عوامل ترافق استخدام الوسائل دائماً

هناك عوامل ثابتة معينة في اي اشتباك ، وتؤثر عليه الى حد ما ؛ ولابد لنا من التسليم بتلك العوامل في استخدامنا للقوات المسلحة .

تلك العوامل هي المكان او الارض ، الوقت من اليوم ، والطقس .

الارض

ويمكن ان تندرج الارض في مزيج العوارض الجغرافية المحيطة ، وطبيعة الارض، التي بوسعنا القول وبكل دقة ، ان لا تأثير لها اطلاقاً على الاشتباك الذي يجري فوق سهل منبسط غير مزروع .

وهذا يحدث فعلاً في السهوب ، ويتطلب هذا المفهوم جهداً ومخيلة لتفهمه في الاجزاء المزروعة بكثافة في اوروبا . وليس من المعقول او المقبول ان يدور قتال بين شعوب متمدنة دون ان يتأثر هذا القتال بما يحيطه وبطبيعة الارض .

الوقت من اليوم

يؤثر الوقت من اليوم على الاشتباك بالاختلاف ما بين النهار والليل . يمكن ضمنياً ، بطبيعة الحال تجاوز تلك التحديدات ، فكل اشتباك يستغرق وقتاً محدداً ، وقد تستمر الاشتباكات الكبرى لعدة ساعات . عند التخطيط لمعركة كبرى ، فان من الاختلافات الحاسمة هو ما اذا كانت تلك المعركة ستبدأ في ساعات الصباح او ما بعد الظهيرة . لكن ومن الناحية الاخرى هناك اشتباكات اخرى يكون فيها الوقت من النهار عاملاً محايداً ، وعموماً فان تتابع وتكرار الحالات والامثلة يؤكد ان لا اهمية لهذا العامل .

الطقس

من النادر ان يكون الطقس عاملاً حاسماً ، وكقاعدة فالضباب وحده هو الذي يشكل استثناءً او اختلافاً .

الغايات والوسائل في الاستراتيجية

النصر هو الوسيلة الاساسية للأستراتيجية - اي النجاح التعبوي ، واهدافه النهائية ، فهي في التحليل النهائي الاهداف التي تؤدي الى الصلح مباشرة . وسيردف هذا التطبيق لتلك الوسائل من اجل تلك الاهداف بعوامل اخرى ستؤثر عليها بدرجة قليلة او كبيرة.

العوامل التي تؤثر على تطبيق الوسائل

تلك العوامل هي العوارض الارضية المحيطة ، وطبيعة الارض (تتسع الاولى لتشمل الوطن والشعب لكل مسرح الحرب) ، والوقت من اليوم (بما في ذلك الوقت من السنة) والطقس (وعلى الاخص ما يندر حدوثه كالتجمد الشديد وما شاكل ذلك.

تشكل تلك العوامل وسائلاً جديدة

بربط الاستراتيجية لتلك العوامل مع نتائج اشتباك ما ، فهي تعطي اهمية خاصة لتلك النتائج وبالتالي اعتبارها مؤثرة على الاشتباك نفسه بالتالي ؛ **فهي تحدد غاية معينة له.** وبالقدر الذي لا تكون فيه تلك الغاية ، بانها هي التي ستقود مباشرة الى الصلح ، فستظل (اي الغاية) ثانوية ، كما سينظر اليها على انها وسيلة . يمكن اعتبار الاشتباكات الناجحة او الانتصارات في جميع المراحل والمجالات المهمة كوسيلة استراتيجية . فاحتلال موضع ما هو اشتباك ناجح بلغة الارض . ولا يعد الاشتباك

المنفرد ولغاية معينة وسيلة فقط بل يمكن اعتبار اي مجموعة موحدة من مزيج من الاشتباكات وجهت لتحقيق غاية عامة ، هي كذلك **كوسيلة** . فحملة شتائية تشكل ما نعنيه بالمزيج بلغة الوقت من السنة .

ما تبقى لنا على طريق النهاية اذن ، هي فقط تلك الاهداف التي تقود **مباشرة** الى السلام ، وكل تلك النهايات والوسائل يجب أن تفحص من قبل المنظر على ضوء تأثيرها وعلاقتها مع بعضها البعض .

تستخرج الاستراتيجية الوسائل والاهداف كي تفحص على ضوء التجارب حصراً

السؤال الاول هو ؛ كيف الوصول الى قائمة كاملة بتلك الاهداف . فان كان التفحص العلمي يعني تحقيق تلك النتيجة ، فانها ستورط بمجابهة كل تلك الصعوبات التي استبعدتها الضرورة المنطقية من كل ادارة ومن نظرية الحرب. علينا لذلك التحول الى التجربة ، ودراسة الاحداث التالية ذات العلاقة في التاريخ العسكري . وستكون النتيجة بطبيعة الحال نظرية محدودة ، تستند فقط على حقائق سجلها المؤرخون العسكريون . وذلك امر لابد منه طالما كانت النتائج النظرية قد استنبطت من التاريخ العسكري او فحصت على ضوء معاييره على الاقل . ويظل تحديد كهذا وعلى اية حال نظري إكثر منه واقعي .

تقدم لنا هذه الطريقة فائدة كبيرة هي : ان تظل النظرية واقعية . ولا يمكن ان نسمح لها بالضياع وسط تأملات لا جدوى منها ومجالات واوهام عابثه.

ما المدى الذي ينبغي ان يمضي اليه تحليل الوسائل ؟

السؤال الثاني هو ؛ كيف تجري النظرية تحليلها للوسائل. الواضح لنا فقط، طالما كانت السمات المنفصلة ستؤثر في التجربة . ان مدى وفاعلية مختلف انواع الاسلحة الصغيرة ذو اهمية كبيرة تعبوياً ، مع ان انتاج تلك الاسلحة ورغم تحكمه في ادائها فامر لا علاقة له هنا قطعاً . اذ لا علاقة لادارة الحرب بكيفية وطريقة صنع الاسلحة ، ولا في استخراج البارود من الفحم ، والكبريت ، والملح الصخري (نترات

البوتاسيوم)، والنحاس والقصدير ، بل بالكميات التي ينتجه ذلك من الاسلحة، والجاهزة للأستخدام وكذلك تأثيراتها. تستخدم الاستراتيجية الخرائط دون الاهتمام بالمساحة التثليثية، كما لا تبحث في الطريقة التي ينبغي اعداد وتنظيم البلاد وفقها ولا في الكيفية التي يحكم فيها الشعب ويدرب للحصول على افضل النتائج العسكرية[1]. وتأخذ الاستراتيجية تلك الموضوعات كما تجدها في مجموعة الامم الاوربية ، ونلفت الانتباه فقط الى الظروف والامور اللااعتيادية والتي تترك تأثيرات ملحوظة على الحرب.

تبسيط اساسي للمعرفة

اذن فمن الواضح امكانية تبسيط نطاق الموضوعات التي على النظرية تغطيته كثيرا، كما يمكن تقليص المعرفة المطلوبة في ادارة الحرب الى حد كبير. تحضى الانشطة العسكرية عموماً بقدر كبير من الخبرة والمهارات ، وكلها من النوع الضروري لترتيب القوات الجيدة الاعداد في الميدان ، وتندمج هذه في قليل من النتائج الكبرى قبل ان تحقق هدفها النهائي في الحرب ، كالغدران والجداول الصغيرة التي تلتحم لتشكيل الانهار قبل ان تصب في البحر . وعلى الرجل الراغب في التحكم بها ان يُعوّد نفسه على تلك الانشطة التي تفرغ ما فيها في المحيط الاعظم للحرب .

يفسر هذا التبسيط التطور السريع للقادة العظام ، ولم ليس القادة علماء

في الحقيقة لا يمكن تجاوز نتيجة تحرياتنا هذه ، فلو كان هناك اي اختلاف فستكون صلاحيتها مشكوك فيها . وهذا وحده يفسر لنا كيف يبرز ويتميز الرجال في الحرب بسهولة في المراتب العليا ، وحتى كقادة اعلون ، رغم ان مجال عملهم السابق كان مختلفاً كلياً، والحقيقة هي ان القادة المتميزون لم يبرزوا من بين صفوف اكثر الضباط ثقافة او الاوسع معرفة ، بل ان القسم الاعظم منهم من الذين ما كانت مراحل

---

(١) لا اعتقد ان بوسع الاستراتيجي وسواء كان هذا رجل دولة Statman او قائد عام او حتى من المعنيين برسم وتخطيط السياسة العامة للدولة تجاهل موضوعات كهذه الان ، لا في مستوى الاستراتيجية العليا وحسب بل وحتى في الاستراتيجية العسكرية (المترجم) .

حياتهم قد اتاحت لهم درجة عالية من التعليم . لذلك فكل من يدعو او يفكر بضرورة، او حتى بجدوى البدء بتعليم قادة المستقبل ، والاحاطة بكل التفاصيل والمعارف ، ليس اكثر من معلم متحذلق وسخيف حتى. يسهل في الواقع اثبات ان طريقة اعداد كهذه للقادة ، هي طريقة بالغة الضرر ؛ لان العقل يتشكل بالمعرفة وبالافكار الموجهة التي يتلقاها ، والدليل الذي توفره له . الاشياء العظيمة فقط يمكنها ان تصنع عقولاً عظيمة ، ولا تصنع الاشياء التافهة الا عقولاً تافهة ما لم يتحرر الانسان منها سريعاً كاشياء مضرة تماماً .

تناقض مبكر

لقد أُغفل امر بساطة المعرفة المطلوبة في الحرب ، او انها بالاحرى كانت تدمج على الدوام مع سيل المعلومات الثانوية والمهارة . لقد ادى ذلك الى تناقض واضح مع الواقع ، ولا يمكن حله الا بان نُلحق أو نعزو كل شيء الى العبقرية التي ليست بحاجة الى اية نظريات ، كما لا يمكن صياغة اية نظرية عنها .

لذلك رفضت فوائد جميع المعارف ، وكل شيء يعزى الى الاستعداد الطبيعي

يدرك كل من له ذرة من الحس السليم الفرق الشاسع ما بين العبقري من الدرجة العليا وبين المتعلم المتحذلق . يصل الرجال الى نوع من التفكير الحر المتفتح الذي يرفض كل اقتناع بنظرية، ويرون ان ادارة الحرب ليس اكثر من انجاز طبيعي لرجل يقوم بذلك القدر الذي تسمح به قدراته ، ولا ننكر ان هذا الرأي اقرب الى الحقيقة من التمسك بممارسات وتجارب لا علاقة لها بالامر ، ومع ذلك ، فسنجد بعد التفحص الدقيق وجود مبالغة مفرطة . فليس بالامكان ابداء اي نشاط للعقل البشري دون خزين معين من الافكار ، التي ليس القسم الاعظم منها فطرياً او موروثاً بل مكتسباً ، ويشكل ما يعرف بمعرفة الرجل . والسؤال الوحيد الذي يفرض نفسه هو ما الذي ينبغي ان تكون عليه تلك الافكار ؟ او ما نوعيتها . نعتقد بانا قد اجبنا على ذلك بالقول انها ينبغي ان تعود الى تلك الاشياء التي يهتم بها أنياً كجندي .

المسؤولية هي التي ستحدد نوعية المعرفة

ستختلف الافكار ضمن مجال النشاط العسكري هذا ، وفقاً لمجال مسؤولية القائد . فستتركز في المراتب الدنيا على موضوعات صغيرة ومحدودة جداً ، اما في المراتب العليا فستمتد الى موضوعات اوسع واكثر شمولية . لقد كان هناك قادة عامون عجزوا عن قيادة كتيبة خيالة بنجاح متميز ، وقادة كتائب خيالة عجزوا عن قيادة جيوش .

المعرفة المطلوبة في الحرب بسيطة جداً ، ولكنها وفي الوقت نفسه ليست بسيطة في التطبيق .

المعرفة بالحرب **بسيطة جداً** ، لانها تقتصر على عدد قليل من الموضوعات ، بل ومع نتائجها النهائية فقط . الا ان ذلك لا يجعل تطبيقها سهلاً . لقد نوقشت معضلات العمل عموماً في الكتاب الاول . ولو تناسينا تلك المعضلات التي يمكن التغلب عليها بالشجاعة فبوسعنا القول ان فعالية العقل المبدع بسيطة وسهلة فقط في المستويات الدنيا. وتتزايد المصاعب مع كل خطوة صعوداً في سلم القيادة ، وعلى القمة – حيث موضع القائد العام – تغدو من بين اصعب ما يمكن ان يجابهه العقل .

طبيعة معرفة كهذه

ليس من الضروري للقائد العام ان يكون استاذاً في التاريخ او معلقاً سياسياً ، لكن لابد ان يكون مطلعاً على الشؤون العليا للدولة وسياستها التقليدية ، كما يجب معرفة القضايا الراهنة ، والموضوعات المطروحة للبحث ، والشخصيات المهمة والتي تحتل المراكز العليا ، وان يكون قادراً على صياغة احكام وقرارات صائبة . هو ليس بحاجة لان يكون عالماً اجتماعياً او خبيراً ومحللاً للشخصية الانسان ، بل لا بد له من معرفة هذه الشخصية ، وعاداتها الفكرية والعمل ، والمناقب والمعايب الخاصة في الرجال الذين تحت قيادته . وليس من الضروري ان يعرف ذلك القائد العام كيفية تهيأة خيول المدفعية ولا ربط وقيادة العربات ، الا ان من الضروري ان يعرف مقدار الوقت

الذي يستغرقه الرتل لقطع مسافة معينة ، تحت مختلف الظروف . لا يمكن توفير معرفة كهذه في صيغ وسياقات علمية وميكانيكيه، بل من خلال الموهبة والقدرة على الحكم والقرار ، وبتطبيق احكام دقيقة من خلال الملاحظة الدقيقة والمستديمة للرجال والاشياء[1].

تتميز المعرفة المطلوبة للقادة الكبار بحقيقة تعذر الحصول عليها الا بمواهب وقدرات خاصة ، ومن خلال التقصي والدراسة والتفكير . فالفكر الغريزي يستخلص جوهر ظواهر الحياة كما يمتص النحل العسل من رحيق الزهور . وبالاضافة الى البحث والتأمل فان الحياة نفسها تعد مصدراً لذلك . فالتجارب ، ومع ما فيها من دروس رائعة لا يمكن ان تعطينا رجالاً مثل اسحق نيوتن أو (اولير) ، الا انها قادرة على ان تنتج لنا الحسابات الدقيقة لكوندية[2] او فردريك الكبير .

للمحافظة على المكانة الفكرية للأنشطة العسكرية فما بنا من حاجة الى الاكاذيب والحذلقات التافهة . وليس بين القادة العظام اي رجل محدود الفكر ، الا أن هناك الكثيرون جداً من الرجال الذين خدموا بشكل رائع ومتميز للغاية في المراتب الدنيا ، ثم اصبحوا محدودي الكفاءة والقدرة في المناصب القيادية العليا ، لان قدراتهم الفكرية لم تكن بالمستوى المطلوب . ولابد من وضع بعض التمايز بين القادة الاعلون وفقاً لنطاق سلطاتهم .

يجب تحويل المعرفة الى مقدرة

يظل امامنا مطلب آخر للتمعن فيه – وهو عامل ذو اهمية فائقة للمعرفة العسكرية واكثر من اي عامل آخر . لابد ان تتشرب المعرفة في العقل، لانها تتوقف تقريباً عن الوجود منفصلة بطريقة موضوعية . بوسع الرجل وفي اي فن او حرفة اخرين تقريباً، التعامل مع الحقائق التي تعلمها من الكتب القديمة التي يعلوها الغبار

---

(١) ما من تحديد على حجم ومجالات المعرفة للقائد العام انما المهم الا يسمح هذا الرجل ان تضيعه التفاصيل سيما ما ليس له علاقة باختصاصه – المترجم–

(٢) الماريشال الفرنسي الامير لويس كوندية الثاني دي بوربون (١٦٢١ – ١٦٨٦) .

والتي فقدت جدواها ولا تغني قارئها بشيء ، بل وحتى الحقائق التي ما زالت قيد الاستخدام المتواصل والمتداولة بين الايدي قد لا تؤثر شيئا. عندما يمسك المهندس المعماري بقلمه واوراقه لحساب قوة دعامة ما فانه يتحدد بحسابات معقدة ، وحقيقة الاجابة التي يتوصل اليها عادة لا علاقه لها بشخصيته . فهو اولاً قد انتخب المعطيات بدقة ثم اخضعها لعملية عقلية ليست من ابتكاره هي الاخرى ، ولعله لم يكن يدرك لحظتها منطقها كليا ، مع انه استخدمها في معظم عمله تلقائياً. لكن الامر ليس كذلك في الحرب . فالتغيير المتواصل ، والحاجة للأستجابة له ، تجبران القائد على حمل كل القدرات الفكرية لمعرفته معه، وعليه الاستعداد دائماً للتوصل الى القرار الصحيح . وبهذا الاستيعاب الكامل ومع عقله وحياته فيجب تحويل معرفة القائد الى مقدرة عبقرية. وذلك هو السبب في ان كل شيء يبدو سهلاً ويسيراً للرجال الذين ميزوا أنفسهم في الحرب ، وفي كيف ان الامر كله يعزى الى الموهبة الطبيعية. لقد قلنا **الموهبة الطبيعية** لتميزها عن الموهبة التي دربت وتعلمت بالتفكير والدراسة .

نعتقد ان هذه الملاحظات قد ابانت المعضلات التي تواجه اية نظرية عن الحرب، وتقترح طريقة لحلها .

لقد قسمنا ادارة الحرب الى ميدانين هما التعبية والاستراتيجية ونظرية الثانية منهما وكما اوضحنا للتو ستواصل ودون جدال مجابهة المعضلات الاكبر نظراً لان الاولى (اي التعبية) محدودة بالعوامل المادية ، بينما تتعامل نظرية الاستراتيجية ، وكما كانت تفعل مع النهايات التي تنحو مباشرة الى استعادة السلام، اما نطاق الامكانيات فغير محدود. وما دامت هذه النهايات مما يتوجب على **القائد العام** التمعن فيها اساساً، فان المعضلات التي ستنشأ في تلك الميادين ستكون ضمن دائرة اختصاصه .

في ميدان الاستراتيجية ، وحتى بدرجة اكبر مما في التعبية ، ستتطابق النظرية مع الاعتبارات البسيطة للعوامل المادية وخاصة حين تتداخل مع الانجازات الاكثر اهمية . وسيكفي القائد ان ساعده ذلك في الوصول الى تلك اللمحات والتبصر التي وحال تمثلها وفقاً لطريقة تفكيره ، فانها ستيسر وتحمي مواصلة العمل الذي يتولاه ، وسوف لن تضطره ابداً الى التخلي عن قناعاته بسبب اي من الحقائق الموضوعية .

الفصل الثالث

فن الحرب او علم الحرب

لم يتحدد استعمال اي منهما بعد

المقدرة والمعرفة

هدف العلم هو المعرفة

هدف الفن هو القدرة الخلاقة

يبدو ان استخدام المصطلحات والمعايير اعلاه لم يتحدد بعد ، ورغم بساطة الامر ، الا اننا كما يبدو لم نعرف بعد الاسس التي ينبغي اعتمادها في اختيار اي منها . لقد بينا على التو أن **المعرفة والقدرة** شيئان مختلفان – اختلافا شديداً لا ينبغي ان يثير اي ارتباك. لا يمكن لكتاب ما ان يعلمنا كيفية القيام باي شيء ، لذا فما من مكان لكلمة « فن » في عنوان الكتاب . الا اننا تعودنا اختصار المعرفة المطلوبة لممارسة فن ما (فروع منفردة قد تكون علماً قائماً بذاتها) بمصطلح «نظرية الفن» او «الفن» ببساطة والذي موضوعه هو القدرة على الخلق ، كما هو الحال على سبيل المثال مع الهندسة المعمارية. اما مصطلح « علم » فينبغي قصر استخدامه في فروع المعرفة كالرياضيات او الفلك والتي تشكل المعرفة البحتة موضوعها الاساسي . كما قد تحتوي كل نظرية في الفن علوماً متميزة لا اعتراض عليها ، وما من حاجة بنا للقلق بخصوصها . الا اننا لابد ان نلاحظ ان اي علم لا يمكن ان يوجد دون شيء ما من الفن : ففي الرياضيات على سبيل المثال فان استخدام الحساب والجبر هو من الفن . الا ان الفن قد يذهب لأبعد من ذلك . اذ وبغض النظر عن وضوح وصراحة الاختلاف بين المعرفة والقدرة في شمولية الانجاز الانساني، سيظل من الصعب جداً فصلهما عن بعضهما لدى الافراد.

صعوبة فصل الادراك عن الحكم

فن الحرب

كل فكر هو بطبيعة الحال فن. المهم ان يستطيع المنطقي الحكيم تعيين الحدود،

واين تتولد المقدمات من الملاحظات النهائية، واين تبدأ قوة الحكم ، ففي تلك النقطة يبدأ الفن. واكثر من ذلك ، فالتأمل او الادراك العقلي ليس سوى حكم، وبالتالي فهو فن؛ كذلك، وفي التحليل النهائي فانه تأمل بالاحساس. الخلاصة فان تعذر تصور قدرة الإنسان على الادراك ، ولكن ليس على الحكم أو العكس بالعكس، فسيكون من المتعذر بالمقابل فصل الفن عن المعرفة كلياً. كلما زاد تجسد ومضات النور المبدع **باشكال خارجية** ، كلما زاد انفصال مجالاتها. اكرر القول ان الابداع والانتاج هما ضمن مجال الفن ، اما العلم فسلطانه حيث البحث والمعرفة . يلي ذلك أن مصطلح «فن الحرب» هو الاكثر تلائماً من مصطلح « علم الحرب» .

لقد توسعنا في مناقشة ذلك لصعوبة الاستغناء عن هذه المفاهيم . ويجب علينا المضي الى القول على وجه الدقة بان الحرب ليست فناً ولا علماً . ولو اخذنا تلك المفاهيم كنقطة انطلاق ، فقد نخطأ التوجه ، اذ سيؤدي ودون قصد الى ان نضع الحرب سوية مع فنون رائعة او علوم أخرى ، مما ينتج في النهاية سيلاً من التشبيهات الخاطئة .

لقد ادركوا هذه الصعوبة في الماضي ، لذلك اقترحوا اعتبار الحرب مهنة . وقد ثبت ان ذلك خسارة لا ربح، لان المهنة وببساطة ليست سوى شكلاً متدنياً للفن، وموضوعاً خاضعاً لقوانين اكثر دقة وجموداً . في الحقيقة ، كان هناك عصر هو عصر الكوندوتيري[1] condottieri – يوم كان فن الحرب فيه قريب من الحرفة . ولم يكن لهذا التوجه اسس ودوافع **داخلية** ، بل **خارجية** فقط . ولقد اثبت لنا التاريخ العسكري ان ذلك النهج لم يكن طبيعياً ولا ناجحاً ابداً.

الحرب عمل من اعمال العلاقات البشرية

لذا نستنتج أن الحرب لا تعود الى مجال الفنون والعلوم ، مع انها يقيناً جزء من الوجود الاجتماعي للأنسان . الحرب اصطدام بين مصالح كبرى ، لا يسوى الا بالدم – وهي بهذا فقط تختلف عن انواع الصراع الاخرى . وبدلاً من مقارنة الحرب بالفن ، بوسعنا وبدقة اكبر مقارنتها بالتجارة ، التي تعد هي الاخرى تصادماً في المصالح

(١) كل قائد كان يتولى قيادة الجند المرتزقة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، ويعمل لمن يدفع له او يستأجره (قاموس وبستر .)

والفعاليات البشرية ، كما انها اكثر قرباً من السياسة ، التي يمكن ان تعتبر بالمقابل نوعاً من التجارة على نطاق اوسع . واكثر من ذلك فان السياسة هي الرحم الذي تنمو فيه الحرب وتتطور – وحيث تحيا اجنتها بأشكالها البدائية ، كما تختفي سمات المخلوق الإنساني في اكياس الاجنة .

اختلاف

الاختلاف الاساسي هو أن الحرب ليست ممارسة للأرادة موجهة نحو مادة جامدة ، كما هو الحال في الفنون الالية ، او ضد مادة حية الا انها سلبية ودون مقاومة ، كما هو الحال مع العقل والعواطف البشرية في الفنون الجميلة . توجه الارادة في الحرب ضد هدف حي له **ردود فعل** . ويجب ان يكون واضحاً ان التقنين الفكري المستخدم في الفنون والعلوم مناسب لأنشطة كهذه . وفي الوقت نفسه من الواضح ان السعي المتواصل وراء القوانين المشابهة للقوانين المناسبة للموضوعات غير الحية، سيؤدي الى اخطاء متتالية . مع ان من الواضح ان الفنون الالية التي يفترض مماثلة فن الحرب لها، فمن المستحيل محاكات الفنون الجميلة لانها هي نفسها لم تمتلك بعد قوانيناً وقواعداً كافية . ولم تحقق جميع المحاولات التي جرت حتى الان لصياغة اي قانون ، سوى نتائجاً محدودة للغاية واحادية الجانب ، وعدت غير ذات اهمية او شأن باستمرار ، واستبعدت بفعل وقوة الاراء والمشاعر والعادات السائدة .

يهتم جزء من هذا الكتاب بتفحص ما اذا كان صراع العناصر الحية في تطوره وتحوله الى حرب سيظل موضوعاً لقوانين عامة ، وفيما اذا كانت هذه توفر دليلاً جيداً للعمل . الواضح في الامر هو ان هذا الموضوع ، وكاي شيء اخر ضمن حدود وقدرات العقل البشري ، ويمكن للعقل الباحث تفصيل ذلك ، كما يمكن والى حد ما الكشف عن بنيته الداخلية . وهذا وحده كاف لتحويل المفهوم النظري الى واقع .

الفصل الرابع

طريقة وسياق

[1]Method and Routine

لصياغة تفسير دقيق لمفهوم الطريقة والسياق الذي يلعب دوراً مهماً في الحرب ، لابد من القاء نظرة موجزة على التسلسل المنطقي الذي يتحكم في محيط العمل ، كسلطة مختصة وقادرة .

القانون هو المفهوم الاوسع الذي ينطبق على التفكير والعمل . ويتألف المصطلح بمعناه الحرفي من عنصر ذاتي متحكم ، رغم انه يعبر عن شيء محدد يعتمد الانسان وبيئته عليه بشكل اساسي. ولو نظرنا اليه كموضوع معرفي «Cognition» ، فالقانون هو العلاقة ما بين الاشياء وتأثيراتها . اما ان نظرنا اليه كموضوع ارادي «Will» فالقانون هو التصميم على العمل ، وعند هذه النقطة ، فهو مرادف **للقضاء والتحريم** .

المبدأ هو ايضاً قانون للعمل ، لكن ليس **بالمعنى الاصطلاحي المحدد** . فهو يشكل جوهر وروح القانون فقط ، وفي الحالات التي يصعب فيها احتواء التنوع في عالم الواقع ضمن الاطار المحدد للقانون ، فان تطبيق المبدأ يسمح بمجال اوسع للحكم . اما الحالات التي يصعب تطبيق المبدأ فيها فيجب معالجتها بالمحاكمة العقلية، وبذا يغدو المبدأ جوهرياً كمساعد، او كنجم هادٍ للرجل المسؤول عن العمل .

المبدأ شيء موضوعي ان استند الى حقيقة موضوعية، فهو لذلك صالح لكل شيء على السواء ، وهو **ذاتي** ويدعى عموماً بالحكمة ان داخلته اعتبارات ذاتية . وفي هذه الحالة فهو ذو قيمة ومعنى للرجل الذي يطبقه فقط .

القاعدة مصطلح غالباً ما يستخدم بمعنى او مفهوم القانون ، وبذا تغدو مرادفة للمبدأ . وكما يرد في احد الامثال فان « لكل قاعد استثناء ولكن ليس « لكل قانون» مما يوضح لنا ان بوسع المرء عند التعامل مع القاعدة الاحتفاظ ببعض الحق في التوسع في التفسير او ان يكون اكثر حرية في ذلك .

---

(١) ما من مرادف في اللغة الانجليزية للمصطلح الالماني « Methodismus» .

بعبارة أخرى فان مصطلح « قاعدة» يستخدم بمعنى « الوسيلة» لادراك مجمل الحقيقة من خلال سمة منفردة وواضحة الصلة بها وتمكنا من استنباط قانون عام للعمل من تلك السمة . وكذلك هي القواعد في اللعبات ، ومثلها ايضاً الرموز والمختصرات في الرياضيات ، وغيرها .

النظامات والتوجيهات هي وصايا لمعالجة الكثير من الامور الصغرى ، والظروف المفصلة والتي لكثرتها وقلة اهميتها لا تستحق صياغة قانونية .

واخيرا فان « الطريقة» او «اسلوب السياقات» هي اسلوب دائم التطبيق ويُرجع اليه باستمرار ، وقد اختير من بين امكانيات واحتمالات عديدة . ويغدو عملا رتيباً (روتينياً) توصف بانها طرق اكثر منها مبادىء عامة أو انظمة منفردة . من الضروري الجزم بتشابه جميع الحالات التي تطبق او تستخدم فيها تلك السياقات . ونظراً لتعذر ذلك فمن المهم التأكد من انطباقها على **اكبر عدد ممكن من الحالات** على الاقل . وبعبارة اخرى ، ينبغي ان تصمم السياقات المنهجية للتعامل مع اكثر الحالات احتمالاً . لا يستند العمل السياقي الى اية مقدمات منطقية منفردة ، ومحددة بل الى **متوسط احتمالات** لحالات مشابهة . انها تستهدف اقرار حقيقة « متوسطة Average »، توفر عند تطبيقها بثبات واستمرار بعضاً من المهارة الالية الطبيعية ، التي تؤدي في النهاية الى الشيء الصحيح بصورة تلقائية (اوتوماتيكية) .

في ادارة الحرب لا يمكن ان تتحكم القوانين بقوة الادراك . فظاهرة الحرب المعقدة ليست منتظمة بدقة ، كما ان الظواهر المنتظمة ليست بالغة التعقيد ، والى الحد الذي يجعل القوانين اكثر جدوى من الحقيقة البسيطة . فحيثما تكون وجهة النظر البسيطة ، او اللغة السهلة كافيتين ، فمن الحذلقه والغرور الزائفين جعلهما **معقدتين متكلفتين**. ولا تستطيع نظرية الحرب تطبيق مفهوم القانون على العمل ، طالما ما من صيغة معترف بها وشاملة لتستحق اسم القانون ، يمكن تطبيقها على ظاهرة الحرب الدائمة التنوع والتغيير .

مع ذلك فالمبادئ والقواعد والانظمة والطرق (السياقات) ، انما هي مفاهيم لا يمكن الاستغناء عنها الى او عن ذلك الجزء من نظرية الحرب والذي يقود الى منهج (عقيدة) موضوعي ، اذ يمكن ان تعبر الحقيقة عن نفسها في تلك المفاهيم فقط باشكال مركزة .

غالباً ما تبدو تلك المفاهيم في التعبية ، وهي ذلك الجزء من الحرب الذي يمكن ان تتطور فيه النظرية كلية في عقيدة موضوعية وفيما يلي امثلة عن بعض المبادئ التعبوية:

١ - لا تستخدم الخيالة ضد مشاة لم يهزم الا في الحالات الطارئة .

٢ - لا تفتح نيران الاسلحة الخفيفة حتى يصبح العدو ضمن مدى القتل .

٣ - يجب الاحتفاظ باكبر حجم ممكن من القطعات في المعركة للصفحة الاخيرة.

لايمكن تطبيق كافة هذه المفاهيم حرفياً في كل المواقف ، وعلى القائد مع ذلك ان يضعها نصب عينيه كي لا تضيع فرصة الاستفادة من الحقائق التي تتضمنها في الحالات التي تنطبق عليها .

اذا بدأ العدو طبخ الطعام في غير الوقت المعتاد فهذا مؤشر قوي على اقتراب موعد تحركه . وانكشاف القطعات بشكل واضح خلال المعركة دليل على الوهن . قد تدعى هذه الطريقة في استنباط الحقائق بقاعدة طالما تستنتج نوايا العدو من حقيقة مرئية واحدة ترتبط بتلك النوايا .

اذا نصت القاعدة على استئناف الهجوم حال مباشرة العدو سحب مدفعيته ، فسيتقرر مسار العمل بكامله وفقاً لهذه الظاهرة المنفردة التي كشفت عن الظرف الكلي للعدو، اي حقيقة كونه على استعداد لايقاف القتال . وخلال انسحابه لن يظل بوسعه ابداء مقاومة جادة ، او حتى تجنب العمل حالما بدأت قواته التنقل فعلاً .

وبالقدر الذي تدربت فيه القطعات على **الانظمة والسياقات** ، كمبادئ فعالة، فالاستعدادات النظرية للحرب جزء من ادارتها الفعلية. وكل الوصايا الثابتة في الترتيب، والتدريب ، ونظامات الخدمة السفرية، هي انظمة وسياقات . اما وصايا (نشرات) التدريب فهي عموماً من الانظمة ، اما كراسات الميدان (التدريب) فهي اساساً طرق وسياقات . تستند ادارة الحرب على تلك الاشياء ، التي قُبلت كسياقات محددة وبهذا القدر يكون مكانها كذلك في نظرية ادارة الحرب .

في استخدام تلك القوات تظل بعض الانشطة ضمن مجال الاختيار. اذ لا تنطبق الانظمة والوصايا المسبقة عليها بدقة لان الانظمة تحد من حرية الاختيار . اما السياقات فهي ومن الناحية الاخرى لا تقدم سوى طريقة عامة في تنفيذ الواجبات

بالشكل الذي تظهر فيه معتمدة وكما قلنا انفاً على معدل (متوسط) احتمالات. وهي تمثل في ذلك قوة وتحكم المبادئ والقواعد في التطبيق الحقيقي . وما دامت كذلك فقد تجد مكانا في نظرية ادارة الحرب ، شريطة ان لا تكون مجرد عبارات تجريدية. زائفة واطر عمل ملزمة (منظومة) بل تكون هي الافضل من الاشكال العامة الاخرى ، ومختصرة وتوفر مجموعة من الخيارات والبدائل لقرار منفرد .

يبدو ان تكرار استخدام وتطبيق السياقات في الحرب اساسي كذلك ولابد منه عند التمعن في كيفية استناد العمل في الغالب على الحدس البحت ، او في تجاهل كامل له اما لان العدو حرمنا معرفة كافة الظروف التي يمكن ان تؤثر على ترتيب مواضعنا او لعدم تيسر الوقت الكافي لذلك . وحتى لو احطنا بكل هاتيك الظروف فقد لا تسمح لنا مضامينها وتعقيداتها بالقيام بالخطوات الضرورية للتعامل معها . لذلك لابد من القرار على اجراءتنا ومعاييرنا وفقاً لعدد محدد من الاحتمالات . ولابد لنا من تذكر ما لا يحصى من العوامل الصغيرة التي تتداخل في كل حالة . والطريقة الوحيدة الممكنة في التعامل معها هي بمعالجة كل حالة وكما لو انها تنطوي على جميع الاخريات ، مسندين ترتيباتنا على العام المحتمل . واخيراً لابد ان نتذكر انه ومع تزايد اعداد صغار الضباط باستمرار في المراتب الدنيا فستقل درجة الثقة والاعتماد التي نعطيها لقدراتهم الطبيعية واحكامهم اما الضباط الذين لا نتوقع امتلاكهم لاي قدر كبير من التفهم يزيد على ما يمكن للأنظمة ان تقدمه ، فلابد من مساعدتهم بمناهج وطرق وسياقات مساوية للقواعد . وسيعزز ذلك من قدراتهم على القرار ويجنبهم المشروعات الخاطئة والشاذة التي تعد التهديد الاكبر في الميدان وحيث التجارب مرغوبة، وتستحق ما تتكبده .

اما السياقات (الروتين)، وفيما عدى اهميتها التامة ، فتحتوي كذلك على ميزة موضوعية اخرى فالتجارب الثابتة تقود الى **السرعة والوضوح والقيادة الواقعية،** وتقلل الاحتكاك الطبيعي وتسهل آلية العمل .

الخلاصة هي اننا سنلجأ الى السياقات كثيراً إذ لا غنى عنها كلما تدرجنا نزولاً في سلم مستويات العمل ، وسيقل ذلك في الاتجاه المعاكس (الصاعد) حتى تختفي نهائياً في القمة . وعليه فانها مناسبة للتعبية اكثر منها للأستراتيجية .

الحرب وفي اعلى اشكالها **ليست حشداً لا نهائياً من الاحداث الصغيرة المتشابهة رغم تنوعها،** والتي يمكن السيطرة عليها بفاعلية تزيد او تنقص اعتماداً

على الطرق والأساليب المستخدمة في ذلك بل تتكون الحرب بالاحرى **من اعمال كبيرة حاسمة ومنفردة** ، يحتاج كل منها التعامل معه على انفراد . ولا تشبه الحرب حقل الحنطة الذي ودون التمعن في كل (سنبلة) على حدة يمكن حصاده بكفاءة اكثر او اقل اعتماداً على نوعية السنابل ، بل انها (اي الحرب) كالشجرة الباسقة التي يجب استخدام الفأس معها بتأني وحكمة وفقاً لشكل وصلابة ودرجة نمو كل جذع منها على انفراد .

لا يتحدد المستوى الاعلى الذي تصله السياقات في العمل العسكري بالرتب بطبيعة الحال ، بل بطبيعة كل موقف . واعلى الرتب اقل تأثراً بها وذلك ببساطة راجع الى ان نطاق عملياتها هو الاكثر شمولية . فنظام المعركه القياسي «Standard Order of Battle» ، والمقدمات «Advance - Guards» ومنظومة المراصد «Outposts» هي اساليب وطرق عمل قد لا يقيد القائد مرؤوسيه بها فحسب ، بل وفي حالات معينة سيتقيد بها هو نفسه ، وقد تكون تلك الاساليب بطبيعة الحال من صنعه او ابتكاره هو ، وكي تطبق في ظروف خاصة ، والى الحد الذي صيغت تلك الاساليب فيه لمستوى عام من القطعات والاسلحة ، كما انها قد تكون من بعض اجزاء وموضوعات النظرية ، مع ذلك فاية اساليب او طرائق عمل تحول الخطط الاستراتيجية الى صيغ جاهزة مسبقاً ، او مجرد صياغات آلية رتيبة فلابد من رفضها واستبعادها كلية .

طالما لا توجد نظرية مقبولة ، فلا وجود لاية تحليلات فكرية لادارة الحرب ، وتنحوا السياقات وطرق العمل لان تأخذ مكانها حتى في اعلى المستويات . لم تتح الفرص لبعض الرجال في المناصب القيادية الاستفادة من فرص تطوير الذات التي يوفرها التثقيف والإتصال والتعامل مع المستويات العليا في المجتمع والحكومة ، فهم عاجزون عن التغلب على الحجج والمغالطات النظرية التي يرددها المنظّرون والنقاد ، حتى لو رفضوها وعارضوها باحساسهم العام. المهارات او اللمحات الوحيدة التي يجاهر بها اؤلئك القادة هي تلك التي اكتسبوها بالخبرات والتجارب . لهذا السبب تراهم يفضلون استخدام الوسائل التي زودتهم بها تجاربهم ، حتى في الحالات التي عليهم ، أو يفترض فيهم التعامل معها بحرية وبشكل مستقل . لقد اعتادوا نقل واستنساخ الاساليب المفضلة لدى قادتهم الاعلون – وهكذا يخلقون سياقات عمل جديدة تلقائيا . عندما نرى جنرالات ممن سبق لهم العمل تحت قيادة فردريك الكبير وهم يكررون استخدام النظام المائل للمعركة ، أو بعض قادة جيوش الثورة الفرنسية

ممن يفضلون استخدام حركات الاحاطة بجبهات اكثر اتساعاً ، او بعض القادة ممن عملوا تحت قيادة نابليون وهم يهاجمون باندفاع وحشي بالكتلة المركزة ، فسندرك عندها أن ذلك مجرد تكرار لتلك الطرق الجاهزة ، كما نرى ان بعض كبار القادة أنفسهم ليسوا بعيدين عن نطاق التأثر بالروتين والاساليب الرتيبة . حالما تتوفر نظرية متطورة تساعد في دراسة ادارة الحرب ، وتستخدم لتدريب وتعليم وتطوير قدرات واحكام عقول كبار القادة فلن تدعو الحاجه عندها الى السياقات والمناهج في المستويات العليا . اما تلك الانواع من السياقات التي يجب اعتبارها لازبة ويصعب الاستغناء عنها فستكون حينئذ على الاقل مستندة على نظرية ولا تقتصر فقط على التماثل المحض للأحداث والمواقف . بغض النظر عن الدرجة العالية الكفاءة التي يتصرف بها القائد الكبير سيظل هناك وعلى الدوام ، عنصر ذاتي في عمله، فان تكشف عن نمط معين فسينعكس ذلك وبدرجة كبيرة على شخصيته هو ، الا ان ذلك لا يتماشى مع شخصية الذي يقلد او يكرر ذلك النمط .

مع ان من غير الممكن ولا صحيح حتى الغاء السياقات الخاصة او النمط الشخصي كلياً من ادارة الحرب . ينبغي ان ترى وعلى العكس من ذلك كدليل حي على التأثير الذي للظاهرة الفردية ضمن السمة العامة للحرب – تأثير لو لم يتم توقعه أو يحسب حسابه ضمن النظرية المقبولة فقد لا تتوفر وسائل اخرى بقدرات كافية . فهل من شيء اكثر انسجاماً وتناسباً من حقيقة ان لحرب الثورة الفرنسية نمط متميز ، وما الذي بوسع اية نظرية التوصية حول ذلك ؟ والخطر هو ان هذا النوع من النمط الذي يتطور من حالة منفردة ، يمكن وببساطة ان يستمر أطول من الموقف أو الحالة التي أنشأته ، لان الظروف تتغير بشكل بطيئ وتدريجي . وهذا الخطر بالذات هو الشيء الذي ينبغي على النظرية منعه بالنقد الدقيق والعقلاني ففي عام ١٨٠٦ وعندما كان الجنرالان البروسيان الامير لويس في سالفيلد ، والجنرال توينتزن في دورنبرج قرب (ينا Jena) كما كان (كرافيرت) على احد جانبي (كابيليندورف) و(روشيل) على الجانب الاخر ، وحيث اندفعا بتهور وسط فكي المأساة باستخدام نظام المعركة المائل الذي اشتهر به فردريك الكبير ، ولم يكن ذلك مجرد احدى الحالات التي يستثمر فيها نمط مجرب بل كان اشد واتعس حالات الافلاس وفقدان القدرة على التخيل قاد اليها تطبيق سياقات روتينية (رتيبة) . كانت النتيجة هي تدمير الجيش البروسي تحت قيادة الامير (هو هنلو) ، تدميراً كاملاً لم يسبق ان تعرض لمثله جيش آخر في ساحة المعركة.

الفصل الخامس

تحليلات نقدية[1]

تمارس الحقائق الفكرية تأثيراً دائمياً على الحياة العملية عبر التحليل النقدي اكثر مما تمارسه من خلال التعليم المنهجي . التحليل النقدي هو تطبيق الحقائق الفكرية على احداث واقعية ، وهو لا يضيق الفجوة بين الاثنتين ، ولكنه يعود العقل على تلك الحقائق من خلال تكرار تطبيقها . لقد انشأنا معياراً اساسيا لنظرية ، وعلينا الان انشاء معيار آخر للتحليل النقدي كذلك .

نحن نميز بين **المسلك النقدي** والسرد الروائي للحدث التاريخي ، الذي يقتصر على ترتيب الحقائق واحدة بعد اخرى وتكتفي بمجرد لمسات قليلة للروابط السببية الآنية فيما بينها .

قد يتضمن المسلك النقدي ثلاثة انشطة فكرية مختلفة . هي :

الاول . اكتشاف وتفسير الحقائق المثيرة للشكوك والتي تحتمل اكثر من معنى . وهذا هو البحث التاريخي الدقيق ، وما من شيء مشترك له مع النظرية .

الثاني . تعقيب التأثيرات واعادتها الى اسبابها . وهذا هو **التحليل النقدي الدقيق**. وهو ضروري للنظرية ، فاي شيء يراد من النظرية تحديده ،او دعمه ، او حتى مجرد وصفه ، بالرجوع الى التجربه لا يمكن، معالجته الا بهذه الطريقة.

الثالث . وهو تفحص وتقويم الوسائل المستخدمة . وهذا الاخير نقد مناسب يشمل الثناء والذم . النظرية هنا تخدم التاريخ ، او بالاحرى الدروس التي تستنبط من التاريخ .

في الثاني والثالث اعلاه ، وهما الاجزاء النقدية الحقيقية في البحث التاريخي ، من المهم جداً تحليل كل شيء وصولاً الى عناصره الاساسية ، والى الحقيقة التي لا جدال حولها . على المرء ان لا يتوقف في منتصف الطريق ، كما فعل الكثيرون ، حيث توقفوا عند بعض الافتراضات والبديهيات .

---

(١) يعني المصطلح الالماني (Kritik) هنا مقالة نقدية ، تحليل نقدي ، وتقييم ، وتفسير بالاحرى اكثر من (نقد) فقط. المشرف Eds.

غالباً ما يصعب استنباط التأثير من مسببه (علته) بفعل معوقات خارجية يصعب تذليلها ، بل قد تصعب معرفة الحقيقة المسببة (الفاعلة) . وليس ذلك شائعاً أو مألوفاً في اي من جوانب الحياة الاخرى كالحرب ، حيث تندر معرفة الحقائق كلياً ، اما البواعث والمسببات فهي اكثر غموضاً حتى . كما أنها قد تخفى او تستر عمداً من قبل اؤلئك الذين يتولون القيادة ، أو قد يحدث ذلك عرضاً أو صدفة كأن يغفل التاريخ تسجيلها كلية . لذلك توجب تلازم السرد النقدي والبحث التاريخي عادة . حتى لو كان التباين بين السبب والنتيجة من نوع لا يبرر للناقد اعتبار ان النتائج شيء لابد منه لمسبب (علة) غير معروف فسيخلق ذلك فجوة – نتائج تاريخية لا تفرز دروساً مفيدة. وكلما تطلبه النظرية هو استمرار الاستقصاء بعزم وتصميم حتى الوصول الى ثغرة كهذه ، اذ عندها ستترك الاحكام أو تُعلق. ولا تثور المعضلات الخطيرة الا عند التوسع في تفسير الحقائق وتحريفها من اجل تفسير النتائج ، مع ان قسر او حشر الحقائق بهذا الشكل ليس سوى أضفاء شيء من الاهمية الزائفة والمراوغة .

وما عدى تلك المعضلة فان البحث النقدي واجه مشكلة خطيرة اخرى : اذ نادراً ما يكون للنتائج سبب واحد منفرد ، وهناك عادة مسببات متداخلة ومتزامنة ، لذلك فليس كافيا تتبع الاحداث الناتجة وصولاً الي جذورها ، حتى لو تم ذلك بامانةٍ وموضوعية ، فسيظل كل مسبب يمكن تحديده في حاجةٍ الى تقييم دقيق . وسيؤدي ذلك الى تحليلات وثيقة لطبيعة تلك المسببات ، وبهذا يوصلنا البحث النقدي الى النظرية المناسبة .

يثير **التحري النقدي** – أي تفحص الوسائل – سؤالاً عن ماهية التأثيرات الخاصة للوسائل المستخدمة ، وما اذا كانت تلك التأثيرات تطابق النوايا والتوجيهات التي استخدمت معها .

يقودنا التأثير الخاص للوسائل الى تفحص طبيعتها – وبكلمة اخرى في مجال النظرية مرة اخرى .

لقد رأينا ان من المهم في النقد الوصول الى الحقيقة التي لا جدال حولها ، ويجب ان لا نتوقف عند اي إفتراض عشوائي قد لا يقره اخرون ، او أن لدينا مقترحٍ مختلف وبنفس القوة والصلاحية لنقدمه في مقابل ما لديهم، مثيرين بذلك حججاً وجدلاً لا نهاية لهما ، ودون التوصل الى اية استنتاجات او استنباط اية دروس مجدية.

كما رأينا ايضاً ان كلاً من البحث في الاسباب ، وتفحص الوسائل ، يقودان الى مجال النظرية – أي الى ميدان الحقيقة العامة التي لا يمكن استنتاجها بمفردها من مثال منفرد قيد البحث . ولو وجدت نظرية قابلة للأستخدام فعلاً ، فسيتطابق البحث مع استنتاجاتها وعند تلك النقطة سيوقف مساعيه . مع ذلك وطالما لا يتيسر مثل هذا المعيار، فلابد من متابعة التحليل حتى الوصول الى العناصر والمكونات الاساسية ، فان كان هذا ما سيحدث غالباً فسيقود الكاتب الى متاهة التفاصيل التي ستملأ كفيه ، وسيجد من المستحيل عليه تقريباً اعطاء كل نقطة ما تتطلبه من الانتباه . والنتيجة وكي يحدد نطاق تحرياته لابد له من التوقف قبل إطلاق الافتراضات العشوائية . وحتى لو لم تبدو كذلك بالنسبة له ، فللأخرين ، لانها ليست بديهية ، كما لم تتم برهنتها .

الخلاصة ، فان نظرية عملية ستشكل قاعدة اساسية للنقد. وبدون نظرية كهذه يتعذر على النقد عموماً الوصول الى النقطة التي يغدو فيها واضحاً حقاً – عندما تكون حججه مقنعة ويصعب رفضها او تنفيذها .

الا انه من قبيل التمني والتفاعل الفكري تصور قدرة اية نظرية على معالجة كل حقيقة مجردة ، كي لا يظل للنقد سوى تصنيف الحالة موضوعة البحث تحت عنوان مناسب . وبنفس الدرجة فمن السخف توقع إنحراف مسار النقد حيثما اصطدم بتحديدات نظرية مقدسة . ينبغي لروح البحث التحليلي التي خلقت النظرية ، توجيه العمل الذي يتولاه النقد ، والذي قد ، او ينبغي عليه في الغالب اقحام نفسه وسط مجال النظرية لانارة اية نقاط لها اهمية خاصة وسيضيع اداء النقد كليا اذا تضاءل الى مجرد تطبيقات الية للنظرية وستفقد كل النتائج الموضوعية للبحوث الفكرية – كل المبادئ ، والقواعد والطرق والمناهج – شموليتها ، وحقيقتها المطلقة ، كلما اقتربت من التحول الى منهج موضوعي . لقد وجدت هذه[1] كي تستخدم عند الحاجة ، وان صلاحيتها او كونها مناسبة لاي قضية مطروحة يخضع دائماً للدراسة والقرار . ينبغي ان لا يستخدم النقد النتائج التي للنظرية كقوانين ومعايير قياسية ابداً ، بل فقط – وكما يفعل الجندي – **كمساعدات له في الحكم**. اما اذا قبل ، في التعبية بشكل عام ، وضع الخيالة لا في موازاة المشاة بل خلفه في خط المعركة الاساسي، فمن السخف مع ذلك رفض اي نوع آخر ، او مختلف لانفتاحها ، لا لشيء الا انه وبكل بساطة شكل مختلف . ينبغي على الناقد تحليل الاسباب لمثل هذا الاستثناء . ولا يحق له الركون الى

(١). اي المبادىء والقواعد والطرق والمناهج أنفة الذكر تواً – المترجم.

المبادئ النظرية ما لم تكن تلك الاسباب غير كافية . نقول مرة اخرى ، ان نصّت نظرية على ان هجوماً بقوات مجزأة يقلل احتمالات النجاح ، فمن غير المعقول وبنفس الدرجة ، وبدون المزيد من البحث والتحليل ان نعزو الفشل الى تجزأة القوات حيثما يقع الحادثان سوية ، أو عندما ينجح هجوم بقوات مجزأة ان نستنتج او ندعي ان التقييم النظري الاساسي لتلك النظرية ليس صحيحاً . الا ان الطبيعة الباحثة (الاستقصائية) للنقد لا تسمح باي من هذين الاستنتاجين . والخلاصة ، فان النقد يعتمد وبدرجة كبيرة على نتائج الدراسات التحليلية للباحثين . وليس النقد في حاجة الى العودة لما تولت النظرية انجازه مرة تلو الاخرى ، وعلى الباحث تزويد الناقد بنتائج دراساته .

ستسهل مهمة الناقد في البحث في علاقة السبب والنتيجة ، وصلاحية وتناسب الوسائل والغايات عندما تشتد وتتوثق الروابط بين الاسباب والنتائج والوسائل والغايات .

فعندما يحرم هجوم مباغت ، جيشاً من استخدام قوته بطريقة منظمة وعقلانية فتأثير المباغتة اذن أمر لا شك فيه . وعندما تؤسس نظرية ما ؛ أن هجوما بالالتفاف سيقود الى نجاح كبير ، وان لم نكن واثقين تماماً فعلينا معرفة إن كان القائد الذي استخدم هذا النوع من الالتفاف كان معنياً في الاساس بتحقيق مثل هذا النجاح الضخم ، فان كان كذلك فقد اختار الطريقة الافضل . اما إن استخدام ذلك من **اجل ضمانات اكثر للنجاح** ، من غير ان يستند عمله على ظروف فردية بدرجة كبيرة، كأن يستند على الطبيعة العامة لهجوم الالتفاف وكما حدث في العديد من الحالات ، فان هذا القائد لم يفهم طبيعة الوسيلة التي اختارها واوقع نفسه في خطأ .

ليس العمل النقدي في البرهنة والتحليل صعباً جداً في حالات من هذا النوع ، ويميل لأن يكون اكثر سهولة لو الزم المرء نفسه بالغايات والنتائج الانية . ويمكن فعل ذلك اعتباطاً اذا عزل المرء الموضوعات عن مصادرها وتفحصها تحت تلك الظروف فقط .

لكن في الحرب وكما في الحياة عموماً ، فأجزاء الكل مترابطة فيما بينها لذلك تنتج تأثيراتها ، ومهما كان السبب صغيراً، فيجب ان تؤثر على كل العمليات العسكرية اللاحقة ، وتعدل نتائجها النهائية الى حد ما ، ومهما كان ضئيلاً ، ويجب ان تؤثر كافة الوسائل بنفس الطريقة حتى على الغرض النهائي .

يمكن للمرء المضي في متابعة الاثار التي ينتجها سبب ما ، طالما بدت تلك الاثار ذات قيمة ما. وبنفس الطريقة يمكن تقويم وسيلة ما ، ليس بخصوص

نهايتها الانية وحسب ، بل ينبغي تقويم تلك النهاية كوسيلة للنهاية التالية والاعلى؛ وهكذا بوسعنا متابعة سلسلة من الاهداف المتعاقبة حتى الوصول الى الهدف الذي لا يحتاج الى تبرير ، لان ضرورته واضحة للعيان . في العديد من الحالات ، وعلى الاخص تلك المتعلقة بالاعمال العظيمة والحاسمة ، على التحليل ان يتوسع حتى **الهدف النهائي** الذي سيأتي معه بالسلام .

تتضمن كل صفحة في هذه العملية وبوضوح ، اسس جديدة للحكم. فتلك التي تبدو صحيحة عند النظر اليها من احد المستويات ، قد تبدو غير مقبولة عند النظر اليها من مستوى اعلى .

في التحليل النقدي للعمل ، يمضي البحث في اسباب الظاهرة سوية مع تفحص الوسائل على ضوء علاقتها بالنهاية ، وان يستمر هذا التلازم دائماً ، لأن البحث عن السبب ، هو وحده الذي سيكشف أو يُعيّن الموضوعات التي يجب دراستها.

تقدم لنا متابعة هذه السلسلة صعوداً وهبوطاً معضلات كبيرة. كلما بعدت المسافة بين الحادث والسبب الذي نبحث عنه ، كلما زاد عدد الاسباب التي يجب التمعن فيها في الوقت نفسه. كما لابد من تحديد التأثير الممكن لها والمسموح به على الاحداث . فكلما كبر حجم الحادث ، كلما اتسع نطاق العوامل والظروف التي تؤثر فيه . علينا عند التحقيق في الاسباب التي ادت الى خسارة معركة ما ، أن نعرف كذلك وكما يقر الجميع بعضاً من اسباب تلك التأثيرات القوية في خسارة المعركة على الكل — لكن بعضها فقط ، نظراً لان النتيجة النهائية ستتأثر باسباب اخرى كذلك .

سنواجه عند تحليل الوسائل، نفس التعددية ، كلما كانت وجهات نظرنا اكثر شمولية . وكلما علت أو تسامت الاهداف ، كلما تزايد عدد الوسائل التي يمكن استخدامها وصولاً لها . فقد سعت كل الجيوش وراء الغاية النهائية للحرب وفي آن واحد، وعلينا لذلك التمعن في كل ما حدث او سيحدث على اوسع نطاق ممكن .

بوسعنا رؤية ان ذلك سيؤدي احياناً الى ميدان واسع ومعقد للبحث ، والى حد قد نضيع وسطه بسهولة . ولابد من وضع عدد كبير من الافتراضات حول أشياء عديدة لم تحدث فعلاً ولكنها تبدو ممكنة ، ولذلك لا يمكن تركها بعيداً عن حساباتنا .

عندما تقدم نابليون بونابرت جيش ايطاليا في اذار ١٧٩٧ وعبرا نهر تاكليامنتو[1] لمجابهة الارشيدوق شارلس ، كان هدفهما هو فرض القرار على النمساويين قبل ان تصلهم اية نجدات من الراين ، ولو تمعنا في الهدف الاني (القريب) ، فسنرى أن الوسائل قد أُحسن اختيارها كما اظهرت لنا النتائج ذلك . لقد كانت قوات الارشيدوق ضعيفة لذا لم يبذل سوى محاولة للمقاومة على نهر تاكليامنتو ، الا انه وبعد ما لمسه من قوة وعزم خصمه آثر اخلاء المنطقة والمقترب الى (نوريكان الب) : فكيف سيتمكن نابليون من استغلال هذا النجاح ؟ هل سيضغط باتجاه قلب الامبراطورية النمساوية ، مسهلاً تقدم جيشا الراين تحت قيادة (مورروا) و (هوشي) ومواصلة العمل سوية معهم ؟ هذا ما فكر به نابليون ، ومن وجهة نظره كان ذلك صحيحاً جدا. الا ان الناقد قد يتخذ موقفاً اكثر إتساعاً – وهو هنا حكومة الادارة الفرنسية (الدايركتوار) ، التي كان بوسع أعضائها أن يروا، وكما يجب أن ادركوا أن حملة الراين لن تبدأ قبل ستة أسابيع . عندها ومن وجهة النظر هذه فقط ، يمكن اعتبار تقدم نابليون عبر جبال الالب مخاطرة لا مبرر لها . فلو حرك النمساويون احتياطات قوية من الراين اتجاه (ستيريه) ليهاجم بها الارشيدوق شارلس جيش ايطاليا ، فما كان ذلك سينتهي بتدمير هذا الجيش فقط بل والحملة بكاملها . لقد ادرك نابليون ذلك يوم وصل الى « فيلاش» ، الامر الذي دفعه الى توقيع هدنة (ليوبين) بكل سرور .

اذا واصل الناقد متابعة وجهة نظر اكثر شمولاً ، فسنرى عدم وجود احتياطات نمساوية بين جيش الارشيدوق و(فينا) ، لذا كان تقدم جيش ايطاليا يهدد العاصمة النمساوية نفسها .

لنفترض معرفة نابليون بوهن موقف فينا ، وأن تفوقه على جيش الارشيدوق حتى في (ستيريه) كان حاسماً . لذا فان اندفاعه نحو قلب النمسا لن يكون دون معنى. تعتمد قيمة الهجوم الان على قوة وعزم النمساويين للأحتفاظ بفينا فقط ، اذ لو تقبلوا اية شروط اخرى للسلام يعرضها نابليون عليهم عدى ضياع العاصمة ، فيمكن عندها اعتبار تهديد العاصمة النمساوية هدفاً نهائياً . ولو كان نابليون قد ادرك ذلك الى حد ما فليس لدى الناقد ما يضيفه بهذا الشأن ، اما ان كانت الشكوك تحيط بذلك ، فعلى الناقد اتخاذ وجهة نظر اكثر شمولية ، متسائلا عما كان سيحدث لو اخلى

---

(١) نهر تاكليامنتو – راجع حول تفاصيل عمليات اذار / ١٩٩٧ الموسوعة العسكرية (بالانكليزية) ص ٧٨٧.

النمساويون فينا ، وانسحبوا داخل المناطق الواسعة التي مازالت تحت سيطرتهم . سرعان ما سيتضح لنا صعوبة الاجابة على سؤال كهذا دون الاشارة الى المواجهةالمحتملة بين الجيشين على الراين ، وحيث كان الفرنسيون يتفوقون عددياً بشكلٍ حاسم - (١٣٠) الف ضد (٨٠) الف - والنتيجة معروفة دون شك . الا ان سؤالاً اخراً سيفرض نفسه حول ما ستفعله حكومة الادارة الفرنسية بهذا النصر ؟ فهل ستتابع فرنسا استثمار ميزاتها هذه والمضي الى الحدود البعيدة للامبراطورية النمساوية ، محطمة قوتها ، وممزقة الامبرطورية نفسها ، ام ستكتفي باحتلال اجزاء كبيرة من اراضيها كورقة ضغط من اجل السلام ؟ لابد لنا من تقويم العواقب المحتملة لكلا المسلكين قبل القرار على الاختيار الاقرب لحكومة الادارة. لنفترض ان مناقشة الاعتبارات قادت الى ما يفيد بكون القوات الفرنسية اضعف بكثير من تحقيق الانهيار التام للنمسا ، لذا فان مجرد محاولتها القيام بذلك كان سيقلب الموقف رأساً على عقب، وكان عندها حتى قهر النمساويين واحتلال أجزاءٍ كبيرة من اراضيهم سيضع الفرنسيين في موقف استراتيجي يصعب على قواتهم التغلب عليه . كانت هذه المناقشة ستؤثر في رؤيتهم للموقف الذي وجد جيش ايطاليا نفسه فيه لذا سيقلص الفرنسيون مما كانوا يتوقعون . ما من شك في ان ذلك هو ما دفع بنابليون لتوقيع صلح (كامبوفورميو)، رغم ادراكه لحراجة موقف الارشيدوق ، وبشروط لم تفرض اية تضحيات ضخمة على النمساويين عدى عن خسارة بعض المناطق التي تعجز اكثر الحملات نجاحاً عن انقاذها وبالمقابل فما كان الفرنسيون سيدخلون حتى المكاسب المتواضعة التي نالوها في كامبوفورميو في حسبانهم ، وبالتالي ما كانوا قادرين على اعتبارها اهدافاً لتعرضهم لولا اعتبارين هما :

١ . الاول وهو القيمةالتي وضعها النمساويون على نتيجتين ممكنتين. وزغم ان كلتيهما جعلتا النجاح النهائي يبدو محتملاً فهل سيرى النمساويون ان ذلك يستحق التضحيات المطلوبة - اي استمرار الحرب - طالما امكن تجنب هذا الثمن بالتوصل الى سلام بشروط ليست مجحفة كلياً ؟

٢ . اما الاعتبار الثاني ، فيكمن في قضية ما اذا كانت حكومة النمسا ستتابع تقديراتها وتكتشف بدقة التحديدات الكامنة في نجاح الفرنسيين، بدلاً من الانكفاء اليائس تحت تأثيرات ومجرى الاحداث المعاكس لهم ؟

ليس الاعتبار الاول مجرد تأمل بليد . بل وعلى العكس فهو ممارسة لها اهمية

حاسمة ، وتفرض نفسها دائما وحيثما استهدف اي طرف النصر الشامل . وهذا هو ما يمنع عادة تنفيذ الخطط المعدة .

وللاعتبار الثاني نفس الاهمية ، فالحرب لا تشن ضد عدو مجرد ، بل ضد عدو حقيقي لابد ان يظل ماثلاً في الاذهان على الدوام . وما من شك في ان رجلاً بشجاعة نابليون قد ادرك ذلك ، وبالثقة التي كان عليها من الرعب الذي تسببه تحركاته . هذه الثقة التي قادته عام ١٨١٢ الى موسكو ، الا انها تركته هناك . لقد كان ذلك الرعب شاملاً مدمراً في معاركه العظيمة الكبرى . اما في عام ١٧٩٧ ، فما زال ذلك جديداً وطرياً بعد ، كما لم يكتشف يومها سر وفاعلية المقاومة حتى النهاية . ومع ذلك وحتى في عام ١٧٩٧ سيكون لشجاعته نتائج سلبية لو لم يكن ، وكما رأينا ، قد تفهم المخاطر الكامنة ، واثر اختيار صلح مقبولٍ في كامبوفورميو كحل بديل .

لابد ان نوقف المناقشة الان . اذ من المناسب الكشف عن السمة الشاملة والمعقدة والصعبة التي قد يثيرها التحليل النقدي لو اتسع حتى الاهداف النهائية – وبكلمة اخرى ، لو تعامل مع المعايير والاجراءات الكبيرة والحاسمة التي تؤدي اليها بالضرورة . يلي ذلك انه وبالاضافة الى التبصر الفكري في الموضوع ، فستؤكد الموهبة الطبيعية كثيراً قيمة التحليل النقدي ، اذ انه يعتمد في الاساس على موهبة كهذه في تصوير الروابط التي تشد الاشياء سوية. وللقرار على السلسلة الاساسية من الاحداث من بين ما لا يحصى عدده منها .

كذلك ستدعو الحاجة الى الموهبة بطريقة اخرى . ليس التحليل النقدي مجرد تقويم للوسائل المستخدمة فعلاً ، **بل لكل الوسائل الممكنة** – التي يجب تشكيلها واعدادها اولاً ، أي ابتكارها . ليس بوسع المرء بعد كل شيء رفض طريقة ما، قبل ان يكون قادراً على اقتراح بديل أفضل . وبغض النظر عن قلة نطاق التركيبات الممكنة في معظم الحالات فلا يمكن نكران ان تعداد ما لم يستخدم منها ليس مجرد عملية تحليل لاشياء موجودة ، بل انجاز لا يمكن اكماله بانتظام نظراً لاعتماده على قدرة الخلق الفكرية .

نحن ابعد من الادعاء ان مجال العبقرية الحقيقية سيوجد في الحالات والمواقف حيث تتوفر مجموعة من المشروعات العملية والبسيطة والقابلة للتطبيق والتي تحسبت

لكل شيء. فذلك في رأينا امر تجريدي تماماً ، رغم تكرار حدوثه ، واعتبار الطريقة التي يتم بها الالتفاف (الاحاطة) على موضع وكأنه من مبتكرات عبقرية فذة . رغم ان تقويم مثل هذا الابداع الفردي والثناء عليه أمران ضروريان ، ويؤثران بشكل كبير على قيمة ومعنى التحليلات النقدية .

عندما قرر نابليون في ٣٠/تموز/١٧٩٦ رفع الحصار عن (مانتوا) ليتفرغ لصد تقدم (فورمسير) ، وانقض بكل قوته على ارتال خصمه هذا وهي بعد منفصلة عن بعضها ببحيرة (كاردا)[1] ونهر (منيشيو)، وقد فعل ذلك لتأكده انها الطريقة الافضل التي تضمن له انتصارات حاسمة . وقد تحققت تلك الانتصارات فعلاً ، بل وكررها وبشكل اكثر حسماً ضد المحاولات التالية لرفع الحصار عن (مانتوا) . ولا يسع المرء ازاء ذلك الا ابداء الاعجاب اللامتناهي به .

لكن يظل امامنا أن نابليون ما كان قادراً على اختيار هذا المسلك في ٣٠تموز دون التخلي عن أية امال في احتلال المدينة ، اذ لم يعد بوسعه محاصرتها بقوات كافية، أو اعادة الحصار خلال مسار الحملة . لقد تحول الحصار الى مجرد تطويق للمدينة التي كان يمكن ان تسقط خلال اسبوع لو تواصل الحصار ، لذا استطاعت الصمود لستة اشهر اخرى رغم كل انتصارات نابليون في الميدان .

لعجز النقاد عن التوصية بطريقة افضل للمقاومة ، فقد اعتبروا ما حدث محنة لا يمكن تجنبها. لقد تسبب ذلك في سقوط بل وازدراء فكرة مقاومة جيش إنقاذ من وراء خطوط محصنة وبشكل لا مثيل له. رغم ان عملاً كهذا غالبا ما استخدم بنجاح ، في ايام لويس الرابع عشر (١٦٣٨- ١٧١٥) حتى ليسع المرء القول انها (موضة) تلك الايام ، لكن وبعد مائة عام فلم يجرأ اي كان على البحث في **قيمة ذلك العمل** على الاقل . ولو قبلت تلك الامكانية ، فان تفحصاً دقيقاً للموقف كان سيوضح لنا ان بوسع نابليون وضع (٤٠) الفاً من افضل جنود المشاة في العالم خلف خطوط محصنة عند مدينة مانتوا ، وكان هؤلاء لو أُحسن تحصين مواضعهم قادرين دون وجل على صد القوة النمساوية من (٥٠) الف والتي كان سيحاول (فورمسير) تحرير المدينة بهم ، فلم

---

(١) بحيرة كاردا بطول حوالي ٦٠ كم وتقع شمال «مانتوا» ، اما النهر فهو ما بين المدينة والبحيرة . المترجم

يكن هذا قادراً حتى على مهاجمة الخطوط . ولا مجال هنا للتوسع في مناقشة ذلك ونعتقد باننا قلنا ما يكفي لتأكيد ان تلك الامكانية تستحق البحث . كما لا نستطيع القرار على ما اذا كان بونابرت قد فكر في خطة كهذه ، فلم ترد اية اشارة لها في مذكراته ، ولا في اية مصادر منشورة اخرى ، كما لم يتطرق اليها اي من الباحثين والنقاد والاخرين ، اذ لم يعودوا يهتمون بمشروعات كهذه . وما من فائدة تذكر في الحديث عنها ، ويكفي المرء استبعاد طغيان العادة والتقليد قبل التفكير في الامر . ومع ذلك على المرء التفكير في تفحصها ومقارنتها مع الوسائل التي استخدمها نابليون فعلاً، وعلى النقد مواصلة القيام بذلك بغض النظر عما تؤول إليه النتائج .

لقد امتلأ العالم اعجاباً بنابليون في شباط ١٨١٤ عندما ترك الجنرال بلوخر بعد ان وجه اليه ضربات شديدة في (ايلوجيس) ، و(شام ايوبرت) و (مونت ميريل) واماكن اخرى ، لينقض على (شوارزنبرغ) في (مونتيروا) و(مورمانت) . وبهذا التحويل السريع للقسم الاكبر من قواته جيئة وذهابا فقد استغل نابليون وببراعة فائقة خطأ اعداءه في التحالف بتقدمهم بقوات متباعدة . ولو اعتقد الناس بان هذه الضربات الفائقة وفي كل الاتجاهات قد فشلت في انقاذه ، فذلك على الاقل ليس خطأه ، ولم يكلف أحدٌ ما نفسه ليسأل عما كان سيحدث لو انه وبدلاً من ابتعاده عن بلوخر والرجوع الى (شوارزنبرغ) ، واصل ضرب (بلوخر) ودفعه حتى الراين . ونحن على ثقة من ان مسار وطبيعة الحملة بكاملها كان سيتغير ، كما ان قوات التحالف وبدلاً من سيرها نحو باريس ، كانت ستنسحب عبر الراين . ولا نريد أن يشاطرنا اخرون رأينا ، لكن ما من خبير سيشك في أن النقد جدير بالتمعن في مسلك بديل كهذا حال وروده الى الذهن أو ذكره .

الخيار في هذه الحالة اوضح مما هو عليه في الحالة السابقة . ومع ذلك فقد أُهملً لان الناس درجوا على متابعة خط فكري واحد بشكل اعمى .

الحاجة الى اقتراح طريقة أفضل واكثر ملائمة من الطريقة التي نُفذت وجرى انتقادها ، أدت الى خلق نوع من النقد الذي أُستخدم بأفراط ودون تحفظ ؛ ويظن الناقد أن دوره يقتصر على مجرد الاشارة الى الطريقة الافضل برأيه ، دون تعزيزها باية براهين . سوف لن يقتنع الجميع ؛ وسيتبع اخرون نفس السياق ، وسيبدأ الخلاف دون اية اسس أو ضوابط للمناقشة ، وتزخر الكتابات العسكرية باشياء كهذه .

تدعو الحاجة الى **البرهان** الذي نطالب به حيثما لا تكون ميزة الوسائل المقترحة

واضحة للعيان ولا تفسح مجالاً لاية شكوك ، ويتضمن ذلك تناول كل وسيلة من تلك الوسائل وتعيين وموازنة المزايا الخاصة لكل منها على ضوء علاقتها بالهدف . وحال اختزال وتحويل القضية بهذه الطريقة الى حقائق بسيطة ، فلابد ان ينتهي الخلاف حولها، او ان يؤدي الى نتائج جديدة . الطريقة الاخرى هي ان تلغي الحجج المتعارضة بعضها البعض الاخر .

لنفترض ، على سبيل المثال ، اننا لم نقتنع بما يكفي حول ما في المثال الاخير ، واردنا البرهان على أن مطاردة بلوخر بعنف وقسوة كانت ستفيد نابليون اكثر من الاستدارة نحو (شوارزنبرغ) . وسنستند الى الحقائق البسيطة التالية[١] .

١ . من الافضل عموماً مواصلة الضرب والاندفاع في نفس الاتجاه (اي تعزيز النجاح – المترجم) بدلاً من تحويل الجهد (القوة) من اتجاه لاخر ، لان تنقل القطعات جيئة وذهاباً يعني تضييع الوقت ، واكثر من ذلك فمن الاسهل تحقيق نجاحات اكثر حيث تحطمت معنويات العدو بالخسائر الكبرى ؛ وتتم بهذا الشكل الاستفادة من واستغلال كل نواحي التفوق .

٢ . حتى لو كان بلوخر اضعف من شوارزنبرغ فان روحه المقدامة تجعله اكثر اهمية . لذا كان مركز الثقل ، وسحب القوات الاخرى باتجاهه .

٣ . تكاد الخسائر الفادحة التي تعرض لها بلوخر تقرب من الدمار الحقيقي وبذلك حقق نابليون تفوقاً كبيرا ضده وبشكل لايدع مجالاً للشك في انه سينسحب حتى الراين ، ولا تتيسر أية احتياطات قادرة على التأثير في ذلك الاتجاه .

٤ . ما كان لاي نجاح اخر ممكن ان يسبب هذا القدر من الرهبة والحذر ، او ان يؤثر على موقف التحالف . ومع رجال وهيئات ركن عرفوا بالليونة وقلة العزم (كشوارزنبرغ) يصبح هذا الامر شيء بالغ الاهمية . ما من شك في ان الخسائر التي تعرض لها الامير ولي عهد (فور تنبرغ) في مونتيروا ، والكونت فيتنشتاين في مورمانت

---

(١) لقد درس كلاوزفيتز كافة الحروب والحملات والمعارك الهامة في التاريخ حتى خرج بدراسته هذه لذا لابد للقارئ من دراسة حملة واترلو وذلك الجزء من حملة نابليون في شمال ايطاليا والنمسا عام ١٧٩٧ ليتسنى له متابعة المناقشة ، وكان بودي تلخيص بعض هذه المعارك على شكل هوامش او ملاحق الا ان ذلك يعني مضاعفة حجم الكتاب (المترجم).

قد وصلت انبائها الى الامير شوارزنبرغ ، ومن الناحية الاخرى ، فان انباء سوء الحظ الذي لازم بلوخر على طول الطريق الطويل والمتقطع ما بين المارن والراين ، ما كانت تصل الى شوارزنبرغ الا كنتف اشاعات . لقد كان اندفاع بونابرت اليائس نحو (فيترى) في نهاية اذار ليس سوى محاولة لمعرفة تأثير التهديد بحركة التفاف استراتيجية على التحالف ، كانت تستند وكما هو واضح على مبدأ « الرعب» ، ولكنا الان في ظروف مختلفة كلياً، وبعد دحر نابليون في (لاون) و(ارسيز)[1] ، واجتماع بلوخر مع الامير شوارزنبرغ وتحت قيادتهما (١٠٠) الف رجل .

سوف لن يقتنع بعض الناس بهذه الحجج لكنهم على الاقل ليسوا قادرين على الاجابة بـ« كما ان بونابرت باندفاعه نحو الراين قد هدد قاعدة شوارزنبرغ ، كان هذا بدوره يهدد باريس ، التي هي قاعدة بونابرت» ، والاسباب والحجج التي استشهدنا بها في اعلاه ما كانت لتسمح لشوارزنبرغ بالتقدم نحو باريس .

اما عن المثال الذي أشرنا اليه في (تموز/١٧٩٦) في اعلاه فبوسعنا القول أن بونابرت اعتبر الخطة التي طبقها كافضل ما يمكنه لتدمير النمساويين . وحتى لو صح ذلك فلن تعدو النتيجة نصراً خاوياً يصعب حتى تصور تأثيره على سقوط (مانتوا) . والمسلك الذي أقترحناه كان اكثر قدرة على منع تحرير المدينة ، لكن حتى لو وضعنا أنفسنا مكان بونابرت ، واتخذنا رأياً مخالفاً – مع أنه يقدم فرصة ضئيلة في النجاح – فسيعتمد الاختيار على الموازنة ما بين نصرٍ اكثر إحتمالاً ، الا انه صغير ودون فائدة تقريباً ، ونصر أقل احتمالاً الا انه اكبر كثيراً . فان نظرنا الى الامر على ضوء ذلك فالجرأة كانت ستختار المسلك الثاني ، اما مع النظرة العشوائية العجلى فسيحدث العكس . لقد كان نابليون جديراً باختيار الفكرة الاكثر جرأة ، لذا فما من شك في انه لم يفكر في الامر الى الحد الذي يُقيِّم فيه بوضوح النتائج اللاحقة بالشمولية التي فعلناها نحن على ضوء ما حدث .

---

(١) (Laon) و(Arcis) بلدتان فرنسيتان الاولى شمال شرق باريس وبحدود (١٢٠ كم) عنها ، اما الثانية فشرق باريس باتجاه مدينة نانسي وبمسافة (١٤٠ كم) تقريباً (دليل الطرق الاوروبية) – المترجم –

يتوجب على الناقد ، عند دراسة الوسائل ، وفي الغالب بطبيعة الحال الرجوع الى التاريخ العسكري ، ففي فن الحرب تعد التجربة افضل بكثير من اي عدد او حجم من الحقائق النظرية المجردة . الدليل التاريخي محكوم بشروطه وظروفه الخاصة ، وسنعالج ذلك في فصل خاص ، لكن ولسوء الحظ فان تلك الشروط لاتتطابق مع المرجع التاريخي بل وتزيد الامر غموضاً في العادة .

لابد لنا من التمعن في نقطة مهمة اخرى ، وهي ؛ ما مدى حرية الناقد ، او حتى مدى التزامه بمهمته ، في تقييم حالة منفردة على ضوء معرفته الواسعة، بما فيها كذلك معرفته النتائج ؟ او متى واين ينبغي عليه تجاهل تلك الاشياء كي يضع نفسه مكان الرجل الذي تولى القيادة في ذلك الموقف ، تماماً ؟

اذا اراد الناقد توجيه الثناء او اللوم ، عليه بكل تأكيد ان يضع نفسه تماماً محل القائد ، وبكلمة اخرى، عليه تصور وجمع كل ما كان القائد يعرفه ، والدوافع التي اثرت في قراره ، وتجاهل كل ما لا يعرفه، أولا يستطيع معرفته ، وعلى الاخص النتائج . ومع ذلك فتلك صورة او غاية مثالية يمكن ان نطمح لتحقيقها ، فان لم تتحقق كليا ، فالموقف موضوع البحث والذي يتسبب بحدث ما لا يمكن ان يبدو للمحلل كما بدى للقائم بالعمل او المشارك فيه . كما ان حشداً من الظروف والاحداث الصغيرة والتي قد تكون اثرت على قرار ما وقد ضاعت الان، عدى عن الكثير من الدوافع والمؤثرات الذاتية التي لن تعرف او تكشف ابداً ، وتلك اشياء يمكن اكتشافها في مذكرات القادة، او الاشخاص القريبين منهم جداً، مع ان المذكرات لا تتعامل مع اشياء كهذه الا بعمومية ، وبشكل مدروس بامعان ، وبشيء يقل كثيراً عن الصراحة . الخلاصة هي ان الناقد محروم وعلى الدوام من معرفة الكثير مما يدور في ذهن القائد .

لكن هناك ما هو اكثر صعوبة حتى، وهي ان يوقف الناقد او يتناسى معرفته الخاصة والزائدة عن الامر . وذلك ممكن فقط فيما يخص العوامل الطارئة والانية التي تفرض نفسها في المواقف دون أن تكون جزءً اساسياً منه ؛ الا ان ذلك امر في غاية الصعوبة ولا يمكن تحققه كلياً في جميع الامور الاساسية حقاً .

دعونا اولاً نتمعن في النتيجة . فما لم تكن هذه ضربة حظ او صدفة ، فمن

المستحيل تقريباً منع معرفة ذلك من التأثير على حكم المرء على الظروف التي اثارتها. نحن ننظر الى تلك الظروف والاشياء على ضوء النتيجة، ونعرف الى حد ما ونقيم تلك الاشياء كليا بسبب النتيجة فقط . يشكل التاريخ العسكري نفسه وبكل جوانبه **مصدراً لتوجيه الناقد** ، لذا ينبغي على الناقد[1] ، وكامر طبيعي بل وتحصيل حاصل النظر لكل الاحداث على انفراد وعلى ضوء الكل . لذلك وحتى لو حاول في بعض الحالات تجاهل النتائج كلية فلن يوفق بشكل تام ابداً .

هذه حقيقة ليست فقط بالنسبة الى النتيجة (اي ما سيحدث فيما بعد) بل وعلى الوقائع التي تظهر من البداية – العوامل التي تقرر العمل . سيمتلك الناقد ، وكقاعدة ، معلومات اكثر من المشارك في العمل ، وقد يظن المرء ان بوسعه تجاهل هذا القدر من المعرفة بسهولة ، لكنه لا يستطيع ، لان معرفة الظروف السابقة والمرافقة للحدث لا تعتمد على معلومات محددة بالذات بل على الكثير من الافتراضات والتخمينات . فان لم تتحقق تلك المواصفات ، فستحل محلها تلك الافتراضات والتخمينات . وبوسعنا

---

(١) المأزق النقدي ذو ثلاثة ابعاد اساسية ، دون الاشارة الى ابعاد وجوانب اخرى ليست عامة . الاول في نظرة اللاعب والمتفرج في كرة القدم مثلاً ، فما يراه المتفرج (الناقد) قد لا يراه اللاعب وبالمقابل فما يحس به ويحياه اللاعب قد لا يحسه المتفرج انه صراع الفكر والعمل او النظرية والتطبيق ، المادة والحياة ، فالمفكر غير الذي يتعامل مع الحقيقة الإنسانية ويتخذ وينفذ القرارات التي يتعلق معظمها بالموت . البعد الثاني في حالة الناقد في كتابة او اصدار احكامه في جو يحوطه الترف واسباب الراحة على افعال في ساحة حرب يمتزج فيها العرق والدم والتراب ووسط نيران المدافع وضجيج الالات وتساؤلات اركان الحرب واحتياجات القطعات . اما البعد الثالث فهو ان الناقد غالباً ما يصدر احكامه على العمل بعد وقت قد يمتد الى عشرات السنين ، احكام جازمة وبلهجة استاذية وتقريع ، وبعد ان تتضح اثار وابعاد الاحداث حتى على مناطق ومستويات واحداث بعيدة جداً ، يتحول الناقد هنا الى حاكم يصدر قراراته ببرودة اعصاب قاتله مهما حاول أن يكون موضوعياً .
من هنا يكرر القادة عبارة « ضع نفسك في مكاني » لذا فان افضل النقاد هم اللاعبون انفسهم تقاعدوا ام مازالوا بعد في ساحات الصراع ، او انصرفوا الي التأليف والبحث ، «واهل مكة ادري بشعابها » فانهم ومهما قسوا في احكامهم فانما يصدرون عن معرفة واسعة وعميقة بالموقف الذي ربما مر على مثله الكثير ، من هنا نلمس في كتابات كلاوزفيتز أثر وعمق تجربته الشخصية في الحرب ، ولا ننسى في النهاية ان النجاح يخفي الكثير من العيوب فهو كثير الاباء والاقارب اما الفشل فيخفي الكثير من الحسنات ، وهو وحيد أو لقيط ينكر الجميع – الا في النادر – اية علاقة به – المترجم .

الان تفهم ضرورة عدم تأثر النقاد المتأخرين ، الذين احاطوا بالظروف والمشاهد السابقة، بما لديهم من معرفة عندما يتساءلون ؟ مَن مِن بين الوقائع غير المعروفة هي الاكثر احتمالاً ان تحدث برأيهم في الوقت الذي جرى فيه العمل . مع اننا ندرك ان عزلاً تاماً (للوقائع) كهذا مستحيل هنا ، كما هو مستحيل كذلك عند البحث في النتائج النهائية ، ولنفس الاسباب .

لذلك ان اراد الناقد لوم اواطراء اي عمل بعينه ، فسيكون قادراً والى حد ما ان يضع نفسه في موقف المشارك في العمل . وبوسعه فعل ذلك بشكل كاف في العديد من الحالات للتلائم مع الغرض العملي ، على ان لا ننسى ان ذلك مستحيل في بعض الاحيان كلياً .

ومع ذلك فليس ضرورياً ، ولا مرغوب فيه حتى ان يكيف او يطابق الناقد نفسه بشكل تام مع القائد . ففي الحرب وكما في كل الفنون والحرف الاخر كثيرا ما تدعو الحاجة الى الموهبة الطبيعية المصقولة بالتدريب والمران . وقد تكون البراعة هنا كاملة او قليلة ، فان كانت من النوع الاول فقد تتفوق حتى على قدرات الناقد ، فما الذي بوسع الباحث أن يدعيه بخصوص مواهب فردريك الكبير ، او نابليون ؟ لذلك ، وما لم نود ان نصمت باحترام امام المواهب العظيمة ، يجب ان يسمح لنا بالاستفادة من الافاق الواسعة المتاحة لنا . لذا ينبغي على الناقد تجنب تفحص قرارات وحلول قائد كبير لمعضلة ما ، وكما لو انها مسألة حسابية ، وعليه بدلاً عن ذلك تفهم وادراك نجاحات القائد بشيء من الاعجاب ، وتتابع الاحداث بلين وسهولة ، والطريقة الرائعة التي تعمل فيها عبقريته الفذة. تتولى العبقرية الحركة الاساسية ، او الرابط (Inter connections) الذي يحرك وينظم عمل كل الاقسام الاخرى ، اما النقد فعليه الاقتصار على المعرفة الواقعية .

للحكم وحتى على اصغر لمحات واعمال العبقرية ، من الضروري ان يتبنى الناقد موقفاً او وجهة نظر اكثر شمولية ، لذلك وكلما امتلك ما بوسعه او اي عدد من الاسباب الموضوعية ، ستتقلص عنده الدوافع الذاتية الى الحد الادنى وبهذا يتجنب اصدار اية احكام استناداً لمعاييره ومعرفته والتي قد تكون محدودة .

لن يزعجنا ان يحظى النقد بمثل هذه المكانة العالية ، واطلاق الثناء او اللوم بعد معرفة تامة لجميع الظروف . ولن يتاح ذلك للنقد الا لو تعالي وسلط الاضواء على نفسه، وادعى او تصور ان منابع الحكمة هي في الحقيقة نتاجاً لمعرفته الكاملة ، وان

القضية موضوع البحث في مستوى قدراته . لا يهم كم هو شديد وتام ذلك الدجل ، فالغرور والتفاهة يؤديان اليه بسهولة ، وبطبيعة الحال سينتج عن كل ذلك اخطاء عنيفة . لا يقصد الناقد وفي الكثير والغالب من الحالات ان يكون مغروراً متكبراً ، لكن وما لم يقدم ما يؤكد ذلك فان الشك سيملاء نفس القارئ المتعجل، وسيثير ذلك وعلى الفور تهمة ضعف ونقص الحكم النقدي .

لو اشار الناقد الى ان فردريك الكبير او نابليون قد ارتكبا اخطاءً ، فلا يعني ذلك انه هو نفسه ما كان سيرتكبها ايضاً ، بل قد يقر بانه لو كان في مكان القائد لارتكب اخطاء اكبر . وما يعنيه بذلك هو قدرته على ادراك تلك الأخطار من نمط وتسلسل الاحداث ، كما يشعر بان حصانة القائد ستمكنه من رؤيتها كذلك .

يستند حكم كهذا الى نمط الاحداث ، وهو لذلك يستند **على نتائجها ايضاً**. لكن وبالاضافة الى ذلك ، فقد تؤثر النتائج وبشكل مختلف كليا على الحكم – عند استخدام النتيجة وببساطة كدليل على صحة او خطء العمل . وهذا قد يدعى **بالحكم وفقاً للنتيجة**. وقد لا يبدو هذا الحكم ومن النظرة الاولى مقبولاً ، الا ان تلك قضية اخرى .

عندما تقدم بونابرت نحو موسكو عام ١٨١٢ ، كان السؤال الحاسم ، ما اذا كان احتلال العاصمة بالاضافة الى كلما حدث حتى انذاك ، سيدفع القيصر الكسندر الى قبول الصلح . وقد حدث مثل ذلك فعلاً عام ١٨٠٧ بعد معركة « فريدلاند»[1]،

---

(١) معركة فريدلاند . ١٤/حزيران/١٨٠٧

جزء من حملة فريدلاند التي جرت بعد عام من معركة ينا ، وتقع بلدة (فريد لاند) شمال برلين وكان نابليون يعقب القوات الروسية فارسل الجنرال لانيه مع (–ر١٧) الف مقاتل لتثبيت قوات الجنرال الروسي بينسين ، بينما ارسل نابليون باقي جيشه للتحشد غرباً . عبر الروس نهر «آليه» وكانت قوتهم بحدود (ر٥٨) الف مع (٣٠) الفاً اخرى قريبة فهاجموا لانيه بـ (٤٦) الفاً فقط واحتفظوا بالباقي كاحتياط . ادار لانيه معركة تعويق ولم يسمح للروس بالتقدم لاكثر من ثلاثة اميال . تولى نابليون قيادة المعركة وانقض في الساعة ١٧٠٠ بكل قوته (٨٠الف) رجل وتمكن خلال ساعتين من تدمير الجناح الايسر للروس ودفعهم الى بلدة فريدلاند فابدوا عندها مقاومة قوية الا ان نابليون نجح في الساعة ٢٠٠٠ من دفعهم عبر النهر في ما يشبه هزيمة تامة حيث تركوا (٢٥ الفاً) بين قتيل وجريح مع (٨٠) مدفعاً اما خسائر الفرنسيين فكانت (٨) الاف قتيل . تعد هذه احدى افضل معارك نابليون في خداع وارباك خصومه الذين تفوق قوتهم مجتمعة ما لديه . كان نابليون يبقي قواته مجزأة حتى آخر لحظة ممكنة ثم يأمر بحشدها بسرعة فائقة لتأمين تفوق حاسم في النقاط المهمة . ومثلها كذلك معركتي ريفولي(١٧٩٧) و(دريسدن ١٨١٣). وفي تنويع مذهل لمناورته كان يحاول احياناً تحشيد =

كما اثبت جدواه عامي ١٨٠٥ ، و ١٨٠٩ مع الامبراطور فرانسيز (النمساوي) بعد معركتي (اوسترليتز) و (فاكرام) . فما لم يوقع الصلح في موسكو فليس امام نابليون من خيار اخر سوى الاستدارة والعودة ، الامر الذي يعني انحداراً استراتيجياً مريعاً .

لنترك الخطوات التي تقدم بها نحو موسكو جانباً ، ولندع كذلك السؤال عما اذا كانت قد فاتته خلال تقدمه فرصاً عديدة كان يمكن ان تقنع القيصر بقبول الصلح . كما لنترك جانباً الظروف المزعجة التي رافقت تراجع نابليون ، والتي تكمن جذورها في ادارة الحملة ككل . ويبقى السؤال الحاسم هو نفسه؛ وهو وبغض النظر عن مدى نجاح التقدم نحو موسكو ، الا انه ظل في شك من قدرته على اخافة القيصر الى الحد الذي يدفعه الى طلب الصلح . وحتى لو لم يؤد التراجع الي تدمير الجيش الفرنسي ، فلا يمكن ان يعني سوى انحداراً استراتيجياً كبيراً. ولو كان القيصر قد وقع على سلام ليس في صالحه لانتهت حملة نابليون بنجاح يضعها مع حملاته الشهيرة في اوسترليتز وفريدلاند وفاكرام. فلو لم تؤدي هذه الحملات الناجحة هي الاخرى الى الصلح لكانت انتهت على الاكثر بكارثة مشابهة . وبغض النظر عن القوة، والمهارة ، والحكمة التي اظهرها قاهر العالم ، فان السؤال المأساوي الاخير يظل نفسه وفي كل مكان . فهل ينبغي علينا عندها تجاهل نتائج حملات اعوام ١٨٠٥ ، ١٨٠٧ ، ١٨٠٩ ، ونعلن بعد تفحص حملة عام ١٨١٢ وحدها ، انها كانت نتيجة الصفاقة والطيش ، وان نجاح تلك الحملات كان خرقاً للقانون الطبيعي ؟ وهل ينبغي علينا التأكيد على ان العدالة الاستراتيجية قد تفوقت اخيراً على الصدفة العمياء ؟ سيكون هذا استنتاجاً قسرياً ، وحكما اعتباطياً ، ضاعت نصف شواهده ، لان العين البشرية عاجزة عن متابعة الرابط الاساسي للأحداث رجوعاً الى قرارات الملوك المغلوبين .

= قواته ما بين جيشين معادين ثم يهزمهما الواحد تلو الاخر . وتعتبر اولى وآخر حملاته افضل امثلة ذلك وهما (مونتينوتي) و (واترلوا) ويعزى فشله في الاخيرة الى الفشل في التنفيذ (يتساوى في ذلك هو ومرؤوسيه) بشكل ينسجم مع مفهومه الاستراتيجي الرائع . اما معركتا (اوسترليتز) و (فاكرام) فكلتاهما جرت ضد النمسا واولاهما تعد من افضل معارك نابليون ومن اشهر المعارك الاوروبية ويمكن الرجوع اليها في المصادر الخاصة (المترجم) للمزيد . راجع .

١ - التاريخ العسكري - اسفار بعض القادة العظام - كتاب رسمي - مطبعة الجيش - بغداد .

٢ - Encyclopechia of Military History . by . E. Dupuy - pub - Harper and Row (New York - 1970) p. 741 - 752 .

ما زال بوسعنا على الاقل القول بان حملة عام ١٨١٢ كان يجب ان تنجح هي ايضاً كالاخريات ، وان فشلها يعزى الي شيء غريب جداً ، ولكن ما من شيء خارق في صمود القيصر الكسندر .

فاي شيء اكثر طبيعية اذن من القول ان نابليون قد احسن تقدير خصومه في أعوام ١٨٠٥ ، ١٨٠٧ ، ١٨٠٩ ، بينما فشل في ذلك عام ١٨١٢ ؟ لقد كان مصيباً في الامثلة الاولى ، ومخطئا في الاخير ، وبوسعنا قول ذلك **لان النتائج تؤكده** .

في الحرب ، وكما اوضحنا سابقاً ، تستهدف كل الاعمال نجاحاً محتملاً اكثر منه نجاحاً مؤكداً ، ويجب ان تترك درجة الشك وعدم التأكد وفي كل حالة الى القدر ، والصدفة ، او ايما شئت ان تدعوه . وقد يسأل المرء بطبيعة الحال ، هل ينبغي ان يكون هذا الاعتماد على اقل ما يمكن ؛ لكن فقط عند الاشارة الى حالة خاصة – وبعبارة أخرى ، ينبغي **ان يكون على أصغر ما يمكن في تلك الحالة المنفردة.** على ان لا نعتاد تفضيل المسلك الذي يتضمن اقل المجاهيل (Uncertainty) ، اذ سيكون ذلك خطأً كبيراً جداً وكما ستظهر مناقشاتنا وحججنا الفكرية ذلك . هناك اوقات تعد فيها الجرأة القصوى ، قمة الحكمة .

سيبدو ان لا علاقة لجدارة القائد الشخصية ، ولا لمسؤوليته كذلك بكل الاسئلة التي ستترك للصدفة ، ومع ذلك فلا يمكن تكرار احساسنا بشيء من الرضا الداخلي كلما سارت الامور بشكل صحيح ، وبخلاف ذلك سنعيش نوعاً من الانزعاج الفكري بكل تأكيد . **وهذا هو كل المعنى الذي ينبغي اضافته الى الحكم بالصواب والخطأ الذي نستنتجه من النجاح، او بالاحرى ما نجده في النجاح.**

لكن من الواضح ان السرور الفكري بالنجاح ، والانزعاج من الفشل انما ينطلقان من احساس غامض لنوع مرهف لرابط، لا يرى بالبصيرة ، ويستقر ما بين النجاح وعبقرية القائد . انه افتراض مكافئ ومقنع . وتظهر وتؤكد حقيقة ذلك بواقع تزايد تعاطفنا ، وحماسنا مع تكرر النجاح والفشل لدى نفس الرجل . لذلك للحظ في الحرب قيمة تفوق ما له في القمار [1]. وطالما لم يتسبب لنا القائد الناجح بأي أذى او ازعاج فسنتابع اعماله بشيء من السرور والود .

---

(١) كان نابليون يجعل الحظ الحسن في المعارك اخر شروطه لترقية ضباطه لا سيما الامرون والقادة ، كما ان الانكليز يضعون الحظ كاخر عوامل نجاح القائد بعد اكمال جميع الاستعدادات الاخرى عن كتاب (العراق بين ولائين) لويلسن ترجمة فؤاد جميل ص ٢١٥ – المترجم .

بعد ان يحلل الناقد كلما يقع ضمن نطاق الحسابات والقناعات البشرية ، سيترك النتائج تتحدث عن ذلك الجزء الذي لا يمكن رؤيته من العملية العميقة الغامضة . وعلى الناقد حماية هذه النتيجة التي لا يمكن وصفها ، من عمل القوانين العليا ضد سيل الاراء الفجة من ناحية ، وضد الاتهامات الرخيصة والتي تكون لدوافع ذاتية من ناحية اخرى.

يُمكننا النجاح من تفهم عدم قدرة الفكر البشري بالعمل وحده على الاكتشاف. وهذا يعني أن من المفيد اساساً الكشف عن العوامل والقوى الفكرية والنفسية وتأثيراتها لانها على الاقل قابلة للتقويم ، وكذلك لانها وثيقة الصلة جداً مع الارادة التي بوسع هذه العوامل التحكم فيها بسهولة . وحيثما يتحكم الخوف او الشجاعة في القرارات ، فلن يعد ممكنا الحكم على تلك القرارات بصورة موضوعية ، ولن نتوقع قدرة الذكاء ، والحسابات كذلك على القرار على النتائج المحتملة .

لابد ان يسمح لنا الان ببعض الملاحظات حول الادوات التي يستخدمها النقد - المصطلحات، لانها وبشكل ما تترافق مع العمل في الحرب . والتحليل النقدي ، بعد كل شيء ليس سوى التفكير الذي ينبغي ان يسبق العمل . لذلك نرى من الضروري ان يكون للغة النقد نفس السمات التي يتخذها التفكير في الحروب ، والافقدت قيمتها العملية ، كما سيفقد النقد صلته بالموضوع .

في تاملاتنا حول نظرية ادارة الحرب ، قلنا بوجوب تدريب عقول القادة ، او على الاقل توجيه عملية تثقيفهم ؛ ولا تعني النظرية توفير عقيدة موضوعية او نظم جاهزة للقائد كي يستخدمها كادوات فكرية . واكثر من ذلك فان لم يكن من الضروري ابداً ، او مسموحاً به استخدام توجيهات علمية للحكم بواسطتها على المعضلة المطروحة في الحرب ، وان لم تتضح الحقيقة في شكل منتظم ابداً ، وان لم يتم التحري والبحث عنها بطريقة استدلالية ، بل **وبشكل مباشر دائماً** ومن خلال التأمل الطبيعي للعقل ، وعليه فتلك هي الطريقة الواجبة في التحليل النقدي اذن.

علينا الاقرار انه وحيثما يغدو التحكم بوقائع الموقف امر بالغ الصعوبة ، ليس امامنا سوى الرجوع الى المبادئ التي ارستها النظرية . لكن وبنفس الطريقة وكما في الحرب فيمكن خدمة تلك الحقائق والتعامل معها بشكل أفضل من قبل القائد الذي استوعب معانيها في عقله ، اكثر من الاخر الذي يتعامل معها كقواعد خارجية جامدة ، لذا على النقاد ان لا يطبقوها كقانون خارجي أو كصيغ رياضية (جبرية) لا تدعو

الحاجة الى تأكيد صلتها في كل مرة نحتاج استخدامها . ينبغي ان يسمح لتلك الحقائق ان تفصح عن نفسها ، بينما تترك الادلة الواضحة والمعقدة فقط للنظرية ، متجنبين بذلك إستخدام لغة غامضة أو مجردة ، وأن نعبر عما نريده بلغة بسيطة ، وبسياق عقلاني وواضح للمفهوم .

بعد التأكد من تعذر انجاز ذلك كليا ودائماً ، يجب أن يظل الامر مع ذلك هدفاً للتحليل النقدي . كما لا ينبغي استخدام الصيغ المعقدة للادراك والمعرفة الا باقل ما يمكن ، ينبغي على المرء ان لا يستخدم ابداً الصيغ العامية المعقدة ، وكانها حقائق آلية رتيبة ، واخيراً ينبغي القيام بكل ذلك من خلال الاداء الطبيعي للعقل .

مع ذلك فنادراً ما ساد هذا المطمح المثالي والممتاز ، ان جازت لنا هذه التسمية ، على الدراسة النقدية ، بل وعلى العكس تماماً فان نوعاً من الغرور والتفاهة قد حول معظم تلك الدراسات الى مجرد استعراض سخيف للأفكار .

الخطأ الشائع الاول هو الاستخدام السيئ وغير المقبول لمفاهيم وصيغ محدودة وكأنها منظومات قانونية ثابتة . وليس من الصعب على الدوام استعراض النظرة الاحادية في مناهج كهذه ، ولا نحتاج لاكثر من ذلك لاثبات بطلانها ولا جدواها بشكل جازم ونهائي . نحن نتعامل هنا مع معضلة محدودة ، ونظراً لان عدد المناهج التي يمكن استخدامها غير محدود، يظل هذا الخطأ اهونّ شرين نهتم بهما .

الخطر الابعد والاكثر جدية هو هذه **الحواشي الطنانة** أو هذا الكم الهائل من **التقنيات الفنية والاستعارات اللفظية** التي تسود تلك المناهج ، وتنتشر في كل مكان – كحشد من الطفيلين المتمردين الذين يلاحقون المعسكرات . وكل ناقد غير قادر على تطبيق منهج ما – اما لانه لم يجد ما يعجبه منها ، او لأنه لم يذهب بعد حتى ذلك المدى – فسيواصل استخدام وتطبيق أية اجزاء أو نتفٍ تقع تحت يديه ومن اي منها وكأنها قاعدة او مقياس لاظهار اخطاءٍ وعيوب مسلك القائد . بوسع القليل من النقاد مواصلة عملهم دون الدعم الذي يقتضيه الموقف ، من مثل هذه النتف والمغالطات للنظرية العلمية العسكرية . واكثر هذه الاشياء اهمية – مجرد مصطلحات فنية واستعارات – ليست في بعض الاحيان اكثر من زخرفة وتزويق للسرد النقدي . لكن ستفقد كل هذه التسميات والمصطلحات الفنية للمنظومة موضوع البحث كلما كان لها من معاني لا محالة ، هذا ان كان لها اي معنى ، حال اجتزائها عن نصوصها

واستخدامها كحكمة عامة ، او خلاصة لحقيقة يفترض ان تكون اكثر فعالية واقناع وليست مجرد بيانات بسيطة .

وهكذا نصل الى بحوثنا وكتاباتنا النظرية والنقدية ، وبدلاً من تقديمها لحجج ومناقشات بسيطة وواضحة وامينة يعرف الكاتب على الاقل منها وعلى الدوام ما الذي يقوله ، والقارئ ما الذي يقرأ ، نراها قد امتلئت بالزخرفات الفارغة ، كما تنتهي الى مفترقات غامضة يفقد الكاتب فيها قراءه. تكون تلك الكتابات احيانا حتى اسوء من ذلك ، فهي لا اكثر من قشور جوفاء لا يعرف حتى الكاتب نفسه ما الذي يفكر فيه ، فيحيط نفسه بافكار وعبارات فارغة لا ترضيه هو نفسه لو صيغت في اسلوب وكلمات بسيطتين .

للنقد عيب ثالث[1] بعد : هو تباهي النقاد بمعارفهم التي التقطوها من كتابات الاخرين ، وبالاستخدام الناقص والمشوه للأمثلة والشواهد التاريخية . لقد سبق لنا بيان ماهية تاريخ فن الحرب ، وكذلك سيطور رأينا في الامثلة التاريخية وفي التاريخ العسكري عموماً في فصول تالية . رب حادثة يرد ذكرها عرضاً ، قد تستخدم لدعم وتأييد اكثر ، الاراء اختلافاً ، كما أن ثلاث او اربعة امثلة من عصور واماكن بعيدة ، تجمع وكيفما اتفق الى بعضها البعض ، رغم انها حدثت في ظروف متنوعة على اوسع نطاق ممكن فلا يمكن ان يؤدي ذلك الا الى ارباك وتعقيد احكام المرء دون ان يؤكد شيئاً، وضوء النهار العادي كافٍ وحده ليؤكد لنا انها مجرد حشو وهراء يحاول بعض الكتاب من خلالها استعراض ما لديهم من معارف جمة .

ما القيمة العملية لتلك الافكار الغامضة ، وحتى الكاذبة الى حد ما ، والمربكة والعشوائية ؟ وليس فيها سوى قيمة قليلة جدا – بل وضئيلة لاتكاد تذكر ، فقد صاغوا نظرية كانت ومنذ البداية على نقيض تامٍ والتجربة العملية ، وكثيراً ما كانت موضع سخرية واستخفاف رجال مشهود لهم بالكفاءة ولا جدال حول مقدرتهم وادائهم العسكري .

---

(١) لعل الكاتب نفسه وقع في بعض ما يلوم النقاد والباحثين عليه من اطاله واستعراض للمعارف ترهق القارى والكاتب نفسه حتى، وكان بوسعه الايجاز او احالة القارىء الى نماذج من هذا النقد السيء لمراجعتها. المترجم

ما كان لاي شيء من ذلك ان يحدث ، لو انهم حاولوا وباي شكل كان تجنب ذلك واستخدام تعابير ومصطلحات بسيطة مع متابعة وملاحظات دقيقة وامينة لنظرية ادارة الحرب وبحثوا من اجل الوصول الى احكام والى تحديد كلما يمكن تحديده ، ولو تخلوا كذلك عن هذا التبجح والتعالي ، وتركوا جانباً هذا الاستعراض الذي لا معنى له للصيغ العلمية والمغالطات التاريخية ، لكانوا اقرب واكثر التصاقاً مع جوهر ما يبحثون فيه ، ولما اختلفوا كثيراً عن اولئك الرجال الذين يتولون معالجة الامور في المعركة على ضوء حصافتهم ومواهبهم الخاصة .

الفصل السادس

الشواهد التاريخية

توضح الشواهد التاريخية كل شيء ، كما توفر افضل انواع الادلة والبراهين في العلوم التجريبية ، وينطبق ذلك وبشكل خاص على فن الحرب . يرى الجنرال شارنهورست ، والذي يعد كتابه التعليمي من افضل ما كتب عن الحرب الحقيقية ، أن للشواهد التاريخية اهمية اساسية في الموضوع ، كما استخدمها الجنرال شارنهورست نفسه بشكل رائع للغاية . ولو كان عاش حربي (١٨١٣ ، ١٨١٥) لكان الجزء الرابع من كتابه المنقح عن المدفعية سيتناول بشكل افضل قوة، واهمية الملاحظة و التعليمات التي عالج فيها تجربته .

مع ذلك فنادراً ما يستخدم المثال التاريخي بمثل هذه القوة والتأثير الجيدين ، بل وعلى العكس فقد استخدمت تلك الامثلة من قبل الباحثين والمنظرين بشكل لم يحرم القراء من اية فائدة وحسب ، بل واربك عقولهم حتى . لذلك نرى ضرورة تركيز الانتباه على الاستخدامين الجيد والسيئ لتلك الامثلة .

ما من شك في أن المعرفة الاساسية لفن الحرب هي معرفة تجريبية . وبينما يستنبط معظم هذه المعرفة من طبيعة الاشياء ، الا ان هذه الطبيعة ذاتها لا تتضح لنا الا بالتجربة فقط . واكثر من ذلك ، فقد طور استخدام وتطبيق المعرفة بالعديد من الظروف التي لا يمكن ان تترسخ تأثيراتها كاملة من طبيعة تلك الوسائل منفردة فقط.

فتأثير البارود – العامل الرئيسي في الفعاليات العسكرية – لا يمكن تفحصه وعرضه الا بالتجربة ، وما زالت التجارب مستمرة لتفحص ودراسة افضل له .

من الواضح طبعاً أن الكرات الحديدية الصغيرة في عتاد المدافع ، والتي تندفع بقوة البارود بسرعة (١٠٠٠ قدم/ثانية) قادرة على سحق اي مخلوق حي في طريقها، ولا يحتاج المرء الى تجربة حية لاقناعه بذلك ، الا ان هناك المئات من التفاصيل ذات العلاقة والتي تحدد وتنتج مثل هذا التأثير ولا يمكن الكشف عن بعضها الا بالتجربة. يضاف الى ذلك أن التأثير المادي وحده ليس هو المهم فقط ، فالتأثير النفسي (المعنوي) هو الذي يعنينا ، والتجربة هي الوسيلة الوحيدة للبرهنة على ولتقييم هذا التأثير . كانت الاسلحة النارية الصغيرة (اليدوية) تعد في العصور الوسطى اختراعاً

جديداً ، وكانت بدائية للغاية ، ولم يكن لتأثيرها المادي سوى اهمية اقل بكثير مما لها اليوم ، الا ان تأثيرها المعنوي كبير جداً . وعلى المرء ان يرى بعينيه صمود وبسالة احدى القوات التي دربها وقادها نابليون في احدى غزواته - يراها تحت النيران الضارية التي لا ترحم - كي يلمس ويتأكد عما بوسع قطعات تمرست طويلاً بالتجارب والخبرات ، ان تفعله في مواجهة الاخطار والمصاعب ، والتي استخلصت بفعل سجلها المشرف المكلل بالانتصارات المبدأ النبيل في تقبل اقسى المهام . وليس من السهل تصور تقبل ذلك ، بل انها قد لا تصدق كفكرة ، ومن الناحية الاخرى ، هناك جيوش اوروبية ما زالت تحتفظ بقطعات من ابناء التاتار ، والقوزاق ، والكروات ، والتي تلوذ بالفرار في كل اتجاه بمجرد قذفها ببضع قنابل مدفعية .

مع ذلك ، فالعلوم التجريبية ، بما فيها فن الحرب لا تستطيع دائماً دعم استنتاجاتها بادلة تاريخية . كما ان سعة نطاق ما يطلب تغطيته ستؤدي في الغالب الى استبعاد مثل هذا الدعم ، وبغض النظر عن ذلك ، قد يصعب الاستشهاد بتجربة حقيقية بكل تفاصيلها . فلو حدث ان وسائلا معينة في الحرب اصبحت بالغة التأثير ، فستستخدم ثانية ؛ كما سيقلدها اخرون وتغدو شائعة الاستعمال ، وهكذا يسهل دعمها بالتجارب، وستغدو من الوسائل العامة وجزءً من النظرية . تكتفي النظرية بالرجوع الى التجارب بشكل عام للأشارة الى اصل الطريقة ، لا لأثباتها .

اما الاستشهاد بتجربة ما ، لاستبعاد طريقة ما زالت قيد الاستخدام ، فأمر مختلف اذ يعني الاستشهاد هنا تأكيد للشكوك المثارة ، او لطرح طريقة جديدة . يجب في حالات كهذه ان تستخرج الأمثلة المنفردة المختارة من التاريخ كأدلة.

لعل نظرة وثيقة لاستخدام الامثلة التاريخية قد تساعدنا في تمييز اربع وجهات نظر :

الأولى: وقد يستخدم المثال التاريخي وببساطة **كتفسير** لفكرة، فالمناقشة المجردة بعد كل شيء يسهل فهمها بشكل مغلوط او لا تفهم حتى . وعندما يخشى الكاتب شيئاً كهذا ، قد يستخدم مثلا تاريخياً لالقاء الضوء الضروري على الفكرة التي بين يديه ، وليحافظ على اتصاله مع قراءه .

الثانية : قد يخدم في اراءة **تطبيق** فكرة ما . والمثل يقدم للمرء الفرصة لاظهار حركة جميع العوامل والظروف الصغيرة التي يصعب ادخالها في الصياغة العامة للفكرة . هذا هو الفرق حقاً ما بين النظرية والتطبيق (التجربة) . وكلتا الحالتان السابقتان (١ ، ٢) تهتمان بالامثلة الحقيقية ، اما الحالتين التاليتين (٣ ، ٤) فتهتمان بالبرهان التاريخي .

الثالث : بوسع المرء اللجوء الى الواقعة التاريخية لتأييد ما لديه . وهذا كافٍ حيثما توخى المرء البرهنة على **امكانية** بعض الظواهر او التأثيرات .

الرابعة والاخيرة : وهي ان العرض المفصل للحادث التاريخي ، وجمع عدة احداث يجعلان من الممكن استنتاج منهج (عقيدة) ، وبرهانها في الشاهد نفسه .

لا يستلزم استخدام الطريقة الأولى عموماً سوى ذكر موجز للحالة فقط ، لان جانباً واحداً منها فقط يعنينا . والحقيقة التاريخية ليست ضرورية هنا حتى ، بل ان حالة او مثالاً يتخيله الكاتب قد يفي بالغرض . مع ذلك فللأمثلة التاريخية ميزة دائمية في انها اكثر واقعية ، وانها تضفي على الفكرة المراد توضيحها الكثير من الحيوية .

يتطلب استخدام النوع الثاني عرضاً اكثر تفصيلاً للاحداث ؛ لكن اصالة الحادث ليست اساسية هنا ايضاً . فكل ما نفعله هو اعادة ما قلناه حول الحالة الاولى اعلاه .

كقاعدة ، يمكن تحقيق الغرض الثالث بشكل كاف بسرد مبسط لحقيقة لا جدال حولها . فلو حاول احدهم ان يوضح لنا ان المواضع المحصنة قد اثبتت كفاءتها في ظروف معينة ، فان ذكره لموضع (بانزلفيتز)[1] سيؤكد دعواه .

---

(١) معسكر بانزلفيتز قرب بلدة كلاتز (كلودسكا حالياً) في بولندا وقرب حدود جيكوسلوفاكيا الشمالية . والشاهد التاريخي حدث في حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) بين بروسيا ودول التحالف (النمسا ، فرنسا ، روسيا ، السويد ، ساكسوني) اذ تحرج موقف فردريك الكبير عام ١٧٦١ في الشرق ولم يكن تحت امرته سوى (١٠٠) الف مقاتل او ثلث ما لدى اعداءه فأثر الانسحاب الى معسكر بانزلفتيز وقضى عشرة ايام بلياليها في تحصينه بشكل سريع ومرتجل ، الا أن جهوده هذه اتت اكلها بشكل رائع للغاية ، اذ زرع الشكوك في قلب اعداءه ، فبينما اراد الجنرال النمساوي (دون) مهاجمة فردريك بسرعة رفض الجنرال الروسي (بوتورلن) ذلك وأثر الانسحاب فتراجع النمساويون تبعاً لذلك الى المعسكرات الشتوية ، وكذلك فعل فردريك الكبير – م. ت. ع ص ٦٧٥ – المترجم .

مع ذلك فلو استعرضت حادثة تاريخية لتأكيد حقيقة عامة ، فلابد من التأكد من أن كافة جوانب الحقيقة موضوعة البحث قد تطورت كلياً ووفق ظروفها– جمعت بدقة، ان جاز لنا قول ذلك ، أمام اعين القراء . تتوقف قوة البرهان على الحد الذي يمكن المضي اليه في ذلك، وسيكون من المهم استخدام عدد أخر من الحالات (الشواهد) من اجل تقديم وتوضيح الدليل الذي تعذر تأكيده بمثال او حالة واحدة . كما يحق لنا افتراض ، أننا وما لم نستشهد بتفاصيل اكثر دقه، فلن نحقق التأثير المطلوب الا بعدد كبير من الامثلة.

لنفترض أن احدهم اراد البرهنة بالتجربة على ضرورة وضع الخيالة خلف المشاة وليس في صف واحد معهم ، او وكمثال اخر ، فما لم يكن احد الاطراف متفوق عدديا فمن الخطر الشديد عليه ، المناورة باستخدام ارتال متباعدة كثيراً لتطويق العدو ، سواء جرى ذلك في ساحة المعركة ، او في مسرح العمليات ، اي وبعبارة اخرى تعبوياً او استراتيجياً . فاما بالنسبة للمثال الاول ، فلا يكفي الاستشهاد ببضعة اندحارات كانت الخيالة فيها على الاجنحة ، ولا للأستشهاد وعلى العكس من ذلك بعدد أخر من الانتصارات كانت الخيالة فيها خلف المشاة . اما عن المثال الثاني فلن تكفي كذلك الاشارة الى معارك (ريفولي) او (فاكرام) ، ولا الى الهجوم النمساوي في المسرح الايطالي ، أو الهجمات الفرنسية في المسرح الالماني في حرب (١٧٩٦م). يجب على المرء وبدلاً من ذلك أن يتتبع وبدقة كل الظروف والحوادث الفردية لايضاح الطريقة التي اسهمت فيها انواع تلك المواضع والهجمات بالتحديد في الاندحار ، وستوضح لنا النتيجة ، **الى اية درجة** كانت تلك الانواع غير مجدية – وهذه نقطة لابد لنا من معالجتها على اية حال ، لان الرفض العام لها سيتعارض مع الحقيقة .

لقد وافقنا تواً انه ، وحيث يتعذر تقديم وقائع وحسابات دقيقة ومفصلة ، فاي نقص في الدليل يقع في عدد الامثلة، وتلك وسيلة شديدة الخطورة ، وغالباً ما اسيئ استخدامها . اذ ، وبدلاً من تقديم مثالاً او حالة واحدة بتفصيل تام ، يكتفي النقاد بمجرد الاقتراب من ثلاثة او اربع امثلة ، او تناولها عرضاً ، وكأنها تمثل برهانا قوياً ، متناسين أن دزينة من الامثلة قد تعجز عن البرهنة على اي شيء احياناً – اذا كانت ، وعلى سبيل المثال مما يتكرر وقوعه كثيراً ، فبوسع المرء الاستشهاد بدزينة مقابلة من الحالات التي انتهت المواقف فيها الى نتائج معكوسة ، فلو اورد احدهم اي عدد من اندحارات كان الطرف الخاسر فيها قد شن هجومه بارتال مجزأة ، استطيع انا بالمقابل ايراد دزينة

من انتصارات استخدمت فيها نفس الاساليب (Tactics) ، من الواضح انها ليست الطريقة المناسبة للخروج باستنتاجات .

سيوضح لنا التفكير في تلك الظروف المتناقضة ، السهولة التي اسيء استخدام الامثلة فيها .

فالحادث الذي يكتفى بمجرد اشارة عابرة له ، بدلاً عن استعراضه بتفصيل دقيق، يشبه شيئاً ما ينظر اليه من مسافة بعيدة جداً ، من الصعب جداً تميز اية تفاصيل ، كما سيبدو بنفس الشكل من اية زاوية نظرنا اليه . لقد استخدمت امثلة كهذه فعلاً ولكن لتأييد مختلف الاراء واشدها اختلافاً في آن واحد لقد كانت حملة الماريشال ليوبولد دون[1] (Daun) النمساوي عام ١٧٥٧م ، انموذجاً للحكمة والتبصر في نظر البعض ، لكنها وفي الوقت نفسه كانت مثلاً على التردد والجبن في نظر آخرين ، كما اثار اندفاع نابليون عبر جبال الألب «Norican Alps» البعض فوصفوه بانموذج رائع لا مثيل له للجرأة ، بينما دعاه آخرون تهوراً تافهاً . قد يسجل اندحار نابليون الاستراتيجي عام ١٨١٢ (في روسيا) الى كونه تجاوز لحدود طاقته ، كما اعتبر ناجماً عن نقص الطاقة . لقد أُستعرضت جميع تلك الاراء وعبر عنها بوضوح ، وبوسع المرء بسهولة معرفة الاسباب وراء ذلك ؛ فقد فسر نمط وتتابع الاحداث بطرق مختلفة . ومع ذلك فلا يمكن ان تصمد كل هاتيك الاراء المختلفة ولابد ان يكون هذا الرأي او ذاك خاطئاً .

---

(١) كان الماريشال دون ، والجنرال جارلس امير اللورين يقودان القوات النمساوية في قوات التحالف ضد ملك بروسيا فردريك الكبير في حرب السنوات السبع . هاجمت القوات النمساوية قوات دوق (برونزويك) قرب مدينة (بريسلاو) في ١٧٥٧/١١/٢٢ ، فاحتلت المدينة وهزم الدوق . سارع فردريك الكبير وحال سماعه ذلك بقوته (–ر١٣) الف مقاتل قاطعاً مسافة (١٧٠) ميلاً في (١٢) يوم ، وبعد ان ضم اليه بقايا قوات الدوق اصبح مجموع قوته (–ر٣٦) الف مقاتل فتحول الى الهجوم وخاض معركة (ليوثين) الشهيرة في ١٧٥٧/١٢/٦ . كانت قوات التحالف تضم حوالي (–ر٨٠) الف مقاتل فانتصر فردريك في واحدة من اشهر معارك التاريخ والتي قال عنها نابليون بانها « مثال نادر على قوة المناورة والحسم » وتعد عموماً مأثرة عسكرية بارعة من صنع الرجل الذي ربما كان اقدر التعبويين في التاريخ العسكري . للمزيد نرجو مراجعة موسوعة التاريخ العسكري – الانكليزية (ص – ٦٧١) .

يستحق الجنرال فيوكواريز [1] شكرنا ، فقد ترك لنا هذا الرجل الرائع ذخيرة من الامثلة التاريخية التي تزخر بها مذكراته . فلم يكتف بتدوين عدد من الاحداث التي كان يمكن ان تضيع او تنسى ، بل كان اول من اجرى مقارنات مفيدة وضافية حقاً ما بين الافكار النظرية المجردة والتجارب الحية والى الحد الذي يمكن معه اعتبار الحالات التي استشهد بها كتفسير وتحديد دقيقين لتقييماته الفكرية . رغم انه ، من وجهة نظر القارئ المعاصر ، لم يحقق الغاية التي رسمها لنفسه عادة، وهي ان يؤكد ويبرهن المبادئ النظرية عن طريق الامثلة التاريخية . ورغم انه كان يسجل الاحداث احياناً مع بعض التفاصيل ، الا انه فشل في اثبات ان ما استخلصه من استنتاجات كان النتيجة المنطقية التي لابد منها للنمط المتأصل للأحداث المتعاقبة .

هناك عيب آخر ينجم عن السطحية في تناول الاحداث التاريخية او الالمامة السريعة بها وحسب ، ويكمن ذلك العيب في واقع كون بعض القراء لا يعرفون الكثير عن تلك الاحداث ، او قد لا يتذكرونها بشكل يمكنهم من استيعاب ما في ذهن او ما يريده الكاتب وما من خيار امام هؤلاء القراء سوى القبول وتصديق ما يرد في المناقشة ، او تجاهلها واللامبالاة ازائها كلياً .

من الصعب طبعاً استعادة الحادث التاريخي او بناءه وتقديمه امام القارئ بالطريقة المرجوة من وراءه اذا اريد استخدامه كدليل . فنادرا ما تتيسر للكاتب الوسائل والمجال او الوقت لذلك . مع ذلك نؤكد وبقدر تعلق الامر بطرح رأي جديد أو مثير للجدل ، فان تقديم مثل واحد يعرض بتفاصيل دقيقة وواقعية أفضل كثيرا من الاكتفاء باشارات قليلة او عابرة الى عشرة شواهد . الاعتراض الاساسي على معالجة سطحية كهذه ليس اعلان الكاتب عن عدم رغبته في اثبات شيء ما ، بل لانه هو نفسه لم يستوعب الحادث الذي يستشهد به ولان هذا التناول اللامسؤول للتاريخ تسبب بمئات الافكار الخاطئة والتنظير الزائف ، وما كان ذلك ليحدث لو التزم الكاتب بمهمة اثبات ان ما يعرضه امامنا من افكار جديدة لها دعم واسانيد تاريخية ، ولاخلاف حول استخلاصها من نمط واضح ودقيق للأحداث .

---

(١) ماركيز دي فيوكواريز ، انطوني مينيبه دي يا ، جنرال فرنسي (١٦٤٨ - ١٧١١) .

بعد تقبل صعوبات استخدام الامثلة التاريخية ، سيصل المرء الى اكثر الاستنتاجات وضوحاً ، وهو ضرورة اختيار الامثلة التاريخية من التاريخ العسكري الحديث ، طالما ان هذه عرفت وقيمت بصورة دقيقة .

ليس فقط لان الظروف ستختلف كثيراً كلما تباعدت العصور ، مع اختلاف سبل وطرق شن الحرب ، بحيث لم يعد للحروب في العصور المبكرة سوى القليل من الدروس لتعلمها ، بل لان التاريخ العسكري ، وكاي شيء آخر ، سيفقد مع تتابع العصور الكثير من الاحداث الصغيرة والتفاصيل التي كانت واضحة يوما ما . كما سيفقد بعض عناصر واجواء التشويق والحيوية كالصورة التي تخبو وتفقد حيويتها تدريجياً . وكلما يتبقى في النهاية وتبعاً للصدف تقريباً ، الكثير من الاحداث الكبرى والمتميزة ، والتي تحضى تبعاً لذلك باهمية قد لا تناسب قيمتها الحقيقة .

لو تفحصنا ظروف الحرب الحديثة ، فسنجد ان اكثر الحروب شبهاً بحروب ايامنا الحالية ، وعلى الاخص من حيث التسليح ، اولاً تلك الحملات التي بدأت مع حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ – ٤٨) فرغم تبدل العديد من الاحوال والظروف الكبيرة والصغيرة تظل تلك الحملات قريبة جداً ويمكن للحرب الحديثة الافادة منها . الا ان الوضع يختلف كثيراً بالنسبة لحرب الوراثة لاسبانية (١٧٠١ – ١٤) ، اذ ما زال استعمال الاسلحة النارية ايامها اقل تقدما ، كما كانت الخيالة هي السلاح الاكثر اهمية، وكلما عدنا الى الوراء اكثر ، كلما تناقصت جدوى التاريخ العسكري ، وكلما اصبحت تجاربه اشد فقراً وبدائية في الوقت نفسه . ما من شك في ان تاريخ العصور القديمة (Antiquity) اقلها تأثيراً وجدوى .

ليست قلة الفائدة هذه مطلقة بطبيعة الحال ، انها تشير فقط الى امور تعتمد على معرفة دقيقة للظروف الحقيقية ، او على تفاصيل غيرتها الحرب كثيراً . ومهما كانت معرفتنا قليلة عن المعارك التي خاضها السويسريون ضد النمساويين والبورجنديين والفرنسيين ، الا ان السويسرين قدموا لنا افضل واقوى برهان على تفوق المشاة الجيد ضد خيالة كفوءة . وتكفي نظرة عامة الى عصر جيوش المرتزقة (الكوندوتيرى) ، لتؤكد لنا اعتماد ادارة الحرب كلياً على الالة المستخدمة ، وما من عصر أخر استخدمت فيه القوات بهذه الدرجة من التخصص في السمة ، او منفصلة كلياً عن الجوانب السياسية والمدنية . والطريقة الفريدة التي حاربت (روما) فيها قرطاج في

الحرب « البونية الثانية» [1] اذ هاجمت قوات روما اسبانيا ، وافريقيا في الوقت الذي واصل فيه هانيبعل انتصاراته في ايطاليا – وتقدم لنا هذه الحرب افضل الدروس ، كما لا زلنا نعرف ما يكفي عن الموقف العام للدولة والجيوش التي شاركت فيها ، وما الذي يسر تنفيذ ونجاح طرق مقاومة غير مباشرة كهذه .

لكن وكلما تقدم المرء من العموميات الواسعة الى التخصيص ، كلما قلت قدرته على اختيار الامثلة والتجارب من العصور البعيدة . ولسنا في موقف مناسب لتقويم صلة الحادث بدقة ، ولا حتى لتطبيقها مع الوسائل المختلفة كليا والمتاحة لنا اليوم .

لقد اظهر الكتاب دائماً ، ولسوء الحظ ميلاً قوياً لاختيار الامثلة من بين احداث التاريخ القديم اما كم من هذه الامثلة ما لا يزيد عن كونه تفاهات وشعوذة فليس من السهل الاجابة على ذلك ، لكن نادراً ما يعثر المرء على شيء من الامانة في الغرض ، او أي محاولة جادة للأرشاد او الاقناع . لذلك فلابد من اعتبار تصويرات وارشادات كهذه لا اكثر من تلوين او زخرفات وضعت لمجرد تغطية واملاء الثغرات والعيوب .

اما تعليم فن الحرب بكامله بواسطة الامثلة التاريخية ، وهذا ما حاوله الجنرال (فيوكواريز) فسيكون انجازاً عالي القيمة ، لكنه قد يستغرق عمر الإنسان كله ، وعلى كل من يحاول القيام بذلك التزود بتجربة شخصية غنية وكافية عن الحرب .

على كل من يشعر بضرورة انجاز مهمة كهذه ان يكرس نفسه لعمله كما لو كان يعد نفسه ليحج الى ارض نائية . وعليه ان لا يوفر وقتا او جهداً ، وان لا يهاب اية سلطة دنيوية او اي شخصية متنفذة ، وان يسمو فوق غروره او تواضعه الكاذب ، كي يقول وكما جاء في قانون نابليون حرفياً ، **الحقيقة ، كل الحقيقة ولا شيء الا الحقيقة .**

---

(١) البونية هي اللهجة الفينقية لاهل قرطاج ، كما تطلق على كلما هو قرطاجي . دارت هذه الحرب بين هانيبعل وسيبيون الافريقي الذي اخذ المبادأة من هانيبعل الذي كانت قواته تحاصر روما ، اتجه سيبيون الى اسبانيا ثم الى افريقيا مما اضطر هانيبعل الى ان يلاحقه وان يخوض المعارك حيث اراد سيبيون وهذا اقصى ما تطمح اليه المناورة تعبويا واستراتيجياً . كان سيبيون يحرك مركز ثقل الحرب بتحكم غريب سيما وخصمه من المع القادة في التاريخ . لقد اعتبر ليدل هارت هذه الحرب مثالاً كاملاً لفكرته عن استراتيجية التقرب غير المباشر وخصها بشرح مفصل في كتابه الذي ترجم بعنوان « الاستراتيجية وتاريخها في العالم – دار الطليعة – ١٩٦٧ ترجمة هيثم الايوبي ص ٦٩ – ٨١ ». انتهت الحرب بهزيمة هانيبعل في معركة زاما (٢١٧ ق.م) وبتدمير مدينة قرطاج تماماً . ولعل ليدل هارت استخلص فكرته من شروح كلاوزفيتز هذه . – المترجم .

الكتاب الثالث

عن

الاستراتيجية عموماً

الفصل الأول
الاستراتيجية

لقد حددنا المفهوم العام للأستراتيجية في الفصل الثاني من الكتاب الاول[1]، وهي ؛ استخدام اشتباك ما من اجل هدف الحرب . ورغم ان الاستراتيجية بذاتها تتعلق بالاشتباكات فقط ، فيجب على نظرية الاستراتيجية كذلك ان تعتبر القوات المسلحة وسائلها الرئيسية في التنفيذ. ويجب ان تعدها جزءً من حقها الخاص ، وكذلك في علاقاتها مع العوامل الاخرى ، لانها تحدد شكل الاشتباك ، الذي يوثر عليها بالمقابل وبشكل يجعل اثار الاشتباك تبدو أو تلمس اولاً. لذلك يجب أن تدرس نظرية الاستراتيجية الاشتباك على ضوء نتائجه الممكنة ، والعوامل النفسية والمعنوية التي تحدد مساره بدرجة كبيرة .

الاستراتيجية هي استخدام الاشتباك من اجل هدف الحرب لذا على الاستراتيجي ان يحدد غاية لمجمل الجانب العملياتي للحرب على ان يتوافق مع هدفها. وبعبارة أخرى سيعد خطة الحرب ، وستقرر الغاية سلسلة الاعمال التي تتوخى انجازها، وسيشكل، في الحقيقة ، الحملات المنفردة ، وضمنها ، سيقرر على الاشتباكات المنفردة . نظراً لان معظم تلك الامور يجب ان تستند على افتراضات قد لا تتأكد صحتها ، بينما يصعب القرار مقدماً على اوامر اخرى اكثر تفصيلاً نهائياً ، الامر الذي يفرض ذهاب الاستراتيجي في الحملات بنفسه . اذ يسهل عندها اصدار الاوامر المفصله في الساحة، كما سيسمح ساعتها بتعديل الخطة العامة وفقاً للتحولات المستمرة. والخلاصة لابد ان يفرض الاستراتيجي سيطرة شاملة .

ليس ذلك هو الموقف المقبول دائماً ، او على الاقل بقدر تعلق الامر بالمبادئ العامة . اذ ان المعتاد ان تصاغ وتعدل الاستراتيجية في العاصمة وليس في الميدان – وهو امر يمكن قبوله فقط ان كانت الحكومة ستبقى قريبة من الجيش وكانها المقر العام .

---

(١) ورد التعريف لاول مرة في الحقيقة في الكتاب الثاني ، الفصل الاول راجع ص (١٧٥) اعلاه – المشرف .

لذلك تعالج نظرية الاستراتيجية التخطيط ، او بالاحرى ، ستحاول القاء الضوء على اجزاء ومكونات الحرب وعلاقاتها مع بعضها البعض ، مع التأكيد على القليل من المبادئ والقواعد التي يمكن استعراضها .

والقارئ الذي يتذكر وكما اوردت في الفصل الاول من الكتاب الاول عدد الامور البالغة الاهمية الداخلة في الحرب ، سيتفهم اية موهبة عقلية فائقة ولا اعتيادية مطلوبة للمحافظة على الصورة بكاملها حية وثابتة في الفكر .

يستطيع الامير أو الجنرال استعراض عبقريته بافضل ما يمكن بادارته للحملة بشكل يلائم تماما فيه بين اهدافه وموارده ، دون أن يزيد أو أن ينقص عن ذلك . الا إن تأثير العبقرية لا يظهر الى هذا الحد في الاشكال الروائية من العمل وكما يظهر ذلك في النجاح النهائي للعمل ككل . ما ينبغي أن يثير اعجابنا هو التحقيق الجيد للأفتراضات التي لم يعلن عنها ، والتناغم السهل للفعالية ككل والتي لا تبدو جلية للعيان الا في النجاح النهائي .

والباحث الذي لا يستطيع اكتشاف هذا التناغم في الاعمال التي تؤدي الى النجاح النهائي ، قد يجرب البحث عن العبقرية في الاماكن التي لا توجد ولا يمكن ان توجد فيها .

الوسائل والاشكال التي يستخدمها الاستراتيجي هي في الحقيقة بسيطة للغاية ، وقد اعتادها بحكم تكرار إستخدامها ، حتى بات من السخف المحض وفقاً لمعايير الحس والادراك العامين أن يعاود النقاد مناقشتها مرة بعد اخرى وباطناب ممل . وهكذا قد يصف النقاد مناورة عادية وشائعة باحاطة أحد أجنحة العدو ، وكأنها من لمحات العبقرية الاخاذة ، والحدس العميق والحكمة الشاملة . فهل بوسع المرء تصور ما هو اسخف من ذلك ؟

بل ما هو اسخف من ذلك ان نعتقد أن تلك الانتقادات بالذات تستبعد عادة كافة المزايا والسمات المعنوية من نظرية الاستراتيجية ، وتعنى بالعوامل المادية فقط . إنهم يقلصون كل شيء الى عدد قليل من الصيغ الرياضية عن التوازن (Equilibrium) والتفوق «Superiority» ، والوقت والمسافة المحددة بخطوط وزوايا (كما في الخطوط البيانية – المترجم) . فان كان ذلك حقيقي ، فلن يزيد ما يحققه عن حل احدى المعضلات العلمية من التي يواجهها طلبة المدارس .

لكن علينا ان نتذكر اننا لا نناقش هنا الصيغ والمعضلات العلمية . فالعلاقات بين العوامل المادية شيء بسيط للغاية ؛ والصعوبة تكمن في الامساك بالعوامل الفكرية ذات العلاقة. مع ان مثل هذه التعقيدات الفكرية والاختلافات الحادة للعوامل وعلاقاتها لا تحدث إلا في اعلى مجالات الاستراتيجية فقط . ففي ذلك المستوى ليس سوى القليل من أولا إختلاف ما بين الاستراتيجية ، والسياسية ، والزعامة (Statesmanship) وما من شك في ان تأثيراتها عند ذلك المستوى وكما سبق لنا القول ، اعظم واكبر من حيث الكمية ، والوزن ، مما في اشكال التنفيذ . فحيث ما يكون التنفيذ هوالسائد أو المتحكم كما في الاحداث المنفردة في الحرب ، وسواء كانت هذه الاحداث صغيرة او كبيرة ، فان العوامل الفكرية تتقلص الى الحد الادنى .

كل شيء في الاستراتيجية بسيط ، لكن لا يعني ذلك ان كل شيء سهل جدا. فحالما يتم القرار ، وانطلاقاً من الظروف السياسية، ما الذي تتوخى الحرب انجازه ، وما الذي بوسعها انجازه ؟ ، فمن السهل عندها رسم مسار الاحداث . الا ان المضي في تنفيذ ذلك بثبات يتطلب قدر كبير من قوة الشخصية ، وكذلك الكثير من الوضوح الفكري ، ومتانة العقل ، لكي تنفذ الخطة الموضوعة وان لا تترك كالقشة في مهب الريح وعرضة لالاف التحولات والتغييرات . لنأخذ اي عدد من عظماء الرجال فسنجد اننا اخترنا البعض بسبب قدراتهم الفكرية ، وآخرين لفطنتهم ، والبعض لشجاعتهم او لقوة وتماسك ارادتهم ، ولكن ما من رجل واحد يمتلك مزيجاً من كل هذه الخصائص الضرورية لجعله اعظم من القادة الاخرين .

قد يبدو ذلك غريبا، الا ان من تأقلم مع هذا الجانب من الحرب سيوافق على أن صنع واتخاذ القرار الاستراتيجي المهم يتطلب من العزم وقوة الارادة اكثر مما يحتاجه القرار التعبوي . ففي هذا الاخير ينجرف الانسان مع ضغوط اللحظة ، مغموراً وسط تيار جارف حيث تكون المقاومة والتحمل مأساويتين ، كابحاً شكوكه الاولية ، وضاغطاً بشجاعة في طريقه. الا ان التتابع في الاستراتيجية اكثر بطأ . وهناك مجال اعظم لتفهم وادراك ما يثور من اعتراضات وشكوك وبالتالي اسف والتياع مبكرين . بوسع المرء في الموقف التعبوي ان يرى وبالعين المجردة نصف المعضلة على الاقل ، اما في الاستراتيجية فلابد من تخيل كل شيء او افتراضه ، وبذلك فالقناعة اضعف هنا . ونتيجة لذلك يصاب معظم القادة بالشلل بسبب شكوك ومخاوف لا اساس لها ، عندما يتطلب الموقف منهم العمل .

لنلق الان نظرة على التاريخ . لنتمعن في الحملة التي خاضها فردريك الكبير عام ١٧٦٠ والتي أشتهرت بمسيراتها ومناوراتها الاخاذة ، والتي اثنى عليها النقاد كعمل باهر - وهي كذلك حقاً . فهل يتوجب علينا الاحتدام غيضاً، مع الاعجاب بحقيقة ان الملك اراد طي جناح الجنرال (دون) الايمن اولاً ، ومن ثم الايسر ، وبعدها الايمن ثانية وهكذا دواليك ؟ وهل علينا كذلك اعتبار الامر حكمة بالغة ؟ كلا بالتأكيد، ان كنا سنحكم دون تحيز . اما ما يثير الاعجاب فعلاً فهي حكمة الملك ؛ في توخي الهدف الكبير رغم قلة الموارد ، ولم يحاول انجاز اي شيء فوق طاقته ، بل فقط بالقدر الكافي الذي يؤمن له ما يريد ، وليست هذه الحملة هي الوحيدة التي اظهر لنا فيها قدرته كقائد ، بل إن ذلك جلي للعيان في كل الحروب الثلاثة التي خاضها الملك العظيم .

كان هدفه ايصال سيليزيا[1] الى بر الامان مستنداً في ذلك الى سلم مضمون .

ما كان بوسع فردريك الكبير الذي لم يكن سوى رئيساً لدولة صغيرة لا تختلف عن غيرها من الدول في الكثير من الجوانب ، ولا تتميز عنها الا بكفاءة وفاعلية البعض من كبار المتنفذين وذوي الجاه . وما كان بوسع فردريك ان يغدو كالاسكندر المقدوني. ولو فعل كما فعل جارلس الثاني عشر[2] لانتهى مثله بمأساة . لذا تتسم ادارته

(١) سيليزيا - منطقة جنوب غرب بولندا وعلى نهر الاودر . احتلتها المانيا في العصور الوسطى وغدت تحت عرش بوهيميا في القرن الرابع عشر ، وتحت عرش هابسبرج عام ١٥٢٦. احتلها فردريك الكبير عام ١٧٤٢ ما عدى ما اصبح يعرف عام ١٩١٨ بجيكوسلوفاكيا وبعد استفتاء اجرى عام ١٩٢١ أعيد معظم الاقسام الغنية بالمناجم والصناعات الى بولندا كما ضمت هذه كل سليزيا الالمانية بعد الحرب العالمية الثانية (المترجم) . عن قاموس

Longmans English Larousse p. 1092 .

(٢) جارلس الثاني عشر (١٦٨٢ - ١٧١٨) ، اعتلى عرش السويد وهو في الخامسة عشرة كرس حياته الصغيرة للحرب والسياسة والمناورات للمحافظة على مكانة السويد كقوة عظمى اتسم بارادة فولاذية وطاقة عمل هائلة الا ان فشله كان محتوماً لتطرفه من جهة ولكثرة اعداءه من جهة اخرى لم تجده وصايا والده المكتوبة وواصل التدخل في ادارة الحرب . تحالفت ضده روسيا والدنمارك وبولندا وساكسوني وهاجمت السويد في ما عرف بحرب الشمال الكبرى ، وحقق جارلس انتصارات باهرة في البداية مما حفظ له مكانة بارزة في التاريخ العسكري . شن في كانون الثاني /١٧٠٨ هجوما على روسيا ليضاف الى قائمة الذين تحطموا على الجدار=

للحرب بشيء غير قليل من كبح قوة الاندفاع ، هذه القوة التي نجح في ابقائها في حالة توازن على الدوام ، لا تنقصها الحيوية ابداً ، وتسمو الى اعلى درجات الاداء في ساعات الشدة ، الا انها سرعان ما تعود الى حالة الهدوء والارتخاء الحذرين ، وعلى استعداد دائم للتكيف مع أية تحولات ومهما كانت صغيرة في الموقف السياسي. ولم يكن بوسع أي قدر من الغرور او الطموح ، ولا حتى روح الانتقام لتحرفه عن المسار الذي رسمه لنفسه ، هذا المسار وحده هو الذي وفر له كل النجاح الذي ناله .

أي تقدير قليل ستوفره هذه الكلمات القليلة لشخصية هذا القائد العظيم . ولا يحتاج المرء لأكثر من تفحص دقيق للأسباب والنتائج الرائعه التي انتهى اليها ذلك الصراع ليدرك أن الفكر النير الذي يتمتع به الملك هو وحده الذي قاده بامان وسط جميع المخاطر .

تلك هي الشخصية التي تثير اعجابنا في جميع حملاته ، وعلى الاخص حملة عام ١٧٦٠ . ولا احسب أن بوسعه الامساك بعدو متفوق عليه بهذا الشكل وبهذا الثمن القليل في أي عصر آخر .

الجانب الاخر الذي يستحق الاعجاب يتعلق بالصعوبات التي واجهت التنفيذ . فمن السهل تصميم مناورة لطي (تمزيق) جناح العدو . وكذلك فمن السهل أيضاً تصور خطة لابقاء قوة صغيرة متحشدة لمواجهة قوات معادية مشتتة وان ساوتها في الحجم وفي أية نقطة ، ولمضاعفة حجم تلك القوة الصغيرة بتنقلات سريعة . وما من شيء يستحق الثناء حول تلك الافكار نفسها . فلو تمعنا في مثل هذه المفاهيم المبسطة ، فسنقر ببساطتها .

= الرومي بفعل سياسة الارض المحروقة الروسية الذي طبقوه فيما بعد على نابليون أيضاً . أصيب بجراح في تموز فتشتت جيشه وهرب هو الى (مولدافيا) التركية وعاش في المنفى حتى عام ١٧١٤ عاد بعدها لمواصلة الحرب ضد الدنمارك والنرويج اللتان هاجمتا السويد . تفوق جارلس في هذه الحرب واقتطع أجزاءً من اراضي اعداءه كورقة رابحة في مفاوضات الصلح الا انه قتل بطلق ناري في رأسه وهو في الخنادق الامامية مع قطعاته ، انتهت الحرب عام ١٧٢١ بمعاهدة (انستاد) التي احلت روسيا محل السويد كقوة عضمى عالمية (المترجم بتصرف عن) :

Aconcise Dictionary of Military Biography . Pub - Prunell Book service Ltd . Lond 1975 . p.p. - 47 .

لكن ليحاول جنرال آخر تقليد فردريك الكبير !! إذ وبعد كل هذه السنين ما زال شهود العيان يكتبون حول المخاطر ، أو حماقة مواضع الملك. وفي الواقع ؛ لم يكن هناك أي شك في أن الخطر بدى وقتها ثلاثة اضعاف التهديد الذي سيكون عليه فيما بعد.

وينطبق نفس الشيء على المسيرات التي كانت تنفذ تحت رصد العدو ، وغالباً ما كانت ضمن نيران مدفعيته . كان فردريك قد اختار تلك المواضع واجرى تلك المسيرات وهو واثق من ان اسلوب الجنرال (دون) في العمل ، وكذلك توزيع قطعاته ، واحساسه بمسؤولياته وكذلك شخصيته ستجعل من مناورات فردريك حركات خطرة لكن ليست متهورة . الا انها كانت تتطلب شجاعة وعزماً وقوة ارادة الملك ليرى الاشياء بهذه الطريقة ، دون أن يرتبك أو يرتعد خوفاً من المخاطر التي ما زال الحديث والكتابات عنها مستمرة حتى بعد ثلاثين عاماً . وقليل من الجنرالات في موقف كهذا سيصدقون بجدوى وامكانية مثل هذه الوسائل الاستراتيجية السهلة .

تكمن صعوبة اخرى للتنفيذ في حقيقة مواصلة جيش الملك التنقل باستمرار طوال الحملة . فلمرتين ، الاولى في اوائل تموز ، والثانية في اوائل اب ، كان جيش الملك يطارد قوات الجنرال (دون) بينما كانت قوات « لاسكي[1] Lascy » تطارد بدورها قوات فردريك الكبير على طول نهر «إيلب» «Elbe» وداخل (سيليزيا) عبر طرق زراعية وعرة . كان على الجيش الاستعداد للمعركة في اية لحظة لذا كان لابد من تنظيم تنقلاته وتصميمها بحسابات دقيقة للغاية بل حد الابداع ، الامر الذي يستلزم قدرا هائلاً من الجهد ، ورغم أن الاف العربات كانت ترافق ، وتعرقل في الوقت نفسه حركة القطعات ، الا انها كانت تعاني من نقص دائم في التموين . لقد تنقلت وطوال الاسبوع الذي سبق معركة « لايجنتز[2] Liegnitz » في سيليزيا ، ليلاً ونهاراً ، منفتحة تارة ومنسحبة تارة اخرى على طول جبهة العدو مما كلفها جهداً باهض التكاليف .

---

(١) هكذا ورد الاسم في النص ، اما في فهرس الاسماء في آخر الكتاب فهناك اشارة الى ماريشال نمساوي يدعى «فرانزلاسي» مع ملاحظة ان اسمه ورد في نفس هذه الصفحة ، ثم يرد اسم الماريشال لاسكي في الصفحات ١٩٩ ، ٣٢٠ و ٥١٨ من النص الانكليزي مرة باسم لاسي ومرة باسم لاسكي والملفت للنظر ان هذا الماريشال لاسكي (١٧٢٥ - ١٨٠١م) اي انه كان برتبة فيلدماريشال وهو في الخامسة والعشرين ايام معركة لايجنتز عام ١٧٦٠ - المترجم .

(٢) معركة لايجنتز (١٥/اب/١٧٦٠) وتدعي البلدة الان (لوجنيكار) في جنوب غرب بولندا . بلغت قوات النمساويين حوالي (٦٠) الف مقاتل اضافة الى (~ر٣٠) الفاً اخرين من الروس في مكان قريب من ساحة=

فهل يمكن القيام بكل ذلك دون تعريض آلته الحربية الى اضطرام (Friction) خطير؟ أيستطيع اي قائد وبالقوة المجردة لعقله تحقيق قابلية حركة كهذه وبالسهولة التي يستخدم فيها اي مساح جهاز المساحة الاسطرلاب «Astrolabe» ؟ افلا يصيب الجنرالات والقادة الاعلون الحزن لما يعانيه الجيش من الآم وجوع وعطش وكلهم من رفاق السلاح ؟ وهل بوسع الرجل العادي طلب مثل كل هذه التضحيات ، ثم الا يثبط كل ذلك معنويات القطعات تلقائياً ، وتفسد روح الضبط ، وبكلمة موجزة ، تفتت روح القتال في القطعات ما لم يتوفر لديها اعتقاد راسخ بصواب وعظمة القائد وان يفوق هذا الاعتقاد بالقائد اية اعتبارات اخرى ؟ وهذا هو بالضبط ما يفرض احترامنا ؛ وكذلك فان اعجازاً في التنفيذ كهذا يستثير الاعجاب . لكن ولتقويم كل شيء بشكل تام لابد للمرء ان يعيش ويتفهم ابعاده من خلال التجارب الحقيقية . ولا يمكن لمن تقتصر معرفته بالحرب على الاستعراضات الاحتفالية وقراءة الكتب عنها ان يدرك ويتفهم ضغط هذه الويلات على العمل ، ولابد لهم القبول وبامانة ما يعنيه نقص التجربة لديهم.

لقد استخدمنا امثلة فردريك لاجل تركيز خطوطنا الفكرية ، وختاما ، فاننا ومن خلال عرضنا للأستراتيجية سنوضح العوامل المادية والفكرية التي تبدو لنا الاكثر اهمية. وسنتدرج من السهل اليسير الى الصعب المعقد آخذين بنظر الاعتبار في النهاية، البنية الكلية للفعالية العسكرية بكاملها – اي بما فيها خطة الحملة .

> «ورد في مخطوطة اولية للكتاب الثاني ما يوصي بوضع الفقرات التالية «في الفصل الاول من الكتاب الثالث» الا ان عملية تنقيح هذا الفصل لم تنجز من قبل الكاتب ، لذا ابقيت هذه الفقرات كاملة في ادناه .

انفتاح القطعات في موضع معين بحد ذاته يجعل وقوع اشتباك ما ممكناً فقط، لكن ذلك لا يعني ان الاشتباك سيقع بالضرورة . فهل ينبغي على المرء اعتبار مثل هذه

= المعركة وتحت قيادة الجنرال (سيزرنشيف) ، اما القوات النمساوية فكانت بقيادة الجنرالين (دون) و(لودون) وقد اوشكا على تطويق قوات فردريك الكبير الذي تصل قواته حوالي (–ر٤٥) الف رجل ، الا انه نجح وبهجوم ليلي من التملص بعد ان كلف النمساويين (١٠) الاف مقاتل و (٨٢) مدفعاً . وببرقيه كاذبة تمكن من خداع القائد الروسي باعلامه بتدمير القوات النمساوية بكاملها ، كما واصل فردريك الكبير مناوراته الراقصة ضد قوات (دون) – موسوعة التاريخ العسكري (سابق) ص ٦٧٤ – المترجم .

الامكانية كحقيقة واقعة؟ نعم لأنها ستغدو حقيقة بسبب نتائجها ، **كما ان نتائجاً من انواع اخرى ستلي دائماً .**

ستعتبر الاشتباكات الممكنة كانها حقيقية بسبب نتائجها

لو ارسلت بعض القطعات لقطع خطوط انسحاب العدو ، فيستسلم العدو دون مزيد من القتال فان قراره على ذلك كان بفعل التهديد بالقتال الذي مثلته القطعات المرسلة .

لو احتل جيشنا منطقة غير محمية من اراضي العدو ، فنحرمه بالتالي من حصوله على المزيد من القوة والتعزيزات ، والعامل الذي سيمكن قواتنا من الاحتفاظ بتلك المنطقة هو الاشتباك الذي على العدو توقع حدوثه لو فكر او حاول استعادتها .

في كلا الحالتين تحققت النتائج بمجرد امكانية وقوع اشتباك ما ، لقد حققت الامكانية واقعاً ، لكن دعونا نفترض بان العدو وفي كلا الحالتين زج بقوات اكبر ضد قواتنا ، مجبراً اياها على التخلي عن اهدافها دون قتال . سيعني ذلك فشلنا في تحقيق هدفنا ، لكن ما زال للأشتباك الذي عرضناه على العدو تأثير ما – فقد سحب قواته . وحتى لو انتهى المشروع كله لأن نكون في وضع اسوأ مما كان عليه في السابق ، فلا نستطيع القول ان استخدام القطعات كان دون تأثير بهذه الطريقة ، اذ ان **مجرد قيام امكانية حدوث اشتباك ما** ؛ فالتأثيرات مشابهة لتلك التي لأشتباك ضائع.

يوضح لنا ذلك أن تدمير قوات العدو والتفوق على ما لديه من قوة امران لا يمكن انجازهما الا كنتيجة للأشتباك ، بغض النظر عما اذا وقع ذلك الاشتباك او كمجرد احتمال لم يقبله العدو .

ثنائية هدف الاشتباك

فضلاً عن ذلك فتلك النتائج على نوعين ؛ مباشرة وغير مباشرة . فهي غير مباشرة اذ تدخلت اشياء اخرى واصبحت هدفاً للأشتباك – اشياء لا يمكن ان تعتبر بذاتها كافية لتدمير قوات العدو ، ولكنها قد تؤدي الى ذلك . اي انها قد تفعل ذلك

بطريقة غير مباشرة ، لكنها مجتمعة تشكل قوة كافية لذلك . قد يشكل احتلال أو السيطرة على المناطق ، والمدن ، والحصون والطرق والجسور ومستودعات العتاد وغيرها هدفاً أنياً للأشتباك ، الا انها لا يمكن أن تكون هدفاً نهائياً . ينبغي أعتبار مكتسبات كهذه ودائماً كمجرد وسائل لتحقيق تفوق أكبر ، حتى يغدو بوسعنا فرض القتال على العدو وهو في حالة لا تساعده على قبول ذلك. ينبغي اعتبار تلك الاعمال حلقات وسطية ، كخطوات تقود الى المبدأ الفعال ، الا انها لن تكون المبدأ الفعال ذاتـه.

أمثلة

مع احتلال عاصمة بونابرت عام ١٨١٤ تم تحقيق هدف الحرب فطفت جميع الانقسامات السياسية المتجذرة في باريس الى السطح وتسبب هذا التشرذم الى تقويض سلطة الامبراطور . ومع ذلك ينبغي التمعن في ذلك على ضوء المضامين العسكرية . لقد تسبب الاحتلال انهياراً كبيراً في قوة نابليون ، وفي قدرته على المقاومة وادى بالمقابل الى تعزيز تفوق التحالف . وبات من المستحيل ابداء اية مقاومة ، وهذا بالضبط ما قاد الى تحقيق السلام مع فرنسا . لو فرضنا أن قوة التحالف قد تعرضت فجأة لنقص مماثل بفعل عامل خارجي ما فسيزول تفوق التحالف ، وسيزول معه كل تأثير وأهمية لأحتلالهم لباريس .

لقد تابعنا هذه المناقشة لنؤكد أن ذلك هو الرأي الطبيعي الوحيد والمعقول الذي نتخذه ، وذلك ما يجعله مهماً بالضبط . لكننا نعود دائماً الى السؤال ؛ ما هي ، وعند اية مرحلة من مراحل الحرب او الحملة ، وكيف ستكون النتيجة المحتملة لكل الاشتباكات الكبيرة والصغيرة التي بوسع الطرفين منح احدهما الاخر فرصتها ؟ عند تخطيط الحملة او الحرب ، فهذا وحده سيقرر المعايير والاجراءات الواجب اتخاذها منذ البداية .

ان لم يطبق هذا الرأي ، فستُقَوّم الامور الاخرى بطريقة مغلوطة

ان لم نتعلم اعتبار الحرب والحملات المنفصلة التي تتألف الحرب منها كسلسلة مترابطة الحلقات من الاشتباكات التي يعود كل منها الى التالي ، واخضاعها بدلاً من ذلك لفكرة ان احتلال نقطة طبوغرافية ، او السيطرة على منطقة غير مدافع عنها **أمور ذات قيمة بذاتها** ، بل حتى نعدها منافعا ليست في الحسبان . فلو فعلنا ذلك وتجاهلنا حقيقة كونها حلقات من سلسلة متصلة من الاحداث فسنتجاهل ايضاً امكانية تحولها الى اضرار مؤكدة. لقد تكرر هذا الخطأ لمرات ومرات في التاريخ العسكري . بوسع المرء تقريباً ان يطرح القضية على الشكل التالي : فكما ان رجل الاعمال (التاجر) لا يستطيع اقتطاع الربح من صفقة أو معاملة منفردة ويضعه في حساب مستقل ، كذلك لا يمكن تقييم ميزة منفردة نحققها في الحرب ، بمعزل عن النتيجة النهائية فالتاجر يجب ان يعمل استناداً الى مجمل موجوداته النهائية ، وفي الحرب يمكن تحديد فوائد واضرار عمل منفرد على ضوء الموازنة النهائية .

عند النظر الى كل اشتباك كجزء من سلسلة ، او على الاقل بالقدر الذي يمكن التنبؤ فيه بالاحداث ، فان القائد مازال على الطريق الصحيح والمضمون الى هدفه . فالقوات تكتسب زخماً ، والنوايا والاعمال تتطور مع النشاط الذي يناسب الظرف ، دون التعرض لأية تأثيرات خارجية .

الفصل الثاني
عناصر الاستراتيجية

يمكن ان تصنف عناصر الاستراتيجية التي تؤثر في استخدام الاشتباكات بعدة انواع ، معنوية ومادية ، ورياضية ، وجغرافية واحصائية .

تشمل المجموعة الاولى كلما ينتج عن الصفات والتأثيرات العقلية والنفسية؛ وتتالف الثانية من حجم القوات المسلحة ، تأليفها ، وتسليحها وما شاكل ذلك ، اما الثالثة فتشمل خطوط وزوايا العمليات ، والتنقلات المتقاربة والمتباعدة وحيثما تدخلت الهندسة في حساباتها ؛ اما الرابعة فتتضمن تأثير الارض ، كمواقع القيادة ، والجبال ، والانهار والغابات ، والطرق ، واخيرا فان المجموعة الخامسة تتعلق بالاسناد والادامة. ستوضح الدراسة الموجزة لكل تلك المجموعات المختلفة افكارنا ، وتحدد في الوقت نفسه القيمة النسبية لكل منها . الا ان بعضها سيفقد كل قيمة واهمية لودرست كل منها على حدة. وعلى سبيل المثال فسيكون من الواضح فوراً أن قيمة قاعدة الحركات، حتى لو اخذناها بابسط اشكالها وهي ما يعني **خط القاعدة**[1] Base - Line التي تعتمد على اشكالها الهندسية بشكل يقل عن اعتمادها على طبيعة الارض والطرق التي تمر خلالها .

رغم ذلك فمن الخطأ الفادح ان نحاول تطوير فهمنا للأستراتيجية بتحليل تلك العوامل كل على حدة وبمعزل عن الاخريات ، طالما أنها تتداخل عادة في كل عمل عسكري بطرق متعددة وبالغة التعقيد . اذ لن ينتج عن ذلك سوى تحليلات غريبة، وعقيمة كالكوابيس التي يحاول المرء اثنائها ودون جدوى ، رأب الصدع واقامة الجسور ما بين تلك القواعد النظرية المجردة وحقائق الحياة . ولتحمي السماء المفكر من انجاز كهذا !! .اما نحن فينبغي علينا مواصلة تفحص الصورة ككل ، ولن نذهب بتحليلاتنا لأبعد مما هو ضروري في كل حالة لايضاح الفكرة التي نود ايصالها ، والتي نجد أصولها دائماً في الانطباع الذي يحدثه الناتج الاجمالي لظاهرة الحرب ، اكثر مما في دراسة نظرية.

---

(١) لعل المقصود هنا القواعد على خطوط المواصلات او خطوط الحركات اذ لم اجد تعريفاً محدداً لخط - القاعدة وان كان اكرم ديرى استخدم في ترجمته انها نفس (موقع خط العمليات) الذي لا اعرف ما يقصد به هو الاخر (المترجم)

الفصل الثالث

العوامل المعنوية

كان لا بد من العودة مرة اخرى الى هذا الموضوع الذي الممنا به وجيزاً في الفصل الثالث من الكتاب الثاني [1] نظرا للاهمية البالغة للعناصر المعنوية في الحرب . لان هذه العوامل هي التي تخلق الروح التي تتخلل الحرب ككل ، كما تنشيء في المراحل الاولى من الحرب صلة وثيقة مع الارادة التي تحرك وتقود القوة المحتشدة كلها، ملتحمة عملياً معها ،نظراً لان الارادة نفسها قيمة معنوية . ولكن هذه العوامل ولسوء الحظ ليست مما يخضع للحكمة الاكاديمية . كما لا يمكن تصنيفها أو حتى تقديرها. أنها يجب ان ترى أو تلمس .

فالروح والقيم المعنوية الاخرى لجيش ما ، او للقائد او (الحكومة ، ومزاج السكان في مسرح الحرب ، والتأثيرات المعنوية للنصر أو الاندحار – وكلها تختلف الى حد كبير . كما انها يمكن أن تؤثر على الهدف والموقف وبطرق مختلفة جداً .

وعليه لا شيئ يمكن أن يقال تقريباً حول تلك الاشياء في الكتب ، وليس ممكنا بعدُ حذفها من نظرية أو فن الحرب اكثر مما يمكن فعل ذلك مع مكونات الحرب الاخرى . وتأكيداً فلو تولى اي كان تسطير مجموعة من القواعد والمبادئ مع تجاهل كلي للعوامل المعنوية فلن يزيد ذلك عن فلسفة تافهة بطراز بال . وحالما تظهر ، يلجأ المرء الى اعتبارها مجرد استثناءات ، ثم يضفي عليها أوضاعاً وصيغاً علمية ، وهكذا يصبها في قواعد . أو يلجأ المرء ثانية الى العبقرية التي هي فوق جميع القواعد، وترقى الى حد الاعتراف بأن القواعد لا تعمل للأغبياء وحسب بل انها هي نفسها غباء.

لو لم تفعل نظرية الحرب اكثر من تذكيرنا بتلك العناصر ، موضحة الحاجة لاخذها بالحسبان مع بيان القيمة الكلية للسجايا المعنوية ، فانها ستوسع افاقها ، كما ان ارساء ،وجهة النظر هذه ، يعني وببساطه رفض وادانة كل من يحاول الاستناد على تحليل العوامل المادية فقط .

---

(١) يقصد الكتاب . الأول

سبب آخر لعدم ابعاد العوامل المعنوية عن نطاق النظرية ، هو علاقتها بكلما يدعى بالقواعد . يشكل تأثير العوامل المادية والنفسية وحدة عضوية كاملة ، لا يُشبه السبيكة المعدنية ، اذ لا يمكن فصلها بعملية كيمياوية . عند صياغة اية قاعدة تخص العوامل المادية ، على المفكر أن يضع في حسابه الجزء الذي قد تلعبه العوامل المعنوية فيه، وإلا ظلّ طريقه وانتهى بوضع بيانات عامة مطلقة محدودة ومهزوزة جداً ، أو أنها مغرقة في عموميتها وبصيغ عقائدية مجردة وجامدة . حتى اكثر النظريات جموداً ملزمة بالتردي بعالم اللامحسوس ، وعلى سبيل المثال ، فليس بوسع المرء تفسير التأثيرات التي للنصر دون اخذ ردود الفعل النفسية في حسبانه . لذلك تتألف معظم الموضوعات التي نتناولها في هذا الكتاب وبشكل متساو من أسباب ونتائج مادية ومعنوية . لذلك بوسع المرء القول أن العوامل المادية تبدو اكثر قليلاً من المقبض الخشبي للسيف ، بينما تشكل العوامل المعنوية المعدن النفيس والسلاح الحقيقي ، والنصل الذي أحسن شحذه.

يقدم التاريخ أقوى البراهين على اهمية العوامل المعنوية ، والتي غالباً ما يكون تأثيرها غير معقول ولا يصدق ؟ وهذا أنبل وأقوى ما يستفيده عقل القائد أو يستخلصه من دراسة الماضي . وتأكيداً ، ينبغي ملاحظة أن بذور الحكمة التي ستنتج ثمارها في العقل ، لم يبذر بالدراسات النقدية والكتب التعليمية الا القليل منها ، أما معظمها فبفعل البصيرة والحدس والمعرفة الواسعة ولمحات الابداع .

لا بد لنا من تعداد اهم ظاهرة معنوية في الحرب ، وأن نحاول كما يفعل الاستاذ المجتهد ، تقويم تلك الظواهر واحدة بعد اخرى . مع ان هذه الطريقة قد تقودنا بسهولة بالغة الى ملاحظات تافهة ومبتذلة ، فحين تفارقنا روح البحث العبقرية ، سنجد أنفسنا نردد ما بات يعرفه الجميع . لهذا السبب نفضل ، هنا وأفضل مما في اي مكان آخر ، معالجة الموضوع بطريقة ناقصة وانطباعية Impressionistic ، مكتفين بأننا أشرنا الى اهميتها العامة ، وأننا حركنا الروح التي تعبر عنها المناقشات والحجج في هذا الكتاب .

الفصل الرابع
العناصر المعنوية الرئيسية

انها ، **مهارة القائد ، وخبرة وشجاعة القطعات ، وروحها الوطنية.** لا يمكن تحديد القيمة النسبية لكل منها عموما ، ومن الصعب مناقشة القوة الكامنة في كل منها ، والأكثر صعوبة من ذلك هو مقارنتها مع بعضها البعض. والمسلك الأكثر حكمة هو في عدم الاستهانة باي منها – وهذا مزاج يتميز به الحكم البشري المتغلب او الخاضع . من الافضل لنا كثيراً الاستعانة بالبينة التاريخية التي تؤكد الفاعلية الاكيدة للعناصر الثلاث .

مع ذلك فكل جيوش الدول الاوربية كانت في الحقيقة قد بلغت في تلك الايام مستوى عاماً من الضبط والتدريب . ولصياغة ذلك بتعابير فلسفية ؛ نقول لقد تطور فن الحرب وفقاً لقانونه الطبيعي . لقد استنبطت وطورت طرق عديدة كانت شائعة لمعظم الجيوش ، وانه لم يعد مسموحاً حتى للقائد باي فرص لاستخدام الخدع البارعة (نعني بذلك على سبيل المثال، نظام المعركة المائل لفردريك الكبير) ، لذلك لا يمكن أن ننكر وعلى ضوء ما آلت اليه الامور الآن، زيادة الاعتماد كثيراً على الروح الوطنية للقطعات وعلى الخبرة القتالية . الا أن مرحلة سلمية طويلة قد تغير ذلك ثانية .

المشاعر القومية للقطعات (الحماس ، والتعصب الديني ، والايمان ، والمزاج العام) اكثر وضوحاً في الحروب الجبلية ، حيث كل رجل ، نزولا الى الجندي البسيط، مستقل بنفسه. لهذا السبب وحده فان المناطق الجبلية تشكل الارض الاكثر ملائمة لعمل السكان المسلحين .

الكفاية ، والمهارة والشجاعة الفائقة التي تزيد من تلاحم القطعات وتحولها الى كتلة (قالب) واحدة وستلعب هذه الصفات الدور الاكبر والاعظم في العمليات في الاراضي المفتوحة (السهول).

اعطيت براعة القائد اوسع نطاق لها في مناطق التلال الوعرة. اما الجبال فلا تسمح له الا بالقليل من القيادة الفعلية لقطعاته المبعثرة، كما انه ليس قادر على السيطرة عليها. السيطرة في المناطق المفتوحة أمر بسيط ولا يحتاج الى تفحص قدرته بكاملها.

لذا ينبغي ان توجه هذه الروابط الواضحة تخطيطنا.

الفصل الخامس

المزايا الحربية للجيش

ينبغي تجنب الخلط بين المزايا الحربية والشجاعة البسيطة كما ان علاقة تلك المزايا، أقل من ذلك في علاقتها مع التعصب لقضية . من الواضح أن الشجاعة عنصر اساسي . لكن وكما ان الشجاعة ، التي هي جزء من التكوين الطبيعي لشخصية الرجل ، يمكن تطويرها في الجندي – الذي هو عضو في مؤسسة – فيجب تطويرها فيه بشكل مختلف عنها في رجال آخرين . يجب اخضاع الميل الطبيعي لدى الجندي للأنطلاق على هواه، وتفجر موجات العنف ، الى دوافع وتوجيهات أفضل ، مثل الطاعة ، والانتظام، والقواعد والمنهج . تستمد كفاية الجيش حياتها وروحها من الحماس للقضية التي يحارب لاجلها ، الا أن حماساً كهذا ليس أمر اساسي لا يمكن الاستغناء عنه .

الحرب فعالية خاصة تختلف وتنفصل عن أية أنشطة اخرى ، يمارسها ويتابعها الرجل . وهذه حقيقة قائمة بغض النظر عن مدى إتساع نطاق تلك الفعالية ، مع أن كل رجل قوي البنية يعد صالح للخدمة [العسكرية]. تستند كفاءة ونوعية اي جيش على الفرد الذي يتشبع بروح وجوهر تلك الفعالية ، وهو الذي يحدد ويرتب القدرات والمدارك التي تتطلبها ، وتثبيتها في الاخرين ، ويعاملها وكأنها تخصه هو ، وهو الذي يستخدم عقله وفكره في كل تفاصيلها ، والذي يحقق الثقة واليسر من خلال التجارب، والذي يكرس قدراته وشخصيته كليا للمهمة الملقاة على عاتقه .

بغض النظر عن درجة الوضوح التي نرى فيها شخصيتي الجندي والمواطن في الرجل الواحد، وعن قوة ومدى اقتناعنا بالحرب كعمل تتولاه الامة كلها، رافضين كليا النمط الذي وضعه (الكوندوتيري) في العصور الماضية ، فسيظل العمل الحربي وعلى الدوام فردياً ومتميزاً وعليه وطالما يمارس الجنود هذه الانشطة ، فسيفكرون في انفسهم كاعضاء في نقابة او جمعية تمنحهم انظمتها وقوانينها وعاداتها وكذلك الروح القتالية ، الفخر والاعتزاز بالمكان الذي هم فيه . هكذا تبدو القضية بغض النظر عن ميل المرء لتبني اكثر الاراء براعة وعمقاً عن الحرب، يظل التقليل من شأن الاعتزاز المهني (روح الفريق Esprit de Corps) ، كشيء يمكن ، ويجب حضوره في اي جيش بدرجة كبيرة او قليلة خطأ كبير . الاعتزاز المهني هو الرابط ما بين مختلف

العوامل الطبيعية التي تنشط المناقب العسكرية التي تتبلور وتتحدد بسهولة اكثر في محيط الاعتزاز المهني هذا .

فالجيش الذي يحافظ على تماسكه تحت اشد النيران كثافة وضراوة وتقتيلا، والجيش الذي لا يهتز بالمخاوف الوهمية او المتوقعة ، ويقاوم ويصمد بوجه قوات معادية حسنة الاعداد ، وباذلاً كلما بوسعه ، فخوراً بانتصاراته ، ولن يفقد القدرة على اطاعة الاوامر، ولا ينسى احترامه وثقته بضباطه حتى في الاندحارات ، الجيش الذي بنيت قوته المادية كعضلات الابطال الرياضيين ، تلك القوة التي شحذت بالتدريب في ظروف حرمان وجهد ؛ كقوة تعتبر وبغض النظر عن جهود كهذه، وسيلة للأنتصار، وليس كلعنة على من أوجدها، يعني وعيه القوي لجميع تلك الواجبات والسمات بميزة الفكرة القوية المنفردة لشرف السلاح – ان جيشاً كهذا قد تشرب حقاً الروح القتالية الحقيقية.

يمكن ان نقاتل بكفاءة ، كما فعل رجال (فنديه)[1] الفرنسية لتحقيق نتائج عظيمة ، وكالسويسرين ، والاميركان والاسبان ، دون متابعة وتطوير للمناقب الحربية التي نوقشت هنا ، بل يمكن أن يكون القائد الظافر لجيش نظامي كما كان الامير (ايوجين)[2] و (مارلبورو)[3] دون الانجرار بشدة الى مساعدتهم . ليس بوسع المرء ادعاء استحالة خوض حرب ناجحة دون تلك المزايا ، ونحن نؤكد ذلك ايضاحاً للمفهوم وكذلك كي لا نفقد فرصة التمعن في الافكار وسط ضباب العموميات، موحين بان الروح القتالية هي كلما يعوّل عليه في النهاية . ليست تلك هي القضية. فقد ينظر الى روح جيش ما كعامل معنوي محدد يمكن اسقاطه عقلياً ، كما يمكن تبعاً لذلك تقرير أو افتراض تأثيره – اي وبعبارة اخرى ، انها الالة التي يمكن حساب القوة بها.

---

(١) فنديه . منطقة جنوب غرب فرنسا ، اكبر مدنها (لاروش) . كانت فنديه مركزا لحركات عصيان الموالين للملكيه ما بين (١٧٩٣–٩٦) بعد الثورة الفرنسية وضد الجمهورية الاولى . قاموس لاروس (المترجم)

Longsmans english , larousse . PP. 1241

(٢) الأمير ايوجين اوف سافوى . جنرال نمساوي شارك في حرب الوراثة الاسبانية .

(٣) الايرل جون شرشل مارلبورو. جنرال انكليزي (١٦٥٠–١٧٢٢) وسياسي قاد الجيش البريطاني في حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١–١٤) وحقق انتصارا كبيراً في معارك بلنهايم (١٧٠٤) و(راميلي) و(اودينارد)، كما اصبح وزيراً للخارجية اضافة الى قيادته الجيش ويعد من اعظم القادة الانكليز في التاريخ . من « بحوث في القيادة والمعنويات – كلية الاركان العراقية – بغداد ١٩٦٧، وقاموس (لاروس) بالانكليزية – المترجم

هكذا وبعد ان شخصنا (الروح الحربية) ينبغي علينا محاولة دراسة تأثيراتها، والطرق المتعددة لتطويرها .

تشكل الروح الحربية لباقي اقسام الجيش الاخرى، ما تعنيه قدرة القائد للأمر كله. فالقائد يسيطر على الموقف بكامله، وليس على اجزاء منفصلة منه . ويبرز دور الروح القتالية عند النقطة التي يتطلب فيها توجيه اي من الاجزاء المنفصلة ، فهي التي تتحكم بالامر . يتم اختيار القادة لمزاياهم الواضحة ، كما يتم تفحص كبار الرتب من الضباط بدقة ، الا ان عملية التفحص هذه تغدو أقل وضوحاً ودقة كلما تدرجنا نزولاً في سلم القيادة، كما علينا القبول بابعاد ومعايير نسبية للكفاءة . وكلما فاتنا هذا وجب ان تتولاه الروح الحربية . تلعب الصفات الطبيعية للشعب المعبأ للحرب نفس هذا الدور، صفات مثل ، **الشجاعة، والاستعداد ، والقدرة على التحمل، والحماس،** وتلك اذن هي الميزات التي يمكن ان تحل كبديل عن الروح القتالية ، والعكس بالعكس ، الامر الذي يقودنا الى الاستنتاجات التالية :

١ . لا توجد مناقب قتالية الا في الجيوش النظامية ، كما انها ما نحتاجه اكثر من غيرها . اما في الثورات الوطنية والحرب الشعبية فتحل محلها المزايا الطبيعية للمحاربين (Warlike) والتي تنمو في ظروف كهذه .

٢ . بوسع الجيش النظامي وهو يقاتل جيشاً نظاميا مواصلة ذلك دون مناقب حربية بصورة اسهل مما لو كان يقاتل شعباً مسلحاً ، اذ سيضطر في الحالة الاخيرة الى الانقسام ، وغالباً ما ستضطر الوحدة المتباعدة الى الاعتماد على نفسها . اما حيث تظل القطعات محتشدة فسينفسح عندها المجال امام مواهب القائد لا وسع نطاق، وأن يعوض بذلك عن أي نقص روحي لدى القطعات. ستزداد الحاجة عموماً الى المناقب الحربية كلما اتجه مسرح العمليات والعوامل الاخرى الى تعقيد الحرب وتشتيت القوات.

إن كان هناك من درس يمكن استخلاصه من تلك الحقائق ، فهو الا بد لنا ، وعند ما يعاني الجيش من نقص في المناقب الحربية من بذل كلما بوسعنا من جهد لجعل العمليات على ابسط ما يمكن ، والا تطلب الامر مضاعفة الانتباه الى الجوانب الاخرى للمنظومة الحربية . اما الحقيقة المجردة في كون الجنود ينتسبون الى « جيش نظامي » فلا تعني تلقائياً بانهم بمستوى الواجب الملقى على عاتقهم .

الروح الحربية اذن ، هي احدى اكثر العوامل المعنوية اهمية في الحرب . فان فقد هذا العنصر فيجب عندها اما استبداله باحد العناصر الاخرى كالقدرة الفائقة

للقائد ، او الحماس الشعبي ، والا فما سيحدث من نتائج لن يستحق عندها ما بذل من جهد لاجله. اما القدر الذي تحقق بفعل هذه الروح ، هذه الميزة الاصلية (المحك)، في استخلاص المعدن النفيس من الخامات الرديئة ، فقد اوضحها لنا المقدونيون تحت قيادة الاسكندر ، والفيالق الرومانية تحت قيادة القيصر ، والمشاة الاسبان بقيادة الاكسندر فارنيس [1] والسويديون بقيادة غوستاف ادولف ، وجارلس الثاني عشر ، والبروسيون تحت قيادة فردريك الكبير والفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت. لا بد ان يكون المرء اعمى عن رؤية كل الشواهد التاريخية ان رفض الاقرار بان النجاحات الهائلة لأولئك القادة وعظمتهم في المحن كانت ممكنة بمساعدة جيش يمتلك تلك المناقب فقط.

هناك مصدران لتلك الروح ولا بد ان يتفاعلان سوية لخلقها . الاول .هو سلسلة من الانتصارات الحربية والثاني هو جهد مستديم يبذله الجيش حتى الحدود القصوى لطاقته ، وما من شيئ آخر سيظهر للجندي السعة الكاملة لقدراته . وكلما اعتاد القائد على اناطة اثقل الاعباء بجنوده كلما زاد اعتماده على استجابتهم . يعتز الجندي ويفخر غالبا بالمصاعب التي تغلب عليها اعتزازه بالمخاطر التي واجهته. والخلاصة ستنمو البذور فقط حيث النشاط والجهد الدائميين ، مع دفئ شمس الانتصار. وحالما تتحول البذرة الى شجرة قوية فستصمد بوجه اعتى الاعاصير الناجمة عن سوء الحظ والاندحار ، بل وحتى القصور الذاتي وكسل ايام السلم ولو لفترة ما على الأقل . وهكذا يمكن **خلق تلك الروح** فقط في الحرب، والقادة العظام، مع قبولنا بانها قد

---

(١) دوق بارما الساندرو فارنيس (١٥٤٥-٩٢) . ولد في ايطاليا ، كان والده اوتافيو فارنيس اما امه فهي مركريت النمساوية الابنة غير الشرعية لعاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة شارلس الرابع . قضى فارنيس حياته كلها في خدمة اسبانيا ومليكها فيليب الثاني . ويعد واحداً من افضل الجنرالات الاكفاء في ايامه ومن اروع الاستراتيجين في اوربا ، حرمه مليكه الفرص والمال الكافي لتنفيذ استراتيجته حتى انه رهن مجوهراته ذات مرة لدفع مرتبات قطعاته ، كانت قواته تعد افضل تشكيلات المشاة في ايامه ومؤلفة بشكل متوازن من الرماحة والفرسان الثقيلة وقوات البندقيات الخفيفة والذي كان فارنيس خبيراً في استخدامها ، ورغم انها تشكيلات ملائمة لاراضي السهول الا انه نجح بالقتال فيها في ضباب ووحول هولندا . كما ابدع في استخدام قوات الهندسة الاسبانية المشهود لها بالكفاءة الممتازة وقد احسن استخدامهم مرات عديدة بشيئ كثير من التصور الرائع لحل المعضلات الميدانية ، وكذلك في توجيههم في حروب الحصار. اصبح ملكاً للبلاد المنخفضة عام ١٥٧٨ ، كما اصبح دوق بارما بعد وفاة والده عام ١٥٨٦، وفي نفس هذا العام كلف بمهمة غزو انكلترا ، بدعم من الاسطول الاسباني بقيادة الادميرال سانت كروز الا ان العملية لم يكتب لها النجاح . يعد من اقدر استراتيجي اوربا في

تستمر لعدة اجيال على الاقل وحتى تحت قادة متوسطي الكفاءة وعبر فترات سلام طويلة .

ينبغي توخي الحذر في مقارنة هذه الجندية المصقولة المتفتحة لاخوة السلاح وجنود محنكين عمدتهم جراحات المعارك مع جيوش نظامية عاطلة ركبها الغرور ، وليست اكثر من خليط جمعته نظامات الخدمة والتدريب فقط . قد يحافظ الانضباط الصارم والشدة المتناهية على المناقب الحربية للوحدة ، الا انها لا يمكن ان تخلق مثل هذه المناقب . ورغم اهمية مثل هذه العوامل الا ان من الضروري عدم المبالغة في ذلك. فالضبط والمهارة ، والارادة الجيدة ، والاعتزاز الاكيد ، والمعنويات العالية ، وكل ذلك مما يمكن ان يخلق وينمى في جيش قد درب في ايام السلم . وهي تستحق الاحترام ، الا انها لا تتمتع باية قوة في ذاتها . فهي اما توجد مجتمعة او تنهار كلها . اذ ما إن تنهار احدى تلك القيم حتى يتحطم البناء بكامله كالزجاج الذي يبرد بسرعة عالية . فحتى اعلى المعنويات في العالم يمكن ان تتحول وعند اول هزيمة الى جبن وجزع ، والى نوع من الخوف الصارخ والمذل ، او الى ما يدعوه الفرنسيون بـ « انج بنفسك » او الفرار (Sauve qui peut) ولا يمكن لجيش كهذا ان ينتصر الا بحنكة ومزايا قائده وليس باي شيء اخر ، ويجب ان يقاد هذا الجيش بما يزيد على الحذر الاعتيادي الى ان يحرز العديد من الانتصارات ويمر بالكثير من المشاق كي تنمو وتتعاظم قواه واواصره الداخلية حتى تعود اليه سمعته وهيبته . ينبغي ان لا نخلط بين الروح الحقيقية لجيش ما مع امزجته .

= ايامه ، واشهر من استخدم تشكيلات المشاة سيما بعد امتلاك هذا الصنف الاسلحة النارية ، كما يعد احد اشهر ثلاث قادة اسبان ولعله من اشهر قادة القرن السادس عشر . راجع

1. Military Biography (سابق) pp - 29 - 94.
2. Encyclopedia of Military History (سابق) pp - 448 - 505.

الفصل السادس

الاقدام Boldness

ناقشنا في الفصل الذي يعالج حتمية النجاح، المكانة التي يحتلها الاقدام في ديناميكية منظومة القوى، والدور الذي تلعبه عندما تتعارض مع الحذر والتعقل (الروية). لقد حاولنا اظهار خطأ المفكرين الذين حددوا الاقدام وفق أسس منهجية.

لكن لابد من اعتبار الاقدام ، هذه الطاقة النبيلة التي تعلو وتقهر اكثر المخاطر بشاعة وتهديداً ، كمبدأ بذاته ، مستقل وفعال . ففي اي مجال آخر من مجالات النشاط الإنساني يا ترى ، يجد الاقدام مكانه الحقيقي المناسب اكثر من الحرب ؟

يستطيع الجندي، وسواء كان طبالاً أو جنرالاً امتلاك ميزة نبيلة ؛ وهي المعدن الاصيل الذي يعطي السيف حده ومضاءه.

دعونا نقرُّ أن للاقدام في الحرب تفوق متميز خاص به . وان نقرّ له بقوة اكيدة على، وفوق الحسابات الدقيقة والناجحة حول الوقت والمسافة ، وحجم القوات ، فحيثما تَفَوّق الاقدام ، فسيستفيد من ضعف خصمه. فهو بعبارة أخرى قوة خلق وابداع عبقرية. ليس من الصعب إثبات هذه الحقيقة حتى علمياً فحيثما التقى الاقدام بالجبن فالاكثر إحتمالاً أن يكون هو المنتصر ، لان الجبن يعني ضمنياً فقدان التوازن . ولا يشكل الاقدام ميزة واضحة الا في مواجهة الحذر المدروس فقط ، وقد يعتبر هذا النوع من الحذر جرأة بحد ذاته ، وله بكل تأكيد نفس القوة والفاعلية ، الا ان حالة كهذه نادرة . فالجبن هو جذر التعقل في معظم الرجال .

ليس تطوير الجرأة لدى معظم الجنود بالامر الضار بالنسبة للمزايا الاخرى ، لأن منتسبي القطعات يخضعون بحكم الواجب وظروف الخدمة الى سلطة اعلى ، أي انهم يقادون من عقل خارجي عنهم . ويعمل الاقدام لديهم كالنابض الحلزوني «Coiled Spring» يمكن افلاته في اية لحظة .

كلما تعالت سلسلة القيادة اكثر ، كلما تعاظمت الحاجة الى الاقدام كي يدعم بعقل متأمل، كي لا يضيع الاقدام في انفجارات غير هادفة من العواطف العمياء . تغدو القيادة اقل اهتماما تدريجياً بالتضحية الفردية ، ويتزايد حرصها على امن وسلامة الاخرين ، وعلى الهدف العام . والميزة التي تضبط وتعزز لدى معظم الجنود بقوة وتأثير

نظامات الخدمة ، حتى تغدو طبيعة ثانية لهم ، يجب ان تحكم وتكبح لدى القادة بقوة الفكر والتأمل . فقد يثبت أن العمل الجرئ الذي يقوم به القائد شيء اهوج. مع ذلك ، فمن الخطأ الفاحش ان لا ينظر الى القائد او تراعى معه نفس المعايير التي تتبع مع الاخرين . وسعيد هو الجيش الذي غالباً ما تحدث فيه اعمال الاقدام والجرأة حتى في اوقات ليست مناسبة ، قد يكون ذلك من النباتات الضارة ، أو من بذور الترف الا انها اشارة اكيدة على خصوبة التربة التي ظهرت فيها . بل وحتى الاعمال الطائشة - اي الاقدام دونما هدف أو غاية - لا يجوز ازدرائها ، فهي اساساً نتاج للشجاعة والجرأة التي تكون قد تفجرت في مثل هذه الحالات بفعل هيجان عاطفي غير محكوم بالعقل. اما عندما تشكل الجرأة عصيانا وتمرداً على الطاعة والانضباط ، وعندما تتجاهل أوامراً صريحة وواضحة فيجب أن تعامل في هذه الحالة كاساءة وكجريمة وأن توقف عند حدها ، لا بسبب خاصية الجرأة أو الاقدام لذاتها ، بل لان أمراً لم يطاع ، وللطاعة في الحرب اهمية اساسية حد التقديس .

مع ذلك وفي ظروف فكرية أو عقلية متساوية فمخاطر الجبن في الحرب تزيد الف مرة على مخاطر الجرأة والتهور . ولا تخفى حقيقة ملاحظة كهذه على القارئ .

ما سيحدث بعد تحقيق نتيجة منطقية معقولة ، جدير بان يجعل من الاسهل علينا ان نكون جريئين ، واقل استحقاقاً للتقدير كذلك ، رغم ان العكس صحيح ايضاً .

تقل قوة مختلف المشاعر كثيراً بفعل تدخل الفكر ، وتقل حتى اكثر بفعل السيطرة على النفس . وعليه فان تنامي وتعاظم الجرأة **اقل شيوعاً في الرتب العليا**. حتى لو كان تنامي الفكر والادراك ونفاذ البصيرة لدى ضابط ما لا يتناسب وتدرجه على سلم الرتب ، فحقائق الحرب ستفرض شؤونها وظروفها عليه. وفي الحقيقة فان تلك التأثيرات ستكبر كلما قل أو تأخر تفهمه لها . وهذه هي القواعد الرئيسية للتجربة التي يعبر عنها المثل الفرنسي الذي يقول « ساطع على السفح معتم على القمة »[1]. يلاحظ ان كل القادة المعروفين لدينا تاريخيا كقادة متوسطي أو محدودي القدرة، بل وحتى مترددين، أنهم كانوا عزومين ومندفعين في الرتب الدنيا.

ينبغي التمييز ما بين أعمال الاقدام الناتجة عن ضرورات محضة. وتبدو الضرورة باشكال ودرجات متنوعة . فلو دعت الضرورة ، فقد يضطر رجلٌ ما وأثناء متابعته

---

(١) The Same man who shines at the second level is eclipsed at the top . Eds .

الوصول الى غايته حدّ ان يجلب لنفسه مجموعة من المخاطر ، من اجل تجنب مجموعة اخرى بنفس الشدة . وقد نعجب في تلك الحالة بقوة عزمه فقط والذي لا يخلو من قيمة كذلك. فالفارس الشاب الذي يقفز فوق حفرة عميقة لاظهار فروسيته فانه مقدام، اما لو فعل ذلك للهرب من عصابة من الانكشاريين المتوحشين ، فانه انما يظهر عزمه . كلما زادت المسافة بين الضرورة والعمل ، كلما زاد عدد الاحتمالات التي عليه تحديدها وتحليلها قبل المباشرة بالعمل ، وكلما انخفض حجم التقليل من عامل الاقدام. ففي عام ١٧٥٦ ادرك فردريك الكبير أن الحرب[٢] واقعة لا محالة ، وانه سيخسرها ما لم يبادر ويسبق أعداءه ، واصبح من الضروري ان يأخذ زمام المبادأة ويبدأ الحرب ؛ وكان هذا مثالاً حياً على الاقدام ، والقليل جداً من الرجال في موقف كهذا يجرأون على التصرف بهذه الطريقة .

بينما تعد الاستراتيجية مجال الجنرالات وكبار الضباط حصراً ، فللاقدام في بقية الجيش نفس الاهمية التي لعامل في التخطيط، كأية مناقب حربية أخرى. يمكن تحقيق الكثير بجيش اختير من وسط شعب عرف بالاقدام والشجاعة ، جيش تربى على روح الاقدام طول الوقت ، اكثر مما يمكن تحقيقه بجيش يعاني من نقص هذه الميزة. لهذا السبب جرى استعراض الاقدام بشكل عام مع ان موضوعنا الحقيقي هو أقدام القائد . إذ وبعد الافاضة في وصف واستعراض مناقبه الحربية ليس لدينا الكثير مما يقال بعد. كلما علت الرتبة العسكرية كلما ارتفعت درجة تحكم العقل ، والفكر ، والبصيرة في الانشطة . وعليه ، فالاقدام الذي هو إحدى المزايا التي تكمن في الطبع ، لابد أن يكبح ويحدد . وهذا يوضح لنا اسباب ندرته في الرتب العليا ، ولماذا يثير توفره في مثل تلك الرتب المزيد من الاعجاب . فالاقدام المسيطر عليه بفكر متفوق هو احدى علامات البطل ولا يتأتى هذا النوع من الاقدام من تحدي النظام الطبيعي للأشياء ، ومن الخرق المتمادى لقوانين الاحتمالات ؛ بل انه والى حد ما مسألة دعم فعال لذلك الشكل الرائع من التحليل الذي تتوصل العبقرية بواسطته الى قرار سريع ، ولا يتوقف الا قليلاً في الموازنة ما بين الاحتمالات . يمكن ان يمنح الاقدام أجنحة للفكر والبصيرة،

---

(٢) حرب السنوات السبع (١٧٥٦-٦٣) بين بروسيا بقيادة فردريك الكبير تساندها بريطانيا ضد النمسا وفرنسا وروسيا والسويد وساكسونى وانتهت بانتصار بروسيا وتفرق التحالف - المترجم -

وكلما قويت تلك الاجنحة ، كلما تعالى واتسع الرأي ، وكلما كانت النتائج أروع ، وهكذا ، تتضمن الجوانب الكبيرة بطبيعة الحال مخاطراً اعظم . والرجل المتوسط ، ولا نقول ، المتردد أو الضعيف ، في موقف متخيل (مفترض)، في زمن السلم وهو بعد في مكتبه البعيد عن اية مخاطر ومسؤوليات ، قد يصل الى اجابة أو قرار سليمين — اي طالما كان بوسعه ذلك دون مواجهة الحقيقة . اما لو احدقت به المخاطر والمسؤوليات من كل جانب ، فسيفقد قوة الادراك . وحتى لو وفر له ذلك أخرون فسيفقد دون شك قدرته على القرار، ولا يستطيع احد ما مساعدته في ذلك.

بكلمة اخري لا يمكن تصور وجود قائد فذ بشكل متميز دون إقدام . وما من رجل لم يولد شجاعاً بوسعه أن يلعب هذا الدور ، لذلك نعتبر هذه الميزة أول مستلزمات القائد العسكري العظيم اما المقدار الذي سيتبقى معه من هذه الميزة عندما يصل الى رتبة عليا ، وبعد ان يتولى التدريب والتجربة تطويرها والتأثير فيها ، فهو قضية اخرى . وكلما عظم نطاق احتفاضه بها ، كلما اتسع نطاق عبقريته . وسيزيد حجم المخاطر التي سيتعرض لها ، ولكن سيتسع ويتعاظم الهدف المرجو كذلك. ليس من فرق كبير لدى الباحث النقدي ما بين الاعمال المحكومة ببعض كوابح الغايات الواسعة ، وبين تلك الموجهة بفعل الطموح المحض — بين سياسات فردريك (الكبير) والاسكندر (المقدوني) . فقد تلهب اعمال الاخير الخيال بسبب ما رافقها من جرأة عظيمة ، بينما ترضى اعمال الاول ، العقل اكثر لانها تملى بضرورة مركزية .

لابد لنا من ذكر مثل آخر اكثر اهمية .

فقد يتشبع جيش ما بالاقدام بسببين ؛ فقد يتأتى بشكل طبيعي من الشعب الذي جندت منه القطعات، أو قد يكون الاقدام نتيجة حروب خاضها الجيش وانتصر بها تحت قيادة شجاعة ، فان كان الثاني هو السبب فلابد إن الاقدام كان قليلاً في البداية .

اما الان فما من وسيلة عملية تمرس الشعب بروح الاقدام هذه غير الحرب، على أن تشن بقيادة شجاعة ، وما من شيء اخر سيقاوم الميوعة والرغبة باليسر والرخاء الذي يفسد الشعب في ايام الرخاء التجاري وتنامي الثروة .

بوسع الشعب والامة أن يأملا بنيل مكانة قوية في العالم فقط اذا قوى الطابع الوطني والتأقلم مع الحرب احدهما الاخر بالتفاعل المتواصل .

الفصل السابع

المثابــرة Perseverance

يتوقع القارئ أن يسمع عن النظرية الاستراتيجية ، وعن الخطوط والزوايا، لكن وبدلاً عن مخلوقات (denizens) عالم العلم ، يجد نفسه في مواجهة موجودات الحياة العادية . الا أن الكاتب لا يستطيع أن يجعل نفسه اكثر علمية ولو بدرجة ضئيلة جدا من القدر الذي يرى أن موضوعه يسمح به – وقد يظهر مثل هذا النزوع الغريب .

لا تسير الامور ولا تنتهي في الحرب واكثر مما في اي مجال آخر، كما نتوقع لها. والشكل الذي تبدو عليه تلك الاشياء وهي على مقربة ، ليس هو نفسه الذي تبدو فيه على مبعدة . فباي درجه من الثقة يراقب المهندس المعماري تقدم عمله ، وإلى خطته وهي تأخذ شكلها النهائي تدريجياً وكذلك الطبيب ، مع انه اكثر تعرضا للصدفة والى ما لا يمكن تفسيره ، الا انه يعرف على اية حال أدويته والتأثيرات التي تنتجها . وعلى العكس من ذلك تنهال على القائد في الحرب سيول التقارير الصحيحة والكاذبة ، وبالرعب الناجم من الخوف اوالاهمال ، اوالتسرع ؛ وبعدم الاطاعة الناجم عن تفسير خاطئ أو صحيح ، او بسبب وهن الارادة ، أو بفعل احساس دقيق أو خاطئ بالواجب او بفعل الكسل واللامبالاة ، أو بسبب الانهاك، كما قد يقع ذلك بفعل الصدفة التي ليس بوسع أحد توقعها مسبقاً أو أخذها بالحسبان . الخلاصة ، انه يتعرض لما لا حصر له من التأثيرات ، معظمها مما يثير الحيرة والارتباك والقليل منها فقط مشجع ومريح . تخلق التجربة الطويلة في الحرب القدرة على تقويم سريع لتلك الظواهر ، كما تمنح الشجاعة وقوة الشخصية للقائد الصلابة التي للصخور في صدّ الامواج . اما ان استسلم الرجل (القائد) لمثل تلك الضغوط فلن يستطع اكمال اية عملية ابداً . يعتبر **الثبات Perseverance** على المسلك المنتخب هو قوة التوازن الاساسية ، شريطة عدم تدخل اسباب قاهرة باتجاه معاكس . واكثر من ذلك فمن الصعوبة بمكان أن نجد مشروعاً أو مهمة ذات شأن في الحرب لا يتطلب تنفيذها جهوداً ومشاكل وقسوة وحرمان لا نهاية لها ، حتى اذا مال الرجل الذي يتعرض لكل هذه الضغوط الى

الاستسلام للضغط المادي والعقلي ، عندها ليس سوى الارادة الفائقة القوة وحدها القادرة على متابعة الوصول الى الهدف[1] ومثل هذا الصمود هو ما سينال اعجاب العالم والاجيال اللاحقة .

---

(١) روى لي احد الضباط « ان الانهاك البدني كان يبلغ حداً يصعب احتماله وعلى الاخص في الحروب الجبلية ساعتها كان بوسع اضعف انسان ان يجردنا من اسلحتنا بكل بساطة حتى ان كان هذا الانسان فتاة ضعيفة ، كما ان الضغوط المعنوية ونيران العدو التي كانت تصطاد كل من يكشف ولو عن جزء صغير من جسمه حتى الكف او غطاء الرأس .. عندها كانت قوة الارادة او ما ادعوه بسم الافعى الذي يجري في الاعصاب لا في الشرايين هو وحده ما يبقى الجسم منتصباً والاقدام تتابع المسير » وحين سألته عن سم الافعى هذا ، قال « الا ترى ان ذنب الافعى يتراقص بعد قطعه عن الجسم .. ما الذي يحركه .. اليس ما بقي فيه من سم الافعى هذا» وتابع ، « او سمه ما شئت » . المترجم .

الفصل الثامن
التفوق العددي

يعد التفوق العددي تعبوياً واستراتيجياً اكثر عناصر النصر شيوعاً واهمية. فدعونا ابتداءً نتمعن في هذه الميزة العامة التي تتطلب العرض التالي .

تحدد الاستراتيجية الوقت (متى؟) والمكان (اين ؟) والقوات (بماذا ؟) سنخوض هذا القتال ، ومن خلال هذه الانشطة الثلاثية تمارس تأثيراً هاماً على نتائج الاشتباكات . وحال حدوث المواجهة التعبوية ، وتتأكد النتيجة – نصراً أو اندحاراً – فان الاستراتيجية ستستخدم هذه النتيجة خدمة لهدف الحرب . وعادة فهذا الهدف بعيد ، ونادراً ما يكون في متناول اليد . فقد تلعب سلسلة من الاهداف الثانوية دور الوسيلة او الوسائل الكفيلة بتحقيق الهدف النهائي ؛ وهذه الاهداف المتوسطة ، أو وسيلة الوصول الى النهايات الاعلى قد تكون عملياً على انواع متعددة . بل وحتى الهدف النهائي ، أو الهدف الكلي للحرب ، يختلف هو الاخر في كل حالة . وقد نتفهم هذه الموضوعات بشكل أفضل كلما تابعنا مختلف التفاصيل التي تنتهي اليها . ولا ننوي تعدادها بالكل هنا ، حتى ان كان ذلك ممكنا ، لاننا لا نناقش الان مسألة استخدام الاشتباك .

كما ان العوامل التي تؤثر الاستراتيجية من خلالها على نتائج الاشتباك ليست بالبساطة التي يمكن معالجتها أو التعامل معها بفقرةٍ أو جملةٍ واحدة . ففي القرار على زمان ومكان الاشتباك ، والقوة التي ستستخدم ، تطرح الاستراتيجية عدداً من الامكانيات ، لكل منها تأثيراً مختلفاً على نتائج الاشتباك . هنا ومرة اخرى كذلك، سنلم بالموضوع تدريجياً ، ونحن نتابع دراسة مختلف العوامل التي فيه .

وهكذا فلو جردنا الاشتباك من كافة المتغيرات الناجمة عن هدفه والظروف المحيطة ، وتجاهلنا القيمة القتالية للقطعات المشاركة فيه (والتي يمكن تحديد كميتها) ، فلن يتبقى معنا سوى المفهوم المجرد للأشتباك ، كمعركة لا شكل لها والعامل الوحيد الذي يميزها (عن غيرها) هو عدد القوات في كل جانب .

تلك الاعداد اذن هي التي ستحدد النصر . ومن الواضح طبعاً ، ومن خلال

التجريدات العديدة التي فرضتها وصولاً الى نقطة تفيد بان التفوق العددي في اشتباك ليس اكثر من أحد العوامل التي تقرر النصر . الا أن هذا التفوق العددي، وهو ابعد من أن يقرر كل شيء ، او حتى يعدّ جزءً اساسياً في النصر ، قد يكون له شأن ولو قليل جداً وإعتماداً على الظروف .

الا ان التفوق يختلف من حيث الدرجة . فقد يكون بنسبة (٢ الى ١) ، أو ثلاثة أو اربعة الى واحد وهكذا ، حتى تصل النسبة التي تعد تفوقاً تاماً، هنا نُقرّ بأن التفوق العددي هو العامل الاكثر اهمية في تحديد النتيجة التي سينتهي اليها الاشتباك طالما كان هذا التفوق كبيراً بما يكفي لمقابلة وموازنة كل الظروف القائمة ، ومن ذلك نصل الى ضرورة الزج باكبر حجم ممكن من القطعات في الاشتباكات التي تقع في النقاط الحاسمة .

اما اذا ظهر أن هذه القوات كافية أولاً ، فقد فعلنا كل ما بوسعنا على الاقل . وهذا هو أول مبادئ الاستراتيجية . وهذا المبدأ وبشكله العام الذي عبرنا عنه هنا، شيء حقيقي بالنسبة لليونانيين والفرس ، وللأنكليز والموراثيين[1]، والفرنسيين والالمان ، ولكن وكي نكون اكثر واقعية وتماسكاً لنتفحص الظروف العسكرية في اوروبا .

تتقارب الجيوش الاوروبية في المعدات ، والتنظيم والتدريب، والاختلافات الرئيسية التي قد توجد بينها انما ستكون في شجاعة وحيوية القطعات ، وفي قدرة وكفاءة القادة . ولو تمعنا في التاريخ المعاصر لأوروبا ، فسوف لن نجد ماراثوناً اخرى[2].

---

(١) الموراثيون . شعب سكن غرب الوسط الهندي وشادوا امبراطورية لهم عام ١٦٧٤ بقيادة زعيمهم سيفاجي (١٦٢٧-٨٠) بعد سقوط امبراطورية المغول . ثم انقسمت الامبراطورية الى دويلات متناحرة فيما بينها حتى الاحتلال البريطاني للمنطقة عام ١٨١٨ . المترجم عن . Longman Larousse Dict

(٢) معركة ماراثون من المعارك الحاسمة بين اليونان والفرس عام (٤٩٠ . ق . م) وجرت عند ميناء ماراثون شمال اثينا . قاد (ملتيادس) جيش اليونان وانتهت بانتصار ساحق له على الفرس المرجع اعلاه وموسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٢٣ - ٢٥ - المترجم .

اما في معركة « ليوثين Leuthen »[1] فقد خاض فردريك الكبير وبامرته حوالي (ـر ٣٠) الف مقاتل ودحر النمساويين وقوتهم حوالي (ـر ٨٠) الف مقاتل كما انتصر في (روسباخ)[2] وبامرته (ـر٢٥) الف رجل على قوات التحالف وهي حوالي (ـر٥٠) الف رجل . وكلها مجرد امثلة فقط على انتصارات تحققت ضد خصم متفوق بنسبة (١:٢) او حتى (١:٣) . لا ينطبق ذلك على الملك السويدي جارلس الثاني عشر في معركة « نارفا Narva »[3] ، اذ يصعب اعتبار روسيا ايامها بلداً اوربياً ، واكثر من ذلك فليس لدينا سوى القليل عن الاحداث الرئيسية في تلك المعركة . كما خاض بونابرت معركة (دريسدن)[4] وبامرته (ـر ١٢٠) الفاً ضد قوات خصومه وهي بحدود (ـر٢٢٠) الفاً – اي اكثر من نصفها بقليل . لم يستطع فردريك الكبير

---

(١) معركة ليوثين (١٧٥٧/١٢/٦) بين القوات النمساوية بقيادة الامير جارلس والجنرال دوان والقوات البروسية، استخدم فردريك الكبير فيها اسلوبه المفضل المعروف بنظام المعركة المائل ، وانتهت بهزيمة ساحقة للنمساويين ولم ينقذهم من الدمار الكامل سوى حلول الظلام فانسحبوا الى (بريسلاو) التي سقطت بدورها بعد اربعة ايام .

(٢) معركة روسباخ (١٧٥٧/١١/٥) حاول التحالف فيها تطويق قوات فردريك الكبير الذي تظاهر بالانسحاب شرق روسباخ ، واستقبل ارتال التحالف بنيران مدفعيته ومشاته كما انقض بخيالته في نفس الوقت على جناح التحالف الايمن ، وبعد ساعة ونصف فقط انسحب التحالف بعد خسارة (ـر٨) الاف رجل – (عن م م. ت. ع ص ٦٦٩ – ٧٠) – المترجم .

(٣) معركة نارفا (١٧٠٠/١١/٢٠) بين قوات جارلس الثاني عشر (السويد) . وبامرته (ـر٨) الاف رجل ، والروس وهم خمسة اضعاف قوته . دارت المعركة وسط عاصفة ثلجية وانتهت بتدمير الجيش الروسي ، ولا تتوفر معلومات كثيرة ولا نعرف حتى مكان المعركة . (م. ت. ع – سابق – ص – ٦١٤ المترجم) .

(٤) معركة دريسدن – راجع الهامش (ص ٢٩٥) – المترجم .

وبامرته (٣٠) الفاً قهر النمساويين في « كولين Kolin »[١] وهم بحدود (٥٠) الفا، وعلى نفس الوتيرة ، فات نابليون النصر في معركة لايبزك»[٢] الطائشة مع ان قوته كانت حوالي (١٦٠) الفاً ضد (٢٨٠) الف مقاتل لخصومه ، اي أقل بكثير من ضعف قوته .

قد توضح لنا تلك الامثلة من اوروبا الحديثة ، أنه وحتى معظم القادة الموهوبين سيجدون من الصعب عليهم دحر خصم تصل قواته الى ضعف ما لديهم ، وعندما نرى أن مهارة اعظم القادة قد تقابل وتعادل بقوات مقاتلة تتفوق بنسبة (٢:١) ، فلا شك لدينا من أن تفوقاً عددياً كبيرا في حالات اخرى ، وسواء اكانت الاشتباكات (المعارك) كبيرة أو صغيرة (وما من حاجة ليكون هذا التفوق اكثر من الضعف) ، كافياً لضمان النصر، ومهما كانت الظروف الاخرى معاكسة . يمكن في حالات اخرى بطبيعة الحال تصور بعض الحالات او المواقف التي لا ينطبق عليها ذلك ، ففي ممر جبلي مثلاً سوف لن يجدي فيه تفوق عددي تصل نسبته الى (١٠:١) ، الا أن من الصعب الحديث في موقف كهذا عن مجرد اشتباك .

نعتقد انه وفي ظروفنا أو أية ظروف مشابهة ، يظل العامل الرئيسي هو امتلاك قوة (تفوق) في نقطة حاسمة فعلاً ، وهذا عادة اكثر العوامل اهمية حقيقة . يعتمد تحقيق التفوق في النقطة الحاسمة على قوة الجيش ، وعلى المهارة التى ستستخدم فيها تلك القوة .

---

(١) معركة كولين (١٧٥٧/٦/١٨) هاجم فيها فردريك الكبير مواضع الجنرال (دوان) الحصينة الا ان هذا نجح بصد الهجوم مكبداً اياه (-ر١٢) الف قتيل واضطر فردريك الى رفع الحصار عن براغ والانسحاب من بوهميا – م. ت . ع – ص ٦٩٩ .

(٢) معركة لايبزك (١٦–١٨١٣/١٠/١٩) ، وتعرف بمعركة الامم وتعد من المعارك الحاسمة التي قاتلت فيها اوربا مجتمعة عدواً مشتركاً هو نابليون . قاتل الفرنسيون وطوال ثلاثة ايام كلاً من النمساويين والروس بالاضافة الى قوات الجنرال السويدي (برنادوت) التي جاءت من الشرق حتى اوشك التحالف على تطويق قوات بونابرت ، ثم شنوا هجوماً جبهوياً واجبروا نابليون على دخول لايبزك ، وما زالت خطوطه القتالية سالمة ، ثم تخلى عنه البروسيون وسحبوا فيلقهم فاصبح انتصاره مستحيلاً فاضطر الى الانسحاب جنوباً اعتماداً على خطوط مواصلاته الامينة رغم محاولات (بلوخر) ، وخاض نابليون قتالاً جنونياً داخل المدينة ثم جرى تدمير الجسر على نهر (ايلستر) ، فاضطرت القوات الفرنسية الى خوض النهر . لقد حقق التحالف نصراً مدوياً الا انهم عجزوا عن القضاء على نابليون . لقد كانت خسائر الطرفين بحدود (٦٠) الف مقاتل لكل منهما – عن م. ت. ع (ص ٧٦٠ – ٦٢).

لذلك ينبغي أن تكون القاعدة الاولى هي : زج اكبر جيش (قوة) ممكن في الميدان . وقد يبدو ذلك تافهاً ، الا انه ليس كذلك في الواقع .

لو اردنا أن نوضح المدى الذي لا تعتبر فيه لقوة الجيش اهمية رئيسية ، تكفينا الاشارة الى أن معظم المؤرخين العسكريين في القرن الثامن عشر – وحتى اغزرهم تأليفاً – اما انهم لم يذكروا حجم الجيوش ، او انهم ذكروا ذلك عرضاً فقط ، ولم يركزوا على ذلك قطعاً . كان (تمبلهوف)[١] في تاريخه لحرب السنوات السبع ، أول كاتب يورد ارقاماً عن ذلك بشكل منظم ، مع انها كانت ارقاماً تقريبية .

وحتى رواية (ماسنباخ Massenbach)[٢] عن الحملة البروسية في جبال الفوج (الغابة السوداء شمال شرق فرنسا) عامي (١٧٩٣ – ٩٤) والتي حوت الكثير من الملاحظات النقدية الهامة ، والكثير من الشروح عن التلال ، والوديان ، والطرق والنياسم ، لم تورد شيئاً عن القوات المتقاتلة .

لقد وجدت ادلة اضافية في الافكار الغريبة التي لازمت بعض الكتاب ، وهي ان هناك بالتأكيد حداً اقصى لحجم جيش ما ، ويعد هذا الحجم مثالياً حتى أن اضافة اية قطعات أخرى ستسبب من المشاكل أكثر مما تستحق تلك الاضافة .

واخيراً فهناك الكثير من الحالات التي لم يتم فيها استخدام كل القطعات المتيسرة في معركة أو حرب ، والسبب هو عدم اعطاء التفوق العددي الاهمية التي يستحقها .

لو اقتنع المرء حقيقة ، بامكانية تحقيق الكثير بالتفوق (العددي) الكبير ، فمثل هذه القناعة جديرة بالتأثير على الاستعداد للحرب . ستكون الغاية عندها السيطرة على الميدان بأكبر قوة ممكنة ، اما لتكون لنا اليد العليا ، او للتأكد على الاقل من حرمان العدو مثل هذه المكانة ، لقد قلنا الكثير عن القوة التي ينبغي استخدامها عند شن الحرب .

---

(١) العقيد جورج فردريك فون تمبلهوف (١٧٣٧ – ١٨٠٧) من الجيش البروسي وقد اتسمت كتاباته بالدفاع عن حملات فردريك الكبير ، كما كانت كتاباته مصدراً لكثير من المنظرين العسكريين امثال جوميني – المترجم –

(٢) العقيد لودفيك ما سنباخ (١٧٥٨ – ١٨٢٧) من الجيش البروسي .

سيتم القرار على الحجم في الواقع من قبل الحكومة، وسيؤثر هذا القرار على بدء الفعاليات العسكرية وذلك جزء مهم من الاستراتيجية حقا – وكذلك يتعين على القائد الذي سيتولى قيادة الجيش في الميدان القبول بحجم القطعات كعامل محدد، اما لأنه لم يستشر في مثل هذا الامر ، اولأن الظروف منعت زيادة كبيرة في حجم القطعات .

وعليه ، يجب استخدام القوات المتيسرة بنوع من المهارة التي وان تعذر معها تحقيق التفوق المطلق ، امكن تأمين تفوق نسبي في النقطة الحاسمة .

لتحقيق ذلك يبدو أن حسابات الوقت والمسافة هي اكثر العوامل اهمية ، وهذا يسمح بالاعتقاد بان استراتيجية الوقت والمسافة تغطي عملياً كلما يتعلق باستخدام القوات حقاً لقد ذهب البعض بعيداً جداً حتى انهم يعزون الى القادة العظام امتلاكهم نوعاً من الالات او الوصفات الخاصة بالتعامل مع الاستراتيجية والتعبية .

لكن ورغم أن لمعادلة الوقت والمسافة الاولوية والاساس لكل شيءآخر ، وانها الخبر اليومي (daily bread) للأستراتيجية ، إن جاز لنا قول ذلك ، الا انها ليست الاكثر صعوبة ولا العامل الحاسم كذلك .

لو تمعنا في حروب الماضي بعقلٍ متفتح ، فسيتضح لنا ، وفي مجال الاستراتيجية على الاقل ، وجود حالات قليلة جداً فقط ، تسبب فيها خطأً كهذا في الحسابات بخسائر واندحارات خطيرة . واكثر من ذلك فان كان لمفهوم المهارة في الربط بين الوقت والمسافة ، أن يفسر جميع الامثلة والاحداث التي تمكن فيها قائد مقدام وعزوم ، وبالتنقل السريع (المناورة السريعة) بضرب عدة ارتال بجيش واحد (فردريك الكبير ونابليون) فسنربك انفسنا ، دون ضرورة بمصطلح تقليدي. ولو اردنا تقديم مفهوم واضح ومجدٍ فعلينا أن نسمي الاشياء بأسمائها .

كانت الاسباب الحقيقية لمثل تلك الانتصارات هي التقدير الصحيح للقادة الخصوم (دوان ، وشوارزنبرغ) والاستعداد لمواجهة الخطر الذي يواجههم وقتها ، بقوات اقل ، وطاقة للتنقل السريع ، واقدام على شن هجمات سريعة ، والزيادة في الفعالية التي يستثيرها الخطر في الرجال العظام ، لكن ما الذي سيفعله كل ذلك مع القدرة على حساب العلاقة بين عنصرين بسيطين كعاملي الوقت والمسافة ؟

حتى هذا التأثير الانعكاسي للقوات ، والذي ارسى القادة العظام دفاعاتهم عليه

في الغالب ، والى الحد الذي شكلت فيه الانتصارات في (روسباخ) و (مونت ميريال) قوة دفع لانتصارات (ليوثين) و (مونتيروى)[1] ، ومع ذلك فلو اردنا الدقة والوضوح فقد كانت تلك امور نادرة في التاريخ .

كثيرا ما يعتمد التفوق النسبي ، اي الحشد الماهر لقوة متفوقة في نقطة حاسمة ، على التقدير والاختيار الصحيحين لهذه النقطة الحاسمة ، في تخطيط محكم ومناسب منذ البداية يؤدي الى انفتاح وتوزيع ملائمين للقطعات ، وعلى البراعة والعزم في التضحية وتجاوز كلما هو ثانوي وغير ضروري من اجل ما هو اساسي – اي الشجاعة في الاحتفاظ بالقسم الاكبر من القوات مجتمعة ، وهذا ما كان يميز كلا من فردريك الكبير ونابليون بونابرت .

بعد هذه المناقشة ، نعتقد اننا اوضحنا اهمية التفوق العددي الحقيقية . لذا يجب اعتباره كامر اساسي – لابد من توفره في جميع الحالات والى اقصى حد ممكن .

سيكون من سوء الفهم الخطير لحجتنا هذه اعتبار التفوق العددي أمرا لازباً للأنتصار ، بل نود فقط التأكيد على الاهمية النسبية له . وسيراعى هذا المبدأ لو استخدمت اكبر قوة ممكنة ، اما امر القرار على تجنب القتال بسبب نقص القوة فيمكن البت فيه على ضوء كافة العوامل الاخرى .

---

(١) يوضح تقارب معركتي روسباخ وليوثين العلاقة بينهما وكذلك الحال بين معركتي (مونت ميريال) في (١٨١٤/٢/١١) والتي دارت في الايام الاخيرة لنابليون حيث ابدى ايامها براعة متناهية ضاعفت مجده العسكري فقد هاجم طوال خمسة ايام متتالية قوات (بلوخر) في سلسلة من الضربات عرفت بـ (الايام الخمسة) فبلغت خسائره (٩) الاف رجل مقابل الفين لنابليون ، وقد قادت هذه المعارك الخمس الى معركة (مونتيروى) في (١٨١٤/٢/١٨) ، اذ اندفع نابليون بسرعة جنوباً لمهاجمة قوات شوارزنبرغ دافعاً اياه مسافة (٤٠) ميلاً رغم تفوق الاخير بنسبة (٢:١) وكبدّه ستة الاف قتيل مقابل (٢٫٥٠٠) رجل للفرنسيين ، الا ان اندفاع (بلوخر) نحو (لافورت) على مبعدة (٢٥) ميلاً من باريس أجبر نابليون على ترك شوارزنبرغ والاسراع لمواجهة تهديد بلوخر – موسوعة التاريخ العسكري – ص ٧٦٣ – المترجم .

الفصل التاسع
المباغتة

يقودنا موضوع الفصل السابق – الرغبة العامة في تفوق عددي نسبي – الى رغبة اخرى ، ليست هي بالتالي اقل اهمية ولا عمومية ، وهي **مفاجئة الخصم على حين غرة**. كانت هذه الرغبه هي الأساس في كل العمليات تقريباً ، اذ يصعب بدونها تصور التفوق في النقاط الحاسمة .

لذلك اصبحت المباغتة وسيلة لتحقيق التفوق ، لكن وبسبب من تأثيراتها النفسية ، ينبغي اعتبارها عنصراً مستقلاً . حيثما تتحقق المباغتة على نطاق واسع فانها ستربك العدو وتقلل كثيراً من معنوياته ، ولدينا العديد من الامثلة الكبيرة والصغيرة التي تثبت لنا الكيفية التي اثرت فيها المباغتة بالمقابل على النتائج . ولا نبحث هنا في صولةمباغتة ، فمثل هذه الانشطة تعد جزءً من الموضوع العام « للهجوم » ، بل عن العزم بمباغتة العدو بخططنا وترتيباتنا ، وعلى الاخص ما يتعلق منها بتوزيع القطعات . وهذا ملائم تماماً في الدفاع كما انه سلاح رئيسي في الدفاع التعبوي .

نرى ان المباغتة تكمن في جذور كافة العمليات دون استثناء ولكن بدرجات تتفاوت كثيراً فيما بينها واعتماداً على طبيعة وظروف العملية

د يكون ذلك التنوع قد نشأ او تكوّن في خصائص الجيش ، او القائد ، او حتى الحكومة

العاملان اللذان ينتجا المباغتة هما السرية والسرعة . وكلاهما يستلزمان قدرة على درجة كبيرة فيما يخص الحكومة والقائد ، اما فيما يتعلق بالجيش فالمطلوب هو قدر كبير من الكفاية . لا يمكن ابداً تحقيق المباغتة في الظروف المتسمة بالانحلال والميوعة وفقدان السيطرة . لكن ومع ان الرغبة في تحقيق المباغتة شيئ عام ، وفي الحقيقة، لا يمكن الاستغناء عنها ، ومع ان الواقع يؤكد ان المباغتة لن تكون دون فائدة مطلقاً ، لكن يقابل ذلك وبنفس الدرجة ، أن من الصعوبة بمكان وبسبب الطبيعة المطلقة للمباغتة ان تحقق هذه **نجاحاًمدوياً** . لذلك من الخطأ اعتبار المباغتة عاملاً مهماً للنجاح في الحرب . المباغتة كمبدأ ، شديد الجاذبية نظرياً ، اما عملياً فغالباً ما تتعثر بفعل الاضطراب في الماكنة الحربية ككل .

المباغتة اساساً اداة تعبوية ، وذلك ببساطة لان الوقت والمسافة محدودا النطاق في التعبية . لذلك تغدو المباغتة اكثر احتمالاً كلما وقعت قريباً من المجال التعبوي ، وتتزايد مصاعبها كلما دنت من المستويات الاعلى سياسياً .

تستغرق الاستعدادات للحرب عادة اشهراً عديدة . ويتطلب ذلك حشد القطعات في مناطق التجمع عموماً ، وانشاء مستودعات التموين والاعاشة ، وكذلك العديد من عمليات تنقل القطعات ، التي سيمكن تخمين الغرض منها بسهولة كافية .

لذا فمن النادر جداً ان تباغت الدول بعضها البعض ، اما بهجوم ما او بالاستعدادات للحرب . اما في القرنين السابع عشر والثامن عشر وعندما كانت الحرب تتحول بسرعة الى الحصار، كانت المباغتة في تطويق قلعة او حصن ما، هي الغاية الاكثر شيوعاً واهمية في ان معا ، الا ان ذلك لم يثبت جدواه ونجاحه الا في حالات نادرة جداً .

من الناحية الاخرى ، يمكن تنفيذ المباغتة بسهولة اكبر في العمليات التي تنفذ بوقت قصير . وغالباً ما يمكن اخفاء تنقل ما عن العدو بسهولة نسبية ،ويمكن بهذه الطريقة احتلال موضع ما ، او عارضة ارضية ، او طريق ما . ومع ذلك فمن الواضح انه وكلما ازداد تنفيذ المباغتة سهولة، كلما قلت جدواها ، والعكس بالعكس . قد نصدق نظرياً ان مباغتات صغيرة غالباً ما اوصلت الى اشياء كبيرة ، كمعارك ظافرة ، او السيطرة على مستودع مهم ، الا ان التاريخ لا يؤيد دعاوي كهذه . والحالات التي قادت فيها المباغتة الى نتائج كبرى قليلة جداً .يمكن ان نستنتج من ذلك مدى وضخامة الصعوبات المتأصلة هنا .

على من يود مراجعة التاريخ ألا يسمح للمؤرخين بشغله عن هدفه بنظرياتهم المفضلة ، او بالمبادئ والحقائق العامة والاستعراض المزوق للتقنيات الفنية . بل عليه التركيز على الوقائع . ولنأخذ على سبيل المثال يوما معيناً من ايام حملة سليزيا عام ١٧٦١ ، اذ حدث يومها ما يشين السمعه . ففي يوم ٢٢/ تموز اجرى فردريك الكبير احدى مسيراته دون السماح لخصمه الجنرال دوان معرفة ذلك ، فقد انتقل الى (نوسين)[1] القرية من (نيسي) ، وقيل انه بذلك منع اجتماع الجيشين الروسي

(١) نوسين ، ونيس وبوتزين كلها مدن قريبة من دريسدن وكان بودي تيسر مخططات توضح مناورات ومسيرات القادة هناك . المترجم

والنمساوي في سليزيا العليا ، وبذلك حضي باربعة اسابيع لاسترجاع انفاسه . ولو درسنا هذه الحادثة في الكتابات والمراجع الاساسية ، وتمعنا في الحقائق بعقل مفتوح ، فلن تتضح لنا اية اهمية كبيرة لذلك المسير ، بل الكثير من التضارب والتناقضات في الرواية الكاملة ، والتي غدت شائعة كما هي عليه ، مع ان الكثير من تحركات الجنرال دوان خلال تلك المناورات الشهيرة ، مما لا يمكن تفسيرة . وليس بوسع الباحث عن الحقيقة والتفهم الخروج بشيئ ذا بال من هذا المثال التاريخي .

عندما نتوقع نتائجاً كبرى من عامل المباغتة خلال الحملة ، ترد الى اذهاننا الفعاليات الشاقة والقرارات السريعة والمسيرات القسرية ، لكن وحتى في الامثلة التي نفذت فيها مثل هذه الانشطة وباعلى درجاتها ما كانت تحقق على الدوام النتائج المرجوة ، وكما سيتضح لنا من تطبيقات اثنين من القادة اللذان يعدان من المع القادة في امور كهذه الاوهما فردريك الكبير ونابليون . ففي تموز /١٧٦٠ انقض فردريك فجأة على الجنرال (لاسكي Lascy) من اتجاه مدينة (بوتزين) ثم تحول من ثم الى (دريسدن) . الا ان ذلك كله لم يحقق له الا القليل حقاً ، بل ترك فردريك في موقف اسوأ مما كان عليه ، كما سقطت مدينة « كلاتز» في الوقت نفسه.

في عام ١٨١٣ تحول نابليون مرتين عن دريسدن ضد (بلوخر) ، دون أن نذكر انحداره من (لوزاتيا) العليا في (بوهيميا) ، الا انه لم يحقق هدفه . ولم يكن كلا العملين اكثر من فقاعات في الهواء ، كلفاه المزيد من الخسائر والوقت ، كما كان يمكن ان يعرضا موقفه الى مخاطر جدية في (دريسدن).

لا يعتمد النجاح الكبير في اعمال المباغتة على الحيوية ، والعنف ، والعزم الذي يتحلى به القائد ، بل يجب توفر ظروف اخرى افضل . ولا نريد هنا استبعاد امكانية النجاح ، لكننا نود فقط ارساء ، حقيقة واهمية البحث عن ظروف أفضل ، لا تتوفر على الدوام ، كما يصعب خلقها من قبل القائد وقت يشاء .

لقد قدم لنا القائدان اللذان استشهدنا بهما تواً امثلة رائعة ومذهلة عن ذلك ؛ اولاً ، نابليون ، في العملية الشهيرة ضد الجنرال بلوخر عام ١٨١٤ ، وكان هذا يتنقل على طول نهر المارن ، معزولاً عن جيش التحالف الرئيسي . يصعب علينا تصور نتيجة اكبر او افضل من تقدم غير متوقع انجز خلال يومين . كانت قوات

بلوخر موزعة على مسافة ثلاثة ايام مسير، وبذا جرى ضربها كل على حدة وبلغت خسائرها ما يعادل خسارة معركة كبيرة . يعود الفضل في ذلك كلياً الى المباغتة ، ولو عرف مقدماً بهجوم نابليون الوشيك لكان غير نظام المسير الى شكل آخر . لقد اعتمد النجاح الفرنسي على خطأ بلوخر . وما من شك في عدم معرفة نابليون بتصور بلوخر للموقف الا انه (اي نابليون) استثمر فرصة تزامنت مع تحركه[1] .

تعتبر معركة (لايجنتز) التي وقعت في ١٥/اب / ١٧٦٠ ، مثالاً اخر حول هذه النقطة . لقد انتصر فردريك الكبير فيها ، لانه تنقل ليلاً من موضع كان قد إحتله قبل قليل . لقد بوغت الجنرال لادون كلية، وخسر (٧٠) مدفعاً و (١٠) الاف قتيل. كان فردريك الكبير يومها يراعي مبدأ التنقل المتواصل كي يتجنب المعركة، او على الاقل لارباك خطط خصومه ؛ الا ان ذلك لم يكن مبتغاه يوم غير مواضعه ليلة ١٥/١٤ حزيران . لقد تنقل كما قال هو بنفسه لانه لم يقتنع بالموضع الذي احتله ذلك اليوم . هنا ايضاً لعبت الصدفة دوراً كبيراً ، وكانت النتيجة ستكون مختلفة لولا تلك المصاعب ، وكثرة التلول في المنطقة ، وتزامن التغيير الليلي الذي اجراه فردريك الكبير مع الصفحات الاولى لهجوم الجنرال لادون .

تقدم لنا المجالات العالية ، بل وحتى اعلا مجالات الاستراتيجة بعض الامثلة على المباغتة الناجحة. ويكفي ان نذكر حملة (الناخب العظيم Great Elector) ضد السويديين حيث دفعهم من فرانكونيا الى بوميرانيا ، وبعدها من « مارك براندبرغ » الى نهر بريكال. وكذلك حملة ١٧٥٧ ، واجتياز نابليون الشهير لجبال الالب في عام (١٨٠٠) ليست سوى امثلة اخرى . والذي حدث في الحالة الاخيرة ان الجيش النمساوي قد تخلى عن مسرح العمليات ، وفي حملة ١٧٥٧ ، اوشك جيش اخر بدوره لاعلى تسليم مسرح علملياته فقط بل الجيش نفسه كذلك . واخيراً يمكن ان نذكر غزو فردريك الكبير لـ (سيليزيا) كمثال على حرب غير متوقعة تماماً.

---

(١) يشير هنا الى ثلاث معارك جرت في اذار (١٣.٩.٧ منه) في ثلاث مدن تقع على قوس شمال شرق باريس هي كراوون ، ولاون ، وريمز على التوالي وقد جرت بعد قتال « الايام الخمسة » في شباط، وكانت آخر معارك نابليون قبل معركة باريس (نيسان / ١٨١٤) وقد بذل نابليون اقصى جهده من اجل منع النهاية المحتومة وكان كالاسد الجريح وهو يقاتل دفاعاً عن عرينه وقد اثارت عملياته هذه اعجاب اعدائه واثبتت مرة اخرى كونه من طراز فريد في عبقريته العسكرية (المترجم) بتصرف عن موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص٧٦٣.

لقد كانت النتائج في جميع هذه الامثلة شديدة وطموحة للغاية ، وليس في التاريخ سوى القليل من مثل هذه الاحداث لينقلها لنا – ما لم نخلطها مع امثلة عن دول لم تحسن تهيئة نفسها للحرب بسبب عدم الفاعلية المحض ، وشلل الحيوية كما كان الحال في سليزيا (١٧٥٦) وروسيا (١٨١٢).

لا بد من عرض ملاحظة اخرى تذهب بنا الى جوهر القضية وهي ان على القائد القادر على فرض ارادته، ان يتصرف بدقة . ولو حاولنا مباغتة العدو باجراءات خادعة فقد لا نحقق اية فوائد ، بل قد نجر على انفسنا ويلات . فالمباغتة في تلك الحالة، ستقلق العدو شيئاً ما ، لكن وباستغلال غلطتنا فسيجد طرقاً للتخلص من اية اثار سيئة . نظراً لان التعرض يقدم مجالات اوسع للأعمال الايجابية اكثر من الدفاع، لذا فغالبا ما يرتبط عنصر المباغتة بالهجوم – لكن ذلك ابعد من ان يكون عاماً او مطلقاً ، كما سنرى ذلك فيما يلي؛ فقد تحدث مباغتة متبادلة بين المدافع والمهاجم ، فان إصطدمتا ، فالطرف الذي سينجح ويثبت جدارته وفي جميع الحالات هو الذي يحسن توقيت ضربته في الوقت والمكان والحجم والقوة (Hit the nail most squarely on the head) او من اجاد تخمين الموقف ووصل الى استنتاج[1] .

وهكذا يجب ان تكون الامور ، مهما كانت الظروف . الا ان ذلك ولسبب بسيط جداً ليس ما يحدث فعلاً . فبالنسبة للطرف القادر على الاستفادة من التأثيرات النفسية للمباغتة ، فكلما ازداد الموقف سوءً ، كلما ازدادت منافعه ، في الوقت الذي سيجد فيه العدو نفسه غير قادر على اتخاذ قرار متماسك . ويصح ذلك ليس لكبار القادة فقط ، بل ولجميع ذوي العلاقة ، لان احدى السمات الغريبة للمباغتة هي انها تفكك عوامل الشد والتماسك ، وان اعمالاً منفردة يمكن ان تتحول وببساطة الى اشياء هامة .

يعتمد الكثير من ذلك على العلاقة التي ستقوم ما بين الطرفين . فاذا مكّن التفوق المعنوي العام احد الخصوم من اخافة وتجاوز الاخر ، فليستخدم المباغتة على اوسع واكبر تأثير ممكن ،بل وحتى انضاج ثمار النصر حيث كان وفي ظروف اعتيادية سيتوقع الخسارة.

---

(١). يعني المثل في الفرنسية اصابة الهدف اما في الايطالية فيعني (لقد اصبت الابريق) وكلها معان لامثلة دارجة في الحياة اليومية منها الكثير في العربية لعل اقربها المثل العربي الشهير اما ترين انني على كبري اعرف من اين تؤكل الكتف . (المترجم):

الفصل العاشر

الدهاء والمكر Cunning

يتضمن مصطلح «الدهاء» غرضاً مكتوما. وهو عكس الوضوح اوالاستقامة، والبساطة، كما يختلف المسلك المباشر، كفطنة وذكاء عن البرهان المباشر. لذلك ما من ارضية مشتركة بين الدهاء وبين طرق المتابعة ، او المصالح الذاتية ، او القوة ، بل يقترب كثير من الخديعة التي تخفي هي ايضاً غايتها . والدهاء بذاته شكل من اشكال الخداع، عندما يتم كلية ، ولو انه ليس خداعاً بالمفهوم العادي للكلمة، نظراً لعدم وجود خرق للأستقامة في النهاية . يتضمن استخدام الخديعة او الحيلة السماح للضحية المعنية بارتكاب الاخطاء على هواها ، هذه الاخطاء التي تتجمع وتصل الى نهاية منفردة ، تحول طبيعة الموقف فجأة وامام عينيه . وقد يمكن القول انه وكما تتعامل الشعوذة الذكية مع الافكار والمعتقدات ، يتعامل الدهاء مع العمل .

قد يبدو لنا وللوهلة الاولى ان ليس من العدل ارجاع مصطلح « استراتيجية » او القول انه مستنبط من « الدهاء Cunning » وانه ورغم كل التحولات الحقيقية والواضحة التي مرت بها الحرب منذ ايام الاغريق القدماء ، فما زال هذا المصطلح يظهر ويعبر عن طبيعته الاساسية .

ولو تركنا التطبيق الفعلي للقوة ، اي الاشتباك ، للتعبية ، ونظرنا الى الاستراتيجية كفن الاستثمار الماهر للقوة لاجل اهداف اكبر ، ولو تغاضينا ايضاً للحظة عن خصائص كالطموح الشديد الذي يعمل كالنابظ الحلزوني المضغوط ، والارادة القوية التي لا تستسلم الا على مضض .. الخ فما من ميزة بشرية تبدو مناسبة لمهمة توجيه الاستراتيجية والتأثير فيها كميزة الدهاء . والمتابعة العامة للمباغتة، والتي نوقشت في الفصل السابق ، تشير الى هذا الاستنتاج نظراً لتجذر كل عمل مباغت ولو الى درجة ما في المكر والدهاء .

مهما اطال المرء التمعن في كيفية تنافس القادة الاعداء مع بعضهم البعض في البراعة والذكاء والدهاء ، فالحقيقة الراسخة هي أن صفات كهذه ليست هي الاكثر بروزاً في تاريخ الحرب . اذ نادراً ما كان هؤلاء الخصوم يتبارون بمثل هذا العناد وفي سجايا ومهارات كهذه وسط تقلب واضطرام الاحداث والظروف .

وسبب ذلك واضح جداً ، وذو علاقة وثيقة مع جوهر الفصل السابق .

تعنى الاستراتيجية على وجه الحصر بالاشتباكات، والتوجهات المتعلقة بها . وهي ليست كمجالات حياتيه اخرى ، فهي لا تعنى بالاعمال التي لا تتضمن سوى كلمات ، تصب في بيانات او تصريحات وغيرها . الا ان الكلمات ولانها في متناول اليد ولا تكلف شيئاً فهي الاداة الشائعة لخلق الانطباعات الكاذبة .

هنالك اشياء متشابهة في الحرب - خطط واوامر تصدر لمجرد الظهور ، وتقارير كاذبة اعدت لارباك وخدع العدو ، ... الخ . وكقاعدة فليس لها سوى قيمة استراتيجية قليلة ، في انها يمكن ان تستخدم فقط عند ظهور فرص ملائمة او جاهزة Ready - made . لذا لا ينبغي اعتبارها كميدان هام ومستقل للعمل ومتاح تحت تصرف القائد .

لتهيئة واعداد عمل خادع وبدقة كافية لاقناع العدو ، لا بد من بذل الكثير من الوقت والجهد ، ويتصاعد الثمن في اتساع نطاق المخادعة . يتطلب ذلك عادة اكثر مما يمكن توفيره ، لذا فإن ما يدعى بالخدعة الاستراتيجية نادراً ما حقق بالتالي التأثير المرغوب . في الحقيقة من الخطر استخدام قوات كبيرة ولاي قدر من الوقت لمجرد خلق وهم ؛ وهناك خطر ماثل على الدوام ، بعدم تحقيق اي شيئ وان القطعات التي إنفتحت لن تكون متيسره حين تدعو الحاجة اليها فعلاً .

القادة في الحرب متنبهون علي الدوام لهذه الحقائق الخطيرة ، لذا يميلون الى الكف عن التظاهر ، واللعب (التنطط) بخفية . فالضرورات الملحة تفرض نفسها بقوة على العمل وبشكل مباشر والى الحد الذي لا تسمح معه لاي نوع من مثل هذه الالاعيب . الخلاصة ليس لدى اللاعب الاستراتيجي (كما في لعبة الشطرنج) ذلك النوع الملائم والضروري من الحركة في مجالي الدهاء والخديعة.

نصل من ذلك الى أن تفهماً دقيقاً ونفاذاً هما ملكتان اكثر جدوى واهمية للقائد من اي قدر من الدهاء مع ان هذا الاخير ليس ضاراً طالما لم يستخدم وكما حدث غالباً على حساب خصائص وسمات أكثر اهمية في الشخصية .

مع ذلك ، وكلما كانت القوات الموضوعة تحت تصرف القائد الاعلى اكثر ضعفاً ، كلما بات استخدام الدهاء والمكر اكثر جاذبية . ففي موقف او حالة يسود فيها الضعف ونقص القدرة والكفاية ، وعندما لا تعود الحكمة والتبصر والقدرة على

الحكم والقابلية تكفي لمواجهة ذلك ، قد يبدو الدهاء ساعتها وكأنه الامل الوحيد . وكلما كان الموقف أكثر كآبة وتحرجاً ، ساعة حشد وتركيز كل الموارد في محاولة يائسة واحدة ، كلما شكّل الدهاء قوة محفزة للأُقدام . ولو تناسينا كل الاعتبارات المستقبلية وما سيقال عن هذه المحاولة ، ولو تحررنا من فكرة الثواب والعقاب التاليين ، فالاقدام والدهاء حريين بدعم احدهما للآخر والى حد العمل على تركيز البصيص الخافت للأمل في ومضة واحدة من النار التي قد توقد لهيباً [1].

---

(١) يثير الكاتب هنا موضوعاً كبيراً في التاريخ العسكري وهو المقارنة أو المفاضلة بين التفوق في الموارد (العدد والعدة) او التفوق في الدهاء والذكاء والاقدام ، اي بين تفوق مونتكمري وحذره من جهه والنقص والبراعة لدى روميل ، وكذلك ما بين الدفاع الروسي الجليدي وسيول شارل الثاني عشر ونابليون وهتلر والتي تلاشيت كلها امام تلك الجدران الروسية الصلبة وارضها المحروقة ، وكذلك ما بين التفوق العربي المطلق والضربات الاسرائيلية الصاعقة في لحظات حاسمة . ويستحق هذا الموضوع دراسة مستقلة ولكن يمكن القول ولو على عجالة بأن العبرة ليست في الموارد ولكن في كيفية استخدامها ، ولكن اكان الامر على هذه الشاكلة في التاريخ ؟ المترجم

الفصل الحادي عشر
حشد القوات في المكان

الاستراتيجية الافضل هي ان نكون **اقوياءجداًوداثماً** ، بشكل عام اولاً ، ومن ثم في النقطة الحاسمة . بغض النظر عن الجهد المطلوب لخلق القدرة الحربية ، التي لا تنبعث على الدوام من القائد ، وما من قانون أعلى وابسط في الاستراتيجة من ذلك الذي يؤكد على **الاحتفاظ بالقوة متحشدة** . ولا يجوز فرز او اقتطاع اية مفرزة او قطعة من القسم الاكبر ما لم تكن الحاجة الى ذلك ملحة للغاية . نحن نصر ونتمسك بهذا المبدأ، ونعتبره مرشداً ودليلاً اكيداً . علينا ان نعرف من خلال تحليلاتنا ، متى وفي اية ظروف يمكن تبرير تجزأة القوة . كما علينا ان ندرك انه لم يكن لمبدأ التحشد نفس النتائج في كل حرب ، لانها ستتغير تبعاً للوسائل والغايات .

ورغم ان ما نقوله قد يبدو لا معقولاً . الا ان الحقيقة تؤكد على ان الجيوش تجزأت وانعزلت لما لا يحصى من المرات دون ان يكون لدى القادة اية اسباب واضحة لذلك ، او تم ذلك ببساطة بسبب شعور او احساس واهيين بان ذلك هو ما يجب ان تكون عليه الامور .

يمكن تجنب هذه الحماقة كلياً . وان يتوقف طرح وتقديم العديد من الاسباب اللامعقولة لتجزأة القوة ، حالما يدرك (القائد) ان حشد القوة هو القاعدة والاصل ، وان كل تجزأة او عزل لها هو استثناء لا بد أن له ما يبرره .

الفصل الثاني عشر
اتحاد القوات في الوقت

توصلنا الى مفهوم قد يوقعنا في اخطاء عند تطبيقه على وقائع الحياة . لذا لا بد من تحديد وتوضيح ، ونستميح القارئ عذراً في تقديم هذا التحليل الموجز .

الحرب هي تصادم قوات متنازعة . ويلي ذلك ان الطرف الاقوى لا يدحر الاضعف فقط، بل ان زخم الاندفاع يجر القوة الاضعف معه . وسيبدو ان هذا لن يسمح باطالة وتعاقب استخدام القوات، وبدلاً عن ذلك فان تزامن استخدام كافة الوسائل يوحي بان العمل الجاري يبدو وكأنه القانون الاساسي للحرب .

تبدو هذه حقيقة عند التطبيق ، لكن فقط عندما تمثل الحرب انفجاراً الياً . اما عندما تتألف من تفاعل طويل بين قوات تتبادل التدمير ، فسيغدو من السهل ملاحظة الاستخدام الناجح للقوة . تلك هي الحال في التعبية،لانها اساساً تعتمد والى حد كبير على القوة النارية ، كما ان هناك اسباب اخرى . فلوا اشتبك الف مقاتل في جانب وخمسمائة في الجانب الاخر بالاسلحة النارية ، فيمكن حساب مجموع الخسائر استناداً الى مجموع المقاتلين في كل جانب . وسيطلق المقاتلون الالف ضعف عدد الاطلاقات التي سيطلقها الطرف الاخر ، الا ان الاصابات ستكون اكثر بين الالف مقاتل مما لدى الطرف الاخر ، فمن المسلم به ان الالف سيكونون اكثر التصاقاً مع بعضهم البعض . فلو افترضنا ان خسائرهم ستكون بمقدار الضعف ، فستكون خسائر الطرفين واحدة . وستكبد الخمسمائة مقاتل على سبيل المثال ، مئتي اصابة ، وكذلك الحال مع الالف مقاتل . ولو عرفنا الان ان الخمسمائة مقاتل احتفظوا بعدد مماثل في الاحتياط ، وخارج مدى النيران ، فسيتبقى والحالة هذه (٨٠٠) مقاتل لدى كل طرف وكلهم بحالة جيدة ، الا ان احد الطرفين يمتلك (٥٠٠) مقاتل نشطين وبكامل عتادهم ، يقابلهم على الطرف الاخر (٨٠٠) مقاتل وهم الى حد ما في حالة ارتباك، ومتعبين ، ويعانون نقصاً في العتاد . ليس صحيحاً الافتراض ان كثرة العدد سبب كاف لان يتكبد الالف مقاتل ضعف عدد ما سيخسره الـ (٥٠٠) مقاتل . العدد الاكبر من الخسائر الذي تكبده الطرف الـذي

ابقى نصف قوته في الاحتياط ، يجب ان يعتبر ضرراً "disadvantange" وعلينا ، وكقاعدة عامة القول بان الالف قد تكون لديهم ابتداءً فرصة لاكتساح الطرف الاخر من مواضعه واجباره على الانسحاب . اما اذا كانت هاتان الفائدتان توازيان الضرر لدى الخصم ، الذي يمتلك (٨٠٠) مقاتل منهكين بفعل المعركة، أي العدو الذي لا يقدر بانه الاضعف ، والذي لديه (٥٠٠) مقاتل نشطين تماماً ، فامر لا يمكن حسمه بالمزيد من التحليلات . بل علينا الاعتماد على التجربة ، والقليل من الضباط الذين خاضوا الحرب وشاهدوا اعمالاً كهذه سوف لن يقروا بالتفوق للطرف الذي يمتلك قوات نشطة[1](Fresh) .

لقد بات واضحاً كيف ان نشر (انفتاح) قوة كبيرة جداً قد يكون ضاراً بغض النظر عن الميزة التي يؤمنها التفوق في اللحظة الاولى للاشتباك ، فقد ندفع ثمن ذلك في اللحظة التالية .

ومع ذلك فالخطر قائم ولكن فقط في **مرحلة الارتباك** ، **وظروف التشوش، والضعف** – والخلاصة، الازمات التي تحدث في كل اشتباك ، وحتي في الجانب المنتصر . وما من شك في ان ظهور قوات جديدة ومنتعشه نسبياً وسط حالة الوهن هذه سيكون حاسماً .

لكن ومن الناحية الاخري ، وحال زوال فوضى وتأثيرات الفوز ، لا يتبقى سوى التفوق المعنوي الذي يبثه النصر في النفوس، فلن يعود بوسع قطعات جديدة (منتعشه) انقاذ الموقف بعد – بل ستُكتسح هي الاخرى . ليس بوسع جيش مندحر استعادة ما فقده في اليوم التالي ، وبمجرد حصوله على احتياطات قوية ، **نصل هنا الى اصل الاختلاف الحاسم بين الاستراتيجية والتعبية** .

النجاحات التعبوية **التي تتحقق من خلال واثناء الاشتباكات تقع عادة خلال مرحلة التشوش والضعف**. من الناحية الاخرى ، فان النجاحات الاستراتيجية ، والتي هي عبارة عن النتائج والتأثيرات الكلية للاشتباكات ، والنصر التام سواء كان كبيراً او

---

(١) اما الاكثر من هؤلاء الضباط فسوف يقرون بقيمة واهمية القطعات الجديدة وهذا ظاهر من سياق الفقرات التالية. المترجم

غير ذي أهمية ، **تقع دون ريب بعد تلك المرحلة** . تأخذ النتائج الاستراتيجية شكلها فقط بعد تجميع النتائج الصغيرة في مجموع واحد مستقل . لكن وعند تلك النقطة تكون الازمة قد انتهت ، وتستعيد القطعات تماسكها الاصلي ، ولن تعاني سوى الضعف المتأني من حجم الخسائر التي تكبدتها فقط.

ما يترتب على هذا الاختلاف هو القدرة على استخدام القوة بالتعاقب في المجال التعبوي ، بينما لا تعرف الاستراتيجية الا التزامن في استخدام القوة .

ان لم يؤدي النجاح الاولي في موقف تعبوي الى نصر حاسم ، حق لنا ان نخاف من اللحظة التالية. علينا بعد ذلك ان نستخدم القدر الضروري جداً فقط من القوة في الصفحة الاولى . والاحتفاظ بالباقي خارج مدى النيران وبعيداً عن مناطق الاشتباك القريب ، كي يتسنى لنا مجابهة احتياطات العدو بقوات نشيطة مما لدينا، او استخدام هذه القوة لتدمير قواته المنهكة . ولا يصح ذلك في موقف استراتيجي فالامر من الناحية الاولى وكما اوضحنا سابقاً ، وحال انجاز نجاح استراتيجي ، لا يحتمل كثيراً حصول رد فعل ، فقد تم تجاوز الازمة ،ومن الناحية الاخرى فلن تغدو جميع القوات الاستراتيجية **ضعيفةلوحدها** بالضرورة . والقطعات التي **اشتبكت تعبوياً** ستعاني لوحدها من الخسائر – اي بعبارة اخرى، القوات التي قاتلت فعلاً. شريطة ان لا تضيع، وان لم يزج منها في العمل الا الحد الادنى الذي لا يمكن تقليله ، وبعيداً عن الحجم الكلي الذي أشرك committed استراتيجيا . اما الوحدات التي شاركت قليلاً أو لم تشارك نهائياً في القتال بسبب تفوق الجيش ، والتي اسهمت بمجرد تواجدها بالفوز ، ستكون بعد النصر كما كانت عليه قبله، وجاهزة لاية مهمات اضافية سيما ان كانت غير مشغولة كلياً . اما الدرجة الكبيرة التي تسهم فيها قوة الاحتياط الذي توفره تلك الوحدات ، في النتائج الباهرة، فأمر واضح للغاية ، كذلك وبنفس الدرجة يمكن تفهم اهمية تواجد تلك الوحدات في تقليل الخسائر التي ستحدث في القطعات التي اسهمت في الاشتباك التعبوي فعلاً .

نظراً لان الخسائر في الاستراتيجية لا تزداد مع حجم القوات المستخدمة ، بل وقد تتناقص حتى ، ونظراً لأن استخدام قوات اكبر سيبين أنها ستقود على الارجح الى النصر ، فمن الطبيعي ان يقودنا ذلك الى تعذر استخدامنا لقوات كبيرة جداً ، وأكثر من ذلك فلا بد من استخدام جميع القوات المتيسرة في **آن واحد** .

مع ذلك نحتاج لارساء حقيقة هذا المقترح في مجال اخر كذلك. طالما أقتصرت مناقشتنا فقط على القتال ذاته ، لانه الفعالية الاساسية للحرب ، علينا كذلك التفكير في الرجال ،والوقت والمسافة التي تشكل العناصر المكونة للفعالية . كما علينا التمعن في نتائج تأثيراتها .

يشكل الاعياء والجهد والحرمان. عامل تدمير منفصل في الحرب – عامل لا يعود اساساً للقتال ، مع انه يرتبط به ولو بطريقة معقدة تقريباً ، ومناسب بشكل خاص في المجال الاستراتيجي . يظهر هذا العامل في المواقف التعبوية كذلك، ولربما يظهر في اكثر اشكاله شدة ، لكن نظراً لقصر الامتداد الزمني للاعمال التعبوية ، فسيكون تأثير الجهد والحرمان محدوداً . اما في المجال الاستراتيجي وحيث تتسع ابعاد الوقت والمسافة فان تأثيراتها ملحوظة على الدوام ، وغالباً ما تكون حاسمة، وليس من غير المعتاد أن يعانى الجيش المنتصر من الامراض اكثر من معاناته من المعركة.

لو تمعنا في هذا النوع من التدمير في النطاق الاستراتيجي ، كما نتمعن في نيران المدفعية و التقاتل بالايدي في مجال التعبية ، فقد نستنتج بأن كل ما يتعرض لعامل التدمير في نهاية الحملة ، او في بعض المراحل الاستراتيجية سيكون في حالة من الوهن؛ ولذلك فظهور قوات جديدة سيكون **حاسماً** . لذلك يتوجب علينا في المواقف الاستراتيجية والتعبوية ان نسعى بدأب لتحقيق نصر أولي باقل عدد من القطعات ، ليتسنى لنا الاحتفاظ باحتياط قوي للقتال النهائي .

لقد اكسبت الاحداث الحقيقية العديدة، الواقعية والجدية لهذه المناقشة. ولأجل تقييمها بصورة دقيقة علينا تركيز الافكار التي لها علاقة بذلك . واول هذه الأفكار هو ان لا تتداخل فكرة التعزيزات مع فكرة القطعات المنتعشة (fresh) التي لم تستخدم بعد . ويبدو أن انتهاء القليل من الحملات دون الزج بقطعات جديدة باتت فكرة جذابة ، بل وحاسمة لكل من الرابح والخاسر ، وليس هنا مجال مناقشة هذا الامر؛ فلن تدعو الحاجة الى المزيد من التعزيزات نهائيا لو أُشرك الحجم الكافي من القطعات منذ البداية. الفكرة التي مفادها ان جيشاً منتعشاً يسيطر على الميدان سيكون بمعنويات جيدة واعلى من معنويات القطعات التي سبقته الى العمل (قياساً بالاحتياط التعبوي الذي سجل ارتفاعاً بالمعنويات تزيد على ما لدى الرجال الذين عانوا الكثير من الجهد والخسائر) . هذه الفكرة لم تثبت جدواها بالتجربة . فكما أن

حملة فاشلة ستقلل من شأن الشجاعة ومعنويات القطعات ، فان اخرى ناجحة سترفع كثيراً من تلك القيم. وعموماً فان هذه العوامل تميل لأن يلغي احدها تأثير الاخر، وما يكسب بالتجربة يعامل كربح صافٍ ، وعلى اية حال ينبغي علينا هنا دراسة الحملات الناجحة لا الفاشلة ، نظراً لاننا وحيثما نتنبأ بالفشل ، وبأي درجة من الوثوق ، فاول ما نعانيه عندها هو نقص القطعات في الدرجة الاولى، اما الاحتفاظ باي جزء منها في الاحتياط للاستخدامات المقبلة فامر لا يمكن حتى التفكير به.

بعد ارساء هذه النقطة، فان السؤال الذي يطرح نفسه هو ما اذا كانت الخسائر التي تتكبدها الوحدة بفعل (من جراء) الجهد والحرمان سوف تزداد بما يتناسب وحجمها ، وكما كان الحال عليه في اشتباك ما ؟ يجب ان تكون الاجابة على السؤال سلباً .

السبب الرئيسي للاجهاد هو الخطر الذي وان تنوع في الدرجة الا انه لا ينفصل عن العمليات العسكرية . ولمواجهة تلك الاخطار حيثما وجدت ، وللمضي في الطريق الذي اخترناه بثقه، فان ذلك موضوعاً للمزيد من الانشطة المتعلقة بالواجبات التعبوية والاستراتيجية للجيش . وكلما ازداد ضعف جيش ما فكلما ازدادت الواجبات مشقة وقسوة، وبالمقابل فكلما ازداد تفوق الجيش كلما اصبحت تلك الواجبات اسهل وايسر . فمن يستطيع الشك بذلك ؟ فحملة ضد عدو ضعيف الى حد كبير تتطلب جهداً أقل من حملة ضد قوات بنفس القوة ، ناهيك عن حملة تشن ضد عدو متفوق علينا.

قلنا الكثير عن الاجهاد المادي . اما الحرمان فأمر مختلف نوعا ما . فهو يعني اساساً نقصاً في الغذاء والمأوى للقطعات ، اما في ابنية او في معسكرات مريحة . وتزداد معضلة الغذاء والمأوى مع حجم القطعات المحتشدة في مكان واحد وهذا امر مقبول ومعترف به . لكن ومن الناحية الاخرى ، الا يؤمن هذا التفوق أفضل المبررات للأنتشار فوق منطقة اكبر ، وبالتالي الحصول على وسائل تموين اكثر وكذلك على المأوى ؟

احتفظ نابليون عند تقدمه في روسيا عام ١٨١٢ بقواته محتشدة على طريق منفرد وبطريقة لم نسمع بها قبلاً مسبباً بذلك نقصاً لا مثيل له. وقد يعزى ذلك الى مبدأه حول عجز المرء عن ان يكون قوياً جداً في النقطة الحاسمة. اما ان كان بونابرت قد

بالغ بتطبيق هذا المبدأ وذهب به بعيداً في هذا المثال فليس هنا مجال مناقشة ذلك ، لكن من المؤكد، لو كان بونابرت قد اراد تجنب تلك النواقص ، فكلما يلزم لذلك هو التقدم على جبهة اوسع . وكان المجال متسعاً لذلك في روسياً ، لقد كان هناك فعلاً ما يكفي من المساحات لهذا الغرض . لذلك لا يؤمن هذا المثال اية اسس او اسانيد للادعاء بان الاستخدام المتزامن لقوات فائقة التفوق سيسبب متاعباً اعظم ، لنفترض مع ذلك ان الرياح والطقس واجهاد الحرب الذي لا مناص منه قد فعلت فعلها واضعفت فعلاً – رغم كلما يقدم للقطعات من اراحة وانعاش – حتى ذلك الجزء الفائض من الجيش والذي يمكن الاحتفاظ به في الاحتياط للاستخدامات التالية، يغدو من الضروري أن ننظر الى الموقف ككل ، والتساؤل عما اذا كانت هذه الخسائر تعادل الفوائد التي تجنيها قوات متفوقة بطريقة او أخرى .

يجب علينا دراسة نقطة مهمة اخرى . ففي اشتباك صغير ليس من الصعب جداً القرار على ما يكفي من القوة تقريباً لتحقيق نجاح جوهري، وما هو الزائد عن الحاجة. اما في الاستراتيجية فهذا مستحيل عملياً ، اذ يصعب تحديد وترسيم النجاح الاستراتيجي بنفس الوضوح . فما قد يعتبر كزيادة عن الحاجة من القوات في موقف تعبوي يجب اعتباره كوسيلة استثمار للنجاح في الاستراتيجية ان حانت فرصة لذلك . وكما ان هامش الربح يتزايد مع مقياس وحجم النصر ، لذا سرعان ما يصل التفوق في القوة الحد الذي لم تكن حتى أدق حسابات القوة قد أقرته .

كان بوسع نابليون وبما لديه من تفوق هائل في القوة الاندفاع نحو موسكو عام ١٨١٢ ، واحتلال المدينة ، ولو امكنه تفوقه هذا من سحق الجيش الروسي، كذلك لكان بوسعه التوقيع على اتفاقية سلام في موسكو ، كان من الصعب التوصل اليها بوسائل اخرى. لقد اخترنا هذا المثال كصورة توضيحية ، اما البرهان عليه فيحتاج الى عرض مفصل لا مكان له هنا .

ركزت كل هذه الافكار والتأملات على الاستخدام المتتالي للقوة . انها لم تهتم بالفكرة الدائرة عن الاحتياط كذلك ، ولو ان الامرين يلتقيان مع بعضهما البعض في العديد من النقاط . فلذلك الموضوع تشعبات اضافية كما سيوضح الفصل التالي ذلك لنا .

ما نحاول ارساءه هو ، وبينما تتسبب مجرد « **مدة** duration » الاشتباك في اضعاف القطعات لذا يصبح الوقت عاملاً مؤثراً في النتائج ، الا أن الامر ليس كذلك

في الاستراتيجية . والى الحد الذي يمارس فيه الوقت في الاستراتيجية تأثيراً مدمراً على القوات المشاركة ، وهذا متآت جزئياً من حجم القوات ؛ من جهة ، وبطرق ووسائل اخرى في أجزاء اخرى . لذا لا يمكن ان يتوخى الاستراتيجي **التحالف مع الوقت لاغراضه هو** ، وذلك بأن يزج بقواته تدريجياً وخطوة فخطوة .

قلنا الأغراضه الخاصة ، اذ قد تكون للوقت اهمية هائلة ، كمحصلة للعوامل التي تشتق منه وان كانت لا تتطابق معه . انها في الحقيقة ، يجب ان تكون بالغة الاهمية لهذا الطرف او ذاك . وتلك مسألة مختلفة تماماً ، وسواء أكانت تافهة او ليست مهمة ، فستكون موضوعاً لدراسة اخرى فيما بعد .

القاعدة ، اذن ، هي ان ما حاولنا تطويره هو: ينبغي استخدام كل القوات المعدة والمتيسرة للغرض الاستراتيجي استخداماً **متزامنا** ، وسيكون استخدامها اكثر تأثيراً وفاعلية ، كلما امكن حشد كل شيئ في عمل واحد ، وفي لحظة واحدة .

لا يعني هذا ان لا مكان للجهد المتتابع ، والتأثير الدائم، في الاستراتيجية . بل حتى لا يمكن تجاهلهما ، اذ يشكلان على الاقل احدى الوسائل الرئيسية للوصول الى النجاح النهائي والانفتاح المتواصل لقوات جديدة . وهذا سيكون موضوعاً لفصل اخر ولا نذكره هنا الا لإزالة اي التباس او سؤ فهم .

نعود الان الى موضوع وثيق الارتباط بمناقشتنا السابقة ، والذي سيوضح الموضوع بكامله ، ونعني به ، **الاحتياط الاستراتيجي** .

الفصل الثالث عشر

الاحتياط الاستراتيجي

للأحتياط غايتين متميزتين . الاولى لاطالة وتجديد العمل ، والثانية ، لمواجهة تهديدات غير متوقعة . تفترض الغاية الاولى مسبقاً قيمة الاستخدام المتتالي للقوة ، لذلك فهي لا تخص الاستراتيجية . فحالة ارسال وحدة ما الى نقطة على وشك السقوط ، هي مثال واضح على الغاية الثانية ، نظراً لعدم تحديد الحجم الضروري من المقاومة في تلك النقطة مسبقاً بوضوح . اما الوحدة التي نتوخى منها اطالة القتال في اشتباك معين ، ولهذا الغرض احتفظنا بها في الاحتياط ، وهي تعد متيسرة وتحت امرة القائد المسؤول عن المعركة ، رغم انها في مكان خارج مدى النيران . لذلك تعد هذه الوحدة احتياطاً تعبوياً لا استراتيجياً .

الا ان الحاجة للاحتفاظ بقوة في حالة استعداد لمواجهة اية طوارئ، قد تظهر في الاستراتيجية كذلك . لذلك فهناك ما يدعى بالاحتياط الاستراتيجي ، لكن عند توقع حالات طارئة فقط . في الموقف التعبوي ، وحيث لا ندري في الغالب باجراءات وترتيبات العدو حتى نراها ، وحيث يمكن ان يختفي وسط اي مجموعة اشجار ، وخلف أية طية أو تموج أرضي ، علينا وعلى الدوام تقريبا التهيؤ لمواجهة تطورات غير متوقعة ، وهكذا فالموضع الذي يغدو واهناً يمكن أن يعزز ، كما نستطيع عموماً تنظيم ترتيباتنا على ضوء أعمال وتحركات العدو .

تقع مثل هذه الحالات في الاستراتيجية نظراً لارتباط هذه مباشرة بالعمل التعبوي. وغالباً ما يتوجب استناد القرار في الاستراتيجية على المراقبة ، وعلى تقارير غير مؤكدة تتواصل بين ساعة واخرى ويوما بعد يوم ، ويستند اخيراً على النتائج

الحقيقية للمعارك . لذلك فمن الشروط الاساسية للقيادة الاستراتيجية ، الاحتفاظ بقوات في الاحتياط على ضوء ودرجة ما هو غير متوقع أو غير مؤكد في الاستراتيجية.

في الدفاع عموما ، وفي الدفاع عن عارضة تعبوية بشكل خاص ، كنهر ، أو سلسلة جبلية وغيرها ، نحن نعرف أن هذه مطلوبة باستمرار لكن وكلما زادت المسافة بين الاستراتيجية والتعبية ، كلما زادت المجهولات (Uncertainty) الا انها تختفي عمليا في تلك المجالات الاستراتيجية المتاخمة للسياسة .

لا يمكن التحقق من حركة ارتال العدو الى المعركة الا بالرصد الفعلي – النقطة التي خطط لعبور النهر منها ، بالاستعدادات القليلة التي قام بها ، والتي تبدو واضحة قبل وقت قليل من وقوعها. الا ان الاتجاه الذي يهدد منه بلدنا يعلن عنه عادة في الصحافة قبل اطلاق اطلاقة واحدة. وكلما إتسع نطاق الاستعدادات ، كلما تضائلت فرصة تحقيق المباغتة . الوقت والمسافة هنا واسعان ، والظروف التي أطلقت سيلاً الاحداث معروفة هي الاخرى ولو قد تتبدل قليلاً ، لذا فستكون قراراته ظاهرة ومعروفة ومبكرة بما يكفى ، أو بما يمكن معرفتها واكتشافها بشئ من الدقة .

واكثر من ذلك فلو اقتضى الامر وجود احتياط استراتيجي ، في اي من هذه المجالات الاستراتيجية ، فان قيمته تتناقص كلما تعذر تحديد استخداماته .

ولقد رأينا كيف أن نتائج مناوشة أو اشتباك منفرد ليست بذات اهمية كبيرة بذاتها ، وتنتظر مثل هذه الاعمال الجزئية حتى تصب ، في نتيجة المعركة ككل .

بالمقابل فليس لنتيجة المعركة ككل سوى اهمية نسبية فقط ، وستتنوع هذه الاهمية في العديد من الاشكال والتسلسلات ، وفقاً لحجم القوة المندحرة واهميتها الكلية ، فان دحرّ فيلقٍ معادٍ قد يتم بانتصار جيشٍ ما ، لكن وحتى دحر جيش ما قد يمكن موازنته (مقابلته) وتحويل اندحاره الى انتصار بفعل نجاح أو انتصار جيش اكبر ،

كما حدث في القتال الذي استمر ليومين في « كولم -١٨١٣)[1] » . ما من احد يشك بذلك ، الا ان من الواضح وبنفس الدرجة أن أثر كل انتصار ، والنتائج الجيدة لكل معركة ، تبلغ اهميتها الكاملة والمطلقة ، مع اهمية القوة المندحرة ، وبالتالي تغدو امكانية تعويض المندحر عن خسائر كهذه في الاشتباكات المقبلة أقل ، واكثر صعوبة . سنعود الى مناقشة والتمعن في هذه النقطة فيما بعد ، ويكفينا حالياً التنبيه الى وجود مثل هذا التسلسل .

دعونا نضيف ملاحظة ثالثة . إذ وبينما يؤجل الاستخدام المتتالي للقوات في موقف تعبوي القرار الرئيسي دائماً وحتى نهاية العمل ، يختلف الأمر في الاستراتيجية لان قانون الاستخدام المتزامن للقوات يقدم القرار الرئيسي ودائماً تقريباً ، ولا تقتضي الضرورة أن يكون القرار النهائي في البداية . لذلك تبرر هذه الاستنتاجات الثلاث الرأي القائل بان للأحتياط الاستراتيجي فائدة واهمية اقل ، وخطورة اكثر في الاستخدام ، كلما كان الغرض الذي ننوي استخدامه لاجله أكثر **شمولية** inclusive وعمومية .

---

(١) معارك كولم ودريسدن ولايزك (آب/ايلول/١٨١٣).

١. احتل نابليون دريسدن في ٧-٥١٨ ثم طارد قوات التحالف المنسحبة شرق نهر ايلب وأرسل الماريشال ناي مع نصف الجيش تقريباً باحاطة واسعة (٥٠ ميلاً شمال دريسدن) وطارد نابليون الجنرال ويتشتاين بباقي جيشه ونجح باجتياح الدفاعات الروسية. وصل الماريشال ناي ولغبائه عجز عن ادراك المفهوم الاستراتيجي الرائع لنابليون فلم يهاجم الا بعد فوات الاوان كما لم يهاجم مؤخرة أو مواصلات العدو الذي نجح بالانسحاب سريعاً. في ١٦/آب اعاد نابليون ترتيب قواته فوضع الجنرال (دافو) في هامبورج كتهديد لاي تحرك معادي غرباً وعبر دريسدن التي احتلها الجنرال (سان سير) كتهديد لمناورة التحالف. سحب نابليون باقي قوته للتمركز بين نهري ايلب واودر وعلى استعداد للعمل على الخطوط الداخلية، كانت قوته بحدود (٣٠٠) الف جندي مقابل (٤٥٠) الفاً للتحالف.

٢. كانت استراتيجية التحالف بعدم قبول المعركة مع نابليون والتركيز على مهاجمة جنرالاته كلما سنحت الفرصة، وهكذا دحر برناردوت (السويدي) الجنرال (اودينوت) جنوب برلين في معركة (كروس بيرين) في (١٣/آب) ودحر (بلوخر)، الجنرال ماكدونالد في معركة كاتزباخ (٢١/آب) .

٣. معركة دريسدن ٢٦-٢٧/اب/ ١٨١٣.

هاجمت قوات التحالف دريسدن الا أن نابليون وصل بوقت غير متوقع ومع تعزيزات فأفسد هجوم التحالف، وفي اليوم التالي ورغم أن قوات التحالف ضعف قوته الا ان نابليون هاجم جناح التحالف الايسر وحقق إنتصاراً تعبوياً رائعاً، دخل بعده في احدى نوبات البلادة وترك الميدان. بلغت خسائر التحالف (٣٨) الفاً بين قتيل وجريح واسير و(٤٠) مدفعاً مقابل (١٠) الاف للفرنسيين. للمزيد راجع (ص٣٧٥) - (م.ت.ع-ص ٧٦٠-٧٦١) .

٤. معركة كولم (٢٩-٣٠/٩/١٨١٣

قطع شوارزنبرغ التماس منقذاً نفسه من إحاطة مدمرة، وبدون أمر من نابليون الى مرؤوسيه بالمطاردة الا ان الجنرال فاندام ادرك الفرصة فاسرع بالانقضاض على جناح شوارزنبرغ الشرقي ونشر فيلقه على مواصلات النمساويين. ولعدم تعزيز مناورة فاندام وجد هذا نفسه (٣٠) الف جندي بين الروس والنمساويين (١٠٠) الف جندي فدحرت قوته كلياً تقريباً - راجع (م.ت.ع ص - ٧٦١) - المترجم .

ليس من الصعب تحديد النقطة التي يبدأ فيها مفهوم الاحتياط الاستراتيجي بالتناقض الذاتي ، إذ تبدأ عند بلوغ **الصفحة الحاسمة** للمعركة. يجب استخدام **كافة القطعات المتيسرة لبلوغ الهدف** ، ولن يعود ساعتها لاية افكارٍ عن الاحتياط ، وعن قطعات مقاتلة تحت اليد لكنها لن تستخدم الا بعد ذلك ، أية قيمة وهي ليست سوى أفكار مجردة منافية للعقل .

وهكذا وحيث لا يعدُّ الاحتياط التعبوي مجرد وسيلة لمواجهة اية مناورة معادية غير متوقعة فقط، بل لتحويل مجرى نتائج قتال لم يكن يتنبأ بها أحد وعندما يغدو ذلك ضرورياً، اما الاستراتيجية فلا تقر أمراً كهذا ، وعلى الاقل بقدر تعلق الامر بالقرار الكلي . فالاندحار أو التراجع في منطقة ما لا يمكن وكقاعدة ، تعديله او مقابلته الا بتحقيق مكاسب أو انتصارٍ في مكان آخر ، وفي بعض الحالات بتحويل القطعات من منطقة الى اخرى . على الاستراتيجي الا يفكر مطلقاً بالاحتفاظ بقوات ما كاحتياط في مواجهة اندحار كهذا .

لقد أعتبرنا أمر الاحتفاظ باحتياطٍ إستراتيجي أمراً سخيفاً ومنافياً للعقل إلا أن ذلك لا يعني ان يكون ذلك قراراً نهائياً. إن هذه النقطة واضحة جداً ، وما كان ينبغي لنا تخصيص هذين الفصلين لها لولا الحقيقة الماثلة في أن البعض قد ينظر الى الفكرة كشيء معقول جداً الى حد ما سيما عندما تستتر الفكرة ضمن أو وراء مفهوم أخر ، كما هي عليه في الغالب حقاً . قد يرى أحد الرجال أن الاحتياط الاستراتيجي هو قمة الحكمة والتخطيط الدقيق والحذر ، وقد يستبعد أخر الفكرة كلياً ، بما في ذلك حتى الاحتياط التعبوي . لقد أثر هذا التفكير المشوش على وقائع الحياة كثيراً . وكمثال صارخ على ذلك سنتذكر ان البروسيين احتفظوا عام (١٨٠٦) باحتياط يقدر بـ(٢٠) الف مقاتل في مأوي ومعسكرات تحت قيادة الامير إيوجين أوف ورتمبرغ ، في براندبرج الا انهم عجزوا عن إيصال هذا الاحتياط الى نهر (سالي) في الوقت المناسب، بينما ابقوا (٢٥) الف مقاتل اخرون شرق وجنوب بروسيا ليصار الى تعبئتهم في مراحل لاحقة ، للعمل كاحتياط ، بدورهم (الاشارة هنا الى حملة ينا) .

نأمل أننا سنتجنب بهذه الامثلة أن نتهم بكوننا نقاتل طواحين الهواء [او كمن يحرث في البحر - المترجم] .

الفصل الرابع عشر
الاقتصاد بالقوة

كما قلنا للتو ، نادراً ما تقلص المبادئ والاراء طريق المنطق الى خط بسيط . وكما في كل الامور العملية ، هناك مجال مؤكد لحرية العمل . لا يمكن تعريف الجمال باحداثيات وتقاطعات ، ولا بالدوائر والنقاط والاشارات التي تدرج وفق صيغ ومعادلات جبرية (Algebraic) . على رجل العمل – القائد – أن يثق احيانا بالموهبة الدقيقة للقرار والمتأتية من ذكاءه الفطري والتي تطورت عبر تأملاته الفكرية التي تقوده دون وعي تقريباً لاختيار المسلك الافضل . وعليه في احيان اخرى تبسيط الملامح الاساسية لما توصل اليه ، والتي ستكون قواعدا للعمل ، كما عليه احيانا دعم حججه بما يتيسر لديه من اسانيد سياقات العمل الجاري تنفيذها .

احدى هذه الملامح المبسطة ، أو مساعدات التحليل ، هي التأكد وباستمرار من زج جميع القطعات – والتأكد باستمرار بأن أي جزء من القوة الكلية ليس في حالة عطالة . فلو وضع المرء اي جزء من قواته حيث لا تكون مشغولة بكفاءة مع العدو ، او حتى ان كانت القطعات في حالة مسير – وهذا نوع من التعطل – بينما يخوض العدو القتال ، فان مثل هذه القطعات انما تستخدم بشكل غير اقتصادي . وبهذا المعنى فهي قوات ضائعة ، وهذا حتى اسوأ من مسألة إستخدامها بشكل غير صحيح . عندما تحين ساعة العمل ، ينبغي ان يكون على رأس اهتماماتنا ، بل ومطلبنا الاول دفع كل الاجزاء الى العمل ، فحتى اقل الواجبات دقة واهمية سيشغل بعضاً من قوات العدو وبذا سيقلل من قوته الكلية ، بينما تعتبر القوات العاطلة وبلا عمل تماماً كقوات مشلولة طوال الوقت الذي تستغرقه تلك الحال . من الواضح ان هذا الرأي يُعدّ نتيجةً طبيعةً للمبادئ التي طورت في آخر ثلاثة فصول . وهو يعرض نفس الحقيقة ، التي اعيدت صياغتها من وجهة نظر اكثر اتساعاً نوعاً ما ، بعد ضغطها وتقليصها في مفهوم واحد .

الفصل الخامس عشر

العامل الهندسي

الحد الذي يمكن ان تكون الهندسة ، او الشكل او نمط انفتاح القطعات في الحرب ، مبدأ مسيطر يتوضح في فن التحصين ، حيث تدخل الهندسة في كل شيء تقريباً ، صغيراً كان ذلك الشيء او كبيراً . كما تلعب الهندسة في التعبية كذلك دوراً كبيرا . اذ تشكل الهندسة أسس التعبية بالمعنى الضيق – أي نظرية تحريك القطعات . ففي تحصينات الميدان ، وفي نظرية المواضع المتخندقة ، وفي مهاجمة هذه المواقع ، فان الخطوط والزوايا الهندسية تلعب دور الفيصل والحكم الذي يبت في اي خلاف، وما كان يراعى ذلك في الماضي الا في القليل جدا ، ولم يكن البعض منه أكثر من اللعب على الجنود ، وحتى في تعبية إيامنا هذه وحيث باتت عمليات تطويق العدو غايةً لكل إشتباك ، عاد العامل الهندسي ليحقق ثانية اهمية كبرى . مع إن التطبيقات الهندسية بسيطة ، ومما يتكرر حدوثه باستمرار ، الا أن الهندسة لا يمكن أن تتحكم بالتعبية بنفس الطريقة التي تحكمت فيها بحروب الحصار اما الان فالقطعات يواجه بعضها البعض ، وكل شيء اكثر حركية (قابلية حركة) ، والعوامل النفسية ، والاختلافات الفردية ، وكذلك الصدفة ، وكل هذه العوامل باتت تلعب دوراً اكثر تأثيراً اما في الاستراتيجية فتأثير الهندسة حتى أقل اهمية . ولو أن لانواع تشكيلات القطعات ، وطبيعة المناطق والبلدان أهمية كبيرة هنا أيضاً، وليس المبدأ الهندسي **حاسماً** هنا كما في فن التحصينات، كما ليس له نفس الاهمية التي له في التعبية تقريباً . سنعرض طريقة تأثير الهندسة تدريجياً حيثما كانت ذات علاقة ، ويتطلب الامر التمعن فيها . وسنكتفي هنا بلفت النظر الى الاختلاف ما بين التعبية والاستراتيجية بهذا الخصوص .

يتقلص الوقت والمسافة في التعبية وبسرعة الى حدودهما الدنيا المطلقة . فالوحدة التي هوجمت من الجناح والمؤخرة سرعان ما ستصبح في موقف تنعدم فيه فرصة الانسحاب ، وفي موقف كهذا تصل الوحدة الى حالة عجز كلية عن مواصلة القتال ؛ وعلى أمر تلك الوحدة إما تخليص نفسه من هذا المأزق ، أو منع حدوثه إطلاقا. لهذا السبب فلكل الاجراءات التعبوية التي تستهدف موضوع التطويق تأثيرات عالية ، ويعتمد هذا التأثير البالغ على القلق الذي تسببه حول ما سيقع بعد ذلك . لهذا بات العامل الهندسي في نشر وترتيب القطعات مهماً جداً .

لا تنعكس مثل تلك الاعتبارات الا بشكل ضئيل فقط في الاستراتيجية ، المعنية بمجالات اكبر للوقت والمسافة. لا تقفز الجيوش من مسرح إلى اخر ، بل إن مشروعاً لتطويق استراتيجي قد يستغرق وبسهولة اسابيعاً واشهراً لتنفيذه . يضاف الى ذلك إتساع المسافات حداً تغدو معه الفرص في تحقيق الغاية المرجوة حتى مع أفضل الاجراءات ، فرصاً ضئيلة .

لذلك فتأثير مزيج كهذا في الاستراتيجية ، أي تأثير النمط الهندسي ، هو أقل بكثير ، ومن الناحية الاخرى ، فالفائدة التي نحصل عليها في نقطة واحدة هي اكثر بكثير . إذ يمكن استثمار هذه الفائدة بالكامل قبل تدخل الاجراءات المقابلة [ردود فعل العدو] أو حتى الغاء تلك الفائدة . والخلاصة فلن نتردد في إعتبار ذلك كقاعدة ثابتة، في أن عدد الاشتباكات التي نربحها هي اكثر جدوى في الاستراتيجية من نمط الخطوط الرئيسية التي تربطها ببعضها البعض .

يفضل مفكروا ومنظروا هذه الايام الرأي المغاير كليا ، إذ يعتقدون أنهم وبهذه الطريقة سيزيدون من اهمية الاستراتيجية . إذ يرون أن الاستراتيجية تفصح عن اعلى الانجازات العقلية ، كما يرون ان الحرب ستغدو اكثر نبلاً ، بدراستها ، وانه ووفقاً للمفاهيم العصرية البديلة ، **ستغدو اكثر علمية** . نحن نعتقد إن احدى الوظائف الرئيسية لنظرية شاملة في الحرب هي الكشف عن اوهام كهذه ، ولأن العامل الهندسي عادة يوفر نقطة شروع لتلك التخيلات ، لذا اردنا التنبيه بشكل خاص عنها .

الفصل السادس عشر
تعليق العمل في الحرب

لو اعتبرنا الحرب عملاً تدميرياً متبادلاً ، فمن المؤكد ان نصل الى التفكير في الطرفين وكأنهما في حالة عمل وتقدم . لكن حالما نبدأ بالتمعن في كل جزء بشكل مستقل او منفصل عن الاجزاء الاخرى ، فسنصل حتماً الى التفكير والنظر الى الطرفين وبشكل متساو كطرف متقدم لاحدهما ، اما الاخر ففي حالة توقع وانتظار ، اذ لا تتطابق او تتعادل حالة الطرفين مطلقاً ، كما لا تستمر علاقاتهما المتبادلة . فالتغيير واقع لا محالة ، ثم ان كل دقيقة قادمة لا بد ان تكون في صالح احدهما اكثر مما للآخر . ولو افترضنا ان كلا القائدين مطلع ومدرك تماماً لظروفه وظروف خصمه ، فسيجد أحدهما دوافعاً ومحفزات للعمل ، الذي سيشكل بالمقابل سببا للطرف الاخر للأنتظار. ولا يمكن لكليهما ان يرغبا وفي وقت واحد (متزامن) في التقدم ، أو من ناحية اخرى للأنتظار هذا الاستبعاد والرفض المتقابلين لتطابق الغايات ، لا يمكن وفق السياق الحالي استنباطه من مبدأ الثنائية ، ولذلك فهو لا يتناقض مع تأكيداتنا في الفصل الخامس من الكتاب الاول [1] وهي تستند الى حد ما على حقيقة مفادها أن العامل المقرر الحاسم ، هو في الحقيقة واحد لكلا القائدين ، أي : إحتمال تحسن أو تردي الموقف في المستقبل.

حتى لو افترضنا امكانية توازن الظروف تماماً، أو لو افترضنا أن نقص معرفة القائدين بظروفهما المشتركة سيترك لدى كليهما انطباعاً بوجود مثل هذا التعادل، الا أن الاختلاف في غايتيهما السياسيتين سيستبعد امكانية جمودهما معاً. سياسياً يمكن ان يكون احدهما فقط عدوانياً، ولن تكون هناك حالة (حرب) لو سعى الطرفان الى الدفاع عن نفسيهما. للمعتدي غاية ايجابية ، بينما ليس للمدافع سوى غاية سلبية فقط لذا فالعمل الايجابي اكثر ملائمة للأول ، نظراً لأنه

---

(١) لقد نوقشت هذه النقطة في الفصل الاول من الكتاب الاول وليس كما ورد في اعلاه . راجع ص(١١١-١١٩) اعلاه - المشرف .

الوسيلة الوحيدة التي بوسعه تحقيق غايته بها . وعليه فان تعادلت الظروف لدى الجانبين، فعلى المهاجم المبادرة بالعمل طالما كانت غايته ايجابية .

لو نظرنا الى الامر على هذه الصورة ، فان تعليق العمل في الحرب يُعدّ تناقضاً بهذا المعنى . إذ يتوجب على الجيشين وكخصمين متضادين ، أن يواصلا تدمير بعضهما البعض . كالنار والماء اللذان لا يمكن أن يجدا نفسيهما في حالة توازن واستقرار ، بل في تفاعل وتضاد دائمين حتى يختفي احدهما كلياً. لتتصور مصارعين في حالة اشتباك يعجز فيه كلاهما عن ابداء اية فعالية دون انقطاع !! ، وبكلمة اخرى، يجب تواصل العمل العسكري في مساره بثبات ، كالساعة التي يدار نابضها (الرقاص) باليد. وبغض النظر عما في الحرب من وحشية ، فهي مقيدة بالضعف البشري ، ولن يُدهش احد امام الخلافات والتناقضات التي يسعى اليها المرء ، ويخلق بالذات الخطر الذي يخافه .

غالباً ما يُرينا تاريخ الحرب النقيض التام للتقدم المتواصل – دون توقف – نحو الهدف ، ومن المؤكد ، إن **الجمود** Immobility **واللافاعلية** Inactivity **هما الحالة المعتادة** للجيوش في الحرب ، وأن **العمل هو الاستثناء** . قد يجعلنا ذلك نشك تقريبا في دقة وصواب مناقشتنا . لكن ان كان ذلك ما يسم معظم التاريخ العسكري، فان اكثر سلاسل الحروب الحديثة تؤيد وتجسد ما ذهبنا إليه . كما أستعرضت صلاحية هذه الفكرة وتمت البرهنة عليها بوضوح تام في الحروب الثورية . ففي تلك الحروب ، واكثر من ذلك حتى في حملات نابليون بونابرت ، اكتسبت الحرب طاقة لا حدود لها ، طاقة نعتبرها القانون الاولي للحرب . ونرى أن بالامكان الوصول الي تلك الدرجة من الحيوية ، وما دامت هذه ممكنة فهي ضرورية اذن .

كيف يمكننا ، في الحقيقة ، ان ندافع بقوة ومعقولية عن فكرة بذل هذا الجهد الكبير في الحرب ، ما لم نكن نبتغي العمل : فالخباز لا يوقد نار الفرن مالم يكن مستعدا لاعداد الخبز ، ولا تربط الخيول الى العربة الا عندما نود السير بها ، فلماذا نقوم بكل هذا الجهد الضخم المتأصل في الحرب ، ان لم تكن غايتنا اكثر من دفع العدو للقيام بجهد مماثل ؟

لقد قلنا الكثير لمجرد تبرير مبدأ عام فلنتجه الان الى ما يطرأ عليه من تحولات

وتعديلات ، وكما تظهر هذه أو تنبثق من طبيعة الموضوع ، لا التي تعتمد على ظرف منفرد .

لنتمعن الان في ثلاثة عوامل أو قوى محددة تعمل كقوة توازن داخلية متأصلة وتمنع التباطؤ السريع في الاعمال المنتظمة الالية وتركها تسير دون توقف أو تدخل .

اول تلك العوامل والذي يخلق ميلا دائمياً نحو الاعاقة والتأخير ، ويغدو بذلك قوة تأثير تعويقي ، هو الخوف ، والكسل الفطري الذي يلازم العقل البشري . وهو نوع من القوة المعنوية للوقار والكرامة ، والذي يعمل بضغط النفور والكراهية وليس بفعل الميل والجاذبية ، اي ما يعرف بالذات بالنفور من المخاطر والمسؤولية . تميل الطبيعة البشرية العادية ، وسط لهيب الحرب المدمر ، الى التحرك بتاقل ودون رغبة ، ويكون هذا التثاقل شديد في الاعم الاغلب لذا لابد من المتابعة والتأكد من ادامة زخم العمل. ان مجرد تفهم أسباب اندلاع الحرب ، او لماذا نخوظها، نادراً ما يكونا كافيين بذاتيهما لقهر اسباب الملل والنفور من الحرب . ما لم يكن هناك قائد يتمتع بروح حربية مقدامة، رجل اعتاد الحرب ومشاقها حتى لا يحس بالغربة وسطها كالسمكة في الماء ، أو ما لم تخلق المسؤولية العظيمة جهوداً ضاغطة ، فسيسطر الخوف وتكون اللافاعلية هي القاعدة ، والاندفاع والتقدم هما الاستثناء .

السبب او العامل الثاني هو، النقص في الادراك والقرار البشري ، الذي يتبدى في الحرب اكثر مما في اي مجال اخر . نحن لا نعرف موقفنا نحن، بدقة في اي لحظة بالذات الا بصعوبة ، اما موقف العدو ، المحجوب عنا فلا يمكن التعويل في معرفته الا على القليل جداً من الادلة والشواهد . لذا فغالباً ما يحدث أن يرى الطرفان ميزةً او فائدةٍ ما ، في نفس الهدف ، رغم انه في الحقيقة لصالح احدهما فقط اكثر مما للآخر . لذا قد يفكر كلاً منهما بان من الحكمة أنتظار لحظة أفضل ، وكما اوضحت ذلك للتو في الفصل الخامس من الكتاب الثاني[1] .

اما العامل المحدد الثالث ، والذي يعمل كمسنن السقاطة (مسنن التعشيق او المنشار الدائري Ratchet - Wheel » والذي يوقف الاعمال كليا احيانا ، فهو القوة

---

(١) راجع الهامش السابق (ص ٣٠٠) بان المقصود هو الفصل الاول من الكتاب الاول المشرف .

العظمى للدفاع . فقد يشعر الطرف (أ) انه ليس قوياً بما يكفي لمهاجمة (ب) ، الامر الذي لا يعني أن (ب) قوي بما يكفي لمهاجمة (أ) . القوة الاضافية للدفاع لا تضيع فقط عند استئناف الهجوم وحسب ، بل انها تنتقل الى الخصم . للتعبير عن ذلك بمصطلحات جبرية (Algebraic) فان الفرق ما بين (أ+ب) و (أ−ب) يساوي (٢ب)[١] ، لذلك يحدث، ان الطرفين وفي آن واحد لا يشعران فقط بانهما ضعيفان للقيام باي هجوم وحسب ، بل انهما ضعيفان جداً فعلاً .

لذلك ووسطَ هذا الصراع نفسه ، فسيجد كل من الاهتمام ، والاعباء وخوف المخاطر المتتالية ، من الاسباب ما يؤكد ويقوي تأثيرها ، ويدفع بالتالي الى التخفيف من عنصر الغضب الاساسي في الحرب .

يصعب ان تكفي العوامل المحددة الثلاثة اعلاه ، مجتمعة لتفسير فترات التوقف واللافاعلية في الحروب المبكرة (القديمة) ، وحيث لم تطرح الحرب ايامها موضوعات بالغة الاهمية كي تحسم ، وحيث كانت القطعات تقضي تسعة أعشار وقت الحرب في أعمال اقرب الى البطالة . وكما اوضحنا في الفصل الخاص بالغايات والوسائل في الحرب (الكتاب الاول، الفصل الثاني) ، تعود هذه الظاهرة اساساً الى التأثيرات التي تفرضها المتطلبات لاحد الجانبين والى الظروف والحالة العقلية للجانب الاخر ، وما يفعله هذان الامران من تأثير في ادارة الحرب .

يمكن ان تصبح هذه العوامل بالغة التأثير ، في انها تقلص الحرب الى شيء معتدل وفاتر الحماسة . والحرب غالباً ليست اكثر من حياد مسلح ، وتوجه تهديدي معني بدعم المفاوضات (موقف تفاوضي) ومحاولة معتدلة الشدة لتحقيق بعض المكاسب الصغيرة قبل التوقف والاستراحة وترك الامور تجري في مساراتها ، او تنفيذاً لألتزامات بغيضة فرضها علينا احد الحلفاء، ولابد لنا من الايفاء بها باقل جهد ممكن .

في كل مثل هذه الحالات التي تكون دوافع المنفعة فيها قليلة، وحيث الروح العدوانية قليلة ايضاً ، وحيث لا ننوي ايقاع المزيد من الدمار والاذى في العدو ، أو ما يجعلنا نعاني كثيراً من الخوف منه ، الخلاصة اي حيث لا توجد دوافع عظيمة لتدفعنا

---

(١). شرط ان يكون (أ) اكثر من (ب) – المترجم

الى اعمال كبيرة ، وترفض الحكومة المزيد من المخاطر، كل ذلك يفسر لنا الاعتدال في ادارة صراعات كهذه ، وحيث تختفي الروح العدوانية للحرب الحقيقية .

كلما زادت هذه العوامل في التقليل من مأساوية وتعاسات الحرب ، كلما ازداد وهن الاسس والقواعد التي تستند إليها النظرية ، ندرة في الاساسيات ، ووفرة في الاحداث العرضية والتصادفية .

مع ذلك فحتى هذا النوع من الصراع يمنح الفكر مجالاً للعمل ؛ بل وربما مجالا أوسع واكثر تنوعاً . كما لو ان المقامرة بمبالغ كبيرة قد تحولت الى مساومات على مبالغ تافهة (قطع نقدية صغيرة) . ففي حرب من هذا النوع ، حيث تقلص العمل العسكري الى اشياء ثانوية الاهمية ، والى مباهاة وتبجح لقتل الوقت ، والى مناوشات نصفها جدي والنصف الاخر مجرد تسلية ساخرة ، والى سيل من الاوامر التي لا تساوي قيمة الورق التي تكتب عليها ، ومواضع ومسيرات لو اعيد التفكير فيها فيما بعد فستوصف بالعلمية لسبب بسيط هو نسيان الدوافع الاصلية، والمفصله التي ادت اليها ، ولا يمكن للرجل العادي ان يفهمها او يخرج بشيء ما حولها – في صراع من نوع كهذا يحسبه العديد من المفكرين فن الحرب الاصيل والحقيقي . كما يرون في عمليات المخادعة والتملص وفي الاندفاعات الفجائية التي جرت في الحروب القديمة وكأنها قمة ونهاية جميع النظريات ، وفي تفوق الفكر على المادة . اما الحروب الاحدث فتبدو لأولئك المفكرين كمهارشات متوحشة لا يمكن ان نتعلم منها اي شيء ، يجب اعتبارها وكأنها نكسة وعودة الى البربرية . هذا رأي لا قيمة له كما انه ذاتي . ففي غياب القوات الكبيرة ، والمشاعر والانفعالات ، يسهل للبراعة ان تنجز ما تريد ، لكن ذلك ليس كقيادة قوات كبيرة ، او الملاحة ابان العواصف وسط الامواج المضطربة ، أو كاعلى الممارسات الفكرية ؟ وحتى ذلك النوع الاخر من «السياقة Swordmanship» فهو مشمول ومتضمن في اكثر اساليب ادارة الحرب حيوية . كما له نفس العلاقات معها ، علاقات كالتي لتنقلات على سفينة ، بحركة السفينة نفسها . انها يمكن تنفيذها فقط طالما تفهم ضمنياً ، ان العدو سيكيف نفسه ويحذو حذوها . لكن هل يمكن معرفة المدى الذي ستظل فيه تلك الظروف ملحوظة ومراعاة ؟ لقد فاجأتنا الثورة الفرنسية ونحن وسط أمن كاذب أعتمدنا فيه المهارات القديمة ، فساقتنا من

«شالون Chalons »[1] الى موسكو . وبمفاجأة مماثلة قام بها فردريك الكبير بالنسبة للنمساويين الذين كانوا مطمئنين لاساليبهم الحربية التي عفى عليها الزمان ، فهز بنيان امبراطوريتهم من اساسه . فأسفاً على حكومة تركن الى سياسات مائعة ، وأساليب عسكرية مقيدة ، لمواجهة خصم كقوة هوجاء لا تعرف قانوناً اخراً غير قانون سطوتها! واي عمل او جهد ناقص او فاشل سيتحول الى فائدة وميزة للعدو ، وسوف لن يكون من السهل التحول من المبارزة الى المصارعة . فحتى الضربة البسيطة غالباً ما كانت كافية لتسبب دماراً تاماً .

توضح لنا كل تلك الاسباب لماذا لا يتواصل العمل في الحرب ، بل يتقطع . فالاشتباكات العنيفة تعترضها فترات للرصد والمراقبة يكون الطرفان خلالها في حالة دفاع . الا ان لدى احدهما عادة محفزات أقوى تميل للتأثير على سلوكه ، وسيتغلب العنصر التعرضي ، ويحافظ عادة على استمرارية العمل .

---

(١) مدينة شرق باريس على نهر المارن ، وهناك مدينة اخرى بنفس الاسم وفي فرنسا جنوب ديجون وقرية من الحدود السويسرية – المترجم .

الفصل السابع عشر
سمة الحروب المعاصرة

يجب على كل انواع التخطيط ، وخصوصاً التخطيط الاستراتيجي الانتباه الى السمة التي للحروب المعاصرة .

لقد القت جرأة وتهور نابليون وكذلك حظه، بكل الخبرات القديمة المعترف بها في مهب الريح . وقضى على دول وقوى كبرى بضربة واحدة عملياً . الا ان المقاومة الاسبانية العنيدة ، اظهرت رغم ضعفها الواضح وعدم كفايتها على الاخص، ما يمكن تحقيقه بتسليح الشعب وبحركات العصيان المسلح (حرب العصابات) . اما حملة نابليون في روسيا عام ١٨١٢ فقد اكدت في المكان الاول ان بلاداً بهذا الاتساع لا يمكن قهرها (وهذا امر يجب اخذه بالحسبان مقدماً)[١] ، والامر الثاني هو ان الانتصار النهائي والمضمون ، (كما في حالة روسيا) لا يتلاشى دائما لمجرد خسارة بعض المعارك ، او سقوط العاصمة ، او احتلال العدو لبعض المناطق فمثل هذه الامور هي بعض ما يستخدمه الدبلوماسيون ، كحجج وذرائع ، تجعلهم على استعداد دائم لعقد الصلح ولو بشروط مجحفة . وعلى العكس من ذلك فقد اظهر لنا الروس أن البلد قد يجمع ويركز اعظم قواه في قلب البلاد ، وبعد استنزاف المهاجم لقواه ، ويستطيع المدافع التحول بعدها وبالطاقة الهائلة المجمعة تحت يديه الى التعرض . كما علمتنا بروسيا عام (١٨١٣) ان الجهود السريعة والمضنية يمكن ان تضاعف قوة الجيش لست مرات ، لو أحسنا استخدام القوات الشعبية (المليشيا) ، والاكثر من ذلك هو قدرة المليشيا على القتال في البلدان الاجنبية كما كانت تقاتل في بلدها وارضها وكل هذه الامثلة والحالات توضح لنا اي اسهام هائل لقلب واعصاب وحماس الامة يمكن ان يضاف الى المجموع الكلي لسياساتها وقدرتها الحربية ، وقوتها القتالية . وبعد ادراك الحكومات لموارد الطاقة هذه فلا نتوقع أن تظل قدرات كهذه دون استخدام في المستقبل ، سواء اكانت الحرب ستخاض دفاعاً عن النفس او لتبرير طموحاتها الشديدة.

---

(١) كان كلاوزفيتز قد تنبأ عام ١٨٠٤ باندحار نابليون لو حاول غزو روسيا عن كتاب «كلاوزفيتز والدولة» بقلم باريت (نيويورك ١٩٧٦) ص ٢٢٤ .

من الواضح ان حربا يشنها طرفا النزاع بأقصى قوتيهما الوطنيتين ، يجب أن تنفذ وتدار بمبادئ تختلف عن الحروب التي تستند في سياستها على الحجم النسبي للجيوش النظامية . كانت جيوش تلك الايام تشبه البحرية (الاساطيل البحرية) ، كما لها نفس العلاقات التي للبحرية مع الدولة ومؤسساتها . لذلك للقتال البري نوع من الارضية المشتركة مع الاساليب البحرية ، الا أن هذه السمة قد اختفت نهائياً في ايامنا هذه .

الفصل الثامن عشر

التوتر والراحة

القانون الدانيمكي للحرب

بينا في الفصل السادس عشر من هذا الكتاب ان معظم فترات التعطل واللافاعلية في الحملات اطول بكثير من فترات العمل . ورغم ان الحرب الحديثة مختلفة كلياً في طبيعتها وكما اوضحنا في الفصل السابق ، تظل الحقيقة كما هي ، وان مراحل الحرب الفعالة تتخللها وباستمرار فترات تطول او تقصر من الراحة . يتوجب علينا الآن النظر عن قرب الى طبيعة صفحتي الحرب هاتين .

عندما يتقطع القتال ، وبكلمة اخرى عندما لا توجد لدى اي من الطرفين غاية ايجابية ، تحل عندها حالة من الراحة والتوازن ، توازن طبيعي لاقصى حد ، يشمل لا العوامل المادية والنفسية فقط ، بل كافة الظروف والدوافع . فحال مباشرة احد الطرفين بتبني غاية (موقفاً) ايجابيا ، ويبدأ تطبيقها ومتابعتها ، يبدأ وفي الحال ظهور وتنامي التوتر المقاوم (المضاد) لدى الخصم ، ويدوم هذا التوتر حتى يحسم الامر المطروح وقتها ، اما بتخلي احد الاطراف عن هدفه ، او باذعان الطرف الاخر له .

هذا القرار او الحسم ، المتأتي على الدوام من محصلة مزيج من الاعمال التي تنمو وتتطور من قبل الطرفين ، سيليه تحرك في هذا الاتجاه او ذاك .

عندما تستنفذ هذه الحركة، اما بسبب الصعوبات التي جابهتها، كالاحتكاك المتأصل في اي عمل ، او من خلال قوى معادية جديدة ، تعود حالة السبات او اللافعالية ، او تبدأ دورة جديدة من التوتر والحسم ، تليها حركة أخرى تكون عادة في اتجاه معاكس .

لهذا التمييز الفكري ما بين التوازن ، والتوتر ، والتنقل تطبيقات عملية اكبر واعظم مما يبدو للوهلة الاولى .

يمكن ان تتسع حالة الراحة والتوازن لقدر جيدٍ من الفاعلية ؛ وبكلمة اخرى ، نوع من الفاعلية ينجم عن اسباب عرضية ، وليست الفاعلية المصممة لتؤدي الى تغييرات اساسية . فقد تحدث اشتباكات هامة ، بل وحتى معارك كبيرة ، الا ان تلك الاعمال تظل من طبيعة مختلفة ، لذلك تكون لها عادة نتائجاً مختفة .

يكون للقرار في حالة التوتر ودائماً تأثير اكبر ، وذلك يعود جزئيا الى تدخل واشتراك قدرٍ اعظم من قوة الارادة ، وضغط الظروف ، ويعود في جزء آخر لان كل شيء بات على استعداد لعمل كبير . يشبه التأثير في موقف كهذا انفجار لغم أُحسن اخفاؤه ، بينما لا يشبه تأثير حادث بحجم مماثل في مرحلة راحة ، اكثر من اشتعال كمية من البارود في الهواء الطلق .

حالة التوتر وكما هو واضح ، مسألة درجة. فأن قدراً كبيراً من التدرج ممكن وهو يقترب من حالة الركود ، تقترب مرحلته الاخيرة حداً يصعب معه تمييز هذا الظرف من غيره .

الدرس الاهم الذي نستخلصه من تلك الملاحظات هو ان كل تحرك ينفذ في حالة التوتر سيكون اكثر اهمية ، وستكون له نتائج اكبر مما لو نفذ في حالة التوازن . اما في حالات التوتر القصوى فستزداد تلك الاهمية الى درجة لا محدودة .

فالقصف المدفعي في «فالمي»[1] كان اكثر حسماً من معركة « هوش كيرج Hochkircti»[2] .

---

(١) معركة فالمي (١٧٩٢/٩/٢٠) أول معركة في حروب الثورة الفرنسية كانت القوات الفرنسية (٣٦) الفاً بقيادة جنرالين فرنسيين هما (ديو موريه) ، و (كيللرمان) في (فالمي) ضد قوات بروسية (٤٢) الف ونمساوية (٣٠) الفاً وبقيادة دوق برونزويك وهدفها باريس . تراجع الفرنسيون بعد إن تركوا قوة خفيفة لستر الانسحاب بقيادة الجنرال كيللرمان الذي وبسبب حراجة موقفه وضع مدفعيته في الخط الامامي وصب نيرانا كثيفه على البروسين وشتت هجومهم من على مسافة (١٣٠٠) يرد فاوقفوا القتال وتراجعوا ولولا المدفعية لكان النصر لهم . راجع :

1. Longmans English Larousse London 1968 . p. 1271 .

2. Land Warfare , by K. Macksey . London 1973 . P - 100 - 1.

(٢) معركة هوش كيرج (١٧٥٨/١٠/١٤) في حرب السنوات السبع وقاتل فيها فردريك الكبير قوات الماريشال دوان (النمساوية) المتفوقة . حتى تمكن الجنرال زايتين من تأمين طريق انسحاب سلكه فردريك بعد خسارته (٩٥٠٠) رجل بين قتيل وجريح واسير [موسوعة التاريخ العسكري] (بالانكليز) ص ٦٧٢ .

اذا اخلى العدو ارضه لعجزه عن الدفاع عنها فبوسعنا استخدام تلك الارض بطريقة تختلف عما لو كان العدو قد انسحب منها وهو عازم على القتال في ظروف افضل . إن موضعاً اسيء اختياره ، أو أي تحرك مغلوط أو لم يحسب بدقة نقوم به خلال هجوم استراتيجي للعدو ، قد يكون لهما عواقباً وخيمة ، بينما لو حدثت مثل هذه الاخطاء والتخبطات في حالة توازن فلا بد ان تكون واضحة وجلية للعيان جداً كي تتسبب برد فعل معادٍ .

معظم الحروب القديمه وكما اوضحنا سابقاً قد شنت وسط حالات توازن، او لم يكن التوتر الضاغط ابانها شديد القوة والدفع أو محدوداً ، لذا كان القتال في تلك الحالات نادرا أو يحدث على شكل مناوشات هشة أو اشتباكات واهنة نادراً ما كانت لها اية نتائج هامة . وبدلاً عن ذلك كانت بعض المعارك تدور إحتفالاً بعيد ميلاد احد الملوك (معركة هوش كيرج)، او ارضاء للشرف العسكري (معركة كونرز دورف)[١] ، او لاشباع غرور قائد عسكري ما ، (معركة فريبرج)[٢].

نحن نرى وكامر اساسي انه ينبغي على القائد ادراك مثل تلك الظروف وان يعمل بالانسجام مع اجوائها وروحها . لقد اوضحت لنا حملة (١٨٠٦) الى اي مدى يمكن اغفال هذا الجانب المهم احياناً. كانت الاحداث خلال مرحلة التوتر الهائل تلك،

---

(١) معركة كونرز دورف . راجع الهامش في الفصل السابع الكتاب الرابع . ص (٣٤١)

(٢) معركة فريبرج (١٧٦٢/١٠/٢٠) في حرب السنوات السبع حيث دحر الامير هنري يساندة الجنرال سيدلايتز (البروسيان) قوات الماريشال النمساوي سيربيلوني . وبعد بضعة ايام تمكن الجنرال فرديناند (دوق برونزويك البروسي) من دحر الفرنسيين عبر نهر الراين وبعد هذا القتال الطاحن سارعت فرنسا الى الصلح مع انكلترة وفي شباط ١٧٦٣ عقدت معاهدة (هوبرتسبرج) التي اعادت سليزيا الى فردريك الكبير وقبلت النمسا بالوضع الراهن (status quo) في اوروبا . موسوعة التاريخ العسكري بالانكليزية ص٦٧٥ (المترجم).

تضغط باتجاه قرار حاسم، قد يمتص كل اهتمام وانتباه القائد بما سينتج عنه، رغم انه وفي ذلك الوقت بالذات ، كانت هناك خطط تقترح بل وحتى تنفذ جزئياً ، كالاستطلاع الذي جرى في (فرانكونيا) ، والذي يمكن ان يسبب لو جرى في حالة استقرار وتوازن القليل من الاهتمام والتأثير . الا إن مثل هذه المشاريع والافكار المرتبكة والمضيعة – للوقت ليست اكثر من تبديد للفعالية والطاقة ، التي كان من الافضل توجيههما الى اجراءات ملحة حقيقيــة ، بوسعهـا وحدهـا تجنيبنا الفشــل والضيـاع (Save the day) .

التميز الذي وضعناه ضروري كذلك لمزيد من التطوير للنظرية التي نعدها . وكلما يتوجب علينا قوله حول العلاقة ما بين الهجوم والدفاع ، والطريقة التي ستتطور فيها هذه الثنائية تعود الى حالة الأزمة التي ستجد القطعات نفسها فيها خلال فترات التوتر والتنقل . وعلى العكس من ذلك فكل الانشطة التي تحدث خلال حالة الاستقرار ستعتبر وستعامل كنتيجة طبيعية مجردة . ان حالة التأزم هي الحرب الحقيقية ، اما التوازن والاستقرار فليسا اكثر من انعكاس لها .

الكتاب الرابع

الاشتباك

الفصل الاول

تمهيد [1]

تفحصنا في الكتاب الاخير العوامل التي يمكن ان تدعى بالعناصر الفعالة في الحرب . سنتحول الان الى النشاط العسكري الاساسي ، القتال ، الذي يشكل بتأثيراته المادية والنفسية ، وبطريقة بسيطة أو مركبة الهدف الكلي للحرب . لذلك يجب ان تكون العناصر الفعالة داخل او ضمن هذا النشاط ونتائجه .

اطار القتال تعبوي ، وستتعرف على مظهره العام بعد عملية مسح واسعة . لكل معركة او اشتباك هدف خاص يمنحهما خصائصهما المحددة ، وسنتفحص تلك الاهداف الخاصة فيما بعد . ومقارنة بالخصائص العامة للقتال ، تبدو تلك الخصائص المحدودة غير مهمة نسبيا، سيما وان النتائج تظهر تشابه الاشتباكات مع بعضها البعض كثيرا. وبدلا من تكرار الاشارة الى السمات العامة نفضل معالجتها الان ، وقبل مناقشة تطبيقاتها الخاصة .

سنقدم في الفصل التالي وصفاً موجزاً للمسار التعبوي للمعركة اليوم، نظراً لكونها الاساس لمفهومنا حول القتال .

(١) للكلمة الالمانية (Gefecht) نفس المعنى العام لـ «حدث القتال ، المقاومة » ولها ايضاً المعنى المحدد « لاشتباك اقل في القياس من معركة » استخدم كلاوزفيتز المصطلح في الكتاب الرابع اساساً في معناه العام ، الا انه يميز مع ذلك ما بين المعركة ، والاشتباك ، وغيرهما .

الفصل الثاني

طبيعة المعركة اليوم

مع بقاء افتراضاتنا حول التعبية والاستراتيجية كما هي عليه ، فسيبدو لنا جليا ان تغيراً في طبيعة التعبية سوف ينعكس تلقائياً على الاستراتيجية . فلو اختلفت الظاهرة التعبوية كلياً من حالة الى اخرى ، فستختلف الظواهر الاستراتيجية كذلك ، ان كانت ستظل ثابتة وعقلانية. لذلك فمن المهم وصف معركة كبيرة بشكلها المعاصر قبل مناقشة استخدامها الاستراتيجي.

ما الذي يحدث عادة في معركة كبرى اليوم ؟ تتنقل القطعات بهدوء وبحشود كبيرة الى مواضع تنتشر خطياً وبالعمق . وينهمك جزء صغير نسبياً منها ، ويُترك لخوض القتال وحيداً لعدة ساعات ، هذا القتال الذي تتخلله بين اونة واخرى ضربات صغيرة – صولة هجوم ، مهارشة بالحراب ، أو هجوم خيالة – والتي تسبب تأرجح القتال الى حد ما جيئة وذهاباً . ستنهك الوحدات المنهمكة بالقتال وتتضاءل قوتها تدريجياً حتى اذ لم يتبق منها شيئاً يذكر ، يتم سحبها لتحل بدلاً عنها وحدات جديدة.

يذوي لهيب المعركة ببطء ، كالبارود الرطب . ويفرض الظلام توقف القتال ، لتعذر الرؤية ، اذ ليس بوسع أحد أن يرى شيئاً ، ولن يجازف أحد اعتماداً على الصدفة . وحان الوقت لمعرفة ما تبقى من القوة القتالية القادرة على المواصلة لدى الطرفين – أي القطعات التي لم تستنزفها المعركة وتحولها الى ما يشبه البركان الخامد . وبوسع الطرفان احتساب ما كسب أو خسر من الارض ، وحالة الامن في مؤخراته . وبعد استخلاص النتائج ، مع الانطباعات الشخصية (للقائد) عن الشجاعة والجبن ، والبراعة والغباء التي رصدها بين قطعاته وقطعات العدو ، حيث يتم تجميع هذه الانطباعات الكلية كي تكون اساسا لاي قرار يتخذ ؛ اما بالتوقف وترك الميدان أو بتجديد القتال في الصباح التالي .

لن ندعي بهذا الوصف تقديم صورة كاملة عن المعركة الحديثة – بل توخينا اعطاء صورة عامة . تنطبق بالتساوي على المهاجم والمدافع . يمكن اضافة الملامح والسمات الخاصة كالاهداف الخاصة أو طبيعة الارض دونما اي تغيير في الانطباع العام.

إلا ان المعركة الحديثة لم تأخذ هذا الشكل عرضاً او بالصدفة . لقد تطورت الجيوش العصرية بطريقة متماثلة تقريباً في التنظيم واساليب العمل العسكرية ، وعناصر الحرب نفسها ، وبفعل وتأثير المصالح الوطنية العظمى اصبحت بالغة القوة ومسيطرة ، وتتابع باستمرار مسارها الطبيعي . سوف لن تغير المعارك خصائصها طالما ظلت هذه الظروف صالحة وسارية المفعول .

ستفيدنا هذه الصورة العامة للمعركة الحديثة عندما نصل الي تحديد قيمة مختلف العوامل والمسميات (Coefficient) ، كالقوة ، والارض ، وغيرها . وهذا الوصف مناسب فقط للأشتباكات العامة ، والكبيرة والحاسمة ولتلك القريبة من ذلك ، اما تلك الاقل والاصغر فقد تغيرت بنفس الطريقة ولكن ليس بنفس النطاق (الحد) . وسنجد الدليل على ذلك في التعبية . لكن ينبغي ان تتوفرلنا فرص اخرى لأيراد المزيد من التفاصيل لجعل الامر اكثر وضوحاً .

الفصل الثالث

الاشتباك بشكل عام

القتال هو العمل المركزي (القضية المركزية) ، الذي تعمل كافة الانشطة الاخرى لدعمه فقط . لذا لابد من تفحص طبيعة القتال عن قرب وبدقة .

الاشتباك يعني القتال . وهدف القتال هو تدمير أو دحر العدو ، الذي يمثل في الاشتباك المنفرد وببساطة القوة المقاتلة المعادية .

هذا هو المفهوم البسيط ، وينبغي ان نعود اليه . لكن يتوجب علينا اولاً البدء بعدد من الاعتبارات الاخرى .

لو نظرنا الى الامة وقواتها المقاتلة كوحدة واحدة ، فستميل الحرب عندها بطبيعة الحال لان تبدو وكأنها اشتباك عظيم منفرد . والامر على هذا الشكل عموماً في ظروف وحياة الشعوب البدائية . الا ان الحروب في ايامنا هذه تتألف من عدد كبير من الاشتباكات الكبيرة والصغيرة ، التي تجري في ان واحد أو متعاقبة ، وإن تجزأة هذه الفعالية في عدد كبير من الاعمال المنفصلة هي نتيجة لهذا التنوع الكبير في المواقف المتفجرة التي يمكن أن تندلع فيها الحروب الان .

فحتى الغاية النهائية للحروب المعاصرة ، أي الهدف السياسي ، لا يمكن أن تُرى على الدوام كقضيةٍ منفردة . وحتى لو كانت كذلك ، فالعمل عرضة للعديد من الظروف والاعتبارات بحيث يتعذر تحقيق الغاية بعمل هائل منفرد من اعمال الحرب . وبدلا من ذلك لابد من الوصول اليها عبر عدد كبير من الاعمال الاكثر أو الاقل اهمية، تجتمع كلها في كل واحد .

لقد قلنا تواً ان مفهوم الاشتباك يكمن في جذور كل عمل استراتيجي، ونظراً لان الاستراتيجية هي استخدام القوة، التي نجد في قلبها، بالمقابل، الاشتباك. لذا نستطيع في ميدان الاستراتيجية تقليص كل النشاط العسكري الى مفهوم مركزي (موحد) لاشتباك منفرد، ونكرس انفسنا بهدفه حصراً وسنصل الى مطابقة تلك الاهداف عند بحثنا في الظروف التي أدت الى وجودها في الاشتباك. ونكتفي هنا

بالقول إن لكل إشتباكٍ ، كبيرٍ او صغيرٍ ، هدفه الخاص الذي يعد فرعياً أو ثانوياً بالنسبة لهدف عام . وما دام الامر كذلك فيجب اعتبار ابادة واخضاع العدو وسيلتان لتحقيق نهاية (هدف) عام ، وهما وكما هو واضح كذلك فعلاً .

يصح هذا الاستنتاج في المفهوم الرسمي فقط ، كما انه مهم فقط بسبب العلاقة والارتباط ما بين مختلف تلك المفاهيم وقد تطرقنا الى هذا الارتباط الان لاجل استبعاده عن طريقنا فقط .

ما الذي نعنيه بتدمير العدو ؟ ببساطة نعني تدمير قواته ، سواء بالموت ، او الجراح او اية وسائل اخرى – اما بتدميره كلياً او بما يكفي لايقاف القتال . ولو طرحنا جانباً كل الاهداف المحددة لاي اشتباك بعينه ، فيجب اعتبار التدمير الكلي او الجزئي للعدو كهدف وحيد لجميع الاشتباكات .

نحن نؤكد على انه وفي غالبية الحالات ، وخصوصاً في الاعمال الكبيرة ، فالهدف الخاص الذي يميز العمل ويربطه الى الحرب ككل في ان واحد ، ليس سوى تحوير بسيط للهدف العام للحرب او هدف ثانوي مساعد له ويرتبط به . من الاهمية بمكان اعطاء العمل سمته الخاصة ، الا انه لا يزن كثيرا عند مقارنته مع الهدف الكلي . فلو انجز الهدف الثانوي وحده، فلا يعني ذلك اكثر من تحقيق جزء غير مهم من الهدف. فان كنا مصيبين ، اذن فالفكرة التي اعتبرنا وفقها تدمير قوات العدو مجرد وسيلة فقط ، بينما تنحو النهايات لتكون مختلفة تماماً ، فكرة صحيحة عموماً فقط . وسنصل الى استنتاج خاطئٍ ما لم نضع نصب اعيننا ونتذكر دائما ان تدمير قوات العدو، هو نفسه كذلك جزءٌ من الهدف النهائي . وان هذا الهدف بدوره ليس سوى تحوير بسيط فقط للغاية التدميرية .

يقودنا تجاهل هذه النقطة الى افكار خاطئة تماماً ، قبل ان تخلق الحروب الحديثة طرقاً وانماطاً ومنظومات شظوية[1]، ارتفعت النظرية من خلالها كثيراً فوق تجارب الحياة اليومية ، واكثر من ذلك ونظراً لأن النظرية لا تولي استخدام الالة الحقيقية ، اي **تدمير قوات العدو** ، سوى اهمية قليلة .

---

(١) اي مؤلفة من اجزاء صغيرة او شظايا «Fragmentary» المترجم .

ما كان بالامكان بطبيعة الحال تصور وصياغة منظومة كهذه دون افتراضات خاطئة ، ولا بدون استبدال **مفهوم تدمير قوات العدو**[1]، بافكار مختلفة يفترض خطأً انها افكار فعالة ومؤثرة ، وسنكشف ذلك كلما سنحت لنا الفرصة ، الا أننا لا نستطيع البحث في الاشتباك دون اعادة التأكيد على اهميته وقيمته الحقيقية ، وتحديد الاخطاء التي قد يقودنا اليها رأي تقليدي شديد الصرامة .

كيف سنبرهن على أن تدمير قوات العدو ، يجب أن يكون عادة ، وفي جميع الحالات البالغة الاهمية هو الهدف الرئيسي ؟ وكيف سنواجه هذه النظرية البالغة البراعة (Sophisticated) التي تفترض أن بوسع طريقة عبقرية خاصة ، ايقاع تدمير مباشر وصغير (محدود) في قوات العدو ، ليؤدي هذا بدوره الى تدمير غير مباشر كبير ، او تلك النظرية الاخرى التي تدعي المقدرة على أن تحدث وبوسائل محدودة ، لكن بضربات تنفذ ببراعة ودقة تعطل وتشل قوات العدو ، والسيطرة على قوة ارادته ، كأن توجد نوعاً من الطرق القصيرة « Short - Cut » الى النصر ؟ نقر بان اشتباكاً ما ، يساوي في نقطة ما ، اكثر مما يساويه في نقطة اخرى . كما نقر بوجود ترتيب لأسبقية الاشتباكات في الاستراتيجية ؛ وهذا هو حقاً ، كلما تدور الاستراتيجية حوله ، ولا نريد إنكار ذلك . لكننا نعلن هنا مع ذلك ، بان **الابادة المباشرة لقوات العدو** ، يجب أن تكون ودائماً **الاعتبار الحاكم والاساسي** . ونؤكد ببساطة على ارساء هذه الاهمية الحاكمة لمبدأ التدمير .

لكن يجب علينا التأكيد بأن الموضوع الذي يهمنا هنا هو الاستراتيجية ، وليس التعبية . لذلك لن نناقش هنا الوسائل التعبوية المستخدمة لتدمير اقصى ما يمكن من قوات العدو باقل ما يمكن من الجهد . ونعني بالتدمير المباشر ، النجاح التعبوي . لذلك نؤكد هنا على إن **الانتصارات التعبوية الكبرى فقط يمكن أن تقود الى انتصارات استراتيجية كبري** او ، وكما قد قلنا وبتحديد اكثر ، **للأنتصارات التعبوية اهمية فائقة في الحرب** .

---

(١) تدمير قوات العدو ، والعنف المطلق – الحرب المطلقة – هي الدعامات الرئيسية في مفهوم كلاوزفيتز للحرب ، فهو يبحث عن الحرب كنظام اجتماعي ، وكسلطة متكاملة الجبروت ، وليست كمعارك متفرقة ولا حتى حملات ولا في كون الحرب تعبيراً عن احقاد شخصية او طموحات امبراطورية بتوسيع رقعة ما تحت ايديهم من ارض وشعوب . الحرب عند كلاوزفيتز وجود يتسع لكل الدولة ، ولكل الامة . المترجم .

الدليل على تأكيدنا هذا بسيط للغاية . ويمكن ان نجده في الوقت الذي تستغرقه العمليات المعقدة . اما السؤال عما اذا كان الهجوم البسيط اكثر فاعلية من الهجوم الاكثر تعقيداً ، فالجواب دون ريب سيكون لصالح الاخير ان افترض المرء ان العدو سيظل سلبياً . الا ان كل عملية معقدة ستأخذ وقتاً ، ويجب ان يتيسر هذا الوقت ، دون هجوم مقابل في احد اجزاءه وبشكل يتعارض فيه مع تطور الكل . واذا قرر العدو شن هجوم بسيط جدا، اي من النوع الذي يمكن تنفيذه سريعا فسيحصل على الفائدة ويفسد التصميم الكبير . وهكذا ، علينا عند تقويم هجوم معقد ما ، فلابد من موازنة المخاطر والمصاعب التي ستواجهنا خلال مراحل الاستعداد . ينبغي ان لا ينفذ المشروع ان كان هناك اي خطر في قدرة العدو على تخريبه بعمل سريع . وحيثما كان ذلك ممكنا (اي عمل العدو) توجب علينا أنفسنا اختيار اقصر مسلك ، بل وعلينا ما هو اكثر من ذلك ، اي تبسيط تصميمنا الى اي حد تفرضه خصائص الموقف المعادي واية ظروف اخرى ، تجعله ضرورياً . اذا تركنا الانطباع الضعيف للمفاهيم المجردة وراعينا الواقع ، فسنجد أن عدواً عزوماً ، وشجاعاً ، ونشيطاً لن يسمح بالوقت الكافي لمشاريع معقدة وطويلة المدى ؛ لكن وضد عدو مثل هذا تماماً نحتاج لمثل تلك المهارات بقوة . ويبدو لنا ان هذا يمثل دليلاً كافياً حول تفوق البسيط المباشر على التعقيد .

الا ان هذا لا يعني أن الهجوم البسيط هو الافضل . بل يعني وبشكل ما أن على المرء أن لا يضرب لأبعد مما تطوله يداه . تزداد احتمالات الصدامات المباشرة وفقاً لعدوانية (تعرضية) العدو . لذا ، وبدلاً من محاولة المزايدة مع العدو بمشاريع بالغة التعقيد ، ينبغي علينا ، وعلى العكس من ذلك ، محاولة التفوق عليه في البساطة .

إن حجر الزاوية وأساس هذه الاختلافات هو الفكر بالنسبة لاحداها والشجاعة للاخرى. قد يميل المرء الى الاعتقاد بأن شجاعة متوسطة ، مع فكر جوال وماهر اكثر فاعلية وتأثيراً من فكر متوسط وشجاعة باهرة. لكن ومالم يفترض المرء اختلاف وعدم تناسب هذه العاملين الى حد غير معقول ، فليس من حق المرء اعتبار الفكر هو الافضل في مجال وموقف بالغ الخطورة – ومن نوع يتوجب على المرء اعتباره ميدانا اكثر تلائماً للشجاعة .

بعد هذا المنطق التجريدي ، نود اضافة أن التجربة ، والتي هي ابعد من أن

تقودنا إلى استنتاجات شديدة الاختلاف ، هي المصدر الأساسي لقناعاتنا في جذور منهجنا الفكري هذا .

فلو تصفحنا التاريخ بعقول متفتحة ، فلن نخطأ التوصل الى الاستنتاج بان الادارة الحيوية للحرب ومن بين المناقب العسكرية كلها، هي التي اسهمت دائماً بالقدر الاكبر من النجاح والشهرة .

اخيرا ، سنوضح كيفية تطبيق المبدأ الذي يعتبر **تدمير قوات العدو** الهدف الرئيسي ، ليس في الحرب عموماً وحسب ، بل وحتى في كل اشتباك منفرد ، وضمن كل الظروف المختلفة الناشئة عن المواقف والاحداث التي تفجرت الحرب وسطها . كلنا معنيين الان وببساطة بتأكيد اهميتها العامة ، وبوسعنا العودة الان الى الاشتباك .

الفصل الرابع
الاشتباك بشكل عام – تتمة

حددنا في الفصل السابق هدف الاشتباك بتدمير العدو كما حاولنا البرهنة على أن ذلك حقيقي وينطبق على أغلبية الحالات ، ومعظم الاعمال (العمليات) نظراً لان تدمير قوات العدو يجب ان يظل دائماً الاعتبار الاول في الحرب . اما الاهداف الاخرى التي قد تضاف ، والاهداف التي قد تعتبر أهدافاً حاكمة الى درجة ما ، فستبحث في الفصل التالي ، وسنتعرف عليها تدريجياً . لكنا سنتجاهلها الان لنتفرغ لمعالجة موضوع تدمير العدو بذاته كهدف كاف تماماً لأي اشتباك منفرد .

ما الذي نعنيه بـ « تدمير قوات العدو ؟» انه تقليص قوة هي اكبر من قوتنا نسبياً . فالتعادل المطلق في الخسائر ، يعني بطبيعة الحال ، خسارة أقل نسبياً للطرف المتفوق عددياً ، لذا يمكن اعتبارها فائدة لصالحه . لكن لو جردنا الاشتباك من كافة الاهداف الاخرى ، يجب أن نستبعد كذلك أمر إستخدامه لايقاع تدمير كبير بالعدو بطريقة غير مباشرة . وعليه فالفائدة المباشرة التي تتحقق من خلال عملية التدمير المتبادل يمكن عدها كهدف . وهذه فائدة مطلقه، لانها تظل ثابتة خلال الحساب الكلي للحملة، كما انها تُعد في النهاية كربح صافٍ. وأية انواع اخرى من الانتصار على العدو اما أن تجد أُسسها في اهداف اخرى ، لسنا بصدد مناقشتها هنا ، او انها ستعطي منفعة نسبية ومؤقتة فقط . واعطاء مثالاً على ذلك سيوضح ما نعنيه .

اذا تمكن احد الطرفين وبانفتاح بارع (لقواته) ان يضع العدو في موقف سيء يتعذر عليه معه مواصلة القتال ، دونما مخاطروإذا تراجع بعد بعض المقاومة نستطيع القول اننا وعند هذه النقطة قد دحرناه. لكن اذا فقدنا نفس العدد من الرجال الذين فقدهم العدو في العملية ، فلن نجد اثراً لنصر كهذا في الحساب النهائي (Balance - Sheet) للحملة . لذا لا يمكن اعتبار الافضلية على العدو – اي وضعه في حال لا يسعه معه سوى ايقاف الاشتباك – هدفا بذاته، ولهذا السبب لا يمكن ان يدخل في تعريف الهدف . لذا لن يتبقى من شيء سوى المنفعة المباشرة التي تتحقق من عملية التدمير . تشمل هذه المنفعة ليس فقط الخسائر التي تقع خلال العملية، بل وكذلك التي تقع كنتيجة مباشرة لتراجعه .

ومن التجارب المألوفة ان لا تختلف خسائر المنتصر خلال سياق الاشتباك كثيرا عن الطرف الخاسر . وغالباً ما لا يكون هناك اختلاف ما ، بل ويكون الامر معكوساً في بعض الاحيان . لا تبدأ الخسارة الحقيقية والموجعة والتي لا يشارك المنتصر فيها المهزوم ، الا عندما يبدأ العدو انسحابه ، وحين تتولى الخيالة سحق ما يتبقى من رجال متعبين في الافواج التي سحقتها المعركة ، بالاضافة الى المتساقطين من الرجال شبه الموتى على جانبي الطريق ، والمدافع المحطمة ، وعربات وصناديق الاسلحة المتروكة ، بينما يعجز رجال اخرون عن التراجع بسرعة كافية على الطرق والنياسم السيئة فتتولى الخيالة أمرهم ، كما تسقط بعض المفارز الصغيرة التي ظلت طريقها خلال الليل في ايدي العدو وهكذا يبدأ الطرف المنتصر عادة بتجميع المكاسب بعد ان يتم حسم القضية . سيبدو الامر متناقضاً ، ما لم يتم حل التناقض كما يلي .

ليست الخسائر المادية فقط ما يوقعه الطرفان ببعضهما خلال الاشتباك ، اذ تهتز القوى المعنوية كذلك ، وتتأذى وتتحطم . وقبل القرار على مواصلة او ايقاف الاشتباك لا يكفي حساب الخسائر في الرجال والخيول والمدافع ، اذ لابد كذلك من التمعن في وموازنة الضرر في النظام ، والشجاعة ، والثقة والتماسك والخطة . ويستند القرار اساساً على الحالة المعنوية التي وفي الحالات التي تتساوى الاضرار المعنوية لدى الطرفين المنتصر والخسران ، كانت وعلى الدوام العامل الحاسم المنفرد .

يصعب تحديد نسبة الخسائر المادية خلال سير المعركة ؛ الا ان ذلك لا ينطبق على فقدان المعنويات . هناك مؤشران رئيسيان لذلك ، الاول هو فقدان الارض التي جرى القتال فوقها ؛ والثاني هو تفوق احتياطات العدو . فكلما استنفذ احد الطرفين احتياطه اسرع من خصمه ، كلما كانت كلفة المحافظة على التوازن اعلى . وهذا وحده يشكل برهان ملموس على التفوق المعنوي للعدو ، ونادرا ما كان يعجز شيء كهذا عن التسبب ببعض المرارة والاسى للقائد – كفقدانه لاحترام القوات التي يقودها الى حد ما ، الا أن النقطة الرئيسية هي ان الجنود وبعد خوضهم القتال لبعض الوقت ، عرضة لان يصبحوا كبقايا النار الخامدة ، فقد استهلكوا ذخيرتهم ، وتناقصت اعدادهم وتدهورت معنوياتهم وقوتهم ، وربما اهتزت شجاعتهم كذلك . اما ككيان عضوي متماسك ، وبغض النظر عن الخسائر العددية ، فلن يعودوا كما كانوا عليه قبل بدء العملية ؛ وهكذا يغدو المقدار المستنزف من الاحتياط معياراً دقيقاً على فقدان المعنويات.

عندها وكقاعدة ، فان فقدان الارض ، ونقص الاحتياط النشيط ، هما السببان الرئيسيان للتراجع . وقد تكون هناك اسباب اخرى ، لا نريد استبعادها او التقليل من شأنها ، وقد تتعلق بالاعتماد المتبادل للأقسام ، او مع الخطة العامة .

يعد كل اشتباك فحصاً دمويا ومدمرا للقوى المادية والمعنوية . والطرف الذي يحتفظ بقدر اكبر من كليهما في النهاية يعد منتصراً .

لقد ثبت ان فقدان المعنويات هو العامل الحاسم الرئيسي في كل اشتباك . وحالما تتقرر النتيجة ، يتواصل تزايد الخسائر ، وتبلغ ذروتها عند نهاية العملية فقط . وتغدو هذه هي وسيلة تحقيق حد المنفعة (هامش الربح) في تدمير قوات العدو المادية ، وهو الهدف الحقيقي للمعركة . غالباً ما يجعل فقدان النظام والتماسك ، حتى المقاومة التي تبديها الوحدات المنفردة مميتة بشكل حاسم لها . لقد تحطمت الروح القتالية للجميع ، ولا يتبقى اي شيء من الحماس والهياج الاصليين بين النصر والهزيمة الذي يجعل الرجال يتجاهلون كل المخاطر ، اذ لن يعد الخطر يشكل بالنسبة لمعظم الرجال اي تحدٍ لأقدامهم ، بل كعقاب لابد من تحمله . وهكذا تضعف وتتبلد الالة [الة الحرب] عندما تلوح بوادر أنتصار العدو الاولى ، ولن يكون من المناسب وقتها مواجهة الخطر بالخطر(١).

عند هذه المرحلة يتوجب على المنتصر ترصين ما كسبه بالتدمير المادي – وهو الميزة الوحيدة الدائمة له ، اذ سرعان ما يستعيد العدو روحه المعنوية تدريجياً ، ويعيد فرض النظام بعد الفوضى ، وتعود اليه شجاعته ، اذ لن يتبقى [لدى المنتصر] وفي معظم الحالات سوى القليل ، هذا ان بقي له شيئاً ، من التفوق الاولي الذي لم يحققه الا بشق الانفس . بل وحدث في بعض الحالات ، وان كنا نقر بندرتها ، أن تتفجرروح الثأر

---

(١) تظل لحظات الخطر والبأس ، افضل الاوقات لتحمل المخاطر والقيام بالمحاولة الاخيرة لاستعادة الموقف وصنع الانتصار من الهزيمة فلم يعد هناك ما نخسره ويروى عن احد الجنرالات ولعله الانكليزي (هيك) قوله « لقد ايد جناحي الايسر ، وطوّق جناحي الايمن ، وقوات القلب تتراجع اذن يجب ان اهجم» . يصح ذلك في التعبية والاستراتيجية . لقد شنت حرب ١٩٧٣ في وقت اقتنع الاسرائيليون فيه بعجز العرب عن الدخول في اية حرب رغم كل العلامات والتحركات التي تؤكد العكس ، راجع Military Misfortunes , Cohen and Gooch , Vintage Book , NY - 1991 - p.p - 95 - 133 . المترجم .

والكرامة ويتصاعد فيها الحقد حدا قد يقلب الموازين رأساً على عقب . الا إن المزايا التي يحققها احد الطرفين بما يوقعه من خسائر ، قتلى أو جرحى أو أسرى والمعدات المستولى عليها ، ستظل ماثلة للعيان ولا يمكن حذفها او اخفائها من السجلات النهائية.

تقع معظم خسائر المعارك من القتلى والجرحى ، بعد المعركة عادة ، وتأثيرها عادة اكبر من تأثير الاسرى وما يستولى عليه من مدافع وغيرها . وبينما يتعرض الطرفان المنتصر والخاسر وبنسبة متساوية تقريبا في النوع الاول الا انهما ليسا كذلك في النوع الاخر . لهذا لن يعاني أحد الطرفين فقط من هذا النوع من الخسائر – اسرى ومعدات – او انها على الاقل ستكون بنسبة اعلى بكثير في احد الجانبين فقط .

لهذا السبب بات عدد الاسرى والمدافع هما ودائماً الغنائم الحقيقية للمنتصر ، كما يشكلان دليلاً ملموسا لحجم الانتصار ، كما يظلان افضل دليل على درجة التفوق من اي دليل آخر ، حتى عند النظر إليه على ضوء علاقته مع معدلات الخسائر الاخرى . ومن خلال ذلك يغدو العامل المعنوى محسوساً ولو بطريقة اخرى .

لقد اوضحنا أن المعنويات تتدهور خلال الاشتباك ، الا انها تسترجع تدريجياً في الوقت الذي يليه مباشرة ، وغالباً ما لا تترك اي أثر على ترديها . وبينما يلاحظ ذلك بوضوح في الاجزاء الصغيرة من المجموع الكلي فانه يحدث حتى في الاجزاء الاكبر . قد ينطبق ذلك على كل الجيش، لكن من النادر ، هذا ان حدث شيء مثل ذلك ، أن ينطبق ذلك بالنسبة للحكومة والدولة التي كان الجيش بخدمتها. تبدو الأمور عند ذلك المستوى موضوعية اكثر، ومن مرتكز اعلى. كما ان حالة الضعف والعجز التي يعاني منها احد الاطراف تظهر بوضوح للغاية في حجم الغنائم التي يجنيها العدو ونسبتها الى المجموع الكلي للخسائر.

على كل حال ، يجب ان لا نستهين بفقدان التوازن المعنوي لمجرد ان لا قيمة مطلقة له ، ولانه لا يظهر في الميزان النهائي . فقد يصل هذا الفقدان حدا كبيرا بحيث يفوق كل شيء اخر ويغدو قوة لا تقاوم . لهذا السبب قد يغدوهذا النوع (من التحطيم المعنوي) هدفاً رئيسياً للعمليات ، وسنناقش ذلك في مكان آخر . اما هنا فسنقتصر على التمعن والبحث في جوانب اساسية اخرى للعمل .

لا يتنامى التأثير النفسي للنصر نسبة الى حجم القوات المشتركة فقط، بل يفعل ذلك بمعدل متصاعد . وذلك لان هذا التصاعد لا يقتصر على الحجم بل وعلى الكثافة. يمكن استعادة النظام بسهولة في فرقة مندحرة ، كما يستعيد الجسد الذي تجمدت اطرافه بفعل البرد ، دورته الدموية بالحرارة والدفئ ، كذلك تعود الروح القتالية للفرقة بسرعة بفعل وتأثير الروح القتالية للجيش حال التقائهما ثانية . هكذا وحتى لو لم تختفي تأثيرات ونتائج انتصار محدود كليا ، فانها لا تعني اكثر من خسارة جزئية بالنسبة للعدو . الا ان الامر ليس كذلك عندما يندحر الجيش نفسه اندحاراً مأساوياً ، اذ سينهار كل شيء تماماً . فالحرارة التي يسببها حريق كبير اقوى بكثير من مجموعة نيران اصغر امتداداً .

هناك عامل آخر لابد من مناقشته عند القرار على القيمة النفسية للنصر ، الا وهو نسبة القوات المعادية . فلو تغلبت قوة صغيرة على قوة اكبر منها ، فلن تتضاعف مكاسبها وحسب بل انها تظهر هامشاً اكبر للتفوق العام ، الذي يدرك الخاسر ان عليه مواجهته المرة بعد الاخرى . وان كان من **الصعب ملاحظة مثل هذا التأثير** في حالة كهذه . المعلومات التي ترد خلال سير المعركة عن قوة العدو ، ليست مؤكدة عادة كما أن تقدير اي طرف لمعلوماته هو، ليس واقعياً. الجانب الاقوى اما سيرفض وببساطة تصديق التفاوت ، او انه على الاقل يقلل من شأنه ، لذا فسيكون بمأمن الى حد كبير من الضرر المعنوي الذي سيتسبب به وضع كهذا الا ان الوقائع الحقيقية التي طُمست اما بالتجاهل او الغررور ، او حتى بفعل حذر مدروس ، ستظهر فقط في وقت متأخر عند كتابة التاريخ . ولعل التاريخ يومها يضع اكاليل الغار على رأس الجيش وقائده ، الا ان ما اسهمت به المعنويات لن يقدم اية مساعدة في موقف حدث في زمان بعيد .

ان كان الاسرى والمدافع المستولى عليها هما الاهداف التي يتمثل فيها الانتصار وبشكل رئيسي ، كما تتبلور فيهما حقيقته ، بل ان الاشتباك يخطط بالطريقة التي توفر تحقيق هذين المطلبين . وفي ذلك يبدو تدمير العدو بالقتل او الجراح كوسيلة فقط .

التأثير الذي يمارسه هذا الاختيار (المسلك) على الانفتاح التعبوي ، ليس مما يهم الاستراتيجية ، ومع ذلك فهي – اي الاستراتيجية – تؤثر على الاشتباك عندما يهدد هذا مؤخرة العدو ، ويحمي مناطقنا الخلفية . وعلى اعمال كهذه يعتمد عدد الاسرى

والمدافع المستولي عليها الى درجة كبيرة ، والاجراءات التعبوية ليست كافية لوحدها عندما لا تكون الظروف الاستراتيجية مؤاتية .

ان خطر خوض القتال على جبهتين ، والخطر الاكبر في ان يجد طرف ما ان خطوط انسحابه قد قطعت، يسببان شل الحركة والقدرة على المقاومة ، مما يؤثر على التوازن بين الانتصار والاندحار . وما هو اكثر من ذلك في حالة الاندحار هو ان هذين الخطرين يزيدان حجم الخسائر ، والى اقصى (واخطر) حد - اي الابادة . لذلك يمكن ان يؤدي اي تهديد للمؤخرة الى جعل **الاندحار اكثر احتمالاً واكثر حسماً** .

نجم عن ذلك تصميم غريزي في ادارة الحرب ، وخصوصاً في المعركة ، صغيرة كانت او كبيرة بحماية المؤخرات والمناطق الخلفية من جهة ومحاولة السيطرة على مؤخرات العدو . لقد أُشتق هذا الميل الغريزي من مفهوم الانتصار نفسه ، الذي وكما أوضحنا لا يقتصر على مجرد القتل .

يحدد هذا التصميم **هدفاً انياً للمعركة**، وهدفاً عاما. ولا يمكن تصور أي اشتباك يخلو من التطبيق المجرد للقوة باحد اشكاله أو كلاهما. ولا يمكن حتى لاصغر الوحدات ان تهاجم العدو ، ما لم تفكر في خطوط انسحابها ، وان تبحث بالمقابل في قطع ما لدى العدو منها .

سوف نبتعد كثيراً جدا لو ناقشنا كيف بوسع موقف معقد وبسهولة، أن يعكس ذلك الميل الغريزي عن مساره الطبيعي ، وكيف يضطر في اغلب الاحوال للخضوع والاستجابة الى اعتبارات اخرى اكثر اهمية ، وينبغي ان نكتفي حالياً باعتباره قانوناً طبيعياً للأشتباك . كما يجب اعتباره عاماً وللجميع ، وان ضغوطه الطبيعية كلية وشاملة لذلك تغدو (حماية المناطق الخلفية) النقطة التي تدور حول محورها كل التحركات التعبوية والاستراتيجية تقريبا .

ولو تمعنا في النهاية في المفهوم الكلي للأنتصار لوجدنا انه يتألف من ثلاثة عناصر:

١ . تكبيد العدو اعظم الخسائر في قوته المادية .

٢ . فقدانه للمعنويات .

٣ . اقراره بتلك الخسائر بالتوقف عن متابعة نواياه .

تتسم التقارير عادة ولدى كلا الجانبين بعدم الدقة ابداً ، وانها نادراً ما تكون صادقة ، بل تكون وفي معظم الحالات ملفقة عمداً . كما يبالغ عادة في أعداد الغنائم الى حد غير معقول ، وهكذا وطالما كانت مما لا يعتد به ، فهي قد تترك حتى الطرف المنتصر في حيرة من امره كذلك . وعدى عن الغنائم فليس هناك اي مقياس دقيق لفقدان المعنويات، لذلك وكما في العديد من الحالات يظل التوقف او التخلي عن القتال هو الدليل الاصيل الوحيد للنصر . فالطرف الذي يخفض اعلامه (راياته) انما يعترف بانه غير قادر على المتابعة، ويقر في هذا المثال على ان القوة والحق معاً في جانب الخصم . هذا العار والذل ، اللذان لابد من تمييزهما عن كل العواقب النفسية الاخرى لتحول ميزان القوى ، هما جزء اساسي من النصر . وهو العنصر الوحيد الذي يؤثر على الرأي العام خارج الجيش ، والذي يؤثر على شعب وحكومتي الدولتين المتحاربتين وحليفاتهما . ليس التخلي عن الغايات والنوايا، كمثل التخلي عن ميدان المعركة بالتأكيد، حتى بعد قتال عنيد وطويل. قد تنسحب قوة مرصد او موضع امامي بعد مقاومة عنيدة دون ان تتهم بالتخلي عن الواجب ، وحتى في المعارك التي نتوخى فيها تدمير العدو ، لا يعني الانسحاب من ساحة المعركة التخلي عن الغاية المحددة ، كما على سبيل المثال في التراجع المخطط له (الانسحاب المدبر) حين نقاتل عن كل قدم من الارض . سيناقش كل ذلك فيما بعد تحت عنوان اهداف خاصة للاشتباك. ونرغب حالياً بلفت الانتباه الى حقيقة المصاعب في التمييز وفي اغلب الحالات ما بين التخلي عن الغايات والنوايا والتخلي عن ساحة المعركة ؛ ولا يجوز اغفال او تجاهل التأثير الذي يتركه النوع الاول في الدوائر العسكرية والمدنية .

فبالنسبة لقائد وجيش دون سمعة مشهودة ، يعد مثل هذا الامر مظهراً صعباً لعمليات دقيقة من نوع آخر ، فسلسلة من الاشتباكات تليها عدة تراجعات قد تبدو كسلسلة من النكسات . الا ان ذلك قد لا يكون حقيقيا بالمرة ، مع انه قد يترك انطباعاتٍ واثارٍ سيئة . ليس من الممكن على قائد تتراجع قطعاته التغلب مسبقاً على هذا التردي المعنوي وذلك بالافصاح عن نواياه الحقيقية، ولو اراد أن يفعل ذلك بشكل فعال توجب عليه الكشف عن خطته الكلية للعمليات ولمثل هذا الاجراء أثر بالغ الخطورة على عمله بكامله .

لاظهار الاهمية الاستثنائية لهذا المفهوم عن النصر ، سنذكر معركة

«سورSoor»[1] التي ما كانت الغنائم فيها باهمية تذكر (بضعة الاف من الاسرى و(٢٠) مدفعا) ، أكد فردريك الكبير انتصاره بالبقاء لخمسة ايام اخرى في ساحة المعركة ، رغم ان تراجعه نحو سليزيا كان قد تقرر انذاك ، كما كان الموقف العام نفسه يفرضه . وكما قال فردريك نفسه فانه كان يعول على التأثير النفسي لانتصاره من اجل الحصول على صلح قريب . رغم ان الامر تطلب بضعة انتصارات اخرى (كمعركة كاثوليش – هينرز دورف في لوزاتيا ومعركة كيسلزدورف) لارساء السلام المعني فليس بوسع المرء تجاهل التأثير المعنوي لمعركة (سور) .

لو تسبب انتصار ما بزعزعة ثقة الخصم ، وزاد من حجم الغنائم الى درجة غير عادية ، فستتحول تلك المعركة الى هزيمة بحجم لا يتكرر مع اي انتصار . ونظراً لان معنويات المندحر في هزيمة من هذا النوع ستتأثر الى حد كبير جدا، ستكون النتيجة هي العجز عن ابداء اية مقاومة على الاغلب ، ولن يتعدى ما يفعله المندحر سوى التملص – او بالاحرى الفرار.

وقياساً على ذلك تعتبر معركي (ينا – ١٨٠٦) و (واترلو ١٨١٥) هزيمتين ، اما معركة (بوردينو ١٨١٢) فليست كذلك .

---

(١) معركة (سور ٣٠/٩/١٧٤٥) من معارك حرب الوراثة النمساوية . توقع فردريك الكبير هجوما نمساويا كان قائده شارل قد أحسن اعداده إذا استولى بهجوم ليلي على مرتفعات حاكمة خلف جيشه قاطعاً بذلك خط انسحاب فردريك الذي انعطف باستدارة واسعة وسريعة بجيشه الى اليمين تحت نيران نمساوية كثيفة ثم وعند منتصف الطريق استدار فردريك نحو جناح النمساويين الايسر بهجوم مفاجئ شن من نظام المعركة المائل المفضل لدى فردريك ، في الوقت الذي إعتقد النمساويين ان فردريك ليس بالحماقة التي تدفعه الى الهجوم ، نجح فردريك بسحق النمساويين فقد كان أقوى منهم فتراجعوا باتجاه شمال شرق ، تاركين الطريق نحو سليزيا مفتوحاً لفردريك . بعد خسارتهم لـ (–ر٨) الاف بين قتيل وجريح و(٢٢) مدفعاً عاد فردريك وجيشه بعدها الى سليزيا . وبعدها جرت المعركتين التاليتين :

١ . كاثوليش ٢٤–٢٥/١١/١٧٤٥ . قبل ان يتسنى للنمساويين تجميع قواتهم بعد المعركة اعلاه وجه اليهم فردريك الكبير ضربتين قاسيتين اجبرتهم على التراجع الى بوهميا .

ب . كيسلز دورف ١٤/١٢/١٧٤٥ شن الامير ليوبولد الاول هجوماً مباغتاً ضد قوات التحالف فاضطر الماريشال النمساوي راتوفسكي إلى التراجع دون انتظام بعد خسائر فادحة اما لوزاتيا فهي منطقة في المانيا تدعى حالياً (ليسيزيا) . اما المعارك الثلاث الاخيرة (ينا – واترلوا – بوردينو) فهي كلها من معارك نابليون . موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٦٣٥ – المترجم .

وما دام الاختلاف هو في الدرجة فقط ، فليس من الحكمة استخلاص احكام اعتباطية من ذلك . لكن ومن اجل تميز واضح للأفكار النظرية ، من الضروري التأكيد على مفاهيم محددة كنقاط مركزية . ونعاني في الحقيقة من ضعف ونقص في المصطلحات اللغوية لوصف حالة اندحار كهذه بكلمة واحدة تكفي للتعبير عن درجة وشدة الدمار الذي تشير اليه .

الفصل الخامس

اهمية الاشتباك

ناقشنا في الفصل السابق الاشتباك بشكله المطلق ، وكما لو انه نموذج مصغر للحرب ككل . وننتقل الان الى علاقة الاشتباك كجزء واحد ، مع الاجزاء الاخرى لجرم اعظم . نبدأ بالبحث في الاهمية الدقيقة التي قد يمتلكها اشتباك ما .

نظراً لان الحرب ليست سوى تدمير متبادل. فسيبدوا من الطبيعي والمعقول جداً ولعله طبيعي جداً في الحقيقة ، ان تتوحد كل القوات لدى الجانبين في حشد ضخم واحد ، وينبغي ان يتركز كلما يلي ذلك في اندفاع هائل واحد لذينيك الحشدين. هناك الكثير مما يقال حول هذه الفكرة ، وعلى الجملة فسيكون من المفيد التقيد بها ، ومنها نبدأ باعتبار الاشتباكات الصغيرة كنتاج ثانوي by-product ضروري، كتشذيب وتنقية الاخشاب (في النجارة wood - sharing) . ومع ذلك فليس الامر مما يسهل تناوله على هذه الصورة .

ينتج تضخم عدد الاشتباكات (المعارك) وكما هو واضح من تجزأة القوات ، لذا ينبغي علينا التعامل مع الاهداف المحددة لكل اشتباك خلال البحث . يمكن تصنيف تلك الاهداف ومعها البعد الكامل للأشتباكات ، وستساعدنا دراسة تلك التصنيفات على ايضاح مناقشتنا .

لقد قبلنا بان تدمير قوات العدو هو هدف كل الاشتباكات. الا ان غايات اخرى قد تكون لها علاقه بذلك ويمكن ان تكون حاكمة ايضاً. ولا بد عندها من التمييز ما بين حالة يكون تدمير قوات العدو فيها هو الاعتبار الاساسي، وبين حالة لا يكون فيها ذلك التدمير اكثر من وسيلة. وفيما عدى تدمير القوات المعادية، فاحتلال منطقة أو هدف مادي قد يشكل دافعاً عاما اما بذاته او لأرتباطه مع بواعث أخرى، وعلى أية حال فان احد تلك البواعث هو المتحكم عادة. والشكلين الرئيسيين للحرب، الهجوم والدفاع واللذان سنناقشهما بعد قليل وبينما لا يؤثران على اول تلك الاهداف، فانهما يؤثران فعلاً على الهدفين الاخرين. وسيوضح لنا الجدول التالي ما يلي :

معركة تعرضية	معركة دفاعية
١ . تدمير القوات المعادية	١ . تدمير القوات المعادية
٢ . احتلال منطقة ما .	٢ . الدفاع عن منطقة ما .
٣ . احتلال هدف ما	٣ . الدفاع عن هدف ما

الا ان هذه الاهداف لا تغطي كافة جوانب الموضوع ، لو فكرنا في الاستطلاع والمظاهرات (demostration) اللتان لا تتلائم غايتيهما مع اي من الاهداف اعلاه. وسنحتاج في الواقع الى نوع رابع من الاهداف . وللتعبير عن ذلك بتحديد ادق، فالاستطلاع يتوخى جعل العدو يكشف نفسه ، اوكخدعة صممت لانهاكه ، اما المظاهرات فنعني بها تثبيت العدو في مكان واحد، او لجره الى مكان اخر ، وكل هذه غايات لا يمكن بلوغها الا بطريقة غير مباشرة ، **والتستر خلف احد الاهداف المذكورة اعلاه** (وهو الثاني عادة) ؛ فلو اراد العدو الاستطلاع فعليه التظاهر بانه على وشك الهجوم ودحر او طرد قواتنا ، وما يشبه ذلك . الا ان ذريعة كهذه ليست الغاية الحقيقية التي تهمنا هنا . لذلك يتوجب اضافة هدف رابع الى اهداف المهاجم الثلاثة؛ هو تضليل العدو (Misleading) وبكلمة اخرى، الإعداد لقتال كاذب. والطبيعة الحقيقية لهذا الامر تجعل من المؤكد ان هدفا كهذا لا يمكن تصوره الا ضمن سياق الهجوم فقط .

علينا من الناحية الاخرى ، ملاحظة ان الدفاع عن منطقة ما قد يكون على نوعين ، هما الدفاع المطلق إن كنا نرفض التنازل عنها نهائيا، أو الدفاع النسبي ، إن كان الواجب التمسك بتلك المنطقة الى وقت محدد . والنوع الثاني مما يتكرر إستخدامه في الاشتباكات التي تخوضها المواضع الامامية والمؤخرات .

يحتمل ان لا حاجة بنا الى التأكيد على ان اختلاف الأهداف لمعركة ما ، سيؤثر على الاستحضارات التي تعد لتلك المعركة. فسنعد خطة لطرد قوة موضع معادي، واخرى لابادتها ؛ وخطة للتمسك بمكان ما بأي ثمن ، واخرى لمجرد إعاقة العدو ، ففي الحالة الاولى ليس هناك سوى القليل من القلق حول امكانية التراجع ، اما في الثانية فللتراجع اهمية فائقة ، وهكذا.

ترد كل هذه الافكار والتأملات في مجال التعبية ، وأوردت هنا كامثلة فقط .

اما كيف ستبدو الغايات المتنوعة لمعركة ما من زاوية الاستراتيجية ، فسنبحث ذلك في الفصل المتعلق بها. وسنلزم انفسنا هنا ببعض الملاحظات العامة

وابتداءً نشير الى تغيير تقريبي في تسلسل الاهمية النسبية للغايات كما في الجدول اعلاه :-

١ . أولاً : ينبغي ان يظل اول تلك الاهداف وباستمرار حاكما في المعارك الكبرى .

٢ . واخيراً فان الهدفين (الثاني والثالث) في المعركة الدفاعية ، هما من نوع لا يحقق نتائجاً ما فعلاً ؛ فهما سلبيان تماماً ، وليس لهما سوى قيمة غير مباشرة فقط في تهيئة بعض الاهداف الايجابية في مكان آخر يسهل تحقيقها فيه .
فلو سادت المعارك التي من هذا النوع فذلك يشير بوضوح الى موقف استراتيجي غير ملائم.

الفصل السادس

مدة الاشتباك

لو انتقلنا من مناقشة الاشتباك نفسه ، ونظرنا في علاقته مع العوامل الاخرى في الحرب، لوجدنا ان مدة duration الاشتباك تستحق اهمية خاصة .

يمكن اعتبار مدة الاشتباك ،وبشكل ما نجاحاً ثانوياً منفصلاً . لا يمكن الوصول الى نهاية حاسمة للأشتباك بوقت مبكر وملائم للرابح ، او تأخيره كثيراً والى الحد الذي يلائم الخاسر . لان النصر اعظم واكبر من ان يتحقق سريعاً ، والهزيمة بالمقابل جديرة بالتأخير كثيراً .

هذا حقيقي عموماً . الا انه يفترض اهمية عملية للمعارك التي تشن لتحقيق هدف تعويقي (delaying) [1] .

غالباً ما لا يتضمن النجاح في اشتباكات كهذه الا الوقت الذي تستغرقه ، لذلك ادخلنا المدة في نطاق او سلسلة العناصر الاستراتيجية .

ترتبط المدة التي يستغرقها الاشتباك بالضرورة مع الظروف العديدة التي يشن تحتها . والظروف هي : حجم القوة ، وعلاقتها من حيث عدد الرجال والمعدات بما لدى العدو، وطبيعة وخصائص الارض . فعشرون الفاً من المقاتلين لا يمكن ان يمزق بعضهم البعض بنفس الوقت الذي يستغرقه قتال الفين من الرجال كما لا يمكن مقاومة وصد عدو متفوق بنسبة (٢) او ٣ : ١ لنفس الوقت الذي تصد فيه قوة معادلة. كما يحسم قتال الخيالة باسرع من قتال المشاة ، كما يحسم هذا بدوره باسرع مما يحسم فيه قتال تشارك فيه المدفعية . كما لا يحرز نفس الجيش تقدماً في مناطق جبلية او غابات بنفس سرعته في السهول . وكل هذه امثلة واضحة .

---

(١) يعني المصطلح الالماني (Relative Vertheidigune) الدفاع النسبي حرفياً ، وهذا يعني وكما هو واضح « عمل التعويق » - المشرف .

يلي ذلك ضرورة أن ندخل في الحسبان قوة ، وتأليف وانفتاح الجانبين ، ان كان هدف المعركة يكمن في مدتها الا ان ايضاح هذه القاعدة أقل اهمية من بيان علاقتها مع النتائج الرئيسية التي تعتمد معلوماتنا عنها على التجارب .

ان مقاومة فرقة اعتيادية من (٨-١٠) الاف رجل من كافة الصنوف (الاسلحة) وحتى ضد عدو متفوق بقوة وفي ارضٍ ليست ملائمة كثيراً (للدفاع) تستمر لعدة ساعات ، اما إن كان تفوق العدو ضئيلاً ، او ان كان متفوقاً حتى ، فقد تستمر المقاومة لنصف يوم. وبوسع فيلق يتألف من (٣-٤) فرق ، الثبات لضعف هذا الوقت ، وكذلك فبوسع جيش من (٨٠-١٠٠) الف رجل الثبات لثلاث او اربع أضعاف ذلك الوقت . لذلك يمكن ترك تلك القطعات لتعتمد على مواردها الخاصة طوال ذلك الوقت . اما إن زجت وضمن ذلك الوقت قطعات جديدة للمشاركة ، فلن يحدث اشتباك جديد ، الا أن تأثيرها سيضاف (يندمج) مع النجاح الاساسي للأشتباك في مجموع كلي واحد .

لقد اخترنا هذه الارقام والحجوم من تجارب حقيقية. وعلينا الان تحديد وتعريف لحظة الحسم ، وبالتالي نتائج الاشتباك بدقة اكبر .

الفصل السابع
قرار الاشتباك

لا يتخذ قرار الاشتباك في لحظة واحدة ، ولو ان لكل اشتباك لحظات حاسمة تسهم وبشكل رئيسي في نتائجه . لذلك فخسارة اشتباك ما يشبه انحداراً تدريجياً في الميزان . الا ان كل اشتباك يصل نقطة [ذروة] يمكن اعتباره عندها محسوماً ، لذا فان افتتاح الاشتباك ثانية يعني البدء باشتباك جديد وليس استمراراً للقديم . التحديد الدقيق لنقطة الذروة مهم جداً للقرار على ان استخدام تعزيزات جديدة لتجديد العمل مفيد لنا .

غالباً ما نضحي دون طائل بقطعات جديدة في اشتباك فات اوان استعادته وضاعت فرصة تغيير نتيجته على الاكثر عندما كانت امكانية ذلك قائمة . ولنستعرض الان مثالين يصعب ايجاد مثليهما كدليل على ذلك :

لقد قبل الامير (هوهنله) وبامرته (٣٥) الف مقاتل عام ١٨٠٦ في (ينا) معركة ضد قوات نابليون وهي بحدود (٦٠-٧٠) الف مقاتل . فكانت خسارته فادحة إذ دمر معظم قوته فعلاً . قرر الجنرال روشيل عند تلك النقطة فتح القتال مجددا بقوته وهي بحدود (١٢) الف مقاتل وكانت النتيجة ابادة مماثلة لقوته وعلى الفور .

في نفس ذلك اليوم خاض (٢٥) الف مقاتل في (أويرشتاد) قتالاً حتى الظهيرة ضد قوات الجنرال الفرنسي (دافو) البالغة (٣٥) الفاً . ومع ان القوة [البروسية] لم توفق الا انها لم تندحر ولم تتكبد خسائراً اكثر من العدو الذي لم يكن يمتلك اية خيالة. لقد كان لدى الجنرال البروسي كالكيروث[1] احتياطا بقوة (١٨) الف مقاتل الا انه لم يستخدمه لقلب مسار المعركة ، ولو فعل ذلك لاصبح اندحار البروسين مستحيلاً.

تعد كل معركة كل واحد يتألف من اشتباكات ثانوية تضاف الى النتيجة الكلية، التي تتضمن من بين ما تتضمنه نتيحة وحسماً للمعركة. ولن يشترط في النتيجة ان تكون كالنصر الذي وصفناه في الفصل السادس . وغالباً ما لم تجري اية

(١) كونت او كالكيروث الفيلدمارشال فردريش ادولف (١٣٣٧-١٨١٨) جنرال بروسي .

استحضارات لواحد كهذا ،او قد لا تسنح فرصة لذلك لان العدو قد ينسحب بسرعة. ونصل الى الحسم عادة وحتى بعد المقاومة العنيدة أسرع مما في النوع الذي يرتبط فيه النجاح عموماً مع فكرة الانتصار.

لذلك قد نتساءل ما الذي يعين لحظة الحسم هذه او نقطة اللاعودة هذه عادة ، والتي ليس بوسع قطعات جديدة (على ان لا تكون كبيرة جداً طبعاً) انقاذ الموقف لفوات الفرصة ؟

لو استبعدنا الخدع والالاعيب ، التي وبسبب طبيعتها بالذات لا تؤدي الى حسم، فسنصل الى الاجابات التالية :

١ . حيثما كان هدف الاشتباك هو السيطرة على هدف متحرك ، سنصل الى لحظة الحسم عند فقدان هذا الهدف .

٢ . اما اذا كان الهدف إحتلال مكان ما ، فلحظة الحسم ولو انها ليست ثابتة عادة، تكون عند فقد ذلك المكان. ويصح ذلك فقط ان كان لذلك المكان قيمة دفاعية عالية ، أو أرض يسهل اكتساحها، وبغض النظر عن مدى اهميتها لاعتبارات اخرى ، او يمكن استعادتها دون صعوبات بالغة .

٣ . في جميع الحالات التي لا تؤدي فيها الظروف اعلاه الى حسم ، وخصوصاً عندما يكون الهدف الرئيسي هو تدمير القوات المعادية ، فلحظة الحسم تأتي عندما لا يعود المنتصر في حالة تشتت ، يصبح وبسببها غير فعال الى حد ما ؛ وبكلمة اخرى ، عندما لا يكون التطبيق المتوالي للقوة وكما نوقش في الفصل الثاني عشر من الكتاب الثالث مفيداً بعد . لهذا السبب اعتبرنا ان هذه نقطة (قضية) مركزية في التوافق الاستراتيجي للأشتباك .

وهكذا ، تتعذر استعادة اشتباك ما ، اذا فقدت القوات الهاجمة القليل او اي قدر من تماسكها وفاعليتها ، او إن كانت قد تخلصت من حالة شلل وقتية ، في الوقت الذي فقد العدو فيه انتظامه تقريباً .

كلما قلت نسبة القوات المشاركة في قتال حقيقي ، وزادت نسبة القطعات التي اسهمت في النصر بمجرد ظهورها كاحتياط كلما قلت قدرة قوات جديدة معادية على حرماننا النصر . فالقائد والجيش اللذان ينفذان اشتباك ما باقصى إقتصاد بالقوة ، وباكبر تأثير نفسي يحققه التهديد باستخدام إحتياطات بالغة القوة ، هما على أضمن

واسلم طريق الى النصر . ويستحق الفرنسيون في ايامنا هذه كل الثناء على ما أبدوه من قدرات عالية في هذا المجال ، وخصوصاً تحت قيادة نابليون .

بالاضافة لذلك فكلما صغر الحجم الكلي للقوة ، كلما أسرع المنتصر بالسيطرة على الازمة واستعادة فاعليته السابقة . وتستطيع مفرزة خياله تطارد عدواً استعادة انتظامها وسيطرتها بسرعة وخلال عدة دقائق ،هي نطاق وحجم الازمة الكلي . وتحتاج كتيبة خيالة الى وقت أطول من ذلك . ويحتاج المشاة الى وقت اكبر من ذلك بدوره بعد استخدامه في قتال المهارشة . اما الفرقة المؤلفة من جميع الصنوف، والمستخدمة في عدة اتجاهات فستحتاج الى وقت يفوق كل هاتيك الاوقات، فالاشتباك يسبب فوضى ولا انتظام، تزداد حدتيهما لان ما من جزء من أجزاء القوة يعرف وقتها بحال اي جزء آخر . وهكذا فكلما زاد الجهد الكلي المبذول ، كلما زاد تأخر اللحظة التي عندها يصبح المنتصر قادراً على اصلاح ، واستعادة السيطرة ، واعادة ترتيب ادواته المستخدمة من حالة الفوضى المدمرة ، ويستعيد زمام الامور في (ورشة) ساحة القتال.

سيظهر عامل اعاقة اضافي اذا حل الليل والمنتصر مازال في الصفحة الحاسمة (الحرجة) وهناك عامل آخر هو إن كانت الارض وعرة او مشجرة . لكن ومن الناحية الاخرى لنتذكر وبهذا الخصوص بان الليل وسيلة حماية عظيمة . ونادراً ما توفر الظروف الاخرى ، ما يتوفر للهجوم الليلي من أمل كبير بالنجاح . ولدينا مثال رائع لحالة كهذه في معركة (لاون)[1] حين هاجم الفيلدمارشال (يورك) البروسي قوات الماريشال الفرنسي مارمون في مدينة (لاون) يوم ١٠/ اذار /١٨١٤ . ومثل الليل فان الغابات والاراضي الوعرة يمكن ان تحميا الجيش ضد هجوم مقابل في وقت يكون المنتصر فيه في مرحلة حرجة بعد. وكلا العاملان – الليل والاراضي المشجرة والوعرة – سيجعلان لذلك من الاصعب لا الاسهل تجديد القتال .

---

(١) معركة لاون (٩-١٠/٣/١٨١٤) رغم تفوق التحالف انقض نابليون علي قوات بلوخر ودام القتال الشديد يومين في موضع حصين قام بلوخر بعدهما بهجوم مقابل ليلي أبعد فيه القوات الفرنسيه عن الميدان بحالة يرثى لها تكبدت فيه (٦) الاف رجل مقابل (٣) الاف للتحالف . لقد فشل هجوم نابليون الطائش واضطر بعده الى الانسحاب (عن موسوعة التاريخ العسكري الانكليزيه) ص ٧٦٣ . راجع كذل الفصل الخامس من الكتاب الثاني . (المترجم)

لقد عالجنا حتى الان التعزيزات السريعة للجانب الخاسر وكاضافة يسيرة لقوته ، مع الاسناد الاتي من الخلف ، وهو ما يحدث عادة. الا ان موقفا مختلفاً جداً سينشأ لو هاجمت التعزيزات الجديدة (للمدافع) جناح أو مؤخرة العدو .

سنترك معالجة موضوع مهاجمة جناح أو مؤخرة الى ما بعد، ومن وجهة نظر استراتيجية . اما نوع الهجوم الذي نناقشه الان ، فهو المصمم لقلب وتحويل مسار المعركة ، وهو في الاساس قضية تعبوية ، وتنبغي مناقشته عند هذه النقطة لاننا معنيين الان بالنتائج التعبوية ، لذا فالموضوع متداخل في ميدان التعبية .

قد يتضاعف تأثير القوة بشكل اساسي عند توجيه القوة نحو جناح او مؤخرة العدو ، الا ان القضية ليست كذلك دائماً ودون تغيير ؛ فقد ينحسر تأثير القوة بالبساطة التي ارتفع بها . الظروف التي يجري تحتها خوض المعركة هي التي ستحدد نوعية الخطة في هذا كما في كل الجوانب الأخرى، ولا مجال لدينا هنا لمتابعة التفاصيل . ولدينا فيما يخص غايتنا هنا إعتبارين على قدر كبير من الاهمية .

الاول . **مهاجمة الجناح والمؤخرة ، وكقاعدة يؤثران في جعل النتائج التالية افضل كثيراً من تأثيرهما على القرار نفسه** . فلوا اردنا استعادة السيطرة على اشتباك ما ، فمن الواضح أن الاعتبار الرئيسي في ذلك هو أن ينتهي بشكل ملائم لنا أكثر مما تهمنا ضخامة النصر . لذا بوسع المرء بهذا الخصوص التفكير بان التعزيزات التي تجلب لانقاذ الموقف ستكون أقل فاعلية لو زجت لمهاجمة جناح ومؤخرة العدو ، عاملة بشكل منفصل ، عما لو انضمت الينا. ولا تنقصنا الامثلة التي تؤيد وتوضح ذلك بالتأكيد ، الا اننا نركز على ذلك لأن الاعتبار الثاني يؤكد لنا ان الحقيقة عكس ذلك .

الثاني أو **النقطة الثانية هي الاثر النفسي للمباغتة ، التي وكقاعدة ترافق ظهور التعزيزات المرسلة لاستعادة (السيطرة على) الموقف.**

يتزايد تأثير المباغتة باستمرار اذا وقعت على الجناح او المؤخرة ، ففي الصفحة الحرجة من الانتصار يكون الجيش في حالة توتر وارتباك وانتشار ، وعلى أضعف ما يمكن لمجابهة ضربة مباغتة كهذه. اما في البداية وعندما تكون القطعات محتشدة بعد وعلى استعداد دائم لمواجهة احتمال كهذا ، فلن يكون لهجوم على جناح أو مؤخرة وزن كبير ؛ اما في اللحظات الاخيرة من المعركة فسيعني اكثر من ذلك بكثير .

لذلك فلن نتردد عن بيان ان التعزيزات وفي معظم الحالات ستكون بالغة التأثير عندما تركز علي مهاجمة اجنحة ومؤخرات العدو ، بالضبط كما تسبب الذراع الاكثر طولاً فاعلية وقدرة اعظم . ويمكن بهذه الطريقة استعادة السيطرة على المعركة بقوة قد لا تكون كافية ولا مناسبة لو استخدمت في عمل جبهوي اما في العمليات التي تشن ضد الجناح او المؤخرة وحيث تتجاوز شدتها وفاعليتها كل الحسابات الدقيقة ، فسيعد التأثير المعنوي هو الاقوى ، كما تنال الجرأة والاقدام اقصى مجاليهما .

لا بد من التفكير بكل هذه العوامل في المواقف الجدية، وان يقوم التأثير الكلي لها ، إن رغبنا بالقرار على امكانية القيام باي شيئ بعد لاستعادة السيطرة على معركة لم يعد سيرها كما نريد او في مصحلتنا .

ان لم نحكم بانتهاء الاشتباك الجاري ، فيمكن للاشتباك الجديد الذي ابتدأ مع وصول التعزيزات ، أن يندمج مع الاشتباك الاولي وان يقودان الموقف الى نتائج موحدة . وستمحى الخسائر الاولية كليا. وسيختلف الموقف إن أمكن حسم الاشتباك الاصلي قبل ذلك ؛ وسيكون هناك في حالة كهذه نتيجتان متميزتان. وعندما تكون التعزيزات متواضعة الحجم – بكلمة اخرى اقل مما وصل الي العدو منها– فالامل في جولة ثانية ليس قويا ولا مشجعاً . أما إن كانت التعزيزات قوية بما يكفي لخوض اشتباك ثان بغض النظر عن الاول ، فستكون النتائج ملائمة ، ويمكن ان تعوض او تتجاوز الاندحار الاولي ، مع انها لن تكون قادرة على الغاء او ازالة تأثيره كلياً .

لقد اكتسح فردريك الكبير في معركة كونرز دورف[1] جناح الروس الايسر في الهجوم الاول واستولى على (٧٠) مدفعاً لكن وعند انتهاء المعركة، خسر كلما كسبه ثانية، كما ضاعت النتائج الكلية للهجوم الاول واختفت بعد الهجوم الثاني .

---

(١) معركة كونرز دورف (١٧٥٩/٨/١٢) . كانت القوات النمساوية والروسية وهي بحدود(٩٠) الف رجل في مواضع محصنة في التلول الرملية قرب فرانكفورت. عبر فردريك الكبير وقواته (٥٠) الفا نهر (اودر) وحاول القيام باحاطة مزدوجة الا ان ارتاله ظلت طريقها وسط الغابات فجاء هجومها مجزء مما سهل صدها كلها ، الا ان فردريك اصر على مواصلة هجومه الطائش هذا فخسر (٢٠) الف رجل (و١٧٨) مدفعاً و (٢٨) راية وهي أكبر خسارة تعرض لها ، الا ان اعداءه الكسالى وبعد خسارتهم (١٥ر٧) الف رجل لم يستثمروا هذا النجاح واثروا السلامة (الموسوعة العسكرية بالانكليزية) ص ٦٧٣ – المترجم .

فلوا استطاع فردريك الكبير التوقف عند حدود نجاحه الاول ، وأخر الجولة الثانية حتى اليوم الثاني ، لكان قد احتفظ بمكاسب اليوم الاول كتعويض له ، حتى لو خسر الجزء الثاني من المعركة .

لو امكن تثبيت معركة خاسرة قبل مرحلة الحسم النهائية ، وتحويلها الى نجاح ، فالخسارة الاولية سوف لن تختفي من السجل وحسب بل ستكون الاساس لانتصار اعظم . فلو تفحصنا المسار التعبوي لمعركة ما بدقة وعن قرب فسيتضح لنا، انها وحتى نهايتها الفعلية ، كانت نتائج كل واحد من الاشتباكات الثانوية عبارة عن حكم معلق ، قد لا تلغيه النتيجة النهائية فقط ، بل قد تحوله الى العكس تماما. فكلما زادت مصاعب وويلات قواتنا ، كلما زاد استنزاف طاقات العدو كذلك .فقد تكون أزمة العدو اكثر بكثير مما نعانيه ، الامر الذي سيزيد من اهمية ووزن تفوق قوتنا الجديدة (احتياط او تعزيزات) . فاذا ما تحولت النتيجة النهائية لصالحنا ، واذا ما نجحنا باستعادة السيطرة على ساحة المعركة ، وعلى الغنائم الاولية من العدو ، فكلما سيتكبده العدو من قواه من جراء ذلك ، سيتحول لصالحنا ، وسيكون إندحارنا الاولي المنطلق لانتصار باهر. ان اكثر انواع الاستثمار العسكري براعة ، والذي يعني ساعة النصر الكثير جداً للعدو حتى أنه يتجاهل ما يدفعه من ثمن، أما الان فليس له سوى الندم على القوة التي ضحى بها. يمكن لسحر النصر ولعنة الهزيمة ان يغيرا كثيراً الثقل الخاص لعناصر المعركة .

حتى في المواقف التي يكون فيها احد الطرفين اقوى بكثير جداً من عدوه ، وكان بوسعه الثأر او مقابلة اي نصر معاد بنصر أعظم ، فمن الافضل له وابتداء فرض سيطرته وتحويل مسار معركة خاسرة (شرط ان تكون معركة مهمة الى حد كبير) وقبل ان يسدل الستار عليها ، بدلاً من خوض معركة اخرى فيما بعد .

لقد حاول الفيلد مارشال داون في معركة « لا يجنتز » عام ١٧٦٠ الذهاب لمساعدة الجنرال (لادون) عندما كان هذا منهمكاً في القتال بعد، لكن وبعد خسارة المعركة لم يحاول الماريشال داون مهاجمة فردريك الكبير، مع ان ذلك كان ضمن امكاناته .

تسبق الاشتباكات القاسية لقوات المقدمة والطليعة المعركة ، لذا ينبغي اعتبارها كشر لا بد منه ، وتجنب التورط فيها كلما كان ذلك الاشتباك ليس ضرورياً .

وما زال امامنا استنتاج اخر لنتفحصه .

لا يجب اتخاذ نتيجة معركة خاسرة كذريعة للقرار على معركة جديدة ، بل ان قراراً كهذا يجب ان يستند على باقي الظروف . الا ان هذه القاعدة تجابه بالعامل النفسي الذي لا بد من مراعاته ؛ وهو الميل والاندفاع الغريزيان للثأر والانتقام. وهذا الميل عام وشائع حتى يمتد من القائد العام الى ضاربي الطبول الشباب ، ولا تعلوا معنويات القطعات كما تعلو في موقف كهذا حين يطلب منها تنفيذ مهمات ثأرية وانتقامية حتى انها لا تأبه لما تدفعه لاجل ذلك . وكل ذلك الذي بيناه يعتمد على افتراض مسبق بان الانحدار لم يشمل القسم الاعظم من القطعات، والا فان مشاعر اليأس والقنوط ستطغى على أية رغبات انتقامية .

هناك اذن ميل طبيعي لاستثمار العامل النفسي لاستعادة ما فقدناه بالبحث والعمل على ايجاد اشتباك جديد ، خاصة اذا ساعدت العوامل الاخرى على ذلك . تفرض طبيعة وظروف الاشتباك الثاني هذا ان يكون وفي معظم الحالات هجوماً.

يقدم لنا تاريخ المعارك القصيرة سيلاً من الامثلة على هذا النوع من المعارك الرابحة والخاسرة ، اما المعارك الكبرى فلها ومن الناحية الاخرى العديد من الاسباب الاخرى حتى انها لا تحتاج لمثل هذه الدوافع التافهة لنشوبها .

مع ذلك فما من شك في ان روح الانتقام هي التي دفعت النبيل الجنرال بلوخر في ١٨١٤/٢/١٤ للعودة الى الميدان بقوة ثالثة بعد اندحار فيلقين من قواته في معركة «مونتي ميريال[1]» قبل ثلاثة ايام. ولو عرف بان عمله هذا سيضعه امام نابليون وجهاً لوجه لوجد بنفسه المبررات التي تدفعه لتأجيل انتقامه الى يوم آخر بالتأكيد؛ الا انه توقع ان يثأر لنفسه من الجنرال « مارمونت »[2]. لكن وبدلاً من جني ثمار رغباته النبيلة في الثأر ، كان عليه تسديد حساباته الخاطئة .

تعتمد المسافة ما بين القطعات التي عليها **تنسيق اعمالها** فيما بينها ، على مدة الاشتباك واللحظة التي يحسم فيها . فان كانت النية متجهة الى خوض معركة منفردة

---

(١) راجع الهامش في نهاية الفصل الثامن الكتاب الثالث ص (٢٧٦) أعلاه .المترجم .

(٢) . دوق راكوسا ، الفيلدمارشال الفرنسي او كست مارمونت (١٧٧٤-١٨٥٢)

فان انفتاح تلك القطعات من امور التعبية ؛ الا ان علينا قبل البت في ذلك، النظر فيما اذا كانت متقاربة بشكل يتعذر معه خوض معركتين منفصلتين وبكلمة اخرى – ما اذا كانت المنطقة التي سيجرى فيها القتال مما يمكن اعتبارها من الناحية الاستراتيجة منطقة واحدة. مع ذلك فغالباً ما يحدث في الحرب ان قطعات كان المفروض ان تقاتل معاً بتوافق وانسجام الا انها تضطر الى خوض عمليات في اماكن متباعدة ، مع بقاء التصميم الاساسي في ان تقاتل معاً . ولا بد من التفكير المسبق في احتمال ان يفرض الموقف خوض مثل هذه القتالات المنفصلة . ان انفتاحاً كهذا يعد استراتيجيا.

يتضمن توزيع كهذا للقطعات مسيرات تنفذها ارتال منفصلة ، وفرق ، ومقدمات ، ومجنبات . اما الاحتياطات فيراعى ان تكون بوضع يسمح لها باسناد اكثر من نقطة استراتيجية ، وكذلك لا بد من ملاحظة عملية تحشيد الفيالق الموزعة على مناطق إيواء ومعسكرات متباعدة وغير ذلك من الاعمال والاستحضارات.

من الواضح ان هذا النوع من العمليات الكثير الحدوث – يشبه العملات المعدنية الصغيرة (change) إن جاز لنا قول ذلك – في الميزانية الاستراتيجية ، اما المعارك المهمة والعمليات المماثلة لها في النطاق والتأثير فهي تمثل الذهب والفضة .

الفصل الثامن

الموافقة المشتركة على القتال

لا يمكن ان يحدث اشتباك ما دون رغبة الطرفين . وهذا المفهوم الاساسي والمألوف في المبارزة تسبب في استخدام المؤرخين العسكريين لمصطلحات وتعابير ادت في الغالب الى افكار غامضة ومظللة .

كثيراً ما تدور كتابات ومناقشات اؤلئك المؤرخين لتعود الى النقطة التي مفادها إن احد القادة قد أوجد فرصة لمعركة ما ،الا ان الخصم رفض ذلك.

الا ان الاشتباك في حقيقة الامر شكل غريب وغير مألوف للمبارزة . ولا تتعلق أسسه في الرغبة أو التصمم المشتركين على القتال ، بل في الهدف المعني ، والذي يشكل وفي الوقت نفسه جزءاً من كل اكبر – ويصح ذلك بقوة اذا تذكرنا بان الحرب نفسها تعد صراعاً منفرداً، ومحكوماً بغايات وظروف سياسية تعود هي الاخرى بدورها الي كل اكبر بكثير . والنتيجة هي ان الرغبة المشتركة بالنصر تلعب دوراً محدوداً ، بل في الواقع انها لا تظل مستقلة ، لذا لا بد أن تعامل وكأنها لا اكثر من عصب محرك للارادة السياسية العليا للعمل .

في العصور القديمة ، وفي عصور أحدث كذلك وحين كانت الجيوش تؤلف وتنظم لأول مرة ، كان لتعبير « عرض المعركة على العدو بزهو وخيلاء » معنى اكبر بكثير مماله الان . فقد كانت المعركة في الماضي تجربة للقوة على ارض منبسطة وخالية من الموانع . وكان مجمل فن الحرب يتلخص في التنظيم والتشكيل – أي وبكلمة اخرى في نظام المعركة « Order of Battle » .

كانت الجيوش أنذاك تتحصن جيداً في معسكراتها ، باعتبار ، أن تلك المواقع لا يمكن اختراقها . ولم تكن تنشب المعارك الا بعد أن تترك الجيوش المعادية معسكراتها ، وتدخل الميدان أن جاز لنا قول ذلك ، في الارض المنبسطة .

وهكذا ، فعندما نقرأ بان هانيبعل عرض وبتفاخر ، الدخول في معركة مع (فابيوس) ، وكلما يقال لنا عن فابيوس هذا هو أن المعركة لم تكن في حسبانه ولا في خططه . الا ان هذا لا يثبت تفوقاً مادياِ أو معنويا لهانيبعلِ. رغم صحة الانطباع بقدر تعلق الامر بهذا الاخير: لقد اراد هانيبعل خوض القتال حقاً.

في الايام الاولى للجيوش الحديثة كانت ظروف مشابهة تتحكم في الاشتباكات والمعارك الكبرى . لذا كانت حشود كبرى من القطعات تستخدم في العمليات وتوجه وتدار وفقاً لنظام معركة محدد . وكانت هذه تشكل إستحضارات كبيرة جداً وصعبة التنفيذ وتتطلب أرضاً واسعة ومنبسطة؛ اما في الاراضي الوعرة او الغابات ، ناهيك عن المناطق الجبلية فلن تعود تلك المنظومة مجدية ولا مناسبة سواء للهجوم أو حتى للدفاع . لذا كان بوسع الجانب المدافع العثور على الطرق والوسائل التي تمكنه والى حد ما من تجنب المعركة . لقد استمرت هذه الظروف على ثباتها وان على نطاق أضيق ، حتى الحرب السيليزية الاولى (١٧٤٠ – ٢) . وفي حرب السنوات السبع فقط (١٧٥٦ – ٦٣) اصبح الهجوم في **المناطق الوعرة** أمراً ممكناً بل ومعتاداً. ومع ان الارض كانت ومازالت احد مصادر القوة المتاحة امام الراغبين بالاستفادة منها ؛ ولم تعد هالة سحرية مغلقة وفوق مستوى العوامل والقوى الطبيعية للحرب.

لقد تطورت الحرب خلال العقود الثلاث الأخيرة بدرجة كبيرة بهذا الاتجاه . وليس هناك اليوم ما يمنع القائد الذي صمم معركة حاسمة ، من البحث عن ، ومهاجمة خصمه . فاذا امتنع هذا عن قبولها فليس بوسع أحد القول بانه اراد القتال ؛ اما اليوم ، فلو عرض القائد المعركة الا ان العدو رفضها ، فذلك يعني فقط انه رأى أن الظروف ليست ملائمة لقبول المعركة . وهذا إقرار من قبله بعدم صلاحية وملائمة المفهوم الذي ذكرناه آنفاً « أي عرض المعركة » ، وانه استخدمه كمجرد عذر .

صحيح ان من الصعب على المدافع اليوم رفض او تجنب المعركة ، الا ان بوسعه التملص باخلاء موضعه ، وبالتالي التخلي عن هدفه بالتمسك به. الا ان هذا النجاح يشكل الجزء الافضل من الانتصار للمهاجم – اي الاعتراف بتفوقه المؤقت.

لذلك ما من مجال بعد للتحدث عن « التحدي المرفوض» (الذي يتضمن موافقة مفهومة ضمنا بين الخصمين) من اجل تبرير قصور الجانب الذي كانت الحركة تخصه – اي المهجم . اما المدافع ، فهو ومن الناحية الاخرى ، وما دام لم يتراجع عن موضعه فيجب اعتباره راغباً في المعركة . ويستطيع بدوره الادعاء بانه قد عرض المعركة علي خصمه حتى لو لم يهاجَم ، لأن واقع الحال سيؤكد ادعاءه .

اما القائد الذي يرغب **بالتراجع** وبوسعه فعل ذلك فمن الصعب على خصمه

ان يجبره على دخول المعركة . مع ذلك فغالبا ما لا يكتفي المهاجم بالفائدة المتأتية من تراجع خصمه ، ويتلهف للفوز بانتصار حقيقي . وتستخدم الوسائل القليلة المتيسرة لاجبار حتى **العدو المتملص** على الثبات والقتال .

هناك طريقتان رئيسيتان لتحقيق ذلك:

الاولى ؛ **بتطويق العدو وقطع انسحابه**، او جعل الانسحاب بالغ الصعوبة كي تبدو المعركة كأهون الشرين ، والثانية ؛ **بمباغتة العدو** . لقد اعتمدت فائدة هذه الطريقة (الثانية) في الماضي على صعوبة إجراء أية تنقلات ، الا ان المباغتة فقدت فائدتها في ايامنا . فالجيوش الحديثة اكثر مرونة واكثر قدرة على الحركة ، بحيث لم يعد القائد يخشى التراجع تحت رصد العدو الكامل . وستبرز الصعوبات الحقيقية فقط بوجه القطعات التي تتراجع في اراضي صعبة بشكل استثنائي .

وكمثال على هذه الحالة هناك معركة (نير شايم)[1] في ١١/اب/١٧٩٦ حين قاتل الارشيدوق النمساوي شارل (١٧٧١–١٨٤٧) الجنرال الفرنسي مورو (١٧٦٣–١٨١٣) في (روش آلب) لا لسبب اخر سوى لتسهيل تراجعه هو . ولا بد لنا من الاعتراف باننا لن نفهم بشكل تام الاسباب التي دفعت الجنرال والكاتب الشهير الى ذلك !

الا أن معركة (روزباخ)[2] تقدم لنا مثلاً اخر ، اذ لم يكن قائد جيوش التحالف ينوي فعلاً مهاجمة فردريك الكبير .

اما معركة سور (Soor)[3] فقد اعترف فردريك الكبير بنفسه بانه قبل المعركة فقط لان تراجعه تحت رصد العدو الكامل بدى عملية محفوفة بالمخاطر ، الا انه اضاف اسباب اخرى لقبوله المعركة .

---

(١) لم نجد فيما لدينا من مصادر غير ما ورد هنا عن معركة نيرشايم التي جرت في شمال ايطاليا ايام حصار مانتوا خالا حملة نابليون ضد النمسا، ولا المقصود كذلك بالجنرال والكاتب الشهير – المترجم

(٢) معركة روزباخ – راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث. (ص ٢٧٢)

(٣) معركة (سور) أو (سوهر) . راجع الهامش في الفصل الرابع الكتاب الرابع . (ص٣٣٠)

وفيما عدى الهجوم الليلي . فان حالات كهذه ستكون نادرة عموماً ، اما الحالات التي يجد العدو نفسه مجبراً على القتال بعد تطويقه فلن تشمل الا قوات منعزلة كما حدث لقوة الجنرال فردريك فنك في معركة (ماكسين)[1].

---

(1) معركة (ماكسين) في ١٧٥٩/١١/٢١ (حرب السنوات السبع) فقد ارسل فردريك الكبير قوة بحدود (١٢) الف مقاتل بقيادة الجنرال فردريك فنك لتطويق جيش الجنرال داون (النمساوي) الذي كان قد حشد (٤٢) الف مقاتل للتفوق على البروسين وقد استسلم الناجون وقضى الطرفان شتاء هادئاً نسبياً وكانت هذه السنة اسوأ اعوام فردريك الكبير (المترجم)عن موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية)ص ٦٦٩، ص ٦٣٧، ص ٦٧٣.

الفصل التاسع

المعركة: قرار المعركة

ما هي المعركة ؟ انها صراع بين قوى رئيسية – الا انها ليست قتالاً عادياً من اجل اهداف ثانوية ، وليست ببساطة مجرد محاولة بوسع اي كان التملص منها أو تركها اذا ادرك بوقت مبكر أن هدفه صعب التحقيق؛ انها صراع من اجل انتصار حقيقي، وتشن بكل القوى المتيسرة .

قد تندمج الاهداف الثانوية مع الهدف الرئيسي حتى اثناء المعركة ، وكثيرا ما تتسم المعركة بالظروف التي كانت وراء نشوبها . وترتبط المعركة مع كيان او وحدة اكبر منها ، وتشكل المعركة احد اجزاءه . لكن ونظراً لان القتال هو جوهر (روح الحرب) ، ونظراً لان المعركة هي القتال بين قوى رئيسية ، فيجب اعتبار المعركة ودائماً، مركز الثقل الفعلي للحرب . وخلاصة كل ذلك ان السمة المميزة للمعركة هي انها ، واكثر من اي انواع العمل الاخرى توجد لذاتها هي نفسها فقط .

ولذلك تأثير **على طريقة صنع قرار المعركة ، وعلى معطيات النصر الذي يتحقق، وعلى تحديد القيمة التي تعزى في النظرية للمعركة كوسيلة الى الهدف** . لذلك جعلنا المعركة وعند هذه النقطة موضوعاً لدراسة خاصة . وسنناقش فيما بعد الاهداف الخاصة التي قد تدخل في البحث ، ويقتصر ذلك على تلك التي تحتفظ بطابعها وسمتها – على افتراض استحقاقها اسم « معركة» – دونما تغيير .

ان كانت المعركة المعنية هدفاً بذاتها من الاساس ، فلابد ان تحتوي بداخلها عناصر ومكونات قرارها . وبكلمة اخرى ، فلابد من بذل كل الجهود ومتابعة تحقيق النصر ما دام في حدود الامكان ، ولا يجوز التخلي عن المعركة بسبب اي من الظروف الخاصة والطارئة ، الا بعد التأكد من ان القوة المتيسرة لم تعد كافية تماماً .

فكيف يمكن تحديد تلك المرحلة باكبر دقة ممكنة؟

حيثما تغدو درجة من تعقيد انتشار (انفتاح) وتكامل الجيش هي الشرط الرئيسي الذي يمكن معه لشجاعة القطعات تحقيق النصر (وكما كان الامر في الكثير من الحالات في الحروب الحديثة) عندها سيكون **تحطيم خط المعركة**[1] Line of Battle هو بذاته الحسم. كما ان اكتساح احد الاجنحة وازاحته من اماكنه سيقرر مصير الجناح الذي كان ثابتاً بقوة. فان كان جوهر الدفاع وكما في المراحل الاولى يكمن في الدمج الوثيق بين القطعات والارض وموانعها، حتى ليغدو الجيش والموضع شيئاً واحداً ، عندها كان احتلال **جزءٍ حيوي** من الموضع قد يحسم المعركة. عندها نقول ان مفتاح الموضع قد ضاع ، وليس من السهل مواصلة الدفاع، ولامواصلة المعركة وفي كلتا الحالتين تبدو الجيوش المندحرة وكانها اوتار ممزقة لالة اصبحت عاجزة عن اداء وظيفتها .

تساعد العوامل الهندسية والطبوغرافية على ابقاء الجيوش المتحاربة في حالة توتر شديدة تمنعها من استخدام قوتها حتى اخر رجل . وقد فقدت هذه العوامل الكثير من تأثيرها في ايامنا هذه ولم تعد شديدة التحكم . فالتشكيلات تدخل المعركة بنظام وترتيب اكيدين الا ان هذا الترتيب لم يعد حاسماً . والدفاع في تطور وتحسن مستمرين بالاستفادة من اية مزايا متوفرة للأرض ، الا انه لم يعد يعتمد عليها وحدها.

حاولنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب اعطاء فكرة عامة عن سمة المعركة الحديثة . ويصور ذلك الوصف نظام المعركة ببساطة كترتيب للقطعات صمم لتسهيل استخدامها ، كما يصف سير المعركة كعملية استنزاف متبادل ، بطيئة ، ستكشف عن الطرف الذي سينهك عدوه أولاً.

يعتمد القرار في المعارك الرئيسية ، واكثر مما في اي انواع اخرى من الاشتباكات، بالتخلي عن القتال، على القوة النسبية للأحتياط الذي ما زال متيسراً ولم يستخدم بعد . فهي القطعات التي ما زالت روحها المعنوية سليمة ، والافواج التي

---

(١) لم اجد في ما عندي من مصادر ما يوضح المقصود بخط المعركة مع وفرة التفاسير فقد يعني جبهتها او مسارها العام او حدودها او طبيعتها (المترجم) .

عانت ما عانت من اعباء وويلات المعركة – حتى غدت كالنار الخامدة في اتون التدمير – أعجز من أن تصمد بوجهها ، والارض التي فقدت ، وكما اوضحنا، مؤشر جيد على انهيار المعنويات . كما يجب ان تؤخد في حسابنا ايضاً، ولو على انها مؤشر على مدى وحجم الخسائر اكثر مما على الخسارة نفسها . وسيكون الشاغل الاكبر لكلا القائدين ودائما عدد الاحتياط المتيسر للجانبين .

تأخذ المعركة شكلها العام عادة منذ ابتدائها ، ولو ليس باية طريقة واضحة. غالباً ما يتحدد هذا الشكل والى حد كبير بالانفتاح التمهيدي وترتيب القطعات للمعركة، وبعدها تظهر لنا نقصاً في القدرة الفكرية والحدس للقائد الذي يفتح الاشتباك في ظروف ليست ملائمة له ودون ادراك لها. وحتى لو لم يصمم سير المعركة مسبقاً فمن طبيعة الاشياء ان تتشكل من خلال تحول بطيئ في الميزان ، يبدأ مبكر الا انه وكما قلنا مما يصعب رصده. ومع مضي الوقت يبدأ بالتصاعد بقوة الزخم ويصبح اكثر وضوحاً. أنه والى حد ما كالتذبذب جيئة وذهابا ، كالحسابات الوهمية عن القتال والتي اوقعت الكثير من الناس في متاهات .

اما إن استمر الاستقرار دونما تغيير لبعض الوقت ، أو اذا انحرف الى احد الجانبين ، مصححاً نفسه ، ومن ثم يميل نحو الجانب الاخر ، فمن المؤكد أن القائد سيعرف عندها انه يفقد المعركة قبل ان يصدر أمر الانسحاب بوقت طويل. اما المعارك التي يؤثر احد العوامل غير المتوقعه وبشكل فعال في مسارها الكلي ، فلا توجد – مثل هذه المعارك – سوى في القصص التي يرويها اناس يريدون أن يفسروا لنا اسباب اندحارهم .

ليس امامنا في هذا الموضوع سوى اللجوء الى القادة ذوي الخبرة وغير المتحيزين ، ونحن على ثقة من تأكيدهم لما قدمناه من حجج امام قراءنا الذين ليست لديهم تجارب حربية شخصية وستأخذنا التحليلات الدقيقة للعملية بعيداً داخل مجالات التعبية ، حيث مجالها الحقيقي . والمهم عند هذه النقطة بالذات هو النتائج فقط .

بينما نعتقد بان القائد المندحر كان يدرك عادة امكانية اندحاره بوقت طويل قبل قراره بنفض يديه من المعركة ، نقر كذلك بوجود حالات تختلف عن ذلك ؛ والا اوقعنا انفسنا في تناقض ذاتي . فان كنا وعند كل تحول واضح في مسارها (لصالح العدو) سنعتبرها معركة ضائعة خسرناها ، فلن نزج قطعات جديدة على أمل انقاذها

قبل فوات الاوان . يلي ذلك ان تحولاً محدداً كهذا لا يمكن ان يسبق لحظة الانسحاب بوقت معقول مهما كان. هناك بالتأكيد حالات ، كانت المعركة قد تحولت لصالح احد الطرفين ، الا انها انتهت لصالح الطرف الاخر ، **الا ان حالات كهذه ليست شائعة كثيرا**، بل انها في الحقيقة ليست عادية . الا ان هذه الحالات الاستثنائية هي بالضبط ما يأمل كل قائد يخونه الحظ بها ؛ وعليه التمسك والجري وراء ذلك طالما ظلت هناك فرصة لتحول ما لصالحه . كما يتأمل ذلك بفضل قوة الجهود الكبيرة ، باستثارة ورفع كلما تبقى من معنويات في القطعات ، وبالتفوق على نفسه ، أو حسن الحظ ، وهو بوسعه أن يغير مصيره مرة أخرى، وسيتمسك بذلك بالقدر الذي تسمح به شجاعته وبصيرته . لدينا الكثير مما سنقوله عن ذلك فيما بعد ، لكنا نرغب هنا أولا التطرق الى العلامات التي تؤشر التحول في التوازن .

تصنع نتيجة المعركة ككل من نتائج الاشتباكات التي تشكل المعركة ، ويمكن تمييز هذه النتائج (الصغيرة) بثلاثة علامات متميزة :

الاولى . وهي التأثير النفسي لقوة وقدرة ومعنويات القائد . فلو تابع قائد الفرقة أفواجه وهي تتهاوى في جحيم المعركة فسيلاحظ ذلك في سلوكه وتقاريره ، التي ستؤثر بدورها على قرارت القائد الاعلى . بل وحتى الضربات والاندحارات الصغيرة التي تتم معالجتها والتخلص من اثارها ستظهر بشكل أو آخر في النتيجة النهائية. فالانطباعات الدائرة في فكر القائد الاعلى ستتراكم بسهولة وحتى ضد أفضل احكامه.

الثانية . ذوبان القطعات بسرعة وبمعدلات اكبر مما يحدث في جانب العدو . وقد تقدر مثل هذه الخسائر بدقة نظراً لان درجة وتسارع معاركنا مدروس ونادراً ما يكون عنيفاً وصاخباً .

اما الثالثة . فهي مقدار ما نخسره من ارض .

تعمل هذه المؤشرات الثلاث كبوصلة تمكن القائد من معرفة وتحديد اتجاهات معركته . فخسارة بطاريات بكاملها ، دون ان يقابلها بسيطرة على اي من بطريات العدو ، وسحق الخيالة المعادية لافواجه مع بقاء الافواج المعادية دون اذى ؛ والتراجع القسري لخط النيران من نقطة الى نقطة ؛ وجهود غير مثمرة ولا طائل ورائها لاحتلال مواضع (حاكمة) معينة تنتهي بتبعثر قوات الصولة تحت وابل القنابل والاطلاقات الدقيقة التصويب، مقابل اسناد ناري ضعيف ومشتت لاسلحته ومدافعه ، وتناقص

سريع في موجود القوة القتالية للأفواج الامامية بفعل مصاحبة الجنود الاصحاء للجرحى العائدين الى الخلف ، ووحدات تعزل وتقع في الاسر بسبب فقدان الاتجاه وفوضى خط المعركة ؛ وتعرض خط الانسحاب لمخاطر واضحة ومؤكدة : كل هذه الظواهر ستؤشر للقائد الى اين يتجه ومعركته . وكلما طال سيرهما في ذلك الاتجاه ، كلما زاد اقتراب الحركة المحتومة، وكلما زادت مصاعب إحداث أو فرض التغيير (المرغوب) ، كلما زاد اقتراب لحظة الحقيقة او وقت التخلي عن المعركة . وهذه هي اللحظة التي ينبغي علينا التمعن فيها الان .

لقد أوضحنا بجلاء وبأكثر من مرة بأن النتيجة النهائية ، وكقاعدة ، تتأثر بنسبة الاحتياط الجديد والجاهز والذي لم يسبق استخدامه . والقائد الذي سيتأكد من تفوق خصمه بشكل ملحوظ في حجم الاحتياطات سيقرر على التراجع . ومن غرائب المعارك الحديثة، القدرة على استعادة وتجاوز كلما يتكبده الطرفان من خسائر ، وإحداث عارضة وسوء حظ ابان سير المعركة باستخدام أو الزج بقطعات جديدة نشطة . ويكمن السبب في نظام المعركة الجديد ، والطريقة التي تزج بها القطعات للعمل واللتان تسمحان باستخدام الاحتياطات في اي مكان وفي اي موقف تقريباً . لذلك وطالما إمتلك القائد من الاحتياطات اكثر مما لدى خصمه ، فلن يتخلى عن المعركة حتى لو اظهرت له هذه العديد من المؤشرات على سوء الحال . لكن وحالما تقترب احتياطاته لان تغدو اضعف من احتياطات الخصم ، فالنهاية نتيجة محتومة . وتعتمد تحركاته الباقية في جزء منها على الظروف ، وعلى شجاعة القائد الشخصية وقوة احتماله في الجزء الاخر ، وقد تكون مزايا القائد بدورها هي الاخرى قد تدهورت وتحولت الى تصرفات خرقاء وعناد يصعب اصلاحهما . اما كيف يصل القائد الى تقدير صحيح لحجم ما تبقى من احتياط لدى كل جانب فأمر يعتمد على المهارة والتجارب ، ولسنا بصدد تفصيل ذلك هنا ، فما يهمنا هي النتيجة والطريقة التي يتوصل إليها بقدرته العقلية . وحتى هذه فليست بالذات هي لحظة القرار الحاسم ؛ والجواب الذي يتكون ويتجمع تدريجياً ليس هو المحفز المناسب لذلك ؛ ولن يفعل اكثر من فرض تأثير عام على القرار النهائي الذي سينبثق بالمقابل بسبب إعتبار أو ضغطٍ (او حتى حدث) آني ومباشر . ومن بين هذه الاعتبارات هناك اثنان يتكرران باستمرار هما ؛ تهديد لخط الانسحاب اولاً ، واقتراب الليل ثانياً .

إن شمل او تضمن اي تحول في المعركة تهديداً متصاعدا لخط الأنسحاب،

واذا تناقصت قوة الاحتياط بشكل لا يمكنها معه صد أو إزاحة أي ضغط (معادٍ) فليس امامنا من سبيل اخر سوى الاستسلام للقدر ، وكي نعمل على انقاذ كلما يمكن انقاذه ، ونعني بذلك من خلال انسحاب منظم ، والا سيضيع كلما كان بوسعنا انقاذه لو تأخرنا وتبعثرت القطعات عند الاندحار والهزيمة .

الليل قضية اخرى ، ذلك انه عادة يضع حدا ويوقف كل الاشتباكات ، الا في ظروف خاصة لابد من توفرها قبل تنفيذ العمليات الليلية . ونظراً لما في الليل من فوائد للأنسحاب ، على عكس الانسحاب نهاراً ، فالقائد الذي سيرى ان لابد من الانسحاب ، أو إنه احتمال جدي فسيفضل الاستفادة من الليل لهذا الغرض .

لا حاجة بنا لتكرار القول انه وما عدى المبادئ والعوامل الاكثر شيوعاً ، فقد تكون هناك مبادئ وعوامل أُخرى أقل اهمية ، أو ليست مما يتكرر حدوثه ، والتي قليلاً ما ترد على الذهن أو يسهل التنبؤ بها . وكلما كبر التهديد بفقدان السيطرة (التوازن) على المعركة ، كلما أضحت اشد تأثراً واستجابة لأي شيء يحدث لأيٍ من اجزائها الاساسية. ففقدان أو خسارة بطرية واحدة ، أو اكتساحها بصولة خيالة قد يعجل من قناعة القائد بوضع قرار الانسحاب الذي كان يدور في ذهنه وقتها موضع التنفيذ .

كلمة اخيرة ، لابد لنا من التطرق اليها بخصوص هذا الموضوع وهي النقطة التي تصطدم فيها شجاعة القائد من جهة وحكمته وحسن تصريفه للأمور ، ان جاز لنا قول ذلك ، مع بعضها البعض .

فهناك من ناحية فخر طاغ للقاهر المنتصر ، والتصميم العنيد الذي يتوافق مع الصلابة الفطرية المتأصلة ، والمقاومة المأساوية للأخلاص النبيل (وشرف المهنة) والتي تصر كلها على رفض التخلي عن ميدان المعركة حيث امتحان الشرف والاباء . لكن هناك ومن الناحية الاخرى صوت العقل والمنطق الذي يرفض التضحية بكلما تحت اليد، ويرفض المقامرة باخر ما بقى من الموارد والطاقات ، والداعي الى الاحتفاظ بكلما هو ضروري لانسحاب منظم . وبغض النظر عن سمو مزايا الشجاعة والصمود في الحرب ، وبغض النظر عن قلة وصغر الفرصة المتاحة لانتصار قائد يتردد أو يخشى الاندفاع بكلما تحت تصرفه من قوى ، فرغم كل ذلك هناك نقطة يصبح كل اصرار ومقاومة بعدها لا أكثر من حماقه يائسة وبائسة . فلا عذر لذلك ولا غفران . وفي أشهر المعارك قاطبة ، اي واترلو (Belle - Alliance) القى نابليون بكلما لديه من قوة في جهد اخير لانقاذ معركة كانت قد تجاوزت خط أو نقطة الرجوع ؛ لقد أنفق أخر فلس بيده ، وانسحب كالشحاذ من ميدان المعركة ومن الامبراطورية .

الفصل العاشر

المعركة – تتمة

اثار الانتصار

قد يندهش المرء ويتحير، واعتماداً على وجهة نظره ، امام النتائج العديدة والباهرة لبعض الانتصارات في مقابل القلة في عدد آخر منها . ولنتمعن قليلاً في طبيعة الاثر الذي قد يصاحب احدى الانتصارات الكبرى .

يمكن وبسهولة تمييز ثلاثة أشياء هنا هي :

١ . الاثر الذي يتركه على الوسائل نفسها – القادة والجيوش .

٢ . على الدولتين المتحاربتين .

٣ . التأثير الفعلي لكل ذلك على مسار الحرب مستقبلاً .

لو تمعن المرء فقط في الاختلاف الضئيل القائم في ساحة المعركة ما بين الرابح والخاسر من حيث عدد القتلى والجرحى والاسرى والاسلحة المستولى عليها ، سيصعب تصور النتائج المترتبة على اشياء وظواهر غالباً ما تبدو غير مهمة كهذه. مع أن مسار وتسلسل الاحداث ، وكقاعدة أمر طبيعي للغاية .

كما ذكرنا في الفصل السابع فان مقياس النصر لا يتصاعد ببساطة وبمعدل يتناسب والزيادة في حجم الجيوش المندحرة ، بل يتجاوزها بكثير. والتأثير النفسي لمعركة كبرى على الطرف الخاسر أكبر بكثير مما على المنتصر . وهذا التأثير النفسي يتسبب بدوره باحداث خسائر مادية إضافية، تترك صداها في انهيار المعنويات وهكذا يصبح هذان [العاملان المادي والمعنوي] متبادلي التأثير حيث يؤكد ويضاعف أحدهما الاخر . لذا لابد للمرء من ان يؤكد وبشكل خاص على التأثير المعنوي ، الذي يعمل وباتجاه معاكس لدى الجانبين ؛ فبينما توهن قوى الخاسر ، تضاعف من نشاط وطاقات المنتصر . الا أن الطرف المندحر هو الأكثر تأثراً نظرا لان هذا الانهيار المعنوي سيصبح السبب المباشر لخسائر اضافية . واكثر من ذلك فهو وثيق الصلة بالمخاطر والجهود والمصاعب، والخلاصة ، بكل المآسي والويلات الملازمة للحرب . فهو يندمج ويتغذى من تلك الظروف والعوامل .

اما بالنسبة للمنتصر ، فعلى العكس من ذلك ، اذ تسهم كل تلك العوامل في مضاعفة قوة ونطاق شجاعته . وما سيحدث هو أن معيار الخسارة سيتجاوز هبوطاً، حدود التوازن والاستقرار الاولية كثيراً اي الانهيار التام الذي يفوق وبقوة الفعل العكسي في صعود المنتصر فوق تلك الحدود . لهذا السبب نهتم وبشكل خاص عند البحث في أثار الانتصار ، في تلك الاثار والجوانب التي تعلن عن نفسها صراحةً في الطرف المندحر .

تزداد تلك الاثار حجما بعد عملية واسعة النطاق بنسبة أكبر مما لها بعد ، عملية صغيرة ، كما تزداد كثيرا بعد معركة كبرى عما عليه الحال بعد اشتباك ثانوي . فالمعركة الكبرى توجد لذاتها، وللمنتصر فهي المعركة التي يريد ، والتي يبحث عنها بالوسائل التي توفر له أقصى قدر من الجهد . فدحر العدو في هذا المكان ، وفي هذا الوقت هو الغاية التي تلتقي عندها حبال واسلاك خطة الحرب ، وتتوحد عندها كل الامال والمطامح البعيدة ، والافكار غير الواضحة عن المستقبل . فهنا يعطينا القدر جواباً لسؤالنا الجريء . وهذا ما يسبب التوتر المتزايد ليس لدى القائد فقط ، بل في كل الجيش ، نزولاً حتى اخر سواقي العجلات ؛ وان كان ذلك بدرجات ضئيلة دون ريب، ولكن باهمية وانعكاسات من نفس النوع كذلك . اما المعارك الكبرى ، وفي جميع العصور ، وتحت اية ظروف ، فلم تحدث بشكل مرتجل ، أو صدفة ودون توقع ، او كمجرد تنفيذ حرفي ودون معنى خاص ، لواجب عسكري . بل انها حدث عظيم جلل ، يتجاوز كثيراً حدود وابعاد أحداث الحياة اليومية الرتيبة وذلك عائد لما تستحقه المعركة بذاتها في جزء فيه ، والى ان القائد قد اعدها وخطط لها بشكل يصعد كثيراً من التوتر النفسي العام . وكلما ازدادت درجة ترقب وتعلق النتيجة وما يتعلق بها كلما ازداد تأثير ذلك .

لقد ازداد التأثير المعنوي للأنتصار في معارك اليوم عما كان عليه في الحروب الاولى للمرحلة المعاصرة . فلو كانت المعركة الحديثة كالتي وصفناها للتو ، أي قتال حتى النهاية ، فان النتيجة ستحسم بالمجموع الكلي للقوتين المادية والمعنوية ، واكثر مما بمجرد إنفتاح وترتيب القطعات أو بالصدفة .

بوسع المرء تجنب تكرار الخطأ ، وبوسعه أن يأمل قدر ما يشاء في الغد ، أو اي يوم آخر سيجلب معه المزيد من الحظ أو الصدف الافضل ، إلا أن مجموع القوى المادية والمعنوية ليس عرضة لمثل هذه التبدلات السريعة . لذلك يبدو أن للحكم الذي يؤكده المنتصر اهمية بالغة بالنسبة للمستقبل بينما القليل فقط من أولئك الذين أسهموا في المعركة بشكل أو آخر ، وداخل او خارج الجيش سيلمسون هذا الاختلاف ، فالمسار الطبيعي للمعركة هو الذي سيؤكد النتيجة في عقول جميع الذين اشتركوا فيها . اما رأي الشعب عن المعركة ، ورغم التفاصيل التي تضاف اليها لاغراض دعائية وغيرها ، فسيتضح لكل العالم كذلك بأن ما حدث قضية عامة اكثر مما هي خصوصية.

يصعب على الذين لم يعيشوا إندحاراً جدياً وقاسياً بطبيعة الحال تكوين صورة حية وبالتالي حقيقية عنه ؛ كما أن المفاهيم المجردة عن خسارةٍ أو اندحارٍ محدودين هنا أو هناك لن يتطابقا مع دقائق اندحارٍ كبيرٍ . لذا يستحق الامر فحصاً دقيقاً .

عندما يخسر المرء ، فاول شيء يصدم خياله، بل وعقله كذلك هو ضخامة وسرعة ذوبان الافراد . يلي ذلك خسارة الارض ، وذلك هو ما يحدث دائماً تقريباً ، بل وحتى يمكن أن يحدث للمهاجم لو خانه الحظ . يأتي بعد ذلك إنهيار خط المعركة الاصلي ، وارتباك وفوضى الوحدات ، والمخاطر المتأصلة في التراجع والتي ومع استثناءات نادرة ، ماثلة دائماً الى حد ما . ثم يأتي الانسحاب نفسه ، الذي يبدأ عادة في الظلام ، أو الذي يستمر وعلى اية حال خلال الليل . وحالما يبدأ ذلك يتوجب عليك أن تترك خلفك الكثير من المشردين وحشودا من الرجال المنهكين ؛ ومن بينهم اكثر المقاتلين شجاعة – الذين جازفوا بحياتهم واندفعوا الى أقصى الامام ، أو صمدوا في مواضعهم حتى النهاية . ان الاحساس بالهزيمة ، الذي يتملك القادة وكبار الضباط في ساحة المعركة ، قد تمكّن الان حتى من الاخرين نزولا الى اصغر الرتب بين الجنود . وتتفاقم مخاطر هذا الاحساس بالفكرة المرعبة لترك العديد من رفاق السلاح والاخوة الاعزاء بين براثن العدو ، هؤلاء الرجال الذين تظهر قيمتهم الحقيقية الرفيعة خصوصاً في الساعات الحرجة وعند اشتداد أتون المعركة . وهناك الاسوأ من كل ذلك، وهو فقدان الثقة المتزايد في القيادات العليا والتي يُحمّلها المرؤوسون القليل أو الكثير من المسؤولية وفقاً لما اضاعه كل منهم من جهودٍ . والاسوأ من كل ذلك بعد هو الاحساس بان إندحارنا لم يكن مجرد كابوس مرّ في المنام ؛ بل انه اصبح واقعاً ملموساً، مؤكدا لنا ان العدو هو الاقوى . انها حقيقة ، قد تمتد اسبابها وجذورها في

اعمال بعيدة لذا يصعب الانتباه اليها أو التنبؤ بها ، الا انها تبدو بشكل واضح وجلي في النهاية . لعل المرء يحس بها ويدركها طوال الوقت ، ولكن لعدم توفير بديلٍ صلب (لالغاء اثرها) يقاوم هذا الادراك بقوة الثقة بالامل والصدفة والحظ الحسن ، والرحمة الالهية، واخيراً بالاعتماد على جرأته وشجاعته هو ، الا انه يحس الان، ان كل تلك القوة ليست مجدية له في موقفه ، وها هي الحقيقة المرة تسحقه بقسوة ودون رحمة.

ما زالت كل تلك الانطباعات والانفعالات أبعد من أن توصف بالذعر أو الرعب، فلن يصاب جيش يمتلك روحا حربية بالذعر ابداً عند اندحاره ، وحتى اؤلئك الذين يصابون بمثل ذلك بعد معركة خاسرة فليس ذلك الا حالات استثنائية .الا ان الانفعالات أنفة الذكر نفسها لا يمكن تجنبها حتى في افضل الجيوش ، مع انها قد تقل كثيراً أو تخف هنا وهناك بفضل التعود على اجواء الحرب والتمرس بها طويلاً ، وبفضل ما تحقق من انتصاراتٍ ، والثقة القوية بالقيادة العليا ، الا ان من المستحيل اختفائها تماماً ومنذ البداية . واكثر من ذلك فتلك الانطباعات ليست نتيجة للخسارة أو لما يكسبه العدو من غنائم ، فهذه أشياء لا تحدث الا في فترات ومراحل متأخرة ، ولا تغدو أخبارها وأثارها معروفة للجميع مباشرة . وبغض النظر عن كيفية حدوث التحول في ميزان المعركة ، والبطاءة والتدرج في عملية التحول هذه ، فمن الصعب إخفاء مثل تلك العواطف مع تعدد طرق ظهورها ، كما انها تحدث أثراً قد لا يلام الانسان في الاعتماد عليه. ولقد ذكرنا للتو أن فقدان الكثير من المعدات كغنائم للعدو سيزيد من تلك التأثيرات .

لا شك ان كفاءة وقدرات جيش في موقف كهذا ستتأثر وتهتز . ففي ظروف الضعف والوهن هذه (ونكرر هنا ، التي ستتفاقم بالمصاعب والمشاكل التقليدية التي للحرب) من الصعوبة بمكان توقع استعادة ما فقد بمحاولات وجهود جديدة . يكون الطرفان قبل المعركة عادة في حالة توازن ، حقيقي أو مفترض ، ولم يعد هذا التوازن قائماً الان ، ولابد من قوة أو سبب أو تدخل خارجي لاستعادته . ودون مثل هذا الدعم الخارجي فان أي جهد اضافي لن يؤدي الا الى المزيد من الخسائر .

يلي ذلك عندها أن حتى الانتصار المحدود او المتواضع بالقوة الرئيسية سيكون كافيا للتفكير بقلب المعايير ضد العدو ، حتى يحدث التبدل في العوامل الخارجية دورة

جديدة للأحداث (مسار المعركة) . فان لم يحدث ذلك ، وواصل العدو الضغط من اجل مكاسب اكبر ومجد اروع ، فليس الا قائد جيد ومقدام مع جيش بمعنويات عالية وروح قتالية فذّة تعززت واشتدت بخبرات وتجارب العديد من المعارك والحملات ، قادران على صد هذا السيل الجارف وايقاف إندفاعه الى الحدود التي يمكن ايقاف المدّ فيها بمصدات صغيرة ولكنها قوية وعديدة حتى لن يعود للقوة (الهاجمة) أمل كبير بالنصر وتبدأ باستهلاك نفسها .

أما أثار كل ذلك خارج الجيش - بين صفوف الشعب والحكومة - فانهيار كامل لمعظم الامال والتوقعات ، وتحطم تام للثقة بالنفس ، الامر الذي يترك فراغا سيملأه الخوف المحطم الذي يمتد سريعا ليكمل حالة الشلل . ويبدو الامر وكأن الشحنة الكهربائية للمعركة الرئيسية قد أحدثت صدمة شديدة في مجمل الجهاز العصبي لاحد الخصمين . وقد يختلف تأثير ذلك من حالة الى اخرى ، الا انه موجود دائماً وبدرجة ما . وبدلاً من ردود فعلٍ حاسمة وشجاعة تتمثل ببذل جهود فورية وعزومة من قبل اي كان للصمود وايقاف المزيد من التدهور ، يسود وعلى العكس جو من اليأس والخوف من لا جدوى ولا امل باي جهد بهذا الاتجاه . وسيتردد الرجال حيث يتطلب الامر عملاً سريعاً وحاسما، بل وقد ينهارون بحال من القنوط والشلل ويتركون الامر كله للمقادير .

تعتمد نتائج وعواقب الانتصار وتأثيراته هذه على المسار المستقبلي للحرب ، جزئياً على شخصية وكفاءة القائد المنتصر ، لكنها تعتمد في قسمها الاعظم على الظروف التي أدت الى انتصاره ، وعلى الظروف التي أنشأها الانتصار بدوره . فما لم يكن القائد شجاعاً ومقداماً فلا يمكن توقع اية نتائج عظيمة حتى من اروع الانتصارات، بل يمكن ان يتحول ذلك الى شيء عديم الفعالية بسرعة، بفعل ظروف رئيسية معاكسة. فلو كان فردريك الكبير مكان الجنرال (دوان) لتعامل بشكل مختلف تماماً مع النصر الذي تحقق في معركة « كولن »[1] ، كما كان بوسع فرنسا ان تفعل اكثر من ذلك بكثير في استثمار نتائج معركة «ليوثين»[2] لو كانت في مكان بروسيا .

---

(١). راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث . (ص ٢٧٣). المترجم .

(٢) . راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث . (ص ٢٧٢) . المترجم.

ستفحص الظروف التي تبرر للمرء إنتظار نتائج عظيمة من الانتصارات الكبرى، في مكانها المناسب من هذا الكتاب . كما سنوضح عند تلك النقطة التباين الذي سيبدو وعند النظرة الاولى موجوداً ما بين حجم وابعاد الانتصار ، وحجم وأبعاد النتائج المترتبة عليه . وينصب اللوم في اكثر الحالات على نقص الاندفاع والحيوية عند المنتصر . اما ما يهمنا هنا فهي المعركة نفسها . اذ نرى ان تأثيرات ونتائج الانتصار التي وصفناها انفاً ستكون ماثلة دائماً ، كما تواصل ، وتتزايد بنسبة اكبر كلما كانت المعركة كبيرة – اي ، كلما زادت قوة الجيش الذي زُج في المعركة ، كلما كانت هذه تمثل مجموع القوة العسكرية ، التي تصبح بدورها وبشكل اكبر ممثلاً لكل الامة .

ايجوز للمفكر في تلك الحالة الافتراض بضرورة قبول نتائج وتأثيرات الانتصار كما هي ؟ الا ينبغي عليه وعلى العكس من ذلك محاولة البحث عن طريقة فعالة للتعامل مع تلك النتائج والتأثيرات ؟ يبدو ان من الطبيعي الاجابة على ذلك بالايجاب، لكن لتحمينا السماء من الضباع في هذا المجاز الموحش الذي تاه فيه الكثير من المفكرين، وحيث تغدو المناقشة ، انمحاقاً ذاتياً «Self - annihilating» .

لابد من تلك التأثيرات حقاً ؛ لاستنادها الى خصائص وطبيعة الحال . فهي اتية دون ريب حتى لو وجدنا بعض الطرق لمعارضتها ، كحركة المقذوف الذي سيستمر في اتجاه دوران الارض ، حتى لو فقد بعضاً من سرعته لو اطلق باتجاه معاكس – اي من الشرق الى الغرب .

تفترض كل الحروب مسبقاً وجود الضعف الانساني ، وتسعى جادة للأستفـــادة منه .

عندها وبينما قد نناقش في مرحلة متأخرة ، وفي مكان اخر ، ما الذي ينبغي علينا عمله بعد اندحار كبير ؛ وبينما يتوجب علينا النظر في كلما بقي من اشياء نافعة في قضية ميئوس منها كهذه ، وبينما يتوجب علينا الافتراض بامكانية ذلك. فحتى في موقف كهذا ، يمكن ان يصحح كل شيء فيه؛ ولا نريد القول هنا بالتأكيد بان نتائج وتأثيرات الاندحار الكبير مما يمكن إزالتها بكاملها تدريجياً. يمكن توجيه القوى والوسائل المستخدمة لاستعادة الموقف ، نحو هدف ايجابي ، وينطبق ذلك على العوامل المادية والمعنوية .

اما التساؤل عما اذا كان الاندحار في معركة كبرى سيشكل قوة دفع لاستثارة وايقاظ قوى كانت لولا هذا الاندحار ستظل في سبات ، فذلك أمر آخر . كما انه ليس مستحيلاً ، وقد سبق وان تكرر حدوثه في بلدان عديدة . الا ان ايقاظ أو تحريك ردود فعل شديدة كهذه يظل أمراً خارج نطاق وتحديدات فن الحرب ، الا إن كان هناك سبب ومبرر لتوقعه ، عندها يمكن للأستراتيجي ان يأخذه بعين الاعتبار .

عندها ، فان كانت هناك حالات قد تبدو نتائج وعواقب الانتصار فيها ضارة ومؤذية فعلا بسبب ردود الفعل التي تثيرها – حالات نادرة واستثنائية جدا في الحقيقة – لكن يتوجب علينا مع ذلك الاقرار بامكانية اختلاف النتائج في الانتصار المطروح للبحث – فالامر يعتمد هنا على طبيعة الشعب والدولة اللذان يتعرضان للأندحار .

الفصل الحادي عشر

المعركة – تتمة

استخدام المعركة

بغض النظر عن خصوصية تنفيذ وادارة الحرب ، وعن جوانب هذا التنفيذ الذي ندرك تبعاً لذلك كونه اساسي ، فان المفهوم التام نفسه سيسمح لنا بوضع الملحوظات الخمس الجلية التالية :

١ – ان تدمير قوات العدو هو المبدأ المهيمن والطاغي للحرب ؛ لذا وبقدر تعلق الامر بالعمل الايجابي ، فانه الطريق الرئيس لانجاز هدفنا .

٢ – لا يمكن انجاز تدمير القوات هذا **عادة** الا في القتال فقط .

٣ – الاشتباكات الكبرى والتي تشمل كل القوات فقط هي التي تؤدي الى انتصارات كبرى .

٤ – تتحقق الانتصارات الكبرى حيث تندمج كل الاشتباكات في معركة كبيرة واحدة .

٥ – في المعركة الكبرى فقط يتولى القائد الاعلى السيطرة على العمليات بنفسه ، ومن الطبيعي جداً أن يفضل حصر توجيه المعركة به شخصياً .

تقود هذه الحقائق الى قانون مزدوج تدعم عناصره بعضها بعضاً ؛ فتدمير القوات المعادية يتحقق عموماً بواسطة المعارك الكبيرة ونتائجها ؛ ويجب أن يكون الهدف الرئيسي للمعارك الكبيرة هو تدمير القوات المعادية .

لا شك في ان عنصر (مبدأ) التدمير موجود والى حد كبير أو صغير في انواع اخرى من العمليات . اذ هناك وبالتأكيد اشتباكات صغيرة (كما في ماكسين)[1]

---

(١) راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الرابع عن معركة (ماكسين) (ص ٣٤٨) – المترجم –

ادت فيها الظروف المؤاتية الى تدمير قوات كبيرة للعدو لا تتناسب وحجم الاشتباكات. من الناحية الاخرى فان احتلال ، او الدفاع عن موضع منفرد ، قد يكون حاسماً كأن يتحكم في معركة كبيرة . لكن وعموما يظل من المؤكد أن خوض المعارك الكبيرة يهدف فقط الى تدمير القوات المعادية، وان تدمير تلك القوات لا يمكن ان يتحقق الا في معارك كبرى .

لذلك يتوجب اعتبار المعركة الكبرى كحرب مركزة ، كمركز ثقل لصراع او حملة كاملة ، كالعدسة المقعرة التي تركز اشعة الشمس على نقطة صغيرة محددة فتصعد حرارتها الى اقصى الدرجات (وحتى حد الاشتعال) ، فهكذا ايضاً تتحد وتتركز كل ظروف وملابسات وتفاصيل الحرب وتضغط الى فعاليتها القصوى في معركة رئيسية .

فحشد القطعات في مجموع (جحفل) واحد ، وهذا ما يحدث بدرجة ما في كل حملة ، يوضح نوايا المحارب لاستخدام هذا الحشد في ضربه كبرى ، بمبادأة منه (كمهاجم) او لتحدي الطرف الاخر (اي كمدافع) . فان فشل العمل الاكبر عن تطوير الموقف وتحقيق الغاية المنشودة ، فذلك لظهور عوامل ومؤثرات خارجية ، خففت وكبحت من الحقد الاصلي وأوهنت ، أو بدلت أو أوقفت أية تحركات . لكن وحتى في ظروف التعطل واللافاعلية عموما – وذلك ما اتصفت به حروب كثيرة – تظل امكانية نشوب معركة كبيرة قائمة وعلى الدوام ، كقضية مركزية لكلا الطرفين ، وهي غاية قصوى يلاحظ ان جهودهما ومسار اعمالهما يمكن ان تتجه نحوها ابداً . كلما شنت الحرب بجدية اكبر ، كلما زاد وتعمق الحقد والعدوانية فيها ، وكلما غدت صراعاً من اجل السيادة والغلبة في كلا الجانبين ، وكلما اتجهت الانشطة والفعاليات لتتفجر في قتال مرير ، وكلما تعاظمت عندها الاهمية التي تعزى الى المعركة الكبيرة.

حيثما يتحدد هدف ايجابي وكبير ، وذو تأثير هام ونتائج خطيرة بالنسبة للعدو ، فلن تكون المعركة الكبيرة هي الوسيلة الطبيعية الاكثر لتحقيقه فقط بل انها الافضل

كذلك ، وكما سنوضح ذلك بتفصيل فيما بعد . وكقاعدة فان التراجع عن مجابهة حاسمة وكبيرة بتجنب معركة كهذه ، يحمل في طياته العقاب على ذلك .

المهاجم هو الطرف الذي له هدف ايجابي ويحتمل لذلك ان يرى المعركة الكبيرة هي الوسيلة المفضلة للعمل . ودون ان نقصد عند هذه النقطة تحديد مفهومي الهجوم والدفاع وباية تفاصيل يجب التأكيد على ان المعركة هي ، وحتى للمدافع ، الوسيلة الفعالة الوحيدة ، والتي اجلاً أو اجلا ستفرض نفسها على موقفه وستحل معضلته .

المعركة هي الحل الأكثر دموية. ينبغي علينا ان لا نعدها وببساطة كتقتيل متبادل – فتأثيرها وكما سنرى في الفصل التالي يركز على قتل روح العدو القتالية وليس قتل رجاله – الا ان الحقيقة الثابتة على الدوام هي ان سمة المعركة ، وكاسمها ، تجعلها كالمجزرة [Schlact] ، وثمنها الدم ، وكانسان فان القائد سيتراجع امام هذا الواقع الدامي .

الا ان الروح الانسانية ستتراجع وبشكل أقوى من فكرة التوصل الى قرار حاسم بضربة واحدة . فكل الاعمال هنا تتجمع وتنضغط في **نقطة واحدة** في الوقت والمسافة . وتحت تلك الظروف قد يشعر الرجل بقرف وبعدم قدرته على جمع قواه وتوجيهها لتقبل ذلك بفترة قصيرة كهذه ، ويمكن تحقيق الكثير لو امكن كسب المزيد من الوقت ، حتى عند وجود ما يبرر افتراض ان ذلك – الوقت الاطول – سيعمل لصالحه . ليس كل ذلك سوى وهم محض ، حتى لو تعذر الانفكاك منه تبعا لذلك. والوهن نفسه الذي يصيب كل من يفرض عليه صنع القرار ، قد يؤثر وبقوة اكبر على القائد العسكري الذي استدعى أو كُلف باتخاذ القرار في قضية لها نتائج بعيدة ، بضربة واحدة .

لهذا تحاول الحكومات والقادة دائماً البحث عن طرق لتجنب المعارك الحاسمة وتحقيق الاهداف المعنية بوسائل اخرى ، او بالتخلي عنها بكل هدوء تماماً . يتألم المؤرخون والمنظرون عند وصف حملات وصراعات كهذه ، يريدون بذلك ان

تلك الوسائل دليل حقيقي على المهارات والقدرات العالية . لقد قادنا خط التفكير هذا تقريباً الى حد اعتبار المعركة ، وفقاً لاقتصاد الحرب ، نوعاً من الشر الذي يقع بسبب خطأ – أو ظاهرة مرضية على الحرب التقليدية الجيدة التنفيذ ان لا تلجأ اليه ابداً . واحتفظوا باكاليل الغار لأولئك القادة الذين عرفوا كيف يديرون حروبهم دون سفك دماء ، وان على نظرية الحرب وكواجب محدد ان تتولى تعليم وتعميم هذا النوع من الحروب .

لقد القى التاريخ الحديث هذا التفاهات في مهب الريح . ومع ذلك فليس بوسع المرء الاطمئنان لعدم حدوث حرب كهذه هنا وهناك ولفترات ومراحل قصيرة أو طويلة ، وخداع وايقاع من بيدهم الامر في اخطاء التوهم بكونهم مسؤولين عن الضعف وعن الطبيعة البشرية . من الممكن تماماً ، وفي وقت ما في المستقبل ، اعتبار معارك وحملات نابليون بونابرت اعمالاً وحشية ، بل وحتى اخطاء وحماقات ، بينما يرون، ان البدلات القديمة الطراز والسيوف الاثرية والطرق والمؤسسات العجفاء هي ما يجب التعويل عليها وتستحق اعجابهم وثنائهم . واذا تمكن المفكر من بيان مخاطر توجه كهذا فسيقدم خدمة جلي لمن يهمهم سماع ذلك . ونأمل ان نفعل الشيء ذاته لأولئك الذين يشغلون مراكزا فعالة في بلدنا الحبيب ، واضعين انفسنا بخدمتهم كادلاء راجين اياهم اخضاع امور كهذه الى دراسة جادة .

تستند قناعتنا بان المعركة الكبرى وحدها يمكن ان تؤدي الى قرارات حاسمة ، لا الى المفهوم المجرد للحرب وحده فقط ، بل وكذلك على التجارب والخبرات . فمنذ بدء الزمان كانت الانتصارات العظيمة وحدها هي التي عبدت الطريق الى النتائج الكبرى ؛ وللطرف المهاجم بكل تأكيد ، وكذلك والى حد ما للمدافع . لقد كان الاستسلام في « اولم Ulm »[1] حدثاً فريداً ، الا انه ما كان ليحدث حتى لقائد كنابليون لو لم يكن راغباً بسفك الدماء . في الحقيقة يجب النظر الى ذلك كنتيجة

(١) حملة (اولم) ١٨٠٥/١٠/١٧-٨/٣١ سار الجيش العظيم (الفرنسي) من بلدة بولوني شمال شرق فرنسا سرا بعد معرفة نابليون بحشود خصومه فاخذ المبادأة وتخلى عن خططه لغزو انكلترة . كانت قوته بحدود (٢٠٠) الف رجل . في ١٢/ايلول غزت النمسا باقاريا دون معرفة القائد النمساوي الجنرال ماك بتحركات =

للأنتصارات التي احرزها في حملاته السابقة . وكل الجنرالات المحظوظين وليس الشجعان والمقدامين والعنودين منهم فقط ، يسعون لتتويج انجازاتهم بالمخاطرة بكل شيء في معارك حاسمة . ويجب ان تكون اجاباتهم على هذا السؤال الفائق الاهمية كافية لنا .

لا يهمنا القادة الذين يحرزون انتصارات دون سفك دماء وحقيقة كون المجازر الدموية مشاهداً مرعبة يجب ان تجعلنا نتعامل مع الحرب كشيء جدي خطير ، لا ان نجعلها حجة ، لندع سيوفنا ليأكلها الصدأ تدريجياً باسم الانسانيه. فعاجلاً او آجلاً سيفاجئنا احدهم شاهراً سيفاً ماضياً فيقطع اوصالنا .

= نابليون . كانت قوة ماك (٥٠) الف رجل كما كان الارشيدوق شارل يهاجم (مسينا) في ايطاليا وقوته حوالي (١٠٠) الف رجل. كان لدى الروس (١٢٠) الفاً بالاضافة الى قوة وعدت السويدبها وعند انضمام هذه الحشود الى ماك بدأت المرحلة الثانية من خطة التحالف . في ١٦/ ايلول عبر نابليون نهر الراين ووصل ما بين (اولم) وميونخ في الوقت نفسه حشد الارشيدوق جون (٣٣) الف رجل في اينزبروك وكان شارل في وادي (اديج) قرب ترينت وخلفه الجنرال الروسي كوتزوف وبامرته (٥٥) الف مع ويليم بوكسودين وبامرته (٤٠) الف اتجهوا نحو كارباتيا . في ٥/١٠ وصل نابليون الدانوب بينما كانت خيالته بامرة الجنرال مورات تندفع خلال الغابة السوداء من امام الجنرال ماك في اولم (لخدعه عن تحركات نابليون) الذي قام باندفاع واسع بستة ارتال شمالاً ثم شرقاً خلف القوات النمساوية باحاطة واسعة وعميقة على شكل قوس ولم يحس الجنرال ماك بذلك الا بوقت متأخر . في ١٠/١٧ وبعد محاولة واحدة فقط قام بها الجنرال ماك للنجاة من الاحاطة في ١٠/١٤ استسلم بعد فشلها ومعه (٣٠) الف رجل و (٦٥) مدفع و (٤٠) راية . تعليق : افتتحت الحملة عاماً عظيماً في مهنة نابليون الذي احسن تدريب جيشه وخلت خططه من الاخطاء السابقة مندفعاً في غرب اوروبا بجبهة واسعة محشداً ماكنته الضخمة على خطوط مواصلات عدوه الجنرال ماك في واحدة من اروع الامثلة التاريخية على حركة الاحاطة . لم تكن (او لم) معركة ، بل انتصاراً استراتيجياً كاملاً وهائلاً حتى ليصعب مقارنتها باي قتال تعبوي ، انها مثال رائع لما يسميه ليدل هارت بالسدود الاستراتيجية [موسوعة التاريخ العسكري بالانكليزية] ص ٧٤٦ – المترجم .

نحن نعتبر المعركة الكبرى عاملاً حاسماً لما تتمخض عنه حرب او حملة ، الا انها ليست بالضرورة العامل الوحيد . فالحملات التي حُسمت او تقررت نتائجها في معركة واحدة لم تصبح من الامور المعتادة الا في الازمنة الحديثة ، اما الحالات التي انهت فيها المعركة الواحدة حربا بكاملها فاستثناءات نادرة .

القرار الذي يتحقق او يتم التوصل اليه بمعركة كبرى لا يعتمد بطبيعة الحال على المعركة ذاتها كلياً – اي قوتها وحجم القطعات التي خاضتها ، او قوة الانتصار . اذ تعتمد كذلك على عدد لا يحصى من العوامل الاخرى التي تؤثر على القدرات والامكانيات الحربية لكل طرف وللدول المتحاربة . لكن بزجهم للقسم الاعظم من قواهم المتيسرة في هذا الصراع الهائل ، فكلاً منهم يبدأ قراراً رئيسياً ، يمكن التنبؤ ببعض من نطاقه وجوانبه ، لكن ليست جميعها . كما انه قد لا يكون القرار الوحيد بل **الاول فقط** ، وبذلك فسيؤثر على جميع القرارات التالية . لذلك فهدف المعركة الكبرى هو العمل – وفقاً للظروف تقريبا ولكن الى حد ما دائماً – كمركز ثقل مؤقت للحملة ككل. فالقائد الذي يدخل كل معركة بروح قتالية حقيقية – مؤمنا ومتحمساً اي على قناعة تامة من ضرورة دحر عدوه – سيحاول على الاكثر قلب موازين المعركة الأولى بكلما بوسعه ، آملاً ومكافحاً من أجل الفوز بكل شيء . ولسنا نشك في أن نابليون بونابرت وفي أي من حملاته ما كان ليفرض سيطرته على الميدان دون إستعداد وعزم على سحق عدوه في أول مواجهة . كذلك كان الحال مع فردريك الكبير ، لكن في ظروف اكثر تحديداً وعلى نطاق أقل، فقد كان يحمل نفس الفكرة، إذ وحيثما وجد على رأس جيشه الصغير، كان يحاول تدمير الجيوش الروسية أو الامبراطورية (النمساوية) .

وتأكيداً نكرر ، بان القرار الذي يتم التوصل إليه بمعركة ، يعتمد في جزء منه على المعركة نفسها – سعتها ، وحجم القوات التي خاضتها – وعلى حجم وقوة النجاح في جزء آخر منه .

فأما الذي بوسع القائد عمله لتصعيد اهمية المعركة فيما يخص الجانب الاول – أي المعركة – فواضح بشكل كاف ، ولا نريد أكثر من الاشارة الى ذلك ، فسعة ووزن المعركة في تصاعد وكذلك الحال مع عدد الظروف الاضافية التي تنثال وتحسم بسببها . لذلك كان على القادة الواثقون بانفسهم الى الحد الذي يدفعهم الى القرارات والمواقف

العظيمة أن يعملوا دائماً على زج القسم الاكبر من قواتهم في المعارك الكبرى دون تجاهل الشؤون والمجالات الاخرى .

يعتمد النجاح ، او بتعبير ادق ، درجة وقوة الانتصار وبصورة اساسية على العوامل التالية :

١ . النمط التعبوي الذي اتبع في المعركة .

٢ . الارض .

٣ . تأليف القوات .

٤ . القوة النسبية للجيوش المعادية .

ليس من فرص كبيرة امام معركة جرت بجبهات متوازية ودون حركات احاطة، لأن تحقق نتائج حاسمة ، كالمعارك التي يتم فيها تطويق الجيش المندحر، او اجباره على تغيير جبهته بدرجة كبيرة او قليلة . كذلك الحال في الاراضي الوعرة او المتموجة وكثيرة التلول اذ تكون التأثيرات اضعف، لذلك ستكون النتائج اقل كذلك .

ان كانت خيالة المندحر مساوية او اقوى من خيالة المنتصر ، فسيضيع تأثير وجدوى المطاردة ومعها بعض النتائج المهمة للأنتصار .

اخيراً ، لابد من التأكيد بان تأثير الانتصار سيتضاعف حجماً في الحالات التي يتفوق المنتصر عددياً فيها ، مع استخدام هذا التفوق لطي جناح العدو او جعله يغير جبهته ، اكثر مما في الحالات التي يكون المنتصر فيها هو الطرف الاقل عدداً . ستثير معركة (لوثين) دون ريب بعض الشكوك حول القيمة والجدوى العملية لهذا المبدأ ، لكننا نأمل ان نلجأ ولو لمرة واحدة الى مثلٍ او قولٍ شائع نفضل تجنبه عادة هو : **هناك استثناء لكل قاعدة** .

بوسع القائد استخدام كل تلك الوسائل ليجعل المعركة حاسمة . الا انها تحمل بطبيعة الحال مخاطرها الخاصة ، الا ان كافة اعماله انما تخص ذلك القانون الحيوي للعالم الروحي .

لذلك فما من عامل آخر في الحرب يزاحم المعركة في اهميتها ؛ وكلما عظمت المهارة الاستراتيجية المستخدمة من اجل تهيأه الظروف الصحيحة لها ، مع اختيار

المكان الناسب ، والوقت وخط التقدم ، مع العمل على استخدام والاستفادة من نتائجها الى اقصى حد .

حقيقة كون تلك الامور مهمة لا يعني انها امور معقدة او تجريدية . بل انها بعيدة عن ذلك جداً ؛ فكل شيء بسيط تماماً ؛ ولا يحتاج الا لمهارات متوسطة في التخطيط . وأقصى ما يتطلبه الامر هو القدرة والموهبة في تقدير قيمة الموقف بسرعة ، والحيوية ، والاصرار العزوم ، وحيوية الشباب ، وروح الاقدام ، وكلها من مزايا البطولة التي سنشير إليها مرة اخرى . ليس معظم هذه السجايا مما يمكن تعلمها من الكتب ، هذا ان امكن تعلمها على الاطلاق ، وعلى القائد ان يحصل على ما يريده منها من مصادر وموارد اخرى غير الكلمات المكتوبة .

يجب ان تنبعث الدوافع لخوض المعارك الكبرى ، والتحركات الغريزية السليمة نحوها ، من أحساس القائد بقواه ، وقناعته الاكيدة بها – بكلمة اخرى من الشجاعة الداخلية ووضوح الرؤيا التي شذبتها وطورتها التجارب وممارسة وتحمل المسؤولية .

تعد الامثلة الجيدة والمناسبة افضل المعلمين ، الا ان على القائد ان لا يسمح لضبابية الافكار التي تكونت سابقاً ان تفرض نفسها على الحرب ، اذ وحتى اشعة الشمس نفسها تتكسر وتتشوش بفعل الغيوم . وان اهم واجبات المنظر هو ازالة وتبديد افكار وقناعات مسبقة كهذه، تغدو احيانا كالروائح الكريهة للمستنقعات والتي تملاء الجو . فالرعب الذي يخلقه العقل البشري ، بوسع العقل البشري ان يدمره (يمحوه) ثانية.

الفصل الثاني عشر

الوسائل الاستراتيجية في استثمار النصر

الاستعدادات التي تقود الى الانتصار هي المهمة الاكثر صعوبة ، ونادراً ما ينال الاستراتيجي ما يستحقة عنها . وتحين ساعة المجد وينهال الاعجاب حين يستثمر انتصاره.

تطرح مجموعة من الاسئلة نفسها وسنتفرغ لها في الوقت المناسب ؛ مثل ما الهدف الحقيقي للمعركة ؟ وكيف ستدخل المعركة في الحرب وبشكل مناسب عموماً؟ والى اي حد ستسمح الظروف للأنتصار في المضي في مساره ؟ وعند اية نقطة سيصل ذروته؟ وفي الوقت نفسه فان الحقيقة التي تظل ماثلة للعيان تحت كلما يمكن تصوره من الظروف، هي ومن دون مطاردة فلن يكون الانتصار مجديا وفعالاً ، وبغض النظر عن قلة وصغر حجم استثمار الانتصار ، فلا بد وأن يتجاوز ودائماً حدود وحافات الانتصار المباشرة . وبدلاً من تكرار الحقائق عند كل مناسبة فسنتناولها الان .

تبدأ مطاردة عدو مهزوم في اللحظة التي يتوقف فيها عن القتال ويبدأ بالتخلي عن مواضعة . ولا علاقة لذلك باي تحركات سابقة وباي اتجاه كانت – اذ لا تعدو عن كونها جزء من عملية تطوير المعركة نفسها . عند هذا المفترق يكون الانتصار مع انه مؤكد ، ما زال محدوداً ومتواضعاً في ابعاده ومداه . ولن يحقق سوى القليل من الفوائد الجدية وفق المسار الاعتيادي للاحداث ما لم يتوج الانتصار وفي يومه الاول بالمطاردة . وانذاك فقط تبدأ مرحلة الفوز بالغنائم عادة كما سبق وقلنا ، والتي ستجسم الانتصار . وسنناقش هذه الصفحة اولاً .

يبدأ الطرفان المعركة وهما في حالة اعياء بدني ، نظراً لأن التنقلات التي تسبق الاشتباك عادة من نوع شاق للغاية . كما ان الصراع الطويل في ساحة المعركة يتطلب الكثير من الجهد الذي يكمل حالة الاجهاد التام ، بل واكثر من ذلك سيكون المنتصر في حالة من الفوضى والارتباك مماثلة لما عليه المندحر ، وسيرغب عندها بالتوقف

لاستعادة الانتظام ، وجمع الذين ظلوا الطريق او اماكنهم، وسد نقص العتاد. ستخلق تلك الظروف للمنتصر مرحلة حرجة كالتي ذكرناها تواً . فان كانت القوات المندحرة هي مجرد جزء قليل من قوات العدو الذي ما زالت لديه وحدات اخرى يمكن الاعتماد عليها ، او انتظار وصول نجدات قوية ، فقد يتعرض المنتصر بسهولة لخسارة كلما حققه في اية لحظة . وستوقف هذه الاعتبارات المطاردة ، او تحصرها على الاقل على اضيق ما يمكن. لكن حتى ودون اية مخاطر من احتمال تعزيز القوات المعادية ، فان الظروف التي وصفناها للتو، ستعرقل من مرونة المنتصر وحريته في المطاردة . مع أن الانتصار نفسه ليس في خطر ، الا ان الظروف والاحداث المعاكسة قد تقلل من مزاياه . كما ان حرية القائد في العمل ستتعرض هي الاخرى وعند هذه النقطة الى الكثير من التقييد والشل – كل ثقل الضعف والاحتياجات البشرية . فكل الاف الرجال الذين تحت قيادته بحاجة الى الطعام والراحة ، لا يطمعون باكثر من ساعات قليلة من التحرر من الاجهاد والاخطار ، وليس هناك سوى القليل جداً من الرجال – وهم الاستثناء – القادرين بعد على التفكير والاحساس بما بعد اللحظة الحالية . وتلك القلة فقط هي التي أنجزت المهمات الملحة الطارئة ، إذ ما زالت محتفظة بما يكفي من القدرة والتصور العقليين للتفكير في الحصول على المزيد من المكاسب –مكاسب تعد في وقت كهذا لا أكثر من إضافات وزخارف ثانوية قياساً بالانتصار ، وهذا منطق عجيب حقاً . الا ان اصوات آلاف الاخرين مع ذلك ، هو ما يسمع في مقر القائد العام، مروراً بسلسلة من كبار الضباط الذين يمثلون تلك الاحتياجات البشرية ضاغطين على عواطف القائد ، الذي تكون حيويته وطاقاته هو الآخر قد ضعفت بفعل الجهدين العقلي والمادي ، وهكذا فما سيحدث ولاسباب انسانية صرفة ، هو ان ما سيتحقق فعلاً اقل كثيراً عما كان يمكن الحصول عليه . وكلما سيتم انجازه انما يعتمد على **طموح ، وحيوية وطاقات ، ولربما كذلك على صلابة القائد الاعلى**[1]. وهكذا فقط

---

(١) يورد كلاوزفيتز الكثير من الحقائق والتفاصيل الاكيدة عن احاسيس ومشاعر القادة والقطعات ، ومن المؤكد كذلك معرفته الواسعة عن النفس البشرية وعلم النفس وفلسفة الحرب وويلاتها والامها ، الا ان الملفت للنظر هنا ، هذه الانشائية والعاطفية المفصلة لمشاهد الحرب ، فكأنه يريد وبالاضافة الى منافسته الفلاسفة في نهجهم=

يمكن ان نشرح الطرق الجبانة التي تعامل فيها العديد من القادة مع الانتصار الذي جعل لهم اليد العليا . وتعبير « المطاردة الفورية » بعد الانتصار مصطلح نريد وكقاعدة ان نخص به المطاردة التي تجري في نفس يوم النصر ، بما في ذلك وكحد اقصى الليلة التالية . وخلاف ذلك فان حاجة المطارد للراحة بعد هذه النقطة ستؤدي الى توقف.

هناك عدة انواع وبدرجات مختلفة للمطاردة وفقاً لطبيعة كل منها .

الاول : المطاردة بالخيالة وحدها . وتشن هذه على الاكثر لابقاء العدو تحت الرقابة والرصد وفي حالة من الانذار والتأهب اكثر مما لتوجيه ضغط جدي ، نظراً لسهولة ارباك وعرقلة الخيالة باسهل مانع طبيعي . قد تكون الخيالة فعالة ضد وحدات معزولة انهارت معنوياتها وكذلك القطعات الضعيفة ، اما ان واجهت القوات المعادية الرئيسية فلن تزيد عندها عن سلاح ثانوي . بوسع احتياطات العدو المنتعشة تغطية انسحاب العدو ، ويمكن كذلك وعند اول مانع طبيعي وحتى وان كان صغيراً ، تجميع القوات المنسحبة والصمود بشكل مؤثر . ويستثنى من ذلك الجيش المهزوم فعلاً وفي حالة فرار والذي على وشك التمزق نهائياً .

= ومصطلحاتهم – كما في مفهومه للحرب المطلقة – يريد كذلك مزاحمة الشعراء والروائيين الرومانسين والكل يعرف ان اولى وادق مهمات القادة معرفتهم بقدرات وطاقات قواتهم – قبل العدو – والحدود التي يمكن بلوغها وعلى ضوء هذه الموازنة يعرف اين يقف وماذا يفعل . ومن المعروف ان الجنرال اللنبي كان يعرف ان وجوده في المقدمة يعني اضافة (٢٠) كم اخرى لما تقطعه قواته سيراً . والنصوص القرآنية صريحة في ذلك اذ يقول تعالى «إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس » آل عمران /١٣٩ ، وكما يقول تعالى « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » النساء / ١٠٤ صدق الله العظيم . ثم الا يحق للقائد المنتصر ان يطالب قطعاته بالتساوي –ان لم نقل ان تكون أجلد – مع الطرف المندحر فما هي الا هنيهات ويفوزون بكل شيئ . اما ان اراد اظهار بشاعة الحرب او رغبته بشجبها وادانتها فتلك قضية اخرى ولها مكان آخر .

(المترجـــم).

الثاني : تنفذ الدرجة الثانية من المطاردة بمقدمة قوية (مجحفلة) من جمع الصفوف وتضم بطبيعة الحال معظم الخيالة . تضغط مطاردة من هذا النوع على العدو حتى وصوله مكاناً تستطيع فيه ساقاته (Rear-guard) الصمود فيه ، او حتى يستطيع الجيش بكامله احتلال موضع جديد، ونظراً لصعوبة تحقيق اي من هذين المطلبين فوراً ، لذا تتواصل المطاردة الى ابعد من ذلك ، الا انها وفي كل الاحوال لن تستمر الا لساعة او لبضعة ساعات والا فقدت المقدمة الاتصال مع القوة المعقبة (القسم الاكبر) او القطعات السائدة .

الثالث : وهو اعلى درجات المطاردة وهي باستمرار تقدم الجيش (القوة) المنتصرة بكاملها وبالقدر الذي تسمح به قوته . وفي هذه الحالة فان مجرد التهديد بهجوم او بتطويق احد اجنحة (المنسحب) سيجبر القوة المندحرة على التخلي عن معظم المواضع الصالحة للصمود . وكذلك فستتجنب الساقات التورط باي عمليات تعويق جدية .

ينهي الليل وفي جميع الحالات الثلاث أعلاه العمل ، حتى حين لا تنهي المطاردة مهمتها. والاستثناء النادر في استمرار المطاردة خلال الليل هي حالة ترقى الى شدة غير اعتيادية .

لو تمعنا في حقيقة كون العمليات الليلية مما يترك فيها كل شيئ تقريباً للصدفة، وعلى اية حال فالتشكيلات النظامية والاعمال الاعتيادية الاخرى قد توقفت في الوقت الذي توقف فيه القتال، وبوسع المرء تفهم عزوف القائدين عن فكرة مواصلة القتال في الظلام . ما لم يؤكد الانتصار بالتشتيت الكامل للمندحر ، او بالقدرات والمناقب الحربية الاستثنائية للمنتصر ، فان كل شيئ سيترك للمقادير ، ولن يسر هذلك اي قائد ، حتى اكثرهم جرأة وصلابة . عندها وكقاعدة سيضع الليل حداً للمطاردة حتى ولو لم يتم حسم المعركة وبدء المطاردة الا قبل ان يحل الظلام بقليل . يوفر الليل للطرف المندحر فرصة جيدة وسريعة للراحة واعادة تجميع نفسه ، او للأسراع إن أراد في مواصلة تراجعه تحت جنح الظلام .

بعد توقف كهذا سيجد المندحرأن لا بد من تحسين موقفه الى حد كبير . فقد امكن تجاوز القدر الكبير من الوقت العصيب والفوضى كما امكن سد نقص القطعات بعتاد جديد ، كما امكن اعادة تنظيم القوة ككل . وكل مواجهة جديدة مع المنتصر ستعد اشتباكاً أو معركة جديدة وليس استمراراً للمعركة السابقة ، ومع انها قد لا تعد، وفي أية ظروف بنجاح مطلق ، الا انها على الاقل تشكل بداية جديدة وليست مجرد

استمرار لعمليات التطهير (Mopping - up) التي يقوم بها المنتصر .

وهكذا ومتى ما استطاع المنتصر مواصلة المطاردة اثناء الليل — في حالة استخدام مقدمة قوية من جميع الصنوف فقط — فسيكون لذلك نتائج بالغة الاهمية وواسعة النطاق ، ومن الامثلة الرائعة على ذلك معركتي « لوثين » و « واترلو » .

يعد هذا النوع من العمليات تعبوياً من حيث الاساس ، واوردناه هنا كي نوضح ونؤكد الاختلاف الذي يمكن أن تسببه في نتائج النصر .

المطاردة الفورية حتى الوقفة التالية هي امتياز للمنتصر ، ومن الصعب ربطها بخططه ومواقفه اللاحقة، والتي قد تقلل أو تضعف من النجاحات المتوقعة لأنتصار كبير ، مع انها لا تستطيع منع او عرقلة الاستثمار المباشر . وحتى لو فكر أو توقع المرء حالات كهذه فانها تظل من الحالات النادرة جداً وبشكل لا تؤثر فيه او تقلل من اهمية وقيمة النظرية.

هذه هي احدى النقاط التي فتحت فيها التجارب العسكرية الحديثة الباب امام ميدان جديد كلية للطاقة والحيوية . اذ كانت الحروب المبكرة اصغر نطاقاً ، واكثر محدودية في انطلاقها، وتطورت قناعات جديدة حددت دونما ضرورة معقولة العديد من جوانب وأوجه العمليات ومنها هذه بالذات . **وبدت الفكرة المطلقة لهيبة الانتصار وكانها الامر الكلي والشامل بقدر تعلق الامر بالقائد** . اما تدمير القوات المعادية فعلاً فلم يكن بالنسبة لهم سوى واحدة من وسائل كثيرة للحرب — وهي بالتأكيد ليست الوسيلة الرئيسية ، واقل من ذلك ان تكون الوحيدة — كما كانوا على استعداد تام لاعادة سيوفهم الى اغمادها حالما يخفض العدو سيفه . وحالما يتم حسم المعركة كان يتوقف القتال ، وكأن ذلك تحصيل حاصل . باعتبار ان اي مزيد من سفك الدماء مجرد وحشية .

لم تكن هذه الفلسفة الزائفة هي الاساس الكامل لحسم . لكنها مع ذلك عبرت عن توجه يؤكد استعداداً قوياً لسماع وتقبل ما يبديه القائد المتعب من حجج وبينات على انهاك قطعاته ، وعن المصاعب المادية التي تحول دون مواصلة المعركة . ونقر هنا أن من الطبيعي أن يسعى المرء لراحة وتوفير القطعات المنتصرة سيما عند عدم تيسر قطعات أخرى، ويشتد حرص القائد بهذا الخصوص ان توقع تكليفه بمهمات جديدة في القريب العاجل، فوق طاقة القائد ، وغالباً ما تكون كذلك فعلاً عندما تتواصل العمليات التعرضية . الا إن منطقاً من هذا النوع ليس صحيحاً ، فمن الواضح ان اية

خسائر اضافية بسبب تواصل المطاردة تكون كبيرة نسبياً الا انها أقل بكثير مما سيّعانيه العدو المندحر من خسائر لنفس الوقت. لكن وفقط عندما لا تعتبر القوات المقاتلة العامل الحاسم والمهم ، قد يكون الرأي السابق مقبولاً او يمكن طرحه . وتبعاً لذلك يجد المرء في الحروب الاولى أن الابطال العظام فقط – مثل شارلس الثاني عشر ، و(مارلبورو)، والامير ايوجين ، وفردريك الكبير – كانوا قادرين على ترسيخ انتصاراتهم وجعلها حاسمة بقوة بمطاردات فعالة . في الوقت الذي يفضل فيه قادة اخرون وكقاعدة، البقاء متمسكين باستيلائهم على ساحة المعركة . اما الحروب المعاصرة ، التي شنت بحيوية وقدرات متزايدة استجابة للزيادة في حجم ونطاق الظروف فقد حطمت تلك القيود التقليدية ، فالمطاردة تُعدّ إلان إحدى الاهتمامات الرئيسية للمنتصر، كما تزايدت الغنائم تبعاً لذلك بشكل جوهري . وحتى لو وجدت أمثلة بين احدث المعارك تشير الى غير ذلك ، فتلك اذن أمثلة استثنائية ، ومن العوامل غير الاعتيادية التي تظهر دائماً في العمل .

لقد امكن منع وتجنب الهزيمة الكاملة في معارك مثل (كروس – كورشين)[1] و(بوتزن)[2] بفعل خيالة التحالف المتفوقة فقط ، اما في معركتي (كروس

(١) معركة كروس كورشين (٢مايس١٨١٣) وتعرف بمعركة لوتزن وهذه بلدة جنوب غرب لايزك جرت فيها معركة شهيرة عام ١٦٣٢ بين غوستاف ادولف القائد السويدي الشهير والامير (والشتاين) (المانيا) وقتل فيها غوستاف ادولف . اما الان فقد تغلبت مقدمة الفرنسيين على قوة تعويق صغيرة للتحالف في ضواحي لايزك بعدها شن الجنرال فيتنشتاين (روسيا) هجوما مباغتا على فيلق الجنرال ناي وكان نابليون وقتها يتفقد ساحة المعركة القديمة فحشد قوته بسرعة وشن هجوماً مقابلاً على الروس ولولا اعياء حرسه الاخضر لاستطاع نابليون تمزيق اعداءه الذين استغلوا الفرصة وانسحبوا بانتظام بعد خسائر متعادلة (١٨) الف لكل منهما . المترجم

(٢) معركة بوتزن (٢٠ مارس ١٨١٣) وهي بلدة شرق دريسدن التي احتلها نابليون في ٨/ مارس ثم طارد قوات التحالف المنسحبة شرق نهر « ايلب » فارسل المار شال ناي بنصف قوته للقيام باحاطة واسعة (٥٠) ميلاً شمال دريسدن اما نابليون فاستمر بمطاردة قوات الجنرال الروسي باقي القوة . كان الروس بموقف سيء شرق نهر (سبني) فهاجم نابليون عبر النهر بـ (١١٥) الف ونجح بدفع اعداءه وهم بحدود (١٠٠) الف من مواضعهم الدفاعية . وصل ناي بعد الظلام وكان بوضع يمكنه من مهاجمة جناح ومؤخرة التحالف صباح اليوم الثاني . لقد كان مخطط نابليون الاستراتيجي كاملاً وصحيحاً ورائعاً وكاد يؤتي ثماره لولا غباء المارشال ناي الذي عجز عن فهم غايات نابليون فلم يشن هجومه الا بعد الساعة ١١٠٠ كما أُغفل مهاجمة مؤخرات العدو او خطوط مواصلاته كما ان نابليون انتظر حتى يكمل ناي التطويق وحين ادرك ما حدث كانت الفرصة قد ضاعت ونجا (فيتنشتاين) بانسحاب سريع الى سيليزيا . كانت خسائر الطرفين متساوية مرة اخرى وبحدود(٢٠) الفا لكل منهما . كما ضاعت ولمرة اخرى ايضاً فرصة المطاردة راجع (ص ٢٩٥). المترجم

بيرن)[١]و(دينفتز)[٢] فبفعل إستياء وغضب ولي العهد السويدي ، وفي معركة (لاون)[٣] بسبب عمر بلوخر وسوء حالته الصحية .

تقدم لنا معركة (بوردينو) والتي تعرف ايضاً بمعركة (موسكو) مثلاً ذو علاقة بالامر ، ولا يسعنا تجاوزه دونما تعليق حوله – جزئياً لاننا نعتقد ان مجرد القاء اللوم على نابليون لا يكفي لاجلاء الموقف وجزئياً لان هذا المثال ومع عدد غير قليل من امثلة مشابهة قد يبدو من ذلك النوع الذي اعتبرناه نادراً جداً ، اي الحالة التي يجد القائد فيها نفسه مقيداً بكلما في هذه الكلمة من معنى ومن كل اتجاه بموقفه العام في المعركة الدائرة .

لقد تعرض نابليون الى لوم قاس ، وعلى الاخص من قبل المؤرخين الفرنسيين ، وحتى من اشد المعجبين به ، امثال (فودانكو، وشاميريه ، وسيكوز) لفشله في اخراج الروس من المعركة نهائيا ، او في استخدام آخر ما تبقى من احتياط لديه لسحقهم تماماً . وحجتهم في ذلك أن خسارة المعركة لا معنى لها سوى الهزيمة المطلقة . الا اننا سنبتعد

---

(١) معركة (كروس بيرين) –٢٣/اب / ١٨١٣ . وجرت عند بلدة تقع جنوب غرب برلين مباشرة . اعتمدت خطة نابليون على وضع فيلق الجنرال دافو في هامبورج داخل الحصن كتهديد دائم لاي مناورة يحاول التحالف القيام بها غربا عبر بروسيا. اما الجنرال (سان سير) فقد احتل دريسدن كمحور محتمل للمناورة وسحب نابليون باقي قوته (عدى ما ترك منها داخل دانزيك) ما بين الموضعين اعلاه لحركة مقبلة على الخطوط الداخلية كانت قواته بحدود (٣٠٠) الف رجل مقابل (٤٥٠) للتحالف الذي كانت استراتيجيته تعتمد تجنب الدخول في معركة مع نابليون بل الاكتفاء بمهاجمة جنرالاته حيثما امكن وهكذا هاجم برنادوت قوات الجنرال اودينوت (٦٠) الفا جنوب برلين في معركة (كروس بيرن) كما هاجم الجنرال بلوخر قوات الجنرال ماكدونالد في معركة كاتزباخ في ٢٦/اب راجع الموسوعة العسكرية (ص ٧٦١) اللمترجم .

(٢) معركة (دينفتز) ايلول تشرين اول ١٨١٣ . الاندحار الفرنسي . حاول المارشال (ناي) الذي سبق المارشال نيكولاس اودينوت (الفرنسي) لاحتلال برلين ، الا انه دحر على يد الجنرال برنادوت في (دينفتز) في (٦/ايلول) بعد فرار الفرقة الساكسونية ، كما انسحبت بافاريا من تحالف الراين وانضمت الى الحلفاء (معاهدة رايد –٨/١٠) . راجع موسوعة التاريخ العسكري ص ٧٦١ المترحم .

(٣) معركة « لاون » . راجع الهامش في الفصل السابع الكتاب الرابع ص (٣٣٩) . عن موسوعة التاريخ العسكري – ص ٧٦٠-٦١-٦٣ – المترجم .

كثيراً عن سياق البحث لوحاولنا اعطاء صورة مفصلة عن المواقف النسبية لكلا الطرفين، الا أن ما قلناه كاف . اذ وعندما اجتاز نابليون نهر (نيمين) كانت قواته بحدود (٣٠٠) الف رجل موزعين على الفيالق التي يمكن زجها في معركة بوردينو ، اما الان فلم يعد معه سوى (١٢٠) الف رجل ، ولعله قد تساءل مع نفسه ولربما لمرات عديدة، عما اذا كان بوسعه المسير الى موسكو بعد الان – اذ في موسكو وكما يبدو سيتقرر كل شيئ . لقد عزز الانتصار من ثقته بنفسه وبقدرته علي احتلال العاصمة ، وكان يبدو من المستبعد جداً مواصلة الروس للقتال وخوض معركة اخرى خلال اسبوع ، لذا كان نابليون يأمل بقدرته على الوصول الى سلام في موسكو . ونقر بانه كان سيضمن السلام الى حد كبير لو كان الجيش الروسي قد دُمّر تماماً ؛ الا ان الاسبقية الاولى في حسابات نابليون كانت في الوصول الى موسكو ، والوصول اليها بدرجة كافية من القوة كي يتسنى له ومن موضع القوة فرض ارادته على العاصمة ، ومن ورائها على حكومة الامبراطورية الروسية .

لكن وكما انتهت اليه الامور ، فان القوة الفعلية التي وصلت موسكو لم تكن كافية لتلك المهمة . ولكنها كانت ستكون أقل من ذلك حتى، اذ ان نابليون وفي مسعاه لسحق الجيش الروسي كان سيضعف جيشه هو كذلك. لقد أدرك هذه الحقيقة تماماً، ونرى أنه محق في ذلك ولديه مبررات كافية . ومع ذلك فلا يجوز اعتبار هذا المثال من الحالات التي يفرض فيها الموقف العام على القائد ان يلحق انتصاره بمطاردة فورية . وفي الحقيقة لم يكن هناك اي مجال لمطاردة من هذا النوع . لقد حسمت المعركة حوالي الساعة (١٦٠٠) الا ان الروس كانوا مسيطرين على معظم ميدان المعركة ، ولم تكن لديهم أية نية للأنسحاب ، بل واكثر من ذلك كانوا قادرين على مواجهة أي هجوم جديد بمقاومة عنيدة ، ومع ان ذلك سيعني كارثة كبيرة لهم الا انه

سيزيد من خسائر الفرنسيين كذلك. تشبه معركة بوردنيو[1] معركة بوتزن في انهما لم يتم **خوضهما حتى النهاية**. في بوتزن اختار المندحر ان يترك ساحة المعركة بوقت مبكر ، اما في بوردينو فقد اثر المنتصر الاكتفاء بانتصار محدود – ليس بسبب شكوكه حول النتيجة بل لأن النصر كان سيكلفه اكثر مما في طاقته .

آن لنا ان نعود الى موضوعنا ، والملاحظات المتعلقة بالمطاردة الفورية تقودنا الى الاستنتاج التالي : تتحدد اهمية الانتصار بدرجة كبيرة بالحيوية والشدة التي تنفذ فيها المطاردة الفورية . وبكلمة اخرى ، تعتبر المطاردة العمل (المكون) الثاني للنصر ، وفي حالات عديدة اكثر اهمية من الاول . تقترب الاستراتيجية في هذه النقطة كثيراً من التعبية كي تتسلم المهمة المنجزة منها ، وان اول طرق ممارسة سلطتها هي ان تفرض اكمال النصر فعلاً .

علاوة على ذلك فان مضاعفات واصداء الانتصار نادراً ما تتوقف عند نهاية

---

(١) معركة موسكو او معركة بوردينو ٧/ايلول /١٨١٢ كان القائد الروسي الجنرال كوتزوف قد قرر الصمود وبامرته (١٢٠) الف رجل على مسافة (٦٠) ميلاً شرق موسكو . حشد نابليون قوة تزيد على الـ (١٢٠) الف بقليل وشرع بتطويق جناح الروس الايسر وفي أوج المعركة تخلى نابليون فجأة عن القيادة المباشرة في واحدة من سلسلة النوبات التي توالت حتى في معارك فيما بعد دونما تفسير طبي واضح لها واستمر القتال سجالاً حتى أجبر الروس على التراجع عند حلول الليل بعد خسارتهم (٤٠) الف رجل وخسر الفرنسيون (٢٨) الفاً . لقد اختفت الحيوية المعهودة في معارك نابليون هنا . وفي ١٤/ايلول دخل نابليون موسكو التي كانت قد أُخليت من سكانها واحرقت بيوتها الخشبية وأُفرغت مخازنها من المواد الغذائية والضرورات مما زاد في مشاكل نابليون الادارية واضطرت قطعاته للأيواء في الضواحي كما تدهورت معنويات جيشه الذي تبعثرت اقسام كثيرة منه على الطريق ولم يكن تحت سيطرته سوى حوالي (٩٥) الفاً . احتفظ الجنرال كوتزوف بجيش نشط وسالم وبحدود (١١٠) الاف رجل جنوب موسكو كما هبت روسيا بكاملها للدفاع عن الوطن المقدس ضد الوحشية الفرنسية التي لا مبرر لها . كذلك كانت قوات الجنرال فتشتاين تهدد خطوط مواصلات نابليون ، وكانت هناك قوة روسية أخرى بقيادة الجنرال او الادميرال تشيتشاكوف جنوب مستنقعات برينت وتتحرك غرباً لتهديد جناح الفرنسيين في (بريست ليتوفسك) مما اجبر نابليون على الانسحاب من موسكو لقضاء الشتاء في سمولنسك وتم ذلك في ١٩/١٠ وفي ٢٤/منه حاول نابليون تدمير قوات كوتزوف الا ان هجومه هذا قد صد كما رفض القيصر الروسي الاكسندر توقيع السلام مع نابليون فقرر هذا الانسحاب من روسيا . عن موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٧٥٨ . المترجم .

المطاردة الاولى ، فهي ليست سوى البداية الحقيقية لمسار الاحداث التي اطلق الانتصار عنانها وامدها بالزخم . وكما اوضحنا سابقاً ، فان هذا المسار سيتأثر بعوامل أخرى ليست موضوعاً للمناقشة هنا ، وسنواصل هنا تفحص اكثر جوانب المطاردة شيوعاً واهمية كي لا نضطر الى اعادتها فيما بعد .

يمكن ان نميز ثلاث انواع او درجات في المطاردة المستمرة هي :

الاول. ويتألف من مجرد ملاحقة العدو .

الثاني . بفرض المزيد من الضغط على العدو .

الثالث. في موازاة العدو اثناء المسير لقطع الطريق عليه .

فلو اكتفينا بتعقيب العدو فسيواصل التراجع بدوره حتى يشعر بقدرته على خوض قتال جديد . وبكلمة اخرى فان هذا النوع من المطاردة كاف لاستنزاف تأثير التفوق الذي تحقق في المعركة . يضاف الى ذلك ان المنتصر سيستولي على كلما لا يستطيع المندحر اخذه ، بما في ذلك المرضى ، والجرحى والمشردين والعربات والاحمال من كل الانواع . الا ان تعقيب العدو ليس كافيا بحد ذاته لتحطيم القوات المعادية، ويمكن للضغط المتزايد ، والمسير المتوازي مع العدو ان يحققان ذلك .

في استخدام النوع الثاني من المطاردة المتواصلة لا يعني هذا اكتفائنا بمجرد تعقيب العدو الى مواضعه السابقة ونحتل من الارض بالقدر الذي يرغب هو بالتخلي عنه . بل نهيئ وبدلاً من ذلك لمطلب يفوق ذلك ولكل مرحلة ؛ وتكيف عناصرنا الامامية نفسها لمهاجمة ساقات العدو كلما حاولت هذه احتلال مواضع جديدة ، الامر الذي يزيد من سرعة تراجع العدو وزيادة تمزق وبعثرة قطعاته ويتحقق هذا بالدرجة الاولى لانه يحتاج الى تواصل تراجعه دون تدخل او عرقلة . وما من شيء ابغض واكثر مقتاً للجندي (المنسحب) من سماع هدير المدافع المعادية بعد لحظات من توقفه للراحة ولم الشمل بعد تراجع مرهق . ولا شك في ان تكرار مثل هذه المشاهد والاحداث يوما بعد يوم سيؤدي الى رعب مطلق . وبعد اقتناع وادراك اكيدين للحقيقة المرعبة في ان اليد العليا اصبحت للعدو ، وتعذر ابداء اية مقاومة مجدية ، ينعكس ذلك في تدهور شديد لمعنويات القطعات . ويتفاقم الموقف حين يبدأ العن اشكال الضغط والمتمثل في اجبار الجيش المندحر على مواصلة التراجع ليلاً . فان نجح المنتصر باجبار عدوه بعد غروب الشمس على اخلاء المأوى الذي اختاره لجيشه او

لساقاته على الاقل ، فعلى العدو اما مواصلة الانسحاب ليلاً اوالتحول الى مواضع ومعسكرات اخرى - والامر سيان . بينما يحضى المنتصر بليلة من الراحة .

تعتمد ترتيبات التنقل واختيار المواضع ، هنا وكما في اي موقف آخر ، على مجموعة متنوعة من العوامل ؛ وعلى الاخص الاعاشة والتموين ، والعوارض الارضية المهمة ، والمدن الكبيرة وغير ذلك . وسيكون من المعيب او الحذلقة الفارغة ان نستعرض من خلال التحليل الهندسي كيف بوسع المنتصر المتفوق اجبار عدوه المندحر على مواصلة التراجع ليلة بعد ليلة في الوقت الذي تستريح فيه قطعاته هو الا ان من الحقائق الاكيدة ، بل والمفيدة ايضاً ان مطاردة أُحسن تخطيطها قد تحاول فرض ذلك على العدو ، وبذلك ستكون مطاردة فعالة للغاية . اما السبب في قلة تطبيق واستخدام هذا النوع من المطاردة فهو ان الجيش المطارد نفسه سيجد أن سياقاً كهذا اصعب كثيراً من مراعاة الساعات المعتادة للعمل والتوقف في الاوقات المألوفة خلال اليوم . من الاسهل كثيراً إخلاء المعسكر أو المأوى بوقت مبكر في الصباح والدخول في آخر بعد ساعات الظهيرة وقضاء باقي ساعات النهار في اعادة الاملاء والاعاشة وسد النقص والنوم ليلاً ، مما لو نُسقت تحركاتك مع العدو (المطارد) ، واتخاذ كل القرارات بوقت قصير ، مع اخلاء المعسكر / المأوى مع الفجر في احد الايام ومع الغسق في يوم آخر ، وفي مواجهة العدو لعدة ساعات متوالية ، وفي تراشق مدفعي متتالي ، واشتباكات صغيرة (مهارشة) ، والعمل على تطويق أحد اجنحته ، والخلاصة متوخياً استخدام كل الحيل التعبوية التي يسمح بها الموقف . يضع ذلك اعباءً ثقيلة على المطارد، والحرب مليئة بالعديد من هذه الاعباء التي يغدو من الطبيعي ان يحاول الرجال التخلص منها وتجاهل الأشياء والاعمال التي يبدو لاول وهلة وكانها لابد منها . تظلّ هذه الاعتبارات معقولة وصالحة للتطبيق والتكرار سواء بالنسبة للجيش ككل ، أو وكما هو شائع عادة للمقدمات القوية . والاسباب المذكورة اعلاه تكمن وراء ندرة هذا النوع من المطاردة نسبياً - اي تطبيق الضغط المتواصل على الجيش المندحر . فحتى نابليون لم يستخدم ذلك الا قليلاً في حملته عام ١٨١٢ في روسيا . وسبب ذلك واضح وهي أن المصاعب والمشاق التي واجهها في حملته هذه، كانت كافية لتهديد جيشه هو باندحار تام قبل وصوله الهدف . الا ان الفرنسيين تميزوا في حملات اخرى بنوع رائع من الحيوية في هذا المجال بالذات .

الثالث ، والاخير، والنوع او الدرجة الاكثر فاعلية من المطاردة ، والتي تتخذ شكل مسير مواز لمسير العدو نحو الهدف الاني للتراجع .

لكل جيش مندحر نقطة او خط تراجع اولي – على مسافة ما – حريص للغاية للوصول اليه . وقد يشكل هذا المكان تهديداً لمراحل التراجع التالية ، كأن يكون مضيقاً ، أو أن من الضروري ادراكه قبل العدو فقد يكون مدينة كبيرة ، أو قاعدة تموين، أو شيء من ذلك ، واخيراً فقد يكون النقطة التي يتوقع أو ينتظر المنسحب فيها الحصول على قوى وموارد جديدة للمقاومة ، كما عندما يكون موضعاً قوياً ، او مفرق طرق تتيسر فيه قطعات اضافية وغير ذلك .

لو استخدم المطارد طريقاً ثانياً للوصول الى ذلك الهدف فسيجبر المنسحب على زيادة سرعة تراجعه متكبداً بذلك الكثير من الخسائر ، ويمكن ان يتحول الانسحاب الى سباق رهيب وبالتالي هزيمة نكراء . هناك ثلاثة طرق فقط امام المنسحب لمواجهة ذلك :

الاولى . باستدارة على العدو ، والمحاولة وبهجوم مباغت قلب الامور الى شكل افضل مما يوحي به او يقدمه الموقف الاني . ومن الواضح ان عملاً كهذا يتطلب قائداً شجاعاً ومقداماً وقطعات من الطراز الاول – تعرضت لمصاعب الا انها لم تندحر كلياً – لذلك فمن النادر جداً ان يحقق جيش مندحر مثل هذه البراعة .

الثانية . وهي بتسريع الانسحاب . الا ان هذا هو ما يريده المنتصر بالضبط ومن المحتمل ان يتسبب في انهاك القطعات وتشتتها بدرجة كبيرة ، وتتعطل المدافع ووسائل النقل وبالتالي مضاعفة الخسائر .

الثالثة وهي القيام بتحويله (detour) وتجنب نقاط التقاطع القريبة ، ومن الناحية النظرية فان التراجع على مبعدة من العدو يتطلب جهداً اقل ، ويمنع المطاردة من التسبب في خسائر اكبر . تعد الطريقة الثالثة الاكثر سوءً ، اذ تشبه قيام المفلس باستدانة جديدة ، كما انها تؤدي عادة الى فوضى واخفاقات اكبر . هناك دون شك حالات يُنصح فيها باستخدام هذه الطريقة ، وحالات اخرى تكون فيها هي الطريقة الوحيدة المتاحة . بل وهناك حالات اثبتت فيها هذه الطريقة جدواها . ومع ذلك فالسائد عموما ان هذه الطريقة لا تنتخب بالتأكيد للأقتناع بانها الافضل للوصول الى الهدف بسلام ، بل لأنها افضل من طريقة اخرى تبدو اقل ضماناً ، وخوفاً من اطباق العدو المنتصر . وبغض النظر عن مدى تدني المعنويات في قطعات المندحر ، ومبررات ادراكه انه في موقف مليئ بالمخاطر والاضرار لو اشتبك بقتال جدي مع العدو او اية مبررات اخرى فان الموقف سيتدهور ويزداد سوءً اكثر واكثر مع كل تهرب جبان عن

كل فرصة اشتباك مع العدو . وما كان بوسع نابليون مطلقاً العودة عبر نهر الراين عام ١٨١٣ مع الـ (٣٠-٤٠) الف رجل الذين بقوا معه بعد معركة (هانو)[1] لو انه رفض المعركة هناك وحاول العبور في (مانهايم) او (كوبلنز) فمعارك صغيرة واشتباكات اعدت بدقة وعناية ونفذت كذلك من قبل جيش مندحر كان في حالة دفاع واحسن الاستفادة من مزايا الارض **تعد من افضل السبل والوسائل للبدء في استعادة معنويات وقدرات القطعات** .

فحتى النجاحات الصغيرة يمكن ان تفعل الاعاجيب . ومع ذلك يفرض الموقف على معظم القادة التغلب على التردد والنفور في محاولة القيام بذلك . فالقرار يبدو وللوهلة الاولى الاسهل والمفضل عادة . الا ان هذا القرار سيعجل في تحقيق غاية المنتصر اكثر من اي شيء اخر ، وغالباً ما ينتهي بدمار كامل وهزيمة نكراء للقوات المندحرة . نحن نتحدث هنا عن الجيش ككل بطبيعة الحال ، وليس عن جزء منه انعزل لسبب ما ويحاول العودة الى القسم الاكبر عن طريق جانبي . فمثل هذه المحاولة تشكل موقفاً مختلفاً ، والنجاح فيه ليس بعيد الاحتمال . الا ان هناك ظرفاً ملازماً للسباق نحو هدف معين ؛ فقد يتوجب على جزء من قوات المنتصر تعقيب الجيش المتراجع على نفس طريق انسحابه ، وتطهير كلما يخلفه وراءه ، وليترك انطباعاً بكونه قوة مطاردة . الا ان المطاردة التي تولاها الجنرال (بلوخر) بعد معركة (واترلو) كانت نموذجاً في كل جوانبها الاخرى الا انها اغفلت هذه النقطة .

تضعف مسيرات من هذا النوع القوات المطاردة حقاً . ولا يحبذ القيام بها في الحالات التي بوسع العدو الانضمام الى قوات (بحجم معقول) اخرى ، او حين يكون على رأس القوات المعادية قائد فذ ، ولم تصل قواته حالة الدمار بعد أو إنها على وشك ذلك . ومع ذلك وحيثما تسنح الفرص لاستخدام هذه الطريقة ، فسيكون لها تأثير ونتائج جيدة . تصل خسائر المندحر من المرضى والاعياء نسباً عالية ، كما تضعف

---

(١) معركة هانو (١٨١٣/١٠/٣٠) كان الجيش البافاري بقيادة الامير كارل فيليب (٤٠) الف رجل متجهاً لقطع خط انسحاب قوات نابليون المطاردة من قبل قوات التحالف من الشرق . اوشك نابليون على الوقوع في مصيدة الا انه وباحدى حركاته العبقرية ناور بهجوم مسند بشكل جيد بالمدفعية فازاح البافاريين بعد ان كبدهم (٩) الاف رجل مقابل (٥) الاف له واستطاع الجيش العظيم مواصلة عبور نهر الراين (١-١٨١٣/١١/٥) (موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٧١٢ (المترجم).

معنوياته العامة وينهار بفعل الخوف والرعب الشديدين من الكارثة المقبلة ، حتى تغدو اية مقاومة منظمة مستحيلة في النهاية، ويسقط الاف الاسرى بيد العدو يومياً دون توجيه اية ضربات . وفي مثل هذه الفرص السعيدة على المنتصر الا يخشى من تجزأة قواته لتطويق كلما يمكن الوصول اليه لدى العدو ، ولعزل اية وحدات بعيدة ، والاستيلاء على الحصون التي خلت من حامياتها ، واحتلال المدن الكبيرة وغير ذلك . اذ بات بوسعه القيام بكل ما يحلو له حتى تبدل الموقف ؛ وكلما كان اكثر انطلاقاً كلما زاد في تأخر لحظة التبدل تلك .

هناك العديد من الامثلة لنتائج وتأثيرات رائعة لبعض الانتصارات الكبرى والمطاردات الفريدة من الطراز الاول في حروب نابليون . ولعل الاستشهاد بمعارك (ينا) [١] وريجنزبيرك [٢]

---

(١) معركة ينا (١٨٠٦/١٠/١٤) احدى اشهر معارك العصور الحديثة . بعد معرفة البروسيين بتقدم نابليون نحوهم عدّلوا خططهم فاتجه دوق برونزويك ومعه (٦٣) الف رجل شمال شرق نحو (اويرشتاد) ١٥ ميلاً شمال (ينا) . والامير هو هنلو ومعه (٥١) الفاً موزعين على جبهة (١٥) ميلاً ما بين (ينا) و(فيمار) لحماية مؤخرة برونزويك . شن نابليون هجومه بعيد الفجر قليلاً على قوات هو هنلو في (ينا) وبامرة نابليون (١٠٠) الف فنجح بطرد البروسيين من ساحة المعركة ظهراً . كما هاجم الجنرال الفرنسي دافو (٢٧) الف قوات برنزويك. وتعتبر معركة (ينا) ومعركة اويرشتاد التي تلتها احد الامثلة الرائعة في سرعة تحشيد نابليون لقطعاته وتحريكها بمهارة محققاً نصراً استراتيجياً حتى قبل بدء العمليات التعبوية . موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٧٥١ المترجم .

(٢) معركة ريجنزبيرك او (راتسبون) ١٨٠٩/٢/٢٣ . وقد جرت هذه بعد سلسلة من المعارك في حملة نابليون ضد النمسا هذا العام . لقد حاول القائد النمساوي شارل تكريس كل موارده لعبور الدانوب والتراجع باتجاه شمال غرب، ولستر انسحابه هذا قرر الدفاع في مدينة راتسبون .اما نابليون وبعد اسبوع من القتال الشديد والتنقل المستمر الذي انهك قواته ، لم يستطع شن مطاردة فعالة وفي الوقت الذي دخلت قواته المدينة كان النمساويون يفرون منها وقد اصيب نابليون بجرح بسيط. (تعليق للموسوعة) : بعد سبعة ايام من التنقل والقتال حوّل نابليون الجيش الفرنسي من على شفير هاوية الاندحار الى الانتصار الرائع بعد ان كبد النمساويين (٣٤) الف رجل منهم (٤) الاف اسير اما خسارته فكانت بحدود (١٥) الفاً . للمزيد راجع (موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٧٥٥ (المترجم) .

و(لايـــبـــزك)[1] و (واترلو)[2] كان لهذا الغرض .

---

(١). معركة لايبزك. راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث. (ص ٢٧٣)

(٢). واترلو (١٨/٦/١٨١٥) حملة ضمت عدة معارك وتعد الاشهر في التاريخ الاوروبي وتستحق كتاباً صغيراً خاصاً وسنكتفي هنا بما له علاقة بالمطاردة وهو ليس بالقليل والذي يتمثل بفشل الفرنسيين اولاً في ٦/١٧ في المطاردة اذ وبعد ان نجح نابليون في معركة « لكني» في ٦/١٦ باختراق قوات الجنرال بلوخر الذي تراجع امامه ولولا تأخر الماريشال الفرنسي ناي في التدخل ومطاردة بلوخر لتمكن نابليون من تدمير الجيش البروسي واخراجه من الحرب نهائياً ثم تفرغ بعد ذلك بكل قواه ضد الانكليزي ويللنكتن وكان هذا فشلاً في مطاردة المنتصر للمندحر ثم وفي صباح ٦/١٧ امر نابليون الجنرال كروشي (بعد تردد وتأخير قاتلين) وبامرته (٣٣) الف رجل مطاردة الجيش البروسي واتجه هو نحو ويللنكتن الذي كان قد أنسحب هو الاخر بعد معركة (كواتر – برأس) يوم ٦/١٦ نحو بروكسل واحتل موضعاً دفاعياً جنوب واترلو . الا ان نابليون تأخر في حشد وتحريك قواته باتجاه الانكليز الى ما بعد الظهر ثم ساهمت عاصفة ما طره بالمزيد من التأخير واعاقة تقدم الفرنسيين ومنع المقدمة من تنفيذ استطلاع بالقوة للدفاعات البريطانية القوية واجل نابليون هجومه مرة اخرى الى صباح اليوم التالي كي تجف الارض وكانت ساعات التأخير هذه حاسمة فقد فشل الجنرال كروشي في تحقيق التماس مع الانكليز كما بدأت طلائع بلوخر بالاقتراب من مواضع ويللنكتن ، وفي الساعة (١٦٠٠) شن نابليون هجومه المرتقب بـ (٧٢) الف رجل ضد قوات ويللنكتن (٦٨) الف رجل ومع ذلك استطاع دحرهم بضغط الخيالة الفرنسية التي كان يقودها المارشال ناي بنفسه ، الا ان نابليون لم يعزز هجوم الخيالة بالمشاة (الحرس الامبراطوري) بسبب خوفه من وصول البروسيين على يمينه . ولو كان زج بمشاته انذاك لامكن اختراق وازاحة الانكليز من مواضعهم الامر الذي عجزت خيالته بمفردها عنه لا سيما ضد دفاعات قوية كالتي كانت للانكليز وكي يزداد الموقف سوءً فقد بدأ ت قوات الجنرال بلوخر تفرض ثقلها في الميدان فاضطر نابليون الى ارسال قوات الجنرال (لوبوا) لملاقاتها وقام بنفسه باخر محاولة لدحر الانكليز ولكن بقوات الحرس الامبراطوري وحدها هذه المرة الا ان هجومه هذا امكن صده بالمشاة البريطاني المعروفين بـ « Thin Red Line» ثم شن ويللنكتن هجوماً مقابلا تزامن مع تزايد ضغط بلوخر وبامرته (٦١) الفاً مما ادى الى انهيار الحرس الامبراطوري وهزيمته التي ضاعف منها مطاردة البروسيون له . موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٧٦٨ . المترجم .

الفصل الثالث عشر

الانسحاب بعد معركة خاسرة

عندما يخسر الجيش معركة تتحطم قوته – المعنوية اكثر من المادية. فان خاض الجيش بعدها معركة أخرى دون مساعدة عوامل جديدة في صالحه فسيعني ذلك دماراً تاماً ، وربما هزيمة كاملة . وهذه حكمة عسكرية . وان من طبيعة الاشياء ان يستمر التراجع حتى يمكن استعادة التوازن – اما عن طريق تعزيزات ، او بتغطية من حصون قوية ، او مانع طبيعي رئيس ، او تجزأة وتشتيت قوات العدو الى درجة كبيرة . ان حجم الخسائر ، وشدة الاندحار ، وما هو اكثر اهمية من ذلك ، اي طبيعة وميزات العدو ستقرر مدى قرب اللحظة التي يعود فيها التوازن والاستقرار . في الحقيقة هناك الكثير من الامثلة التي استطاعت فيها قوة مندحرة من التجمع والتماسك بعد فترة قصيرة دونما تغيير ملحوظ في الموقف نهائياً منذ انتهاء المعركة . يكمن سبب ذلك اما في كون معنويات المنتصر نفسه منخفضة او في حقيقة كون التفوق المعادي ابان المعركة لم يكن كافيا لحسم نهائي .

للأستفادة من اي وهن او اخطاء لدى العدو ، لا يجوز التنازل عن اي شبر اخر من الارض اكثر مما تفرضه الظروف القاهرة ، وعلى الاخص لابقاء المعنويات على اعلى ما يمكن، فمن الضرورات المطلقة والاساسية القيام بقتال تراجعي بطيء ، ومواجهة العدو المطارد بشجاعة وحزم حيثما حاول الاستفادة من مزايا موقفه كثيراً. يشبه تراجع القادة العظام والجيوش المتمرسة وعلى الدوام تراجع الاسد الجريح ، وهذا هو الاجراء المفضل نظرياً دون اي سؤال .

عندما يتوجب التخلي عن موضع حيوي ومهم ، غالباً ما يضيع الكثير من الوقت في شكليات وتفاصيل تافهة ، مما يضاعف في الاخطار الماثلة . بينما يعتمد كل شيء في حالات كهذه على الابتعاد باسرع ما يمكن . ويعتبر القادة العظام ذلك من الامور المهمة جداً . وينبغي ان لا يفسد أو يربك انسحاباً عاماً . ومن يعتقد أن بوسع بضعة مسيرات قسرية أن توفر له بداية جيدة وتساعده على الصمود ، فقد ارتكب خطأً

خطيراً . اذ يجب ان يكون التنقل الاول ضئيلاً ولا يستغرق سوى القليل من الوقت ولا يلفت الانظار ، وكمبدأ أساسي يجب ألا نسمح للعدو بفرض إرادته . ولا يمكن مراعاة وتطبيق هذا المبدأ دون خوض قتالات شرسة مع العدو المطارد ، اذ يستحق هذا المبدأ ما نتكبد لاجله . وبخلاف ذلك ستزداد سرعة الانسحاب وبشكل يعجل انقلابه الى هزيمة . سيفقد الكثير من الرجال ارتباطهم مع وحداتهم ويصبحوا مشردين بسبب ذلك وباكثر مما يخسره المنسحب من الرجال في قتالات الساقات (المؤخرات). كما ستختفي اخر نفحات وملامح الشجاعة كذلك .

تتألف الوسائل الكفيلة لوضع المبدأ المذكور اعلاه موضع التطبيق من عددٍ من العوامل ؛ مثل ساقات (حرس مؤخرة) قوية ، ومختارة من بين أفضل القطعات ويقودها اكثر الجنرالات شجاعة ، على أن تُسند تلك الساقات وفي اللحظات الحاسمة بباقي الجيش ، وكذلك المهارة في استخدام الارض ؛ والكمائن القوية حيثما تسمح به جرأة مقدمات العدو ، والارض . الخلاصة ، فانها تتألف من تخطيط وتنفيذ الاشتباكات الصغيرة المعتادة .

تعتمد شدة ودرجة المصاعب التي تواجه الانسحاب بطبيعة الحال على ما إذا جرى خوض المعركة في ظروف ملائمة ولصالحنا وكان القتال شديداً . وتظهر لنا معركتا (ينا) ، و (واترلو) أن اي نوع من التراجع النظامي يصبح مستحيلاً اذا جرى بعد خوض المتراجع القتال حتى النهاية ضد خصم متفوق .

يقترح البعض بين اونة واخرى (أمثال لويد ، وبيلو) ضرورة انقسام القوات المتراجعة ، وأن تنسحب بارتالٍ منفصلة ، أو حتى على محاورٍ متباعدة . لابد من ايضاح اننا لا نناقش هنا الفصل والتجزأة لجعل المسير أيسر وأسهل ، حيث يبقى الخيار والعزم على أن تخوض الارتال القتال سوية . وأي تجزأة اخرى ومهما كان نوعها تشكل خطراً جسيماً ، بل إنها تتناقض والميل الانساني الفطري كما انها خطأٌ كبير . تسبب المعركة الخاسرة ودائماً مصاعباً جمة ، وتمزيقاً لأوصال القطعات ؛ والحاجة الملحة انذاك هي في اعادة تجميعها وفرض النظام ، واستثارة الشجاعة والثقة في القطعات المحتشدة . ومن السخف التصور بان عدواً مزهواً بنشوة وقسوة الانتصار يمكن ازعاجه او اضعافه على اجنحته بقوة مجزأة . الا انه يمكن القيام بذلك ان كان

القائد المعادي ليس سوى مدع جبان ، عندها بوسع المتراجع محاولة تجربة تلك الطريقة. لكن وبدون التأكد من حالة الوهن لدى الخصم فمن الافضل للمتراجع تجنب القيام بها . حيثما يفرض الموقف الاستراتيجي بعد المعركة تغطية احد اجنحة المنسحب بمفرزة منفصلة ، يمكن القيام بذلك وعلى أضيق نطاق ممكن ، كما يجب اعتبار تجزأة كهذه قيداً وعائقاً من الخير الرجوع عنه ، وليس بوسع المرء الاخذ به في اليوم التالي للمعركة .

نفذ فردريك الكبير بعد معركة (كولين) [1] ورفع الحصار عن براغ ، انسحاباً بثلاثة ارتال الا انه ما فعل ذلك بمحض ارادته ورغبته ، بل بسبب مواضع قطعاته والحاجة لتغطية (ساكسوني) الامر الذي لم يترك له خياراً . كما أمر نابليون وبعد معركة (برينيه)[2] الجنرال مارمونت بالعودة الى منطقة (اوب Aube) بينما عبر هو السين واتجه نحو بلدة (تروي) . ولم ينتهي كل ذلك بمأساة لان قوات التحالف وبدلاً من مطاردته ، قسموا قواتهم ، فكان القسم الاول تحت قيادة الجنرال بلوخر قد اتجه نحو نهر المارن ، اما الثاني وبقيادة الجنرال شوارزنبرغ فقد تقدم ببطأ شديد لاعتقاده بضعف قوته الامر الذي اثار مخاوفه .

---

(١) معركة كولين (١٨/٦/١٧٥٧) راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث (ص ٢٧٣) .

(٢) معركة برينيه (٢٩/١/١٨١٤) . بعد معركة الامم او معركة لايزك في (١٦/١٠/١٨١٣) ورفض نابليون للسلام الذي عرضه التحالف واصل تراجعه غرباً وبامرته (٤٠) الف رجل تطارده ثلاثة ارتال الاول بقيادة الامير برنادوت (٦٠) الفاً عبر الاراضي المنخفضة والثاني بقيادة الجنرال بلوخر وبامرته (٧٥) الفاً عبر وادي الموزل باتجاه اللورين والثالث بقيادة الجنرال شوارز نبرغ (٢١٠) الف عبر سويسرا وكلهم نحو باريس . فقرر نابليون مهاجمة بلوخر قبل انضمام شوارزنبرغ اليه وحقق انتصارين في (برينيه) و(لاروثير) (٢٩ . ٣٠/١/١٨١٤) على التوالي ، الا انه بالكاد تخلص من احاطة معادية بعد عودة بلوخر لاحتلال بلدة لاروثير (موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية ص ٧٦٣) – المترجم

الفصل الرابع عشر

العمليات الليلية

تعد ادارة وتنفيذ العمليات الليلية وجوانبها الخاصة الاخرى من الامور التعبوية . وسنتناولها هنا بالقدر الذي تشكل فيه نوعاً متميزاً من الحرب.

الهجوم الليلي اساساً عبارة عن غارة مكثفة فقط . وتبدو للوهلة الاولى شديدة الفعالية، مفترضين بان المدافع سيؤخذ على حين غرة ، بينما يكمل المهاجم بطبيعة الحال كافة الاستعدادات الضرورية لما سيحدث . فاية مبارزة غير متكافئة!! فليتصور المرء ان الفوضى شاملة في جانب واحد بينما المهاجم في الجانب الاخر باذلاً كلما في وسعه للأستفادة من ذلك . وتوضح لنا هذه الصورة المشاريع العديدة للهجوم الليلي التي تعد نظرياً او حتى على الورق من قبل رجال لاناقة لهم فيها ولا جمل فلن يتولوا قيادتها ولا يتحملوا مسؤوليتها . اما عند العمل والتطبيق فما اندر هؤلاء المتبجحين .

تفترض كل هاتيك الافكار والمقترحات معرفة المهاجم التامة بالترتيبات الدفاعية التي خطط لها مسبقاً ونفذت بدقة ، لذا لا يمكن ان تفوته نوايا المهاجم سواء برصدها بالاستطلاع او بمعلومات ومصادر الاستخبارات . ومن الناحية الاخرى فترتيبات الهجوم لا تجري الا ساعة التنفيذ ، اذ يجب ان تظل خفية عن معرفة الطرف الاخر . الا ان الامر الثاني لا يحدث دائماً ، وكذلك فالامر الاول اقل شيوعاً ، وما لم يكن العدو قريباً جداً وقادراً على معرفة ما يجري (كما كان فردريك الكبير بالنسبة للنمساويين قبيل معركة (هوش كيرج)[1] فان معرفتهم بموقفه تظل ناقصة . ولابد

---

(١) معركة هوش كيرج راجع الهامش في الفصل الثامن عشر الكتاب الثالث . ص (٣٠٩) .المترجم .

للحصول على مثل تلك المعلومات من الاستطلاع والدوريات ، وافادات الاسرى والجواسيس الا انها لن تكون دقيقة بشكل واف فمثل تلك التقارير دائماً تأتي بعد الحادث وغالباً ما تكون قد فقدت حداثتها ، وربما كان العدو قد غير مواضعه. واكثر من ذلك فقد كانت الاساليب والمنظومات التعبوية في التعسكر والانتشار تسهل كثيراً عملية الكشف عن المواضع المعادية مما عليه الحال الآن . كما يمكن تمييز خط من الخيام باسهل من مجموعة اكواخ ، واقل حتى من اكتشاف مأوى او مخبأ ، كما يمكن تميز خط المعركة المنفتح بتشكيل خطي بطريقة افضل وأيسر من فرقه في تشكيل الرتل ، وهي القاعدة المألوفة هذه الايام . وبهذه الطريقة يمكن تكوين فكرة جيدة عن المنطقة التي تعسكر فيها الفرقة ، رغم انه قد لا يكون من السهل رسم مخطط واضح لطريقة انفتاحها .

ثم ليس المطلوب معرفته عن المدافع هو مخطط مواضعه فقط ، فمن المهم وبنفس الدرجة معرفة الترتيب الذي سيتخذه العدو اثناء العمل . فهو وبعد كل شيء لن يطلق نيران مدافعه بشكل عشوائي وحسب . ونظراً لما لمثل هذه القرارات التعبوية من اهمية تفوق الترتيب الابتدائي للمواضع ، فقد باتت الغارات الليلية اكثر صعوبة في تنفيذها في الحروب الحالية مما في السابق . بوسع المدافع اليوم ترتيب قطعاته بمرونة اكثر، لذا فالحروب المعاصرة تمكنه من مباغتة خصمه بضربات غير متوقعة .

ليس من السهل ان يعرف المهاجم في العمليات الليلية ما يكفي عن المدافع هذا أن عرف شيئاً على الاطلاق تعويضاً عن النقص في الرصد البصري .

للمدافع ميزة صغيرة اخرى ، فهو على معرفة جيدة بالارض التي يدافع فيها، تفوق ما يعرفه المهاجم عنها ، فالمدافع هنا كصاحب البيت الذي يستطيع التجول فيه في الظلام بطريقة اسهل بكثير من الرجل الغريب ، فالمدافع قادر على الالمام بموقف كافة قطعاته بسرعة كبيرة تفوق قدرة المهاجم على ذلك .

يأتي بعد كل ذلك ان المهاجم ايضاً في حاجة الى عينيه في العمليات الليلية كحاجة المدافع لهما . لذلك فلابد من اسباب ومبررات خاصة للهجوم الليلي .

عموماً ، تؤثر تلك الاسباب على الاقسام الفرعية للجيش ، ونادراً ما تؤثر على الجيش ككل . كما ان الغارات الليلية وكقاعدة تحدث خلال الاشتباكات والمعارك الصغرى ، ونادراً ما تحدث في المعارك الكبرى .

يمكن بسهولة مهاجمة وتطويق احد الاجزاء الفرعية للجيش من قبل قوة متفوقة. اذ يمكن اجبار ذلك الجزء الفرعي على الاستسلام ، او تكبيده خسائراً فادحة وذلك باجباره على القتال ضد قوة متفوقة كثيراً - شرط ملائمة كل العوامل والظروف الاخرى . الا ان خطة من هذا النوع لا يمكن تنفيذها الا في مباغتة تامة . ولا نعتقد بان اي جزء من جيش العدو سيود ان يقاتل في ظروف غير متعادلة ؛ بل سيفضل الانسحاب على الاكثر . ولا يمكن توفير عناصر المباغتة بالمقابل ، الا في استثناءات نادرة ، في الغابات والمناطق المشجرة بكثافة ، وإلا صَعُبَ توفيرها الا بمساعدة الظلام . وعليه فان اراد احد الاطراف الحصول على مزايا كهذه ضد مواضع ضعيفة للعدو فعليه التعود على استخدام الظلام ، ولو على الاقل لاكمال الإستحضارات ، حتى لو لم يحدث الاشتباك الفعلي الا قبيل أو مع الفجر . تراعى هذه الاعتبارات في كافة العمليات الليلية الصغرى ضد مراصد ووحدات العدو الصغيرة الاخرى . وتؤكد هذه العمليات ومن خلال التفوق والتطويق ، على جر العدو الى قتال في ظروف ليست ملائمة ولا متعادلة بحيث يتعذر عليه التخلص منها دون خسائر فادحة .

كلما زاد حجم القوة المدافعة التي تهاجم ليلاً **كلما** زادت مصاعب العملية . فلدى القوة الكبيرة الكثير من الموارد الذاتية والخاصة ، وهي قادرة لذلك على مواصلة القتال لحين وصول النجدات .

لذلك لا يمكن في الظروف الاعتيادية استخدام هذا النوع من الهجوم ضد كامل القوات المعادية . وبينما لا يمكن للجيش بكامله توقع مساعدة خارجية ، فان موارده الخاصة كافية لمجابهة هجوم متعدد الجوانب ، خاصة في هذه الايام ، التي بات فيها هجوم كهذا شائع وان الجميع يتدربون على كيفية التعامل معه . يعتمد هجوم التطويق عادة على عوامل لا علاقة لها بالمباغتة . ولسنا في حاجة لمناقشتها هنا ، ويكفي مجرد الاشارة ، وبينما يقدم التطويق نتائجاً باهرة فيمكن ان يتضمن مخاطراً كبيرة. لذلك لا يمكن التفكير به عدى في بعض الظروف الاستثنائية وعند توفر فائقية كبرى ، وأن يمكن بطبيعة الحال حشد هذا التفوق ضد أحد الاقسام الفرعية لجيش العدو .

تُعد الاحاطة والتطويق ضد قوات معادية أصغر وعلى الاخص تحت ستر الليل هي العمليات الاكثر احتمالاً ومعقولية لسبب آخر ، هو أن القطعات التي تكلف بواجب كهذا ، وبغض النظر عن نسبة تفوقها ، لا تشكل في اكثر الاحوال الا جزءاً صغيراً من مجموع القوة ، ومن الافضل والاسلم الا نقامر الا بجزء من القوة في عملية محفوفة بالمخاطر بدلاً من الجيش ككل . وستقل هذه المخاطر كثيراً لو تذكرنا حقيقة كون قوة الصولة ستسند وتغطى بقوة اكبر ، او حتى بالجيش بكامله .

العمليات الليلية ليست خطرة وحسب بل انها صعبة التنفيذ كذلك . الامر الذي سيحدد من نطاقها وحجمها . ان اساس وجوهر العمليات الليلية هو المباغتة ، التي يجب ان تظل الاعتبار المهم فاول ما سيتوخاه المنفذ هو الاقتراب دون أن يراه أحد. وهذا الامر أسهل كذلك بالنسبة للمفارز الصغيرة عما لو كانت القوة بحجم اكبر، وستكون نادرة جداً بالنسبة لارتال جيش بكامله . كذلك تستهدف عمليات مثل هذه عادة موضعاً معزولاً أو مرصداً منفرداً . ولا يمكن شنها ضد قوات معادية اكبر ، ما لم تكن مراصد هذه القوة غير قوية كما كان الحال مع فردريك الكبير في (هوش كيرج) . الا أن ظروفاً كهذه ليست من النوع المعتاد توفره في حالة وجود قوات (جيوش) كبيرة ، وبالسهولة المعتادة مع القوات والاقسام الفرعية من الجيش .

شُنت حروب عديدة في العصور الحديثة بسرعة وفعالية عاليتين حتى اضطرت الجيوش الى التعسكر على مقربة من بعضها البعض ، وحتى دون منظومة رقابة ورصد اماميتين . وتتزامن مواقف كهذه دائماً مع المراحل الحرجة التي تسبق الحسم . وفي مراحل يكون فيها كلا الجيشان في حالة استعداد تام للعمل . ومن الناحية الاخرى فالمعتاد في الحروب القديمة هو ان تعسكر الجيوش بحيث يرى احدهما الاخر بكل وضوح ، حتى عندما يستهدفان معاً الامساك بخناق بعضهما بشكل مباغت – وان ذلك يمكن ان يستمر لفترة ما وحتى لاسابيع متوالية . كان فردريك الكبير يعسكر على مقربة من النمساويين حتى كان بوسع الطرفين التراشق بنيران المدفعية .

وبينما كانت معسكرات ومواقع كهذه ملائمة للغارات الليلية ، الا انها تركت في الحروب الحديثة . فلم تعد الجيوش في ايامنا هذه كيانات مستقلة ، ومكتفية ذاتيا في شؤون التموين والامور الادارية الاخرى ، وكقاعدة يرون أن من الحكمة أن تظل هناك مسيرة يوم كامل ما بين العدو وبينهم .

ولو تفحصنا الآن مسألة الغارة الليلية على جيش كبير ، فسيتضح لنا إن توفر ظروف كافية لهذا النوع من العمليات ليس من الامور المعتادة . ويمكن العثور على الاسباب في ما يلي :

١ . اللامبالاة غير العادية ، أو الاستثارة لدى العدو . وهذا ليس بالامر الغالب . وحيثما حدث فيمكن موازنته بمعنويات عاليةوعزومة .

٢ . حالة رعب في جيش العدو ، او ، عموماً ، حالة تكون فيها معنويات المهاجم عالية جداً حتى لتكون الموجه والدليل في العمل .

٣ . القتال لشق الطريق وسط قوة معادية متفوقة، نجحت بتطويقه . يعتبر عنصر المباغتة في هذه الحالة حاسماً ؛ وتسمح الغاية الوحيدة – الهرب – بتحشيد قوات اكبر .

٤ . اخيراً ، موقف ميئوس منه ، طوقت فيه قوات احدهما بقوة متفوقة كثيراً لخصمه والى الحد الذي لا امل فيه باي نجاح دون اقصى ما يمكن تصوره من الاقدام والجرأة .

لابد من التذكر ان لا امل في كل تلك الحالات – الا بشرط ان يكون العدو حيث يمكن رؤيته ، وليس خلف قطعات ساترة أو مقدمات كافية لحجبه عنا .

تخطط معظم العمليات الليلية لتنتهي مع الفجر ، اذ يستخدم الظلام فقط لاخفاء مسير الاقتراب والصولة الاولى . الامر الذي يسهل على المهاجم الاستفادة من الفوضى والارباك اللذان اوقعهما في صفوف العدو . اما حين لا تبدأ الاشتباكات حتى الفجر ، والتي يستخدم فيها الظلام للأقتراب فقط فلا تعد هذه من العمليات الليلية ابداً .

الكتاب الخامس

القوات العسكرية

الفصل الاول

لمحة عامة

سنتفحص القوات العسكرية من وجهة النظر التالية :

١ . القوة العددية والتنظيم .

٢ . حالتها خارج نطاق العمل .

٣ . ادامتها .

٤ . علاقتها مع البلاد والارض .

لن يتناول هذا الكتاب القتال نفسه ، بل يتناول تلك الجوانب من القوات المسلحة ، التي يجب اعتبارها **شروطاً اساسية للعمل العسكري** . وهي على علاقة قوية تقريباً بالقتال وتتفاعل معه ، لذا فغالباً ما سترد في مناقشاتنا حول استخدام القتال. لكن علينا اولاً تفحص كلاً منها على حدة وككيان منفصل ومع سماته الخاصة .

الفصل الثاني

الجيش، ومسرح العمليات، والحملة

تجعل الطبيعة الحقيقية للمسألة من المستحيل علينا اعطاء تحديد دقيق لتلك العوامل المختلفة للمسافة، والحشد، والوقت، لكن وتجنباً لاي التباس أو سوء فهم فسنوضح الاستخدام الشائع لتلك المصطلحات، والتي سنتقيد بدورنا بها مع معظم استخداماتنا لها.

١ . مسرح العمليات

نعني بـ «مسرح العمليات» وعلى وجه التحديد، قاطع من المنطقة الكلية للحرب والذي له حدود محمية وبالتالي درجة مؤكدة من الاستقلالية. قد تتألف هذه الحماية من تحصينات أو حدود طبيعية كبيرة، أو حتى بمسافة كبيرة ما بين هذا القاطع وباقي منطقة الحرب. وقاطع كهذا ليس مجرد جزء من كل وحسب، بل يشكل بذاته كياناً ثانوياً - إعتماداً على إتساع منطقة الحرب، وما اذا كانت اية تغييرات تحدث في أي جزء من منطقة الحرب ستؤثر على هذا القاطع لا بشكل مباشر بل بشكل غير مباشر. يمكن وضع معيار محدد له بتصور حصول تقدم في احد المسارح ومتزامن مع انسحاب في مسرح آخر، أو تزامن عملين دفاعي في أحدهما وتعرضي في آخر. وليس بوسعنا أن نكون واضحين ومحددين للغاية، لكنا نرغب بالاشارة الى النقطة الاساسية هنا.

٢ . الجيش

يمكن تحديد الجيش باستخدام المفهوم السابق لـ «مسرح العمليات» - اي ان الجيش هو مجموع القوات المخصصة لمسرح معين. من الواضح ان هذا التعريف لا يغطي كل الاستعمالات الشائعة للمصطلح. فقد قاد كل من الجنرالين بلوخر و (ويللنكتون) عام ١٨١٥ جيشاً مستقلاً مع انهما كانا في مسرح عمليات واحد، وهكذا نرى إن القيادة العليا هي مقياس أخر في تحديد الجيش مع ان العلاقة بين الاثنين وثيقة للغاية، فحيثما يتم ترتيب وتسوية الامور بدقة ووضوح، فهناك عادة قيادة عليا واحدة لكل مسرح. مع ان القائد الذي يتولى السيطرة في مسرح عملياته لن تنقصه أو يفقد اي درجة معقولة من استقلاليته.

ليس للقوة الحقيقية للجيش أثر كبير في تحديد ما نعنيه بمصطلح الجيش ، كما يتبادر للذهن لاول وهلة . فعندما تعمل عدة جيوش في **مسرح عمليات واحد** وتحت قيادة مشتركة ، فلا يشتق المصطلح هنا من عدد بل من التاريخ السابق لتلك الجيوش. (ففي عام ١٨١٣ على سبيل المثال ، كان هناك جيش سيليزيا ، وجيش الشمال ، وغير ذلك) . إن الاعداد الهائلة من الرجال الذين سيتقرر بقائهم في مسرح عمليات معين سيوزعون على عدة فيالق ، لكن ليس في جيوش منفصلة ابداً . وليس هذا المعنى الذي يجوز وباي حال من الاحوال إستخدامه ، الا ان العادة لاستخدامه جاءت كما يبدو من الممارسات . ومن الناحية الاخرى فسيكون من باب التحذلق المحض الادعاء أو اطلاق مصطلح «جيش» على كل مجموعة من العصابات تعمل بشكل مستقل في الاقسام النائية من البلاد . ومع ذلك لا بد من الاعتراف في أن التحدث عن «جيش» **فنديه**[1] خلال حروب الثورة الفرنسية لم يثر إستغراب أحد ، مع انه لم يزد حجمه في اكثر الاحيان عن مجموعة من الانصار . لذا نرى ان مصطلحي «جيش» و «مسرح عمليات» يمضيان معاً يداً بيد ، ويؤكد احدهما الاخر .

٣ . الحملة

صحيح ان مصطلح «حملة» غالباً ما يستخدم لتمييز كافة الاحداث والاعمال العسكرية التي تحدث خلال سنة تقويمية في جميع مسارح العمليات ، الا ان المعتاد والاكثر دقة انه يشير الى الاحداث التي تقع في مسرح منفرد للحرب . لقد أصبح من الصعب الان ترتيب أو تبويب الحملات وفقاً للمفهوم العام المنفرد ، لان الحروب لم تعد تُقسم على شكل حملات سنويه تفصلها فترات طويلة من الركود والراحة في المعسكرات الشتوية. ترتبط الاحداث في مسرح عمليات معين مع بعضها البعض في كل أو اطار بحجم اكيد ، وعلى سبيل المثال ، فقد تحدث كارثة كبيرة تقريباً ، الا انها تتوقف فجأة عن التسبب بالمزيد من النتائج والانعكاسات (السلبية)، ثم تبدأ تطورات جديدة بالظهور . لا بد ان نضع مثل تلك التقسيمات والفروق الطبيعية نصب اعيننا لو اردنا اضافة الأحداث التي جرت خلال عام للحملة المعنية . ولن يفكر أُحد من الناس بان حملة (نابليون) عام ١٨١٢ قد انتهت عند (ميميل)[2] لمجرد أن تصادف وجود

---

(١) فنديه . راجع الهامش في الفصل الخامس الكتاب الثالث (ص ٢٦٠)

(٢) ميميل وتعرف حاليا باسم (كليبيدة) . ميناء على بحر البلطيق عند مصب نهر (نيمين) وهي في احدى جمهوريات البلطيق التي انفصلت عما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي وهي جمهورية ليتوانيا عن (مرجع سابق) ص٦٣٧ Longmans English Larousse Dict (المترجم)

الجيوش هناك في يوم ١٨١٣/١/١ ، واعتبار تراجع الفرنسيين اللاحق عبر نهر (ايلب) كجزء من حملة العام التالي ، لانها وكما هو واضح جزء من التراجع الكلي من موسكو .

ينبغي ان لا تعتبر الصعوبة في تحديد هذه المفاهيم بدقة كعائق أو ضرر رغم كونها حقيقة . فليست هذه المفاهيم كالتعاريف الفلسفية أو العلمية ، اذ لا تستند الى أية قواعد . ولا تعني اكثر من مقترب لتوضيح اكبر ، ولغة اكثر تحديداً .

الفصل الثالث

القوة النسبية

اشرنا في الفصل الثامن من الكتاب الثالث الى الاهمية العظيمة التي للتفوق العددي في اشتباك ما ، والترابط الوثيق عموماً لذلك التفوق العددي من وجهة نظر الاستراتيجية . وبالمقابل فذلك يعني ضمنياً القوة النسبية التي يتوجب علينا الان اضافة بعض الملاحظات المفصلة اليها .

يتوجب على الباحث النزيه في الحرب الحديثة الاقرار بان التفوق يغدو اكثر حسماً مع كل يوم يمضي . لذا لا بد من إعطاء مبدأ تحشيد أقصى قوة ممكنة في المعارك الحاسمة، اهمية اكبر وأن يرقى ذلك الى درجات اعلى مما كانت له في السابق .

تزيد الشجاعة والمعنويات من القوة المادية للجيش ، الا ان هناك فترات تاريخية أمكن تحقيق المزايا والفوائد النفسية (المعنوية) بالتفوق في التنظيم والمعدات، وتحقق ذلك في فترات اخرى بالتفوق في قابلية الحركة . ويكون ذلك احيانا مسألة اساليب تعبوية جديدة ، واحيانا بفعل تحول في فن الحرب حول الجهد المبذول لاستثمار الارض بمهارة وباشكال اكبر واكثر شمولية . يسعى القادة احياناً الى تحقيق بعض المزايا الكبرى على بعضهم البعض بوسائل كهذه . لكن لم يعد يعول كثيراً على مثل هذه الجهود، وأخلت مكانها لاساليب وسياقات اكثر بساطة وانسجاماً مع طبيعة الاشياء. ولو القينا نظرة أمينه غير متحيزة على الحروب الحالية ، فسنقر حتماً باختفاء تلك الاساليب من الحملات ومن الاشتباكات الحاسمة عموماً ومن المعارك الكبرى بشكل خاص – وكما أوضحنا ذلك في الفصل الثاني من الكتاب الرابع .

تتشابه جيوش اليوم كثيراً في التسليح والتدريب والمعدات ، مع وجود شيء قليل من الاختلافات في هذه الجوانب ما بين أفضل وأردأ الجيوش . ولعل التعليم ما زال يحقق اختلافاً كبيراً بين المؤسسات التقنية ولكن ما يحدث عادة، هو أن احدى الجهات تخترع أجهزة ما أو تدخل تحسينات عليها، وحالما تدخلها الخدمة وتستخدمها اولاً، فيسرع الاخرون الى تقليدها واستنساخها . وحتى القادة الكبار – اي قادة الفرق والفيالق – يمتلكون وبقدر تعلق الامر بكفاءتهم ومستوياتهم نفس الوسائل والافكار ووجهات النظر تقريباً . والعامل الوحيد الباقي الذي يمكن ان يخلق التفوق، وبالاضافة

الى التعود واحتمال ظروف الحرب ، يشتمل ذلك العامل على مواهب القائد العام والتي يصعب مقارنتها أو أن تكون لها علاقة واضحة بالمعايير الثقافية للشعب والجيش ، بل انها مما يترك في الحقيقة ، وبكاملها للصدفة . تتزايد الأهمية الحاسمة للقوة النسبيه كلما ازددنا اقتراباً من حالة التوازن في كافة العوامل اعلاه.

لقد اشتقت خصائص المعركة الحديثة من حالة التوازن هذه ، فلو درسنا معركة (بوردينو) بموضوعية لتأسفنا للجيش الفرنسي الذي كان أفضل جيش في العالم وهو يحارب ضد الجيش الروسي ، الذي لعله كان من حيث التنظيم والتدريب الاقل تقدماً. ولم تظهر في المعركة ككل أية أثار أو علامات للتفوق في المهارات والقدرات الفكرية. فقد كانت وببساطة إمتحاناً للقوة ، حيث كان الجيشان في حالة تعادل تقريباً. وما يتبقى في النهاية هو مجرد ميلان بسيط في الميزان لصالح الطرف الذي يقاد بحيوية أعظم ، واكثر تأقلماً مع الحرب . لقد اخترنا معركة (بوردينو) كصورة للفكرة لكونها مثال نادر على اقتتال طرفين متساويين عددياً تقريباً .

ولا ندعي أن كل المعارك كذلك ، الا انها نموذج لمعظمها .

ففي معركة تشتمل على تطبيق بطيء واسلوبي للقوة ، يلعب التفوق العددي دوراً في امالة كفة النتيجة بشكل مؤكد . ومن العبث في الواقع أن نبحث في حرب حديثة عن معركة تفوق المنتصر فيها على جيش بضعف قوته. الا ان انتصارات كهذه كانت تحدث في الماضي من فترة لاخرى . والاستثناء الوحيد لما حدث في معركة (دريسدن)[1] عام ١٨١٣ ، إذ كان نابليون ، وهو اعظم القادة في العصر الحديث ، يعمل دائماً على تأمين تفوق عددي ، او على الاقل ألا تقل قوة الجيش الذي زج به في كافة المعارك التي انتصر فيها كثيراً عن خصمه، وحيثما اهمل أو فشل في تحقيق ذلك– كما في معارك(لا يزك)[2] ، (وبرينيه)[3] ، و(لاون)[4] ، و (واترلو)[5] – فقد فشل .

اما في الاستراتيجية ، فالقوة المطلقة هي عادة كمية محددة لا يستطيع القائد تغييرها . ولا يعنى ذلك اطلاقا ان الحرب تصبح مستحيلة لجيش تقل قوته كثيراً. فليست الحرب دائماً وليدة قرار سياسي إختياري – لا سيما حيث تكون هناك

---

(١) دريسدن. راجع الهامش (ص ٢٩٥) .

(٢) معركة لايزك . راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث (ص ٢٧٣)

(٣) معركة برينيه . راجع الهامش في الفصل الثالث عشر الكتاب الرابع (ص ٣٨٧)

(٤) معركة لاون . راجع الهامش في الفصل السابع الكتاب الرابع (ص ٣٣٩)

(٥) معركة واترلو . راجع الهامش في الفصل الثاني عشر الكتاب الرابع (ص ٣٨٤) المترجم.

اختلافات كبيرة ولا تناسب في القوات . لذا لابد للمرء من قبول اي نوع من القوة النسبية، وستبدو نظرية الحرب غريبة للغاية اذا اندلعت الحرب حيثما تغدو الحاجة اليها ماسة.

بغض النظر عن مدى وضخامة العدد الكافي والمطلوب لاغراض النظرية، فلا يمكن استبعاد أو رفض حتى الحد الادنى الكافي على انه لا جدوى منه . كما لا يمكن وضع تحديد مطلق في ذلك .

كلما ازداد تحديد القوة ، كلما ازدادت الحاجه الى تحديد الهدف ، واكثر من ذلك فكلما ازداد تحديد القوة كلما زاد تحديد أو تقليص المدة . فهذين الاتجاهين يتيحان مجالاً للهرب ، ان جاز لنا قول ذلك ، امام الجانب الاضعف . وأية تغييرات في ادارة الحرب تحدث بسبب درجة القوة يمكن أن تناقش فقط حسب تتابعها وكلٌ عندما يحين دوره وتكفينا هنا الاشارة الى الموضوع ككل . لكن ولكي تتم البحث فلا بد من اضافة نقطة اخرى .

عندما يُجبر الطرف الاضعف على القتال ضد عدو متفوق لا بد عندها من تلافي النقص العددي بالحيوية والتوتر الداخلي اللتان يستثاران وينشطان بفعل الخطر. اما عندما يحدث العكس ، ويحل التخاذل واليأس والاكتئاب محل البطولة ، فسيتوقف فن الحرب بدوره هو الاخر بطبيعة الحال .

اما اذا امتزج النشاط المتزايد مع التحديد الحكيم في الهدف فستكون النتيجة كذلك مزيجاً من التوقد الاخاذ والحذر الحصيف (المتعقل) اللذان اثارا اعجابنا في حملات فردريك الكبير .

كلما قل مقدار ما يتحقق من الاعتدال والحذر ، كلما توجب زيادة سطوة واهمية الحيوية والشدة . وحيثما يكون التفاوت في القوة كبيراً، وحيث لن يوفر اي تحديد في الاهداف حماية من الفشل ، كذلك فعندما تهدد فترة الخطر بالاتساع الى الحد الذي لا يؤمن معه اعظم اقتصاد في القوة او يكفي لتحقيق النجاح ، يجب عندها، أو ينبغي تركيز الشدة والحيوية في ضربة حاسمة . اذا لم يكن الجيش المعرض لضغوط قاسية يتوقع أية نجدات ، وحيث لا ينتظر وصول شيء منها فليس امامه سوى اللجوء والاعتماد على المعنويات العالية [الاباء الاصيل] الذي يبعثه اليأس في الرجال الشجعان [في الملمات]. عندها فان الاقدام العظيم وربما بجمعه مع الجرأة والمكر البارعين ، سيشكلان كما يبدو الحكمة العظيمة . وحيث يتعذر تحقيق الانتصار فان اندحاراً مشرفاً يتضمن على الاقل – للمندحر – حق النهوض ثانية في يوم آت قريب .

الفصل الرابع
العلاقة بين فروع الخدمة

سنناقش هنا الاسلحه أو فروع الخدمة (الصنوف) الثلاث الرئيسية، المشاة والخيالة والمدفعية.

نحن على ثقة باننا سنعذر في تقديم التحليلات التالية والتي تعود في الحقيقة الى موضوعات التعبية، الا اننا نحتاجها هنا لاجل المزيد من الايضاح.

يتألف الاشتباك من عنصرين مختلفين اساساً، القوة التدميرية للسلاح الناري firearm، والقتال بالسلاح الابيض او القتال الفردي. (يداً بيد hand - to - hand) وبالمقابل فالنوع الثاني مما يمكن استخدامه اما في الهجوم او الدفاع (تستخدم الكلمة هنا بالمعنى المطلق، لاننا نتحدث باوسع المعاني). المدفعية مؤثرة فقط من خلال القوة التدميرية للنار، والخيالة فقط بالقتال الفردي؛ اما المشاة فبكلاهما معاً.

ان جوهر الدفاع في القتال (يداً بيد) هو الصمود والثبات، حيث هو (اي المدافع) متشبث بالارض، بينما يعتبر التحرك اساس وجوهر الهجوم، تعجز الخيالة عن العمل الاول، الا انها تتفوق في الثاني، لذ فهي مناسبة للهجوم اكثر. والمشاة افضل في الثبات والصمود الا انه ليس محروماً من بعض القدرة على التنقل.

هذا التوزع في جزئيات القوة العسكرية ما بين الصنوف الثلاث الرئيسية يظهر لنا الفائقية والتعددية التي للمشاة قياساً بالسلاحين الاخرين؛ وهو وحده ما يجمع كل الخصائص الثلاث. كما يوضح لنا ذلك ايضاً كيف ان توحيد الصنوف الثلاث في الحرب يؤدي الى استخدام اكثر نضوج لجميعها. كما يمكن القائد من تعزيز اي منها اثناء الاداء وبارادته، ويلاحظ ان اداء المشاة متحد بشكل لا يمكن فصله.

لقد لعبت القوة التدميرية للأسلحة النارية ودون شك الدور الرئيسي في الحروب الحديثة، وما له نفس الوضوح ايضاً هو حقيقة، كون المركز الفعلي للأشتباك يكمن في القتال الشخصي، قتال رجل لرجل. فلا مكان ولا معنى لجيش مؤلف من المدفعية فقط في الحرب. كما لا يمكن تصور جيشاً مؤلفاً من الخيالة فقط، مع انه قد يمتلك بعض القوة في العمق. اما الجيش المؤلف من المشاة فقط فليس ممكناً فقط بل وسيكون قوياً بدرجة كبيرة. لذا فان درجة الاستقلالية في الصنوف الثلاثة ستكون وبالترتيب التالي، المشاة، الخيالة، المدفعية.

الا ان ترتيب الاهمية هذا يختلف كثيراً عندما يتعاون كل منها مع الاثنين الاخرين. فالتدمير عامل اقوى اثراً من قابلية الحركة ، وان غياب الخيالة كليا سيثبت انه اقل اضعافاً للجيش من الغاء المدفعية كلياً .

وسيجد جيش مؤلف من المشاة والمدفعية فقط ، نفسه دون ريب في موقف ضار عند مواجهة جيش مؤلف من الصنوف الثلاث . لكن ان تطلب الامر ان يعمل ذلك الجيش دون وجود خيالة **وبقوة مشاة اقوى نسبياً** ، فان تغييراً او (تعديلاً) في الترتيبات التعبوية سيمكنه من تدبير اموره كما يجب . وستواجه مراصد ذلك الجيش الامامية بعض المصاعب ، كما سيكون من الصعب عليه مطاردة العدو المندحر بشكل فعال ومجد ، كما سيشكل انسحابه هو نفسه معضلات واجهاد كبيرين . الا ان كافة هذه المصاعب لوحدها لا يمكن ان تبرر وبسهولة اخراج هذا الجيش من الميدان. ثم ومن الناحية الاخرى فلوجوبه هذا الجيش بواحد مؤلف من المشاة والخيالة فقط فبوسع الاول ان يصمد وبشكل جيد حقاً . وبالمقابل فمن غير الممكن والمعقول لجيش من النوع الثاني (مشاة وخيالة فقط) الصمود نهائياً بوجه جيش مؤلف من الصنوف الثلاث .

من المفهوم ان هذه الملاحظات تنعكس على اهمية كل سلاح من اسلحة الخدمة، وقد استنبطت من بين حشد كامل من المعلومات والبيانات العسكرية ، وحيث تتشابه مع بعضها البعض . ولا نقصد هنا الى تطبيق الحقائق التي اكتشفناها على كل صفحة منفردة لاي اشتباك معين . فالفوج المتراجع او المكلف بواجب امامي سيفضل على الاكثر نسبة من الخيالة على بضعة مدافع . كما ان قوة من الخيالة والمدفعية المحمولة على الخيول ، مكلفة بواجب مطاردة عدو مندحر ، او قطع خطوط انسحابه ، ستجد المشاة دون فائدة نهائياً وهكذا دواليك .

لنلخص الان نتائج تلك الافكار والملاحظات :

١ . المشاة هو اكثر الصنوف استقلالاً .

٢ . ليس للمدفعية استقلالية .

٣ . عند دمج (Combined) صنفين (سلاحين) او اكثر فالمشاة هو الاكثر اهمية بينها .

٤ . الخياله هي اسهل ما يمكن الاستغناء عنه .

٥ . يشكل جمع الصنوف (الاسلحة) الثلاث قوة فائقة .

نظراً لان القوة القصوى تتحقق من دمج (تجحفل) كل الاسلحة الثلاث ، فالسؤال الذي يفرض نفسه عادة هو ، ما هي النسب المثاليه من كل منها؟ وهو سؤال تستحيل الاجابه عنه تقريباً .

لو كان بوسع المرء مقارنة قيمة وتكلفة زيادة وادامة مختلف الاسلحة والصنوف، مع الخدمة التي ينجزها كل منها ايام الحرب ، سيصل المرء الى اعداد محددة تعكس المعادلة المثالية من الناحية التجريدية (النظرية) الا ان ذلك يظل اصعب من لعبة الافتراضات . فالقسم الاول من المعادلة وحده صعب الى حد يجعله عصي على التقدير ، ما عدى الناحية المادية المحض ، اما قيمة الحياة الانسانية فشيء أخر – فهي مما لا يرغب اي انسان في تحديد ثمنها بالذهب .

هناك حقيقة اخرى ، وهي أن كل سلاح يعتمد حقاً والى حد بعيد على مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني ، اذ يعتمد المشاة على القوى البشرية ، اما الخيالة فتعتمد على عدد الخيول (equine) ، والمدفعية على الاموال . اوجدت هذه الحقيقة متحكماً خارجياً ، نرى بوضوح مدى تأثيره في مختلف المراحل التاريخية العامة لمختلف الشعوب وفي شتى العصور .

لكن وطالما لا نستطيع ولاسباب اخرى ، الاستغناء كلياً عن كافة معايير المقارنة، علينا ببساطة وبدلاً من القبول بالقسم الاول من المعادلة ككل ، استخدام العامل الوحيد القابل للقياس : الكلفة المالية ، ويكفينا لاغراض المناقشة هنا ، تقديم بعض البيانات استناداً الى التجارب العامة ، فان سرية خيالة من (١٥٠) حصان ، وفوج من (٨٠٠) رجل، وبطرية (Battery) من ثمانية مدافع (٦/رطل) Six - Pounders تكلف كلها مبالغاً متساويه تقريباً للمعدات والادامة Maintenance .

اما بقدر تعلق الامر بالقسم الثاني من المعادلة (اي الانجاز)، فالوصول الى ارقام محددة مسألة اكثر صعوبة حتى ، ولعل ذلك ممكنا لو اقتصر الامر على مجرد حساب التدمير وحده ؛ الا ان لكل فرع (سلاح) استخدامه الخاص ، وهكذا له بالتالي مجال مختلف من العمل الفعال ؛ الا ان هذا الجو او المجال وعلى اية حال ثابت ، كما يمكن توسيعه أو تركيزه ، ولن تكون عواقب ذلك اكثر من مجرد تحوير في ادارة الحرب دون وقوع – او التسبب – باية اضرار خاصة .

غالباً ما يتحدث الناس عن دروس الخبرة في هذا السياق ، معتقدين أن تاريخ الحرب يوفر مصدراً كافياً لاجابات محددة ، ومن الواضح ان ذلك لا اكثر من عبارات فارغه هي ونظراً لصعوبة تعقبها رجوعاً الى اي اسس مهمة وملزمه ، لذا لا تستحق ادخالها في البحوث النقدية .

نظرياً ، هناك اذن نسبة مثالية بين الاسلحة ، وتظل هذه النسبة عملياً هي العامل المجهول (X) ؛ وهو شيء ملفق من صنع الخيال . لكن يمكن حساب ما سيحدث اذا كان احد تلك الاسلحة اكثر او اقل تفوقاً من نفس السلاح لدى الطرف الاخر .

تكثف المدفعية القوة النارية ؛ وهي اكثر الاسلحة تدميراً . وحيثما تختفي ، تضعف القوة الكلية للجيش الى حد كبير . من الناحية الاخرى ، فانها اقل الاسلحة قابليه على الحركة ، وتفقد الجيش الكثير من المرونة . والاكثر من ذلك فالمدفعية في حاجة دائمة لحماية (تغطية) من المشاة ، نظراً لعجزها عن الاشتباك يداً – بيد في قتال . وان كان هناك الكثير من المدفعية ، ونتيجة لذلك كانت القطعات التي كلفت بتوفير التغطية التامة لها ليست قوية في كل نقطه بما يكفي لمجابهة وصد العدو ، فستضيع المدافع بسهولة . ويشكل ذلك الامر عيباً (ضرراً) اضافياً : المدفعية هي السلاح الوحيد الذي بوسع العدو وعلى الفور استخدام معداتها الاساسية – المدافع والعربات – **ضد صاحبها الاصلي .**

تزيد الخيالة من قابلية الحركة للجيش . وعندما لا يوجد ما يكفي من الخيالة يتباطأ مسار الحرب ويضعف ، نظراً لان كل شيء يتقدم ببطاءة شديدة (على الاقدام) ، ويجب ان ينظم بدقه . فمحصول الانتصار الغني يجب جنيه وحصاده بالمنجل المقوس السريع ، لا بالمحش البطيء .

لا ينبغي اعتبار الزيادة المفرطه في الخياله عائقاً مباشراً للجيش ، او نقصاً عضويا (في تنظيمه) . الا أن ذلك يضعف الجيش بصورة لا مباشرة، بسبب معضلات الادامة ، اذ بوسعنا وبكلفة هذه الخيالة الاضافية من (١٠) الاف خيال ، إدامة قوة مشاة إضافية من (٥٠) الف رجل .

هذه الخصوصية الناجمة عن هيمنة وغلبة احد الاسلحة بالذات لها علاقة اشد بفن الحرب بالمعنى الضيق ، نظراً لانها تتعلق باستخدام المتيسر من القطعات . وتلك توضع عادة بامرة القائد وفقاً لحجم المتيسر منها بغض النظر عما ابداه من حجج حول ذلك.

لذلك فلنفترض ان سمة حرب ما قد حورت بسبب هيمنة مسبقه لاحد الاسلحة ، فسيحدث هذا التحوير بالطريقة التاليه :

ستفرض الزيادة في عدد المدافع مزيداً من السلبية والتوجه الدفاعي في العمليات ، وسيزيد الاعتماد على المواضع القوية ، والموانع الطبيعية الكبيرة ، وحتى على المواضع في المناطق الجبلية . والفكرة هي بالاعتماد على وعورة الارض وما تقدمه من تسهيلات في تعزيز الدفاع ، وحماية المدافع ، وترك العدو يسعى الى حتفه (دماره) بضلفه . وستمضي الحرب ككل في مسارها الجليل والمهيب ، وبدرجة الايقاع التقليدية التي تفرضها اللحظة .

يؤدي النقص في المدفعية الى تأثير معاكس . اذ يرجح ذلك كفة الهجوم – المبدأ الفعال في الحركة ، ويغدو المسير ، والجهد والمحاولات المستمرة أسلحة بذاتها، كما تغدو الحرب أسرع وأكثر فوراناً ، واكثر خشونة وقسوة ، وعملاً اكثر تنوعاً، وتتجزأ الاحداث الكبرى الى احداث اصغر .

عندما يتيسر المزيد من الخيالة ، تتجه العيون نحو السهول الواسعة والاراضي المفتوحة ، وتكون **عمليات الاكتساح** هي المفضلة . عندما يكون العدو على مبعدة نستطيع ان ننعم بالسلام والراحة ، دون ان يكون بوسعه ذلك . وطالما كنا المسيطرون على الساحة فبوسعنا ان نكون اكثر جرأة في تطبيق الحركات على الاجنحة ، كما نكون عموماً اجرأ في المناورة واكثر جسارة . كما يمكن تنفيذ عمليات التظليل ، والهجمات المحدودة بسهولة كبيرة إن كانت مناسبة ومفيدة وضمن امكانياتنا .

يسبب النقص الكبير في الخيالة إضعافاً لقابلية حركة الجيش ، ولكن لا يؤدي ذلك الى زيادة قوته التدميرية كما تسبب ذلك الزيادة الكبيرة في المدفعية . وستتميز الحرب عندها بالتعقل والحذر والنظامية ويزداد الميل في حالة كهذه الى البقاء على مقربة من العدو ليظل تحت رقابتنا ، مع التجنب المطلق لتنفيذ اية حركات مفاجئة ، والاسوأ من ذلك ان تكون سريعة ايضاً ، بل مراعاة الحذر، والتقدم وابقاء القطعات معاً، وكذلك الميل الى العمليات الدفاعية ، والعمليات في الاراضي الوعرة . وان اصبح الهجوم ضرورياً فلا بد ان يوجه ضد نقطة حاسمة للعدو ومن اقصر المسالك .

تلك هي الطرق والوسائل التي يؤثر فيها رجحان كفة هذا السلاح او ذاك على ادارة عمليات الحرب ، رغم أن من النادر أن يكون أحد الاسلحة كاملاً تماماً أو حاسماً الى حد أن يلعب دور الشيء الوحيد أو الرئيسي في تحديد طبيعة العملية

بكاملها . اما أمر إختيار المرء وسيله الهجوم أو الدفاع الاستراتيجيين، ومسرح العمليات هذا او ذاك ، ومعركة حاسمة أو بعض أنواع وطرق التدمير الاخرى ، فمن المحتمل أن يعتمد ذلك على حجج ومبررات أقوى واهم . وحيثما لا يكون الامر كذلك فنخشى أن تطغى الاشياء الثانوية على الامور الاساسية . لكن وحتى في الحالات التي يتم فيها القرار على الموضوعات الرئيسية إستناداً أو وفقاً لاسباب وعوامل أخرى ، فسيظل (بين يدي القائد) قدر كبير من حرية العمل والحركة وفقاً لتفوق وكثرة هذا السلاح او ذاك وفي هذا الجانب من القطعات أو غيره وبالشكل الذي يمكن ان يمارس تأثيره . يمكن ان نكون حذرين ومتعقلين ومنهجيين في الهجوم ، وشجعان ومقدامين في الدفاع، وان نظل كذلك خلال كل صفحة ممكنة من الانشطة العسكرية مع بعض الفوارق الصغيرة .

وعلى العكس من ذلك ، فطبيعة الحرب يمكن أن تؤثر كثيراً على نسبة وحجم كل واحد من صنوف واسلحة الخدمة :

اولاً . الحرب الشعبية التي تعتمد على المليشيات والحرس الوطني (الجيش الشعبي) ستضم عادة عدداً كبيراً من المشاة . وهذا يعني نقصاً في المعدات لا في الرجال، وسيقتصر استخدام المعدات على الاعمال الضرورية جداً فقط ، لذلك يمكن حشد لا فوج ، بل اثنان أو ثلاثة لكل بطرية من (٨) مدافع .

ثانياً . حيثما تصعب مجاراة الأطراف المتقابلة لبعضها وعندما يعجز الطرف الضعيف عن اللجوء الى تسليح الشعب ، او الى ما يشبه ذلك تقريباً بانشاء المليشيات ، فان زيادة المدفعية تعد الوسيلة الاسرع لاسناد القطعات والتوصل الى نوع من التوازن والاستقرار . وبهذه الطريقة بوسع ذلك الطرف الاقتصاد بالقوى البشرية مع تكثيف العنصر الرئيسي في القوات ، اي القوة التدميرية . وعلى اية حال فعمليات كهذه ستكون محددة على الاكثر بمسارح عمليات صغيرة تكون فيها المدفعية كذلك الاكثر ملائمة . لقد اعتمد فردريك الكبير على هذه الوسيلة في الصفحة الأخيرة من حرب السنوات السبع (١٧٥٦-٦٣م) .

ثالثاً . الخيالة ملائمة لحرب الحركة والمعارك الحاسمة . لذلك فتفوقها (كثرتها) عامل مهم في العمليات التي تشن في الاراضي المفتوحة والمسافات المتباعدة ، وكذلك في الحالات التي يتوقع احد الاطراف توجيه وتنفيذ ضربات حاسمة ، ويفيدنا نابليون كمثال على ذلك .

عندما نصل الى تحليل الهجوم والدفاع سنرى وبوضوح شديد ان ليس لشكلي الحرب هذين اي تأثير مباشر بحد ذاتهما . وكلما نود ايضاحه هنا ، هو ان كلاً من المهاجم والمدافع ، وكقاعدة ، يعملان في نفس الارض ، وانه ، وفي عدد كبير من الحالات على الاقل ، ربما كانت مقاصدهما النهائية واحدة . وترد حملة (نابليون) عام ١٨١٢ الى الذهن هنا .

من الاراء الشائعة ان نسبة الخيالة الى المشاة في العصور الوسطى كانت اعلى بكثير مما هي عليه الان ، ومن ثم بدأت بالتناقص منذ ذلك الحين . الا ان هذا تصور خاطىء ، الى حد ما على الاقل . فكمعدل ربما لم تكن نسبة الخيالة في مطلق الحالات متفوقة كثيراً ، وبوسع المرء تأكيد ذلك بسهولة من دراسة الاعداد الحقيقية للقوات في العصور الوسطى . ويكفي ان نذكر هنا كل حشود الجنود المشاة الذين شكلوا جيوش الحملات الصليبية ، او التي انقادت وراء اباطرة جرمانيا في ايطاليا . بل ان **اهمية الخيالة** كانت هي الاعظم . لقد كانت الخيالة هي **السلاح الاكثر فاعلية** ، والتي تتألف من علية القوم (النخبة Elite) ، والفرق الذي سببه ذلك هو ، ورغم ان الخيالة كانت هي الأقل كثيراً ، الا انها كانت تعتبر وعلى الدوام العنصر الحاسم ، بينما لم يحضى المشاة الا بالحد الادنى من التقدير ، بل لم يكن يذكر الا نادراً . من هنا نبتت فكرة قلة اعداد المشاة نسبياً . كانت هناك دون شك غارات وغزوات صغيرة ومحدودة في المانيا وفرنسا وايطاليا تنفذها قوات صغيرة من الخيالة ، وهي اكثر شيوعاً انذاك مما هي الان، ونظراً لان الخيالة كانت السلاح الرئيسي فلم تكن عمليات من ذلك النوع مستغربة . الا ان عدد حالات كهذه لن يكون حاسماً لو اخذنا بنظر الاعتبار الصورة العامة حيث تتفوق عليها حالات اخرى واكثر عدداً حتى، ونفذت من قبل جيوش اكبر . ولم تتوقف أو تنتهي عادة استخدام الحشود الكبيرة من المشاة اللامجدي نسبياً الا بعد انقراض واستبدال إساليب الاقطاع في الخدمة العسكرية ، بالمرتزقه المستأجرين فأصبحت ادارة الحرب تعتمد على المال والتجنيد – كما في حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨–٤٨) وحروب لويس الرابع عشر (١٦٣٨ – ١٧١٥) . اذ كان الامر سيؤدي الى العودة الى الخيالة انذاك ، لو لم تؤدي التطويرات في الاسلحة النارية الى اعطاء المشاة اهمية جديدة . وأحد تأثيرات ذلك كان في ابقاء المشاة متفوق عددياً على الخيالة . وحتى عندما كان المشاة ضعيفاً فقد ظلت نسبته الى الخيالة حتى انذاك (١:١)، ثم اصبحت بعد تزايد قوته الى (٣:١) .

ومع تزايد التطور في الاسلحة النارية ، واصلت الخيالة هي الاخرى فقدان اهميتها باستمرار ، وكان ذلك واضحاً بشكل كافٍ ، لكننا يجب ان نفهم ان تلك التطويرات لم تشمل الاسلحة كما هي فقط، ولا الى المهارة في استخدامها كذلك بل والى القدرة على استخدام القطعات التي تجهز بها ايضاً. لقد بلغ البروسيون في معركة (مولفتز)[1] مستوى عالٍ للغاية في استخدام القوة النارية لم يبلغه او يتجاوزه احد حتى الان . ومن الناحية الاخرى فان انفتاح المشاة في الاراضي الوعرة واستخدام الاسلحة النارية في المناوشات لم يتطور الا مؤخراً ، ويجب اعتباره تقدماً رئيسياً في القوة التدميرية .

ونحن نرى ، لذلك بان علاقة الخيالة الى المشاة قد تغيرت قليلاً بالنسبة للأعداد، الا ان التغيير كان كبيراً في الاهمية . وقد يبدو ذلك تناقضاً ذاتياً ، الا انه في الحقيقة ليس كذلك . نجد في جيوش العصور الوسطى حشوداً كبيرة من المشاة ، كانت تعمل دون أي تناسق مع الخيالة ، وكثرة جنود المشاة هذه تعود فقط بسبب الارتفاع الكبير في اسعار وتكاليف الخيالة مما أدى الى تحويل كل من يتعذر تسويقهم في كتائب الخيالة الى سلاح المشاة ، لذلك أصبح المشاة هو الافضل بالضرورة ، ولو قدرت أعداد الخيالة وفقاً لقيمتها الجوهرية ، فلن تكون أية أعداد منها فائضة عن الحاجة . وهذا يفسر لنا السبب في ان الخيالة ، ورغم تضاءل اهميتها ، لعلها ما زالت قادرة على ان تلعب ذلك الدور الذي احتفظت به حتى ايامنا هذه .

من الملفت للنظر حقاً ، انه وعلى الاقل منذ حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠-٨) ، ظلت نسبة الخيالة الى المشاة دون تغيير نهائياً ، وما بين الربع الى السدس . ويبدو ان ذلك يعني ان تلك النسب كانت وفقاً لبعض الاحتياجات الطبيعية،

---

(١) معركة (مولفتز) (١٧٤١/٤/١٠) من معارك الحرب السليزية الاولى والتي كانت جزءً من حرب الوراثة النمساوية . اذ وبعد ان احكم فردريك الكبير سيطرته على سليزيا ، غزتها النمسا، كما حشد الكونت ادم نييرج قواته فيبوهيميا وبذا تم عزل فردريك عن وطنه بروسيا ، كما نجحت الخيالة النمساوية المتفوقة في بداية المعركة من دفع خيالة الجناح الايمن البروسي خارج الميدان . وكان فردريك موجوداً فيه فرجاه احد قادته (الجنرال شويرين) النجاة مع رجاله وصمد شويرين مع مشاته ونجح بصد الهجمات المتتالية للخيالة والمشاة النمساويين ثم تغلب عليهم وأبعدهم من الميدان واعتبرت هذه المعركة دليلاً على تفوق المشاة على الخيالة والمرة الوحيدة التي ترك فيها فردريك ساحة المعركة .

موسوعة التاريخ العسكري (بالانكيزية) ص٦٣٠ . المترجم

مع انها نسب لا يمكن التحقق منها بشكل ملموس او تجريبي مباشرة . الا اننا نشك في ان الامر كذلك ، ونعتقد انه وفي جميع الامثلة المهمة كانت هناك اسباب اخرى وراء الاحتفاظ باعداد كبيرة كهذه من الخيالة .

فروسيا والنمسا على سبيل المثال سارتا في هذا الاتجاه لانهما كانتا تضمان في نضاميهما السياسي نسبة من السكان التتر . اما نابليون فما كان بوسعه أن يكون قوياً بما يكفي لتحقيق اهدافه ؛ أذ وحالما استنزف كل قدراته على التجنيد ، لم تبق امامه من وسيلة متاحة لتقوية جيوشه سوى تعزيز وتقوية الاسلحة الثانوية (المساعدة) التي تتطلب الاموال لا الرجال . بالاضافة الى ان المساحات الشاسعة التي امتدت عبرها حملاته وعملياته العسكرية كانت ستضع الكثير من الاعتماد والتأكيد واكثر حتى من المعتاد على الخيالة .

من المعروف جيداً ان فردريك الكبير كان يراعي وبشكل حاد عدم تجنيد اية اعداد إضافية فوق حدود طاقة وقدرات وطنه ؛ وكان هاجسه الرئيسي هو تقوية جيشه على حساب البلدان الاخر والى اكبر حد ممكن في ذلك . ومن السهولة معرفة مدى قوة الاسباب التي تدفعه الى ذلك إذا تذكرنا صغر مساحة مملكته التي ما كانت تشمل انذاك حتى على بروسيا الغربية ، أو (ويستفاليا) .

لا تحتاج الخيالة الا الى القليل من القوة البشرية فقط ، بل من السهل كذلك تجنيدها . كما ان طرقه الحربية كانت تستند كلياً على التفوق في قابلية الحركة. ونتيجة لذلك وبينما كانت اعداد المشاة تتناقص في جيشه ظلت خيالته في تزايد مستمر حتى نهاية حرب السنوات السبع . رغم انها لم تتجاوز حتى انذاك الربع بالنسبة للمشاة في الميدان .

لا تنقصنا الامثله كذلك ، وخلال نفس الفترة عن جيوش فرضت نفسها على الميدان وليس فيها سوى نسبة قليلة وبشكل استثنائي من الخيالة ومع ذلك كانت قادرة على الخروج منتصرة . والمثال الملفت للنظر في ذلك معركة (كروس – كورشين). فلو تمعنا في تعداد الفرق التي اسهمت في المعركة لوجدنا لنابليون (١٠٠) الف رجل – منهم (٥) الاف من الخيالة و (٩٠) الفاً من المشاة . مقابل (٧٠) الفاً لقوات التحالف منهم (٢٥) الفاً من الخيالة و (٤٠) الفاً من المشاة . وبذا كان نقص نابليون من الخيالة (٢٠) الفاً ، وله تفوق (٥٠) الفاً بالمشاة فقط على اعداءه ، في الوقت الذي يتوجب عليه تحقيق تفوق بـ (١٠٠) الف . ونظراً لانه ربح المعركة رغم تفوقه الهامشي هذا،

فقد يتساءل المرء عما اذا كان نابليون سيخسر المعركة لو كان لديه (١٤٠) الفاً من المشاة ضد مشاة التحالف الـ (٤٠) الفاً .

لقد اثبت التحالف بعد المعركة ، دون ريب ، ان تفوقهم بالخيالة امر في غاية الاهمية ؛ اذ لم يكسب نابليون اية غنائم . والانتصار لوحده ليس هو كل شيء في المعركة – الا انه وبعد كل شيء ، اليس هو المهم فعلاً ؟

تجعل هذه الاعتبارات من الصعب علينا الاعتقاد بان نسبة الخيالة الى المشاة والتي وضعت قبل ثمانين سنة واستمرت منذ انذاك هي النسبة الطبيعية ، والتي انبثقت من القيمة الحقيقية لكلا السلاحين . ونحن اكثر ميلاً الى التفكير ، بانه وبعد تغييرات عديدة ومتنوعة ، فسيستمر الميل الحالي ، وان الاعداد الثابتة للخيالة ستقل كثيراً عما هي عليه الآن .

منذ اختراع المدفع ، ومع التحسينات التي ادخلت عليه ، ومع تناقص وزنه فقد تزايدت اعداد المدافع بطبيعة الحال . رغم انه ومنذ ايام فردريك الكبير ظلت القوة النسبية للمدفعية ثابتة كما هي ، (٢-٣) مدافع لكل الف رجل – وهذا طبعاً عند مستهل الحملة . ونظراً لان المدافع لا تفقد بالسهولة التي يفقد بها الرجال ، لذا كانت نسبة المدافع تزيد كثيراً في النهاية ، وربما تصل نسبة (٣، او ٤، او ٥) مدافع لكل الف رجل . والتجارب وحدها ستقرر ما اذا كان ذلك هو التناسب الاعتيادي ؛ او ما اذا كانت اعداد المدافع ستتزايد دون التأثير على او اعاقة ادارة الحرب ككل .

لنلخص الان الاستنتاجات التي أوصلت اليها هذه المناقشة :

١ . المشاة هو الصنف (الفرع) الرئيسي للخدمة . والصنفان الاخران متممان .

٢ . يمكن لدرجة عالية من المهارة والحيوية في ادارة الحرب ان تعوض الى حد ما عن النقص في الصنوف المتممة – على افتراض وجود تفوق عددي كبير في المشاة. وكلما ارتفعت نوعية المشاة كلما سهل ذلك اكثر .

٣ . العمل دون المدفعية أصعب من العمل دون الخيالة ، فالمدفعية هي العنصر الرئيسي للتدمير ، وان استخدامها في العمل يتم بتنسيق أوثق وأشد قوة مع المشاة.

٤ . المدفعية عموماً هي العنصر الاقوى للتدمير ، والخيالة هي الاضعف ، ولا بد من مواجهة دائمة مع السؤال عن مقدار ما يمكن اخذه من المدفعية دون أن يصبح ذلك ضرراً ، وما النسبة القليلة من الخيالة التي تفي بالغرض .

الفصل الخامس

نظام معركة الجيش

نعني بنظام المعركة توزيع وتأليف الصنوف (Arms) كاجزاء منفردة في البناء ككل، وكذلك الترتيب الذي سيقدم الشكل القياسي خلال الحملة كلها ، او خلال امد الحرب .

وبهذا فان نظام المعركة يتألف من بعض النواحي من مكونات حسابية وهندسية ؛ **التنظيموالترتيب** . ويعتمد الاول على التنظيم الاعتيادي للجيش في السلم ؛ وعلى اقسام اساسية مثل السرايا ، الافواج ، الكتائب ، والبطريات ، وتعامل هذه الوحدات كقوالب – البناء التي تستخدم لمبانٍ اكبر ، وتشكل بدورها هي الاخرى الكل (الجيش)، ووفقاً لمتطلبات الحال . كذلك الحال مع الترتيب الذي يبدأ من التعبية الاساسية التي يبدأ تعليمها والتدريب عليها منذ السلم – وهي خصائص وسمات ليست عرضة لتغييرات جوهرية بعد أن تندلع الحرب . وهذه ، سوية مع الظروف التي تتطلب استخدام القطعات في الحرب ، وعلى نطاق واسع ، يحددان المعايير والاجراءات التي واعتماداً عليها يجري انفتاح الجيش للمعركة .

هكذا كان التطبيق عند دخول الجيوش الكبيرة الى الميدان ، كما كانت هناك أوقات اعتبر نظام المعركة فيها اكثر اجزاء العمل اهمية .

عندما أدت التحسينات في الاسلحة الخفيفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الى توسع كبير في المشاة ، وسهلت من امكانية انفتاح (زج) الجنود في صفوف طويلة ورقيقة ، فقد كان ذلك تبسيطاً كبيراً لمفهوم نظام المعركة ، ومع ذلك فقد تطلب مداولة (قيادة) صفوف كهذه قدراً كبيراً من المهارة . واكثر من ذلك ، ونظراً لان المكان الوحيد المناسب للخيالة هو على الاجنحة – خارج مدى نيران الاسلحة وحيث تتيسر فسحات لانفتاحها – يصبح الجيش وبعد ترتيب نظام المعركة ، كتلة صلبة تصعب تجزأتها . ولو قسم هذا البناء الى قسمين ، فسيكون كدودة الارض التي قطعت من النصف ، فكلا طرفيها حيّان وقادران على الحركة الا انهما فقدا قدرتيهما على الاداء الطبيعي . فالقوات المقاتلة كذلك محكومة بعبودية التماسك ، الا ان تجزأة واعادة تنظيم القوات ومثل ذلك من الاعمال الصغيرة الاخرى تغدو ضرورية

عندما يفرض الموقف زج قسم منها لواجب منفصل . وعندما يتوجب على الجيش تنفيذ مسيرة او تنقل فسيجد نفسه بعيداً عن تشكيلته الاساسية ان جاز قول ذلك . وعندما يكون العدو قريباً يتطلب الامر جهداً عبقرياً لابقاء هذا الخط أو الرتل أو أحد الاجنحة ضمن البعد المناسب عن الاخرين بغض النظر عن المواقع الموجودة على الطريق . من الضرورات المطلقة اخفاء التنقلات عن العدو ، ولصوصية كهذه تسهل التملص من أية عقوبات (تدخلات معادية) لا لسبب سوى ان العدو محكوم برباط مشابه من العبودية (Bondage) .

اكتشف في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أن بوسع الخيالة حماية الاجنحة بمجرد وضعها خلف الجيش وكما لو انها تشكل امتداداً للخطوط ، بل واكثر من ذلك فيمكن استخدامها لاغراض أخرى غير مقاتلة خيالة العدو . لقد كان ذلك خطوة كبرى الى الامام ، ولو لسبب واحد فقط هو ان جبهة الجيش – اي عَرض ترتيبه – اصبحت الان مؤلفة من وحدات متجانسة ؛ ويمكن بذلك تجزأتها الى اي عدد نريده من وحدات متشابهة فيما بينها من جهة وللكيان الاكبر (الجيش) ايضاً . وبذلك لم يعد الجيش تلك الكتلة الصلبة او المونوليث (Monolith) [1]، بل مجموعة كيانات مترابطة وسلسلة مرنة ، يمكن افراز واعادة الوحدات بسهولة ودونما إرباك لنظام المعركة . وتلك كانت بداية تشكيل الفيالق من كافة الصنوف والاسلحة – أو بالاحرى ما جعل ذلك ممكناً ؛ فقد دعت الحاجه الى مثل ذلك التنظيم منذ زمن بعيد .

من المفهوم أن منشأ ذلك كله في معركة ، اعتدنا على اعتبارها حربا كاملة، وستظل دائماً عنصرها الرئيسي . الا ان نظام المعركة في الحقيقة مسألة تعبوية اكثر منها استراتيجية ، وغايتنا الوحيدة في تتبع تطور نظام المعركة هنا، هي لنوضح كيف ان التعبية ومن خلال اعادة تنظيم الجيش ككل في وحدات اصغر قد مهدت السبيل امام الاستراتيجية .

ومع تزايد حجم الجيوش ، وانفتاحها فوق مناطق واسعة ، ومع تزايد امكانية دمج اجزائها المنفردة بشكل فعال ، كلما ازداد توسع نطاق الاستراتيجية . لذلك فان نظام المعركة وكما عرفناه محدد بالتفاعل مع الاستراتيجية ، يتضح هذا التفاعل اكثر في نقاط التقاء الاستراتيجية والتعبية – وبكلمة اخرى عندما يتحول الانفتاح العام للجيوش الى الترتيب الحقيقي للمعركة .

---

(١) . المونوليث او المنليث حجر اسود ضخم كتلة واحدة كعمود او سلة – قاموس المورد ص ٥٨٩ .

نعود الان الى موضوعات (ثلاثية) **التنظيم** ، **والتجحفل** ، **وانفتاح القطعات** كما ترى من وجهة النظر الاستراتيجية :

١ . **التنظيم** Organization

ينبغي على المرء من وجهة النظر الاستراتيجية عدم التساؤل عما يجب ان تكون عليه قوة الفرقة والفيلق . فالسؤال المناسب هو عن عدد الفرق والفيالق التي ينبغي ان تكون في الجيش . فليس هناك ما هو اصعب واثقل في التعامل معه من جيش مجزأ في ثلاثة اقسام ، ربما عدى الجيش المجزأ الى اثنين . اذ سيكون القائد في الحالة الثانية مشلولاً عملياً .

للقرار على قوة فيلق كبير او صغير في المستوى التعبوي او العملياتي، يترك مجالا لا معقولاً للأفتراض ، ولعل اغرب الاراء والحجج في ذلك أن يترك الامر مفتوحاً ودون تحديد . وعلى العكس من ذلك تماماً ، فمن الواضح والمؤكد أن تنظيماً مستقلاً ومتكاملاً كالفيلق لا بد أن يتألف من عدد محدد من الاقسام . وتسمح هذه الحقيقة باستخدام المبررات الاستراتيجية الاصيلة للقرار على عدد الوحدات التي يجب أن تضمها قوة كبرى ، وما الذي ينبغي أن تكون عليه كل من تلك الوحدات (الفرعية) ؛ وفي الوقت نفسه قوة الوحدات الاصغر كالافواج والسرايا وغيرها، وان يستند كل ذلك الى اسس تعبوية .

من الصعب تصور بقاء أي تنظيم (كيان) مستقل ، وحتى الاصغر حجماً ، دون ثلاثة اقسام متميزة ، **الاول** ، ليرسل امام القوة الرئيسية ، **والثاني** لتشكيل المؤخرة (الساقة) . بل لعل من الافضل ان تكون اربعة اقسام ، طالما ان الجزء **الاوسط** سيشكل القسم الاكبر والذي يجب ان يكون اقوى من الاثنين السابقين . كما يمكن ايصال العدد الى ثمانية ، وهو العدد الذي نراه مثالياً للجيش ، على افتراض اننا سنرسل **احد** الاقسام لواجب الطليعة (Vanguard) **وثلاثة اقسام** لتكون القسم الاكبر – **جناح ايمن، ومركز** ، **وجناح ايسر** – **واثنان للأحتياط**، وواحد لكل من الميمنة والميسرة كمفارز . لعل الاصرار على تلك الاعداد والاشكال لا اكثر من حذلقة وتبجح ، مع انها برأينا تعكس التوجيه الاعتيادي ونمط الانفتاح الاستراتيجي الاكثر شيوعاً وبالتالي المنظومة المفصلية (المرنة) الاكثر تقبلاً .

لا مجال للأنكار بان القيادة العامة لاي جيش (**وكذلك قيادة أية قوة مستقلة**) أمر في غاية السهولة أذ يكفي اصدار الاوامر لثلاث أو اربع رجال آخرين، رغم ان

ان على القائد ان يدفع الكثير ثمناً لهذا الرخاء وبطريقتين :

الاولى : هي ان الاوامر تفقد الكثير من سرعتها وجديتها وحيويتها ووضوحها كلما طالت سلسلة القيادة التي ستمر بها ، وهي الحالة السائدة ، وفي هذه الحالة فهناك قادة الفيالق ما بين قادة الفرق والقائد العام .

الثانية : تتناقص قوة القائد الشخصية وحضوره وفاعليته وفقاً لنسبة التزايد والاتساع في نطاق ومجال العمل لاقرب مرؤوسيه .

بوسع القائد العام ان يجعل سلطته على (١٠٠) الف رجل محسوسة بشكل اقوى إن مارس القيادة بواسطة (٨) فرق لا (٣) فرق . ولذلك أسباب عديدة ؛ اكثرها اهمية هي ان القائد المرؤوس يعتقد ان له نوعاً من حق وسلطة التملك على جميع اقسام الفيلق الذي يقوده ، وسيتذرع بشتى السبل للاعتراض على اقتطاع أو سحب اي جزء منه ولو لوقت قصير حتى . ولكل من له اي قدر من خبرة وتجارب الحرب ، القدرة علي تفهم امور كهذه .

من الناحية الثانية يجب ان لا يزداد عدد الاقسام الفرعية كثيراً وبشكل يتسبب بالكثير من الارباك والفوضى . اذ سيصعب بما يكفي على مقر واحد قيادة ومداولة ثماني وحدات فرعية ، وربما يكون الحد الاعلى لعددها هو (عشرة) . اما بالنسبة للفرقة ، وحيث يقل كثيراً عدد الوسائل والسبل لنقل وايصال الاوامر الصادرة للعمليات ، لذا فان اربع ، او كحد اقصى خمسة وحدات فرعية هي العدد المناسب .

ان لم يثبت ان تلك الاعداد والنسب الخمسة والعشرة عملية وفعالة – وبكلمة اخرى ، ان اصبح اللواء Brigade ضخماً جداً – يمكن عندها لمقر الفيلق التدخل . الا ان على المرء ان يتذكر ان ذلك يضيف قوة الى سلسلة القيادة بينما يقلص وفي الوقت نفسه كافة الامور الاخرى .

على اية حال ، متى سيغدو اللواء ضخماً جداً ؟ اذ لا يزيد حجمه المعتاد عن (٢–٥) الاف رجل ، ويبدو ان هناك سبب لتحديد الجهات العليا هذا . السبب الاول هو ان اللواء يعني وحدة بوسع رجل واحد قيادتها وبشكل مباشر بقوة صوته . والثاني هو ان حجماً كبيراً من المشاة لا ينبغي ان تترك دون مدفعية . ومن المزج ما بين هذين العاملين يمكن تشكيل وحدة خاصة .

لا نريد التوغل بعمق في مثل هذه التفاصيل التعبوية ، كما لسنا معنيين بالتورط

مع الأسئلة المثيرة للجدل مثل ، أين ، وبأي نسب ، ينبغي الجمع بين الصنوف الثلاث - أفي فرقة من (٨-١٢) الف رجل ، أو في فيلق من (٢٠-٣٠) الف . وبالتأكيد فان أقوى معارضي مثل هذا الجمع سوف لن ينكروا أن **الجمع بين الصنوف الثلاثة وحده يمكن أن يصنع وحدة مستقلة للجيش** . لذا فالجمع بين الاسلحة امر مرغوب فيه ، وهذا أقل ما يمكن قوله ، لاي وحدة غالباً ما تجد نفسها تعمل لوحدها وبشكل منعزل.

إن جيشاً من (٢٠٠) الف رجل في عشرة فرق ، لكل فرقة منها خمسة الوية ، فسيكون في كل لواء منها (٤) الاف رجل . ولا نجد أي تفاوت او لا تناسب في ذلك. يمكن أن ينقسم الجيش بطبيعة الحال الى خمسة فيالق ، في كل منها أربع فرق ، باربع الوية في كل واحدة ، وسيكون اللواء بقوة (٢٫٥٠٠) رجل . ولو تمعنا في الامر بشكل تجريدي محض فان الترتيب الاول هو الافضل . ليس لان الثاني يحتوي على حلقة اضافية (مستوى اضافي) للقيادة ، بل لان خمسة تشكيلات فرعية عدد قليل جداً لجيش . اذ سيغدو الجيش ثقيلاً وصعب التداول وكذلك الحال عند وضع اربع وحدات في الفيلق . كما ان قوة تعدادها الفان وخمسمائة رجل فقط لا تعني سوى لواءً ضعيفاً ، ولا بد عندها من تيسر (٨٠) لواء بهذا الحجم ضد (٥٠) لواء وفقاً للترتيب الاول الذي سيغدو عندها اكثر بساطة . ولا بد من التخلي عن كل هذه المزايا لمجرد انقاص اعداد القادة الذين يتوجب اصدار الاوامر اليهم الى النصف . اما في حالة الجيوش الاقل تعداداً فمن الواضح ان تقسيمها الى فيالق ليس بالامر المناسب .

هذا رأي نظري مجرد للموضوع . ولو طرحت قضية محددة فقد تفرض حلولاً وصيغاً مختلفة . اذ قد يمكن تماماً قيادة ثمانية او عشرة فرق محتشدة في سهل، وقد يستحيل ذلك ان كانت الفرق موزعة على مسافات واسعة في منطقة جبلية . كما ان جيشاً انقسم الى كتلتين بنهر عريض سيحتاج الى قائد لكل جانب . الخلاصة هناك الاف المبررات المحلية المقنعة والظروف الخاصة التي تضطر القواعد النظرية للخضوع اليها .

تثبت لنا التجارب مع ذلك بان الحجج النظرية غالباً ما تستخدم ويعول عليها، ولا توضع جانبا الا في حالات اقل مما قد يفترض المرء .

قد يتحتم علينا ايضاح مدى ونطاق تلك الملاحظات بمجمل مبسط ، يلخص لنا النقاط البارزة جنباً الى جنب :

لو اعتبر مصطلح «فرع من الكل» انه يعني **الجزء المكون الاول او التالي**

المباشر، فنحن نرى :

أ. ان الكل سيبدو ثقيلاً وصعب التداول ان لم تكن له الا أقسام ثانوية قليلة فقط

ب . ان كانت الاقسام الثانوية كبيرة جداً فستضيع سلطة القائد الشخصية .

جـ . كل حلقة اضافية في سلسلة القيادة ستقلل قوة وتأثير الاوامر بطريقتين : بتقطع وتوقف عملية ايصال الاوامر ، وبالوقت الاضافي المطلوب لايصالها .

يلي ذلك ان عدد الاقسام الفرعية المتساوية ينبغي ان يكون على اكبر ما يمكن، وان تكون سلسلة القيادة على اقصر ما يمكن ، والسمة الوحيدة هي صعوبة ممارسة القيادة على اكثر من (٨-١٠) تشكيلات فرعية للجيش ، وعلى اكثر من (٤-٦) منها في المقرات الاصغر .

٢ . تجحفل اسلحة الخدمة

يعتبر تجحفل Combination القوات في نظام المعركة مهم من وجهة النظر الاستراتيجية وفقط لتلك الاجزاء من الكل ، والتي عند الظروف الاعتيادية قد توضع في مناطق متباعدة، كما قد تجبر على خوض معارك منفصلة . لذا فمن طبيعة الاشياء أن التشكيلات الكبرى ، وحدها والى حد كبير واساسي هي التي تنفتح منفصلة، والسبب في ذلك ، والذي سنوضحه في مكان أخر ، هو أن مواضع القطعات المفرزة (المنعزلة) تعتمد وفي معظم الحالات ، على فكرة والى الحاجة الى كيان (تشكيل) مستقل.

لذلك ، وبتعبير اكثر دقة ، ستفرض الاستراتيجية ، ان الفيالق وحدها ، او عند عدم تيسر هذه ، فان الفرق هي ما ينبغي تأليفها من مزيج دائم من جميع الاسلحة والصنوف. إما في حالة التشكيلات والوحدات الاقل في الاهمية فقد يلجأ الى تأليف وقتي يعد ويرتب لمواجهة احتياجات اللحظة وهذا واف بالغرض .

الا ان من الواضح ان فيلقاً متكاملاً ، ولنقل من (٣٠-٤٠) الف رجل ، نادراً ما يعمل كقوة واحدة دون تجزأة . واية فيالق بهذه القوة ستحتاج الى مجموع (تجحفل) الاسلحة حتى ضمن فرقها . وليس بوسع اي كان أن ينكر حجم التأخير الناجم ناهيك عن الارباك الذي سينتج كذلك عند محاولة مساعدة المشاة ، ويفرض الموقف ارسال وحدة الخيالة من اي مكان اخر - وربما من منطقة بعيدة جداً - مما سيدل على نقص تام في الادراك والخبرة العملياتية .

يعتبر المزج الفعلي (التجحفل) للاسلحة الثلاثة ، والى اي مدى وأمد ، وقوة ودرجة الترابط ، والنسبة التي تعطى لكل منها ، والمقدار الذي يخصص للأحتياط منها – تعتبر هذه كلها من الامور والمعضلات التعبوية البحت .

٣ . **الانفتاح** Diployment

تعتبر ترتيبات انفتاح القطعات واماكن كل تشكيل نسبياً في نظام المعركة ، هي ايضاً من القضايا التعبوية ، وتتعلق بالمعركة فقط . هناك بطبيعة الحال انفتاح استراتيجي ، الا ان ذلك يعتمد كلياً تقريباً على ترتيب المواضع ومتطلبات الموقف الراهن. وان كانت هناك قواعد أو اسس رشيدة وعقلانية ، فلن توجد هذه ضمن عبارة او مصطلح «نظام المعركة» لذا يترك البحث فيها الى مكان اخر وتحت عنوان « ترتيب الجيش»[١] – اي الفصل التالي – .

لذا يعني نظام المعركة لجيش ما ، تنظيمه ، وتشكيله في كتلة جاهزة للمعركة. وتنظيم اقسامه بطريقة يسهل معها فرزها واقتطاعها من الكتلة واستخدامها وفقاً للحاجة ومتطلبات اللحظة ، تعبوياً وكذلك استراتيجياً . وعند انتهاء مثل هذه المطالب الانية او عندما لم يعد لها من مبرر، تعود تلك الاقسام المفرزة الى مواضعها الاصلية . وهكذا فان نظام المعركة يعد المرحلة الاولى والقاعدة الرئيسية في السياق المفيد والعملي ، الذي يتولى وكرقاص (بندول) الساعة ، تنظيم الية وميكانيكية الحرب ، التي سبق وان نوقشت في الفصل الرابع من الكتاب الثاني .

---

(١) يعرف قاموس جينس للمصطلحات العسكرية الترتيب ، او Diposition بانه : توزيع عناصر واجزاء القوة ضمن منطقة ما ، ويعني عادة ، المكان المحدد لمقر كل وحدة وانفتاح القطعات التابعة لها .

Jane's Dictionary of Military terms by. Brig. P. Hayward . London 1975. P.58

المترجم

الفصل السادس
الترتيب العام للجيش

هناك وفي معظم الحالات فاصلة كبيرة ما بين التعبئة (Mobilization) الاولية للقطعات ، وبين لحظة اكمال وتنفيذ كل القرارات الحاسمة ؛ عندما تكون الاستراتيجية قد أوصلت الجيش الى النقطة المهمة . وتخصص التعبية لكل وحدة مكانها ودورها . وينطبق ذلك وبنفس الدرجة على الوقت (الفاصلة الزمنية) ما بين حدث حاسم وآخر.

لم تكن هذه الفواصل تبدو في الماضي **وكانها** جزء من الحرب . ولنأخذ على سبيل المثال الماريشال لوكسمبرج وأساليبه في التعسكر والمسير . ولقد اخترناه لمفرده لان ذلك هو ما امتاز به ، لذا يمكن اعتباره نموذجاً لعصره . كما لدينا الكثير من التفاصيل عنه من «تاريخ الفلاندر الحربي»[1] اكثر مما عن اي قائد من عصره .

كان المعتاد في اختيار المعسكرات ان تكون مؤخراتها قريبة من نهر او مستنقع او وادٍ عميق – وذلك امر يعتبر الان حماقة او غباء . لا يقرر موضع العدو عموماً اتجاه المعسكر، لذلك غالباً ما كانت تتجه نهايات المعسكرات نحو العدو ، والمقدمات باتجاه أراضينا. ومثل هذه الاجراءات التي تصدمنا كاشياء لا معقولة، يمكن فهمها فقط عندما يكون المبدأ ، والعامل الوحيد في مكان التعسكر هو اختيار كونه مكاناً مناسباً. ولا تعتبر القطعات المتعسكرة في حالة حرب ، وكأنها خارج مشهد الفعل – ساحة المعركة – إن جاز قول ذلك ، وليست مهتمة سوى بالراحة . والاجراء الأمني الوحيد الذي تُشترط مراعاته هو تغطية المؤخرة – أو اسنادها على مانع – والامن بالمعنى الذي يفهم منه ايامذاك فقط . ولا تفعل القطعات اي شيء لمواجهة احتمال خوضها قتالا ما ضمن المعسكر . الا ان خطراً كهذا ليس اكثر من احتمال بعيد ، اذ تستند المعركة على نوع من القبول والتفهم المشتركين ، وتشبه في ذلك والى حدٍ الكبير المبارزة التي يرتب إجراؤها في مكان ملائم لكلا الطرفين. ليست كل انواع الاراضي ملائمة لمعارك تلك الايام – وذلك راجع جزئياً الى كثرة أعداد الخيالة ، التي وإن كانت في أواخر عصرها الزاهر ، ما زالت تعتبر (وعلى الاخص عند الفرنسيين) السلاح الرئيسي ، كما يرجع

---

(١) I.e., de Beaurain, Histoire militaire de flandre (Paris, 1755) Eds

ذلك في جزءٍ آخر الى نظام المعركة الثقيل والصعب التداول للجيوش ، لذا كانت الاراضي الوعرة اكثر أمناً للقطعات ، وكأنها في ارض محايدة . الا إن الجيش كان عاجزاً عن الاستفادة منها الا قليلاً وكان يعتبر أن الافضل هو تركها والخروج لملاقاة العدو القادم والمتأهب للمعركة. نحن نعرف بطبيعة الحال ان معارك (فليورز)[1]، (ستينكيرك)[2] ، و (نيرويندون)[3]، قد فهمت بروحية مختلفة من قبل الدوق لوكسمبرج، الا إن تلك الروحية كانت أيامها في دور النشوء والتنامي من بين بقايا الطرق والاساليب القديمة ، ولم تتضح ابعادها الكاملة أو تنعكس في منظومة وعمليات التعسكر. وفي الحقيقة إن التغييرات في فن الحرب تنطلق دائماً من المعارك والقرارات الحاسمة ، والتي تعمل شيئاً فشيئاً على تطوير الفن . ولم يكن لحالة التعسكر انذاك سوى علاقة قليلة بالحالة الحقيقية للحرب ، وكما يصورها المثال الفرنسي (il Va ala guerre) والذي يستعمل لوصف دورية اخرجت من المعسكر لمراقبة العدو .

يمكن قول الشيء نفسه عن المسيرات . اذ كانت المدفعية تتنقل بمفردها كي تضمن افضل الطرق وآمنها ، بينما تتبارى كتائب الخيالة كي يحظى كلا منها بشرف الركوب على ميمنة الجيش .

جرت المعارك الثلاث اعلاه في حرب التحالف العظيم (١٦٨٨ - ١٦٩٧) او حرب عصبة او كسبرج بين فرنسا (لويس الرابع عشر ووزير حربه لوفوا) ضد هولندا وامراء المانيا البروتستانت .

(١) معركة فليورز . تمكنت القوات الفرنسية (٤٥) الفاً بقيادة الدوق لوكسمبرج وباستخدام الخيالة في حركة احاطة مزدوجة جريئة من دحر قوات الحلف المعادي بقيادة فالديك (٣٧) الفاً فكبدهم (٦) الاف قتيل و(٨) الاف اسير . اما خسائر الفرنسيين فكانت الفان وخمسمائة . وقد اراد لوكسمبرج مطاردة فالديك في هولنده والمانيا الا أن لويس الرابع عشر أمره بتنسيق حركاته مع الارتال الفرنسية الاخرى - جرت المعركة في ١٦٩٠/٧/١ (م.ت.ع ص ٥٤٧ - المترجم) .

(٢) معركة ستينكيرك (١٦٩٢/٧/٢٤) بعد فشل الامير الالماني البروتستاني فردريك وليام في الاشتباك مع لوكسمبرج خلال شهري حزيران وتموز هاجم القوات الفرنسية المدافعة في ستينكيرك وحقق نجاحاً اولياً الا ان هجوماً مقابلاً فرنسياً أجبره على الهزيمة تحت حماية انكليزية (م.ت.ع - ص٥٤٠) المترجم .

(٣) معركة نيرويندون (١٦٩٣/٧/٢٩) وتعرف بمعركة لاندن ايضاً . حيث دافع الالماني وليام في لاندين وبامرته (٧٠) الفاً منهم (٢٠) الفاً قد أفرزوا لحماية (ليج) التي يهددها الفرنسيون وهاجم الدوق لوكسمبرج وبامرته (٨٠) الفاً دفاعات الالمان ونجحت خيالته باختراقها ودحرت قوات وليام بعد خسارتها (١٩) الف رجل ولم يتولى لوكسمبرج مطاردتها في هذه المعركة ايضاً والا لطلب وليام الصلح .

موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٥٤٧ - ٨ (المترجم) .

اما في ايامنا هذه ، وعلى الاخص منذ الحروب السليزية فقد تداخلت ظروف القطعات التي خارج العمل مع ظروف القطعات المقاتلة ، واصبحت هذه العلاقات المشتركة وثيقة بشكل بات يتعذر معه التمعن في اي ظرف منها بمعزل عن الظرف الاخر . لقد كان الاشتباك في الماضي هو النصل الحقيقي للسيف ، اما الفترات ما بين الاشتباكات فقد كانت غمده ، كان الاول هو الشفرة الفولاذيه، اما الثاني فكان الغمد او المقبض الخشبي الذي الصق بالنصل . فقد كان «الكل» مؤلف من اجزاء منفردة لا علاقة بينها . اما في ايامنا هذه فقد اصبح الاشتباك حافة السيف ، اما الوقت خارج الاشتباك فهو الحافة الاخرى . فالكل غدا ملتحم الاجزاء بشكل يتعذر معه تحديد بداية النصل الفولاذي من الحافات الحديدية .

يخضع وجود الجيش ما بين الاشتباكات هذه الايام جزئياً الى القواعد والنظامات السائدة ايام السلم ، وجزئياً بالترتيبات التعبوية والاستراتيجية الآنية . وهناك ثلاثة حالات ممكنه للقطعات ، فهي اما ان تكون في : المأوى (Billet) ، أو المسير ، او المعسكر . وكل من هذه الثلاثة يمكن ان يكون جزء من التعبية او الاستراتيجية . وغالباً ما تقترب التعبية والاستراتيجية من بعضهما بدرجة كبيرة للغاية ، بل انهما تبدوان، متداخلتان ، او أنهما كذلك فعلاً . وعليه فسيكون هناك العديد من الترتيبات والمواضع التي تعد من كلا النوعين معاً .

نقترح مناقشة الظروف الثلاث اعلاه والتي تحدث ما بين الاشتباكات بصورة عامة قبل الانتقال الى مناقشة الاحتمالات المحددة لها . ويتوجب علينا أولاً تفحص الترتيب العام للقوات ، نظراً لأن ذلك يوفر الوسط (المحيط) للحالات الثلاث ، الايواء ، والتعسكر، والمسيرات .

علينا عند مناقشة ترتيب القوات – بشكل عام – اي دون تحديد اهداف معينة ، علينا اعتبارها ككيان منفرد – اي ككيان **معني بالقتال سوية** . ان اي تجاوز أو انحراف عن ذلك الشكل الاساسي لا بد ان يتضمن بالضرورة هدفاً او غاية خاصة. ومن هذا الشكل أو الكيان إنبثقت فكرة (أو ، مفهوم) الجيش ، وبغض النظر عن حجمه .

واكثر من ذلك ، فان لم يعين للجيش هدفا ما، فان همه الوحيد عندها سيكون في **المحافظة على كيانه** ، وبالتالي توفير الامن الضروري له . لا بد لأي جيش من القدرة على الكينونه دون أية صعوبة محددة ، وأن يقاتل كوحدة . وهذان مطلبان يقودان عمليا الى الاعتبارات التالية المتعلقة بوجود وأمن الجيش :

١ . سهولة التموين .

٢ . سهولة الاسكان .

٣ . أمن المناطق الخلفية .

٤ . ساحة مفتوحة في الجبهة .

٥ . كون الموضع نفسه في ارض وعرة (متموجة)

٦ . نقاط استراتيجية للأسناد .

٧ . قوات فرعية (ثانوية) مناسبة .

وتعليقاتنا على تلك الاعتبارات كالتالي :

يوحي الاثنان الاولان ان من المرغوب فيه البحث عن مناطق زراعية، ومدن كبيرة وطرق رئيسية . وتأثيرهما عام وليس محدداً .

اما معنى «امن المناطق الخلفية» فسيوضح في الفصل السادس عشر ، الخاص بخطوط المواصلات . والمطلب الاول والاساس هنا أن يشكل الموضع زاوية جيدة مع اتجاه أو قرب خط الانسحاب .

اما عن النقطة الرابعة ، فليس من الممكن فعلاً أن يسيطر الجيش على منطقة كاملة من الارض بالطريقة التي يسيطر فيها على ساحة المعركة في الانفتاح التعبوي. وعليه استخدام «طليعة» كعين استراتيجية ، او ان يستخدم لذلك مفارزاً منفردة، او جواسيس وغير ذلك ، وستكون مهمات الرصد التي يقومون بها اسهل عليهم بطبيعة الحال في الاراضي المفتوحة منها في التلال والاراضي المتموجة . اما النقطة الخامسة فهي معكوس النقطة الرابعة تماماً .

هناك سمتي اختلاف بين نقاط الاسناد الاستراتيجي والتعبوي ، **الاولى** ؛ ان لا حاجة للجيش للتماس المباشر معها ، **والثانية** انهما يجب ان تكونا على اتساع اكبر بكثير . ويكمن سبب ذلك في حقيقة كون الاستراتيجية وبطبيعتها العامة تتحرك في ابعاد **الوقت والمسافة** اللذان هما اكبر من مثيلاتهما في التعبية . فلو اتخذ جيش ما مواضعه على نهر او على مبعدة ميل من الساحل ، او من نهر كبير فسيعتبر انه قد استند عليها استراتيجياً ، اذ سيتعذر على العدو العثور على فسحة أو مجال لاي حركة

احاطة استراتيجية . ولن يورط نفسه بمسيرات طويله تستغرق أياماً وأسابيعاً في مجال كهذا . من الناحية الاخرى فوجود بحيرة ضمن محيط بضعة أميال يندر أن يشكل مانعاً سوقياً . فبضعة أميال الى هذا الجانب أو ذاك لا يعنيان كثيراً للأستراتيجية . تعتبر القلاع والحصون نقاطاً استراتيجية نسبة لحجومها وتأثيراتها على اجواء العمليات .

قد يعكس انفتاح الجيش في قاطع منفصل اهدافاً ومتطلبات خاصة ، أو عامة والثانية فقط هي التي تهمنا هنا .

المتطلب العام الاول هو دفع «مقدمة» ووحدات اخرى لواجبات رصد العدو .

اما الثاني فهو ان يوضع احتياط الجيش الكبير على مبعدة عدة اميال في الخلف، كيما يسهل انفتاحه وزجه باجزاء منفصلة .

اخيراً ، فان فيالقاً منفصلة تفرز عادة لستر الاجنحة . وهذه الحاجة للتغطية لا تعني بطبيعة الحال ان جزءٍ من الجيش يجب ان يفرز لحماية المنطقة على جناحيه – اللذان يوصفان بانهما نقاط ضعف – من العدو . اذ من الذي سيحدد في حالة كهذه جناح الجناح ؟ كلام أهوج ، ولا تزيد مثل هذه الافكار على كونها سخافات كاملة . فليست الاجنحة نقاط ضعيفة بذاتها ، لسبب بسيط هو امتلاك العدو لاجنحة ايضاً، وهو عاجز عن تهديد اجنحتنا دون تعريض اجنحته للخطر . وتصبح الاجنحة ضعيفة فقط عندما لا تعود الظروف متوازنه مع بعضها البعض ، كأن يتفوق العدو علينا من حيث القوة، وعندما تكون خطوط مواصلات العدو اكثر أمانا (راجع الفصل (١٦) حول خطوط المواصلات) . الا ان هذه حالات خاصة لا تعنينا هنا ، ولا الحالة التي يشتمل فيها واجب فيالق الاجنحة على دفاع فعلي عن المنطقة (المجال) على جناحنا. لذا فلن يعد ذلك من ضمن ونوعية الاعتبارات العامة اعلاه .

فبينما قد لا تكون الاجنحة **نقاط ضعيفة بشكل خاص** ، بل **انها مهمة بشكل خاص**. فالدفاع ضد الحركات على الاجنحة ليس من الامور السهلة كالدفاع عن الجبهة ، كما تغدو الاجراءات الضرورية اكثر تعقيداً وتحتاج الكثير من الوقت والاستعدادات، لذا يتوجب عادة اتخاذ الكثير من الحذر والحرص في حماية الجناح ضد حركات معادية غير متوقعة . ويمكن تحقيق ذلك بوضع قوات قوية على الاجنحة واكبر من المطلوب فعلاً لمراقبة العدو . عند اخراج قوات كهذه ، وحتى وان كانت لا تقدم اية مقاومة قوية ، فستجبر العدو على صرف بعض الوقت وتهيأة وانفتاح قطعاته وكشف نواياه بما يتناسب وحجم القوات المفرزة – ونكون بذلك قد حققنا مبتغانا.

تعتمد اية اعمال وخطوات اضافية على الخطة الموضوعة . قد يبدو الفيلق المنفتح على الاجنحة وكأنه (طليعة) جانبية ، بمهمة اعاقة لاي اختراق معادي للمناطق التي وراء الاجنحة ، وبذا توفر الوقت الضروري للأجراءات المضادة .

اذا جرى سحب تلك الوحدات نحو القسم الاكبر، عندما لم يتقرر سحبه هو ايضاً وفي نفس الوقت فيجب وكما هو واضح الا تحتل القوات الامامية التي سحبت، مواضعاً موازية للقسم الاكبر بل الى مكان ما امامه حتى لو تم انسحابها دون قتال جدي ومع ذلك ينبغي ألا تعود وببساطة الى موضع مواز للقسم الاكبر .

وهذه الاسباب المتأصلة لتجزأة المواضع ستير لنا بعد ذلك ، او ستؤدي الى انشاء منظومة طبيعية من اربع او خمسة أجزاء منفصلة وفقاً لوضع الاحتياط، أكان مع القوة الرئيسية ام لا .

وكذلك فلن تؤثر قضايا التموين (الاعاشة) والاسكان على ترتيب المواضع فقط، بل انهما عاملان يسهمان في تجزأة القوة . وترتبط الاعتبارات الخاصة بهذين العاملين مع ما قد قلناه تواً . ولا بد من بذل بعض الجهد من اجل تأمين أحدهما دون التضحية بالاخر . وفي معظم الحالات فان تجزأة القوة الى خمسة فيالق منفصلة سيسهل بذاته مصاعب توفير الملاجيء ومواد التموين ، وبذلك لن تظل هناك حاجة قوية لاية تغييرات كبيرة .

يتوجب علينا كذلك مناقشة المسافة التي تعين مواضع تلك التشكيلات المنفصلة خلالها إن اريد تأمين الاسناد المتبادل تبعاً لذلك – أي وبكلمة أخرى أن تقاتل معاً . ربما ينبغي علينا هنا تذكر ما قلناه في الفصلين الخاصين بمدة وحسم الاشتباك (٦.٧ من الكتاب الرابع) ، فالكثير يعتمد على القوة المطلقة والنسبية ، وعلى الاسلحة والارض، ولا يمكن صياغة نظامات وقواعد صارمة محددة ، بل مجرد قواعد عامة ، ونوعاً من المعايير القياسية .

من السهل القرار على المسافة التي توضع فيها المقدمات . وما دامت هذه ستنسحب في النهاية الى الموضع الرئيسي للجيش ، فيمكن أن توضع وعلى الاكثر على مسيرة يوم واحد دون ان تتعرض لمخاطر خوض معركة منفصلة . ومع ذلك فلا يجب ان تدفع بعيداً الى الامام لاكثر مما ينبغي او مما هو ضروري لامن الجيش ، اذ وكلما طالت المسافة التي عليها الانسحاب خلالها كلما زاد عدد الخسائر التي ستتكبدها .

كذلك الحال مع فيالق الاجنحة ، كما سبق واوضحنا، فان اشتباكا عادياً تخوضه فرقة تعدادها من (٨-١٠) الاف رجل سيطول عادة لعدة ساعات او حتى نصف يوم قبل حسم المعركة . لذلك يمكن وضع فرقه كهذه ودون اي قلق على مسيرة بضع ساعات - ولنقل من (٥-١٠) اميال . ولنفس السبب يمكن وضع فيلق مؤلف من (٣-٤) فرق على مسيرة يوم واحد - او من (١٥-٢٠) ميلاً .

وهكذا تحدد طبيعة الاشياء الترتيب العام لمواضع القسم الاكبر في اربع او خمسة اجزاء وعلى مسافات معينة . وتوفر لنا هذه سياقاً منهجياً يحدد وبشكل طوعي التشكيلات الفرعية للجيش دون اثارة اية اعتراضات بالمقابل .

مع ذلك وحتى لو رأينا أن اي من تلك التشكيلات يجب ان تكون قادرة على خوض معركة لوحدها، او انها قد تضطر الى ذلك ، ولا يعني ذلك بالضرورة ان **النقطةالحقيقية** لتقسيم المواضع تحدد على اساس قدرتها على خوض تلك الاقسام عمليات منعزلة . بل تنبع الضرورة لهذا التقسيم عادة من الظروف والاجراءات التي يفرضها عامل الوقت . فعند اقتراب العدو بحثاً عن قرار حاسم يتحقق باشتباك رئيسي، تنتهي إذ ذاك الصفحة الاستراتيجية ، ويتركز كل شيء بعدها على دقائق المعركة . كما تنتهي كل أسباب ومبررات تجزأة الموضع الان . وحال دخول المعركة تعلق كذلك قضايا التموين والاسكان . كما تكون مراقبة العدو في الجبهة وعلى الاجنحة ، والمقاومة المتوسطة التي جوبه بها لتقليص وإبطاء زخم إندفاعه تكون قد أتت أكلها وحققت أغراضها . ويصبح كل شيء جزء من كل اكبر ، هو المعركة الكبرى. إن أفضل مقياس لقيمة المواضع المجزأة هو أن ذلك التوزيع المنفصل ليس سوى حالة ظرفية وشر لا بد منه ، بينما يظل خوض القتال بقوات وقطعات مشتركة هو الهدف الحقيقي .

الفصل السابع

المقدمات والمخافر الامامية

تعتبر المقدمات والستارات والقواعد الامامية من بين التدابير والاجراءات التي تتلاقى عندها وتتشابك الخيوط التعبوية والاستراتيجية . فهي من ناحية تشكل الاشتباك وتؤكد وتتابع تنفيذ الخطة التعبوية ، كما انها غالباً ما تؤدي او تتسبب بحصول معارك واشتباكات منفصلة. يضاف الى ذلك أن تلك الوحدات ونظراً لوضعها على مسافة ما عن القسم الاكبر للجيش ، يمكن اعتبارها كحلقات في السلسلة الاستراتيجية . وتدفعنا عزلتها الى دراستها والتمعن فيها للحظات تمهيداً واكمالاً للفصل السابق .

تحتاج كل قوة ليست على استعداد كامل بعد للمعركة الى مقدمة advance) (gnard لتحديد واستطلاع تقرب العدو قبل أن يصبح ضمن مدى النظر . وعلى كل حال فان مدى نظر القطعات لن يتجاوز عادة مدى اسلحتها النارية . فما اتعس حالنا لو أن أعيننا لا تستطيع أن ترى ما هو أبعد من موضع ايدينا !! ولقد قيل إن الحجابات والستارات (المخافر الامامية) هي عيون الجيش . ألا ان الحاجة اليها تختلف وتتنوع . كما تتأثر بقوة واتساع ، ووقت ومسافة ، وظروف ونوع الحرب القائمة ، بل وتتأثر كذلك حتى بالصدفة . كذلك ينبغي ان لا نعجب لان التاريخ العسكري لم يترك لنا تعاريف أو قواعد مبسطة حول استخدام المقدمات والستارات (الحجابات والمقدمات الامامية) وليس بين ايدينا سوى خليط من الامثلة المتضاربة .

وهكذا نجد وفي حالات كثيرة ان الجيش اعتمد في أمنه على أحد فيالقه بعد اناطته لواجب المقدمة ، او على خط من القواعد الامامية المتباعدة . كما يمكن الجمع بين الاسلوبين ، أو لا وجود لأي منهما ، كما أن قوة حراسة واحدة قد تتولى ذلك لعدد من الارتال المتقدمة ، أو أن يكون لكل رتل منها حراسته الخاصة . لذا يتوجب علينا وضع الامور في نصابها وباشد ما يمكن من الوضوح ثم لنرى بعد ذلك امكانية تقليص تلك الامثلة في التطبيق الى القليل من المبادىء .

تُستَبق القطعات المتنقلة بقوات متنوعة الحجم والقوة ، كطليعة ، أو مقدمة ، والتي تصبح (ساقات) لو تحول التنقل عكسياً . وعندما تعسكر القطعات او تكون في مأوى ، تأخذ المقدمة شكل خط من المخافر والمراصد المؤلفة من عدد قليل من الرجال —

في مواضع خارجية . من المهم جداً تغطية منطقة اكبر بكثير عندما يكون الجيش في حالة وقوف، وتزيد عما يجب ستره عندما يكون في حالة تنقل . والنتيجة الطبيعية للحالة الاولى – الوقوف – هي خط من المواضع ، اما في الثانية – المسير – ففيلق مجموع (محتشد Concentrated) .

تتراوح قوة المقدمة او الموضع الخارجي المنفرد من فيلق متكامل ومؤلف من الاسلحة الثلاث ، الى وحدة من الخيالة الخفيفة (Hussars) ، ومن خط قوي من المواضع الدفاعية لقوة متجحفلة ، الى مجرد مخافر بسيطة ونقاط استكشاف ترسل من المعسكر . وعليه فقوة وجدوى تلك القوى تتراوح من مجرد الرصد البسيط الى المقاومة الحقيقية . قد لا تقتصر مهمة من هذا النوع من المقاومة وببساطة على مجرد اعطاء القسم الاكبر ما يحتاجه من الوقت الضروري للتهيؤ للمعركة ، وبل وكذلك لاجبار العدو على كشف ترتيبه وقوته ونواياه بوقت مبكر . وستتضاعف قيمة الرصد في تلك الحالة كثيراً .

لذلك ستختلف قوة «المقدمة» والستارات كثيراً ويعتمد تنوعها على قلة أو كثرة الوقت الذي يحتاجه القسم الاكبر (الموضع الرئيسي) ، وعلى إن كانت المقاومة التي ستبديها القوات الامامية تعتمد كثيراً او قليلاً على التشكيل (الانفتاح) الخاص الذي سيتبعه العدو .

أما فردريك الكبير الذي كان يحتفظ بقواته في حالة استعداد دائم للعمل ، فكان بوسعه قيادتها الى المعركة بكلمة (أمر) منه ، الا انه لم يكن يعول على أو يخرج ستارات قوية . لذلك كان يعسكر على الدوام تحت انظار العدو ودون منظومة أمن قوية . مكتفيا بكتيبة خيالة خفيفة (هوسار) ، وفوج خفيف أو بعض عناصر الاستطلاع (scout) والمخافر التي يخرجها من معسكره . اما في المسير فتتألف الطليعة من بضعة الاف من الخيالة ، تكون عادة جزءً من الخيالة المخصصة لاجنحة الخط الاول ، والتي تعود إلى القسم الاكبر حال توقف المسير . ونادراً ما كان يحتفظ بفيلق دائمي لواجبات الطليعة .

حيثما اراد جيش صغير الاستفادة من ثقله المركز (المحتشد) وقوة الاندفاع الكبرى ، ومزايا التدريب الراقي والقيادة العزوم ، فلا بد ان يحذو حذو فردريك

الكبير في مواجهة الماريشال دوان ، بالعمل على مرأى ورغم العدو[1] . اذ سيفقد كثيراً من ميزة تفوقه بتضييع الوقت وتعطيلها بعمليات انفتاح بعيداً الى الخلف ، ومنظومة متعبة من المخافر الامامية . فقد يؤدي هذا الافراط والاخطاء الى إندحار أو هزيمة كما في معركة «هوش كيرج»[2] التي لم تثبت أي شيء ضد اسلوبه وسياقه ؛ وعلى العكس من ذلك ، فقد تأكدت سطوته وارجحيته من واقع فوزه في كل معارك الحروب السليزية التي لم تتكرر فيها معركة مشابهة لهوش كيرج .

اما نابليون فهو ومن الناحية الاخرى ليس ممن يتهم بنقص استعداد الجيوش ولا في القيادة الباسلة الكفوءة ، الا انه كان وعلى الدوام يستخدم قوات مقدمة قوية. ولذلك سببان هما :

الاول . التغيير الذي حصل في التعبية . فلم يعد ممكنا الان زج الجيش بكامله في المعركة مرة واحدة وبمجرد الأمر بذلك ، وكي تحسم المعركة بسرعة واعتماداً على قوة وفضل المهارة والشجاعة تقريباً وكأن الامر لا يعد ومبارزة كبيرة . فلا بد اليوم من التنبه الى خصائص وتضاريس الارض والظروف العامة واخذها بالحسبان . فالمعركة تتألف من عدة أجزاء مختلفة ، وما كان مجرد قرار بسيط أو إجراء هين أصبح اليوم خطة معقدة ، كما تحولت الكلمة (الامر) الى اوامر وترتيبات مطولة تعتمد على توقيتات منهجية وغيرها من البيانات والمعلومات الاخرى .

الثاني . اما السبب الثاني فهو تزايد حجم الجيوش . فقد كان فردريك الكبير يدخل المعركة بجيش تعداده (٣٠-٤٠) الف رجل اما نابليون فكان تعداد جيشه من (١٠٠-٢٠٠) الف رجل .

لقد اخترنا هذين المثالين لان بوسع المرء الافتراض ان قادة من هذا العيار ما كان ليطبقا مثل هذه المنظومات دون مبررات منطقية معقولة . واجمالاً فقد تطور استخدام «المقدمات» والستارات كثيراً وباتساع مطرد في ايامنا . الا ان تجارب النمساويين قد أظهرت أن اساليب فردريك الكبير لم تكن عالمية وشاملة في الحروب السليزية. فقد استخدموا منظومة مخافر وستارات أقوى بكثير ، وغالباً ما استخدموا الفيالق كمقدمات - كانت مواقفهم ومواردهم الضخمة كافية لها . وحتى الماريشالات

---

(١) . وردت العبارة بالنص الفرنسي هكذا (Sous la barbe de Lennemi) . المترجم

(٢). هوتس كيرج - راجع الهامش في الفصل الثامن عشر الكتاب الثالث (ص ٣٠٩) . المترجم

الفرنسيين – مثل (ماكد ونالد) في سليزيا ، او ، (اودينوت) ، و (ناي) في براند بيرغ – تقدما بجيوش من (٦٠–٧٠) الف رجل ، لكن ليس هناك من اشارة الى استخدام اي قوات كطليعة .

لقد ناقشنا حتى الان «المقدمات» و الستارات من زارية قوتيهما ، الا ان هناك سمات اخرى لا بد من ايضاحها . فلا بد للجيش المتقدم أو المتراجع عبر جبهة معينة من «طليعة» و «ساقات» واحدة لكل ارتاله المتوازية ، أو قد يكون لكل رتل منها ما يخصه . ولايضاح ذلك لا بد من التمعن في الامر بالطريقة التالية .

عند تخصيص فيلق لواجب الطليعة ، فان مهمته الاساسية تغطية تقدم القسم الاكبر في المركز فقط . فاذا استخدم القسم الاكبر عدة طرق جانبية قد تتولى الطليعة التقدم عليها هي الاخرى وتغطيتها ، فلن تحتاج ارتال الاجنحة عندها أية تدابير خاصة لحمايتها.

وعلى العكس من ذلك، فالفيالق المتقدمة على مسافات كبيرة وتعمل مستقلة ستحتاج الى توفير طلائعها الخاصة بها . وينطبق نفس الشيء على اية فيالق تشكل جزءً من القسم الاكبر في المركز ، الا انها وبسبب طبيعة وطيات الارض وتعدد الطرق ستجد نفسها بعيدة جداً عن المركز ، لذلك قد يكون هناك عدد من الطلائع بقدر الارتال المتقدمة على محاور متوازية . وإن كانت هذه الطلائع منفردة أضعف كثيراً من طليعة واحدة رئيسية فان كثرتها هنا تخضع لنوع الترتيبات التعبوية وستفقد «الطليعة» مكانها في البناء الاستراتيجي . مع ذلك فان كان للقسم الاكبر المركزي فيلق كبير بشكل متميز كطليعة ، فستبدو هذه وكانها مقدمة لكل الجيش وسوف تعمل وفي حالات وطرق عديدة وكانها كذلك .

يمكن ان نجد ثلاثة اسباب لتعيين طليعة للمركز اقوى بكثير مما يعين على الاجنحة

١ . يحتوي المركز على القسم الاكبر من القطعات عادة .

٢ . الجزء المركزي من المنطقة التي ينتشر فوقها الجيش تكون الاكثر اهمية دائماً؛ وتتركز فيها وحولها اكثر الخطط ، ونتيجة لذلك فساحة المعركة اقرب اليها عادة مما الى الاجنحة .

٣ . رغم ان الفيلق المخصص امام المركز لا يمكن أن يُعدّ كمقدمة لارتال الاجنحة كذلك ، مع انه قادر على توفير قدر كبير من التغطية لها بطريقة غير مباشرة.

لا يستطيع العدو عادة المرور وضمن مسافة معينة لتوجيه ضربة قوية على أحد الاجنحة، اذ سيعرض بدوره هو الاخر جناحه أو مؤخرته . فالكبح [الردع] الذي يفرضه فيلق إندفع متقدماً امام المركز ، قد لا يكون كافياً لتوفير الأمن الكامل للفيالق (الارتال) الجانبية ، لكنه سيقلل كثيراً من أعداد التهديد الموجهة نحوها .

لذا وفي الحالات التي تكون فيها طليعة المركز أقوى بكثير مما على الاجنحة – أي ، بكلمة اخرى عندما تتألف من فيلق خاص متقدم – فلن يقتصر دورها حينئذٍ على كونها مجرد طليعة لحماية انية للقطعات التي خلفها من اي هجوم مباغت ، بل انها فيالق متقدمة ، ولها واجب استراتيجي أوسع بكثير .

يستند استخدام فيالق كهذه على الموضوعات التالية ، والتي تقرر طبقاً لذلك اساليب استخدامها :

١ . في الحالات التي تحتاج فيه مواضعنا وترتيبها ، الكثير من الوقت فبوسعها إبداء قدرٍ اكبر من المقاومة الشديدة وبذلك تُجبر العدو لأن يكون اكثر حذراً في تقدمه. وبهذه الطريقة تضاعف التأثير المعتاد للطليعة .

٢ . عندما يكون القسم الاكبر ، كبيراً جداً فيمكن ابقاءه بعيداً الى الخلف الى حد ما ، بينما تتولى فيالق بقابلية حركة اعلى ادامة التماس مع العدو .

٣ . ولو ان اسبابا اخرى قد تفرض مسافة كبيرة ما بين القسم الاكبر والعدو ، فمن المفيد كذلك إبقاء أحد الفيالق قريباً من القسم الاكبر لاغراض المراقبة والرصد .

اما الفكرة التي تفيد بقدرة مرصد صغير للأستطلاع ، او مجرد دورية لواجبات الرصد، فلا جدوى منهما عندما نتذكر سهولة ازاحتها من قبل العدو ، كما ان وسائلها للأستطلاع محدودة وضئيلة قياساً لما يتيسر منها في فيلق كبير .

٤ . عند مطاردة العدو ففيالق المقدمة التي يلحق بها مجموع الخيالة تتحرك بسرعة اكبر بمفردها ، وتستطيع مواصلة اندفاعها حتى ساعات الليل المتأخرة ، وعلى استعداد للعمل مبكراً صباح اليوم التالي وبشكل افضل من الجيش كله .

٥ . اخيراً فان هذه تدعى في التراجع بالساقات ، ويمكنها الاستفادة من الموانع الطبيعية الرئيسية للدفاع . وهنا كذلك فالمركز مهم بشكل استثنائي . في الحقيقة قد يفترض المرء ومن النظرة الاولى أن ساقات من هذا النوع في خطر ثابت ودائم من امكانية تطويقها . لكن لنتذكر أن ضغط العدو المتزايد على الجناح لن يجديه اذ يظلّ

عليه تغطية المسافة الى المركز إن اراد تهديده بشكل جدي وخطير ، الامر الذي سيسمح للساقات بستر قوات المركز وبوقت إضافي من خلال مقاومتها وعمل التعويق خلال انسحابها . من الناحية الاخرى فان انسحب القسم الاكبر (المركز) قبل الاجنحة ، فسيبدو الموقف سيئاً ومحزناً حقاً، كما لو ان العدو قد نجح باختراق الصفوف. لا بد من تجنب كلما من شأنه ترك مثل هذا الانطباع . ولا تكون الحاجة الى الوحدة والتماسك أشد منها واعظم مثلما يحس بها الجميع خلال التراجع . وتسعى الاجنحة بكل جدية الى التقارب والتنسيق مع المركز ، حتى لو فرضت مشكلات التموين والطرق والعوارض الارضية عليها الابتعاد عن بعضها اثناء انسحابها ، وتنتهي المناورة عادة بتحشد القوات في المركز . فاذا اضفنا الى كل ذلك حقيقة أن العدو ايضاً سيتقدم عادة باتجاه المركز بقوته الرئيسية ، وبالتالي فان ضغطه الاكثر سيتركز هناك ، فمن البديهي عندها ان يكون لساقات المحور المركزي اهمية قصوى وخاصة.

يلي ذلك ان استخدام فيالق منفصلة لواجب المقدمة امر مناسب حيثما دعت الحاجة ونشأت احدى الحالات اعلاه . من الصعب ان تحدث معظم تلك الحالات اعلاه عندما لا يكون المركز اقوى من الاجنحة ، وهذا ما حدث عند تقدم الماريشال الفرنسي (ماكدونالد) ضد البروسي (بلوخر) في سيليزيا عام ١٨١٣ ، فتحرك الاخير نحو نهر (ايلب) . وكان لكل من الطرفين ثلاثة فيالق كانت تتنقل عادة جنباً الى جنب بارتال منفصلة وعلى طرق مختلفة، الامر الذي يشرح لنا لم لم ترد أية إشارة أو ذكر للمقدمات لدى الجانبين .

مع ذلك وجزئياً لهذا السبب بالذات لا يعتبر ترتيب القوة بثلاثة ارتال متساوية من الامور المقبولة نهائياً، تماماً كما ان تجزأة الجيش الى ثلاثة اقسام من الامور الخطيرة وكما اوضحنا ذلك في الفصل الخامس من الكتاب الثالث[1] .

لقد اكدنا في الفصل السابق ان اكثر الطرق شيوعاً ومعقولية في ترتيب وانفتاح القوة هي التحشد في المركز مع جناحين منفصلين ما لم تكن هناك أوامر بخلاف ذلك. وفي حالة كهذه فان أبسط الاساليب هو باخراج مقدمة أمام الرتل المركزي ، وكذلك أمام الجناحين ، مع ملاحظة أن أداء وعلاقة مقدمتي الجناحين كاداء وعلاقة المقدمة التي في الجبهة ، وبالتالي فغالباً ما تكون الفيالق الجانبية بموازاة الطليعة، ان لم تكن الى امامها وذلك إعتماداً على الظروف .

( ) . المقصود هو الكتاب الخامس . المشرف Eds.

لا يمكن قول الكثير حول القوة المطلقة للمقدمة . إذ كان يوجد في تلك الايام ما يبرر وكاستخدام عام تخصيص واحدة أو اكثر من الوحدات الفرعية لعموم الجيش لهذا الواجب، على أن تعزز بجزء من الخيالة . لذلك تتألف من فيلق إن كان الجيش مؤلف من فيالق ومن فرقة واحدة أو اكثر إن كان الجيش مؤلف من فرق .

وهكذا سيتضح لنا وبهذا الخصوص كذلك أن الفائدة تكمن في إحتواء الجيش لعدد اكبر من الوحدات .

تعتمد المسافة التي توضع للمقدمة كليا على الظروف . وقد تتطلب ان توضع في بعض الحالات على مبعدة تزيد على مسيرة يوم واحد امام القوة الرئيسية ، كما قد توضع في حالات اخرى امام تلك القوة مباشرة . كما توضع وفي معظم الحالات على مسافة تتراوح ما بين (٥-١٥) ميلاً الى الامام . ومع إن التجارب قد أثبتت انها المسافة التي تطلبتها الظروف في معظم الحالات والمواقف ، لكن ينبغي ألا يُعتبر ذلك قاعدة عامة في التطبيق .

يبدو ان مناقشتنا قد ابتعدت كثيراً عن موضوعها المركزي ، اي الستارات والمخافر الأمامية Out posts ، لذا لا بد لنا من العودة اليها .

عندما أشرنا ابتداءً الى ان القطعات الثابتة ستحتاج الى الستارات والمخافر ، وحاجة القطعات المتنقلة الى الطليعة فقد توخينا تحديد اسس المفاهيم اولاً ، وللفصل ما بينهما في الوقت الراهن ، الا ان التمسك الشديد بالتعابير والمصطلحات لن يؤدي بنا في النهاية الا الى المزيد من التمييز الفارغ والمتحذلق .

عندما يتوقف الجيش عن المسير للأستراحة خلال الليل ، تتوقف طليعته ولنفس الغرض أيضاً ، كما عليها إخراج المخافر والستارات لحمايتها الذاتية وللجيش ككل. ولا يعني هذا انها لم تعد تعتبر كمقدمة للجيش وان دورها تقلص لما لا يزيد عن ستارات ومخافر . والوقت الوحيد الذي قد تعتبر الستارات وكانها تتعارض مع مفهوم الطليعة هي عندما تجزأ القوة القائمة بواجب المقدمة الى أقسام صغيرة منفصلة مع عدم بقاء أي قوة متحشدة كمركز او كقوة أمّ - وبكلمة اخرى عندما يتغلب مفهوم أو مبدأ خط المخافر الطويل على مفهوم فيلق متحشد [لمهمة المقدمة] .

كلما اختصر وقت الراحة، كلما قلت حاجة الجيش الى تغطية كاملة ؛ فالليلة الواحدة وقتٌ قصيرٌ جداً على اية حال ولا يسع العدو أن يعرف خلالها ما المحمي من القطعات من غير المحمي أو المغطى . وكلما طال أمد الاستراحة كلما تطلب الامر مراقبة وحماية تامتين لكل المداخل والمخارج واية نقاط اخرى . لذلك وكقاعدة تفرض

الوقفات الطويلة والاساسية انتشار الطليعة في خط من المخافر . وهناك شرطان يحددان وبشكل رئيس ما اذا كان الموقف يتطلب التجزأة التامة أو بقاء الجزء الرئيسي من الفيلق متمركزاً . **والشرط الاول** هو المسافة ما بين الجيشين المتحاربين ، **والثاني** هو طبيعة الارض .

فان كانت المسافة بينهما قصيرة مقارنة مع إتساع جبهتيهما ، فلن تتوفر فسحات كافية لمواضع المقدمات . ويتوجب عندها على كل جيش الاعتماد في أمنه وحمايته على سلسلة من المخافر الصغيرة .

وفي كل حالة يتعذر فيها على الفيلق المتمركز تقديم التغطية المباشرة للمقتربات، فسيحتاج الى الكثير من الوقت والمسافة كي يكون اكثر فاعلية . وعليه فحيثما يتسع إنتشار الجيش كثيراً كما في المأوى فلا بد أن تكون المسافة عن العدو كبيرة جداً، إن أريد تغطية كافة المقتربات بشكل حسن من فيلق متمركز . ولهذا السبب تستر المعسكرات الشتوية على سبيل المثال بسلسلةٍ من الستارات والمخافر عادة .

العامل (الشرط) الثاني هو طبيعة الأرض . كعندما تقدم طبيعة وشكل الارض فرصة لانشاء خط من المخافر بقوات قليلة نسبياً ، فلا بد من الاستفادة منها .

كذلك الحال في المعسكرات الشتوية إذ تشكل قسوة الطقس مبرراً لتجزأة المقدمة الى خط من المخافر لسهولة العثور على ملاجىء بهذه الطريقة .

لقد بلغ استخدام خط من المخافر والستارات المعززة قمة تطوره من قبل الجيش الانكلو – الماني في الاراضي المنخفضة (ندرلاند) خلال الحملة الشتوية (١٧٩٤–٩٥) . فقد تألف الخط الدفاعي من الويةٍ من كافة الصنوف [جحافل الوية] شكلت مواضعاً منفصلة ، وأسندت المنظومة الدفاعية كلها باحتياط عام . وقد حاول الجنرال شارنهورست الذي كان مع الحملة يومها (برتبة رائد) إدخال هذه الفكرة وتطبيقها في الجيش البروسي في (الباسارج) في بروسيا الشرقية عام ١٨٠٧ ، وما عدى هذا الاستثناء فنادراً ما استخدمت هذه الطريقة في الحروب الحديثة – وذلك لسبب رئيسي هو تضمنها تنقلاً تاماً . الا أنها أُهملت وتجوهلت حيث كان يمكن ان تكون مفيدة ؛ من قبل الجنرال مورا (الفرنسي) على سبيل المثال في (تاراتينو) . فلو مدد خط دفاعه فما كان ليخسر ثلاثين مدفعاً بعد الهجوم على ستاراته الامامية .

ولا ينكر أحد أن سياقاً كهذا يوفر الكثير من الفوائد والمزايا في الظروف المناسبة وسنعود الى بحثه في مناسبة تالية .

الفصل الثامن
الاستخدام العملياتي للفيالق الامامية

لقد اوضحنا للتو كيف يتأثر أمن الجيش بالطريقة التي يتصرف بها العدو المتقدم إزاء قطعات المقدمة وفيالق الاجنحة . فان كان من المتوقع الاشتباك مع قوة العدو الرئيسية ، فتلك الفيالق تعدّ واهنة جداً . ويتطلب الأمر بحثاً خاصاً لبيان كيفية قيامها بالمهمة المحددة لها دون تكبدها خسائراً فادحة لأنها ستجابه بقوات متفوقة كثيراً.

المهمة الرئيسية لتلك القطعات هي رصد ومراقبة العدو وابطاء تقدمه .

لا يمكن إنجاز حتى الواجب الاول بمفارز صغيرة ، وذلك يعود جزئياً الى سهولة طرد مثل هذه المفارز وأيسر مما لو نُفذ الواجب من قبل قطعات اكبر ، وجزئياً الى ان وسائل هذه المفارز الصغيرة ، وادوات الرصد والاستطلاع ليست قوية بما فيه الكفاية .

اكثر من ذلك فالرصد أمرٌ يراد به العمل من اجل هدف أبعد ، هو بالذات إجبار العدو على الامر بانفتاح بكل قوته والكشف لا عن الحجم الكلي لقواته بل وكذلك عن نواياه.

ولو انها لن تفعل ما هو اكثر من ذلك فان مجرد تواجدها سيفي بالغرض ؛ وما عليها سوى الانتظار حتى إنفتاح الهجوم المعادي ومن ثم الانسحاب الى الخلف .

الا انها معنية أيضاً باعاقة تقدم العدو ، الأمر الذي يقتضي ابداء مقاومة حقيقية.

كيف يمكن التفكير بالانتظار حتى آخر لحظة ، ثم ابداء المقاومة دون التعرض لخطر كبير ودائم بتكبد خسائر فادحة ؟ الا ان ذلك ممكن اساساً لأن العدو سيتقرب اولاً بقطعات المقدمة ، وليس بقوة ساحقة وبالغة التفوق لجيشه ككل . من الممكن من البداية إفتراض أن مقدمة العدو التي تقود تقدمه متفوقة على قطعاتنا الامامية – كما يفترض فيها أن تكون – وأن قسمه الاكبر اقرب الى مقدمته من قرب قسمنا الاكبر الى قطعاتنا الامامية ، ونظراً لان قسمة الاكبر في حالة حركة فبوسعه وبعد وقت قليل تقديم الاسناد الكامل لهجوم مقدمته . مع ذلك فالصفحة التمهيدية التي تعالج فيها مقدمتنا مثيلتها المعادية – أو معادلتها كما يقال – فستحصل على بعض الوقت ، وتسمح برصد تقرب العدو لبرهة ودون تعريض إنسحابها لاي تدخل أو إرباك.

حتى بعض المقاومة التي تبديها فيالق المقدمة كهذه في مواضع ملائمة فلن يترتب على ذلك كل الاضرار التي يمكن أن يتوقعها المرء في أوقات أخرى بسبب قلة عددها. الخطر الرئيسي الذي ينشأ من مقاومة عدو متفوق هو إمكانية إحاطة المقاومة أو جعلها بوضع سيء للغاية ومعرضة لهجوم تطويق . الا ان هذا الخطر يتضاءل اذا عرفنا بأن العدو المتقدم في شكٍ من موضع أقرب إسناد من القسم الاكبر (الجيش الرئيسي) ، لذلك عليه وبحذر بالغ تجنب وقوعه بين نارين . وكنتيجة لذلك سيضطر الجيش المتقدم الى جعل رأس أو بداية أرتاله تسير جنباً الى جنب ، ثم وفقط بعد استطلاع دقيق لموضع العدو سيكون بوسعه البدء وبحذر شديد وتنبه ورقابة بالغتين ، الالتفاف خلف هذا الجناح أو ذاك . وستمكن مرحلة السير الحذر هذه ، مقدمتنا من الانسحاب قبل تعرض عملها لاي تهديد جدي .

يعتمد طول مقاومة فيلق كهذا لهجوم جبهوي وبداية حركات الالتفاف ، يعتمد اساساً على طبيعة الارض وقرب الاسناد. فاذا امتدت المقاومة لفترة أطول من المعتاد – بسبب قرار غير حكيم أو من قبيل التضحية بالنفس وكسب المزيد من الوقت للجيش – فسينتج عن ذلك الكثير من الخسائر .

لكن وفي حالات نادرة فقط ، كما عند الاستفادة من عارضة طبيعية رئيسية ، سيكون لمعركة دفاعية حقيقية أية نتائج، لذاتها ، أما الاشتباكات القصيرة التي بوسع فيالق كهذه خوضها فنادراً ما توفر وقتاً كافياً . الا ان ذلك يمكن أن يتحقق والى حد ما من ثلاثة ظروف متأصلة في الموقف هي :

١ . بسبب ان العدو اكثر حذراً لذا سيكون تقدمه ابطأ.

٢ . مدة المقاومة الحقيقية .

٣ . الانسحاب نفسه .

يجب تنفيذ الانسحاب على أبطأ ما يمكن وباعلى درجة يمكن توفيرها من الامن. ويجب الاستفادة من أي موضع طبيعي متيسر . فسيجبر ذلك العدو على الاعداد لهجوم جديد أو لحركة إحاطة ، وبهذا نربح مزيداً من الوقت . حتى إن اشتباكا حقيقياً – معركة – يمكن أن يثبت أنه مقبول في الموضع الجديد .

من الواضح تماماً أن التعويق عمل مرتبط بالانسحاب بشدة . لذا لا بد من التنبه لجعل سرعة وشدة الاشتباكات لأقصر فترة ممكنة .

هذه هي الطريقة التي تنفذ فيها المقدمة ، المقاومة . وتعتمد فاعليتها اساساً على قوتها العددية وعلى الارض ، وكذلك على المسافات الواجب عليها تغطيتها ، وعلى الاسناد والحماية اللذان تتلقاهما .

حتى لو تساوت القوتين ، فليس بوسع حفنةٍ من الرجال الصمود لنفس الوقت الذي تستطيعه قطعة كبيرة ؛ وكلما زاد عدد افراد القوة كلما زاد الوقت المطلوب لانجاز العمل ومهما كان نوعه . أما في المناطق الجبلية ، فسيغدو المسير نفسه بطيئاً ، كما ان مواضعاً منفردة يمكن ان تصمد لوقت أطول مع مخاطر أقل ، كما أن الفرص لاستغلال مثل هذه المواضع كثيرة [لوعورة وصلاحية الارض].

كلما وضعت قوات المقدمة على مسافات ابعد كلما زادت المسافة الواجب عليها ان تنسحب خلالها ، وبالتالي فان الزيادة المطلقة في الوقت المكتسب سينتج من حجم مقاومتها . ومن الناحية الاخرى فان عزلتها وبعدها سيحددان من قدرتها على المقاومة ، ومن الاسناد المتوقع . وفي هذا الحالة سيستغرق انسحابها وقتاً أقل نسبياً مما لو كانت اقرب الى القسم الاكبر .

سيؤثر الاسناد والحماية اللذان تتلقاهما المقدمة على مدة مقاومتها. كما أن الحذر والمراقبة يشكلان عبأً لا بد من طرحه من فاعليتها .

الوقت الذي يكتسب بفعل مقاومة المقدمة قد يختلف كثيراً من حالة الى اخرى، فان لم يظهر العدو حتى الى ما بعد منتصف النهار فتكون المقدمة قد ربحت وقتاً طويلاً جداً ، اذ نادراً ما تتقدم الجيوش ليلاً . وهكذا ففي عام ١٨١٥ استطاع الفيلق البروسي بقيادة الجنرال زايتين وتعداده حوالي (٣٠) الف رجل مواجهة نابليون وبامرته (١٢٠) الف وعلى المنطقة الضيقة ما بين (شارليروي)[1] و(ليني) (حوالي عشرة اميال) وكسب اكثر من (٢٤) ساعة للجيش الرئيسي البروسي المتحشد خلفه ، لقد هوجم الجنرال زايتين اولاً حوالي الساعة التاسعة صباح يوم ١٥/٦ الا ان معركة ليني لم تقع الا حوالي الساعة ١٤٠٠ من اليوم التالي . وكان الجنرال زايتن قد تكبد خسائراً فادحة (٥ أو ٦) الاف قتيل وجريح واسير .

---

(١) شارليروي مدينة جنوب بروكسل وقد أظهر نابليون أيامها براعة لا نظير لها الا ان موسوعة التاريخ العسكري لا تتناول قتال المقدمة البروسية ونجاحها الرائع في اعاقة الفرنسيين كما انها لم تظهر اعمال الجنرال رايتين على حدة. (المترجم) .

اما في التطبيق العملي فما يلي قد يصلح دليل عمل لاعمال وحسابات من هذا النوع .

لنأخذ فرقة من (١٠-١٢) الف رجل عززت بالخيالة ، وقد أرسلت الى الامام على مسيرة يوم واحد ولنقل بحدود (١٥-٢٠) ميل ، انها قادرة في ارض عادية وليست شديدة الوعورة على إعاقة تقدم العدو لمدة تعادل تقريباً نصف الوقت الذي يستغرقه (ومرة اخرى بما في ذلك انسحابها هي) العدو لتغطية المسافة . اما لو وضعت المقدمة على مسافة خمسة اميال فقط الى الامام ، فقد يمكن اعاقة العدو بقدر ضعف او ثلاثة اضعاف الوقت الذي يستغرقه في التنقل .

وهكذا فمسافة ٢٠ ميلاً ، تحتاج عادة الى حوالي العشر ساعات مسير ، الا انها قد تأخذ من العدو خمسة عشرة ساعة من وقت ظهوره بكل قوته أمام فرقة المقدمة الى حين وصوله الى مواضع مهاجمة قسمنا الاكبر . لكن ان وضعت المقدمة على مسافة خمسة اميال فقط فان اكثر من (٣ أو ٤) ساعات ، أو في الحقيقة ضعف هذا الوقت سينقضي قبل ان يتسنى للعدو مهاجمة الجيش لأن الوقت الذي يستغرقه العدو للأنفتاح ضد المقدمة هو واحد في الحالتين ، بينما الوقت الذي ستعيق المقدمة فيه العدو وهي في موضعها الاصلي سيكون اطول بكثير مما لوضعت أبعد الى الامام .

والخلاصة هي أن العدو في الحالة الاولى في موقف صعب لاخراج أو ازاحة المقدمة ومهاجمة الموضع الرئيسي ، وكل ذلك في يوم واحد ، وكما تدل التجارب على ذلك . وحتى في الحالة الثانية فعلى العدو كذلك ازاحة المقدمة قبل الظهيرة كي يتوفر له الوقت الكافي للمعركة الرئيسية .

نظراً لان الليل في الحالة الاولى سيأتي لصالحنا ، فمن الواضح أن وقتاً كثيراً سيكسب بوضع المقدمة أبعد الى الامام .

لقد اوضحنا ما يخص أمر القطعات التي توضع على جناح الجيش ، وان عملياتها تعتمد عادة على الظروف الخاصة . ومن الاسهل علينا إعتبارها كقوات مقدمة وضعت على الجناح ، ونظراً لانها توضع قليلاً الى الامام ، فانها ستنسحب نحو الجيش باتجاه مائل (منحرف) .

ولان فيالق كهذه ليست أمام القسم الاكبر مباشرة ، لذلك يغدو من الصعب إسنادها بنفس السهولة التي تسند منها المقدمة ، فستتعرض الى مخاطر كبيرة ، بينما لا

يكون ذلك كقاعدة ، اذ يتقلص تأثير العدو الى حد ما عند النهاية القصوى للخط . وحتى في اسوأ المواقف ، ستتوفر لتلك الفيالق فسحة للمناورة من دون تعريض القوة الكبرى (القسم الاكبر) بشكل مباشر كما عند فرار المقدمة .

تعد الخيالة وبحجم كبير هي افضل قوة لاستقبال قطعات المقدمة وكما استخدمت فعلاً لهذا العمل غالباً . ولعل ذلك مبرر قوي لوضع احتياط الخيالة ما بين القسم الاكبر والمقدمة وحيثما تسمح به المسافة بينهما .

والاستنتاج النهائي حتى الان هو أن القيمة العملياتية للمقدمة تنشأ وبدرجة كبيرة من ظهورها اكثر مما من تأثيرها ، من الاشتباكات التي يبدو انها تلوّح بها او تعرضها اكثر من تلك التي تخوضها فعلاً . فهي لا تستهدف إيقاف العدو بل والى حد ما الى تخفيف وتنظيم ذلك الاندفاع ، كوزن (ثقل) البندول ، كي تكون تحركات العدو مما يمكن ضبطه واخضاعه للحسابات .

الفصل التاسع

المعسكرات

سنبحث الحالات الثلاث للجيش عندما لا يكون منشغلاً بعملية ما ، من وجهة نظر الاستراتيجية – بقدر تعلق الامر بالمكان والوقت وقوة القطعات . فالتحول الى ظروف وحالة المعركة وكلما يتعلق بالمسار الفعلي للعمل من الامور التعبوية .

فالدخول في المعسكر – ونعني به كل وسائل الاقامة الوقتية ، كالخيم ، والاكواخ ، أو الايواء في العراء – ومن وجهة النظر الاستراتيجية ، تتطابق تماماً مع اي اشتباك محتمل حدوثه فيها . وقد لا يكون الامر كذلك دائماً من وجهة النظر التعبوية، فهناك أسباب ومبررات عديدة لاختيار مختلف الاماكن للتعسكر ، وأماكن أو ساحات المعارك المقررة . ونظراً لانتهائنا من بحث كلما هو ضروري حول ترتيب الجيش ، أو بالاحرى الاماكن الواجب تخصيصها لمختلف أقسامه ، ينبغي علينا أن نبحث موضوع المعسكرات من وجهة النظر التاريخية .

منذ الايام التي اصبحت فيها الجيوش كبيرة الحجم مرة اخرى ، اصبحت الحروب أطول ، كما باتت الاعمال المنفصلة فيها اكثر اقتراباً وتوحداً حتى قيام الثورة الفرنسية ، كانت الجيوش تعسكر في مخيمات . وكانت تلك حالة اعتيادية للجيوش. وعندما يحل الربيع كانت تترك اماكن إقامتها ولا تعود اليها قبل الشتاء . لذا ينبغي إعتبار المعسكرات الشتوية وبشكل ما كحالة لا حرب ، تكون القطعات فيها في حالة حياد ، كما تكون ماكنة واجهزة الحرب ككل في حالة راحة مقيدة . اما أنواع أماكن الاقامة الاخرى ، كمعسكرات القوات العائدة (التي تسبق المعسكرات الشتوية)، أو المأوي الوقتية والضيقة فهي مواقع انتقالية ووقتية ولذا تعتبر من الحالات الاستثنائية غير المعتادة .

ولا مجال هنا للبحث في كيفية حدوث أو قبول حالة الحياد الاختياري المنتظم للقوة، والتي ما زالت تُعتبر في بعض الحالات منسجمة وطبيعة وغايات الحرب . وسنطرح هذا السؤال فيما بعد ويكفينا مجرد ذكره هنا .

منذ حروب الثورة الفرنسية ، تخلت الجيوش عن استخدام الخيم بسبب ثقل احمالها . ويعتقد الان ان الانفع للجيش الذي تعداده (١٠٠) الف رجل إضافة خمسة

الاف خيال ، أو عدة مئات من المدافع الاخرى بدلاً من (٦) الاف حصان لحمل الخيم. بالاضافة الى ذلك يشكل رتل الاحمال هذا عبأ مرهقاً ، وقليل الفائدة في العمليات السريعة والكثيفة .

الا ان هذه التغييرات تسببت بنوعين من الاضرار هما : زيادة في ارهاق القطعات ، وفي تخريب اكثر للريف .

قد لا تكون الحماية التي توفرها الخيمة بالشيء الكثير ، الا ان القطعات وبعد فترة من الزمن ستفتقد فترة الانعاش هذه ان لم تجدها . ولا يشكل ذلك اي ازعاج او اختلاف ليوم واحد مثلاً ، فالخيمة توفر حماية قليلة ضد الريح والبرد ، ولا تقاوم المطر كثيراً . الا ان مثل هذه الاختلافات ستصبح أشياءً كبيرة عندما يتكرر الموقف الصعب هذا (٢٢٠ - ٣٠٠) مرة سنوياً . وسيتسبب ذلك بتزايد الخسائر بسبب الامراض بطبيعة الحال .

لا حاجة هنا لايضاح الطريقة التي يتسبب فيها اختفاء الخيم بتزايد ومضاعفة تدمير الريف .

سيفكر المرء عندها ، انه وبسبب هذين العائقين ، سيؤدي التخلي عن الخيم بحد ذاته الى إضعاف حيوية وعنفوان الحرب باجبار الجيوش على البقاء غالباً ولفترات أطول في المأوى ، أو ، ولنقص المعدات الى التخلي عن احتلال عدد من المواضع التي كان يمكن احتلالها لو تيسرت الخيم .

كان الامر سيكون كذلك حقاً ، لولا ان الحرب تعرضت وخلال تلك الفترة الى تحولات عظيمة غطت كثيراً على امورٍ صغيرة وقليلة التأثير والاهمية كهذه .

لقد تضاعفت القوة النارية للحرب واصبحت اكثر قسوة ، وجرى خوض الحرب بعنف هائل الى حد اختفت معه فترات الراحة والتعطل المنتظمة ، وتواصل كافة القوات الضغط دون انقطاع وصولاً الى النتائج الكبرى . وسنتمعن في هذه الحقيقة بدقة وتفصيل اكثر في الكتاب التاسع[1] . وما من شك في ان تقليل استخدام القطعات في تلك الظروف إنما يعود الى نقص الخيام . وبات بوسع القطعات الان الاقامة في اكواخ او في العراء ووفقاً للخطة العامة وهدف الحملة وبغض النظر عن الطقس ، أو الموسم أو الارض .

---

(١) ليس هناك كتاب تاسع .

اما امر أحتفاظ الحرب بتلك الحيوية الى الابد وتحت كل الظروف فامر سنتناوله فيما بعد . وحيثما لا يكون الامر كذلك فلا شك عندها بوجود بعض التأثير لنقص الخيم في تنفيذها وادارتها ، الا اننا نشك في ان ردود الفعل على ذلك ستكون من القوة بحيث تفرض العودة الى التعسكر في الخيم . لقد توسع نطاق العمليات الحربية بشكل تتعذر معه العودة الى الافاق المحدودة القديمة الا لفترات محدودة ، ونادرة ، وتحت أو بسبب ظروف خاصة . ستندفع طبيعة الحرب الحقيقية وتندفع مرة بعد اخرى بقوتها الهائلة المتفوقة ، لذلك يجب أن تكون أسس أية ترتيبات عسكرية دائمية هي الاخرى كـذلك .

الفصل العاشر

التنقل

التنقل مجرد تحول من موضع الى اخر ، ولذلك علاقة بشرطين رئيسيين هما:

الاول صحة ورفاه الرجال ، كي تستخدم مثل هذه القوة بشكل مجدٍ وان لا تضيع هباء .

الثاني وهو تنظيم المسير بشكل يضمن وصول القطعات بشكل متتابع (بفاصلات) . فان كان على رتل من (١٠٠) الف رجل المسير على طريق واحد برتل واحد ودون وقفات ، فلن يسع ذيل الرتل الوصول الى المكان المقصود في نفس اليوم كرأس الرتل . فاما ان تستمر العملية ببطء شديد ، أو أن الرتل يغدو كشلال الماء المندفع الذي يتقطع الى قطرات . وسيؤدي هذا التقطع ، والجهد الاضافي الذي سيفرضه طول الرتل على الذيل الى فوضى وارتباك عامين .

لو امكن تجنب مثل هذه الحالات الشاذة ، فكلما قلت القطعات في الرتل الواحد كلما سهل التنقل اكثر وغدى اكثر انتظاماً . يضاف الى ذلك الحاجة الى التقسيم ، وهو هنا لا يشبه التقسيم الذي تفرضه الترتيبات التعبوية . يستند الانقسام في ارتال المسير عموماً على ترتيب القطعات . ولكن ليس بالضرورة في كل حالة معينة . فلو أريد حشد عدد كبير من القطعات في منطقة واحدة ، يتوجب إنفصالها خلال المسير . لكن حتى عندما يؤدي إنقسام المواضع الى تقسيم التنقل ، فان ظروف أي من المواضع أو التنقل قد تتحكم مسبقاً بذلك . وعلى سبيل المثال فان لم تكن المعركة متوقعة وان القطعات لا تنوي اكثر من البقاء للراحة ، فان الظروف السائده انذاك هي ظروف المسير ، وتشمل هذه اساساً على إختيار الطرق الجيدة والمناسبة. فان وضعنا ذلك نصب أعيننا فان الطرق في الحالة السابقة، ستنتخب نسبة الى اماكن المعسكرات والمأوي . اما في الحالة الثانية فسيتم اختيار المعسكرات والمأوي من وجهة نظر أو نسبة للطرق . اما عند توقع نشوب معركة ، فان المهم في الامر هو إيصال عددٍ من القطعات الى نقطة معينة ، فحتى الطرق الفرعية والسيئة قد تستخدم أنذاك دونما تأخير أو قلق. من الناحية الاخرى فلو أن جيشاً ما ، ما زال بعد في مرحلة الانتقال الى مسرح العمليات ، فلا بد عندها من اختيار أقصر الطرق الرئيسية للارتال ، والبحث عن أفضل

المعسكرات وأماكن الاقامة التي يصادف تيسرها في المنطقة .

كلما كان الاشتباك محتملاً – بكلمة اخرى ضمن المسرح الكلي للحرب – فمن المبادىء الرئيسية في الحرب الحديثة تنظيم الارتال بطريقة تمكنها من جعل القطعات على استعداد للعمل بشكل مستقل وبغض النظر عن نوع واسلوب التنقل. تتم مراعاة ذلك بجحفلة الاسلحة الثلاث ، وينتظم الكل بتشكيلات فرعية ، وباختيار الاماكن المناسبة للقيادة . لذا فالمسيرات هي القاعدة الرئيسية في نظام المعركة الحديث، كما إنها هي المستفيد الرئيسي منه كذلك .

حوالي منتصف القرن الثامن عشر ، وخصوصاً في مسرح عمليات فردريك الثاني (الكبير) ، بدأت المسيرات نفسها ترقى الى مرتبة مبدأ قتالي مستقل بذاته . وكانت الانتصارات تتحقق بتحركات ومناورات ليست متوقعة ، الا أن عدم وجود نظام معركة متناسق واساسي فرض ضرورة ترتيبات شاقة وفي منتهى التعقيد على الجيش خلال التنقل . ولتنفيذ مناورة ما على مقربة من العدو كان لا بد من التهيؤ الدائم والكامل للمعركة ، وما كان هذا التهيؤ ممكنا ما لم يكن الجيش متحشداً ، لان الجيش وحده القادر على تشكيل كيانٍ مكتف – ذاتياً . وعندما يتوجب على الاحتياط المسير بموازاة القسم الاعظم ، محافظاً على فاصلة لا تزيد على الميل الواحد عن ذلك القسم، فهذا يعني أن عليه تحمل مشاق ووعورة الارض وتسلق هذا التل ، والانحدار مع الوادي ، مع ما في ذلك من اجهاد ، ناهيك عن الاهتمام بالظروف والأحداث المحلية والانية ، إذ ليس من السهل دائماً العثور على طريقين معبدين ومتوازيين ولا يبعدان عن بعضهما اكثر من ميل واحد ؟ كذلك تعاني الخيالة من ظروف مشابهة وهي على الاجنحة عند التنقل نحو العدو بالرتل . اما المدفعية فهي مشكلة أخرى ، لانها بحاجة الى طريق خاص بها ، ومع حماية المشاة لها ، لذلك ستجعل المدفعية من خطوط المشاة التي يجب ان تكون متواصلة ولكن الطويلة والمرتبكة بما يكفي ، ستجعلها اكثر طولاً، ولا يمكن المحافظة على المسافات كما حددت بدقة ابداً . ولا يحتاج المرء لأكثر من مراجعة توقيتات التنقل في **تاريخ حرب السنوات السبع** (١٧٥٦ – ٦٣) لفردريك تمبلهوف (١٧٣٧ – ١٨٠٧) ليقف على تلك الظروف والضغوط التي تفرضها على الحرب .

لقد أعطت الحرب الحديثة منظومة عضوية للتجزأة، تشكل من خلالها الوحدات الكبرى كيانات ثانوية شاملة ، فاعلة ومؤثرة في العمل كالجيش الكامل ، ما

عدى أنها غير قادرة على العمل طويلاً . اما اليوم فحتى لو أريد للجيش أن يقاتل ككل، فما من حاجة قوية لابقاء الارتال سوية كي تتمكن من الانضمام الى بعضها قبيل بدء العمل . اذ بوسعها القيام بذلك أثناء الاشتباك .

كلما صغرت الوحدة اكثر كلما سهل تنقلها ، وكلما قل تطلبها لذلك النوع من الوحدات الفرعية التي لم تكن نتيجة لانقسام نظام المعركة بل بسبب ضخامتها غير المقبولة . بوسع حجم صغير من القطعات التنقل على طريق منفرد ، وان كان لا بد من تقدمها في عدة أرتال فيمكن وقتها العثور على ما يكفي من الممرات الجانبية . وكلما كبر حجم القطعات اكثر كلما زادت الحاجة الى تجزأتها، وكلما زاد عدد الارتال كلما تطلب الامر طرقاً جيدة السطح ، أو حتى طرقاً عامة (High Way) ، كلما زادت المسافة بين الارتال . ولو تحدثنا بلغة الحساب والارقام فان خطر التفرع (الانقسام) يتناسب عكسياً مع ضرورته . وكلما صغرت الوحدات ، كلما زاد إحتمال الحاجة لأن تذهب لمساعدة بعضها البعض . وكلما كبر حجمها ، كلما أحتاجت الى وقت وجهد اكثر للأهتمام بنفسها . ينبغي على المرء أن يتذكر ما قلناه في الكتاب السابق: في الاراضي المستوية يسهل العثور على طرق جيدة ومتوازية ولا تبعد سوى بضعة اميال عن الطريق الرئيسي . لذلك يبدو من الواضح عند تخطيط التنقل ، ان لا مشاكل هناك تسبب تضارباً وعدم تمازج بين **السرعة والوصول المتابع (بفاصلات) مع التحشد الدقيق والمطلوب للقوات** . اما في المناطق الجبلية ، فالطرق المتوازية نادرة، كما يصعب كثيراً ربطها ببعضها ، لكن ومن الناحية الاخرى فان قوة المقاومة في رتل منفرد اقوى بكثير .

سيبدو الامر اكثر وضوحاً لو تمعنا قليلاً فيه بادراك واقعي .

ترينا التجارب أن فرقة من (٨) الاف رجل مع مدفعيتها وبعض عربات النقل ستحتاج عادة الى ساعة لاجتياز نقطة معينة (حرجة)[١] . ولو تنقلت فرقتان على طريق واحد ، فستصل الثانية بعد حوالي الساعة خلف الاولى . وكما اوضحنا في الفصل السادس من الكتاب الرابع ان فرقة بهذا الحجم قادرة على الصمود لوحدها عادة لعدة ساعات حتى ضد عدو متفوق ، وهكذا يتسنى أن تصل الفرقة الثانية (المعقبة) في

---

(١) يعرف هذا التوقيت بزمن المرور بنقطة (ز.م.ن) وهو الوقت ما بين مرور اول وآخر عجلة في الرتل ، كالجسور ومفارق الطرق والخوانق وتعرف هذه بالنقاط الحرجة ولا بد من احتسابها في تخطيط واوامر التنقل كما يستفاد منها كنقاط تدقيق .

الوقت المناسب حتى في اشد المواقف سوءً - اي الموقف الذي اجبرت فيه الفرقة الاولى على الاشتباك مع العدو فوراً وحال وصولها . واكثر من ذلك ففي اراضي مستوية كالتي في وسط اوربا من السهل العثور على **طرق جانبية** جيدة ضمن مسيرة ساعة عن الطريق الرئيسي . كما يمكن استخدام تلك الطرق الجانبية للتنقل بسهولة ودون الاضطرار على السير خارجها وخلال الاراضي المزروعة او غير المعبدة ، كما حدث ذلك كثيراً خلال حرب السنوات السبع .

كما علمتنا التجارب أيضاً أن رأس الرتل لقوة بحجم أربع فرق مع احتياط من الخيالة يمكن أن يقطع عموماً مسافة (١٥) ميل خلال ثماني ساعات حتى في طرق ليست جيدة . وبمعدل ساعة واحدة لكل فرقة وساعة للخيالة والمدفعية الاحتياط فسيستغرق التنقل بكامله (١٣) ساعة . وهذا ليس بالوقت الكثير جداً ، وما زال بوسع (٤٠) الف رجل التنقل على طريق واحد . ومع قوة كهذه يمكن البحث عن واستخدام أية طرق جانبية متوفرة لتسريع وتقصير وقت التنقل مع سهولة اكثر . وان اقتضى الامر إستخدام قطعات أخرى لنفس الطريق فمن البديهي الافتراض ان لا يشترط وصولها في نفس اليوم . والجيوش في ايامنا هذه وبالحجوم التي هي عليها لم تعد تشتبك في معركة حال وصولها ، بل تنتظر عادة حتى اليوم التالي .

لم نستشهد بتلك الحالات ثقة منا بانها تغطي كافة الامثلة الممكنة ، بل وببساطة كي نجعل الامور اكثر وضوحاً ، ولنؤكد من خلال تفحص أمثلة حية ، انه لم يعد من الصعب جداً في الحرب الحديثة تنظيم التنقل . ولم تعد التنقلات السريعة والفورية تتطلب مهارات خاصة ، ولا الى المعرفة الواسعة والخبرة بالظروف والشؤون المحلية اللتان كانتا لفردريك الكبير وطبقها فعلاً في حرب السنوات السبع . وعلى الاصح ، ومع التنظيم العضوي الحالي للفرقة في الجيش ، أصبحت التنقلات تنظم نفسها بنفسها، أو انها على الاقل لم تعد تحتاج الى تخطيط معقد . وعلى عكس الايام التي كانت المعركة تنشب بعد كلمة واحدة من القائد ، بينما كان التنقل يتطلب تخطيطاً دقيقاً ، فالمعركة اليوم هي التي تحتاج التخطيط ، بينما ليس التنقل بحاجة الى اكثر من أمر من كلمة واحدة .

تكون المسيرات أما عمودية على خط الجبهة أو موازية له . ويدعى النوع الثاني منها ايضا «بالمسيرات الجانبية» التي تغير النمط الهندسي لاقسام الجيش . فالقطعات التي ترتب بالنسق باتت تسير الان بالرتل (واحدة بعد اخرى) والعكس بالعكس . وبينما

يكون اتجاه المسير باي زاوية تقل عن (٩٠°) درجة ، الا ان نظام المسير لا بد ان يكون بنظام محدد وفقاً لهذا السياق او ذاك .

يمكن تغيير الشكل والاتجاهات الهندسية كلية في مجال التعبية ، وبمجرد تطبيق ما يسمى بالانفتاح المزدوج (الزكا – in file) والذي يمكن تطبيقه كلما كانت الاعداد كبيرة. اما في المجال الاستراتيجي فلا يتسع المجال كثيراً لتطبيقات كهذه الا على نطاق محدود ، كانت الاقسام التي تغير شكلها ومكانها الهندسيان في نظام المعركة القديم هي فقط التي في المركز وعلى الاجنحة ، اما الان فالامر يقتصر على التشكيلات الكبرى (من الدرجة الاولى) – الفيالق ، والفرق ، والالوية – واعتماداً على توزيع الجيش ككل . هنا أيضاً يمكن ملاحظة تأثيرات نظام المعركة الحديث ، ما دام لم يعد ضرورياً تجميع الجيش بكامله قبل بدء العملية ، بل بات من الضروري بذل اقصى الاهتمام للتأكد من ان القطعات التي تتجمع تشكل كياناً متكاملاً [مفهوم التجحفل وفقاً لنوع الواجب]. فلو رتبت فرقتان بالتعاقب ، اي بوضع الثانية كاحتياط خلف الاولى ، ثم تطلب الموقف تقدمهما نحو العدو على طريقين منفصلين ، فلا يمكن ان نفكر مطلقاً بارسال جزء من اي الفرقتين على طريق مختلف . والمعتاد ان يخصص لكل منهما طريقاً خاصاً، ولا بد من ابلاغ الفرقتين بتنسيق التقدم جنبا الى جنب ، ولو تطلب الامر القتال فكل قائد فرقة سيتولى تأمين احتياطه الخاص . فوحدة القيادة اهم بكثير من التقيد بالترابط الهندسي . واذا بلغت الفرقتان الى نهاية التنقل دون مشاكل فبوسعهما العودة الى الترتيب الاساسي الذي كانتا عليه . ان كانت الفرقتان المتقاربتان جنبا الى جنب ستنتقلان على طريقين ، متوازيين ، فليس من المحتمل ان ترسل اي من الفرقتين قطعاتها الخلفية او الاحتياط، على الطريق الاخر ، اذ سيحدد لكل فرقة طريق واحد ، وستكون احداهما كاحتياط خلال فترة التنقل . اذا تقدم جيش مؤلف من اربع فرق نحو العدو بتشكيل ثلاث فرق في الامام والرابعة في الاحتياط ، فمن الطبيعي تخصيص طريق واحد لكل فرقة امامية على ان تعقب الفرقة الرابعة الفرقة او الطريق المركزي ، فان تعذر توفر ثلاث طرق على مسافات مناسبة فليس هناك ما يمنع التقدم على طريقين دون توقع او التسبب باية مخاطر جدية .

يطبق نفس الشيء على التنقل الجانبي Flank March

هناك نقطة اخرى تخص الارتال التي تتنقل من الجناح الايمن او الايسر . ففي حالة المسير الجانبي يتم ذلك تلقائياً . وليس من المعتاد ان يتحرك الرتل من اليمين كي

يتنقل يساراً . ففي التنقل الى الامام او الى الخلف ، يتم ترتيب الرتل في التنقل وفقاً لاتجاه الطريق وعلاقة ذلك النسبية مع خط الانفتاح المستقبلي . ويمكن ان يحدث ذلك فعلاً وغالباً في التعبية ، فهي حقاً هنا بنطاق أصغر كما ان الشكل الهندسي مما يسهل متابعته بالنظر . اما من وجهة النظر الاستراتيجية فذلك مستحيل تماماً ، ومع ذلك فان رأى البعض امكانية تطابق أو تشابه حالات معينة أو عرضاً مع التعبية فليس ذلك سوى إدعاء ووهم . نعم كان امر التنقل كله في السابق من الامور التعبوية الصرف ، طالما كان الجيش وحتى في التنقل يظل كتلة واحدة غير مجزأة ، وبعزم الدخول أو خوض القتال كوحدة . وعلى سبيل المثال فعندما سار (الجنرال شويرين) من منطقة براندیس Brandeis في الخامس من مايس ، لم يكن يعرف ما اذا كانت ساحة المعركة على يمينه او يساره ، لهذا تطلب الامر اجراء ذلك التراجع الشهير[١] .

لو تقدم جيش وفق نظام المعركة القديم باربعة ارتال ضد العدو ، فان الرتلين الخارجيين (الاجنحة) سيتألفان من الخيالة على جناحي الخطين الاول والثاني ، بينما يؤلف مشاة كلا الخطين مركزيّ الرتلين . وبوسع هذه الارتال الانطلاق من اليمين أو اليسار ، أو الجناح الايمن من اليمين والجناح الايسر من اليسار ، أو الجناح الايمن من اليسار والجناح الايسر من اليمين . ويطلق على اسلوب المسير في الحالتين الاخيرتين «الرتل المزدوج من المركز» . وحتى لو روعي في كل تلك التنقلات علاقاتها المباشرة مع الانفتاح الذي سيلي ذلك ، فلن يكون لها اي تأثير بهذا الخصوص . فعندما تقدم فردريك الكبير نحو معركة ليوثين[٢] ، سار جيشه باربعة ارتال من الجناح الايمن ، ويشكل هذا تحولاً الى المسير بالرتل (الذي اعجب به المؤرخون كثيراً) البالغ السهولة، فقد تصادف ان فردريك الكبير استهدف مهاجمة الجناح الايسر للنمساويين . ولو اراد تحويل الجناح الايمن لكان عليه التراجع (المسير العكسي) كما فعل في معركة براغ .

وحيث لم تكن مناورات كهذه تتلائم واهدافهم أنذاك ، فهي اليوم وبصراحة من الامور التافهة . وعلاقة ساحة معركة المستقبل مع الطريق الذي ينتقل عليه الجيش ليست معروفة الان بالدرجة التي كانت عليها انذاك ، كما اصبح الوقت القصير

---

(١) في مايس / ١٧٥٧ حدثت معركة براغ بين القوات البروسية (١٧٥) الف رجل والنمساويين (١٣٢) الف رجل وحدثت معركة دموية ومناورات بارعة لفردريك الكبير ولكن مامن اشارة الى تراجع الجنرال شويرين الذي قتل في الهجوم الاول (المترجم) .

(٢) راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث (ص ٢٧٢) المترجم .

المضيع في المسير بنظام مغلوط من اللاهمية بما لا يقاس . هنا أيضاً أثبت نظام المعركة الجديد أنه الافضل ، ولم تعد هناك أية اهمية حول أية فرقة ستصل اولاً ، أو أي لواء سيتعرض لنيران العدو اولاً .

لم يعد هناك تحت ظروف كهذه أي إختلاف فيما اذا كان المسير الى اليسار أو الى اليمين فيما عدى مراعاة توازن إجهاد القطعات في حالة تناوبها . وهذا هو السبب الوحيد ، مع إنه مهم جداً للتمسك بطريقة التنقل المزدوج حتى عند تنقل حجوم كبيرة من القطعات .

تحت ظروف كهذه لم يعد الانطلاق من المركز يبدو كمناورة متميزة تلقائياً ، وسوف لن تحدث الا صدفة . فتنقل من المركز يتحرك فيه رتلا الوسط كرتل واحد لا يعني الاستراتيجية بشيء ، مهما كان قليلاً ، لانه يفترض توفر طريقان واسعان (من الدرجة الاولى High Ways) .

يعتبر نظام المسير قضية تعبوية اكثر منها إستراتيجية لانها تتضمن تجزأة الكل الى اجزاء ، وستشكل بدورها هي الاخرى كياناً موحداً عند انتهاء التنقل . ولم يعد يرى أن من الضروري في الحرب الحديثة إبقاء تلك الاقسام قريبة من بعضها ، وسيسمح لها بالابتعاد عن بعضها اكثر خلال المسير ، وليهتم كل منها بنفسه . كما يمكن أن ينتج ذلك من معارك يخوضها كل قسم لوحده ، ويجب إعتبار كل منها معركة كاملة. وهذا هو السبب الذي جعلنا نخوض في كل هذه التفاصيل .

قد يحدث عرضاً (وكما اوضحنا ذلك في الفصل الثاني[1] من هذا الكتاب) ان يكون ترتيب القطعات في ثلاثة اقسام بالنسق ، هو الترتيب الطبيعي والاكثر تلائماً حيثما لا تكون هناك اهداف طاغية خاصة ، فان ثلاث ارتال ايضاً ستكون نظام المسير الاكثر تلائماً بطبيعة الحال .

هناك شيء اخر نود اضافته ؛ فان مفهوم الرتل لا يستند فقط على مجرد وضع قطعات قوة واحدة في خط المسير . اذ ينطبق المصطلح في الاستراتيجية على مجموعات القطعات المتنقلة على نفس الطريق في ايام مختلفة . والحقيقة هي ان القطعات قد انقسمت الى ارتال كي تسهل وتقصر التنقل اساساً ، اذ تتنقل قوة صغيرة بصورة اسرع وايسر من قوة كبيرة ، ويحقق هذا الهدف كذلك عند تنقل القطعات في ايام مختلفة لا على طرق مختلفة .

(١) المقصود هو الفصل الخامس .

الفصل الحادي عشر

التنقل-تتمة

التجربة افضل دليل لتحديد طول الرتل والوقت الذي يحتاجه .

لقد اعتادت الجيوش الحديثة على اعتبار التنقل لمسافة خمسة عشر ميلاً يومياً كافياً . ويجب تقليص ذلك في العمليات الشديدة الى عشرة اميال لتخصيص الوقت الباقي من الايام للراحة ويمكن إجراء التصليحات واعمال الادامة الضرورية الاخرى .

تحتاج فرقة من (٨) الاف رجل من (٨-١٠) ساعات لتنقل كهذا في الاراضي المستوية والطرق الاعتيادية . والى (١٠-١٢) ساعة في المناطق الجبلية . اما اذا تألف الرتل من عدد من الفرق فستحتاج الى بضعة ساعات اخرى ، حتى من دون احتساب تأخير انطلاق الفرق التالية في ابتداء التنقل .

من الواضح ان تنقلاً كهذا سيملأ اليوم كله تقريباً ، وليس بوسع المرء تصور الجهد والضغط الذي يتحمله جندي يحمل عدته وأمتعته طوال (١٠ أو ١٢) ساعة والسير لمسافة خمسة عشر ميلاً ، لا تحتاج لأكثر من خمسة ساعات للفرد العادي على طرق معبدة .

قد تغطي المسيرات القسرية ، لو نفذت من اونة لاخرى ، خمس وعشرين ميلاً، أو ثلاثين كحد اقصى ، اما لو نفذت باستمرار فلن تتجاوز العشرين ميلاً .

لا بد عند التنقل لمسافة (٢٥) ميلاً من وقفة راحة لعدة ساعات ، وليس بوسع فرقة من (٨) الاف رجل اكمالها باقل من (١٦) ساعة حتى على الطرق الجيدة . فان كانت مسافة التنقل بطول (٣٠) ميلاً ولعدة فرق فلا بد من توقع أستمرار التنقل لعشرين ساعة على الاقل .

وما يهمنا هنا هو تنقل عدة فرق كاملة من معسكر الى آخر ، نظراً لان هذا النوع هو الاكثر شيوعاً في مسرح العمليات . وحيث أن عدة فرق ستشكل رتلاً منفرداً ، ينبغي تجمع وانطلاق الفرقة الاولى مقدماً لتصل الى المرحلة التالية قبل الاخريات بكثير . ولا يمكن أن يكون هذا الاختلاف في الوقت كبيراً جداً ابداً ، كالوقت الذي تحتاجه الفرقة للمرور بنقطة معينة – وهو الذي يميل الفرنسيون بتسميته

بوقت التفريغ (run - off) – وهكذا فلن يبذل الجندي سوى القليل من الجهد ، كما ستستغرق جميع التنقلات وقتا اطول بسبب كثرة القطعات المتنقلة . اما تنقل فرقة بأساليب مماثلة لجمع وانطلاق الويتها كل على انفراد فلم يعد ذلك عملياً الا في حالات نادرة ، وهذا هو السبب في اعتبار الفرقة كوحدة (تشكيل) .

في التنقلات الطويلة ، وحيث تتنقل القطعات من مأوى (Billets) الى آخر وعلى شكل مفارز (مجموعات) صغيرة ، ودون نقاط او اماكن تجمع فستطول الارتال كثيراً ، بل وستزداد طولاً اذا اضطرت القطعات الى الحيدان (detour) عن الطريق عند الدخول او الخروج من المأوى .

يصل وقت التنقل حده الاقصى طولاً عندما يتم تجميع القطعات المتنقلة يومياً ضمن الفرق او حتى الفيالق ، ثم يتم بعد ذلك توزيعها على المأوي ، وليس من السهل في الواقع تنقل القطعات بهذه الطريقة الا عندما تكون صغيرة الحجم نسبياً ، وان تكون المنطقة الجاري التنقل فيها ، غنية ووفيرة الموارد ، اذ بوسع وسائل وادوات بسيطة توفير مواد الاعاشة والاقامة بسهولة ستعوض القطعات عما بذلته من جهد خلال فترات التنقل الطويلة . ليس من شك في ان الجيش البروسي قد اخطأ عند تراجعه عام (١٨٠٦) بادخاله قطعاته المأوى[1] (Billets) لتوفير الاعاشة والاقامة لها . وكان بوسعه تأمين ذلك داخل المأوي (Bivouacs) اذ ما كان الجيش سيتحمل كل هذا الجهد في اجتياز (٢٥٠) ميلاً في ما لا يقل عن اسبوعين .

تخضع كل حسابات الوقت والمسافة هذه الى العديد من التغييرات كلما جرى التنقل على طرق غير جيدة او في مناطق جبلية حيث يصعب تحديد وقت التنقل بدقة – ناهيك عن امكانية وضع اية قواعد عامة لذلك حتى . وكلما يسع مخطط التنقل هو التنبيه على المعضلات التي ستعترض التنقل . ولتجنب اكبر عدد ممكن من تلك المعضلات فلا بد من إعداد أشد الحسابات دقة مع اضافة اكبر هامش ممكن عن التأخيرات غير المتوقعة واعتبار ذلك من الامور الضرورية جداً . ولا بد كذلك من اخذ ظروف الطقس وحالة القطعات بنظر الاعتبار .

---

(١) لكلمتي (Billets) و (Bivouacs) معنى المأوى الذي تدخله القطعات لانجاز القضايا الادارية والراحة والانتظار إما في التطبيق فالاول يعني اسكان الافراد في دور الاهلين وعلى نفقة هؤلاء كمساهمة او ضريبة، اما النوع الثاني فهو المأوى العسكري الذي ترد مناقشته في الدراسات العسكرية . وسيتناول الفصل التالي الموضوع بتفصيل اكبر . المترجم

حالما تم الاستغناء عن الخيم وباتت القطعات تحصل على مواد الاعاشة حيث وصلت ، تقلصت أثقال الجيش كثيراً ، وبوسع المرء توقع تحسن وزيادة في قابلية الحركة نتيجة لذلك ، وبالتالي زيادة في المسافة المقطوعة في التنقل يومياً . الا ان ذلك قد لا يتحقق الا في ظروف معينة .

فلم يحقق هذا التغيير سوى تسريع قليل في التنقل في مسرح العمليات . وسبب ذلك وكما هو معروف فان الاحمال غير الضرورية وحتى في العصور المبكرة كانت تترك في الخلف في الظروف الطارئة والتنقلات المفاجئة والاستثنائية ، كما كانت ترسل تلك الاثقال مقدما إن أمكن، وعموماً كانت تُنقل بشكلٍ منفصلٍ عن القطعات كلما كانت هذه في حالة مسير بعد . وفي الواقع ما كانت الاحمال تؤثر كثيراً على التنقل الا في حالات نادرة ، ومنذ ما لم تعد الاحمال تشكل عائقاً حقيقياً فلم يعد أحد يهتم بها أو يلتفت اليها – بغض النظر عن مقدار الاضرار التي تسببها . لذا جرت تنقلات في حرب السنوات السبع لم يتجاوزها أحد حتى الان وعلى سبيل المثال فقد قام الجنرال لاسكي عام ١٧٦٠ خلال دعمه لعملية المشاغلة (التشتيت) الروسية نحو برلين ، بقطع مسافة (٢٢٠) ميلاً من (شفيدنيتز) وعبر (لوساتيا) نحو برلين في عشرة ايام – بمعدل (٢٢) ميلاً يومياً وهي معدلات عالية جداً حتى هذه الايام لفيالق تعدادها (١٥٠) الف رجل .

الا ان التغيير التام في اساليب تموين القطعات ادى من الناحية الاخرى الى اعاقة تنقلات الجيوش الحديثة . فالقطعات التي بات عليها توفير العلف والاغذية بنفسها ، كما كانت تفعل في الغالب ، اصبحت تنفق من الوقت اكثر بكثير من السابق يوم كانت تتسلم ما تحتاجه من عربات الاعاشة . يضاف الى ذلك صعوبة اسكان عدد كبير من القطعات في مكان واحد بعد التنقل لمسافة طويلة ، اذ يتطلب الامر انتشار الفرقة على رقعة واسعة كي يتسنى لقطعاتها تأمين احتياجاتها من الغذاء . واخيراً فقد جرت العادة على اسكان بعض اقسام الجيش ، وعلى الاخص الخيالة ، في بيوت واكواخ الاهلين . ويمكن ان نرى وببساطة ان هذه الاسباب مجتمعة ستفرض الكثير من التأخير . ويتضح ذلك جلياً عند محاولة نابليون بعد مطاردته البروسيين ومحاولته قطع خطوط رجعتهم عام ١٨٠٦ ، وكذلك حينما حاول الجنرال بلوخر فعل الشيء نفسه مع الفرنسيين عام ١٨١٣ فقد احتاج كلاهما الى عشرة ايام لقطع ما لا يزيد عن (١٥٠) ميلاً . وكان هذا هو نفس المعدل الذي حققه فردريك الكبير ومعه كل اثقال الجيش عند مسيرته من

ساكسوني الى سليزيا والعودة .

من الناحية الاخرى فقد زيدت قابلية حركة ومرونة جميع الوحدات الكبيرة والصغيرة بسبب تناقص اثقالها ، وبينما بقيت الخيالة والمدفعية كما هي فقد تقلص عدد الخيول فيها ، وبذلك تقلصت حاجتها للعلف ، نرى من الناحية الأخرى انها قلصت المعضلات التي تواجهها القطعات في احتلال المواضع، اذ لم يعد يقلقها الاهتمام بسلامة رتل الاثقال [الذيل الاداري] الذي لا نهاية له في الخلف .

تنقل فردريك الكبير بعد رفع الحصار عن (اولمتز) عام ١٧٥٨ ومعه (٤) الاف عربة خصص نصف جيشه لحمايتها بعد ان جزأه الى افواج وحتى سرايا . ومن المستحيل اجراء تنقل كهذا الان حتى في مواجهة أجبن الاعداء .

عند التنقل لمسافات طويلة – بين نهري تاكوس (التاج)[1] ونيمين على سبيل المثال– فسيمكن تلمس الفوائد الكبيرة عادة، بينما يظل المسير اليومي المعتاد هو نفسه تقريباً بسبب الحاجة الى نفس عدد العربات، اما في الحالات الطارئة، فقد يزداد العدد بدون نفس الدرجة من التضحية.

وعموما فسيؤدي تقليص الاحمال الى تخفيف الجهد المفروض على القطعات لا الى تسريع التنقل .

(١) التاج نهر في اسبانيا ونيمين نهر في روسيا . المترجم

الفصل الثاني عشر

التنقل – استنتاجات

علينا الآن تفحص الاضرار التي يفرضها التنقل على القوات المقاتلة . وهي اضرار كبيرة جداً وترقى لان تكون عاملاً حاسماً وبشكل خاص (متميز) قياساً بالاشتباك.

لن يوثر التنقل لمسافة معقولة على القطعات كثيراً ، الا ان سلسلة من مثل هذه التنقلات ستفعل فعلها دون شك، اما ان اجريت مجموعة التنقلات هذه بنشاط وسرعة فستسبب بطبيعة الحال الكثير من الاضرار والاذى .

ان نقص مواد الاعاشة والمأوى في منطقة العمليات ، والطرق البالغة الوعورة ، والحاجة لابقاء القطعات باستعداد كامل للمعركة ، هي الاسباب التي تؤدي الى الجهود المضنية التي على الافراد والحيوانات ادائها، كما تترك اثارها على العربات والاحمال .

لقد اعتدنا القول ان الراحة لفترات طويلة ليست أمراً جيداً للصحة البدنية للجيش ، وتزداد حالات المرض في تلك الاوقات اكثر مما تبدو ابان العمليات . ولعل الامراض تزداد فعلاً عند تجمع الجنود سوية في قواطع الاقامة الضيقة والمحدودة ، كما يمكن أن تقع عند اقامة الافراد في المأوي او اكواخ الاهلين على طول طريق التنقل. وينبغي الا نربط ظهور الامراض بنقص الهواء النقي والتنقل ، نظراً لسهولة توفيرها بالتمارين (الرياضية) .

لنتمعن في الاختلاف الذي يتعرض له انسان متعب ومضطرب الاحوال ، ما بين سقوطه مريضاً داخل المعسكر أو أن يصاب بعارض صحي وهو على قارعة الطريق أثناء التنقل وسط الاوحال والمطر وهو محمل فوق ذلك بعدته وأمتعته . فحتى لو مرض وهو في المعسكر فيمكن ساعتها ارساله الى أقرب قرية حيث يمكن العثور على بعض المساعدة الطبية ، أما اصابته وهو على قارعة الطريق فقد يظل ولساعات طويلة دون أي علاج ، ثم قد يضطر فوق ذلك لأن يجر نفسه كالمتخلفين عن الجيش وللسير لعدة اميال على هذه الحال . وكم من أمراض بسيطة وحالات اصابة طفيفة تفاقمت في احوال كهذه ، بل انتهت بعض الحالات الخطرة الى الموت !

لنفكر كذلك بالغبار وحرارة الصيف المحرقة وحيث تسببت حتى التنقلات

المتوسطة بالاجهاد بسبب الحرارة ، كما سيدفع العطش الشديد[1] بالجنود الى الاندفاع نحو اي نبع ماء بارد ملتقطاً في الوقت نفسه مرضا ما يؤدي الى الموت .

لا يعني اي من ذلك اننا نقول بضرورة تقليص الفعاليات أو أن تكون هذه أقل في الحرب . فقد أوجدت الالات كي تستخدم ، وأن هذا الاستخدام سيتلفها بطبيعة الحال . غايتنا الوحيدة فقط هي الوضوح والانتظام ؛ كما نعارض النظريات الحماسية الهوجاء التي تدعي بان اكثر المباغتات ضخامة ، واسرع التنقلات ، او اكثر الانشطة اجهاداً لا تكلف شيئاً ؛ وانها مناجم غنية لم تستثمر بسبب كسل ولا مبالاة الجنرالات. قد تكون الحصيلة الاخيرة مما يقارن فعلاً بمناجم الذهب والفضه ؛ على المرء ان ينظر فقط الى النتيجة النهائية ولينسى السؤال عن قيمة ما بذل من عمل لاجلها .

تجري اطول التنقلات خارج مسرح الحرب عادة في ظروف اسهل ، والخسائر اليومية أقل . لكن ومن الناحية الاخرى فحتى الاصابات المرضيه الطفيفه تبعد المصاب عن وحدته لوقت طويل عادة : ومن الصعب على الناقهين اللحاق بالجيش المتقدم.

اما في حالة الخيالة ، فهناك تزايد مستمر في اصابة اطراف وظهور الخيل ؛ والعجلات تتعطل بدورها هي الاخرى ، والنتيجة هي الفوضى . فالتنقل لمسافة (٥٠٠) ميل او اكثر ، يسبب وعلى الدوام أن يصل الجيش غايته في حالة انهاك شديد، وعلى الأخص فيما يتعلق بالخيول والعربات .

اذا كان لا بد من اجراء تنقل من هذا النوع ضمن مسرح الحرب تحت انظار العدو، فستضاف اضرار وعيوب اخرى . وعند تزايد الاعداد ذات العلاقة كثيراً ، وفي ظروف تنقل سيئه ، يمكن ان تصل الخسائر الى اعداد لا تصدق .

ولنقدم بعض الامثله لتصوير هذا الامر .

عند عبور نابليون نهر نيمين في ٢٤ / حزيران / ١٨١٢ ، كان القسم الاكبر من جيشه والذي كان يقوده بنفسه (٣٠١) الف رجل في طريقه نحو موسكو . ثم اخرج مفرزة قوامها (١٣٫٥) الف رجل في سمولنسك يوم ٨/١٥ ، لذا كان سيظل معه (٢٨٧٫٥) الف رجل . الا ان قوته الحقيقيه كانت بحدود (١٨٢) الف رجل – وهذا

(١) . يتدرج العطش في اللغة كما يلي «أول مراتب الحاجة الى شرب الماء العطش ثم الظمأ ، ثم الصدى ثم الغلة، ثم اللهبه ، ثم الهيام ثم الاوام ، ثم الجواد وهو القاتل» عن كتاب فقه اللغة – للثعالبي ص ١٦٦ . وقد استخدمت كلمة «الشديد» اعلاه لانها متداولة كثيراً . المترجم

يعني فقدانه ما يقرب من (١٠٥ر٥) الف رجل[١] . ولو تذكرنا ان ذلك الجيش لم يخض سوى اشتباكين يستحقان الذكر – جرى احدهما ما بين الجنرالين دافو و (باكراشين) والاخر ما بين الجنرالين (مورا) و (تولستوي – اوسترمان) – ولم تزد خسائر الفرنسيين فيهما على (١٠) الاف رجل كحد اقصى . وهكذا بلغت الخسائر بين المرضى والمتخلفين طوال فترة تنقل لمدة (٥٢) وبطول حوالي (٣٥٠) ميلاً بحدود (٩٥) الف رجل او حوالي ثلث القوة الكلية للجيش .

بعد ثلاثة اسابيع ، وفي معركة بورودينو ، وصل حجم الخسائر (بما فيهم خسائر العمليات) الى (١٤٤) الف رجل ، ثم ارتفع العدد عند موسكو بعد اسبوع واحد الى (١٩٨) الف رجل . والخلاصة فقد بلغت نسبة الخسائر اليومية للجيش في المرحلة الاولى (١:١٥٠) من القوة الكلية ، وفي الفترة الثانية الى (١:١٢٠) وفي الفترة الثالثة الى (١:١٩) .

كان تقدم نابليون قاس وصارم دون شك منذ عبور نهر نيمين[٢] وحتى الوصول الى موسكو ، لكن علينا ان نتذكر بانه احتاج (٨٢) يوماً لقطع حوالي (٦٠٠) ميلاً ، وان الجيش قد توقف باجمعه لمرتين – الاولى لحوالي (١٤) يوماً عند (فيلنا) ، والثاني ولمدة (١١) يوماً عند (فيتبسك) – مما اعطى الكثير من المتخلفين الكثير من الوقت للألتحاق بوحداتهم . ولم يجري هذا التقدم لمدة (١٤) اسبوعاً في اتعس ايام السنة ولا على طرق سيئة ، بل في الصيف وعلى طرق رملية في معظمها . كان عامل الاعاقة هو ضخامة حشود القطعات المتنقلة على طريق واحد ، ونقص مواد الاعاشة . والعدو الذي وان كان في حالة تراجع الا انه لم يكن منهزماً .

لا ينبغي علينا كذلك حتى ذكر التراجع الفرنسي – أو بتعبير ادق تقدم الجيش

---

(١) اخذت الارقام نقلاً عن الجنرال والمؤرخ الفرنسي شامبراي – كلاوزفيتز.

(٢) جرى الاشتباك الاول عند عبور نهر نيمين حيث حاول نابليون تدمير الجيشين الروسيين واحداً تلو الاخر وقد نجح باكراشين بالتملص من دافو وعبر نهر الدنير للألتحاق بجيش براكلي عند سمولنسك . اما الاشتباك الاخر فقد كانت معركة كبرى لولا ان الروس تملصو منها بعد معركة دفاعية فاشلة اذ خطط نابليون لاحاطة الجناح الروسي فعبر الدنير جنوب سمولنسك ، وكالعادة اخطأ الجنرالات الفرنسيين اللحاق بعبقرية نابليون واضاعوا الفرصة . كانت خسائر الفرنسيين في هذا الاشتباك وحده عشرة الاف رجل (موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص (٧٥٧ – ٨) – المترجم

من موسكو الى نهر نيمين – ولعل من المهم ان نلاحظ ان الجيش الروسي بدأ المطاردة من (كالوجا)[1] بعدة (١٢٠) الف رجل فوصل (فيلنا)[2] ومعه (٣٠) الفاً فقط . وليس لدينا سوى معلومات عامة عما فقده الروس في قتال حقيقي .

لنأخذ مثالاً آخراً ، وهو من حملة الجنرال بلوخر عام ١٨١٣ في ساكسوني وسليزيا ، والتي لم تلفت النظر بسبب طول اي تنقل ، بل بسلسلة التحركات جيئة وذهابا . لقد افتتح فيلق «يورك» في (٨/١٦) وبامرته حوالي (٤٠) الف رجل لم يبق منهم بحلول (١٠/١٩) سوى (١٢) الف فقط . كانت الاشتباكات الرئيسية التي خاضها هي في – كولد بيرج ، و(لوفينبرج) ، وعلى نهر (كاتزباخ) ، في (فارتنبيرج) وفي معركة موكيرن (لايزك)[3] حيث تكبد وفقاً لافضل المصادر الرسمية (١٢) الف رجل. لذا فقد تكبد خلال ثمانية اسابيع ولاسباب اخرى غير القتال بحدود (١٦) الف رجل – اي نسبة ٤٠٪ من قوته الاصلية .

على القائد توقع زيادة كبيرة في الخسائر التي تتكبدها قواته ان قرر خوض حرب آلية (سريعة) . ولا بد من تعديل كافة الخطط تبعاً لذلك ، والانتباه اولاً وقبل كل شيء الى تأمين ما يكفي من التعزيزات لسد النقص .

---

(١) كالوجا . مدينة تقع جنوب غرب موسكو بحوالي (٨٠) ميلاً .

(٢) فيلنا . مدينة في بولنده شمال شرق العاصمة وارشو .

(٣) معركة لايزك او معركة الامم (راجع الهامش في ص٢٩٥) واضافة نقول انها بنظر المؤرخين حملة لا معركة لانها ضمت مجموعة من المعارك والاشتباكات والمناورات العديدة وكانها حرب كاملة وظهر فيها البون الشاسع ما بين عبقرية القيادة لنابليون ونقص الموارد، كما كان وقتها قد ابتلى بما عرف بحالات الذهول او الشطحات التي اصبحت تؤثر على ادارته الشخصية للمعركة وقد اعترف نابليون في احدى رسائله خلال هذه المعركة ان اقسى واخطر مشكلاته هي قادته الاغبياء الذين لا يحسنون التصرف ويبالغون كثيراً في تقديرهم لقوات العدو وبقدر تعلق الأمر بما استشهد به كلاوزفيتز حول التنقلات والمسيرات خلال الحملة فليس امامنا سوى القبول بما اورده، اذ يصعب علينا الحصول على المصادر التي تتناول هذه التنقلات بالتفصيل ورغم الدراسة النقدية والمفصلة للجنرال فوللر لهذه الحملة في كتابه «معارك حاسمة» الا انه لم يتطرق الى تفاصيل التنقل للمزيد راجع موسوعة التاريخ العسكري (بالانكيزية) – حملة لايزك ص ٧٦–٦٢، و Decisive Battles of the Western World, By Maj - Genral, Fuller . London 1975 . Vol - 2 chapter 3,P.119 - 155

المترجم

الفصل الثالث عشر

الايـواء – Billets[1]

اصبح الايواء في الحرب الحديثة مرة اخرى مما لا يمكن الاستغناء عنه ، فلا الخيم (المخيمات) ولا الارتال العسكرية الضخمة يمكنها ان تؤدي دور الايواء . فالمعسكرات في اكواخ او في العراء (وهي ما تدعى بالمأوي Bivouacs) ، ومهما جرى اعدادها بشكل مدروس ومفصل ، لا يمكن القبول بها كوسيلة ناجعة لاقامة القطعات ، فعاجلاً او آجلاً ووفقاً لتقلبات الطقس ستفشى الامراض، التي سرعان ما تبدأ قوة الجيش معها بالتأكل . وليست حملة روسيا عام ١٨١٢ الا مثال واحد من الامثلة التي وخلال الاشهر الستة التي استغرقتها وبغض النظر عن قسوة الطقس لم يستخدم اسلوب ايواء القطعات خلالها . وعند النظر في عواقب هذا الجهد ، الذي يميل المرء معه الى اعتباره أمراً غريباً بشكل استثنائي ، إن لم يستحق المفهوم السياسي للأنجاز ككل مثل هذه الصفة حتى بدرجة اكبر .

هناك عاملان سيمنعان الجيش من اتباع أسلوب الايواء ، هما قرب العدو، وسرعة التحركات . ويترك الايواء عادة كلما اقترب موعد الحسم (المعركة) ، ولن يستخدم ثانية الا بعد انتهائها .

ففي الحروب الاكثر حداثة – اي في كافة الحملات في السنوات الخمس والعشرين الاخيرة – كانت القوة الاساسية للجيش تطلق بكل حيويتها . وكان الجهد والفعالية يصلان في معظم الحالات حدودهما القصوى . الا ان ذلك حدث في الحملات التي لم تستمر الا لفترات قصيرة ، ونادراً ما تجاوزت الاشهر الستة ، وغالبا ما كانت حتى اقل من ذلك للوصول الى اهدافها – اي النقطة التي يشعر الطرف المندحر بالحاجة للوصول الى هدنة ، أو حتى الصلح ، أو حيث لم يعد المنتصر يمتلك ما يكفي من زخم الاندفاع الضروري للسفر . ويندر التفكير في اوقات الجهد الاقصى هذه بالايواء . وحتى خلال المطاردة ، وحيث لم يعد المنتصر يخشى او حتى يفكر باية مخاطر، تتسارع التحركات الى الحد الذي تتجاوز فيه مثل اوقات الراحة هذه .

---

(١) استخدمنا تعبير الايواء لكلمة Billers في دور السكان المدنيين والمأوى Bivouacs في العراء لاغراض التفريق ولانتهاء النوع الاول – المترجم

عندما لا يتسم تتابع الاحداث ولأي سبب كان بالاندفاع والتهور ، وعندما يكون توازن القطعات معلقاً ، فلا بد من اعطاء الايواء في اماكن محمية وجيدة ، الاعتبار الاول . وقد تؤثر هذه الضرورة على العمليات بطريقتين هما :

١ . قد يحاول أحد الطرفين الحصول على المزيد من الوقت والامن بانشاء منظومة قوية من المخافر الامامية وبمقدمة قوية توضع بعيداً الى الامام .

٢ . قد تعطى أسبقية لغنى المنطقة ووفرة المزروعات على المزايا التعبوية والنمط الهندسي للخطوط والنقاط .

فمدينة تجارية تضم من (٢٠-٣٠) الف نسمة ، أو طريق يمر عبر الكثير من القرى والمدن الوفيرة سيسهلان تحشيد حجم كبير من القطعات ، كما أن تحشداً كهذا بالمقابل يوفر الكثير من حرية العمل واليسر لتنقلات القطعات، وستشكل هذه الفوائد تعويضاً كبيراً عما تقدمه مواضع تعبوية جيدة .

سنعلق وباختصار على السياق والشكل المتبع في التهيؤ للأيواء ، نظراً لان ذلك من الامور التعبوية بشكل رئيسي .

لا بد من القرار مسبقاً عند ايواء القطعات على ما اذا كان امر اسكانها من الاعتبارات الرئيسية او الثانوية . فقد يعتمد ترتيب القطعات خلال الحملة على المتطلبات التعبوية او الاستراتيجية المحض ، لذا يستدعى اراحة القطعات على افضل شكل ايوائها قرب نقطة التحشد . وينطبق ذلك بشكل خاص على الخيالة . وللايواء في هذه الحالة اعتبار ثانوي ، فهو بديل للمعسكرات . لذا يجب تعين اماكن الايواء ضمن (نصف قطر) يسمح للقطعات بالوصول الى المواضع بوقت مناسب . ومن الناحية الاخرى فان كانت اقامة القطعات للراحة واعادة التنظيم ، تصبح الاقامة هي الاعتبار الرئيسي الذي يتحكم بكلما عداه ، بما في ذلك نقطة او مكان التحشد .

المعضلة الأولى هنا هي شكل منطقة الايواء ككل . والشكل البيضاوي الواسع الطول هو المعتاد غالباً ، وكأنه ليس سوى توسيع لنظام المعركة التعبوي . تكون نقطة التجمع في الامام ، والمقر الى الخلف . وهذه ثلاثة عوامل اثبتت التجارب انها تشكل عائقاً ، بل وتتعارض عملياً مع امن وحماية الجيش قبل وصول العدو .

كلما امكن جعل المأوى مربع الشكل ، بل وافضل منه الدائري ، كلما امكن تجميع القطعات بشكل اسرع في النقطة المعينة ، التي تغدو المركز ، اما اذا كانت نقطة

التحشد ابعد الى الخلف ، فسيحتاج العدو لوقت اطول للوصول اليها ، وبذا يتيسر لنا المزيد من الوقت . يصعب كذلك تهديد منطقة التحشد ان كانت خلف المأوى . وعلى العكس من ذلك فكلما كانت المقرات ابعد الى الامام ، كلما كان بوسعها استلام الاخبار والتقارير مبكراً ، كما سيكون القائد بوضع افضل لتسلم المعلومات. الا ان هناك اسباباً ترجح اعتبار الترتيب الاول جدير بالتمعن الى حد ما .

الغاية من توسيع مناطق الايواء هي تغطية مناطق الريف الغنية لمنع العدو من الحصول على أي تموين منها . الا ان ذلك ليس بالسبب المنطقي ولا المهم . وهو ذو مغزى فقط بالنسبة لاقصى الاجنحة ، ولا ينطبق ذلك على الثغرات التي تحدث بين اثنين من اقسام الجيش اللذان تجمعت مأويهم حول منطقتي تجمعهما . ولن تخاطر اية وحدة معادية للدخول في ثغرة كهذه . وليس ذلك بالاعتبار المهم جداً فهناك سبل ووسائل اكثر سهوله لحماية الريف من مصادرة العدو لغلاله ومن توزيع الجيش بهذا الشكل الهش .

يؤمن وضع منطقة الاجتماع الى الامام تغطية اماكن الايواء . ويبرر ذلك على الصورة التالية . **في المكان الأول** ، ان القطعات التي تدعى للقتال على عجل تترك خلفها على الدوام عدداً من المشردين (المتخلفين) والمرضى ، وعناصر التموين والاحمال وغيرهم في المأوى ، فان كانت منطقة التحشد تقع الى الخلف فسيقع هؤلاء بيد العدو بسهولة . وفي **المكان الثاني** من الاهمية ، على القوة منع العدو من مهاجمة قطعاتها المنتشرة على شكل كتائب وأفواج كلاً على انفراد لا سيما في الحالات التي تنجح فيها خيالة العدو بتخطي مقدماتنا او تشتيتها وتمزيقها ، فان وحدة متجمعة (محصنة) قادرة على ايقاف العدو ، محققة بذلك قدراً من الوقت الضروري حتى لو انهارت واضطرت هي نفسها للأستسلام في النهاية .

اما عند النظر في موضع المقر ، فيفترض في ذلك وعلى الدوام تحقيق القدر الاكبر من الحماية والامن .

بعد موازنة كل تلك العوامل ، نعتقد ان الترتيب الامثل لمنطقة المأوى أن تكون على شكل مستطيل وقريب من المربع او الدائرة ، وان تكون نقطة التحشد في المركز، وكلما تزايد عدد القطعات ينبغي وضع المقرات في الخطوط الامامية .

وبقدر تعلق الامر بحماية الاجنحة ، فالنقطة التي أشرنا اليها عند مناقشة الترتيب العام للجيش تظل مناسبة . وهكذا فان أي فيلق يخصص على أحد جانبي القسم

الاكبر لا بد أن تكون له منطقة تحشد بنفس مستوى القسم الاكبر ، حتى إن تقرر خوض معركة مشتركة .

اما بالنسبة للقضايا الاخرى ، فقد يتذكر القارىء أن نقطة التحشد تُقرّر عادة على ضوء العوارض الارضية الملائمة ، كما تقرر القرى والمدن مناطق الايواء ، وسيكون من السهل علينا أن نرى أن من النادر أن تتحكم القواعد الهندسية في امور من هذا النوع . الا إن النقطة تستحق قدراً من التمعن ، لانها وكالقوانين العامة الاخرى، تؤثر والى حد ما على المسار العام للحالات .

هناك بعض العوامل الاخرى التي لا بد من ذكرها على ضوء الاماكن الملائمة للأيواء . احدها هو اختيار عارضة طبيعية ليوضع المأوى خلفها ان امكن ، ولاخراج عدد من المفارز الصغيرة لمراقبة ورصد العدو . قد يوضع المأوى خلف حصن او قلعة، فان لم تتيسر للعدو القدرة على تقدير قوة الحامية ، فسيتعامل معها بالكثير من الحذر والتقدير .

سنعالج موضوع اقامة المعسكرات الشتوية في فصل خاص .

تختلف المأوي التي تحتلها القطعات المتنقلة ، عن تلك التي تشغلها القطعات الثابتة في ان الاولى ينبغي ان لا تكون بعيدة جداً عن الطريق ، بل تنتشر على طواله ، لتجنب اي خروج او حيدان عن الطريق . شرط ان لا يبعد المأوى عن الطريق مسيرة نهار واحد ، ولن يؤدي تجاوز ذلك الا الى عرقلة تحشد القطعات .

اما عند «وجود العدو» كي نستخدم المصطلح الفني – اي في جميع الحالات التي لا توجد فيها مسافات كبيرة عن قوات المقدمة للطرفين – فقوة وموضع المقدمات، سوية وقوة المخافر (المراصد) الامامية ، تظل محكومة بحجم مناطق الايواء والوقت المطلوب لحشد تلك القطعات . بينما ومن الناحية الاخرى ، تتوقف قوة وموضع المقدمة والمراصد على العدو والموقف العام ، ويعتمد حجم منطقة الايواء على مقدار الوقت الذي ستوفره المقاومة التي تبديها المقدمة .

نوقش نوع المقاومة التي تبديها الفيالق المتقدمة (الامامية) في الفصل الثالث من هذا الكتاب[1] . وتتقلص مدة المقاومة بقدر الوقت المطلوب لانذار وجلب القطعات، وما يتبقى من الوقت يعتبر هو الوقت المتيسر للتحشد .

---

(١) الفصل الثامن هو المقصود – المشرف .

ينبغي علينا مرة اخرى تأكيد افكارنا وصياغتها باستنتاج ستثبت صلاحيته في معظم الظروف الاعتيادية . فاذا انتشرت المأوي ضمن دائرة نصف قطرها يعادل المسافة الى مواضع المقدمة ، مع وضع نقطة التجمع في منتصف منطقة الايواء تقريباً فالوقت الذي يوفره تعويق تقدم العدو ، هو الوقت الذي يتيسر لانذار وجلب القطعات. وهذا الوقت كاف في معظم الحالات حتى لو لم يتم اخبار وتحريك القطعات باشارات ضوئية أو اطلاقات أو غير ذلك من العلامات المتفق عليها ، بل بارسال السعاة فقط ، وهي الطريقة الوحيدة التي يعول عليها .

وهكذا وبوجود مقدمة على مسافة (١٥) ميلاً ، يمكن ان تغطي منطقة الايواء ما مساحته (٧٠٠) ميلاً مربعاً ، وتحتوي هذه حتى في المناطق ذات الكثافة السكانية المتوسطة ، على ما لا يقل عن (١٠) الاف دار فلو استثنينا قوات المقدمة ، فسيجد جيش من (٥٠) الف رجل كفايته في هذه المساحة وبمعدل أربعة جنود للبيت الواحد ، وحتى بالنسبة لجيش بضعف هذا العدد فلن يشكل الامر زحاماً أو إزعاجاً بوضع كل تسعة رجال في الدار الواحدة ، ولكن لو تعذر دفع المقدمة لاكثر من خمسة أميال الى الامام ، فلن تزيد مساحة منطقة الايواء عن (٨٠) ميلاً مربعاً . وحتى لو لم يتقلص الوقت المكتسب بنفس النسبة لمسافة (بعد) المقدمة ، وان مسافة خمسة اميال تعنى فترة ستة ساعات ، فلا بد عندها من اتخاذ تدابير وتحوطات اضافية ما دام العدو على هذا القرب . ولن يجد جيش من (٥٠) الف رجل ما يكفي من البيوت للأيواء في منطقة بهذا الحجم الا اذا كانت مأهولة بكثافة .

ستزيد هذه النقاط والاعتبارات من اهمية المدن الكبيرة أو التي بحجم مناسب على الاقل كي يمكن حشد ما يقرب من (١٠-٢٠) الف رجل فيها .

قد يوضع هذا المقترح لاثبات امكانية ترك القطعات في اماكن ايوائها ان لم يكن العدو قريباً ، مع وجود مقدمة بحجم كبير ، حتى في مواجهة قوات معادية محتشدة ، كما فعل فردريك الكبير في اوائل عام ١٧٦٢ في (بريسلاو)، ونابليون في (فيتبسك) عام ١٨١٢ . ففي مواجهة جيش العدو المتحشد ، ستؤكد المسافة الدقيقة والترتيبات المناسبة أمن القطعات خلال تجمعها ، ومع ذلك لا بد للمرء أن يتذكر أن الجيش المنشغل بالتجمع السريع ، ليس بوضع يسمح له للقيام بأي شيء أخر خلال ذلك الوقت . وبكلمة اخرى ليس بوسعه الاستفادة وعلى الفور من أية فرص سانحة ، وسيجرده ذلك من جزء كبير من فعاليته . وعليه فلن يستطيع جيش بكامله الأقامة في اماكن

الايواء الا في الظروف الثلاث التالية :

١ . إن فعل العدو الشيء نفسه .

٢ . إن جعلت ظروف القطعات ، الايواء أمراً ضرورياً .

٣ . إن كانت مهمة العدو الاتيه هي الدفاع عن موضع قوي ، لذا ليس هناك من الامور المهمة ما يعلو أو يسبق عملية تحشيد القطعات في تلك النقطة .

تقدم لنا حملة (١٨١٥) امثله بارزة على تحشيد جيش وزع للأقامة في اماكن ايواء. كان الجنرال زايتين يقود مقدمة الجنرال بلوخر المؤلفه من (٣٠) الف رجل قرب بلدة (شارليروي) التي لا تبعد سوى عشرة اميال عن (سومبريف) حيث كان سيتحشد الجيش . كانت ابعد منطقه ايواء للقسم الاكبر من الجيش على مسافة (٤٠) ميلاً من (سومبريف) ، وخلف منطقة (سيناي Ciney) من جانب والى (لياجى) من الجانب الاخر . ومع ان القطعات التي في منطقة سيناي قد وصلت (ليني) قبيل عدة ساعات من بدء المعركة هناك ، وكان بوسع القوات القريبة من (لياجى) – وهي فيلق (بيلو) أن تصل بدورها بنفس الوقت لولا الصدفة والمواصلات السيئة (الاوامر والاتصالات) .

ما من شك في اغفال وتجاهل امن القوات البروسية ، الا ان على المرء القول في تفسير ذلك بان الاستعدادات قد بدأت والجيش الفرنسي ما زال بعد موزعاً على اماكن الايواء . ويكمن الخطأ وببساطة في عدم تغيير الاستعدادات والترتيبات حال معرفتهم ببدء تحرك الجيش الفرنسي وبكون نابليون بونابرت بنفسه معهم .

مما يظل جديراً بالملاحظة ان الجيش البروسي كان يمكن تحشيده في سومبريف قبل هجوم العدو . ولقد استلم بلوخر انباءً عن تقدم العدو وبدأ بدورة عملية تحشيد قطعاته ليلة الرابع عشر من حزيران – اي قبل (١٢) ساعة من بدء الجنرال زايتين هجومه فعلاً . لكن ومع الساعة ٠٩٠٠ من صباح اليوم التالي فتحت النيران على قوات زايتين ، ولم يستلم الجنرال البروسي (ثيلمان) اوامره ، الا في تلك الساعة وهو في سيناي بالحركة نحو نامور . لذلك كان عليه تحشيد قواته في فرق، والتنقل بعدها مسافة (٣٢) ميلاً الى سومبريف ، الامر الذي استغرق (٢٤) ساعة . وكان بوسع الجنرال (بيلو) أن يصل هناك بنفس الوقت تقريباً لو درس الاوامر ونفذها بدقه .

لم يشن نابليون هجومه الا في الساعة ١٤٠٠ من يوم ٦/١٦ في (ليني) . وأحد اسباب تأخير الهجوم، هو ادراكه لوجود الجنرال ويللنكتون والجنرال بلوخر كل منهما

على احد جانبيه. وبعبارة أخرى يعزى تردده الى قلة قطعاته قياساً لما لديهما . ويُظهر لنا هذا الموقف ان اجرأ وافضل القادة حتى، قد يضيع ويتلكأ في تلمس طريقه بدقة، وكما لا بد سيحدث في كل المواقف الصعبة والمعقدة .

من الواضح ان لبعض الاعتبارات التي اوردناها مقدماً هنا ، طبيعة تعبوية اكثر منها استراتيجية ، الا اننا فكرنا بان من الافضل التوغل في الميدان التعبوي بدلاً من تحمل مخاطر واعباء ألا نكون واضحين .

الفصل الرابع عشر
الادامة والتموين

تحتل معضلة التموين اهمية كبيرة جداً في الحرب الحديثة وذلك بسببين :

الاول ، هو ان الجيوش اصبحت عموماً اكبر عما كانت عليه في العصور الوسطى ، او حتى في **العصور القديمة** . وما قارب منها الجيوش الحديثة في الحجم أو حتى فاقه في ذلك فاما في حالات نادرة أو لفترات قصيرة . اما في الحروب الاكثر حداثه ، اي منذ حروب لويس الرابع عشر فقد كانت الجيوش دائماً كبيرة الحجم.

الثاني والذي ما زال اكثر اهمية ، وحتى اكثر تميزاً عن ايامنا هذه ، فالحرب تنحو لان تكون اكثر انشداداً وترابطاً وكانها شيء واحد ، وأن القوات المقاتلة في حالة استعداد دائم للعمل .

تكونت الحروب المبكرة من عمليات منفردة لا ترابط بينها وبفاصلات تبدو فيها الحرب ساكنة أو خامدة بالمعنى الحرفي للكلمة ، وتقتصر الانشطة والفعاليات على الجانب السياسي ، أو بخلاف ذلك تظل الاعمال العدائية منفصلة بحيث يواصل كل طرف فيها تلبية احتياجاته دون إي مراعاة أو اعتبار لخصمه .

اما في الحروب الاكثر حداثة ، ونعني بها الحروب التي تلت صلح ويستفاليا(x) ، فقد اتسمت ومن خلال جهود الحكومات بانتظام اكثر وبترابط أوثق . لقد اصبح

(x) معاهدتي ويستفاليا (٢٤/١٠/١٦٤٨) وقد وقعتا لانهاء حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ – ٤٨) والتي بدأت كحرب دينية بسبب الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت الا ان العامل السياسي فرض نفسه وبشكل متزايد على تلك الحرب إذ حاول الهابسبورج السيطرة على اكبر ما يمكن من أوربا فتصدت لها العوائل الاخرى – البوربون بالذات في فرنسا – وقد إنضمت النمسا (الامبراطورية الرومانية المقدسة) ومعظم الامراء الالمان الكاثوليك واسبانيا أحياناً الى جانب الهابسبورج اما الجانب المقابل فكان من فرنسا والبروتستانت الالمان والسويد والدانمارك إلا أن الاعداء كانوا يتبادلون المواقع وفقاً للمصالح سيما الامراء الالمان وقد ضمت حرب الـ (٣٠) سنة في داخلها اربعة حروب هي :

١ . حرب بوهيميا (١٦١٨ – ٢٣) اخمد الكاثوليك فيها ثورة البروتستانت في بوهيميا واحتلت اسبانيا جزءً من بافاريا.

٢ . حرب الدانمارك (١٦٢٤ – ٢٩) إندحرت الدانمارك امام الهابسبورج وانتهت بمعاهدة «لوبيك» في ١٦٢٩ =

لمتطلبات العمليات سيطرة اكثر حتى فيما يخص الادامة والتموين اللذان إستلزما إتخاذ التدابير الدقيقة والمناسبة لتأمينهما . ويعرف الجميع أن فترات طويلة من الهدوء سادت القرنين السابع عشر والثامن عشر حينما كان القتال يتوقف – ونعني بذلك البقاء في المعسكرات الشتوية المنتظمة – رغم أن الحالين كانا يخضعان للغايات العملياتية لكل منهما . ولم تكن معضلة التموين سبباً لهذه الفاصلات ، بل سوء الطقس ، لذلك كانت تنتهي عادة مع اقتراب الصيف ، والقاعدة ان تستمر الفعاليات العسكرية طالما سمحت الظروف الجوية .

كان التحول من ظرف أو طريقة الى أخرى يتم ودائماً بصورة تدريجية، ولم تكن هذه الحالة استثناء عن ذلك . ففي الحروب ضد لويس الرابع عشر كان التحالف يبدأ عادة بارسال جيوشه الى المعسكرات الشتوية في مناطق بعيدة وحيث من الاسهل اعاشتها . وتوقف ذلك مع الحروب السليزية .

لم يصبح تنسيق وتنظيم العمليات العسكرية ممكنا فعلاً حتى استبدلت الدول إسلوب التجنيد الاقطاعي بنظام المرتزقة (Mercenary) . فقد تحول الالتزام الاقطاعي الى مرتبات ، اما الخدمة (العسكرية) التي كانت تعبيراً عن الولاء (للسيد الاقطاعي) فاما انها زالت نهائياً وحل محلها نظام التجنيد ، او انها اقتصرت على الطبقات الدنيا (المسحوقة) . فقد كان النبلاء يرون في التجنيد نوعاً من الجزية الخاصة ، او الضريبة البشرية ، كما هو الحال حتى الان في روسيا وهنغاريا . وعلى اية حال وكما أوضحنا

---

٣. حرب السويد (١٦٣٠–٣٥) انتصرت السويد فيها على الهابسبورج في معركة برينتفورد ثم اعاد الهابسبورج الكرة وانتصروا في معركة جرت عام ١٦٣٤ وهي (نورد لينجين) وانتهت الحرب بمعاهدة براغ (١٦٣٥) .

٤ . الحرب الفرنسية (١٦٣٥–٤٨) وانتصرت فيها فرنسا بقيادة ريشيليو على الهابسبورج في معركتي (روكور) عام ١٦٤٣ ، و (لينز) عام ١٦٤٨ . لقد حطمت الحرب المانيا اذ دارت معظم المعارك على اراضيها كما تعد حرب الـ (٣٠) سنة اكثر الحروب دماراً في اوربا منذ الغزو المغولي . لقد انتهت حرب الثلاثين سنة بمعاهدتي (مونستر) و (اوسنابروك) بين فرنسا والسويد واسبانيا والدنمارك حصلت فرنسا بموجبها على الالزاس ومعظم اللورين ، والسويد على جزء كبير من سواحل البلطيق واجزاء من (بوميرانيا) كما نالت سويسرا وهولندا استقلالهما وجرت تعديلات على الولايات الالمانية وحظيت بالاعتراف بها كما شمل التسامح الديني أتباع مذهب كالفن . وأصبحت فرنسا دولة مهيمنه في اوربا للمزيد راجع (موسوعة التاريخ العسكري بالانكليزية) ص ٥٣٣ ، ٥٤٤ و Longman's English Larousse P. 1202. P1309 .

المترجم .

في اكثر من مكان فقد اصبحت الجيوش ادوات واجهزة تخضع للحكومة ، وتتحمل خزينة الدولة والموارد العامة نفقاته وتكاليفه .

لقد ادت نفس الظروف التي غيرت طرق التجنيد والتبديل المنتظم للقوات المقاتلة ، ادت الى تغيير طرق ووسائل الادامة والتموين . لذا وبعد أن أعفيت الولايات (الاقطاعية) من تجنيد فلاحيها وفق الاسلوب الاول ، وحولت مسؤوليتها الى مساهمة مالية (نقدية) لم يعد بالامكان تحميل الولايات نفقات الادامة والتموين ولو بطريقة سرية وغير مباشرة وأصبحت الحكومة وخزينة الدولة تتحملان أعباء وتكاليف القوات المقاتلة . كما انه ومن الناحية الاخرى لم يعد ممكنا ولا مقبولاً إستمرار الجيش بالعيش على مصادرة غلال الارض طالما أنه يقيم على اراضي البلاد نفسها وفي معسكرات دائمية . واصبحت الحكومة تعتبر الجيش من مسؤوليتها وحدها . وبهذه الطريقة اصبحت الادامة تشكل مصاعب متزايدة لسببين ، الاول أن الحكومة أخذت على عاتقها مسؤولية ذلك والثاني هو الحاجة لبقاء القوات المقاتلة في الميدان على الدوام .

لم يؤد ذلك الى خلق طبقة أو فئة عسكرية مستقلة وحسب بل وكذلك الى خلق منظومة تموين مستقلة ، وتوسيعها وتطويرها الى اقصى حد ممكن .

وبات من الضروري تكديس وخزن مواد الاعاشة ، اما بشرائها أو من مخازن الغلال في الولايات البعيدة نوعاً ، وتخزن بعدها في مستودعات خاصة ، وكان يتوجب سحب الاحتياج من هذه المستودعات وايصالها الى القطعات بوسائل النقل العسكرية ، ثم يجري طحنها واعدادها بمطابخ وافران الوحدات . وتؤخذ ثانية من ثم لتوزع وبنقلية الوحدات هذه المرة . لقد شرحنا عمل المنظومة بالتفصيل ليس فقط للتطرق الى بعض جوانب وسمات الحروب التي تستخدم فيها طرق كهذه بل وكذلك لتجنب أي استخدام سيء أو ناقص لها . وسنعود الى التطرق لبعض جوانبها من أونة لأخرى .

وهكذا تنحوا المؤسسات العسكرية على هذه الصورة لتغدو اكثر واكثر استقلالاً عن البلد والشعب .

غدت الحروب وتبعاً لذلك أكثر إنتظاماً ، وأفضل تنظيماً ، وأكثر انسجاماً مع هدف أو غاية الحرب – أي هدفها السياسي . ومن الناحية الاخرى أصبحت التحركات محدودة اكثر ، واشد كبحاً وانضباطاً ، وأصبحت الحرب تشن بقوة أقل كثيراً من السابق . لانها باتت الان مقيدة بالمستودعات ، ومحددة بمدى وفاعلية وسائل

النقل ، وما يرافق ذلك من تقليص لا بد منه لحصة الارزاق للحد الادنى . وغالباً ما أقتصر على كمية ضئيلة من الخبز ، بحيث بات الجنود يترنحون كالاشباح ، دون أي أمل باحوال افضل أو حصول أية تحسينات مريحة لانقاذهم من حالة الحرمان .

كل من يحاول الادعاء بان هذا الغذاء البائس لا يؤثر على حياة واداء الجيش مستشهداً بانجازات فردريك الكبير بجيش سيء وفقير التغذية ، فلم يطرح امامنا رأياً نزيهاً أو عقلانياً في الموضوع . إن القدرة على تحمل الحرمان هي أحدى أروع ميزات الجنود ، والتي بدونها لا يمكن للجيش إمتلاك أو التشبع بالروح القتالية . الا ان الحرمان يجب أن يكون وقتياً ولفترات محدودة وبسبب أو بما تفرضه الظروف القاهرة وليس بسبب سوء المنظومة او الادارة المسؤولة أو بسبب حسابات عشوائية أعدت على اساس الحد الادنى من الغذاء الكافي لابقاء الانسان حياً ، فمثل هذه الطريقة لن تؤدي الا الى اضعاف القدرات المادية والمعنوية لجميع الرجال . ولا يمكننا اعتبار انجازات فردريك الكبير كمقياس ، وذلك لامرين **الاول** ان اعداءه استخدموا نفس الأساليب والثاني ان ليس بوسع أحد ما أن يخبرنا عما كان بوسع فردريك الكبير تحقيقه لو انه احسن تغذية قطعاته كما كان يفعل نابليون كلما سنحت له الظروف ؟

لم تمتد هذه المنظومة السيئة للتموين لتشمل أعلاف الخيول ، التي وبسبب ضخامة حجمها لم يكن من السهل الحصول عليها . كما تعادل حصة الحصان الواحد ما يزن عشرة اضعاف حصة الرجل ، كما ان نسبة الخيول الى الرجال في القطعات ليست (١ الى ١٠) بل (١:٤) او (١:٣) حتى اليوم. اما في الماضي فكانت (٣، أو ، ١:٢) وهكذا نرى أن زنة اعلاف الخيول تعادل (٣، او ، ٤ ،) او خمسة أضعاف طعام الرجال . لذلك كانت الطريقة الابسط التي وجدت لتأمين حاجة الجيش هي ، حملّة (مجموعة جمع) العلف. الا ان هذه الطريقة فرضت بدورها تحديدات رئيسية على الحرب. أولها على الاطلاق أن أصبح من المهم للغاية جداً خوض القتال في ارض العدو، والثاني هو استحالة البقاء في اية منطقة لفترة طويلة . الا انه ومع الحروب السليزية[1] لم تعد طريقة حملات جمع الاعلاف شائعة كثيراً ؛ فقد وجدوا انهم

---

(١) الحروب السليزية هي ثلاث حروب ، الاولى (١٧٤٠ - ٤٢) والثانية (١٧٤٤-٤٥) والثالثة وهي حرب السنوات السبع (١٧٥٦-٦٣) التي خاضتها النمسا وفرنسا وروسيا والسويد وساكسوني ضد بروسيا . اما الاولى والثانية فكانت بين بروسيا والنمسا فقط (المترجم)

موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٦٣٣ - ٦٤٤ - ٦٦٧. المترجم

اصبحوا يلحقون دماراً كبيراً ويفرضون الكثير من الاعباء والضغوط على المنطقة المعينة اكثر من إيجاد وتطوير منظومة قادرة على تلبية احتياجات الجيش من الضروريات المحلية وتوزيعها.

عندما أنشأت الثورة الفرنسية جيشا وطنياً وزجت به فجأة في مسرح الحرب ، لم تعد الوسائل الحكومية عندها كافية . كما ان المنظومة العسكرية ككل والتي أنشأت مستندة الى تلك الوسائل المحدودة ، ووجدت بالمقابل امنها فيها ، قد تحطمت هي الاخرى (اي المنظومة) بما فيها القاطع الذي يهمنا هنا ، وهي منظومة التموين . لم يهتم قادة الثورة الفرنسية الا قليلاً بالمستودعات واقل من ذلك الاهتمام جدياً في استنباط اليه معقدة تكفل سير وعمل كافة أقسام منظومة النقل بصورة منتظمة كالساعة . بل اكتفوا بارسال جنودهم وسط الميدان كما دفعوا جنرالاتهم الى المعركة – اما التغذية والتقويات والمحفزات لجيوش الثورة فتركتها لهم لتأمينها أو سرقتها أو نهب كلما يحتاجونه .

شنت الحروب النابوليونية ومن قبل كافة الاطراف المتحاربة بطريقة وسط بين تلك الطريقتين المتطرفتين ، فقد اختارت تلك الدول الطرق الاكثر ملائمة لها من بين الطرق المتيسرة ، ولعل ذلك سيستمر على الارجح في المستقبل .

تقع الطريقة الحديثة في اعاشة القطعات – باستخدام كلما يتيسر محلياً ، كائناً من كان صاحبه – في واحدة من الانواع الاربعة التالية :

١ . قيام العوائل المحلية بتوفير مواد التموين .

٢ . تولي القطعات توفير الضروريات بمصادرتها .

٣ . مصادرة عامة للموارد .

٤ . التموين من المستودعات .

وكانت العادة هي باستخدام الانواع الاربعة اعلاه في وقت واحد ، مع التعويل على احداها بشكل اساسي ، كما أمكن احيانا استخدام واحداً منها فقط .

١ . **العيش على حساب العوائل او المجتمع المحلي** ، وكلاهما واحد . اذ يتيسر في العادة ولدى اي مجموعة او سكان قرية او مدينة وعلى الدوام ما يكفي من الاغذية لعدة ايام ، حتى لو كان السكان من المستهلكين فقط ، وكما عليه الحال في المدن الكبرى . وهكذا يمكن أن نفهم ونتقبل أن بوسع اكثر المدن إزدحاماً توفير ما يكفي من

الغذاء والاقامة ليوم واحد لعدد من الجنود مساوٍ لعدد السكان دون الحاجة الى اية اجراءات أو استعدادات خاصة ، ويمكن فعل ذلك لأيام اكثر لو كان عدد الجنود أقل من ذلك بكثير . يمكن تطبيق ذلك في المدن الكبرى بطريقة جيدة ويسيرة للغاية ، الامر الذي يعني اعاشة واسكان عدد كبير من القطعات في مكان واحد. الا ان ذلك ليس بنفس السهولة في المدن الاصغر ، واصعب من ذلك في القرى . فان معدل (٣–٤) الاف نسمه لكل (٢٥) ميل مربع تعتبر كثافة جيدة وبوسعها اعاشة ما يقرب من (٣–٤) الاف جندي تقريباً . اما اذا تطلب الامر اعاشة اعداد اكبر فلا بد عندها من توزيعهم على مساحة اكبر وبشكل ستبرز معه متطلبات أخرى سيكون من الصعب توفيرها لكن ومن الناحية الاخرى فان المواد المطلوبة لاعاشة القطعات في الحرب هي مما يكثر في الريف ، بل وحتى في المدن الصغيرة ، فخزين الفلاح من الخبز يكفي لاعاشة اسرته لاسبوع أو إثنين . اما اللحم فيمكن الحصول عليه يومياً ، كما يتوفر الكثير من الخضروات بما يكفي حتى موعد جني المحصول الجديد . والخلاصة فإن ايواء الجنود في البيوت التي لم تستخدم لنفس الغرض قريباً يمكن ان يوفر ما يكفي من الغذاء لثلاثة او اربعة أضعاف السكان ولعدة ايام وبطريقة سهلة وجيدة . ووفقاً لذلك فحيثما تكون الكثافة السكانية من (٢–٣) الاف نسمة لكل (٢٥) ميلاً مربعاً (على ان لا تكون المدن فيها قد قدمت إعانة سابقة) فان قوة تعدادها (٣٠) الف رجل ستتوزع على مساحة (١٠٠) ميل مربع تقريباً – وان تكون بعرض (١٠) اميال . كما أن جيشاً تعداده (٩٠) الفاً (ولنقل (٧٥) الف مقاتل) يسير بثلاثة ارتال متوازية ، سيحتاج بذلك جبهة بعرض (٣٠) ميلاً فقط ، شرط توفر ثلاثة طرق ضمن تلك الجهة .

لو جرى احتلال المنطقة من قبل عدة أرتال متتالية ، فلا بد للسلطات المحلية من اتخاذ بعض الترتيبات الخاصة ، على ان لا يشكل ذلك معضلة لاحتياجات يوم أو يومين في آن واحد . وعليه فلو ان الـ (٩٠) الفاً جاء بعدهم مثلهم في اليوم التالي ، فلن تضطر القوة الثانية الى معاناة اي حرمان أو جوع ، ونعتقد أن (١٥٠) الف مقاتل ليست القوة التي يمكن الاستهانة بها .

اما قضية توفير الاعلاف لخيول القطعات فهي حتى اسهل من ذلك ، طالما ، ليس العلف في حاجة الى الطحن او الرزم . فالمعتاد في الريف الاحتفاظ بما يكفي من العلف حتى موعد الحصاد التالي ، لذلك فحتى لو لم يتبقى في مرابط العلف الا القليل فسوف لن يشكل ذلك نقصاً كبيراً . كما ينبغي بطبيعة الحال مصادرة العلف من الملكية

المشتركة (Community) وليس بمصادرة خزين العوائل . ولا حاجة الى القول ان على مخطط ومنظم التنقل ان يضع نصب عينيه اعتبارات معينة تتعلق بحالة المنطقة ، كتجنب ايواء الخيالة في المناطق الصناعية او اية مناطق تقل فيها الاعلاف .

خلاصة هذا الاستعراض الموجز هي ان بوسع قوة تعداد مقاتليها بحدود (١٥٠) الفاً، العيش ليوم او اثنين في منطقة تتراوح كثافتها السكانية بمعدلات متوسطة (ما بين (٢-٣) الاف نسمه لكل (٢٥) ميلاً مربعاً) سوية مع سكانها مع المحافظة عليها كوحدة مقاتلة دون تشتت ، وبكلمة اخرى ، نقول من السهل اعاشة قوة كهذه دون مستودعات او اية ترتيبات اخرى خلال تنقل متواصل ودون توقف .

استندت العمليات الفرنسية خلال الحروب الثورية تحت قيادة نابليون على هذه الاستنتاجات . فقد تنقل الفرنسيون من نهر (اديج) الى (الدانوب الاسفل) ، ومن (الراين) وحتى نهر (الفستولا) دون اية منظومات او وسائط تموين رئيسية عدى الاعتماد على غلال وارزاق الارض ، كما لم يعانوا من اي عوز . ونظراً لاعتماد عملياتهم على تفوق مادي ومعنوي ، ونجاحاتهم المتواصلة التي لا شك حولها ، فانها لم تتعرض أو تعاني من اية تأخيرات بسبب التردد أو الحذر المبالغ فيه ، حتى غدى مسارهم المكلل بالانتصارات ولمعظم مراحل الطريق وكانه تنقل متواصل ودون وقفات.

اما في ظروف أقل تلائما من هذه - كقلة السكان ، او كثرة العاملين في التجارة والحرف قياساً إلى نسبة الفلاحين ، او في مناطق فقيرة التربة ، أو المناطق التي سبق وأن تنقلت ارتال عديدة من خلالها - فسينخفض كذلك ما تناله القطعات من مواد إعاشة بطبيعة الحال . لكن على المرء ان يتذكر ان ظروفاً كهذه ستفرض زيادة في اتساع الجبهة من (١٠ الى ١٥) ميلاً ، الامر الذي سيضاعف مساحة منطقة الايواء من (١٠٠ الى ٢٠٠) ميلاً مربعاً . ومع ذلك فبوسع القطعات أن تقاتل كوحدات متماسكة حتى ضمن مساحة كهذه . لذا وحتى في ظروف غير ملائمة كهذه ، يمكن لطريقة الاعاشة هذه السماح للقطعات بالحصول على ما تحتاجه دون توقفات جدية في التنقل.

لكن وحالما تتوقف القطعات لعدة ايام فسيحدث نقص خطير في مواد الاعاشة ما لم تتخذ التدابير الضرورية لملافاة ذلك مقدماً . وهناك نوعان من التدابير التي يتعذر على اي جيش كبير مواصلة العمل دونهما حتى في ايامنا هذه .

الاول هو تزويد القطعات برتل اداري لحمل ما يكفي من الخبز او الطحين - او

العنصر الضروري للأعاشة – لثلاثة او اربعة ايام . بالاضافة الى التعيين (الحصة) الذي يحمله الجندي على ظهره وبما يكفيه (٣-٤) ايام اخرى ، وبهذا يحضى الجندي بما يكفيه من الطعام لسبعة ايام على الاقل .

الثاني ويتضمن هذا التدبير ايجاد هيئة او ادارة لشؤون الميرة على درجة من الكفاءة وقادرة على توفير مواد التموين من مناطق بعيدة كلما توقف الجيش . ويمكن في تلك الحالة التحول من الاعتماد على التموين المحلي الى اي منظومة اخرى .

للتموين المحلي ميزة عظمى في انه الاسرع ولا يحتاج الى الكثير من وسائط النقل ، الا ان ذلك يعني الافتراض مسبقاً أن القطعات ستقيم مع السكان المحليين في الظروف والحالات الاعتيادية .

٢ . **التموين بمصادرة القطعات نفسها لمواد الاعاشة** . يمكن لفوج واحد عموماً ان يعسكر قرب بضعة قرى ، وان تكلف هذه بتأمين الاحتياجات الغذائية . ولا تختلف طريقة الاعاشة هذه عن الطريقة (١) اعلاه . ومع ذلك فقطعات اكبر بكثير قد اعتادت على التعسكر في منطقة واحدة ، ولا بديل في هذه الحاله امام وحدة كبيرة كهذه – لواء او فرقه – عن مصادرة كلما تحتاجه من المناطق المجاورة وتوزيعه على منتسبيها.

بوسع المرء التأكد وبلمحة واحدة من عدم كفاية طريقة كهذه لتوفير الطعام لجيش كبير . وان ما يجمع من خزين الريف المجاور يقل كثيراً عما ستحصل عليه القطعات لو انها اقامت في القرى نفسها ، فلو دخل (٣٠، أو، ٤٠) رجلاً الى حقل فسيأتون على كلما فيه لو أرادوا . اما لو أرسل ضابط ما وفي معيته عدد من الجنود ومعهم أمرٌ بجلب كمية معينة من الاطعمة فلن يتيسر لديه الوقت ولا الوسائل للعثور على كل شيء . كما قد يكون هناك نقصٍ في وسائط النقل ، لذا لن يحصلوا الا على القليل مما جاءوا لاجله ومما هو متيسر فعلاً . واكثر من ذلك فان القطعات المعسكرة تزدحم في مكان واحد تعجز معه المنطقة التي يمكن جمع الطعام منها بسرعة عن توفير ما يكفي من مواد التموين ، ثم ما الذي يمكن توقعه حين يستولي (٣٠) الف رجل على الطعام الموجود ضمن منطقة بطول (٥) أميال أو (١٥-٢٠) ميلاً مربعاً ؟ سيكون من الصعب حتى الحصول على القليل ، نظراً لأن معظم القرى المجاورة قد نالت نصيبها هي الأخرى من القطعات لايوائهم والذين ما ابقوا او لن يتنازلوا عن شيء مما بين ايديهم. اخيراً فهذه الطريقة ليست اقتصادية . فستنال بعض الوحدات اكثر مما يسعها

إستخدامه ، وبالتالي سيذهب الكثير منه هباءً والى غير ذلك .

في الحقيقة ، ستكون طريقة مصادرة مواد التموين ناجحة فقط عندما لا تكون القطعات كثيرة جداً – ولنقل بحدود فرقة من (٨–١٠) الاف رجل . وحتى في هذه الحالة فينبغي اعتبارها كشر لا بد منه فقط .

لكن لا يمكن تجنب هذه الطريقة من قبل كافة الوحدات التي في مواجهة العدو ، كقوات المقدمة ، والمراصد الامامية ، سيما عند تقدم القوات المعقبة . اذ قد تصل القطعات الامامية الى منطقة لم يكن بالامكان اتخاذ اية تدابير مسبقة فيها ، كما قد يكون ما تم جمعه من خزين لاعاشة الجيش بعيداً جداً (الى الخلف) . وينطبق الشيء نفسه على الارتال السريعة التي تعمل مستقلة ، وكذلك في جميع الحالات الاخرى حيث لا يتيسر الوقت ولا الوسائل لأي نوع آخر من انواع الاعاشة وتوفير مواد التموين .

كلما كانت القطعات بوضع أفضل من حيث تمكينها تأمين احتياجاتها بالمصادرة المنتظمة ، وكلما ساعد الوقت والظروف الاخرى على التحول الى هذه الطريقة بسهولة اكثر كلما كانت نتائج ذلك افضل . والمعضلة عادة هي في عدم تيسر الوقت ، ثم تحديد ما تحتاجه القطعات كي تسعى لتوفيره بسرعة اكبر .

٣ . **المصادرة المنتظمة** . لا شك في ان هذه الطريقة هي الابسط والاكفأ في اطعام القطعات . كما كانت الطريقة الاساسية والمعول عليها في كل الحروب الحديثة .

يكمن الاختلاف بين هذه والطريقة السابقة اساساً في تنسيق السلطات المحلية . ولم يعد يجري الاستيلاء على الغذاء حيثما وجد ، بل بات يسلم بطريقة منتظمة ، ثم توزع الاحمال بترتيب معقول ، والسلطات المحلية وحدها القادرة على ذلك .

الوقت هنا شيء اساسي ؛ فكلما تيسر الوقت كلما اتسع مجال التوزيع ، وخف العبء ، وزاد نجاح العملية . يمكن حتى شراء التموين مقابل ثمن ، وستقترب الاعاشة بهذا من الطريقه التالية . ليس اطعام القطعات عن طريق المصادرة معضلة ، ما دامت القطعات محتشدة داخل اراضيها ، وينطبق نفس الشيء وكقاعدة على الجيش المتنقل الى الخلف . ومن الناحية الاخرى ، فان اي تقدم للقطعات في اراضي الغير لن يترك سوى القليل من الوقت لاجراء ترتيبات كهذه – ونادراً ما تكون لاكثر من يوم واحد ، هو الوقت الذي تتقدم فيه قوات المقدمة على القسم الاكبر . وتتولى المقدمة اخبار

السلطات المحلية بالكميات الواجب مصادرتها ، وحصص وكميات وانواع الاغذية، وأين سيتم تسليمها . ونظراً لعدم القدرة على جمع تلك المواد الا من المنطقة نفسها - أي ضمن دائرة لا يزيد نصف قطرها عن بضعة اميال من كل نقطة تسليم - وما يمكن جمعه من تموين بهذه العجالة قد لا يكفي جيشاً كبير الحجم ما لم يحمل هذا الجيش معه ما يكفي لعدة ايام . لذا يغدو من واجب شؤون الميرة العمل على ضوء الكميات التي ستتسلمها . وان لا توزع الارزاق الا على الوحدات التي في حاجة اليها . ويقل النقص مع كل يوم يمر . ومع تزايد اتساع المنطقة التي يتم جمع التموين منها ، تتسع مساحة الارض التي يعول عليها كذلك، ويقاس ذلك بالاميال المربعة . فلو أمكن التعويل على مساحة (١٠٠) ميل مربع في اليوم الاول ، فستغدو (٤٠٠) ميلاً مربعاً في اليوم الثاني و (٩٠٠) ميلاً مربعاً في الثالث ، ويمكن التعبير عن ذلك بطريقة اخرى ، فستكون مساحة المنطقة في اليوم الثاني اكبر مما كانت عليه في اليوم الاول بـ (٣٠٠) ميلاً مربعاً ، وستزيد في اليوم الثالث بـ (٥٠٠) ميلاً مربعاً اخرى .

تلك بطبيعة الحال تقديرات مفترضه للظروف . فقد تظهر عوامل محددة عديدة، لعل اكبرها هو أن المنطقة التي كان الجيش قد تركها على التو لا يمكن أن تسهم بقدر كبير كباقي المناطق . ولا بد ان نتذكر من الناحية الاخرى إمكانية زيادة نصف قطر دائرة جمع التموين حتى لاكثر من عشرة اميال يومياً - وربما (١٥) او (٢٠) ميلاً وحتى لاكثر من ذلك في بعض المناطق .

لضمان تسليم المواد المصادرة أو معظمها على الأقل يزود الاشخاص المكلفين بتنفيذ المهمة بسلطة كافية ويوزعون على شكل مفارز تعمل بأمرة المسؤولين . والخوف من المسؤولية ، او حتى التعرض للعقاب وسوء المعاملة ، ذو فعالية كبيرة - له في ظروف كهذه دور او فعل العبء الجماعي الذي سيشمل جميع السكان .

طالما ان النتيجة هي كل ما نتوخاه ويهمنا هنا ، لذا لا ننوي الدخول في التفاصيل أو تفحص كامل لآلية وعمل شعبة (قوميسارية) الميرة والتموين .

تستنبط هذه النتيجة من رأي مبني على الفطرة السليمة ، وعلى الموقف العام كما تعززه وتؤيده التجارب المستخلصة من الحروب منذ عام ١٧٩٢ ، والنتيجة هي ان بوسع الجيش الكبير الاعتماد بجدية على طريقة المصادرة ، على شرط أن يكون قد استصحب معه ما يكفيه عدة ايام . تسلم المواد المصادرة حال وصول الجيش ؛ وتأتي هذه أولاً من المناطق المجاورة القريبة ، وتتسع الدائرة مع كل يوم يمر ، وتكون العملية قد

نظمت واديرت من قبل سلطات متنفذة وقادرة .

ليس من تحديد على هذه الطريقة سوى الاعياء والاستنزاف التامين، وما يعنيه ذلك من إفقار ودمار للريف. ولو واصل الجيش اقامته في المنطقة لفترة طويلة نوعاً ما فسيتطلب الامر عندها تدخل أعلى السلطات المدنية في انجاز عمل منظومة المصادرة. وستفعل السلطة كلما بوسعها لتوزيع اعباء الحملة بالتساوي ، وتقليص ما يمكن منها عن طريق الشراء . وحتى القوات الأجنبية المتحاربة التي تحتل بلداً ما ولاي فترة من الوقت، فلن تكون بالغة القسوة ودون رحمة والى حد القائها اعباء ومسؤولية تأمين موارد التموين على الارض وحدها . لذلك تميل طريقة المصادرة الى التحول تدريجيا والاقتراب بشكل متزايد من منظومة المستودع وان كان ذلك لا يعني بانها ستنتهي كلية، او ان تأثيرها على التحركات العسكرية سيتعرض لتغييرات ملحوظة . ولا يتعدى الامر عن تعزيز الموارد المحلية والتخفيف عنها باستيراد مواد التموين من مناطق بعيدة، بينما تظل المنطقة نفسها الممون الرئيسي للجيش، ويختلف الامر كثيراً عند العمل وكما كان عليه الحال في حروب القرن الثامن عشر، عندما كان الجيش يحمل معه كلما يحتاج من مواد التموين وان يترك الريف وكقاعدة عامة لحاله دون اعباء.

يكمن الاختلاف الرئيسي في عاملين – استخدام وسائط النقل ، والمخابز المحلية، مقللين بذلك العبء الكبير لعجلات الذيل (الرتل) الاداري، الذي يسبب هو نفسه وفي كثير من الحالات تخريب عمله .

لا يستطيع أي جيش وحتى هذه الايام بطبيعة الحال ، المضي دون عدد من عربات التموين لاستخداماته هو، الا ان الحاجة قليله اطلاقاً . وتستخدم هذه العجلات في الحقيقة لنقل خزين اضافي ليوم واحد، وقيد الاستهلاك لليوم التالي، الا ان ظروفا خاصة، كالظروف التي رافقت حملة نابليون ١٨١٢ في روسيا، قد تفرض حتى استصحاب رتل اداري بالغ الضخامة، بما في ذلك نقل افران ومخابز الميدان، الا ان ذلك يشكل استثناءً الى حد ما. اذ من النادر جداً، وبعد كل شيء لأن ينتقل جيش تعداده (٣٠٠) الف رجل ولمسافة (٦٥٠) ميلاً وعلى طريق واحد فعلاً، وفي اراضٍ وبلادٍ كبولندا وروسيا، وقبيل موسم الحصاد. وحتى في حالات كهذه تعتبر موارد (خزين) الجيش الخاصة كتموين اضافي فقط، لان المصادرة المحلية تعتبر قاعدة التموين.

كانت منظومة المصادرة في الحقيقة الطريقة الاساسية لكل الجيوش الفرنسية منذ الحملة الاولى لحروب الثورة. كما أجبر اعدائهم على تطبيق نفس الطريقة كذلك،

ومن الصعب على المرء تصور التخلي عنها. فما من طريقة اخرى تفي مثلها بالغرض، سواء فيما يتعلق بالقوة والحيوية التي تشن الحرب بهما، وكذلك للسهولة والمرونة التي تتمتع بها الطريقة . اذ نادراً ما تسبب طريقة التموين هذه اية مصاعب في الاسابيع الثلاث او الاربعة الاولى، بغض النظر عن وجهة الجيش، وبعد تلك المدة فان مستودعات التموين الاضافية موجودة، لذلك بوسع المرء القول ان الحرب قد نالت حرية قصوى بتلك الترتيبات. بينما قد تظل هناك بعض الصعوبات من نوع أو آخر قد تؤثر على التخطيط، الا اننا لن نصطدم بعقبة مستحيلة اطلاقاً، ولا يمكن ان تملى السياسة (النهج) لاعتبارات التموين وحدها.

احد الاستثناءات هو التراجع في أو عبر بلد معادٍ. اذ تتزامن هنا مجموعة من السمات التي لها تأثيرات متباينة على اسلوب التموين. فالتنقلات مستمرة دون وقفات محددة، ولا وقت هناك لجمع الاغذية. كما ان الظروف التي أملت التراجع تؤثر عادة وباتجاه معاكس وبقوة، إذ تجعل إبقاء القطعات متماسكة ومتجمعة امراً اساسياً وملحاً، الامر الذي سيلغي عندها اي تشتيت للجنود للايواء وسط العوائل أو أية اطالة أو انتشار كبير للارتال. ليس من السهل جمع ما يكفي من الطعام في المناطق المعادية بمجرد اصدار امر بذلك، والوضع في النهاية وكما يفرضه الموقف بشكل خاص، يشجع السكان على المقاومة وعدم التعاون. ونتيجة لكل هذه العوامل سيجد الطرف المحارب نفسه في حالات كهذه مقيداً بشدة بانشاء خطوط مواصلات وانسحاب.

عندما بدأ نابليون تراجعه عام ١٨١٢، حددته معضلات التموين بالتراجع على نفس طريق تقدمه، ولو تراجع على اي طريق اخر لعجل ذلك نكسته. وكل اللوم والنقد الذي وجه اليه بهذا الخصوص، حتى من قبل الكتاب الفرنسيين لم يتنبه لهذه النقطة.

٤ . **التموين من المستودعات** . ان اردنا وضع تمييز واسع بين هذه الطريقة والطريقة في (٣) اعلاه، فبوسعنا ذلك بمجرد الاشارة الى الطريقة التي استخدمت في السنوات الثلاثين الاخيرة من القرن السابع عشر (١٦٧٠) وحتى نهاية القرن الثامن عشر. فهل ستستخدم تلك الطريقة ثانية ؟

لا بد من الاعتراف بصعوبة تصور اية طريقة اخرى مع هذا النوع من الحروب التي تبقى فيها جيوش كبيرة لسبع، أو عشر، او اثني عشر عاماً وفي مكان واحد – كما كان عليه الحال في الاراضي المنخفضة، وحوض الراين، وشمال ايطاليا، وسليزيا،

وساكسوني. ولا يمكن لاي بلاد أن تظل مورداً لتموين جيوش متحاربة طوال وقت كهذا دون تدمير تام، وعجز تدريجي في توفير كل المستلزمات المطلوبة .

يقودنا ذلك الى التساؤل عما اذا كانت الحرب هي التي تتحكم بمنظومة التموين ام انها محكومة منها. وسنجيب على ذلك بان منظومة التموين ستتحكم بالحرب وبالقدر الذي ستسمح به العوامل الحاكمة الاخرى، وعندما تبدأ تلك العوامل باظهار مقاومة شديدة، فرد فعل ادارة الحرب سينصب على منظومة التموين وبالتالي يتحكم بها.

الحرب التي تستند على المصادرة وعلى موارد التموين المحلية، تتفوق كثيراً على الحروب المعتمدة على المستودعات، وان الطريقتين لم تعودا تبدوان وكانهما شيء أو جهاز واحد. وما من حكومة تجرؤ على المقارنة أو المقابلة بين النوعين الاول والثاني من الحرب ، فان وجد اي وزير حرب محدود القدرة أو جاهل بما يكفي ليسيىء تفهم المتطلبات الرئيسية للموقف، وأمر عند بدء العمليات العسكرية بتموين جيشه باتباع الاسلوب القديم، فان قوة وضغط الظروف ستتفوقان على جنرالاته. وستفرض طريقة التموين بالمصادرة نفسها اليأ. وعلى المرء ان يتذكر ان ما من دولة تمتلك من المال ما يزيد عن حاجتها وبناءً على ذلك فان النفقات الباهظة لانشاء وادامة المستودعات ستقتطع مما كان سينفق على تسليح وحجم الجيش. يضاف الى ذلك ان ما من فرصة من الناحية العملية لترتيبات كهذه ما لم يصل الطرفان الى اتفاق مشترك حول الامر، وبالوسائل الدبلوماسية – واحتمال كهذا لا يزيد عن كونه وهم محض.

وعلى ذلك فستبدأ حروب المستقبل على الارجح بمنظومة مصادرة. اما كيف والى اي مدى ستوجد أيٍ من الحكومات مصادراً ووسائلاً بديلة ومكملة وفقاً لترتيبات اخرى، كأن تستهدف حماية مواطنيها في الريف وغير ذلك فامر متروك لها. ولا يحتمل ان يكون بوسعها فعل الكثير ما دامت ستعطي الاسبقية للحاجات الملحة وكل في حينها، ولن تعتبر منظمة خاصة للتموين شيئاً ملحاً .

من الناحية الاخرى، فعندما لا تكون الحرب حاسمة في نتائجها، او ليست شديدة وكثيفة في تحركاتها، وكما ستفرض ذلك الطبيعية الحقيقية للحرب، تبدأ طريقة المصادرة عندها باستنزاف واتلاف المنطقة بشكل خطير والى الحد الذي يؤدي باحدهما الى عقد الصلح او لاتخاذ التدابير المناسبة والضرورية لتخفيف الاعباء التي اثقلت كاهل الريف وذلك بانشاء منظومة تموين مستقلة. وكانت هذه الطريقة الاخيرة

هي ما لجأ اليه نابليون في اسبانيا، الا ان الطريقة الاولى هي الاكثر استخداماً . ففي معظم الحروب التي ارهقت تكاليفها الاطراف المتحاربة، وتزايد ذلك الى الحد الذي وبدلاً من جعل الحرب اكثر تكلفة، دفعوا للوصول الى السلام. هنا ايضاً تميل التطبيقات والتجارب المعاصرة الى تقصير امد الحرب.

مع ذلك ليس بوسع المرء ان ينكر كليا امكانية المضي بالحرب باتباع الاسلوب القديم في التموين. وقد يلجأ اليها ثانية حالما تفرضها ظروف الطرفين، وحيثما وجدت الظروف الملائمة الاخرى. الا ان ذلك لا يمكن أن يعد طبيعياً، بل الاستثناء الذي تصادف كونه ملائماً، الا انه لا يمكن ان يشتق من المفهوم الحقيقي للحرب. واقل من ذلك في اعتباره الافضل للحرب لانه وببساطة اكثر انسانية. **فالحرب نفسها يمكن ان توصف باي شيء الا بكونها انسانية.**

مهما كانت الطريقة التي سيقع عليها الخيار للتموين، فانها ستعمل بنجاح ويسر في المناطق الغنية والكثيفة السكان لا في المناطق الفقيرة وغير الاهلة بالسكان. تؤثر الكثافة السكانية على حجم الاطعمة في المنطقة بطريقتين. الاولى، وهي حيثما زاد الاستهلاك فسيتطلب المزيد من الاحتياط. والثانية، هي ان كثرة السكان تعني المزيد من الانتاج. ولا بد هنا من استثناء المناطق المكتضة اساساً بالعمال الصناعيين، وخصوصاً في الوديان الجبلية المحاطة بمناطق مجدبة، وليس هذا بالامر المستغرب. ومع ذلك يمكن القول عموماً ان من السهل كثيراً توفير احتياجات الجيش في المناطق المأهولة بكثافة اكثر مما في المناطق القليلة السكان. وبغض النظر عن غنى التربة، فليس بوسع منطقة مساحتها (١٠) الاف ميل مربع يقطنها (٤٠٠) الف نسمة اطعام جيش تعداده (١٠٠) الف رجل بطريقة كافية، كما لو كان سكانها بحدود (٢٠٠) الف نسمة. واكثر من ذلك فالتنقل البري والمائي افضل واكثر في المناطق الكثيفة السكان، لكثرة الوسائط، كما ان الحلقات التجارية المنتظمة بسيطة ويمكن الاعتماد عليها. الخلاصة من السهل اطعام جيش كبير في الفلاندرز وبطرق اسهل واكثر مما في بولندا مثلاً.

ثم ان الحرب، وبما فيها من مجسات كثيرة جداً تميل الى توفير مستلزمات التموين قرب الطرق الرئيسية ومن المدن الاهلة بالسكان، والوديان الخصبة المحيطة بالانهار الكبيرة، والمناطق الساحلية المزدهرة.

توضح النقاط اعلاه التأثير العام لقضية التموين وما تسببه من جهد على شكل واتجاه العمليات، وكذلك حتى في اختيار مسرح الحرب وخطوط المواصلات.

اما المدى الذي سيتسع اليه تأثيرها، وما الوزن الذي ينبغي ان تناله في التحليل النهائي وكم سيتطلب ذلك من جهد لتسهيل او تعقيد معضلة التموين – فتلك امور تعتمد بطبيعة الحال على الكيفية التي ستدار بها الحرب. فان كانت الحرب ستشن وفقاً لروحها الاساسية – وبالعنف الذي بلا حدود والكامن في جوهرها، وبالتعطش واللهفة للمعركة والحسم – عندها فاطعام القطعات ومهما كان سيغدو أمراً ثانوياً. من الناحية الاخرى، وحيثما نشأت حالة توازن، وحيث تتنقل القطعات جيئة وذهاباً لسنوات في نفس المنطقة، فمن المحتمل ان تصبح قضية الاعاشة الموضوع الرئيسي. ويصبح عند ذلك مدير الميرة العام هو القائد الاعلى، وترتكز ادارة الحرب وتشمل تنظيم الارتال الادارية.

هكذا كان الحال فيما لا يحصى من الحملات، التي لم يحدث فيها شيء، والتي اغفلت اهدافها، وضيعت مواردها دون جدوى، وان كان عذرها الرئيسي في ذلك هو مصاعب التموين، لقد اعتاد نابليون ان يردد عبارة «لا تحدثوني عن التموين...[1]».

لقد اثبتت الحملة الروسية ودون اي شك ان لمثل هذا التجاهل ما بعده وانه قد يسبب الكثير . ولا نريد القول بان معضلة التموين كانت السبب الوحيد لفشل الحملة – ومع ذلك فقد يشكل هذا رأي قائم بذاته. الا ان المؤكد هو ان التجاهل، او نقص الاهتمام بالتموين كان مسؤولاً عن هذا الدمار والضياع اللذان لا سابق لهما لجيشه لا خلال تقدمه، ولا في تراجعه الذي كان بمجمله كارثة.

بينما لا يمكن للمرء أن ينكر أن نابليون كان مقامراً مندفعاً، متقبلاً في ذلك شتى المخاطر بتهور، ومع ذلك على المرء التسليم بان نابليون وجنرالات الثورة الفرنسية من قبله قد تخلصوا من بعض الاحكام المتعسفة حول إدامة الجيش في الميدان. واثبتوا ان لا بد من اعتبار ذلك (الادامة والتموين) **أحد ظروف** وحالات الحرب، ولن تكون هدفا لها ابداً .

---

(١). « لا تحدثوني عن التموين . بوسع عشرون الف رجل ان يعيشوا في الصحراء» الا ان ذلك لا يعني عدم تقدير نابليون لقيمة التموين وكيف رأينا اضطراره الانسحاب على نفس طريق تقدمه في حملة روسيا عام ١٨١٢ بسبب ذلك، ثم لا ننسى استراتيجية الارض المحروقة، والاستراتيجية غير المباشرة في تحطيم روح العدو القتالية . يراجع للمزيد الفصل الثامن من كتاب الاستراتيجية وتاريخها في العالم لليدل هارت وترجمة هيثم الايوبي وعلى الاخص في الطريقة التي ادار فيها الجنرال ويلنكتون عملياته ضد الفرنسيين مستهدفاً تقليص موارد التموين والعيش . (المترجم)

وفوق ذلك ، يمكن مقارنة الحرمان في ايام الحرب بالاخطار والاجهاد البدني. ولا حدود نهائية واضحة هناك على ما بوسع القائد أن يطالب قطعاته به. وسيطلب القائد العزوم ما هو اكثر مما يمكن قياسه بمعايير العواطف الرقيقة، وسيعتمد اداء الجيش كذلك على درجة الصلابة التي بلغتها قوة ارادته وقدرته على التحمل نتيجة تعايشه مع اجواء الحرب، والروح القتالية، والثقة ومدى الانقياد وراء القائد، والحماس للدوافع وللقضية. حتى لو كان على المرء وكقاعدة اساسية اعتبار المصاعب والحرمان وعلى الدوام ظروفاً مؤقتة، وانها ستؤدي الى حالة من الوفرة – بل وحتى الى الرفاه احياناً . فهل هناك ما يمكن ان يحركنا اكثر من التفكير بالاف الجنود البالغي التعاسة بملابسهم الرثة، تنوء اكتافهم تحت ثقل رزمة تزن من (٣٠-٤٠) رطلاً ، وهم يسيرون بتثاقل لايام دون انقطاع وسط كل انواع الطقس والطرق وفي مواجهة مخاطر تتهدد صحتهم وحياتهم وحتى دون لقمة طعام او كسرة خبز تقيهم أودهم ؟ وعندما يعرف المرء ان اشياء كهذه دائمة الحدوث في الحرب، فلا بد ان يعجب المرء لعدم إنهيار قلب الجندي وقواه في مواقف كهذه، وعن الطريقة التي تنفخ فيها قوة الفكرة ، وعبر حضورها الدائم وتأثيرها المتواصل، قدرة هائله على التحمل بل وتدفعه الى بذل المزيد من الجهد الذي يفوق كثيراً حدود وقدرات الانسان العاديه.

لذا فان فرض القائد، وسعياً وراء هدف او قضية كبرى، حرمانا شديداً على قطعاته، فعليه ان يضع نصب عينيه، وسواء كان بتأثير التعاطف واخوة السلاح؛ أو بقوة الحكمة أو الحصافة، التعويض او الجائزة التي سينالونها لقاء ذلك فيما بعد.

اخيراً، علينا تفحص الطرق العديدة والمختلفة التي سيؤثر فيها الدفاع والهجوم على معضلات التموين.

بوسع الجيش المدافع استخدام مواد التموين التي امكنه خزنها وتكديسها مقدماً، لذا فلن يواجه المدافع نقصاً في الضروريات. وينطبق ذلك وبشكل خاص على القطعات التي تدافع داخل حدود بلدانها، كما ينطبق كذلك حتى على التي تدافع في ارض العدو. اما المهاجم ومن الناحية الاخرى فانه مجبر على ترك مواده التموينية خلفه، وسيستمر الحال كذلك طالما واصل تقدمه وحتى لاسابيع تالية لتوقفه، اذ سيضطر الى تدبر موارده يوما بيوم. والقاعدة في ظروف كهذه هي المصاعب والنقص.

هناك فترتان تكون هذه المشكلة فيهما على اسوء ما يمكن، الاولى وتقع اثناء التقدم، وقبل التوصل الى الحسم. وسيكون بحوزة المدافع وقتها خزينه بكامله، في الوقت الذي ترك المهاجم كل ما لديه خلفه. كما عليه ابقاء قواته متحشدة لذلك يتعذر عليه توزيعها فوق رقعة شاسعة من الارض. وحتى وسائط نقله لن تواصل سيرها وراءه حال ابتداء التحرك نحو المعركة. وما لم تكن الاستعدادات الضرورية والدقيقة قد اكملت حتى انذاك، فستبدأ معانات القطعات من النقص، ومن جوع حقيقي قبل خوضها المعركة الحاسمة بايام عدة. ولن تكون القطعات بطبيعة الحال بالوضع الصحي المناسب لها وهي تقاد الى المعركة.

اما الازمة الثانية والاكثر شيوعاً، فتقع في اواخر حملة ناجحة عندما تبدأ خطوط المواصلات بالطول. ويتحقق ذلك تماماً عندما تدور الحرب في بلد انهك فقراً، وقليل السكان، وربما معادٍ ايضاً. فكم هو واسع، الاختلاف بين خط امداد (تموين) يمتد من فيلنا (شمال شرق وارشو) الى موسكو، وحيث لا بد للحصول على اية عربة بالقوة والقهر، وخطٍ ما بين (كولون) و (باريس)، وعبر (ليج Liege) ولوفين، وبروكسل ومون وفالنسينيز وكامبري وحيث يسهل التعامل التجاري العادي وحيث تكفي صكوك التبادل (النقدي) لتوفير الغذاء لملايين ! .

غالباً ما يفرغ النصر من مجده وعظمته نتيجة لهذه المعضلة. اذ تذوي القوة وتنتهي ويغدو الانسحاب محتوماً وتبدا علامات الاندحار المدمر بالظهور.

بينما يسهل توفير علوفة الحيوانات في البداية لانها الاقل ندرة، الا انها وكما اشرنا سابقاً الاولى في النضوب عند بدء استنزاف موارد المنطقة. ولضخامة حجم علف الدواب يغدو من الصعب جداً جلبه من مسافات بعيدة ، والحصان ينتهي (ينفق) بسبب الحاجة (الجوع) قبل الرجل بكثير. وذلك احد الاسباب التي تبين أن كثرة الخيالة والمدفعية يشكلان عبئاً حقيقياً، ومصدر ضعف وانهاك فعليان للجيش.

الفصل الخامس عشر
قاعدة العمليات

عند بدء الجيش عملية ما، سواء اكان ذلك بمهاجمة العدو وغزو مسرحه للحرب، او باتخاذ مواضع داخل حدوده هو، يبقى من الضروري امامه الاعتماد على موارده الخاصة في التموين والتعزيزات وسد النقص، لذا يتوجب عليه المحافظة على مواصلاته معها. لانها تشكل قاعدة واساس وجوده واستمراره. ومع تنامي الجيش في الحجم، يتزايد اعتماده على قاعدته كثافة واتساعاً. الا انه ليس ممكنا ولا ضرورياً للجيش المحافظة دائماً على مواصلات مباشرة مع كافة انحاء بلاده. اما الضروري فهو ذلك الجزء الذي يقع خلف الجيش مباشرة، والذي يعتبر محمياً بمواضع الجيش نفسها. لذا تقام هناك مستودعات التموين الضرورية، كما تعد اجراءات وترتيبات التموين والتعزيزات المتواصلة الى الامام. تلك المنطقة اذن هي قاعدة الجيش لجميع عملياته، كما يجب اعتبار الجيش وقاعدته شيئاً واحداً. اما إن حفظت مواد ومعدات التموين في اماكن حصينة ضماناً لسلامتها، عندها سيزداد مفهوم القاعدة قوة؛ ولا يحصل ذلك غالباً، لذا فلن تكون التحصينات شيئاً اساسياً في القاعدة.

يمكن ان تغدو اية رقعة من ارض العدو قاعدة للجيش، او على اية حال جزء منها، فالمنطقة التي تغزوها قوة ما، ستوفر الكثير مما تحتاجه تلك القوة، شريطة ان يسيطر الجيش على المنطقة فعلاً، وان يتأكد من اطاعة ما يصدره من اوامر. الا ان حدود ونطاق هذا التأكيد نادراً ما تمتد الى ما وراء ما يبسطه الجيش من رهبة ونفوذ على السكان المحليين بما يتيسر لديه من طرق محدودة كالمخافر الصغيرة والمفارز الراكبة (الالية). لذلك فبعد ان يدخل الجيش اراضي العدو، فان المنطقة التي يتم جمع مواد التموين منها صغيرة عادة ويندر ان توفر ما يكفي. لذلك يتوجب نقل الكثير من الوطن. ومرة اخرى يجب اعتبار المنطقة القريبة من مؤخرة الجيش جزء رئيسياً من قاعدته.

تقع احتياجات الجيش في نوعين، الاول وهو ما يمكن لاي ارض زراعية توفيره، والثاني ويشمل المواد التي لابد من جلبها من مصادر في الخلف. يقتصر النوع الاول

في معظمه على الاغذية، اما الثاني فيشمل التعزيزات. فالنوع الاول مما يمكن توفيره من الاراضي المحتلة، الى حد ما، اما الثاني – الرجال والمعدات، على سبيل المثال، وكذلك الاعتدة – فلا يمكن توفير القسم الاعظم منها الا من الوطن. قد تكون هناك استثناءات الا انها نادرة وثانوية؛ ويظل التمييز هنا بالغ الاهمية ويؤكد لنا مرة اخرى ان المواصلات مع ارض الوطن شيء اساسي.

تنشأ مخازن الطعام في مدن غير محمية في الاراضي المحتلة وفي ارض الوطن معاً، اذ لا يتيسر ما يكفي من القلاع لحفظ اكداس ضخمة كهذه، سريعة الاستهلاك ومطلوبة في اماكن واوقات مختلفة. يضاف الى ذلك سهولة تعويض الطعام قياساً باحتياجات الجيش الاخرى كالاسلحة والاعتدة والمعدات، التي لا تخزن عادة في اماكن غير محمية وقريباً من ساحات الحرب، بل يفضل جلبها من اماكن بعيدة. اما ان كانت في اراضي العدو فلا بد من وضعها في القلاع. وهذا برهان اضافي على ان اهمية القاعدة انما ترتكز على الحاجة الى المستلزمات الضرورية من الاسلحة والمعدات اكثر مما على الحاجة الى تموين الاغذية.

كلما اتسع انطاق جمع وتخزين المواد التموينية من النوعين اعلاه في مستودعات، وكلما جرى خزن الموارد في مخازن اكبر، كلما زاد الاعتماد على تلك المستودعات وكلما اصبحت بديلاً عن الوطن ككل، وكلما زاد ارتباط فكرة القاعدة وبشكل رئيسي مع المناطق التي توجد فيها تلك المخازن الكبيرة. لكن ومن الناحية الاخرى فمن الخطأ اعتبار تلك الاماكن نفسها كقاعدة .

عندما تكون موارد التموين والتعزيزات بالغة الضخامة – وبكلمة اخرى، حيثما وجدت اراضي شاسعة وصالحة للزراعة، وحيثما كدست الارزاق بكميات كبيرة جداً، وفي مستودعات محمية وقريبة من الجيش، وترتبط معه بطرق جيدة، وعندما تنتشر المستودعات فوق رقعة شاسعة وكثيفة الى الخلف، وحتى على جناح الجيش الى حد ما – عندها سيكون للجيش وجود قوي ومتميز، كما سيتمتع بقدر كبير من حرية العمل والتحرك. وقد جرت محاولات كثيرة لدمج المزايا التي يوفرها موقف كهذا في مفهوم واحد: هو أبعاد وقياسات قاعدة العمليات. كما جرت محاولة للتعبير عن المجموع الكلي لهذا المزايا والعيوب الناجمة عن طبيعة موارد الجيش من الارزاق والتعزيزات بالعلاقة ما بين القاعدة والهدف العملياتي، ومع الزاوية الممتدة من الحافة

القصوى (البعيدة) للقاعدة الى ذلك الهدف (الذي افترضنا كونه نقطة أو مكاناً)[1]. الا ان من الواضح أن هذا العمل الهندسي البارع ليس سوى لعبة، ويستند على سلسلة من الاستعاظات والبدائل على حساب الحقيقة. فقاعدة عمليات الجيش تتألف وكما اوضحنا من ثلاثة مراحل متداخة من موقفه: **الموارد المحلية، ومستودعات** في مناطق متعددة، **والمنطقة** التي يتم سحب التموين منها. وتلك عوامل ثلاث متميزة مكانياً، ولا يمكن جمعها او اختصارها في مكان واحد. كما لا يمكن تمثيلها بخط كالذي يفترض فيه بيان اتساع عرض القاعدة، الا انه وكقاعدة لا اكثر من خط يؤشر عادة إعتباطاً ما بين حصنين، او عاصمتين محليتين، او على طول الحدود الدولية للبلاد. كما لا يمكن تحديد العلاقات الثابتة ما بين هياكل البنية التحتية الثلاث تلك، لان طبيعتها والى حد ما متداخلة فيما بينها في الواقع . فالمعدات التي تجلب في احدى الحالات من على مسافة بعيدة، يمكن ان تنتج محلياً، وفي حالة اخرى قد نضطر فيها لشحن حتى المواد الغذائية من اماكن بعيدة. كما تكون اقرب القلاع احياناً مصدراً رئيسياً، وترسانة للأسلحة، والمركز التجاري الذي يحتوي على الاحتياجات المحتملة في الحرب لكل الدولة، الا انها وفي احيان اخرى قد لا تحتوي على اكثر من اشياء وتحصينات بدائية قد لا تكفي حتى لحماية القلعة نفسها.

والنتيجة، هي ان كلما استنتج من ابعاد واشكال قاعدة العمليات، ومن زاوية العمليات، ومن نظرية الحرب ككل والتي وجدت فيهما، وكما هي عليه من الناحية الهندسية، فقد اهملت كلياً في حالات الحرب الحقيقية، وادت الى بذل الكثير من الجهود الخاطئة في مجال النظرية. لكن وما دامت الحقائق الاساسية صحيحة، الا ان الاستنتاجات منها كانت زائفة، فان امراً كهذا يمكن ان يتكرر وفي مناسبات عديدة.

لذلك فليس بوسع المرء، **كما نرى** أن يفعل أكثر من الاقرار بتأثير القاعدة على العمليات العسكرية – **الحقيقة في أنها قد تكون ضعيفة او قوية، والعوامل هي التي تجعلها كذلك**. على المرء كذلك الاقرار بعدم وجود طريقة لاختصارها بمقترح او اثنين بسيطين يرقيا ليكونا قاعدة مفيدة، وعلى العكس فكل حالة منفصلة تفترض ان نضع نصب اعيننا جميع تلك العوامل التي ذكرناها وفي **آن واحد**.

---

(١) . الاشارة هنا الى اعمال الجنرال هنريش فوف بيلو. راجع بحث بيتر باريت عن «تكوين عن الحرب» ص(٢٢) اعلاه . المشرف Eds

حال اقامة مستودع لتموين وادامة جيش ما في منطقة معينة، ولاسناد عملية عسكرية محددة، عندها وحتى ان كانت تلك المنطقة داخل اراضي الدولة فيمكن اعتبارها لوحدها كقاعدة للجيش. نظراً لان التغييرات تستدعي دائماً بذل الوقت والجهد، فلا يستطيع الجيش تغيير قاعدته بين عشية وضحاها، حتى داخل اراضيه. لذلك فسيكون اتجاه عملياته محدداً بدرجة ما. اما خلال تواصل العمليات داخل اراضي العدو فبوسع المرء اعتبار الحدود (الدولية) بمجملها كقاعدة للجيش. وسيكون هذا الافتراض صالحاً وسليماً بالمعنى العام طالما امكن القيام باية اجراءات وترتيبات خاصة في اي مكان على طول الحدود، ولكن ليس ذلك مطلقاً ولا ساعة، واين نشاء إذ لا يمكن القيام بكل تلك الاستعدادات حيث نريد. فعند تراجع الجيش الروسي امام الفرنسيين في بداية حملة نابليون عام ١٨١٢، كان بوسعه اعتبار كل العمق الروسي قاعدة له، ويتسع المجال لذلك وبشكل اكبر حتى، ما دامت الاراضي الروسية الشاسعة ستوفر للجيش العمق الذي يريده في جميع الاتجاهات. وليس ذلك وهم على الاطلاق، فقد تحقق هذا المفهوم فيما بعد، عند توجه جيوش روسية اخرى نحو الفرنسيين من عدة اتجاهات. ومع ذلك، ففي اي وقت خلال الحملة، لم تكن قاعدة الجيش الروسي بهذه الكثافة. مع انها في الحقيقة كانت اساساً على الطرق التي تنقلت عليها حشود ضخمة للغاية وفي كلا الاتجاهين. لقد منع هذا النوع من التحديد، على سبيل المثال، الجيش الروسي وبعد قتال ثلاثة ايام حول «سمولنسك» من حرية التراجع في مختلف الاتجاهات، بل نحو موسكو فقط. وقد اتجهت النية بالتحرك نحو (كالوجا) بهدف ابعاد الجيش الفرنسي عن العاصمة، وكان هذا التنقل سيحدث تغييراً في الخطة، يستحيل تنفيذه دون استعدادات مبكرة.

لقد اوضحنا ان اعتماد الجيش على قاعدته يتزايد في الكثافة والنطاق مع اي تضخم في حجم الجيش، وان ذلك امر طبيعي للغاية. فالجيش كالشجرة التي تستمد مقومات وجودها من الارض التي نبتت فيها. من السهل نقل نبتة أو غرس صغير الى مكان اخر، ويصعب ذلك كلما طال امتداد ذلك الغرس. وكذلك الحال مع المفرزة (الوحدة) الصغيرة التي لها هي الاخرى جذورها وقنواتها التي تعتاش من خلالها الا أنها لا تشبه الجيش لانها قادرة على مد جذورها بسهولة وسرعة حيث تكون. لذا فعندما نتحدث عن الجهد الذي تمارسه القاعدة على العمليات، فلا بد من اعتبار حجم الجيش هو الاساس الذي يقاس كل عامل اخر وفقاً له.

هناك نقطة اخرى تتأصل في طبيعة الموضوع. فالطعام مهم للغاية لتلبية او سد حاجة انية، اما بالنسبة للوجود العام للجيش عبر فترة من الزمن فان تدفق الرجال والمعدات اكثر اهمية. والنوع الثاني لا يمكن ان يصل الاّ من مصادرٍ معينة، بينما يمكن توفير الطعام بعدد من الطرق – وتلك حقيقة تشكل تفسيراً أخر للتأثير الذي تمارسه القاعدة على العمليات.

بغض النظر عن قوة واتساع هذا التأثير ، على المرء ان لا ينسى إنها من بين الاشياء التي تأخذ وقتاً كي تنتج اثراً حاسماً. وسيظل هناك وعلى الدوام هذا السؤال، ما الذي يتوجب عمله الان؟. لذلك نادراً ما تقدر قيمة اي قاعدة عمليات، في اختيار عملية ما مسبقاً، وان اردنا ذلك فكأننا نطلب بتحقيق المستحيل. ولا بد من البحث والتمعن في الصعوبات الاعتيادية التي ستنجم بهذا الخصوص، بدمجها ومقارنتها مع الوسائل الاخرى المتيسرة. الا أن مصاعب وعراقيل من هذا النوع سرعان ما تختفي امام الانتصارات الحاسمة.

الفصل السادس عشر

خطوط المواصلات

للطرق التي تؤدي من مواضع الجيش ورجوعاً الى المصادر الرئيسية للطعام وسد النقص، والملائمة كذلك لأن يختارها الجيش في حالة التراجع، غايتين. فهي في المرحلة او الحالة الاولى تدعى **خطوط المواصلات** المستخدمة لادامة الجيش، وتعد في الثانية **خطوط الانسحاب**.

اوضحنا في الفصل السابق، ان الجيش وبغض النظر عن المنظومة الحالية لتوفير مواد التموين وبشكل رئيسي من المنطقة التي يتواجد فيها الجيش، ما زال من الواجب اعتباره كوحدة متكاملة مع قاعدته للعمليات. وان خطوط المواصلات هي جزء من هذه الوحدة (Unity) ، لانها توصل الجيش الى قاعدته، ويجب اعتبارها كالشرايين. وتستخدم تلك الطرق باستمرار ولتسليم مختلف الاشياء، كارتال العتاد، والوحدات والمفارز المتنقلة جيئة وذهاباً، والسعاة وحاملي البريد، والى المستشفيات والمستودعات، واحتياط الاعتدة، والعناصر الادارية . وكلها ودون استثناء من الامور المهمة للجيش.

لذلك فلا يجوز قطع تلك الشرايين بشكل دائم، كما يجب ان لا تكون طويلة او يصعب استخدامها. فالطريق الطويل يعني اهداراً للطاقة على الدوام، كما انها تعمل على عرقلة وتعقيد ظروف الجيش.

اما عن دورها الاخر، كخطوط انسحاب، فانها تشكل المؤخرة الاستراتيجية للجيش .

تعتمد قيمة الطرق، ولكلا الغرضين على **طولها، وعددها، واتجاهها** (الاتجاه العام للطرق، وكذلك اتجاهها ومسارها عند مرورها قرب الجيش)، **وحالتها، ووعورة الارض، وحالة ومشاعر السكان المحليين**، واخيراً **التغطية** والحماية التي توفرها القلاع والموانع الطبيعية لها.

لا يمكن اعتبار كافة الطرق والنياسم التي تؤدي من الجيش الى موارده للحياة والقوة، كخطوط مواصلات. وما من شك في امكانية استخدامها لهذا الغرض، كما يمكن اعتبارها كبدائل للمنظومة، الا ان المنظومة تتألف او تقتصر فقط على الطرق التي تؤدي الى أو أنشأت عليها الخدمات العسكرية. وطرق المواصلات الحقيقية هي فقط

تلك التي اقيمت عليها المستودعات والمستشفيات، ونقاط التحويل (Relay Points) والخدمات البريدية، وكذلك (قيادة) أمريات المواقع، والانضباط العسكري (شرطة الميدان) والحاميات. لا بد لنا عند هذه النقطة من ملاحظة الاختلاف البالغ الاهمية والذي غالباً ما لا يلتفت اليه احد، والقائم بين جيش يقيم فوق اراضيه وآخر اقام مواضعه فوق ارض العدو. وستنشيء خطوط المواصلات طبعاً داخل البلاد، الا ان الجيش ليس مضطراً للتقيد بها، فلو تطلب الامر تغييراً ما، فبوسعه تركها واستخدام أي طريق متيسر أخر. لانه في النهاية ما زال في بلاده حيثما كان؛ وبوسعه الاعتماد على مسؤوليه اينما اتجه، كما سيحضى بالعناية ويستقبل بترحاب. وبينما قد لا تكون الطرق الاخرى جيدة كما يجب ، أو لا تلبي إحتياجات الجيش كما يريد، الا انها مع ذلك مما يمكن استخدامه، اما لو تحولت مواضع الجيش، أو إن كان عليه تغيير جبهته، فلن تعتبر تلك الطرق **مستحيلة** الاستخدام. اما في ارض العدو ومن الناحية الاخرى فطرق المواصلات الوحيدة التي بوسع الجيش الاعتماد عليها عادة هي الطرق التي تقدم عليها في المكان الاول، وهنا يمكن ولأسباب صغيرة وحتى تافهة ان تسبب اختلافات كبيرة.

مع تقدم الجيش في اراضي العدو، فانه يمضي في انشاء وحماية خطوط مواصلاته الرئيسية . وسيثير وجودها الكثير من المخاوف والهلع، الا انها قد لا تزيد في كل تدابيرها ومنشئاتها عما تفرضه الضرورة القاهرة، مما قد يخفف من وقع اثارها في نفوس السكان الذين قد يمكن اقناعهم على اعتبارها، كشيء مقبول او حتى لتحسين وجه شيطان الحرب العام. ان وضع بعض الحاميات الصغيرة هنا وهناك سيديم ويعزز هذه المنظومة الرئيسية. ومن الناحية الاخرى، فلو تنقل الامرون، ومسؤولوا الميرة والتموين، والانضباط العسكري (الشرطة العسكرية)، ومراصد الحماية، والعناصر الاداريه ولمسافة طويلة وعلى طرق لم تستخدم من قبل الجيش ، فسيرى السكان المحليين في ذلك اعباء وتجاوزات لا ضرورة لها. وما لم يكن اندحار جيش الاعداء قد ترك اثاره على السكان وحدّ من غلوائهم وأوصلهم الى حالة من الانهيار، فقد يتعرض الرسميون في اعلاه الى بعض التجاوزات كما قد يعاملون بعدوانية، وقد يضربون أو يختطفون. وكي يتم تأمين الطرق الجديدة، فلا بد للجيش وقبل كل شيء من توزيع المخافر والحاميات، وأن تكون باكبر من حجمها المعتاد؛ دون أن يلغي ذلك مخاطر احتمال معارضة السكان. والخلاصة، فلا يمتلك الجيش المتقدم في ارض عدوه ما يمكنه من فرض الطاعة، لذا عليه أن يرسي اولاً سلطته الادارية، وان يفعل ذلك بقوة وسلطة سلاحه. وليس ذلك بالامر اليسير وحيثما نشاء، اذ يتطلب التضحيات كما قد يسبب

بعض المصاعب. ثم ليس بوسع الجيش العامل في اراض معادية التحول سريعاً من قاعدة الى اخرى بمجرد تغيير خطوط مواصلاته، مثلما كان عليه الحال داخل الوطن، وحيث يمكن ذلك على الاقل. وتأثير كل ذلك عموماً، سيكون في تحديد كبير على قابلية الحركة، وفي وهن الجيش وسهولة تطويقه.

يتحدد حتى الاختيار الاول لخطوط المواصلات وتنظيمها بعدد من الشروط. فهي وكقاعدة لا يجب أن تتبع الطرق الرئيسية، فقط بل ومن الافضل عموماً ان تكون الطرق الاكبر والاوسع، والتي تربط المدن الاغنى، والمحمية باكبر عدد من القلاع والحصون لحمايتها. كما يتأثر اختيار خطوط المواصلات كذلك بالانهار كوسائل نقل، وبالجسور كنقاط عبور. وهكذا فمواضع خطوط المواصلات، وبالتالي، الطريق الذي يمكن ان يسلكه الغازي، مسألة اختيار حر الى حد معين، اما الاماكن الدقيقه لها فيخضع او محكوم بالحقائق الجغرافية.

نستخلص من مجموع تلك العوامل قوة او ضعف خطوط مواصلات الجيش مع قاعدته. وعند مقارنة هذه النتيجة مع موقف العدو يمكن القرار عندها على اي الطرفين بوضع افضل يمكنه من قطع خطوط مواصلات الطرف الاخر او حتى خطوط انسحابه، أو إن أردنا استخدام الصيغ الفنيه، لتطويق عدوه. وفيما عدى التفوق المعنوي او المادي فلا يمكن تحقيق ذلك في الواقع الا للطرف الذي يمتلك خطوط مواصلات افضل. والا فبوسع خصمه الانتقام سريعاً.

كما ان الطرق تعد خدمة لغايتين، فالتطويق او حركة الاحاطة قد يكون لها هي الاخرى هدفين. فقد تتوخى ارباك، او قطع المواصلات، مما يسبب شل الجيش واندحاره، ويجبر بعد ذلك على التراجع، او قد تتوخى قطع التراجع نفسه.

ينبغي على المرء ان يتذكر فيما يخص الهدف الاول، انه ومع الطرق الحالية المتبعة لتموين الجيوش، فان اي ارباك قصير الامد لا يعد خطيراً؛ ويتطلب الامر في الحقيقة انقضاء وقت طويل قبل ان تتجمع الخسائر المنفردة الصغيرة وتتحول الى حجم كبير ومؤثر. كانت منظومة التموين في الماضي تعني الاف العربات المتنقلة جيئة وذهاباً. وكانت اية عملية منفردة علي الجناح تكفي لتمزيقها. اما اليوم فان عملية من هذا النوع، ومهما كان نجاحها كبيراً، لن تترك اية اثار ملحوظة. ولن تحقق في افضل الحالات سوى السيطرة على او مصادرة احد الارتال؛ والتسبب ببعض العراقيل والاشكالات المحلية، الا انها لن تؤدي الى التراجع.

اما العمليات على الاجنحة والتي كانت شائعة ومعروفة دائماً في الكتب اكثر منها في الميدان، فقد اصبحت اقل جدوى وتأثيراً. ومع ذلك يمكن اعتبارها خطيرة فقط ضد خطوط مواصلات طويلة جداً وواهنة، والتي يكمن ضعفها الرئيسي في انها دائماً وفي كل مكان معرضة للهجوم من قبل السكان الناقمين.

لذلك لا ينبغي التهويل والمبالغة حول جيش قد عزل، او هدد بتقليص خطوط انسحابه او تعريضها للخطر. فقد اكدت التجارب الحديثة ان بوسع القطعات الجيدة والقادة الشجعان التخلص على الاكثر من مآزق كهذه وشق طريقها بدلاً من الوقوع في المصيدة.

هناك وسائل قليلة ومحدودة فقط لتقليص وحماية خطوط المواصلات الواسعة. ويمكن تهوين الموقف نوعا ما باتخاذ بعض القلاع القريبة من مواضع الجيش، وعلى الطرق الممتدة خلفه، او، وعندما لا تتيسر مثل هذه القلاع فيمكن تحصين بعض النقاط الملائمة، وبتحسين التعامل مع السكان المحليين، وفرض سيطرة جيدة على الطرق العسكرية، وتغطيتها بدوريات من الانضباط العسكري (الشرطة العسكرية)، والتأكد من اجراء الصيانه الدائمية لتلك الطرق. الا انه لا يمكن القضاء على المخاطر نهائياً.

وبالمناسبة فكلما قلناه حول التموين، وعن الطرق التي ينبغي تنقل الجيش عليها، يمكن تطبيقه وحيثما امكن ذلك على خطوط المواصلات. فان افضل خطوط المواصلات هي التي تتألف من اعرض الطرق، المارة بين مدن غنية جداً وفي مناطق وافرة المحاصيل الزراعية. كما يفضل ان يتوفر لتلك الطرق الكثير من الطرق الفرعية والتحويلات المؤقته (الحيدانات)، لانها تتحكم وفي معظم الحالات في المناطق الخاصه لانفتاح الجيش.

الفصل السابع عشر

الارض Terrain

الجغرافية وخصائص الارض، وفيما عدى عن تأثيرهما على مصادر التموين، التي تشكل بحد ذاتها جانباً منفصلاً من الموضوع، علاقة وثيقة وحضور دائم مع حالة الحرب (Warfare). كما لهما تأثير حاسم على الاشتباك، سواء في تخطيطه وفي مساره وفي استثماره. لذا ينبغي علينا الآن تفحص تلك العوامل وفي اوسع ما يعنيه الفرنسيون بمصطلح الارض (Terrain).

لا شك في ان تأثيراتها الرئيسية تكمن في مجال التعبية، اما النتائج فمن الشؤون (الاستراتيجية). فاشتباك يحدث في منطقة جبلية سيختلف بحد ذاته وبما سيترتب عليه من نتائج دون شك عن اخر يحدث في ارض سهلة.

وما دمنا لم نحدد بعد الفرق ما بين الهجوم والدفاع، ولم نتفحص اياً منهما بدقة وتفصيل، فليس بوسعنا التمعن بدقة ووضوح في السمات والملامح الرئيسية والملفتة للنظر للارض وبما يخص تأثيراتها عليهما، وسنقتصر الان على تفحص السمات العامة للارض. يمكن للجغرافية والارض التأثير على العمليات العسكرية بثلاثة طرق: كموانع على المقترب، وكعائق في تحديد الرؤيا، وكستر من النيران. ويمكن اعادة كافة السمات والتأثيرات الاخرى الى الخصائص الثلاث هذه.

ما من شك في ان التأثيرات الثلاث تلك للأرض قد أدت الى تنوع الانشطة العسكرية، من حيث شدة التعقيد والمهارة، لانها تضيف ثلاثة عناصر اخرى الى ما تجمع سابقاً.

لا يمكن ان تتيسر ارض منبسطة تماماً وفق الفكرة المطلقة لها – وبكلمة اخرى ارض سلبية تماما ودون اي تأثير – الا بالنسبة لمفارز صغيرة، وحتى في هذه الحالة فلن يستمر ذلك الا للفترة التي يستغرقها حدث معين. اما لوحدات اكبر ولفترات اطول من الوقت فستؤثر الخصائص المادية للأرض على العمل. اما عند الانتقال الى الجيش بالمعنى الواسع والكلي له فمن الصعب على المرء ان يفكر وقتها في او عن صفحة واحدة – المعركة على سبيل المثال – لا يمكن ان يلمس أو يتضح تأثير الجغرافية فيها.

لذلك فالتأثير فعال على الدوام، وتختلف درجته او تتنوع وفقاً لطبيعة البلاد.

وسنجد عند تفحصنا للمعطيات ككل، ان هناك ثلاثة طرق متميزة قد تختلف فيها منطقة ما عن مفهوم الارض السهلة المنفتحة؛ واولى تلك الطرق في الخط الكفافي (خط المنحنيات الافقيه) للمنطقة[1]، لاظهار اية عوارض كالتلال والوديان؛ والطريقة **الثانية** من حيث العوارض والظواهر الطبيعية كالغابات والبحيرات والمستنقعات؛ اما **الثالثة** فعن العوامل الناتجة عن الزراعة. وتسهم كل من تلك الطرق في التأثير الذي تمارسه الجغرافيا (علم سطح الارض) على العمليات العسكرية. ولو امعنا في تحليل تلك الانواع الثلاث فسنكون عندها قادرين على تعريفها بـ، المناطق الجبلية، والاحراج قليلة المزروعات والاهوار، والمناطق الزراعية. وكل منها ستجعل حالة الحرب اكثر تعقيداً وبراعة.

ليس لكل انواع المزروعات نفس التأثير. ويظهر تأثيرها على اشده في الفلاندرز، وهولشتاين ومناطق اخرى حيث تكثر في تلك المناطق القنوات، والحفر، والاسيجة، والجدران وخطوط الشجيرات البرية التي تمتد على حافات المناطق المزروعة لوقايتها، كما تنتشر في مناطق كهذه البيوت والاكواخ المنفردة وأجمات الاشجار.

لذلك من السهل شن الحرب في الاراضي السهلة وكذلك القليلة المزروعات. وليست هذه سوى حقيقة عامة كما انها تهمل أو تتناسى القيمة الدفاعية للموانع الطبيعية.

كما ان لكل الانواع الثلاث من الارض تأثير ثلاثي بدورها: كمانع على المقترب، وعلى الرؤيا والرصد، وكوسيلة للستر.

تعتبر اعاقة الرؤيا في المناطق المشجرة هي الاعاقة المسيطرة، اما في المناطق الجبلية فالمهم هي الاعاقة على المقترب، اما في المناطق الكثيفة الزراعة فقد يتساوى تأثير نوعي الاعاقة وبنفس الدرجة.

---

(١). استخدمت الارض هنا بثلاث معان الاول (Ground) او سطح الارض وينطبق على جميع انواع الارض أما (terrain) فهي الارض ولكن من حيث عوارضها او حالتها من ناحية معينة تعبوياً او جغرافيا او زراعياً ... الخ اما (Contour) او المنحنيات الافقية فهي شكل المقطع العمودي لاي منطقة لبيان ارتفاع اي نقطه فيها عن مستوى سطح البحر وتظهر المنحنيات الافقية في الخرائط التعبوية لكل ٢٥ قدم. في كتاب الاستراتيجية العسكرية بقلم (جي.سي.وايلي) دراسة ممتعة عن الارض في الفكر العسكري وفي الحرب البرية . الفصل الخامس ص ٦٩

المترجم

التنقلات العسكرية في المناطق المكتضة بالاشجار مستحيلة تقريباً، نظراً لوعورة وصعوبة المقتربات من ناحية ولانعدام الرؤيا التام، فسيتعذر القيام او تنفيذ اية تغييرات. وسيسهل ذلك القيام باي عمل من ناحية الا انها يّعقده من ناحية اخرى. فمن الصعوبة بمكان لفترة ما حشد القوات لاشتباك في ارض كهذه، الا انه ليس من الضروري تجزأة القوات الى اجزاء عديدة كما نفعل في المناطق الجبلية او المناطق المجزأة (Intersected) – وبكلمة اخرى فمن الصعب جداً تجنب تجزأة القوات في المناطق الكثيفة الاشجار، لكنه لن يكون تشتيتاً واسعاً.

تسيطر معضلة التقرب او تفرض نفسها بقوة في المناطق الجبلية، ويتضح تأثيرها بطريقتين؛ اذ بوسع الطرف (المهاجم مثلاً) الاختراق في نقطة معينة وليس في اخرى؛ لكن التحركات ستكون بطيئة ومجهدة كثيراً حيثما امكن الاختراق. وهكذا فسيقل زخم واندفاع كل التحركات في المناطق الجبلية. وستحتاج أية مناورة الى المزيد من الوقت. واكثر من ذلك فللمناطق الجبلية سمة خاصة جداً في ان كل نقطة فيها تسيطر على الاخرى. وسنناقش في الفصل التالي موضوع التحكم والسيطرة على الاراضي العالية عموماً. اما هنا فنود ان نوضح فقط بان خصوصية الجبال تفرض تجزأة القطعات على اتساع كبير جداً. والنقاط العالية (الحاكمة) ليست مهمة فقط لمجرد ارتفاعها وحسب، بل وللتأثير الذي لكل منها على الاخرى.

كل نوع من انواع الارض الثلاثة وعندما تكون على اقوى ما يمكن، فانها وكما لاحظنا في اماكن اخرى ستقلل تأثير القادة على سير الاحداث. بنفس الدرجة التي تؤكد فيها على دور واهمية الاشخاص من المرؤوسين وغيرهم ونزولاً الى الجندي البسيط. وكلما زاد انقسام القوة كلما قلت امكانية السيطرة عليها، ويكون من الواضح عندها ان كل رجل سيتصرف بمفرده. وما من شك بطبيعة الحال انه وكلما زاد تشتت وتشرذم العمليات، كلما زاد تنوعها وتخصصها، وكلما فرض الموقف زيادة في دور واهمية الاستخبارات من جهة، وكلما زادت الفرص امام القائد الاعلى نفسه لاظهار قدراته وتفوقه. ولا بد هنا من اعادة وتأكيد نقطة سبق لنا ايضاحها؛ وهي ان المجموع الكلي للنجاحات المنفردة في الحرب، يعد اكبر حسماً من النمط الذي يربط فيما بينها. وهكذا فلو تابعنا المناقشة حتى نهايتها القصوى، وتصورنا إن جيشاً إنفتح بكامله عل خط نارٍ واحد بحيث يقاتل كل جندي وكانه في معركة منفردة، عندها سيعتمد الكثير على مجموع الانتصارات الفردية اكثر مما على انماط عملهم.

وتأثيرات ذلك المجموع الملائم وبعد كل شيء، يمكن ان تكون نتيجة النجاح فقط؛ ولن تتولد من الفشل مطلقاً؛ لذلك وفي حالة كهذه تعد الشجاعة والمهارة والروح والحماس الفرديين عواملاً حاسمة. لكن وفقط في الحالات التي يتساوى فيها جيشا الجانبين نوعياً، او عندما تلغي المزايا والمناقب الخاصة لكل منهما بعضها البعض، يمكن انذاك أن تحتل مهارة القائد الاعلى وحدة بصيرته مكانةً بالغة الاهمية مرة اخرى. يلي ذلك ان الحروب الوطنية حقاً، والتي يتسلح فيها الشعب، وكذلك في ظروف مشابهة تؤجج الحماس والروح (القتالية) في الافراد (وان لم تثر بالضرورة شجاعته ومهارته)، وتحقيق النجاح المرجو، بينما يتوجب على القطعات التبعثر – وبكلمة اخرى، حيث يكونوا الافضل بفعل الاراضي الشديدة الوعورة. ولا يمكن ان يوجدوا الا في هذا النوع من المناطق، وحيث تفرض طبيعتها نفسها حرمانهم الخصائص والمزايا الاساسية للاعمال المركزة حتى من قطعات ليست كبيرة جداً.

هناك كثير من التدرج ما بين النهايتين في طبيعة القوات المقاتلة. وحتى الجيش المحترف والذي دون عمل، سينمي في داخله نوعاً من سجايا وميزات جيش وطني عند توليه الدفاع عن تراب الوطن، مما سيسمح بقدر كبير من حرية العمل.

كلما ازداد فقدان تلك الخصائص والظروف في احد الجيوش، وكلما زادت وتوثقت لدى جيش الطرف الاخر، كلما زادت خشية هذا الجيش من التشرذم، وكلما سعى لتجنب المناطق الوعرة. الا ان ذلك ليس مسألة اختيار الا نادراً؛ وليس بوسع اي طرف اختيار مسرح العمليات بعد اختيار وقناعة وكأنها صفقة تجارية. لذلك تحضى القطعات عند خوضها القتال بحشود كبيرة، بفائدة تلقائية انسجاما وطبيعة الامر، وستبذل اقصى ما بوسعها من جهد في سبيل استخدام منظومة الحشد هذه الى حدودها القصوى الممكنة **بغض النظر عن طبيعة الارض**. لذلك ستكون عرضة الى اضرار وعيوب اخرى مثل صعوبات التموين، وقلة المأوى، وغالباً ما ستتعرض خلال القتال لهجمات على الجناح. الا ان الخسارة الكبرى التي يمكن ان تتعرض لها هي في تخليها عما بيدها من مزايا خاصة.

يخضع هذان النوعان المختلفان من الميل – نحو التحشد، ونحو التبعثر – عادة للنزوع الطبيعي للقطعات نفسها. ومع ذلك فحتى في اكثر الحالات وضوحاً، سيكون من المستحيل على احد الطرفين أن يظل متحشداً، كما يستحيل على الاخر توقع النجاح بالعمل ببساطة بنظام مفتوح دائماً. فقد اضطر حتى الفرنسيين في اسبانيا الى

بعشرة قواتهم، ولولا خوض الاسبان لحرب عصابات في الدفاع عن وطنهم لاضطروا بدورهم للمجازفة ببعض قواتهم في معارك رئيسية.

التأثير الذي تمارسه الارض على القائد، وعلى الاخص في التأليف السياسي للقوات المقاتلة، سيليه مباشرة في الاهمية، تأثيرها على الموازنة ما بين اسلحة الخدمات الثلاث.

ففي كافة الاراضي الوعرة والصعبة أو العديمة المقتربات – اما بسبب الجبال او الغابات او اي نوع من المزروعات – لا فائدة في حجم كبير من الخيالة، وينطبق ذلك ايضاً على المدفعية في الغابات، حيث نادراً ما تتوفر فسحات كافية لاستخدام فعال للمدافع، وطرق جيدة للتنقل عليها ولا اعلاف للخيول. اما الاراضي الزراعية فاقل اعاقة للمدفعية، وتقل الاعاقة اكثر في المناطق الجبلية. فكلاهما يوفران أستاراً كافية من النيران، ولذلك لا تعدان من الاراضي الملائمة لسلاح يكمن تأثيره الاكبر في النار، وفوق ذلك فالمدافع الثقيلة واهنة امام مشاة العدو، اذ بوسع المشاة الاختراق في اي مكان. ومن الناحية الاخرى، فلا يخلو اي نوع من الارض من المدى الضروري لاكبر قدر من المدفعية، وللمدفعية حتى في الجبال فائدة هائلة، هي إبطاء تحركات العدو، الامر الذي يزيد في تأثيرها.

لكن ما من شك مطلقاً انه وفي جميع الاراضي الوعرة، يظل المشاة وبوضوح السلاح المتفوق. لذلك وفي مناطق كهذه لا بد من زيادة اعداد المشاة بكثرة تتجاوز النسب الاعتيادية.

الفصل الثامن عشر
المرتفعات الحاكمة

لكلمة «حاكمة Dominate » فعل السحر في فن الحرب، بذاتها فقط. ويحتل هذا العنصر جزءً كبيراً، بل وربما معظم التأثير الكلي الذي تمارسه الارض على استخدام القطعات. وتستقر الهيمنة هذه في جذور العديد من التعابير والمصطلحات الراسخة (المقدسة) في المعرفة والفنون العسكرية، مثل « الموضع الحاكم» و «الاراضي الحيوية» و «المناورات الاستراتيجية» وما شاكل ذلك. ونسعى هنا الى ايضاح الحقائق على اوسع ما يمكن ودون اسهاب كثير، متفحصين الحقائق والاكاذيب، والوقائع والاوهام واحداً بعد آخر.

من الصعب دائماً ممارسة القوة المادية صعوداً قياساً بممارستها في الاتجاه الاخر، إي نزولاً، ولا بد من مراعاة ذلك في الاشتباك ايضاً. وبوسعنا إيراد ثلاثة اسباب واضحة. **أولها**، ان الارض المرتفعة تعترض المقترب، **وثانيها**، ومع انها لا تضيف اية زيادة ملحوظه الى المدى، فان اطلاق النار نحو الاسفل يظل ووفقاً لجميع العلاقات الهندسية ذات العلاقة، اكثر دقة من اطلاق النار نحو الاعلى، **وثالثها** ان المرتفعات تمنح ابعاداً اوسع كثيراً للرؤيا. اما كيف تتحد أو تختلط كافة تلك العوامل خلال الاشتباك فلا يعنينا ذلك هنا. وسنأخذ المجموع الكلي للمزايا التعبوية التي توفرها المرتفعات ونعدها وبكل بساطه الفائدة الاستراتيجية الاولى.

ستظهر الفائدتين **الاولى والثالثة** في المجال الاستراتيجي. فالتنقل والاستطلاع يعدان جزءً من الاستراتيجية كما هما في التعبية. لذلك فلو منع موضع ما في ارض مرتفعه تقرب اي قوة من الاسفل، فسيحقق ذلك الفائدة **الثانية** التي تنمو وتتراكم للأستراتيجية. والرؤيا الاوسع التي توفرها الارض المرتفعة هي الميزة **الثالثة**.

تكمن في تلك العناصر القوة التي تمنح الموضع الهيمنة والاشراف والقيادة. وهي المصدر الاساسي للتفوق والامن للطرف الذي يتحكم بالجزء الاعلى من الجرف الجبلي ويشرف على العدو في الاقسام السفلى، كما تعد مصدر «الدونية» والقلق للطرف الذي على المنحدر او في الاسفل. ولعل هذا التصوير مبالغ فيه واكثر مما يستحق، فتأثير وقوة المزايا للأرض المرتفعة أقوى على العقل بكثير مما للظروف الاخرى

المقابلة والمخففة لذلك التأثير . لذا قد يتجاوز الانطباع حدود الحقائق، وعلى اية حال فلا بد من اعتبار مصيدة الخيال هذه كعنصر اضافي في تعزيز التأثير الحقيقي للأرض المرتفعة.

ليست الميزة المتزايدة لقابلية الحركة ميزة مطلقة، او أنها تحسب ودائماً للطرف الذي يحتل الاراضي العليا. بل انها تفعل فعلها فقط لو سعى الطرف الاخر الى الهجوم. كما يصعب الوصول الى المرتفعات في حالة مرور الوديان فيما بينها، ولعل الطرف الذي يحتل الاراضي المنخفضة سيكون في وضع أفضل لو كانت الاشتباكات ستجري في الاراضي المنبسطه – كما حدث في معركة (هوهن فريدبيرج)[1]. لميزة الرؤيا الاوسع كذلك، تحديدات دقيقة، فلن تقدم الكثير من الفوائد إن كانت الارض المنخفضة عبارة عن غابات، او أن سلسلة جبلية تعيق مدى الرؤيا. وهناك ما لا يحصى من الحالات التي يبحث فيها احد الاطراف دون جدوى عن نقاط ومواضع مرتفعه للأستفادة من مزاياها مع انه أشرها على الخارطه، ليقع بدلاً من ذلك هو نفسه في نقاط تجعله فريسة سهلة لخصمه. رغم ان كل هذه التحديدات والظروف أقل من أن تلغي المزايا التي تقدمها الاراضي المرتفعة للدفاع والهجوم. وسوف نوضح وبايجاز تطبيقات ذلك لكلا الحالتين .

تقدم الارض المرتفعة ثلاث منافع استراتيجية : **قوة تعبوية اعظم، وحماية ضد اية مقتربات، وميدان اوسع للرؤية**. وتحتسب الاوليتين وبسبب طبيعتهما بالذات للدفاع، اذ لا يمكن لغير الجانب الثابت استخدامهما – اذ لا يستطيع الجانب المتحرك ذلك. اما الثالثة فيمكن استخدامها من الاثنين معاً.

---

(١) معركة «هوهن فريدبيرج» في ١٧٤٥/٦/٤ وهي احدى معارك حملة تعرف بنفس الاسم في حرب الوراثه النمساوية حيث تحشدت هذه ومعها قوات سكسونيه، والتعداد الكلي لها (٨٠) الف رجل بقيادة الماريشال جارلس قرب بلدة «لانديشوت» في مرتفعات سيليزيا الغربية مهددة بذلك مدينة (بريسلاو). كان فردريك الكبير انذاك وبامرته (٦٠) الف رجل ما بين (كلاتز) و (نيسي) وقرب (فرانكشتاين) فانتقل سريعاً نحو الشمال قاصداً (ستيرجاو) ولم يدرك النمساويين تركة جنوب سليزيا فتحركوا بدورهم نحو (بريسلاو) وعسكروا قرب (هوهن فريديرج)، فتحرك فردريك الكبير بعد الظلام بتشكيل قتالي وإنقض مع الفجر على قوات التحالف ملحقاً بهم هزيمة كبرى و (١٦) الف قتيل وجريح واسير و (٦٦) مدفعاً اما خسائره فبحدود الف فقط وطاردهم بنصف جيشه حتى بوهيميا. راجع للمزيد موسوعة التاريخ العسكري ص ٦٣٤ – ٣٥ المترجم

يؤكد لنا ذلك اهمية الدور الذي تلعبه الارض المرتفعة في الموقف الدفاعي. وطالما لا يمكن ضم الارض المرتفعة الا باحتلال المواضع في المناطق الجبلية، فيمكن للمرء التوصل الى ان ذلك سيقدم فائدة كبيرة للدفاع، الا إن ذلك قد ينقلب الى العكس في الواقع، وكما سيوضح لنا ذلك الفصل الخاص بالدفاع في المناطق الجبلية.

لا بد لنا على اية حال من إقامة تمييز عام. فعندما يتعلق الامر وببساطة بالارض المرتفعة في نقطة واحدة - في موضع واحد على سبيل المثال - ستندمج عندها الفائدتين الاستراتيجية والتعبوية في كون الموضع جيد للمعركة. اما، لو تصور المرء من الناحية الاخرى، قطعة كبيرة من الارض - ولنقل منطقة - او سهل منحدر، او حوض مائي عام، فيمكن للمرء توسيع المكسب الاستراتيجي وذلك بالتنقل في عدة اتجاهات مع المحافظة على البقاء طول الوقت في مستوى أعلى من المنطقة المحيطة. وسيستفيد المرء في هذه الحاله من ميزة الارض المرتفعة، ليس من خلال جمع القطعات في الاشتباك الواحد فقط، بل كذلك من ضم مجموعة من الاشتباكات التي تشكل كلاً واحداً . وهذا شيء كثير للدفاع.

اما بالنسبه للهجوم، فهو يتمتع والى حد ما بنفس الميزة التي توفرها المرتفعات للدفاع، اذ لا يتألف الهجوم الاستراتيجي وكالهجوم التعبوي من عمل منفرد. كما ان تقدم المهاجم ليس متواصلاً كالالة، بل يتألف من عدد من التنقلات المنفصلة، بينها توقفات تختلف في الطول. وفي كل توقف للراحة يصبح المهاجم بوضع دفاعي مماثل لوضع خصمه .

كذلك فلميزة مجال الرؤيا الافضل التي تعنى ان للارض المرتفعة قوة تعرضية على كل من المهاجم والمدافع، الامر الذي يحتاج لملاحظته؛ اذ من السهل لاي طرف العمل بمفارز منعزلة. والميزة التي للمكان المرتفع بكامله ستتوزع على كافة اجزاءه. والمجموعة (الجحفل) المنعزل، كبيراً كان ام صغيراً، قادر على امتلاك قوة اكبر مما كان سيحصل عليه في حالة اخرى، كما سيقل تعرضه للخطر في الاستيلاء على الموضع مما سيكون عليه الحال دون ميزة المرتفعات. اما الكيفية التي يمكن فيها استخدام المفارز المعزولة بافضل شكل فستناقش في مكان اخر.

اذا أمكن الجمع بين المواضع في المرتفعات مع مزايا جغرافية اخرى لها علاقة بالخصم، واذا تحدد هذا الخصم في تحركاته بعوامل اخرى، كقرب نهر كبير مثلاً، فان مساوىء موقفه هذا ليست هينة بل ستبدو حاسمة والى الحد الذي تدفعه الى

الانسحاب بأسرع ما يمكن. وليس بوسع اي جيش المحافظة على موضع في حوض نهر كبير ما لم يكن قد فرض سيطرته على المرتفعات المحيطة.

وهكذا يمكن أن يعني احتلال الارض العالية سيطرة حقيقية وتامة. نحن لا ننكر حقيقة ذلك، لكن وبعد قول وعمل كل ما يمكن، تبدو هذه المصطلحات مثل «المنطقة المسيطرة» و«الموضع الساتر» و«مفتاح المنطقة» وبقدر تعلق الامر بالإشارة الى الأراضي العالية والواطئة، لا اكثر من محارات وقواقع خالية، تخلو من اي شيء ذو قيمة. لقد استخدمت تلك العناصر البراقة للنظرية كتلوينات زائفة لادعاءت عسكرية ظاهرة الزيف. كتلك التي باتت سلعة شائعة بين كبار العسكريين التقليديين، والعصا السحرية التي يتباهى بها اساتذة الاستراتيجية النظريين وكأن لم يكف فراغ ولا جدوى مثل هذه الاوهام، ولا تعارضها مع التجارب والاحداث لإقناع اؤلئك الكتاب والمفكرين، ولا قرائهم كذلك، بانهم يصبون الماء في وعاء (دانايد)[1] المثقوب. كما انهم اعتبروا ظروف الشيء وكانها الشيء نفسه، وحلت الالة محل اليد التي تستخدمها. كما اعتبروا مجرد احتلال منطقة او موضع كاستعراض للقوة، او كاندفاع او ضربة، وفي اعتبار المنطقة او الموضع كعنصر فعال. وليس الاحتلال في الحقيقة سوى ذراع (سلاح) مرفوعة، والموضع نفسه ليس سوى الة لا حياة فيها، ومجرد امكانية في حاجة لموضوع او وسط تتحقق فيه، ومجرد نقطة اضافة او طرح دون اية قيمة خاصة. اما الاندفاع الحقيقي والضربة، او الموضوع، او القيمة فهي **الانتصار في معركة**. انه الشيء الوحيد المهم والذي يعول عليه. وان يضعه المرء دائماً نصب عينيه، سواء اكان ذلك عند دراسة احكام ماضية في كتاب، او عند القيام بعمل ما في الميدان.

اذا كان القرار يعتمد فقط على عدد من الانتصارات بحجم ما، فسيكون من الواضح ان الاعتبار الاول هو التوازن النسبي للجيشين وقائديهما. تستطيع الارض ان تلعب دوراً صغيراً فقط.

---

(١). دانايد (في الاساطير اليونانية) هو ملك ارجوس وقد زوج بناته الخمسين لابناء شقيقه ايجبتوس وامرهن ان تقتل كل فتاة عريسها ليلة الزفاف فنفذن أمر أبيهن الا ابنته (هايير مانسترا) فكانت عقوبة الالهة لهن ان يقمن في الجحيم ولا عمل لهن سوى صب الماء في وعاء لا قعر له. قاموس لاروس ص ٢٨٥. المترجم

الكتاب السادس

الــــدفـــــاع

الفصل الاول
الهجوم والدفاع

١ . مفهوم الدفاع

ما هو مفهوم الدفاع؟ انه تفادي الضربة. فما سماته المميزة؟ انها انتظار الضربة. وهي السمة التي تحول اي عمل الى دفاع؛ وهي الاختبار الوحيد الذي يمكن بواسطته التمييز بين الدفاع والهجوم في الحرب. ومع ذلك فالدفاع المجرد (المطلق) يتعارض تماماً وفكرة الحرب؛ طالما يعني ذلك ان طرفاً واحداً فقط سيخوضها. لذلك يمكن ان يكون الدفاع نسبياً، وتطبق سمته المميزة في الانتظار على مفهومه الاساسي فقط، لا على جميع اقسامه. فاي اشتباك جزئي أو محدود، هو دفاعي، اذا انتظرنا تقدم وصولة العدو. والمعركة دفاعية إن كنا من ينتظر الهجوم – ونعني بذلك، إنتظار ظهور العدو امام خطوطنا وضمن المدى. والحملة دفاعية اذا إنتظرنا اجتياح العدو لمسرح عملياتنا. تظل سمتا الانتظار وتفادي الضربة، وثيقتا الصلة في كل تلك الحالات مع الفكرة العامة ومن غير أن تتعارض مع مفهوم الحرب؛ اذ قد نرى من المفيد لنا انتظار صولة العدو ضد حراب مشاتنا، والهجوم على مواضعنا، وعلى مسرح عملياتنا. إما ان كنا ننوي خوض الحرب فعلاً، فعلينا بالمقابل الرد على ضربات العدو، ويظل هذا العمل التعرضي في الحرب الدفاعية، تحت عنوان «الدفاع» – وبكلمة اخرى، يظل عملنا التعرضي ضمن مواضعنا، أو مسرح عملياتنا. وهكذا يمكن خوض حملة دفاعية ضمن معارك تعرضية، كذلك ففي معركة دفاعية بوسعنا إستخدام فرقنا تعرضيا. حتى ونحن في موضع دفاعي بانتظار صولة العدو، تتولى اطلاقاتنا العمل التعرضي. لذا فليس الشكل الدفاعي للحرب مجرد درع بسيط، بل درع أقيم من ضربات دقيقة – التوجيه .

٢ . مزايا الدفاع

ما هدف الدفاع؟ المحافظة . فالاحتفاظ بالارض اسهل من اخذها. ثم ان الدفاع أيسر من الهجوم، على إفتراض تساوي الطرفين بالوسائل. فما هو بالضبط الشيء الذي يجعل المحافظة والحماية أسهل كثيراً؟ إنها حقيقة كون الوقت الذي يمر دون إستخدام، انما يتراكم لمصلحة المدافع. اذ يحصد دون أن يكون قد زرع شيئاً. وأي الغاء أو إهمال لهجوم ما، سيُعد لمصلحة المدافع. وهذا هو ما حفظ بروسيا وجنبها الدمار لاكثر من مرة خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦–٦٣). انها فائدة متجذرة في مفهوم وغاية الدفاع، كما انها في طبيعة كل عمل دفاعي. كذلك الحال في الحياة اليومية، وعلى الاخص في القضاء (الذي يشبه الحرب كثيراً) والذي لخص بالمثل اللاتيني «طوبى لمن يملكون»[1] . هناك مكسب اخر، وهو ناجم فقط من طبيعة الحرب، ويشتق من الميزة التي يوفرها الموضع الدفاعي، والذي يحول الى الدفاع.

بعد اجمال تلك المفاهيم العامة، نعود الان الى الموضوع الرئيسي.

تعبوياً. يعد كل اشتباك، صغيراً كان ام كبيراً، دفاعياً اذا تخلينا عن المبادأة الى الخصم، منتظرين ظهوره امام مواضعنا. ومنذ تلك اللحظة وما بعدها بوسعنا إستخدام كل الوسائل والقدرات التعرضية دون أن نفقد مزايا الدفاع – أي ميزتا الانتظار، والموضع اما في المستوى الاستراتيجي فتحتل الحملة، مكان الاشتباك، ومسرح العمليات محل الموضع. وفي مرحلة لاحقة تحتل الحرب ككل مكان الحملة، والبلاد ككل، مكان مسرح العمليات. وفي كلتا الحالتين يظل الدفاع على ما كان عليه في المستوى التعبوي.

لقد اوضحنا للتو، وبشكل عام إن الدفاع أسهل من الهجوم. إلا أن للدفاع هدف بسلبي هو؛ **المحافظة** ، أما هدف الهجوم فايجابي؛ **الاحتلال**. والهجوم يزيد قدرات الطرف المهاجم على شن الحرب، الامر الذي لا يتوفر للأخر (المدافع). لذا ولأرساء العلاقة بوضوح، يجب علينا القول بان **الشكل الدفاعي للحرب أقوى فعلاً من الهجوم**. وهذا هو الامر الذي نحاول اثباته، اذ ومع انه في طبيعة الامر ضمنيا، كما أكدته التجارب مرة تلو الاخرى، الا انه لا يتماشى والاراء السائدة، مما يبرهن لنا الكيفية التي تضيع وتشوش بها الافكار من قبل الكتاب السطحيين.

---

(١) . beati sunt possident

اذا كان الدفاع هو الشكل الاقوى للحرب، ومع ذلك فما زال هدفه سلبي، لذلك ينبغي اللجوء الى الدفاع بالقدر الذي يحتمه علينا الضعف، وأن نتخلى عنه حالما نغدو أقوياء بما يكفي لمتابعة هدف ايجابي. عندما يستخدم طرف ما الاجراءات الدفاعية بنجاح، تنشأ عادة حالة ملائمة من توازن القوى، وهكذا يتحدد المسار الطبيعي للحرب، بان تبدأ دفاعياً، وتنتهي تعرضياً. وستتعارض بذلك مع الفكرة الاساسية للحرب التي ترى في الدفاع هدفاً نهائياً، تماماً كما في اعتبارها الطبيعة السلبية للدفاع ليست كشيء متأصل في الدفاع ككل بل وكذلك في كل جزء منه. وبكلمة أخرى، فالحرب التي تستخدم الانتصارات فيها دفاعياً فقط، دون التفكير بهجمات مقابلة ستكون حرباً سخيفة، كمعركة، يتحكم جوهر الدفاع المطلق – اي السلبية – ويملي ويحدد كل عمل.

يمكن تحدي حصافة وموثوقية هذه الفكرة بايراد العديد من الامثلة عن حروب كان الغرض النهائي للدفاع فيها هو الدفاع المحض، ودون أي تفكير بالتخلي عنه الى التعرض المقابل. ويمكن متابعة خط المناقشة هذا وبقدر ما نشاء إذا تجاهل المرء أننا نناقش هنا مفهوماً عاماً. والامثلة التي يمكن الاستشهاد بها لاثبات العكس يجب ان تصنف كحالات لم تتوفر فيها او لم يمكن حتى القيام باي تعرض مقابل خلالها.

وعلى سبيل المثال لم يفكر فردريك الكبير في حرب السنوات السبع، بالقيام بتعرض، أو على الاقل في السنوات الثلاث الاخيرة منها. ونحن في الحقيقة نعتقد انه كان يعتقد خلال هذه الحرب بان الهجوم وحده يشكل افضل وسائل الدفاع. والموقف العام هو الذي يملي توجهاً كهذا؛ ومن الطبيعي ان يركز القائد على حاجاته الآنية الملحة. ومع ذلك ليس بوسع المرء النظر في هذا المثال عن الدفاع على نطاق اكبر دون التصور بان فكرة القيام بتعرض مقابل ضد النمساويين، كانت مستقرة في جوهر الدفاع، وان يستنتج من ذلك، انه لم يحن الوقت لحركة من هذا النوع. والصلح الذي عقد بعد ذلك يؤكد ان افتراضاً كهذا ليس فارغاً أو بدون معنى. والا فاي شيء أخر دفع النمساويين لعقد الصلح، غير قناعتهم بان قواتهم عاجزة بمفردها عن التغلب على عبقرية ومهارة الملك؛ كما كان عليهم على اية حال مضاعفة جهدهم، وان اي تهاون كان سيكلفهم مزيداً من الاراضي تقريباً؟ وهل هناك أي شك، في ان فردريك الكبير كان في الحقيقة سيحاول سحق النمساويين في بوهيميا ومورافيا، لو لم يشتت الروس، والسويديون، وجيش الامبراطورية (النمساوية) طاقاته ؟

الان وبعد ان حددنا مفهوم الدفاع، واوضحنا تحديداته، سنعود مرة اخرى الى ما قلناه في **ان الدفاع هو الشكل الاقوى في شن الحرب** .

سيثبت لنا التحليل الدقيق ومقارنة الهجوم والدفاع ذلك الامر بطريقة لايطالها شك. وسنكتفي حالياً باشارة مجردة الى تناقضات الاراء المعاكسة المعنية، بعد تفحصها على ضوء التجارب. فلو كان الهجوم هو الشكل الاقوى، فلن تكون هناك حالة أو قضية لاستخدام الدفاع، ما دامت غايته سلبية فقط. ولن يسعى أي طرف للقيام باي شيء عدى الهجوم؛ ولن يكون للدفاع معنى. وعلى العكس، فمن الطبيعي عادة اننا ندفع ثمناً باهظاً وتضحيات كبرى من أجل الغايات العظيمة. وكل من يعتقد بنفسه القوة الكافيه لاستخدام الشكل الاضعف، الهجوم، بوسعه وضع الغايات العليا في ذهنه؛ اما الغايات الادنى فلن يختارها سوى الذين في حاجة الى فوائد الشكل الاقوى، الدفاع. لقد بينت لنا التجارب، أنه وفي اي مسرحين للعمليات، لم يسبق ان حدث وشن الجيش الاضعف الهجوم، واختار الاقوى البقاء في الدفاع. بل العكس هو ما حدث على الدوام وفي كل مكان، ولدينا الكثير من البراهين على قبول القادة، الدفاع، كالشكل الاقوى، حتى عندما كانوا هم انفسهم يلجأون الى الهجوم.

ما زالت هناك بضعة نقاط ذات علاقة بالموضوع وستناقش في الفصول التالية .

الفصل الثاني
العلاقة بين الهجوم والدفاع في التعبية

لنتفحص اولاً العوامل التي تقود الى النصر في اشتباك ما.

لسنا معنيين في هذه المرحلة بالتفوق العددي، والشجاعة، والتدريب أو اية سجايا وميزات أخرى للجيش. إذ تعتمد كل تلك المناقب وكقاعدة على إمور تقع وراء ذلك القسم من فن الحرب المعنيين به نحن هنا؛ وسيكون ثقلها وأثارها واحداً على الهجوم والدفاع، وحتى **التفوق العددي العام** لا علاقة له هنا طالما كان حجم القطعات أمراً يُقرر مسبقاً ولا يمكن للقائد ان يبدي رأيا ما حوله. وفوق كل ذلك فليس لتلك الامور اعباءً خاصة على الهجوم والدفاع، عدى امور ثلاثة نرى انها تحدث أو تعطي فوائداً ومزايا حاسمة وهي : **المباغتة، فوائد الارض، والهجوم المركز** .

تغدو المباغتة فعالة عندما نواجه العدو في نقطة ما بشكل مفاجيء وبقطعات يفوق حجمها توقعاته. ويمتاز هذا النوع من التفوق العددي عن التفوق العددي العام، بل انه احد اهم وسائل فن الحرب واقواها. اما الطريقة التي تسهم فيها مزايا الارض في الانتصار فجلية للعيان. لكن ينبغي علينا الاشارة الى ان هذا الاسهام اكثر من مجرد مانع بوجه الهجوم - او متحدرات، او جبال مرتفعة، او مياه ضحلة واهوار، أو حروش وادغال وغيرها. بل قد تكون الارض مفيدة بشكل يمكننا من احتلال موضع محجوب عن الانظار، وحتى الارض التي دون عوارض قد تؤمن بعض الفوائد لمن اعتادوا العمل فيها. يشمل الهجوم المركز جميع عمليات التطويق التعبوي، صغيرة كانت ام كبيرة، وتنجم تأثيراتها جزئياً من التأثير المزدوج للنيران المتقاطعة (المقراضية)، ومن الخوف من التطويق والعزل عن باقي القوة في جزء آخر.

لكن ما علاقه الهجوم والدفاع بامور كهذه ؟

لو تذكرنا العناصر الثلاث للأنتصار والتي اشرنا اليها انفاً، فيجب ان يكون الجواب: نال المهاجم فقط اجزاءً صغيرة من العاملين الاول والثالث، بينما ذهب القسم الاكبر منهما والعامل الثاني كله لصالح وتحت تصرف المدافع.

يمتلك المهاجم مع ذلك ميزة هامة هي حريته في الضرب في اي نقطة يشاء ضمن الخط الدفاعي، وبكامل قوته؛ الا ان المدافع من الناحية الاخرى قادر ايضا على مباغتة خصمه طوال مدة الاشتباك بقوة واتجاه هجومه المقابل.

من السهل على المهاجم تطويق القوة المعادية بكاملها وعزلها تماماً وليس الامر بهذه السهولة للمدافع، لان هذا الاخير مقيد بموضعه، عارضا على المهاجم بذلك هدفا واضحاً. الا ان تطويق المهاجم وما فيه من فوائد لا يمكن تنفيذه الا على كل الموضع، اذ من السهل على المدافع خلال الاشتباك مهاجمة اي جزء من قوة الخصم هجوماً مركزاً لان المدافع وكما قلنا للتو، بوضع أفضل لضمان المباغتة بالقوة والاتجاه على خصمه المهاجم.

مما لا شك فيه ان المدافع يعد المستفيد الاساسي من الارض. وتفوق المدافع في تحقيق المباغتة إعتماداً على مزايا قوة واتجاه هجومه، ناجم من حقيقة وحتمية تقرب الهجوم من طرق وممرات يسهل رصدها، اما موضع المدافع المخفي فهو ومن الناحية الاخرى مما لا يمكن رؤيته من قبل الخصم حتى تحين اللحظة الحاسمة. ومنذ تطبيق الاساليب الدفاعية الصحيحة بات الاستطلاع عديم الجدوى – أو أصبح مستحيلاً بالاحرى. ومع ذلك ما زال بعض الاستطلاع قائماً وينفذ بين أونةٍ واخرى، دون فائدة تذكر اذ لم يعد وكقاعدة يحقق شيئاً. ومع ذلك وبغض النظر عن اهمية وحجم الفائدة في حرية اختيار الأرض كموضع، وعن تعود المدافع عليها طويلاً قبل العملية، وبغض النظر عن كون المدافع وكما هو واضح في موضع مخفي اختاره بنفسه لينأى عن أية مفاجأة، اكثر مما يسع المهاجم فعل ذلك، الا ان مؤيدي الرأي القديم ما زالوا يصرون على ان: قبول المعركة يعتبر نصف الخسارة. وذلك يعود الى اسلوب الدفاع الذي استخدم قبل عشرين سنة وفي حرب السنوات السبع الى حد ما كذلك. كانت الميزة الوحيدة التي يتوخاها المدافع تلك الأيام من الارض هي جعل الاقتراب من الجبهة صعباً (بسبب شدة الانحدار مثلاً). كانت ضحالة المواضع وصعوبة المناورة على الجناح قد جعلتا الجيوش بدرجةٍ من الضعف إقتصرت معه تحركاتها على المراوغة من تل الى آخر، مما زاد الامور سوءً. وحال الحصول على اي نوع من الاسناد، سرعان ما كان الجيش يتمدد بحالة من الترابط الشديد بحيث يبدو كلوحة التطريز (على القماش)، مركزاً على هم واحد هو منع اي اختراق. لقد اعتبرت الارض المدافع عنها بالغة الاهمية لذاتها، لذا توجب الدفاع فيها كلها وفي اي نقطة منها وبشكل لا يمكن معه التفكير باية تحركات أو مباغتة. وهذا هو بالضبط النقيض التام لما يجب أن يكون عليه الدفاع، أو ما كانه فعلاً في الماضي القريب.

يبدو أن الدفاع يتعرض للنقد وحتى الازدراء كلما اصبح أحد انواعه عديم

الجدوى أو غير قابل بعد للتطبيق، وهذا ما حدث في الحالة التي وصفناها اعلاه. اما في أيامها فقد كانت طريقة الدفاع تلك متفوقه في الحقيقه على الهجوم.

لو استعرضنا تطور الحرب الحديثة، فسنجد ومنذ البداية - في حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-٤٨) وحرب الوراثه الاسبانية (١٧٠١-١٤) - يوم كان انفتاح الجيش وترتيب مواضعه يعدان من بين اهم عناصر المعركة، والجزء المهم جداً من خطة العملية. وكل هذا كان يعمل بطبيعة الحال لصالح المدافع لانفتاح وترتيب قطعاته في مواضعها منذ البداية. لكن ومع تزايد قدرة القطعات على المناورة ضاعت تلك الفوائد، وأصبحت اليد العليا ولبعض الوقت للمهاجم، وأصبح المدافع اليوم يبحث عن الحماية خلف الانهار أو الوديان العميقة، او في الجبال، فاستعاد بذلك الفوائد المتميزة التي كانت له ودام ذلك حتى تفوق المهاجم من جديد في قابلية الحركة وبات ماهراً بدرجة مكنته من التوغل في الاراضي الوعرة والهجوم بارتالٍ منفصلة، مما يمكنه من احاطة عدوه. وقاد كل ذلك الى امتداد كبير في خط المعركة حتى اهتدى المهاجم الى التركيز والتحشد في عدد محدود من النقاط، ومن ثم اختراق المواضع المعادية الهشة (العديمة العمق والواهنة)، فاستعاد الهجوم بذلك اليد العليا للمرة الثالثة وبات على المدافع مرة اخرى ان يغير طريقته واساليبه. وذلك هو ما حدث في الحروب الحديثة. واصبح التركيز على ابقاء القوات متحشدة بحجوم كبيرة، معظمها ليست منفتحة، وفي مواضع مخفية حيثما امكن ذلك. والغاية من ذلك هي وببساطه التهيؤ لمعالجة الهجوم حال اتضاح نواياه.

لم يؤد ذلك الى استبعاد مدافعة اي جانب عن اراضيه نهائياً، باسلوب سلبي ببعض جوانبه، اذ ان ذلك سيوفر عدداً من الفوائد الحاسمة، وغالباً ما تحقق ذلك خلال مسار الحملات. الا ان الدفاع السلبي عن الارض لم يعد حاكما عادة - وهذا هو كل ما يهمنا هنا.

ان كان التعرض سيعثر على بعض الطرق الجديدة والمهمة في حملاته - وهو ما ليس محتملاً على ضوء البساطة والضرورات الاساسية التي اصبحت سمة ملازمة لكل شيء - فعلى الدفاع كذلك ان يغير اساليبه هو الاخر. على ان يتأكد دائماً من ضمان حصوله على فوائد الارض، الامر الذي سيضمن تفوقه الطبيعي، لان للخصائص الحالية لطبوغرافية (سطح الارض)، وللارض نفسها تأثير أعظم على العمليات العسكرية مما كان لهما ابداً.

الفصل الثالث

العلاقة بين الهجوم والدفاع في الاستراتيجية

لنبدأ مرة اخرى بفحص العوامل التي تؤكد النجاح الاستراتيجي.

وكما قلنا سابقاً، فليس في الاستراتيجية شيء كالانتصار. ويكمن بعض النجاح الاستراتيجي في الاستعداد الموقوت للأنتصار التعبوي، وكلما تعاظم النجاح الاستراتيجي، كلما كان تعاظم الانتصار في الاشتباكات اكثر احتمالاً. ويكمن ما تبقى من النجاح الاستراتيجي في استثمار الانتصار الذي تحقق. وكلما زادت قدرة الاستراتيجية، ومن خلال قدرتها وبراعتها، في استثمار المعركة الظافرة، كلما امكنها التخلص من الانهيار الضخم الذي سببه تشتتها وتبعثرها بفعل العملية، وكلما اصبح بوسعها ان تحصد ثمار الانتصار الذي تحقق بجهود مضنية، عندها سيتوسع النجاح اكثر. والعوامل الرئيسيه التي توصل او تسهل الوصول الى نجاح كهذا - هي نفس العوامل الرئيسية في التأثير الاستراتيجي - وهي كما يلي:

١ . فائدة الارض.

٢ . المباغتة - اما بصولة حقيقية او بانفتاح قوات غير متوقعة في نقطة معينة.

٣ . الهجوم المركز (وتتشابه العوامل الثلاثة مع ما في التعبية).

٤ . تعزيز مسرح العمليات بالقلاع، وبكلما له علاقه بها.

٥ . الدعم الشعبي.

٦ . استثمار العوامل المعنوية[١] .

فما علاقة الهجوم والدفاع فيما يتعلق بتلك العوامل؟

---

(١). كل من تعلم الاستراتيجية من السيد (بيلو) سوف لن يتفهم لماذا تخلينا وببساطة عن منهجه بالكامل. الا ان ذلك ليس خطأنا إن اقتصر (بيلو) على معالجة صغائر الامور فقط. وحتى صبيان المكاتب سيصعب عليهم ويحارون لو بحثوا في فهرس اي كتاب لعلم الحساب ولم يجدوا مدخلاً لمبادىء عملية كما في (٣ر٥) اعلاه. ومن الصعب إعتبار اراء (بيلو) عملية لذا قمنا بالتحليل والمقارنة على طريقتنا (كلاوزفيتز) .

يتمتع المدافع في الاستراتيجية وكذلك في التعبية بفائدة الارض، بينما يمتلك الهجوم ميزة المبادأة [1]. ومع ذلك، ففيما يخص المباغتة والمبادأة لا بد من ملاحظة ان لهما اهمية كبرى وغير محدودة، وفاعلية في الاستراتيجية اكثر مما في التعبية. ومن النادر توسيع المبادأة التعبوية الى انتصار رئيسي، اما في الاستراتيجيه فغالباً ما امكن ايصال حرب كاملة الى نهايتها بضربة واحدة. من الناحية الاخرى يفترض التعويل على هذه الوسيلة (اي المبادأة)، وقوع العدو **باخطاء كبيرة وواضحة بل واستثنائية**، وبالتالي فانها لن تفعل الكثير لتحويل ميزان القوى لمصلحة الهجوم.

اما مباغتة العدو بحشد قوة متفوقه في نقاط معينة، فيشابه مرة اخرى ما يحدث في التعبية. فلو اضطر المدافع الى تشتيت قواته على عدة نقاط هامة في المقترب، فستكون للمهاجم ميزة واضحة في قدرته على القاء كل قوته ضد اي من تلك النقاط.

هنا ايضاً، ادخلت المنظومة الدفاعية، بطريقتها الجديدة هذه، وبصورة تلقائية (عن غير قصد او تعمد) ادخلت مبادىء جديدة. وحيثما لا يوجد مبرر كاف لخشية المدافع من قدرة خصمه على التقدم عبر طريق لم يدافع عنه للأستيلاء على مستودع مهم، او مخزن للعتاد، او احتلال قلعة بصورة مباغتة، او حتى احتلال العاصمة بشكل مفاجىء، فليس المدافع مجبراً على مهاجمة العدو على الطريق الذي اختاره الاخير لتجنب قطع خطوط رجعته، لذلك فما من مبرر لتجزأة قطعاته. اما اذا اختار المهاجم طريقاً لا يتوقع ملاقاة المدافع خلاله، فبوسع الاخير مع ذلك استخدام قوته بكاملها وطرده من هناك ولو بعد بضعة ايام. وبوسعه في الحقيقه التأكد من ذلك، اذ وفي معظم الحالات كان المهاجم بنفسه يجبر المدافع على ذلك من خلال محاولته هو (اي المهاجم) فعل نفس الشيء. لكن ان كان على المهاجم ولسبب ما التقدم بقوات مجزأة – ناهيك عن ان معضلة التموين وحدها غالباً ما لا تترك له سوى القليل من الخيار– فمن الواضح ان المدافع سيحصد فوائد قدرته على مهاجمة جزء من قوة خصمه بكامل قوته هو.

اما في الاستراتيجية فان طبيعة الهجمات على الجناح والمؤخرة في مسرح العمليات قد تغيرت الى درجة كبيرة :

---

(١). الكلمة الانكليزيه Initiative وهي ترجمة للمصطلح الالماني (Uberfall) ويعني الهجوم المباغت والذي يستخدمه كلاوزفيتز بمعناه العام الواسع . المشرف

١ . لم يعد للنار المقراضية (Cross fire) اي تأثير، اذ لم يعد بالامكان تغطية جبهة مسرح العمليات بنيران تنصب من طرفيها.

٢ . لم تعد هناك خشية من العزل او القطع من الخلف، ولصعوبة تغطية كامل المنطقة في الاستراتيجية كما كان الحال في التعبية.

٣ . بسبب الاتساع الكبير في المنطقة المعنية في الاستراتيجية فان فاعلية الخطوط الداخلية والاقصر بطبيعة الحال تؤكد وتشكل موازنة مهمة ضد الهجمات المركزة.

٤ . يظهر وهن خطوط المواصلات عاملاً جديداً، وهو، ما يلي من عواقب انقطاع تلك الخطوط.

بسبب الاتساع الكبير في المنطقة المعنية في الاستراتيجية، فلا يمكن لغير من بيده المبادأة القيام بالتطويق والهجمات المركزة – وبكلمة اخرى، المهاجم. وليس بوسع المدافع ذلك كما كان الامر في التعبية، اي تطويق القوات القائمة بالتطويق، اذ يتعذر في هذه الحالة انفتاح قطعاته بهذا العمق المطلوب، كما لن يستطيع اخفائها بكفاءة. لكن ما الذي يستفيده المهاجم من سهولة عملية التطويق ان لم تتحقق جائزتها؟ اما في الاستراتيجية، فليس هناك من تبرير ما، لاعتبار هجمات التطويق كادوات اكيدة للأنتصار، ما لم تكن موثرة على خطوط المواصلات. رغم ان ليس لذلك اهمية في المرحلة الاولية اذ لا يعد عاملاً مهماً عندما يجابه الهجوم اولاً من قبل المدافع، ويتقابل الطرفان وجهاً لوجه في مواضع مفتوحة. الا ان ذلك التأثير يبدأ في الظهور خلال سير الحملة، وبعد ان يتحول المهاجم الذي دخل الى ارض العدو، الى الدفاع تدريجياً. وسيجد المدافع الجديد نفسه وخطوط مواصلاته واهنة، وان بوسع المدافع الاصلي استغلال هذا الضعف حال تحوله الى الهجوم. لكن يجب ان يكون واضحاً انه وكقاعدة فلن يستحق المدافع ايه افضلية لهذه الميزة، نظراً لانها اشتقت من مبدأ متأصل في الدفاع نفسه.

اما العنصر الرابع، او **فوائد مسرح العمليات، فهي** تحسب للمدافع بطبيعة الحال. اذ وبعد بدء الحملة فان الجيش المهاجم سيترك مسرحه الخاص للعمليات، متحملاً مشاق ابتعاده عن حصونه ومستودعاته، وكلما إتسعت منطقة العمليات التي يتوجب تركها خلفه، كلما ازداد وهناً – وذلك بسبب تأثير وطول التنقل من جهة، والحاميات والمفارز التي سيخرجها من جيشه من ناحية اخرى. اما المدافع فسيظل من الناحية الاخرى بكامل عدته وعتاده. مستفيداً من حصونه ومن غير ان يتخلى عن أو يستنزف قوته، كما سيظل قريباً من مصادر تموينه.

المبدأ الخامس، او دعم السكان فلن يتوفر بالضرورة لكل دفاع؛ فقد تدور رحى حملة دفاعية على اراضي العدو. رغم ان هذا العنصر مستنبط من مفهوم الدفاع وحده، ويمكن تطبيقه في عدد كبير جداً من الحالات. وما يعنيه اساساً (وليس حصراً) هو تأثير الجماعات الشعبيه (المليشيا)، وتسليح الشعب. وفوق ذلك تتقلص كافة انواع الاحتكاك، كما ان كافة مصادر التموين ستكون اقرب واكثر وفرة.

تفيد حملة عام ١٨١٢ لهذا الغرض كعدسة التكبير، لانها تبين وبوضوح كاف الطريقة التي يطبق فيها المبدأن الثالث والرابع. لقد كان تعداد جيش نابليون عند عبور نهر نيمين بحدود نصف مليون، لكن لم يخض معركة بوردينو (موسكو) الا حوالي (١٢٠) الف رجل، اما من وصل موسكو منهم فأقل من ذلك بكثير.

قد يحق لاحدهم القول ان نتائج ذلك الجهد الضخم كانت كبيرة جداً، فحتى لو لم يتعقب الروس الفلول الفرنسية بسيل من الهجمات المقابلة، فانهم يظلون بمنأى عن اي تعرض كبير لارضهم (اي روسيا) ولامد طويل. فما من بلد اوربي بطبيعة الحال، عدى السويد الى حد ما، يشبه روسيا في موضعه واتساعه، الا ان المبدأ عام وشامل ولن يختلف أو يتنوع الا من حيث الدرجة.

اما بخصوص العاملين الرابع والخامس، فبوسع المرء ان يضيف شيئا، وهو ان مصادر القوة والمنافع تلك انما تخص في الاساس الدفاع في داخل الوطن. اما تنفيذ الدفاع في ارض العدو، وخوض عمليات تعرضية، فتتحول عندها وتضاف الى الهجوم، وبنفس الطريقة التي تتبع مع العامل الثالث اعلاه. فالهجوم لا يقتصر على العنصر الفعال (الايجابي) فقط، الا بالقدر الذي يقتصر فيه الدفاع على العناصر السلبية وحدها. وفي الحقيقة، فان أي هجوم لا يؤدي الى صلح فوري لا بد ان ينتهي الى الدفاع.

وهكذا، فلو وهنت عناصر الدفاع التي تظهر خلال الهجوم، وبفعل الحقيقة المجردة في ان تلك العناصر هي جزء من الهجوم، عندها يتوجب علينا إعتبار ذلك، مسؤولية عامة اخرى تخص وتناسب الهجوم.

ليس ذلك مجرد مماحكات لفظية. بل انها بعيدة عن ذلك جداً، انها اكبر مساوىء كل عمل تعرضي. لذلك ينبغي عند التخطيط لهجوم استراتيجي الانتباه بشدة ودقة ومنذ البداية لهذه النقطة – وبالذات، الدفاع الذي سيأتي بعده. وستناقش هذه القضية بتفصيل كبير في الكتاب الخاص بالتخطيط الاستراتيجي.

قد يستخدم القائد القوة المعنوية المهمة، لتقوية وتنشيط قطعاته أحيانا Occasion-ally [1]. وقد توجد مثل هذه القوة (المعنوية) لدى المدافع والمهاجم؛ او على الاقل بوسع المرء القول، ان تلك الجوانب او القوى المعنوية وعلى الاخص ما يفيد المهاجم منها، كالانهيار والفوضى في صفوف العدو، لا تظهر عادة الا بعد توجيه الضربة الحاسمة، لذا من النادر ان يتضح الكثير منها قبل ذلك او خلال سير الاحداث.

ينبغي ان يكون كل ذلك كافياً لتبرير ما نراه في ان **الدفاع هو الشكل الاقوى للحرب من الهجوم**. لكن علينا ان نذكر عاملاً صغيراً خارج الحسبان والمناقشة. انه الشجاعة؛ واحساس الجيش بالتفوق الناجم عن ادراكه بامتلاك زمام المبادأة. وهذا احساس حقيقي وذو صلة شديدة بموضوعه، لكن سرعان ما تتفوق عليه روح اقوى واعم يستمدها الجيش من انتصاره أو اندحاره، ومن كفاءة او عجز قائده.

---

(١) . لماذا تستخدم احياناً (Occasionally) فهذا ما لا اعرفه ولا اجد سبباً مقنعاً له لا قديماً ولا حديثاً .

المترجم

الفصل الرابع
تقارب الهجوم وتباعد الدفاع

غالباً ما يظهر هذين المفهومين، وتلك الطريقتين في استخدام القوات في الهجوم والدفاع، في النظرية وفي التطبيق، بشكل يدفع المرء، لاعتبارهما وبشكل تلقائي كشكلين متلازمين، بل وكعنصرين اساسيين في الدفاع والهجوم. الا ان القليل من التمعن والتفكير سيظهر لنا ان الامر ليس كذلك في الواقع. وذلك هو السبب الذي يدفعنا الى تفحصهما باسرع ما نستطيع لنكتشف حقيقتهما. وحال انجاز ذلك سندعهما جانباً في تحليلاتنا الاخرى عن العلاقة بين الدفاع والهجوم، دون الاسترسال والانشغال دائماً بالمزايا والعيوب التي يبدو انها ترتبط بهما (اي بالتقارب والتباعد). وسننظر اليهما بمعناهما التجريدي الصرف، ونستخلص جوهريهما، تاركين اي تعليق عن دوريهما الى مراحل تالية.

أفترض وفي التعبية ام الاستراتيجية ان الدفاع حالة استثنائية – اي ما معناه، غير متحرك – في حين يكون المهاجم متحرك – نسبة، الى جمود (لاحركية) المدافع. يلي ذلك تلقائياً ان الاحاطة والتطويق هما طريقتان متاحتان للمهاجم فقط طالما تواصلت حركيته، وجمود الدفاع. هذا الخيار في التحرك بشكل متقارب ام لا – اعتماداً على ما اذا كان ذلك لفائدة المهاجم ام لا – مما يجب اعتباره كاحدى مزاياه. الا ان حرية الاختيار هذه تتيسر للمهاجم في التعبية فقط، وليست دائما في الاستراتيجية. اذ نادراً ما توفر النقاط (موانع او عوارض) التي يستند اليها جناحي الموضع الدفاعي، حماية تامة في التعبية وكالتي تتوفر في الاستراتيجية غالباً، حين تتصل الخطوط الدفاعية من بحر لأخر، او من بلد محايد لاخر. فلا يمكن تنفيذ هجوم متقارب في حالة كهذه، وبذا تتحدد حرية الاختيار. وتتحدد بشكل اكثر تقييداً وازعاجاً حين يتوجب على المهاجم مقاربة هجماته. فلا يمكن لروسيا وفرنسا مهاجمة المانيا باي طريقة اخرى عدى الحركات المتقاربة، كما ليس بوسعهما الهجوم بقوات موحدة. لذا فلو اعتبر الاستخدام المتقارب للقوات، الاقل فاعلية في معظم الحالات والمكسب الذي سيحظى به المهاجم عادة، والمتولد من حريته الكبيرة في الاختيار، قد يضيع كلياً بواقعة اضطراره في حالات اخرى الى استخدام شكل اقل فاعلية.

لنتفحص الان تأثير تلك الاشكال في التعبية والاستراتيجية بدقة اكثر.

عندما تعمل القطعات بتقارب، اي من المحيط الخارجي نحو المركز، فان تقاربها اثناء تقدمها يشكل فائدة كبيرة. والواقعة حقيقية بما يكفي، الا انها ليست فائدة مسلماً بها او مطلقة، لان التقارب متاح للطرفين لذلك تلغي احداهما الاخرى. وينطبق الشيء نفسه على التحركات من المركز نحو الخارج.

اما الفائدة الحقيقية فهي شيء مختلف، في ان القوات التي تعمل على الخطوط المتقاربة، توجه فعاليتها نحو نهاية عامة، لا تتوفر للخطوط المتباعدة. فما هي اذن تلك الفاعلية والتأثيرات؟ هنا يجب علينا التمييز بين التعبية والاستراتيجية.

ولكنا لا نريد دفع تحليلاتنا بعيداً جداً، لذلك سنورد فقط النقاط التالية كمزايا لتلك التأثيرات:

١ . التأثير المضاعف، او المكثف على الاقل للنار المتقاطعة (المقراضية) حال تحقق درجة معينة من التقارب.

٢ . الهجوم المتقارب بقوة منفردة .

٣ . قطع خطوط التراجع .

يمكن قطع خطوط الانسحاب في الاستراتيجية كذلك، الا ان ذلك اكثر صعوبة لاتساع المنطقة المعنية وتعذر غلقها بالكامل. وعموماً سيحقق الهجوم المركز مكسباً في الثقل والحسم بقدر القوة الهاجمة، وسيتضاءل هذه الكسب كلما تناقص حجم القوة حتى تصل حدها الادنى المطلق – اي الجندي البسيط. يمكن ان يقاتل الجيش بجدارة في اكثر من جبهة، وقدرة الفرقه في ذلك اقل، اما الفوج فلن يستطيع ذلك الا ان كان منضماً بشكل مكثف، اما الرجل الواحد فلن يستطيع القيام بشيء. تعني الاستراتيجية بالقطعات الكبيرة الحجم، والمناطق الواسعة، والفترات الطويلة من الوقت، اما التعبيةّ فعلى العكس من ذلك. لذا وبالضرورة لن يكون للهجوم المركز تأثيراً واحداً في التعبية والاستراتيجية.

لا علاقة لتأثير النيران المتقاطعة (المقراضية) بالاستراتيجية نهائياً، بل يحل محلها عامل أخر – هو التنبه ضد هجوم مباغت في الخلف، وهي تجربة عاشتها كل الجيوش بدرجة ما، عندما يغدو العدو الظافر في الخلف. ووفقاً لدرجة قرب او بعد العدو.

لذلك استحق الاستخدام المتقارب للقطعات ميزة اخرى بجدارة ودون اي شك، هي أن تأثيره على (أ) يمتد كذلك على (ب) دون ان ينقص ذلك شيئاً من التأثير

على (أ)، بينما يستمر التأثير على (ب) بدوره كذلك. لذلك فحاصل التأثير ليس مجرد (أ+ب) بل اكبر من ذلك. وتتحقق تلك الميزة في التعبية وفي الاستراتيجية معاً.

لكن ما الذي يماثل ذلك في العمليات المتباعدة للدفاع، من مزايا؟ بصراحة، يجب ان تكون حقيقة كون القطعات متقاربة مع بعضها وتعمل على خطوط داخلية (Interior). ولا حاجة بنا لاستعراض الطريقة التي يضاعف هذا التقارب فيها مجموع القوة والى حد لا يجروء معه المهاجم على كشف نفسه امامها ما لم يكن متفوقاً بدرجة كبيرة.

حال تقبل الدفاع لمبدأ الحركة (نقر انه سيبدأ متأخراً عن المهاجم، لكن في الوقت المناسب للتخلص من قيود وشلل الجمود) تصبح فوائد التحشد الكبير والخطوط الداخليّة، فوائداً حاسمّة، والتي على الاكثر، وكقاعدة تقود الى الانتصار اكثر من النمط المتقارب للهجوم. الا ان الانتصار ضروري للنجاح: اذ لا بد من هزيمة العدو قبل التفكير بقطع خطوط انسحابه. الخلاصة لقد بات واضحاً تشابه هذه العلاقة مع تلك التي بين الهجوم والدفاع عموماً. يؤدي الشكل المركز الى انقسام ملحوظ، الا ان حاصل الشكل المتباعد مما يمكن الاعتماد عليه كثيراً. فالاول هو الشكل الاضعف وله هدف ايجابي، والاخر هو الشكل الاقوى ومع هدف سلبي. ولان الامر كذلك، فيبدو لي انهما متوازنيين تقريباً. وبوسع المرء ان يضيف الى ذلك ان الدفاع لن يكون مطلقاً في كل الحالات، ولن يستحيل عليه دائماً استخدام قواته تقاربياً. ولن تظل عندها اية اسس منطقية او صالحة للأعتقاد بان الشكل التقاربي وحده يوفر ميزة كلية (شاملة) على الدفاع. وبذا يتحرر حكم المرء من الوهم الخادع الذي يفرض نفسه كلما اثيرت هذه النقطة.

تنطبق تلك الامور على التعبية والاستراتيجية معاً. الا ان هناك نقطة مهمة بشكل خاص وتخص الاستراتيجية، يظل علينا ايضاحها. تتزايد فائدة الخطوط الداخلية وفقاً للمسافة التي تتضمنها. فلو اقتصرت المسافة على بضعة الاف من الخطوات او لعدة اميال فلن توفر سوى القليل من الوقت عما لو استغرق التنقل عدة ايام، او لمسافة بحدود (٢٠٠) ميل. فالمسافة الاولى او القصيرة، مسألة تعبوية، اما الاطول فمسألة استراتيجية وكحقيقة، فالوقت الذي نحتاجه للوصول الى الهدف الاستراتيجي اطول مما في التعبية، كما نحتاج من الوقت لدحر جيش ما، اكثر بكثير مما نحتاجه لدحر فوج، لكن وحتى في الاستراتيجية سيزيد هذا الوقت حتى حد معين – اي حتى

خوض المعركة، ولربما لبضعة ايام وهو الوقت الذي يمكن تجنب المعركة خلاله دون عواقب وخيمة. ويكمن الفرق الاكبر وحتى الاعظم في الفائدة المطلقة والرئيسية في كل حالة. فالمسافة في التعبية، او في معركة ما قليلة جداً حتى ان الجيش قد يقطعها امام انظار العدو تقريباً، لذلك فكل القوات التي على الحافات الخارجية سرعان ما ستشعر بتحركات العدو. اما في المسافات الطويلة في الاستراتيجية، فستظل معظم التنقلات بمنأى عن انظار العدو ولو ليوم واحد على الاقل، وهناك العديد من الامثلة على تنقلات شملت جزءً من الجيش فقط، او بارسال قوة بحجم كبير، اخفيت عن العدو لاسابيع. والميزة الكبيرة للأخفاء، هي للطرف الذي بوسعه الاستفادة منها بسبب طبيعة موضعه، ولا بد وانها واضحة بما يكفي لشرحها.

وهذا ينهي مناقشتنا عن تأثير تقارب وتباعد القوات، وعن علاقة ذلك بالهجوم والدفاع، وسنعود لمناقشة الامرين في مرحلة تالية.

الفصل الخامس
سمة الدفاع الاستراتيجي

لقد بينا للتو ما هو الدفاع – أنه وببساطة الشكل الاكثر فاعلية في الحرب؛ والوسيلة لضمان انتصار يمكن بعده التحول الى التعرض وبعد تحقيق التفوق، اي المضي نحو الهدف الايجابي للحرب.

وحتى لو توخت الحرب المحافظة على الوضع الراهن (Status quo) ، فالحقيقة التي لا شك فيها هي ان مجرد اتقاء الضرب يتعارض والطبيعة الاساسية للحرب، التي لا تقتصر بالتأكيد على مجرد التحمل والبقاء، فحالما يحظى المدافع بفائدة مهمة، يكون الدفاع قد ادى وظيفته. وبينما ما زال متمتعاً بتلك الفائدة، لا بد من رد الضربة، والا سيتعرض للدمار، ومن الحكمة ان يطرق الحديد وهو ساخن، واستغلال هذه الميزة لمنع هجمات جديدة. اما كيف، وأين، ومتى يبدأ رد الفعل هذا، فأمر يعتمد بطبيعة الحال على عدد كبير من الشروط التي سنفصلها فيما بعد. وسنكتفي الان بالقول وببساطة ، بضرورة تقبل هذا التحول الى الهجوم المقابل على انه ميل أو توجه متأصل وكامن في الدفاع – وفي الحقيقة كاحدى سماته الاساسية. وحيثما يتحقق انتصار بواسطة الشكل الدفاعي، فليس مما ينسجم والحسابات العسكرية، ان يترك ليذوي دون استفادة ما، ان جاز لنا قول ذلك، ولو حدث ذلك لكان خطأً كبيراً.

يعتبر التحول القوي والمفاجيء الى التعرض – او سيف الانتقام الصارم – اعظم لحظات الدفاع. وما لم يكن ذلك في ذهن وحسابات القائد منذ البداية، او بالاحرى ما لم تكن جزء اساسياً من فكرته في الدفاع [تصميم الدفاع]، فهذا يعني عدم اقتناعه بتفوق الشكل الدفاعي، ولن يزيد ما يراه عندئذٍ الا مقدار ما بوسعه تدميره من موارد العدو او اخذه. الا ان اموراً كهذه لا تعتمد على الطريقة التي تربط بها عقدة الحبل، بل على الطريقة التي ستحل فيها العقد. واكثر من ذلك، فمن الاخطاء الفجه، ربط الهجوم بفكرة الصولة وحدها، والاقتناع بالتالي بكون الدفاع مجرد فوضى وشقاء.

لا شك ان المعتدي غالباً ما يقرر الحرب قبل توصل المدافع المسكين لذلك، ولو احسن تهيئة الوسائل الكفيلة لابقاء استعداداته سراً، فقد يستولي على خصمه قبل ان

يدرك هذا ما حدث. ولو ان مباغتة كهذه لا علاقة لها بالحرب نفسها، وبالتالي لن تكون ممكنة. لأن الحرب تخدم اغراض المدافع اكثر مما مع المعتدي. فالعدوان وحده هو الذي يستوجب الدفاع، بل والحرب نفسها كذلك. والمعتدي محب دائم للسلام (كما كان نابليون يدعي على الدوام)، وهو يفضل احتلال بلادنا دون مقاومة منا[1]. ولمنعه من تحقيق ذلك، فلا بد ان يصبح الطرف الاخر راغباً في الحرب ومتهيئاً لها. وبكلمة اخرى، فان الضعفاء، هم الذين يحتاجون الدفاع، الذي لا بد ان يتسلح على الدوام كي لا يسهل قهره. **هكذا ينص قانون فن الحرب.**

عندما يستولي احد الاطراف على الميدان قبل الاخرين، فان ذلك يحدث عادة لاسباب لا علاقة لها بنية الهجوم او الدفاع. انها ليست الدوافع، بل غالباً النتائج التي تظهر مبكراً. الطرف الذي استعد اولاً ، ووجد فائدة هامة في هجوم مباغت، سوف يتخذ **ولهذا السبب** التعرض. اما الطرف الابطأ في الاستعداد فبوسعه والى حد ما التحسب للأضرار اللاحقة باستثمار مزايا الدفاع.

عموماً، يجب ان تعتبر القدرة على الاستفادة من مزايا كونه استعد اولاً، كفائدة للمهاجم ، وكما أوضحنا ذلك في الكتاب الثالث. رغم ان هذه الميزة العامة ليست اساسية في كل حالة معينة.

وعليه فان كنا نريد تصور وتفهم الدفاع كما ينبغي ان يكون، فهو كما يلي: تهيئة قصوى وشاملة لكل الوسائل؛ فالجيش كفيء وأحسن اعداده للحرب، كما قد تعود عليها وخبرها؛ وسيسمح القائد للعدو ان يأتي، وان يتوغل ليس بسبب التردد والحيرة والفوضى ولا بسبب الخوف، لكن باختياره، ببرودة وذكاء مدروس، كما ان الحصون امينة ولا تخشى مغبة الحصار، واخيراً فان شعباً شجاعاً قوي القلب لا يخشى العدو بالقدر الذي لا يحس به عدوه نحوه. وهكذا فان دفاعاً اعد بهذه الطريقة، لا يثير الاسى عند مقارنته بالهجوم، كما ان هذا الاخير لم يعد ذلك الشكل البسيط جداً والمعصوم من الاخطاء وكما كان يلوح في مخيلة اولئك الذين يعدون الهجوم وبساطة شجاعة وعزم وحركة؛ ولا يرون في الدفاع شيئاً اكثر من العجز والشلل.

---

(١) . لا يسخر كلاوزفيتز بكلماته هذه فالمعتدي محب للسلام فعلاً كما يحب اللص السكون، وهكذا تفعل اسرائيل، فالمعتدي يسعى لان يعيد بناء العالم كما يريد هو، ويحيره اعتراض الاخرين لذا لا بد له من اسكاتهم واخضاعهم كي يعم الهدوء. المترجم

الفصل السادس
مدى وسائل الدفاع

لقد اوضحنا في الفصلين الثاني والثالث التفوق الطبيعي للدفاع في استخدام الوسائل – عدى عن قوته المطلقة ونوعية القطعات التي تحتم النجاحين التعبوي والاستراتيجي. ومن بينها فائدة الارض، والمباغتة، والهجوم المركز، وفوائد مسرح العمليات، والدعم الشعبي، وثقل العوامل المعنوية. لعل من المفيد القاء لمحة ثانية على نوعية الموارد والوسائل الرئيسية المتاحة تحت تصرف المدافع. والتي يمكن مقارنتها بمجموعة متنوعة من الاعمدة التي يستند عليها بناءه الشاهق.

١ . المليشيا

استخدمت المليشيا في العصور الحديثة، ليس في مهمات واغراض داخل الوطن وحسب، بل وكذلك لغزو اراضي العدو، ولا ننكر ان تنظيمها وتأليفها في بعض الدول – كبروسيا على سبيل المثال – وصل حداً يمكن معه اعتبارها جزء مهماً من الجيش النظامي. لذا فهي والحالة هذه ليست مجرد وسيله دفاعية. ومع ذلك علينا ألا ننسى ان استخدامها الفعال في السنوات (١٨١٣–١٤–١٥) انما تركز في حروب دفاعية، ذلك لانها لم تنظم بالطريقة التي اتبعتها بروسيا الا في عدد قليل من الدول الاخرى، لذلك فحيثما لم يكن تنظيمها متكاملاً فستظل اكثر فائدة في الدفاع لا في الهجوم. وبغض النظر عن ذلك، فان مفهوم المليشيا متطابق مع فكرة تحقيق مشاركة طوعية وكبيرة الى حد استثنائي للشعب كله في الحرب، باذلاً قوته المادية، وامواله واخلاصه. وكلما قل تشابه المنظمة مع هذا الشكل كلما غدت جيشاً نظامياً تحت اسم آخر. ستكون لها فوائد الجيش النظامي الا انها ستفتقد فوائد المليشيا الاصلية، في كونها مصدر كبير للقوة، تمتاز بالكثافة العالية، والمرونة الفائقة، وتسهل اثارة روح الولاء والحماس فيها. هذه هي العوامل الاساسية للمليشيا. لذا لا بد ان يترك تنظيمها مجالاً واسعاً للمشاركة الشعبية، وبخلاف ذلك فلن تزيد الامال الكبيرة في التعويل عليها عن اوهام مجردة.

لا يمكن ان يخطأ احد العلاقة الوثيقة ما بين الطبيعة الشعبية للمليشيا، ومفهوم الدفاع، لذا لا يمكن كذلك ان نخطأ في تفهم حقيقة وامكانية اعتبار المليشيا كجزء من الدفاع لا الهجوم. والخصائص التعرضية التي تمتاز بها المليشيا لا تظهر بشكل اساسي الا من خلال الاعمال الدفاعية.

٢ . الحصون .

يقتصر الدور الذي تلعبه حصون المهاجم على تلك القريبة جداً من الحدود والتي ليست مهمة جداً. اما تأثير حصون المدافع فيمتد عميقاً داخل بلاده، كذلك يشمل التأثير معظمها، واسهام كل منها كبير نسبياً. والقلعة التي تجتذب، وتصمد امام حصار جدي ومتكامل، لها في الحرب وزن واهمية تفوقان كثيراً ما لقلعة قوية التحصين بحيث يصعب اختراقها، الا انها لا تشغل او تشتبك مع قوات معادية او تدمرها.

٣ . الشعب .

رغم ان تأثير مواطن واحد في مسرح العمليات وكقاعدة ليس ملحوظاً على الحرب ولا يزيد عن تأثير قطرة ماء واحدة على النهر، الا ان **التأثير الكلي** لابناء الشعب اكبر بكثير مما يمكن تجاهله، حتى في حالة عدم نشوب عصيان او حركات معارضة مسلحة. تجري كل الاعمال بسهوله داخل البلاد – مفترضين ان الشعب ككل ليس معارضاً (غير متعاطف). ولا يقدم اية خدمات أو معاونة صغيرة او كبيرة للعدو عدى في **الظروف القاهرة**، التي تمارسها القطعات على حساب قوتها وجهدها. اما المدافع فبوسعه الحصول على كلما يريد. وان كان ذلك لا يقدم كمجرد دليل على الحماس والولاء الوطنيين، بل يقدم عادة وفق التقاليد العريقة لطاعة المدنيين والذي يعد الطبيعة الثانية للمواطنين، وكذلك خضوعاً للأوامر الحكومية، والضوابط الاخرى التي لا تفرضها العسكرية. وكتطوع اختياري يولد مع المواطن وذو قيمة كبرى دائماً، سيما وانه لا يطلب عندما لا تدعو الحاجة الى تضحيات فعلية. ولنورد مثالاً واحداً له اهمية كبيرة على ادارة العملية العسكرية وهو المعلومات. ولا نعني بذلك فقط او نركز كثيراً على تقرير منفرد قد يحمل معلومات في غاية الاهمية بل الى ما لا يحصى من احداث واشتباكات ثانوية وانشطة مما يجرى يومياً في جيشنا. وحيث ينال المدافع وعبر علاقاته الوثيقة مع السكان تفوقاً عاماً. فحتى اصغر الدوريات، وكافة المخافر والمراصد الصغيرة، وكل ضابط في مهمة، كل هؤلاء سيعتمدون على السكان المحليين لطلب المزيد من الاخبار عن الاصدقاء والاعداء.

ولو انتقلنا من هذه الظروف والعموميات التي تحدث باستمرار، الى مواقف وحالات خاصة يصل الامر فيها الى مشاركة ابناء الشعب حتى في القتال ذاته، وصولاً

الى اعلى مستويات التعاون الشعبي، وكما كان عليه الحال في اسبانيا، حين اشعل الشعب فتيل الحرب بنفسه، سيتضح عندها اننا وببساطة لا نتعامل مع الدعم الشعبي المكثف لكن مع مصدر اصيل وجديد من مصادر القوة، يحق معه للمرء ان يقول أن:

٤ . **شعباً مسلحاً**، او حرساً وطنياً قد يعتبر احدى الوسائل الخاصة في الدفاع.

٥ . **اخيراً** يمكن اعتبار **حلفاء** المدافع كمصدر الدعم الاخير. ولا نعني بذلك النوع المعتاد من الحلفاء كالذي يحظى المهاجم بمثلهم، بل ذلك النوع الذي له مصلحة **اساسية** في المحافظة على سلامة اراضي وبلاد حليفهم. ولو امعنا النظر في مجموعة الدول الاوروبية اليوم فلن نجد توازنا منتظماً للقوى، ولا مجالات او دوائر للنفوذ، او انها لا تظهر بقوة، وحتى ان ظهرت فهناك الكثير من المبررات المقبولة لنكرانها، لكننا وبكل تأكيد نلمس وجود الكثير من المصالح الصغرى والكبرى للدول والشعوب، والتي تتشابك فيما بينها وتتغير وتتنوع باكبر ما يمكن لطريقة من هذا النوع. وتعمل كل نقطة مفصلية فيها وتربط توازن احدى مجموعات المصالح ضد اخرى. ومجموع التأثير العريض لكل تلك النقاط الثابتة يضعف بالضرورة هذا التماسك الى حد ما. الا ان المجمل الكلي للعلاقات ما بين الدول يسعى للمحافظة على الاستقرار الكلي اكثر مما لاثارة تغييرات جديدة، او على الأقل تلك التي تميل الى الظهور عموماً.

نرى ان تفسير فكرة توازن القوى ينبغي ان يكون بهذا الشكل، كما نرى ان هذا النوع من التوازن يميل الى الظهور تلقائياً كلما ارتبطت مجموعة من الدول المتحضرة في علاقات متعددة الجوانب.

اما الى اي مدى يساعد فيه توزع المصالح العامة هذا في المحافظة على الظروف السائده فامر آخر. وبوسع المرء تصور نوعية التغييرات في العلاقات بين دول منفردة والتي ستقوي وتؤكد هذا الاثر (النتيجة)، والتغييرات الاخرى التي يمكن ان تضعفه. النوع الاول هو محاولات لتحسين التوازن السياسي، وبالقدر الذي تعكس فيه غايتها المصالح العامة، فسيؤمن ذلك مصلحة ورضا غالبية الاطراف. اما النوع الاخر، فهو انحراف، ونشاط مفرط لدول منفردة، كحالات المرض الحادة، وينبغي للمرء ان لا يندهش لتفشي الامراض في الدول التي وهنت مؤسساتها الاساسية، كالدول المتعددة السكان، والمختلفة الحجوم، لانها بعد كل شيء تتفشى كذلك في الكيانات العضوية الرائعة التلاحم وفي شتى مجالات الحياة.

قد يثور هنا اعتراض بطبيعة الحال، بأن التاريخ يقدم لنا امثلة على دول منفردة احدثت تغييرات جذرية افادت هي منها فقط، ودون ادنى جهد من الدول الاخرى لمقاومة ذلك. كما ان هناك حالات تمكنت فيها دول منفردة ان تغدو بالغة القوة والى حد املاء ارادتها على الاخريات. واجابتنا على هذا الاعتراض، انه لا يلغي دور المصالح العامة في دعم النظام القائم، وكلما يظهره هو ان ذاك التوجه لم يكن بالغ القوة والتأثير ساعتها. فالطموح نحو هدف، لا يشبه العمل والحركة نحو ذلك الهدف، الا اننا لا نريد القول ان ذلك يعني الالغاء – فانظر الى تدابير السماء.

لذلك تقر ان حالة التوازن تميل الى الابقاء على الوضع القائم سليماً – اذ تفترض على الدوام ان الوضع الاساسي يوفر الهدوء والاستقرار. وحال نشوب حالة توتر واضطراب يمكن القول عندها ان التوجه نحو الاستقرار سيتحول بالتأكيد ويتجه نحو محاولة احداث تغيير معين. ويكمن ذلك في طبيعة الاشياء. وستفترض معظم الدول عندها مراعاة مصلحة المجموع وضمان الاستقرار لهم. وهكذا فمن المؤكد ايضاً، ان كل دولة على انفراد لم تتعرض علاقتها مع الدول الاخرى لمشاكل وضغوط، ستجد وهي تدافع عن نفسها ان لها من الاصدقاء اكثر مما من الاعداء.

قد يسخر المرء ويستهجن مثل هذه الافكار ويعدها من قبيل الاحلام الطوباثية، الا انه سيفعل ذلك على حساب الحقيقة الفلسفية. فقد علمتنا الفلسفة ادراك وتمييز العلاقة التي تشد العناصر الاساسية مع بعضها البعض، وإننا سننطلق بعد ذلك حقاً من هذه النقطه نحو صياغة قانون عام يحكم كل حالة منفردة، بغض النظر عن اية تأثيرات عرضية. ومع ذلك فالشعب «**الذي لم يرتفع بعد عن مستوى الحكايات**» كما قال احد كبار الكتاب، والذي سيرتب تاريخ كل الاحداث المنفردة – مبتدئاً على الدوام باكثر السمات اثارة، او قمة الحدث، ثم يحفر الى العمق الذي يناسبه فقط، دون الغوص الى حيث تستقر العوامل الرئيسية التي تتحكم في الأمر. وبالتالي لن تكون نتائج بحثهم صالحة لاكثر من حالة واحدة، وفي الحقيقة فانهم يعتبرون الفلسفة التي تسيطر على المسار العام للأحداث والحالات مجرد حلم.

ما لم يتوجه ذلك الجهد العام نحو المحافظة على الوضع الراهن، فليس بوسع عدد من الدول المتمدنة التعايش بسلام لفترة من الوقت ابداً، وستجد هناك ما يدفعها الى الانصهار في دولة منفردة. اما حقيقة كون اوربا، وكما نعرفها، قد استمرت لاكثر

من الف سنه، فيمكن تفسيره بفاعلية وتأثير تلك المصالح العامة فقط، وما لم يكن الامن الجماعي كاف على الدوام للمحافظة على سلامة كل دولة على انفراد، ينبغي عندها ان يعزى هذا الواقع الى الاستثناءات الشاذه في حياة المنظومة ككل والتي وبدلاً من القضاء عليها، غاصت فيها.

ما من حاجة بنا الى استعراض ما لا يحصى من الامثلة على التغييرات التي كانت قادرة على قلب وافساد التوازن بشدة، لولا ردود الفعل الصريحة تقريباً للدول الاخرى الامر الذي منع او عكس ذلك. ويكفي لمحة صغيرة للتاريخ لايضاح ذلك. ومع ذلك فان احدى الحالات، تستحق الذكر – والتي كثيراً ما يتجاهلها او يمر بها سريعاً اولئك الذين يسخرون من مجرد فكرة التوازن السياسي – لانها تبدو وثيقة الصلة وكمثال حاد للغاية في كيفية القضاء على بلد مسالم ولم يؤذ احد، دون ان يسارع احد لنجدته، ونعني بذلك بولندا. فحقيقة ان دولة تضم (٨) ملايين نسمة، يمكن ان تزول من الوجود، أو تقّسم بين ثلاثة اطراف، دون ان تحمل الدول الاخرى السلاح، فسيبدو الامر للمحة الاولى كحالة اما تثبت لا جدوى ولا فعالية التوازن السياسي عموماً، او توضح على الاقل مدى ونوعية ما يمكن ان تكون عليه هذه اللافعالية في ظرف معين. كما ان حقيقة اختفاء دولة بهذا الحجم، وان تكون فريسة لدول اخرى من بينها بعض اكثر الدول قوة (روسيا والنمسا)، تشكل حالة متطرفة للغاية. وما لم تثر حالة كهذه اهتماماً عاماً في دول المجموعة الاوربية، فبوسع المرء عندها القول بان فاعلية وقوة المصالح العامة في ضمان سيادة الدول المنفردة ليس سوى وهم زائف. ومع ذلك نصر نحن على ان حالة منفردة، ومهما كانت درجة اثارتها لا يمكن ان تفسد مبدأ عاماً، كما ان مواصلة وارث العرش البولندي كفاحه ليس بالغرابة التي يبدو عليها. لكن هل يمكن اعتبار بولندا دولة اوربية، وند بين انداد متساوين بين امم المجموعة الاوربية؟ كلا لا يمكن ان تكون كذلك، فهي دولة تترية، لكن وبدلاً من وقوعها على ضفاف البحر الاسود، كتتر منطقة «القرم CRIMEA » على حافة المجموعة الاوربية، قامت وسط المجموعة وعلى نهر الفستولا. نحن لا نقصد بقولنا ادنى اهانة للبولنديين، ولا لنبرر اقتسامها، فكل ما يعنينا هنا، سرد الحقائق: لم تلعب بولندا اي دور سياسي هام وفعال لما يقرب من قرن كامل، كما كانت سبباً لتنازع دول اخرى. ولو تمعنا في ظروفها، ونوعية المؤسسات التي تمتلكها، فقد تعجز عن صيانة استقلالها. ويمكن ان تتغير طبيعتها التترية هذه بفعل حدث جذري يمكن ان يتم عبر خمسين او مائة عام، شرط موافقة واستعداد قادتها. لانهم انفسهم متمسكين بانتمائهم التتري

بشكل لن يتمنون معه تغييراً كهذا. كما تتسم حياتهم العامة بنوع من الفوضى واللامسؤولية اللامحدودة، وتدفع بهم سريعاً نحو الهاوية. كان الروس يفعلون كلما يحلو لهم داخل بولندا قبل تقسيمها بزمن طويل. ولم تعد فكرة وجود بولندا مستقلة وبحدود كاملة، تتماشى مع الواقع، وليس هناك اية شكوك حول تحول بولندا الى منطقة روسية لو لم تقسم. اما لو كانت بولندا دولة قادرة على الدفاع عن نفسها فعلاً فما كانت الدول الثلاث ستنجح بتجزأتها بهذه السهولة، ولكان بوسع الدول الاخرى المعنية بصيانة استقلالها (فرنسا، والسويد، وتركيا) التعاون من اجل بقائها. الا اننا نطالب بالكثير عندما يصل الأمر الى تولي الاخرين مهمة المحافظة على سيادة دولة ما، كلياً.

استمر البحث حول تقسيم بولندا لاكثر من قرن. ومنذ ذلك الحين بدأت تفقد شكل وخاصية الوطن الواحد، وتحولت الى ما يشبه طريق عام واسع تستطيع الجيوش الاجنبية ان تلهو وتمرح أينما، وحيثما شاءت فكيف كان على الدول الاخرى ان تتولى ايقاف ذلك؟ وكيف نفترض أن تظل تلك الدول شاهرة اسلحتها لحماية وصيانة قدسية الحدود البولندية؟ لا شك ان ذلك سيتجاوز الحدود الاخلاقية الممكنة. كما ان بولندا لم تكن تتجاوز من الناحية السياسية انذاك السهول الخالية من السكان. فمثل هذه النجود الجرداء الواقعة وسط مجموعة من الدول الاخرى، مما لا يمكن حمايتها من تجاوزات تلك الدول ولا صيانة سيادتها من قبل أخرين. لذلك ولكل هذه الاسباب ينبغي ان لا نرى في الانهيار الصامت لبولندا اية غرابة اكثر من تلك التي حول دول تتر القرم. الاتراك معنيون وبالتأكيد حول القرم اكثر من عناية اي بلد اوربي بحماية بولندا، الا انهم ادركوا ان ذلك ليس سوى مضيعة للجهد ومحاولة مضنية لحماية سهول عاجزة عن المقاومة.

ولنعد الان الى موضوعنا، ونعتقد أننا أوضحنا أن المدافع بوسعه وكقاعدة الاعتماد اكثر من المهاجم على المساعدة الخارجيه، وكلما زاد اهتمام الاخرين ببقاءه – اي، قوة وحيوية ظروفه السياسية والعسكرية – كلما تأكدت قدرته في الاعتماد على عون الاخرين.

بطبيعة الحال ليست كل العوامل التي وردت في القائمة وعدت كوسائل حقيقية للدفاع متيسرة في جميع الحالات. فقد يختفي بعضها في بعض الحالات، وآخر في غيرها، الا انها تقع جميعاً تحت العنوان العام للدفاع.

الفصل السابع

التفاعل بين الهجوم والدفاع

لقد آن لنا الان التمعن في الدفاع والهجوم كلاً على حدة، وبالقدر الذي يمكن الفصل بينهما. وسنبدأ بالدفاع للأسباب التالية. رغم ان من الطبيعي تماماً، بل ومما لا غنى عنه، ارساء مباديء الدفاع على تلك التي تحكم الهجوم والعكس بالعكس، لابد ان هناك جانب ثالث لاحدهما يصلح كنقطة للأنطلاق منها نحو سلسلة من الافكار. ولجعلها شيئاً حقيقياً ملموساً، لذلك سيتناول سؤالنا الاول تلك النقطة.

لو تمعنا بشكل مجرد بكيفية نشوء الحرب. فان مفهوم الحرب اساساً لا ينشأ بالهجوم، لان الهدف النهائي للهجوم ليس القتال، بل بالاحرى، التملك (السيطرة). وتنشأ فكرة الحرب مع الدفاع الذي يعد القتال هدفاً متوسطاً له، نظراً لان القتال واتقاءه يرقيان وكما هو واضح للشيء نفسه. والصد يوجه ضد الهجوم فقط، والذي يعد لذلك شرطاً اساسياً له، اما الهجوم، فهو مع ذلك لا يوجه نحو الدفاع، بل نحو هدف مختلف – **التملك**، والذي لا يعد بالضرورة شرطاً أساسياً للحرب. وهكذا ففي طبيعة القضية، ان الجانب الذي أدخل العنصر الاول للحرب، والذي تسببت وجهة نظره بوجود الطرفين، هو نفس الطرف الذي يشرع القانون الاولي للحرب ايضاً. ذلك الجانب هو **الدفاع**. وما نعني به في مناقشتنا هذه ليس حاله أو مثل محدد بل حالة عامة مجردة، لابد من التسليم بها وصولاً الى النظرية.

نحن نعرف الان اين بوسعنا العثور على النقطة المحددة التي تستقر خارج تفاعل الدفاع والهجوم؛ إنها تكمن في الدفاع.

لذا يجب على المدافع ارساء القواعد الصلبة لعمله، ان صحت الحجة اعلاه، حتى لو لم تكن لدى المدافع فكرة عما يسعى المهاجم لعمله، كما لا بد أن تتضمن القواعد الصلبة وبالتأكيد ترتيب قواته. والمهاجم من الناحية الاخرى، وطالما كان لا يعرف شيئاً عن خصمه، فسيكون دون دليل عمل يرسي على ضوءه كيفية استخدام قواته. وكلما بوسعه هو إن يأخذ قواته معه – وبكلمة اخرى، تحقيق التملك بوسائله، أي بجيشه. وذلك في الحقيقة هو ما يحدث فعلاً؛ إذ أن جمع الجيش هو شيء واحد، اما استخدامه فامر آخر. يأخذ المعتدي جيشه على إفتراض أن تتاح له فرصة

لاستخدامه، ورغم انه قد يحقق تملكه لبلاد العدو بجيشه بدلاً من الرسميين والاداريين والبيانات الرسمية، الا انه وبالتحديد لم ينهمك بعد في عمل إيجابي للحرب. إنما المدافع الذي لا يكتفي بحشد قواته فقط، بل ويرتبها بحالة استعداد للعمل، هو الذي يباشر اولاً العمل الذي يتلائم ومفهوم الحرب حقاً.

نصل الان الى السؤال الثاني : ما طبيعة الاسباب الاساسية التي تحرض على الدفاع ابتداء من الناحية النظرية، وحتى قبيل تفكير المدافع بامكانية مهاجمته؟ من الواضح أنه العدو المتقدم ساعياً لفرض سيطرته «التملك» والذي اعتبرناه غريباً على الحرب، والذي يشكل الاساس، للخطوات الاولى للأنشطة العسكرية. يستهدف هذا التقدم ردع المدافع، لذلك يجب النظر اليه وفقاً لعلاقة البلاد بذلك، وهذا ما يحدد الترتيب العام الاولي للدفاع. وبعد اكمال ذلك الترتيب سيتجه المهاجم نحوه، مع نشوء قواعد جديدة للدفاع، ستستند على تفحص الوسائل التي استخدمها المهاجم . يبدو التفاعل عند هذه النقطة واضحاً، وقد يواصل المفكرون دراستها طالما تبرز نتائج جديدة وتجعل الدراسة ذات قيمة.

والخلاصة فان التحليل ضروري لتأمين المزيد من الوضوح نوعا ما، كما انه مهم جداً لمناقشاتنا التالية، وليس موجهاً او معنياً بميدان المعركة، ولا لقادة المستقبل، بل لكل المنظرين الذين لم يخصصوا سوى القليل من الاهتمام لهذه القضية حتى الان.

الفصل الثامن

انواع المقاومة

يكمن جوهر الدفاع في تفادي الهجوم. ويتضمن ذلك بالمقابل، الانتظار، وهو عندنا السمة الأساسية للدفاع، وفائدته الرئيسية كذلك.

طالما لا يمكن أن يتضمن الدفاع طاقة ايجابية، فليس الانتظار مطلقاً كذلك، بل نسبياً. فهو بالنسبة الى المكان (المسافة space) متعلق بالبلاد، او مسرح العمليات، او الموضع؛ اما نسبة الى الوقت، فمتعلق بالحرب، او الحملة، او المعركة. وكل هذه ليست في الحقيقة وحدات ثابتة غير قابلة للتبدل، الا انها النقطة المركزية لمناطق معينة تتداخل وتندمج مع بعضها البعض. ومع ذلك فعلى المرء الاكتفاء في التطبيق الفعلي بمجرد ترتيب الامور في مجموعات اكثر من التركيز على الفصل فيما بينها، كما تصبح تلك المصطلحات في الاستخدام العام محددة بوضوح كاف لأعتبارها نواة تتجمع حولها الافكار الاخرى بمرونة.

لذلك ليس على المدافع عن البلاد، سوى مجرد انتظار المهاجم ليأتيه في بلاده، والمدافع عن مسرح الحرب ينتظر المهاجم على ذلك المسرح، والمدافع عن الموضع ينتظر المهاجم عند ذلك الموضع. وحال بدء الهجوم، فاية انشطة، واية تحركات تعرضية تقريباً يقوم بها المدافع وقتها، لن تلغي مفهوم الدفاع، فقد تم إرساء ميزته الهامة، وفائدته الرئيسية، **الانتظار** .

يتوازى المفهوم المتميز للوقت – الحرب ، والحملة، والمعركة – مع مفهوم المسافة – البلاد، ومسرح العمليات، والموضع – ولهما نفس العلاقة بموضوعنا.

يتألف الدفاع لذلك من جزئين متميزين، الانتظار والعمل. وبربط الاول الى هدف محدد يسبق العمل، بوسعنا دمج الجزئين في كل واحد. الا أن العمل الدفاعي – وعلى الاخص الواسع النطاق كالحملة او الحرب – سوف لن يتألف، فيما يخص الوقت من صفحتين رئيسيتين، الاولى من الانتظار الصرف، والثانية من العمل الصرف، بل انها تتناوب ما بين الحالتين، لذا قد يتواصل الانتظار كالخيط خلال كل مرحلة الدفاع.

تفرض طبيعة الموضوع، اعطاء اهمية كبيرة جداً للأنتظار. ومن قبيل التأكيد، فالمنظرين الاوائل لم يمنحوا الانتظار قيمة المفهوم المستقل، الا انه وفي التطبيق قد لعب

دور الدليل الموجه، رغم ان الرجال لم يتلمسوا أو يدركوا ذلك معظم الوقت. الانتظار سمة بارزة واساسية في كل الحروب، ولا يمكن تصور الحرب من دونها، لذلك سنعود اليها، وغالباً ما تتيسر لدينا الفرصة لذلك، ببيان اثارها على ديناميكية استخدام القطعات.

ينبغي علينا الان ايضاح استمرارية الانتظار خلال الفترة الكلية للدفاع، وكيف تنشأ المراحل المتلاحقة للدفاع فيه.

لاجل ارساء وترتيب افكارنا بامثلة بسيطة، سنؤجل (وحتى نصل الكتاب الذي يبحث في خطط الحرب) موضوع الدفاع عن البلاد، وهو موضوع كثير التنوع، وكثير التأثر بالظروف السياسية. من الناحية الاخرى فان الدفاع في موضع، أو في معركة، من الامور التعبوية، ويمكن **وبعد اكماله فقط** أن يشكل نقطة ابتداء لفعاليات استراتيجية. لذلك سنتناول الدفاع عن **مسرح العمليات** كموضوع يصور لنا شروط الدفاع على أفضل وجه.

لقد أوضحنا أن الانتظار والعمل – والاخير يأتي كاجابة سريعة، أو طعنة ماضية[٣] دائماً، لذا فهو رد فعل – يشكلان معاً اجزاءاً اساسية من الدفاع . فبدون الاول ، فليس هناك من دفاع، وبدون الثاني فليست من حرب. ولقد قادنا هذا المفهوم للتو الى إعتبار **الدفاع وببساطة الشكل الاقوى للحرب، والذي يجعل اندحار العدو مؤكداً بقوة اكثر** ويجب علينا أن نصر على هذا التفسير – وذلك لأن اي تفسير اخر سيؤدي بنا الى سخافات لا معنى لها من ناحية، وكلما زادت حيوية وشمولية هذا التصور اكثر، فكلما ستزيد قوة وشمولية العمل الدفاعي اكثر.

مما يخالف التفسير اعلاه مناقشة رد الفعل، أو العنصر الضروري الثاني في الدفاع، وذلك بالتمييز ما بين اجزاءه، والبحث في الصفحة التي تتضمن، تحديداً، صد العدو – عن البلاد، او عن مسرح العمليات، او الموضع – واعتباره الجزء الضروري الوحيد، والذي سيقتصر على ما هو ضروري لتحقيق الهدف. اما الصفحة الاخرى، اي امكانية رد الفعل الذي **يمتد الى مجال التعرض الاستراتيجي الفعلي**، فيجب اعتبارها انذاك غريبة عن، ولا ترتبط بالدفاع. لا يمكن قبول تمييز كهذا أساساً؛ ويجب أن نصر على أن فكرة **الانتقام**، تظل اساسية في كل دفاع. وبخلاف ذلك، وبغض النظر عن حجم الدمار الذي تسببه الصفحة الاولى من رد الفعل، التي لو نجحت للعدو، سيظل التوازن الدقيق مطلوبا في أستعادة العلاقة الحية (الديناميكية) بين الهجوم والدفاع .

لذا نكرر أن الدفاع هو الشكل الاقوى للحرب، والذي يجعل إندحار العدو مؤكداً بقوة. وقد نترك للظروف أن تقرر ما إذا كان انتصاراً كهذا سيتجاوز الهدف الاصلي للدفاع ام لا.

نظراً لتقييد الدفاع بفكرة الانتظار، فستكون غاية تدمير العدو شرعية وسليمة فقط في حالة وقوع هجوم ما. وما لم نتوقع هجوما ، فمن المفهوم عندها ان الدفاع سيكتفي بما هو عليه، وتلك هي غايته، او بالاحرى غايته الاولية، خلال فترة الانتظار. والدفاع قادر على انضاج مكاسب الشكل الاقوى للحرب فقط في حالة اكتفاءه بهذا الهدف المتواضع.

لنتأمل الان في جيش ما، كلف بالدفاع عن مسرحه للعمليات، فقد يحقق ذلك بالطرق التالية:

١ . يمكن ان يهاجم العدو في لحظة اجتياحه لمسرحه للعمليات (موليفتز[١]، وهوهن فريدبيرج[٢]).

٢ . يمكن احتلاله لموضع قريب من الحدود، حتى ظهور العدو، والبدء باستعدادات الهجوم، ومن ثم مهاجمته اولاً (معارك جوتست[٣]، وسور[٤]، وروزباخ[٥]). وتوجه كهذا وكما هو واضح، اكثر سلبية، وبحاجة الى فترة انتظار اطول، لذا فلن يكسب سوى القليل أو حتى لا شيء من **الوقت** من الخطة الثانية مقارنة بالاولى ان نفذ العدو هجومه فعلاً، واكثر من ذلك، فالمعركة التي كانت مؤكدة في

---

(١) معركة موليفتز راجع الهامش في الفصل الرابع الكتاب الخامس ص ٤٠٩.

(٢) معركة هوهن فريديبرج راجع الهامش في الفصل الثامن عشر الكتاب الخامس ص ٤٩٦

(٣) معركة (جوتست) او (قاسلاو) في ١٧٤٢/٥/١٧ وهي احدى معارك حرب الوراثة النمساوية بين بروسيا والنمسا ثم اتسعت لتضم فرنسا وبافاريا وساكسوني وسافوي الى جانب بروسيا، وانكترة وهولندا الى جانب النمسا، اما السويد وبتأثير من فرنسا فقد هاجمت روسيا. لقد فشلت خطة التحالف ضد النمسا لانتصار هذه على بعض أطرافه الصغار كبافاريا فاضطرت وكذلك بروسيا للأنسحاب وأجبر فردريك الكبير بالعودة الى سليزيا بعد تهديد خطوط مواصلاته ولغزو هنغاريا لسيليزيا فلحقه جارلس النمساوي حيث دارت معركة جوتست الشديدة وانتصر فيها البروسيون بفضل جهود فردريك الكبير باعداد جيشه وبعد معركة أخرى (ساهي) في ٥/٢٧ عقدت هدنة إعترفت فيها النمسا بسيادة بروسيا على سليزيا. (موسوعة التاريخ العسكري – ص ٦٣٢).

(٤) معركة سور . راجع الهامش في الفصل الرابع الكتاب الرابع ص ٣٣٠

(٥) معركة روزباخ . راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب الثالث. ص ٢٧٢. المترجم

الحالة الاولى ستكون أقل ضماناً في الثانية، كما قد لا يصل قرار وعزم العدو حد المعركة. مما سيجعل فوائد الانتظار اكثر.

٣ . يمكنه الانتظار، ليس فقط لقرار العدو بالهجوم - اي ظهوره الفعلي امام الموضع - بل وشنه للهجوم فعلاً (كما في بنزيلفتز، هذا لنختار مثالاً من حملات القائد الذي نعنيه هنا)[1]. وسيقاتل العدو انذاك معركة دفاعية حقيقية، الا إنها وكما سبق لنا القول، معركة قد تتضمن أعمالاً تعرضية بجزء من الجيش. هنا ايضاً وكما في الحالة السابقة، لن يكسب شيئاً يذكر من الوقت، الا إن بالامكان إختبار عزم ونوايا العدو مرة اخرى. لقد حدث وتقدمت جيوش عديدة للهجوم الا إنها نكصت في اللحظات الاخيرة، أو توقفت بعد أول محاولة واكتشافها أن مواضع العدو (المدافع) قوية جداً.

٤ . بوسعه الانسحاب الى داخل البلاد والمقاومة هناك والغاية من هذا الانسحاب هي اضعاف العدو والى الحد الذي يوقف فيه تقدمه بنفسه ودون اكراه او تدخل، او على الاقل بدرجة من الضعف يعجز معها عن التغلب على المقاومة التي سيواجهها فيما بعد.

واكثر الامثلة بساطة وروعة هي الحالة التي يستطيع المدافع أن يترك خلفه حصناً أو اثنين يتوجب على المهاجم مراقبتها (تثبيتها) أو محاصرتها. ولا شك في ان ذلك سيضعف المهاجم، ويوفر فرصة للمدافع بمهاجمته في النقطة التي يرى المدافع أن له اليد العليا فيها.

وحتى حيث لا توجد قلاع، فبوسع تراجع كهذا نحو الداخل اعادة التفوق أو قلب التوازن لصالح المدافع. واللذان ما كان ليحصل عليهما في مواضعه عند الحدود. كما يقلل اي تقدم في الهجوم الاستراتيجي، من قوة المهاجم، ويعود ذلك جزئياً الى ما سيتكبده من خسائر حتماً، والى انقسام قوته الذي سيصبح ضرورياً. وسنناقش ذلك بتفصيل اكبر عند مناقشة الهجوم. وسنكتفي حالياً بافتراض صحة امر كهذا، نظراً لما قدمته لنا حروب الماضي من شواهد كافية عليه.

تكمن الفائدة الرئيسية للحالة الرابعة اعلاه في الوقت الذي توفره. فلو حاصر العدو إحدى قلاعنا، فسنربح كل الوقت الذي يستغرقه الحصار والى حين استسلامها (وهو محتمل الا انه قد يستغرق عدة اسابيع، وعدة أشهر في بعض الحالات). من

---

(١) المقصود هنا فردريك الكبير . المترجم

الناحية الاخرى، اذا نجم فقدانه للقوة، واستنزاف زخم الهجوم، وببساطة من جراء تقدمه واضطراره لترك بعض المفارز والحاميات في النقاط الحيوية، وهكذا وبفعل المسافة التي قطعها فقط يكون الوقت الذي ربحناه اكثر بكثير عادة، ولن نعود عندها مجبرين بقوة على العمل في لحظة معينة.

عندما يجرى هذا العمل في مساره فسوف لن تتغير قوتي المدافع والمهاجم النسبية وحسب، بل سيضيف المدافع لصالحه الفائدة المتزايدة للأنتظار. وحتى لو لم يسبب تقدم المهاجم إضعافه بما يكفي لمنعه عن مهاجمة قوتنا الرئيسية، وحيث سيتوقف، وقد يعوزه العزم للقيام بذلك. اذ لا بد ان يكون العزم في موقف كهذا اقوى بكثير مما كان عليه الحال عند الحدود، ويعود ذلك جزئياً الى تناقص قوته، ولانها لم تعد بالنشاط والحيوية اللتان كانت عليهما، كما زادت المخاطر المحيطة به، وفي جزء آخر الى ان القادة من غير اولي العزم سرعان ما يتناسون اهمية وضرورة المعركة بمجرد انجازهم احتلال وتملك المنطقة؛ اما لانهم اقتنعوا فعلا بان المعركة لم تعد ضرورية او لانهم فرحوا بما حققوه. ولم يحقق فشلهم في الهجوم، بطبيعة الحال، النجاح السلبي الكافي الذي كان سيحظى به المدافع عند الحدود، بل يضاف اليه ما ربح من وقت كبير.

لا حاجة بنا الى التأكيد على نيل المدافع وفي الحالات الاربع التي استشهدنا بها، فائدة الارض، ناهيك عما سيناله من دعم من حصونه وشعبه لكل ما يفعله. وتزداد اهمية هذه العناصر مع كل مرحلة جديدة من الدفاع، ويصل ذلك ذروته في المرحلة الرابعة حيث توثر هذه المنافع وبشكل خاص جداً في إضعاف العدو. ونظراً لأن فائدة الانتظار تتصاعد هي الاخرى مع توالي مراحل الدفاع تلك، فسيؤدي ذلك الى ان كل مرحلة لاحقة تغدو اكثر تأثيراً من سابقتها، وتتضاعف مكاسب هذا الشكل من الحرب، اكثر، كلما إبتعد عن الهجوم. ولا نخشى ان نتهم باننا نعتبر أن اكثر انواع الدفاع سلبية، هو اكثرها قوة. فكل مرحلة تالية، وبدلاً من ان تعنى باضعاف فعل المقاومة، فانها معنية فقط **باطالة المقاومة وتأخيرها**. وما من تناقض بالتأكيد، بين القول بان المدافع قادر على المقاومة بشكل أفضل في موضع قوي وحسن الاعداد، وبين القول بان هجوما مقابلاً يشن بعد أن يكون العدو قد ضيع نصف قوته سيكون اكثر قوة وتأثيراً عليه. فلم يكن الماريشال داون سيربح معركة كولن دون موضعه القوي. ولو تابع ذلك بمطاردة الـ (١٨) الف رجل وهم كلما تبقى من جيش فردريك الكبير عند تركه ميدان المعركة، مطاردة عزومة لأمكن تحويل هذا الانتصار الى واحد من اروع

الانجازات في سجلات الحرب.

ما نود تأكيده هنا، هو ان سيطرة المدافع ومع كل مرحلة جديدة في الدفاع تزداد قوة، وبتعبير اكثر دقة يزداد ثقله النوعي وبالتالي تزداد ردود فعله قوة.

هل بوسعنا القول ان كل تلك المزايا التي تستنبط من الدفاع القوي والمكثف مما يمكن تحقيقها دون ثمن؟ كلا ابداً؛ فالتضحيات التي تقدم نظير ذلك ستتزايد بدورها وبنفس النسبة.

كلما انتظرنا العدو داخل مسرحنا للعمليات، وبغض النظر عن بعد مكان العمل الحاسم عن الحدود، فستدخل قوات العدو مسرحنا، مما سيعني التضحية بتلك المنطقة من قبلنا. اما لو كنا البادئين بالهجوم فسيتحمل هو ما يحدث من اضرار. وستزداد خسائرنا وتضحياتنا كلما امتنعنا أو فشلنا بالتقدم نحو العدو لمهاجمته، كما ان ما يحتله من اراضينا والوقت الذي سيستغرقه في التقدم الى مواضعنا سيزيد من حجم تلك التضحيات. فاذا نوينا خوض معركة دفاعية وتركنا المبادأة واختيار الوقت للعدو، فستتاح له الفرصة للبقاء في المنطقة التي احتلها لفترة طويلة. لذا فلا بد وفي مقابل ما نكسبه من الوقت نظير تأجيله موعد المعركة أن ندفع بهذه الطريقة. ستزداد هذه التضحيات اكثر وبشكل ملحوظ في حالة تراجعنا الى داخل بلادنا.

مع ذلك، فكل هذا الانقاص في قوة المدافع نتيجة لتلك التضحيات، لن يؤثر عادة على القوات القتالية للمدافع الا فيما بعد، وليس فوراً، وغالباً ما يكون هذا التأثير لا مباشراً ولا بشكل ملحوظ. وهكذا سيحاول المدافع زيادة قوته أنياً على أن يدفع ثمن ذلك لاحقاً – وبكلمة اخرى فهو يستدين وكاي شخص أخر، اكثر مما يحتاجه فعلاً.

من اجل تقييم نتائج مختلف انواع المقاومة تلك، علينا تفحص **هدف الهجوم المعادي**. وهو احتلال (تملك) مسرحنا للعمليات، او على الاقل جزءً كبيراً منه، لان مفهوم الكل قد يتضمن أو يقتصر على الاقل على الجزء الاكبر منه، وليس لشقة من الارض لا يزيد عرضها عن بضعة أميال ليس لها اية قيمة استراتيجية مستقلة الا فيما ندر. لذلك وطالما أن العدو لم يتملك بعد، وبكلمة اخرى، طالما ظل خائفاً من قوتنا التي منعته من دخول مسرحنا للعمليات، او التوجه نحو موضعنا، او حتى اجبرته على تجنب المعركة التي تهيئنا لها، فقد تحقق هدف المدافع. كما أثبتت مواضعنا الدفاعية كفائتها ونجاحها. مع اننا نعترف بان ذلك ليس سوى نجاحاً سلبياً، ولن يوفر لنا مباشرة ما

يكفي من القوة لهجوم مقابل حقيقي. الا انه قد يحقق ذلك بطريقة غير مباشرة، وتدريجياً؛ لان الوقت الذي يمر، خسارة للمعتدي. والوقت الضائع يعد دائماً خسارة تؤدي بطريقة ما الى إضعاف من يخسره.

هكذا، ففي المراحل الثلاث الاولى من الدفاع (وبكلمة اخرى، تلك التي تجري عند الحدود) **فان النقص او التردد في اتخاذ القرار يعد نجاحاً للدفاع.**

الا ان الحال ليس كذلك في الحالة الرابعة .

فلو فرض العدو حصاراً على قلاعنا فلا بد لنا من تحريرها في الوقت المناسب – بكلمة اخرى، إن الامر متوقف علينا في اتخاذ القرار لعمل ايجابي.

والامر كذلك في حالة مطاردة العدو لنا داخل بلادنا، ودون محاصرة اي من قلاعنا. فبينما قد يتوفر لنا المزيد من الوقت، وبوسعنا الانتظار حتى يغدو العدو على أضعف ما يمكن، فسيظل نفس الافتراض قائماً، وهو في أن نمتلك المبادأة في النهاية. الا إن العدو قد يكون أستولى فعلاً على كل المنطقة التي كانت هدفاً لهجومه، الا انه سيحتفظ بها مؤقتا (كاعارة) . فالتوتر ما زال قائماً، وسيحين موعد القرار الحاسم. وطالما ان قوة المدافع في تزايد يوماً بعد اخر، وعلى العكس من ذلك حال المهاجم، فان تأخر القرار الحاسم سيكون في مصلحة الاول تماماً، لكن، ولو بسبب تأثير الخسائر العامه فقط، والتي كان المدافع عرضة لها طول الوقت، وستفعل فعلها حتى حدها الاقصى او نقطة الذروة التي لا بد من وصولها، وعندها لا بد للمدافع أن يحسم أمره ويبدأ العمل، عندما تكون فائدة الانتظار قد استنزفت بالكامل.

ما من طريقة دقيقه ومعصومة عن الخطأ في تحديد وصول نقطه الذروة هذه، فقد تتحدد بفعل شروط وظروف عديدة. وعلينا أن نتذكر إن إقتراب الشتاء يشكل احدى اكثر نقاط التحول طبيعية وما لم نستطع منع العدو من قضاء الشتاء في المنطقة التي احتلها، علينا التسليم بضياعها. رغم إن المثال الذي قدمه لنا خط توريس فيدراس[1] كافٍ ليذكرنا بان ذلك ليس بالقاعدة العامة.

---

(١) خط (توريس فيدراس) الدفاعي . خلال حملة نابليون في اسبانيا، وبعد ان ترك بريطانيا حلفائها لوحدها في مواجهة الفرنسيين خلال شتاء عام (١٨١٠) اقام الدوق ويللنكتون المنظومة الدفاعية التي عرفت باسم خط توريس فيدراس شمال لشبونه وبطول (٣٠) ميلاً ما بين نهر التاج والبحر، وقد تألفت من ثلاثة خطوط من انشاءات وخنادق وتحصينات الميدان كما عبأ الانكليز فيها (٦٠٠) مدفع . موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٦٧٤ . المترجم

فهل يشكل كل ذلك، ولو بوجه عام، قراراً حاسماً ؟

لقد إفترضنا في مناقشتنا وباستمرار ان يأتي الحسم على شكل معركة، الا ان ذلك ليس بالضرورة على هذه الصورة. ويمكن تصور أي عدد من الاشتباكات لقوات صغيرة يمكن أن تؤدي الى تغيير في الميزان، اما لانها تنتهي بمذبحة حقيقية، او لانها تؤدي بمجموعها لاجبار العدو على التراجع.

ليس هناك نوع أخر للحسم في مسرح العمليات نفسه، يتولد بالضرورة من مفهوم الحرب الذي عرضناه. وحتى لو أجبر جيش العدو على التراجع بسبب نقص المواد الغذائية، فان عاملاً كهذا حدث بسبب التحديدات التي بوسع قواتنا فرضها على العدو. ولولا وجود جيشنا لوجد العدو بالتأكيد طرقاً عديدة لانقاذ نفسه.

لذا وحتى بعد ان يقطع الهجوم المعادي شوطه، وبعد ان يغدو العدو ضحية لصعوبات تقدمه، وبعد الوهن والخسائر بسبب الجوع والمرض واخراج المفارز، فسيدفعه خوفه من قواتنا المقاتلة فقط الى التراجع والتخلي عن كلما كسبه. ومع ذلك فهناك اختلاف كبير بين قرار كهذا وآخر يتم الوصول اليه على الحدود.

فعلى الحدود، جابهنا أسلحة العدو باسلحتنا – وهي وحدها التي أوقفته، وعملت على دماره. اما خلال مواصلة تعرضه فان ما يصيبه من اضرار فناجم في معظمه بسبب مجهوداته نفسها. ويمنح ذلك اسلحتنا قيمة مختلفة تماماً، فلم تعد أسلحتنا العامل الوحيد في القرار، رغم انها قد تكون العامل النهائي. فقد مهدت الارض للقرار بعد إنهاك وإنقاص قوة العدو خلال تقدمها، وبشكل يمكن معه الوصول الى اجباره على التراجع، بل وقلب الموقف رأساً على عقب بمجرد توفر امكانية لرد فعلنا. ويميل المرء في حالة كهذه الى الواقعية والمعقولية، وأن يرجع الفضل في القرار الى مشاكل ومصاعب الهجوم. ونقر بصعوبة العثور على مثال لا تبدو فيه قوات المدافع عاملاً مهماً في القرار، الا انه ولمراعاة الاعتبارات الواقعية من المهم جداً تمييز أيٍ من هذين العاملين كان الارجح والاكثر سيطرة.

نعتقد وعلى ضوء تلك الافكار ان من العدل القول وبالنسبة للمدافع بإمكانية وجود قرارين وبالتالي نوعين من ردود الفعل، اعتماداً على ما اذا كان المهاجم قد دمر

بقوة السيف أو بجهده هو .

من الواضح ان النوع الاول من القرار هو السائد في الحالات (المراحل) الثلاث الاولى، والثاني في الرابعة. والنوع الثاني في الحقيقة لن يتحقق اساساً الا حين يستمر التراجع عميقاً داخل البلاد. وهو في الواقع السبب الوحيد الذي يبرر تراجعاً يستتبع الكثير من التضحيات كهذا.

لقد حددنا حتى الان نوعين اساسيين ومختلفين من المقاومة. وقد ظهر هذان النوعان في كثير من الامثلة والحالات في التاريخ العسكري بشكليهما المتميزين وكل على انفراد كما يمكن ان يظهر اي مفهوم مجرد بمثل هذا الوضوح في التطبيق ابداً. ففي عام ١٧٤٥ هاجم فردريك الكبير النمساويين في (هوهن فريدبيرج)[1] بعد انحدارهم من جبال سليزيا – وحدث ذلك في وقت لم تكن قوتهم قد ضعفت بعد لا من جراء الاجهاد ولا بسبب ما افرزته من قطعات. كما ان الدوق ويللنكتون من الناحية الاخرى قد بقي متحصناً في خط توريس فيدراس، حتى اضطرت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال مسينا الى الانسحاب بسبب الجوع والبرد. وفي تلك الحالة لم تسهم قوات المدافع في عملية انهاك العدو. اما في الاوقات التي يرتبط فيها نوعا المقاومة معاً، فلا بد ان يكون لاحدهما سيطرة متميزة . ولنأخذ على سبيل المثال حملة عام ١٨١٢ الشهيرة والتي جرى فيها العديد من المعارك والاشتباكات الشديدة، وحيث كان بالامكان وتحت مختلف الظروف الوصول الى نهاية حاسمة بقوة السيف وحده، بالاضافة لعدم وجود اية حالة اخرى تؤكد لنا بوضوح كاف ان المهاجم قد دحر بفعل وضغوط الاعياء الناجم عن جهده، كما في حملة نابليون هذه، فمن اصل (٣٠٠) الف رجل هم قوة نابليون لم يصل منهم سوى (٩٠) الف رجل الى موسكو، علماً بانه لم يفرز من القوة كلها خلال التقدم سوى (١٣) الف رجل فقط. لذلك يكون مجموع الخسائر (١٩٧) الف رجل لم يتجاوز مجموع ما نجم منها بسبب القتال سوى ثلثها فقط .

اعدت كافة الحملات التي عرفت باطالة الوقت والمماطلة، وخططت وفقاً

---

(١) . هامش آخر في الفصل الثامن عشر الكتاب الخامس ص٤٩٦ .

لحسابات تتوخى اساساً تدمير العدو بدفعه الى اجهاد واستنزاف قدراته، كحملات (فابيوس كانكتيتر)[1] .

وعلى العموم فهناك العديد من الحملات التي ربحت وفقاً لهذا المبدأ دون ان يشير احد من الناس الى ذلك بوضوح، وبوسع المرء الوصول الى السبب الحقيقي الحاسم، لو تجاهل فقط شروح وتخريجات المؤرخين التي يصعب فهمها، ويتولى بنفسه بدلاً عن ذلك تفحص الاحداث بدقة .

نعتقد باننا تناولنا الاعتبارات والافكار الاساسية للدفاع ومختلف صفحاته بتفصيل كاف. وبايضاح نوعي المقاومة الرئيسيين، نأمل ان نكون قد فسرنا بشكل كاف مسار مبدأ الانتظار خلال المنظومة بكاملها وامتزاجه مع مبدأ العمل الايجابي، وبطريقة قد يبدو فيها الثاني مبكراً في احدى الحالات، ومتأخراً في غيرها، وبعد ان يبدو ان فائدة الانتظار قد استنفذت اغراضها.

كما نعتقد ايضا بأننا قد استعرضنا وحددنا الميدان الكلي للدفاع. وفي الحقيقة ما زالت هناك جوانب ومفاهيم اخرى مهمة الى الحد الذي تستحق معه فصلا خاصاً بها، وتلك نقاط يمكن ان ترتكز عليها سلسلة من الأفكار التي لا بد من تفحصها، منها على سبيل المثال، طبيعة وتأثير الحصون، والمعسكرات المتخندقه، والدفاع عن الجبال والانهار، وعمليات الاحاطة وغيرها. وسنعالج تلك الموضوعات في الفصول التالية. رغم ان اياً من تلك الموضوعات لا يبدو بعيداً عن نطاق الافكار والموضوعات اعلاه، الا أن تطبيقاتها تقتصر عادة على اماكن وظروف بعينها. لقد تطورت سلسلة الافكار المتتالية السابقة من مفهوم الدفاع وعلاقته بالهجوم. وقد ربطنا تلك الافكار بالواقع وهكذا إستعرضنا تحولها من واقعيتها الى تلك الافكار البسيطة محققين بذلك قاعدة صلبة للتحليل. وسوف لن نحتاج في سياق المناقشة الى اللجوء الى حجج ومبررات لا

---

(١) . كوينتوس فابيوس (كانكتيتر) او الحذر، اختاره الشيوخ (المشرعين) دكتاتوراً لروما لمجابهة هانيبعل في الحرب البونية الثانية (٢١٩ - ٢٠٢ ق.م) ولادراكه عجز روما عن القضاء على هانيبعل استخدم اسلوب الاعاقة والازعاج وتجنب الدخول في معركة حاسمة (الاستراتيجية الفابية) الا ان روما ضاقت بذلك فلم يعرف قادتها سوى الهجوم واختاروا قائداً اخراً يدعى (روفوس) الذي اندفع بسرعة الى معركة (جيزونيمو) حيث كان هانيبعل متشوقاً لانتظاره وأوشك على تدمير جيش روما لولا وصول فابيوس المفاجىء ومهاجمته جناح هانيبعل الذي تصرف بحكمة وتراجع في الوقت المناسب فاعترف روفوس باستاذية فابيوس ودان له بالولاء (م.ت.ع) ص ٦٧-٦٨ .

تصمد بقوة لأنها سريعة الزوال وسطحية.

يمكن للمقاومة المسلحة، ومن خلال تنوع تركيباتها الممكنه، أن تغير مظهرها، كما تنوع خصائص الدفاع المسلح [الفعال]، وعلى الاخص في الحالات التي ليس فيها قتال فعلي، بل تتأثر النتائج بحقيقة امكانية حدوثه، والى الحد الذي يدفع بالمرء الى تصور وجود مبدأ فعال جديد نوعاً ما بانتظار من يكتشفه. والفرق الواسع بين الصدام الفاجع في معركة واضحة، وبين تأثير بناء استراتيجي يمنع اندفاع الاشياء بعيداً جداً، سيدفع المرء الى الافتراض بوجود قوة مختلفة تفعل فعلها – حدس يشبه الى حد ما، افتراض الفلكيين ان البعد الشاسع ما بين المريخ والمشتري لا بد ان يحتوي اجراماً اخرى.

اذا وجد المهاجم ان مواضع عدوه قوية الى حد يعجز عن احتلالها، او انها على الجانب البعيد الذي يصعب الوصول اليه من نهر ما، او حتى تخوفه من تعقيد شؤون التموين لو ذهب الى ابعد مما قدر اولاً، فليس سوى قوة اسلحة المدافع من احدث مثل هذه التأثيرات والنتائج. والذي يوقف او يمنع المهاجم عن العمل فعلاً هو خوفه من الاندحار على ايدي القوة المدافعة، اما في معركة كبيرة او في نقطة مهمه معينه، الا انه لن يقر بذلك، او علنياً على الاقل.

عندما يتحقق الحسم دون سفك دماء، فقد يقر المرء بان ذلك يعود في التحليل النهائي الى الاشتباك الذي لم يتم فعلاً **بل بمجرد توفر الفرصة لوقوعه**. وسيقال عند ذلك بان، **التخطيط الاستراتيجي** لتلك المعارك، وليس الحسم التعبوي هو ما ينبغي اعتباره المبدأ الفعال. واكثر من ذلك فسيكون التخطيط الاستراتيجي فعالاً ونافذاً فقط، في الحالات التي يدار الدفاع ويعتمد فيها على وسائل اخرى غير قوة السلاح. ونحن نقر بذلك، الا انه يوصلنا الى النقطة التي نود بيانها. وما قلناه في الحقيقة هو؛ عندما يفترض بان النتائج التعبوية للأشتباك ستكون اساساً لكل الخطط الاستراتيجية، فمن المحتمل دائماً، والخطر الجدي ان يستند المهاجم الى ذلك خلال تقدمه. وسيحاول فوق كل اعتبار آخر ان يتفوق تعبوياً، كي يربك التخطيط الاستراتيجي للعدو(المدافع)، لذلك لا يمكن اعتبار هذا الاخير **كشيء مستقل نوعاً ما**، ويصح فقط عندما يمتلك ذلك الطرف ما يبرر ثقته بالانتصار التعبوي. ولتصوير ما نعنيه بايجاز، لنتذكر ان قائداً مثل نابليون كان يندفع بقوة متخطياً كل خطط اعدائه الاستراتيجية بحثاً عن المعركة، لانه نادراً ما شك في نتائج معاركه. لذلك فطالما لم يحاول الاستراتيجيون من خصومه

سحقه بكل قوة في معركة يضمنون فيها التفوق في القوة، وطالما واصلوا الاشتباك معه بقوات أقل (واضعف) ودون خداع وتدبر، فستهاوى كافة مخططاتهم كبيت العنكبوت. فمشاريع (مخططات) من هذا النوع يمكن ان تثبت جدواها في صدّ قائد كالماريشال النمساوي (دوان)، الا إن من الحماقة مواجهة نابليون وجيشه بالطريقة التي واجه فيها البروسيون، (دوان) والنمساويون في حرب السنوات السبع . لماذا؟ لان نابليون ادرك ان كل شيء سيتركز علي النتائج التعبوية، وبالتالي فبوسعه الاعتماد عليها، اما (دوان) فكان في موقف مختلف وعلى المستويين (التعبوي والاستراتيجي)، **لذلك نرى** من المفيد التأكيد على استناد كل تخطيط استراتيجي على النجاح التعبوي وحده، وان ذلك – وسواء تم التوصل الى الحل في المعركة ام لا – يعد ، وفي جميع الحالات القاعدة الاساسية للحسم فعلاً. اما حين لا يوجد مبرر للخوف من النتيجة فقط – اما بسبب خصائص او موقف العدو، او لتعادل وتقارب الجيشان مادياً ومعنوياً، او لأن جيشنا بالذات هو الاقوى فعلاً – عندها فقط يمكن ان نتوقع النتائج (المرجوة) من التركيب والادوات الاستراتيجية **وحدها**.

سنجد عند النظر في تاريخ الحرب عدداً من الحملات التي توقف فيها المهاجم قبل خوضه معركة حاسمة، وهكذا فعندما تبدو الادوات الاستراتيجية مؤثرة، فقد نرى أن لهذه الادوات قوة كبيرة متأصلة على الاقل، وانها هي التي ستحسم النتيجة عادة طالما لا يحتاج المرء الى افتراض تفوق حاسم للتعرض في المواقف التعبوية. ويجب ان تكون اجابتنا على ذلك بان هذا الافتراض خاطيء ايضاً في المواقف التي تحدث في مسرح العمليات، وتشكل بذلك جزء من الحرب نفسها. ويكمن معظم سبب لا فاعلية الهجوم عموماً في الظروف السياسية للحرب.

فالشروط العامة التي تنشأ منها الحرب، والشروط التي تشكل طبيعتها الاساسية، ستقرر بالتالي خصائصها. وسنناقش ذلك وبتفصيل واف لاحقاً وتحت عنوان خطط الحرب. الا ان تلك الشروط قد حولت معظم الحروب الى خليط هجين، يظل الاعداء الاساسيين يلفون ويدورون بين مصالح متضاربة الى حد تبدو فيها بالغة الوهن. وسيؤثر هذا على الهجوم، **أو الجانب الايجابي للعمل**، وبقوة خاصة. لذلك فليس من المدهش أن يمكن ايقاف هجوم محموم ومتقطع الانفاس بمجرد اشارة أو حركة إصبع. اما حين يضعف وينهار العزم، ويصاب بالشلل بفعل مجموعة متداخلة من الاعتبارات حتى ليبدو وكانه لم يكن ، عندها فان ادنى قدر من المقاومة غالباً ما يكون كافياً.

بوسعنا ان نرى وفي حالات عديدة، أن سبب تحقيق المدافع للنجاح دون قتال لا يكمن في احتلاله فعلاً لعدة مواضع قويه يصعب اختراقها، ولا في سلسلة الجبال الكبيرة التي تخترق ساحة العمليات، ولا في المجرى الواسع الذي يخترقها، ولا في السهولة التي تشل فيها اية تهديدات بضربة (هجومية)، بسلسلة احسن التخطيط لها من الاشتباكات. فالسبب الحقيقي هو وهن عزيمة المهاجم، التي ادت به الى التردد وخوف التحرك.

يمكن ويجب التحسب لهذه القوى البديلة، على ان تقدر لما هي عليه، وليس لان تأثيراتها تعزى الى اسباب اخرى - وذلك وحده ما يهمنا هنا. ويجب ان نعلن وبتأكيد، ان التاريخ العسكري يمكن وبهذا الخصوص ان يغدو كذبة مزمنة وخداع لو فشل النقاد والباحثون في اجراء التصحيحات المطلوبة .

دعونا وعند هذه النقطة نتفحص وباكثر الاشكال عمومية العدد الهائل من الحملات التعرضية التي فشلت دون خوض معركة حاسمة.

يدخل المعتدي اراضي عدوه، دافعاً اياه قليلاً الى الخلف، ثم تحوطه الشكوك حول مخاطر معركة حاسمة. فيتوقف مواجهاً خصمه، ويتصرف كما لو انه حقق اكتساحاً ويهمه الان كثيراً حماية مكاسبه - والخلاصة، فهو يتصرف وكما لو أن البحث عن المعركة يهم العدو فقط، وكما لو انه مستعد للقتال في اي وقت، وما شابه ذلك. وكل ذلك ليس سوى مجرد **اعذار**، يلجأ اليها القادة لتضليل وخداع الجيش، والحكومة، والعالم كله، وحتى أنفسهم. حقيقة الامر هي انهم وجدوا مواضع العدو قوية جداً. ولسنا نتحدث هنا عن حالة فشل المعتدي في الهجوم لان النصر لم يعد يفيده في شيء، ولان تقدمه قد إستنفذ كل طاقته ولم يعد لديه ما يكفي من قوة للبدء بعمل جديد. وهذا يفترض ان هجوماً ناجحاً قد تم للتو، وحقق فوزاً رائعاً، وعلى العكس، ففي الذهن حالة، توقف المهاجم فيها وسط الطريق عاجزاً عن المتابعة نحو ما كان ينوي احتلاله.

سينتظر المهاجم عند هذه النقطه تحولاً ملائماً له في الاحداث لاستثماره. لكن وكقاعدة فما من مبرر لتوقع تحول ملائم كهذا، فالحقيقة المجردة هي ان الهجوم المنوي شنه يتضمن ان لا يعد المستقبل القريببأكثر مما هو قائم الان. فلا يزيد الامر كله عن خدعة صريحة. اما وكما يحدث عادة، وكانت العملية مشتركة، اي أعدت لتتزامن وعمليات اخرى، فستلام الجيوش الاخرى لفشله هو. ولتبرير عجزه سيدعي بقلة

وعدم كفاية ما ناله من اسناد وتعاون. كما سيدعي بوجود موانع يصعب التغلب عليها، وسيبحث عن مبررات واعذار باختلاق أشد وأعقد الظروف. وهكذا سيضيع ويبعثر قواه هباء دون أن يفعل شيئاً، أو بالاحرى لم يفعل سوى القليل الذي لا يؤدي الى أي شيء سوى الفشل. يربح المدافع خلال كل ذلك المزيد من الوقت – وهو ما يحتاجه اكثر من اي شيء اخر. لقد أوشك الموسم على الانقضاء، والنهاية الاخيرة للتعرض ككل، هي عودة الغازي الى معسكرات الاقامة الشتوية داخل مسرح عملياته.

وتنتهي قطعة الخداع بدخولها التاريخ، بدلاً عن الحقيقة البسيطة الواضحة وهي: **يعود الفشل الى الخوف من قوة العدو**. وعندما يبدأ النقاد دراسة حملة من هذا النوع نراهم يتيهون وسط حجج وحجج معاكسة. ولن يصلوا الى اية اجابات مقنعة، فكلما بيدهم لا يزيد عن فرضيات، كما انهم لا يتعمقون كثيراً في بحوثهم للوصول الى الحقائق.

ليس نوع الخداع هذا مجرد عادة سيئة، اذ تكمن جذوره في طبيعة القضية. ويكمن الثقل المعاكس الذي يوهن القوى الاساسية للحرب، وعلى الاخص الهجوم، اساساً في العلاقات والنوايا السياسية للحكومة، والتي تخفيها عادة عن العالم كله، وعن شعبها، وعن الجيش، وحتى في بعض الاحيان عن القائد نفسه. وعلى سبيل المثال فلن يقر أي كان بان قراره للتوقف أو للتخلي قد أُتخذ بتأثير الخوف من تبديد قوته، أو إنه سيخلق لنفسه اعداءً جديدين، أو أن حلفائه سيصبحون اقوياءً جداً. وتعامل امور كهذه كاسرار لفترات طويلة وربما الى الابد. على ان يعمم وفي الوقت نفسه بيانا معقولاً يمكن قبوله. ويحث القائد انذاك، اما لمصلحته هو، او لمصلحة حكومته، لنشر شبكة من الاكاذيب. هذا التناقض الوهمي (Shadow Boxing) في جدلية الحرب الذي تتكرر العودة اليه دائماً، تحجر نظرياً في منظومة بنفس القوة من التظليل بطبيعة الحال. لكن لا تستطيع سوى النظريات التي تتبع الخيط البسيط للتماسك الداخلي، كما حاولنا لنظريتنا ان تكون، العودة الى جوهر الاشياء.

اذا قرأنا التاريخ العسكري مع هذا النوع من التشكيك، فسينهار الكثير من الحشو والاباطيل الخاصة والمتعلقة بالهجوم والدفاع، وسينبثق بطبيعة الحال التنظير المفاهيمي البسيط الذي عرضناه تلقائياً. ونعتقد ان ذلك يصلح للميدان الكلي للدفاع، ولو تمسكنا به بقوة فسنتمكن من فهم الاحداث المتشابكة بوضوح ونسيطر عليها.

لنتفحص الان استخدام مختلف طرق الدفاع تلك.

تعتبر جميعها تكثيفا وتشديداً للشيء نفسه، وكل منها تعني زيادة مؤكدة في تضحيات المدافع. وبعد اختيار القائد فستغدو كل الاشياء الاخرى متساوية، وستقرر على ضوء هذه الحقيقة. وسيختار القائد الطريقة التي يرى انها ستوفر لقواته الدرجة الضرورية من المقاومة، ولتجنب اية خسائر لا مسوغ لها عليه ان لا يتراجع كثيراً. ويجب علينا ان نقر أن الخيار قد حُدد بشدة ما بين مختلف الطرق بعوامل رئيسية اخرى لها دورها في الدفاع وستدفع القائد الى استخدام هذه الطريقة او تلك. فالانسحاب الى داخل البلاد يتطلب مساحات شاسعة، وبخلاف ذلك فلا بد من توفر ظروف مشابهة لتلك التي توفرت في البرتغال عام ١٨١٠م: حيث وفر احد الحلفاء (بريطانيا) حماية واسناد قويين في الخلف، بينما ساعدت اخرى (اسبانيا) باراضيها الشاسعة على تقليص نسبة كبيرة من تأثير العدو. كما أن تحديد أماكن القلاع قرب الحدود، او بعيداً في الداخل – قد تعد كذلك لصالح او ضد طريقة بعينها. ومما يعد اكثر حسماً واهمية هي طبيعة الارض والبلاد، وخصائص وعادات وميول الشعب. كما قد يقرر الاختيار بين المعركة الهجومية أو الدفاعية وفقاً لخطط العدو، أو بخصائص كلا الجيشين وقائديهما. وأخيراً فان امتلاك مواضع أو خطوط دفاعية ممتازة او عدمه قد يقودنا الى هذه الطريقة أو تلك. والخلاصة فان مجرد تعداد تلك العوامل كافٍ ليوضح لنا وجود الكثير من التأثيرات في الدفاع على الاختيار بالاضافة الى القوة النسبية وحدها. ونظراً لاننا سنتعود كثيراً على معظم العوامل المهمة التي مررنا بها مرور الكرام هنا فقط، سنكون قادرين فيما بعد على التوسع كثيراً باستعراض التأثير الذي تمارسه على الاختيار. واخيراً فستعامل مضامينها وما تعنيه بتحليل شامل في الكتاب الخاص بخطط الحرب والحملات.

مع ذلك، سيغدو ذلك التأثير حاسماً عادة في حالة التفاوت النسبي في القوات فقط. وحيثما كان الامر كذلك (وهذا ما يحدث في معظم الحالات) فستكون القوة النسبية مسيطرة. كما ان تاريخ الحرب زاخر بالبراهين التي تؤيد ان ذلك ما حدث فعلاً – بغض النظر عن سلسلة المبررات التي تطورت هنا – **وعبر مسار عملية الحدس الخفية**، كاي شيء اخر يحدث في الحرب تقريباً. فقد كان نفس القائد، ومع نفس الجيش، الذي، خاض وفي نفس مسرح العمليات معركة (هوهن فريدبيرج)[1] وتحرك بعدها الى معسكر بنزيلفتز[2]. وهكذا فحتى فردريك الكبير الذي وعند وصول

(١) . راجع الهامش في الفصل ١٨ الكتاب ٥ ص٤٩٦

(٢) . راجع الهامش في الفصل ٦ الكتاب ٦ ص٢٣٧

الامور الى المعركة يكون اكثر القادة ميلاً الى التعرض، إضطر هو نفسه اخيراً الى اللجوء الى ادق انواع الدفاع، تحديداً، عندما أصبح تباين القوى كبيراً جداً، ثم اليس نابليون هو الآخر الذي اعتاد الاندفاع نحو اعداءه كالخنزير البري، وكيف تحول كالحيوان المقيد في قفص عندما اصبح ميزان القوى في غير صالحه في (اب وايلول ١٨١٣)، دونما محاولة شن اي هجوم خادع ضد اي من خصومه؟ ثم الم نجده في لايبزك في (تشرين اول) من نفس العام، عندما بلغ التفاوت في القوات ذروته، ملتجئاً وسط الزاوية التي بين انهار (بارت، وايلستر، وبليزي) وكما لو انه داخل غرفة اسند ظهره فيها الى الجدار، بانتظار اعداءه؟

لا بد لنا ان نضيف ان هذا الفصل، واكثر من اي جزء من عملنا، يوضح باننا لن نتوخى التوصل الى مبادىء وطرق جديدة في ادارة الحرب، بل وعلى العكس فنحن معنيين بتفحص المضمون الاساسي لما هو قائم منذ زمن طويل، ولتتبع مساره واثاره رجوعاً الى عناصره الاساسية.

الفصل التاسع
المعركة الدفاعية

لقد بينا في الفصل الاخير ان بوسع المدافع ومن خلال ادارته للدفاع خوض معركة تعرضية تعبوية، بالبحث عن العدو ومهاجمته فور اقتحام هذا لمسرح عمليات المدافع. وبدلاً عن ذلك بوسع المدافع الانتظار حتى ظهور العدو ومن ثم مهاجمته، وفي كلتا الحالتين فالمعركة ما زالت تعرضية في المفهوم التعبوي، مع بعض التعديلات في الشكل. واخيراً فبوسع المدافع عادة الانتظار حتى يهاجم العدو الموضع الدفاعي ثم الرد عليه بضربة مقابلة، ليس فقط باستخدام جزء من قوته لتثبيت المهاجم حيث هو، بل ومهاجمته كذلك بباقي القوة. ومن الطبيعي أن يتم ذلك على درجات عديدة ومتنوعة، تتدرج ما بين الهجوم المقابل الايجابي والى الدفاع المحلي. ولا يسعنا هنا مناقشة الى اي مدى ينبغي أن يمضي ذلك، وما هو المعدل المفضل ما بين المبدأين من اجل تحقيق انتصار حاسم. وما دام ذلك هو الهدف، فانا نصر على استمرارية ووجود المبدأ التعرضي ولا يجوز اختفاءه او التخلي عنه كليا. كما اننا على قناعة من ان كل عواقب وما يلي الانتصار الحاسم ليست الا نتاج الصفحة التعرضية هذه، كما هي تماماً في المعركة التعرضية الخالصة.

كما ان ميدان المعركة في الاستراتيجية هو، وببساطة لا اكثر من نقطة في المكان، كذلك ليست مدة المعركة سوى نقطة في الوقت استراتيجياً، وتكمن اهمية المعركة استراتيجياً لا في مسار المعركة بل في نتائجها وفيما سيترتب عليها.

فان امكن حقاً ربط الانتصار الكلي بالعناصر الهجومية التي تظهر في كل معركه دفاعية، فلا وجود لاختلاف استراتيجي اساسي بين المعركتين الدفاعية والهجومية. وهذا في الواقع ما نعتقده، رغم ان الظواهر تعارضه. ولتفحص الامر عن قرب وبدقه اكثر، ولايضاح رأينا وازالة ذلك التعارض، لنجمل رأينا عن المعركة الدفاعية وبايجاز.

ينتظر المدافع ان يهاجم في موضعه، فقد إختار المكان المناسب واعده لهذا الغرض، ويعني ذلك انه استطلعه بعناية، واقام دفاعات حصينة في بعض اكثر النقاط اهمية، وانشأ وافتتح منظومة مواصلات، وفتح بطارياته، وحصن بعض القرى، واختار

منطقة اجتماع مخفية وغير ذلك. ويمثل هذه الجبهة القوية، والتي جعل من الصعب الوصول اليها بما وضعه على المقتربات المؤدية اليها، اما بخطوط متوازية من الخنادق أو الموانع، او بواسطة نقاط سيطرة قوية، الامر الذي يسهل للمدافع وحين تكون القطعات في نقاط التماس الفعلية يدمر بعضها البعض، **أن يوقع الكثير من الخسائر في العدو (المهاجم) مقابل ادنى حد ممكن بالنسبة له**، خلال مواصلة المهاجم تقدمه عبر مراحل المقاومة المتتالية وحتى وصوله قلب الموضع الدفاعي. كما توفر له نقاط الارتكاز التي أسند اليها اجنحته حماية كافية ضد هجمات مفاجئة من عدة إتجاهات. والارض المستورة التي أعد فيها المدافع مواضعه ستزيد من قلق ومعضلات المهاجم وتحدّ من حريته وقدرته. كما ستمكن المدافع من ابطاء تحركات تراجعه العام عبر هجمات مقابلة صغيرة متتالية وناجحة، مع التضييق المستمر في منطقة العمل. وبهذه الطريقة يتمكن المدافع من الاشراف ومسح المعركة وهي تتأجج وتتحرك أمام عينيه. الا انه يدرك صعوبة المحافظة على جبهته سالمة الى الابد، وان اجنحته لن تكون دون وهن ما، وانه لن يستطيع في النهاية تحويل المسار العام للمعركة بهجمات مقابلة ناجحة تُشن ببضعة سرايا (خيالة) أو افواج. لقد أشغل موضعه **بالعمق** وفي كل مستوى من الفرقة وحتى الفوج، كما أن هناك إحتياط في نظام معركته لمواجهة الاحداث غير المتوقعة، أو لتجديد العمل. كما يوجد احتياط عام بحجم مناسب – ربما ربع أو ثلث القوة الكلية – وفي مكان بعيد الى الخلف، يجنبه تكبد أية خسائر من نيران العدو، وببعد كاف حتى لأبقاءه خارج نطاق أية احاطة إن أمكن. وهذا الاحتياط معنيٌ بحماية الاجنحة ضد اي حركة احاطة كبيرة وواسعة، وحماية الموضع الدفاعي ضد كلما ليس متوقعاً. وعندما تصل المعركة ثلثها الاخير، وبعد أن يكون العدو قد كشف خططه ونواياه واستخدم القسم الاكبر من قواته، يسعى المدافع عندها لاستخدام احتياطه هذا بكامله بضربة ضد جزء من قوة العدو، مفتتحاً بذلك معركة تعرضية صغرى له هو، مستخدماً فيها كافة عناصر ومبادىء الهجوم – الصولة ، والمباغتة، والحركة على الجناح. وستنصب كل هذه الضغوط على مركز ثقل المعركة حينما تكون النتيجة معلقة بعد في الميزان، من اجل تحقيق تحول تام.

هذا هو المسار الاعتيادي للمعركة الدفاعية كما نراه، واعتماداً على الفنون التعبوية المعاصرة. يتوخى المهاجم في معركة كهذه من حركة الاحاطة اعطاء هجومه فرصة افضل، وجعل انتصاره أوسع نطاقاً، الا انها تجابه بحركة احاطة ثانوية تستهدف جزء من قوة العدو [المهاجم] التي نفذت حركة التطويق الاصلية. قد تكفي حركة

الاحاطة الثانوية (الصغيرة) لالغاء وعرقلة تأثير مناورة العدو، الا انها لا يمكن أن تتوسع الى حركة احاطة عامة مماثلة لقوة العدو. لذا فالاختلاف بين شكلي الانتصار يكمن دائماً في واقع أن المهاجم ينفذ حركة الاحاطة في المعركة الهجومية ومن ثم يتجه نحو المركز، بينما الاكثر إحتمالاً أن تنطلق حركة المدافع من المركز ونحو الخارج (المحيط).

لا بد من الاعتراف بانه وسواء في ساحة المعركة او في المرحلة الاولى من المطاردة، فان حركة الالتفاف هي الشكل الاشد تأثيراً. ولا يعود هذا لمجرد شكل (مفهوم) التطويق، بل ينطبق ذلك عليه فعلاً فقط عند متابعة التطويق حتى نهايته القصوى، وعندما يحدد ويعرقل بقسوة بالغة فرص العدو بالتراجع والمعركة ما زالت بعد حامية الوطيس. وهذا بالضبط هو الموقف الذي صمم الهجوم المقابل الايجابي للمدافع لمنع حدوثه. وفي الكثير من الحالات التي لم يكن الهجوم المقابل فيها كافياً لتحقيق الانتصار، الا انه كان كافياً لتوفير الحماية باوسع واقصى معانيها. وعلينا أن نقر وفي جميع الحالات بإن خطر عرقلة الانسحاب بشكل فاجع في معركة دفاعية، قائم وبشكل شديد، وما لم يتم تفادي ذلك، فستضاعف وتتفاقم تأثيرات الاندحار ونذر مراحل المطاردة الاولى.

مع ذلك ينطبق ما قلناه على الصفحة الاولى من المطاردة – اي حتى حلول الظلام. ففي اليوم التالي تكون حركة التطويق قد بلغت حدها، وسيجد الطرفان نفسيهما في حالة توازن بهذا الخصوص.

قد يكتشف المدافع ضياع خط انسحابه الرئيسي. ولو حدث ذلك فهذا يعني تكبد المدافع ضرراً استراتيجياً. الا ان حركة التطويق نفسها تكون عندئذٍ، وفيما عدى استثناءات قليلة، قد وصلت الى نهايتها، ونظراً لانها إقتصرت على ساحة المعركة فقط، فهي لن تستطيع الذهاب لأبعد من ذلك كثيراً.

ماذا سيحدث، من الناحية الاخرى، **اذا انتصر المدافع**؟ سيتجزأ الجيش المندحر. وذلك اولاً سيجعل التراجع اكثر سهولة، لكن **ومع حلول اليوم التالي، ستصبح مهمة توحيد الاجزاء المشتتة** هي هدفه الرئيسي. اما ان كان الانتصار حاسماً، وتابعه المدافع بحزم وحيوية واصرار، فان انجاز التحشد سيكون مستحيلاً في اغلب الحالات. سيؤدي تشرذم الجيش المندحر على هذه الصورة، الى اسوء العواقب، وقد تتحول تدريجياً الى تمزق كامل في النهاية. فلو ربح (نابليون) معركة لايبزك، لكانت جيوش التحالف قد عزلت احداها عن الاخرى، ولكان تأثير ذلك على تلاحمهم

الاستراتيجي بالغ الخطورة. اما معركة (دريسدن)[1]، وحيث لم يخض نابليون معركة دفاعية حقيقيه باقرار الجميع، فقد حافظ الهجوم على شكله الهندسي موضوع بحثنا - من المركز نحو الاطراف. اما الارتباك والضعف الذي تعرضت له جيوش التحالف نتيجة لعملهم بارتال منفصلة فليس في حاجة الى تفصيل. لم ينتهي هذا الارتباك الا بعد الانتصار الذي تحقق في (كاتزباخ)[2]، والتي اجبرت انباءه نابليون على العودة الى (دريسدن) مع الحرس الامبراطوري.

والمعركة في كاتزباخ حالة كالتي نبحثها هنا. فقد تحول المدافع وفي آخر لحظه ممكنه الى الهجوم، لذلك كان لهجومه تأثير متشعب. فقد اجبرت الفيالق الفرنسية على التباعد فيما بينها. وبعد عدة ايام على المعركة، وقعت الفرقة التي يقودها (بوتود) بايدي التحالف كاحدى ثمار الانتصار.

نستنتج تبعاً لذلك بان المهاجم، اذا استطاع استخدام الشكل المتقارب، وهو الشكل الطبيعي بالنسبة له لتعزيز انتصاره، فللمدافع في الشكل المتباعد، وهو الشكل الطبيعي له، وسائل لجعل انتصاره اقوى تأثيراً مما لو كان قد اقتصر على الحالة البسيطة لمواضع متوازية وعمليات عموديه. ونعتقد ان احد الاشكال يستحق نفس القيمة التي للأخر على الاقل.

قليلاً ما كانت الانتصارات الكبرى في تاريخ الحرب نتيجة لمعارك دفاعيه، قياساً بالمعارك الهجومية، الا ان ذلك لا يثبت ان المعارك الدفاعية اساساً هي الاقل احتمالاً لان توصل الى الانتصار، بل بالعكس، فالمدافع وببساطة يجد نفسه في ظروف مختلفة بشكل ملحوظ. وفي معظم الحالات يعد الخصم الاضعف - ليس عددياً فقط بل فيما يخص الموقف الكلي. الا انه ليس كذلك عادة، أو انه حتى لا يعتبر نفسه قادراً على متابعة الانتصار، فيكتفي لذلك بكونه قد ابعد المخاطر، وصان شرف اسلحته. وما من شك في ان المدافع قد يوهن أو يعاق بفعل الضعف العددي وكذلك بفعل ظروفه، لكن غالباً ما يكون الشيء الذي ينبغي ان يرى كنتيجة للضرورة، قد فسر على انه

---

(١) . معركة دريسدن . راجع الهامش في (ص٢٩٥) . المترجم

(٢) . معركة كاتزباخ . راجع الهامش في (ص٧٤١). المترجم

نتيجة للدفاع كذلك. ووفقاً لهذه الطريقة التجريدية الغامضة اصبح الافتراض الاساسي هو، ان المعركة الدفاعية تعنى فقط بصد العدو، وليس بتدميره. ونرى ان ذلك هو اكثر الاخطاء شراً، بل انه في الحقيقة خلط مزري بين الشكل والجوهر (المضمون). ونؤكد هنا وبوضوح تام أن شكل الحرب الذي ندعوه الدفاع، لا يقدم فرصة واحتمالاً كبيرين للأنتصار، واكثر من الهجوم وحسب، بل ان الانتصارات الدفاعية ستنال نفس النسب والنتائج. واكثر من ذلك، فان هذا لا ينطبق على **النجاحات الكلية** لجميع الاشتباكات التي تكون بمجموعها حملة، بل **ولكل معركة منفردة** ، شرط ان لا يكون هناك نقص في القوة والعزم.

الفصل العاشر

القلاع

وجدت القلاع – حصونا، ومدناً مسورة – في الماضي وقبل ظهور الجيوش الكبيرة والدائمية الخدمة، وجدت وببساطة لحماية السكان. فالامير الذي يتناوشه الاعداء والضغوط من كل جانب، كان يهرب الى حصنه كسباً للوقت وانتظاراً لتحول افضل في الاحداث. اما المدن فتسعى من خلال تحصينها الى ابعاد سحب الحرب العاصفه عنها.

لم تقتصر اغراض القلاع على هذه الاهداف البسيطة والاساسية فقط. بل ان صلة القلاع الثابتة مع البلاد ككل، وبالنسبة للقطعات التي تقاتل في الجوار او عبر المنطقة قد وسعت كثيراً من اهمية القلاع. وقد لوحظت هذه الاهمية الكبيرة خارج اسوار القلعة، فهي تسهم في احتلال او استعادة البلاد، وفي النتائج الجيدة او السيئة للصراع بكامله. وتحظى القلعة بهذه الطريقة على اهمية استراتيجية أعتبرت في وقت ما بالغة الاهمية الى حد أصبحت تشكل معه أساساً للخطط الاستراتيجية، التي تهتم باحتلال عددٍ من القلاع بدلاً عن تدمير جيوش العدو. يهتم الناس بالبحث في الاسباب الجذرية لهذه الاهمية، وفي العلاقة ما بين النقطة المحصنة وبين ما يحيط بها من جهة، وبين الجيش من جهة أخرى، معتقدين أن كلما يبذل من عناية وجهد، وعبقرية، وفكر تجريدي لا يعتد به كثيراً عندما يتعلق الامر باختيار النقطة التي يجب تحصينها. وتميل هذه الافكار التجريدية الى التعتيم على الغرض الاصلي كلياً، وكانما يفرضون علينا في النهاية النظر او التمعن في الفكرة الخاصة بالقلعة دون ما يحيطها من مدن بل وحتى دون السكان[1].

لكن لقد ذهب الزمان الذي كانت الاسوار والتحصينات فيه، ودون اية استعدادات عسكرية اخرى تكفي لحماية منطقة ما ضد سيول حرب تعم البلاد كلها. لقد كان ذلك ممكنا، جزئيا لان الامم كانت مجزأة ايامها الى دول صغيرة، وجزئيا

---

(١) . سخرية كلاوزفيتز واضحة من اشارته الى الناس وليس الى مفكرين او قادة او باحثين ولمن يود الاحاطة بالدور الاستراتيجي للقلاع بوسعه مراجعة البحث الخاص بالمهندس (فوبان) في رواد الاستراتيجية الحديثة الجزء الاول فقد كان لها دور اساس وعالمي في السياسة والحرب وفي الاستراتيجية بشكل خاص في تلك الايام. المترجم

بسبب طابع الغزو الذي كان يحدث على فترات، كان امدها محدود عادة كما هي فصول السنة، اما بسبب عودة مجندوا الاقطاع السريعة الى ديارهم (ومزارعهم) او لنفاذ الاعيطات المالية التي كان قادتهم (الكوندوتيري) يدفعونها لهم نظير خدماتهم في الحرب بصورة منتظمة. ومنذ ان اصبحت الجيوش الدائمية والكبيرة قادرة على اجتياح أية مقاومة لنقطة قوية منفردة بما لدى تلك الجيوش من مدفعية قوية فلم تعد أية مدينة أو بلدة صغيرة تقامر بمصيرها إعتماداً على قوتها التي تمكنها من الصمود لبضعة أسابيع أو اشهر لتسقط بعدها ولتتعرض لأسوء معاملة على ايدي الفاتحين. وليس من مصلحة للجيش في توزعه الى مجموعات عديدة قليلة القوة على شكل حاميات للقلاع المحصنة. ومع ان تدبيراً كهذا قد يعيق تقدم العدو، الا انه سينتهي دون شك باحتلال القلعة. لذلك لا بد من ترك قوة كافية لمجابهة العدو في معركة متعادلة، ما لم يعتمد الجيش على وصول قوة حليفة لتحرير القلعة واعطاء الجيش حرية عمل كافيه. نتيجة لذلك لا بد من تقليص عدد القلاع الى ادنى ما يمكن. الامر الذي يجعلنا بالمقابل ندع جانباً فكرة إستخدام القلاع لتوفير حماية فورية للسكان ولممتلكات المدن، ويدفعنا الى إعتبار القلاع **كحماية غير مباشرة** للبلاد من خلال قيمتها الاستراتيجية كعقد ومفاصل تشد البناء الاستراتيجي كلياً.

هكذا كان تطور الافكار، ليس فقط في الكتب، بل وفي الواقع ايضاً – رغم ان الكتب قد ساعدت على انتشارها ، وكما هو عليه الحال دائماً .

على الرغم من ان ذلك كان المسار الصحيح لأتخاذه، الا ان الافكار ذهبت بعيداً، وتراكمت البراعة والوهم حول الجوهر السليم للضرورات الطبيعية والاساسية. وعلينا الاهتمام بتلك المتطلبات فقط عند تسجيل أهداف وشروط القلاع، مبتدئين من البسيط وصعوداً نحو الاكثر تعقيداً . وسيحدد الفصل التالي الاستنتاجات الخاصة باماكن وعدد القلاع التي يمكن التوصل اليها على ضوء اهدافها .

تتألف اهمية وفاعلية القلاع وكما هو واضح من عنصرين متميزين، احدهما ايجابي والاخر سلبي. ويتضح الاول من الحماية التي توفرها القلعة للمنطقة، وكلما فيها، وفي الثاني فانها تمارس تأثيراً معينا على الريف الواقع خارج مدى مدفعيتها.

يكمن العنصر الفاعل في قدرة الحامية على مهاجمة أي عدو يقترب. وكلما كبرت حامية القلعة كلما زاد حجم الوحدة التي يمكن ارسالها لهذا الغرض، وكقاعدة فكلما زاد حجم الوحدة كلما امكن ارسالها لمسافات أبعد. ويعني هذا أن مجال

التأثير الفعال لقلعة كبيرة، ليس اقوى فقط، بل وكذلك اوسع نطاقاً قياساً بما للقلاع الصغيرة. وبالمقابل فان العنصر الفعال نفسه يتألف، إن امكن قول ذلك، من عنصرين اضافيين : العمليات التي تنفذها حامية القلعة نفسها، والعمليات التي تنفذها قوة مستقلة، صغيرة كانت أو كبيرة وعلى اتصال مع القلعة. وفي الحقيقة، فحتى القوة الضعيفة جداً والتي سيفرض عليها مواجهة العدو، فستصمد في الميدان وتفرض سيطرتها على المنطقة الى حد ما ان كانت على ثقة من انها ستجد الملجأ الامن في النهاية داخل اسوار القلعة.

تظل العمليات التي تخاطر بها حاميات القلاع محدودة دائماً. وحتى عندما تكون القلاع كبيرة وحاميتها كبيرة العدد، فالوحدات التي بوسعها شن الغارات لن تكون كبيرة مقارنة بالقوات العاملة في الميدان، ومعدل ونطاق عملياتها نادراً ما يتجاوز بضعة مسيرات. اما القلاع الصغيرة فبوسعها اخراج مفارز صغيرة جداً ولن يتجاوز تأثيرها القرى المجاورة. ومع ذلك فالفيالق المستقلة – اي القطعات التي لا تعود او ليست جزءٍ من الحامية وبالتالي فلن تتراجع بالضرورة داخل القلعة – تكون أقل تحدداً. بل بوسعها في الظروف الملائمة ان تزيد من نطاق وقوة تأثير القلعة . لذلك لا بد وبشكل خاص من تذكر عواملاً كهذه عند الحديث عن فاعلية وقوة القلاع عموماً.

رغم ضألة وقلة التأثير الفعال للحامية الصغيرة، فهو اساسي لكلما يجب على القلعة انجازه. وبتحديد اكثر دقة فحتى اكثر الانجازات سلبية للقلعة، كالدفاع ضد هجوم ما، لا يمكن تصوره دون توفر العنصر الفعال. ومع ذلك فمن الواضح تماماً، ان من بين مختلف الطرق التي تكون القلعة فيها ذات شأن – سواء كان ذلك جوهرياً، او اعتماداً على ظروف اللحظة الانية – سينحو بعضها ليشمل اكثر التأثيرات سلبية، بينما تتجه الطرق الاخرى الى الاكثر فاعلية. قد يقال في بعض الاحيان بان اهمية القلعة بسيطة، الا ان تأثيرها وعلى اية حال مباشر تقريباً، وتكون في احيان اخرى معقدة الا ان تأثيرها سيكون لا مباشراً تقريباً. وسنمضي من الاول الى الاخير. ولنعلن ابتداء بان اية قلعة قد تكون مهمة بطبيعة الحال في العديد او حتى في جميع الطرق في ادناه وفي آن واحد، او على أية درجة وفي مختلف الاوقات.

ونرى أن القلاع تشكل وتوفر الاسناد الاول والاهم للدفاع وبالطرق التالية:

١ . **كمستودعات امينة**. يحيا المهاجم خلال التعرض على ما يحصل عليه يوماً بيوم، اما المدافع، فعليه وكقاعدة التهيؤ لذلك بوقت مبكر، لذلك لن يظل بوسعه

الاعتماد كليا على موارد المنطقة التي يحتلها – والتي سيتركها سليمة في كل الاحوال كاحتياط له. وعليه فهو في حاجة ماسة الى مستودعات. ومع مواصلة المهاجم تقدمه فسيترك مواده التموينية خلفه مؤمنا لها الحماية بهذه الطريقة، بينما تظل موارد المدافع وسط منطقة العمليات. وما لم تخزن هذه في **اماكن حصينة** فستتعرض العمليات الى اخطار بالغة. وغالباً ما يتم اختيار أوسع الاماكن واكثرها انتشار وأقلها اثارة للانتباه لهذا الغرض لتوفير اقصى حماية ممكنة لها.

الجيش المدافع دون قلاع واهن في كل مكان. فهو هنا كالجسد دون درع حماية.

٢ . **كحماية لمدينة كبيرة ومزدهرة** . ترتبط هذه الوظيفة بالعنصر الاول، لأن مدناً كهذه، وعلى الاخص التجاري منها، هي المورد الطبيعي لتموين الجيش، لذلك سيتأثر هذا وعلى الفور بامتلاكها أو فقدانها. يضاف الى ذلك، أنها تستحق دائماً الجهد لاستعادة هذه الثروة القومية، لما يمكن الحصول عليه منها بصورة غير مباشرة من جهة، ولأن للمدن المهمة دور كبير عندما يحين وقت المفاوضات لاجل السلام.

اما في ايامنا هذه فلم تعد القلاع تحظى بتقدير كبير؛ مع انها، وكما هو واضح من بين اكثر واعلى الاشياء تأثيراً، ولا يحيط استخدامها اية شكوك. ولنتصور بلاداً ما، ليس فيها مدن كبيرة ومزدهرة فقط، بل إن كل مدينة كبيرة قد حصنت وتولى الدفاع عنها سكانها وأبناء الريف المجاور. وبذلك ستتقلص سرعة العمليات، كما سيلقي المدافع بالكثير من ثقله في الميزان من خلال أبناء المنطقة، والى الحد الذي تتضاءل معه مهارة القائد المعادي الى درجة ملحوظه. ولقد ركزنا على تفصيل هذا النطاق المثالي للتحصينات، فقط من اجل إعطاء وابراز دور المواقع القوية بما تستحقه، وللتأكد من عدم إغفال أو تجاهل الحماية **المباشرة** التي توفرها مثل هذه المواقع أبداً. الا ان هذه الصورة النظرية سوف لن تعرقل سير البحث والتحري لدينا باية طريقة، إذ وبين العديد من المدن، هناك دائماً الكثير من المدن القوية والمحصنة اكثر من غيرها، لذلك يجب إعتبار الاولى منها هي السند القوي والحقيقي للقوات المسلحة.

تخص الوظيفتين اعلاه حصراً، الهدف السلبي للقلاع.

٣ . **كسد حقيقي** . اذ تسد القلاع الطرق (والمقتربات)، وكذلك وفي معظم الحالات الانهار التي اختيرت القلعة على مقربة فيها. وليس من السهولة بمكان، وكما قد يتصور البعض امكانية العثور على طرق فرعية أو حيدان لتجاوز أو تخطي القلعة،

اذ لا يكفي لتحقيقه أن يتم ذلك خارج نطاق مدفعية القلعة بل وكذلك خارج مدى وامكانية القدرات الهجومية للحامية.

اما ان كانت الارض المجاورة للقلعه شديدة الوعورة فإن أي إنحراف عن الطريق ومهما كان صغيراً سيسبب تأخيراً في التنقل لا يقل عن يوم كامل. ولذلك اهمية كبيرة جداً سيما اذا تكرر استخدام ذلك الطريق.

اما المدى الذي تسد فيه القلعة السابلة النهرية (River traffic) وكيفية تأثير ذلك على العمليات فأمر واضح.

٤ . **كنقطة اسناد تعبوية** . يصل مدى نصف قطر دائرة تأثير مدفعية القلاع، التي ليست عديمة الشأن كلياً، إلى بضعة أميال، وفي جميع الاحوال ستزيد فاعليتها التعرضيه إلى أبعد من ذلك. وعليه ينبغي إعتبار القلاع واحدة من أفضل واقوى نقاط الاستناد لاجنحة الموضع. كما يمكن لبحيرة بطول عدة أميال ان تكون ذات قيمة كنقطة استناد، الا أن بوسع المرء الحصول على ما هو أفضل من ذلك بقلعه متوسطه الحجم. ولا يحتاج الجناح الاقتراب كثيراً من نقطة استناده؛ فليس بوسع المهاجم المرور من المنطقة (الفراغ) التي بينهما، فلن تتيسر له خطوط انسحاب.

٥ . **كموضع لتحديد منطقة** (Staging Post) . فعندما تكون القلاع على طول خطوط مواصلات المدافع، وكما عليه الحال دائما تقريباً، فانها تصبح أماكن توقف مناسبة للسابله المتنقلة جيئة وذهاباً على طول الخط. والخطر الذي تتعرض له خطوط المواصلات يعود أساساً الى الغارات الدورية التي يشنها الانصار. فلو تعرضت أية قافلة مهمة لخطر من هذا النوع وكان بوسعها الوصول الى قلعة ما أما بزيادة سرعتها أو رجوعاً اليها، فستكون بمأمن وبوسعها الانتظار عند القلعة حتى تأمين الطريق، كما توفر القلعة لكل القطعات المارة فرصة للراحة ليوم أو اثنين، لتواصل مسيرها بعد ذلك بحال أفضل. ونظراً لان أيام الراحة تعد من اكثر الاوقات خطورة للقطعات، فالقلعة الكائنة في منتصف خط مواصلات طوله (١٥٠) ميلاً ستنصف هذه المسافة.

٦ . **كملجأ للقوات الضعيفه أو المندحرة** . تكون القطعات وبفضل حماية مدافع القلعة التي بحجم معقول، بمأمن من أعمال العدو، حتى ان لم تكن القطعات في معسكرات متخندقه. كما أن القلعة ضمان اكيد للوحدة التي تود البقاء والتخلي عن فكرة مواصلة الانسحاب، بل أن هناك أوقاتاً لا يعد ذلك فيها خسارة كبيرة – سيما عندما كان الانسحاب المتواصل سينتهي الى هزيمة ودمار كامل.

مع ذلك يمكن أن تقدم القلعة وفي العديد من الحالات استراحة لبضعة أيام، دون التخلي كليا عن الانسحاب. وستوفر القلعة ملجأ جيداً خاصة للجرحى الذين لا تعد اصاباتهم بالغة الخطورة، وللمشردين وغيرهم ممن إندفعوا أمام الجيش المندحر، والذين سيجدون في القلعة المكان المناسب للأنتظار لحين الالتحاق بوحداتهم.

لو كانت (ماجد بورج) تقع مباشرة على خط انسحاب البروسيين عام ١٨٠٦، ولو لم يكن ذلك الخط قد ضاع بفقدان (اوير شتاد)[١] لكان بوسع الجيش التوقف هناك لـ (٣ أو ٤) ايام، مستفيداً من ذلك الوقت للتجمع واعادة التنظيم. وحتى تحت تلك الظروف السائدة عملت (ماجد بورج)[٣] كنقطة تجميع لما تبقى من فيلق (هو هنلو) الذي لم يستطع استعادة تنظيمه الا هناك.

---

(١) معركة (أوير شتاد) في ١٨٠٦/١٠/١٤ وقد تزامنت مع معركة ينا[٢]. كان معظم جيش نابليون (٢٠٠) الف رجل جنوب المانيا فقرر نابليون احتلال بروسيا فاتجه شرقاً وحشد جيشه شمال بافاريا. كانت القوات البروسيه - الساكسونيه (١٣٠) الف رجل بقيادة دوق برونزويك. كان تقدم نابليون وتحشده السريع امران في غاية الروعة وتقدم الجيش العظيم بثلاث ارتال متوازية وبجبهة (٣٠) ميلاً تسترها الخيالة وبمعدل سير (١٥) ميل يومياً. وبتشكيل مربع كبير وجاهز للتحشد تعبوياً في اي اتجاه. كان نابليون بحركة الاحاطة الاستراتيجية هذه قد تخطى جناح البروسيين الايسر، الامر الذي اذهلهم تماماً وكانت الضربة التي ايقضتهم قد جاءت من انفراد فيلق الماريشال لاون بقوة بروسية صغيرة في (سالفيلد) يوم ١٠/١٠. لقد اصبح نابليون اقرب منهم الى برلين وبعد إن أدرك بان القسم الاعظم من القوات البروسية أصبح الى يساره أمر كلاً من الجنرالين (دافو) وبرنحوت بالاتجاه غرب (نومبرج) لقطع خطوط مواصلات البروسيين وواصل باقي الجيش تقدمه نحو (ينا).

(٢) معركة ينا (١٠/١٤). عندما احس البروسيون بتقدم الفرنسيين، غيروا خطتهم واتجه دوق برونزويك (٦٣) الف رجل شمالاً نحو (اوير شتاد) (٣٥كم) شمال (ينا)، وكلف الامير (هوهنلو) ومعه (٥١) الف رجل بالانتشار ما بين (ينا) و (فيمار) ولمسافة (١٥) ميلاً لحماية مؤخرة برونزويك. ومع فجر يوم ١٠/١٤ هاجم نابليون بـ (١٠٠) الف رجل قوات (هوهنلو) وازاحها من الميدان مع الظهيرة، اما في أوير شتاد فقد خاض الجنرال دافو (٢٧) الف رجل معركة دفاعية ضد هجمات برونزويك المتكررة والمتفوقة (٦٣) الف رجل وصمد طوال (٦) ساعات أصيب برونزويك خلالها بجراح قاتلة وقد انهارت معنويات البروسيين بعد إشاعة اندحارهم في (ينا) فانقلب دافو وشن هجوما مقابلاً، اما الجنرال برنادوت فقد أحس ساعتئذ بوجود خطأ ما في اتجاهه فسار على هدى المدافع ووصل حوالي الساعة (١٦٠٠) ومعه (٢٠) الف رجل الى ما وراء قوات (هوهنلو) المندحرة من جهة وخلف قوات برونزويك التي اصبحت بقيادة الملك البروسي فردريك الثالث. بلغت خسائر البروسيين (٥٠) الفاً ما بين قتيل وجريح وأسير مقابل (٨) الاف للفرنسيين. لقد حقق نابليون بسرعة الحركة والمناورات المركبه (المتتالية) والبارعة نصراً استراتيجياً حتى قبل إبتداء العمليات التعبوية. لقد فصلنا هذا المثال لبيان احدى طرق قطع خطوط المواصلات اولاً ولبيان اساليب نابليون في المناورة والمزج بين عدة مستويات وتوجهات في ان واحد (م.ت.ع (بالانكليزية) ص ٧٥١. المترجم

(٣) ماجد بورج مدينة كبيرة تقع شمال (ينا) بـ (١٣٠كم) تقريباً.

بوسع التجارب الحقيقية وحدها مساعدة المرء على تصور قوة التوازن التي تفرضها القلعة القريبة في الظروف السيئة، اذ تتوفر فيها ترسانة من السلاح والعتاد، كما يتيسر فيها التموين واعلاف الخيل، والملجأ والرعاية للمرضى والمنهكين، والامان لصحيحي الاجسام. فالقلعة كواحة الصحراء.

من الواضح أن الوظائف الاربعة الاخيرة في اعلاه بدأت تشتمل على التأثير الايجابي للقلاع وبدرجة كبيرة نوعا ما.

٧ . **كملجأ حقيقي ضد هجمات العدو**. تشبه القلعة التي تستر خطاً دفاعياً كتلة جليد تعترض سير النهر. اذ على العدو احتلالها أولاً، ولو أحسنت حاميتها الدفاع عنها، لفرض على العدو إستخدام ضعف حجم تلك الحامية. الا إن الاعتبار الاول، هو أن نصف الحامية يمكن وينبغي ان تكون من القطعات، التي وبسبب وضعها في القلعة لن تستطيع التحول الى عمل ايجابي؛ وكذلك المليشيا المتوسطة التدريب، ومن الذين يقضون فترات النقاهة، ومن المدنيين المسلحين، والحرس الوطني وغيرهم. وفي حالة كهذه فان الخسائر في جانب العدو قد تصل الى اربعة إضعاف خسائرنا.

يعد هذا اللاتناسب في خسائر العدو أول وأكبر مزايا القلعة في صمودها ضد الحصار، رغم وجود مزايا أخرى. اذ وحال إختراق العدو لخط قلاع المدافع فستتقلص حريته على الحركة كثيراً، كما ان خطوط انسحابه الممكنة محدودة جداً، كما عليه وباستمرار مراعاة حاجته لتغطية مباشرة لاي حصار ينفذه.

وبذلك تبدأ القلعة إداء اكبر الاجزاء في ادارة الدفاع واكثرها حسماً، لذا ينبغي إعتباره الدور الاول والاساسي لها للقيام به.

ومع ذلك، فهذا الاستخدام للقلاع ابعد من ان يعد الاستخدام المعتاد، بل إنه نادر نسبياً. ويكمن السبب في طبيعة معظم الحروب. فقد كانت القلاع وسيلة أو طريقة مجهدة وعنيفة، وحاسمة جداً الى حد لا يغدو استخدامها يسيراً وكما سنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد.

يتضمن دور القلعة هذا قوتها التعرضية بشكل اساسي، او على الاقل إن ذلك هو ما يمنحها هذه الفاعلية والتأثير. فلو كانت القلعة مجرد نقطة يصعب على المهاجم إحتلالها، لأصبحت وبموافقة الجميع مجرد مانع بالنسبه له؛ وما كانت عندها لتفرض عليه اللجوء الى محاصرتها. ورغم كل شيء فليس من السهل ولا الممكن بالنسبة له

أن يترك بستة، أو ثمانية، أو عشرة الاف رجل يفعلون ما بوسعهم فعله خلفه، لذا فلا بد له من احاطتها بقوة كافية. ولاجل تجنب اضطراره لتكرار ذلك مرة بعد اخرى عليه مهاجمتها واحتلالها. وحال بدء الحصار، تبدأ القلعة بلعب دورها السلبي.

تتميز الوظائف الاولية للقلعة بانها مباشرة في العمل وبسيطة في الشكل، الا ان الشكلين التاليين (ادناه) هما من الناحية الاخرى اكثر تعقيداً في تأثيرهما.

٨ . **كحماية لمعسكرات واسعة** . اذ تغطي قلعة متوسطة الحجم منطقة ايواء بعرض (١٥ – ٢٠) ميلاً خلفها، ويعد ذلك عاملاً بسيطاً وقائماً من مجرد وجودها، اما إن كان هذا النوع من الاماكن – وكما يروي لنا التاريخ العسكري غالباً – قد يتسع لتغطية خطاً للأيواء يمتد لما يزيد عن (٧٥–١٠٠) ميل فيتطلب الامر تحرياً، وكذلك الى تعليق خاص لاسيما عن الحالات التي يبدو فيها ذلك مجرد وهم.

لا بد من التمعن في النقاط التالية :

أ . يجب ان تستر القلعة نفسها أحد الطرق الرئيسية، كما يجب ان تغطي وبدرجة من الفاعلية مساحة من الارض تمتد من (١٥ – ٢٠) ميلاً.

ب . يجب ان تعتبر اما كموقع قوي متقدم، أو إنها توفر اشرافاً تاماً على الريف المجاور، ويعزز ذلك بالاستخبارات السرية التي يمكن الحصول عليها بحكم الروابط التقليدية ما بين مدينة مهمة والمناطق المجاورة لها. ويمكن توقع الحصول في مكان يقطنه من (٦–٨–١٠) الاف مواطن على المزيد من الانباء واكثر بكثير مما يمكن توفره في قريه صغيرة لا يمكن أن تترك فيها سوى مخفراً صغيراً.

جـ . انها مصدر اسناد لوحدات صغيرة، يمكنها ان تجد الحماية والامن فيها. كما انها قادرة على شن غارات بين أونةٍ واخرى على العدو، وجمع الاستخبارات، او مهاجمة مؤخراته إن صادف وتخطى العدو تلك الوحدات. والخلاصة، ومع ان القلعة نفسها ليست متحركة، الا انها يمكن والى حد ما ان تلعب دوراً واثراً ضد فيلق متقدم (الكتاب الخامس، الفصل الثامن) .

د . بعد اكمال المدافع تجميع قطعاته، يجب أن يكون قادراً عندها على إشغال مواضعه فوراً خلف القلعة. وبذلك لن يعود بوسع المهاجم الوصول اليه ما لم يعرض مؤخراته للخطر .

ينبغي بطبيعة الحال إعتبار أي هجوم على خط الايواء نفسه كمباغتة، او

بالاحرى، الجانب الوحيد الذي يهمنا هنا. ومن الواضح ان أثار الهجوم المباغت أسرع بكثير من تعرض رئيسي ضد مسرح للعمليات. ففي الحالة الثانية، لو كان على المهاجم تخطي احد القلاع، فلا بد له بطبيعة الحال من محاصرتها، وابقائها تحت رقابته ولاخيار له في ذلك، اما في الهجوم المباغت على خط الايواء فليس ذلك ضرورياً، اذ لا يمكن للقلعة إعاقة ذلك النوع من الهجوم بنفس الدرجة. وتلك حقيقة اكيدة؛ يضاف الى ذلك، أن ليس بوسع القلعة تغطية وحماية أجنحة خط الايواء الذي على مبعدة (٣٠-٤٠) ميلاً بشكل مباشر. ومن الناحية الاخرى، فليس من المعقول ان يستهدف هجوم مباغت كهذا عدداً من المأوي. وسنشرح فيما بعد، وفي الكتاب الخاص بالهجوم وبتفصيل اكبر ما الذي يستهدفه هجوم من هذا النوع حقاً، وما النتائج التي يمكن توقعها. ولا يمكن قول اكثر من ذلك الان؛ ولا يمكن ان تتحقق النتائج الرئيسية من الهجوم الفعلي على مأوي منفردة، بل من الاشتباكات التي سيفرضها على وحدات معزولة وليست متهيئة، ولامعنية بالقتال قدر اهتمامها بالوصول سريعاً الى مقصدها. ويجب توجيه هذا النوع من الهجوم والمطاردة ضد مناطق اقامة العدو؛ اما ان وجدت قلعة مهمة امام مركز الاقامة ذلك، فانها ستشكل مانعاً مهماً وخطيراً على المهاجم.

نؤكد على ان التأثير المشترك للنقاط الفرعية الاربعة اعلاه يقدم دليلاً على ان بوسع القلعة الكبيرة وفي جميع الاحوال توفير قدرٍ من التغطية المباشرة وغير المباشرة لمنطقة إيواء اكبر بكثير مما بوسع المرء إفتراضه للوهلة الاولى. لقد قلنا «قدراً من التغطية» لان جميع التأثيرات غير المباشرة تلك لن تجعل تقدم العدو مستحيلاً، بل اكثر صعوبة، وارتباكاً فقط - بكلمة اخرى، أقل احتمالاً وأقل خطورة على المدافع. وهذا كل ما بوسعنا ان نريده منه حقاً، وكل ما يتضمنه المصطلح بمعناه الخاص. يجب ان تأتي الحماية الحقيقية والمباشرة من المخافر والمواقع الخارجية ومن الطريقة التي اعدت بها المأوى.

هناك اذن شيء من المعقولية في النظر الى القلعة الكبيرة كمصدر تغطية لمنطقة آيواء واسعة في الخلف، ولكن لا يمكن ان ننكر ان بوسع المرء العثور على الكثير من المصطلحات الفارغة والاراء المعقدة حول هذا الامر في خطط حقيقية للحرب، بل وغالبا حتى في التواريخ العسكرية، فان كان هذا القدر من التغطية هو وبعد كل شيء نتيجة لمزج عدد من الظروف، ومن ثم تقليص الاخطار الى حد ما فقط ولا اكثر من

ذلك فقد يرى ان مثل هذه التغطية قد لا تزيد عن مجرد وهم في بعض الحالات – بسبب ظروف غير اعتيادية، أو على الارجح بسبب شجاعة وإقدام المهاجم . لذلك ينبغي على المرء في وقت الحرب ان لا يرى أن من البديهي لقلعة ما ان تحقق قدراً بعينه من التأثير، بل يتطلب الامر دراسة دقيقه لكل حالة.

٩ . **كحماية لمنطقة غير محتلة** . ان لم يتم احتلال منطقة ما، او انها احتلت بقوة رمزية، الا انها وفي الوقت نفسه ما زالت بدرجة او باخرى معرضة لغارات العدو، فيمكن اعتبار وجود قلعة مهمة في الجوار حماية كافية، اذ لن تتسنى للعدو السيطرة التامة على المنطقة ما لم يحتل القلعة التي ستوفر الوقت الكافي للمدافع كي يصل لنجدتها. مع ذلك فيمكن وصف الغطاء الحقيقي بانه **غير مباشر**، **او رمزي**، لان التأثير الفعال للقلعة وحده الذي بوسعه ابقاء او تحجيم غارات العدو. اما ان اقتصرت فاعلية القلعة على حاميتها فقط، فمن الصعب ملاحظة وادراك نتائج هذا التأثير، لان حاميات من هذه النوع تكون ضعيفة عادة – من المشاة فقط وليسوا من الاكفاء حتى. وستكون فكرة الغطاء أو الحماية أقوى بشكل جوهري إن كانت القلعة على اتصال مع وحدات صغيرة إتخذت من القلعة كقاعدة للأسناد.

١٠ . **كنقطة تركيز لعصيان عام** . من البديهي ان لا تندرج موضوعات السلاح والعتاد والمناطق في حروب العصابات في قواعد وأسس منظمة وهذه من الامور البديهية، حقاً، لانها من طبيعة وصلب هذا النوع من الحرب والذي على المرء البحث فيه بافضل طريقة ممكنة، ليكتشف بذلك عدداً لا يحصى من مصادر المقاومة الصغيرة، التي ستظل بخلاف ذلك مخفية. رغم أن وجود قلعة كبيرة وفيها كميات وفيرة من تلك المواد وغيرها من ضرورات التموين، ستكون قادرة على تكثيف حركة المقاومة العامة، وتزيدها صلابة، وتؤدي الى المزيد من التماسك والنتائج المرجوة.

بالاضافة الى ذلك فالقلعة توفر المأوى للجرحى، ومقراً للسلطة المدنية، والخزينة، وكذلك لتكون منطقه اجتماع للعمليات الكبيرة، وغير ذلك. بل وفوق ذلك ستكون النقطة المركزية للمقاومة، خلال مرحلة الحصار المعادي، سيما حين يسمح الموقف ويسهل شن الانصار المحليين هجماتهم.

١١ . **كدفاع عن الانهار والسلاسل الجبلية** . ما من مكان تستطيع القلاع فيه خدمة هذا العدد الكبير من الاهداف، او تلعب كل هذه الادوار المختلفة كما عند وجودها على نهر كبير. فبوسعها هنا تأمين عمليات العبور في اي وقت، وكذلك منع

العدو من العبور ضمن دائرة يصل نصف قطرها عدة اميال، والسيطرة على السابلة النهرية، وكملاذ للسفن، وحماية الطرق والجسور القريبة، وتسهل الدفاع غير المباشر عن النهر – اي باحتلال موضع على ضفة العدو. ومن الواضح ان هذا التأثير المتعدد يسهل كثيراً الدفاع عن النهر وان تعد القلعة من بين احد اهم عناصره الاساسية.

للقلعة نفس الاهمية في المناطق الجبلية. فهي قادرة هنا على فتح او غلق كل شبكة الطرق التي تتقاطع فوق السلسلة الجبلية، وتسيطر بذلك على كافة المنطقة التي تتجه الطرق نحوها. وبذلك تعمل القلعة كدعامة فعلية لكل المنظومة الدفاعية.

الفصل الحادي عشر
القلاع - تتمة

بعد تفحص ادوار ومهمات القلاع، لنتمعن الان في اماكنها (مواقعها). يبدو الامر من اللمحة الأولى في غاية التعقيد، سيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار العناصر الحاكمة على تنوعها، والتي عدل او حور كل منها بالطبيعة المحلية. يمكن تجنب كل هذا التشتت والبحث لو استطعنا التركيز على الامور الاساسية، وعدم الوقوع في تكرار التفاصيل غير الضرورية.

يمكن تلبية وتوفير كافة المتطلبات وفي آن واحد معاً، لو امكن تحصين كافة المدن الكبيرة والمزدهرة في مسرح العمليات - اي تلك المدن التي تقع على الطرق الرئيسية التي تربط بين البلدين، وعلى الاخص تلك التي تقع عند الموانىء والخلجان، او على الإنهار الرئيسية والجبال. تتواجد المدن الكبيرة والطرق الرئيسية معاً دائماً، ولكليهما صلة وانجذاب مع الانهار الكبيرة والسواحل. لذلك تتواجد تلك الحاجات الاربعة في ان واحد ودون تعارض ما، اما الجبال فامر آخر، فلا توجد هناك مدن مهمة الا نادراً. لذلك فان ساعد مكان واتجاه السلسلة الجبلية لتشكل خطاً دفاعياً مناسباً، فمن الضروري عندها سد الطرق والمضائق بحصون صغيرة تشيد خصيصاً لهذا الغرض، وباقل تكلفة ممكنة. اما القلاع الكبيرة والمحصنة بامعان فينبغي ان تشيد قرب المدن الكبرى في السهول.

لم نتطرق حتى الان بشيء الى الحدود ولم نقل شيئاً عن النمط الهندسي لخط التحصينات ككل، كما لم نتطرق الى اي من الجوانب الجغرافية الاخرى للمكان الذي تقام فيه خطوط التحصينات. ونعتقد ان المتطلبات التي ذكرت للتو هي الاساسية، كما انها وفي العديد من الحالات والامثلة، وعلى الاخص للدول الصغيرة، كافية وفعالة. مع ذلك هناك حالات تظهر فيها عوامل اخرى ممكنة بل وحتى ضرورية. وينطبق ذلك على البلدان الواسعة الامتداد والتي تضم الكثير من المدن المهمة والطرق، او من الناحية الاخرى البلدان التي تخلو منها تماماً تقريباً؛ كالبلدان الغنية التي تود اضافة المزيد لقلاعها العديدة، او على العكس من ذلك البلدان الفقيرة والمضطرة الى الاستفادة القصوى من القلاع القليلة التي لديها، والخلاصة، في تلك الحالات التي لا تتناسب فيها القلاع مع عدد الطرق والمدن، فهي اما اكثر او اقل من الحاجة. ولنتمعن

الان وبايجاز في تلك العوامل والحاجات الاضافية.

الاسئلة الاساسية التي تظل ماثلة هي وكما يلي:

١ . اختيار الطريق الرئيسي، عند وجود الكثير من الطرق التي تربط بين البلدين والتي تزيد على ما يود البلد تحصينه. أو

٢ . اذا كانت القلاع ستشيد فقط عند الحدود او توزع داخل البلاد. أو

٣ . اذا كانت القلاع ستوزع بانتظام ام على شكل مجموعات.

٤ . ما الخصائص الجغرافية التي يجب اخذها بالحسبان في المنطقة المعنية.

قد تظهر نقاط عديدة اخرى تخص النمط الهندسي لخط القلاع. مثل، هل ينبغي وضع القلاع في صف واحد او اكثر؟

وبكلمة اخرى، هل ستزيد فاعليتها ان وضعت واحدة خلف اخرى، ام جنباً الى جنب؟ وهل ينبغي ترتيبها كما في لوحة الشطرنج، او في خط مستقيم مع نتوّات وانعطافات داخلية كما في القلاع المنفردة؟ وكل هذه الاسئلة برأينا سفسطة محض، واعتبارات أتفه حتى من ان تذكر عند مناقشة اعتبارات اخرى اكثر اهمية. والسبب الوحيد الذي دفعنا الى هذه الاشارة المجردة هو ليس الاستشهاد الذي يرد في العديد من الكتب حولها وحسب بل ولاعطائها الكثير من الاهمية والوزن والى حد لا تستحقه موضوعات سخيفة كهذه.

ولايضاح السؤال او النقطة الاولى لنتذكر علاقة جنوب المانيا مع فرنسا — وبكلمة اخرى مع اعلى الراين. ولو نظرنا الى هذه المنطقة ككل، من اجل تحصين الخطوط الاستراتيجية دون مراعاة للدول المنفردة القائمة هناك، فسنواجه العديد من المعضلات لان العديد من الطرق الرئيسية والجيدة تمر هناك من الراين الى فرانكونيا[1]، وبافاريا، والنمسا، وليس هناك نقص في المدن الكبرى حقاً، فهناك (نورمبورج)، وفوزبورج، وأولم، واوكسبورج، وميونيخ، فان لم تستطع تحصينها كلها فلابد لك من الاختيار من بينها. واكثر من ذلك، وبينما في رأينا ومما له اهمية كبيرة ايضاً ان تحصن اكبر واكثر المدن ازدهاراً، فليس بوسع المرء ان ينكر ان سيكون لمدينتين متباعدتين

(١). فرانكونيا. دوقية المانية في القرون الوسطى. تجزأت في القرن العاشر الى فرانكونيا الراين وفرانكونيا الشرقية ثم ضمت الاخيرة عام ١٨١٥ الى بافاريا. تقع الدوقية على نهر الراين (قاموس لاروس – ص٤٣٩) .

كنورمبورج، وميونيخ، قيمة استراتيجية مختلفة بدرجة كبيرة للغاية، فبدلاً عن نورمبورج لا ينبغي على المرء تحصين مكان اخر، حتى وان كان اقل اهمية، وعلى مقربة من ميونيخ.

اما القرار في حالة كهذه – وبكلمة اخرى، الاجابة على السؤال الاول – فيجب ان يرتبط بما قد ناقشناه في الفصول الخاصة بخطط الدفاع عموماً، وكذلك في اختيار اهداف الهجوم. فالنقاط التي تعد في خطر أني للتعرض للهجوم هي التي يجب الاهتمام بتحصينها.

وهكذا، فعند تيسر عدد من الطرق الرئيسية التي تمر من اراض العدو نحونا، فان من الافضل لنا تحصين الطريق المؤدي الى قلب بلادنا مباشرة، او الطريق الذي يوفر افضل المزايا والفوائد للعدو ويمر عبر مناطق غنية وخصبة، والنهر الصالح للملاحة، وغير ذلك. وبوسعنا التأكد عندها ان العدو اما سيصطدم بتحصيناتنا، او، ان شاء الدوران حولها، فلا بد ان نوفر الوسائل الكافية لتنفيذ الشيء الطبيعي والافضل لنا في ان واحد وهي عمليات ضرب الجناح.

فينا هي قلب جنوب المانيا، لذا فان ميونيخ او (اوكسبورج) هي الاماكن الافضل كثيراً لقلاع رئيسية من نورمبورج او (فوزبورج) وحتى ضد فرنسا وحدها – على افتراض بقاء سويسرا وايطاليا على الحياد. وسيبدو ذلك حتى اكثر وضوحاً عند دراسة الطرق المتجهة من ايطاليا، او من سويسرا وعبر التيرول، اذ تحتل كل من ميونيخ و (اوكسبورج) بعض الاهمية لتلك الطرق، بينما لا تظل اية اهمية لفوزبورج، ونورمبورج بهذا الخصوص.

لنعد الان الى السؤال الثاني، فهل ينبغي وضع القلاع عند الحدود، او ان توزع داخل البلاد. وابتداء لا بد من ملاحظة الطابع الاكاديمي لهذا السؤال بالنسبة للبلدان الصغيرة، التي تمتد الحدود فيها، من وجهة النظر الاستراتيجية، فوق كل المنطقة تقريباً. وكلما كان البلد اكبر كلما اتضحت ضرورة مواجهة السؤال اكثر.

الجواب الواضح للسؤال هو ان مكان القلعة على الحدود. فهي انما توجد لحماية البلاد. والبلاد محمية ما دامت حدودها كذلك. والاجابة صالحه عموما، وستوضح لنا الملاحظات التالية كيفية تعرض الاجابة للتحديدات.

كل دفاع يعتمد كثيراً على المساعدة الخارجية، سيعول كثيراً على كسب

الوقت. وليس في الهجوم المقابل الشديد، بل بالاحرى في عملية المطاولة (draw - out) حيث تكمن الفائدة في كسب الوقت اكثر مما في اضعاف قوة العدو. في حالة تساوي الاشياء الاخرى، فان من طبيعة الحالة نفسها، اي ان كانت القلاع موزعة خلال البلاد وتغطي مساحات عريضة فيما بينها، فسيتطلب الامر الكثير من الوقت (للعدو) لاحتلالها واكثر مما لو كانت القلاع متقاربة او مكتضة على طول الحدود. واكثر من ذلك وحيثما كانت الغاية هي دحر العدو باطالة خطوط مواصلاته، ومصاعب الادامة – في البلاد التي يمكن التعويل فيها على امور كهذه – فمن السخف بناء القلاع عند الحدود فقط. واخيراً لا بد ان نتذكر اهمية اعطاء قلاع العاصمة اسبقية اولى كلما سمحت الظروف، وكذلك، ووفقاً لامكانيتنا المالية ينبغي تحصين العواصم الاقليمية والمدن التجارية كذلك، وان الانهار التي تتخلل البلاد والسلاسل الجبلية، والموانع الطبيعية الاخرى ستسهم وكخطوط دفاعية اضافية، وان الكثير من المدن والمواضع الطبيعية القوية تستحق التحصين هي الاخرى، واخيراً فان مؤسسات ومنشأت عسكرية معينة كمصانع العتاد يجب ان توضع في افضل الاماكن داخل البلاد وليس قرب الحدود كما انها تستحق وبالتأكيد الحماية بالقلاع. وهكذا سنجد الكثير من المبررات في بعض الحالات، والقليل منها في حالات اخرى لاقامة تحصينات داخل البلاد. لذلك فالدولة التي تمتلك العديد من القلاع ستحسن صنعاً في وضع معظمها عند الحدود، ومع ذلك سيظل من الخطأ الفاحش ترك المناطق الداخلية من البلاد دون تحصين. ففي فرنسا على سبيل المثال نرى ان خطأ كهذا شائع الى حد يثير الدهشة. وقد يتسبب ذلك ببعض الارباك الذي يمكن تفهم دواعيه بهذا الخصوص، فلن نجد في مناطق الحدود مدنا كبيرة ومهمة نهائياً عادة، او أنها قد شيدت بعيداً في الداخل. وهكذا هي الحال في جنوب المانيا، اذ يصعب القول بوجود مدن كبرى في «سوابيا» بينما تزدحم بافاريا بها. ولا نرى أن من الضروري حل هذه المعضلة مرة والى الابد، بل نعتقد بضرورة الحكم على كل حالة على ضوء ظروفها الخاصة وما تسمح به. ومع ذلك، نود لفت الانتباه الى الملاحظات الختامية لهذا الفصل.

اما السؤال الثالث – ما اذا كان من الافضل جمع القلاع او توزيعها بانتظام – فنادراً ما يفرض نفسه، عند مراعاة كافة الاشياء. ومع ذلك، ولهذا السبب لن نعامله كرأي تافه لا جدوى منه، اذ ان مجموعة من قلعتين او ثلاث او أربع وعلى مبعدة بضعة ايام فقط من مركز عام ستعطي ذلك المركز والجيش المتمركز فيه قوة كبيرة. لذلك فان سمحت الظروف الاخرى، فسيجد المرء نفسه مدفوعاً لاقامة حصن

استراتيجي كهذا.

النقطة الاخيرة المتعلقة بالترتيب الطبيعي لمكان القلعة، هي الاختيار، فستضاعف قيمة القلاع وفائدتها لو شيدت على السواحل، او على الانهار والوديان الرئيسية، او في الجبال. وكما قد اوضحنا للتو، سنكون عندها قد راعينا احد المتطلبات الرئيسية. رغماً عن عدة اوجه وجوانب اخرى ما زال من المهم مراعاتها.

فان تعذر تشييد قلعة ما على النهر مباشرة، فمن الافضل ألا تشيد على مقربة او في الجوار، بل على مسافه (٥٠-٦٠) ميلاً، والا سيعترض النهر نطاق فاعليتها وقوة تأثيرها وعلى ضوء كل النقاط التي ذكرت اعلاه[١] .

لا ينطبق ذلك على الجبال، لانها تحدد تحركات القوات المسلحة كبيرة كانت هذه ام صغيرة، ولدرجة بعينها، كما تفعل الانهار. الا ان القلاع المشيدة على الجانب المعادي من السلسلة الجبلية، تعد في مكان لا تحسد عليه بسبب صعوبة تحريرها من الحصار، وعلى العكس من ذلك ان كانت على الجانب القريب، فسيصعب على العدو محاصرتها لان الجبال ستعيق خطوط مواصلاته. وتعد (اولمتز)[٢] عام ١٧٥٨ مثالاً على ذلك.

من الواضح للعيان تماماً ان للغابات الكثيفة التي يصعب اختراقها، وكذلك المستنقعات، نفس التأثير الذي للانهار .

السؤال الذي غالبا ما يواجهنا عما اذا كانت المدن في اماكن يصعب الوصول اليها ومما يمكن اعتبارها قلاعاً أحسن أو أسوء، ونظراً لقلة تكاليف تحصينها والدفاع عنها، عدى عن إن إنفاق قدرٍ مساوٍ في تقويتها سيجعلها اكثر قوة بل وغالباً ما يصعب اختراقها، ونظراً لان ما تقدمه القلعة دائماً سلبياً اكثر منه ايجابياً، فالاعتراض حول سهولة محاصرتها لا يستحق كما نرى حتى النظر اليه بجدية كبيرة.

وختاماً لنعرض رأينا الصريح في منظومة تحصين البلاد. نعتقد ان هناك ما يبرر لنا ارسائها على اعتبارات دائمية ومهمة وتتصل مباشرة بقضايا ومصالح أساسية للدولة.

---

(١) قلعة فيليبسبرج على نهر الراين مثال جيد على سوء اختيار مكان القلعة، اذ تبدو كالابله الذي يقف وانفه الى الجدار. (كلاوزفيتز).

(٢) قلعة اولمتز، المدينة الجبلية وقد حاول فردريك الكبير احتلالها عام (١٧٥٨) في حرب السنوات السبع (١٧٥٧ - ١٧٦٣) المترجم

لذلك ستظل هذه المنظومة سليمة حتى مع تحول التوجهات العسكرية، والبراعات الاستراتيجية الخادعه، أو المتطلبات الخاصة لحالة بعينها – وكل من هذه قد تكون لها عواقب غير محمودة لقلعة شُيدت لتبقى لخمسة أو حتى عشرة قرون. لقد شيد فردريك الكبير قلعة (سيلبربيرج) على قمة جبل (سودتين)، في ظروف مختلفه كلياً، لذا سرعان ما فقدت عملياً كل اهميتها، اما لو كانت القلعة في (بريسلاو)[1]، وحافظت علي وجودها كقلعة جيدة لكانت إحتفظت بقيمتها تحت مختلف الظروف – ليس فقط ضد الفرنسيين وحسب، بل وضد الروس والبولنديين او حتى النمساويين.

على القارىء ان لا ينسى اننا لا نريد لمناقشتنا وحججنا ان تنطبق كذلك على دولة تريد انشاء تحصينات جديدة كلياً. ونظراً لندرة حالات كهذه، أو انها لم تحدث عملياً ابداً، لذا فلن تمتلك مناقشتنا اي دليل عملي او تجربة، لانها اساساً مما يصح الانتباه اليها عند التخطيط لبناء قلعة منفردة .

(١) معركة بريسلاو (١٧٥٧/١١/٢٢) إحدى معارك حملة ليوثين التي عدها نابليون مأثرة تعبوية خالدة لفردريك الكبير والتي جرت في ١٧٥٧/١٢/٦ في حرب السنوات السبع (راجع ص ٢٧٢). ما بين شهري نوفمبر وديسمبر عاد فردريك الكبير مسرعاً الى سليزيا بعد معرفته بتقدم النمساويين نحو بريسلاو، وعرف خلال مسيرة أن جارلس اوف لورين والماريشال داون (النمساويان) قد دحرا واسرا الجنرال اوكست اوف برونزويك– بيفرن (البروسي) في بريسلاو، ودفعت قوات اوكست غرب نهر اودر. تمكن فردريك الكبير وبأمرته (١٣) الف رجل من قطع مسافة (١٧٠) ميلاً في (١٢) يوماً وضم إليه ما تبقى من قوات برونزويك قرب لايجنتز وبعد جمعة (٣٦) الف جندي تحت قيادته تهيأ للهجوم واندفع شرقاً حيث خاض معركة ليوثين (راجع ص ٢٧٢) ومن ثم استعاد بريسلاو. عن م. ت.) ص٦٧١ – المترجم.

الفصل الثاني عشر
المواضع الدفاعية

كل موضع تقبل فيه معركة، وتستفيد من الارض لحمايتك فيه فهو موضع دفاعي، ولا فرق في ذلك ان كان التوجه العام سلبياً او ايجابياً اساساً. وينبع ذلك من رأينا العام في الدفاع.

بوسع المرء المضي خطوة أخرى فيدعو كل المواضع التي يكون الجيش المتقدم نحو عدوه مستعداً على قبول المعركة فيها، ان كان سيجد عدوه هناك، مواضعاً دفاعية. وهذه في التحليل النهائي الطريقة التي تتم فيها معظم المعارك، ولم تعرف العصور الوسطى طريقة غيرها. ومع ذلك فليس هذا ما يهمنا الان. فمعظم المواضع هي من هذا النوع، كما يعتبر ان مفهوم **الموضع، كنقيض للمعسكر الوقتي،** كافٍ للغرض الحالي. ولا بد للموضع الذي يصمم **كموضع دفاعي** من خصائص اضافية اخرى.

من الواضح ان القرار (الحسم) الذي يتم التوصل اليه في موضع اعتيادي، محكوم بعنصر الوقت؛ فالجيوش تتقدم نحو بعضها اما اين تلتقي فذلك امر يسير، وكلما يهم هنا هو ان المكان مناسب تماماً. اما في المواضع الدفاعية الحقيقية **فالمكان عامل حاكم،** اذ يتوجب حسم الامر في ذلك المكان، او بالاحرى بسبب ذلك المكان. وهذا هو نوع المواضع الذي نبحث فيه هنا.

لعنصر المكان اذن، وجهان أو جانبان؛ **اولاً** وقبل كل شيء للقوة التي تحتل موضعاً معيناً تأثير على الامر بكامله، **والثاني** ان الموضع نفسه يوفر حماية كافية للقوة ويزيد من امكانياتها. والخلاصة فللموضع اذن صلة تعبوية وكذلك استراتيجية وثيقة..

وكي نكون اكثر دقة، فالجانب التعبوي وحده يلائم ويبرر مصطلح **«الموضع التعبوي»**. اما الجانب الاستراتيجي – في واقع ان القوة المتمركزة في ذلك الموضع توفر الحماية للبلاد (المنطقة) بمجرد تواجدها – فيمكن تطبيقه كذلك وبشكل تام على قوة هاجمة.

يمكن استعراض الجانب الاول اعلاه – التأثير الاستراتيجي لموضع ما – وبشكل كامل عندما نصل الى مناقشة الدفاع عن مسرح العمليات، وسنقتصر هنا على التمعن

فيه قدر ما يمكن. لذلك يتوجب علينا تفحص مفهومين مماثلين نوعاً ما **بدقة، اذ** غالباً ما يتداخلان في بعضهما وهما؛ احاطة الموضع، او تخطي الموضع.

احاطة الموضع حركة لها علاقة بجبهته. وتنفذ حركة كهذه اما لمهاجمة الموضع من الجناح، او حتى من خلفه، أو لقطع خطوط مواصلاته وانسحابه.

والاولى منها – اي مهاجمة جناح او مؤخرة الموضع – تعبوية بطبيعتها. وفي ايامنا هذه، وبعد زيادة قابلية حركة القطعات الى حد كبير، فكل خطط العمليات تستهدف والى حد ما احاطة، او تطويق العدو، لذا فلا بد من استعداد كل موضع لمثل هذه الاحتمالات، والموضع الذي يستحق بان يوصف بالقوي، يجب ان لا يكون قوياً من الجبهة فقط، بل لا بد ان يتوفر له المجال للقتال على الأجنحة والمؤخرة، اي حيثما يوجد تهديد. وهكذا فلو **احيط بموضع ما لغرض ضرب جناحه أو مهاجمة مؤخرته** فلا يجوز ان يغدو عديم الفائدة ولا جدوى منه. والمعركة التي ستنشب في هذه الحالة محكومة بالموضع، وينبغي توفر القدرة للمدافع على الاستفادة من جميع المزايا التي دفعته الى اختيار ذلك الموضع في الاعتبار الاول.

اما اذا احاط المهاجم بالموضع لتهديد خطوط مواصلاته وانسحابه، فقد ادخل الجانب الاستراتيجي في اللعبة، وستكون القضية ساعتئذٍ هي؛ كم سيصمد الموضع، وهل يمكن دحر العدو وفقاً للعبة التي اعدها بنفسه[1]. ويعتمد كلا الامرين هنا على التحديد الفعلي للمكان – وذلك في الاساس يتركز في علاقة خطوط مواصلات كل طرف ببعضهما. لذا ينبغي التأكد من ان كل موضع جيد يوفر للمدافع تفوقاً في القوة بهذا الخصوص. وعلى اية حال، فلن يصبح الموضع الذي احيط به عديم الجدوى لمجرد ذلك، ففي الواقع، سيكون العدو الذي يحاول تنفيذ حركة من هذا النوع في وضع متعادل على الاقل بفعل عمله هذا.

من الناحية الاخرى، اذا تجاهل المهاجم القوة التي تكمن في مجرد انتظار

---

(١) تصوير دقيق جداً للمعركة وهي في اعلى درجات احتدامها، حين يغدو للقائد الاقوى والاقدر التحكم بالموقف بكامله من خلال اعداده لساحة المعركة وتصميمه للمعركة نفسها بشكل يدفع معها بخصمه نحو حفرة الموت، او ان ينتظر سنوح الفرصة المواتية لذلك، وهذا ما يعبر عنه باستغلال الفرص السانحة قبل افلاتها لانها قد لا تتكرر كانكشاف جناح أو مؤخرة، او توقف اندفاع الهجوم أو انهيار احد اجنحته، ومثل ذلك أيضاً دحر العدو بلعبته او خنقه بحباله. وكذلك تحديد مدة صمود الموضع الدفاعي قبل الانقضاض على العدو. (المترجم)

المدافع له في الموضع الدفاعي، ويواصل متابعة هدفه بدفع قوته الى الامام عبر مسلك آخر، اي بتخطي الموضع، فان استطاع تنفيذ ذلك دون خسائر، وأنجزه فعلاً، فسيُجبّر المدافع عندها على ترك موضعه فوراً – بكلمة اخرى يجعله غير ذي فائدة.

يصعب وجود موضع ما في العالم لا يمكن تخطيه وبالمعنى الحرفي للمصطلح. والمثال الذي يقدمه موضع (ازموث بيريكوب)[1] من النوادر التي لا تستحق مناقشة مفصلة. لذلك فما نعنيه هنا بالاستحالة، هي اشارة الى الاضرار التي تلحق بالمهاجم من تخطيه للموضع. وسيوفر الفصل السابع والعشرين المزيد من الفرص لمناقشة تلك الاضرار، اما كونها اضراراً كبيرة او صغيرة فمتوقف على مدى عدم استغلال كفاءة وفاعلية الموضع التعبوية، وبفعل هذين العنصرين معاً يحققان دورهما.

تنبثق من ذلك سمتان استراتيجيتان للموضع الدفاعي هما:

١ . انه قد يتعذر تخطيه.

٢ . ان يوفر للمدافع ميزة في الصراع حول خطوط المواصلات تضاف هنا ميزاتان استراتيجيتان اخريتان هما:

٣ . في ان العلاقة بين خطوط المواصلات هي ايضا تؤثر بشكل جيد على نمط الاشتباك.

٤ . في ان التأثير العام للارض سيكون ملائماً.

تؤثر تلك العلاقة بين خطوط المواصلات ليس على امكانية تخطي الموضع وإمكانية عزله عن مصادر تموينه وحسب، بل وكذلك على المسار الكلي للمعركة. يُسهّل خط الانسحاب المائل حركة الاحاطة التعبوية للمهاجم، وتحدد الحركة التعبوية للمدافع إبان سير المعركة. ومع ذلك فالترتيب المائل نسبة الى خط المواصلات، ليس بالضرورة نتيجة لخطأ تعبوي، بل قد ينتج عن خطأ استراتيجي في اختيار الموضع. وعلى سبيل المثال، قد لا يمكن تجنب ذلك اذا تغير اتجاه الطريق قرب الموضع (كما في بوردينو عام ١٨١٢)، اذ يندفع المهاجم عندها في الاتجاه الصحيح **لحركة احاطة دون الحاجة لانحرافه عن اتجاهه وترتيبه العمودي.**

---

(١) . ازموث بيريكوب، عام ١٧٧١ اقتحمت القوات الروسية بقيادة الامير فاسيلي دو لكورسكي الموضع واحتلت القرم ولا تعطي م ت ع اية تفاصيل اضافية توضح سبب استشهاد كلاوزفيتز به هنا . م. ت. ع ص٦٩٧. المترجم

بالاضافة الى ذلك، فان كان بوسع المهاجم التراجع على عدد من الطرق، في الوقت الذي ليس للمدافع سوى طريق واحد، فستتوفر للأول حرية (حركه) تعبوية اكثر بكثير. وفي كل مثل هذه الحالات سيكافح المدافع دون جدوى لتجاوز مثل هذه العراقيل الناجمه عن خطأ أستراتيجي. وسوف لن ينجح.

اخيراً، ووفقا للنقطة (٤) اعلاه فقد تكون الجوانب الاخرى للارض، بالغة الضرر والى حد لن تجدي معها كل الدقة في الاختيار ولا العبقرية التعبوية القصوى. وفي حالة كهذه فالاعتبارات الاساسية هي:

١ . يتوجب على المدافع وفوق كل شيء إبقاء العدو تحت الرصد والمراقبة، وأن يكون قادراً على الانقضاض عليه بقوة حال دخوله منطقة المدافع، اذ لن يجني المدافع منافع الارض عند مزج الموانع الطبيعية مع الشرطين الانفين.

وستظل هناك أضرار ومحاذير في كل الاماكن المسيطر عليها من اراض اعلى، وكذلك كل او معظم المواضع في المناطق الجبلية (والتي ستبحث بعناية وتفصيل اكثر في الفصول الخاصة بالحروب الجبلية)، وكل المواضع المسند أحد جناحيها على جبل، (وبينما سيواجه المهاجم صعوبة **في تخطيها** فسيجد من السهل عليه احاطتها)، وكل موضع يقع جبل ما، امامه مباشرة، وكل الحالات التي تستنبط عموماً من الظروف اعلاه وعلاقتها مع الشروط العامة للارض. ومن بين ما يتعارض وهذه الشروط السيئة، سنذكر فقط حالة الموضع المستند الى جبل. فالفوائد هنا كثيرة جداً حتى لتكون من بين افضل المواضع التي يمكن تصورها او التفكير بها لهذا الغرض.

٢ . قد تتلائم الارض والى حد كبير او قليل مع طبيعة وتأليف الجيش. اذ ينبغي ان يقودنا تفوقنا في الخيالة، وذلك مبرر قوي، للبحث عن الاراضي المفتوحة. اما استخدام الاراضي الوعرة والبالغة الصعوبة فمؤشر على نقص ما لدينا من الخيالة، وربما كذلك المدفعية، كما يعني أن المشاة يتألف من رجال شجعان ذوي خبرة بالحروب، ويعرفون الارض المحيطة بهم جيداً.

ما من حاجة بنا لمناقشة مفصلة للتأثير التعبوي لمكان الموضع الدفاعي، على القوات المقاتلة. وسنكتفي بالتمعن بالنتيجة ككل، فلها وحدها اهمية استراتيجية.

اي موضع ينوي الجيش انتظار هجوم العدو فيه، ينبغي أن يكون وكما هو واضح، الموضع الذي يوفر استفادة تامة من الارض، التي ستعمل بدورها على مضاعفة

قوة الجيش. وحيثما تكون المساعدة الطبيعية كبيرة وجيدة، ولكن ليس بالقدر الذي يوده المرء، يجب أن يعوض التخندق عن ذلك. وبهذه الطريقة يمكن جعل قاطعاً من الموضع – بل والموضع كله مع مضي الوقت – **قوياً ويصعب اختراقه**. وفي الحالة الاخيرة يتغير الهدف المتوخي من الاجراءات التي ستتخذ وكما هو واضح بشكل كلي. لم نعد نبحث بعد عن معركة في ظروف مواتية – معركة تستهدف انجاح الحملة بكاملها. بل نستهدف الآن تحقيق النجاح من دون أية معركة اطلاقاً. فبوضعنا لقواتنا المقاتلة في موضع يصعب اختراقه، فاننا نرفض المعركة، ونفرض على العدو البحث عن طرق أخرى للحسم.

يجب الفصل والتمييز بين هاتين الحالتين بدقة. وستناقش الثانية في الفصل التالي تحت عنوان «الموضع القوي».

نقصد بالموضع الدفاعي الذي نحن معنيين به هنا، وببساطة الفوائد الاستثنائية لساحة المعركة. اما ان اريد لها ان تكون ساحة معركة فيجب ان لا تكون فوائد المدافع **كبيرة جداً**. ما مدى القوة التي ينبغي ان يكون عليها الموضع الدفاعي حينئذ؟ من الواضح ان العدو وكلما كان اكثر عدوانية، كلما توجب زيادة قوة الموضع، كما سيحكم على كل حالة وفقاً لما تستحقه. ففي مواجهة رجل كنابليون على المدافع ان امكن التراجع الى ما وراء استحكامات اقوى مما في حالة مواجهة رجل مثل الماريشال دوان او الجنرال شوارزنبرغ.

ان كان احد اجزاء موضع ما مما يصعب اختراقه، كالجبهة على سبيل المثال، ينبغي اعتبار ذلك أحد عناصر القوة الكلية للموضع، اذ يعني أن القوة التي لا تدعو الحاجة اليها هنا يمكن إستخدامها في مكان اخر. ومع ذلك ينبغي أن لا يخطىء المرء حقيقة أن العدو، وكي يتجنب ما لا يمكن اقتحامه من الموضع، سيغير النمط الكلي لهجومه، يظل علينا ان نرى فيما اذا كان هذا النمط الجديد يتلائم وغرضنا.

لنفترض على سبيل المثال أن موضعاً قد أتخذ خلف نهر كبير مباشرة، وبشكل يعمل فيه النهر على تقوية جبهة الموضع، وكما يحدث عادة في موقف كهذا. لقد اصبح النهر في الحقيقة نقطة استناد لاحد الجناحين، اذ يتوجب على العدو القيام بالعبور بعيداً الى اليمين او اليسار وكذلك تغيير جبهته لشن الهجوم. السؤال الرئيسي هنا هو، ما مزايا أو محاذير ذلك على المدافع ؟.

نعتقد أن قوة الموضع الدفاعي تزداد وتقترب من الحالة المثالية كلما كانت القوة

مخفية، وكلما ساعد ذلك الموضع على أخذ العدو على حين غرة خلال سير العملية. فالمرء يسعى دائماً الى خدع العدو حول القوة العددية الحقيقية لقوته القتالية، واتجاهها الحقيقي. كما ينبغي وبنفس الدرجة عدم السماح للعدو بمعرفة الطريقة التي يحاول المرء الاستفادة فيها من الارض. وهذا مما يمكن تحقيقه والى حد معين، بطبيعة الحال، وربما يستدعي ذلك استخدام اساليب خاصة لم يسبق استخدامها في هذا المجال.

يوفر قرب الموضع من قلعة كبيرة، ومن اي اتجاه، تفوقاً لذلك الموضع بزيادة قابلية الحركة والفوائد التي تجنى من القلعة. والاستخدام الجيد لاية تحصينات ميدانية منفردة يمكن ان تعوض عن النقص في القوة الطبيعية في نفس النقطة، مما يساعد المرء، ويشجعه في رسم الخطوط العريضة للأشتباك مقدماً. وتلك هي التعزيزات والدعم الذي يمكن للفن ان يوفره كما ان مزج مثل هذه التعزيزات مع الاختيار الصحيح للموانع الطبيعية (للضغط وازعاج العدو دون انهاكه كلياً) مع الفوائد التي توفرها المعرفة الجيدة لساحة المعركة، والتي لا تتوفر للعدو، مع قدرتنا على اخفاء ترتيباتنا بدرجة لا يمكن ان تتوفر للعدو، مع تفوقنا عموماً في الوسائل والقدرة على المباغتة خلال سير العملية، كل ذلك يمكن ان يجعل تأثير الارض نفسها طاغياً وحاسماً، وبشكل يجبر العدو على الخضوع دون ان يدرك حقيقة واسباب اندحاره. هكذا نتصور نحن الموضع الدفاعي، اذ هو في رأينا اعظم فوائد الحرب الدفاعية.

لو اغفلنا العوامل والظروف الخاصة الأخرى، فبوسع المرء ان يفترض ان المناطق المتموجة، وليست شديدة الوعورة ولا القليلة المزروعات جداً، ستوفر لنا أعظم عدد من مواضع كهذه.

الفصل الثالث عشر

المواضع المحصنة والمعسكرات المتخندقة

بينا في الفصل السابق ان الموضع الذي جعلته الطبيعة والمهارة قوياً جد والى حد اعتباره صعب الاحتلال، هو موضع متميز عن تلك المواضع الملائمة كساحات معارك. انه يشكل نوعية خاصة بحد ذاته. وسنناقش في هذا الفصل الصفات الخاصة لموضع كهذا، ولتشابه هذه المميزات كثيراً مع تلك التي تمتاز بها القلاع، فسندعوه **بالموضع الحصين**.

ليس من السهل انشاء الموضع الحصين بمجموعة بسيطه من الخنادق، وتستثنى من ذلك المعسكرات المتخندقة القريبة للقلاع. واقل من ذلك لو أنشأت بالاستفادة من الموانع الطبيعية. بل تعمل الطبيعة والمهارة يداً بيد من اجل انشائها؛ لذلك غالبا ما يشار اليه بمصطلح المعسكرات او المواضع المتخندقة. ويمكن اطلاق هذه التسمية كذلك على اي موضع يُحصّن بمجموعة من تحصينات الميدان Field Works – والتي تختلف عن الموضوع الذي نناقشه هنا.

لذلك تكون وظيفة الموضع القوي هي جعل القوات التي تحتله مما لا يمكن قهرها عملياً. وبتحقيقها ذلك تؤمن المواضع القوية حماية مباشرة للمنطقة **نفسها**؛ او فقط **لحماية القوات المقاتلة المتمركزة في المنطقة**. وستتولى هذه القوات وبالمقابل تغطية المنطقة بصورة غير مباشرة. كانت الاولى وظيفة الخطوط في الحروب الاولى، وعلى الاخص في الحدود مع فرنسا، اما الثانية فهي الغاية المتوخاة من المعسكرات المتخندقة المتجهة الى كل الجهات، ولتلك المقامة جوار القلاع.

لو اصبحت جبهة موضع ما على سبيل المثال قوية جداً بما عززت به من التحصينات والموانع بحيث اصبح من المتعذر مهاجمتها او التقرب اليها من ذلك الاتجاه، سيجبر العدو عندها على الالتفاف ومهاجمة جناح او مؤخرة الموضع. لذلك ولجعل الامر اكثر صعوبة، يبحث المرء هنا، عن نقاط قوية لاسناد الخطوط التي توفر

الحماية للأجنحة، كنهر الراين وجبال (الفوج)(١)، بالنسبة للخطوط في منطقة (الالزاس)(١). وكلما ازداد طول هذه الخطوط كلما صعبت احاطتها، لان حركة الاحاطه تتضمن وعلى الدوام بعض المخاطر لقوة الاحاطة نفسها، وتتزايد نسبة المخاطر طردياً مع تزايد انحراف اتجاه الاحاطة عن الاتجاه الاصلي للقوة المتقدمة. لذلك فان اطالة الجبهة الى حد يتعذر معه اختراقها، بالاضافة الى نقاط اسناد قوية، سيوفران عادة الفرصة لحماية جيدة ومباشرة لمنطقة كبيرة ضد اي اجتياح معادي. وتلك هي الفكرة والغاية الاساسيتين على الاقل، والاهمية الكبيرة للخطوط في منطقة الالزاس، والمسند جناحها الايمن على نهر الراين، اما الايسر فعلى جبال الفوج، وكذلك الحال مع خطوط الفلاندرز الممتدة لـ (٧٥) ميلاً ويستند جناحها الايمن على قلعة (تورني) ونهر (شيلدت)، اما الايسر فعلى البحر.

عندما لا تتيسر الوسائل لجبهة قوية وطويلة جداً مع اجنحة مستندة بقوة، واذا تطلب الامر لحماية المنطقة المعنية بقوات في خنادق جيدة، فلا بد لهذه من تأمين الدفاع الى جميع الجهات لحماية نفسها ضد اي احاطة. ولم يعد من وجود لمفهوم المنطقة المحمية بكفاءة، كما ان موضعاً كهذا، ومن الناحية الاستراتيجية ليس سوى نقطة. وليس هناك سوى القوات المقاتلة نفسها لتغطية المنطقة، وعليها فقط المحافظة على بقائها، **والا كان عليها ان تتولى توفير مستلزمات العيش بنفسها في تلك المنطقة.** وسيكون من المستحيل تطويق موضع كهذا، لعدم وجود **مناطق واهنة في** الاجنحة او المؤخرة لاحاطتها او مهاجمتها، فالموضع جبهة واحدة او متصلة، وقوي في كل مكان وبنفس الدرجة. الا ان موضعاً كهذا يمكن **تخطيه** – وبسهولة اكثر من تطويق الخطوط الدفاعية من الخنادق، لان الموضع هذا دون اي امتداد.

تنطوي المعسكرات المتخندقة المنشأة جوار القلعة الى النوع الاخير من حيث الاساس، لانها وجدت اساساً لحماية قواتها، ولما لها من أهمية استراتيجية واسعة، وبالذات في استخدام قوات الحماية تلك فأنها تختلف والى حد ما عن انواع المعسكرات المتخندقة الاخرى.

بعد تتبع واستعراض أصول وتطور طرق الدفاع الثلاث، نحاول الان ايضاح

---

(١) الفوج سلسلة جبلية مشجرة شمال شرق فرنسا وتبدأ من سهل الراين وتسير بمحاذاة الغابة السوداء. اما الالزاس فمنطقة شرق فرنسا بين الفوج ونهر الراين وكانت موضوعاً لصراع طويل مع المانيا اما الفلاندرز فمنطقة موزعة حالياً بين بلجيكا وهولندا وفرنسا. (المترجم)

قيمة كل منها. وللتمييز بينها بتسميتها وكما يلي؛ «الخطوط المحصنة» و «المواضع المحصنة» و «المعسكرات المتخندقة قرب القلاع».

١ . **الخطوط**. وتشكل أشد انواع حروب الحصار (Cordon - Warfare) دماراً. ولا يعتد فيها بقيمة ما تشكله من موانع بوجه الهجوم، اذ لا تساوي مثل هذه الموانع شيئاً دون قوة نارية شديدة لأسنادها، وبدون هذا الاسناد فكأنها غير موجودة. يضاف الى ذلك أن قدرة الجيش على اطالة مواضعه مع المحافظة على دعم ناري كاف، قدرة محدودة بالنسبة للمنطقة المستخدمة، لذلك يجب تقليص الموضع لادنى حد وبذلك لن يوفر التغطية الا لمنطقة صغيرة، وخلاف ذلك سيتعذر على الجيش الدفاع بكفاءة عن جميع النقاط. ولمعالجة ذلك، كان المقترح هو أن ليس من الضروري احتلال كافة النقاط على طول الخط، بل يمكن إبقائها تحت الرصد، وتأمين الدفاع عنها بالاحتياط المتيسر، وبشكل يشبه كثيراً أسلوب الدفاع عن نهر متوسط الحجم. الا ان هذه الطريقة ليست مناسبة للوسائل المتيسرة في حالة كون الموانع الطبيعية كبيرة والى الحد الذي يمكن معه التعويل عليها، دون الحاجة الى الخنادق التي ستكون حينئذٍ خطرة. فالخطوط ليست مناسبة للدفاع المحلي، والخنادق أكثر ملائمة لذلك. اما انّ افترض ان تشكل الخنادق نفسها المانع الرئيسي على المقترب، فمن السهولة بمكان ادراك لاجدواها في ذلك، وانها ستكون قليلة الفائدة ما لم تحمى ويدافع عنها. فما مقدار الفائدة التي نجنيها من حفرة بعرض (١٢–١٥)قدم، او متراس (ساتر) بارتفاع (١٠–١٢) قدم، ضد صولة مشتركة لعدة الاف من الرجال لا تزعجهم نيران العدو [المدافع]؟ يقودنا ذلك الى الاستنتاج بسهولة تطويق هذا النوع من الخطوط ان كانت قصيرة ومدافع عنها جيداً؛ اما ان كانت طويلة وغير معززة بدفاع قوي فمن السهل مهاجمتها واحتلالها جبهوياً دون مشاكل.

نظراً لان خطوطاً كهذه تحدد القوات بدفاع محلي وتجردها من قابلية الحركة كلياً، فانها منظومات لم تصمم بكفاءة كي تصمد بوجه عدو عزوم. اما السبب في استمرارها في الحروب الحديثة، فيكمن في طبيعة تلك الحروب، عندما تعامل الصعوبات الظاهرية وكانها معضلات حقيقية. بينما لم تستخدم تلك الخطوط في معظم الحملات الا كدفاعات اضافية فقط ضد الغزاة. ولها بهذا المعنى بعض الاهمية والقيمة، على ان لا ننسى ان القطعات التي ستترك للدفاع فيها غالباً ما يمكنها من انجاز مهمات اكثر اهمية في اماكن اخرى. ولم تعد لها اهمية او موضوع بحث في معظم الحروب الحديثة، وما من مؤشر على انها استخدمت فيها. كما بوسع المرء ان يشكك في امكانية ظهورها ثانية.

٢ . **المواضع** . سيظل أمر الدفاع عن منطقة ما قائماً، طالما استطاعت القوة المكلفة بذلك المحافظة على بقائها هناك، وكما سنوضح ذلك بالتفصيل في الفصل السابع والعشرين. ولن تنتهي المهمة الا بانسحاب القوة من المنطقة واخلائها.

وعليه فلو هوجمت القوة المتمركزة في جزء من المنطقة، بقوة اكثر تفوقاً، فان احدى وسائل حماية تلك القوة ضد العدو الاقوى هي باحتلال تلك القوة موضعاً يصعب اقتحامه.

وعليه وكما اوضحنا للتو، لا بد لهذا الموضع من قدرة على الدفاع الى جميع الجهات. وعندما لا تكون القوة **كبيرة جداً**، فان العرض الاعتيادي للترتيب (الانفتاح) التعبوي (والذي سيناقض الطبيعة الكلية للحالة المعنية) ليس سوى **فسحة قليلة** – فسحة صغيرة جداً حتى انها ستتعرض خلال الاشتباك الى ما لا يحصى من الاضرار، وبغض النظر عما سترفد به من استحكامات من شتى الانواع، ليس امامها سوى القليل من الامل لأن تصمد بنجاح. ففي معسكر يشكل كل جانب منه جبهة، يجب ان تكون جميع جبهاته واسعة ويصعب اختراقها فعلاً. وفن التخندق وحده ليس كافيا لتوفير قوة كهذه عندما يكون الاتساع كبيراً. لذلك وكشرط اساسي، ينبغي البحث عن القوة لموضع كهذا في الموانع الطبيعية التي ستجعل بعض اجزاءه مما لا يمكن التقرب منها، والأخرى مما يصعب الوصول اليها. لذلك فان كانت هذه الطريقة ستستخدم فلا بد من العثور على الموضع الصحيح، ولا يمكن التعويل فقط على الخنادق وحدها لتحقيق ذلك. تنطبق هذه الملاحظات على النتائج التعبوية، كما تعني بترتيب وجود تلك الوسائل الاستراتيجية. ولتصوير ذلك بوسعنا ان نذكر (بيرنا)[١]، و(بنزيلفتز)[٢] و(كولبرج)[٣]، و (توريس فيدراس)[٤] و (دريسا)[٥].

---

(١) بيرنا (١٧٥٦م) مدينة تقع جنوب دريسدن في المانيا. بعد وقوف فردريك على نوايا اعدائه في حرب السنوات السبع اجتاز حدود ساكسوني بـ(٧٠) الف رجل وابقى (٨٠) الفاً لمراقبة حدوده الشرقية والشمالية، واحتل دريسدن في (٩/١٠) وتراجعت قوات ساكسوني الى معسكر بيرنا على نهر ايلب وحوصرت هناك فتقدمت قوة نمساوية (٥٠) الف رجل بقيادة الماريشال مكسيميليان لفك الحصار فاندفع فردريك الكبير بقوة مماثلة ودحر النمساويين في (ايرزبيرج) فاستسلمت قوات ساكسوني له (م. ت. ع ص٦٦٨).

(٢) بنزيلفتز راجع الهامش في الفصل السادس الكتاب الثاني ص (٢٣٧)

(٣) كولبرج. لم نجد عنها سوى اشارة حول معسكر بهذا الاسم عام ١٧٦١ اي خلال حرب السنوات السبع ايضا

(٤) توريس فيدراس. هامش في الفصل الثامن الكتاب السادس ص(٥٣٢)

(٥) دريسا. مدينة اشتهرت بمعسكر كبير وتقع على مبعدة (٤٠٠) ميل من موسكو وسيتكرر ذكرها في الفصول التاليه. المترجم

ولنبحث الان في خصائصها وتأثيراتها الاستراتيجية.

الشرط الاول بطبيعة الحال، هو ضرورة تأمين مواد الاعاشة والاحتياجات الاخرى للقطعات التي ستكلف باشغال ومسك هذا المعسكر لعدة ايام - للمدة التي يعتقد ان فاعلية المعسكر ستمتد اليها. وينطبق ذلك اكثر في الحالات التي تستند فيها مؤخرة المعسكر على ميناء، كما في (كولبرج) و (توريس فيدراس)، او كما في معسكري (بنزيلفتز) و (بيرنا) التي على اتصال وثيق مع قلعة من القلاع، او ان تخزن مواد الاعاشة والضرورات في المعسكر نفسه او على مقربة منه، كما في حالة المعسكر الذي في (دريسا).

يتأمن هذا الشرط بصورة كافية في الحالة الاولى فقط، ويتأمن جزئياً في الحالتين الثانية والثالثة. وسيظل هذا الشرط مصدر خطر دائم. وفي الوقت نفسه فان معضلات التموين تؤدي الى استبعاد العديد من الاماكن الجيدة، والتي كانت ستوفر مواضعاً متخندقة لولا ذلك. اما المناسب لذلك فسيكون من الاماكن القليلة والنادرة.

ولقياس فاعلية اي من المواضع، ولموازنة اصول ومصادر قوة وامكانيات كل منها، لا بد ان نسأل انفسنا عن ما هية ردود فعل المهاجم ازائها.

أ . بوسع المهاجم تخطي المواضع القوية، ويتابع تصميمه الخاص به، ويكتفي بوضع الموضع تحت المراقبة مع تكليف قوة مناسبة بذلك.

هنا يحدث اختلاف حول من سيمسك الموضع المتخندق، أهو القسم الاكبر ام تكلف قوة ثانوية بذلك.

فأن أمسك بالقسم الاكبر فسيفيد المهاجم من تخطي الموضع ان كان امامه مسلكاً اخراً **وهدفا حاسما يتابع العمل لاجل مهاجمته**، وربما يكون ذلك الهدف قلعة ما، او العاصمة، او شيء اخر. وحتى لو افترضنا ان الامر كذلك، فالمهاجم يستطيع مواصلة ذلك فقط ان كانت قاعدته قويةً الى حد كاف، كما ان خطوط مواصلاته بوضع لا تتعرض اجنحته الاستراتيجية معه الى اية مخاطر.

الاستنتاج الذي نصل اليه هنا يتعلق بملائمة وفاعلية الموضع القوي للقسم الاكبر من قوة المدافع، وذلك يتحقق عندما يشكل الموضع تهديداً لجناح المهاجم والى حد

يتأكد المدافع معه من امكانية تثبيت وشل المهاجم دون ان يكون بوسع هذا الاخير الحاق اي اذى بالمدافع، والحالة الاخرى هي عند وجود هدف بوسع المهاجم الوصول اليه او تحقيقه، وهو ذو اهمية في الوقت نفسه للمدافع. فان وجد مثل هذا الهدف، وحيث يتعذر وفي الوقت نفسه الحاق اي اذى أو تهديد جدي للجناح الاستراتيجي للعدو، فما من مبرر اطلاقاً لاختيار واحتلال موضع كهذا، أو أن يُمسّك بقوة ثانوية، وربما وببساطة لنرى ما اذا كان العدو سيخشى هذا الموضع أو يعطيه اية اهمية. وسيظل الخطر قائماً في هذه الحالة، اذ لو لم يفعل ذلك، فلن يكون بوسعه عندها انقاذ الموضع المهدد.

اما اشغال الموضع المحصن بقوة ثانوية فقط، فلن يخلو المهاجم من هدف اخر كي يهاجمه، وقد يكون هذا الهدف هو القسم الاعظم من الجيش نفسه. تقتصر قيمة الموضع في حالة كهذه على التهديد الذي يمثله لجناح العدو الاستراتيجي، ولن يتعدى حدود هذا الشرط.

ب . اما ان لم يجرؤ المهاجم على تخطي الموضع، فبوسعه محاصرته واجباره عن طريق الجوع الى الاستسلام ومع ذلك فلا بد من شرطين اساسيين لذلك. الاول ألا يكون الموضع مفتوحاً الى الخلف؛ والثاني ان يكون المهاجم قوياً لمثل هذا الحصار. فان تحقق الشرطان، ورغم قدرة الموضع على مضايقة وشل المهاجم لبعض الوقت، الا ان المدافع سيدفع ثمن هذه الفائدة الوقتية بضياع القوة المدافعة.

نستنتج من ذلك ان احتلال موضع قوي **بالقسم الاكبر من قوة المدافع**، اجراء لن يتخذ الا تحت ظروف معينة مثل:

اولا. ان كانت مؤخرة الموضع امينة تماماً، مثل تحصينات (توريس فيدراس).

ثانياً . ان امكن التنبؤ ان ما يفرزه المهاجم لقوة الحصار لن يُضعف تفوقه. فان فعل المهاجم ذلك دون تفوق كاف، فبوسع المدافع شن هجوم ناجح ودحر العدو على مراحل.

ثالثاً . ان امكن التعويل على عملية انقاذ، كما فعل السكسونين في حصار معسكر بيرنا (١٧٥٦م). فحالة كهذه تشبه ومن حيث الاساس ما حدث بعد معركة (براغ) عام ١٧٥٧م.

ويمكن اعتبار (براغ)[1] معسكراً متخندقاً، وما كان الامير جارلس ليوافق ابداً على حصر نفسه فيه لولا معرفته بقدرة جيش مورافيا على انقاذه.

لا بد من مراعاة واحد من الشروط والاعتبارات الثلاثة اطلاقاً، ان اريد تبرير اختيار موضع محصن ما، للقسم الاكبر من القوة المدافعة. ومع ذلك لا بد من الاقرار بان استجابة المدافع للشرطين الثاني والثالث لا تخلو من اجباره على قبول مخاطرة جسيمة.

وتزول تلك الشروط اذا كانت القوة المعنية هي فيلقاً ثانوياً، يمكن عند الضرورة التضحية به من اجل مصلحة القسم الاكبر. والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه حينئذٍ هو فيما اذا كانت تلك التضحية ستنجينا من خطر أو تضحيات اكبر. وما من شك في ندرة حالات كهذه، الا انها ليست مستحيلة الوقوع. لقد منع معسكر بيرنا المحصن فردريك الكبير من غزو بوهيميا في بداية الحملة عام (١٧٥٦). اذ لم يكن النمساويون قد اكملوا استعداداتهم انذاك وكان يمكن ضياع بوهيميا كلها، كما كانت خسائرهم ستزيد كثيراً عن الـ (١٧) الف رجل الذين استسلموا في معسكر بيرنا.

جـ . قد لا يوفر الموقف للمهاجم ايا من الاحتمالات التي اجملت في (أ) و (ب) اعلاه. وتتحقق عند ذلك الشروط التي وصفناها للمدافع، ولن يتبقى للمهاجم

---

(١) معركة براغ (١٧٥٧/٥/٦) حشدت النمسا (١٣٠) الف رجل شمال بوهيميا مقابل (١٧٥) لفردريك الكبير وزع نصفهم في ثلاث جحافل تولى قيادة الايمن والوسط منهم بنفسه وترك الجنرال شويرين لقيادة الايسر. وتركت قوة اخرى (٤٠) الف رجل بروسي و (١٠) الاف انكليزي لحماية الحدود مع السويد وروسيا وبوميرانيا. تقدم فردريك الكبير نحو براغ حيث حشد النمساويون (٧٠) الف رجل بقيادة الامير جارلس اوف لورين. دحر النمساويون بسرعة بمعركة شرسة ادارها فردريك الكبير حيث هاجم اولاً جناحهم الايمن فصد هجومه هذا بعدها ارسل خيالته لتطويق هذا الجناح وعند محاولة النمساويين ملاقاة خيالة فردريك الكبير حدثت ثغرة في صفوفهم أحسن فردريك الكبير استغلالها فيما عرف (بمناورة براغ) قسم منها جيشهم الى قسمين ودفعهم داخل اسوار براغ. كانت خسائر الطرفين متقاربة وقتل الجنرال شويرين في المعركة. وحوصر النمساويون في (براغ).

تقدمت قوة الماريشال دوان (٦٠) الف رجل لرفع الحصار فسارع فردريك الكبير مع ما امكنه سحبه من قوة الحصار (٣٤) الف رجل لمهاجمة دوان في موضعه المتخندق فصد الهجوم وتكبد فردريك الكبير (١٢) الف رجل بينما خسر النمساويون (٨) الاف فاضطر فردريك الكبير الى رفع الحصار والانسحاب من بوهيميا كلها م. ت. ع ص ٦٦٨ – ٦٩ .   المترجم

بصراحة من خيار سوى التوقف امام الموضع، كما يقف كلب الصيد امام اقفاص الطيور. وافضل ما بوسعه عمله هو اخراج المفارز هنا وهناك مما يجزأ قوته فوق المنطقة، جاهداً على الاستفادة من ميزة غير مهمة كثيراً ولا حاسمة كهذه، وترك الامر بانتظار ما سيقرره المستقبل حول من سيسطر على المنطقة. وبذا يكون الموضع قد ادى وظيفته بالكامل.

٣ . **المواضع المتخندقة قرب القلاع**. تقع هذه المواضع وبالكامل، وكما سبق القول تحت قائمة المواضع الحصينة، والى حد تكون مهمتها فيها لا حماية منطقة ما، بل حماية قوة ما من هجوم معاد. ويكمن الاختلاف الوحيد لهذه المواضع عن الانواع الاخرى في حقيقة كونها لا تنفصل عن القلعة ككل – وتضيف هذه الحقيقة، بطبيعة الحال، المزيد الى قوة القلعة.

وتفتح السبيل امام السمات التالية :

أ . قد تعمل هذه المواضع من اجل هدف خاص ومحدد، وهو جعل محاصرة القلعة أمراً في غاية الصعوبة او مستحيلاً. ويستحق هدف كهذا تضحيات جسيمة اذا كانت القلعة ميناء تصعب محاصرته، ومع ذلك فالخطر قائم في اية حالة اخرى في احتمال اجاعة المكان واجباره على الاستسلام سريعاً، اذ يستحق الامر عندها التضحية بقدر كبير من القطعات.

ب . يمكن اقامة معسكر متخندق قرب قلعة ما ولحجم اصغر من القطعات، ومما يمكن انشاؤه في الميدان. كما يمكن اخفاء (٤–٥) الاف رجل وسط جدران قلعة ما، بينما لا يوجد معسكر في العالم بقوة كافية في ميدان مفتوح لحماية ذلك العدد.

جـ . يمكن استخدام معسكر كهذا لتجميع وتدريب قطعات تضعضعت قوتهم المعنوية ولم تعد بشكل يمكن معه تعريضهم للعدو ما لم يكونوا محميين بقلعة، ويشمل هؤلاء المجندون الجدد، والمليشيا، والحرس الوطني وما شاكل ذلك.

وهكذا يمكن التفكير باستخدام معسكرات كهذه لعدد من الاغراض المفيدة، ما لم تشكل او تتعرض هذه المعسكرات لاضرار استثنائية في شل القلعة عند تعذر مسك المواضع. ومن الناحية الاخرى، فليس من السهل القاء هذه الاعباء الثقيلة على قلعة ما بالاحتفاظ بحامية كبيرة والى الحد الذي بوسعها معه اخراج قوة مناسبة لاحتلال موضع اخر.

لذلك نميل الى التوصية بقصر استخدامها مع القلاع الساحلية فقط، وباعتبارها كحلول واقعية اكبر واقوى من اي شيء اخر نافع او مصدر قوة يمكن استخدامه في الحالات الاخرى.

نجمل اخيراً رأينا في المواضع المحصنة والمتخندقة وكما يلي :

١ . كلما صغرت البلاد، وكلما ضاقت المساحات المتيسرة لحركات ومناورات التملص، كلما صعب التخلي عن مواضع كهذه.

٢ . كلما زاد الاقتناع بقوة الاعتماد والتعويل على المساعدة والانقاذ اللتان توفرهما قوات اخرى، وكلما ساء الطقس مع بداية العمليات، او نشوء حالة عصيان شعبي، او مجاعة او نقص خطير، او ما شابه ذلك، كلما قلت المخاطر التي تمثلها المواضع.

٣ . وتزداد فاعلية وتأثيرات المواضع، كلما ضعفت دوافع العدو الهجومية .

الفصل الرابع عشر
المواضع الجنبية

السبب الوحيد الذي دفعنا الى تخصيص فصل خاص للمواضع الجنبية هو لتوفير مرجع لدراستها، كما يفعل عادة في القواميس. وبينما يعد الموضوع من القضايا الهامة في الفكر العسكري التقليدي، الا انه لا يشكل، برأينا، موضوعاً مستقلاً.

فالموضع الجنبي هو اي موضع يتخذ حتى مع احتمال تخطي العدو له؛ وحالما يتم ذلك، فالتأثير الوحيد الذي سيظل له هو على جناحه الاستراتيجي. **فكل موضع حصين هو** موضع جنبي؛ ونظراً لصعوبة اختراقه فلا بد للعدو من تخطيه، وقيمته الوحيدة بعد ذلك مرهونة بتأثيره على جناح استراتيجي للعدو. وبغض النظر عن الوجهة الحقيقية لجبهة الموضع – سواء كانت موازية لجناح العدو كما في كولبرج، او بزاوية قائمة معه، كما في بنزيلفتز و (دريسا). فالموضع الحصين يجب ان يواجه كل الاتجاهات.

قد يصمم البعض على احتلال موضع **لا** يصعب اختراقه، حتى لو تخطاه العدو. والامر كذلك عند اختيار الموضع بدقة، وفقاً لامتداد خطوط مواصلات وانسحاب العدو، كي لا يقتصر تأثير وفاعلية الموضع عندها على امكانية شن هجوم موثر على جناح استراتيجي للعدو عند مواصلته التقدم، بل وبالاضافة الى ذلك باقلاق العدو بخصوص تراجعه، وبعدم قدرته على قطع خطوطنا معاً. وما لم يحقق الموضع شيئاً كهذا، ونظراً لكونه ليس مستحيل الاختراق، لذلك سنخاطر بخوض قتال دون اي فرص للتراجع.

على سبيل المثال، ففي عام ١٨٠٦ كان يمكن لموضع الجيش البروسي على الجانب الايمن من نهر (السال)، ان يكون موضعاً جنبياً بكل معنى الكلمة نسبة لتقدم قوات نابليون عبر (هوف)[١] وذلك وببساطة لمجرد ان جبهة الموضع نحو السال، وما عليه بعد سوى انتظار سير الاحداث.

اما لو كان عدم التناسب في القوى المادية والمعنوية اقل، وكان الذي يقود القوات الفرنسية رجل مثل الماريشال النمساوي دوان، لكان الموضع البروسي قد اثبت

---

(١) هوف مدينة في المانيا الشرقية (سابقاً) تقع جنوب ينا بـ (٧٠ كم).

عندها انه قمة في الروعة والتأثير. ولكان من الصعب جداً تخطيه، وحتى نابليون نفسه كان سيقر بذلك عندما قرر مهاجمته. ولم يستطع هو نفسه عزله نهائياً، ولو كان التباين في العوامل المادية والمعنوية اقل حدة، فستكون محاولة عزل الموضع البروسي، لا مجديه ولا عمليه، كما عند تخطي الموضع، لان مجرد تدمير الجناح الايسر للموضع يشكل خطراً أقل على البروسيين مما للفرنسيين. وبغض النظر عن عدم توازن القوى المادية والمعنوية، فان العزم والقيادة البارعة كانا كفيلان بترجيح الامل بالانتصار. وما من شيء كان سيمنع دوق برونزويك من أن يأمر رجاله يوم (١٠/١٣) وهم بحدود (٨٠) الف رجل لمواجهة قوة نابليون (٦٠) الف رجل والتي ستعبر نهر السال صباح يوم (١٠/١٤) عند (ينا) و (دورنبرك). وبينما كان تفوقه العددي، ووجود وادي السال العميق خلف الفرنسيين وان لم يكفيا معاً لمنح البروسيين انتصاراً حاسماً، الا انهما كانا يشكلان معاً مجموعة فوائد مركبة ومهمة. فان لم يؤديا الى النجاح، فما كان ينبغي التفكير بالتوصل الى حسم في تلك المنطقة في المكان الاول. وكان على البروسيين التراجع اكثر الى الخلف وبذلك يضيفون المزيد من القوة لأنفسهم وعكس ذلك للعدو.

خلاصة ذلك، يمكن اعتبار الموضع البروسي على السال، وبالوهن الذي كان عليه، موضعاً جنبياً على الطريق الاتي من (هوف)، إلا أن وهن الموضع يمنع اعتباره كذلك بالمعنى التام للموضع الجنبي، حتى يجعله العدو كذلك عندما لم يجروء على مهاجمته.

مما لا ينسجم بعد والمفهوم الواضح للموضع الجنبي، تطبيق المصطلح على المواضع **التي تعجز عن الصمود** بعد تخطي العدو لها، والتي يتوجب على المدافع لذلك ان يهاجم جناح العدو منها، وستعتبر **مواضعاً جنبية** لسبب بسيط، هو انها المكان الذي هوجم العدو منه. وليس لهذا النوع من مهاجمة الجناح سوى علاقة صغيرة مع الموضع نفسه، او على الاقل ان هجوماً كهذا ليس نتيجة لطبيعة الموضع، كما هو الحال في عمل يوجه ضد جناح استراتيجي للعدو.

نستنتج من ذلك، على اية حال، ان ليس من جديد يقال عن دور واسهام الموضع الجنبي. بل لعل من المناسب الان، وهنا اضافة كلمات قليلة عن سمة ومضامين هذه الوسيلة.

سوف لن يشمل ذلك المواضع المحصنة حقيقة، والتي سبق وان نوقشت بالتفصيل.

يعد الموضع الجنبي الذي لا يصعب اختراقه وسيلة فعالة جداً، الا انه وبسبب ضعفه يعد موضعاً خطراً. فلو اجبر المهاجم على التوقف، فذلك يعني تحقيقه لتأثير كبير بقليل من الجهد، ويشبه ذلك كثيراً ضغط الفارس باصبعه على حلقة شكيمة لجام الحصان. ومع ذلك فان لم يكن تأثير الموضع من القوة بحيث يجبر العدو على التوقف، فسيفقد المدافع بالتأكيد اية فرصة مواتية للتراجع. ولا بد له من محاولة الهرب بسرعة عبر اية طرق او حيدانات متيسرة، وتحت أقسى انواع الظروف بالنسبة له، والا كان عليه خوض القتال دون اية امكانيه للتراجع. اما اذا كان العدو اكثر جرأة، ومتفوقاً في المعنويات، ويسعى من اجل انتصار ساحق، فتلك هي أُحدى أعظم الفرص لذلك، بل انها اكثر من مجرد ظروف مناسبة فقط - كما اوضح مثالنا من عام ١٨٠٦. ومن الناحية الاخرى، ففي مواجهة عدو حذر ومتردد، وفي حرب تقتصر على المراقبة وترصد التحركات فقط، تعد هذه المواضع احدى افضل الوسائل التي بوسع المدافع استخدامها. وبوسعنا العثور على مثال لذلك في دفاع الدوق فرديناند عن نهر (ويزر)[١]، اذ احتل موضعاً على ضفته اليسرى، وكذلك في الموضعين الشهيرين (لانديشوت)[٢] و (شموتسيفين)[٣] وفي الحالة الاخيرة فان الكارثه التي لحقت فيلق فوكيه عام ١٧٦٠ توضح لنا خطورة سوء استخدام مواضع كهذه.

---

(١) نهر (ويزر). نهر في المانيا (الغربية) يمر غرب هانوفر باتجاه بريمين ثم بحر الشمال. وفي نيسان ١٧٥٩م خلال حملة مايندين تقدم الجنرال البروسي فرديناند وبامرته (٣٠) الف رجل من مقر اقامته الشتوي لطرد الفرنسيين من فرانكفورت ونهر ويزر ولقلة قواته اضطر على التراجع قبل وصوله فرانكفورت واحتل الفرنسيون الجسر على نهر ويزر في بلدة مايندبن وانشأوا موضعاً قوياً يصعب اختراقه.

(٢) . لانديشوت. في حزيران ١٧٦٠ وبينما كان الامير البروسي هنري يقاتل الروس في عمليات عقيمة لكلا الطرفين، نجح الجنرال النمساوي لادون بتدمير قوة بروسية في لانديشوت (٢٣/ حزيران). بدأ فردريك الكبير مع القسم الاكبر من جيشه يناور ما بين قوات لادون الذي يحاصر كلاتز، والجنرال دوان الذي اتجه لنجدة لادون فاستغل فردريك الفرصة وحاصر دريسدن (١٢ تموز) فاتجه داون لتحريرها واوشك على تطويق قوات فردريك الذي نجح بالتملص في الساعات الاخيرة (٢٩/ تموز) فاستسلمت كلاتز للجنرال لادون فاستدعى فردريك قوات الامير هنري لتنضم اليه واتجها نحو سليزيا في مجموعة من المناورات والمسيرات القسرية (م. ت. ع ص ٦٧٤) . المترجم

(٣) موضع شموتسيفين. لم نجد له اي اثر في المراجع سوى انه والموضع السابق مما شاع امرهما في حرب السنوات السبع . المترجم

الفصل الخامس عشر
الحروب الجبلية الدفاعية

للاراضي الجبلية تأثير قوي على حالة الحرب؛ لذلك فالموضوع بالغ الاهمية للمنظرين. ونظراً لان ذلك التأثير يتضمن ادخال عنصر اعاقة في العمليات، يعود اساساً الى مجال الدفاع. لذلك سنناقش الموضوع هنا دون تقييد انفسنا بنطاق ضيق للموضوع يقتصر على الدفاع عن الجبال. وعبر دراسة الموضوع، ونظراً لتوصل تحليلاتنا الى نتائج تعد من بعض الاوجه وكانها استنتاجات غير تقليدية، لذلك سنتابع البحث بشيء من التفصيل.

سنبحث **اولاً في الجوانب التعبوية** للموضوع، والتي بوسعنا منها المضي الى علاقتهابالاستراتيجية.

ما من شك في ان الشهرة والفاعلية بل والقوة التي تحظى بها الحرب الدفاعية الجبلية قد تجمعت تقليدياً من عاملين رئيسيين؛ **الاول** هو صعوبة تنقل الارتال الطويلة عبر الطرق الجبلية؛ **والثاني** ؛ هو القوة الاستثنائية التي تتوفر لموضع صغير سترت جبهته بسفح جبلي بينما تستند اجنحته على وديان عميقة. وخواص ومواصفات الاسلحة والاساليب التعبوية في مراحل معينة فقط منعت قوات كبيرة من الاستفادة من مثل هذه الفاعلية والقوة.

فالرتل الذي يكدح في سيره ببطء شديد عبر ممرات ومضائق ضيقة في الجبل؛ وسط صراخ وشتائم الرماة وسائقي العربات وسائسي الخيول، مطلقين شتى انواع العبارات وهم يقسمون على ما سيفعلوه اثناء توالي سياطهم على الحيوانات المسكينة المتعبة وهي تجر احمالها فوق الممرات الصخرية، ولا بد من ازاحة ما يتعطل من العربات بجهد شاق يصعب وصفه او تصوره بينما يضطر باقي الرتل على التوقف وسط الصراخ واللعنات. وفي لحظات كهذه، سيفكر كل الرجال ولو في السر بان بوسع عدة مئات من الاعداء في موقف كهذا ان يتسببوا بهزيمة تامة. من هنا يمكن العثور على اصل وجوهر الفكرة المستخدمة من قبل المؤرخين «الذين يتحدثون عن مضيق (ممر جبلي) ضيق الى حد أن بوسع حفنة من الرجال ايقاف جيش من المرور» رغم ان كل من له تجربة في الحرب سيعرف، او ينبغي ان يعرف ان ليس لمسير وسط

الجبال كهذا سوى علاقة بسيطة أو لا شيء حتى بالهجوم على الرتل. وان من الخطأ الفادح الاستنتاج من هذه **الصعوبة الخاصة** بان الهجوم سيكون اكثر صعوبة.

سيقفز اي مبتدء غر بطبيعة الحال الى استنتاج كهذا، كما وقعت التجارب والنظريات العسكرية في خطأ مماثل في فترات بعينها. وتعد الظاهرة نفسها الان جديدة كلياً تقريباً على المبتدئين والمحنكين على السواء. فقبل حرب الثلاثين سنة (١٦١٨–٤٨) كان نظام المعركة العميق، واسراب الخيالة، والاسلحة النارية البدائية، ومختلف العوامل الاخرى، والتي اسهمت كلها في جعل اي استغلال للموانع الرئيسية للارض امراً غير عادياً بدرجة كبيرة. وكان الدفاع المنهجي عن المناطق الجبلية، او على الاقل بقوات نظامية من الامور المستحيلة عملياً. ولم يتضح لاي كان، امكانية الاستخدام الجيد والاستفادة من الوديان والمرتفعات، الا بعد تبديل نظام المعركة العميق باخر اكثر اتساعاً، وايجاد تشكيلات المشاة باسلحتها النارية الجديدة لتغدو العنصر السائد في الجيش. ومع ذلك تطلب الامر قرنا من الزمان – اي حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريباً – كي يطور هذا المفهوم بكل امكاناته.

الجانب الثاني، وهو – المقاومة القوية التي بوسع موضع صغير ان يبديها في نقطة يصعب الوصول اليها تقريبا – يعزز الاعتقاد في الفاعلية العظيمة للدفاع في الجبال. ويبدو وكأن كلما على المرء فعله هو زيادة مثل هذه المواضع، لتضخيم الفوج الى جيش، والجبل الى سلسلة جبلية.

ما من شك في قدرة موضع صغير في مكان ملائم على تحقيق قوة استثنائية. اذ يمكن تشتيت وحدة ما في منطقة مفتوحة بسريتي خيالة، وستشعر تلك الوحدة بالسعادة لو نجت (من الاسر او التدمير) بانسحاب سريع، لكنها قادرة على مواجهة جيش باكمله في الجبال. وبمثل هذه الوقاحة التعبوية، ان جاز لنا قول مثل ذلك، يمكن تجريد الجيش من القدرة العسكرية على شن هجوم واسع النطاق، او حركة تطويق، وغيرها. اما الطريقة التي تزيد فيها تلك الوحدة قوتها على المقاومة عبرالموانع، والاجنحة المسندة، والمواضع الجديدة والمتعاقبة التي تحتلها خلال تراجعها فكلها من القضايا التعبوية التي نقبلها كقضايا مسلم بها.

ومن الطبيعي تماماً الافتراض بان سلسلة من مواضع قوية كهذه ستنتج جبهة قوية ولا يمكن اختراقها تقريباً. ولن يحتاج الامر الا للتحوط ضد حركة التفاف على احد الاجنحة بمد المواضع يميناً ويساراً حتى الوصول الى نقاط استناد قوية وكافية، او حتى

التأكد من كون الامتداد نفسه كاف لتجنب اي التفاف. والمنطقة الجبلية بهذا الخصوص مغرية جداً، اذ توفر هذا العدد الوفير من المواضع الدفاعية، كل منها افضل من سابقه، حتى ليصعب القرار اين يجب التوقف. وينتهي الامر باحتلال والدفاع في كل نقطة تقرب، ضمن المنطقة المعنيَّة، ويعتقد المرء عندها ان احتلال منطقة سعتها (٥٠) ميلاً او اكثر بـ (١٠–١٥) مرصداً او مخفراً، يمكن للمرء تأمين نفسه ضد مخاطر التطويق. ونظراً لان تلك المواضع ترتبط كما يبدو مع الاراضي الوعرة التي يصعب اجتيازها (لا تستطيع الارتال التنقل عبر الاراضي الشديدة الوعورة) فيبدو الامر وكان العدو قد اقام جداراً من البرونز. وكزيادة في الامان، يحتفظ المرء (المدافع) بفوجي مشاة، وبعض المدفعية الجبلية[1] وسريتي خيالة، لمواجهة بعض حالات النجاح التي يحققها المهاجم بفعل الصدف السعيدة حين يخترق الدفاعات.

لن ينكر احد ان ذلك تصوير تاريخي دقيق، كما لا يمكن القول ان الناس قد نجحوا بالتخلص او تجاوز اخطاء كهذه.

كما ان مسار التطور التعبوي منذ القرون الوسطى، ومع اتساع حجم الجيوش، قد اسهم كذلك في الاهمية الدفاعية الواضحة والكبيرة للاراضي الجبلية واهميتها في العمليات العسكرية.

والسمة الرئيسية والاولى في الحرب الجبلية الدفاعية هي الخاصية السلبية الحاسمة. لذلك فمن الطبيعي جداً ان تلجأ الجيوش الى الاستعانة بها قبل الحصول على قابلية الحركة الحالية. لقد تزايد عدد القطعات باضطراد، وللأستفادة من قوتها النارية فقط طال خط انفتاحها وقل سمكه، كما ازداد ترابط القطعات فيما بينها دقة واحكاما واصبح من الصعب، إن لم يكن المستحيل المناورة حولها. يمكن أن يستغرق انفتاح ماكنة معقدة بهذا الشكل لنصف يوم؛ وكان ذلك يشكل نصف المعركة، ويشمل عملياً على كلما يمكن وجوده في خطةٍ لمعركة حديثة. وحال إنجاز كل ذلك، يصبح من الصعب إجراء أية تغييرات إذا ما تبدلت الظروف. ويعني ذلك ان بوسع المهاجم الذي تأخر في تحديد خط المعركة، ان يفعل ذلك وفقاً لمواضع المدافع، ما دام الاخير لن يستطيع ان يفعل الكثير رداً على ذلك. يحقق الهجوم بذلك تفوقاً عاماً، وكلما بوسع الدفاع فعله هو البحث عن الحماية خلف الموانع الطبيعية. ولن يحقق هدفاً عاماً مثل هذا وبصورة فعالة كالجبال. لذلك يسعى المرء من إجل مزج وتوحيد الجيش والارض

---

(١) يسميها كلاوزفيتز مدفعية الخيل. المترجم

المناسبة، إن جاز قول ذلك، اذ يحقق هذا التوحيد قضية مشتركة. فالفوج يدافع عن الجبل والجبل يدافع عن الفوج. وهكذا تمنح المناطق الجبلية درجة عالية من القوة للدفاع السلبي، كما إنها لا تشكل بذاتها محذوراً، ما عدى ما تؤدي اليه من فقدان إضافي لقابلية الحركة - التي ليس لأحدٍ ما خبرةٍ كافية باستخدامها.

عند اصطدام منظومتين متعارضتين، فالطرف المكشوف، اي الجانب الاضعف، يستثير دائماً هجوم العدو. فان كانت مواضع المدافع قوية ويصعب اختراقها، وجامدة وثابتة (دون قابلية حركة)، ان أمكن قول ذلك، فسيجروء المهاجم على احاطتها، اذ ليس عليه ان يخشى على اجنحته. وهذا هو ما حدث تماماً، بل واصبح موضة العصر. ورداً على ذلك، زاد امتداد المواضع، وبالمقابل ازدادت جبهاتها وهناً. عندها غيّر المهاجم اسلوبه؛ ولم يعد يحاول احاطة جناح العدو بالامتداد لأبعد منه، بل بحشد قوته ضد نقطة واحدة واختراق الخط. وهي بشكل تقريبي المرحلة التي وصلتها الحروب الجبلية الدفاعية في الحروب الحديثة.

وهكذا استعاد الهجوم التفوق التام ثانية، نظراً للتزايد المضطرد في قابلية الحركة. وبوسع قابلية الحركة وحدها تقوية الدفاع، الا انها مقيدة كثيراً بالاراضي الجبلية. ونتيجة ذلك فقد اندحرت الحرب الجبلية الدفاعية (ان جاز لنا استخدام مصطلح كهذا)، تماماً كما تعاني الجيوش غالباً من ذلك عند محاولتها دفاعاً كهذا خلال الحروب الثورية.

وكي لا نلقي بالغث والسمين[1]، وننجرف مع تيار التفاهات ونتمسك بما قد تثبت الاف التجارب فشله في الممارسة العملية، يجب علينا ان نميز الدفاع في الجبال وفقاً لطبيعة كل حالة منفردة.

القضية المركزية التي يجب البت بها هنا، والتي ستلقي أكبر الضوء على الموضوع ككل، هي ما إذا كانت المقاومة في الحروب الجبلية الدفاعية تتوخى أن تكون نسبية أو مطلقة. فهل هي معنية بالبقاء لفترة معينة، او لتنتهي في انتصار محدد؟ اما بالنسبة للنوع **الاول** فالجبال ملائمة وبشكل هائل للدفاع، بسبب زيادتها عامل القوة. من الناحية الاخرى، وللنوع **الثاني**، فالجبال وباستثناء القليل من الحالات الخاصة، ليست ملائمة عموماً له نهائياً.

---

(١) ترجمة للمثل الانكليزي (Not to throw the baby out with the bath - water) كي لا نرمي بالمفيد وغير المفيد (المترجم)

تبطأ اي تحركات في الجبال وتغدو اكثر صعوبة، وتستغرق وقتاً اطول، وان جرت ضمن مدى (نيران) العدو فانها ستحدث الكثير من الخسائر في الارواح. تقاس قوة المقاومة التي توجه نحو العدو بما يتكبده من ارواح ووقت. لذلك فللمدافع فائدة واضحة طالما اقتصر التحرك على المهاجم، وستزول تلك الفائدة حالما يتوجب على المدافع ان يتحرك بدوره. من الامور الاساسية والضرورات التعبوية ان يسمح بقدر محدود من المقاومة من اجل المزيد من السلبية، اكثر مما توخيا لانتصار تام. واكثر من ذلك يمكن استمرار السلبية دونما تحديد – وحتى نهاية الاشتباك تماماً. ويستحيل ذلك في حالة المقاومة المطلقة. لذلك تعتبر المناطق الجبلية وبسبب خصائصها المعرقلة والمحددة، وكانها نوع من العناصر الشريرة التي تعيق وتسفه المبادأة، المكان المثالي لهذا الغرض.

لقد بينا قبل قليل ان بوسع مخفر صغير تحقيق قوة استثنائية في اراض جبلية. ومع ان هذه النتائج التعبوية ليست في حاجة الى مزيد من البراهين، يظل هناك تفسير اخر ضروري؛ فلا بد للمرء من التمييز فيما اذا كان حجم الوحدة صغيراً بالمعنى النسبي او المطلق. فلو قررت قوة ما، ومهما كان حجمها، وضع وحدة منفردة في موقع منعزل، فقد تجد هذه الوحدة نفسها هدفاً لهجوم القوة الكلية للعدو – وبكلمة اخرى، تحت هجوم قوة متفوقه، قياساً بحجمها الصغير. وكقاعدة فستأمل تلك الوحدة بابداء مجرد مقاومة نسبية لا مطلقة. ويتأكد ذلك اكثر كلما زاد صغر حجم تلك الوحدة ، نسبة الى قوتها الام والى قوة العدو.

لكن حتى الموقع الصغير بالمعنى المطلق، أي موقع لن يرسل العدو نحوه قوة تزيد عن قوة الموقع نفسه، والموقع الذي يوفر مجالاً لمقاومة تامة وحتى الانتصار الفعلي، سيكون وبالتأكيد افضل تماماً من جيش كبير، في المنطقة الجبلية. كما سيستخدم الارض بصورة اكمل وسنشرح ذلك بتفصل اكبر فيما بعد.

الاستنتاج الذي يبرز عندها هو، هل ان موقعاً صغيراً يمكن ان يكون بالغ القوة في ارض جبلية. ومن الواضح بما يكفي ان قيمة هذا الموقع حاسمة حيثما نتوخى مقاومة **محدودة** فقط، ولكن هل ستكون نفس قيمة **الحسم** في مقاومة مطلقة (كاملة) لجيش ما؟ هذا هو السؤال الذي علينا الغوص فيه.

اولاً . لا بد من طرح سؤال آخر: هل ستكون الجبهة المؤلفة من عدة مواقع قوية جداً وبشكل يتناسب مع كل واحد منها، وكما افترضنا حتى الان؟ كلا بالتأكيد؛

فافتراض كهذا ليس سوى نتيجة لواحد من خطأين محتملين.

فهناك من ناحية اولى، خلط، يتكرر غالباً بين المنطقة التي يصعب اجتيازها واخرى يصعب التقرب منها. فحيث لا يمكن **التنقل** برتل، أو مع المدفعية والخيالة، يمكن وفي معظم الحالات التقدم بالمشاة، او استخدام بعض المدفعية: ولا يمكن قياس أو مقارنة الجهد القصير الامد الذي يُبذل في التحركات خلال المعركة بنفس معايير التنقل. كما ان الاعتقاد بوجود مواصلات امينة ما بين المواقع يستند الى وهم تام، بل ويعرض ذلك اجنحتها لمخاطر كبيرة.

الخطأ الثاني هو التفكير بان خطاً من المواقع الصغيرة قوية في جبهاتها وقوية كذلك في اجنحتها، لأن الوادي، والجرف وغيرهما تكون نقاط استناد جيدة للموقع الصغير. لكن لماذا تغدو كذلك؟ ليس لانها تشكل موضعاً تستحيل احاطته، بل لانها ستكلف أية حركة احاطة المزيد من الوقت والجهد مقارنة مع اهمية الموضع نفسه. فالعدو الذي يريد، وعليه كذلك احاطة موقع كهذا بغض النظر عن وعورة الارض، لصعوبة مهاجمته جبهوياً، قد تستغرق مناورته هذه نصف يوم، وقد لا يكملها دون خسائر ايضاً. اذا اعتمد موقع كهذا على مساعدة ما، أو إن أُريد منه الصمود لوقت محدود فقط، أو وأخيراً ان ساوت قوته قوة العدو، تكون نقاط إستناد الاجنحة قد أدت مهمتها، ويصح عندها القول أن الموضع قوي ليس جبهوياً فقط بل وفي الجانبين ايضا. ومع ذلك، لا ينطبق هذا المعيار في حالة وجود سلسلة مواقع هي نفسها جزء من موضع ممتد في الجبال. ولن يتحقق هنا أي من الشروط الثلاثة. يهاجم العدو نقطة منفردة بقوة متفوقة، والاسناد الخلفي تافه ولا قيمة له، ثم ان الموقف يتطلب دفاعاً كاملاً. ولا تساوي نقاط اسناد الموقع شيئاً، في ظروف كهذه.

هذا هو الضعف الذي سيوجه العدو الضربة اليه. فصولة وبقوة متحشدة وبالتالي متفوقة كثيراً، ضد نقطة منفردة في الجبهة، ستواجه بمقاومة شديدة **قياساً بقوة النقطة المهاجمة، اما عند مقارنتها بالمقاومة الكلية فهي لن تساوي الكثير**. وحال التغلب على المقاومة فسيخترق الخط ويتحقق الهدف.

يستنتج من ذلك ان **المقاومة المحدودة** اكثر فاعلية في الجبال مما في السهول، وإن اقوى فاعلية لها، من الناحية النسبية، هي في حالة المواقع الصغيرة، وانها لا تتزايد طردياً مع القوة المشتبكة.

نعود الان الى الهدف الحقيقي لكل اشتباك كبير – **الانتصار الحقيقي**. وهذا

ما يجب ان يكون غاية الحرب الجبلية الدفاعية، حيثما تخوض القوة بكاملها، او القسم الاكبر منها القتال. **اذ تتحول الحرب الجبلية الدفاعية في حالة كهذه الى معركة دفاعية في الجبال تلقائياً.** وتتخذ منذ الان شكل معركة، وتنهمك القوة بكاملها مستهدفة تدمير العدو، والانتصار هو هدف الاشتباك. والحرب الجبلية الدفاعية الجاريه هنا حرباً ثانويه، فهي ليست الغاية، بل الوسيلة. وما دام الامر كذلك، فما علاقة المنطقة الجبلية بهذه الغاية؟

تستدعي المعركة الدفاعية وعلى نحو مميز رد فعل سلبي في الجبهة، ورد فعل متزايد ايجابياً في الخلف[1]، اما المنطقة الجبلية فتميل الى التسبب بنوع من الشلل. ويشترك هنا عاملان في العمل، **الاول** عدم وجود طرق تسمح بتنقل سريع من الخلف الى الامام. وحتى الهجمات التعبوية السريعة تتعرقل بفعل الطبيعة الوعرة للارض. **والثاني** في استحالة إبقاء المنطقة وتحركات العدو تحت المراقبة. وهكذا يحصل المهاجم من الارض علي نفس الفوائد التي تجمعت لنا في الجبهة، بينما القسم الافضل من الدفاع مشلول تماماً. هنا يفرض عامل **ثالث** نفسه في اللعبة، إنه خطر الانعزال أو القطع. وبغض النظر عن أفضلية التراجع في المناطق الجبلية عند تعرض الجبهة لضغط شديد، وبغض النظر عما ينفقه العدو من وقت في محاولته الاحاطة بالموضع – فمثل هذه الفوائد لا تظهر الا **في المقاومة النسبية**. ولا صلة لها أو دور في معركة حاسمة لا بد من استمرار المقاومة فيها حتى النهاية. سيحتاج الامر بالتأكيد لوقت اطول قليلاً لرتل العدو الجانبي لاحتلال النقاط التي تهدد او حتى تقطع خطوط تراجعنا؛ ولكن حالما يصل العدو هنا، فسيتعذر اي تعزيز. وليس بوسع اي هجوم من الخلف ازاحته من النقاط التي تهدد التراجع، وليس بوسع انقضاض يائس بكل القوة قهره في المكان الذي قطع فيه الطريق. ان بدى في ذلك تناقض ما، أو اعتقد احدهم بان الفوائد التي توفرها الجبال للمهاجم يجب ان تحتسب كذلك لاي قوة تحاول شق طريقها قسراً، عليه أن لا ينسى بطبيعة الحال اختلاف ظروف كل منها. فالقوة التي تحاول قطع الطريق ليست معنية بتنفيذ **دفاع مطلق** فقد تكفي المقاومة لبضع ساعات. ويشبه حالها في ذلك موقف وظروف موقع صغير. واكثر من ذلك فخصمها لم يعد يسيطر على كل وسائل العملية، اذ تسوده الفوضى، ويعاني من نقص العتاد وغير ذلك. وعلى اية حال،

---

(١) الفعل السلبي في الجبهة اشارة الى الدفاع، والايجابية في الخلف اشارة الى العمل التعرضي في الدفاع كتعزيز للجبهة او هجوم مقابل. (المترجم)

ففرص النجاح هنا قليلة، وهذا الخطر بالذات هو الذي يثير مخاوف المدافع حول موقفه اكثر من أي شيئ اخر. وينتشر هذا الخوف عبر كافة صفحات المعركة، ويضعف كل جزء في بناء الطرف المتحارب. كما تغدو اجنحته حساسة بشكل غير عادي، وفي الحقيقة فان كل حفنة من الجنود يدفع بها المهاجم على مدى النظر على منحدر مشجر في الخلف ستوفر له دفعة جديدة نحو انتصاره.

ستختفي كل هذه الاضرار والى حد كبير، بينما تبقى كل الفوائد ان امكن تنفيذ وادارة الدفاع من قبل جيش تحشد في منطقة جبلية واسعة (هضبة). إذ يمكن هنا تصور جبهة قوية، واجنحة يصعب النفاذ منها، ومن الناحية الاخرى تتوفر للمدافع حرية تحرك تامة ضمن وفي خلف الموضع. يعتبر مثل هذا الموضع احد أقوى المواضع الممكنة. ومع ذلك فليس في كل هذا من شيء سوى الوهم أو القليل جداً مما هو اكثر من الوهم، اذ وبينما يسهل التحرك في معظم السلاسل الجبلية في الخلف وليس في السفوح، فان معظم الهضاب إما صغيرة جداً لعمليات من هذا النوع، أو انها مما لا ينطبق عليها مصطلح الهضبة بدقه كافية – فهي قد تعتبر كذلك جيولوجياً لا جغرافيا.

وكما قد اوضحنا للتو، فان مساوىء وعراقيل الموضع الدفاعي في الجبال، تزول او تختفي بالنسبة للوحدات الصغيرة. اذا لا تحتاج هذه الا لفسحات صغيرة، وخطوط قليلة للتراجع، وغير ذلك. والجبل الواحد لا يشكل سلسلة، وليس له اضرارها ومحاذيرها. وكلما صغرت الوحدة كلما اقتصر موضعها على جبل منفرد او جرف (ذروة)، وكلما قل اضطرارها لان تورط نفسها في متاهات السفوح الكثيفة الاشجار، والمضائق والتي تشكل مصدراً لكل تلك المشاكل.

الفصل السادس عشر

الحروب الجبلية الدفاعية – تتمة

نعود الآن الى الاستخدامات الاستراتيجية التي ستشتق من تطور النتائج التعبوية في الفصل السابق.

ولابد ابتداء من تمييز الجوانب التالية :

١ . المنطقة الجبلية كساحة معركة .

٢ . تأثير من يمتلكها على المناطق الاخرى.

٣ . فاعليتها كسد استراتيجي.

٤ . ما تثيره من معضلات التموين.

يجب علينا أن نميز في الجانب الاول والاكثر اهمية اعلاه ما بين الاعتبارين التاليين بالاضافة الى التمييز السابق:

أ . معركة رئيسية، و

ب . اشتباك ثانوي .

١ . الجبل كساحة معركة .

لقد اوضحنا في الفصل السابق إن **الارض الجبلية** لا تقدم اية مساعدة للمدافع في **معركة حاسمة**، بل وعلى العكس من ذلك فهي في مصلحة المهاجم. ويشكل ذلك تناقضاً غير مباشر مع الرأي العام السائد؛ الا ان الرأي العام عادة في حالة من الفوضى، وعاجز عن التمييز ما بين الجوانب المختلفة للموضوع. والناس شديدوا التأثر بالمقاومة القوية لوحدة صغيرة، والى حد دفعهم للأفتراض بامتلاك الحروب الجبلية الدفاعية لقوة إستثنائية. وقد دهشوا كثيراً لمجرد نكران مثل هذه القوة في صلب كل مقاومة، أو في المعركة الدفاعية. ومن الناحية الاخرى فهم على استعداد دائم لالقاء اللوم على حروب الحصار والاخطاء غير المعقولة التي سببت ضياع اية معركة دفاعية في الجبال، متجاهلين بشكل كامل قوة الظروف التي تفرض نفسها لا محالة. ولسنا نخشى أية معارضة صريحة ومباشرة لاراء كهذه. بل ونشعر عكس ذلك بالامتنان لما

وجدناه من دعم في كتابات أحد المفكرين، والذي يستحق ولاسباب عديدة كل الاحترام لباعه الطويل في الموضوع – انه الارشيدوق شارل، في تأريخه لحملتي (١٧٩٦) و (١٧٩٧). فهو مؤرخ بارع، وناقد قاس، وفوق كل ذلك والاكثر اهمية انه قائد جيد. [الارشيدوق النمساوي شارل لويس جون (١٧٧١-١٨٤٧)].

فالمدافع، ورغم تفوق خصمه العددي، قد حشد قواته باعتناء مدروس وبكثير من الجهد والمشقة للتأثير على المهاجم، حين تنشب المعركة الحاسمة، وبكلما لديه من حماس ووطنية، واستخبارات دقيقة. وحيث تتجه نحوه كل العيون. لذلك ليس بوسعنا المساعدة، بل نرى ان مما يدعو للأسف اختياره لموضع في حافة منطقه جبلية كثيفة الاشجار، مقيداً في تحركاته بالاراضي الشديدة الوعورة، والمفتوحة لشتى انواع الهجوم على يد عدوه المتفوق عددياً. كما ان فرصة ممارسته لبراعته محدودة عادة نحو منطقة واحدة؛ وهي الاستفادة من الموانع الطبيعية. ومع ذلك فستقربه هذه الوسيلة بشكل خطر من حرب الحصار، التي قد تدمره لذا ينبغي عليه تجنبها باي ثمن. لذلك وفي حالة خوض معركة حاسمة فنحن لا نرى في الاراضي الجبلية ملجأ للمدافع، وعلى العكس من ذلك ننصح اي قائد بتجنبها كلما امكنه ذلك.

يجب أن نقر بان ذلك ليس ممكنا على الدوام. فالمعركة التي ستنشب ستكون من نوعية وخصائص مختلفة بشكل ملحوظ عما يمكن أن تكون عليه في السهل. فستكون مواضعه أكثر امتداداً – وتصل عادة الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف. ستكون المقاومة اكثر سلبية، والهجوم المقابل أقل عنفاً. وما دامت ظروف الاراضي الجبلية مما لا يمكن تجنبها لذا ينبغي ان لا يعول الدفاع على الحرب الجبلية الدفاعية في معركة مثل هذه. وعلى العكس، ينبغي أن تكون السمة الرئيسية في الجبال بتركيز وحشد وترتيب قطعاته، وخوض معركة **موحدة** بقيادة قائد **واحد** مع اختياط كاف لجعل الحسم اكثر من مجرد عمل، صد أو حماية. وهذا شرط لازب لا يمكن تجاوزه، الا انه مما يصعب تحقيقه، لذلك سيكون من السهولة بمكان الانزلاق في حرب جبلية دفاعية، لا ينبغي أن يدهشنا تكرر حدوثها. الا انه أمر خطير جداً ، ليس بوسع المفكر المبالغة والتهويل حول نذره.

وهذا كثير لمعركة حاسمة تشمل القسم الاكبر.

اما عند نشوب اشتباك اقل حجماً واهمية، فيمكن للجبال من الناحية الاخرى توفير فوائد لا حصر لها، اذ ليس المقاومة المطلقة مطلوبة، ولن يلي ذلك اية نتائج

حاسمة. ولنوضح ذلك اكثر بتعداد اهداف مقاومة كهذه:

أ . لكسب الوقت. وهذا هدف عام وشائع. وينشأ دائماً اذا اعد الموضع الدفاعي لجمع الاستخبارات، وكذلك عند توقع المساعدة والتعزيزات في كل الاحوال.

ب . لصد استعراض للقوى، او مخاطرة صغيرة للعدو. وعندما تكون المنطقة محمية بسلسلة جبلية، ومهما كان الدفاع عنها خفيفاً، فهو كاف وفي اي مقياس لمنع غارات العدو وأية مشروعات عدائية. وبدون سلسلة جبلية فسيكون هذا الضعف دون معنى.

جـ . لاغراض استعراضية له هو سيحتاج ادراك جوانب موضوع الاراضي الجبلية بصورة صحيحة الكثير من الوقت. وحتى آنذاك، فقد يجد المرء خصوماً ممن يخشون ذلك ويُشلون في اماكنهم. وفي حالة كهذه فحتى القسم الاكبر من القوة قد يستخدم للدفاع عن السلسلة الجبلية. وهذا أمر شائع في حرب تدور دون الكثير من الفاعلية والحيوية او التحركات، الا ان الشروط التي يتوجب بقاءها ثابتة هي تلك التي لا تتضمن القبول، ولا التي تفرض في معركة كبرى في ذلك الموضع.

د . تعد الجبال عموماً مما يناسب وبشكل جيد اي ترتيب لا يسعى المرء من وراءه قبول إشتباك رئيسي، لان كل وحدة قوية بمفردها في الجبال، الا ان قوتها الاجمالية ستكون أقل. واكثر من ذلك فمن الأسهل تجنب المباغتة هناك، وان تدفع الى مواجهة حاسمةبالقوة.

هـ. اخيراً، فالجبال هي الوسط الذي يتنامى فيه العصيان الشعبي، الا انه في حاجة دائمة لاسناد وحدات نظامية صغيرة. اما وجود القوة الرئيسية على مقربة، فهو من الناحية الاخرى، يعمل لغير صالحه والاضرار به. لذلك فنادراً ما تسبب عصيان ما، أو برّر تقدم جيش ما في الجبال

قلنا الكثير عن الجبال نسبة الى مواضع المعركة .

٢ . **تأثير من يمتلك الجبال على المناطق الاخرى**. لقد اشرنا الى حالة حماية وتأمين قاطع اساسي في الجبال بواسطة مواقع صغيرة – مواقع صغيرة الى حد تعجز معه حتى عن ادامة نفسها، لذا ستظل في خطر دائم ان كانت مما يسهل الوصول اليها. عند امساك العدو للجبل فسيحتاج اي تنقل الى وقت أطول مما في السهل، لذلك لا يمكن توقع محافظتها على نفس المسافة والفسحات. ينتج من ذلك ان السيطرة على الجبال جانب اكثر اهمية بكثير من اي مناطق اخرى بنفس الحجم. يمكن ان تتناقل

الايدي السيطرة على المناطق المفتوحة من يوم لاخر. اذ يكفي تقديم بعض المفارز القوية لدفع العدو الى التخلي عن المنطقة المطلوبة. وليس الامر كذلك في الجبال حيث بوسع وحدات صغيرة ابداء مقاومة خطيرة؛ وللسيطرة على قاطع جبلي قد يتطلب الامر عملية خاصة تحتاج بدورها الى الكثير من الوقت والجهد قبل ان يمكن اخذ المنطقة. ورغم ان السلسلة الجبلية قد لا تكون مجالاً لعملية رئيسية، فلا ينبغي معاملتها وكأنها تخضع كلياً لذلك العمل – وهكذا هي الحال مع المنطقة التي يسهل التقرب اليها كثيراً. ولا يجوز اعتبار مهاجمتها واحتلالها نتيجة طبيعية للتقدم هناك او إنه يتم تلقائياً.

لذلك فللمناطق الجبلية الكثير جداً من التفرد والاستقلالية. وامتلاكها اكثر شمولية واطلاقاً، وليس مما يسهل تغييره. وفوق ذلك فان السفوح الخارجية للسلسلة الجبلية تقدم اشرافاً وسيطرة جيدتين على المناطق المحيطة، بينما تغطى الاقسام الداخلية منها بستر كثيف كالاكفان المحكمة، ان جاز هذا التشبيه، او كأنها في ليل دامس، لذا فبوسع المرء ان يفهم، بان الجيش الذي يقف في مواجهة جبل لا يسيطر عليه، فان ذلك الجبل يمثل مصدراً دائماً للتأثيرات السيئة. ومصدراً سرياً ودائمياً لقوة العدو. ويزداد هذا التأثير بدرجة كبيرة ان لم يكن العدو محتلاً للجبال فقط بل، هي ملك له او جزء من بلاده. وفي مثل هذه الاماكن يمكن أن تجد حفنة صغيرة من الرجال الشجعان (الانصار) ملجأً امينا ضد مطارديهم، ثم ليعيدوا الكرة بالانقضاض ثانية على اهدافهم دون ان يلحقهم اي اذى، وربما في مكان او نقطه اخرى مختلفه. يمكن ان تمر الارتال الكبيرة خلالها دون ان يلحظها احد، ولا بد من ابقاء قوة المهاجم على مسافة بعيدة وكافيه تجنباً للانجرار الى المناطق التي يسيطرون عليها، وحيث يضطرون الى خوض قتال غير متعادل يشتمل على صولات مفاجئة وضربات يصعب عليهم اتقائها او الرد بمثلها فليس لديهم قوة كافية لذلك.

تلك هي الطريقة التي تمارس فيها اية سلسلة جبلية تأثيراتها، وضمن دائرة معينة، في الاراضي المنخفضة حولها. اما هل سيكون هذا التأثير مباشراً فامر يعتمد على الظروف المحلية، وعلى سبيل المثال، على نتيجة المعركة (كما في معركة مالش[1] على

---

(١) معركة مالش (٩/ ٧/ ١٧٩٦) وجرت في مطلع حروب الثورة الفرنسية. كانت خطة هؤلاء بمشاغلة الجنرال جوردون (الفرنسي) للأرشيدوق شارل النمساوي وجره شمالاً للسماح للجنرال موروا بغزو بافاريا فنجح جوردون بمهمته واحتلت بافاريا في (٢٣-٢٧/٦)، فاتجه شارل مسرعا نحو موروا وبامرته (٢٠) الفاً فقط تاركا الجنرال وارتنلين لمراقبة جوردون فاعاد هذا عبور الراين وهزم وارتنلين (النمساوي). خاض شارل في (٧/٩) معركة غير حاسمة ضد الجنرال موروا الا ان هذا دحره واجبره على عبور الدانوب ثانية بين (اولم) و (دونافورت) م . ت . ع ص ٦٨٣ . المترجم

نهر الراين عام ١٧٩٦)، او ان يظهر هذا التأثير ضد خطوط المواصلات ولكن بعد وقت معين فقط. اما ان كان سيُقهر ويزاح بعد معركة حاسمة في الوادي او في السهل فامر يعتمد على القوة المشتركة في القتال.

سار نابليون عامي (١٨٠٥، ١٨٠٩) من فينا دون قلق اتجاه التيرول، الا ان الجنرال موروا (الفرنسي) اضطر الى التخلي عن مقاطعة سوابيا (الالمانية) عام ١٧٩٦ بسبب عدم سيطرته على التلال الى حد كبير، وكان عليه أن يخصص نسبة كبيرة من قواته لمراقبتها. ففي حملة تتراوح جيئة وذهابا، وتكون قوات الطرفين فيها متعادلة، لن يودّ المرء أن يتعرض الى أضرار ومحاذير دائمة من اتجاه الجبال التي ما زالت بيد الخصم. وسيحاول المرء هنا (القائد) احتلال الجزء الضروري والمهم لخطوط هجومه. وهذا هو السبب في حالات كهذه بان تكون الجبال المشهد الرئيسي لعدد من الاشتباكات الصغيرة بين الجيشين. وعلى المرء مراعاة الدقة في عدم المبالغة بخصوص اهمية الجبل واعتبارها كمفتاح دائمي للموقف بكامله، واعتبار السيطرة على الجبال كواحد من اهم ما يشغل بال القائد من موضوعات. فعندما يكون الانتصار موضع شك او في خطر فذلك ما يجب ان يشغل البال اساساً، وحال تحققه فيمكن التعامل مع كلما يخص الموقف وكانها ظروف مبررة أو ادلة.

٣ . **فاعلية الجبال كسد استراتيجي**. لا بد من تمييز عاملين هنا. **الاول** ومرة اخرى هو المعركة الحاسمة. يمكن للمرء اعتبار الجبل كنهر – اي كمانع مع عدد معين من نقاط العبور. وهو بذلك يوفر فرصة لمعركة ظافرة بتجزأة وتشتيت قوة العدو المتقدم واجباره على سلوك طرق محددة، مما يسهل لنا مهاجمة جزء من قوته بكامل قوتنا، التي حشدت في الجانب الاخر من الجبل. وحتى لو تجاهل المهاجم أو لم يهتم بكل العوامل الاخرى، فهناك سبب وحيد حاسم لعدم قدرته على التنقل عبر الجبال برتل منفرد؛ فهو معرض لخطر جسيم بخوض معركة حاسمة وليس له سوى خط انسحاب واحد. تستند طريقة الدفاع هذه وبالتأكيد على حجة بالغة القوة. ومع ذلك ونظراً لغموض مصطلحات مثل «الجبال» و «الممر الجبلي»، فكل شيء يعتمد اذن على الارض نفسها. لذلك يمكن الاشارة الى الطريقة كمجرد احتمال، وان تضمن ذلك محذورين. **الاول** وهو ان العدو الذي عانى اندحاراً للتو، سيجد ملجأ في الجبال بسهولة، **والثاني**، هو انه سيكون المسيطر على الارض العليا. وقد لا يشكل ذلك عاملاً حاسماً، الا انه يضر بالمدافع.

لا نعرف شيئاً عن معركة جرت فعلاً تحت ظروف كهذه، ما لم يود احدهم اعتبار المعركة التي خاضها الماريشال جوزيف الفنجي[1] (١٧٣٥-١٨١٠) النمساوي، عام ١٧٩٦ مثالاً لذلك. الا أن عبور نابليون لجبال الالب عام (١٨٠٠) يوضح استحالة ذلك؛ اذ كان بوسع الجنرال النمساوي ميشيل ميلاس، بل ويجب عليه الانقضاض على نابليون بكامل قوته قبل ان يتسنى لنابليون تجميع ارتاله.

العامل الثاني هو تأثير السد الجبلي على خطوط مواصلات العدو عند تقاطعها مع الحاجز الجبلي. وبغض النظر تماماً عن القلاع التي تسد المضائق والممرات، او تأثير العصيان العام، فان مجرد سوء حالة الطرق الجبلية في الطقس السيء كاف لاقلاق اي جيش ودفعه الى حالة يأس. وكثيراً ما دفع ذلك بالجيوش الى التراجع، بعد معاناة قاسية فان رافق ذلك نشاط متواصل وغارات للأنصار، او حركة عصيان مسلح، فسيضطر العدو الى تجريد حملة كبيرة لمواجهة ذلك، والى احتلال نقاط قوية (ربايا دائمية) في الجبال. وهذا يعني انهماكه في أبعد موقف يتعارض والحرب الهجومية.

٤ . **معضلات التموين، التي تسببها الجبال.** وتعد هذه قضية بسيطة وواضحة. والفائدة الكبرى التي يمكن أن تحسب للمدافع بهذا الخصوص تظهر، عندما يتوجب على المهاجم اما البقاء في الجبال، او أن يتركها خلفه على الاقل.

تنطبق هذه الافكار والاستنتاجات حول الحروب الجبلية الدفاعية وبشكل اساسي على الجبال عموماً، والى الحد الذي تلقي فيه الضوء كذلك على مفهوم الحرب الهجومية. وبالتأكيد لا يمكن اعتبارها غير صحيحة أو غير عملية وذلك وببساطة لصعوبة تحول الجبال الى سهول، والعكس بالعكس، او لان اختيار مسرح العمليات محكوم بالعديد من العوامل الاخرى بشكل لا يترك سوى مجالاً صغيراً جداً لحجج من هذا النوع. الا ان هذا المجال ليس محدوداً جداً عند تطبيقه او عند التعامل مع عمليات واسعة النطاق. وعندما تكون المعضلة هي في كيفية اعداد افضل الفوائد للقوة الرئيسية – خصوصاً ساعة المعركة الحاسمة – فان القليل من التنقلات الى الجبهة او المؤخرة كاف لنقل الجيش من الجبال الى السهول؛ وعندما تتحشد القوة كلها هناك، سيمكن تحييد او شل الجبال المجاورة.

---

(١) بعد محاصرة الفرنسيين لمانتوا حاول النمساويين تحريرها اكثر من مرة وخاض الماريشال الفنجي في الحقيقة اشتباكين مبتسرين هما (معركة كالديرو ١٢/١١/١٧٩٦) ومعركة (اركولا في ١١/١٥) لعل كلاوزفيتز يقصد احداهما م. ت. ع ص ٦٨٦ . المترجم

بعد القاء الضوء على الموضوع بشكل عام، سوف نعود الى توضيح الصورة بشكل اشد تركيزاً.

نؤكد، ونرجو ان نكون قد اثبتنا ان الجبال ليست ملائمة عموماً للحرب الدفاعية من وجهتي النظر التعبوية والاستراتيجية. والدفاع بهذا الخصوص من النوع الحاسم في تقرير مسألة امتلاك المنطقة. فالجبال تقلص السيطرة، وتحدد التحركات الى كل الاتجاهات، وتفرض السلبية، وكذلك الحاجة الى ضرورة سد كل منافذ التقرب باحكام، كما انها تقود ودائماً الى شكل او درجة ما من حرب الحصار. لذلك يتوجب على المدافع وكلما امكن ذلك الاحتفاظ بالقوة الرئيسية خارج الجبال، وجمعها في احد الجوانب، او باحتلال موضع امام او خلف الجبل.

من الناحية الاخرى، نعتقد أنه وفي العمليات والاهداف الصغيرة يعمل الجبل على تضخيم القوة. واستناداً لما اوضحناه سابقاً، فليس من المناسب اعتباره ملجأ حقيقياً للضعيف – اي اؤلئك الذين ما عاد بوسعهم مواصلة البحث عن حسم نهائي. اما ملائمة الجبل للعمليات الصغيرة فسبب أو مبرر آخر لعدم استخدام قوات كبيرة.

ونادراً ما تعادل كل هذه الاعتبارات الثقل أو القوة التي للتأثيرات النفسية. وستتأثر تخيلات وافكار، لا الاغرار والمبتدئين وحسب بل وكذلك الذين تلقوا تدريباً باسلوب خاطىء عن المصاعب التي تظهر في المناطق الجبلية، والتي تتحكم وتحدد كل تحركات المهاجم كما تفعل العناصر المضادة الشديدة الكثافة الاخرى. ومن الصعب على أمثال هؤلاء التمعن في الامر بدقة، أو تفهم رأينا لذا لن يروا فيه سوى أنه اكثر الاراء خيالاً وهرطقة. لكن وعندما ينظر المرء الى الامر بطريقة اكثر شمولية، فان تاريخ القرن الثامن عشر، بحروبه التي اتخذت شكلاً خاصاً، تحل محل انطباعات كهذه. وعلى سبيل المثال، فلن يصر أحد ما على متابعة ما فعله النمساويون، وكيف كان من الاسهل عليهم الدفاع على نهر الراين وليس في ايطاليا. اما الفرنسيون، فهم ومن الناحية الاخرى خاضوا حربا لعشرين عاماً تحت قيادة شجاعة ومتحمسة وفي غاية القسوة، وقد ترك هذا النجاح أثراً قوياً وانطباعاً حاداً في اذهانهم بالاعجاب بتلك الطريقة التي ادت اليه. وسيظل هذا الاعجاب او التأثر الى وقت طويل، وسيتركز ذلك في تطبيق او تقليد غريزي لها، واعتماداً على قرارات واحكام عملية جرت تجربتها فعلاً، وعلى هذا الموقف كما على غيره.

لذلك سيبدو أن الدولة ستجد حماية كبيرة في المناطق المفتوحة اكثر مما في

الجبال، وان اسبانيا اقوى دون جبال البيرنيه، وسيصعب الوصول الى لومبارديا (في ايطاليا) دون جبال الالب، وإن سهولاً كالتي في شمال المانيا يُعدّ اجتياحها اصعب من احتلال المناطق الجبلية مثل هنغاريا. ليست هذه الاستنتاجات سوى وهم واكاذيب، وتعيدنا الى ملاحظاتنا النهائية.

نحن لا نؤكد أن اسبانيا ستكون اقوى دون جبال البيرنيه، ولكنا نرى ان الجيش الاسباني الذي يشعر بانه من القوة بما يكفي لتقبل مخاطر معركة حاسمة، سيكون اكثر حكمة لو حشد قواته خلف نهر (ايبرو) – في شمال شرق اسبانيا – بدلاً من بعثرتها فوق مضايق وممرات جبال البيرنيه الخمسة عشرة. وسوف لن يؤدي ذلك الى تجاوز تأثير سلسلة البيرنيه على الحرب. وينطبق ذلك كما نعتقد على الجيش الايطالي وبنفس الدرجة، فان بعثرته فوق قمم جبال الالب لن يجعله بقوة ومستوى خصم عزوم، ولا خيار له عندها سوى الانتصار او الهزيمة، اما في سهول تورين، فمن الواضح ان قوته ستعادل قوة اي جيش آخر. وما من احد، سيصدق بان اي مهاجم سيرضى بالمسير فوق قمم جبال شاهقة كالالب او حتى ليتركها خلفه. واكثر من ذلك فقبول معركة حاسمة في السهول لا تعني بالضرورة ان لا مجال لعمل دفاعي اساسي لوحدات صغيرة في الجبال. بل ان القيام بذلك في سلاسل جبلية كالالب او البيرنيه مما نصح به واخيراً فلسنا معنيين هنا قطعاً، كما لا نود حتى التأكيد على سهولة احتلال اقليم ما في السهول مما لو جرى ذلك في منطقة جبلية، ما لم يؤد انتصار منفرد الى تجريد العدو من سلاحه كلياً. سيجد المنتصر وبعد فوز ساحق كهذا، نفسه في موقف دفاعي، وستعرقل الجبال عندها عمله وكما فعلت مع المدافع قبله – بل وحتى اكثر من ذلك. اما اذا استمرت الحرب ووصلت نجدات خارجية الى المدافع، واذا ما هب الشعب بسلاحه، فستعزز كل ردود الفعل هذه بالجبال.

قد تعجب الصورة هواة وخبراء انكسار الضوء، فالصورة تغدو اكثر لمعانا عند تحريكها باتجاه معين، ولكن بقدر وحتى الوصول الى اعلى تركيز. وحال ابعادها لاكثر من ذلك سيبدأ التأثير العكسي. فان كان الدفاع في الجبال اضعف، فقد يشجع ذلك المهاجم على اختيار المسالك الجبلية لتقدمه. ومع ذلك فأمر كهذا قليل الحدوث، فمعضلات التموين ورداءة الطرق، وعدم التأكد من قبول العدو للمعركة في الجبال، ونشر قوته الرئيسية هناك. كاف لوحده لقلب او تغيير اية فائدة ممكنة.

الفصل السابع عشر
الحرب الجبلية الدفاعية – استنتاجات

ناقشنا في الفصل الخامس عشر طبيعة القتال في الجبال، وفي الفصل السادس عشر ناقشنا الاستخدامات الاستراتيجية التي قد يتم التوصل اليها. كان المفهوم الحقيقي للحرب الدفاعية في الجبال ماثلاً خلال تلك المناقشات، الا اننا لم نتوقف انذاك لشرح ما يعنيه من حيث الشكل والتنظيم. وسنتولى الان تفحصه عن قرب اكثر.

غالباً ما تمتد السلاسل الجبلية فوق سطح الارض كشريط أو حزام، مُشكلّة فاصلاً بين منظومتي ري كاملتين. ويتكرر هذا الشكل الذي للسلسلة في اجزائها الاصغر، مع ذرى ووديان تتفرع من السلسلة الاصلية مشكلّة احواضاً او مجمعات أصغر للمياه بالمقابل. لذا فمن الطبيعي أن ينظر الى الحرب الجبلية الدفاعية من حيث شكل السلسلة الاصلية وكمانع يمتد بالطول لا بالعرض، وعلى شكل او امتداد حاجز كثيف. لعلنا لم نتفق بعد حول اصول الجبال من الناحية الجيولوجية، ولا حول القوانين التي تطورت الجبال وفقاً لها، وعلى اية حال فان نمط واتجاهات مجاري المياه يظلان الدليل المباشر والاكثر معقولية للحكم على شكل وبنية المنظومة الجبلية – سواء اكانت هي التي تشكلت بفعل وتأثيرات تلك المجاري المائية وبقوة التأكل؛ ام ان مسار الماء نفسه كان نتيجة لشكل السلسلة الجبلية. لذلك فمن الطبيعي ان يتحكم توزيع ومسار المياه في تخطيط الحرب الدفاعية الجبلية. ليس في انها توفر سلسلة طبيعية من المستويات التي تمكن المرء من تحديد الارتفاعات العامة، والمقاطع الجانبية بشيء من الدقة، بل لأن الوديان التي تشكلها تكون عادة أقصر وأأمن المسالك للوصول الى المرتفعات. وعلى اية حال، نحن نعرف عن التعرية والتأكل ما يؤكد لنا بانها تعمل على تسوية وتعديل السفوح المتموجة الى اقواس منفردة ومنتظمة الشكل. ان نظرية الحرب الدفاعية الجبلية التي ستتم، ستعامل السلسلة الجبلية التي تمر بموازاة الجبهة عموماً كمانع رئيسي على المقترب، او كنوع من المتاريس، التي تكون نقاط الدخول اليها قد تشكلت بفعل الوديان. يمكن ان يدار الدفاع الفعلي وينفذ في اعلى الذرى (اي على حافة الهضاب والقمم العالية في السلسلة) وستتقاطع خطوطه عبر الوديان الرئيسية. اما ان كانت السلسلة تمتد بشكل زاوية قائمة (عمودية) على جبهة الدفاع، فسيدار الدفاع على

احد رعون الجبل الرئيسية[1]، وسيسير عندها بموازاة واد رئيسي، ومن ثم صعوداً نحو تجمع الماء الرئيسي، والذي سيعتبر نقطته النهائية.

هذا التشكل الذي يركز الحرب الجبلية الدفاعية على بناء جيولوجي، والذي اجمل هنا لانه اشغل فعلاً اهتمام وتصورات المفكرين، فيما عرف حقاً بنظرية الارض، وادخلت قوانين التعرية والتأكل في ادارة الحرب.

كل ذلك، كما نرى مليء بالافتراضات الخاطئة والتشبيهات الزائفة التي لم تدع حتى ما يكفي لارساء اي منظومة عملية جادة.

فالذرى والقمم الرئيسية في الجبال ليست في الحقيقة سوى اماكن عارية يصعب الوصول اليها ولا يمكن الاحتفاظ باي نوع من القطعات فيها. وينطبق ذلك ايضاً على الرعون او (السنون الصخرية) وما شاكلها والتي هي حتى اسوأ من القمم – واصغر حجماً وباشكال غير منتظمة. ولا تتوفر الهضاب او النجود او الاراضي المنبسطة في الاقسام العليا لكل الجبال، وحيثما توجد، فهي ضيقة عموماً ولا توفر اماكن مناسبة للأقامة. وفي الحقيقة فان تفحصاً دقيقاً للجبال سيظهر ندرة ما يمكن العثور على سلاسل جبلية تنتهي في اعاليها بقمم منبسطة وليست شديدة الوعورة والتكسر، وتمتد على جوانبها منحدرات منتظمة، او سفوح او سلسلة من السطوح كالمصاطب، فالذرى الرئيسية والقمم تتلوى وتستدير وتتشعب باذرع هائلة تتقوس حول الاراضي هناك وغالباً ما تنتهي بقمم منفردة واعلى بكثير مما يحيط بها. وتشكل المناطق المجاورة واسفل القمم وديان كبيرة، قد لا تنسجم اشكالها واتجاه السلسلة العام. اضف الى ذلك، انه وفي النقاط او الاماكن التي تلتقي فيها عدة سلاسل جبلية، او الاماكن التي تبدأ وتتشعب تلك السلاسل منها، لا بد من اغفال فكرة الشريط او الحزام الجبليين والاستعاضة عنهما بما يعرف او يشبه المجموعة النجمية لمصادر المياه والسلاسل الجبلية.

يجب ان يؤدي ذلك – والذين درسوا او بحثوا في الجبال وفقاً لوجهة النظر هذه يدركون ذلك بشكل اقوى – الى استبعاد فكرة الانفتاح المنتظم للقطعات، اذ لم تعد معقولة او عملية ولا يمكن ان توفر اساساً لخطة عامة. الا ان علينا ملاحظة نقطة مهمة اخرى في مجال التطبيق العملي.

لو تمعنا بدقة في الجوانب التعبوية للحروب الجبلية، فسنجد امامنا معضلتان

---

(١) الرعن. انف الجبل وهو ترجمة كلمة (spur) وكما في قاموس المورد (المترجم)

رئيسيتان. هما الدفاع عن الجبال الشاهقة الشديدة الانحدار، والدفاع عن الوديان الضيقه. فالاخيرة والتي غالبا، **وفي الحقيقة عادة**، ما تظهر فعالية اكبر للدفاع، الا انها ليس مما يسهل دمجها مع المواضع التي على القمم الجبلية، وغالبا ما يتوجب احتلال الوادي نفسه - عادة في النقطة التي يتفرع فيها الوادي من الجزء الرئيسي من الجبل، وليس اعلى من ذلك وحيث يبدأ الوادي فعلاً وحيث تتسم جوانبه بانحدار شديد. واكثر من ذلك فالدفاع عن الوادي يوفر طريقة للدفاع عن المنطقة الجبلية حتى ان كان امر تمركز القطعات على القمم الرئيسية متعذر او خارج الصدد. لذلك يتزايد الدور الذي يلعبه في الاهمية مع تزايد ارتفاع الكتلة الرئيسية للجبل وتعذر اجتيازها.

تدفع كل هذه العوامل الى ضرورة تخلي المرء نهائياً عن التفكير بخط دفاعي متكامل وبين ويتماشى مع الترتيب الجيولوجي الاساسي. لذلك ينبغي التفكير في الجبال وببساطة كسطح منبسط تتخلله موانع وعوارض ارضية غير منتظمة من كل نوع، ويحاول المرء البحث عن طريقة او وسيلة لاستخدام كل جزء منها لتحقيق افضل فائدة ممكنة. الخلاصة وبينما تعد المعرفة الجيولوجية للارض أمر أساسي من اجل احاطة كاملة بشكل الكتلة الجبلية، الا ان من النادر ان يظهر ذلك في تنظيم الدفاع.

ما من ترتيب وانفتاح لمواضع تغطي كل السلسلة الجبلية، وراعى الدفاع فيها العوارض الرئيسية للسلسلة، يمكن العثور عليه سواء في حرب الوراثة النمساوية، او في حرب السنوات السبع، او في حروب الثورة. فلم توجد الجيوش ابداً في القمم الرئيسية، بل كانت دائماً في السفوح، واعلى او اخفض قليلاً، وفي مواجهة هذا الجانب او ذاك - متوازية، او متعامدة، او مائلة؛ تتبع مجاري المياه او تتقاطع معها، وفي السلاسل العالية، مثل الالب، غالباً ما كانت تتواجد وباستمرار في قعر الوادي، والشذوذ الاكبر عن القاعدة، هو في السلاسل الصغيرة مثل جبال سوديتن (بين بولندا وجيكوسلوفاكيا)، حيث تكون الوديان في منتصف السفوح المواجهة للمدافع، وبذا تغدو في مواجهة القمم الرئيسية. ومن موضع كهذا نظم فردريك الكبير حصاره لـ (شفيدنتز)[1] عام ١٧٦٢ وحيث كانت مرتفعات (هوه - ايول) تواجه معسكره.

اما المواضع الشهيرة خلال حرب السنوات السبع في كل من (شموتسفين) و (لانديشوت) فقد كانت معظم اقسامهما في قعر الوادي. وينطبق نفس الشيء على

(١) شفيد نتز مدينة شمال شرق براغ وتقع على نهر بنفس الاسم . المترجم

موضع (فيلد كيرج)[1] في (فورالبيرج). وفي حملتي عام ١٧٩٩، ١٨٠٠ وحيث اقام الفرنسيون والنمساويون مواضعهما الرئيسية في الوديان – وليس بمجرد نشرها في الوديان لتشكيل حاجز فيها، بل وزعت القطعات على طول الوادي، بينما تركت القمم والمرتفعات اما خالية او، احتلت اجزاءً منها بمخافر ومراصد معزولة وقليلة.

تعد قمم ومرتفعات الالب في الحقيقة عصية على المرور وتصعب الاقامة فيها مما يمنع التمسك بها او احتلالها بقوات كبيره. ولو اصر اي طرف على تمركز قطعاته في مناطق جبلية للسيطرة عليها، فسيضطر الى وضعها في الوديان. وقد يبدو ذلك دون معنى لاول وهلة، ولا سيما والكل يقر النظرية التي تفيد بسيطرة القمم على الوديان، الا ان الامر في التطبيق ليس على هذه الدرجة من السوء. وليس من السهل الوصول الى القمم الا من خلال مسالك وممرات قليله، وغالبا ما يتم ذلك سيراً على الاقدام. فكل الطرق تمر في الوديان. وعليه فليس بوسع العدو سوى الاحتفاظ بقوات قليلة من المشاة في نقاط او مخافر معزولة ومتباعدة، الا ان المسافات في سلاسل جبلية كهذه كبيرة جداً وابعد من ان تعطي لمجموعات صغيرة من الاسلحة الخفيفة أية اهمية او تأثير. وهكذا فليس المواضع في الوديان اقل خطورة مما يبدو. مع الاقرار بان الدفاع في الوديان معرض لخطر كبير وجدي آخر – وهو امكانية عزل المواضع. وبوسع العدو فعلاً، انزال المشاة الى الوادي فيما عدى بضعة نقاط، وان يفعل ذلك ببطء وبالكثير من الجهد، لذا فلا مجال لحدوث اية مفاجئات، لكن ان لم توجد مخافر في نقاط منتخبة حيث تنفتح الممرات الى الوادي، سينجح العدو عملياً بالانحدار باعداد متفوقة والانتشار في الوادي. وبوسعه انذاك اختراق الخط الدفاعي الرقيق، الذي بات واهناً تماماً، ولا يوفر سوى حماية قليلة لمجاري المياه الصخرية والضحلة اسفل الجبال. وليس التراجع الذي سيبدأ على طول الوادي بقفزات نحو منافذ تسهل الخروج من المنطقة الجبلية، ليس بالامر السهل، بل ومستحيل في بعض اقسام الخط. ويوضح لنا ذلك لماذا كان النمساويين يفقدون دائماً ثلث او نصف رجال الحملة في سويسرا كاسرى.

لدينا بعد بضع كلمات حول الطريقة التي تنقسم فيها عادة، القوات المكلفة بمهمة دفاعية كهذه.

---

(١) معركة فيلدكيرج (١٧٩٩/٣/٢٣) بلدة صغيرة فيها حامية نمساوية وتقع في منطقة كريون وسط سويسرا صمدت بوجه قوات مسينا (الفرنسي) الذي عبر جبال فورار بيرج في ممرات متجمدة. وقد هاجم مسينا حاميه فيلد كيرج مرتين ففشل واضطر الى التوقف وتغيير خططه . م. ت. ع ص ٦٩٢ . المترجم

تعتمد كل ترتيبات كهذه للقطعات على الموضع الذي تشغله القوة الرئيسية على المقترب الرئيسي، قرب مركز الخط العام تقريباً. ترسل وحدات اخرى الى يمين ويسار تلك النقطة لاحتلال اكثر نقاط التقرب اهمية، وسيشكل هذا الكل موضعاً مؤلفاً من ثلاث، او اربع، او خمس، او ست او حتى اكثر من ذلك من المراصد، ضمن او على مقربه من الخط. اما ما تفرضه الضرورات ودواعي الحكمة للحد الذي يتسع او يمتد اليه الموضع فيعتمد على المتطلبات المنفردة. وبضعة مسيرات طويلة نوعا ما، لنقل من (٣٠-٤٠) ميلاً تعد امتداداً معقولاً، وهناك حالات طال فيها الموضع الى (١٠٠-١٥٠)ميلاً.

يمكن العثور بين المواقع المنفردة والتي لا تزيد المسافة بين واحد وآخر عن بضعة ساعات، وبسهولة على مواقع اخرى والطرق الموصلة اليها أقل اهمية، الا انها جيدة كمواضع لبضعة افواج، وملائمة للربط ما بين المواضع الرئيسية. ولا بد من احتلال هذه المواضع وفقاً لذلك. وهنا يمكن للمرء حتى تصور امكانية تجزأة القطعات لاكثر من هذا الحد وصولاً الى السرايا والرعائل - الامر الذي تكرر وقوعه غالباً. وفي الحقيقة ما من تحديد ثابت على انقسام القطعات. من الناحية الاخرى، تعتمد قوة كل موقع على القوة الكلية، وهذا وحده يجعل من المستحيل بيان نوعية وطبيعة القوة التي تشغل المواضع الرئيسية. وكدليل ، نكتفي بعدة مقترحات مستخلصة من تجارب الماضي ومن طبيعة القضية نفسها:-

١ . كلما زاد ارتفاع الجبال وصعبت التنقلات فيها، كلما زاد احتمال وامكانية انقسام القوة؛ وفي الواقع، كلما توجبت تجزأتها، لانه وكلما صغرت المنطقة التي تحمى بمزيج من الاعمال التي تعتمد على التنقلات، كلما توجب ادامة هذه الحماية او الامن بتغطية مباشرة. فالدفاع في جبال الالب يتطلب تجزأة عميقة للقطعات، كما يقترب كثيراً من اسلوب (الصناكر) و (الربايا)، اكثر مما تدعو الحاجة اليه في جبال (الفوج) او (رايز نبيرج).

٢ . تنقسم القوات في الحرب الجبلية الدفاعية عادة الى الحد الذي يصل الى وضع قوة صغيرة من المشاة فقط لاشغال بعض المواقع الرئيسية، وقد تسند بعدد من سرايا الخيالة. والقوة الرئيسية التي توضع في المركز فقط، قد تخصص لها بضعة افواج توضع في الخط الثاني للمعركة.

٣ . ليس هناك سوى القليل من الامثلة والحالات التي احتفظ فيها باحتياط استراتيجي في الخلف لتعزيز النقاط التي تتعرض للهجوم، فالجبهة الواسعة جداً، ستعتبر ضعيفة في كافة النقاط ابتداءً. لذا يؤتى بالاسناد للمواقع المهاجمة من المواقع الاخرى في الخط ومن التي لم تهاجم بعد.

٤ . حتى عند عدم تجزأة القوات بدرجة كبيرة، يبقى كل موقع منفرد قوي جداً، فالمقاومة الرئيسية التي تبديها المواقع ستتخذ دائماً شكل دفاع محلي. وحال سيطرة العدو على احد المواقع، سيكون عندها من الصعب استعادة السيطرة عليه باية تعزيزات او نجدات قد تصل إليه لهذا الغرض .

كم بوسع المرء ان ينتظر من حرب جبلية دفاعية، واين ينبغي استخدامها او اللجوء اليها، والى اي مدى يمكن ذلك، او الى اين يمضي بانتشار وتجزأة قواته – وكلها من الامور التي يجب ان يتركها المفكرون لحصافة القائد وتقديره. ويكفي المفكرين وصف الوسائل والدور الذي تلعبه في العمليات العسكرية.

اما القائد الذي يسمح لنفسه بان يهزم هزيمة منكرة في مواضع جبلية ممتدة طويلاً فيستحق الاحالة الى محكمة عسكرية.

الفصل الثامن عشر
الدفاع عن الانهار ومجاري الماء

لو تمعنا في الدفاع عن الانهار والمجاري الرئيسية للمياه التي تتصل بها، لوجدناها كالجبال، في قائمة السدود الاستراتيجية الا انها تختلف عن الجبال من ناحيتين تخصان الدفاع النسبي والمطلق.

وهي كالجبال في دعم الدفاع المحدود؛ الا إن سمتها الخاصة هي انها تعمل كالالة المصنوعة من مادة صلبة وسريعة الانكسار؛ فاما أن تصمد ضد اقوى الضربات دون اي اثر، او تتحطم قدرتها الدفاعية الى اجزاء صغيرة سرعان ما تخمد نهائياً. ان كان النهر عريضاً، والظروف الاخرى مؤاتية فقد يستحيل عبوره، ولكن حال اختراق الدفاع في اية نقطة، فلن تتكرر هنا تلك المقاومة القوية في العمق وكالتي تحدث في الجبال، اي ان العملية تسوى بعمل منفرد، ما لم يمر النهر نفسه عبر اراضي جبلية.

الشيء الآخر الذي يعزى للانهار هو حول علاقتها بالقتال، لأنها توفر احتمالات تعبوية افضل، وحتى اروع في بعض الحالات لمعركة حاسمة، تكون عادة اكثر حسما مما قد تنشب في الجبال.

اما الشيء المشترك بين الانهار والجبال، فهو انهما يشكلان اهدافاً خطيرة ومغرية، غالباً ما قادت الى قرارات خاطئة والى مواقف بالغة الخطورة. وسنولي تلك المضامين اهتماماً اكبر عندما نصل الى مناقشة اكثر تفصيلاً للدفاع النهري.

ليس هناك سوى القليل من الامثلة التاريخية على دفاعات ناجحة عن الانهار، مما يبرر عدم اعتبار الانهر سدوداً او موانعاً يصعب اقتحامها كما كان الناس يرون ذلك عندما كانت منظومات الدفاع المطلق تستخدم كل وسائل الدعم والتعزيز التي توفرها الارض. ومع ذلك فالنهر عنصر مهم للقتال دون شك وكذلك في الدفاع عن البلاد عموماً.

وكي نكون وجهة نظر تحظى ببعض التماسك، سوف نعدد الجوانب التي يتوجب تفحص الموضوع وفقاً لها:

الاول، والرئيسي هو القيمة الاستراتيجية التي يجب ان يتميز بها الدفاع عن

الانهار، عن التأثير الذي يمارسه على الدفاع عن المناطق غير المدافع عنها.

والمغزى والاهمية التي للدفاع الحقيقي قد تكون على ثلاثة انواع مختلفه هي:

١ . مقاومة مطلقة بالقوة الرئيسية.

٢ . مجرد مقاومة ظاهرية.

٣ . مقاومة محدودة تنفذها عناصر ثانوية من القوة، كالمراصد الامامية والقوات الساترة covering line ، والقطعات المفرزة، وغيرها.

اخيراً، علينا ان نميز بين ثلاث درجات او انواع رئيسية قد يتخذها الدفاع من حيث الشكل:

١ . دفاع مباشر يستهدف منع العبور.

٢ . شكل اكثر لا مباشرية يلعب فيه النهر وواديه كمجرد عناصر من اجل تطويرات تعبوية ملائمة.

٣ . دفاع مباشر مطلق، يشتمل على احتلال موضع تصعب مهاجمته وعلى الجانب المعادي من النهر.

تحدد الدرجات الثلاث هذه اطاراً عاماً لمناقشتنا؛ وبعد تفحص كل منها على ضوء الاعتبار الاول والاكثر اهمية، ثم ننتهي بتناول الاثنين الاخرين. اذن وابتداءً لنلقي نظرة على الدفاع المباشر، الذي يسعى لمنع العدو من عبور النهر.

وذلك يمكن تطبيقه فقط على الانهار الكبيرة - اي التي تحتوي كميات كبيرة من المياه.

يجعل مزيج عناصر الوقت والمسافة والقوة والتي يجب اعتبارها العناصر الاساسية لهذه النظرية في الدفاع والتي تجعل ذلك مسألة بالغة التعقيد. وعليه فليس من السهل العثور على نقطة ثابتة للأنطلاق (الشروع). لكن ومن خلال تفكير دقيق وواضح، يمكن التوصل الى الاستنتاجات التالية:

يقرر على الفاصلات التي ينبغي ترتيب اشغال الوحدات المدافعة عن النهر لمواضعها استناداً الى الوقت المطلوب لانشاء جسر العبور. ويجب تقسيم الطول الكلي للخط الدفاعي على ضوء تلك الفاصلات من اجل تحديد عدد الوحدات، ومن ثم تقسيم هذا العدد على القوة الكلية المتيسرة، لتحديد قوة وحجم كل وحدة منفردة.

وبمقارنة تلك الاعداد مع عدد القطعات التي يمكن العدو تأمين عبورها النهر بوسائط اخرى قبل اكمال بناء الجسر، وعلى ضوء ذلك يمكن تحديد الضروري لدفاع ناجح. وما لم يكن الدفاع قادراً على مهاجمة اية وحدات معادية تحاول العبور خلال بناء الجسر، وبقوة متفوقه فعلاً – ولنقل ٢:١ – فليس لنا الافتراض بان العدو لن ينجح بانجاز عبور قسري، وافتراض كهذا سيكون في غاية الخطورة.

ولنفترض على سبيل المثال، ان العدو سيحتاج لاربع وعشرين ساعة لانشاء الجسر. فان لم يستطع تأمين عبور ما يزيد على (٢٠) الف جندي في ذلك الوقت بوسائل اخرى، وان استطاع المدافع حشد مثل هذا العدد في اية نقطه خلال اثني عشرة ساعة او حول ذلك، فلن يمكن انجاز عبور قسري؛ اذ ستكون قوة الـ (٢٠) الف رجل موجودة قبل ان يتسنى للعدو اكمال عبور نصف هذا العدد على عبارات او وسائل اخرى [غير الجسر]. ولحساب الوقت الذي يحتاجه انجاز شيء كهذا، فبوسع المرء ان يقطع مسافه عشرين ميلاً خلال الـ (١٢) ساعة، لذا سنحتاج الى (٢٠) الف رجل لكل (٤٠) ميلاً، او (٦٠) الف رجل للدفاع عن جبهة نهر بطول (١٢٠) ميلاً. وسيكفي ارسال (٢٠) الف رجل الى اية نقطة اذا ما حاول العدو العبور من نقطتين في آن واحد، وبضعف هذا العدد ان لم يحاول. (!!)

العوامل الحاكمة الثلاثة هي وكما يلي:

١ . عرض النهر.

٢ . وسائل العبور، ونظراً لسيطرة هذين الاثنين على الوقت الذي يستغرقه بناء الجسر، وعدد الرجال الذين يمكن تعبيرهم اثناء بناء الجسر.

٣ . قدرة القوة المدافعة. لا علاقة لقوة المهاجم في هذه المرحلة. ستقود هذه النظرية الى رأي مفاده ان هناك نقطة يغدو عندها العبور مستحيل تماماً، وأن ليس بوسع قوة متفوقة فعل ذلك مهما كان حجم تفوقها.

تلك هي النظرية الاساسية للدفاع المباشر عن النهر – اي نعني دفاعاً يتوخى منع العدو من انهاء اقامة الجسر، ومن عبور النهر بوسائل اخرى. ولن تدخل في حسابها اي تظاهرة كاذبة أو اعمال استعراضية قد يستخدمها العدو. وستفحص الان الظروف الخاصة والمعايير المطلوبة لهذا النوع من الدفاع.

كبداية، ولو تجاهلنا كافة المعلومات الجغرافية، فذلك كاف لبيان ان الوحدات

المطلوبة، وفقاً لهذا الرأي، يجب ان توضع على ضفة النهر مباشرة، على ان تحشد كل وحدة منها بكاملها. والسبب في وضعها على ضفة النهر مباشرة ، هو أن اي موضع ابعد منها سيضيف مسافة أخرى لا ضرورة لها ويتطلب من الوحدات ان تقطعها ثانية. ونظراً لان عرض النهر سيحمي المواضع من اي انشطة معادية جدية، لذا فلا حاجة لابقاءها على مسافة الى الخلف كالقوات الاحتياطية في الخطوط الدفاعية العادية. يضاف الى ذلك ان الطرق الموازية للنهر هي عادة اكثر سهولة في اجتيازها من تلك التي تتجه نحوه عمودياً. واخيراً فما من شك في تقديم هذا النوع من المواضع مجالاً افضل لمراقبة النهر، مما يتيسر منه في حالة الاحتفاظ بمجرد سلسلة من المواقع وذلك اساساً لأن جميع كبار الضباط سيكونون في متناول اليد. يجب ابقاء كل وحدة مجتمعة، وبخلاف ذلك لا بد من تغيير حساباتنا. وكل من يعرف مقدار الوقت المطلوب لتجميع وحدة ما، سيدرك ان كون الوحدات قد اكملت تحشدها سيؤمن اقصى الفائدة والفاعلية للدفاع. قد يبدو للوهلة الاولى ان من المغري والسهل انشاء خط من المواقع لمنع العدو من العبور بالزوارق، لكن وفيما عدى النقاط القليلة التي تصلح لعبور من هذا النوع، فليس من الحكمة في شيء استخدام ترتيب كهذا. فبالاضافة الى الخطر الذي ستواجهه هذه المواقع بفعل وقدرة العدو على شلها وتدميرها بقوته النارية المتفوقة على الضفة المقابلة، فقد يؤدي هذا الترتيب الى التفريط بالقوة الكلية على مواقع لن تحقق لنا سوى اجبار العدو على اختيار نقاط اخرى للعبور. لذلك، وما لم نكن اقوياء بما يكفي للدفاع عن النهر وكأنه خندق يحيط باحدى القلاع– ولا حاجة على أي حال لاي نصيحة اضافية – فان هذا الاسلوب في الدفاع عن ضفة النهر غير مجد.

يتوجب علينا وبالاضافة الى المبادىء الرئيسية لترتيب القوات، ان نأخذ في الحسبان؛

١ . الخصائص التي يتفرد بها النهر.

٢ . ازالة جميع وسائط العبور.

٣ . تأثير القلاع على النهر.

فلو اعتبرنا النهر كخط دفاعي، فلا بد من نقاط استناد على نهايتيه، كالمحيط او

اراضي بلد محايد، او اية عناصر او عوامل اخرى تمنع العدو من العبور فوق او اسفل[1] القاطع المدافع عنه. ولا تتوفر مثل نقاط الاستناد هذه الا اذا كان الخط طويلاً جداً، وبذلك يبدو من الواضح تماماً ان الدفاع عن النهر يجب ان يمتد لمسافة طويلة الى حد كبير. لذلك لن يكون ترتيب دفاعي كهذا ممكن او عملي (ولا حاجة لأن نزعج انفسنا باي نوع آخر) للدفاع عن نهر بتحشيد قوة كبيرة على شقة او قاطع صغير نسبياً منه. ونعني **بالشقه القصيرة نسبياً من جبهة النهر**، هي ان لا تكون مسافة تلك الشقة اكبر كثيرا من امتداد موضع ما حين لا يكون هناك نهر. ونؤكد عند عدم تيسر ظروف أو حالة كهذه ضرورة ان يمتد اي دفاع مباشر عن نهر ما ودائماً حتى يبدو وكانه منظومة طوق (Cordon) . لذلك، فمن غير المعقول مواجهة اي تطويق معادي، باساليب تعد طبيعية وملائمة عندما يرتكز انفتاح القطعات على تحشدها. لذلك وحيثما تكون حركات التطويق المعادي ممكنة، فالدفاع المباشر عن النهر، ومهما كان جيداً وواعداً في ظروف اخرى، خطر جداً هنا.

اما بالنسبة للنهر نفسه وضمن هذه التحديدات، فمن الواضح ان ليس جميع النقاط صالحة وبدرجة متقاربة للعبور. يمكن ان نناقش ذلك اكثر بطريقة عامة، الا اننا لن نستطيع تصنيف الامكانيات، لان ادنى تغيير محلي غالباً ما يفوق معظم المناقشات والحجج النظرية المسطرة في الكتب. لذلك فلا قيمة لمثل هذه التصنيفات والتعداد في اي حال من الاحوال، فالنظر الى النهر، وما تتوفر من معلومات عنه من السكان المحليين سيوفران دليلاً يمكن الركون اليه ولا حاجة معه الى الرجوع الى الكتب.

من الناحية العامة نستطيع القول ان افضل العوارض الارضية الملائمة في العبور هي الطرق التي تتجه مباشرة الى النهر، وفي نقاط اتصال روافده، والمدن الكبيرة التي تقع على ضفتيه. وافضل منها كلها الجزر التي في النهر. ومن الناحية الاخرى فكل سمات وخصائص الانهار التي جرت العادة على افاضة الحديث عنها في الكتابات العسكرية، كارتفاع إحدى ضفتي النهر كثيراً، او انعطاف مجراه في نقطة العبور، الا انها لم تثبت اية اهمية او فاعلية الا نادراً. والسبب هو ان تأثير مثل هذه السمات والعوارض ليس عاماً بل محدود بالمفهوم الضيق للدفاع عن الضفاف، وهي قضية لا تظهر الا نادراً، او لا تظهر نهائياً في الانهار الكبرى.

---

(١) يمكن الاشارة الى المنطقة المجاورة لنقطة العبور بالشمال والجنوب الحقيقي او بما يخص نقطة العبور ذاتها، شمالها وجنوبها او يمينها ويسارها او بالنسبة الى شمال وجنوب مجرى النهر . المترجم

كلما يجعل العبور من بعض النقاط اسهل من غيرها، يؤثر كذلك على الموضع، والى تحوير القواعد العامة للحسابات الى حد ما، لكن ليس من الحكمة في شيء الذهاب بعيداً انطلاقاً من هذه القاعدة، والاعتماد كثيراً وبشدة على المصاعب التي تظهر في نقاط بعينها. وسيختار العدو الاماكن الاقل ملائمة بطبيعتها ان كان سيضمن ولو بادنى حد ممكن ان لا يجدنا بانتظاره.

أحد المعايير التي يمكن ان نوصي بها على اية حال، هي اقوى احتلال ممكن لجزر النهر. فان هجوماً جدياً عليها يعد افضل اشارة حول مكان العبور المحتمل.

من المتوقع ان تتحرك الوحدات المتمركزة على ضفة النهر اما صعوداً، او نزولاً مع مجرى النهر وفقاً لمقتضيات الموقف. وما لم تكن هناك طرق موازية للنهر، فان تحسين اقرب الممرات الموازية له، او وكبديل عن ذلك، فان انشاء شقق واجزاء صغيرة من طرق جديدة، يمكن ان تعد من بين اكثر الاستعدادات التي يستطيع المدافع القيام بها، اهمية.

ننتقل الان الى مناقشة النقطة الثانية في ازالة وسائل العبور. وليس ذلك بالامر السهل تنفيذه قرب النهر، كما انه وعلى اية حال يستغرق بعض الوقت. اما عند الروافد، ولا سيما التي على الجانب المعادي فهو امر شبه مستحيل، لانها وقعت فعلاً تحت سيطرة العدو وبين يديه. ومن المهم ايضاً غلق مداخل كافة الروافد بالتحصينات.

اما معدات العبور التي يجلبها العدو معه – اي الاطواف – فهي نادراً ما تكفي لعبور انهار كبيرة. وعليه فسيتوقف الامر كثيراً على مواد بناء الزوارق والاطواف التي يمكن ان يجدها العدو قرب النهر والروافد. وفي المدن الكبيرة على ضفافه، واخيراً في الغابات والاحراش المجاورة. وهناك حالات عملت كل هذه الظروف فيها ضد العدو والى الحد الذي جعلت العبور مستحيلاً.

واخيراً فهناك القلاع المشيدة على اي من ضفافه، او على الجانب المعادي فقط. وهي لا تعمل فقط للحماية ضد العبور على مقربة منها، سواء كان ذلك اعلى او اسفل المجرى، ولكن كذلك لغلق افواه الروافد ولمنع العدو من استخدام مواد العبور المتيسرة.

لقد قلنا الكثير حول الدفاع المباشر عن الانهار التي افترضنا مسبقاً غزارة ما فيها من ماء. كما ان اضافة الممرات والمضائق الضيقة والعميقة، او الضفاف الضحلة، ستزيد حقيقة في مصاعب العبور، وتعزز فعالية الدفاع؛ الا ان كل ذلك لا يعوض عن

كثرة مياه النهر، لانها لا تشكل حاجزاً كبيراً في **الارض التي تعد المطلب الاول** في الدفاع المباشر.

السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو حول الدور الذي يلعبه دفاع مباشر عن نهر ما في الخطة الاستراتيجية للحملة وعلينا الاقرار بان ذلك لا يمكن ان يقود ابداً الى انتصار حاسم، جزئياً لانه لا يستهدف السماح للعدو بالعبور، بل بسحق اول قوة كبيرة الحجم تنجح بالعبور، وجزئياً لان النهر نفسه يمنعنا من استثمار أية فوائد نجنيها بهجوم مقابل عزوم وشديد[1].

من الناحية الاخرى، غالباً ما يحقق هذا النوع من دفاع الانهار كسباً كبيراً في الوقت – والوقت، بعد كل شيء هو اكثر ما يحتاجه المدافع على الارجح. اذ يتطلب تجميع معدات العبور الكثير من الوقت. فاذا امكن بالاضافة الى ذلك افشال عدة محاولات للعبور نكون بهذا قد حصلنا على الكثير من الوقت. واذا غير العدو اتجاهه بسبب النهر **فسيضيف ذلك** المزيد من الفوائد للمدافع. واخيراً، وفي جميع الحالات التي لا يكون العدو عزوماً في تقدمه، فسيفرض النهر تعطيلاً او توقفاً في عملياته، ويشكل حاجزاً حمايوياً للبلاد.

عندما تشترك قوتان كبيرتان، والنهر واسع، والظروف مؤاتية فيمكن في حالة كهذه اعتبار الدفاع المباشر عن النهر منظومة ممتازة، وقد تحقق نتائجاً هامة، لم تنل في ايامنا هذه اهتماماً كافياً بسبب الفشل الذي يحصل بسبب عدم كفاية المعدات والوسائط. وعلى اية حال فمن السهل تأمين الشروط المذكورة اعلاه عند الدفاع عن انهار كبيرة كالراين والدانوب. ولو امكن ادامة دفاع فعال ضد قوات متفوقة كثيراً. وعبر جبهة تزيد على (١٢٠) ميلاً من النهر بقوة تقرب من (٦٠) الف رجل، فبوسع المرء اعتبار ذلك انجازا ممتازاً.

لنعد الان، ومرة اخرى الى مصطلح **«قوات متفوقه كثيراً»** فكل شيء يعتمد على وسائط العبور، في النظرية التي اجملناها، ولا شيء على القوة التي تسعى للعبور، شرط ألا تكون اقل من القوة المدافعة. وتلك حقيقة رغم ما يبدو فيها من غرابة لكن يجب ان لا ننسى ان معظم المواضع الدفاعية عن الانهار، او كلها ومن الناحية العملية

---

(١) رغم الفوائد التي يجنيها المدافع من هجوم مقابل يدحر فيه عملية العبور الا انه لا يستطيع استثمار هذا النجاح ليتحول هو الى الهجوم وبالتالي الى العبور ومتابعة العدو على الضفة البعيدة لضخامة استحضارات العبور التي يصعب على المدافع ادامتها. (المترجم)

كانت دون نقاط استناد ثابتة، اذ كان بالامكان احاطتها جميعاً، ولا شك في ان التفوق العددي الكبير سيسهل كثيراً حركات الاحاطة.

على المرء ان يتذكر ايضاً، بان دفاعاً مباشراً كهذا، وحتى إن امكن التغلب عليه من قبل العدو، فخسارة كهذه لا تعادل خسارة معركة، ونادراً ما ادى الى اندحار تام، اذ لن يشترك في قتال كهذا سوى جزء من قطعاتنا، كما ان العدو وبسبب بطأة عبوره الجسر غير قادر على متابعة واستثمار انتصاره على الفور. وعليه ولكل هذه الاسباب ينبغي ان لا نزدري أو نبخس هذا الاسلوب الدفاعي حقه وجدواه.

ما يهمنا في كل القضايا والجوانب العملية، هو العثور على وجهة نظر صالحة، وهكذا ففي الدفاع عن النهر، هناك اختلاف كبير فيما اذا كنا قد كونا فكرة وانطباعاً صحيحين حول الموضوع ككل، اذ ان بعض العناصر التافهة وعديمة القيمة قد تغير الموقف كثيراً. فما الذي يمكن الركون اليه، ما دام احد المعايير الفعالة في حالة ما سيكون خطأ مأساوياً في حالة اخرى. لعل الصعوبة في الحكم على كل شيء بصورة صحيحة، والاحجام عن الافتراض بان احد الانهار يشبه النهر الاخر، وربما يبدو بصورة اكبر في هذا المثال عن اي مثال اخر، لهذا يتوجب علينا وعلى الدوام الحذر والتيقظ ضد خطر تطبيق طريقةٍ مغلوطة، أو أن نخطأ في قراءة الاحداث والحقائق. يجب ان نضيف وبكل وضوح، بان من غير اللائق ولا المناسب لنا الالتفات الى الضجيج الذي يثيره اولئك الذين تدفعهم عواطفهم واندفاعاتهم الطائشة، وعقولهم الاكثر طيشاً الى توقع وانتظار كلما قد يخطر على بالهم من الهجوم والحركة، والذين اختزلوا فكرتهم عن الحرب الى مجرد صورة فارس مغوار ينطلق شاهراً سيفه وسط الميدان.

ليست هذه الافكار والمشاعر كافية دائماً، حتى حيثما يوجد ما يبررها حقاً (ويكفي الاستشهاد بمثال واحد عن «الديكتاتور» الشهير فيدل في زوليشاو عام ١٧٥٩)[1]، ولكن ما هو اسوأ من ذلك، انها كانت غير قابلة للتطبيق في معظم

---

(١) عام ١٧٥٩ استبدل فردريك الكبير قائد الفيلق البروسي العامل ضد الروس بـ (كارل هنريخ فيدل) ونظراً لحداثة فيدل بالنسبة للجنرالات الاخرين في الفيلق، فقد وجه فردريك الكبير رسالة يؤكد فيها اقدمية وسلطة فيدل، وجاء فيها «يتمتع الفريق فيدل في الجيش بما كان للديكتاتور في العصر الروماني». لقد منع موضع فيدل في (زوليشاو) عبور الروس لنهر (اودر) هناك، الا انهم هددوا بالعبور من مكان اخر أبعد الى الشمال، ورغم تفوقهم عليه بنسبة (٢:١) الا انه هاجمهم في (كاي) في ٢٣/ تموز الا انه دحر هناك (المشرف)

الاوقات. أنهم يتركون القائد في موقف حرج للغاية لحظة يكون فيها مطوق بالعديد من المعضلات البالغة الحراجة والتعقيد.

لذلك نرى وطالما لا يتوخى المرء اكثر من سلبية متواضعة، فالدفاع المباشر عن النهر بعدد كبير من القطعات وفي ظروف مناسبة يمكن ان يحقق نتائجاً جيدة. الا ان ذلك لا ينطبق على الوحدات الصغيرة. فبينما يستطيع (٦٠) الف رجل يدافعون على طول قاطع من جبهة نهر ما ، افشال عملية عبور تنفذها قوة تعدادها (١٠٠) الف رجل، الا ان قوة تعدادها (١٠) الاف رجل فقط تدافع عن نفس القاطع غير قادرة على صد وافشال عبور (١٠) الاف رجل – بل ولا حتى نصف هذا العدد شرط قبول هؤلاء الـ (٥) الاف مخاطر بقائهم على الجانب الاخر من النهر مع قوة مدافعة متفوقة عددياً. وهذه النقطة في غاية الوضوح، لأن وسائط العبور هي نفسها في كلتا الحالتين.

لم نقل حتى الان سوى القليل عن المخادعة، نظراً لانها نادراً ما تلعب دوراً ما في الدفاع المباشر عن النهر ويعود جزء من السبب في ذلك الى ان طريقة كهذه في الدفاع لا تتطلب حشد جيش ما في نقطة واحدة، بل بتخصيص قاطع ما لكل وحدة لتدافع عنه، ويعود في جزء آخر الى انه وفي ظروف كالتي نفترضها هنا، يعد التظاهر بعملية عبور (كاذبة) امر بالغ الصعوبة. فما دامت معدات العبور قليلة ونادرة احيانا – واقل كثيراً مما يشعر المهاجم بانه في حاجة اليه لضمان النجاح لعملية عبوره – فليس من السهل عليه القبول، أو أن يعرض هو نفسه التخلي عن جزء لا بأس به من معدات العبور لعملية مخادعة. وعلى اية حال فانها ستقلل كثيراً من القوة التي يمكنه حشدها لعبور النهر في نقطة العبور الحقيقية. سيربح الطرف الاخر بذلك كل الوقت الذي سيضيع في لحظات التردد وعدم الحسم هذه.

الدفاع المباشر عن النهر مناسب وكقاعدة للانهار الاوربية الكبيرة جداً، وفي الاقسام السفلى من مجراها فقط.

اما النوع الثاني[1] فمناسب للانهار الصغيرة والوديان العميقة – وغالبا ما يناسب الوديان الصغيرة ايضاً. ويتضمن هذا النوع اتخاذ موضع بعيدٍ الى الخلف. وينبغي ان تكون المسافة بشكل يجعل من الممكن أما مهاجمة جيش العدو وهو منقسم بعد في وحدات متعددة إن كان العبور سيتم من عدة نقاط، او، ان جرى العبور في نقطة واحدة فيمكن عندها مهاجمته وهو على مقربة من مجرى النهر، ما دام العدو سيتحدد

(١) اي الدفاع غير المباشر.

بجسر أو طريق واحد. الجيش الذي تنفتح مؤخرته على نهر، أو ينحشر في وادٍ عميق. وبشكل يتحدد معه بخط انسحاب واحد، فهو في اسوء موقف يمكن أن يكون فيه للمعركة. ويتضمن الدفاع عن جميع الانهار المتوسطة الحجم والوديان العميقة استغلال تلك الظروف.

يفترض انفتاح وترتيب الجيش بوحدات كبيرة قرب نهر – الذي نعتبره الافضل لدفاع مباشر – مفترضين عجز العدو عن القيام بعبور مباغت وبقوة كبيرة، والا فسيكون خطر تجزأة الجيش المدافع وتدمير وحداته كلا على انفراد كبيراً جداً. وعليه فإن :

١ . لم تكن الظروف ملائمه بدرجة كبيرة للدفاع عن النهر.
٢ . واستطاع العدو السيطرة على الكثير من معدات العبور، و
٣ . وجدت عدة جزر او مخاضات عديدة في النهر،
٤ . والنهر ليس بسعة كافيه
٥ . وكانت قواتنا واهنه جداً.

فلا يمكن التفكير باستخدام هذه الطريقة في الدفاع. ولكي تكون القطعات بتماس مع بعضها فلا بد من تراجعها لمسافة ما الى الخلف بعيداً عن النهر. وما يتوجب عمله بعد ذلك، هو الاقتراب باسرع ما يمكن من نقطة عبور العدو ومهاجمته قبل ان يتسنى له مسك ضفة النهر [رأس جسر أو موطأ قدم] ليتمكن من متابعة العبور من عدة نقاط اخرى. والمهم في حالة مثل هذه إدامة مراقبة النهر أو الوادي والدفاع عنه بقوات قليلة توزع على سلسلة من المواضع والمخافر، بينما يحتل الجيش وهو موزع على عدة فيالق، مواضعاً في نقاط ملائمة وعلى مسافة ما عن النهر – تكون عادة على مسيرة بضعةساعات.

العارضه المهمة هنا هي الممر أو المجرى عبر وادي النهر الضيق، وما يهم هنا ليس حجم الماء المار فيه فقط، بل المجرى ككل. وكقاعدة، فان الممرات والمنحدرات الصخرية والعميقة اكثر اهمية من نهر عريض جداً. والمصاعب التي تحيط بتنقل قطعات كبيرة عبر ممرات ضيقة هي في الواقع اكبر بكثير مما تبدو لاول وهلة. كما يستغرق اجتيازها الكثير من الوقت، ناهيك عن المخاطر الاضافية في حالة سيطرة العدو على المرتفعات المحيطة. اذا إندفعت الوحدات الامامية كثيراً الى الامام فستصطدم بالعدو بوقت مبكر جداً، وستتعرض لخطر التدمير على يد قوة متفوقة، اما ان بقيت

قرب نقطة العبور فستكون في اسوأ موضع للقتال. يعد عبور النهر بوحدات منفصلة وبتصميم على مواجهة العدو على الضفة الاخرى مشروعاً جريئاً للغاية، ويفترض مسبقاً تفوقاً عددياً كبيراً، وثقة شديدة بالنفس لدى القائد.

لا يمكن تمديد هذا النوع من الدفاع الخطي، بطبيعة الحال الى المدى الذي يمكن الذهاب اليه في الدفاع المباشر عن نهر كبير؛ فما يريده المرء هو خوض القتال بكامل قوته وهي موحدة، وبغض النظر عن صعوبة ما يواجهه عند نقاط العبور، قياساً لما يواجهه عند نقاط عبور الانهار الكبيرة. لان العدو في وضع افضل لاحاطة خطنا. ومن الناحية الاخرى فسيأخذه ذلك بعيداً عن اتجاهه الحقيقي (مفترضين بطبيعة الحال، انه يسير بزاوية قائمة - عمودية - على خط النهر تقريباً)، كما لا يمكن التغلب على الاعاقة والمصاعب الناجمة من خط التراجع الضيق في وقت واحد، ولكن تدريجياً فقط. اما المدافع فما زال يحتفظ بالقليل من الفوائد على المهاجم، حتى لو لم يستطع التمكن منه في المرحلة الحرجة، الا انه سيحظى بمجال اوسع للعمل بعد نجاح عملية الاحاطة التي يقوم بها.

عند الحديث عن الانهار، فنحن لا نهتم فقط بحجم الماء فيها فقط، بل ان اهتمامنا يتركز تقريباً على العمق الذي يحدثه الماء في وادي النهر، لذلك يتوجب علينا وقبل اي شيء ايضاح اننا لا نعني بذلك الوديان المعتادة في الجبال، نظراً لأننا في تلك الحالة سنراعي قواعد ومبادىء الحروب الجبلية. الا ان هناك الكثير من الاراضي المنبسطة وحيث حتى المجاري الصغيرة تجري عادة بين ضفاف مرتفعة. اضافة الى الضفاف الضحلة والموانع الاخرى التي لا بد من اجتيازها والتي يمكن ادراجها في نوع كهذا.

لذلك وفي ظروف كهذه، فإن موضعاً دفاعياً للجيش، خلف نهر متوسط الحجم او وادٍ عميق، يعد موضع مفيد جداً، كما يجب اعتبار هذا النوع من دفاع الانهر من بين افضل الادوات الاستراتيجية.

يكمن الضعف هنا، في النقطة التي قد يخطأ فيها المدافع بسهولة، وهي بنشر قطعاته باتساع مبالغ فيه. اذ من الطبيعي هنا، وفي موقف كهذا أن يوزع المدافع قوته من نقطة عبور الى اخرى، دون ان يعرف اين سيقف. لكن ما لم يستطع جيش المدافع خوض القتال بكتلة موحدة، فمصير المشروع بكامله الفشل، فمعركة خاسرة، او تراجع لا يمكن تجنبه، او ارتباك وخسائر من كافة الانواع قد توصل الجيش الى حافة اندحار تام حتى لو لم يواصل القتال الى النهاية.

يكفي هنا تكرار القول ان على المدافع ان لا ينشر قطعاته على اتساع مبالغ فيه كثيراً، وان عليه وفي جميع الاحوال ان يكون قادراً على تجميع قواته في نهاية اليوم الذي يجري فيه العبور. وسيغنينا هذا المبدأ عن المزيد من المناقشات عن الوقت والقوة والمسافة؛ والتي تعتمد على عوامل محلية متنوعة.

تنحو المعركة التي تنتج عن ظروف كهذه لأن تمتاز بصفة معينة واحدة؛ وهي إن على المدافع ان يظهر اقصى ما يستطيع من الاندفاع. ومهما نجح المهاجم بخدعه ومراوغته، وتركه فريسة للتخمينات والحيرة فسيتاح له ما يكفي من الوقت عموماً للوصول الى المكان الصحيح في اللحظة الاخيرة. وتكمن الفائدة الخاصة لموقف المدافع، من الموقف الصعب للقطعات المعادية التي تواجهه مباشرة. فاذا تدخلت قوات اضافية من نقاط عبور اخرى واحاطت بموضع المدافع، فليس بوسع هذا معالجتها بالطريقة المعتادة، اي بهجوم مقابل من الخلف. اذ لو فعل ذلك فسيضحي بفائدة موضعه. وعليه من الضروري ان يحسم الامر قبل ان تبدأ تلك القطعات الجديدة ضغطها عليه – وبكلمة اخرى، ان يهاجم اية قوات تتواجد امامه باسرع واقوى ما يمكن، ومن خلال تدميره لها سيصل الى قرار حول مجابهتها ككل.

لا بد ان نتذكر ان **هدف دفاع نهري من هذا النوع** لا يمكن ان يتحدد بمقاومة قوة متفوقة كثيراً، وكما عليه الحال في دفاع مباشر عن نهر كبير. من المعتاد ان على المدافع مجابهة اكبر جزء من قوة العدو، وعند حصول ذلك في ظروف مؤاتية، فمن السهل ادراك ان التفاوت في حجم القوة أمر أمكن ملافاته.

يصح ذلك في الدفاع عن انهار متوسطة الحجم، ووديان عميقة مع اشتراك قوات كبيرة؛ قوات تبحث عن انتصار حاسم، هذا الانتصار الذي تقف بوجهه مقاومة فعالة تدام على حافة الوادي ولا علاقة لها، كما لا يمكن أن تقارن مع الوهن والعراقيل التي تسببها المواضع المتباعدة. مع ذلك ان كان المطلوب لا يتعدى سوى تعزيز وتقوية خط الدفاع الثاني، مما يعني المقاومة لوقت ما، والاعتماد على وصول التعزيزات، فان ذلك يعني ترتيب دفاع مباشر عن المرتفعات بل وحتى عن ضفة النهر. ومع اننا لا يمكن توقع بعض المنافع كالتي للمواضع الجبلية، فيمكن ان تستمر المقاومة هنا لامد اطول مما في الاراضي المنبسطة. والظرف الوحيد الذي سيجعل ذلك خطراً حقاً، او مستحيلاً، هي عندما يتلوى النهر، وهو ما تكون عليه الانهار عادة في الوديان العميقة (ولنتأمل بمسار نهر الموزل في المانيا). وفي مواقف كهذه فان الوحدات التي تشغل مواضعاً في

النتؤات البارزة (لعطفة النهر) ستعد من الخسائر الاكيدة في حالة تراجع القوة.

من الواضح ان الانهار الكبيرة توفر للدفاع نفس التسهيلات والامكانيات التي تعزى الى نهر متوسط لجيش بنفس الحجم، وفي ظروف اكثر تلائماً. سيستخدم المدافع انواعاً مختلفة من هذا الدفاع كلما توخى الدفاع الوصول الى انتصار شامل. ومعركة (ازبيرن)[1] في مايس / ١٨٠٩ مثال على ذلك.

هناك حالة مختلفة تماماً وتظهر عندما يحتل الجيش نهراً، أو مجرى، أو وادياً عميقاً **امام جبهته مباشرة**، للحصول على **مانع تعبوي** على المقترب، **وكتعزيز تعبوي لجبهته**. تعد الدراسة المفصلة لهذه من الامور التعبوية، اما من حيث فاعليتها وجدواها فيمكن القول بانها مجرد خداع للذات. اما اذا كان جرف النهر عريضاً بما يكفي فسيجعل من الصعب اقتحام جبهة الموضع، لكن ونظراً لانها ليست اصعب من غيرها في امكانية تخطيها، فسيقتصر تأثيرها كما لو ان المدافع قد تملص من المهاجم — الامر الذي لا يبرر، ولا ان يكون السبب الرئيسي لاحتلال الموضع بالدرجة الاولى. لذلك يمكن استخدام مواضع كهذه فقط عندما ستجعل الظروف المحلية خطوط مواصلات العدو بوضع لا تحسد عليه، والى الحد الذي يغدو معه اي انحراف او تحول عن الطريق الاكثر مباشرية، عمل غير محمود العواقب.

تشكل المخادعة في هذا النوع الثاني من الدفاع تهديداً اكبر بكثير. ومن السهل على المهاجم انجازها، بينما يظل على المدافع التأكد من حشد كل قوته في نقطة العبور الحقيقية. ومع ذلك لن يصبح المدافع محرجاً كثيراً من ناحية الوقت، فسيحتفظ بفائدته حتى اكمال المهاجم تحشيد كامل قوته، والقرار على عدة نقاط للعبور، رغم ان مخادعة العدو لن تجدي كثيراً وبالقدر المتوقع لها في الدفاع — الخطي، حيث لا أرض يمكن الاستيلاء عليها نهائياً. وعندما نصل الى استخدام الاحتياط، فستكون المعضلات هنا مختلفة جداً. اذ تكون في احدى الحالات هي مسألة الوقوف على مكان القوة الرئيسية للعدو، بينما تكون اكثر صعوبة في حالة اخرى وهي في تخمين وتحديد موقع

---

(١) معركة ازبيرن — ا يسلنك (١٨٠٩/٥/٢١) في حملة نابليون ضد النمساويين، اذ تحشد هؤلاء في الضفة الشمالية للدانوب وقد حاول نابليون العبور بالاستيلاء على جزيرة (لوبوا) بوجه مقاومة شديدة وقد تمكن قسم من الجيش الفرنسي العبور الا ان نابليون لم يستطع تعزيز قوات رأس الجسر على الضفة الثانية لعدم تيسر قطعات كافية فاضطر الى الانسحاب بعد ان خسر حوالي (٢٠) الف رجل اما خسائر النمساويين فكانت بحدود (٢٣) الف رجل (م. ت. ع. ص ٧٥٥). المترجم

النقطة التي يتوجب التغلب عليها اولاً.

سنضيف الى كل ذلك تعليقاً عاماً حول موضوع اي من نوعي الدفاع عن انهار كبيرة او صغيرة، فان تطبيق أياً منهما على عجالة، ووسط فوضى وارتباك التراجع، ودون استعدادات مسبقة، ودون ابعاد او تخلص من معدات العبور المتيسرة، ودون التعود ومعايشة الارض فلن يحققا النتائج التي وصفت اعلاه. ولا يمكن توقع اي شيء من هذا القبيل عادة، ولذا فإن نشر ستار خفيف من القطعات عبر امتداد طويل؛من الاخطاء المأساويه الفادحة.

على اية حال، وما دام كل شيء في الحرب قد يحدث بطريقة مغلوطة، ما لم ينفذ بدرجة كاملة من التنبه والحذر، وبشدة وبصدق واخلاص عميقين، ويصح ذلك ايضاً على اختيار الدفاع عن نهر ما، بسبب الخوف من ملاقاة العدو في معركة مفتوحه، ويأمل ان يعمل عرض النهر او عمق الوادي على ايقاف العدو. تظهر قرارات كهذه قلة الثقة والاطمئنان للموقف؛ وغالباً ما يملأ ذلك القائد وجيشه بقصور وتلكؤ رهيبين؛ سرعان ما تتضح وتتأكد نتائجهما. فالمعركة في ارض مفتوحة لا تشبه بعد كل شيء، صراعاً يفترض شروطاً متساوية مسبقاً، فالمدافع العاجز عن العثور على فائدة باستغلال الطبيعة الخاصة للدفاع، او بالاستفادة من التنقلات السريعة، أو بتفهمه وتعوده على الارض، وحرية الحركة، ليس له سوى أمل قليل. ولن يجديه فتيلاً البحث عن نهر او وادٍ لانقاذه.

الشكل الثالث للدفاع، وذلك بمسك موضع قوي في الجانب المعادي من النهر. وتستند فاعلية هذا الموضع الى الخطر الذي ينصب على العدو لأن النهر يتقاطع وخطوط مواصلاته بعد عبور العدو له، وسيجبره ذلك على التحدد بجسر او جسرين. ومن الواضح ان وضعاً كهذا ينطبق على الانهار الواسعة والعميقة، وليس على الانهار ذات الوديان الضيقه وحيث تتوفر عادة نقاط كثيرة للعبور.

يجب تحصين الموضع بقوة – بحيث يتعذر اختراقه عملياً. والا اصبحنا خاضعين لما يريده العدو ولعبة بيديه، وسنفقد اية فائدة من ذلك. فان كانت قوة الموضع بدرجة تمنع العدو من مهاجمته، فقد يجبره ذلك على التوقف عند الضفة، فان قرر العبور فسيعرض خطوط مواصلاته للخطر – رغم انه سيهدد خطوط مواصلات المدافع. هنا ايضاً، وكما في اية حالة يتخطى فيها الجيشان بعضهما، تصبح القضية المركزية والاكثر اهمية هي، من فيهما ستعتبر خطوط مواصلاته اكثر امنا – من حيث العدد، وقوة

الموضع واية نواح أخرى. كما يعتمد ذلك اضافة على اي منهما سيخسر اكثر من الاخر، وبالتالي سيسهل التفوق عليه؛ واخيراً، فاي من الجيشين يحتفظ بعزم وتصميم اقوى يمكن ان يركن اليه كملجأ او وسيله اخيرة. لا يفعل النهر شيئاً اكثر من زيادة الخطر الذي تواجهه كافة تحركات الطرفين، ما دام كلاهما محددان بالجسور. وبقدر تعلق الامر بما يمكن افتراضه، فان نقاط عبور المدافع، ومختلف مستودعاته هي بالتأكيد افضل تحصينا مما لدى خصمه، فهذا النوع من الدفاع يعد الافضل والاكثر جدوى وسيثبت كفايته، بينما لا تُرجح الظروف الاخرى التعويل على او تفضيل دفاع مباشر. نقر ان ذلك لا يعني اننا ندافع عن الجيش بالنهر، ولا العكس، بل ان المنطقة مدافع عنها بمزيج من كليهما، وذلك بالضبط هو الجوهر والمهم.

لا بد ان نقر بان هذا النوع من الدفاع، وحيث لا مجال لضربات حاسمة، انما يشبه التوتر الحاصل في المسافة ما بين القطبين السالب والموجب في الكهرباء، فهو قادر فقط على ايقاف وصد ضربات صغيرة نسبياً. قد تكون مثل هذه الضربات كافيه ضد قائد متردد، شديد الحذر، ويخشى التحرك والضغط على عدوه حتى وهو متفوق عليه كثيراً؛ كما قد تجدي كذلك اذا كان الجيشان في حالة من التوازن القلق، وحين لا يسعى ايا منهما لاكثر من بعض المنافع المحدودة. اما في مجابهة قوة متفوقة يقودها رجل شجاع فان وسيلة كهذه مليئة بالمخاطر وقد تؤدي الى ما يشبه كارثة او اندحاراً.

تتسم طريقة الدفاع هذه بروح الاقدام، وتبدو علمية بمضونها حتى ليجرؤ المرء على وصفها بالبراعة ، لكن ونظراً لاقتراب البراعة من الحماقة بسهولة – وذلك امر ليس من السهل التجاوز عنه في الحرب كما في الحياة الاجتماعية – لذا فنادراً ما تتوفر بين ايدينا امثلة على هذه الطريقة البارعة. ومع ذلك يمكن تطوير هذه الطريقة الى وسيلة خاصة لدعم الطريقتين السابقتين؛ إذ، وبمسك الجسر، ورأس الجسر يمكن تهديد العبور نفسه على الدوام.

وفيما عدى الغاية من الدفاع المطلق بالقوة الرئيسية، فلكل من طرق الدفاع الثلاثة عن النهر هدف اضافي آخر، هو **الدفاع التضليلي**.

يمكن استخدام مظاهرة كاذبة بالمقاومة، بطبيعة الحال، مع عدد من الاجراءات الاخرى، شرط تيسر اي موضع ملائم، على ان يكون من المعسكرات التي ترتجل أنياً لقضاء ليلة واحدة. ويمكن لدفاع كاذب عن نهر كبير ان يغدو عملية مخادعة فعالة إن تضمّن عدداً من الاجراءات المعقدة بدرجة او اخرى. وتأثير كهذا يكون عادة اكبر

من حيث النطاق ويستمر لامد اطول مما في الحالات الاخرى. فعملية عبور نهر ما بوجه مقاومة معادية هي احدى القرارات الخطيرة للمهاجم، وعليه ان يتمعن فيها بدقة كبيرة ولفترة طويلة، وقد يؤجلها لحين توفر الظروف الملائمة، والوقت المناسب.

يفترض الدفاع الكاذب، انفتاح القوة الرئيسية على طول النهر بنفس الطريقة التي تنتشر فيها في حالة الدفاع الحقيقي تقريباً. رغم ان وجود نية المخادعة كاف لوحده لاثبات ان الظروف ليست ملائمة بالقدر الضروري الذي يسمح بدفاع حقيقي. وعليه فالمواضع التي يشغلها المدافع – والتي ستمتد وتتبعثر بدرجة ما لا محالة – قد تؤدي الى خسائر كبيرة وخطيرة اذا تورطت الوحدات المدافعه بمقاومة ما، مهما كانت محدودة النطاق. ويشكل ذلك نصف الاجراءات المطلوبه. لذلك من الضروري في دفاع كاذب ان يتم حساب كل شيء وفقاً لتحشد حقيقي للجيش في نقطة على بعدٍ كبيرٍ نوعاً ما الى الخلف – وغالباً ما تكون على مسيرة عدة ايام. لذا بوسع المدافع أن يحدد حجم المقاومة التي سيبديها توافقاً مع خطته.

ولايضاح ما نعنيه بذلك بالضبط، ولكي نظهر وفي الوقت نفسه الاهمية التي يمكن أن تبدو لمقاومة كاذبة كهذه، يكفي ان نتذكر الصفحة النهائية لحملة نابليون عام ١٨١٣، فقد عاد هذا عبر نهر الراين وبامرته من (٤٠–٥٠) الف رجل. ومن المستحيل الدفاع بقوة صغيرة كهذه عن النهر ما بين (مانهايم) و (نيمفيجن) – وهي الشقة التي كانت قوات التحالف ووفقاً لحجم جيوشها ستعبر النهر منها. كان الشيء العملي الوحيد الذي بوسع نابليون عمله هو التخطيط لموضع (وقوفه) الاول على الجزء الفرنسي من نهر (ميوز)، وحيث كان جيشه يتوقع وصول التعزيزات. ولو كان انسحب على الفور الى ذلك الخط، لسارع التحالف الى تعقيبه فوراً، وكان ذلك سيحدث ايضاً قبل وقت طويل لو كان قد ارسل قواته الى معسكرات استراحة على الجانب الذي تحت سيطرته من نهر الراين. وبغض النظر عن حذر، وخوف التحالف انذاك، فقد كانوا سيسارعون بارسال خيالة القوزاق ووحدات خفيفة أخرى عبر النهر، وحال نجاحها بذلك كانت وحدات اخرى ستعقبها. وعليه فلم يكن امام الفرنسيين سوى التهيؤ للدفاع باصرار وجدية على الراين. ونظراً لتوقع عمل كهذا، فلن يحقق هذا الدفاع شيئاً بمجرد إبتداء قوات التحالف بالعبور، ولا بد من اعتبار المناورة بكاملها مجرد تظاهر بالمقاومة، رغم ان الفرنسيين ما كانوا يخاطرون بشيء طالما غدت نقطة تجمعهم في اعلى نهر (الموزيل). والجنرال الفرنسي ماكدونالد الذي اشغل موضعاً عند

(نيميجين) وبامرته (٢٠) الف رجل، وحده اخطأ بانتظار أن يزاح من موضعه هذا. وذلك بسبب تأخر وصول فيلق الجنرال الروسي (ونتزنجيرود)، الامر الذي لم يحدث الا في منتصف يناير (كانون ثاني)، مما منع ماكدونالد من الانضمام الى قوات نابليون قبل معركة (برينيه) لقد اثبتت تظاهرة الدفاع الكاذب عن الراين جدواها، فقد أجبرت قوات التحالف على التوقف، ودفعتهم الى القرار على تأجيل العبور حتى وصول التعزيزات – وتطلب ذلك ستة اسابيع. وتلك كانت فترة لا تقدر بثمن لنابليون، ودون التظاهر بالمقاومة عن الراين، كانت معركة لايبزك قد أوصلت التحالف الى باريس مباشرة، وأية معركة أخرى شرق باريس كانت ستكون خارج نطاق وقدرة الجيش الفرنسي انذاك.

يمكن القيام بمظاهرة ما كذلك مع النوع الثاني من الدفاع عن النهر – اي ذلك الدفاع الذي ينظم عن نهر متوسط الحجم. الا انها ستكون عادة اقل تأثيراً وفاعلية، لان مجرد محاولة العبور اسهل عادة وتكفي لايقاف وانهاء اللعبه.

كذلك الامر في الشكل الثالث، اذ يحتمل ان تكون المظاهرة حتى اقل تأثيراً. ولن تكون في النهاية اكثر جدوى من اي موضع مؤقت اخر.

اخيراً، فان النوعين الاولين من الدفاع ملائمين جداً لخلق قوة وامان كبيرين عبر سلسلة من المراصد او أي خط دفاعي اخر يؤسس لغرض ثانوي ما (كنطاق)، او حتى لقوات مراقبة صغيرة، واقل من تلك القوات التي ستوضع هناك في حالة عدم وجود النهر. يقتصر حديثنا في كل تلك الحالات على المقاومة النسبية، التي ستغدو اكثر فاعلية كلما تيسر شق او خندق في المنطقة. لكن علينا ان نتذكر لا الوقت الطويل الذي يتحقق بفعل المقاومة خلال الاشتباك الفعلي فقط، ولكن كذلك الشكوك العديدة التي ترافق عملية التخطيط للهجوم، والتي وكما سيحدث في كل ٩٩٪ من الحالات ان تسبب الغاءها ما لم يكن هناك سبب ملح للمضي في التنفيذ.

الفصل التاسع عشر
الدفاع عن الأنهار والوديان – تتمة

لعلنا نود أضافة ملاحظات قليلة حول تأثير الأنهار ومجاري المياه على الدفاع عن البلاد ، حتى ان لم يدافع عن الأنهار نفسها .

يشكل وادي اي نهر مهم ، ومع روافده مانعاً طبيعياً مهماً، ويعد بذلك ركناً اساسياً في الدفاع ، ويمكن حصر وتحديد السمات الرئيسية لدور الأنهار الفعلي بالكثير من التفصيل.

ابتداء لا بد ان نحدد فيما اذا كان النهر يجري بموازة الحدود، او عمودياً عليها، او مائلاً (قطرياً) – اي بالنسبة للجبهة الاستراتيجية الرئيسية. واذا كان النهر موازياً فلا بد من تمييز ما اذا كان خلف الجيش المدافع ام المهاجم، وفي كلتا الحالتين يسبب بعد الجيش عن النهر اختلافاً اخراً .

فالجيش المدافع قرب نهر رئيسي(لكن ليس أقل من مسيرة يوم عادية الى خلفه)، نهراً إستطاع ان يؤمن عبره عدداً من نقاط العبور المحمية ، هو جيش في موضع قوي جداً دون شك، عما لو لم يكن هناك نهر كهذا. وفي الوقت الذي يؤدى فيه اهتمامه بنقاط العبور الى تحديد حرية حركته نوعا ما، الا أنه سيمنحه قدراً كبيراً من العون من خلال الامن الذي سيوفره لمؤخرته الاستراتيجية، وعلى الاخص خطوط مواصلاته. يجب ان يفهم باننا نتحدث عن الدفاع عن أرضنا، وفي ارض معادية، وحتى ان كان جيش العدو في جبهتنا ،فلا بد ان نتوقعه خلفنا، وكذلك حال عبورناالنهر.عندها يصبح النهر ضرراً اكثر منه فائدة، لأنه يحدد مواصلاتنا. وكلما زادت المسافة بين النهر والجيش، كلما قلت فائدته، حتى تختفي قيمته نهائياً عند مسافة معينه.

اذا توجب على جيش متقدم أن يترك نهراً ما خلفه، فسيحدد ذلك النهر تحركاته، اذ ستحدد خطوط مواصلاته بعدد قليل من نقاط العبور . ففي عام(١٧٦٠) وعندما تقدم الأمير هنري ضد الجيش الروسي على طول الضفة اليمنى لنهر (اودر) قرب (بريسلاو) اعطاه النهر الذي كان على مسيرة يوم واحد الى خلفه نقطة استناد قوية بوضوح. لكن وفيما بعد ، وعلى العكس من ذلك، عند عبور الروس نهر (اودر)

بقيادة (شيرنيشيف) ، اصبحوا في موقف سيء وذلك ببساطة بسبب مخاطر فقدانهم خط انسحابهم، الذي كان يعتمد على جسر منفرد.

اما ان سار النهر بزاوية عمودية نوعاً ما على مسرح العمليات،فالفائدة هنا تكمن في الجانب الذي يحتله المدافع. وابتداء يمكن القول بان للمدافع عادة حرية اختيار موضع جيد بالاستفادة من النهر لاسناده ومن وديان روافده لتقوية الجبهة (كما استخدام البروسيون نهر (ايلب) في حرب السنوات السبع)؛ ثانياً : يتوجب على المهاجم اما ترك احد الجانبين او تجزأة قوته. وفي الحالة الأخيرة سيحظى المدافع دون شك بميزة امتلاكه عدد اكبر من نقاط العبور الامينة مما للمهاجم. ونظرة خاطفة الى حرب السنوات السبع تكفي لتوضح لنا الأهمية الكبيرة لنهري (اودر) ،(ايلب) والفوائد التي قدمها النهران لفرديك الكبير في الدفاع عن مسرح عملياته – ونعني به سليزيا وساكسوني، والماركMARK وكون منهما مانعاً قوياً بوجه احتلال النمسا والروس لتلك المناطق. رغم انه لم يتم الدفاع عن اي من النهرين خلال مسار الحرب. واكثر من ذلك فقد كان النهران وفي معظم اقسامهما يمران بزاوية قائمة او مائلة على جبهة العدو، اكثر مما في موازاتها.

من الناحية العامة، يعد دور النهر كوسيلة نقل، من بين أكثر جوانبه منفعة لصالح المهاجم، شرط ان يكون عمودياً على الجبهة؛ الا ان خطوط النقل ستكون طويلة وبالتالي تسبب معضلات اكبر في نقل مدخرات التموين. سيشكل النقل المائي مساعدة وفائده. ومع ان بوسع المدافع غلق المجرى بوجه السابلة النهرية باقامة حصون وقلاع ابتداء من خط الحدود، مع ذلك فلا بد من تذكر عدة عوامل، فالنهر قد يكون بعرض كاف مما يشكل بعض الأهمية من الناحية العسكرية دون الحاجة الى تسهيلات ملاحية، او قد يتعذر النقل خلاله طول السنة، كما ان السابلة النهرية الصاعده بطيئة عادة وغالباً ما تكون صعبة كذلك ، وغالباً ما تزيد عطفات النهر الكثيرة المسافة المقطوعة الى ضعفها على الطريق، فالطرق البرية الواسعة تشكل شرايين المواصلات بين البلدان في ايامنا هذه، واخيراً فان احتياجات الجيش الحالية تجمع مما يصادر محلياً أكثر مما تتم مبايعته تجارياً من اماكن بعيدة. كل هذه الاعتبارات تجعل من الواضح ان ليس للنقل المائي سوى دور أصغر بكثير مما تخبرنا به كرسات التدريب والمراجع الأخرى في تموين الجيش . لذا يظل تأثيره على مسار الأحداث أصعب وابعد من ان يتم تحديده.

الفصل العشرون

آ. الدفاع عن الأهوار (المستنقعات)

تعد مناطق المستنقعات الواسعة (كبورتانغ مور)، في شمال المانيا من العوارض النادرة لذا لن نتوقف عندها طويلاً لكن ينبغي ان لا ننسى ان انواعاً معينة من الأراضي المنخفضة، والانهار الصغيرة ، والضفاف الضحلة والمستنقعات ، كثيراً ما تظهر هنا وهناك .وقد تغدو بحجم يشغل حيزاً من الأراضي مناسباً للدفاع وقد استخدم لهذا الغرض فعلاً في حالات كثيرة.

المبادىء في استخدام هذا النوع من المناطق دفاعياً هي بطبيعة الحال نفس المبادى المستخدمة في الأنهار ، رغم تميز هذه المناطق ببعض السمات الخاصة التي يجب ملاحظتها الاولى والرئيسية منها هي صعوبة اجتياز المستنقعات من قبل المشاه مالم تكن هناك سدود او حواجز لذلك. وهي في هذا اصعب في العبور حتى من الأنهار. اما السدود فهي ليست مما يمكن انشاؤه بسرعة كالجسور من ناحية ، كما لا تتوفر هنا معدات ووسائل وقتية او فورية للعبور الى الجانب الأخر من أجل حماية وتسريع بناء السدود من الناحية الأخرى. اذ ليس بوسع قوة ما البدء ببناء الجسر الا بعد ايصال قوة متقدمة بالزوارق الى الجانب الأخر ، ويستحيل فعل ذلك في المستنقعات . واحسن وسيلة لمساعدة المشاة في العبور هنا هي الالواح، الا ان ذلك عمل مرهق ، فان كان المستنقع عريضاً فسيحتاج المشاة الى الكثير من الوقت لعبور مجموعة الزوارق الأولى. فان وجد ان هناك نهراً في منتصف المستنقع ولا بد من جسر لعبوره فسيغدو ايصال المجموعة الاولى الى الضفة البعيدة قضية بالغة الصعوبة، والالواح بذاتها كافية لعبور الرجال واحداً بعد الآخر الا أنها غير قادرة على حمل معدات التجسير . وفي حالات كثيرة يتعذر معالجة مشكلة كهذه نهائياً.

السمة الثانية للأهوار هي تعذر اتلاف معدات العبور نهائياً ، وكما كان ذلك ممكنا في الأنهار اذ كان يكفي تفكيك او تدمير الجسر لمنع استخدامه ثانية، اما السد او

الحاجز فليس بوسع المرء سوى خرقه او أزالة بعض أجزاءه الامر الذي لا يعني الكثير . ولو وجد مجرى ما داخل المستنقع فبوسع القوة انذاك ازالة الجسر المقام لعبوره ، الا ان ذلك لن يعيق العبور ككل ولنفس الحد، كما هو الحال عند تدمير الجسور على الأنهار. والنتيجه الطبيعية لذلك هي ضرورة مسك السدود القائمة بقوة كافية والدفاع عنها بقوة وجدية ان اريد الاستفادة عسكرياً من تلك المستنقعات باي شكل.

من ناحية اولى نرى ان أحدى السمتين تحددنا تماماً بالدفاع المحلي المحض، لانها تسهل ذلك كثيراً، ومن الناحيه الأخرى فهي تعرقل وتزيد من مصاعب العبور من أي مكان اخر. واجتماع هذان العاملان يجعل الدفاع عن الأهوار اكثر قربا وشبهاً، واكثر سلبية من دفاع الانهار.

وعليه فلا بد للمدافع من حشد قوة اكبر، نسبياً على الأقل،مما في دفاع مباشر عن النهر. وبكلمة اخرى فليس بوسع المرء الاعتماد طويلاً على خط دفاعي ، خصوصاً في المناطق الاكثر تحضراً واستقراراً في أوروبا ، حيث تتوفر وفي احسن الظروف نقاط عبور عديدة جداً.

لذلك ليست الاهوار من هذه الناحية مفيدة جداً كالانهار الكبيرة، وهذا اختلاف مهم طالما ان هناك ودائماً شيء خادع وخفي وشديد الخطورة حول الدفاع المحلي . ومع ذلك على المرء ان يتذكر ان معظم المستنقعات والاهوار اعرض كثيراً من اكثر النهار عرضاً في أوروبا والى حد يتعذر معه شل او تدمير ، اي موضع أُعد للدفاع عن نقطة عبور، بالقوة النارية من على الضفة البعيدة ، لأن السدود الطويلة والضيقة تزيد من تأثير رمي المدافع بدرجة كبيرة، ويعني ذلك كثيراً من التأخير في اجتياز سد ترابي ضيق بطول ميل او ميلين. واطول مما في العبور على جسر . لذلك علينا ان نقرر – شرط عدم توفر نقاط عبور عديدة – ان الأهوار والمستنقعات تعد من بين أقوى الخطوط الدفاعية الممكنة.

اما الدفاع غير المباشر كالذي نوقش استخدامه في الدفاع عن الأنهار ومجاري المياه، باستخدام الموانع الطبيعية من اجل ظروف افضل لخوض معركة رئيسية فهو مما يمكن تطبيقه وبسهوله في الدفاع في الأهوار.

الا ان الشكل الثالث من الدفاع عن الأنهار – باحتلال موضع على الجانب المعاديغاية في الصعوبة والمخاطر هنا. وذلك لما يستغرقه من وقت طويل في اجتياز المستنقع.

يُعد الدفاع عن اية مستنقعات ، او مراع مغمورة بالمياه، او أهوار او مناطق رخوة او ضحلة المياه، والتي لا يمكن اجتيازها إلا من مجازات وممرات خاصة لا على سدود، يعد الدفاع فيها من اصعب الامور وأكثرها خطورة . وأكتشاف العدو ولو لنقطة عبور واحدة هنا قد يكفي لخرق وتمزيق الخط الدفاعي بكاملة، مما يؤدي في الحالات التي يظهر المدافع فيها مقاومة جادة الى خسائر كبيرة.

ب. الأراضي المغمورة:

ما زال امامنا البحث في الأراضي المغمورة والتي تشبه المستنقعات كثيراً، اذ يشكل كلاهما وسيلة دفاعية وعارضة طبيعية.

مع ان الاراضي المغمورة ليست شائعة في أوروبا ، ولعل الاراضي المنخفضة (هولندا) هي البلد الأوروبي الوحيد الذي تشكل فيه عنصراً او عارضة تستحق اهتمامنا . في الحقيقة فان هذا البلد بالذات ، وبسبب الحملتين الشهيرتين عامي (١٦٧٠)[1] و(١٧٨٧) وبسبب القرب الجغرافي مع المانيا وفرنسا ، لذا يدفعنا ذلك الى ايلاء الموضوع بعض الأهتمام.

تختلف سمات القنوات والمجاري في هولندا عن المستنقعات والاهوار والمنخفضات المائيه في الأمور التالية :

١. اراضي البلاد جافة ، وتتألف اما من مراع جافة او حقول مزروعة.

٢. تكثر في اراضيها قنوات الري وخنادق التصريف (المبازل) بأعماق واعراض مختلفة، وتجري متوازية في مناطق معينه.

٣. تغطي القنوات الرئيسية لاغراض الري، والتصريف والملاحة البلاد من شتى الاتجاهات . كما انها تجري ما بين سد وآخر ، ولا يمكن عبورها الا بواسطة الجسور.

٤. مستوى سطح الارض في المناطق المغمورة كلها، اقل من مستوى سطح البحر، وبالتالي دون مستوى القنوات ايضاً.

٥. يعني ذلك امكانية ان تغمر المياه المنطقة بكاملها بمجرد انكسار السد، او بفتح وغلق نواظم وبوابات المياه (Sluice). تظل الطرق العالية فقط والتي تمر فوق السدود جافة ولا تغمرها المياه. اماالباقي فاما ان تغمر كليا، او تتشبع بالماء وتغدوزلقة

---

(١) لعل المقصود (١٦٧٢) وكما سيتضح بعد قليل. المترجم

يصعب اجتيازها او التنقل خلالها . وحتى حيث لا يعلو الماء لأكثر من (٣-٤) اقدام، ويفكر المرء بالمرور وسطها ولو لمسافات قصيرة ، الا ان ذلك ليس ممكنا بسبب الحفر والشقق الصغيرة التي اشرنا اليها في (٢) اعلاه، والتي لم يعد بالأمكان رؤيتها وتحديد مكانها . يمكن فقط الخوض في اماكن كهذه عند التأكد من اتجاه الحفر والخنادق بحيث لا يحتاج ولا يضطر المرء الى عبور اي منها ، الامر الذي لا يجعل مجاري الماء هنا، حواجزاً او موانعاً طبيعية. ومن البديهي أن بوسع المرء الخوض من خلالها ولمسافات قصيرة ولأغراض تعبوية خاصة ومحدودة.

نستنتج من كل ذلك مايلي:

١. يتحدد المهاجم بعدد قليل نسبياً من طرق التقرب، التي تمر فوق السدود، والدكات نظراً لانها محاطة اضافة الى ذلك بخنادق وقنوات على جانبيها، ولذا تغدو ممرات ضيقة وطويلة وبالغة الخطورة.

٢. اية اجراءات دفاعية تتخذ مع تلك السدود والدكات يمكنها وبسهوله تقوية تلك النقاط كثيراً والى حد يصعب معها أختراقها او التغلب عليها.

٣. على المدافع، وبسبب التحديدات المفروضة عليه - حتى وفي كل نقطة منفردة أن يلزم نفسه بمقاومة سلبية مجردة؛ وهي فرصته الوحيدة.

٤. لا يقتصر الامر هنا على خط دفاعي طويل واحد، يُطبق على منطقة ما كحاجز منفرد. كما أن جوانبه مغطاة بممرات يصعب اجتيازها كثيراً ، كما يمكن انشاء نقاط جديدة وباستمرار لستر وغلق اي اختراق قد يحدث في خط الدفاع الاصلي وقد يسع المرء القول ان ذلك يشبه لوحة الشطرنج وحيث يمكن اعداد مالا حصر له من التركيبات.

٥. يمكن توفر شرط كهذا كليا في المناطق الكثيفة السكان ، والمزروعة بكثافة. يؤدي ذلك تلقائياً الى ان عدد المعابر وبالتالي المواقع القريبة منها يجب ان تكون كثيرة قياساً لاية ترتيبات استراتيجية اخرى ؛ نستنتج من كل ذلك واضافة له، ان هذا النوع من الخط الدفاعي ينبغي ان لا يكون طويلاً.

يجري الخط الدفاعي الرئيسي في هولندا من (نارادين) في الزويدرزي (ومعظمه وراء الفشت) الي (كوركام) في الوال على البيسبوش، على وجه الدقة وبطول يصل الى (٤٠) ميلاً تقريباً . وفي عامي (١٧٦٢) و (١٧٨٧)[1] استخدمت قوه من (٢٥-٣٠) الف رجل للدفاع عنه. فلو كان بالامكان تنظيم مقاومة قوية يصعب التغلب عليها، لتضاعفت اذن، قيمة تلك المنطقة كثيراً جداً - على الاقل بالنسبة للمناطق الخلفيه في هولندا . لقد صمد هذا الخط عام ١٦٧٢ ضد قوات متفوقه كثيراً وتحت قيادة جنرالات بارزين . اولاً كونديه، ومن ثم دوق لوكسمبرج وكان بوسع هذين مهاجمته بقوة من (٤٠-٥٠) الف رجل ، رغم انهما لم يحبذا استخدام القوة واثرا انتظار الشتاء، الذي لم يكن مجدياً بما يكفي كما حدث فعلاً. اما في عام (١٧٨٧) ومن الناحية الاخرى فلم يبد الخط الاول اية مقاومة، ورغم المقاومة الاعنف التي جوبه بها الهجوم على خط دفاعي اصغر بكثير ما بين (زيودرزي) و(هارليمير مير) ، الا ان دوق برونزويك تمكن من القضاء عليها خلال يوم واحد بانفتاح تعبوي أحسن اعداده ومناسب تماماً للظروف الانية، بغض النظر عن كون القوات البروسية التي تقدمت فعلاً ضد هذا الخط كانت اقوى قليلاً من القوات المدافعة، ان لم تكن مساوية لها .

قد يعزى الأختلاف في نتائج الحملتين اعلاه الى الاختلاف في القيادة العليا لكليهما ففي عام ١٦٧٢ فاجيء لويس الرابع عشر الهولنديين وهم دون استعداد وفي وضع سلمي كلياً. كما لم تكن معنويات الجيش الهولندي عالية، اما القلاع فكانت تعاني من قلة العتاد والمعدات كما كانت حامياتها ضعيفة جداً وهي مؤلفة من قوات المرتزقة، التي يقودها اما ضباط اجانب دون اخلاص ، او ضباط وطنيين دون كفاءه. لذلك سرعان ما سقطت قلاع الراين التي تعود الى براندبورج والمحتلة من قبل

---

(١) الحرب الهولندية (١٦٧٢-١٦٧٨) لقد حاول لويس الرابع عشر عزل هولندا عن حلفائها فانشأ الحلف الثلاثي بموجب معاهدة دوفر السرية مع شارل الثاني (الانكليزي) في مايس (١٦٧٠) ومع السويد (١٦٧٢) عدى عن معاهدات اخرى مع كولون ومونستير. اعلنت الحرب في اذار ١٦٧٢ فاندفعت القوات الفرنسية (١٣٠) الف رجل بقيادة لويس الرابع عشر نفسه، ومع نهر الميوز متخطية بذلك القوات الهولندية في ماستريشت اما في (١٧٨٧) فكان ذلك خلال الحملة البروسية ضد هولندا. (م.ت.ع ص ٥٥٧ وص ٥٦٣) الترجم

الهولنديين وكذلك خط دفاعها الشرقي عدى (كرونينجين)، التي بيد الفرنسيين، ومعظمها دون مقاومة تذكر. وشكل احتلال هذا العدد الكبير من القلاع، الانشطة الرئيسية للجيش الفرنسي الذي تعداده(١٥٠) الف رجل تقريباً.

لكن وفي شهر آب /١٦٧٢) انهت ثورة شعبية حياة وحكم الاخوين (دي -وت) واختير أمير أورنج (وليام الثالث) كنائب للملك على رأس السلطة فاخضع الدفاع الوطني لقيادة موحدة، كما استفاد مما تيسر لديه من وقت لأكمال الخط الدفاعي انف الذكر في اعلاه، كما تم تنسيق كافة الاجراءات الضرورية بدقة منذ ذلك الحين وبشكل لم يعد معه قادة مثل (كونديه) او (لوكسمبرج) اللذان قادا ما بقي من قوات فرنسية بعد ان تركها لويس الرابع عشر، وتورين ، يجرأن على مهاجمة حتى موضع واحد.

اما في حملة عام(١٧٨٧) فقد كانت الظروف مختلفه جداً اذ لم تقف جمهورية الولايات السبعة مجتمعة بوجه الفرنسيين ، بل ان هولندا بمفردها صمدت للمعتدي ، وكان عليهاترتيب المقاومة الرئيسيه. لم يكن الامر مجرد احتلال عدد من القلاع ، كما كانت عليه الفعالية الرئيسية عام ١٦٧٢. اذ سرعان ما تراجع الدفاع الرئيسي الى الخط المشار اليه في اعلاه . اما الغزاة فلم تزد قوتهم عن (٢٥)الف رجل بدلا عن قوة الـ(١٥٠) الف رجل ، كما لم يكن على رأس القوة امبراطور دولة عظمى مجاورة، بل جنرال تابع لأمير محلي غارق هو نفسه في مشاكل متعددة. صحيح ان الشعب كان منقسماً الى حزبين في كل مكان حتى في هولندا ، الا ان الجمهوريين الهولنديين كانوا يشكلون الاغلبية، وفي حالة من الحماس والاستعداد. كان المتوقع وفي ظروف كهذه ان تحقق المقاومة عام ١٧٨٧ على الاقل ما تحقق عام ١٦٧٢، لكن كان هناك اختلاف حاسم بين الحالين وهو عدم وجود قيادة موحده. فقد تولى الامير(وليم اوف اورنج) القيادة عام ١٦٧٢ بجدارة، وابدى فيها براعة وذكاء وحيوية عالية بينما أعتمد عام ١٧٨٧ على ما عرف بلجنة الدفاع، التي ورغم تأليفها من أربعة رجال ممتازين، الا أنهم لم يتفقوا ابداً على أتجاه موحد، كما عجزوا عن كسب ثقة الاخرين .لذلك اثبت هذا الاسلوب لا جدواه من حيث التشكيل ولا فائدته في العمل.

لقد توقفنا طويلاً عند هذا المثال لايضاح هذه الطريقة في الدفاع كما توخينا في الوقت نفسه استعراض مدى الاختلاف الذي تحدثه وحدة القيادة وتماسكها.

مع ان تنظيم وعمليات خط دفاعي كهذا من مسائل التبعية الا ان الخط الدفاعي نفسه هو الى حد ما أكثر صلة واقرب الى الأستراتيجية ، وقد نود هنا ابداء ملاحظة واحدة حول ذلك تنبثق من حملة (١٧٨٧)، فنحن نعتقد ، بأن دفاعاً سلبياً، كالدفاع عن مواقع منفردة ، لا بد أن يجعل ودون اي شك ، الهجوم المقابل الذي يشن من بعض اجزاء الخط ليس ممكنا وحسب بل ومع حظ جيد للنجاح ، وكما حدث عام (١٧٨٧)، حين لم يكن العدو متفوقاً بنسبة كبيرة عددياً. لا يمكن شن هجوم مقابل مثل هذا الا من على السدود والحواجز، ولن تتوفر له حرية تحرك كبيرة، ولا الكثير من الزخم كذلك، كما ان المهاجم غير قادر على احتلال كافة السدود والحواجز والممرات التي لم يستخدمها في تقدمه. لذا يجب أن يكون المدافع الذي يحتل القلاع، ويعرف البلاد (المنطقه) جيداً قادراً على شن هجمات جانبية شديدة الخطورة ضد العدو، او قطع خطوط امداده. لو تمعنا في الظروف التي يتم فيها التقدم والطريقة التي تحدده فيها وبشكل خاص في أعتماده غير الأعتيادي على خطوط المواصلات سنفهم عندها أن اي هجوم مقابل وحتى مع أدنى فرص النجاح،سيكون بالغ التأثير حتى لو جرى على شكل مظاهرة (مخادعة) ونشك كثيراً في أن رجلاً شديد الحذر كدوق برونزويك سيجروء على التقدم نحو (امستردام) لو كان الهولنديون قد قاموا ولو بمظاهرة واحدة من هذا النوع وعلى سبيل المثال من (اوترشت).

الفصل الحادي والعشرين
الدفاع عن الغابات

على المرء وفوق كل شيء آخر ان يميز بين الغابات الكثيفة، باشجارها الباسقة النمو، والتي يصعب التنقل داخلها، وبين الأراضي المزروعة بكثافة وبانواع مختلفة بما فيها الأشجار والتي قد تنتشر وسطها الكثير من المناطق المفتوحة التي تتعدد فيها الممرات والنياسم.

وحيثما يتم القرار على اختيار وتخطيط اي خط دفاعي في مناطق كهذه ينبغي ترك الاشجار والمزروعات من النوع الثاني الى الخلف او تجنبها باي طريقة كانت . ان مجال الرصد والمناطق المفتوحة التي لا تحدد أو تعيق الرؤيا من مصلحة المدافع أكثر مما للمهاجم ، وسبب ذلك ان الأول هو الأضعف بينهما من ناحية، ولأن الفوائد الطبيعية لموضعه تقوده من ناحية أخرى الى تعديل وتطوير خططه اخيراً وبعد المهاجم. فان قرر القتال والغابة امامه فسيكون كالاعمى الذي يقاتل مبصراً. ولو اتخذ موضعه داخل الغابة فسيصبح الطرفان في حالة متساوية من العمى، الا أن هذا التعادل سيحسم لصالحه.

فغابة من هذا النوع، لا يمكن أن توفر أية فوائد ذات علاقة بالدفاع ما لم تترك خلف المدافع. عندها يمكن استخدامها لحجب واخفاء أية تحركات تجري في الخلف، ولستر وتسهيل تراجع المدافع في النهاية.

تنطق هذه الملاحظات على الغابات التي توجد في السهول فقط . اما المناطق الجبلية فستتحكم الغابات في كافة الترتيبات التعبوية والأستراتيجية وقد سبق ان نوقشت هذه الأمور في مكان آخر.

اما الغابات التي يصعب اجتيازها – أو بالاحرى التي يتحدد التنقل فيها بالطرق التي تتخللها – فانها توفر فرصاً لدفاع غير مباشر مشابه لما في المناطق الجبلية، اذ بوسع المرء خوض المعركة حال توفر الظروف الملائمة. وبوسع الجيش المتحشد الى حد ما ، الأنتظار خلف الغابة لحين ظهور العدو ومن ثم مهاجمته حال خروجه من الطريق الضيق. وبهذا الصدد فان تأثيرات ونتائج غابة كهذه ، أقرب الى الجبل منها الى النهر، اذ يصعب اجتيازها الا ببطء، اما بقدر تعلق الامر بالتراجع فالغابة هنا عامل مساعد اكثر مما فيه من مخاطر.

بغض النظر عن شدة ومصاعب المرور في الغابة ، فالدفاع غير المباشر عنها ما زال بعد امراً خطراً حتى لو اقتصر ذلك على مجموعة او سلسلة من المراصد القليلة القوة فالحظار[1]. وجذوع الاشجار ليست سوى موانع وهمية وذات تأثير نفسي فقط، فلا وجود لغابة لا يمكن اجتيازها الى حد يتعذر فيه حتى على الوحدات الصغيرة التسلل عبرها ومن مئات الأماكن والنقاط. يشكل تسلل كهذا عبر سلسلة دفاعية كقطرات الماء التي تنضح من جسم السد اما الاختراق الرئيسي فسيلي ذلك بالتأكيد.

يصبح تأثير الغابات الكبيرة ومن مختلف الانواع أكثر اهمية بما لا يقاس من حالة العصيان الشعبي، اذ تعد الغابات اكثر الاماكن ملائمة لذلك دون نقاش . فان امكن استنباط خطة دفاع استراتيجية، تجعل خطوط مواصلات العدو تمر عبر غابة عميقة ، فسيمنح ذلك قوة اضافية طاغية لالية الدفاع.

---

(١) الحظار، ترجمة لكلمةAbattis وتعني : عائق من أشجار مقطوعه يسد به الطريق .

قاموس المورد طبعه ١٩٨٥ ص ١٧

الفصل الثاني والعشرون

الطوق The Cordon

نعني بالطوق اية منظومة دفاعية من سلسلة مواقع مترابطة وتهدف الى توفير حماية مباشرة لمنطقة ما. نؤكد هنا على كلمة «مباشرة»، نظراً لان عدداً من فيالق جيش كبير قد تعبأ في خط بحيث يؤمن كل منها حماية منطقة كبيرة نوعا ما من هجمات العدو، دون ان تشكل مواضع هذه الفيالق نطاقاً. ولن تكون الحماية في هذه الحالة مباشرة بل ستنتج من تحركات ومناورات معدة.

من الواضح ان بوسع خط دفاعي، انشىء بطول كاف ليغطي منطقة واسعة مباشرة تقديم القليل جداً من المقاومة فقط. ويصح ذلك حتى في حالة انفتاح عدد كبير من القطعات، شرط مقابلتها بقوة معادية كبيرة ايضاً. فما يتوخاه الطوق اذن هو صد هجوم خفيف – وهو كذلك اما لحذر المهاجم وتردده، او لقلة ما لدى المهاجم من قوات.

ذلك هو ما حققه جدار الصين العظيم، الحماية ضد غارات التتر. وهو كذلك ما تنجزه كل الخطوط والدفاعات الحدودية للدول الاوربية التي تحادد اسيا وتركيا. فالاطواق، اذن وبهذا المعنى ليست دون جدوى، او سيئة نسبة لما يرجى منها. صحيح انها غير قادرة على صد كل الغارات، الا انها ستجعل الاعمال العدائية اكثر صعوبة، وبالتالي فستقل كثيراً – الامر الذي يشكل اعتباراً مهماً في العلاقات السائدة مع الشعوب الاسيوية، حيث يندر ان تكون حالة الحرب دائمية.

لذلك فالخطوط التي أنشأت حديثاً ما بين الدول الاوربية – كالخطوط الفرنسية على الراين وفي الاراضي المنخفضة – تقترب كثيراً من الاطواق من هذه الناحية. لانها تعنى اساساً بحماية البلاد من غارات العصابات التي تنوي جمع الاتاوات او العيش على ما تسلبه من اعدائها. ونظراً لان تلك الخطوط مهتمة بمجابهة اعمال عدائية صغيرة كهذه لذا لن تُشغل الا من قوات قليلة، لكن وبطبيعة الحال سيهتم المدافع كثيراً في حالة دفع العدو لقوته الرئيسية نحو اي من تلك الخطوط، وسيدفع المدافع بقوته الرئيسية كذلك – ولا يعد ذلك الطريق الامثل لبناء وتنظيم الدفاع. اذ وبسبب هذه العوائق، ولأن الحماية ضد الغارات أمر قليل الاهمية جداً، ولأن بناء خطوط كهذه قد

يؤدي في حروب صغيرة الى تبذير في النفقات والقوات، فقد أعتبرت هذه الخطوط من الترتيبات الضارة. كلما تعاظم الغضب والحماس الذي تدور فيه الحرب، كلما زادت مخاطر تلك الخطوط ولا جدواها.

اخيراً، فان خطاً طويلاً من المواقع والمصمم لتغطية منطقة الايواء (billeting area) لجيش ما، ولتأمين درجة معينة من المقاومة، ينبغي اعتباره طوقاً حقيقياً.

المقاومة المعنية هنا، هي تلك التي توجه اساساً ضد الغارات والعمليات التي تهدف الى تهديد سلامة وأمن منطقة الايواء، وستحقق هدفها بدرجة كافية ان ساعدت الارض على ذلك. لكن ومن الناحية الاخرى، فالمقاومة يمكن ان تكون نسبية – بكلمة اخرى، معنية بكسب الوقت؛ الا أن اي وقت يكسب لن يكون كبيراً، لذلك من النادر أن يعد ذلك غاية الطوق الدفاعي. ولا يمكن لقوات العدو أن تتجمع وتتقدم بسرية تامة، بحيث لا يعرف المدافع عنها شيئا حتى تتولى مواقعه اخباره عنها لاول مرة. فان كان ذلك هو ما سيحدث فعلاً فليس امامنا سوى الشعور بالاسف لمدافع كهذا.

هكذا، فحتى في حالة مثل هذه، لن يعنى الطوق الا بصد هجوم خفيف؛ وكما في المثالين الاخرين، فليس هناك اي تناقض حوله.

اما ابقاء القوة الرئيسية، التي اعدت لمهمة الدفاع عن المنطقة ، في سلسلة طويلة من المواقع الدفاعية ضد القوة الرئيسية للعدو – في الحقيقة في طوق – فمن غير المعقول جداً، ومن السخف عندها أن يحاول المرء البحث في الظروف الانية التي رافقت ذلك، وتفسير ما يجري.

اما في الجبال، فان اي موضع، وحتى الذي يشغل بهدف خوض المعركة باكبر قوة ممكنة، فلا بد ان يتسع هذا الموضع ليصبح اكبر مما هو عليه في السهول. وذلك ممكن لان الارض تضاعف القدرات الدفاعية كثيراً؛ كما ان الاتساع مطلوب للحاجة الى قاعدة واسعه لتأمين الانسحاب، وكما رأينا ذلك في الفصل الخاص بالحروب الدفاعية الجبلية. ومع ذلك وما لم تكن المعركة وشيكة، فسيظل العدو على الاكثر في مواجهتنا لوقت طويل دون القيام بعمل ما، ما لم تتوفر فرص مناسبة – وهو الامر الطبيعي والمعتاد في معظم الحروب. وفي موقف مثل هذا، لا يريد المرء بطبيعة الحال ان يتقيد باحتلال منطقة صغيرة للغاية، بل يود السيطرة على معظم ارجاء البلاد، وفي كل الاتجاهات وبالقدر الذي تسمح به سلامة وامن جيشه. ويفتح ذلك امامنا جملة من

المنافع التي سنتعرض لها بتفصيل اكثر فيما بعد. وتحقيق ذلك في السهول والمناطق التي تخلو من العوائق اسهل بكثير منه في الجبال وذلك بفعل وقدرات **قابلية الحركة**، وعليه فلن تدعو الحاجة كثيراً هنا الى تجزأة وتشتيت واسعين للقوات من اجل ذلك. عدى عما في ذلك من مخاطر، فالتجزأة ستقلل من قدرة كل وحدة على انفراد على المقاومة.

اما في الجبال، فالسيطرة على الارض والاحتفاظ بها تلعب دوراً اكبر في الدفاع المحلي، اذ من الصعب جداً الوصول الى نقطة تعرضت للتهديد؛ فان وصل العدو اليها اولاً فسيصعب اخراجه منها حتى بقوة تتفوق عليه قليلاً. ستقود ظروف مثل هذه الى اتخاذ اجراءات معينة، وان لم تحول الدفاع الى ما يشبه الطوق الدفاعي، بل ما يشبه ذلك كثيراً، اي بسلسلة من المواقع الدفاعية، اذ ما زال هناك الكثير من الاختلاف بين ترتيب كهذا مؤلف من مواقع منفصلة وبين الطوق الدفاعي، ومع ذلك غالباً ما يختار القائد ترتيباً كهذا دون ان يتنبه لذلك – اي يقع تحت اغراء الظروف الانية. فهو وابتداء، يستهدف من هذا الانتشار أمن المنطقة والسيطرة عليها، وبالتالي أمن وحماية القطعات نفسها. وسيوازن كل قائد فوائد ومزايا احتلال العديد من النقاط (المهمة) على المقتربات على جانبي موضعه، وهكذا تتبدد قواته تدريجياً من درجة انتشار الى اخرى.

يستنتج من ذلك ان حروب – الحصار تفرض عدم اعتبار القوة الرئيسية كاختيار أفضل ومدروس، وتصمم كي تتولى ايقاف كافة هجمات العدو، بل كحالة قد ينجر اليها المرء (القائد) من خلال متابعة وتنفيذ هدف مختلف – كالاحتفاظ بمنطقة ما وحمايتها ضد عدو ليس بصدد تنفيذ عمليات كبيرة. واجراء كهذا خطأ فاضح ولا مبرر له في اي وقت، والحجج والاسباب التي ينقاد اليها وتغري القائد الى احتلال وتشكيل موضع صغير بعد اخر، واهية وسخيفة دائماً مقارنة بضرورات المحافظة على قوته الرئيسية متكاملة، رغم ان توافر مثل تلك الحجج والمبررات تظهر لنا على الاقل امكانية تردي كهذا. والحقيقة ان ذلك خطأ – او سوء تقدير لوضع العدو ووضعنا – قد يمر دون ان **يلحظه** احد، وينصب اللوم على **الطريقة** المغلوطة. الا ان هذه الطريقة قد اثبتت صحتها ضمنيا حيثما جرى تطبيقها، او انها على الاقل لم تتسبب باي اذى. والجميع يثنون على الحملات التي خاضها الامير هنري في حرب السنوات السبع **دون**

اخطاء، وذلك هو ما دعاها الملك[1] بها، الا انها في الحقيقة تضمنت اكثر الامثلة تطرفاً وصعوبة في التفهم عن سلسلة المواقع، التي تستحق وبجدارة ان تدعى بالطوق كاي منظومة مشابهة اخرى. بوسع المرء تبرير تلك المواضع بالقول ان الامير كان يعرف خصمه جيداً، وكان على ثقة من عدم تعرضه لعمليات جدية، واكثر من ذلك فقد كان هدفه من هذا الترتيب هو السيطرة على اكبر منطقة ممكنة، لذا ذهب الى القدر الذي تسمح له الظروف به. وحتى لو أوقع بالامير وسط شبكة العنكبوت هذه وتكبد خسائراً فادحة، فلن يرى المرء ان الامير قد نفذ او انشأ منظومة حرب مغلوطة، بل انه استخدم وسائلاً ومعاييراً سيئة في ذلك، وطبقها في موقف غير مناسب لها.

لقد انشغلنا كثيراً في محاولتنا ايضاح كيفية بناء المنظومة التي تعرف بالطوق بالقوة الرئيسية لمسرح العمليات، وان تبدو مقبولة ومنطقية بما يكفي لاخفاء ما فيها من عيوب وسخف. ولا بد ان نضيف هنا، ان هناك حالات ومواقف كما يبدو، قد لا يدرك القاده وهيئات ركنهم عندها الاهمية الحقيقية لمنظومة – الطوق، معتبرين قيمتها النسبية كشيء مطلق، معتقدين بقوة بقدرتها على احتواء وصد جميع الهجمات المعادية وكيفما كانت. وليس هذا مجرد تطبيق خاطىء لطريقة، بل عجز كامل عن الاحاطة بها وتفهم طبيعتها. ونقر نحن بان بلادة كهذه، واموراً اخرى، لعبت كما يبدو دوراً في الدفاع عن (منطقة الفوج) بالقوات البروسية والنمساوية عامي (١٧٩٣ و ١٧٩٤) – اي خلال حروب الثورة الفرنسية – .

---

(١). اي فردريك الكبير.

الفصل الثالث والعشرون
مفتاح المنطقة (النقاط المفتاحية)
The Key to the Country

ما من مفهوم نظري في فن الحرب أحب الى قلوب المفكرين والنقاد من المفهوم موضوع المناقشة هنا، لقد كان الجائزة التي تصور ما لا يحصى من المعارك والحملات، والاطروحة المفضلة للعديد من المناقشات والبحوث – وواحد من المصطلحات العلمية الزائفة التي يحاول المفكرون من خلالها اظهار براعاتهم. رغم انه لم يتم حتى الان ارساء **هذا** المفهوم او تحديده بدقه كافية.

سنحاول تقديم عرض واف وواضح للمفهوم ثم نتمعن في القيمة العملية التي يستحقها.

لقد اثرنا بحثه عند هذه النقطة نظراً لعلاقته الوثيقة بالدفاع عن الجبال والانهار، وكذلك مع مفهوم المواضع المحصنة والمتخندقة، التي ناقشناها للتو.

تكمن خلف ذلك كله، هذه الاستعارة اللفظية العسكرية الجليلة، عن «مفتاح المنطقة»، فكرة مشوشة وغامضة، وترمز احيانا الى معظم المنطقة المفتوحة للبلاد، واحيانا الى المنطقة التي يدافع عنها بقوة.

فان كانت هناك **منطقة ما، لا يمكن المخاطرة بالتقدم في ارض العدو من دون امتلاكها والسيطرة عليها**. فقد يصح وصفها بانها تعد مفتاحاً للمنطقة. الا ان هذا المفهوم البسيط، وبصراحة، لا يرضى المنظرين ويعدونه غير كافٍ وليس ذو قيمة كبيرة، لانهم رفعوه الى اعلى الدرجات، واستخدموه لتصوير النقاط التي **تمكنك** من خلالها **امتلاك البلاد بكاملها**.

عندما قرر الروس غزو شبه جزيرة القرم، كان عليهم ابتداءً احتلال برزخ (بيركوب) وخطوطه الدفاعية – ليس لعدم وجود مسلك اخر لدخولها، (فقد احاط بها الماريشال الروسي لاسي عامي ١٧٣٧، ١٧٣٨) ولكن لتوفير قدر كبير من الحماية بعد ترسيخ اقدامهم في القرم. وهذا امر واضح بما يكفي، رغم ان مفهوم النقطة – المفتاح لم يضف شيئاً لتفهمنا. ومع ذلك فلو كان بوسع المرء القول بان كل من يحتل

المنطقة حول مدينة لانكريه فسيمتلك او يسيطر على كل فرنسا، بما في ذلك باريس – وبكلمة اخرى، فحال احتلال لانكريه، فالامر يتوقف عندها على المحتل نفسه وما اذا كان سيسطر على البلاد كلها – ومن الواضح ان هناك اختلافاً كبيراً وبالغ الاهمية في ذلك. اذ ووفقاً للرأي الاول فان السيطرة على البلاد أمر غير ممكن دون النقطة التي اعتبرت مفتاحاً للبلاد. ولذلك مبرر قوي. لكن واستناداً الى الرأي الثاني فان السيطرة على البلاد كلها نتيجة لازبة للسيطرة على النقطة التي اعتبرت مفتاحاً لها. وذلك كما يبدو شيء غامض وفوق نطاق التفهم العادي وفي حاجة لشيء من سحر علم التنجيم. لقد بدأت هذه التعويذة بالظهور في الكتابات منذ خمسين سنة مضت، وبلغت ذروتها في نهاية القرن الثامن عشر. وبغض النظر عن القوة الطاغية، والثقة والمنطق التي الغت فيها قيادة نابليون بونابرت المفاهيم العسكرية السابقة، ظلت هذه الوصفة السحرية، التي ما استنبطت الا لأبقاء سيطرة وان تكن ليست قويه على الحياة، وواصلت دفع خيوطها الهشة بين سطور الكتابات [العسكرية].

لنتجاهل تعريفنا للنقطه المفتاح، اذ من الواضح ان في كل بلاد بعض المواقع ذات الاهمية الاستثنائية، فحيث تلتقي عدة طرق، او حيث يسهل خزن وتكديس المدخرات ومعدات التموين، وحيثما يستطيع المرء التحرك في عدة اتجاهات. الخلاصة فهي المواقع التي تحقق السيطرة عليها عدداً من المطالب، والتي توفر كذلك عدداً من الفوائد. فلو اراد احد القادة بيان اهمية نقطة كهذه بكلمة واحدة، فهو سيود ان يدعوها «مفتاح المنطقة»، وليس من السهل الاعتراض على ذلك، وعلى العكس من ذلك فالمصطلح مناسب ومقبول. اما اذا اريد لهذه العبارة البارعة ان تتضخم وتغدو نواة لمنظومة كاملة، ثم تتفرع في اتجاهات مختلفة كاغصان الشجرة الوارفة، عندها فان الادراك الغريزي جدير بان يحذرك وان تلزم نفسك بالمعنى الواضح والدقيق للمصطلح.

تستخدم مذكرات القادة عن الحروب والحملات، مفهوم مفتاح البلاد بمعنى عملي الا أنه ومن الناحية الاخرى لا يتسم بالوضوح. ولتطويره في بناء محكم لا بد من اعادة صياغته في مصطلح ثابت وواضح وبالتالي اكثر تحديداً. ومن بين الاوجه العديدة والمتيسرة له، فقد تم اختيار الارض العالية.

فعند اجتياز طريق لقمة جبلية، يطلق المتسلق (نفس) زفرة ارتياح حال وصوله الذروة والبدء بالانحدار. وهذا صحيح بالنسبة للافراد، بل وحتى لجيش ما. اذ يبدو

وكأننا قد تخطينا، بل وتغلبنا على كل الصعاب ونعتبر ان الانحدار امر يسير، وبقدرتنا على تجاوز اية عراقيل تعترضنا، وتنفتح المنطقة بكاملها امامنا، وتبدو تحت اقدامنا، مجازياً وحتى مادياً. وهكذا فان اعلى نقطة على طريق جبلي تعتبر عادة النقطة الحاسمة. وهذا ما كان عليه الحال فعلاً في اغلب الحالات – وان لم يكن فيها كلها اطلاقاً. وتلك هي النقاط والمواقع التي توصف بالنقاط المفاتيح[1] في مذكرات القادة – الا انها عادة تختلف قليلاً من حيث المعنى والتعبير دون شك؛ وفي معظمها شيء من التحديد في التطبيق. وهذا هو المفهوم الذي غالباً ما استخدم كنقطة اساسية في النظرية الخاطئة (التي يعد هنري لويد (١٧٢٠ – ١٧٨٣) الجنرال والكاتب العسكري الروسي مؤسسها)، وهذا هو السبب في اعتبار النقاط المرتفعة التي تنحدر منها عدة طرق الى المناطق المفتوحة المنوي احتلالها، كنقاط مفتاحية (حيوية) الى تلك المنطقة – وهي في الحقيقة النقاط التي **تسيطر** على المنطقة. يؤدي بنا ذلك وكنتيجة طبيعية او كتحصيل حاصل الى ان هذا المفهوم مرتبط بقوة بمفهوم أخر قريب ووثيق الصلة به وهو **الدفاع المنهجي في المناطق الجبلية**، ونتيجة لذلك دخل الموضوع في مجال الخيال، وبذا امتزجت به موضوعات عديدة وعناصر تعبوية ذات علاقة بالحروب الجبلية، وحصيلة ذلك كانت استبدال النقاط العاليه على الطريق كنقاط مفتاحية للمنطقة بمعنى أو مفهوم النقاط العاليه في سلسلة جبلية – وبكلمة اخرى، خطوط تقسيم المياه (Watershed) .

بدأت في ذلك الوقت بالذات، اي نهاية القرن الثامن عشر، نظريات جديدة حول تشكل سطح الارض بفعل عمليات التعرية والتأكل، بالظهور والانتشار. واصبحت العلوم الطبيعية حليف جيد للتاريخ العسكري، في تكون هذا النظام الجغرافي بشكل يشبه تحطم سد كان يختزن المدارك العملية، فانطلقت المناقشات الموضوعية وسط فوضى الاوهام المستندة على العديد من الامثلة والتشبيهات الجغرافية. لذلك بدأنا نسمع في اواخر القرن الثامن عشر – او بالاحرى نقرأ – الكثير والمبالغ فيه عن منابع نهري الدانوب والراين. وقبلنا بظهور تلك السخافات والاشياء الساذجه وبصورة رئيسية وملحة في الكتابات العسكرية، رغم ان القليل جداً من تلك النتف التي زخرت بها الكتب التعليمية كانت متطابقة والحياة العملية نوعا ما؛ وكلما زادت

---

(١) اثرنا استعمال النقطه المفتاح لا الحيويه لاقتران الارضي الحيوية عادة بمنظومة دفاعية اما المفتاح فاوسع شمولاً وحتى اكثر عدداً وقد تعد لمنطقة واسعة او بلاد كاملها كان تعد في مستوى استراتيجي لو اعتبرنا الارض الحيوية من موضوعات وانطقة التعبية . المترجم

النظرية او غرقت في السخافات كلما قل ما نفيده منها. رغم ان النظرية موضوعة البحث تمتلك وبشكل خاص بعض التأثيرات والنتائج العملية، في المانيا. وكي نثبت باننا لا نقاتل طواحين الهواء، لنستشهد هنا بمثالين اثنين حقيقين؛ **الاول**؛ الحملة البالغة الاهمية والتي روعيت فيها النظرية بشكل رائع في « الفوج» عامي ١٧٩٣ – ٩٤ (والتي تعد كتابات الجنرال البروسي كراويرت، والعقيد البروسي ماسينباخ افضل المراجع النظرية لدراستها). **والثاني**، وهي حملة عام (١٨١٤)، وعندما أجبر جيش تعداده (٢٠٠) الف رجل وانصياعاً لهذه النظرية بالقيام بمسيرات خرقاء عبر سويسرا للوصول الى لانكريه (الفرنسيه).

فاعلى نقطه في منطقة ما، او خط تقسيم المياه، ليست عادة اكثر من ذلك. وكلما كتب على مدى القرن عن اهميتها وتأثيرها على الشؤون العسكرية ليس سوى مبالغات، وتطبيق خاطىء لفكرة جيدة، وكل ذلك لا معنى له ولا عملي. فلو قبل نهرا الراين والدانوب، وكل انهار المانيا الستة كذلك إيلاء **جبل واحد** بشرف كون قمته منبعاً رئيسياً لها، فلن تزيد قيمة هذا المنبع العسكرية شيئاً وستظل بعد كل شيء مكاناً لنقاط تثليثية مما تستخدم في المساحة. كما ستكون لها قيمة صغرى اخرى كمكان منتخب لبرج منفرد، لا يزيد عن كونه مجرد موقع للرصد وليس كمكان لجيش بكامله.

لو بحثنا عن موقع مفتاح في ما يعرف بمنطقة حيوية – بكلمة اخرى في نقطة التقاء (عقدة) عدة سلاسل جبلية وحيث توجد اعلى منابع الانهار – فلن يعني سوى تطبيق جامد ولا عملي للكراسات التعليمية؛ وترفضها حتى الطبيعة نفسها؛ فهي لن تجعل القمم والوديان اسهل في المرور والوصول اليها من الاعلى كما كان يعتقد حتى الان فيما عرف بنظرية الارض، بل تتناثر الذرى والمضائق كيفما اتفق، وغالباً ما تقع اخفض البحيرات وسط اعلى الامتدادات (السيوف Massif) الجبلية. ولو عدنا الى التاريخ العسكري، فسنجد ان العوارض الارضية (الجيولوجية) البارزة نادراً ما تؤثر على الاستخدامات العسكرية بشكل ثابت ومنتظم، وما لها من تأثيرات قليله يقابل بمتطلبات محلية وعوامل اخرى. وغالباً ما ستمر الخطوط الحربية قريباً جداً من عوارض من ذلك النوع دون ان تؤثر عليها او تغريها باي عمل ما.

لندع الان هذه الفكرة المغلوطة بعد ان اطلنا البحث فيها وذلك بسبب ان منظومة ممتازة بكاملها قد تطورت منها. ولنعد الان الى وجهة نظرنا الخاصة.

وللتذكرة نؤكد، ان كان مصطلح «الموضع المفتاح» سيرقى الى ان يصبح مفهوماً استراتيجياً مستقلاً، فكل ما يمكن ان يعنيه هو منطقة ما، يتوجب احتلالها قبل المخاطرة بالتقدم في ارض العدو، اما ان كانت الفكرة ستتسع من ناحية اخرى، لتشمل اية نقطة يسهل منها النفاذ الى المنطقة، او نقطة حيوية ومركزية لاخلاف حول اهميتها، فان المصطلح يبدأ بفقدان معناه الواضح والمحدد، وتقل قيمته بالتالي تبعاً لذلك، وسيرمز بعد ذلك فقط الى شيء يمكن ان نجده في كل مكان تقريباً، ولن يغدو اكثر من عبارات مقنعة وحسنة الصياغة.

اما الموضع الذي نتصوره، فنقر بانه مما لا يمكن العثور عليه بسهولة. فالمفتاح الحقيقي الى ارض العدو هي عادة جيشه، فان كانت الارض ستحتل اسبقية على القوة العسكرية، فيجب ان تكون تلك الارض من النوع الذي يعد بظروف مفيدة بشكل استثنائي. فان توفرت ارض كهذه فسيمكن عندها تحديدها بسمتين مهمتين للغاية، **الاولى**، وهي ان المقاومة التي ستبديها القوة المنفتحة في ذلك المكان المعني ستحسن وتزداد قوة بفعل اسناد ودعم الارض لها، **والثانية**، هي ان الموضع يهدد بقوة وفاعلية خطوط مواصلات العدو، قبل ان يهدد ذلك العدو خطوط مواصلاتنا.

الفصل الرابع والعشرون

العمليات على الجناح

لسنا بحاجة ملحة للتأكيد على أن المقصود في مناقشتنا هذه هو الجناح الاستراتيجي – بكلمة اخرى، جناح (جانب) مسرح العمليات، ولا علاقة لذلك بهجوم على الجناح في معركة، لان ذلك من موضوعات التعبية، وحتى لو تزامن الهجوم على جناح استراتيجي وفي مراحله الأخيرة مع هجوم على جناح تعبوي فيمكن وبسهولة ابقائهما منفصلين ومتمايزين، لان أحدهما لن ينتج أو يتطور تلقائياً عن الاخر.

تعد تلك العمليات على الاجنحة والمواضع الجانبية التي تتواجد معها من الفرص السعيدة التي يتلقفها الكتاب والمنظرون، والنادرة والوقوع في الحروب الحقيقية. والسبب هو ليس انها بلا فاعلية أو مجرد وسائل واساليب عقيمة، ولكن لان الطرفان يتخذان الكثير من التدابير لمواجهتها، والحالات التي تعذر فيها اتخاذ التدابير والتحوطات فيها نادرة للغاية. وحتى في تلك الحالات النادرة، كانت التدابير المتخذة شديدة التأثير بطبيعة الحال، فلهذا السبب، **وللتنبه الثابت** الذي تسببه أثناء الحرب، كان على المفكرين تحديد وتعريف الموضوع باكبر قدر من الوضوح. ومع أن العمليات على الاجنحة الاستراتيجية ممكنة في الهجوم وكذلك في الدفاع الا ان لها علاقة اقوى واشد مع الثاني، ولذا لا بد أن تأخذ مكانها بين الطرق الدفاعية.

لا بد من تذكر عنصر واحد وبسيط قبل المضي في الموضوع – وهو عنصر لا يجوز تجاهله في المناقشات التالية أبداً؛ وهو أن القوات التي ترسل للعمل ضد اجنحة ومؤخرة العدو لن تكون متيسرة لاستخدامها ضد جبهته. لذلك سيكون من الخطأ تماماً، في التعبية وفي الاستراتيجية معاً، التفكير **بان الانقضاض على مؤخرة العدو يُعدّ المجازاً بذاته**. فلا قيمة له وحده كعمل مستقل ومنعزل، بل سيغدو فعالاً ومؤثراً متى ارتبط مع عوامل أخرى، واكثر من ذلك فهو واعتماداً على تلك العوامل الاخرى، قد تكون قيمته ايجابية او سلبية. وذلك بحاجة الى تفحص الان.

اولاً وقبل كل شيء يجب التمييز بين وجهين لتأثير عملية على جناح استراتيجي؛ هما التأثير على **خطوط مواصلات** العدو فقط، والتأثير على **خطوط**

تراجعه – والتي قد تكون لها بالمقابل تأثيرات على المواصلات.

عندما كان الجنرال النمساوي دوان يرسل بعضاً من قواته للأغارة على قوافل الامداد والتموين البروسية المرسلة لاسناد القوات البروسية التي تحاصر (اولمتز) عام ١٧٥٨؛ كان من الواضح انه لم يكن مهتماً بقطع خطوط انسحاب فردريك الكبير نحو سليزيا؛ بل وعلى العكس كان بوده أن يحدث ذلك وكان على استعداد لتسهيل الامر عليهم.

اما في حملة ١٨١٢ فقد كانت الغاية الوحيدة من ارسال قوات الاغارة التي اخرجها الجيش الروسي في شهري ايلول وتشرين اول فهي لارباك ومهاجمة مواصلات الفرنسيين – وليس لقطع خطوط تراجعهم. الا ان ذلك كان هدف جيش (مولداو) الذي تقدم نحو (بيرسينا) تحت قيادة الادميرال شيشكوف، وكما هو واضح، كان ذلك ايضاً الهدف الذي توخاه الجنرال فيتنشتاين من الهجوم الذي امر به ضد الفيلق الفرنسي عند نهر دفينا.

لقد اوردنا المثالين الانفين لايضاح النقطة.

يستهدف الضغط على خطوط مواصلات العدو مهاجمة قوافل الامدادات، والمفارز الصغيرة التي في مؤخرات الجيش، والسعاة وقوافل البريد، والمسافرين، ومستودعات العدو الصغيرة وما شاكل ذلك – اي كلما من شأنه في الحقيقة ان يساعد الجيش في تأمين احتياجاته لابقاء قطعاته في حالة جيدة وحيوية، ويعني الضغط بذلك عرقلة الظروف العادية لقوات العدو، وبالتالي دفعه الى الانسحاب.

اما الضغط على خطوط الانسحاب فيعني ايقاف وعرقلة إنسحاب الجيش؛ ويمكن فعل ذلك فقط في حالة عزم العدو على التراجع فعلاً. ومع ذلك فالتهديد بذلك قد يدفع العدو الى الانسحاب. وهكذا، فقد يؤدي التظاهر بفعل ذلك نفس ما يؤديه الضغط الفعلي على خطوط المواصلات. ومع ذلك، وكما سبق لنا القول، لا يمكن ان نتوقع أن ينتج اي من تلك التأثيرات من مجرد احاطة موقع العدو، أو من مجرد ترتيب هندسي معين للقطعات، بل لا يمكن التوصل اليها او تحقيقها الا عند توفر ظروف معينة.

وكي نجعل تفهم تلك الظروف المتوخاة ايسر سنبقي نوعي العمليات على الاجنحة منفصلين، ونبدأ بتفحص تلك الموجهة منها ضد خطوط المواصلات.

لنتمعن في البداية في شرطين رئيسين، لا بد ان يكون أحدهما متوفراً:

الاول هو إمكانية تحقيق التأثير ضد جناح العدو بمفارز صغيرة من القطعات والتي لا تبدو لها أية اهمية من حيث العدد، كما لا تترك أي أثر كما لا يحس بفقدانها من قوات الجبهة.

والثاني أن يكون هجوم العدو قد وصل آخر الشوط، ولم يعد قادراً على استثمار انتصار جديد على قواتنا، أو على مطاردتنا ان كنا قررنا الانسحاب.

والشرط أو الحالة الثانية ليست نادرة جداً كما سيتبادر الى الذهن، ولكننا سندعها جانباً الان ولنبحث في الشروط الاضافية للشرط الاول.

الاكثر اهمية من تلك الشروط المسبقة هو أن تكون خطوط مواصلات العدو طويلة جداً – أطول من أن يمكن سترها بعدد قليل من المواقع الجيدة، والشرط الاخر أن تكون في اماكن يسهل تعرضها لهجماتنا.

يؤدي ذلك بالمقابل لان يفرض عاملان أخران نفسيهما هنا؛ **الاول** ان لا يكون اتجاه المواقع عمودياً على جبهة العدو، والثاني هو أن خطوط المواصلات قد تكون في أرض العدو. فان تحقق العاملان أو الشرطان فستكون خطوط مواصلات مكشوفة بدرجة اكبر. وكلا الشرطان يستحقان بحثاً اكثر تفصيلاً.

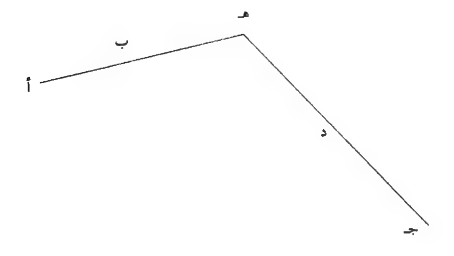
عندما تكون خطوط المواصلات الواجب حمايتها بطول (٢٠٠ الى ٣٠٠) ميلاً، فمن الصعوبة بمكان أن يهتم المرء فيما اذا كان الجيش على النهاية البعيدة لها سينفتح بزاوية عمودية عليها ام لا؛ والامتداد الكلي لموضعه مجرد نقطة محسوبة نسبة الى طول الخط. الا ان لذلك في الواقع اهمية ومغزي كبيرين، فلو جرى انفتاح الجيش بزاوية عمودية على خطوط مواصلاته، فسيكون من الصعب عندها، وحتى على عدو متفوق عددياً ارباك او تعطيل الخط، وبواسطة جماعات الاغارة. لو تمعن المرء في معضلة توفير الحماية المطلقة فقط لمنطقة معينة، فمن الصعب تصديق ذلك، بل وعلى العكس، اذ سيبدو ان الجيش سيتعرض لضغط شديد، في المؤخرة – اي المنطقة الى خلفه – من جميع الغارات التي يستطيع العدو القوي شنها. وهذا صحيح تماماً فقط لو كانت الحرب مما يمكن التنبؤ بها في الحياة الحقيقية كما هو الامر في الكتب!. في تلك الحالة سيكون الطرف الذي عليه حماية خطوط مواصلاته، في حالة شك دائم عن المكان الذي تأتيه منه الغارات – فهو عملياً كالاعمى مقارنة بالمغيرين. لكن لو تمعنا في لا واقعية وعدم دقة الاستخبارات في الحرب ووصولها على شكل نتف صغيرة، وان نتذكر كلا الطرفين وكأنهما يتلمسان طريقهما وسط الظلام، فسندرك بسرعة بان

المجموعة التي أرسلت حول جناح العدو، للغارة على مؤخرته، تشبه رجلاً في غرفة مظلمة وسط عصابة معادية. اذ سينالون منه في النهاية. سينتظر الغزاة نفس المصير، اذ وحالما يستدير هؤلاء حول مواضع العدو العمودية، سيقعون تحت رحمته، في الوقت الذي يبعد فيه اصدقائهم عنهم كثيراً، ولن يتعرضوا هنا لخطر الخسائر الجسيمة فقط، بل أن آلية العمل باجمعه تتعرض للدمار، وحال تعرض اي قسم من المجموعة (الغارة) لمشكلة ما سيصاب الباقون بالهلع. وبدلاً من رؤية هجوم جزيء، وتحرشات او اشتباكات شجاعة، سنشهد وبدلاً عن ذلك مجرد محاولات متتابعة للهزيمة.

بهذه الطريقة توفر المواضع والترتيبات العمودية لجيش ما، حماية (تغطية) اقرب النقاط من خطوط مواصلاته، وحتى لمسافة، مسير يومين او ثلاث، واعتماداً على حجم الجيش. ذلك لأن تلك النقاط الاقرب هي الاكثر تعرضاً للأخطار الانية، لانها كذلك الاقرب الى العدو ايضاً.

من الناحية الاخرى، وفي حالة القرار على اختيار الترتيب المائل، فلن يمكن عندها ستر اي جزء من خطوط المواصلات بهذه الطريقة. كما ان اقل قدر من الضغط، او حتى اضعف محاولة يقوم بها العدو وحتى ان كانت للمخادعه، تشكل تهديداً مباشراً لبعض النقاط الواهنه.

فما العامل الحاكم الذي سيقرر جبهة الموضع، ما لم تكن الزاوية العمودية التي يشكلها مع خطوط مواصلاته؟ انها جبهة العدو بطبيعة الحال – رغم انها وبالمقابل قد تعد هي الاخرى مشروطة بجبهتنا نحن. هنا يبدأ تفاعل متبادل يتوجب علينا تحديد اسبابه.



لنفترض ان خطوط مواصلات العدو (أ – ب) قد اقيمت لتشكل زاوية منفرجة مع خطوط العدو (جـ – د). فلو اراد المدافع اشغال موضع في (هـ) اي في نقطة التقاء الخطين، فمن الواضح ان بوسع المهاجم، ومن الموضع (ب)، وبفعل العلاقة الهندسية وحدها، اجبار المدافع على مواجهته بجبهته، وبالتالي كشف خطوط مواصلاته.

ينعكس الامر تماماً لو أشغل المدافع موضعه في مكان ما ادنى من نقطة الالتقاء (هـ) ولنقل في (د)، فان جبهة المهاجم في هذه الحالة هي التي سيكون عليها مواجهة جبهة المدافع – شرط عدم قدرة المهاجم على تغيير خط عملياته (الذي يعتمد اساساً على طبوغرافية الارض) كيف يشاء، بجعله ماراً على سبيل المثال من (أ – د)، وعلى المرء ان يستنتج من ذلك بان لعبة التفاعل المتبادل هي لفائدة المدافع، اذ لا يحتاج هذا الا لأحتلال موضع ما في مكان أدنى من نقطة المفصل (هـ). ولسنا نولي المناقشة الهندسية هذه، الكثير من الاهمية، ولم نوردها هنا الا لجعل الامر اكثر وضوحاً. ونحن على قناعة تامة بان موضع المدافع سيتأثر كثيراً وبقوة باعتبارات محلية معينة واعتبارات اخرى، وعليه فلا يمكن استنتاج قاعدة محددة لبيان اي من خطي المواصلات هو الاكثر تعرضاً للأنكشاف.

اما ان سار خطا المواصلات في اتجاه واحد، فالطرف الذي سيكون موضعه عمودياً على ذلك الخط سيجبر الطرف الاخر بطبيعة الحال على فعل الشيء نفسه. لكن ما من فوائد هندسية في هذه الحالة. اذ ستكون الفوائد والمحاذير متساوية للطرفين.

لذلك سنقصر تحليلاتنا التالية على المواقف التي ينكشف فيها خط مواصلات احد الطرفين فقط.

ففي النوع الثاني من وهن خطوط المواصلات – عند مروره في ارض معادية – سيمتد هذا الوهن حيثما كان الشعب مسلحاً وكما هو واضح؛ ويتوجب على المرء التعامل مع الموقف وكأن قوات العدو باكملها قد توزعت على طول الخط كله. وقد تكون هذه القوات قليلة عددياً، ويعوزها العمق الكافي لمتابعة ما جاءت لاجله، ولكن فكر فيما يمكن أن يعنيه التدخل المستمر ضد خط مواصلات وفي نقاط عديدة منه: ما من حاجة بنا للتوسع هنا. لكن وحتى لو لم يسلح الشعب المعادي، كما لا توجد اية منظمات مسلحة (ميليشيا) او اي شكل اخر من الاسناد العسكري في المنطقة – اي حتى ان لم يكن لدى الشعب اي ميل حقيقي للحرب – فسيبقى ميله المجرد للعدو ضرراً ملموساً لخطوط مواصلات الجانب الاخر. اما المساعدة المتيسرة لقوة الغارة التي

تحسن نطق اللهجة المحلية، وتعرف المنطقة والسكان، وقادرة على استلام الرسائل، وتحظى بدعم السلطات المحلية، فبوسع هذه المساعدة ان تفعل وتقدم الكثير لمفارز صغيرة كهذه، والتي يمكن الحصول عليها بسهولة ويسر. واكثر من ذلك فقد تكون هناك وعلى مقربة من ساحة العمل، قلاع، أو أنهار، أو جبال، ونقاط اخرى مما يمكن اللجوء اليها وان ما زالت بيد العدو، ما لم يكن هذا العدو قد اتم احتلال تلك النقاط بفاعلية ووضع فيها حاميات كافية.

ففي حالة كهذه، وخصوصاً عند توفر ظروف أخرى ملائمة لنا، بوسعنا العمل ضد خطوط مواصلات العدو حتى لو كانت هذه عمودية على جبهته، وليس على قواتنا المغيرة أن تتراجع دائما نحو قواتها، إذ بوسعها العثور على العديد من المأوي للأختباء كما بوسعهم وببساطة الاختفاء والانتشار وسط الريف.

يفتح ذلك امامنا ما يلي:

١ . طول كبير

٢ . اتجاه مائل، و

٣ . ارض معادية

كشروط رئيسية تعرض الجيش الذي تنكشف خطوط مواصلاته لمشاكل تسببها له قوات صغيرة نسبياً. ولجعل هذا الارباك مؤثراً لا بد من توفر شرط رابع – هو الكثير من الوقت. وحول هذا الموضوع نذكر القارى بالفصل الخامس عشر من الكتاب الخامس.

الا ان الشروط الاربعة انفة الذكر، هي العوامل البارزة والكثيرة الاهمية التي توثر على الموضوع؛ ويرتبط بها عدد كبير من الظروف المحلية والمنفردة، والتي غالباً ما تكون اكثر اهمية واوسع مضموناً من شروطنا الاربعة. ولنكتفي بذكر الاكثر اهمية من بينها، ولندرج هنا منها؛ حالة الطرق؛ وطبيعة المنطقة التي تتخلها هذه الطرق، والاستار التي توفرها الانهار، والجبال والمستنقعات، والموسم والطقس، واهمية قوافل وارتال معينة (كارتال الحصار)، وعدد القطعات الخفيفة، وغير ذلك.

ستقرر كل هاتيك العوامل النجاح الذي بوسع القائد ان يعمل ضمنه ضد خطوط مواصلات العدو. بوسع المرء وبعد اخذه مجموع تلك الاقسام لدى الجانبين وموازنتها في مقابل بعضها البعض، الخروج بموازنة فيما بين منظومتي المواصلات.

وستقرر هذه الموازنة، اي القائدين سيتفوق على الاخر بهذا الخصوص.

مع ان عرضنا للموضوع يبدو طويلاً الى حد ما، الا ان القرار في الحياة العملية قد لا يحتاج لاكثر من اللمحة الاولى. الا ان ذلك يتطلب حكماً مدروساً بتأني، ولعل التمعن في كافة الحالات والامثلة التي عرضت هنا ستؤمن رداً على المناقشات العقيمة للنقاد والكتاب الذين يحسبون أن بوسعهم بحث ومعالجة الموضوع دونما تفحص دقيق بل بمجرد الاكتفاء بذكر «احاطة الجناح» و «العمليات ضد الاجنحة».

علينا الان تفحص الشرط الرئيسي الثاني في العمليات ضد الاجنحة الاستراتيجية (وصول هجوم العدو أخر الشوط).

فلو منع العدو من متابعة تقدمه بشيء اخر عدى دفاعنا نحن – وبغض النظر عما هو ذلك الشيء – فليس لنا ان نخشى بعد احتمال اضعاف قواتنا بما قد تخرجه منها من مفارز قوية. وحتى لو أمل العدو احراجنا وتكبيدنا بعض الخسائر بشنه لهجوم ما، فبوسعنا وببساطة التخلي عندها عن بعض الارض، او التخلي عن المعركة. وهذا ما فعله الجيش الروسي قبل معركة موسكو. الا ان الابعاد الهائلة والظروف التي رافقت تلك الحملة ليست قياسية. اما خلال الحرب السليزية الاولى، (١٧٤٠ – ٤٢) فقد وجد فردريك الكبير نفسه في ظروف مشابهة وموقف مثل هذا باستمرار في جبهتي بوهيميا، ومورافيا. وبوسع الناقد تحديد مجموعة واسعة ومتنوعة من الاسباب، وعلى الاخص السياسي منها، التي تسود العلاقات المعقدة ما بين القادة (الجنرالات) وجيوشهم، والتي تجعل اي مزيد من التقدم مستحيلاً.

يمكن في حالات كهذه استخدام قوات كبيرة في العمليات ضد الاجنحة، ولذلك فلا حاجة بنا لأنتظار ظروف اخرى ملائمة لنا. بل وليس من حاجة بنا كذلك لأن تكون الموازنة بين منظومتي مواصلاتنا والتي للعدو في صالحنا، فليس بوسع العدو الاستفادة من انسحابنا كثيراً، او للأنتقام منا. بل سيركز معظم اهتمامه بالتغطية المباشرة لانسحابه.

لذلك فموقف كهذا مناسب جداً لحسم الامر دون معركة، قد تكون بالغة الخطورة؛ موقف يجعل من السهل استخدام بعض الوسائل الاقل براعة، والابعد أثراً، والاوسع نطاقاً، لكن وفي الوقت نفسه الأقل خطورة من انتصار مدوي.

ليس اتخاذ موضع على احد الاجنحة في حالة كهذه من الامور الخطيرة، حتى

مع إنكشاف خطوط المواصلات، اذ سيؤدي ذلك وعلى الدوام الى جعل جبهة العدو مائلة على خطوط مواصلاته هو – فمن بين الشروط التي أُدرجت أعلاه **يتميز هذا الشرط بشكل خاص** بحضوره الدائم في كل الاوقات تقريباً. وتزداد احتمالات النجاح بنسبة طردية مع التأثير الذي للعوامل الاخرى سوية مع الظروف الملائمة الاخرى؛ والى الحد الذي لو لم تكن هذه موجودة، فسيعتمد كل شيء على تفوق ومهارة التخطيط وعلى سرعة ودقة التنفيذ.

وذلك هو الميدان الاكثر ملائمة للمناورات الاستراتيجية التي غالبا ما نفذت خلال حرب السنوات السبع، في اعوام، ١٧٦٠، ١٧٦٢ في سليزيا وساكسوني. وحقيقة كون تلك المناورات كانت شائعة للغاية في الحروب المتوسطة الشدة. ينبغي ان لا تؤخذ باستمرار كدليل وبينة على ان القادة الذين استخدموها قد بلغوا اعلى الشوط في مهنتهم. لانها قد تعني كذلك نقص في الحسم والشجاعة والاقدام، وقلة رغبة في تحمل المسؤولية، لعبت دورها كعامل اعاقة حقيقي. ولسنا في حاجه لاكثر من الاستشهاد بحالة الماريشال النمساوي داون.

لايجاز نتائج هذه المناقشة، لا بد من القول بان العمليات على الاجنحة كثيرة الفائدة:

١ . في الدفاع.

٢ . عند نهاية الحملة.

٣ . خصوصاً عند التراجع الى داخل البلاد. و

٤ . بالارتباط مع حروب العصابات (العصيان المسلح)

تكفينا هنا بضعة كلمات حول تنفيذ مثل هذه العمليات ضد خطوط المواصلات.

( ) عند بحث صفحات القتال يلاحظ وجود الكثير من المبالغة والتطرف بل واللامعقولية في تعداد المحاسن والمساوىء، فعند بحث الدفاع نجد ان بوسعنا تأمين منظومة دفاعية تهزأ بوجه كل هجوم وان اقوى الاسلحة اعجز من ان تفعل شيئاً، وعند بحث الهجوم ترى ان أقوى الدفاعات ليست سوى هباء ودخان. وقد تناولت ذلك وبشيء من السخرية في مقال في مجلة الركن العراقية عام ١٩٦٨. ويبدو ان هذا المسلك عام منذ عصر كلاوزفيتز وحتى الان. ورغم اهمية هذا الاسلوب في اظهار الجوانب الايجابية لاي صفحة الا ان التطرف قد يدفع بنا الى متاهات ومزالق خطيرة في الحياة العملية. المترجم

يجب اناطة تنفيذها الى مغيرين ماهرين يجب ان يتحركوا بشجاعة في مجموعات صغيرة وتهاجم بعنف وجرأة، مركزين هجماتهم على حاميات العدو الضعيفة، وارتاله ووحداته الصغيرة المتنقلة. على ان يراعوا تشجيع ودعم قوات الحرس الوطني في قواطعهم ويشركونهم في حالات معينة في عملياتهم. المهم في هذا هو عدد الوحدات (المجموعات) المغيرة لا قوة كل منها، وان تنظم بشكل يسمح بجمع عدة وحدات منها لتنفيذ عمليات رئيسية دون الكثير من التأخير بفعل النزوات والامزجة التافهة والكبرياء السخيفة لقادة تلك المجموعات.

اخيراً لا بد من تفحص تأثيرها على خطوط انسحاب العدو.

هنا ينبغي على المرء بشكل خاص ان يتذكر المبدأ الذي اشرنا اليه في البداية، اي ان القطعات التي تستخدم ضد مؤخرات العدو، لا يمكن استخدامها ضد جبهته؛ ونعني بذلك بان تأثيرات الاعمال خلف او على اجنحة العدو لن تؤدي بذاتها الى مضاعفة قواتنا. بل انها ستزيد من قدراتها الى درجة اعلى من القوة – اي الى مستوى قد يجعل الانتصار ممكنا، ولكنه علو قد يصل حداً من الخطورة ايضاً.

كل مقاومة مسلحة، وعدى النوع البسيط والمباشر منها، تنحو الى تأزيم الموقف وتزيد المخاطر كذلك. تنطبق هذه القاعدة على عمليات الاجنحة وسواء نفذت من قبل القوة موحدة بكاملها، او بقوات مجزأة تهاجم وتحيط من عدة جوانب.

لقطع خطوط انسحاب العدو – ان كانت العملية جادة وليست مجرد مظاهرة – فافضل الحلول هو معركة حاسمة، او على الاقل التهيؤ لها. اذ وفي هذا الحل يعود عنصرا التأزم الحاد والمخاطر الكبيرة الى الظهور سوية مرة اخرى. والظروف الملائمة وحدها هي التي ستبرر للقائد استخدامه لهذه الطريقة.

يجب أن يميز المرء في هذه الطريقة ما بين الشكلين اللذين أشرنا اليهما. ويظهر أولهما عندما يقرر قائد ما مهاجمة العدو من الخلف بكل قوته، اما من موضع جنبي أشغل وفكرة استخدامه لهذا الغرض مثبتة منذ البداية، أو بحركة احاطة واسعة النطاق. ويظهر الثاني عندما يقسم قوته مستخدماً جزءً منها في موضع احاطة، مهدداً بذلك مؤخرة العدو بجزء من القوة ومهدداً جبهته بالجزء الآخر.

التأثير متعادل الشدة والكثافة في الاتجاهين؛ فقد يقطع خط التراجع تماماً، وفي كل الحالات فان قسماً كبيراً من قوة العدو سيؤسر او يتبعثر؛ أو أن العدو ولتجنب

مخاطر كهذه سيحاول الاسراع بالانسحاب ولمسافة طويله.

والخطر مختلف بطبيعة الحال في كل من هذه الحالات.

فلو استخدم القائد كل قوته للأحاطة بالعدو، فسيتعرض بالمقابل لانكشاف مناطقه الخلفية. ومرة اخرى يعتمد كل شيء على العلاقة ما بين خطي التراجع، كما في حالة توازن التأثير على خطوط المواصلات، والعامل الحاسم هنا علاقة كل منهما بالاخر.

فالمدافع الذي يقاتل فوق ارضه هو بطبيعة الحال أقل تحدداً من المهاجم فيما يتعلق بخطوط المواصلات والتراجع والى الحد الذي يعد المدافع فيه بوضع افضل لحركات الاحاطة الاستراتيجية. الا ان هذه العلاقة العامة ليست قوية الى حد تشكل معه اساساً لمنظومة فعالة. ومرة اخرى نقول بان الحالات المنفردة ستقرر وفقاً لظروف كلا منها فقط.

سنضيف الى ذلك وببساطة ما يلي. يسهل بطبيعة الحال توفر الظروف الملائمة في المناطق الواسعه لا المحدودة؛ كما انها توجد في الدول القوية والمستقلة لا في الدول الضعيفة التي تعتمد على العون الخارجي، والتي على جيوشها تبعاً لذلك وفوق كل شيء تأمين نقطة اتصالها مع حليفاتها. واخيراً فان الكثير من الظروف الملائمة للمدافع لن تتحقق الا عند نهاية الحملة وعندما يستنفذ المهاجم قوته – ومرة اخرى يشابه ذلك كثيراً ما يحدث في حالة خطوط المواصلات.

اما الموضع الجنبي وكالذي اتخذه الروس بشكل جيد على طريق موسكو – كالوجا عام ١٨١٢، وبعد تباطيء هجوم نابليون، فكان سيغدو خطأ كبيراً في معسكر (دريسا) في بداية تلك الحمله لو لم يسرع الروس وبكل حصافة الى تغيير خطتهم في الوقت المناسب.

يستلزم الشكل الاخر من حركات التطويق وقطع خط التراجع قسم (فرقة) من القوة. ويكمن الخطر هنا في الفرقه نفسها، اذ للعدو ميزة، في قدرته على حشد خطوطه الداخلية وتأمين تفوق عددي ضد أي جزء من قوات خصمه. ولا يمكن تجنب هذه المخاطرة التي توجد مع ذلك ثلاثة أسباب يبرر كلا منها التعرض لها:

١ . يجعل التقسيم المسبق للقوات هذا النوع من العمليات ملزما ان كان المرء يود تجنب ضياع الكثير من الوقت.

٢ . سيبرر التفوق المادي والمعنوي الكبيرين اتخاذ اجراءات شديدة كهذه.

٣ . تضاءل قوة الدفع والحماس لدى العدو حال تنفيذ الهجوم.

لم يكن فردريك الكبير ينوي الجمع بين هجومه الجبهوي وهجوم اخر ضد مؤخرة العدو الاستراتيجية عند غزوه لبوهيمياً بمناورة على الطرق الداخلية (المتقاربة) عام ١٧٥٧، أو على الاقل لم يكن ذلك هاجسه الرئيسي (وكما سنظهر ذلك في مكان اخر وبتفصيل اكبر)، ومن الواضح ان لم يكن لنابليون من مجال وفي جميع الاحوال لحشد قواته في سليزيا او ساكوني قبل بدء الغزو، لان ذلك كان سيفقده كل فوائد المباغتة.

عند تخطيط قوات التحالف البدء بحملة ١٨١٣ ضد نابليون، كان تفوقهم المادي الهائل يملي عليهم توجيه القسم الاكبر من قواتهم ضد جناح نابليون الايمن المستند على نهر ايلب، كي يحولوا مسرح العمليات من (الأودر) الى (الايلب). ولم يكن تحركهم المعاكس عند دريسدن[1] منسجماً مع الخطة العامة، بل تم بفعل تدابير استراتيجية وتعبوية جرى تنفيذها. كان مجموع ما تم حشده لمواجهة نابليون في النهاية عند دريسدن هو (٢٠٠) الف رجل ضد (١٣٠) الفاً – وهي نسبة جيدة يفترض ان لا تثير أية مخاوف، إذ لم تكن حصيلة مقارنة قوات الطرفين أفضل من ذلك كثيراً في (لايزك) – (٢٨٥) الفاً ضد (١٥٧) الفاً. صحيح ان نابليون قد وزع جيشه بشكل متوازن يتيح له التحرك بفاعلية على طول خط دفاعي واحد، اذ كان لديه (٧٠) الف رجل ضد (٩٠) الف رجل في سليزيا، و (٧٠) الفاً في مارك اوف براندينبورغ ضد (١١٠) الفاً، لكنها كانت من المواقف الصعبة عليه – فقد أوشك على التخلي عن سليزيا – ولم يكن قادراً على حشد جيشه على نهر الايلب بشكل يمكنه من معالجة القسم الاكبر من قوات التحالف بضربة حاسمة، وفوق ذلك، كان التحالف قادراً وبسهولة على ارسال جيش الامير كارل فريدي الى نهر (مين Main) في محاولة لقطع طريق نابليون الى (مينز).

كان الروس قادرون عام ١٨١٢ على توجيه جيش (مولداو) نحو (فولهاينيا) وليتوانيا على أمل إستخدامه فيما بعد في مؤخرات الجيش الفرنسي؛ ما دام بوسع الروس الافتراض دون تردد بان موسكو ستكون نهاية الشوط (نقطة الذروة) في

(١) معركة دريسدن – راجع الهامش ص ٢٩٥ – لملاحظة الفرق الكبير بين التخطيط والتنفيذ عند نابليون اولاً وفي عجزه عن استثمار واحد من اكبر انتصاراته التعبوية المستند الى مفهوم استراتيجي رائع. المترجم

التعرض الفرنسي. ولم يكن الروس يخشون اية مخاطر فيما وراء موسكو، لذا لم يقلق الروس ما كانت عليه حالة قواتهم الرئيسية من وهن في هذه الحملة.

اعتمدت خطة الدفاع الاساسية (الروسية) التي اعدها الجنرال (فول)[1] على نفس ترتيب القطعات؛ اذ يحتل جيش الماريشال باركلي معسكر دريسا، بينما يتقدم الجنرال (بكراشون) ضد مؤخرة قوة العدو الرئيسية. لكن ما الاختلاف بين هذين المثالين!. كان الفرنسيون في المثال الاول ثلاثة اضعاف القوة الروسية، اما في الثاني فقد كان الروس يتفوقون بشكل متميز على الفرنسيين. كما كان لدى الفرنسيين في المثال الاول دوافع قويه قادتهم حتى موسكو، على مبعدة (٤٠٠) ميلاً من دريسا، اما في الثاني فما كانوا قادرين على مواصلة المسير ليوم أخر من موسكو. لم يكن خط التراجع نحو نيمين في المثال الاول ليزيد عن (١٥٠) ميلاً، بينما اصبحت (٥٠٠) ميلاً في الثانية. لذا فان نفس هذه الحملات التي انتهت بشكل موثر للغاية ضد تراجع الفرنسيين في النهاية، كان يمكن أن تكون عمليات بالغة الحماقة في البداية.

يتشكل العمل ضد خطوط تراجع العدو (ان اريد تنفيذه بشكل وابعاد تتجاوز مجرد مظاهرة عامة) من هجوم حقيقي ضد مؤخرة العدو. ويمكن الافاضة كثيراً حول هنا الا ان كتاب الهجوم اكثر ملائمة لذلك. لذا سندعه الان، ولنكتفي بما اوضحناه حول الشروط والظروف التي ينفذ فيها عمل من هذا النوع.

عند مناقشة هذا الموضوع جرى تناوله على انه مجرد مظاهرة اكثر من كونه هجوماً حقيقياً – بهدف دفع العدو للتراجع. فلو اريد لكل مظاهرة ان تكون فعالة فيجب تنفيذها وكأن هجوماً حقيقياً قيد التنفيذ – الامر الذي سيبدو واضحاً للوهلة الاولى – اذ سيتشابه العملان في كل التفاصيل. الا أن الامر ليس كذلك، ونحيل القارىء الى الفصل الخاص بالمظاهرات، والذي سيظهر لنا ان ظروفاً مختلفه نوعا ما ستفرض نفسها[2] .

---

(١) . البارون كارل لودفيك فول (١٧٥٧ – ١٨٢٦) جنرال روسي.

(٢) . ما من فصل بهذا الاسم في الكتاب .

الفصل الخامس والعشرون
التراجع داخل البلاد

نحن نعتبر التراجع المنظم والاختياري الى داخل البلاد شكلاً خاصاً من اشكال المقاومة المباشرة - شكل يستهدف تدمير العدو **لا بالسيف بشكل اساسي، بل بجهده هو**. ويتم التراجع اما لعدم التهيؤ والتخطيط لمعركة رئيسية، او يفترض وقوع المعركة بعد وقت طويل يكون العدو قد تكبد قدراً كبيراً من الخسائر، او فقد الكثير من قوته.

يتعرض كل المهاجمين الى نقص في قواتهم خلال التقدم، وستناقش هذه النقطة بالتفصيل في الكتاب السابع. اما هنا فسنتقبل هذه الحقيقة كما هي، وبوسعنا فعل ذلك نظراً لان التاريخ العسكري قد اكد صحتها في كل حملة تضمنت تغطية مسافات كبيرة.

يزداد الوهن الذي يتعرض له المهاجم ان لم يتم دحر المدافع، وتمكن هذا من التراجع بانتظام محتفظاً بقوته القتالية سالمة وبحالة نشطة، بينما ومن خلال مقاومة مستديمة وحسنة الاعداد والتنفيذ سيجعل المهاجم يتكبد المزيد ويدفع ثمنا لذلك من دماء رجاله نظير كل قدم يكسبه من الارض. ويتحول التقدم بذلك الى ضغط ودفع امامين للمهاجم وليس مجرد مطاردة.

وعلى العكس من ذلك فستكون خسائر المدافع عند تراجعه بعد اندحاره اكبر بكثير مما يتكبده في الانسحاب المنظم. وحتى لو افترضنا قدرته على مقاومة المهاجم يوماً بعد يوم، كما بوسعه ذلك في حالة الانسحاب المنظم، فسيظل ما يفقدة **بنفس الدرجة العالية على الاقل**، كما يجب ان لا ننسى اضافة خسائره في المعركة. الا ان افتراضاً كهذا يتحدى الاحتمال. فافضل جيش في العالم سيتكبد خسائراً غير متكافئة اذ تراجع داخل البلاد بعد اندحاره في معركة، واذا كان العدو اقوى بدرجة ملحوظه - كما بوسع المرء ان يفترض في الحالات موضوعة المناقشة - وواصل الضغط بقوة وكما يحدث فعلاً في الحروب الحالية فستكون النتائج على الارجح هزيمة نكراء، وسيتم تدمير الجيش المدافع.

تعني المقاومة **المحسوبة** يوماً بيوم، انها من النوع الذي يتواصل طالما ظل الموقف

موضع شك ودون حسم. وتسعى من اجل تجنب الانحدار وذلك بالتنازل عن الارض التي يجري القتال فوقها تدريجياً وفي توقيت منظم. وسيكلف هذا النوع من القتال المهاجم من الخسائر بقدر ما يقدم المدافع من حياة افراده، وخسائر المدافع التي لا بد منها في الرجال الذين سيقعون في الاسر معادل لما يخسره المهاجم في القتال، نظراً لان على المهاجم الكفاح باستمرار للتغلب على الفوائد التي توفرها الارض للمدافع. صحيح ان الجيش المتراجع سيخسر كذلك المصابين بجروح كبيرة وخطيرة، الا ان المهاجم سيخسر كذلك جرحاه نظراً لاضطرارهم المكوث طويلاً في المستشفيات، وقد يستغرق ذلك اشهراً.

بوسع المرء الافتراض بان هذا الاستنزاف المتواصل سيؤثر على الطرفين وبدرجة متعادلة كثيراً او قليلاً.

الا ان الموقف سيختلف تماماً ان كان الجيش المندحر مطارداً. فستكون المقاومة صعبة جداً، وان كانت ممكنة احياناً، وذلك نتيجة لما تكبده المدافع من خسائر في المعركة، وفقدان النظام وروح الاقدام، وما يثيره التراجع من هموم ومعضلات. والمطارد الذي كان عليه التحرك في الحالة السابقة بمنتهى الحذر، متلمساً طريقه كالاعمى تقريباً، بوسعه الان التقدم وهو واثق من انتصاره، مستفيداً وبكل عنفوان من فرصته، حتى لكأنه (نصف – اله)، وكلما زاد من ضغطه وتقدمه، كلما زاد تسارع الاحداث وفقاً لما قرر عليه المهاجم مسبقاً، وفي مجال واجواء كهذه يتضاعف كثيراً تأثير العوامل المعنوية، دونما حاجة للتماشي مع تأثيرات المعايير والاجراءات المادية.

لا بد ان ذلك كاف لايضاح كيفية اختلاف العلاقات بين الجيشين وفقاً للطريقة التي يتصرف بها كلاهما عند وصولهما نقطة النهاية والتي قد تكون نهاية الشوط بالنسبةللمهاجم.

لقد تطرقنا الى نتائج التدمير المتبادل، ولكن لا بد لنا من اضافة الوهن الذي يصيب المهاجم من طرق اخرى، قلنا للتو باننا سنبحثها في الكتاب السابع. بينما سيحصل المدافع من الناحية الاخرى، على قوى اضافية مما يصله من تعزيزات، سواء جاءته هذه من قوى خارجية، او مما يحصل عليه بجهوده واصراره.

اخيراً، هناك اختلاف ولا تناسب في التموين، وغالباً ما يمتلك المدافع اكثر مما يحتاج، بينما يعاني المهاجم من نقص فادح وخطير.

فللمتراجع وسائل ومعدات جمع المواد التموينية، التي سبق له ترتيب اماكنها، اما المهاجم ففي حاجة لان ترسل مذخراته الى الامام – وهي مهمة صعبة طالما واصل تقدمه، بغض النظر عن قصر خطوط مواصلاته. فسيعاني من نقص التموين منذ البداية.

سيكون الجيش المتراجع الاسبق وله اليد الطولى في جمع ما يحتاجه، وهو سيستنفذ الموارد المحلية تماماً. ولن يترك وراءه سوى مدناً وقرى مدمرة، وحقولاً جرداء بعد حصاد ما فيها من غلال ومحاصيل، وابارا جافة ووديان طينية زلقة.

ليس من النادر او غير المألوف ان يواجه المهاجم نقصاً خطيراً منذ البداية، ولا يمكنه الاعتماد او التعويل على استيلائه على مستودعات ومدخرات العدو التموينية؛ اما ان استطاع الاستيلاء على البعض منها من حين لآخر فمرد ذلك الى الحظ فقط، او الاغفال او خطأ كاملين وقع فيهما المدافع.

وهكذا، فليس من شك في قدرة المدافع على الاستفادة، لو كانت المسافة الواجب قطعها طويلة، والاختلاف في قوة الطرفين ليس كبيراً، الامر الذي ينتج عنه ان تمكن حالة قوات الطرفين، المدافع نسبياً، وتوفر له فرصاً اكبر في النجاح واكثر مما يحصل عليه من معركة حاسمة عند الحدود. ليست فرص النجاح وحدها التي ستزداد من خلال التبدل النسبي في القوة، فالموقف الجديد سيزيد من حجم وتأثيرات الانتصار كذلك. هناك اختلاف كبير بين ان يخسر احد معركة في جبهته وعلى حدوده وبين خسارتها في قلب ارض العدو!. في الحقيقة قد تصل حالة المهاجم عند نهاية شوطه، وغالباً جداً ما يجبره حتى **الانتصار** على التراجع؛ اذ قد لا يتيسر له احتياط كاف لمتابعة واستثمار انتصاره وتحقيق الكثير من خلاله، كما قد يعجز عن تعويض خسائره.

هناك اذن فرق كبير فيما اذا تم الحسم في بداية او في نهاية شوط التعرض.

الا ان الفوائد الكبيرة للمدافع من هذه الطريقة يقابلها من جهة اخرى إخفاقين. الاول ويتألف من الخسائر التي ستتكبدها البلاد كنتيجة لغزو العدو، والثاني وهو التأثير المعنوي.

لا يمكن ان يستهدف الدفاع حماية المنطقة من الضياع، بل لا بد أن يكون الهدف هو سلاماً مرضياً. وتلك غاية تستحق أن نتحمل من اجلها الكثير وحتى الجوع، غاية لا يجوز معها اعتبار اية تضحيات مؤقتة من اجلها شيئا لا يطاق. ومع ذلك ورغم ان خسارة الارض قد لا تكون حاسمة، لكنها يجب ان تندرج في سجل الموازنة، لانها دائمة التأثير على مصالحنا.

سيقوي التراجع، القوات المقاتلة مباشرة، والخسائر التي يتسبب بها لن تدمر الجيش مباشرة، ولكن بطريقة ملتوية وبعيدة. ومن الصعب المقارنة بين الفوائد والاضرار للاختلاف النوعي بينهما من جهة ولعدم وجود ارضية مشتركة بينهما من ناحية اخرى. وكلما يمكن قوله هو ان الخسائر ستزداد عند التخلي عن المناطق الخصبة، الكثيفة السكان والمليئة بالمدن التجارية الكبيرة، الا انها ستزداد اكثر اذا شملت المعدات الحربية ايضاً، سواء كانت تلك المعدات جاهزة او ما زالت في دور الانتاج.

الأخفاق الثاني، نفسي. اذ تمر أوقات لا بد للقائد ان يرتفع فوقها، متمسكاً بكل هدوء بخطته الاصلية، مواجهاً كل الاعتراضات التي يثيرها خائروا القوى من حوله. رغم ان اثر انطباعات واعتراضات كهذه، ليس مجرد وهم شبحي مما يسهل استبعاده أو تجاهله، فهي ليست كالقوة التي يقتصر تأثيرها على نقطة واحدة، بل وعلى العكس قوي وواسع الانتشار، في كل عصب، وسرعان ما يصيب كل الانشطة العسكرية والمدنية بالشلل. هناك اوقات وحالات يمكن ان تتفهم الامة اسباب الانسحاب الى الداخل تماماً، بل وقد يؤدي ذلك الى زيادة ثقة الامة وتصاعد امالها؛ رغم ان حالة كهذه نادرة. وكقاعدة من الصعب أن يتوقع الجيش والشعب أن يخبرا عن الفرق ما بين انسحاب مدبر (منظم) وانسحاب قسري وسط فوضى وارتباك عظيمين، رغم انهما قد لا يرون في خطة ما للأنسحاب أية حكمة او جدوى، وفقاً لما قد تؤدي اليه من فوائد ايجابية، او لانها اتخذت بسبب الخوف من العدو. سيكون هناك الكثير من القلق والاستياء الشعبين حول مصير ما تم اخلاءه من الاراضي، كما قد يفقد الجيش الثقة لا بقائده فقط، بل وبنفسه ايضاً، ولن تؤدي المقاومة واعمال الساقات الا لتأكيد مخاوف المتراجع. ينبغي عدم الاستهانة بمثل **هذه العواقب المصاحبة** للتراجع. واكثر من ذلك، ومن الناحية التجريدية (النظرية المجردة) فان من الطبيعي والاكثر انسجاماً، والابسط، والاكثر نبلاً، والاكثر تطابقاً مع القيم المعنوية للأمة ان تواجه هذه التحديات بشجاعة، ولتؤكد الامة بان العدو الذي يتعدى حدود البلاد سيدفع ثمن ذلك بالدم.

كذلك هي الحجج والبراهين المؤيدة والمعارضة لطريقة الدفاع هذه. ولدينا الان بضعة كلمات عن الشروط والظروف التي تحبذ اختيارها.

الحاجة الرئيسية والاساسية الى مسافة كبيرة جداً، او على الاقل خط تراجع

طويل؛ فالتقدم لبضعة ايام لن يضعف الجيش المعادي بدرجة ملحوظة. ففي حملة ١٨١٢ بلغ مجموع قوات نابليون (٢٥٠) الف رجل عند (فيتبسك)، فانخفض العدد الى (١٨٢) الفاً في (سمولنسك)، كي يصل العدد الى (١٢٠) الف رجل عند (بوردينو) – اي اصبح معادلاً للقوات الروسية. كانت بوردينو تبعد (٥٠) ميلاً عن الحدود، ولم يحقق الروس تفوقاً حاسماً الا عند موسكو. وحال تحقق هذا التفوق، فلا مجال بعد لاي تحول معاكس، وحتى الانتصار الفرنسي في (مالوياروسلافيتز) لم يحدث اي تأثير يذكر.

ما من دولة اوربية اخرى لها مثل هذا الحجم والاتساع اللذان لروسيا، لذا فلن تجد خطاً للتراجع يصل طوله الى (٥٠٠) ميلاً الا في القليل من الدول الاخرى. ومن الناحية الاخرى، فليس من السهل تكرار الظروف التي قد تنتج جيشاً بحجم الجيش الفرنسي عام ١٨١٢ – ناهيك عن اللاتناسب الذي سيتحقق بين الخصمين منذ البداية، عندما كانت القوات الفرنسية اكثر من ضعفي عدد القوات الروسية من الرجال بالاضافة الى العديد من المزايا التي يمكن استخدامها في الصراع. لذلك فما قد تحقق هنا وضمن مسافه (٥٠٠) ميلاً، قد يتحقق في حالات اخرى ضمن (٢٥٠) او حتى (١٥٠)ميلاً.

من بين الظروف الملائمة ما يلي:

١ . ارض قليله المزروعات.

٢ . شعب مخلص ومحب للقتال.

٣ . ظروف جوية قاسية.

تجعل الظروف اعلاه من الصعب إبقاء جيش ما والمحافظة عليه في الميدان. اذ ستفرض تنقل الكثير من الارتال، والعديد من المفارز، والكثير من الجهود الشاقة. كما انها تزيد من الامراض، وتسهل على المدافع تنفيذ العمليات على الاجنحة.

العامل الاخير الذي يؤثر على طريقة الدفاع هذه هو الاعداد الحقيقية للقوات المقاتلة المعنية.

ان من طبيعة الاشياء دون شك، انه وبغض النظر عن القوة النسبية للجيشين، فان القوة الاصغر تستنفذ قبل القوة الاكبر، اذ يتعذر على الصغرى المضي حتى اخر الشوط، لذلك يكون مسرح عملياتها اكثر تحدداً. وفي الحقيقة هناك تناسب (علاقة)

ثابت بين حجم القوات والمنطقة التي يمكن ان تحتلها. ولا يمكن التعبير عن هذه النسبة بالارقام، بالاضافة الى انها قابلة للتغيير بفعل عوامل اخرى. ويكفي هنا القول بان العلاقة بين الاثنين دائمية واساسية. فبوسع قائد ما المسير الى موسكو بـ (٥٠٠) الف رجل ولكنه لا يستطيع ذلك بقوة تعدادها (٥٠) الفاً فقط – حتى اذا كانت نسبة قوات المهاجم الى قوات المدافع اكبر بكثير في الحالة الثانية منها في الحالة الاولى.

لذلك، لنفترض ان الحجم المطلق للقوة نسبة الى المنطقة ثابت في حالتين مختلفتين؛ وما من شك في ان تأثير تراجعنا في اضعاف العدو سيزداد وفقاً لعدد القوات المعنية.

١ . سيجد المهاجم زيادة كبيرة في مصاعب تموين وايواء قطعاته. حتى لو اتسعت المناطق المغطاة نسبة للجيوش المشاركة، لانها لا يمكن ان تكون المصدر الوحيد للتموين، وسيتعرض كلما يرسل من القاعدة الى الامام للضياع. واكثر من ذلك، فلن يستخدم سوى جزء صغيراً من المنطقة، لا المنطقة كلها للأيواء، ولن تتسع المنطقة المستخدمة لذلك وفقاً لعدد القطعات.

٢ . ستقل سرعة التقدم مع تزايد عدد القطعات. لذلك سيستغرق التقدم وقتاً اطولاً لانجازه، وسيكون اجمالي الخسائر اليومية اكبر بكثير.

فلو تولى ثلاثة الاف رجل مطاردة الفي رجل فانهم لن يسمحوا لهم بالتراجع بسهولة وحرية ولا حتى لمسافة (٥) او (١٠)، او حتى خمسة عشر ميلاً في وقت واحد، ولا للتوقف ولو لبضعة ايام من اونة لاخرى. ولا يحتاج المطاردون لاكثر من بضعة ساعات للحاق بالعدو، ومهاجمته وتشتيته. لكن لو ضاعفنا الاعداد مئات المرات، فستواجهنا معضلة اخرى. اذ لم يعد الامر مقتصراً على عدة ساعات، بل سيتحول ذلك الى يوم او حتى يومين. ولا يمكن لاي من الطرفين البقاء متجمعاً في مكان واحد، وستتعقد خطط جميع التحركات، وسيحتاج كل شيء بناءً على ذلك الى المزيد من الوقت. وسيواجه المهاجم عائقاً اضافياً هو ان معضلات التموين ستجبره على التبعثر والانتشار اكثر من المدافع، وبالتالي فسيظل في خطر دائم من تفوق الخصم عليه عددياً في بعض النقاط – الامر الذي حاوله الروس في فيتبسك.

٣ . كلما زاد حجم القوات المشتبكة، كلما زاد حجم الجهد الذي تفرضه المتطلبات التعبوية والاستراتيجية. ولنتصور قوة تعدادها (١٠٠) الف رجل تسير الى منطقة الاجتماع ثم تعود منها، وتكرر ذلك يوما بعد اخر، ثم تتوقف لتعود الى نفس

العمل ثانية منهمكين يوما بسلاحهم، وباعداد وجبات الطعام في اونة اخرى، وفي توزيع الارزاق، وتتوالى كل هذه الاعمال في الميدان حتى تحل ساعة الحسم وتصل التقارير الضرورية. وكل هذه الجهود الصغيرة والملازمة للتنقل نفسه، اذ يحتاج الـ (١٠٠) الف رجل وكقاعدة ضعف ما يحتاجه الـ (٥٠) الف رجل – الا ان اليوم يظل من (٢٤) ساعة في الحالتين. اما المسير نفسه، فقد اوضحنا في الفصل العاشر من الكتاب السابق اختلاف وتنوع الوقت والجهد المبذولين في التنقل وفقاً لعدد القوات المعنيه.

ستؤثر كل هذه المعضلات على الجيش المتراجع ايضاً، الا ان تأثيرها اشد واثقل على المهاجم بسبب ان:

١ . لديه عدد اكبر من الرجال (لقد افترضنا تفوق المهاجم منذ البداية).

٢ . بالتخلي عن الارض يحصل المدافع على الحق في توجيه العملية وفي اجبار المهاجم على الاستجابة والتوافق مع اعماله (المدافع). كما انه قادر على التخطيط المسبق وعلى التمسك بنواياه (توخي الهدف). اما المهاجم فقادر مع ذلك على ترتيب قواته بعد ان يكون خصمه قد اتخذ مواضعه، التي عليه اولاً وقبل كل شيء استطلاعها.

لنتذكر باننا نناقش هنا مطاردة جيش لم يندحر بعد، بل حتى لم يخسر معركة ما، ولسنا نعارض هنا ما قلناه في الفصل الثاني عشر من الكتاب الرابع.

تحقق الفائدة التي للمدافع في اجبار المهاجم على الاستجابة والتوافق، اختلافاً في مسألتي توفير الوقت والجهد، وفي الكثير من الطرق الصغيرة الاخرى. وذلك امر له اهمية كبيرة على المدى البعيد.

٣ . يتكبد الجيش المتراجع الكثير من اجل تسهيل تراجعه، اذ يتولى اصلاح الطرق والجسور، مع اختيار افضل الاماكن لاقامة المعسكرات وغير ذلك. كما يسعى ومن الناحية الاخرى لوضع العراقيل بوجه المطاردة باذلاً كلما يسعه الحال بما في ذلك تخريب الجسور، واتلاف الطرق ولو من خلال استخدامه لها، وحرمان العدو من الاقامة في الاماكن الاكثر ملائمة، ولا سيما التي تتوفر فيها المياه وذلك باحتلالها بنفسه، وغير ذلك من الاعمال.

اخيراً، لا بد أن نذكر حركات الانصار التي تحظى بالتأييد والدعم الشعبين اذ

يشكل هؤلاء عاملاً مهما بشكل استثنائي. ونظراً لاننا سنتناول ذلك في فصل خاص، لاحقاً، فلا حاجة بنا للتفصيل هنا.

لقد ناقشنا حتى الان فوائد هذا النوع من التراجع، والتضحيات التي يفرضها، والظروف التي يتطلبها. وسنتناول الان الطريقة التي ينفذ من خلالها.

والسؤال الذي لابد من تفحصه اولاً هو الاتجاه التي سيتخذه التراجع.

فهو لا بد ان يتجه الى **داخل** البلاد – وان امكن في الحقيقة ان يكون ذلك الى نقطة يغدو العدو فيها مطوقاً بارضنا من جميع الجهات، ومعرضاً كليا الى كل التأثيرات التي يعنيها ذلك. ولن يتعرض المدافع في حالة كهذه الى **الابتعاد عن قلب بلاده،** كما سيكون عليه الامر في حالة انسحابه على خط قريب جداً من الحدود. وهذا ما كان الروس سيقعون فيه ببساطة عام ١٨١٢ لو اختاروا الانسحاب جنوباً لا شرقاً.

يدخل هذا الشرط ضمنيا في الغاية التي تحدد للتراجع. فاين هي النقطة المناسبة في البلاد، وما مدى تناسبها وملائمتها مع الاهتمام المباشر بتغطية العاصمة او اية مراكز مهمة اخرى، او دورها في ابعاد العدو عن تلك الاماكن المهمة – وكل هذه الامور تتوقف على الظروف.

لو كان الروس قد خططوا مقدماً لأنسحابهم عام ١٨١٢، ونفذوه وفقاً لذلك، لاستطاعوا التوجه من سمولنسك نحو كالوجا منذ البداية بدلاً من تنفيذ ذلك بعد تركهم موسكو. وكان بوسعهم بهذه الطريقة، وتحت الظروف السائدة انقاذ موسكو كليا.

لقد كان تعداد القوة الفرنسية عند بوردينو حوالي (١٣٠) الف رجل، ولا يمكن توقع زيادتهم لقوتهم لو قبل الروس المعركة معهم في منتصف الطريق الى كالوجا. ولو حدث ذلك فكم كان بوسع الفرنسيون توفيره من الرجال للسير الى موسكو؟ القليل جداً دون شك. الا ان موسكو كانت تبعد (٢٥٠) ميلاً عن سمولنسك، وليس من السهل ارسال قوة صغيرة طول مسافة كهذه لتحتل مدينة كموسكو.

لقد تركت معركة سمولنسك نابليون وليس معه سوى حوالي (١٦٠) الف رجل. ولنفترض بانه شعر بقدرته على تقبل مخاطرة ارسال قوة ما لاحتلال موسكو قبل خوضه معركة رئيسية اخرى، وارسل لهذا الغرض (٤٠) الف رجل، فسيبقى معه (١٢٠) الف رجل لمواجهة القوة الروسية الرئيسية، الا ان (٩٠) الفاً منهم كان بوسعهم

خوض معركة كهذه – اي اقل بـ (٤٠) الفاً عن الذين خاضوا معركة بوردينو. الامر الذي سيجعل الروس متفوقين بثلاثين الفاً. ولو اعتبرنا مسار معركة بوردينو كدليل، فهناك اذن هامش في القوى يعني انتصار الروس. وعلى اية حال، ووفقاً لهذه الحسابات، فان حظهم كان سيكون الافضل عند بوردينو. الا ان التراجع الروسي لم يكن نتيجة لتخطيط سابق. بل انهم انسحبوا لكل المسافة التي قطعوها بسبب موقفهم انذاك، وكلما لاحت لهم فرصة الدخول في معركة ، كانوا يشعرون بان قوتهم لا تكفي لفعل ذلك. كما وجهت كل ارتال التموين والتعزيزات نحو الطريق من موسكو الى سمولنسك، كما لم يفكر اي رجل في سمولنسك باحتمال التخلي عنها. بالاضافة الى ذلك فان انتصاراً في مكان ما، بين سمولنسك وكالوجا، لم يكن ليبرر، في أعين الروس، خطيئة ترك موسكو دون حماية، ومعرضة لخطر احتلال محتمل.

اما في حملة ١٨١٤ فقد كان بوسع نابليون انقاذ باريس وتجنب مهاجمتها من قبل التحالف لو انه احتل موضعاً مائلاً – خلف قناة بورغونيه مثلاً – وتاركا بضعة الاف من الرجال والحرس الوطني وهم كثيرون لمسك العاصمة. اذ لن يجروء التحالف على ارسال قوة تعدادها (٥٠) او (٦٠) الف رجل نحو باريس، وهم على بينة من وجود نابليون وبأمرته (١٠٠) الف رجل في (اوكزير)[١]. وعلى العكس فلو كانت قوات التحالف في موقف نابليون، لما جروء اي منهم على التفكير بترك الطريق الى العاصمة دون تغطية بوجه تعرض نابليوني. فهو وبمثل هذا التفوق ما كان ليتأخر ولا للحظة عن السير نحو العاصمة. ويظهر لنا ذلك وببساطة الدور الذي تلعبه المعنويات والعوامل النفسية، حتى مع بقاء كافة العوامل والظروف الاخرى كما هي.

لقد اضفنا للتو، بأن العاصمة أو أية نقطة نحاول حمايتها بمناورة كهذه، علينا توفير قوة مقاومة لحمايتها ضد الاحتلال، وضد محاولات الغزو والسلب على ايدي غارات الانصار التي تتواجد في المنطقة. ولنترك الموضوع الان الى أن يحين دور البحث فيه عند البحث في خطط الحرب.

هناك نقطة اخرى جديرة بالبحث لعلاقتها بخط تراجع كهذا – **هي التغيير المفاجيء في الاتجاه**. لقد حافظ الروس على اتجاههم حتى موسكو، والذي كان سيقودهم فيما وراءها الى (فالديمير). الا انهم تخلوا عن ذلك، واتجهوا اولاً نحو

---

(١) مدينة اوكزير جنوب شرق باريس بمسافة (١٤٠) كم وهي من اشهر مدن منطقة بورجوندي الفرنسية.
المترجم

(ريزان)، ثم انعطفوا نحو كالوجا. ولو انهم اجبروا على مواصلة التراجع، لكانوا قادرين بسهولة على تنفيذ ذلك على هذا الاتجاه الجديد والذي كان سيقودهم الى كييف – مقتربين بذلك وبدرجة كبيرة من حدود العدو. حتى لو كان الفرنسيون متفوقين في هذه المرحلة فقد كانوا عاجزين بشكل واضح عن السيطرة على هذا التقوس الكبير في خطوط مواصلاتهم، المارة عبر موسكو. ولا بد انهم كانوا سيتخلون لا عن موسكو فقط، بل وعلى الارجح حتى عن سمولنسك – وبكلمة اخرى، كانوا سيتخلون عن كل الاراضي التي كبدهم احتلالها الكثير، وحصر انفسهم بمسرح عملياتهم غرب (بيرهسينا).

نعترف بان الجيش الروسي كان سيواجه هذه المخاطر الكبيرة لو انه توجه في تراجعه نحو كييف في المكان الاول – خطر الانعزال عن القسم الاكبر من البلاد. الا ان هذا المحذور قد انتهى عملياً؛ اذ كان الفرنسيون سيصلون كييف بوضع مختلف جداً ان لم يسلكوا الطريق المار من موسكو.

من الواضح ان فوائداً حاسمة كهذه يمكن تحقيقها بتغيير كهذا في اتجاه خط التراجع – وهو شيء متوقع ان كانت المسافة المقطوعة طويله بقدر كاف:

١ . تجعل الاستدارات من المستحيل على العدو الاحتفاظ بخطوط مواصلاته الحالية. ومن الصعب على الدوام انشاء خطوط جديدة، واكثر من ذلك، فان التغيير في الاتجاه يحدث تدريجياً، الامر الذي يفرض انشاء خطوط مواصلات جديدة لمرات عديدة.

٢ . النتيجة هي اقتراب الجيشان معاً من الحدود ثانية. ولن يظل بوسع المهاجم استخدام موضعه لستر الاراضي التي احتلها، وسيجبر على الاكثر على التخلي عنها. وفي بلاد مترامية الاطراف كروسيا فبوسع الجيشان وبكل سهولة ان يلعبا مع بعضيهما لعبة«الاستغماية».

يمكن اجراء هذه الاستدارة في ظروف ملائمة حتى ان كانت المسافة المعنية أصغر. الا انه لا بد من الحكم على كل حالة على حدة ووفقاً لما تستحقه وعلى ضوء الظروف السائدة.

حال القرار على الاتجاه الذي سيقاد العدو خلاله الى البلاد، يجب ان تتحرك القوة المدافعة الرئيسية عليه. وبخلاف ذلك فلن يسلكه العدو، وحتى لو فعل ذلك،

فلن يستطيع المدافع فرض كل التحديدات التي افترضناها اعلاه. والسؤال الوحيد هنا، هو ما اذا كانت القوة الرئيسية بكاملها ستمر على ذاك الطريق، ام ان قسماً منها سيسلك طريقاً جانبياً، وبذا ينفذ التراجع على خطوط متباعدة.

والاجابة على هذا السؤال تنحصر بتجنب الاسلوب الثاني (التراجع على اكثر من طريق) للأسباب التالية:

١ . لان ذلك يعني المزيد من تشتت القوات، بينما يشكل حشدها في مكان واحد عائقاً رئيسياً بوجه الغزاة.

٢ . سيمنح هذا النوع من التراجع للعدو حرية وميزة التحرك على الخطوط الداخلية. وسيحشد قواته بشكل افضل من المدافع، محققاً تفوقاً في اي نقطة يختارها. رغم ان لا مبرر للخوف من تفوق كهذا، ان توخت خططنا منذ البداية تجنب الدخول بمعركة مع العدو. الا ان ذلك يعتمد على خشية العدو المستمرة من قوتنا. وان لا يشعر بحريته في دفعنا بقوة، وهذا امر محتمل الحدوث كثيراً. يتضمن هذا النوع من التراجع، ان القسم الاكبر من القوة قادر فعلاً، وله اليد الطولي في توجيه ضربة حاسمة. الا ان المرء لا يستطيع التعويل كثيراً على ذلك طالما ان القسم الاكبر سيتجزأ.

٣ . ليست العمليات المركزية (المتحدة المركز Concentric) ملائمة للجانب الاضعف.

٤ . يلغي التراجع المتشعب (على عدة طرق) بعضاً من نقاط ضعف العدو.

فطول خطوط المواصلات، وكشف جناح استراتيجي، هما من نقاط الضعف الرئيسية لهجوم يندفع بعيداً في ارض العدو، كما ان التراجع على عدة طرق يجبر المهاجم على تعريض جبهة جزء من قوته امام جناح المتراجع، ومع ان هذا الجزء من القوة معنى اساساً باحتواء القوات التي تواجهه، فقد يعمل وفي نفس الوقت لتحقيق هدف اخر - هو تغطية جزء من خطوط المواصلات.

الخلاصة، وبقدر تعلق الامر بالقيمة الاستراتيجية التامة للتراجع، فان المتعدد الطرق منه ليس مفيداً. اما اذا اريد به التمهيد لاعمال مستقبلية ضد خطوط تراجع العدو، فلا بد لنا من الاشارة الى محتويات الفصل السابق.

الغاية الوحيدة التي تبرر انسحاباً على خطوط متباعدة، هي الغاية التي تتوخى حماية المناطق التي لو تركت دون حماية لأحتلها العدو.

اما المناطق التي سيسعى العدو لاحتلالها على جانبي خط تقدمه فيمكن التنبؤ بها وتحديدها بسهولة كبيرة من تحشد واتجاه قواته، ومواقع اراضيه، والقلاع وغيرها، بالنسبة لما لدينا نحن. وسيكون وضع قوتنا المقاتلة في اماكن قد لا يهتم بها العدو نهائياً، ليس سوى تبذيراً خطيراً في القوات. وعلى اية حال **فان قدرة اي طرف على منع احتلال ما، بوضع قطعاته في المناطق التي يحتمل احتلالها**، هي من الامور التي يصعب التنبؤ بها. انها في معظمها مسألة القدرة على القرار.

عند تراجع الروس عام ١٨١٢، تركوا قوة تعدادها (٣٠) الف رجل تحت قيادة الجنرال تورمازوف[1] للدفاع عن (فولهاينيا) من غزو النمساويين لها. ولو اخذ بنظر الاعتبار كلا من حجم المنطقة، وعدد الموانع الطبيعية المتوفرة فيها، والقوة (النمساوية) الثانوية التي يفترض انها ستغزوها، فللروس امل لا بأس به لان تكون لهم اليد الطولي في ذلك القطاع من حدودهم، او، المحافظة في كل الاحوال على وجودهم قريباً منها. فلو استطاعوا التمسك بمواضعهم فمن حقهم توقع الحصول على فوائد جمة في المستقبل، ولا حاجة بنا الى مناقشتها هنا. وعلى اية حال فسيكون من المستحيل تقريباً ان تتمكن هذه القوات من الالتحاق بالقسم الرئيسي من الجيش في الوقت المناسب، حتى لو كانت توخت ذلك. وتوفر كل هذه العوامل مبررات كافية لترك الروس هذه القوة تخوض معركة مستقلة في (فولهاينيا). من الناحية الاخرى، ووفقاً للخطه التي وضعها الجنرال فول، فان قوات الجنرال براكلي وحدها (٨٠ الفاً) قد تراجعت الى معسكر دريسا. اما الجنرال باكراشون وبامرته (٤٠) الفاً فكان عليه العمل في الجناح الايمن مستهدفاً الانقضاض على مؤخرة الجيش الفرنسي فيما بعد. وبوسع المرء ان يدرك بمجرد التفكير بذلك للمحظة بأن ليس لتلك القوة ادنى امل بالصمود في جنوب ليتوانيا - **أي مسك المزيد من الارض، والاقتراب كثيراً** من مؤخرات الفرنسيين فقد كان بوسع هؤلاء دحرها بما لديهم من تفوق ماحق.

---

(١). تورمازوف. الكونت الكسندر بيتروفيتش (١٧٥٢ - ١٨١٩) جنرال روسي.

يهتم المدافع كثيراً بالتخلي عن اقل حجم ممكن من الارض للمهاجم، الا ان ذلك يظل في النهاية وعلى الدوام هدفاً ثانوياً. وكذلك فمن الواضح ان الهجوم يزداد صعوبة وتعقيداً كلما صغر، او بالاحرى كان مسرح العمليات الذي يعمل فيه الغازي اكثر تحدداً. ومع ان كل هذه الاعتبارات تفترض احتمال النجاح ومن انها لا تسبب اضعاف القسم الاكبر كثيراً – إذ وبهذا القسم الاكبر نفسه على المرء (القائد) ان يعتمد اساساً في تحقيق النتيجة النهائية. اما المصاعب التي تعترض القسم الاكبر لقوة العدو فانها وعلى الارجح ستؤدي الى انسحابه، كما انها ستزيد والى درجة كبيرة للغاية من خسائره المادية والمعنوية التي سيتكبدها عند التراجع.

لذلك، وكقاعدة، ينبغي ان يتم التراجع الى داخل الوطن، وينفذ من قبل قوة موحدة وغير ضعيفة او مندحرة. كما ينبغي أن يتم التراجع على الفور امام القوة الرئيسية للعدو، وبابطأ ما يمكن. ومن خلال المقاومة المستمرة، ينبغي ابقاء العدو في حالة حذر ويقظه دائميين، ودفعه الى المغالاة المهلكة في الحذر التعبوي ان جاز قول ذلك.

حال وصول الطرفان، وبهذه الطريقة الى نهاية تعرض المعتدي، ينبغي على المدافع، ان كان ذلك ممكنا على الاطلاق، ان يحتل موضعاً بزاوية مائلة على اتجاه ذلك الخط، ضاغطاً بشدة على مؤخرة العدو بكل ما يتيسر لديه من وسائل.

كل هذه السمات والخصائص وتأثيراتها والتي طبقها الروس بدرجة عالية خلال حملة ١٨١٢، وكأنهم وضعوها تحت عدسات مكبرة. مع ان تراجعهم لم يكن منظما او اختيارياً الا انه يمكن اعتباره كذلك، نظراً لانه ما من شك، في ان الروس وبعد ان عرفوا ما عوفوه الان فانهم لو كانوا سيفعلون نفس الشيء تحت نفس الظروف، فانهم سيكررون ما تم فعلاً وبشكل منظم وبصورة طوعية أو آلية على الاكثر، عام ١٨١٢. وسيخطأ كثيراً من يفترض عدم ظهور نفس التأثير لو تراجع الروس وسط مساحات اقل اتساعاً.

لقد توفرت التأثيرات والظروف الاساسية لهذا النوع من المقاومة – بغض النظر عن الظروف المتغيرة التي ترافق ذلك بالاضافة – وحيثما شن هجوم استراتيجي، لا

كنتيجة لازمة لمعركة حاسمة، بل بسبب معضلات الوجود نفسها والتي تجبر الغزاة على تنفيذ التراجع الذي يعد وبدرجة صغيرة او كبيرة مدمراً. وتقدم لنا حملات فردريك الكبير عام (١٧٤٢) في مورافيا، وعام (١٧٤٤) في بوهيميا، والحملة الفرنسية عام (١٧٤٣) في النمسا وبوهيميا، وحملة دوق برونزويك عام (١٧٩٢) في فرنسا، وحملة الجنرال الفرنسي مسينا الشتوية عامي (١٨١٠ - ١٨١١) في البرتغال، امثلة لحالات مشابهة ولو انها اكثر محدودية من حيث النطاق والظروف. واكثر من ذلك هناك ما لا يحصى من المواقف الذي كان المبدأ الذي اقمناه هنا مسؤولاً جزئياً، ان لم يكن كلياً عن النتيجة. وسوف لن نستشهد بها هنا تجنباً للدخول في تفاصيل كثيرة وغير ضرورية.

لقد تحول المد، في روسيا، وفي الحالات الاخرى التي ذكرناها هنا، دون معارك ظافرة تفرض الحسم في الساعات الحرجة. وحتى حين لا يمكن توقع تأثيراً كهذا، فسيظل من الامور البالغة الاهمية هنا، التوصل ومن خلال هذا النوع من المقاومة، الى تغيير في القوة النسبية لكلا الطرفين، تغييراً يجعل الانتصار ممكناً. وحال تحقق ذلك، فعلى المرء (المنتصر) التأكد بانه سيؤدي الى فرض سلسلة من النكبات التي ووفقاً لقانون الاجسام المتساقطة، ستديم شدة زخم [الاندفاع التعرضي].

الفصل السادس والعشرون

الشعب المسلح

تعد حرب الثورة الشعبية في الجزء المتحضر من اوربا من ظواهر القرن التاسع عشر. ولها مساندون ومعارضون، وينصب اعتراض الاخرين عليها في ناحيتين، الاولى هي الناحية السياسية، اذ يعتبرون هذا النوع من الحرب وسيلة ثورية، وحالة فوضى قانونية وهي اكثر تهديداً للنظام الاجتماعي للبلاد منها للعدو. وينصب اعتراضهم من الناحية العسكرية على ان ما يتحقق عنها من نتائج لا يعادل ولا يتناسب وما انفق وبدد من اجلها من طاقات.

لا يهمنا الاعتراض الاول نهائياً هنا، لاننا معنيون بالبحث في حركات العصيان المسلح، وببساطة كوسيلة اخرى من وسائل الحرب – وبالاساس من حيث علاقتها مع العدو. الا ان الاعتراض الثاني ومن الناحية الاخرى يقودنا الى القول بانه ينبغي اعتبار الانفجار الشعبي عموماً، تناميا للطريقة التي تجاوزت الاساليب والحواجز التقليدية في ايامنا هذه، بفعل وقوة عنصر العنف في الحرب. فهي في الحقيقة توسيع وتكثيف لعملية الفوران الهائل الذي يعرف بالحرب. ان ظهور منظومة مصادرة مواد التموين، والتنامي الهائل في حجم الجيوش ليس الا نتاجاً لها ولنظام التجنيد العام، واستخدام المليشيات. كل هذه تجري في اتجاه واحد عند البحث فيها من وجهة نظر المنظومة العسكرية الاقدم والاكثر تحديداً، كما انها تدعو الى دعوة (تعبية) الحرس الوطني وتسليح الشعب.

ليست الطرق التي ذكرت اولاً سوى النتيجة الطبيعية والتي لا بد منها لتحطيم الحواجز. كما انها اضافت الكثير الى قوة الطرف الذي استخدمها اولاً، مجبراً خصمه على متابعته وتقليده. ويصح ذلك ايضاً على الحرب الشعبية. وكقاعدة فان اية امة تستخدمها وبذكاء، فستحقق تفوقاً على أولئك الذين يحتقرون استخدامها. وان كان الامر كذلك، فسيبقى امامنا سؤال واحد عما اذا كان الجنس البشري ككل سيكسب شيئاً من هذا التوسيع الاضافي لعنصر الحرب؛ وهو سؤال ينبغي ان تكون الاجابة عليه هي نفس الاجابة عن السؤال حول الحرب نفسها. وسنترك كلا الامرين للفلاسفة. ولكنا نستطيع الايضاح هنا بان ما ينفق من موارد في حركات العصيان المسلح يمكن ان ينفق وبشكل افضل في انواع اخرى من الحرب. ومع ذلك، فلا حاجة

بنا الى بحوث اخرى لاثبات الحقائق حول ان مثل هذه الموارد، وفي معظم الاحوال ليست متوفرة ولا يمكن استخدامها كيف نشاء. وان امكن في الواقع استخدام قسماً كبيراً منها، وهو العنصر المعنوي فقط ، هذا النوع من الاستخدام.

عندما تنهض امة كاملة في مقاومة مسلحة، فلن يعود السؤال وقتها هو «ما جدوى وقيمة ذلك للشعب» بل «ما القيمة الكامنة، وما الظروف المطلوبة، وكيف يمكن الافادة منها».

لا تلزم مقاومة مشتتة مثل هذه، وبفعل طبيعتها الخاصة، باعمال رئيسية، تعرضها لضغوط شديدة في الوقت والمسافة. وهي تشبه في عملها اسلوب التطاير والتبخير، الذي يعتمد على مساحة ومدى السطح (المائي) المكشوف. فكلما اتسع المكان، ومنطقة التماس بين المقاومة وقوات العدو، كلما اضطر الاخير الى ترقيق قواته وزيادة انتشارها، وكلما زاد بالتالي تأثير وفاعلية الهياج الشعبي المعادي للغزاة. وفعل هذه الثورة كفعل الجمرات المتقدة التي لا تبدو للعيان في استنزاف المقومات الاساسية في جيش العدو. ونظراً لانها ستحتاج الى وقت ما كي تكون مؤثرة فستنشأ حالة من التوتر تتطور بينما يتفاعل العنصران [الطرفان]. واما ان تخف حدة هذا التوتر تدريجياً الى نوع من الهدوء او الانفراج اذا تم كبح العصيان في بعض المناطق، ويستنفذ قدراته ببطء في مناطق اخرى، او وعلى العكس سيتزايد هذا التوتر في حدته ويتحول الى ازمة شديدة؛ وحريق عام يحيط بالعدو مجبراً اياه على ترك البلاد قبل تعرضه لدمار شامل. لا بد لثورة من هذا النوع وكي تؤدي بذاتها الى حالة شديدة التأزم من احتلالها منطقة بحجم لا يتيسر في كل اوربا الا في روسيا، او عندما لا تتناسب قوة الجيش الغازي وحجم المنطقة المحتلة وهو أمر نادر من الناحية العملية. وكي نكون واقعيين، فلا بد للمرء ان يفكر في عصيان مسلح عام يحدث ضمن اطار الحرب التي يخوضها جيش نظامي، على ان ينسق هذا العصيان كاحد عناصر خطة عامة كاملة.

وفيما يلي الظروف الوحيدة التي يمكن ان تكون ثورة شعبية ما مؤثرة فيها:

١ . يجب خوض الحرب في الاجزاء الداخلية من البلاد.

٢ . ان لا تحسم تلك الحرب بضربة حاسمة منفردة.

٣ . ان تلائم السجايا الشعبية العامة هذا النوع من الحرب.

٤ . يجب ان يكون مسرح العمليات كثير الاتساع.

٥ . يجب ان تكون المنطقة وعرة وصعبة المسالك، لكثرة الجبال او الغابات، او الاهوار، او بسبب طرق واساليب الزراعة المتبعة محلياً.

لا تلعب الكثافة السكانية النسبية دوراً حاسماً، اذ من النادر ان لا يتوفر ما يكفي من السكان لهذا الغرض. كما لا فرق في الامر كذلك ان كان السكان فقراء او اغنياء – او على الاقل لا ينبغي ان يشكل ذلك اعتباراً اساسياً رغم ان علينا ان نتذكر ان الفقراء من الرجال الذين اعتادوا على تحمل مصاعب الحرمان والاعمال الشاقة، هم عادة اكثر نشاطاً وحيوية وتقبلاً للمشاركة في هذا النوع من الحرب.

احدى الخصائص الفريدة التي يتميز بها الريف، والتي توثر كثيراً على العصيان المسلح، هي انتشار وتناثر الحقول ودور السكن، والذي يسود معظم اقسام المانيا على سبيل المثال. وفي ظروف كهذه يتحول الريف الى قطاعات منعزلة، وكثيفة المزروعات والاشجار، كما تسوء حال الطرق مع تزايد اعدادها، كما يغدو امر اسكان القطعات مع الاهليين بالغ الصعوبة وشاقاً، ثم وفوق واخطر من كل ذلك فان اهم خصائص العصيان المسلح عموماً هي امكانية تكرار اعمال المقاومة وان على نطاق اصغر في كل مكان وفي لا مكان. وحيث يتجمع السكان بدرجة اكبر في القرى، فبوسع العدو اقامة حاميات صغيرة وسط المجموعات التي تظهر عدائها او عدم رضاها، كما يمكن نهب غلالها ومخازنها أو حرقها حتى كنوع من العقوبة، الا ان ذلك مما لا يسهل تنفيذه الا نادراً في منطقة كويستفاليا وحقولها.

لا يمكن ولا يجوز استخدام المليشيات والعصابات المسلحة من المدنيين ضد القوة المعادية الرئيسية – ولا بالحقيقة ضد أية قوة معادية بحجم كبير. فلا يفترض فيها مهاجمة الجزء المركزي (القلب) من قوات العدو، بل مواصلة القضم في القشور الهشة وحول حافات القوة واطرافها. وتعمل على ان تنشط خارج مسرح الحرب – حيث لا يظهر الغازي بقوة – لحرمانه من الاستفادة من تلك المناطق كلياً. علي ان تتكثف سحب العاصفة هذه حول جوانب العدو كلها كلما واصل تقدمه. يكون الشعب في الاجزاء التي لم تحتل بعد اكثر حماساً لحمل السلاح ضد الغزاة، وسيكونون المثل الحسن الذي يقتدي به الاخرون تدريجياً. وسيتسع اللهيب الثوري بتأثير جذوات النار هذه حتى تصل الى المنطقة التي تمركز العدو فيها كقاعدة له، مهددين خطوط مواصلاته بل ومنشأته ووجوده كذلك. ولا حاجة للمرء بالاندفاع بعيداً في ايمان مبالغ به في قوة عصيان ثوري عام، معتبراً اياه كقوة لا تقهر ولا تنتهي، أو كأن جيش العدو

غير قادر على ايقافه او كبحه كاعصار يعجز الانسان عن التحكم به، او كسيول المطر – الخلاصة، يجب ان لا نرسي احكامنا على الروح الوطنية دفعة واحدة والى حد اقناع انفسنا بان الفلاحين الانصار المسلحين سيصمدون امام العدو كالقوات المنظمة، او كفصيل من الجنود. فسيتماسك هؤلاء بشدة في وجه الخطر ويلتفون حول قائدهم كقطيع الماشية ماشين وراء رئيسهم، اما الانصار، وعلى العكس من ذلك فسيتفرقون بسرعة في كل الاتجاهات، ولا حاجة بهم الى خطط خاصة في مثل هذه المواقف. يوضح لنا ذلك المخاطر الشديدة التي تتعرض لها التنقلات في المناطق الجبلية، والغابات، أو أية مناطق وعرة، وهي مخاطر بالغة الصعوبة سيما ضد المفارز الصغيرة، فقد يتحول التنقل وفي أية لحظه الى اشتباك. ففي منطقة جرى تطهيرها من العدو (العصابات)، الا أن عصبة صغيرة من الانصار وان سبق طردها قبل قليل من قبل مقدمة الجيش يمكن أن تعود سريعاً في مؤخرته في اية لحظة. اما فيما يتعلق بتخريب الطرق وجعلها غير صالحة للمرور، وكذلك باقامة الحواجز وغلق الممرات الضيقة، فالوسائل المتيسرة للمخافر الصغيرة، وجماعات الغارة، وتلك المتيسرة لجماعات الانصار وفيرة وعامة، والتي تشبه عموماً تنقل العجلة الالية نسبة الى تنقل الراجل. واجابة العدو الوحيدة على اعمال المليشيات هي ارساله وباستمرار لقوات حماية لارتاله، وفي وضع جماعات الحرس في اماكن التوقف، والجسور، والمضائق وغيرها. وقد تكون التأثيرات الاولية لاعمال المليشيا (الانصار) طفيفة وقليلة الاهمية، وكذلك ستكون المفارز الاولى بسبب مخاطر التجزأة والتشتت. الا ان شرارات العصيان ستنتقل سريعاً على ايدي تلك المفارز الصغيرة، التي قد تكون أحياناً كبيرة باعدادها، وستزداد في جرئتها ورغبتها بالقتال، وستزداد حدة التوتر بالمقابل حتي يصل ذروته التي ستحسم الموقف.

لذلك نرى ان لا تتحول المقاومة التي تنظمها ثورة عامة الى قوة مادية كبيرة وثقيلة، وان تقتصر على كونها قوة غامضة غير محددة وسريعة التملص والاختفاء، والا لأستطاع العدو توجيه قوة كافية الى مركز هذه المقاومة وسحقها، واخذ الكثير من الاسرى، ولذلك ان حدث تأثير سلبي قوي على الجماهير، اذ ستصاب بخيبة امل وتحس بشيء من الخوف وستظن ان الامر قد انتهى، وأن لا جدوى لاي مزيد من الجهد، وسيلقون السلاح. من الناحية الاخرى، لا بد من بعض التحشد في نقاط معينة، فلا بد أن يتكاثف الضباب مشكلاً كتلة معتمة ومخيفة من السحب، يمكن ان تتفجر منه صاعقة من الرعد في أية لحظة. اما مواقع نقاط التحشد تلك فستكون على الاكثر، وكما سبق لنا القول، على جانبي مسرح عمليات العدو. اي حيث على الثوار تشكيل

وحدات كبيرة، أفضل تنظيماً، مع نسبة من القوات النظامية كي تبدو وكانها جيشاً متكاملاً، ولمساعدتها في تحمل وتنفيذ عمليات اكبر. ومن تلك المناطق يمكن زيادة قوة العصيان لاقترابها من مؤخرات العدو التي تعد واهنة امام ضرباتها القوية. كلما تزايد حجم المجموعات المرسلة لازعاج العدو، كلما زاد حجم الوحدات التي يرسلها هذا لمجابهتها، اذ ستزيد هذه المجموعات من المصاعب التي يواجهها العدو، ومن مخاوفه كذلك كما تعمق التأثير المعنوي للعصيان ككل. وبدون ذلك فلن يكون للعصيان الشعبي ذلك الانطباع القوي التأثير، كما لن يشكل الموقف العام اية ضغوط او مخاوف كبيرة للعدو بما يفرض عليه المزيد من الحذر.

بوسع القائد تأطير وتوجيه العصيان الشعبي، باسناد العصاة بوحدات (مفارز) صغيرة من الجيش النظامي. وبدون مثل هذه القطعات النظامية المرسلة للتشجيع وكسب الثقة، فلن تتنامى الثقة بين ابناء الشعب ولن يبادروا الى حمل السلاح. وكلما زادت قوة الوحدات المكلفة بهذا الواجب، كلما كانت اكثر فاعلية والفاتاً للنظر وكلما طالت مدة بقائها وكبرت كتلتها النهائية. الا هناك عواملاً محددة. فهناك من ناحية اولى ما يمكن ان يشكل خطراً مميتاً على الجيش وذلك في تجزأة قوته الاساسية وبعثرتها وراء اهداف ثانوية من هذا النوع – كأن يتميع الجيش، ان جاز قول ذلك في حركات عصيان – لمجرد تشكيل وانشاء خط دفاعي رقيق، وهي طريقة اكيدة لتدمير الجيش وحركة العصيان معاً. كما ان التجارب من الناحية الاخرى تظهر لنا ان وضع الكثير جداً من الوحدات النظامية في منطقة ما، جدير بالقضاء على حيوية وفاعلية العصيان الشعبي من خلال جذب الكثير من قطعات العدو بالمقابل، يضاف الى ذلك ان المواطنين سيلقون بالكثير من الاعباء على القوات النظامية، واخيراً فان تواجد اعداد كبيرة من القوات النظامية سيثقل كاهل الموارد المحلية بطرق ووسائل اخرى، اي من خلال الايواء، والتنقل والاعاشة وغيرها.

الوسيلة الاخرى في تجنب ردود فعل معادية قوية ومؤثرة ضد الثورة الشعبية هي، وفي الوقت نفسه، واحدة من المبادىء الاساسية للعصيان الثوري، وهي في قلة، أو عدم القبول نهائياً بتحول هذه الوسيلة الاستراتيجية المهمة في الدفاع الى دفاع تعبوي. **فالاعمال الثورية** تشبه في خاصيتها لانواع القتال الاخرى التي تخوضها

قطعات من الدرجة – الثانية، والتي تبدأ عادة بحيوية وحماس كاملين، الا انها تخلو من الحصافة والدقة والتماسك على المدى البعيد. واكثر من ذلك، فليس مهما دحر وتشتيت قوة عصابات – فهذا هو ما اعدت له – على أن لا يتم الاندحار عبر موت وأسر الكثير من الرجال، او اصابتهم بجراح اذ سرعان ما سيؤدي اندحار كهذا الى اخماد روح الحماس وكل من هاتيك الخصائص تعد غريبة تماماً عن طبيعة الدفاع التعبوي. اذ يجب ان يتسم العمل الدفاعي بالبطء، والاصرار، والحسابات الدقيقة، وأن يتسبب بمخاطر اكيدة، لان اية محاوله مجردة وغير جادة ويمكن الغائها ساعة نشاء لا يمكن أن تقود الى اي دفاع ناجح. وهكذا فلو انيط الدفاع عن قاطع ما بالحرس الوطني، فلا بد والحالة هذه من تجنب التورط بمعركة دفاعية رئيسية، والا فقد تدمر قوات الحرس الوطني مهما كانت الظروف الاخرى ملائمة. ومع ان تلك القوات قد، او يجب عليها الدفاع عن نقاط الاقتراب الى منطقة جبلية، او الممرات المنشأة عبر المستنقعات، او النقاط التي يصلح منها عبور النهر، ولأطول مدة ممكنة؛ الا ان عليها وحالما يتم اختراقها التبعثر بافضل اسلوب ممكن ومواصلة المقاومة، بهجمات سريعة ومباغته، بدلاً من تحشد سريع في ربايا او صناكر صغيرة، والانجرار لتشكيل موضع دفاعي نظامي قد تعجز عن التملص منه والنجاة في الوقت المناسب. فبغض النظر عن مدى شجاعة الشعب، ولا عما تتضمنه تقاليده من حماس وتضحية حربية، وبغض النظر عن شدة وعمق حقده على العدو، ومهما كانت الارض التي تتحرك الثورة ضمنها ملائمة للقتال، فلن يغير كل ذلك من الحقيقة القائمة في عجز الثورة الشعبية عن ادامة نفسها واستمرارها عندما تكون الظروف السائدة مليئة بالمخاطر. لذلك فان اريد لوقودها السريان في الهشيم والتحول الى حريق هائل، فيجب ان لا تتجاوز حدوداً بعينها وحيث يتيسر لها ما يكفي من الهواء، اذ لا يمكن اخماد ثورة ما بضربة واحدة.

ليست هذه المناقشة سوى تلمس للحقيقة اكثر منها تحليلاً موضوعياً. والسبب هو أن هذا النوع من الحروب لم يغدو عاماً وشائعاً؛ كما ان الذين كانوا قادرين على متابعته لبعض الوقت لم يتناولوه فيما كتبوا بشكل واف. نود ان نضيف فقط ان بالامكان تهيئة الخطط الاستراتيجية للدفاع عن عصيان عام بطريقتين؛ فاما ان تكون الملاذ الاخير بعد اندحار، او كمسلك طبيعي مساعد قبيل معركة رئيسية. تفترض

الطريقة الثانية انسحاباً مسبقاً نحو الاقسام الداخلية، وبمراعاة الشكل الدفاعي المباشر الذي سبق وصفه في الفصلين الثامن، والرابع والعشرون من هذا الكتاب. لذلك فسنضيف كلمات قليله فقط تتعلق بكيفية استدعاء (تعبية) الحرس الوطني بعد خسارة معركة ما.

على الحكومة ان لا تفترض مطلقاً أن مصير بلدها، ووجوده كلية، معلق على نتيجة معركة واحدة، مهما كانت قوة او درجة حسمها. اذ وحتى بعد الاندحار، هناك وعلى الدوام امكانية انقلاب الحظ بفعل تطوير واستغلال لموارد جديدة للقوى الداخلية، أو من خلال المعاناة الطبيعية والمتتالية التي تقاسيها كل الاعمال التعرضية على المدى البعيد، او بفعل مساعدات خارجية. فهناك وعلى الدوام وقت كاف للموت؛ كالغريق الذي يتشبث وبشكل غريزي باية قشة تصلها يديه، وان من طبيعة الاشياء، أو وفقاً للقانون الطبيعي، والاسس المعنوية ان تسعى الامة التي تجد نفسها على حافة الهاوية، الى محاولة انقاذ نفسها باية وسائل.

بغض النظر عن صغر حجم وضعف الدولة مقارنة باعدائها، فعليها ان لا تدع او تتجاهل تلك الجهود والمساعي الاخيرة، والا فبوسع المرء الاستنتاج بان روحها قد ماتت. يجب ان لا نستبعد من اجل السلام امكانية القبول بدفع الباهض من التضحيات لتلافي الاندحار والدمار التامين، لكن وحتى هذا العزم يجب وبالمقابل ان لا يلغي فوائد وجدوى الاجراءات الدفاعية الجديدة. فهي سوف لن تجعل السلام اكثر صعوبة وشاقاً، بل اسهل وافضل. كما انها ستكون مرغوبة واكثر جدوى حيثما امكن توقع مساعدات من دول اخرى معنية بسلامتنا وانقاذنا. فالحكومة وبعد خسارتها لمعركة رئيسية، ستكون مهتمة فقط، بان تمكن شعبها من النوم بسلام باسرع ما يمكن اذ تسيطر عليها مشاعر الفشل والاحباط واليأس، وانهيار العزائم، وانعدام الرغبة ببذل المزيد من الجهد من اجل محاولة نهائية واخيرة، وما ذلك الا بسبب الضعف العام، والاختلافات الرئيسية التي تنجم على اية حال. مما يظهر ويؤكد بانها ليست جديرة بالفوز، ولربما انها ولهذا السبب عاجزة عن ذلك.

مع تراجع الجيش نحو الداخل – وبغض النظر عن درجة وشدة اندحار الدولة – لا بد من استثارة القدرات الكافية للقلاع والمقاومة الشعبية[1]. ومن المفيد بهذا الخصوص ان تستند اجنحة مسرح العمليات الى جبال او اية اراض وعرة اخرى ستبدو حينئذ كاجزاء نائتة او معاقل لاغراق المهاجم بنيران استراتيجية منتظمة.

بعد انهماك المنتصر بعمليات الحصار، وبعد تركه لحاميات على طول الطريق لتحديد خطوط مواصلاته، او حتى لو اقتصر على ارسال مفارز لضمان حرية تحركه ولمنع المناطق الجانبية المجاورة من ازعاجه، وبعد ان يتم اضعافه بسبب تكبده مختلف انواع الخسائر والاضرار في الرجال والمعدات، يحين عندها الوقت للمدافع للسيطرة ثانية على الساحة. وساعتها فان ضربةً احسن اعدادها وتوجيهها ضد المهاجم وهو في موقفه الصعب هذا، ستكون كافية لزعزعته.

---

(١) لا بد للمرء ان يتساءل عما اذا كان ماوتسي – تونك قد قرأ كتاب عن الحرب وهذا الفصل بالذات ام ان الامر لا يعدو عن تفكير منطقي في طبيعة الاشياء وفهم جوهر وفن الحرب . المترجم

الفصل السابع والعشرون
الدفاع عن مسرح العمليات

بعد **مناقشة اكثر طرق الدفاع اهمية**، ربما بوسعنا تأجيل مناقشة الطريقة التي تندرج فيها طرق الدفاع تلك او تحتل مكانها المناسب في الخطة العامة للدفاع، الى الكتاب الاخير (الثامن) عن خطط الحرب فخطة الحرب بعد كل شيء مصدر كافة الخطط الادنى للهجوم والدفاع، وهي التي تحدد الخطوط الرئيسية لها؛ وغالبا مالا تزيد خطة الحرب في الواقع عن خطة للهجوم أو الدفاع عن المسرح الرئيسي للعمليات. لكن هل نستطيع وبهذه السرعة البدء بمناقشتنا حول الحرب ككل، رغم حقيقة، أن المهم في الحرب، ،وأكثر مما في أي شيئ آخر، هو الكل الذي يتحكم في كافة الأجزاء، ويطبعها بطابعه، ويغيرها جذريا. وعلى العكس، يبدو من الضروري الابتداء بتفحص دقيق لمختلف الاجزاء كمكونات اساسية مستقلة. ولو لم نتقدم من البسيط الى المعقد، فقد كنا سنضيع وسط الضباب الكثيف للمفاهيم الهشة، وعلى الأخص أشهرها غموضا، أو التفاعلات المتنوعة التي تحدث في الحرب والتي كانت ستربك أفكارنا باستمرار. ظلت مرحلة واحدة أمامنا قبل الوصول إلى الكل، وهي تفحص الدفاع عن مسرح الحرب كموضوع قائم بذاته، والبحث عن الخيط الذي يشد جميع الموضوعات التي نوقشت سوية.

ليس الدفاع وكما رأينا سوى الشكل الأقوى للقتال. فالابقاء على القوات المقاتلة لطرف ما، وتدمير قوات العدو ـ أي وبكلمة موجزة .. الانتصار ـ هو جوهر هذا الصراع، الا أنه لا يمكن أن يكون هدفه النهائي.

فالهدف النهائي هو المحافظة على دولة هذا الطرف، وتدمير دولة العدو، وبايجاز مرة أخرى، التوصل الى معاهدة السلام المرجوة، والتي ستنهي الصراع وتحقق التسوية العامة.

لكن ماالذي نعنيه، وضمن سياق الحرب، بدولة العدو؟ أولا وقبل كل شيء .. **قواته المقاتلة**؛ ومن ثم **أراضيه**. كما انها تعني وبطبيعة الحال العديد من الأشياء الأخرى، التي واعتمادا على الظروف، قد تكون على أهمية كبيرة. ومن بين الأساسي منها، الظروف الداخلية والخارجية، والتي تعد حاسمة أكثر من أي شيء آخر في

بعض الأحيان. لكن ورغم أن القوات المقاتلة للعدو ، وأراضيه قد لا تكون الدولة نفسها، كما قد لا تشكل جميع وسائله في الحرب، الا انهما يظلان وعلى الدوام **عاملان حاكمان**، كما أنهما يسبقان **وبدرجة كبيرة جدا** كلما عداهما من عوامل في الاهمية. لقد وجدت القوات المقاتلة لحماية اراضي بلادها، واحتلال ارض العدو؛ فالارض هي، ومن الناحية الاخرى التي تحفظ وجودها وتساعدها على استعادة قوتها. فكل منهما، اذن، يعتمد على الاخر. كما انهما يتبادلان الدعم والاسناد، ولهما اهمية متساوية لبعضهما البعض. لكن وبينما يتفاعلان معا، الا انهما يفعلان ذلك مع اختلاف بينهما. فلو دمرت القوات—او بكلمة اخرى، سحقت ولم تعد قادرة على المزيد من المقاومة بعد— فقد ضاع البلد نفسه وبصورة تلقائية. الا أنه ومن الناحية الاخرى لا يستتبع فقدان أراضي البلاد، تدمير القوات المقاتلة؛ فهي قادرة على التخلي عن البلاد طواعية، من أجل اعادة احتلالها بسهولة أكثر فيما بعد. ليس الابادة الكاملة للقوات المقاتلة وحدها، بل ان اي اضعاف لها وبنسبة كبيرة، كافٍ عموما لفقدان وخسارة الارض. وعلى العكس من ذلك، فليس اي فقدان لقدر كبير من الأرض سيجر طوعيا إلى إضعاف القوات المقاتلة. وإن كان ذلك سيحدث عمليا، بطبيعة الحال، لكن ليس دائما خلال المرحلة الحاسمة من الحرب.

نستنتج من ذلك أن من المهم جدا وعلى الدوام، المحافظة على قواتنا أو، ووفقا لواقع الحال، تدمير القوات المسلحة المعادية لا الاحتفاظ بالأرض—وبكلمة أخرى، أن يكون المطلب الأول هو الشاغل الأساسي عموما. وسيغدو امتلاك الأرض هدفا بذاته، **فقط عندما لا تكون تلك الوسائل كافية بذاتها.**

أما إذا اتحدت قوات العدو كلها في **جيش منفرد**، واذا اقتصرت الحرب على **معركة واحدة**، فإن امتلاك أراض البلاد ستغدو بالمقابل نتيجة لتلك المعركة. أما تدمير قوات العدو، واحتلال أراضيه، وأمن وسلامة قوات الطرف الآخر (المنتصر) فكلها ستلي بعد ذلك طوعيا، وبتعبير آخر، وبتطابق بشكل ما معه. والسؤال الذي يفرض نفسه هو، ماالذي يدفع المدافع الى التخلي عن ذلك الشكل الأبسط من كل أشكال الحرب الأخرى، بالدرجة الأولى، ويلجأ إلى تشتيت قواته في المكان؟. يكمن الجواب في صغر وعدم كفاية الإنتصار الذي بوسعه إنجازه بقواته المشتركة. فلكل إنتصار مجالٍ خاصٍ للتأثير. فإن شمل ذلك المجال كامل دولة العدو— قواته المقاتلة، وأراضيه، وكل شيء آخر— وبكلمة أخرى، فلو أخذت كل مكونات قوته بعيدا، ضمن السيل الجارف

الذي انقض على مركزه، فسيشكل ذلك الإنتصار كلما هو مطلوب. ولا حاجة الى تجزأة القوات. ومن الناحية الأخرى، فإن كانت اقسام من قوات العدو، ومن قوات الدولتين أبعد من مجال إنتصارنا، فستحتاج تلك الأقسام إلى عناية خاصة. ونظرا لتعذر حشد (جمع) الأرض كما هو الحال مع جيش ما، فمن الضروري إذن تجزأة الجيش لأجل الدفاع عن الأرض.

لكن، وفقط في حالة اقتتال دول صغيرة، يمكن إنجاز حشدا كهذا وبالتالي يحتمل ويمكن أن يحسم إندحار الجيش كلما عداه. أما إذا كانت المنطقة المعنية واسعة جدا، والحدود بالغة الطول، أو إن كان طرف ما، مطوق من كل الجهات بتحالف قوي معاد له، فمن المتعذر عمليا تحقيق تحشد كهذا. عندها تغدو تجزأة القوات أمر لا بد منه، مما يفرض بدوره، إيجاد عدة مسارح للعمليات.

تعتمد درجة تأثير ومجال الإنتصار، بطبيعة الحال على **درجة وحجم** ذلك الإنتصار، والذي يعتمد بدوره على **حجم القوة المندحرة**. ولهذا السبب، ستوجه **الضربة** التي يمكن منها توقع أوسع وأفضل الأثار والنتائج، ضد تلك المنطقة التي يمكن أن يوجد أكبر حشد لقوات العدو فيها؛ وكلما زاد حجم القوة التي ستضرب، كلما زاد ضمان نجاح الضربة. وسيقودنا هذا السياق والتابع الواضح إلى تشبيه سيصور لنا الأمر بوضوح أكبر– ألا وهو طبيعة وتأثير مركز الثقل (Center of gravity) .

يوجد مركز الثقل دائما حيث تتحشد الكتل بكثافة أكبر. كما تقدم أكثر الأهداف تأثيرا للضربة، وأكثر من ذلك فأن أقوى وأشد الضربات هي التي تشن بمركز الثقل. ويصح نفس الشيء في الحرب. فللقوات المقاتلة للطرفين – سواء أكانت دولة منفردة أو مجموعة دول متحالفة– نوعا مؤكداً من الوحدة وبالتالي قدرا من التماسك. وحيثما يوجد التماسك فيمكن تطبيق قياس مركز الثقل. وهكذا ستمتلك تلك القوات مركز ثقل حقيقي، وستتحكم ومن خلال تحركها واتجاهها بالباقي، وستوجد مراكز الثقل حيث يتزايد حجم التحشد. لكن، في الحرب، وكما في عالم المواد الجامدة (اللاحية)، فإن قوة تماسك الأجزاء يحدد ويتحكم بالتأثير الناتج عن مركز الثقل. وعلى أية حال، فقد تكون الضربة الموجهة أقوى بكثير مما توجبه المقاومة المتوقعة، ولو حدث ذلك فستوجه الضربة إلى لا شيء سوى الهواء، وستكون تضييعا للطاقة والجهد.

هناك اختلاف واضح ولا لبس فيه بين تماسك **جيش منفرد**، يقاد إلى المعركة تحت القيادة الشخصية **لقائد واحد**، وإن يمتد تواجد **قوة متحالفة** فوق منطقة تصل

إلى ما بين(٢٥٠-٥٠٠) ميلا، أو أن تعمل (تقاتل) ضد جبهات مختلفة. فالأمر هنا وفي إحدى حالاته على أقوى ما يكون التماسك، والوحدة على أشدها. أما في الأخرى فالوحدة بعيدة، وغالبا ما تتمثل في تبادل المصالح السياسية، وحتى هنا فهي إلى حد ما غير كاملة ومحفوفة بالمخاطر؛ إذ يكون التماسك ما بين الأجزاء عادة سائبا جدا، وغالبا ما يكون زائفا ووهميا تماما.

لذلك ومن ناحية أولى، تتطلب الضربة التي نتوخى توجيهها تحشيد قوتنا بأقصى الحدود الممكنة، ومن الناحية الأخرى فأن أي إفراط في ذلك يعد ضررا واضحا، نظرا لأنه يعني اهدارا في الطاقة، الأمر الذي يعني بدوره **نقصا في القوة في مكان آخر**.

لهذا فإن التمييز بين مراكز الثقل تلك في قوات العدو، وتحديد مجالات تأثيرها، يعدان من المهمات الرئيسية للقدرة الإستراتيجية. لذلك يتوجب على المرء (القائد) وباستمرار تقدير التأثير الذي يشكله تقدم أو تراجع أحد أقسام القوة لدى أي من الجانبين على الباقي.

لا يمكن مطلقا أن ندعي إكتشافنا طريقا جديدا، فلم نزد على التوصل إلى أساس عقلاني لما قام به جميع القادة عبر التاريخ، لمساعدتنا في توضيح ما فعلوه بقدر تعلق الأمر بطبيعة المعضلة موضوعة البحث.

سنوضح في الكتاب الأخير كيف تعمل فكرة مركز الثقل هذه في قوات العدو ومن خلال خطة الحرب. فذلك في الواقع هو مكانها الحقيقي، وما تعرضنا لها هنا إلا لكي لا نترك ثغرة أو تقطعا في سير المناقشة. ويتركز تفكيرنا أساسا على استعراض الأسباب والدوافع العامة التي تفرض على القائد توزيع قطعاته. فهناك في الأساس مصلحتان متعارضتان؛ الأولى، في **امتلاك البلاد**، وتؤدي إلى انتشار القوات، والثانية، وهي **ضربة ضد مركز ثقل العدو**؛ ويعني ذلك الإبقاء على القوات محتشدة بدرجة ما.

تلك هي الطريقة التي تتشكل فيها مسارح العمليات، أو مناطق عمليات الجيوش المنفردة. فالبلاد، والقوات المنتشرة فوقها، ينقسمان بطريقة تجعل أي قرار يتخذه القسم

الأكبر في مسرح بعينه، ذو تأثير مباشر على الكل، وحاملا كل شيء آخر معه. وقلنا **مباشرا**، نظرا لأن أي قرار نصل إليه في مسرح عمليات ما، ينحو كذلك للتأثير كثيرا أو قليلا على المناطق المجاورة.

نود التاكيد مجددا على أن تعريفاتنا، هنا وكما في أي مكان آخر إنما تستهدف فقط أسس وجوهر مفاهيم أكيدة، ولسنا راغبين ولا قادرين على صياغة تلك التعريفات في اشكال مجملة محددة. وطبيعة الأمر ذاتها ستجعل ذلك التوضيح كافيا.

لذلك، فموقفنا هو، أن مسرح الحرب، كبيرا كان أو صغيرا، والقوات المنفتحة عليه، وبغض النظر عن حجمها، يمثل نوعا من الوحدة، التي يمكن تشخيص **مركز ثقل منفرد** فيها. وذلك هو المكان الذي ينبغي أن نصل إلى القرار الحاسم فيه؛ فالإنتصار عند تلك النقطة، يتطابق وفي أوسع معانيه وأبعاده مع الدفاع عن مسرح العمليات.

الفصل الثامن والعشرون

الدفاع عن مسرح العمليات - تتمة

يتألف الدفاع أساسا من عنصرين مختلفين- **الحسم و فترة الانتظار**. وسيعالج هذا الفصل العلاقة بينهما.

يتوجب علينا ابتداءً الاشارة إلى أن حالة الانتظار هي مجمل أو جوهر «الدفاع». إلا أنها بالأحرى الصفحة أو المرحلة التي يمر الدفاع منها نحو غايته. فطالما لم تتخلى الوحدة المقاتلة عن الأرض التي خصصت لها فسيتواصل التوتر الذي يسببه هجوم ما على الطرفين. والقرار الحاسم وحده قادر على وضع حد له، وذلك القرار ومهما كان شكله، يمكن اعتباره حقيقة فقط بعد تخلي المهاجم أو المدافع عن مسرح الحرب.

طالما واصلت القوة الاستمرار في منطقتها، فسيتواصل دفاعها عن تلك المنطقة، ويمكن القول بهذا الخصوص بأن **الدفاع** عن مسرح العمليات، **والدفاع فيه** شيء واحد. ولا يعتد بسعة أو صغر حجم المنطقة التي يحتلها العدو مؤقتا، فليس ذلك سوى مجرد اعارة أو تأجير له.

وهذا التنظير المفاهيمي، المعني بإيضاح العلاقة الحقيقية بين حالة الإنتظار، والكل الشامل، تنظير شرعي وصالح (valid) فقط، إن كنا نسعى إلى الحسم فعلا، وأنه يعتبر (أي الحسم) أمر لا بد منه من كلا الطرفين. فالحسم هو الذي يغير مراكز الثقل لدى كل طرف، وما يكوناه من مسارح للعمليات، إلى **عوامل فاعلة** (Active Agents) . ولو أسقط المرء فكرة الحسم، فسيصاب مركز الثقل بالشلل، وهكذا يكون الحال، ومن بعض النواحي في الحقيقة، بالنسبة لكل القوات. عند هذه النقطة، سيغدو العنصر التالي في الأهمية لمسرح الحرب، أي السيطرة على البلاد، هو الهدف المباشر- وبكلمة أخرى، ستزداد أهمية تملك البلاد أكثر، كلما تناقص توق طرفا الصراع للوصول إلى حسم فعال، وكلما زاد اقتراب الحرب أكثر من تحولها إلى مجرد مراقبة متبادلة.

سيهتم المدافع أكثر وأكثر بحماية وتغطية فوريتين لكلما بيده، بينما تتزايد محاولات المهاجم لأنتشار قطعاته خلال تقدمه.

لا ينكر أحد أن معظم الحروب والحملات لم تكن سوى حالة مراقبة أكثر منها

صراع موت أو حياة -أي صراع يسعى منه أحد الطرفين على الأقل للوصول إلى الحسم. وأي نظرية تستند على هذه الفكرة يمكن تطبيقها فقط على حروب القرن التاسع عشر، والتي أظهرت وحدها تلك السمات إلى درجة كبيرة. لا يمكن أن تكون حروب المستقبل كلها من هذا النوع، بل وعلى العكس من ذلك، بوسع المرء التنبؤ بأن معظم الحروب ستعود إلى حروب مراقبة. ولا بد لأي نظرية على أي قدر من التطبيق العملي، الإقرار وتقبل هذا الإحتمال. لذلك علينا الإبتداء بالتمعن في هذا النوع من الحرب الذي يحكم ويشبع بالحاجة الملحة لقرار حاسم - أي عن الحرب الحقيقية، أو الحرب المطلقة، إن جاز لنا إطلاق تسمية كهذه. وسنبحث في فصل لاحق التعديلات الناجمة عن اقتراب قليل أو كبير من حرب المراقبة.

في المثال الأول، إما أن المهاجم سيتوقع فرضه لقرار حاسم، أو أن المدافع هو الذي سيسعى إلى ذلك، ولا يشكل ذلك أي اختلاف أو أهمية للأهداف موضوعة البحث. هنا يتضمن الدفاع عن مسرح الحرب، المحافظة على الموضع بطريقة تسهل لنا الوصول إلى قرار حاسم أو مفيد لنا في أية لحظة. قد يحقق هذا الحسم بمعركة منفردة أو سلسلة من اشتباكات كبيرة، ومع ذلك فقد يتألف أيضا من التأثير المجرد والناجم من العلاقة القائمة في ترتيب وانتشار قوات الطرفين-وبكلمات أخرى من **الاشتباكات المحتملة**.

حتى لو لم تكن المعركة هي الأساس الأول، والأكثرشيوعا والوسيلة الأكبر تأثيرا وفاعلية في تحقيق الحسم (وكما أوضحنا ذلك فعلا ولأكثر من مرة) ينبغي أن تكفي حقيقة كون المعركة إحدى وسائل تحقيق الحسم للعمل على **توفير أقصى حشد ممكن للقوة تسمح به الظروف**. تشكل معركة رئيسية ما في مسرح العمليات اصطداما بين مركزي ثقل، فكلما زاد ما يمكن أن نحشده من قوات في مركز ثقلنا، تأكد وزادت كثافة تأثيره. وعليه فلا بد من **تجاهل أو التخلي عن** أي استخدام جزئي للقوة ليس موجها نحو هدف لا يمكن تحقيقه (ضمنيا) بالانتصار نفسه أو أنه نفسه (أي الهدف) لن يحقق لنا النصر.

ومع ذلك فالشرط الأساسي لا يشتمل فقط أو يتوفر بأكبر حشد ممكن من القطعات، لأنها يجب أن تنفتح بطريقة تمكنها من خوض القتال في ظروف ملائمة بدرجة كبيرة أيضا.

تتوافق درجات الدفاع المختلفة، التي عولجت في الفصل الخاص بأنواع المقاومة،

تماما مع تلك الشروط الأساسية، لذلك فلن نواجه أية مصاعب في إقامة الصلة بينها وفقا لاحتياجات ومتطلبات كل حالة على إنفراد. هناك نقطة واحدة فقط، تبدو وللنظرة الأولى، متناقضة ذاتيا، ولأنها من أكثر النقاط أهمية في الدفاع، الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى المزيد من المعالجة والتطوير، والنقطة هي كيفية توجيه الضربة إلى مركز ثقل العدو.

اذا اكتشف المدافع وبوقت مبكر كاف، الطرق التي سيتقدم عليها العدو، وعلى أي منها سيوجد كوكب (القسم الأكبر) قوته، فسيتمكن المدافع من مجابهته هناك. وهذا ما يحدث عادة وأثناء توقع المدافع للهجوم وهو على استعداد وحذر–كإقامة القلاع، وخزن الأسلحة والمعدات المهمة في مستودعاته، وانتشار قطعاته كما هي عليه أيام السلم، محددا بذلك الخطوط التي سيسلكها الهجوم عند بدء الأعمال العدائية – كما يمتلك المدافع أيضا الفائدة المتأصلة في الدفاع على المتعرض (المهاجم) وهي قدرته على توجيه ضربة سريعة خاطفة.

يستدعي التقدم في أراضي العدو بقوات بحجم كبير، عددا كبيرا من الإجراءات كإنشاء مخازن وأكداس الأغذية ومدخرات التموين أو المعدات وغيرها. وسيستغرق ذلك الكثير من الوقت وبما يوفر للمدافع ما يكفي لإكمال استعداداته. وعلى المرء أن يتذكر أن المدافع عادة يحتاج لوقت أقل مما يحتاجه المهاجم، نظرا لأن كل الدول على استعداد أفضل للدفاع منها للهجوم.

رغم أن ذلك قد يكون صحيحا في معظم الحالات، إلا أن امكانية عدم تأكد المدافع من الطريق الرئيسي لتقدم العدو في حالة بعينها تظل قائمة. ويزداد احتمال ذلك عند اعتماد الدفاع على أجراءات تحتاج إلى مزيد من الوقت، كتهيئة المواقع القوية. وأكثر من ذلك، فحتى حيث يغلق المدافع خط التقدم–شرط أن لا يرى هو نفسه أن التعرض أمر مفروض فيخوض المعركة–بوسع المهاجم تجنب مواضع المدافع بتغيير بسيط في خط مسيره. وفي معظم الأجزاء المأهولة من أوروبا ليس من الصعب العثور على طرق لتجاوز (تخطي) موضعا ما على هذا الجانب أو ذاك. إذ من الواضح أن المدافع لن ينتظر خصمه في تلك الحالة في مواضعه، أو ليس على الإقل ليخوض معركته هناك.

قبل مناقشة الوسائل التي ظلت متيسرة للمدافع في هذا الموقف، علينا تفحصها عن قرب ومراعاة امكانية ظهورها.

هناك، في كل دولة، وفي كل مسرح حرب (وهو موضوع إهتمامنا الرئيسي هنا) بطبيعة الحال، أهداف، ونقاط بعينها تعرض لنا أكثر الأهداف تأثيرا للهجوم. إلا أن مكان المناقشة المفصلة لذلك هو الكتاب الذي يبحث في الهجوم. ولا نريد في هذه المرحلة سوى البحث في ما يلي: إن تحكمت أكثر الأهداف والغايات جدوى وفائدة للهجوم، في اتجاه التعرض، فسيؤثر نفس هذا السبب على المدافع كذلك، ويجب أن يوجه ترتيب مواضعه عندما لا يعرف نوايا وتوجهات خصمه. وإذا فشل المهاجم في اتخاذ أفضل الإتجاهات وأكثرها ملائمة، فكأنه تنازل عن مزاياه الطبيعية. أما إن كان المدافع قد وضع قواته على طول ذلك الطريق، فإن تلافي ومعالجة وتخطي المدافع ليس هينا ولا موضوعاً للمساومة، ولا بد من دفع ثمنه. لذلك فالنتيجة هي **أن لا مخاطر سوء تقدير المدافع لاتجاه الهجوم، ولا قدرة العدو على تخطيه،** كبيران جدا كما قد يتبادر للذهن أول الأمر. فقد أوضحنا في الحقيقة للتو السبب القاهر والمحدد الذي يفرض عادة اتخاذ هذا الطريق أو ذاك. وهكذا، فما من خطر على المدافع، رغم ارتباط وتقيد ترتيب قطعاته في مكان بعينه، من إضاعة القوة الرئيسية للعدو. وبكلمة أخرى، **فإذا اتخذ المدافع الموضع الصحيح، فبوسعه التأكد بقوة من أن المهاجم سيبحث عنه هناك.**

مع ذلك، فلا يمكن إغفال إحتمال أو إمكانية أن تفشل ترتيبات ومواضع المدافع في التماس والإرتباط مع العدو. عندها فالسؤال الذي يقوم هنا، هو ما الذي سنفعله إذن (ماالعمل)، وكم سيتبقى للمدافع من الفائدة الأصلية لموضعه.

الخيارات المتاحة للمدافع الذي تم تخطيه هي التالية:

١. بوسعه شطر قواته إلى قسمين منذ البداية للتأكد من قدرته على الإمساك بالعدو بأحدهما بينما يسعى القسم الآخر إلى إسناد الأول.

٢. بوسعه حشد قوته في موضع واحد، فإن تخطاه العدو، تمكن من التحرك سريعا على الجناح. ويصعب في معظم الحالات جعل التحرك بوضوح ودقة على الجناح تماماً: والموضع الجديد الواجب اتخاذه يجب ان يكون أبعد الى الخلف نوعـماً.

٣. بوسعه توجيه كل قواته ضد جناح العدو.

٤. بوسعه العمل ضد خطوط مواصلات العدو.

٥. يمكنه شن هجوم مقابل ضد مسرح عمليات العدو، مسببا بذلك نفس التأثير الذي أراد العدو إحداثه ضده بالمقابل من خلال تخطيه.

أوردنا الخيار الأخير هنا لاحتمال نشوء حالة ما قد يكون هذا الخيار مؤثرا وفعالا فيها. إلا أنه يتعارض من حيث الأساس مع نوايا وتوجهات الدفاع، أو بالأحرى مع الأسباب التي دعت لاتخاذه. لذلك يتوجب اعتباره كموقف شاذ وغير اعتيادي ولا يمكن أن يحدث إلا بسبب أخطاء رئيسية يقع فيها العدو، أو بفعل وتأثير غرابة وخصوصية حالة منفردة بعينها.

العمل ضد خط مواصلات العدو، يفترض مسبقا، تفوق خط مواصلاتنا، الأمر الذي يشكل فعلا أحد العناصر الأساسية في أي موضع دفاعي جيد. لكن وبينما يعد عملا كهذا المدافع ببعض الفوائد في الدفاع عن مسرح عمليات ما فإنه نادرا ما يقود إلى الحسم الذي افترضنا كونه هدفاً للحملة.

نادرا مايكون أي مسرح منفرد للعمليات باتساع كاف لجعل خطوط مواصلات المهاجم واهنة إلى حد خطير. وحتى إن كانت كذلك فإن تأثيرات عمل ما ضدها ستكون تدريجية وأبطأ من أن تعرقل تنفيذ خطط العدو بجدية، لاسيما التي لا تحتاج إلى الكثير من الوقت.

لذلك، فسيكون العمل ضد خطوط المواصلات وفي معظم الحالات غير مؤثر كليا إن كان العدو قد صمم على تحقيق الحسم-كما أن ذلك العمل لن يحقق الحسم للمدافع.

تعد الوسائل الثلاث الأخرى المتاحة للمدافع أكثر ملائمة للموضوع، لأنها تتوخى الحسم الفوري، ومجابهة بين مركزي الثقل. وسنعلن على الفور بأننا نفضل وبكل قوة الثالث على الاثنين الآخرين. وبينما لا نرفضهما كليا،نرى أن الثالث هو الوسيلة المناسبة والصحيحة للمقاومة في معظم الحالات.

يتعرض من يلجأ إلى تجزأة قواته إلى التورط في حرب مواضع (خنادق): ضد عدو عزوم، وهذا ما ينتج في أفضل الأحوال عن **مقاومة محدودة بدرجة كبيرة**، ولن تحدث مطلقا عندما نستهدف الحسم. وحتى إن أمكن تجنب هذا الشرك أو المخاطرة، فسيضعف الهجوم بدرجة ملحوظة بسبب الإنقسام الموقت للدفاع. كما لا يمكن المرء التأكد أبدا من عدم تكبد الوحدات المتقدمة لخسائر جسيمة. وأكثر من ذلك

فالمقاومة التي تبديها تلك الوحدات ستنتهي بتراجعها نحو القسم الأكبر الذي أسرع بنجدتها. ويعد هذا في نظر القطعات كاندحار أو فشل، وسيؤدي بهذه الطريقة إلى خفض معنوياتها إلى حد كبير.

تتضمن الطريقة الثانية – مجابهة الخصم بقطعات مشتركة على الطريق الذي توخى فيه التملص منا – خطر الوصول متأخرين كثيرا، والوقوع بالتالي بين نارين. بل وأكثر من ذلك فالمعركة الدفاعية تتطلب الهدوء، والتمعن، ومعرفة المنطقة، والتعايش الحقيقي والكافي معها، وليس بوسعنا توقع أي من هذه المطالب إن اشتبكنا بسرعة كبيرة. أخيرا، فإن المواضع الصالحة لمعركة دفاعية جيدة قليلة، وليس بوسع المرء افتراض عثوره عليها على كل طرق، أو عند كل استدارة.

هناك الكثير من الفوائد في المسلك الثالث – اي في الانقضاض على المهاجم من الجناح واجباره على خوض المعركة بعد تغيير جبهته.

فهي اولاً وقبل كل شيء، وكما اوضحنا للتو، ستجعل العدو يكشف خطوط مواصلاته – وهي في هذه الحالة خطوط انسحابه .وتستنبط الفوائد التي يحظى بها المدافع من ظروفه بوجه عام، الا انها تنجم وبشكل خاص مما بيناه من خصائص وميزات استراتيجية لموضعه.

واكثر من ذلك، فالمهاجم الذي يحاول – وهذه هي النقطة الرئيسية – تخطي عدوه منهمك بالقيام بعملين لا انسجام بينهما في آن واحد. فاهتمامه الاول منصب على التقدم والوصول الى هدفه، لكن ولا حتمال تعرضه لهجوم من الجناح في اية لحظة، فسيشعر بان عليه الرد بضربة سريعة وبكل قوته، . وكلا الغايتين تقيد احداهما الأخرى بشكل متبادل؛ كما يثيران الكثير من الفوضى والارتباك، ويجعلان من الصعوبة بمكان مواجهة كافة الاحتمالات التي يجد المرء صعوبة بالغة في تصورها او توقعها في موقف استراتيجي بالغ السوء. فلو استطاع المهاجم تحديد مكان وتوقيت تعرضه للهجوم فسيكون بوسعه التهيؤ لمواجهة ذلك بمهارة وبالموارد اللازمة؛ لكنه ووسط الشكوك التي تحيطه، والضرورات التي تجبره على مواصلة التقدم، فلن تعدم والحالة ذي، معركة سريعة ومفاجئة من مباغتته، وتحشد قواته في حالة من السوء بعد، وفي موضع يخلو من اية فوائد بكل تأكيد .

فان كانت هناك من فرصة مناسبة ابداً للمدافع لخوض معركة تعرضية فيجب على المرء توقعها بكل تأكيد في ظروف كهذه. ولو اضفنا لذلك تذكرنا ان للمدافع

ميزة معرفة واختيار الارض، وقدرته على تهيئة تحركاته والبدء بها، فما من شك في حصوله خلال ظروف كهذه على تفوق استراتيجي محدد على عدوه.

لذلك نشعر ان المدافع الذي احسن ترتيب كل قوته في موضع جيد، بوسعه وبكل اطمئنان انتظار تخطيه. فان لم يبحث عنه عدوه ، وان لم تسمح له الظروف السائدة للموقف من التأثير على خطوط مواصلات عدوه، فستظل بين يديه وسائل جيدة للوصول الى قرار حاسم بالانقضاض على جناح عدوه.

نادراً ما حدث ذلك في التاريخ. ويعود السبب في ذلك جزئياً الى ان المدافع نادراً ما يجرؤ علي التمسك بموضع كهذا؛ فهو اما ان يقسم قوته او يسرع لقطع وافشال الهجوم بانقضاض مائل او جانبي . بالاضافة الي ذلك فلن يجرؤ المهاجم على تخطى المدافع في ظروف كهذه وان ذلك سيجبره علي التوقف .

عندها، وفي حالة كهذه يجبر المدافع على خوض معركة تعرضية، وأن يُضيّع الفوائد الاضافية **للأنتظار ، وللموضع القوي، وللخنادق الممتازة** وغير ذلك. وكقاعدة، ففي الموقف الذي يجد فيه (المدافع) ان تقدم العدو لن يهيء الفرصة المناسبة لنقص في تلك الفوائد، وفي النهاية يكون المدافع قد اضاع فرصة او حالة عرض المهاجم نفسه فيها لظروف كهذه . الا أنها مع ذلك تقدم **قدراً مؤكداً من التعويض**. وهكذا فما بين ايدينا ليس مثالا او حالة يجد المفكر فيها ان الكميات تختفي فجأة ، وان **الحجج المؤيدة والمعارضة يلغي بعضها البعض،** كما يحدث غالباً عندما يدخل النقاد العسكريون اجزاءاً او نتفاً من النظرية في عملهم.

لا نعني بذلك وضمنياً انها مسألة مهارات منطقية، بل وعلى العكس من ذلك، فكلما اطال المرء التمعن في الجانب العملي للقضية، رأى المرء اكثر ان الفكرة التي طبقت على كل موضوع الدفاع، انما تتحكم وتتخلل في كل جوانبه.

اذا صمم المدافع على مهاجمة العدو بكل قوته حال تخطي العدو له، فبوسعه انذاك فقط تجنب المأزقين اللذين سيعترضان طريقه بقوة – الموضع المنقسم والتقدم السريع. وفي كلتا الحالتين ستتحكم به ظروف وحالة الهجوم، وفي كلتا الحالتين عليه القيام بذلك بجهد اضافي، وسرعة واندفاع خطيرين . وعليه فحيثما وجد خصم عزوم، ويسعى بحثاً عن انتصار ووصول الى قرار حاسم، وبعد مواجهة منظومة دفاعية من هذه النوع، فانه سيسحقها . من الناحية الاخرى، فالمدافع الذي انجز تحشيد قواته كي يقاتل كقوة واحدة، وفي المكان الصحيح، والمصمم على مهاجمة جناح عدوه اذا

ساءت الاحوال، فانه مدافع يسير في الطريق الصحيح، مسنداً موقفه بكل الفوائد والمزايا التي بوسع الدفاع تقديمهافي موقفه. وستتسم إدارته لما يقوم به **بكل الاستعدادات الجيدة، وتأليف القوة، والثقة ، والوحدة ، والبساطة .**

لسنا قادرين بهذا الخصوص الا ان نذكر حادثة تاريخية مهمة، ولها علاقة قوية بالافكار التي نوقشت هنا. ونهدف بذلك اساساً لمنع اية استنتاجات خاطئة. ففي اوكتوبر ١٨٠٦، كان الجيش البروسي في (ثورنجيا) بانتظار نابليون بونابرت ما بين الطريقين الرئيسين، اللذان كان بوسعه التقدم عليهما– الاول المار عبر ايرفورت والاخر المار عبر (هوف) نحو لايزك وبرلين. وقد نتج هذا الموضع المتوسط عن الغاية الاولية في التقدم مباشرة خلال غابة (ثورنجيا) نحوفرانكونيا ثم التخلي عن هذه الخطة فيما بعد، بسبب الشك حول اي من الطريقين سيختاره الفرنسيون . ولذلك كان ينبغي ان يؤدى ذلك الى تحرك سريع لايقاف التقدم الفرنسي .

هذا هو في الحقيقة ما اراد البروسيون فعله لو جاء العدو من طريق ايرفورت، لان الطريق المار من هناك سهل الاجتياز تماماً. لكن ومن الناحية الاخرى فان غلق الطريق الاخر اي طريق (هوف) غير ممكن لانه يقع على مسيرة يومين او ثلاثة ايام ، ولوقوع وادي « السال » العميق بينهما. كما لم يفكر الدوق برونزويك بتحرك كهذا، لذا لم يقم باية استعدادات بهذا الصدد. الا ان الامير (هوهنلوه) كان على الدوام يريد القيام بذلك، وكذلك الحال الى حد ما بالنسبة للعقيد (ماسنباخ) الذي حاول جهده لاقناع الدوق بمشروع كهذا . رغم ان فكرة التخلي عن الموضع الدفاعي على الضفة اليسرى لنهر السال لخوض معركة تعرضية ضد بونابرت اثناء تقدمه، هي فكرة يصعب الدفاع عنها – وبكلمة اخرى بالانقضاض على جناح بونابرت في الطريق الذي اشرنا اليه اعلاه، فان شكل النهر مانعاً يمكن استغلاله حتى أخر لحظه لمجابهة العدو فسيشكل مانعاً أكبر واقسى لهجوم مفاجئ يشن بعد ان يكون (نابليون) قد استقر في موضع دفاعي ولو جزئياً، على الضفة البعيدة. لذلك اثر الدوق البقاء خلف نهر السال[1] وانتظار تطور الاحداث – أن امكن التحدث عن قرار شخصي يمكن لرجل واحد أن يتخذه وسط هذا العدد الكبير من مثيري المشاكل والصعوبات، وفي حالة من الفوضى والتردد الدائمين .

---

(١) . يشير كلاوزفيتز الى تحركات ومناورات جش نابليون والجيش البروسي في الفترة التي سبقت حملة ينا الشهيرة عام (١٨٠٦). المترجم

مهما كانت الدوافع الحقيقية وراء انتظاراً قرار الحسم، فان ما يمكن ان ينتج عنها من خيارات هي كالتالي:

أ . يمكن مهاجمة العدو عند عبوره نهر السال للتقدم ضد الجيش البروسي. أو

ب . ان قرر أن يترك الجيش البروسي فيمكن عندها ازعاج خطوط مواصلاته. أو

جـ . ان امكن ، ومع توفر ظروف ملائمة، بمجابهة العدو عند لايبزك بمسير سريع باتجاه جناحه.

في المثال الاول، وفر عمق وادي السال للجيش البروسي تفوقاً استراتيجياً وتعبوياً عظيمين. كذلك فللجيش البروسي في المثال الثاني نفس التفوق الاستراتيجي الكبير، لان قاعدة العدو فيما بينهم وبين اراضي بوهيميا المحايدة ضيقة للغاية على عكس قواعد الجيش البروسي الواسعة الى حد استثنائي ، وحتى في المثال الثالث فليس البروسيون بوضع سيء غير مفيد اذ يسترهم نهر السال. وبغض النظر عن الفوضى واللاوضوح « uncertainty » فقد جرت مناقشة الاحتمالات الثلاث اعلاه في مقر القيادة. ومع ذلك فليس من المدهش انه، وبينما تتمكن **فكرة** ما من فرض نفسها والسيطرة وسط حالة من الفوضى والعجز، فان **تنفيذها** يمكن ان يفشل او يفسد وسط اضطراب شديد كهذا.

يمكن اعتبار الموضع على الضفة اليسرى لنهر السال في المسلكين الاولين (أ،ب) موضعاً جنبياً ممتازاً، ويتمتع بمزايا وفوائد عظيمة للغاية دون شك، الا ان موضعاً كهذا والجيش لم يعد شديد الثقة بنفسه، وفي مواجهة عدو متفوق جداً كجيش **بونابرت**، فلن يشكل الموضع الجنبي **مسلكا جريئاً** للغاية عند الاختيار .

بعد فترة طويلة من التردد إختار دوق برونزويك في ١٨٠٦/١٠/١٣ المسلك الثالث (جـ) اعلاه. الا انه تأخر كثيرا فقد كان نابليون يعبر نهر السال انذاك، وان معركتي (ينا) و (اويرشتاد) باتتاوشيكتا الوقوع. اوقع الدوق من خلال تردده هذه نفسه بين نارين، فقد تأخر في التحرك من المنطقة لمجابهة خصمه وقطع الطريق عليه من جهة، وكان مبكراً للغاية من جهة اخرى لخوض معركة ناجحة ومؤثرة. ورغم كل ذلك ، فقد كانت المناعة الطبيعية لموضعه كبيرة جداً، وكافية لتمكنه من تدمير الجناح الايمن للفرنسيين في (اويرشتاد)، كما كان بوسع الامير هوهنلو التملص والنجاة من الفخ المنصوب له عند (ينا) بقتال شاق وباهض الثمن تخوضه ساقاته. الا ان البروسيين لم يجرؤا على الثبات ومتابعة العمل في (أويرشتاد) حتى **النصر الأكيد**، وفكروا بدلاً من ذلك باختيار (ينا) ، حيث كان انتصارهم **مستحيلاً تماماً**.

وعلى اية حال فقد تفهم نابليون وقدر الاهمية الاستراتيجية لموضع على نهر السال الى الحد الذي لم يجرؤ معه على تخطيه مفضلا عبور نهر السال تحت انظار العدو.

اوضح لنا المثال السابق، كما نعتقد وبدرجة وافية جداً علاقة الدفاع بالهجوم في حالات تستدعي عملا حاسماً، كما حددا لنا ووفقا لموضعهما وتماسكهما، الروابط التي تشد اجزاء خطة دفاعية ما الى بعضها . لا نريد التوسع بالمزيد من التفاصيل التي تقودنا فقط الى ما لا يحصى عدده من الحالات الفردية . وحالما يقرر القائد ويعقد العـزم على انجاز هدف محدد ، فسيتمكن من تحديد مكانة العوامل والظروف الجغرافية ، والسياسية والاعداد والاحصائيات والشروط المادية والشخصية والمكانة التي تحتلها والطريقة التي سيلائم فيها جيش العدو وجيشه نفسيهما ثم يستطيع بعدها تعديل خططه وفقاً لذلك.

لقد تحددت هنا وبدقه اكثر مراحل الدفاع المتعاقبة التي عرضناها في الفصل الخاص بانواع المقاومة، كما ستتفحص اثرها في الموضوعات الحالية بشكل عام.

١ . قد تؤدي الاسباب التالية الى الاقتراب من العدو مع التصميم على خوض معركة تعرضية:

أ . اذا عرفنا ان قوات العدو انتشرت باتساع كبير، وحتى لو كانت قواتنا اضعف واقل قوة، يظل هناك الكثير من الفرص للأنتصار.

ان انتشاراً كهذا خلال التقدم ليس محتملاً، لذا فخطة هجوم كهذه ليست صائبة ما لم نكن على علم مسبق بتحركات العدو. الا ان بناء **افتراضات** كهذه دون قاعدة صلبة، ومن ثم تصديقها واعتمادها، وبناء كافة توقعاتنا وفقا لها، سيقود عادة الى موقف لن نحسد عليه. فقد لا تسير الظروف والاحوال كما نتوقع، لذا لابد من التخلي عن فكرة المعركة التعرضية، مع عدم الاستعداد لمعركة دفاعية. لا بد من الاسراع بانسحاب قسرى، وترك كل شي للصدفة .

وهذا هو ما حدث تقريباً للدفاع الذي نفذه جيش (دو هنا)[١] ضد الروس في حملة ١٧٥٩، والذي انتهى بكارثة تحت قيادة الجنرال فيديل في معركة (زولليشاو)[٢].

---

(١) الجنرال الروسي الكونت كريستوف دوهنا (١٧٠٣ – ١٧٦٧) اما عن معركة (زوللشياو) أو (كي) فراجع الهامش في الفصل (١٨) الكتاب (٦) ص (٦١٢). المترجم

(٢) اي مدينة (كاي) راجع الهامش في (٦١٢). المشرف

ولان هذه الطريقة حلت القضية بسرعة، نرى ان المخططين يسارعون لاقتراح هذا النوع من السياق دون التأكد من صحة الافتراضات الاساسية.

ب . ان كان لدى (المدافع) عموماً قوة كافية لخوض معركة، و

جـ . اذا اغرانا عدو أخرق ومتردد بالهجوم.

قد يكون اثر المباغتة في حالة كهذه اكبر بكثير من جميع فوائد ومكاسب الارض في المواضع الملائمة والمفضلة. وان من ابرز سمات وجوهر الزعامة، استخدام العوامل النفسية بهذه الطريقة. ومع ذلك ، فليس بوسع المفكر التأكيد علانية وبقوة كافيتين على ضرورة وجود **اسباب موضوعية** لتلك الافتراضات، اذ وبدون **اسباب محددة** كهذه فمن غير المناسب ، ولا المقبول حتى التحدث عن المباغتة، وعن جدارة هجوم غير تقليدي، وفي اسناد الخطط والحجج والانتقادات عليها .

د . ان كان تأليف الجيش بشكل يجعله ملائماً بشكل خاص للتعرض.

كان جيش فردريك الكبير مرناً، وشجاعاً ، وشديد الثقة بالنفس؛ وقد اعتاد الانضباط، ودرب على انجاز ما يكلف به بشكل كامل ، مفعم ومحاط باحساس من الاعتزاز. ولم يكن فردريك بالتأكيد على خطأ او دون مبررات مقنعة لاعتقاده بان جيشه الذي درب بهذه الطريقة للهجوم المائل، قد اصبح الة غدت في يده الواثقة والفعالة، ملائمة وبشكل افضل للهجوم منها للدفاع . وتلك هي المزايا والسمات التي لا يمتلكها الخصم، وانها الخواص التي اعطت فرردبك الكبير تفوقاً ملحوظاً . وكانت ذات قيمة كبيرة وزادت في معظم الحالات عن جميع فوائد ومزايا الخنادق والمواقع الطبيعية. مع ذلك فليس تفوقاً كهذا بالامر الشائع بل النادر، ويحتاج لما هو اكثر من مجرد جيش حسن التدريب، واعتاد على التحركات الواسعة النطاق . على المرء ان يعطي تأكيدات ومنهجية فردريك الكثير من المصداقية – الامر الذي اعيد مرات كثيرة وبتأكيد مطلق – بكون الجيش البروسي قد أعدُ بشكل خاص للتعرض؛ اذ من الطبيعي ان تكون المعنويات وروح القتال والشجاعةفي الحرب ، اقوى واعلى لدى المهاجم مما هي عليه عند المدافع . وهذا شعور عام في جميع القطاعات، ومن الصعب العثور على جيش لا يؤكد قادته وضباطه على جميع تلك السجايا مقدماً وعلى الدوام. مع ذلك لا بد من الحذر مع هذا النوع من التفوق، في الوقت الذي نتجاهل فيه بعض المزايا والفوائد الاكيدة.

قد يشكل تأليف جيش ما حجة واساساً طبيعياً جداً، وسبباً له وزنه في خوض معركة تعرضية – عندما يمتلك الجيش الكثير من الخيالة والقليل من المدفعية.

ولمتابعة قائمة الاسباب المبررة لمهاجمة العدو.

هـ . اذا امكن الحصول على موضع جيد وملائم .

و . ان كانت الحاجة الي حسم ملحة.

ز . واخيراً فان عدداً من الاسباب اعلاه او حتى كلها قد تعمل معاً.

٢ . يمكن العثور على اكثر الاسباب المعقولةوالطبيعية لانتظار من تريد مهاجمته (كما في مندين[1] عام ١٧٥٩) فيما يلي :

أ . عندما لا يكون الاختلاف في القوات كبيراً في صالح العدو، ولا نجد انفسنا مضطرين عندها للبحث عن موضع محكم نتخندق فيه.

ب . عندما تكون المنطقة ملائمة للغرض بشكل خاص. والعوارض التي تقرر ذلك ذات منحى وسمات تعبوية؛ ويكفي ان نذكر الاسهام الاساسي لها، وهي سهولة ما نريد من مسالك وصعوبة وكثرة المواقع على مسالك العدو.

٣ . الموضع الواجب اتخاذه عندما تعني فعلاً انتظار العدو فيه:

أ . ان اجبرنا لا توازن القوى على البحث عن ملجأ (موضع) خلف مانع طبيعي وخنادق . او .

ب . ان كانت الارض ملائمة وبشكل خاص لموضع كهذا

---

(١) حملة مندين (١٧٥٩). وهي احدى حملات حرب السنوات السبع بين بروسيا وانكلتره ضد فرنسا والنمسا والسويد وساكسوني وبعد ان فشل البروسيون في غرب وسط المانيا ووصول النجدات البريطانية قرر البروسي دوق برونزويك وبامرته (٣٠) الفاً التقدم من خط فونستر – بادربون – كاسيل الذي احتله خلال الشتاء والمضي لطرد الفرنسيين المتمركزين في فرانكفورت وفيزل . وبعد صده بيرجين (قرب فرانكفورت) بقوة قليلة العدد أجبر على التراجع ثانية واستطاع الفرنسيون احتلال الجسر على نهر فيزل في (مندين) وانشأوا موضعاً قوياً ضد اي هجوم مباشر وفي ١ / اب / ١٧٥٩ شن البروسيون هجومهم بـ (٤٥) الفاً ضد الفرنسيين (٦٠) الفاً والحقوا بهم خسائراً فادحة الا ان الجنرال البريطاني رفض اكمال الطوق على الفرنسيين مما اتاح لهم فرصة للأنسحاب رغم ما كانوا عليه من فوضى وارتباك وما تكبدوه من خسائر تقرب من (١٠) الاف رجل (م . ت . ع ص ٦٧٢). المترجم .

يستحق نوعا المقاومة الثاني والثالث الكثير من الاعتبار والتمعن والى الدرجة التي ان لم يسعى فيها المرء للبحث عن الحسم بنفسه ، فسيرضى بنجاح سلبي، وان يتوقع اضطراب وتردد العدو ، وان يظهر عجزه وبالتالي تخليه عما انتوى .

٤ . يحقق موضع متخندق ومعسكر تصعب مهاجمته الغرض فقط:-

أ . اذا اختير في منطقة ما تتمتع باهمية استراتيجية خاصة.

السمة التي تميز موضعاً كهذا هي انه يصعب التغلب عليه؛ وسيجبر العدو بذلك على محاوله اية وسائل اخرى متيسرة؛ وعلى سبيل المثال، متابعة تحقيق هدفه بغض النظر عن موضعه، او احاطته واجاعة حاميته . فان عجز عن القيام باي من هذين ، فان الاهمية الاستراتيجية التي للموضع كبيرة فعلاً .

ب . ان كان لذلك الطرف مبرر لتوقع مساعدة خارجية.

وهكذا كانت حالة الجيش الساكسوني في موضعه في (بيرنا). وبغض النظر عما قيل عن هذا المعيار بعد النتيجة المؤسفة التي انتهى اليها ، فالحقيقة هي عدم قدرة (١٧) الف ساكسوني على شل (٤٠) الف بروسي مطلقاً وباية طريقة اخرى . ولو لم يحسن الجيش النمساوي استخدام تفوقه على الجيش البروسي في (لوبوستز)[1] بسبب حالة شلل الاخير، فانه كان سيوضح لنا فقط كم كان تنظيم الجيش النمساوي وطرقه واساليبه فقيرة ولا مجدية. ما من شك في ان فردريك الكبير كان سيطارد النمساويين والساكسون الى ما وراء براغ في تلك الحملة، واحتلال براغ كذلك، لو ان الساكسون، وبدلاً من احتلالهم معسكر (بيرنا) ساروا الى بوهيميا. ولكل من ينكر اهمية هذا العمل البطولي، ولا يتذكر الا أسر الجيش الساكسوني، نقول انه لا يعرف كيفية تقويم وقراءة احداث من هذا النوع، وبدون تقويم وحسابات لا يمكن التوصل الى اية استنتاجات ذات قيمة.

لكن ولندرة الحالات والشواهد المذكورة في (أ،ب) فلا بد وكي يمكن الاطمئنان والاعتماد على تدابير المواضع المتخندقة من دراسة وتأمل عميقين. الامر الذي لم ننتبه له الا نادراً. ولن يقودنا الامل باخافة العدو والتأثير عليه من خلال معسكر (موضع) كهذا، وبالتالي شل فعاليته، لن يقودنا الا الى المزيد من المخاطر الجسيمة -اي

---

(١) . راجع الهامشين في الفصل الثالث عشر الكتاب السادس عن معسكر بيرنا ومعركة براغ ص (٥٧٤) وص(٥٧٧). المترجم.

القتال دون توفر طرق انسحاب. ولو كان فردريك الكبير قد حقق هدفه في (بانزيلفتز)[1] بنفس الطريقة، فعلى المرء – اولاً – ان يعجب بحساباته وتقويمه الدقيقين لخصمه؛ لكن على المرء كذلك ان يشدد بقوة اكثر من المعتاد على الوسائل التي كان سيجدها فردريك الكبير للأختراق بما تبقى له من جيشه لو سارت الامور على نحو معاكس له، و – ثانياً – على انه وكملك **لم يكن مسؤولاً امام اي كان.**

٥ . لو وجدت واحدة او اكثر من القلاع قرب الحدود ، فالسؤال الرئيسي الذي سيفرض نفسه هو هل على المدافع البحث عن حسم امام او خلف تلك القلاع. والأسباب التي تبرر المسلك الثاني كما في ادناه.

أ . يدخل هنا، ان تفوق العدو العددي سيجبرنا على دحره وتمزيقه قبل المعركة.

ب . مدى بعد القلعة كي يمكن تقليل ما سنخسره من ارض الى ادنى حد ممكن.

جـ . القدرة الدفاعية للقلاع.

ما شك في ان احدى مهمات القلاع ، او ينبغي ان تكون كذلك هي ايقاف والحد من تقدم العدو، واضعاف ذلك الجزء الذي ننوي دحره وتدميره في اشتباك حاسم. اما ان لم تستخدم القلاع لغرض كهذا الا نادراً، فما ذلك الا وجه واحد من اوجه الحقيقة الاساسية في ان الطرفين لا يسعيان الى تحقيق حسم تام. ومع ان هذه هي الحالة الوحيدة التي سنهتم بها الآن، لذلك سنعتبرها كمبدأ بسيط الا انه مهم جداً، فالمدافع الذي لديه قلعة واحدة او اكثر ضمن المدى عليه ان يضعها امامه، وان يخوض المعركة الحاسمة خلف تلك القلاع. مع اننا نقر بان خسارة معركة خلف قلاعنا ستدفعنا الى الخلف اكثر داخل بلادنا، مما لو كنا خسرنا المعركة وبنفس النتائج التعبوية امام القلاع، الا ان جذور هذا الفرق ليست حقيقية بل مجرد خيال. كما ندرك ايضاً،امكانية خوض معركة في موضع حسن الاعداد على الجانب البعيد من القلاع، في الوقت الذي قد تنقلب فيه معركة على الجانب القريب الى معركة تعرضية اذا فرض العدو حصاراً على القلاع وتعرضت القلاع الى خطر الاجتياح او الاستسلام. ولكن ماذا يمكن ان تعنيه كل هذه النقاط الجيدة امام ما نجنيه من فوائد في زج العدو لقواته في

---

(١) راجع الهامش في الفصل السادس الكتاب الثاني ص (٢٧٢). المترجم

معركة حاسمة بعد ان نكون قد انقصنا تلك القوة بمعدل الربع او الثلث – او الى النصف حقاً لو كنا نمتلك عدة قلاع؟

لذا نشعر انه، وطالما لم يعد تجنب **معركة حاسمة ممكناً** – سواء ارداها العدو، أو قائدنا نحن – وعندما لم يكن المرء واثقاً من النصر كي يبدأ المعركة، أو حينما لا تجعلنا الارض نفضل اختيار ساحة معركة ابعد الى الامام، في كل هذه الحالات تلعب قدرة القعلة القريبة على المقاومة دوراً لا يمكن مناقشته او الشك فيه على قرار التراجع الى خلفها والبحث عن خوض المعركة هناك، وضمان الفائدة التي توفرها لنا. بالاضافة الى ذلك، إذا اخذنا موضعنا قرب القلعة بحيث لا يغدو بوسع العدو محاصرتها او احتلالها الا بعد طردنا من مواضعنا ، فستجبره على مهاجمتنا في مواضعنا . لذلك نرى ان ما من ترتيبات دفاعية في موقف خطر ابسط واكثر فاعلية من اختيار موضع دفاعي حسن الاعداد وقريب أو الى خلف قلعة كبيرة محصنة.

سيختلف الامر كلياً بطبيعة الحال، إن كانت القلعة تقع بعيداً الى الخلف .اذ على المدافع انذاك التخلي عن الكثير من مسرح عملياته – وهي تضحية يجب ان لا نقدم عليها ما لم تفرضها الظروف . وسيكون العمل في تلك الحالة اقرب كثيراً الى عملية انسحابه الى داخل البلاد.

لذا فقوة مقاومة القلعة تعد عاملاً إضافياً . كما ان هناك تحصينات محلية، وعلى الاخص الكبيرة منها، وهي مما لا ينبغي السماح أن تكون بتماس مع العدو، نظراً لانها لم تعد اساساً لمجابهة هجوم قوي بقوة كبيرة . وعليه لا بد ان تكون مواضعنا في حالة كهذه ، قريبة بما يكفي على الاقل وراءها كي تعد كاسناد لقوة الموضع.

٦ . اخيراً، فالانسحاب الى داخل البلاد يعد مسلكاً مناسباً في الظروف التالية فقط:

أ . اذا توصلنا بعد المقارنة ما بين موقفنا المادي والمعنوي وموقف العدو الى استبعاد امكانية فرض مقاومة ناجحة عند الحدود او على مقربة منها.

ب . عندما تكون غايتنا الرئيسية هي كسب الوقت.

جـ . عندما تكون ظروف البلاد ملائمة لذلك، وكما اوضحنا في الفصل الخامس والعشرين اعلاه.

ننهي هذا الفصل الخاص بالدفاع عن مسرح الحرب بالحالات التي يبحث فيها هذا الطرف او ذاك عن حسم، فهو لذلك لا يمكن تجنبه. لكن علينا ان نذكر القارىء طبعاً بان الامر لا يكون على هذه الدرجة من الوضوح والقطعية في الحرب الحقيقية. ويعني ذلك ان لو حاول احد ما تطبيق بياناتنا وحججنا على حرب حقيقية، فعليه التمعن كذلك في الفصل الثلاثين (التالي) وملاحظة ان معظم القادة سيواجهون مهمة الاختيار ما بين مسلكين، والاقتراب كثيراً من هذا او ذاك وفقاً للظروف .

الفصل التاسع والعشرون
الدفاع عن مسرح العمليات – تتمة :
مقاومة ممرحلة

استعرضنا في الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من الكتاب الثالث بان المقاومة على مراحل متتابعة لا تتلائم والطبيعة العامة للاستراتيجية، وان جميع القوات المتيسرة يجب ان تستخدم في آن واحد.

الان وبقدر تعلق الامر بالقوات المحموله (Mobile) ، فانها ليست بحاجة الى استعراض مفصل. الا ان مسرح الحرب يعامل كالقوات المقاتلة نفسها، بكل ما فيه من قلاع، وما فيه من موانع طبيعية، واتساع مداه المحض، فهو ثابت (Immobile) . لذلك فهو اما ينشط ويحرك على مراحل، والا كان علينا الانسحاب على الفور والى المدى الذي نجعل كل اجزاء المسرح المعنية امامنا. وفي تلك الحاله سيغدو كل تأثير يمكن لمسرح الحرب ان يمارسه لاضعاف العدو، فعالاً. فلا بد للعدو من اجتياح قلاعنا، وتأمين المنطقة بحاميات ونقاط قوية، والقيام بمسيرات طويلة، وتأمين مدخرات التموين من مسافات بعيدة، وغير ذلك. وسيجرب جميع تلك التأثيرات سواء **تقدم قبل الحسم أو بعده**، ولو انها ستضره قبله اكثر مما في بعده. نستنتج من ذلك ، ان كان المدافع سيقرر وبوقت مبكر كاف نقل الحسم بعيداً الى الخلف من حيث الوقت والمسافة، فسيجد ان ذلك وسيلة لدفع كل القوات الثابتة لان تلعب دورها في آن واحدمعاً.

من الواضح من الناحية الاخرى ان التأجيل في الحسم، لن يكون له، حصراً اي تأثير على مجال الاهمية والنفوذ اللتان يعطيهما النصر للمهاجم. وسنتفحص مجال الاهمية هذا بدقة اكبر تحت عنوان «الهجوم»، ولكننا نود ان نوضح هنا بانه سيتسع الى النقطة التي يستنفذ فيها التفوق (الناتج من العلاقات المادية والمعنوية). ويتلاشى هذا التفوق بفعل عاملين؛ هما المتطلبات التي يلقيها مسرح الحرب نفسه على عاتق القوات المقاتلة؛ والخسائر المتكبدة في المعركة. لم يتغير اي من هذين بشكل جوهري سواء جرى خوض القتال مبكراً او فيما بعد. وعلى سبيل المثال نعتقد ان الانتصار على الروس في فيلنا عام ١٨١٢ كان سيقود نابليون الى نفس المدى الذي قاده اليه انتصاره

في (بوردنيو)، شريطة ان يكون بنفس الابعاد، اذ حتى انتصاره في موسكو ما كان سيأخذه الى ابعد من ذلك. كانت موسكو هي الامتداد الاقصى لمجال انتصاره على اية حال. وما من شك في الحقيقة بان معركة حاسمة عند الحدود كانت (ولاسباب مختلفة) ستحقق نتائجاً اعظم، وربما مجالاً اكبر للأنتصار. وسيشكل هذا عاملاً لا تأثير له في تحويل المدافع لنقطة الحسم الى الخلف.

لقد وصفنا في الفصل الخاص بانواع المقاومة وفي فقرة **الانسحاب الى داخل البلاد**، ما يمكن اعتباره الشكل النهائي لتأخير الحسم. يهدف هذا الشكل المحدد من المقاومه لجعل المهاجم يمزق نفسه بدلاً من دحره في معركة. الا إن تأجيل القرار والحسم يمكن ان يعتبر هو ذاته **نوعاً خاصاً من المقاومة**. فقط، عندما يعد ذلك هو الهدف الرئيسي، وبخلاف ذلك، فان ما لا يحصى عدده من الحالات المتدرجة (Gradations) مما يحتمل وقوعه في هذا النوع من المقاومة، وكل من هذه الدرجات يمكن ان تظهر وتمتزج مع كل طريقة اخرى للدفاع. اما الدرجة التي يسهم بها مسرح الحرب فلا ينبغي اعتبارها نوعاً خاصاً من المقاومة، بل مجرد مزيج مؤقت او اختياري لوسائل ثابتة للمقاومة، كي تستخدم كما تدعو الحاجة اليها ووفقاً للظروف والاحداث والمستلزمات.

اما اذا احس المدافع بعدم الحاجة الى عون تلك العوامل الثابتة (اللامتحركة)، او ان كانت التضحيات التي تستلزمها من نواح اخرى تعد جسيمة، فسيحتفظ بتلك العوامل والقدرات الى المراحل الاخيرة. عندها يمكن استخدامها كتعزيزات نشطة جديدة ما كان المدافع قادراً على انتظارها سابقاً، كما يمكن ان تغدو الطريقة التي يمكن ان تعقبها القوات المتنقلة بعد قرار الحسم الاول، للوصول الى حسم ثاني وربما ثالث. وبعبارة اخرى، يغدو التطبيق التدريجي للقوة ممكنا بهذه الطريقة.

اذا خسر المدافع معركة عند الحدود، فمن الممكن تماماً – شرط ان لا يؤدي ذلك الى اندحار كبير – ان يكون قادراً على خوض اخرى فيما وراء خط قلاعه. وفي الحقيقة،ان المانع الطبيعي القوي جداً، قادر على ايقاف عدو ليس شديد العزم والتصميم.

في الاستفادة من مسرح الحرب، وكما في اي شيء اخر، تفرض الاستراتيجية

علينا **الاقتصاد في القوى**. وكلما قل ما يستخدم منها لانجاز المهمة، كلما كان ذلك افضل، الا ان انجاز ذلك، هنا، وكما في التجارة، فأمر اكبر بكثير من مجرد لسعة (Stingness) فقط.

لتجنب اي غموض او سوء فهم، نود ان نوضح هنا، ان المقاومة التي نبديها، او نحاول ابدائها بعد اندحار، ليست هي ما نناقشه هنا. فالمهم هو مقدار النجاح الذي نتوقعه مقدماً في مقابل ما نبديه من مقاومة جديدة كهذه – ومقدار القيمة والاهمية التي ينبغي على الخطة العامة اعطائها لها. من الصعوبة بمكان ان يجد المدافع اكثر من طريقة واحدة للنظر في ذلك؛ اذ تقاس من وجهة نظر العدو، ومن خصائصه ومن موقفه. فان كان ضعيفاً في خصائصه، وقليل الثقة بنفسه، وواهن العزم والطموح، وان كانت حريته في العمل محدودة كذلك، فسيقتصر في نجاحه على ضمان القليل من الفوائد. اذ وحتى الفرص الجديدة التي يوفرها له المدافع، او يخاطر بتوفيرها، ستجعله حائراً متردداً. بوسع المدافع انذاك التعويل على سبل المقاومة التي يوفرها له مسرح عملياته تدريجياً، واستخدامها ومتابعتها بسلسلة متصلة من التحركات الحاسمة، مع ان كل منها على انفراد ليس كبير القيمة والتأثير، بل يوجد هناك احتمال دائم بان تنقلب تلك الاعمال الحاسمة لغير صالح المدافع.

لقد بات من الواضح بكل تأكيد الان بان كل ذلك يقودنا الى موضوع الحملات التي لا تحقق اية نتائج حاسمة. وتلك هي المرحلة المناسبة والحقيقيه للأستخدام المتدرج للقوة، وستناقش في الفصل التالي.

الفصل الثلاثون

الدفاع عن مسرح العمليات - استنتاجات

عندما لا يكون الحسم هو الهدف

سنعالج في الكتاب الاخير مسألة كيف، وباية طريقة ستحدث الحرب اذا امتنع الطرفان عن مهاجمة الاخر - وبعبارة أخرى، عندما لا يمتلك اياً منهما هدفاً ايجابياً. ولن يعنينا هذا التناقض في شيء عند هذه النقطة، ففي اي مسرح منفرد للعمليات، بوسعنا وبكل بساطة افتراض الأسباب التي تدفع كلا الطرفين الى وضع دفاعي من خلال علاقه كل من تلك الأجزاء الى الكل.

ليس هذا النوع هو الوحيد للحملات التي لم يحدث فيها تركيز ضروري في السعي عن قرار حاسم. اذ يحتوي سجل التاريخ العديد من الحالات التي لم تخلو من عدوانية او طموح ايجابي لدى احد الطرفين على الاقل، لكن حيث لم يكن هذا الطموح صريحاً وقاطعاً لما يكفي لاصرار ومتابعة صارمتين حتى الوصول الى نتيجة محتومة. لم يكن المهاجم في حروب كهذه يبحث عن فوائد اكثر مما تقدمه الظروف السائدة. اما لانه لم يضع نصب عينيه هدفاً لمتابعته، مكتفياً بحصاد الثمار التي نضجت مع الوقت، او، انه قد اختار هدفاً ما، معتمداً في تحقيقه على ظروف ملائمة.

في هذا النوع من الهجوم الذي يتجاهل الضرورة المنطقية الصارمة للضغط العنيف وراء الهدف، يشبه المهاجم هنا متسكعاً يدور وسط الحملة جامعاً كل ما تعطيه الفرص والمزاحمات من مكاسب، او ما يقع بين يديه منها. وهو لا يختلف كثيراً هنا عن الدفاع الذي يسمح كذلك لقائده بالتقاط السوانح، ولن نتوسع في المناقشة هنا بل سنترك اكثر تفاصيلها العلمية الى الكتاب الخاص بالهجوم. وسنكتفي هنا بايراد استنتاج مفاده، عدم حاجة التعرض او الدفاع في حملات كهذه الى حسم واضح وكبير، أي ان الحسم في تلك الحالات لم يعد يشكل المرتكز، او العماد الذي ترتكز عليه اوتلتقي عنده كافة خطوط الاستراتيجية.

يوضح لنا تاريخ الحرب، في كل العصور والبلدان، ليس ان معظم الحملات ما كانت من هذا النوع وحسب، بل ان غالبيتها الكبيرة كانت من الضخامة بحيث تجعل جميع الحملات الأخرى وكانها استثناء للقاعدة. وحتى لو تغيرت هذه المعدلات في

المستقبل فسيظل هناك وعلى الدوام عدد كبير جداً من هذا النوع من الحملات، كما سيظل لهذا الجانب دوره في أية عقيدة او نهج للدفاع عن مسرح العمليات. سنحاول الاشارة الى تلك الصفات التي يبدو انها تحدده. ستقع معظم الحروب في الحقيقه بين هذين القطبين، مقتربة احياناً من هذا القطب، او ذاك. ويتضح التأثير العملي لتلك الخصائص فقط، كعنصر تعديل او تحوير، نتيجة لعملهما المتعارض، **في الشكل المطلق للحرب.**

لقد اوضحنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب بان حالة الانتظار هي احدى اعظم الفوائد التي يتمتع بها الدفاع على الهجوم. وهي نادرة الحدوث في الحياة الحقيقية، وحتى اكثر ندرة في الحرب، بان كلما تقود الظروف المرء الى توقعه سيحدث فعلاً. وبسبب محدودية التصور والحدس البشريين، وبتأثير الخوف من احتمال جريان الامور بشكل مغلوط، ومن احداث وظروف قد تحرف مسار العمل، يتجنب (القادة) الكثير من الخيارات المتاحة بسبب ذلك، مع ان الظروف تحبذها. في الحرب، وحيث تتوالى الاستخبارات اللامضمونة، وتكثر النذر باحداث رهيبة وكوارث، ولان الاحداث والعوارض الطارئة تقع باعداد تزيد عما هي عليه في اي من مجالات النشاط الانساني الاخرى، فان اعداد واحتمالات اغفال الفرص السانحة، ان جاز لنا قول شيء كهذا، هي الاخرى عديدة. ذلك هو الميدان الخصب الذي قد يستطيع المدافع ان يحصد فيه الكثير من الغلال التي لم يتحمل مشاق بذارها. اضف الى ذلك القيمة الحقيقية التي تمثلها الارض في ادارة الحرب؛ وما يلي ذلك هو القاعدة التي نجلها في معارك الحياة المتحضرة – وهي القضاء : **وطوبى لمن يملكون**[1]. يحتل هذا المبدأ هنا مكانة القرار الحاسم، الذي اتجه في كل الحروب نحو **التدمير المتبادل**، كما انه النقطة المركزية للعملية ككل. انه مبدأ خصب ولكنه ليس كثير الشيوع – لا يتبدى، بطبيعة الحال، في العمل، بل في الدفع وترويج حالة اللاعمل (التعطل)، وكذلك في حال او نوع من الانشطة التي تهدف الى الانتهاء الى حالة من التعطل. وحيثما لا نسعى او نتوقع حسماً ما، فما من سبب يدفعنا الى التخلي عن اي شيء، قد نقوم به فقط لنيل بعض الفوائد عند اقتراب وقت الحسم. وعليه فلو كانت

---

(١) (Beati sunt Possidentes) فالملكية هي تسعة اعشار القانون. والارقام (٣، ٥، ٩) هي الارقام السحرية لدى الاغريق والرقم (٩) هو قدس الاقداس . - Dictionary of Phrase and fable. by Brewer's - Pub - cassel - London - 1975 - pp - 91.

غاية المدافع الاحتفاظ بما لديه – اي بتغطية وحماية – اكبر ما يمكنه، بينما سيحاول المهاجم احتلال اكبر ما يمكنه – اي بنشر قواته على اوسع ما يمكن – دون ايصال الامور الى الحسم. والحالة الاولى هي ما تهمنا هنا.

حيثما لا توجد قوات مدافعة، فبوسع المهاجم احتلال (امتلاك) ما يريد؛ عندها **سيتحول الانتظار لفائدته**. وسيحاول المدافع لذلك، تغطية منطقته مباشرة، وبالتالي الاستفادة من الفرصة التي توفرها له رغبة العدو في مهاجمة قواته الساترة.

علينا وقبل المضي في المزيد من التفاصيل في وصف سمات الدفاع الخاصة، ان نسبق الكتاب الخاص بالهجوم في تعداد الاهداف التي يسعى التعرض وراءها عادة، عند عدم توخي قرار حاسم. والاهداف هي التالية:

١ . احتلال جزءٍ كبير من الارض، ان امكن دون اشتباك حاسم.

٢. احتلال مستودع مهم لمدخرات التموين بنفس الشروط اعلاه.

٣ . احتلال قلعة ما، تركت دون حماية (صحيح ان الحصار يعد من الاعمال الخطيرة، وقد يكلف المزيد من الجهد، الا انه لا يمكن ان يؤدي الى كارثة. فان كانت المصائب لا تأتي فرادى، فيمكن التخلي عن الحصار بسهولة ودون تكبد اية خسائر حقيقية).

٤ . اخيراً، فان الانتصار في اشتباك متوسط الاهمية، لا يتعرض فيه الكثير الى الخطر، وبالمقابل لا يمكن كسب الكثير منه، فهو ليس اشتباكاً ذو نتائج وعواقب عديدة ومثيرة، كاحدى نهايات وقمم الخطة الاستراتيجية، بل اشتباك من النوع الذي نخوضه لذاته فقط – من اجل المزيد من الغنائم او لمجد عسكري. فان كان ذلك هو هدف الاشتباك، فلا يجوز بطبيعة الحال، دخوله او قبوله باي ثمن، وعلينا بدلاً من ذلك انتظار اي فرصة ملائمة قد تظهر، او محاولة اصطناع مثل هذه الفرصة.

تستدعي اهداف الهجوم الاربعة انفة الذكر الجهود التالية بالنسبة للمدافع:

١ . بتغطية قلاعه وذلك بابقائها خلفه.

٢ . بتغطية المنطقة وذلك بانتشار قواته (عبرها).

٣ . بتحريك قواته بسرعه، وبمسيرات جانبية حيثما لا يكون اتساع وجبهة قواته كافيين.

٤ . بتجنب، اي اشتباك غير ملائم في الوقت نفسه.

تتوخى الغايات الثلاث الاولى اجبار المهاجم على المبادرة بالتعرض، وللحصول على اقصى الفائدة من الانتظار. وتتجذر الغاية في طبيعة الحالة، اذ سيبدو من الحماقة بمكان التخلي عن الفرصه المتاحة. وكلما قل توقع قرار الحسم، كلما زادت صحة وسلامة الهدف. وسيشكل ذلك مبدأ حاكماً في جميع مثل تلك الحملات، حتى لو ظهر ان هناك مجالاً للعديد من الانشطة السريعة، ولو على شكل اشتباكات صغيرة او هامشيه لا تؤدي الى عواقب حاسمة.

لقد طبق (هانيبعل) وكذلك فابيوس، كما فعل ذلك فردريك الكبير وكذلك الماريشال دوان، هذا المبدأ حيثما لم يكونوا يسعون او يتوقعون حسماً. اما الغاية الرابعة والتي تعد كتصحيح للثلاث الباقيات فانها الشرط الضروري لهن Conditio Sine qua non [1].

وسنناقش تلك الموضوعات الان بشيء اكثر تفصيلاً.

ان وضع قوة ما (جيشاً) امام القلعة لحمايتها، قد يبدو لاول وهلة سخيفاً، وغير ضروري، فالقلعة لم تشيد اساساً الا لصد هجمات الاعداء. ومع اننا لاحظنا حدوث ذلك الاف المرات، حتى ليعد ذلك انموذجاً في ادارة الحرب، وحيث تبدو اكثر الاشياء شيوعاً فيها مما يصعب فهمه غالباً. فمن بوسعه امتلاك ما يكفي من الشجاعة، اعتماداً على هذا التناقض الواضح، ويعلن بان هذا المعيار الغالب - التكرار كان خاطئاً في جميع الحالات التي استخدم فيها؟ ولابد من وجود اسباب ومبررات عميقة لكل شكل يتكرر وقوعه. وليس ذلك سوى ما استشهدنا به في اعلاه. المعيار النفسي المحض.

لو اشغلنا موضعاً امام قلعة لنا، فلن يتسنى للعدو مهاجمتها الا بعد دحرنا. الا ان المعركة تتضمن حسماً. فان لم يكن العدو يسعى وراء ذلك فلن يخوض معركة، وبوسعنا الاحتفاظ بقلعتنا دون توجيه ضربة. وحيثما شعرنا ان العدو يسعى للحسم، فعلينا استغلال الفرصة، والارجح انه لن يقبل ذلك. وفي معظم الحالات، يحتفظ المرء بامكانية الانسحاب الى ما وراء القلعة، اذا ما قرر العدو، وخلافاً لما هو متوقع او استثناء له، ان يهاجم. وهذا يقلل مخاطر اشغال موضع امام القلعة، **والشيء الاكيد عملياً ان الوضع الراهن** سيستمر دون تضحيات، ولن يجر وراءه ولا **حتى درجة ضئيلة** من الخطر.

---

(١) . راجع Webester Encyclopedia Dictionary

باتخاذنا لموضع خلف القلعة، فسنقدم للمهاجم هدفاً مثالياً وما لم تكن القلعة بالغة القوة، والعدو ليس على استعداد تام، فسيبدأ، سواء كان ذلك افضل او اسوأ، بحصار القلعة، وكي نمنع سقوطها بيد الاعداء، يتوجب علينا انقاذها. فالعمل الايجابي، او المبادأة، اصبحت في جانبنا، اما العدو، الذي يعتبر حصاره كتقدم نحو هدفه فقد بات مسيطراً (مالكاً). وتؤكد لنا التجارب بان الامور تسير على هذا الشكل، وهي انما تفعل ذلك بسبب طبيعتها الخاصة. وكما قلنا إنفاً فلا يجوز ان ينتهي الحصار بكارثة. فكل قائد، ومهما كان ضعيفاً وبليداً وواهن العزم، واقل القادة رغبة على الدخول في معركة، سيسارع جذلاً لمحاصرة أية قلعة حالما يصلها – حتى وان كانت مدافع الميدان هي اكبر ما لديه من اسلحة. اذ انه، وفي اسوأ الاحوال قادر على التخلي عن المشروع (الحصار) دون التعرض لخسائر حقيقية. ويجب ان نضيف الى مثل هذه الاحداث، الخطر الاضافي الذي تتعرض له كافة القلاع بدرجة او اخرى – وهي اجتياحها بانقضاض مفاجيء او بأية وسيلة غير تقليدية اخرى. وعلى المدافع ان لا يتجاهل ظروفاً كهذه عند حسابه للأحتمالات.

عند موازنة هاتين الفرصتين او المسلكين أحدهما في مواجهة الاخر، فالمدافع، وبدلاً من اختيار ميزة خوض القتال بشروط أفضل، سيفضل بطبيعة الحال الميزة الاكيدة في **عدم خوض قتال نهائياً**. عند النظر الى الامر علي ضوء ذلك، فان مسألة اشغال موضع دفاعي امام قلعة ما، ستبدو طبيعية للغاية ويمكن تفهمها. وقد لاحظ فردريك الكبير ذلك على الدوام تقريباً – في معارك (كلوكاو)[١] ضد الروس، وفي شفيدنيتز، ونيسي[٢]، ودريسدن[٣] ضد النمساويين. ومن ناحية اخرى فلم يفيد ذلك الدوق بيفرين بشكل جيد في معركة بريسلاو[٤]، اذ لم يكن من السهل مهاجمته خلف بريسلاو، اذ كانت للنمساويين اليد العليا ما دام الملك (فردريك الكبير) بعيداً، وكانوا

---

(١) معركة كلوكاو (Glogau) من معارك الحرب السليزية الاولى بين النمسا (ماري تريزا) وبروسيا (فردريك الكبير). احكم هذا سيطرته على سليزيا عدى (نيسي) و (كلوكاو) حيث دافعت عنهما حاميات نمساوية – لذا قام الامير ليوبولد. بهجوم ناجح واحتل كلوكاو في ١٧٤١/٣/٩ .

(٢) معركة نيسي – اذار/١٧٤١ غزت النمسا سليزيا ولم يكن فردريك الكبير مستعداً كما غطت الثلوج الممرات من بوهيميا فاسرع بتجميع قواته بينما احتل الجنرال النمساوي نيبرج معظم المنطقة وبتحرير هذا الحامية نيسي المحاصرة تمكن من عزل فردريك عن بروسيا.

(٣) دريسدن. راجع الهامش في الفصل (١٣) الكتاب الثالث. ص (٢٩٥)

(٤) معركة بريسلاو . راجع ص (٥٦٤).

مدركين لصعوبة المحافظة على تفوقهم هذا، حال اقترابه. لذا كان من الصعب جداً افتراض ان مفرق الطرق الذي وقعت فيه معركة بريسلاو، كان من الاماكن الاقل ملائمة لمواقع حاسمة – الامر الذي جعل المواضع التي تقع قبل بريسلاو اقل جدوى. كان الدوق بيفرين يفضل دون شك جعل موضعه على الجانب البعيد من بريسلاو؛ الا ان ذلك كان سيعرض المدينة ومستودعاتها للقصف، الامر الذي سيجلب له سخط فردريك الكبير، الذي غالباً ما يجن جنونه ويتصرف بطيش في حالات كهذه. ليس بوسع المرء القاء اللوم على الدوق ابداً في محاولة انقاذ وحماية بريسلاو باحتلاله موضعاً متخندقاً أمامها؟ فقد كان من المحتمل جداً ان يوقف ذلك تقدم الامير جارلس اوف لورين، نظراً لاكتفاء هذا باحتلال شفيدنيتز، كما كان مهدداً باقتراب الملك. وكان الحل الافضل هو تجنب التورط في معركة والانسحاب عبر (بريسلاو) حال تقدم النمساويين. اذ كان الدوق سيحصل انذاك على كل فوائد الانتظار، دون ان يضطر مقابل ذلك الى تجشم عناء أية مخاطرفي مقابل ذلك.

لقد شرحنا الان وبينا مبررات الحجج الهامة والقوية التي تدفع القائد الى احتلال موضعه امام القلعة، ومع ذلك فلا بد لنا من القول بوجود سبب ثانوي آخر للقيام بذلك – ولعله اكثر وضوحاً، الا انه ليس كافياً بذاته لانه ليس عاماً او واسع الاستخدام. لقد اعتادت الجيوش استخدام اقرب القلاع كمستودع لمدخرات التموين. وذلك أمر مقنع للغاية، وجم الفوائد، اذ ليس من السهل اقناع القادة بجلب مدخرات التموين من اماكن بعيدة، او لتكديسها في اماكن غير محمية. ولو حدث ذلك فسيغدو وفي الكثير من الحالات من الضرورة المطلقة للجيش ان يختار مواضعه (الدفاعية) امامها، بل ان ذلك يعد من البديهيات في حالات ومواقف عديدة. والامر المهم، والشديد الوضوح هنا؛ هو ان (القادة) وان لم تجبرهم الظروف الخاصة الى الذهاب بعيداً، فانهم سيولون الامر الكثير من الاهتمام، الا ان ذلك ليس كافياً لايضاح وتفسير كل الامثلة والحالات، كما لا يتضمن ما يكفي من الاهمية للتعويل عليه في الوصول الى قرار حاسم.

الهدف الطبيعي لكل الهجومات، هو، ان لا تسعى في حسم رئيسي الى احتلال واحدة او اكثر من القلاع دون مواجهة خطر معركة ما، ويصبح منع تحقيق هدف كهذا احد الجوانب الرئيسية في المجهود الدفاعي. ولعل ذلك هو السبب في ان كل التحركات في مسرح حرب فيه الكثير من القلاع، تتحول في النهاية الى السعي

للسيطرة عليها. يحاول المهاجم الاقتراب منها باسلوب مباغت او غير متوقع، مستخدماً مختلف انواع الخدع، بينما يسعى المدافع بالمقابل الى احباط ذلك مقدماً باساليب وتحركات أحسن اعدادها، تتسم كافة الحملات في الاراضي المنخفضة ما بين ايام لويس الرابع عشر والماريشال دي ساكس، بهذا الطابع.

لقد قلنا الكثير الكثير حول تغطية القلاع.

كما ان تغطية البلاد (المنطقة) بنشر قطعاتنا امر يمكن قبوله فقط اذا مزج مع الاستفادة من موانع طبيعيه كبيرة. تحقق المخافر الامامية التي تعد وتشغل باحجام متعددة، درجة معينة من المقاومة في المواقع القوية التي تشغلها، نظراً لان الموانع الطبيعة ليست وفيرة على الدوام لذا لابد من تعزيزها بفن التخندق. ومع ذلك ينبغي أن أن نتذكر أن القوة المتولدة من الخنادق في اية نقطة معينة هي شيء نسبي فقط ولا يجوز اعتبارها شيئاً مطلقاً. (راجع الفصل الخاص باهمية الاشتباك). قد يحدث بطبيعة الحال، ان مخفراً ما (Post) قادر على صد الهجوم بكامله محققاً بذلك دفاعاً كاملاً، ولكن عند النظر الى المواقع العديدة، فلا بد من اعتباراً كل منها على انفراد ضعيفا نسبياً بالنسبة الى الكل، وواهن في مواجهة هجوم تشنه قوة متفوقة كثيراً. لذلك ليس من الحكمة ان نرسي ثقتنا على المقاومة التي بوسع كل موقع ان يبديها على انفراد. ومع نوع كهذا من المواضع الواسعة الامتداد قد يسع المرء توقع مقاومة طويلة وقوية في احسن الاحوال، وليس انتصاراً جيداً ابداً. حتى لو تمكن كل موقع من انجاز المطلوب منه وان يسهم في تحقيق الهدف العام. اما في الحملات التي ليس على احد الخوف من نتائج حاسمة ومهمة، او من سوقه الى كارثة مفجعة، فلا خوف ولا مخاطر من تورط موقع ما في اشتباك ثانوي (مناوشة)، حتى لو انتهى الامر بخسارته له. إذ نادراً ما يتعدى الامر الموقع بذاته، مضاف اليه بعض الغنائم. وليس هو انتصار له عواقب؛ كما ان [خسارة الموقع] سوف لن تهد الاسس او تسقط الجدران. اسواء ما يمكن هو شرخ في المنظومة الدفاعية من جراء خسارة موقع واحد، وسيظل هناك، ما يكفي من الوقت لان يحشد المدافع قوته، عارضاً على عدوه معركة حاسمة، نرى ووفقاً لفهمنا، انه لم يكن يسعى اليها يضع حشد المدافع لقوته على هذا الشكل حداً للأمرعادة، وان يوقف تقدم المهاجم. ولن تزيدخسارة المدافع على حيز صغير من الارض، وبضعة مدافع، وهي مكاسب تكفي المهاجم.

قد يسعد المدافع اذا ساءت الامور ان يعرض نفسه لخطر كهذا، اذا امكن معادلة ذلك الخطر بامكانية، او ما هو حتى افضل، اي بامكانية عدم حدوثه، او عدم حدوثه

نهائياً، وان جبن، او حذر المهاجم – او سمهما ما شئت – سيدفعانه الى التوقف أمام المدافع دون أن يوهن رأسه على صخوره. عند المضي ومتابعة هذه المناقشة، علينا ان لا ننسي انها تفترض كون المهاجم من النوع الذي لا يعرض نفسه الى مخاطر كبيرة، ومن النوع الذي يكفي لايقافه وجود موقع متوسط الحجم ولكن بقوة كافية. وحتى لو عرف أن بوسعه احتلال ذلك الموقع، فانه سيتردد متعجباً من حجم الثمن الذي سيدفعه بهذا الصدد، وفيما اذا كان هذا الثمن كبيراً ولا يتناسب مع ما بوسعه أن يفعله في موضعه الاني مع انتصاره.

يستعرض لنا ذلك، ومن وجهة نظر المدافع أن المقاومة القوية نسبياً التي يقدمها له موضع ممتد على خط طويل من المواقع، يمكن ان تسهم وبشكل فعال في مجمل حملته. إن العودة إلى التاريخ العسكري (والذي يتوجب على القارىء الرجوع اليه ايضاً عند هذه النقطة) سيوضح لنا ان المواضع الواسعة الامتداد هي الاكثر شيوعاً في الاجزاء (المراحل) الاخيرة من الحملة. وسيكون المدافع انذاك قد بات قادراً على تقويم غاية وامكانيات المهاجم للوضع الراهن، بينما يكون المهاجم من ناحيته قد فقد حتى القليل من الاقدام الذي بدأ به.

يجب، ان يحدد الدفاع في موضع ممتد طويلاً لتغطية (ستر) **الارض، ومدخرات التموين، والقلاع**، وبطبيعة الحال، الدور الرئيسي لكل من الموانع الطبيعية الرئيسية – المجارى والانهار، والجبال والغابات والاهوار، فلها اهمية قصوى. وقد اوضحنا طرق استخدام تلك الموانع في فصول سابقة.

تفرض هذه الاهمية الطبوغرافية متطلبات خاصة ومحددة على نوع المعرفة والانشطة التي نضعها اساساً على عاتق الاركان العامة. ونظراً لان هذه الشعبة من شعب الجيش تتولى أمر كتابة وتوزيع معظم الجوانب التي توثق كلياً في الحملات. كما أن هناك وفي الوقت نفسه ميل لتأطير تلك الجوانب في منظومة، أو قواعد تستخدم التفسير التاريخي لحالة منفردة كاساس لمبدأ عام ينطبق على كل الحالات. الا ان ذلك ليس مجدياً ولا قيمة له وبالتالي خاطئاً. ففي هذا الشكل السلبي والمقيد بالشروط والظروف المحلية من اشكال الحرب، تختلف كل حالة عن غيرها، ولابد من معالجتها بشكل مختلف. فحتى مذكرات افضل النقاد في تلك المواضيع، تصلح فقط في تقديم وعرض الحقائق، ولا تصلح كاسس ابدا. لذلك تعد بحوثاً حقيقية في التاريخ العسكري تتناول جانباً واحداً من الحرب،هو الذي تولوا وصفه وبحثه.

تعتبر انشطة (واجبات) الاركان العامة التي أعدت وصممت على ضوء واعتبارات النظرة العامة، مفيدة جداً في مجالها الخاص وجديرة بالتقدير، ومع ذلك لا بد من التحذيز ضد الاستخدام السيء لها، والذي طالما الحق الضرر بالمشروع ككل. والسلطةالتي يكتسبها كبار ضابط الاركان والذين يعدون من اضعف الرجال الماماً بالطبوغرافية العسكرية، وغالباً ما توفر لهم سلطاتهم تلك نوعاً من السيطرة الكلية على الاخرين، وخصوصاً على القائد نفسه مما قد يؤدى الى نوع من الاحادية والتحيز. واخيراً فلن يعد بوسع القائد العام رؤية اي شيء سوى الجبال والمضايق، وبدلاً من الوصول الى قرارات رشيدة بحرية ومرونة، سيصبح التصرف الرتيب والالي طبيعة ثانيةله.

وهكذا ، ففي الجيش البروسي لعامي ١٧٩٣ - ٩٤، تمكن العقيد (كرافيرت) الذي كان الشخصية المهيمنة على الاركان العامة ايامها، والمشهور بخبرته الواسعة في الجبال والمضائق، تمكن من اقناع جنرالين من طبيعتين وشخصيتين مختلفتين - هما دوق برونزويك والجنرال مولليندورف- على اتباع مسلكين متطابقين في ادارتيهما للحرب.

من الواضح ان خطاً دفاعياً يمتد بموازاة مانع طبيعي رئيسي قد يقود الى حرب خطية. وسيغدو ذلك أمراً طبيعياً للغاية لوتمت تغطية مسرح العمليات بكامله وبشكل جيد بهذه الطريقة، اذ وبمقارنة اتساع (عرض) معظم مسارح كهذه، فان الانتشار التعبوي الطبيعي للقطعات المكلفة بالدفاع عن هذا الموضع سيكون قليلاً للغاية. وستحدد درجة انتشار وترتيب قوات المهاجم، والظروف الخارجية الاخرى بمسالك وطرق محددة بالذات. فاذا انحرف عن ذلك بدرجة كبيرة فسيعرض نفسه الى مشاكل جمة وحالة من الفوضى، مهما كانت حالة المدافع السلبية. ولذلك فكل ما، على المدافع فعله، هو تغطية المنطقة لعدد معين من (الاميال)، او مسيرات على جانبي مسالكه الرئيسية المعينة. ولتوفير تغطية كهذه بوسع المدافع وبساطة انشاء مواقع دفاعية على الطرق والنقاط الرئيسية للتقرب؛ كما يمكن توزيع بعض المراصد ونقاط المراقبة في المسافات ما بين تلك المواقع. من الواضح ان بوسع اي رتل معادٍ المرور بين موقعين ومهاجمة اياً منهما من عدة اتجاهات. وتلك المواقع مهيئة بالمقابل لاحتمال كهذا، أما بما لديها من اسناد جانبي، او بتشكيل دفاع جانبي (تغيير جبهة الدفاع) - وهو ما يعرف بالشبكة crochet -، وكذلك لقدرتها على نيل مساعدة الاحتياط في الخلف او من وحدات ترسل من مواقع جانبية. وبهذه الطريقة يتواصل تقلص عدد المواقع اكثر من ذلك، ونتيجة لذلك سيتم تجحفل جيش ما، منهمك بدفاع من هذا النوع، في اربع او خمسة مواقع رئيسية.

يتم تعيين مراكز خاصة في نقاط مهمة على المقتربات التي تكون على مبعدة بل قد تكون معرضة للخطر. وتشكل هذه مناطق صغيرة للعمليات، ان جاز قول ذلك، داخل المسرح الرئيسي للحرب. ففي حرب السنوات السبع، على سبيل المثال، احتل الجيش النمساوي الرئيسي عموماً اربع او خمسة مواقع في جبال سيليزيا السفلى، بينما شكلت منظومة دفاعية مشابهة من قوات اصغر ومستقلة نوعاً ما في سليزيا العليا.

كلما ابتعدت منظومة دفاعية ما عن التمسك بطريقة التغطية المباشرة، كلما توجب عليها زيادة الإعتماد على قابلية الحركة، والدفاع الفعال، وحتى التدابير التعرضية. ولا بد من إبقاء وحدات بعينها في الإحتياط، وأن يرسل أي موقع كلما بوسعه من قطعات لمساعدة موقع آخر. ويمكن أن يتخذ هذا الدعم شكل قوة أو تعزيزات تأتي من الخلف لتنشيط مقاومة سلبية أو واهنة، وتجديد قواها، أو بمهاجمة جناح العدو أو تهديد انسحابه. فإن هدد العدو جناح موقع (دفاعي) ما، ليس بهجوم مباشر بل باحتلال موضع يساعده على محاولة قطع مواصلات الموقع، عندها فإما بتوجب مهاجمة الوحدة التي شكلت التهديد، أو أن بوسع المدافع الرد بتهديد مواصلات العدو.

أصبح من الواضح أن هذا النوع من الدفاع، ورغم أن طبيعته الأساسية سلبية، فلا بد من احتوائه على عدد من الوسائل الإيجابية التي تمكنه من مواجهة العديد من الإحتياطات المتنوعة. وعموما، فإن دفاعا يستثمر وسائلا وطرقا فعالة، وحتى تعرضية، يعتبر دفاعا فائقا. ومع ذلك فأمر كهذا يعتمد في بعض جوانبه على طبيعة الأرض، وتأليف القوات المقاتلة، وحتى على قدرة القائد وعدد آخر من الإجراءات المساعدة ذات الطبيعة الإيجابية التي يمكن التعويل عليها وتوقع الكثير منها، والتقليل كثيرا من قدرة وطاقة الدفاع الآني للمانع الطبيعي الرئيسي.

نعتقد أننا أوضحنا بطريقة كافية ما نعنيه بخط دفاعي طويل، ولنتحول الآن إلى الوسيلة الثالثة من الوسائل الاربعة أنفة الذكر؛ وهي سبق العدو بمسير جانبي سريع.

فهذه الوسيلة جزء ضروري من آلية هذا النوع من الدفاع الذي يناقش الآن. فالمدافع لا يستطيع في بعض الحالات مجابهة (تغطية) كل نقطة مهددة على المقتربات إلى البلاد، بغض النظر عن المدى الذي يذهب إليه موضعه. وفي حالات عديدة أخرى عليه التهيؤ ليقود قوته الرئيسية إلى تلك المواقع التي يستهدفها العدو، لأنها بخلاف ذلك ستقع في قبضة العدو بسهولة. وأخيرا فبوسع أي قائد لا يود تقييد أو جر قطعاته

إلى دفاع سلبي جامد، أن يحقق غايته في حماية البلاد بالاستخدام الواسع للحركات السريعة، والحسنة الاعداد والتنفيذ. كلما اتسعت الثغرات التي تركت دون تغطية، كلما توجب أ ن تكون التحركات أكثر براعة وسرعة لسبق واحباط تحركات العدو في أي مكان وفي الوقت المطلوب.

ستكون النتيجة الطبيعية لتلك المساعي هي البحث عن مواضع ملائمة لمسكها في احتمالات مثل هذه، على أن تكون قوية بشكل كاف، وحال تولي جيش المدافع، أو حتى جزء منه احتلال تلك المواضع عليه أن يستبعد أي فكرة عن الهجوم. يمكن العثور على مواضع كهذه في أي مكان، وسيعتمد كل شيء على الوصول إليها، لأنها ستغدو النقاط الحيوية، إن جاز قول ذلك، في هذا النوع من الحرب. هذا هو السبب دون شك فيما يدعى **بحرب المواضع** .

طالما اتسعت ساحة انفتاح القطعات، وحددت مقاومتها في حرب لا تسعى للوصول إلى حسم كبير، فليس هناك أية مخاطر، كانت ستوجد متأصلة فيها، كما أن إحباط ومجابهة تحركات العدو الجانبية ليست بذات الدرجة من الخطورة كما لو كان هناك سعي من أجل قرار مهم كبير، فالاندفاع في آخر لحظة نحو موضع ما حيث يوجد عدو قادر وعزوم وقوي، ولا يتردد عن زج قوات كبيرة، سيؤدي مثل هذا الاندفاع إلى كارثة في منتصف الطريق؛ كما أن اندفاعا عجلا نحو الموضع لا يمكن أن يؤمن توجيه ضربة مركزة. قد ينجح عمل كهذا كثيراً من ناحية أخرى ضد عدو متردد ويخشى المواجهة، وعاجز عن معرفة استخدام واستغلال نجاح كبير، أو أن تحركاته الأولى ما كانت تسعى لأكثر من فائدة محدودة ودون ثمن باهظ. يمكن استخدام مقاومة كهذه بنجاح كبير ضد عدو متردد كهذا.

وعليه فإن هذه الوسيلة، وكقاعدة، ستكون أكثر شيوعا في النصف الثاني من الحملة أكثر مما في نصفها الأول.

هنا أيضا فللأركان العامة فرصة في استخدام معرفتها الطوبوغرافية في إعداد مجموعة من الخطط المتشابكة المتعلقة باختيار وتهيئة المواضع والطرق المؤدية إليها.

وحيث تتركز مجهودات أحد الطرفين كليا على الوصول إلى نقطة معينة،وأن تتركز جهود الطرف الآخر على منع ذلك بالمقابل، فغالبا ما يكونان في موقف متماثل من حيث السعي لتنفيذ تحركاتهما تحت الرؤيا (الرصد) الكاملة للعدو. لذلك سيتحركان بأقصى درجة من الحذر والعزم وأكثر مما يستدعيه الأمر عادة. أما في الماضي، وعندما لم يكن القسم الأعظم من القوة مجزءً في أقسام مستقلة، بل يظل قوة

موحدة ومتماسكة حتى أثناء المسير، فالدقة والحذر هذين يتطلبان الكثير من التحركات المعقدة، وبالتالي إلى قدر كبير من البراعة التعبوية. قد يستدعي الموقف أحيانا اندفاع لواء منفرد أمام خط المعركة، واحتلال نقاط مهمة، منفذا بذلك ما يفترض كونه دورا مستقلا، يكون اللواء مستعدا خلاله للتماس مع العدو حتى قبل وصول القسم الأكبر. إلا أن ذلك كان وسيظل **استثناء**. إلا أن أوامر التنقل عموما تعد دائما لمسير الجيش ككل وفقا لتنظيمه ودون تجزأة، أو إرباك، وأن يتم تجنب إشكالات كهذه، كلما أمكن ذلك. أما الآن فالقسم الأكبر يجزأ مرة أخرى في وحدات مستقلة، يسمح لها بالاشتباك مع القوة الرئسية للعدو، شرط أن تكون الوحدات الأخرى على قرب كاف لتمكينها من الإشتباك وقوة العدو الرئيسية إلى النهاية. كما أن المسيرات الجانبية كهذه باتت أقل صعوبة اليوم، حتى تحت أنظار العدو. وما كان يمكن فعله سابقا بقوة وآلية أمر التنقل فقط، يمكن القيام به الآن بفرز بعض الفرق إلى الأمام بوقت مبكر، بينما تليها قطعات أخرى مسرعة في سيرها مع أكبر قدر من المرونة في الإستخدام يتيحها الوقت الحالي للقوة ككل.

صممت إجراءات الدفاع التي عددناها لمنع المهاجم من الاستيلاء على قلعة ما، أو أي قاطع مهم من البلاد، أو مستودع مدخرات تموينية. وسيحرم العدو من تحقيق مبتغاه بقوة تلك الاجراءات إذ سيتعرض الى الدخول في اشتباك من كل منعطف، وسينتهي بقدر قليل من النجاح او بكثير من المخاطر غير المباشرة اذ خسر الاشتباك، وهو في الحالين سيتضمن عموماً استخدام قوات كثيرة قياساً لغايته وموقفه.

اذا واضب المدافع في عمله وكللت مهارته وترتيبه بالنجاح، فسيجد المهاجم ان هدفه المحدود سيواجه عند كل نقطه بتدابير محكمة. عندها سيتوخى الهجوم الرئيسي على الاكثر محاولة ترضية واقناع نفسه والاكتفاء بما يحفظ ماء الوجه فقط. سيؤدي الانتصار في اي اشتباك ذو اهمية وعواقب ما الى نوع من التفوق، الذي يرضى غرور القائد، والعرش، والجيش، والشعب، لذلك فليس من المتوقع وفقاً لهذه المعايير فصل مثل هذه النتائج والوصول اليها الا في التعرض.

لذلك فالامل الاخير للمهاجم سيتركز في أشتباك ملائم ويضمن بعض النتائج المرجوة، من اجل الانتصار والغنائم. ولن نزج هنا بانفسنا في جدال وتناقضات ، لاننا **ما زلنا نتابع افتراضاتنا الخاصة** في ان المدافع، وبحكمته في النظر في العواقب، سيحرم المهاجم من اي أمل في استغلال نجاحاته لتحقيق هدفه الحقيقي. وسينقلب اي أمل كهذا في مطلبين:الأول؛ **نتائج ملائمة**، والثاني **هو ان الانتصار يقود حقاً**

الى أهداف أخرى.

يمكن ان يتحقق المطلب الاول ضمنياً؛ لذلك فعندما يغدو **شرف (التحكم بـ) الميدان هو** موضع الاهتمام الوحيد للعدو، سيتوجب على مواقع ووحدات المدافع المنفردة وغالباً مواجهة خطر خوض القتال في ظروف أكثر سوءً مما لو كانت قد اندفعت لضمان اية مكاسب اضافية.

لو وضعنا انفسنا مكان الجنرال دوان (النمساوي) وطبقنا طريقته في التفكير، فستتفهم تماماً ما فعله، عندما إنحصر همه في ما يمكن جمعه من غنائم في يومه ذاك، وما دام بوسعه استغلال الفرصة بهجوم على (هوش كيرج)[1] دونما تغيير في اسلوبه وطبيعته . من الناحية الاخرى، فانتصار كهذا له ما بعده، ويمكن ان يجبر فردريك الكبير على أخلاء (دريسدن) و(نيسي) وسيشكل مهمة مختلفة تماماً لم يكن (الجنرال دوان) على استعداد للتفكير فيها.

ليست هذه اموراً تافهة أو علامات ليست ذات معنى ، إذ نبحث الان في واحد من أكثر مبادىء الحرب أهمية، ففي الاستراتيجية تعد ضخامة وأهمية اشتباك ما، هي الاساس وما يهمنا. ولا يمكننا التكرار باستمرار او بما يكفي في ان اهمية المبدأ تستنبط دائماً من التوجهات والنوايا النهائية لكلا الجانبيين، ومن استخلاص عواقب الافكار (والخطط) ككل. ولهذا السبب تكون الاختلافات، على المستوى الاستراتيجي ، ما بين معركة واخرى، كبيرة جداً والى الحد الذي يتعذر معه اعتبارهما شيئاً، او وسيلة واحدة.

ليس من السهل التسليم مع المهاجم في ان انتصاراً من هذا النوع سيوقع دماراً جدياً على المدافع ؛ وسيرفض هذا الاخير حتى التسليم للأخر **بالكثير من الفوائد والمزايا،** خصوصاً مع تعذر قول اي شيء عما يمكن ان يرافق ذلك بفعل الصدفة والظروف، لذلك سيهتم المدافع وبشكل متواصل بمسح حالة وظروف كافة وحداته ومواقعه المهمة، ويعتمد ذلك اساساً على أعمال ضرورية ينفذها أمروها؛ الا أن اوامراً خاطئة قد يصدرها القائد نفسه يمكن ان تؤدي الى كارثة. ومصير فيلق الجنرال (فوكيه) في (لانديشوت)، ومصير الجنرال (فينك) في معركة (ماكسين) من الامثلة التي ترد الى الذهن هنا.

---

(١) راجع هامش الفصل (١٨) الكتاب الثالث (ص ٣٠٩) المترجم

اعتمد فردريك الكبير في كلا المثالين كثيراً على فعالية طرق التفكير التقليدية، وما كان بوسعه التصديق حقاً ان بوسع(١٠) الآف رجل في موضع قرب (لانديشوت) الانتصار على (٣٠) الفاً، او بقدرة (فينك) على الصمود ضد عدو متفوق عددياً انقض عليه من كل جانب. فقد افترض ان قوة موضع (لانديشوت) ستأخذ بشكلها الظاهري، وأن الجنرال دوان سيرى في تظاهرة ما على جناحة عذراً كافياً لا ستبدال موضعه السيىء في ساكسوني بموضع أفضل في (بوهيميا). الا انه اخطأ في حكمه على الجنرال (لودون) في أحدى الحالات، وعلى (دوان) في حالة اخرى ، وهنا يكمن الخطأ في ترتيب (قواته).

يمكن ان يحدث هذا النوع من الخطأ حتى لقائد ليس شديد الغرور ، وشجاع للغاية وشديد العناد وهذا ما ينطبق على فردريك الكبير احياناً. الا ان الصعوبه هنا تكمن بكون القائد لا يستطيع الاعتماد دائماً على قادة فيالقه وعلى امتلاكهم التصور والنوايا الجيدة، والشجاعة وقوة الشخصية المرغوب توفرها بصورة مثالية. لذلك لن يستطيع ترك كل شيء لتقديرهم، بل عليه اعطائهم التوجيهات المناسبة التي تحدد عملهم والتي قد تؤدي وبكل بساطة الى ترك الكثير من القضايا الانية وغير الدقيقة الى الظروف. وذلك محذور أو ضرر لا يمكن تجنبه. ولا يمكن قيادة جيش ما بدقة عند عدم توفر (قائد) مهيمن وعزوم وقادر على رص صفوف قوته حتى أخر رجل، وكل من يعجز أو يتخلى عن عادة التفكير والنظر وتوقع أفضل ما يمكن من مرؤوسيه في جميع الاحوال، فانه ولهذا السبب وحده، لا يصلح لقيادة الجيش .

لا بد اذن من ادامة مراقبة شديدة لمتابعة ظروف كل فيلق (قوة) وموقع لمنع تورطهم في كارثة غير متوقعة.

تتوخى المجهودات الاربع انفة الذكر المحافظة على (الوضع الراهن). وكلما كانت اكثر نجاحاً وتوفيقاً، كلما طال أمد إستقرار وجمود الحرب ، لكن كلما ظلت الحرب مستقرة لفترة أطول ،كلما زادت أهمية معضلة توفير مدخرات التموين .

لا بد أن تتخلى طريقة نهب واغتصاب ارزاق الجيش من السكان المحليين ، عاجلاً ان لم يكن منذ البداية الى اسلوب التموين من المذاخر والمستودعات. ولن يعود من الضروري ان تضطر عربات المزارعين الى التجمع كل يوم، وسيوجد بدلاً عن ذلك معين من وسائط النقل النظامي والدائمي تقريباً، واما بعربات محلية أو عسكرية والخلاصة، ستقترب الممارسات العملية بسرعة من منظومة تموين للارزاق جيدة التنظيم

من مستودعات كالتي أجملنا الحديث عنها في الفصل الخاص بالادامة والتموين.

الا ان ذلك ليس بالامر الذي مارس تأثيراً كبيراً على هذا النوع من الحرب التي تقتصر في نطاقها وتحديدها على مناطق محدودة كثيراً فهي قد تتقرر جزئياً – بل وربما الى درجة كبيرة – بقضية مصادرة مواد التموين، الا ان ذلك لن يصل حد تغيير خصائصها الاساسية. من الناحية الاخرى فسيكون للتهديد المتبادل لخطوط المواصلات اهمية فائقة لسببين؛ فهو من ناحية أولى ونظراً لعدم وجود وسائل عمل مهمةوحاسمة في هذا النوع من الحملات ، فيجب تركز مجهودات القائد على الاعمال الاصغر المتاحة. ومن الناحية الثانية فهناك الكثير من الوقت للأنتظار كي تبدأ تلك الأجراءات والاعمال فعلها. لذلك تغدو لحماية خطوط مواصلات المدافع اهمية كبيرة. بينما لن يكون شلها أو قطعها هدفاً نهائياً للهجوم المعادي، وقد تكون وسيلة فعالة للغاية لاجبار المدافع على الانسحاب، مضطراً خلال ذلك الى التخلي عن نقاط اخرى.

كلما يتخذ لحماية المنطقة التي تدخل في مسرح العمليات سيؤمن بطبيعة الحال تغطية خطوط المواصلات جزئياً بتلك الاجراءات، ونود ببساطة الاشارة الى ان التفكير والعناية بحمايتها يؤثر كثيراً على اختيار الموضع(الدفاعي).

إن **احدى الطرق الخاصة** في الحماية هي بمرافقة قوات صغيرة لكل رتل منفرد، او حتى زيادة حجم القوة المرافقة. وحتى اطول المواضع الدفاعية امتداداً قد لا توفر احياناً، او لا تكون باتساع كاف لحماية خطوط المواصلات كما ان قطعات الحماية المرافقة هذه قد تكون مطلوبة بشكل خاص في المناطق التي يود القائد تمديد مواضعه اليها. لذلك نرى ان **كتاب تمبلهوف عن تاريخ حرب السنوات السبع** يزخر بالعديد من الحالات التي اعتمد فيها فردريك الكبير على رتل العجلات المحملة بالخبز والدقيق ، والمحمى بوحدة من المشاة او الخيالة، او بلواء كامل في احيان أخرى. ولا توجد سجلات او وثائق تؤيد قيام النمساويين بشيء كهذا ، ولعل مرد ذلك لعدم وجود تواريخ دقيقة كالتي اعدها تمبلهوف للجانب الاخر، او لأن مواضعهم كانت وعلى الدوام تمتد لأكثر مما كانت عليه المواضع البروسية.

لقد اكملنا الان تفحص جميع انواع الاهداف الاربعة التي يحتمل تطبيقها، دون ادخال عنصر الهجوم ، وانها يمكن ان تشكل اسس الدفاع عند عدم توخي الوصول الى حسم. وعند هذه النقطه يجب ان نضيف بضعة كلمات حول وسائل التعرض التي قد تمتزج معها، ان جاز قول ذلك. وهي تتألف أساساً من التالي:

١ . عمل ضد خطوط مواصلات العدو، يشتمل بطبيعة الحال على عمليات ضد مستودعاته للتموين.

٢ . غارات وحركات تشتيت في أراضي العدو.

٣ . هجمات على وحدات ومواقع العدو، وحتى على قوته الرئيسية عند توفر ظروف ملائمة أو مجرد التهديد بهجمات كهذه .

استخدم النوع الاول اعلاه باستمرار في كل هذا النوع من الحملات لكن بصمت ؛ ولم تحتل الصدارة بين الأحداث فكل موضع دفاعي مؤثر مهم يحتله المدافع انما تتحدد قيمته، الى حد كبير من واقع أثارته لمخاوف المهاجم حول سلامة خطوط مواصلاته. اذ تحتل معضلة التموين اهمية بالغة في هذا النوع من الحروب، وكما أوضحنا أنفاً في سياق الدفاع، كما يصح ذلك على المهاجم ايضاً. عليه فالنمط الاستراتيجي يتحدد وبدرجة كبيرة بالقيمة التعرضية الكامنة في مواضع العدو، وهو أساس سنتناوله بتفصيل أكبر في الكتاب الخاص بموضوع الهجوم.

ليس دفاع كهذا محدد بالتأثير العام الناتج عن اختيار المواضع، والذي يشبه تأثير الضغط في المكائن، والذي يفعل فعله بشكل **غير ملحوظ**، بل انه قد يطوق تقدم هجوم حقيقي من قبل جزءٍ من القوات المقاتلة. لكن اذا اريد له النجاح فلا بد ان يكون **مكان خطوط المواصلات، وطبيعة الارض، او ان المزايا الخاصة للقطعات** هي نوع ملائم بدرجة عالية.

تجرى الإغارة في اراضي العدو طمعاً بالمكأفاة او رغبة بسلب الغنائم ولا يمكن عدها من التدابير الدفاعية بدقة ، بل انها من الوسائل التعرضية، ومع ذلك يمكن دمجها عادة مع الهدف الخاص بالتشتيت الحقيقي الذي يستهدف تقليل قوة وقدرة الجانب الاخر، ومن هنا يمكن عدّها من الاجراءات الدفاعية الفعلية. لكن، نظراً لامكانية استخدامها بشكل تعرضي كذلك، ولها شكل هجومي فعلاً، لذا فالكتاب التالي هو المكان المناسب لمناقشتها بالتفصيل. لقد ذكرنا الغارات هنا لمجرد اكمال قائمة طرق العمليات التعرضية الصغيرة، التي تتوفر للمدافع عن مسرح عمليات ما،ونود ملاحظة ان هذه طريقة قد يزداد نطاقها واهميتها حتى تعطي الحرب كلها مظهراً ، وبالتالي هيبة التعرض. وتلك كانت طبيعة انشطة فردريك الكبير في بولندا وبوهيميا، وفرانكونيا قبل حملة (١٧٥٩م).ورغم أن تلك الحملة كانت دفاعية تماماً، فقد اعطتها تلك الغارات في ارض العدو سمة تعرضية، قد تكون لها أهمية خاصة لتأثيرها النفسي.

ينبغي اعتبار الهجمات على وحدات العدو أو قوته الرئيسية كمتمم ضروري للدفاع ككل، وليستخدم في الاوقات التي يأخذ المهاجم الامور فيها بشيء من السهولة والتماهل ويترك نفسه عرضة في بعض النقاط لاية تأثيرات. وذلك هو الشرط الضمني لهذا النوع من العمل. وهنا ايضاً، وكما في تهديداته لخطوط مواصلات العدو، بوسع المدافع التحرك قريباً للهجوم بان يكون كالمهاجم، يقضاً **ومتهيئاً لاقتناص فرصة توجيه ضربه ملائمه**. وله ان يتوقع قدراً من النجاح في ذلك إن كانت قوته أكبر عدداً بدرجة ملحوظة من قوة عدوه الذي، وكما قد يحدث لم يفهم الدفاع بعد او اذا كان ماهراً ومنهجياً بما يكفي لابقاء قوته محشدة بشكل افضل من العدو، عندها بوسعه استخدام تحركاته وانشطته لموازنة التضحيات التي يفرضها عليه موقفه.

أما الحالة الأولى فيمثلها ما فعله الجنرال (دوان) في حرب السنوات السبع، كما يمثل ما فعله فردريك الكبير الحالة الثانية. ومع ذلك فما كان الجنرال دوان يهاجم لولا اغراءات فردريك الكبير له بذلك بسلسلة من الاعمال والتحركات الجريئة التي تنبيء عن تجاهله واستهزاءه بخصمه وكما حدث في (هوش كيرج)، وماكسين، ولانديشوت. ومن الناحية الاخرى فقد كان فردريك الكبير على الدوام تقريباً في تحرك مستمر، مستهدفاً توجيه الضربة على هذا او ذاك من فيالق الجنرال دوان بالقسم الرئيسي من قوته. ولم ينجح الا نادراً، وكان نجاحه في جميع الاحوال متواضعاً، أذ كان (دوان) يجمع بين الحذر غير الاعتيادي والحكمة، مضافان الى تفوقه الكبير عددياً. ورغم ذلك فلا يمكن اعتبار محاولات الملك ضائعة او غير مجدية، بل انها تمثل في الواقع اكثر اشكال المقاومة فعالية، لما تسببه من مشاكل وتوقي دفع اليهما الجنرال(دوان) من أجل تجنب اشتباك في ظروف غير ملائمة وتشغل قطعاته باشتباكات كان بوسعه لولاها استخدم تلك القطعات لتطوير وانجاح تعرضه. يكفي المرء الاشارة الى حملة عام ١٧٦٠م في سليزيا وحيث لم يجروء الجنرال دوان ولا الروس على القيام بخطوة واحدة لانهما كانا مأخوذان بهاجس ان الملك قد يهاجم، هناك أو هنا ويدحر قوتيهما.

نعتقد اننا استعرضنا كافة الاعتبارات الاساسية في دفاع ما عن مسرح العمليات عندما لا يتوخى الدفاع الوصول الى حسم يعد او يشكل الفكرة الاساسية له، والتي يتركز عليها الجهد الرئيسي، فتعد لذلك العمود الفقري للعمل بكامله. والسبب الذي حدى بنا الى جمعها سوية هو لاعطاء رأي متماسك وقوي لتطوير العملية

الاستراتيجية، والطرق العملية التي يعمل وفقها كل طرف - المسيرات، وترتيب القوات، وغيرها- والتي سبق وان فحصت بتفصيل أنفاً.

عند التمعن في الموضوع ككل مرة أخرى، سنكون ملزمين بملاحظة ان لا بد من أختفاء الفرق الاساسي بين التعرض والدفاع تدريجياً حيثما يكون المبدأ التعرضي ضعيف جداً، والرغبة في الوصول الى الحسم ليست قوية لدى الطرفين،كما ان المبادأة الايجابية هي الآخرى ضعيفة كذلك، مع تزايد في الانهيارات النفسية كما اوضحت هنا. ونقر هنا، ان احد الطرفين وعند بدء الحمله سيغزو مسرح حرب الطرف الأخر ويلعب دور المهاجم، بل قد يحدث كذلك، وهذا ما حدث غالباً فعلاً، أن المهاجم سيجد نفسه وبسرعة مستغلاً كل طاقته في الدفاع عن وطنه على أرض اجنبية. بعدها سيصارع الطرفان بعضهما البعض بشكل من حاله المراقبة المتبادلة اساساً، ويحاولان عدم التنازل عن أي شيء وربما يحاولان وبنفس القوة تحقيق مكاسب ايجابية. من الممكن حقاً، وكما في حالة فردريك الكبير أن يكون المدافع الحقيقي أكثر تعرضية (عدوانيه) من خصمه.

كلما ازداد تلكؤ او بطاءة الاندفاع الايجابي للمهاجم، كلما قل احساس المدافع بالتهديد، وكلما قل تحدده بالمقاومة لمجرد حاجته الانية والسريعة بالامن، وكلما ازدادت ميوعة الموقف وفقدان الطرفان لميزان القوى. وستقتصر انشطتهما على مجرد جني الفوائد من الاخر، وتجنب اية اضرار. وهذه هي صفحة **المناورة** الاستراتجية الحقيقية، وهي التي تميز تقريباً كل الحملات التي استبعد فيها الحسم بتأثير التحركات السياسية او الحالة العامه للأمر (Affair) .

خصص لموضوع المناورة الاستراتيجية فصل خاص من الكتاب التالي ونظراً لأن المفكرين غالباً ما يولون اهمية زائفة للعبة توازن القوى هذه، وعلى الاخص فيما يتعلق بالدفاع، نرى لزاما علينا مناقشة الموضوع هنا بشيء من التفصيل.

لقد أسميناه لعبة توازن للقوى. فعندما يعم السكون على الكل او يكون هذا الكل دون تحرك، تنشأ حالة من التوازن، وحيثما لا يكون هناك هدف كبير لتحريكه، يظل هذا الكل ساكناً. وعند حدوث ذلك سيحاول كلا الطرفان، وبغض النظر عن درجة لا تعادلهما، المحافظة على توازنهما. ويمكن ان تنجم مجموعة من الدوافع والتحركات لاعمال صغيرة او محدودة، وكذلك بعض الأهداف الاصغر من حالة التوازن

التي تشمل الكل (Whole). كما يمكن ان يتطوروا عند هذه النقطة، اذ لم يعودا خاضعان لتأثيرات حسم أو مخاطر كبيرة وهكذا سيتحول كل ما يمكن ربحه أو خسارته الى أشياء صغيرة، كما يتشظى الصراع نفسه ككل في أعمال صغيرة. آخذين هذا التنافس نحو المزيد من النتائج المتواضعة، نرى ان القائدين منهمكان الان في تأكيد وتفحص مهارتيهما. لكن ونظراً لعدم أمكان استبعاد الصدفة او الحظ كلياً عن الحرب، لن تتوقف هذه المباراة التي ستغدو **كالمقامرة**.

يظهر امامنا الان سؤالان. ففي خلال مسار هذه المناورة هل سيلعب الحظ دوراً اصغر في تأطير الحسم، من دوره عندما يحشد كل شيء في عمل كبير واحد؟ وهل ستلعب الاستخبارات دوراً اكبر؟. لا بد ان تكون الاجابة على السؤال الثاني بالايجاب. فكلما زاد تعقيد المشروع ككل، كلما زادت قيمة واعتبار الوقت (حتى في دقائقه المنفردة) والمسافة (حتى في نقاطها المنفردة)، وكلما زاد اتساع مجال الحسابات، وذلك أمر واضح، وهكذا يزداد تفوق العقل المنطقي. وما سيربحه المنطق من ناحية، سنفقده بفعل الحظ، ولكن ليس كلياً بالضرورة، لذلك لن يؤدي ذلك لأن تكون الأجابة على السؤال الاول بالايجاب اطلاقاً. ينبغي ان نتذكر بهذا الخصوص ان العقل المنطقي ليس هو الطاقة الفكرية الوحيدة للقائد. فالشجاعه،والحيوية والعزم، والحكمة وغيرها من الصفات التي تتمتع بثقل كبير عندما يكون أحد القرارات الحاسمة على المحك. مع ذلك فلن تحضى هذه الصفات الا بدور أقل في لعبة توازن القوى، بل ستزداد الاهمية الاساسية للحسابات الفكرية على حساب تلك الصفات وعلى حساب الحظ كذلك. ففي ساعة القرار الحاسم، يمكن ان تحصل تلك الصفات الرائعة من ناحية اخرى على فرصة حصولها على قدر كبير من السيطرة، كما أنها ستحقق وبطريقة ما، ما يجبر العقل المنطقي المنظم على اطلاقه. من الواضح ان عدداً من العوامل تتصارع هنا، وليس بوسع المرء القول ببساطة وصراحة بوجود فسحة كبيره للحظ في القرار الكبير وأكبر مما في الحساب النهائي للعبة توازن القوى. لذلك فعندما نقول بان لعبة القوى هي في الاساس تجربة مهارات، ونعني هنا المهارة في الحسابات الفكرية،لا المناقبية العسكرية في مداها الكلي.

هذا الجانب من المناورة الاستراتجيه قد اعطاها الاهمية المبالغ فيها التي اشرنا اليها

اعلاه. فالمهارة في هذا المجال تشتبك من ناحية اولى مع الناتج الكلي (الاجمالي) للقوى الفكرية للقائد، وهذا خطأ كبير وخطير. ولابد من التأكيد بان الصفات النفسية الاخرى للقائد قد تسيطر، وقت اتخاذ القرار الهام، على قوة الظروف. وحتى لو نجمت هذه السيطرة من اندفاع تولده عواطف قوية ومن ومضات تلقائية تقريباً للمبادأة، أكثر من كونها نتاج سلسلة طويلة من الاسباب والعوامل المنطقية، فانها مع ذلك تخص وبشكل حقيقي فن الحرب، فشن الحرب بعد كل شيء، ليس مجرد عمل منطقي، كما انه لا يبرر نشاطها الاساسي. ومن الناحية الثانية فهناك شعور بأن كل عمل ناجح في حملة ما، انما ينتج بفعل مهارة أحد أو كلا القائدين، وذلك أمر طبيعي، وتكمن الاسس الرئيسية بالظروف المتحكمة والسائدة التي تخلقها الحرب في هذا النوع من المقامرة.

نظراً لكون معظم الحروب بين الدول المتقدمة كانت على الأكثر مسألة مراقبة للعدو أكثر من العمل على تدميره، مما يفرض اتسام المناورة الاستراتيجية لمعظم الحملات بذلك. لقد تجاهلنا الحروب التي قادها جنرالات غير مشهورين، أما عندما يكون هناك بعض القادة العظام ممن يلفتوا الانظار اليهم، او بالاحرى عندما يكون هناك واحد على كل جانب كما في حالة المارشال تورين (الفرنسي) والفيلد مارشال مونتيككولي (النمساوي)[1]، فان اسميهما كافيان لتحديد الطابع النهائي وقبول الفن الكلي للمناورة. والنتائج اللاحقة هي احتلال هذه اللعبة اعلى مستويات المهارة، كما تعد نتاجاً للأبداع التام. لذلك تعتبر كمصدر رئيسي، ونصوصاً عظيمة لدراسة فن الحرب.

لقد كان هذا هو الرأي السائد بين المفكرين عموماً قبل حروب الثورة الفرنسية التي فتحت المجال فجأة لعالم جديد من المعرفة والظواهر العسكرية. اذ كانت الحروب أولاً بدائية وعنيفة الى حد ما، الا ان نابليون بونابرت ركزها فيما بعد في منظومة عظمى حققت نجاحاً ادهش الجميع. وبذلك الغت نماذج الحرب القديمة، وافترضت ان كل شيء انما هو نتاج اكتشافات جديدة، وافكار سامية وغير ذلك، كما غيرت

( ) هنري دي لاتور تورين (١٦١١-٧٥م) ماريشال فرنسي وقائد شهير. والاخر هو ريموند مونتيككولي اميروكونت في الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٦٠٩-٨٠) - المترجم

فعلاً النظام الاجتماعي. ولم تعد الاشكال القديمة كما يبدو تفيد أي استخدام بعد، وأنها لن تعود مرة أخرى. الا انه ووسط فكر ثورى كهذا لا بد أن يتصاعد الاداء، وبهذا تجد المدرسة القديمة أبطالها الذين يرون في الظاهرة الجدية أنفجاراً للعنف الوحشي، واضمحلال عام لفن الحرب. كما اقتنعوا بان اللعبة المتوازنة التافهة تعد قمة التطور. وليس هذا سوى رأي يعوزه المنطق السليم وروح البداهة ولا بد من اعتباره مجرد فوضى لا جدوى منها للقيم. ومع ذلك فالرأي المعارض – من استحالة حدوث شيء مشابه ثانية، او لا عودة للقديم – فهو ايضاً رأي متطرف وخال من الحكمة ولا يمكن ان نوصي بقبوله. القليل جداً مما كتب أو قيل عن الحرب مما يمكن أن نعزوه الى المخترعات الجديدة أو كانطلاقة جديدة في الافكار . لقد نتجت اساساً عن التحولات الاجتماعية والظروف الإجتماعية الجديدة. الا ان هذه أيضاً، مما لا يمكن اعتبارها او قبولها كشيء دائم وثابت لانها ظهرت وسط أزمات الهياج والقلق. ولا مبرر لمزيد من الشك في أن العديد من طرق واساليب القتال القديمة ستعود ثانية. ولا مجال هنا للتوسع كثيراً في أمور كهذه، ونرى ان لا بد من تكرار تأكيدنا بان المكان المناسب للبحث في لعبة توازن القوى هي في المبحث الخاص بادارة الحرب لما لها من أهمية، وعلاقة جوهرية مع العناصر موضوعة البحث، ومن أنها وعلى الدوام نتيجة للظروف الضاغطة، ولأنخفاض أو تدهور روح القتال للطرفين. بامكان أحد الجنرالين إظهار مهارة عالية في هذه اللعبة، تفوق ما للأخر.وأن عادله في حجم القوة فقد ينال بعض الفوائد؛ إما ان كان الاضعف، فقد يستخدم مهارته الكبرى في التحكم بميزان القوى. الا ان تمسك القائد بما يصون شرفه أو عبقريته في هذا المجال ليس سوى تناقض صارخ، وعلى العكس من ذلك، فالحملات التي من هذا النوع هي أقوى الامارات تأكيداً بعدم إمتلاك اي من الجنرالين لقدرات عسكرية، أو إن من يمتلك شيئاً من ذلك منهما، قد منع بقوة الظروف من قبول مخاطر البحث او الوصول الى قرار حاسم. ومع ذلك وحالما يغدو الامر على هذه الصورة فلن يستطيع اي كان التعرف أو مشاهدة علامات أو ما يشير الى عبقرية عسكرية فذة.

لقد بحثنا حتى الان في المناورة الاستراتيجية بشكل عام وعلينا الان التركيز بشكل خاص على تأثيرها على العمليات. يلاحظ ان القوات المقاتلة غالباً ما تحرف عن الطرق المهمة والمدن الى اماكن بعيدة أو ليست ذات أهمية بتاتاً. وحيثما تتحكم

المصالح الصغيرة وذات الطابع الوقتي، يتناقص بالتالي التأثير الذي تمارسه العوارض الطبوغرافيه على أدارة الحرب وتغدوا أقل أهمية. وقد تنحرف القوات المقاتلة الى أماكن لا تحتل متطلبات الحرب فيها مكانة أولى، مما يؤدي الى تعرض مسار الحرب الى تحولات كبيرة وانعطافات في تفاصيله، وأكثر مما في الحروب التي تقود الى قرارات حاسمة كبرى .خذ على سبيل المثال، الحملات الأخيرة لحرب السنوات السبع، مع بقاء الظروف العامة دون تبدل، إلا ان كل حملة اتخذت مساراً مختلفاً، بل وعلى وجه التحديد، لم تتكرر ولا حتى عملية واحدة، هذا رغم حقيقة كون التحالف قد أظهر روحاً تعرضية أقوى مما كان عليه الحال في أكثر الحملات الاولى.

كان موضوع هذا الفصل هو الدفاع عن مسرح العمليات عندما لا يلوح في الافق قرار حاسم كبير، وعند توقع شيء من الليونة في العمليات – في ترابطها، وعلاقاتها وسمتها. لقد بحثنا بالتفصيل في الاجراءات ذات العلاقة سابقاً. ووصلنا الان مسألة اخرى، هي أمكانية صياغة مجموعة من المبادىء والقواعد والطرق المترابطة معاً لكل تلك الاحتمالات المتنوعة. يجب ان تكون اجابتنا بان التاريخ لم يقودنا بالتأكيد الى اي صيغة تتكرر باستمرار، رغم انه من الصعب علينا صياغة قانون نظري يستند الى التجربة في موضوع ذو طبيعة دائمة التغيير والتحول. والحرب التي تتضمن حسماً كبيراً ليست أبسط وحسب بل، واقل تقلباً، واكثر انسجاماً مع طبيعتها الخاصة، وأكثر موضوعية، وأكثر تلبية لقانون الحتمية المتأصل فيها. أي ان السبب في حالة كهذه يمكن ان يصنع القواعد والقوانين، الا ان ذلك يبدو اكثر صعوبة في حرب من نوع كالذي شرحناه انفاً. لقد انبثق في أيامنا هذه مبدأن رئيسيان من إدارة الحروب الكبرى، هما مبدأ «سعة عرض القاعدة» «لبيلو» و«الخطوط الداخلية» «لجوميني». وايا من هذين، لم يثبتا انهما تامان ومؤثران عند تطبيقهما فعلاً في الدفاع عن مسرح عمليات ما. مع ان ذلك هو المكان الذي يمكن ان يكونا فيه اكثر فاعلية وتأثيراً كمبدأين مطلقين صافيين؛ وكلما ازداد اتساع العمليات في الوقت والمسافة، كلما اصبحت القواعد أكثر تأثيراً وسيطرة على العوامل الاخرى في النهاية. ومع ذلك يمكن ان تكون مجرد مظاهر خاصة للموضوع، او أي شيء اخر عدى اعتبارها فوائداً حاسمة. من الواضح ان الظروف تمارس تأثيراً يمكن ان يتداخل ويوقف كل المبادىء العامة. فالاختيار الدقيق

لجنرال دوان لمواضعه واتساعها جوبه بتحشيد جيد لفردريك الكبير لقوته، بشكل يعرقل عمل عدوه، إذ كانت على استعداد دائم لاحباط نواياه. ويمكن ارجاع طريقتي القائدين ليس فقط الى طبيعة جيشهما وحسب، بل وكذلك الى الظروف، إذ كان من السهل على فردريك الكبير التحرك بمرونة ويسر وأكثر مما للجنرال دوان الذي كان عليه الرد على تحركات الملك. ولا بد من استغلال الفرصة للتأكيد مرة أخرى في عدم اعتبار الطرق والانواع المختلفة التي تظهر أمامه وكانها صفحات رائعة تخضع احداهما الى الأخرى بل أنها تظهر واحدة جنب الاخرى، لذلك يتوجب ان يكون استخدامها محكوماً بجدارتها وبما تستحقة في كل حالة على أنفراد.

لسنا راغبين عند هذه النقطة بتسطير او تصنيف الانواع المختلفة التي قد تستنبط من خصائص وطبائع الجيش، والبلاد والظروف؛ وتأثيرها العام الذي سبقت الاشارة اليه انفاً.

ونقر في النهاية باننا لا نستطيع في هذا الفصل صياغة اية مبادىء أو قواعد أو أساليب؛ لم يقدم لنا التاريخ اسساً أو جذوراً لها. وعلى العكس من ذلك، فالمرء سيجد وعند كل مرحلة او انعطاف (تاريخي)، سمات معينة غالباً ما تبدو غير مفهومة او غير شاملة، بل ومثيرة للدهشة أحياناً. ومع ذلك فمن المفيد لنا دراسة التاريخ مع هذا الموضوع، كما مع المواضع الاخرى.ومع انه قد لا تكون هناك منظومة، أو طريقة آلية في إدراك الحقيقة، الا ان الحقيقة موجودة. ولإدراكها يحتاج المرء عموماً الى قدرة متميزة، وموهبة قد توفرت لديه بعد تجارب طويلة. ومع امكانية صياغة وتأطير التاريخ، فقد يوفر بذلك **تدريباً وممارسة في الحكم** هنا كما في اي مجال آخر.

ليس لدينا سوى مبدأ شامل واحد لنقدمه، أو بالاحرى سنؤكد على استنتاج يلخص بطبيعة الحال كلما قلناه بشكل مبدأ مستقل، سعياً وراء زيادة تأكيد اهميته في ذهن القارىء.

ليس لكل ما وصفناه من وسائل في أعلاه، سوى **قيمة نسبية**، وجميعها معرضة لتحديدات بعينها على كلا الجانبين. أما فيما وراء ذلك، فيجري تطبيق مجموعة مختلفة من القواعد، وسط اجواء ظواهر عامة مختلفة كلياً. وعلى القائد ان لا ينسى ذلك أبداً، وعليه ان لا يتوقع التحرك ضمن مجالات ضيقة من الامن الخادع وكأنه **شيء مطلق**، كما عليه ان لا يسمح لنفسه بتصور ان ما يستخدمه من وسائل **انما هي وسائل ضرورية بشكل مطلق، وانها الوسائل الوحيدة الممكنة، وأن يصر**

على أستخدامها حتى مع خشيته وقلقه من فكرة احتمال عدم كفايتها.

قد تبدو وجهة النظر التي أوضحت هنا وكانها ترى هذا النوع من الخطأ غير ممكن، الا ان الامر ليس كذلك في التطبيق وحيث لا يمكن وصف او تصوير الامور بمثل هذه الحدة.

علينا مرة أخرى التذكير انه ولتحقيق الوضوح، والتمييز، ولتأكيد أفكارنا، لم ندخل في ملاحظاتنا سوى المتناقضات التامة، والمواقف المتطرفة. الا ان الحرب تقع، كما عليه الحال فعلاً في مكان وسط احياناً، كما انها محكومة بتلك التطرفات فقط الى الحد الذي تقترب منها.

وعلى العموم، فمن المهم والحاسم ان يقرر القائد منذ البداية، ما اذا كان خصمه راغباً وقادراً معاً على التفوق عليه باستخدام تدابير اقوى واكثر حسماً. فان تركزت شكوكه على ذلك، عليه عندها التخلي عن التدابير الصغيرة. ثم يؤكد حضوره عبر إقدام وتضحية يختارها هو لأخذ مواضع أفضل يكون قادراً منها على مجابهة والتعامل مع قرارات اكثر اهمية. وبكلمات اخرى فان اول المتطلبات التي على القائد تطبيقها هي المعايير القياسية الصحيحة التي ضمنها خطته للعمليات.

يمكن ايضاح ذلك بطريقة أمثل بشواهد من الواقع، وسنورد عدداً من الحالات التي ظهرت فيها أحكام مظللة وبايجاز حالات كانت فيها عمليات القائد قد حسمت برأينا لملائمة عمل اقل اهمية وحسماً من وجهة نظر الخصم. ولنبدأ مع أفتتاح حملة عام ١٧٥٧م. لقد اثبت ترتيب النمساويين لقواتهم عدم توقعهم التعرض لهجوم حسن الاعداد والتنفيذ كالذي شنه فردريك الكبير فعلاً (في حرب السنوات السبع). وحتى اعاقة فيلق الجنرال بيكولوميني[1] عند حدود (سليزيا) في الوقت الذي جابه فيه الدوق شارل اوف لورين، وجيشه خطر الاستسلام، مما يؤكد لنا سوء فهم كامل للظروف.

في عام ١٧٥٨م لم يكن الفرنسيين مخطئين حول اثار وعواقب اتفاقية (كلوستير زيفين) (التي لا مجال لبحثها هنا) وحسب، بل انهم وبعد شهرين كانوا مخطئين كذلك في تقديرهم لقدرات العدو ففقدوا لذلك كل المنطقة ما بين نهري الراين والفيزر. لقد ذكرنا تواً خطأ فردريك الكبير في حساباته عام ١٧٥٩ في

(١) الامير اوكتافيوبيكولوميني (١٦٩٨- ١٧٥٧م) جنرال نمساوي. والآخر فهو الفيلد مارشال دوق اللورين (١٧١٢- ١٧٨٠م) ونمساوي ايضاً.

(ماكسين)، وعام ١٧٦٠ في (لانديشوت) عندما لم يتوقع اتخاذ اعداءه لاجراءات حاسمة.

ما من خطأ في التدابير القياسية في التاريخ كالذي حدث عام ١٧٩٢م. اذ كان المتوقع ان قوة اضافية متوسطة الحجم ستكفي لانهاء الحرب الأهلية، الا أن التأثير الهائل للشعب الفرنسي باجمعه، وبعد تحرره من الاوهام السياسية، كان مفاجأة مذهلة وساحقة لنا. ونعتبر ذلك خطأ خطيراً، إذ تأكد فيما بعد انه كذلك ولا يمكن تجنبه بسهوله في حينه. إما عند الحديث عن ذلك على ضوء عمليات حقيقية فلا يمكن ان ننكر بان الاسس الرئيسية لكل الفواجع اللاحقة طوال السنوات المؤلمة التي تلت، انما يمكن العثور عليها في حملة ١٧٩٤. اذ لم يفشل التحالف كلية في الحملة نفسها بادراك مدى وقوة طبيعية التعرض المعادي، لذا اكتفوا بمحاولة التصدي له بمنظومة مواضع رديئة وتمتد طويلاً، مع مناورة استراتيجية وحسب، لكن وكما اتضح من الخلافات السياسية ما بين البروسيين والنمساويين، ومن حماقة التخلي عن بلجيكا وهولندا، مما يؤكد عدم تنبه الحكومات المعنية، وعدم معرفتها بعنف السيل الآتي. والجهد الذي بذله النمساويين في مقاومات معزولة عام ١٧٩٦ من مونتينوتي[١]، ولودي[٢]، وغيرهما، وذلك دليل كاف على فشلهم في تفهم ما هو ضروري في حرب ضد نابليون بونابرت.

اما في حملة عام (١٨٠٠) فلم يكن التأثير المباشر للتعرض هو الذي جلب الكارثة على (ميلاس[٣]) بل هو النتائج الخاطئة التي أفترض بان ذلك التعرض سينتهي اليها.

كانت معركة (اولم)[٤] عام ١٨٠٥ آخر عقدة في شبكة مهلهلة من العلمية، الا ان

---

(١) معركة مونتينوتي (١٢/٤/١٧٩٦) قرب بلدة ايطالية غرب (جنوا) حين قاد نابليون جيش ايطاليا وبامرته (٤٥) الف رجل يعانون نقصاً كبيراً في الطعام والملابس ضد جيشين من قوات التحالف (النمسا)و (بيدمونت) بقوة (٣٥) و (٢٥) الف رجل على التوالي في سهل لومبارديا وبينهما ثغرة واسعة اندفع منها بونابرت مكتسحاً جناح النمساويين الايمن وموسعاً جبهة الثغرة ممهداً لمعركة (ديجو). قاد الجنرال بيلير القوات النمساوية.

(٢) معركة لودي (١٠/٥/١٧٩٦) وهي بلدة تقع جنوب غرب ميلانو، وقد نجحت قوة الساقة النمساوية من احتلال جسر مهم على نهر (آدّه) فقاد نابليون بنفسه قوة من المشاة بصولة دار القتال فيها بالسلاح الابيض بينما واصل الجنرال(بيليو) تراجعه نحو التيرول. إحتل نابليون (ميلانو) يوم (١٥/٥) وأستسلمت له الحامية النمساوية بعد ستة اسابيع كما وقعت (بيد مونت) صلحاً مع فرنسافي (٢١/٥) م.ت.ع.ص٦٤٧.

(٣) البارون النمساوي الجنرال ميخائيل ميلاس (١٧٢٩-١٨٠٦) وقد ورد ذكره في الفصل ١٦ من هذا الكتاب (الفقرة ٣).

(٤) معركة اولم – راجع الهامش في (ص ٣٦٥ – ٣٦٦).

مشاريعاً استراتيجية واهنة بوسعها ان تمسك أو توقع في حبائلها بعض القادة مثل (دوان) او (لاسي) الا انها ليست قوية بما يكفي لقائد مثل نابليون بونابرت، امبراطور الثورة.

لقد جلب التردد والارتباك البروسيان عام ١٨٠٦ الكثير من وجهات النظر والمشاريع التافهة والامجدية وغير العملية، والتي امتزجت مع القليل من الافكار السليمة والاحساس بتفهم واسع لظروف واهمية اللحظة. ولو كانوا مدركين لموقفهم تماماً ، لما تركوا (٣٠)الف رجل في بروسيا، ولا خططوا لعمليات منفصلة في (ويستفاليا)، وما كانوا من الناحية الأخرى ليركنوا، ولا ليأملوا الكثير ، أو اية نتائج مهما كانت من حركات تعرضية محدودة كتلك التي انيطت بفيلقي (روشل) و(فيمار). وما كانوا بالتأكيد ليقضوا ساعاتهم الاخيرة في مناقشة ما تتعرض له مستودعات التموين من تهديدات، وامكانية خسارة قطاعات صغيرة من الأرض.

وحتى حملة عام ١٨١٢، والتي تعد اعظم الحملات على الأطلاق، لم تكن في البداية تخلو هي الأخرى من نصيبها من المشروعات التي اعتمد فيها على حسابات خاطئة. ففي المقر العام للحملة في (فيلنا)، قررت مجموعة محترمة من الضباط خوض معركة عند الحدود، كي يؤكدوا بان الارض الروسية لا يمكن ان تجتاح دون عقاب. لقد كانوا مدركين تماماً بامكانية بل من المؤكد خسارة معركة كهذه، رغم انهم ما كانوا يعرفون بان على الـ (٨٠) الف روسي مواجهة(٣٠٠) الف فرنسي، الا انهم عرفوا بان عليهم توقع تفوق عددي هائل. ويكمن خطأهم في تحديد المعركة. وقد اعتقدوا بأنها ستكون خسارة أخرى كسابقاتها، الا ان بوسع المرء عملياً التأكد من أن حسماً بهذه الاهمية عند الحدود سيجلب معه سلسلة من الاندحارات والتراجعات المختلفة تماماً. فحتى معسكر (دريسا) كان تدبيراً يستند على تقدير خاطىء للغاية للعدو. فلو كان الجيش الروسي قد قرر البقاء هناك، لكان انقطع وانعزل كلياً، وما كان الجيش الفرنسي ليعجز عند ذلك عن تأمين الوسائل الكفيلة لاجبار الجيش الروسي على الاستسلام. ما من شك في أن الرجل الذي صمم ذلك المعسكر لم يكن قد تنبه لابعاد ومعايير قوة وعزم كهذين.

الا ان نابليون بونابرت، أيضاً، يطبق أحياناً وبصورة خاطئة بعض التدابير

القياسية. فقد اعتقد بعد هدنة ١٨١٣ بقدرته على أحتواء جيوش التحالف الاصغر- كجيشي بلوخر، وولي العهد السويدي - باستخدام الفيالق التي ليس بوسعها تشكيل مقاومة جدية، وكان اجراء كهذا سيوفر عذراً قوياً لعدو حذر لعدم تقبل اية مخاطر، الامر الذي كان غالب الجدوث في الحروب القديمة. لم يدخل نابليون في حساباته اهتماماً مناسباً للحقد الدفين والاحساس الشديد بالخطر اللذان سيطرا على بلوخر وبيلو (Bulow).

كان نابليون عموماً يميل على الدوام للتقليل من روح الاقدام وبراعة العجوز (بلوخر). الا ان بلوخر هذا وحده قد حرم نابليون من الانتصار في لايزك (معركة الامم). أما في (لاون)[1] فقد كان بوسع (بلوخر) تدميره تماماً، والحقيقة انه لم يكن ليأبه كثيراً بحسابات نابليون الا ان العقاب الذي كان يجب ان يطاله جراء ما ارتكبه من اخطاء في الماضي، حلت ساعته عند واترلو.

---

(١) عن معركة (لاون) راجع الهامش في (ص ٣٣٩)

الكتاب السابع

الهجــوم

الفصل الاول
الهجوم وعلاقته بالدفاع

عندما تكمل فكرتان من منطقين متعارضين تماماً، احداهما الاخرى، فهما من حيث الجوهر متضمنتان في بعضهما البعض. الا ان التحديدات العقلية فينا قد لا تسمح لنا بتفهم الفكرتان معاً وفي آن واحد، ولا لاكتشاف البناء الكلي لاحداهما في البناء الكلي للأخرى وبالمنطق المتعارض ذاته. مع ذلك، فكل واحدة منهما تلقي ما يكفي من الضوء لايضاح الكثير من التفاصيل وبطريقة متبادلة (reciprocal) . ونعتقد نتيجة لذلك ان الفصول الاولى عن الدفاع قد القت الكثير من الضوء على ما تناولته من جوانب الهجوم، وان لم يكن ذلك سمة دائمية. اذ لا يمكن الاستفادة من اية منظومة تحليل حتى النهاية او كلياً. ومن الطبيعي، وحيث لا يقترب المنطق المضاد كثيراً من جذور المفهوم كما في الفصول السابقة، فكلما بوسعنا قوله عن الهجوم لا ينبثق مباشرة مما قلناه في تلك الفصول عن الدفاع. وتحول في أو قلب وجهة نظرنا ستقربنا من الموضوع، ونستطيع عندها ان نتفحص وبدقة اكثر، كلما مسحناه سابقاً بشكل عام وعن بعد. وسيكمل ذلك تحليلاتنا السابقة، وما سنقوله بعد الان عن الهجوم غالبا ما سيلقي بدوره المزيد من الضوء.

عند التعامل مع الهجوم، سنتطرق وبشكل موسع الى العديد من النقاط والموضوعات التي سبقت مناقشتها. لكننا لا نعتقد بضرورة المضي في ذلك كما في الكثير من كتب التعليم الهندسية، باللف والدوران، أو بتشويه كل القيم الموضوعية التي عرفناها في الدفاع، واكدنا فيها على إن لكل طريقة دفاعية طريقة مقابلة (مضادة) وناجعة في الهجوم. للدفاع قوته وضعفه. ورغم ان قوته هي من النوع الذي لا يمكن مجاراته أو التغلب عليه، بل ان الثمن المدفوع في ذلك قد لا يتناسب مع القليل الذي سنحصل عليه. لا بد أن تتأكد صحة ذلك مهما كانت الطريقة التي ينظر منها، والا لكنا نناقض أنفسنا. كما لا نقصد الى اجراء تحليل كلي ونهائي لهذا التفاعل. كل طريقة دفاعية تقود الى طريقة هجومية، وغالباً ما يكون ذلك واضحاً للغاية والى حد لا نحتاج معه الى مناقشة الطريقتين لفهمه، اذ تنتج احداهما عن الاخرى تلقائياً. ونهدف الى الاشارة وفي كل حالة الى السمات الخاصة للهجوم، والتي لا تنشأ من الدفاع مباشرة. وذلك يستدعي منا كتابة عدد من الفصول التي لا مثيل لها في الكتاب السابق.

الفصل الثاني

طبيعة الهجوم الاستراتيجي

الدفاع عموماً (بما في ذلك الدفاع الاستراتيجي بطبيعة الحال) وكما اتضح لنا، ليس مجرد حالة انتظار وتصدي مطلقتان، وليس نهائياً، بل مجرد استمرار سلبي نسبياً. لذلك فهو متشابك وبقوة مع عناصر هجومية بحتة تقريباً. والهجوم، كذلك، ليس كلا متجانساً بذاته، اذ يمتزج وبشكل دائم مع الدفاع. والفرق بين الاثنين هو ان ليس بوسع المرء التفكير بالدفاع دون ذلك القدر الضروري من مفهوم، الهجوم المقابل. ولا ينطبق هذا الوضع على الهجوم. فالاندفاع او العمل التعرضي كاملين بذاتيهما. ولا نحتاج لاكمال التعرض بالدفاع، الا ان بعض الاعتبارات والجوانب الطاغية للوقت والمسافة تفرض الدفاع كشر لا بد منه. **فاولاً**. لا يمكن اكمال الهجوم بتحرك متصل واحد، فلا بد من فترات للراحة، يصبح الهجوم خلالها مشلولاً، ويغدو الدفاع هو المتحكم خلالها.**والثاني**. هو أن المنطقة التي تترك خلف القطعات المتقدمة، والبالغة الاهمية لها ولعملها والتي، لن يوفر لها الهجوم الحماية تلقائياً، ولا بد لها من حماية خاصة.

فالعمل الهجومي وعلى الأخص الأستراتيجي، أذن، تناوب متواصل، و مزيج من التعرض والدفاع . ومع ذلك فلا يمكن إعتبار الثاني كمرحلة تمهيدية مفيدة للهجوم، ولا تكثيفاً له، ليصبح بالتالي كمبدأ فعال، بل انه بالاحرى وبكل بساطه شر لا بد منه، وعبء ضار نشأ بفعل الثقل المحظ لثقل العملية، أنه خطيئته الأصلية،ومرضه القاتل[1].

ندعوه نحن **بالعبء الضار** ؛ فما لم يسهم الدفاع مع الهجوم، فسيعمل على أزالة تأثيره، ولو فقط بسبب ضياع الوقت المستغرق . فهل يمكن اعتبار هذا الجزء من الدفاع، والذي يعد قسماً من كل تعرض، اضراراً حقيقية؟ عندما نفترض **كون الهجوم هو الشكل الأضعف من الحرب وان الدفاع هو الشكل الاقوى**، يبدو ان الأستنتاج الطبيعي هو أن الثاني لا يمكن أن يضر الأول، فأن كانت هناك قوات كافية ..

(١) الخطيئه الاصليه بالمفهوم الاوربي المسيحي اشارة الى خطيئة سيدنا ادم، وكذا تعبير المرض الروحي فهو ذو طابع فلسفي او ديني لا عسكري (المترجم).

لخدمة أو لتنفيذ الشكل الاضعف، فستكون تلك القوات كافية بالتأكيد للشكل الاقوى. والأمر عموما بهذا الشكل. ستتفحص الموضوع بدقة اكبر في الفصل الخاص بـ «**نقطةذروةالأنتصار**». اي الفصل(٢٢) من هذا الكتاب. مع ذلك، يجب ان لا ننسى بأن **تفوق الدفاع الاستراتيجي** نابع جزئياً من ان الهجوم لا يمكن ان يوجد بذاته دون شيء من الدفاع – ودفاع من نوع أقل فاعلية. وما يعد حقيقة من الدفاع ككل ، لن يظل حقيقياً لتلك الاجزاء، وهكذا يصبح من الواضح كيف يمكن لسمات الدفاع تلك إضعاف الهجوم موضوعياً . انها تلك اللحظات بالذات، في دفاع ضعيف خلال عملية تعرضية، والتي تسعى فيها الأنشطة الايجابية للمبدأ التعرضي **لاستغلالها في الدفاع**.

لنتمعن في اختلاف المواقف خلال فترة الاثنتي عشرة ساعة التي تعطى للراحة عادةبعد يوم عمل (قتال). فالمدافع في موضع أحسن اختياره، ويعرفه المدافع جيداً، كما اعده بعناية، أما المهاجم فمزروع في مأواه كالرجل الاعمى . قد تدعو الحاجة إلى وقفة اطول، كتلك التي للحصول على التموين، وانتظار التعزيزات، وغير ذلك، يكون المدافع خلالها أقرب الى حصونه ومستودعاته،بينما يكون المهاجم كالطير المعرض للخطر في مكان مكشوف. كل هجوم سينتهي على أية حال الى دفاع ستحدد طبيعته وفقاً للظروف. ولعله الامر المفضل عند تدمير قوة العدو، وعندما لا يكون الامر كذلك تغدو الأشياء بالغة الصعوبة. وحتى لو لم يعد هذا النوع من الدفاع جزءً من التعرض، الا أنه سيؤثر فيه ويساعد على إظهار وتقوية تأثيره (وفاعليته).

يلي ذلك ان على كل هجوم أن يدخل في حسبانه الدفاع الذي يعد بالضرورة متأصلاً فيه، لاجل تفهم واضح لأضراره، وبالتالي العمل على ملافاتها.

الا ان الهجوم وفي ضوء امور اخرى يظل متماسكاً وثابتاً، بينما الدفاع ذو مراحل، وبقدر تعلق الأمر باستغلال مبدأ الانتظار. ينتج من ذلك، أشكال من العمل تختلف أساسياً، وكالتي نوقشت في الفصل الخاص بانواع المقاومة.

لكن وطالما ليس للهجوم سوى مبدأ فعال منفرد (ويعد الدفاع في هذه الحالة مجرد ثقل ميت متعلق به)وسوف لن يجد المرء فيه اختلافات كهذه. مع اقرارنا بوجود عدد هائل من الاختلافات فيما يخص، الحيوية، والسرعة، والقوة الضاربة الا انها اختلافات في الكم وليس في النوع. بل لعل من الممكن للمهاجم أن

يختارالشكل الدفاعي لتسريع نيل غايته. فقد يحتل على سبيل المثال موضعاً قوياً على أمل ان يهاجمه المدافع هناك. الا أن ذلك من الحالات النادرة، التي وعلى ضوء التجارب الفعلية لن نحتاج إلى التمعن فيها او اضافتها الى قائمة المفاهيم والمبادىء لدينا، ولأيجاز كل ذلك، فليس هناك تنام من كثافة الهجوم قياساً بتلك الانواع المتعددة للدفاع.

اخيراً، فوسائل الهجوم المتيسرة هي عادة محدودة بالقوات المقاتله والتي يتوجب على المرء ان يضيف اليها بطبيعةالحال اية قلاع قريبة الى مسرح الحرب ذاك، والتي قد تؤثر بدرجة اساسية على الهجوم. الا ان هذا التأثير سيتناقص مع تقدم العملية؛ فمن الواضح ان ليس بوسع قلاع المهاجم أن تلعب دوراً شديد التأثير كقلاع المدافع، والتي غالباً ما تصبح من العوارض المهمة. ونقر بالدعم الشعبي حيثما يكون السكان أقرب وأكثر ترحيباً بالمهاجمين منهم نحو جيشهم، واخيراً فقد يكون للمهاجم بعض الحلفاء، ولكن ذلك ليس سوى ضربة حظ أوأمر فرضته الظروف. وليس دعمهم داخل في اسس الهجوم وطبيعته ، وهكذا، وبينما أدخلنا القلاع، والهياج الشعبي والتحالف كوسائل ممكنة في الدفاع فلا يمكن إدخالها ضمن وسائل الهجوم فانها متأصلة في الأول، أما في الثاني فأنها نادرة، ولا تحدث عادة الا صدفة.

الفصل الثالث

هدف الهجوم الاستراتيجي

يعد اخضاع العدو في الحرب، هو الهدف ،وان تدمير قواته المقاتلة هي الوسيلة، وينطبق ذلك على الهجوم والدفاع معاً. وبوسيلة تدمير قوات العدو فان الدفاع يؤدي الى الهجوم، الذي يقود بدوره الى أحتلال الأرض، التي تصبح حينئذٍ هي الهدف، دون ان نعني ذلك بالضرورة كل بلاد العدو، وقد يقتصر ذلك على جزء منه - منطقة أو شريط او قطاع من الأرض، او قلعة او ما شابه ذلك. وقد يشكل اي منها قيمة سياسية أو ورقة في المفاوضات ، سواء أحتفظ بها او تمت مبادلتها.

لذلك يمكن النظر الى الهدف الاستراتيجي للهجوم من بين مجموعة كبيرة من التدرجات تتراوح ما بين احتلال بلاد العدو باكملها الى مجرد احتلال رقعة ليست ذات أهمية كبيرة. وحال تحقيق الهدف ينتهي دورالهجوم، ويبدأ دور الدفاع وقد يرى المرء أنذاك أن الهجوم الاستراتيجي كوحدة أحسن تحديدها. الا ان التجارب - اي النظرالى الأشياء على ضوء الاحداث الفعلية - لا تقر بذلك. فمراحل التعرض وكما في التجارب الحقيقية اي النوايا والاعمال التي تنفذفعلاً- وكما يحدث في الغالب في العمل الدفاعي الذي يتنامى ويتحول مع المضي في الخطط الدفاعية، إلى تعرض ومن النادر، أو على اية حال من غير الشائع، أن يظهر القائد عزمه لتحقيق هدف محدد وضعه نصب عينه، بل سيترك ذلك بالاحرى ، معتمداً على سير الأحداث[1]. وغالباً ما قد يقوده الهجوم الى أبعد مما توقع، وبعد فترة وجيزة من الراحة، غالباً ما يحصل على قوة جديدة، لكن ينبغي ان لا تعتبر قوة لعملٍ ثان، كامل ومنفصل. قد يتوقف في اوقات اخرى قبل أو أقل مما توقع ولكن دون تخليه عن خطته وتحوله الى دفاع حقيقي. وهكذا فمن الواضح عندها، أن امكن تحول دفاع ثانوي إلى هجوم، يمكن كذلك حدوث العكس. ولا بد من تذكر هذا التدرج إن أردنا تجنب سوء تطبيق ما أعددناه عموماً لموضوع الهجوم.

---

(١) يفتح موضوع تحديد الهدف او تركه لمسار الاحداث، الباب أمام مناقشات طويلة وهي في النهاية لعبة القائد الذي يقرر على قدر ووقت واسلوب ما يكشفه من نواياه، والامر سهل بالنسبة للمؤرخ او القائد الذي يبحث في الموضوع بعد انتهاء الاحداث وانكشاف الكثير من اسرار والغاز تلك الحرب (المترجم)

الفصل الرابع

تناقص قوة الهجوم

يعد تناقص قوة الهجوم احد الأهتمامات الرئيسية التي تشغل اهتمام الاستراتيجي. وتفهمه لها هو الذي سيقرر دقة تقديره في كل حالة خيار متاحة له.

تتناقص القوة الكلية إذا ما:-

١. كان هدف الهجوم هو أحتلال بلاد العدو(يبدأ الاحتلال عادة بعد أول عمل حاسم فقط، الا ان الهجوم لا يتوقف مع هذا العمل).

٢. احتاجت جيوش الغزو إحتلال المنطقة التي ورائها لتأمين خطوط مواصلاتها واستغلال مواردها.

٣. بكثرة الخسائر التي تقع خلال العمل أو بسبب المرض.

٤. بسبب المسافة التي تجلب الموارد والتعويضات منها.

٥. بالحصار وتوزيع القطعات.

٦. بتراخي وتكاسل الجهد.

٧. بتراجع أو تخلي الحلفاء.

يمكن موازنة تلك الصعوبات مع عوامل أخرى تميل الى تقوية الهجوم. مع أن النتيجه النهائية ستقرر فقط، بعد أن يتم تقويم مختلف تلك الكميات المتنوعة. وعلى سبيل المثال، فان إضعاف الهجوم قد يجابه أو يلغى جزئياً أو كلياً بأضعاف الدفاع. ومع أن ذلك ليس أمراً اعتيادياً، لكن، ينبغي وعلى اية حال مقارنة جميع تلك القوات في الميدان، وبالذات تلك التي تقف بوجه بعضها البعض في جبهة القتال، أو في النقاط الحاسمة. هناك الكثير من الامثلة المختلفة، كالفرنسيين في النمسا وبروسيا، وروسيا، والتحالف في فرنسا، والفرنسين في اسبانيا.

الفصل الخامس

نقطة ذروة الهجوم

ينتج النجاح في الهجوم من تيسر قوة متفوقة، ومن النوعين المادي والمعنوي بطبيعة الحال. لقد أوضحنا في الفصل السابق كيفية تناقص قوة الهجوم تدريجياً، ويمكن أن يزداد التفوق خلال مسار الهجوم الا انها عادة ستتناقص. فالمهاجم معني بجني الفوائد التي قد تصبح بالغة الاهمية على مائدة مفاوضات الصلح، الا ان عليه ان يدفع ثمنها في المكان من قواته المقاتلة. واذا قاد تفوق قوة الهجوم – التي هي في تناقص يومي – الى الصلح، فقد تحقق الهدف. هناك هجوم استراتيجي ادى مباشرة إلى الصلح ، الا انها حالات تشكل أقلية. اما في معظم الحالات فالهجوم يقود فقط الى حالة لا تكفي فيها القوى المتبقية الا لدفاع قوي بانتظار الصلح. يتحول المقياس فيما وراء تلك النقطة، ورد الفعل الذي يلي، مع قوة تكون عادة أقوى بكثير من قوة الهجوم الاولى. وذلك هو ما نعني به نقطة ذروة الهجوم. نظراً لأن هدف الهجوم هو السيطرة على أرض العدو، فالنتيجة هي أستمرار التقدم حتى استنزاف تفوق الهجوم، وذلك هو ما يقود الهجوم نحو هدفه، بل وبوسعه وببساطة دفعه لأبعد من ذلك. ولو تذكرنا عدد العوامل التي تدخل معادلة القوى، فسنتفهم عندها مدى الصعوبة في بعض الحالات في القرار على منّ مِنْ الطرفين له اليد العليا. وغالباً ما يغدو الامر كله أمر تصور محض.

والامر المهم التالي هو تحديد نقطة الذروة اعتماداً على الحصافة وحسن التقدير. ولقد وقعنا هنا في تناقض كبير. فان كان الدفاع أكثر فاعلية من الهجوم، فبوسع المرء التفكير بعدم قدرة الاخير على الذهاب بعيداً جداً، واذا كان الشكل الاقل فاعلية ذو قوة كافية، ينبغي أن يكون الشكل الأكثر فاعلية هو الأقوى حتماً[1].

---

(١) يلي ذلك في المخطوطة ما يلي «سيتم تطوير هذا المفهوم بعد الكتاب الثالث، وفي الاطروحة (الفصل الخاص بنقطة ذروة الانتصار» .

وقد عثرنا على اطروحة بهذا العنوان في مظروف معنون بـ«اطروحات مختلفة، مواد (لتنقيح المخطوط) ويبدو انها توسيع واضافة للفصل الذي أجمل في اعلاه . لذا تم طبع الاطروحة في نهاية الكتاب السابع.(ماريا فون كلاوزفيتز)

الفصل السادس

تدمير القوات المعادية

يعد تدمير القوات المعادية وسيلة الوصول الى الهدف. فما الذي يعنيه ذلك؟ وما الثمن الذي يقتضيه؟

هناك العديد من وجهات النظر حول ذلك. وتعني:

١. تدمير ما هو ضروري لتحقيق هدف الهجوم.

٢. تدمير اقصى ما يمكن.

٣. المحافظة على قواتنا المقاتلة كاعتبار أساسي.

٤. الذهاب بعيداً في ذلك كأن يحاول المهاجم عملاً تدميرياً في ظروف ملائمة، وكما ذكرنا في الفصل الثالث.

يُعّد الاشتباك مجرد وسيلة لتدمير القوات المعادية، الا أنه قد يعمل بطريقتين مختلفتين، مباشرة وغير مباشرة، وبمزيج من الاشتباكات. وهكذا وبينما تعد المعركة وسيلة رئيسية، الا انها ليست الوحيدة. فاحتلال قلعة، أو قطاع من الارض يرقيان ايضاً الى تدمير قوات معادية. وقد يؤديان الى المزيد من التدمير، ويصبحان بذلك وسائلاً غير مباشرة كذلك.

لذلك، فاحتلال قطاع غير مدافع عنه من الأرض، والى جانب ماله من قيمة مباشرة في تحقيق غاية ما، فله قيمة أخرى من ناحية تدمير قوات معادية. والمناورة التي تتوخى إبعاد العدو عن منطقة احتلها لاتختلف كثيراً عن ذلك، وينبغي التعامل معها بنفس المعايير، لا على أنها نجاح حقيقي للأسلحة. لقد بولغ عموماً في تقدير هذه الوسائل كثيراً، الا انها نادراً ما أنجزت بقدر ما قد تنجزه المعركة، كما أنها تعني الكثير من المخاطر أو النكسات التي قد لا تحظى بانتباه كاف. وتبدو مغرية لانها قليلة التكلفة.

لا بد من النظر اليها على الدوام كاستغلال محدود للقوات ولا تحقق سوى ارباحاً محدودة، تتناسب والظروف المحدودةوالتحركات الواهنة. الا انها كما يبدو من الأعمال المرغوب فيها أكثر من المعارك اللاهادفة – والانتصارات التي يمكن استثمارها كلياً ودون حدود.

الفصل السابع
المعركة التعرضية

يلقي ما قلناه عن المعركة الدفاعية الكثير من الضوء على المعركة التعرضية.

يتجه تفكيرنا الى نوع من المعارك يكون المدافع فيها هو المسيطر، كي نوضح طبيعة الدفاع. الا أن القليل من المعارك فقط مما يعد من هذا النوع، فمعظم المعارك هي صدامات، حصراً، او **نصف معركة**(demi - rencontres)، يبدو العنصر الدفاعي ضائعاً فيها. وليس الأمر كذلك بالنسبة للمعركة التعرضية، التي تحتفظ بكل خصائصها في جميع الظروف، كما تستطيع تأكيد تلك الخصائص اكثر نظراً لكون الدفاع ليس في البيئه الصحيحة. لذا يظل هناك اختلاف مؤكد في سمة المعركة – وهي الطريقة التي تدار فيها من قبل هذا الطرف أو ذاك – ما بين المعارك التي هي ليست دفاعية تماماً، وتلك التي هي صدامات (rencontres)حقيقية. والسمة الرئيسية للمعركة التعرضية هي احاطة الجناح، او تخطي المدافع – اي أخذ المبادأة.

لعمليات التطويق فوائد عظيمة وواضحة، رغم انها مع ذلك امور تعبوية. وينبغي على المهاجم أن لا يغفل تلك الفوائد ببساطة، لمجرد امتلاك المدافع الوسائل لمجابهتها؛ وهي وسائل لا يستطيع المهاجم إستخدامها، لكونها شديدة الأمتزاج مع موقف المدافع. فالمدافع، ولكي يحيط جناح العدو ، الذي يحاول بدوره احاطة جناحه (اي المدافع)، عليه ان يعمل من موضع أحسن اختياره واعداده. وهناك ما هو اهم من ذلك حتى، وهي حقيقة عجز المدافع فعلاً عن استغلال كل الأمكانيات التي يوفرها له موقفه. وفي معظم الحالات، ليس الدفاع سوى بديل مؤقت وحالة مؤسفة، يظل المدافع خلالها مشدوداً الى موضع مليء بالمخاطر ، ولانه يتوقع ما هو أسوأ، فسيلاقي المهاجم في منتصف الطريق. وعليه فالمعارك التي تستخدم خطوط التطويق، أو الجبهات المعكوسة – والتي يحتمل ان تكون نتيجة لمزايا وفوائد خطوط المواصلات – ليست في الواقع سوى نتيجة للتفوق المعنوي والمادي. وكمثال على

ذلك راجع معارك مارينكو [1]، واوسترليتز[2]، وينا[3](وكلها لنابليون). وفي المعركة الافتتاحية لحملةما، فخط - قاعدة المهاجم، ستكون واسعه جداً، حتى لو لم يكن المهاجم متفوقاً على المدافع، وذلك لقرب الحدود، لذلك فهو قادر على تحمل اية مخاطر. لذلك قد يكون الهجوم الجانبي (ضرب الجناح) - اي المعركة التي تحولت جبهتها - هي أكثر فاعلية من عملية تطويق، ومن الخطأ ان نفترض ارتباط تقدم التطويق الاستراتيجي معه منذ البدايه، كما في معركة براغ، اذ نادراً ما يشتركان في اي شيء عام، بل ان الاخير يعد خطراً ومشكوكاً فيه، ولدينا الكثير مما نقوله عنه عندما نصل الى مناقشة الهجوم على مسرح العمليات. وكما يتوخى القائد في معركة دفاعية مجرد تأجيل الحسم لا طول فترة ممكنة لكسب المزيد من الوقت (لان المعركة الدفاعية التي لم تحسم حتى غروب الشمس تعد معركة رابحة)، يتوخى القائد في معركة تعرضية تعجيل الحسم. الا ان التعجيل الزائد من الناحية الاخرى يقود الى مخاطر ضياع القوة. السمة الغريبة لمعظم المعارك التعرضية هي الشك حول موضع العدو ، كما تتسم بكونها تتخبط بالظلام - كما كان عليه الامر، على سبيل المثال في، اوسترلتز، وواكرام[4]، و(هوهنلندين)[5]، وينا،

---

(1) معركة مارينكو (١٤/٦/١٨٠٠) تقع شرق باده اليسندرية بميل واحد وهي شمال غرب جنوة في ايطاليا. تصور نابليون ان القوات النمساوية في تورين بعد، فتقدم دون حذر وليس معه سوى(١٨) الف رجل تاركاً قواته في الجنوب للراحة وجمع المؤونة، فوجد نفسه في اشتباك مع قوة متفوقة ونجح النمساويون بدفعه(٢) ميل الى الخلف خلال ساعة، وقنع ميلاس بانتصاره واصدر أمره بالتحول الى رتل المسير، الا ان نابليون جمع قوته ثانية واستدعى اقرب قواته وشن هجوماً مقابلاً في الساعة ١٧٠٠ فقضى على حوالي نصف الجيش النمساوي، وهرب الباقون نحو اليسندريه وكانت خسائر النمساويين بحدود (٩) الاف بين قتيل واسير أما خسائر الفرنسيين فكانت (٤) الاف وتعد موسوعة التاريخ العسكري هذه المعركة من بين المعارك التي ربحها نابليون دون قتال بل بالمناورة الذكية والسرعة. م.ت.ع. ص٧٤٤

(٢) (اوسترلتز) راجع الهامش في (ص ٢٢٩)

(٣) (ينا) راجع الهامش في (ص ٣٨٣)

(٤) (واكرام) راجع الهامش في (ص ٢٢٩)

(٥) معركة هوهنلندين (٣/١٢/١٨٠٠) ، وكان الطرفان قد نشرا قوتيهما على مسافه واسعة (مورو) الفرنسي وبامرته (٩٠) الف، وارشيدوق النمسا شارلس جون ومعه (٨٣) الف رجل الا انه زجها على شكل مجموعات صغيرة، وبفعل التفوق والسرعة والحيوية الفرنسية، مع قدر كبير من الحظ الجيد استطاع الفرنسيون تطويق جزء كبير من القوات النمساوية وأمكن سحق معظمها وتقدم (مورو) بعدها نحو فينا بينما تولت قوة فرنسية اخرى غزو التيرول من اتجاه جنوبي من سويسرا بينما اندفعت قوة فرنسية اخرى بقيادة الجنرال (بروني) الى ايطاليا، وفي ١٢/٢٥ سعي النمساويون من أجل الصلح (م.ت.ع ص٧٤٤)

و(كاتزبـاخ)[1]. وكلما زادت حدة ذلك، كلما بات من الضروري تركيز المهاجم لقواته، ولمهاجمة جناح العدو وليس تطويقه. لقد استعرضنا في الفصل عشر من الكتاب الرابع بان ثمرة النصر الحقيقية لن تنال فعلاً الا في المطاردة التي تنحو لان تكون جزءاً اساسياً من العمل في معركة تعرضية اكثر مما في معركة دفاعية.

---

(١) معركة كاتزباخ (١٨١٣/٨/٢٦) وهي احدى معارك حملة لا يزك عام ١٨١٣ ضد نابليون وتضم عدة معارك وفي ١٦/اب كان نابليون قد وضع فيلق الجنرال دافوفي هامبورج حيث شكل تهديداً لتحركات قوات التحالف غرباً عبر بروسيا، فاحتل فيلق الجنرال سان سير، دريسدن على محور مناورة محتملة، وسحب نابليون معظم قواته بين هاتين النقطتين القويتين عدى فيلق الجنرال راب المحاصر في دانزك واستعد نابليون للحركة على الخطوط الداخلة ضد اعداءه. كانت قوة نابليون (٣٠٠) الف رجل مقابل (٤٠٠) الفاً لدى التحالف . كانت استراتيجية التحالف هي تجنب اية معركة مع نابليون ومهاجمة جنرالاته حيثما امكن . فهاجم برنادوت (السويدي) الجنرال اودينوت (الفرنسي) وبامرته (٦٠) الفاً في معركة (كروس بيرين) جنوب برلين في ١٣/اب (راجع ص ٣٧٦) ، ودحر بلوخر الجنرال ماكدونالد (الفرنسي) في معركة كاتزباخ في ٢٦/اب . اي في يوم معركة دريسدن (راجع ص ٢٩٥) وكل هذه مقدمات لمعركة لايزك في ١٦-١٩/١٠ (راجع ص ٢٧٣) والمؤسف أن موسوعة التاريخ العسكري لا تورد تفاصيل وافية عن معركة كاتزباخ - م. ت. ع - ص ٧٦٠ - ٧٦١ - المترجم .

الفصل الثامن

عبور الانهر

١.يشكل النهر الكبير الذي يتقاطع مع خط الهجوم، معضلة كبيرة للمهاجم، فحال اجتيازه للنهر سيتحدد المهاجم بجسر واحد للعبور، فما لم يظل قريباً من النهر فستتعرض كافة اعماله الى عراقيل شديدة. وسيتعرض الى ما هو اقسى لو حاول خوض معركة حاسمة على الجانب الاخر، او حتى لو توقع ان يهاجمه العدو، فسيعرض نفسه الى مخاطر شديدة. لذا لن يسعى اي قائد ليضع نفسه في موضع كهذا ما لم يكن على ثقة من امتلاكه لقدر كبير من التفوق المادي و المعنوي.

٢. كما ان الصعوبة البالغة التي يسببها احتلال موضع ما وراء النهر ستزيد كذلك من قوة ومناعة الدفاع . ولو افترضنا بان هذا الدفاع لا يعد المورد المتيسر الوحيد، الا انه أُعد بشكل يسمح معه حتى في حالة فشله بامكانية البقاء على طول النهر، كما ان المقاومة التي سيجابهها المهاجم من المدافع عن النهر ، لا بد ان تضاف الى جميع المزايا الواردة في(١) اعلاه. ولو اخذناها كلها فسيشرح لنا ذلك الاتجاه الذي اتخذه معظم القادة ممن هاجموا دفاعات نهرية.

٣. لكنا رأينا في الكتاب السابق، ان الدفاع عن النهر نفسه يوحي بالكثير من الأمل تحت ظروف معينة. بل علينا القبول بان النجاح في ذلك عملياً يحدث عموماً وبعدد يفوق ما توحي به النظرية. اذ لا تأخذ النظرية في حسبانها أكثر من مجموعة من الظروف المعروفة، الا انها تبدو في الواقع اكثر صعوبة مما هي عليه للمهاجم، لذا تعمل كموقف (معرقل) للأعمال.

مالم يسعى الهجوم موضوع البحث نحو حسم مهم، أو نُفذ دون اندفاع شديد وعزم، فسيتقيد المهاجم في تنفيذه بمجابهة عدد من الموانع والصعوبات الصغيرة، والمصادفات، الأمر الذي لم يدخله أي مفكر في حساباته، والذي ستنعكس اثاره، على المهاجم وبكل ما فيها من اضرار ومحاذير، وببساطة لأن المبادأة بيده،

ولانه أول من يتعرض لتلك العراقيل. لنفكر الان فقط في كيفية الدفاع غالباً وبنجاح عن قنوات وأنهارمنطقة لومبارديا، رغم قلة أهميتها. اذا اظهر التاريخ العسكري لنا حالات فشل فيها الدفاع عن الانهر بتحقيق المستحيل، فذلك مما يثبت لنا فقط، باننا ننتظر الكثير جداً من عمليات كتلك لا استناداً على القدرات التعبوية، بل على دروس تجارب سابقة حققت ما يتجاوز قدراتها.

٤. يمكن اعتبار نهر ما مدافع عنه، كنوع من المقاومة يفيد منها المهاجم، فقط، اذا ارتكب المدافع خطأً تركيز كل مشروعه على هذا الدفاع. فاذا تم العبور قسراً فسيعرض المدافع نفسه الى مشكلات قاسية ومخاطر مأساوية، اذ أن عبور قسري لنهر ما أسهل من كسب معركة عادية.

٥. نتيجة لذلك يمكن أن يكون الدفاع عن النهر مفيداً حقاً حيث لا ينتظر حدوث حسم كبير؛ اما إذا كانت هناك مبررات معقولة لتوقع حسم كهذا بسبب تفوق وحيوية العدو فان دفاعاً نهرياً لم يتم إعداده وحسابه بدقة سيشكل قيمة ايجابية للمهاجم.

٦. هناك عدد قليل من خطوط الدفاع **النهرية التي لا يمكن الالتفاف حولها**، اما على طول تلك الخطوط، او من نقاط بعينها. أما اذا كان المهاجم أقوى وطامح لتوجيه ضربة كبرى، فبوسعه التظاهر بهجوم كاذب من نقطة بينما ينفذ العبور في نقطة أخرى. وبوسعه عندها تلافي أية اخطاء ومعضلات تقع له في المراحل المبكرة في الأشتباك مستفيداً من قوته المتفوقة في الضغط بقسوة لمواصلة تقدمة. لا يمكن الا في حالات نادرة ، وهذا إن أمكن، انجاز عبور نهري قسري بالوسائل التعبوية - باكتساح احد المواقع الدفاعية الرئيسية بقوة نارية متفوقة، وببسالة فائقة. لا يمكن تطبيق مصطلح «السيطرة على معبر» الا في المستوى الاستراتيجي فقط، وبعبور المهاجم في نقطة غير مدافع عنها، او محمية بدفاع خفيف، سيظل معرضاً لكافة المخاطر، التي يعنيها العبور، من وجهة نظر المدافع، أو يسببها له. الا ان اسوء ما يفعله المهاجم، او بوسعه ان يفعله هو العبور من عدة نقاط في وقت واحد، ما لم تكن النقاط متقاربة جميعها بحيث توفر تسانداً متبادلاً. يستطيع المدافع تفريق قوته، اما إذا فعل المهاجم الشيء نفسه فانه سيتخلى عن العديد من الفوائد الطبيعيـة. وبهـذه الطريقـة خسر الفيلد مارشـال النمسـاوي (بيليكـارد)

المعركة على نهر منسيو[1] (في ايطاليا) عام ١٨١٤، اذ حاول جيشا الطرفين عبور النهر في آن واحد ومن نقاط مختلفة، إلا أن القوات النمساوية كانت متباعدة اكثر من الفرنسية.

٧. اذا ظل المدافع على نفس الجانب مع المهاجم، فمن الواضح أن هناك طريقتين لتحقيق ميزة استراتيجية. الأولى في العبورمن أي مكان بغض النظر عن وجوده (المدافع)، والثانية، وهي بخوض معركة. العامل الرئيسي في الاولى ،ينبغي ان يكون العلاقة ما بين القاعدة وخطوط المواصلات، رغم ان الظروف الخاصه غالبا ما تكون اكثر حسماً من الموقف العام. يمكن تجاهل ذلك الى حد ما من قبل الجيش الذي اختار افضل المواضع لقطعاته، ورتب قواته على أفضل توزيع تعبوي، وفرض انضباطاً شديداً، أو أن بوسعه التنقل بشكل أسرع. أما بالنسبة للمسلك (الطريقة) الثاني،فعلى المرء الافتراض بامتلاك المهاجم للوسائل ، والظروف المناسبة، والعزم على خوض المعركة. فان كان الامر كذلك فلن يجروء المدافع على أدنى قبول بمخاطر دفاع كهذا عن النهر.

٨. لنجمل كل ذلك ، بالقول بان عبور نهر كهذا ، نادراً ما يشكل مصاعباً كبيرة، وما لم يتعلق الامر بقرار هام فهناك الكثير من المجالات لتجاوز اية شكوك حول عواقبها او اية اثار ومضامين قد تجبر المهاجم وبسهولة الى التوقف. فاما ان يترك المدافع على الجانب القريب من النهر، او ان كلما بوسعه هو عبور النهر والبقاء على مقربة منه. اذ من النادر جداً أن يظل جيشان في مواجهة بعضيهما لاية فترة طويلة.

لكن وحتى لو كان هناك حسم كبير، فالنهر يعد عامل اساسي لانه وعلى الدوام يضعف ويشتت التعرض. وفي حالة كهذة، بوسع المرء ان يأمل وقوع المدافع في خطأ اعتبار النهر كمانع تعبوي وجعل دفاعه المباشر هو النقطة المركزية في المقاومة،متخلياً بذلك للمهاجم عن ميزة توجيه الضربة الحاسمة باقل قدر من الجهد. يجب ان نفهم بان تلك الضربة سوف لن تؤدي الى أنهيار الخصم كلياً وعلى الفور، بل ستؤدي الى سلسلة من الأشتباكات الناجحة والتي ستخلق بدورها ظروفاً قاسية وغير ملائمة عموماً، وكما كان عليه حال النمساويين عند نهر الراين الاسفل عام ١٧٩٦.

---

(١) دارت معظم المعارك والحملات عام ١٨١٤ بين المانيا وفرنسا، وان النهر المقصود اعلاه هو الراين ودارت الاحداث اعلاه في مطلع كانون ثاني ١٨١٤، مع أن النص الانجليزي الذي نترجمه يكرر ذكر معركة نهر منسيو في قائمة الحروب والمعارك الواردة في آخر كتاب كلاوزفيتز ولم نعثر عليها في اي مكان اخر لذا سنفترض ان نهر الراين كان موضع الحوادث اعلاه حيث كان نابليون غرب الراين وبأمرته (١١٨) الف رجل ما بين انتويرب وليون (م.ت.ع – ٧٦٢) علماً بان نابليون قد قاتل عند نهر منسيو لكن عام ١٧٩٦ قرب مانتو في ايطاليا (م.ت.ع ص ٦٨٥). المترجم

الفصل التاسع
هجوم على مواضع دفاعية

هناك مناقشة مفصلة في الكتاب الخاص بالدفاع عن الاتساع الذي تكون عليه المواضع الدفاعية لاجبار العدو اما على مهاجمتها او ايقاف تقدمه. والمواضع التي تحقق غايات كهذه فقط تعد مواضع جيدة ومناسبة، وتمزق القوات المعادية كلياً او جزئياً، أو تشل فاعليتها. ليس بوسع الهجوم التفوق عليها، اذ لا يمتلك اية وسائل تمكنه من مقابلة مزاياها. اما من الناحية العملية فليست جميع المواضع الدفاعية على هذا الشكل. فلو وجد المهاجم ان بوسعه المضي في سبيله (ومتابعة نواياه) دون مهاجمتها، فسيبدو غبياً اذ ما حاول ذلك. اما ان تعذر عليه ذلك، فالسؤال الذي يفرض نفسه حينئذٍ هو ما اذا كان بوسع المهاجم المناورة بتهديد جناح المدافع. وسيقرر مهاجمة موضع جيد ما فقط عندما لا تغدو تلك الوسائل فعالة، وفي تلك الحاله سيظل الهجوم على الجناح قليل المعضلات. وكذلك فالخيار بين الجناحين انما يعتمد على مكان واتجاه جانبي خطوط مواصلاته؛ وبكلمة اخرى، التهديد الموجه لخطوط انسحاب العدو، وحماية خطوطنا. يمكن ان يتعارض هذان العاملان بسهولة، وفي كل الاحوال لا بد من ايلاء مسألة تهديد خطوط العدو الافضلية الاولى. وطبيعة تهديد كهذا تعرضيةلذلك سيشبه نفس شكل الهجوم، بينما تكون طبيعة الاخر دفاعية. ومع ذلك فأحد الامرين اكيد، واساسي لموضوع كهذا؛ **فمهاجمة عدو قوي ومتمكن وفي موضع جيد أمر لا يخلو من مخاطرة** . وفي الحقيقة تنقصنا الامثلة على معارك ناجحة من هذا النوع، مثل (توركاو)[1] و(وكرام)[2] ولم ادخل معهما معركة (دريسدن) اذ لا يمكن وصف العدو فيها بالقدرة وعلى كل حال يظل عدد[3] الأمثلة قليلاً وغير ذي شأن عند مقارنتها مع العدد الكبير من الحالات التي امتنع اكثر القادة براعة وعزماً عن مهاجمة مواضع كهذه.

مع ذلك لا ينبغي خلط نماذجنا أو إرباكها بمعارك عادية وثانوية فمعظم المعارك كانت اشتباكات حقيقية (صدامات)، نقربان احد طرفيها كان مدافعاً الا انه ليس في مواضع متخندقة.

---

(١) معركة توركاو (١٧٦٠/١١/٣) من معارك حرب السنوات السبع كانت خطة فردريك الكبير بهجوم جبهوي بنصف جيشه بقيادة (زايتين) واحاطة الجناح الايمن للعدو بالنصف الاخر بقيادة فردريك نفسه . ضاعت المباغتة بسبب الاخطاء وسوء الطقس وتنبه واجراءات النمساويين لمجابهة التهديد، انتهت المعركة بانتصار كاسح لفردريك وخسائر متقاربة للطرفين للمزيد راجع (م.ت.ع - ص ٦٧٤ - ٧٥) المترجم .

(٢) معركة واكرام - راجع الهامش في الكتاب الثاني - الفصل الخامس (ص ٢٢٩)

(٣) حوت الطبعة الاولى كلمة (جيفهر Gefahr) التي لم نفهم ما تعنيه اما الطبعة الثانية فحاولت ان تكون اكثر وضوحاً لكن باضافة تسمية غير واضحة. اما (جيفهر) فهي بالنسبة لنا (Zahil (زاهل) - المشرف Eds

الفصل العاشر
هجوم على معسكرات متخندقة

لقد كان من الشائع والمألوف الاستهانة بالتخندق وجدواه. والانطقة الدفاعية على الحدود الفرنسية والتي غالباً ما تم اختراقها ، والمعسكر المتخندق في (بريسلاو[1]) حيث اندحر دوق (بيفرن)[2]، ومعركة (توركاو) وعدد من الامثلة الاخرى قد سببت هذا التحيز والحكم المسبق. واكثر من ذلك فالانتصارات الرائعة التي حققها فريدريك الكبير لقابلية الحركة والروح التعرضية القت ظلالاً على الدفاع فوق جميع المواضع الدفاعية الثابتة كذلك وعلى الأخص المتخندق منها، والتي عززت بل وضاعفت من هذا التجاهل والترفع. من المؤكد أن الخنادق لن تساوي شيئاً، إن كنا نتوقع تولي بضعة الاف من الرجال الدفاع عن عدة اميال من الأرض، أو عندما لا تكون الخنادق سوى مجرد مجموعة من الشقق المتصلة جانبياً. واي قدرمن الثقة نضعها في الخنادق ليس سوى تظليل وخداع خطرين. وبالمقابل فلا بد من التأكد ان ذلك سيكون مجرد تناقض او حتى سخف محض لو عممنا هذا الرأي ليشمل كافة جوانب ومفاهيم التخندق كما فعل العقيد تمبلهوف[3] باسلوبه العدائي المتبجح. وعلى ايه حال فلنسأل عن أية فوائد قد تقدمها الخنادق، ما لم تساعد المدافع؟ ليس بفعل المنطق وحده كلا ،بل ان هناك المئات، بل والالاف من الأمثلة التي تظهر لنا بان الخنادق الحسنة الاعداد، والتي اشغلت بكفاءة،واحسن الدفاع عنها **يجب اعتبارها عموماً نقاطاً يصعب اختراقها** ، بل انها ستعتبر كذلك في الحقيقة من وجهة نظر المهاجم. ولو بدأنا من عامل فاعلية واهمية خندق منفرد، فلن نستطيع التشكيك فعلاً بان الهجوم على معسكر متخندق أمر بالغ الصعوبة، بل ويعد في الغالب مهمة مستحيلة للمهاجم.

تشغل المعسكرات المتخندقة، وبسبب من طبيعتها بالذات بقوة قليلة، لكن اذا كان المانع الطبيعي من نوع جيد، كما أحسن انشاء المعسكر، فبوسعها الصمود ضد عدو متفوق عددياً . لقد اعتقد فردريك الكبير بان هجوماً على معسكر بيرنا ليس

---

(١) معركة بريسلا في ١٧٥٧/١١/٢٢. راجع الهامش في ص ٥٦٤ .

(٢) هو الدوق اوكست ويلهم دوق برنسويك لونبيرك بيفيرن.

(٣) الجنرال الروسي جورج فردريك تمبلهوف (١٧٣٧- ١٨٠٧) .

مجدياً، رغم بلوغ قوته ضعف قوة حامية المعسكر. ومنذ ذلك الحين، يثار بين أونة وأخرى، ان ليس من الصعب كثيراً احتلال المعسكر، لكن الدليل الوحيد لوجهة النظر هذه يستند الى الظروف البالغة السوء لحامية المعسكر الساكسونية، وذلك ليس بالحجة القوية ضد قيمة وجدوى التخندق الا ان ما ليس مؤكداً هو اذا كان الذين ادعوا بعد الحادث بان الهجوم على معسكر (بيرنا) ليس ممكنا وحسب، بل وحتى سهلاً سيختارون هم أنفسهم الهجوم في اللحظات الحاسمة.

لذلك نرى، ألا ينبغي الهجوم على معسكر متخندق الا في حالات نادرة جداً. ويعد الهجوم أمراً مرغوباً فيه فقط إن كان الدفاع قد أعد على عجل، ولم يكمل بعد، وليست هناك أية عوائق او موانع على المقتربات اليه، أو إن كان الدفاع ليس أكثر من دفاع أرتجالي أو مجرد مشروع عام للدفاع وكما حدث في الغالب اذ لم يكن المعسكر اكثر من مجرد خرائب لم تكتمل حد النصف حتى. عندها فقط ينصح بالهجوم الذي يعد طريقة سهله للقضاء على العدو.

الفصل الحادي عشر
هجوم في منطقة جبلية

لقد اوضحنا الاهمية الاستراتيجية العامة للمناطق الجبلية في كل من الدفاع والهجوم في الفصل الخامس والفصول التي تلته في الكتاب السادس وبتفصيل واف. كما كانت هناك محاولة اخرى للتأكيد على الدور الذي تلعبه المنطقة الجبلية كخط دفاعي حقيقي، وبيان اهمية المنطقة الجبلية، وتطوير هذه الاهمية من وجهة نظر الهجوم. لذلك فليس لدينا سوى القليل مما يمكن قوله عن هذا الموضوع المهم. والاستنتاج الرئيسي الذي وصلناه هو ان على المدافع القبول باحد الموقفين المتعارضين بشدة، اما اشتباك ثانوي او معركة كبرى (حاسمة). اما في الاول فان هجوماً على سلسلة جبلية يعد وفي أحسن الاحوال، شر لا بد منه، لان جميع العوامل الاخرى ضده، اما في المعركة الكبرى فستكون كافة الفوائد الى جانب المهاجم.

فتعرض يشن بالوسائل المتيسرة والعزم على خوض معركة سيقابل العدو في منطقة جبلية، وسيفيد بالتأكيد من كل ذلك.

وهنا ايضاً علينا التأكيد بصعوبة تأمين القبول بهذا الاستنتاج لانه لا ينسجم وكل مظاهر الامر، كما يبدو، وباول لمحة، وخلافاً لكل التجارب السابقة. فمن المعترف به وفي معظم الحالات، بان الجيش المتعرض، وسواء أكان مصمم على خوض معركة حاسمة ام لا، فسيعتبر نفسه محظوظاً وبشكل استثنائي لو رأى أن عدوه لم يحتل سلسلة الجبال التي تفصل بينهما. وعليه أن يسرع للوصول اليها اولاً، ولن يرى أي كان في ذلك تعارضاً وطبيعة التعرض. ونقر نحن بذلك، ومع ذلك لا بد من إضافة المزيد من التمييز الدقيق.

فلو كان على الجيش المتقدم نحو عدوه وهو عازم على خوض معركة حاسمة معه، عبور سلسلة جبلية ليست محتلة، فسيهتم كثيراً لاحتمال اسراع العدو الى سد الممرات والمضائق بوجهه في اللحظات الاخيرة. وفي حالة كهذه لن يتمتع المهاجم بالفوائد التي كان سينالها في حالة احتلال عدوه لموضع جبلي عادي. اذ ليس العدو مضطراً الى التمدد كثيراً، كما لم يعد في حيرة او شك بخصوص المحور الذي يسلكه المهاجم، كما لم يعد بوسع هذا اختيار طرقه بحرية لانشغاله بمواضع العدو.

لذا لن توفر معركة جبلية كهذه كافة الفوائد التي أشرنا اليها في الكتاب السادس للمهاجم. ومن الممكن في ظروف كهذه اعتبار ان المدافع بات في موضع يصعب اقتحامه. لذا قد يكون بوسع المدافع وبعد كل شيء، امتلاك الوسائل التي تمكنه من تحويل الجبل لمصلحته في معركة حاسمة. وهذا أمر ممكن فعلاً، لكن وعند التمعن بمصاعب اقامة موضع دفاعي جيد في الجبال في اللحظات الاخيرة، وعلى الاخص في الاماكن التي تركت دون احتلال أو مراقبة، فسندرك وبسهولة ان هذه ليست بالوسيلة الجيدة للدفاع. وللمهاجم الحق والعذر في أن لا يخشى ظروفاً كهذه لانها **نادراً ما تحصل**. ورغم انها بعيدة الاحتمال جداً، يظل مع ذلك من المعقول أن نخشى وقوعها، ومع ذلك ففي الحرب غالباً ما توجد حالة يكون من الطبيعي أن تتسبب باهتمام خاص وفريد حتى لو كان ليس ضرورياً بالمرة.

هناك سبب آخر يثير قلق المهاجم وهو الدفاع الاولي الذي تتولاه قوات امامية (مقدمة) عن الجبال من خلال سلسلة من المخافر. ومع ان اجراء كهذا يعد نادراً أو قلما يثير اهتمام المدافع، فليس بوسع المهاجم التأكد أو التمييز في حدوث ذلك أو عدمه، لذلك سيظل فريسة للقلق الاسوء.

واكثر من ذلك فوجهة نظرنا في الامر لا تستبعد امكانية الاراضي الجبلية وبفعل طبيعتها، من تأمين موضع دفاعي عصي على الاختراق. ومثل هذه المواضع توجد فعلاً، ولكن ليس في المناطق الجبلية: والامثلة على ذلك هي (بيرنا)، و(شموتزيفين)[1]، (وميسين)[2]، وفيلدكيرج[3] وكلها امثلة مفيدة جداً، لانها ليست في الجبال. ومع ذلك يمكن تصور وجودها في الجبال – او فوق هضاب عالية على سبيل المثال، وحيث بوسع المدافع تجنب العوائق المعتادة في المواضع الجبلية. الا انها تظل استثناء. وعلينا التركيز على الحالات الغالبة.

تؤكد لنا احداث التاريخ العسكري عدم ملائمة الجبال لمعارك دفاعية حاسمة. ويميل القادة الكبار في حالات كهذه إلى اختيار مواضعهم في الارض المفتوحة. وليس هناك ولا حتى مثال واحد في التاريخ لحرب جرت فيها اشتباكات حاسمة في الجبال، باستثناء الحروب الثورية. اذ يتضح لنا فيها تطبيق وتمثيل خاطئين يقودان الى

---

(١) شموتزيفين. لم نعرف عنه سوى انه موضع ورد ذكره في حرب السنوات السبع. المترجم

(٢) ميسين. بلدة في المانيا بين لايبزغ ودريسدن قرر الجنرال راتوفسكي (نمساوي) الدفاع فيها ضد القوات البروسيه التي اجتازت الالب في (مكدبورج) بقيادة الجنرال ليبولد. رغم تفوق النمساويين العدوى – م.ت.ع – ص ٦٣٥ المترجم

(٣) فيلد كيرج. راجع الهامش في الكتاب (٦) الفصل (١٧) ص.٦٠٢ (المترجم)

استخدام المواضع الجبلية حتى في حالة توقع حدوث اشتباكات حاسمة، كما حدث في منطقة الفوج عامي ١٧٩٣، ١٧٩٤، وفي ايطاليا في اعوام ١٧٩٥، ١٧٩٦، ١٧٩٧، وقد انتقد ميلاس كثيراً لعدم احتلاله مضائق الالب (Alpine) عام (١٨٠٠م)، الا ان هذا انتقاداً متسرعاً – بل وبوسع المرء اعتباره انتقاداً فجاً ومبالغ فيه. ولعل نابليون نفسه، لو كان في محل ميلاس ما كان سيحتل تلك المضائق ايضاً.

تعد الاستعدادات لمهاجمة موضع جبلي، تعبوية في معظمها. ومع ذلك قد نرى انفسنا ملزمين بوضع مجمل اولي، خاص وينطبق على تلك الاجزاء القريبة جداً من الاستراتيجية وتتزامن معها:

١ . تمتاز الجبال عن الانواع الاخرى من الاراضي، بانها لا تسمح بالخروج عن الطريق وتجزأة الرتل الواحد الى رتلين او ثلاث وفقاً للمتطلبات الآنية. كما يتوقف كل شيء في المضائق والممرات الجبلية الطويلة. لذا يجب ان يشرع بالتقدم على عدة طرق ابتداء، والا فمن الافضل اجراء التقدم على جبهة اكثر اتساعاً.

٢ . عند مهاجمة خط دفاعي واسع الامتداد في الجبال، على المهاجم بطبيعة الحال تنفيذ ذلك بقوة متحشدة، فقد لا يمكن احاطة جناح العدو كلياً. اما اذا استهدف المهاجم تحقيق انتصار كبير فلا بد ان يرافق ذلك اختراق خطوط العدو وتشتيت اجنحته، لا الاعتماد على تطويق وعزل القوات المعادية. وتغدو نوايا المهاجم بعد ذلك مواصلته التقدم بسرعة لا تقاوم على طول خط الانسحاب الرئيسي للعدو.

٣ . مع ذلك فلو اقتضى الامر مهاجمة العدو في مواضع جبلية[١] اكثر تحشداً، فستشكل العمليات على الجناح جزء رئيسياً من الخطة، لأن الهجمات الجبهوية ستواجه باقصى مقاومة، لذا لا بد ان تتوخى تلك الهجمات عزل القوات المعادية، لا مجرد هجمات تعبوية على الجناح او المؤخرة، اذ حتى مؤخرات المواضع الجبلية قادرة على ابداء مقاومة عنيفة ان تيسرت لها القطعات. واسرع الطرق لتحقيق النتائج هي وعلى الدوام باخافة العدو من قطع خطوط انسحابه. ومثل هذا الخوف يظهر بسرعة وفعالية كبيرتين في الحروب الجبلية، فما من شيء اخر اسهل من قطع مثل هذه الخطوط عندما تسوء احوال (العدو) فالمصائب لا تأتي فرادى. اما بالنسبة للهجوم، فلن تكفيه مظاهرة بسيطة في هذا الشأن، ولا بد له في احسن الاحوال من مناورة تجبر العدو على ترك مواضعه، رغم انها قد لا تحقق كل النتائج المرجوة لذا لا بد من توخي قطع خطوط العدو فعلاً.

---

(١) رغم ان جميع المصادر التي رجعنا اليها تعطي (Weniger Gesammelten) فان هذه الفقره لا تفهم ما لم نفترض ان Weniger يجب ان تترجم الى (Mehr) او اكثر، وقد ترجمناها وفقاً لذلك. المشرف(Eds)

الفصل الثاني عشر

مهاجمة الخطوط

اذا كان القرار الحاسم هو ما يسعى اليه الدفاع عن او الهجوم على خط او نطاق دفاعي، فالمهاجم هنا من يحظى بالفوائد الكبيره، اذ يجعل اتساع هذه الخطوط، مواضعاً كهذه اقل ملائمة لما تحتاجه معركة حاسمة، واقل حتى من الدفاع المباشر عن نهر او سلسلة جبلية. تقدم لنا الخطوط الدفاعية للأمير (أيوجين) عام ١٧١٢ في (دينيان)[1] مثالاً على ذلك، اذ تعادل خسارتها خسارة معركة، ومن المشكوك فيه ان يحقق (فيلارز) انتصاراً كهذا على أيوجين لو كان هذا في موضع متحشد. اما اذا كان الانتصار الحاسم خارج نطاق وقدرات الوسائل التي تحت تصرف المهاجم، فسيؤجل مهاجمة الخطوط، وعلى الاخص عند احتلالها (إشغالها) بالقوة الرئيسية للمدافع. وعلى سبيل المثال، فقد فلت خطوط ستولهوفين[2] عام ١٧٠٣ من عزيمة (فيلارز) فلم يهاجم الجنرال لويس اوف بادين. اما لو كانت تلك الخطوط قد أشغلت بقوة ثانوية، فسيعتمد كل شيء عندها على قوة وتيسر القوات التي ستستخدم في الهجوم. ولا ترقى المقاومة في حالة كهذه الى درجة عالية، وبالمقابل فلن يكون النصر هو الآخر مدوياً.

اما خطوط التحصين التي تنشئها القوات التي تتولى الحصار، فلها هي ايضاً سماتها الخاصة، وانوي مناقشتها في الفصل الخاص بالهجوم على مسرح العمليات.

تشترك كل المواضع - الخطية، كالمواقع المعززة، وغيرها[3]، بسمة خاصة هي في سهولة اختراقها، ولكن لا بد من ملاحظة ان تنفيذ ذلك بدون تصميم مسبق على الضغط بشدة والوصول الى حسم تام، فان كلما يمكن تحقيقه لا اكثر من نجاح محدود، لا يساوي ما بذل من اجله من جهد.

---

(١) معركة دينيان (عام ١٧١٢) قرب بلدة دينيان شمال شرق باريس. وجرت في حرب الوراثة الاسبانية بين دول التحالف (بريطانيا وهولندا والنمسا) من جهة وفرنسا وبافاريا. ورغم مفاوضات الصلح الجارية في اترخت فقد قام الماريشال الفرنسي فيلارز بحركة سريعة امن خلالها تفوقاً على جزء من قوات الامير النمساوي ايوجين ودار القتال بالسلاح الابيض وخسر التحالف (٨) الاف بين قتيل وغريق في نهر شيلدت اما خسائر الفرنسيين فكانت (٥٠٠) رجل فقرر الامير ايوجين الذي وصل المعركة متأخراً الانسحاب عبر النهر. (م.ت.ع ص ٦٢٥ (المترجم)

(٢) خطوط ستولهوفين - على الراين في المانيا حيث دارت معارك حملة بلنهايم من حرب الوراثةالأسبانية راجع م. ت. ع - ص ٦١٩ - ٦٢٢ . المترجم .

(٣) راجع الكتاب الخامس الفصل - المشرف Eds

الفصل الثالث عشر
المناورة

١ . لقد لامسنا موضوع المناورة في الفصل (٣٠) من الكتاب السادس. ومع انها شائعة ومشتركة للمهاجم والمدافع، الا انها اقرب في طبيعتها كثيراً الى الهجوم منها الى الدفاع، لذلك سنتولى هنا تحديدها بشكل اكثر دقة.

٢ . يجب تمييز المناورة، لا عن الاسلوب العدواني في ادارة الهجوم، بالقيام باشتباكات كبرى فقط ، بل كذلك عن إية عمليات تنجم عن هجوم أني كهذا، سواء كانت العملية انحرافاً (عن المحور الاساسي) او بالضغط على خطوط مواصلات العدو او على مؤخراته وغير ذلك.

٣ . يحمل مصطلح المناورة بمعناه المعتاد فكرة خلق فاعلية وتأثير من لا شيء، ان جاز قول ذلك – ونعني بذلك، شيئا ابعد او خارج **حالة التوازن** – باستغلال الخطأ الذي يدفع العدو او يغرى بارتكابه. ويمكن مقارنتها بالحركة الاولى (المفتاحية) في لعبة الشطرنج. وهي في الحقيقة لعبة قوى متوازنة ويرغب كل منها بخلق ظروف ملائمة للفوز ولاستخدام هذا الفوز بالتالي للحصول على بعض الفوائد على حساب العدو.

٤ . الاعتبارات الواجب تذكرها ووضعها في الحسبان، واعتبارها كاهداف من ناحية، وكاطار في تحديد مسارات عملنا من ناحية اخرى، هي التالية:

أ . تموين اغذية العدو، والتي يتوخى المقابل قطعه كلياً او تقليله.

ب . الاندماج مع وحدات اخرى.

جـ . تهديد طرق المواصلات الاخرى مع داخل البلاد، او مع جيوش او قوات اخرى.

د . تهديد لخط التراجع.

هـ . الهجوم على نقاط منفردة بقوات متفوقة.

يمكن ملاحظة هذه الاعتبارات الخمسة في اصغر تفاصيل موقف معين، لتصبح بعد ذلك الموضوع الذي تدور حوله، ولوقت ما، كل الاشياء الاخرى. وقد يكون هذا جسراً، أو طريقاً كبيراً (عاماً) او مجموعة خنادق، ومع ذلك فبالامكان وعند

كل حالة من هذه الحالات التأكيد من ان اهميتها وعلى الدوام انما تنجم من علاقة ذلك الشيء (الموضوع) بواحد من الاعتبارات الخمسة اعلاه.

و . اما نتيجة المناورة الناجحة، للمهاجم، او بالاحرى للطرف الفعال (الذي قد يكون المدافع) فستكون اما شريط من الارض، او مستودع تموين، او شيء كهذا.

ز . تتضمن المناورة الاستراتيجية زوجين اثنين متناقضين، يبدوان بشكل متمايز، وقد يصار لاستخدامهما لوضع قواعد واحكام خاطئة. الا ان عناصرهما الاربعة، في الحقيقة، هي اساساً اجزاء مهمة في كل واحد، ولا بد أن ينظر اليها على هذا الضوء. يتألف الزوج الاول من النقيضين من احاطة جناح العدو، أو التحرك على الخطوط الداخلية، والثاني هو، بتحشيد القوات او توزيعها على عدد كبير من المواقع.

ح . ليس بوسع المرء عند التمعن في الزوج الاول من النقيضين، القول بان احد العاملين متفوق عموماً على الاخر. والسبب في ذلك يعود جزئياً الى ان محاولة تحريك أحدهما ستثير وبشكل طبيعي العامل الاخر كحركة معاكسة (Counter move) واضحة، وكعلاج ملائم، كما يعود في جزء آخر، لسبب مفاده ملازمة التطويق للهجوم نفسه، بينما يتحد استخدام الخطوط الداخلية مع الدفاع، مما يعني، وعموماً، ان الاول ملائم للهجوم، أما الاخر فملائم للدفاع. والشكل الاكثر تفوقاً هو ذلك الذي ينفذ بشكل افضل.

ط . وكما يستحيل تصعيد أو رفع قيمة عنصري الزوج الاخر من النقيضين. الا ان بوسع قوة كبيرة على الانفتاح لمسافة ابعد. لذلك، فبالامكان وعلى عدة أوجه ترتيب وضع استراتيجي مقنع وتوفير الجهد غير الضروري للقطعات. اما الجانب الاضعف فلا بد أن يظل محتشداً، والتنبه لما ينتج عن تخليه عن مزايا وفوائد قابلية الحركة. تستلزم قابلية الحركة الكبيرة، درجة كبيرة من الكفاءة والقدرات في المسير (التنقل). لذلك لا بد ان يجهد الجانب الاضعف نفسه كثيراً مادياً ومعنوياً. وذلك هو الاستنتاج الذي لا بد منه، بطبيعة الحال، اذا كانت مناقشتنا مستقيمة ومتماسكة، بل يمكن في الحقيقة اعتبار ذلك اختياراً عملياً لها. فحملات فردريك الكبير ضد داون عامي ١٧٥٩، ١٧٦٠، وضد (لاودن) عام ١٧٦١. وحملة مونتيككولي ضد تورين عام (١٦٧٣) وعام (١٦٧٥) قد اعتبرت على الدوام امثلة رائعة على هذا الشكل، كما استند رأينا في ذلك عليها الى حد كبير.

ي . مثلما يتوجب على المرء أن يتجنب سوء استخدام العوامل الاربع للنقيضين المفترضيين، لوضع صياغات وقواعد واحكام مظللة، عليه التنبه كذلك وعدم ايلاء تلك العوامل اهمية مفرطة وتأثيراً حاسماً اكثر مما لها فعلاً ، وعلى حساب ظروف عامة اخرى، كخط قاعدة، او ارض او عارضة وغير ذلك. وكلما قلت اهمية العامل المطروح او مدار البحث، كلما زادت اهمية تفاصيل الموقف الاني، فالعوامل الاوسع والاكثر اهمية قد تضيع خلف الاحداث، بينما تعد في الواقع كبيرة في نطاقها وتأثيرها على الحدث الذي بين ايدينا. وعموماً، هل يمكن يا ترى ان نرى موقفاً اكثر استحالة من موقف تورين عام ١٦٧٥؟ فقد توقف وظهره الى نهر الراين، وامتد موضعه لمسافة تزيد على (١٥) ميلاً، ويقع الجسر الذي يمكنه الانسحاب عبره في اقصى جناحه الايمن. ومع ذلك فقد افاده موضعه ذاك، وقد اظهر ذلك فعلاً واثبت كونه على درجة عالية من المهارة والدقة. ليس من السهل ادراك او استيعاب هذا النجاح كليا وبوضوح ما لم ننتبه بشدة الى التفاصيل، وتقديرها وفقاً لقيمتها في كل حالة.

لذلك فنحن على ثقة تامة من عدم وجود اي نوع من القواعد للمناورة، وما من طريقة او مبدأ عام لقياس قيمة العمل، ولا حتى، لتطبيق ارقى، واوضح واكثر انتظاماً، وانضباطاً، والخوف سيوجد الوسائل الكفيلة لانجاز مكسب معقول في ادق واحرج الظروف. وعلى مثل هذه المزايا يعتمد النجاح كثيراً في صراع كهذا.

الفصل الرابع عشر
الهجوم في المستنقعات، والمناطق المغمورة بالمياه والغابات

تشكل المستنقعات - المناطق المغمورة التي يصعب عبورها الا من ممرات ومجازات معينة - مجموعة من المعضلات للمهاجم، وكما سبق واوضحنا ذلك تحت عناوين وموضوعات الدفاع. فالمستنقعات عادة واسعة وبعرض يتعذر علينا معه ابعاد العدو عن الضفة البعيدة بنيران المدافع كما لا يسمح لنا بانشاء وسائطنا للعبور. ومن الناحية الاستراتيجية تحاول الجيوش عادة تجنب القتال في المستنقعات، وتحاول تخطيها (by-pass) بشكل ما. اما في المناطق الكثيفة الزراعة - وكما هو الحال في الاراضي المنخفضة - وحيث يتوفر ما لا يحصى من وسائل العبور، تظل مقاومة المدافع رغم ذلك قوية نسبياً، الا انها تعد ضعيفة في حالة البحث عن حسم تام، لذلك تعد في النهاية غير مجدية. لكن يمكن ومن الناحية الاخرى، زيادة مناعة الاراضي المنخفضة بغمرها بالماء كما في هولندا، وحيث يمكن ان تتزايد المقاومة بشكل مطلق؛ اذ يمكن عندها افشال اي هجوم، وقد حدث مثل ذلك وبشكل مفصل في هولندا عام ١٦٧٢ فبعد ان احتل الفرنسيون كافة القلاع الواقعة خارج المنطقة المغمورة بالماء، ظل لديهم (٥٠) الف جندي في الاحتياط، الا انهم فشلوا رغم ذلك، بقيادة الجنرال كونديه اولاً ومن ثم بقيادة الماريشال لوكسمبرج فيما يعد باختراق المناطق المغمورة، رغم قلة القوة المدافعة التي كانت بحدود (٢٠) الفاً فقط. الا إن حملة الجيش البروسي (ضد الهولنديين) عام ١٧٨٧ بقيادة دوق برونزويك تظهر لنا نتائجاً مختلفة فقد امكن اجتياح الخط (الدفاعي) بقوة متفوقة قليلاً، ولم تتكبد سوى القليل من الخسائر. ومع ذلك يمكن ان يعزى ذلك الى انقسام المدافعين بفعل التوجهات السياسية وانعدام وحدة القيادة. ورغم ان ما من شيء اكثر دقة من اعتماد نجاح تلك الحملة - التقدم عبر الخط النهائي للمناطق المغمورة الى ابواب امستردام - على نقطة واحدة كهذه فليس بوسع المرء استخلاص اي استنتاج منها. تلك النقطة الجيدة كانت (هارليمرمير) التي تركت دون دفاع. وحيث استطاع (الدوق) منها تخطي الخط الدفاعي، والتقرب الى موقع (امسيلفوين) من الخلف. ولو

كان للهولنديين بضعة سفن في (هارليمرمير)، لما استطاع الدوق الوصول الى امستردام، فقد استنزف كل طاقته. ولسنا معنيين هنا باية تأثيرات على التوصل الى السلام، الا ان المؤكد هو أنه، ما من مجال لاية تساؤلات اضافية حول اجتياح الخط الدفاعي الاخير في منطقة مغمورة.

يعد الشتاء بطبيعة الحال العدو الرئيسي لوسيلة الدفاع هذه، وكما اوضح لنا الفرنسيون ذلك عامي ١٧٩٤ – ٩٥، ولكنه لا بد ان يكون **شتاءًقاسياً**.

تعد الغابات التي يصعب اجتيازها وسيلة قوية اخرى للدفاع كما وسبق لنا القول. وما لم تكن شديدة الكثافة فقد يتمكن المهاجم من التخلل عبرها او على عدة طرق متجاورة، وكل منها تعد منطقة ملائمة للعمل بشكل افضل. ليس القوة التعبوية لكل موضع على انفراد قوية جداً، اذ ليس من السهل اعتبار الغابة صعبة او مستحيلة الاجتياز كالمستنقع او النهر. ومن الناحية الاخرى ففي روسيا وبولندا مساحات شاسعة من الارض مغطاة بكاملها تقريباً بالغابات؛ فما لم يكن المهاجم قوياً بدرجة تمكنه من الوصول الى الجانب الاخر، فسيكون في موقف بالغ الصعوبة. ويكفي المرء ان يتذكر فقط معضلات التموين التي على المهاجم تذليلها. واكثر من ذلك، وبعد اندفاع المهاجم في عمق الغابة فلن يغدو قادراً على اظهار تفوقه على العدو المتواجد في كل جزء من الغابة، وبشكل فعال يتناسب وتفوقه العددي. وهذا دون شك احد اسوء المواقف التي يجد المهاجم نفسه فيها.

الفصل الخامس عشر

الهجوم على مسرح الحرب : البحث عن حسم

لقد تناولنا معظم جوانب هذا الموضوع في الكتاب السادس «عن الدفاع». والتي ستلقي مزيداً من الاضواء على موضوع الهجوم.

يرتبط مفهوم مسرح العمليات المستقل (المتميز) على اية حال بالدفاع اكثر من ارتباطه بالهجوم. وقد عالجنا عدداً من الموضوعات الهامة مثل **«هدف الهجوم ونطاق فاعلية النصر»** في الكتاب السادس، كما يمكن عرض وتبسيط السمات الاساسية للهجوم بدرجة كافية سوية مع موضوع خطط الحرب. وما زال الكثير بين ايدينا لاستعراضه هنا، وسنبدأ مرة اخرى مناقشة حملة (عسكرية) تهدف الى الوصول الى حسم كبير بالقوة.

١ . الهدف الاني والمباشر لهجوم ما، هو النصر. وبالوسائل التي توفر التفوق بالقوة للمهاجم فقط يستطيع هذا مجابهة المزايا التي ينالها المدافع بفضل مزايا موضعه، وربما يضاف اليها بعض الفوائد المتواضعة التي يحظى بها المهاجم لمجرد معرفة كونه الجانب المتقدم. وغالباً ما اهملت هذه الميزة؛ لانها قصيرة عمر، ولن تصمد امام معضلة جديه. ونفترض بدورنا بان المدافع سوف يتصرف بادراك واع وبطريقة صحيحة بطبيعة الحال. وقلنا هذا لازاحة اية شكوك او اوهام او افكار فجة عن هجمات مباغتة، ينظر اليها عموماً كمصدر عامر وسخي للأنتصار. وقد تكون كذلك فعلاً ولكن في ظروف استثنائية. ولقد سبق وان ناقشنا في مكان آخر طبيعة المباغتة الاستراتيجية الكبرى.

اذا فقد هجوم ما التفوق المادي، فلا بد من تعويض ذلك بتفوق معنوي للتغلب على الضعف المتأصل فيه. اما عند فقد التفوق المعنوي ايضاً فليس من المعقول شن الهجوم ابداً، اذ لا يمكن للمرء توقع النجاح في ذلك.

٢ . التأني والحذر هما روح الدفاع، والشجاعة والثقة هما الروح الحقيقية للهجوم. ولا يعني ذلك ان ايا منهما يمكن ان يستغني عن كل تلك المزايا، بل نعني أن لكل منهما صلة قوية مع واحدة منهما. وتلك المزايا، بعد كل شيء ضرورية فقط، لأن العمل (او الحرب) ليس بناءً او عملية حسابية، بل لا بد ان تنفذ وسط الظلام، او

بصيص من النور. ولا بد ان توضع الثقة في القائد الذي تتلائم مواصفاته وهدفنا المنشود. وبالقدر الذي تنخفض فيه معنويات المدافع، يجب وبالمقابل ان ترتفع معنويات المهاجم.

٣ . يفترض النصر مسبقاً صداما بين قوتين رئيستين. والشكوك في ذلك اقل في جانب المهاجم. اذ يرتكز دوره على مجابهة المدافع الذي تكون مواضعه عادة قد عرفت مسبقاً. وفي مناقشتنا للدفاع، قلنا من الناحية الاخرى، اذا اختار المدافع موضعاً سيئاً فعلى المهاجم ان لا يعمل على اخراجه منه، اذ على المدافع في هذه الحالة البحث عن المهاجم بنفسه، وسيمتلك المهاجم بذلك ميزة ملاقاة المدافع دون استعداد كامل. وسيعتمد كل شيء في هذه الحالة على اكثر الطرق اهمية واتجاهه العام. ولم تناقش هذه النقطة في الكتاب السابق، وتركت لتناقش في هذا الفصل. لذا سنتولى فحصها الان.

٤ . لقد جرت مناقشة الاهداف الممكنة للهجوم، وبالتالي غاية النصر. فان كانت تلك الاهداف ضمن مسرح الحرب الذي ننوي مهاجمته، وضمن نطاق وامكانيات النصر، فسيتقرر الاتجاه الاعتيادي للضربة بالطرق التي تؤدي الى تلك الاهداف. لكن ينبغي علينا ان لا ننسى بان هدف الهجوم انما يأخذ اهميته مع النصر فقط، كما لا يمكن تصور النصر الا بالارتباط مع الهدف. لذا فليس المهاجم معني بالوصول الى الهدف فقط، بل ان يصل كمنتصر. وعليه، يجب ان تتوخى ضربة المهاجم لا الهدف فقط، بل على الطريق الذي سيسلكه العدو للوصول الى ذلك الهدف. عندها سيصبح الطريق نفسه الهدف الاول. وسيكون الانتصار اكثر اكتمالاً لو اصطدمنا بالعدو قبل وصوله الهدف، وقطع طريقه اليه والوصول قبله. وعلى سبيل المثال، فلو كانت عاصمة العدو هي الهدف الرئيسي للهجوم، ولم يشغل المدافع موضعاً دفاعياً بينها وبين المهاجم، فسيرتكب المهاجم خطأً لو تقدم باستقامة نحو المدينة. والافضل له ان يضرب نقطة الاتصال ما بين جيش العدو وعاصمته، وان يبحث هناك عن النصر الذي سيوصله الى العاصمة.

اما ان لم يكن هناك هدف رئيسي ضمن المنطقة التي تأثرت بالانتصار، فالنقطة البالغة الاهمية عندها هي خط مواصلات العدو مع اقرب هدف حيوي (مهم). لذلك على كل مهاجم ان يسأل نفسه عن كيفية استغلال انتصاره بعد المعركة. والهدف التالي الواجب ربحه سيحدد الاتجاه الاعتيادي للضربة. فان اتخذ

المدافع موضعه الجديد في تلك المنطقة، فقد احسن الاختيار، اذ على المهاجم محاولة تخطيه، وفعل ما تفرضه الضرورة. لكن ان لم يكن المدافع حيث يفترض او يجب ان يكون، فعلى المهاجم ان يتحرك في ذلك الاتجاه هو نفسه. حتى اذا كان في مستوى المدافع – على افتراض عدم قيام المدافع باي تحرك جانبي اثناء ذلك – فعليه التحرك عندها باتجاه خطوط مواصلات العدو (المدافع) واضعاً نصب عينيه هدفاً محدداً هو البحث عن عدوه. فان لم يتحرك المدافع وظل في مواضعه، على المهاجم التحول الى مهاجمة مؤخرة العدو.

من بين الطرق التي قد يختار المهاجم احداها، يظل اوسع الطرق التجارية افضلها واكثرها ملائمة. وحيثما يجبره هذا الطريق على القيام بتحويلة كبيرة، فعليه استخدام اكثر الطرق مباشرية، حتى ان كان أضيق الطرق. فخط التراجع الذي ينحرف كثيراً عن الخط المستقيم المباشر يعني دائماً بعض المشاكل الخطيرة.

٥ . ليس هناك من سبب يبرر قيام المهاجم الساعي نحو حسم رئيسي بتجزأة قواته. فلو فعل ذلك فعلاً فهذا يعني اثارة حالة من الفوضى والغموض. كما ينبغي ان لا يوسع جبهة تقدم ارتاله الا بالقدر الذي لا يمنعها من مباشرة العمل في آن واحد. اما اذا جزأ العدو قوته، فكلما زاد ذلك كلما كان ذلك افضل، وفي هذه الحالة، تعد الانحرافات الصغيرة عن المحور الرئيسي مقبولة وتحت السيطرة – كمخادعة استراتيجية تنفذ سوية مع الغاية الرئيسية للمهاجم وهي المحافظة على المزايا التي اصبحت بين يديه.

اما تجزأة الجيش في ارتال عديدة، فامر لا مندوحة عنه، ويجب ان يكون اساساً او نقطة انطلاق للتطويق في الهجمات التعبوية، لان التطويق اكثر الاشكال المعتادة في الهجوم، وينبغي عدم اهماله الا لاسباب مهمة. لكن يجب ان يظل التطويق تعبوياً، فالتطويق الاستراتيجي الذي ينفذ خلال عملية (ضربة) كبرى ليس اكثر من مضيعة للوقت والقوات. ولا يمكن القبول بها الا اذا كان الهجوم قوياً بشكل كاف، وليست هناك اية شكوك جادة حول النتائج المتوقعة.

٦ . يستلزم الهجوم كذلك اليقظة والحذر؛ اذ لديه هو الاخر مؤخرة وخطوط مواصلات تتطلب الحماية. وينبغي ان تتألف هذه الحماية، ان امكن، في اتجاه التقدم. فاذا تطلب الامر اخراج (وفرز) اجزاء من القوة لهذا الغرض، فذلك يعني تشتيت القطعات، الامر الذي قد يؤثر على قوة وحجم الضربة. والجيش يتقدم عادة بجبهة

يصل عرضها الى مسيرة يوم كامل، فان لم تقع او تنحرف خطوط مواصلات الجيش المتقدم وخطوط انسحابه، كثيراً عن محور التقدم، فجبهة هذا التقدم نفسها توفر كل التغطية الضرورية.

تتوقف شدة مخاطر من هذا النوع الذي يعرض المهاجم نفسه لها، وتقاس بسمات وطباع وموقف العدو بدرجة كبيرة. فان اعتبرت كل الاشياء الاخرى ثانوية، امام الضغط نحو حسم رئيسي [معركة] وشيك فلن يظل للمدافع سوى مجال قليل للقيام بعمليات ثانويه [كالمشاغلة والتشتيت] لذا لن يتعرض المهاجم الى مخاطر جسيمة عادة. لكن وحال انتهاء التقدم، وتحول المهاجم تدريجياً الى وضع دفاعي ستعود قضية حماية المناطق الخلفية مهمة وملحة معاً، وهي عند المهاجم اضعف واكثر وهناً مما لدى المدافع، لذا قد يكون المدافع قد تحول الى القيام باعمال تعرضية منذ أمد ما، بل قد يكون بدأ فعلاً بذلك وهو بعد في حالة التراجع.

(١). ما بين انصاف المستطيل اعلاه [...] شارحة من قبل - المترجم

الفصل السادس عشر

الهجوم على مسرح الحرب ؛ ليس بحثاً عن حسم

١ . حتى عندما لا يكون العزم والقوة كافيان لتحقيق او فرض حسم رئيسي، قد يظل المهاجم راغباً بشن هجوم استراتيجي ضد هدف صغير. فاذا نجح الهجوم وحقق هدفه، فسيتحول الموقف نحو حالة من الراحة والتوازن. فان اتسعت وتعمقت هذه المصاعب التي يواجهها المهاجم فسيتوقف التقدم في مرحلة مبكرة ويستبدل اما بتعرض تصادفي او بمناورة استراتيجية مجردة. وتلك هي طبيعة معظم الحملات.

٢ . اما هدف هجوم كهذا فقد تكون:

آ . **قطاع من الارض.** قد يوفر مواداً غذائية، وربما بعض الاموال، وتأمين الحماية لاجزاء من اراضي المهاجم، او كورقة مساومة في مفاوضات الصلح المقبلة. ويلعب مفهوم المجد العسكري دوره احيانا في امور كهذه، وكما كان ذلك واضحاً وقوياً في الحملة التي قادها مارشالات فرنسا تحت قيادة لويس الرابع عشر. والعامل الاساسي يكمن هنا في القدرة على الاحتفاظ بالارض. وكقاعدة، فان ذلك ممكن فقط اذا كان ذلك القطاع من الارض يقع على حدود مسرح عمليات المهاجم ويشكل امتداداً طبيعياً له. وكذلك فان هذا النوع من الضم او الاجتياح هو الذي يمنح ذلك الطرف ورقة مساومة على مائدة الصلح، اما كل الانواع الاخرى فتعتبر عادة عمليات ضم مؤقتة، أو تستمر طوال مدة الحملة، وتترك في موسم الشتاء.

ب . **مستودع مهم.** وما لم يكن هذا مهماً وحيوياً، فمن الصعوبة بمكان اعتباره هدفاً لهجوم يشغل حملة بكاملها. بل قد يشكل بذاته بديلاً عن خسارة المدافع، وكمكسب للمهاجم؛ لكن تكمن الفائدة الرئيسية للمهاجم في حقيقة انه سيجبر المدافع على الانسحاب والتخلي عن اراضٍ كان بوسعه خلاف ذلك الاحتفاظ بها. وهكذا فان احتلال مستودع ما هو في واقع الحال وسيلة اكثر منه هدفاً، وقد اورد هنا كهدف (نهاية) فقط بسبب كونه اقرب هدف آني للعمل.

جـ . **احتلال قلعة.** نعيد القارىء الى الفصل الذي خصص لبحث احتلال القلاع. وقد اتضح من الحجج التي نوقشت هناك عن اسباب اعتبار القلاع اهدافاً مفضله على غيرها على الدوام في التعرض او الحملات التي لا تستهدف التدمير

الكامل للعدو، ولا احتلال جزءٍ مهم من بلاده. لذا فمن السهل ايضاح الاسباب الكامنة في توخي العمليات التي تشن في بلد يشبه هولندا المليئة بالقلاع، وعلى الدوام توخي احتلال هذه القلعة او غيرها، **ونادراً ما يظهر ان احتلال منطقة بكاملها هو الهدف الرئيسي للحملة**. تعتبر كل قلعة، وحدة منفصلة، وتحدد قيمتها وفقا لما هي عليه. ومن الواضح ان الكثير من الاهتمام قد تركز على صلاحية وسهولة المشروع [خطة الاحتلال] اكثر مما على القيمة الحقيقية للمكان.

يظل حصار قلعة ما، ومهما كان حجمها، عملية مهمة لانها باهضة التكاليف - وهو عامل بالغ الاهمية في حروب لا تخاض من اجل اهداف او امور كبرى. لذا يتوجب وضع حصار من هذا النوع بين العناصر المهمة للهجوم الاستراتيجي. وكلما قلت اهمية القلعة، كلما تضائل عزم الحصار، وكلما قلت الاستعدادات التي تسبق الحصار، كلما زاد احتمال بروز جو من الارتجالية، وبالتالي تتضائل اهمية الهدف الاستراتيجي، وكلما ازداد ضعف القوات والنوايا الملائمة له. غالباً ما تنتهي عمليات كهذه كالملاكمة الوهمية، بالسعي الى انهاء الحملة بشكل مشرف؛ طالما يفترض المهاجم، كشخص عليه في النهاية القيام بشيء ما.

د ـ اشتباك ناجح. او **مهارشة** (مناوشة) او حتى **معركة**، سواء كان ذلك للحصول على الغنائم، او ربما وببساطة للحفاظ على الشرف، بل وحتى لارضاء طموح وغرور القائد في بعض الاحيان. وكل من ينكر اشياء كهذه فهو لم يعرف التاريخ العسكري، فقد كانت معظم المعارك التعرضية في الحملات الفرنسية ايام لويس الرابع عشر هي من هذا النوع. من المهم جداً ملاحظة، أن اعتبارات كهذه ليست دون قيمة، او انها مجرد مراوغات تافهة، بل لها تأثير محدد على السلام المقبل، فهي لذلك تقود الى الهدف بشكل مباشر. فالشرف العسكري، وسمعة وشهرة جيش ما وقائده عوامل تؤثر خفية، الا انها تمتزج وتتخلل على الدوام في كل الانشطة العسكرية.

تستند اشتباكات كهذه وبالتأكيد على الافتراضات التالية في:

اولاً. توفر فرصة جيدة وتوقع للنصر. و

ثانياً. اذا انتهت باندحار، فلن نخسر الكثير.

لا بد للمرء من الحذر في عدم خلط هذا النوع من المعارك التي يخوضها الجيش في ظروف محددة او لأهداف محدودة، مع انتصارات من نوع لا تتابع

طلباً للمزيد من المعنويات.

٣ . باستثناء النوع الاخير من الاهداف في (د) اعلاه، يمكن تحقيق الانواع الاخرى دون اشتباكات كبرى. اما الوسائل التي بوسع التعرض استخدامها لهذا الغرض فتنبع من المصالح التي على المدافع حمايتها في مسرحه الحربي. لذا تتشكل تلك الوسائل في تهديد خطوط مواصلاته، ومستودعاته، ومناطقه الفنية، ومدنه المهمة، او النقاط الحيوية كالجسور والمضائق وغيرها، او باحتلال بعض المواضع القوية الكائنة في اماكن غير ملائمة للمدافع[١]، او باحتلال مدن مهمة، ومناطق صالحة للزراعة، او العمل النشيط او المناطق التي لم تتأثر ومهيئة للثورة، او بتهديد حليف ضعيف، وأشياء اخرى. اذا خطط المهاجم لارباك مواصلات العدو والى الحد الذي يتعذر عليه استعادتها دون خسائر فادحة، واذا سعى لمسك تلك النقاط، فسيجبر المدافع على احتلال موضع آخر إلى الخلف او على احد الجناحين لتغطيتها، حتى ان عني ذلك تخليه عن اقل عدد منها. وهكذا ستترك منطقة ما دون تغطية (حماية)، او ترك مستودع او قلعة مكشوفان - الاول للاحتلال والثانية للحصار. قد يؤدي ذلك الى اشتباكات كبرى او صغيرة، الا ان احداً لن يسعى اليها، كما لا يمكن اعتبارها كاهداف بذاتها، بل مجرد شر لا بد منه. كما انها لا يمكن ان تعلو فوق مستوى معيناً من الحجم والاهمية.

٤ . تعد اي عملية يشنها المدافع ضد خطوط مواصلات المهاجم كنوع من ردود الفعل، لا يمكن القيام بها في حرب تستهدف تحقيق حسم كبير، الا عندما تكون خطوط مواصلات المهاجم قد غدت طويله جداً. الا ان هذا النوع من ردود الفعل ملائم اكثر في الحروب التي لا تستهدف الوصول الى حسم كبير. ومع قبولنا بندرة توسيع العدو لخطوط مواصلاته كثيراً، الا ان المهم هنا ليس الحاق الكثير من الدمار بها. ويكفي غالباً ارباك العدو (المهاجم)، وانقاص ما يحصل عليه من تموين. ويمكن التعويض عن النقص في طول خطوط المواصلات، بطول الوقت الذي يجبر العدو على خوضه في هذا النوع من العمليات. ولهذا السبب تعد الحماية للأجنحة الاستراتيجية عامل مهم للغايه للمهاجم. وعند تطور صراع او منافسة من هذا النوع بين المهاجم والمدافع، فعلى الاول ملافاة المساوىء الطبيعية لموقفه بوسائل اخرى معتمداً في ذلك على تفوقه العددي. فان كانت قوته وعزمه ما زالا كافيين لتمكينه

---

(١). كان هذا النص مشوشاً وغامضاً في الطبعة الاولى لذا تابعنا ما ورد في الطبعة الثانية - المشرف Eds

من تحمل مخاطر شنه لضربة قوية على احدى الوحدات المعادية، او حتى على القوة الرئيسية (القسم الاكبر) للعدو، فان هذا التهديد المسلط على رأس المدافع، يظل الوسيلة الافضل بيد المهاجم لتغطية (حماية) نفسه.

٥ . واخيراً، لا بد ان نذكر فائدة اخرى يتمتع بها المهاجم في هذا النوع من الحرب؛ فهو بوضع يمنحه القدرة على معرفة نوايا المدافع وموارده بشكل افضل بكثير من قدرة خصمه في تقدير نواياه وموارده هو (اي المهاجم). كما أن التنبؤ بدرجة النشاط والجرأة التي سيتصرف بهما المهاجم، اصعب كثيراً من التنبؤ فيما اذا كان المدافع يعد لضربة كبرى. وعملياً، فان مجرد اختيار الشكل الدفاعي للحرب يؤكد عموماً على نقص النوايا والتوجهات الايجابية. بالاضافة الى ذلك فان الاختلاف ما بين الاستعدادات لضربة مضادة كبرى والوسائل الاعتيادية للدفاع، اكثر من تلك التي بين الاستعدادات لهجوم كبير وآخر صغير. واخيراً، فالمدافع مجبر على نشر قطعاته واشغالها مواضعها بوقت مبكر، مما يمنح المهاجم ميزة توجيه الضربة الثانية او الرد الانتقامي (Counter - riposte) .

الفصل السابع عشر
مهاجمة القلاع

سوف لن تناقش بطبيعة الحال هذا الموضوع من الناحية الفنية. بل سنركز اولاً على هدفه الاستراتيجي، وثانياً، على تحديد القلعة التي تهاجم، وثالثاً. على الطريقة التي تستخدم لحماية الحصار.

يؤدي فقدان قلعة ما الى اضعاف دفاع العدو، وعلى الاخص عندما تشكل تلك القلعة جزءً حيوياً من الدفاع. كما يوفر احتلالها العديد من الفوائد للمهاجم؛ فقد يستخدمها كمستودع او منطقة تكديس، ولستر وحماية المنطقة المحيطة بها بما في ذلك مأوي المهاجم وغير ذلك. وعندما يتحول المهاجم الى الدفاع، فستشكل كل قلعة نقطة دعم قوية لدفاعه. لقد جرت مناقشة الجوانب والعلاقة ما بين القلاع ومسارح الحرب خلال تتابع العمليات القتالية، عند مناقشتنا للقلاع في الكتاب الخاص بالدفاع، وبشكل مستفيض وكاف، اما التأمل هنا فيما سبق وقلناه فسيلقي الضوء الضروري على تلك الجوانب وعلاقتها بالهجوم.

يعد الهجوم على القلاع، قضية اخرى تختلف فيها الحملات التي تتوخى حسماً كبيراً اختلافا اساسياً عن انواع الهجمات الاخرى. فيجب اعتبار احتلال القلعة في المثال الاول ودائماً كشر لا بد منه. اذ ما دام الحسم بعد على كفتي الميزان، فسينفذ الحصار فقط عندما يتعذر التملص منه. وحال تحقق الحسم، تكون الازمة قد مرت، وزال التوتر ولو الى حين، وتحل عندها حاله من الراحة، عندها يغدو احتلال القلعة، كترصين للفوز. وفي حالة كهذه يمكن اخذ القلاع دونما مخاطر، ان لم يكن دون جهد وتبذير بالقوى. اما خلال الازمة نفسها، فسيزيد حصار قلعة ما من معضلات المهاجم. من الواضح أن ما من شيء سيذهب الكثير من قوته، ومن المحتمل ان يجرده وقتيا من تفوقه. رغم ان هناك اوقاتاً لا يمكن تجنب الحصار فيها ان أريد مواصلة الهجوم اطلاقاً. ولا بد من اعتبار الحصار في حالات مثل هذه كتكثيف للهجوم. وكلما قل عدد القرارات التي تم التوصل اليها كلما زادت الازمات حدة وعمقاً. وسنترك اية مناقشات اضافية في هذا الموضوع الى كتاب خطط الحرب.

عندما تكون غاية الحملة محدودة، فلن تظل القلعة وسيلة لذلك بل هدفاً له.

بل قد يرقى ذلك الى حد اعتباره انتصاراً صغيراً ومستقلاً، وما دام الامر كذلك، فستكون له الفوائد التالية:

١ . احتلال قلعه ما، يعد انتصاراً (مكسباً) صغيراً، واضح الحدود والابعاد. ولا يتطلب احتلالها توفير جهد وقدرات كبرى، لذا فما من مبرر للقلق حول أمر كهذا.

٢ . يمنح ذلك المحتل ورقة مساومة مفيدة في مفاوضات السلام.

٣ . يشكل الحصار، او أنه يبدو كذلك على الاقل، تركيزاً، او تكثيفاً للهجوم، دون ان يتسبب في الغالب في تقليص قوة المهاجم، وهو ما يحدث في انواع اخرى من التقدم والهجوم.

٤ . لا يمكن ان ينتهي الحصار كعملية بمأسأة او كارثه.

تجتمع كل العوامل اعلاه لتجعل من احتلال واحدة او عدة قلاع هو الهدف الاعم والاغلب لنوع من الهجوم الاستراتيجي الذي يعجز عن توخي هدفاً اعلى.

وان قامت اية شكوك حول القرار على القلعة التي يجب محاصرتها من بين عدة قلاع، فينبغي استناد الاختيار على المبادىء التالية:

أ . ينبغي ان تكون القلعة مما يسهل احتلالها، وان تشكل بالتالي ورقة مساومة قوية في مفاوضات السلام.

ب . ان كانت الوسائل المتيسره لاحتلال القلعة محدودة، فلا يمكن عندها الا احتلال القلاع الصغيرة، والاحتلال الفعلي لقلعة صغيرة افضل كثيراً من هجوم فاشل على قلعة كبيرة.

جـ . من الواضح ان لا علاقة لقوة التحصينات في اغلب الاحوال مع اهمية المكان. وما من عمل يمكن ان يكون اكثر حماقة من اضاعة الكثير من الجهد في مهاجمة مكان بالغ القوة، وغير ذي اهمية نسبياً عندما يستطيع المرء مهاجمة موضع اضعف.

د . قوة تسليح القلعة – بما في ذلك بطبيعة الحال، حاميتها. فان كانت القلعة خفيفة التسليح، مع حامية صغيرة فمن السهل احتلالها. الا ان من الضروري ان نوضح ان قوة التسليح والحامية عاملان ضروريان في تقدير **اهمية القلعة**، ويشكلان

جزءً هاماً ومباشراً في قوة الخصم المسلحه. ولا ينطبق ذلك وبنفس الدرجه على التحصينات، لذا فان احتلال قلعة لها حامية قوية، كثيراً ما يستحق التضحية المترتبة على ذلك اكثر مما مع قلعة اقوى تحصيناً فقط.

هـ . سهولة تنفيذ وادامة عملية الحصار. ونقص المعدات هو السبب لفشل اكثر عمليات الحصار. وافضل ما يذكر من الامثلة هو حصار الامير ايوجين لقلعة لاندريسي عام ١٧١٢، وحصار فردريك الكبير لقلعة اولمتز عام ١٧٥٨.

و . واخيراً، سهولة حماية الحصار، وتلك قضية لا بد من تذكرها.

هناك طريقتان لتغطية الحصار، وهما تختلفان بشكل اساسي، الاولى بتخندق القوة المحاصرة – اي بانشاء خط متاريس، والثانية بانشاء ما يعرف بخط الرصد. لقد اصبح النوع الاول بالياً وخارج الصدد بغض النظر عن نقطة مهمة لصالحه، اذ يسمح للمهاجم بتجنب اضعاف نفسه بتجزأة قوته، الامر الذي يعد في غير صالحه عموماً. رغم ان قوته قد تتأثر او تضعف بسبب او بطرق اخرى:

١. كقاعدة، يستلزم الموضع الذي يراد له تطويق قلعة ما، ان يمتد طويلاً والى حد لا يتناسب وقوة الجيش (المهاجم او المحاصر).

٢. تشكل حامية القلعة، وقوات الانقاذ المعادية معاً، القوة المعادية التي تواجهنا، الا ان علينا ان ننظر اليها **الان** كوحدة معادية وسط معسكرنا، لم تعد، وبفعل حماية متاريسها واهنة ولا يمكن وباي حال من الاحوال قهرها، مما يزيد من قدرتها.

٣. يسمح الدفاع عن خط التحصينات (المتاريس) فقط باستخدام الشكل المطلق للدفاع. فالموضع الدائري المتجه الى الخارج، هو اضعف الانواع، واسوء ترتيب للمعركة يمكن تصوره، ويجعل الهجمات المفيدة مستحيلة عملياً. ليس امام المرء اي خيار سوى الدفاع عن النفس حتى النهاية ضمن منظومة خنادقه. ومن الممكن جداً ان يؤدي موقف كهذا الى تقليص القوة الدفاعية الى اكثر من الثلث بكثير، وذلك مما يمكن توقعه اذا تم فرز بعض القطعات لواجبات الرصد والاستطلاع. واذا ما ادخل المرء في حسبانه ان هناك ومنذ ايام فردريك الكبير تفضيلاً عاماً لما يعرف بالتعرض Offensine (وان لم يكن ذلك في التطبيق باستمرار)، ولقابلية الحركة والمناورة، وتحولاً عاماً، عن الخنادق، ولن يندهش المرء ان عرف بان خطوط

المتاريس لم تعد قيد الاستخدام او مألوفة بعد، مع ان اثر تلك الخطوط في اضعاف الدفاع التعبوي ليس في النهاية سوى مجرد عائق؛ وظل الميل باضافة التدخل عنوة مع كل واحد من تلك العوائق، نظراً لقوة العلاقة بينهما. واساساً فان خط التحصينات يغطي تلك المنطقة من مسرح الحرب التي تعد قريبة منه، اما الباقي فهو متروك جزئياً او كليا للعدو، عدى تلك الاجزاء التي خصصت قوات معينة لحمايتها (سترها). الا ان ذلك سيعني تجزأة القوات، وهو ما كنا نسعى الى تجنبه. يظل المحاصر في قلق دائم وحذر شديدين حول تموينه. وعلى اية حال، فاستخدام خط التحصينات (المتاريس) لحماية خطوط التموين عندما يكون الجيش ومذخرات تموينه كبيران جداً، وان العدو الموجود في الميدان بقوة كبيرة ايضاً، فسيكون ذلك الاستخدام ممكنا فقط تحت شروط وظروف مشابهة لتلك التي للاراضي المنخفضة (هولندا). فهناك منظومة كاملة من القلاع، قريبة من بعضها البعض وترتبط بشبكة من الخنادق التي تغطي ما تبقى من مسرح العمليات كما تقصر خطوط التموين الى حد كبير. لم تكن تحركات الجيوش في الايام التي سبقت عصر لويس الرابع عشر ترتبط مع مفهوم مسرح الحرب. إذ تنقلت الجيوش، وعلى الاخص في حرب الثلاثين سنة، بشكل غير منتظم، وتهاجم اية قلعه تصادفها ولا توجد قوات معادية قريبة منها، ثم تحاصرها بالقدر الذي تسمح لها فيه مذخرات تموينها او حتى اقتراب جيش معادٍ يهدف الى تحرير تلك القلعة. لذا تعد خطوط التحصينات طبيعية الى حد كاف.

اما في المستقبل فليس من المحتمل استخدامها باستمرار الا عند توفر شروط وظروف كالتي ذكرت اعلاه؛ عندما يكون جيش العدو في الميدان ضعيف جداً، وأن مفهوم مسرح العمليات يعد اقل من ذاك الذي للحصار. عندها سيكون من الطبيعي ان يحشد (المهاجم) القوات في الحصار نفسه، والذي ستكون له ودون شك زيادة كبيرة وافضلية في القدرة والفاعلية.

لم تكن لخطوط التحصينات التي استخدمها لويس الرابع عشر في كامبراي، وفالنسين سوى فائدة قليلة: فقد انتزع الجنرال تورين الاولى بالقوة من الجنرال كونديه، وانتزع هذا بدوره وبالقوة ايضاً الثانية من تورين. ومع ذلك ينبغي ان لا ننسى المناسبات العديدة التي نظر فيها الى تلك الخطوط بكثير من التقدير حتى حيث كانت تدعو الحاجة الى انقاذ القلعة، وعندما يكون القائد المدافع على درجة كبيرة من العزم والاقدام. لم يجرؤ الدوق فيلاز (١٦٥٣ – ١٧٣٤ وهو ماريشال فرنسي)

على مهاجمة قوات التحالف في خططهم في (ليل) عام ١٧٠٨. اما في اولمتز عام ١٧٥٨، وعند (دريسدن) عام ١٧٦٠ ومع ان فردريك الكبير لم يستخدم خط تحصينات حقيقي، الا انه استخدم منظومة مشابهة من حيث الاساس: اذ استخدم نفس الجيش لتنفيذ الحصار، وللتغطية. وما دفعه الى القيام بذلك هو بعد الجيش النمساوي عن اولمتز، الا ان فقدانه لارتاله عند دومستادتل جعله يندم على ما فعل. والسبب الذي دفعه الى تطبيق طريقته تلك في دريسدن عام ١٧٦٠ هو رأيه السيء في الجيش الامبراطوري (النمساوي) من جهة والى طموحه القوى لاحتلال المدينة.

والعيب او العائق الاخير لخطوط كهذه هو صعوبة الحفاظ على رتل الحصار او حمايته اذا تطورت الامور نحو الاسوأ. وان امكن رفع الحصار قبل وصول جيش (الانقاذ) المعادي ، عندها قد توفر عملية التنقل الرئيسية مسيرة يوم كامل تقريباً، عن العدو.

اما عند البحث في نشر جيش (قوة ما) للرصد والمراقبة، فالمعضلة الرئيسية هنا هي ما المسافة التي يجب تركها بينها وبين الحصار. وتتوقف الاجابة على ذلك حسب نوعية الارض واماكن القوات او القطعات الاخرى التي يرغب جيش المراقبة بالبقاء على تماس معها. وفي معظم الحالات فمن الواضح تماماً ان تغطية قوات الحصار تكون اقوى واكثر جدوى كلما زادت تلك المسافة، الا انه ومن الناحية الاخرى، فالمسافات الاقصر، والتي لا تزيد على بضعة اميال، ستسمح لكلا الجيشين بالتقدم لمساعدة بعضهما البعض.

الفصل الثامن عشر

مهاجمة القوافل (الأرتال)

يعتبر الهجوم على القوافل والدفاع عنها قضية تعبوية، وقد لا يكون لدينا ما نقوله عنها هنا، لو لم يكن من الضروري الى حد ما استعراض امكانية وقوع أعمال كهذه، والتي لا يمكن ايضاحها إلا على ضوء الظروف والمتطلبات الاستراتيجية. كان بوسعنا البحث في هذا الموضوع قبل الآن، وعند مناقشة الدفاع، الا انه موضوع اكثر التصاقاً وأهمية بالهجوم، والقليل الذي لا يمكن قوله عنه، قد يلخص الان لكل من الدفاع والهجوم.

يصل معدل طول قافلة ما من (٣٠٠ - ٤٠٠) عربة، وبغض النظر عن نوع الحمولة، الى حدود الميلين طولاً؛ اما القوافل الكبرى فيزيد طولها عن ذلك كثيراً. فكيف بوسع المرء محاولة تغطية هذا الطول وحماية القافلة بالعدد القليل من الرجال الذين يخصصون لمثل هذا الواجب عادة؟ يضاف الى ذلك ثقل وتعقيد المهمة ككل، والبطاءة القاتلة لزحف القافلة وكونها في خطر مستمر والسقوط في هاوية الفوضى. واكثر من ذلك فكافة اقسام القافلة ستحتاج لنفس الدرجة من التغطية (الحماية)، وبخلاف ذلك فسيتوقف الرتل بكامله ثم تعم الفوضى والارتباك الشاملين عند تعرض اي جزء منه الى هجوم ما. وقد يتساءل المرء هنا وبحق عن كيفية تأمين الحماية والدفاع لارتال كهذه، او ان أمكن تحقيق ذلك على الأطلاق، ولماذا لا يتم الاستيلاء على كافة القوافل فور مهاجمتها، ولماذا لا تهاجم كافة القوافل ما دامت تستحق تخصيص حماية خاصة لها- أي ان تهاجم حالما تصبح ضمن سيطرة وتأثير العدو؟ لقد اقترحت عدة طرق تعبوية لمعالجة ذلك،كالفكرة غير المعقولة واللاعملية التي قدمها العقيد تمبلهوف، وذلك بتقصير طول القافلة وبالتوقف المستمر لاعادة تجميعها ومن ثم السير ثانية، ومثل فكرة شارنهورست الاكثر جدوى ومنطقية وذلك بتجزأة القافلة الى عدة ارتال. الا ان هذه لا اكثر من معالجات وقتية متواضعة لمعضلة عويصة وعميقة الجذور.

يكمن التفسير المنطقي في ان معظم القوافل تتمتع بحماية جيدة بفعل الموقف الاستراتيجي العام وبشكل يفوق ما يحضى به اي جزء آخر من الجيش قد يهاجمه العدو، لذا تعد الوسائل الذاتية والمحدودة للقافلة وللدفاع عنها اكثر فاعلية وجدوى.

ذلك لأن القوافل تتنقل وكقاعدة خلف الجيوش، او على الأقل ضمن مسافة معقولة عن العدو. لذلك ليس بوسع العدو سوى تخصيص مفارز صغيرة لمهاجمة القافلة التي عليها توفير ما يكفي من الحماية باحتياط قوي كي توفر حماية جيدة على الجناحين ومن الخلف ضد قوات معادية قد تظهر فجأة. اضف الى ذلك ان ثقل العربات وصعوبة تنقلها خارج الطرق يجعلان من الصعب الاستيلاء عليها ونقلها بسهولة، وسيكتفي العدو المهاجم بتقطيع حبال الربط والاستيلاء على الخيل، وتفجير عربات نقل الأعتدة والذخائر وغيرها. وسيؤدي ذلك الى توقف القافلة وشيوع الفوضى، الا ان ذلك لن يعني فقدانها. وبذلك يغدو من الواضح تماماً لنا ان الحماية الافضل للقافلة انما تكمن في الموقف العام أكثر مما في قدرة وطاقة قوة الحماية للدفاع عنها. لكن اذا حاولت القوة المرافقة تحقيق ذلك فعلاً وبقدر كاف من التصميم لا بمجرد محاولة حماية العربات نفسها، بل بارباك وتشتيت منظومة الهجوم للعدو عندها سيبدو من الواضح ان ليس من السهل ولا من المعقول حتى مهاجمة القوافل لما في ذلك من مصاعب بالاضافة الى انعدام اية ضمانات بنجاح هجوم كهذا.

تظل امامنا نقطة مهمة اخرى للتمعن فيها: هي خطر قيام جيش العدو، او جزء منه، بالانتقام من المهاجم بالحاق الهزيمة به فيما بعد،كرد انتقامي وثأر من العملية. وهذا الاحتمال قد يمنع الكثير جداً من مثل هذه الغارات دون الأقرار بان ذلك هو السبب دائماً. ونحن نقر بالحاجة الى قوة ترافق القافلة لحمايتها، بل ونعجب كثيراً لان تحضى وسيلة ضئيلة كهذه بكل هذا التقدير. وما على المرء وكي يدرك حقيقة ذلك الا أن يتذكر ذلك التراجع الشهير الذي قام به فردريك الكبير خلال بوهيميا في عام ١٧٥٨م، بعد حصار (اولمتز)، اذ جزأ نصف جيشه في عدة اجزاء كي تتولى مرافقة وحماية قافلة من أربعة الاف عربة. فما الذي منع الجنرال دوان من مهاجمة قاسية ومتوحشة أهو الخوف من ان ينقض عليه فردريك الكبير بباقي قوته ويشتبك معه في معركة كان (دوان) يريد تجنبها. ثم ما الذي منع المارشال لا دون (النمساوي) الذي كان على جناح القافلة من مهاجمتها بوقت مبكر وعزم اشد من ذاك الذي أبداه في (زيشبوفتز)؟! انه الخوف من تقطيع اوصاله فقد كان على بعد(٥٠)ميلاً عن قوته الرئيسيه (القسم الاكبر)، ويفصله الجيش البروسي عنها. لذلك رأى انه سيكون في خطر تام كما سيتعرض لدمار شديد لو انقض عليه الملك فردريك (الذي لم يتعرض لمشاغلة او مضايقة من الجنرال داون) عليه بالقسم الاكبر من جيشه.

ستتعرض القوافل الى خطر حقيقي فقط اذا اضطر جيش ما، وبسبب موقفه الاستراتيجي إلى اللجوء الى الأسلوب غير الطبيعي أو المعتاد وذلك بسحب مدخرات تموينه من على اجنحته او حتى من الامام (الجبهة). اذ ستصبح وسائط النقل في هذه الحالة هدفاً ثميناً يستحق مهاجمته، على افتراض قدرة العدو (المهاجم) على توفير القوة الضرورية لذلك. وبوسعنا الاستشهاد والاشارة الى النجاح الكامل لهذا النوع من العمليات في نفس حملة (١٧٥٨) عند الاستيلاء على قافلة دومستاد. كان الطريق الى نيسي يمتد على يسار مواضع البروسيين، وتم تثبيت قوات فردريك الكبير بالحصار الذي فرضته وبالفيلق الذي افرزته لمجابهة قوات الجنرال دوان، وبذا لم يعد على المغيرين القلق او الخوف على امنهم الخاص مما اتاح لهم مهاجمة القافلة كيف شاءوا.

اما عند محاصرة الامير ايوجين، مدينة (لاندريسيز) عام ١٧١٢م، فقد وفر مذخرات التموين من (بوشيان) عبر (دينان) – اي من امام موضعه الاستراتيجي. والكل يعرف الاساليب والاجراءات التي طبقها لتوفير الحماية والغطاء في تلك الظروف الصعبة، وفي وجه المصاعب التي تعرض لها، اما النتيجه فكانت قلباً كاملاً للموقف.

قد نستنتج من ذلك بأن مهاجمة القوافل قد تبدو سهلة من الناحية التعبوية، الا انها ليست مفيدة او ذات جدوى استراتيجياً الا انها تعد بنتائج مرضية فقط في حالات خاصه تتكشف فيها خطوط المواصلات الى درجة بالغة الخطورة.

الفصل التاسع عشر
مهاجمة جيش معادي في المأوي

لم نعالج هذا الموضوع في كتاب الدفاع، نظراً لعدم امكان اعتبار خط المأوي كأحد الوسائل الدفاعية. اذ لا تعني خطوط المأوي هذه أكثر من ان جيش العدو الان في حالة معينة، لا تتضمن سوى قدرة قليلة للعمل. وقد أقتصرت مناقشتنا لهذا الموضوع في الفصل (١٣) من الكتاب الخامس على قدرة العمل هذه.

مع ذلك فان انتشار الجيش المعادي في المأوي، يمثل بالنسبة الى سياق الهجوم، موضوعاً مستقلاً. فهجوم كهذا هو من ناحية اولى، عملية خاصة جداً، كما يمكن ومن ناحية أخرى اعتباره حركة استراتيجية فعالة جداً. نحن لا نتحدث هنا عن مهاجمة مأوى منفرد ، أو على وحدة صغيرة توزعت على بضعة قرى، فكلا الامرين من القضايا التعبوية الصرف. بل نحن معنين بهجوم على قوة كبيرة في مجموعة مأوي تغطي منطقة كبيرة. ولم تعد الغاية مجرد صولة على مأوى منفرد بل على منع او شل قدرة العدو على التحشد.

لذا فالهجوم على جيش في مواضع الأيواء هو هجوم على جيش مبعثر. ويعتبر الهجوم ناجحاً اذا عجز العدو عن الوصول الى منطقة اجتماعه المحددة مسبقاً واجباره على البحث عن أخرى أبعد الى الخلف. تحتاج عملية أعادة انتشار كهذه وفي ظروف طارئة، الى مسيرة يوم كامل على الأقل مع كلما يكلفه ذلك، بل انها تستغرق اكثر من يوم واحد عادة. والارض التي يضطر العدو الى خسارتها ليست أمراً هيناً او صغيراً، وهذه هي الفائده الأولى التي يحضى بها المهاجم.

قد تصمم صولة كهذه للتأثير على الموقف العام، الا انها قد تشن ابتداءً على عدة مأوي منفردة في أن واحد. ومع انها قد لا تؤثر عليها كلها ولا على معظمها حتى، ما دامت صولة كهذه ستؤدي الى أنتشار واسع ، وبعثرة الجيش المهاجم والى اكبر مما يمكن القبول او النصح به، لذلك فلن يمكن احتلال او مسك المأوي – عدى تلك التي تقع على طريق المهاجم – بهجوم مفاجئ وحتى ما يتحقق من ذلك فلن يعد نجاحاً كاملاً الا نادراً، اذ ليس من السهل اقتراب قوة كبيرة دون اكتشاف العدو لحركتها ومع ذلك، يظل هذا أحد جوانب الهجوم التي لا يجوز وباي حال من الأحوال تجاهلها ، كما يمكن اعتبار نتائجها، الفائدةالثانية لصولة كهذه.

اما الفائدة الثالثة فتكمن في الاعمال (actions) المنفصلة التي سيجبر العدو

على خوضها، والتي قد يتعرض فيها الى خسائر كبيرة. والقوة الكبيرة بعد كل شيء لا تتجمع على شكل افواج في نقطة التحشد الرئيسية فهي تتجمع عادة في الوية اولاً، وفي فرق، بل وحتى في فيالق وتشكيلات كبيرة بهذا الحجم الذي لا تستطيع معه الانتقال سريعاً الى المثابات (Rendezvous) بل وعلى العكس، فان التماس مع رتل معادي سيجرها الى قبول معركة. الا أنها وبطبيعة الحال قد تربح هذا المعركة لا سيما ان لم يكن رتل العدو قوياً بما يكفي الا أنها رغم ربحها ستخسر الوقت كما لسنا في حاجة بالتأكيد لنضيف الى أن التنقلات الكبرى الى الخلف تعني ، وكقاعدة، تعذر الاستفادة من نجاحها ذلك. كما نها ومن الناحية الاخرى قد تخسر، وهذا هو الامر الشائع غالباً لانها ام تنل ما يكفي من الوقت لتنظيم مقاومة فعالة. لذلك فمن المحتمل جداً عندها أن صولة احسن اعدادها وتنفيذها، ستؤدي وبفعل تلك الاعمال المنفصلة الى نيل المهاجم للكثير من المكاسب والغنائم، والتي قد تغدو هي الأخرى بدورها جزء كبيراً من النتيجة.

الفائدة الرابعة والأخيرة، بل وحجر الزاوية للعملية كلها هي حقيقة افقاد العدو ولو وقتياً لتوازنه، وارباكه وتحطيم معنوياته، حتى انه نادراً ما يستطيع استخدام قواته بكفاءه بعد تجمعها في النهاية. سيضطر عادة الى التنازل عن المزيد من الارض، كما سيجبر عموماً الى تغيير خطة عملياته كلية.

هكذا ستكون الجوائز النموذجية التي ستحققها المباغتة الناجحة لمأوي العدو— ونعني بها تلك التي تمنع العدو من حشد قوته في المثابات التي سبق له تحديدها دون خسائر. لكن واعتماداً على الظروف، فهناك عدة مستويات او درجات لنجاح كهذا؛ فقد يستحق ذلك النجاح (النتيجة) الكثير في احدى الحالات، ولا شيء من ذلك في حالة اخرى. بل وحتى عندما تكون العملية ناجحة للغاية، اي ستكون لها نتائج هامة، لا يمكن مقارنه نجاحها بما للأنتصارات الكبرى إلا نادراً،وذلك راجع الى حد ما الى أن الغنائم نادراً ما تكون ذات قيمة كبيرة، والى صعوبة تحديد ومعرفة تأثيراتها النفسية والمعنوية.

لنتذكر ان كل شيء مرهون بالنتيجة، والا فبوسع المرء ان يتوقع الكثير من عملية كهذه، وحتى اكثر مما يمكن ان توحي به. بل ان البعض يعتبرها المثال الكامل لفاعلية وتأثير التعرض، لكن وكما سيتضح لنا من تحليلاتنا هذه، ومن سير التاريخ العسكري، فان الامر لن يتعدى ما توصلت اليه.

تعد المباغتة التي حققها دوق اللورين في (توتلنجن) عام ١٦٤٣ ضد الفرنسيين بقيادة الجنرال رانتزو، واحدة من اروع الامثلة. لقد كان تعداد الفيالق الفرنسية حوالي (١٦) الف مقاتل فخسرت القوةقائدها العام مع سبعة الاف رجل. لقد كانت اندحاراً فرنسياً تاماً،سببه اغفال الفرنسيين اخراج أية مواضع رصد امامية.

اما في عام ١٦٤٤، وعندما بوغت الجنرال تورين في مارجنثيم(التي يدعوها الفرنسيون ماريندال) فقد كانت النتيجة مقاربة جداً للأندحار. فقد فقد ثلاثة الاف رجل من أصل (٨)الاف، والسبب الرئيسي لخسارته تلك هي انه وحال أكمال حشد قطعاته اساء كثيراً في ترتيب المقاومة (الدفاع). لذا لا ينبغي للمرء الاعتماد كثيراً على نتائج من هذا النوع. ففي حاله كهذه لا يمكن اعتبار المباغتة وحدها السبب الرئيسي والمباشر لما حدث بقدر ما كان ذلك يعود الى سوء تدبير وادارة القتال. فقد كان بوسع تورين تجنب العملية بكاملها، وان يلتحق ورجاله في أي موقع آخر تتواجد فيه مأوي لقوات اخرى وعلى مبعدة من موضعه ذاك .

المباغته الثالثة التي حظيت بشهرة واسعه هي العملية التي شنها تورين عام ١٦٧٤ ضد قوات التحالف في مقاطعة الالزاس، والتي كانت تحت قيادة الناخب العظيم، والجنرال الامبراطوري بورنوفيل، ودوق اللورين. ومع ان ما غنمه تورين كان بحجم متواضع، ومع ان خسائر قوات التحالف لم تزد عن الفي رجل من أصل (٥٠) الف مقاتل ، فلا يمكن اعتبار النتيجة (المباغتة) حاسمة. ومع ذلك فقد شعرت قوات التحالف بعدم قدرتها على مواصلة القتال والمقاومة في الالزاس، وقد انسحبوا فعلاً عبر نهر الراين. وكان هذا النجاح الاستراتيجي هو كل ما اراده تورين، الا انه لم يكن نتيجة مباشرة للهجوم بذاته. لقد باغت تورين خطط العدو لا قواته. اذ لعب اختلاف قادة التحالف فيما بينهم وقرب نهر الراين كلما عدى ذلك. وهذا الامر جدير بدراسة دقيقة جداً، اذ لم ينل ما يستحقه من البحث والايضاح.

اما عندما باغت الماريشال نيبرج (١٦٨٤ -١٧٧٤ النمساوي) الملك (فردريك الكبير) في مأواه عام ١٧٤١، فلم يؤدي ذلك الا الى تغيير فردريك الكبير لجبهته وخوض المعركة في (مولفتز) وقبل ان تكمل قواته تجمعها.

وفي عام ١٧٤٥ باغت فردريك الكبير دوق اللورين في مأواه في (لوزاتيا) ويعزى نجاحه اساساً الى الصولة القوية التي شنها على اكثر مناطق الايواء اهمية في (هينرزدورف)، وحيث فقد النمسوين الفي رجل. وكنتيجة مباشرة لذلك فقد

انسحب دوق اللورين الى بوهميا عبر لوزاتيا العليا. الا ان ذلك لم يمنعه من العودة الى ساكسوني من الجناح الايسر (الضفة اليسرى) لنهر (ايلب)،لذا لم تتحقق هنا اية نتيجة حاسمة على الاطلاق، عدى تلك التي تلت معركة (كيسيلدورف)[1].

كما باغت الجنرال فرديناند (دوق برونزويك) القوات الفرنسية وهي في المأوى عام ١٧٥٨. وكانت نتيجة ذلك الهجوم المباشرة هي خسارة الفرنسين لعدة الاف من الرجال واجبارهم على احتلال موضع جديد خلف نهر (اللير)، لعل التأثير المعنوي اصعب في الوصول اليه، رغم ماله من أثر في الاخلاء التام لمنطقة (ويستفاليا) بكاملها بعد ذلك.

لو فكرنا باستخلاص استنتاج عام من تلك الامثلة حول قيمة اعمال تعرضية كهذة، فبوسعنا اعتبار ومقارنه المثالين الاولين بانتصار في معركة. ويمكن ان نلاحظ في تلك الامثله ان القوات كانت قليلة، وعدم وجود المواضع الامامية، ونوعية وسمات القتال ايامذاك، وكلها كانت ظروف مؤاتيه. اما الامثلة الاربعة الاخرى، ورغم امكانية اعتبارها انتصارات عظيمة من نوعها، فقد كانت، واذا حكمنا عليها على ضوء نتائجها، فمن الواضح انها ليست كالانتصار في معركة. يمكن تحقيق الانتصارالتام ضد عدو ضعيف الارادة ولا يحسن القتال بكفاءة فقط، لذا لم يتحقق ذلك ضد الفرنسيين عام ١٧٤١.

اما عام ١٨٠٦ فقد استهدف الجيش البروسي مباغتة الفرنسيين في فرانكونيا. وكانت فرصتهم في ذلك جيدة، فلم يكن نابليون بونابرت قد وصل بعد، وكانت قواته مبعثرة على مناطق ايواء تمتد فوق منطقة واسعة. وفي ظروف كهذه، لو أحسن البروسيون الهجوم بسرعة وعزم، فقد كان لهم ان يتوقعوا دفع الفرنسيين الى الخلف عبر الراين بعد تكبيدهم خسائراً كبيرة. كان هذا هو كل شيء. اما لو استهدفوا ما هو أكثر من ذلك – كاستثمار هذه الميزة وعبور الراين، او الحصول على تفوق معنوي كبير وكاف لمنع الفرنسيين من العودة الى الضفة اليمنى للراين فيما تبقى من الحملة – فلن يكون لحساباتهم في هذه الحالة اي اساس حقيقي.

كما استهدف الروس مباغتة الفرنسيين ثانية في أوائل آب عام ١٨١٢ في

(١) معركة كيسيلدورف – ١٧٤٥/١٢/١٤، من معارك حرب الوراثة النمساوية شن فيها الجنرال ليوبلد (بروسيا) هجوماً مباغتاً على موضع التحالف الدفاعي بقيادة الماريشال راتوفسكي (النمسا) واجبرهم على التراجع رغم تفوقهم العددي . تكبد التحالف خسائراً فادحة – (م. ت. ع) ص ٦٣٥ – المترجم .

مناطق الايواء بعد توقف جيش بونابرت قرب (فيتبسك) الا انهم خارت عزائمهم عندما وصل الامر الى تنفيذ الخطة وكانوا قد أحسنوا صنعاً بذلك. فلم يكن القسم الاعظم -المركز- للجيش الفرنسي ضعف قوة الروسيين وحسب، بل كان القائد الفرنسي اعظم القادة العزوميين الذين عرفهم العالم. ومع ذلك فلن تعني خسارة بضعة اميال من الارض اي شيء، كما لم يتيسر انذاك اي مانع طبيعي قريب يوفر لهم اية مزايا ويساعدهم على انشاء موضع أمين بدرجة معقولة . ولم تكن هذه بالحملة التي يسهل التعويل على ما توفره من استنتاجات واهنة، إلا ان الخطة الاولى التي تعد من قبل مهاجم يتوخى ابداً التدمير الكامل لعدوه[1]. ومع ذلك فالفوائد القليلة التي يحققها هجوم مباغت على مناطق الأيواء ، ليست الا انجازات قليلة الجدوى لما يتطلبه الموقف، كما أنها اضعف من أن تعوض او تتلافى التفاوت في القوى والموارد. هكذا توضح لنا المحاولة، .

لقد اعتبرنا الموضوع **وحتى هذه** النقطه كوسيلة استراتيجية. كما ان تنفيذها ليس مجرد قضية تعبوية، بل انه يعود جزئياً الى الاستراتيجية ايضاً. والسبب هو أن هجوماً كهذا يشن عادة على جبهة واسعة الى حد كبير، وقد لا يتيسر للجيش المهاجم، بل لن يتيسر له بالتأكيد الوقت الكافي للتحشد قبل بدء الهجوم. لذا ستتضمن العملية بالضرورة عدداً من الاشتباكات. وعلية سنحاول هنا وبكلمات قليلة بيان، كيف يمكن تنظيم هجوم من هذا النوع بافضل طريقة.

الشرط الأول هو أن الهجوم على خط المأوي يجب ان يتحدد بعرض محدد للجبهة. وتلك هي الطريقة الوحيدة التي بوسع الجيش المهاجم فيها شن الصولة على بعض القطاعات، وعزلها، و بالتالي وضع العدو في الحالة التي نريدها له من الفوضى والأرتباك. والظروف هي التي ستحدد عدد الأرتال الواجب استخدامها والمسافات التي ستفصل ما بينها.

الشرط الثاني هو ان تلك الارتال يجب ان تلتقي عند نقاط تجمع منتخبة. اذ سيسعى العدو في النهاية الى التحشد بشكل او الى حد ما، لذا لا بد لقطعاتنا هي الأخرى ان تفعل الشيء نفسه. وينبغي اختيار هذه النقاط وكلما امكن ذلك في نفس الاماكن التي اختارها العدو، او ان تحدد على خط انسحابه ومن الافضل وضعها حيث سيجتاز العدو مانعاً طبيعياً.

---

(١) هذه ترجمة للكلمه الالمانية (erste) وكما استخدمت في الطبعة الاولى. ومع ذلك فقد أعطيت هذه الكلمة في الطبعات اللاحقة ما معناه «الخطة العزومة لمهاجم ما،....الخ» - المشرف Eds

الثالث، وحالما يحقق اي رتل من أرتال الهجوم التماس مع العدو ، فعليه الاشتباك معه باشد ما يمكن من العزم، والاندفاع والشجاعة. فالظروف وحتى الأن معه (المهاجم)، ومهما كانت شديدة الجرأة تظل مقبولة. لذا يجب اعطاء كل قائد رتل صلاحية كبيرة وتوجيهات على أقصى درجة من المرونة.

الرابع،يجب ان ان تتوخى الخطة التعبوية مهاجمة اول وحدات العدو التي بحجم مهم، وضرب وطي اجنحتها، طالما ان مفتاح النجاح وعلى الدوام هو في شطر القوات المعادية وعزل كل جزء منها.

الشرط الخامس يجب أن يتألف كل رتل من جميع الاسلحة وان لا يعاني من نقص الخيالة (الفرسان). وفي الحقيقة فقد يكون من المفيد هنا توزيع الخيالة الاحتياط على الأرتال؛ وسيكون من الخطأ الفادح الاعتقاد أو الأفتراض بقدرة الخيالة منفردة لأن تلعب دوراً رئيسيا في عملية كهذه . فقد تتوقف الخيالة (تشل) عند أول قرية، او عند اصغر الجسور، او عند أول مقاومة طفيفة.

السادس، لا شك بان الطبيعة الخاصة للمباغتة ستمنع ارسال اية مقدمة بعيداً الى الأمام ولو أن هذا الأمر مقبول حتى تحقيق أول تماس. وحالما يبدأ القتال عند خط مأوي العدو فستتحقق المباغتة الفعلية. وعلى كل رتل بعدها اخراج مقدمة امامية من جميع الأسلحة (الصنوف) ودفعها اقصى ما يمكن الى الأمام. وبوسع مقدمات كهذه،وباندفاعها السريع، مضاعفة ارتباك العدو. تلك هي الوسيلة الوحيدة لاغتنام الفرص السانحة للأستيلاء على المدافع والاحمال والمعدات وقوافل ووحدات التموين والاسناد ، وحتى الرجال المكلفين بشتى الاعمال والواجبات خلف القطعات ومع قوافل المذخرات، وذلك بعد ان تترك القطعات مناطق ايوائها في حالة من الارتباك والفوضى الشديدتين، وستغدو قوات المقدمة والطلائع اكثر الوسائل ملائمة لتطويق قوات العدو وعزلها عن بعضها البعض او عن قسمها الاكبر.

الشرط السابع والاخير، انه وفي حالة انتهاء العملية الى الفشل علينا التهيؤ للأنسحاب وتحديد مكان (او عدة امكنة) لتجمع الجيش (القوات).

الفصل العشرون

التشتيت « التضليل»

يعني مصطلح «التشتيت» او التضليل، في الاستخدام العادي، هجوم على أرض معادية يستهدف مخادعة العدو وابعاده عن هدفه الاساسي. وهذا الهجوم بذاته، وبغض النظر عن احتلال النقطة «الهدف» المهاجمة، يشكل الفكرة الاساسية للموضوع، فالتشتيت اذن عملية خاصة متميزة. وبخلاف ذلك فلبست العملية سوى كأي هجوم أخر.

لا بد في عملية تشتيت كهذه من هدف لمهاجمته بطبيعة الحال. وقيمة وأهمية هذا الهدف وحدهما ما يدفعان بالعدو الى تعيين القطعات المناسبة لحمايته. ومن الناحية الأخرى فلو لم تحقق العملية غايتها كهجوم تشتيت، فسيشكل الهدف المحتل التعويض المناسب لما بذل من جهد لاجله ولاحتلاله.

وأهداف كهذه قد تكون قلاعاً او مستودعات مهمة ، اومدنا كبيرة وغنية – وعلى الأخص عواصم البلدان – او ذات قيمه حيوية من أي نوع، كما انها في النهاية ستسهم في انهاك واضعاف العدو وموارده.

من الواضح ان هجوم التشتيت قد يكون مجدياً الا ان ذلك ليس بالامر البديهي او اللازب. فقد يتسبب في بعض الحالات بالكثير من الأذى. والمطلب الرئيسي لهجوم التشتيت هو اجبار العدو على سحب أكبر ما يمكن من الرجال (القطعات) من الساحة الرئيسية للعمليات، وان يزيد ما يسحبه على حجم القوات المستخدمة في التشتيت. اما عند تعادل حجم القطعات المسحوبة مع قوة التشتيت فلن يحقق الهجوم عندها اية فوائد، وتتحول العملية بكاملها عندئذٍ الى هجوم ثانوي. وحتى عندما تدعو الحاجة الى شن هجوم ثانوي ، كما عند احتلال هدف حيوي باقل حجم ممكن من القوة – كسهولة احتلال قلعة مهمة مثلاً – فلن يصح عندئذاعتبار العمليه تشتيتاً. وهناك نوع آخر من العمل يدعى كذلك بالتشتيت، وهو عندماً تكون دولة ما معنية بالدفاع عن نفسها ضد دولة اخرى، ثم تهاجم من قبل دولة ثالثة، الا ان الفرق الوحيد بين هذا الهجوم والهجوم الاعتيادي هو اتجاه الهجوم الجديد. وما من سبب خاص لاعطاء هذا الهجوم اسماً خاصاً، والمعروف في

المناقشات النظرية أن لا بد للمصطلح المحدد ان يخدم بدوره مفهوماً محدداً.

اذا تطلب الامر سحب قوة صغيرة من قوة اكبر، فلا بد لذلك من ظروف خاصة تتحكم فيه. وكي يكون التشتيت مؤثراً فلن يكفي توجيه القطعات اعتباطاً الى اماكن تأكد خلوها من القوات المعادية، ولم تكن محتلة سابقاً.

لنفترض ان المهاجم قد قرر الاغارة على منطقة معادية تقع خارج مسرح العمليات بقوة صغيرة، ولنقل بالف رجل فقط – وليوفر العدو ما يكفي من الجهد كتجنيد الرجال وغير ذلك ، فليس بوسع العدو ان يتوقع امكانية ايقاف قوة الاغارة بتوجية الف رجل من قواته لهذا الغرض؛ ولا بد و الحالة هذه من ارسال قوة اكبر لحماية المنطقة المعنية من التعرض للغارة. هنا بوسعنا التساؤل،اليس بوسع المدافع، وبدلاً من حماية ارضه هو، استعادة التوازن بتوجيه قوة مساوية [لقوة العدو] للأغارة على منطقة مماثلة من أرض العدو؟ في الحقيقة ، على المهاجم ان اراد انضاج الفائدة التي يرجوها، التأكد تماماً من وجود الكثير مما يمكن عمله او التهديد بالقيام به في منطقة المدافع أكثر مما في أرضه هو . وعند تحقق ذلك فلن يفشل اي هجوم تشتيتي ومهما كان ضعيفاً في حجز وشل قوات معادية أكبر بكثير من قوة التشتيت. الا انه ومن الناحية الاخرى فان هذه الفائدة وبفعل وتأثير عملية التشتيت نفسها ستتناقص كلما زاد حجم القوة المستخدمة، اذ بوسع (٥٠) الف رجل الدفاع عن منطقة كبيرة جداً ليس ضد عدو بنفس العدد، بل وحتى ضد عدو اكبر قليلاً. لذا فالفوائد المرجوة من هجوم تشتيتي واسع النطاق أمر مشكوك به للغاية. وكلما زاد حجم التشتيت كلما استلزم الامر توافق وملائمة الظروف الاخرى إن اريد له النجاح.

يمكن ان تعد العوامل التالية ملائمة:

١. يجب ان لا يؤثر حجم القوة المتيسرة للتشتيت سلباً على الجهود التعرضي للمهاجم.

٢. تيسر اهداف واهنة وبالغة الاهمية في الوقت نفسه للعدو.

٣. عدم موالاة ابناء المنطقة للعدو.

٤. توفر منطقة غنية بما يكفي لتوفير الكثير من معدات وضرورات الحرب.

فان لم ينفذ هجوم التشتيت الا بعد توفر فرص كافية للنجاح، وبعد ممارسة مختلف الفحوص، فستظل فرص واحتمالات النجاح قليلة للغاية.

هناك نقطة مهمة اخرى لا بد من بحثها. وهي ان التشتيت ينقل الحرب دائماً الى منطقة كانت ستظل بمنأى عنها خلاف ذلك. كما ان القوات المعادية التي كانت ساكنة او دون عمل، ستغدو وبفعل هجوم التشتيت حية وعاملة. وسيظهر ذلك بوضوح ان كانت خطط العدو الحربية قد تضمنت استخدام المليشيا (القوات الشعبية) وكانت الاسلحه متوفرة لتوزيعها على المواطنين.

من الطبيعي تماماً، ومما أكدته التجارب الماضية ايضاً، أنه وفي حالة تعرض منطقة ما الى تهديد مفاجيء ولم تكن التدابير الضرورية قد اتخذت مسبقاً للدفاع عنها، فبوسع المسؤولين الاكفاء المتواجدين في تلك المنطقة تعبئة كل الرجال والموارد المتيسرة واية وسائل غير اعتادية ايضاً لمواجهة الخطر. كما قد تستنبط وسائل جديدة للمقاومة – وسائل قد تشابه ما يستخدم في حرب العصابات ومن التي يسهل الحصول عليها.

لا بد من التنبه وبدقة الى هذه النقطة عند التفكير واعداد هجوم التشتيت، والا فسيعمل المرء على ان يحفر قبره بيديه.

لنأخذ على سبيل المثال الانزال في شمال هولندا عام ١٧٩٩ وفي (والشيرين)[1] عام ١٨٠٩. وكهجومي تشتيت فلا يمكن تبريرهما الا بالحقيقة التي مفادها، تعذر استخدام القوات البريطانية باي شكل اخر، رغم انها تركت الدفاعات الفرنسية اقوى بكثير مما كانت عليه وكما لو ان الانزال قد نفذ من فرنسا نفسها. كان يمكن تحقيق الكثير من الفوائد بمجرد تهديد الشاطيء الفرنسي، لأن التهديد بذاته كان سيشل قوة كبيرة كانت ستكلف بواجب مواجهة التهديد ولا يمكن للمرء ان يبرر انزالاً قسرياً ما لم يكن معتمداً على تعاطف واسناد منطقة الانزال ضد حكومتها.

كلما قلت فرص وأمكانيات الوصول الى حسم كبير في الحرب، كلما زادت

(١) حملة والشيرين(تموز –أكتوبر ١٨٠٩) في محاولة لجر نابليون بعيداً عن وسط اوربا شنت بريطانيا حملة من (٣٥) سفينه دون سرية أوكمان في حراسة (٢٠٠) سفينه نقل تحمل (٤٠) الف رجل لاحتلال ميناء انتويرب وقاد الحملة (ايرل جاتام الاصغر بت) وكانت الحملة فشلاً ذريعاً وضاع الجهد في محاولة لاحتلال (فلوشنك) في (١٦/آب) اذ تولى الملك لويس بونابرت والماريشال برنادوت تعزيز دفاعات انتويرب. عاد ايرل جاتام بعد أن ترك حامية من (١٥)الف رجل في جزيرة والشيرين مات (٧) الاف منهم بالملاريا وعاد الاخرون فيما بعد الى بريطانيا م.ت.ع ص ٧٦٦-٧٦٧ (المترجم).

تبريرات اللجوء الى التشتيت – لكن كلما قلت الفوائد التي يمكن تحقيقها بطبيعة الحال. تعد مثل عمليات التشتيت هذه وببساطة كوسائل مناسبة لزحزحة الموقف.

التنفيذ

١. قد يتضمن التشتيت هجوماً حقيقياً. وفي هذه الحالة فلن يتطلب تنفيذه اية سمات خاصة عدى السرعة والأقدام.

٢. مع ذلك، قد يهيء التشتيت ليبدو أكثر أهمية مما هو عليه وهكذا فقد يكون وفي الوقت نفسه عملية مخادعة. والوسائل المناسبة الواجب استخدامها لتحقيق ذلك، لن يقررها سوى قائد ذو ذهنية بارعة وذكاء حاد، ومتفهم تماماً للظروف والقوات المستخدمة. وستفرض عمليات التشتيت لا محالة قدراً كبيراً من التبعثر للقطعات.

٣. ان لم تكن القوات المستخدمة كبيرة بقدر ملحوظ، وحدد الانسحاب الى نقاط محددة فمن الضروري عندها الاحتفاظ باحتياط يمكن للقوات الاخرى التعويل عليه.

الفصل الواحد و العشرون

الغزو Invasion

ينحصر كلما نريد قوله حول الغزو في تحديد معنى المصطلح. اذ غالباً ما يستخدم هذا من قبل الكتاب المعاصرون مع حرص ورغبة منهم على الاتيان بمعانٍ ودلالات خاصة. فالفرنسيون يكتبون دائماً عن (Guerre dinvasion) ويعنون بذلك اي هجوم يخترق اراضي العدو عميقاً ، وكانوا يودون لو استطاعوا ارساء معنى هذا المصطلح كنقيض او مقابل للهجوم الأعتيادي – اي الهجوم الذي لا يتجاوز نطاقه جبهة (حدود) العدو. وليس هذا سوى تلاعب مربك ولا علمي للمصطلحات اللغوية. فسواء توقف الهجوم عند الحدود او اخترق عميقاً في قلب ارض العدو، وسواء استهدف الهجوم احتلال قلاع العدو او القضاء على مركز مقاومة العدو وطاردها بضراوة، فلا يعتمد الامر هنا على شكل الهجوم، بل على الظروف. ونظرياً، ليس هناك اية أجابة أخرى. لكن وفي بعض الحالات قد لا يكون الاكثر جدوى وحكمة وتعقلاً الاندفاع لبعض المسافة عمقاً لا البقاء قريباً من الحدود، الا ان ذلك في النهاية ليس أكثر من النتيجة الناجحة لهجوم قوي وعزوم، لذا لا يمكن عزلها او تمييزها عنه باي حال من الأحوال.

الفصل الثاني والعشرون
نقطة ذروة الانتصار

ليس من السهل ان يتمكن المنتصر من دحر عدوه كلية في جميع الحروب. وغالباً ما توجد نقطة ذروة (قصوى) حتى للمنتصر. وقد تجسمت هذه الظاهرة بالتجارب المتكررة. ولما للأمر من أهمية خاصة في النظرية العسكرية، ولأنه يشكل حجر الزاوية في معظم خطط الحملات، ولان شكله قد تلبس تناقضات واضحة، كانعكاسات الالوان البراقة، لا بد لنا من تفحصه بدقة والبحث عن مضمونه ومنطقه الداخلي .

النصر عادة نتيجة لتفوق احد الطرفين، ومن تراكم كبير للقوى المادية والمعنوية. ويضخم هذا التفوق بالتأكيد بالنصر كذلك والا لما استحق كل هذا العناء والتضحية اللتان تبذلان لأجله، فهو النتيجه الطبيعية للأنتصار ذاته والذي له، وبفعل الجهد الذي بذل لأجله،تأثير مماثل ولكنه تأثير متواصل حتى نقطة ما. قد يتم الوصول الى تلك النقطة سريعاً، ويكون الوصول اليها أحياناً سريعاً جداً الى حد قد تكون معه كل النتائج التالية للأنتصار محدودة بتصاعد او زيادة في التفوق المعنوي فقط. ولنقترح هنا تفحص كيفية حدوث ذلك.

حال أندلاع الحرب، تتقابل الجيوش باستمرار، مع بعض العوامل التي تزيد من قوتها و عوامل أخرى تقلص منها. والقضية هنا أمر يخص التفوق. وكل انخفاض في قوة احد الطرفين يمكن ان يعد زيادة في قوة الاخر. ويلي ذلك ملاحظة ان هذه العملية المزدوجة تحدث في الهجوم وكذلك في الدفاع .

ما يتوجب علينا هنا هو تفحص السبب الرئيسي لهذا التغيير في واحد من الامثلة، وكيف انه يتحكم وفي الوقت نفسه في الأخرى.

الأسباب الرئيسية في القوة الأضافية في التقدم هي :

١. تكون خسائر المدافع عادة أكثر بكثير من خسائر المهاجم.

٢. يخسر المدافع منشأت ثابتة كالمخازن والمستودعات والجسور وما شابه ذلك ويظل المهاجم بمنأى عن ذلك.

٣. يخسر المدافع الأرض، وما فيها من موارد حال دخولنا اراضيه.

٤. يربح المهاجم ويفيد من استغلال بعض تلك الموارد، اي ان بوسعه العيش على نفقة المدافع.

٥. يفقد العدو تماسكه الداخلي، كما يفقد سهولة وحرية عمل جميع عناصر قوته.

٦. يخسر المدافع بعض حلفاءه، ويتحول آخرون الى جانب المهاجم.

٧. وأخيراً، ستنهار عزيمة المدافع بفعل هذه المعوقات والى حد قد يدفعه الى القاء السلاح.

اما الأسباب التي تؤدي الى تناقص الجيش المهاجم فهي:

١. على المهاجم محاصرة، ومهاجمة او مراقبة قلاع العدو، اما المدافع الذي سبق له وأن قام بنفس تلك الأعمال فبوسعه اضافه القطعات التي استخدمت لتلك الاغراض الى قوته الرئيسية.

٢. حال دخول المهاجم ارض عدوه، فستبدل طبيعة مسرح العمليات. اذ ستصبح ارضاً عدائية. اذ عليه اخراج الحاميات المناسبة، كما ليس بوسع المهاجم فرض سيطرته الا الى الحدود التي مد فيها سيطرته، الا ان ذلك بدوره سيخلق مصاعباً جديدة لمجموع ماكنة المهاجم الحربية، مما سيضعف من فاعلية المهاجم لا محالة.

٣. سيبتعد المهاجم عن مورد وقواعد تموينه، بينما يقترب المدافع من مصادره. وهذا يسبب بدوره تأخيراً في سد نقص وتوفير احتياجات قطعاته.

٤. الخطر الذي يتهدد المدافع سيجلب له الحلفاء لمساعدته .

٥. وأخيراً، فالمدافع وحالما يتعرض لخطر حقيقي سيبذل مجهوداً عظيماً، في الوقت الذي تضعف فيه مجهودات المهاجم .

قد تتواجد هذه المزايا والاضرار في آن واحد، كما قد تتقابل ان جاز لنا قول ذلك وتتدافع من اجل مواصلة طرقها المختلفة والمتعارضة. الا في لقائهما الاخير فستكونان في تعارض حقيقي،يصعب عليهما فيه تخطي بعضيهما، لذا سيتبادلان الاعاقة. وهذا وحده كاف لأظهار المدى المحدود للتأثير الذي للأنتصار- اعتماداً على ما اذا كانت ستسقط المدافع او ستدفعه الى النهوض وبذل جهد أعظم.

سنحاول الآن تقديم تقويم مجمل للنقاط اعلاه في عدد من التعليقات:

١. قد تكون (تصل) خسائر العدو عند حدها الاقصى بعد دحره مباشرة، ثم تتناقص بعد ذلك يومياً حتى يصل الى نقطة تتساوى قوته عندها مع قوتنا. ومن الناحية الاخرى فقد تتزايد تلك الخسائر يوماً بعد أخر وباطراد، ويعتمد كل شيء هنا على الموقف الكلي والظروف. وعلى العموم بوسعنا القول ان الحالة الاولى هي الأكثر حدوثاً اذا كان الجيش جيداً، والحالة الثانية هي الاعم ان كان الجيش سيئاً. والعامل المهم الى جانب الروح القتالية العالية للقطعات، هو حالة ومعنويات الحكومة. ومن المهم والاساسي في الحرب، ان نميز ما بين الاثنين، والا قد يضطر المرء الى التوقف عند النقطة التي كان عليه الانطلاق منها والعكس بالعكس.

٢. قد تتزايد خسائر العدو من المعدات الثابتة، كما قد تتناقص هذه، والامر يعتمد في النهاية على مواضع وطبيعة مستودعات التموين هذه. ومن البديهي أن لم يعد في أيامنا هذه من أهمية كبيرة لهذا الأمر كما لغيره.

٣. لا يمكن للميزة الثالثة الا ان تتزايد مع تطور التقدم نحو الافضل. يمكن للمرء ان يقول حقاً، ان تلك الميزة لا تبدأ الا مع نجاح الهجوم بالاختراق عميقاً في اراضي العدو - اي عند الاستيلاء على ثلث او ربع تلك الارض. والعامل المؤثر الأخر هو ان تكون تلك الارض ذات قيمة اساسية ومهمة بقدر تعلق الامر مع المجهود الحربي.

٤. تميل الميزة الرابعة هي الأخرى الى التزايد مع مواصلة التقدم.

ينبغي وبالاضافه الى النقطتين الاخريتين ملاحظة ان من النادر ان يكون لهما تأثير مهم ومباشر على القطعات القائمة بالعمل.فعملهما بطيء وغير مباشر . كذلك لا ينبغي على المرء (القائد) بذل الكثير من الجهد اعتماداً على تلك النقطتين، ومن ثم ليجد نفسه في موقف بالغ الخطورة.

٥. والفائدة الخامسة لا تبدأ هي الاخرى الا بعد ان يمضي الجيش قدماً في اندفاعه الى مسافة ما فقط، وعندما تساعد طبيعة وجغرافية الدولة المعادية على توفير فرصة مناسبة لاقتطاع وعزل مناطق بعينها عن باقي البلاد. كحزمة الاغصان المشدودة الى بعضها باحكام شديد، فانها سريعاً ما تبدأ بالذبول.

٠٧٠٦- من المحتمل وفي جميع الحالات ان تتزايد الفائدتين (٦، ٧) مع مواصلة التقدم. وسنعود اليهما فيما بعد.

ولنعد الان الى اسباب تناقص وفقدان القوة

١. يلاحظ وفي الكثير من حالات التقدم ان هناك العديد من حالات الحصار، والصولات، وتطويق او مراقبة القلاع. الأمر الذي يؤدي بحد ذاته الى **إضعاف القوات المقاتلة المتيسرة**، مما قد يمحو او يلغي كل الفوائد الاخرى. في الحقيقة ان على الجيوش في العصر الحالي ان تبدأ بمهاجمة القلاع بعدد قليل من القطعات، وبمراقبتها بعدد اقل من ذلك، وعلى العدو ايضاً بطبيعة الحال، ان يوفر حاميات كافية لتلك القلاع. ومع ذلك تظل القلاع من العناصر البالغة الاهمية للأمن. ومن المحتمل ان يكون نصف رجال الحامية ممن لم يسبق لهم المشاركة في الحرب (المعارك)، رغم ان الجيش سيضع ضعف تلك القوة امام القلاع وعلى خطوط مواصلاته، وحتى لو تطلب الامر فرض حصار قوي على موضع حيوي منفرد، او القضاء عليه فلن يتطلب اياً من الأمرين الا جيشاً (قوة) صغيراً.

٢. السبب الثاني لاضعاف القوة، هو تهيئة واعداد مسرح العمليات في أرض العدو، مع ملاحظة زيادة حجم هذا المسرح مع مواصلة التقدم. وقد لا يؤدي هذا الأمر الى اضعاف فوري ومباشر للقوات، وقد يكون له وعلى المدى البعيد تأثير أقوى بكثير من العامل الأول اعلاه.

الجزء الوحيد من ارض العدوالذي بوسع الجيش المتقدم اعتباره جزءً من مسرح عملياته هي تلك المناطق التي اصبح يحتلها فعلاً –اما بترك وحدات صغيرة في الميدان، او حاميات مؤقته توضع في المدن الرئيسية، وبوحدات توضع في مناطق الاسناد والدعم وغير ذلك. ومع ان كلاً من هذه لا تشكل الا قوة صغيرة الا انها بمجموعها ستستنزف القوة القتالية للجيش. الا أنه الجزء الاقل أهمية منها.

لكل جيش أجنحة استراتيجية – اي المناطق الممتدة على جانبي خطوط

مواصلاته، لكن، ولأن جيش العدو سيجابه نفس الامر فليس من السهل اعتبار ذلك عاملاً في أضعاف الموارد. الا أنه يغدو كذلك عندما يعمل الجيش داخل حدود بلاده.وحالما يدخل الجيش أرض العدوفسيغدو تأثير عامل الاضعاف هذا واضحاً وملموساً. اما اذا ترك خط المواصلات دون حماية او بحماية ضعيفة، فستكون امام اية عمليات توجه ضد ذلك الخط، ومهما كانت صغيرة فرصة كبيرة للنجاح، ويمكن شن الغارات في ارض العدو في او ضد اي قاطع من ذلك الخط.

كلما استمر التقدم الى الأمام أكثر كلما زاد امتداد وطول تلك الاجنحة، وكلما تزايدت المخاطر التي تمثلها بالتالي. ليس بسبب صعوبة حمايتها وسترها وحسب، بل ولكن لان اجنحة بهذا الطول ودون حماية ستثير حماسة العدو وروحه التعرضيه، وبالتالي فاية خسارة تلحق بتلك الخطوط لا سيما في حالة الانسحاب ستكون فادحة ومأساوية للغاية.

سيؤدي كل ذلك بطبيعة الحال الى أضافة اعباء جديدة للجيش المتقدم وفي كل خطوة يخطوها، لذا فما لم يبدأ ذلك الجيش تقدمه بتفوق كبير واستثنائي حتى، فسرعان ما سيفقد حرية عمله او انها ستتضائل على الأقل، كما ستحدد قدرته التعرضية بنسبة تتزايد مع الوقت. وسيفقد في النهاية الكثير من الثقة بالنفس ويقلق كثيراً حول موقفه العام.

٣. العامل الثالث هو بعده عن الموارد (قاعدته) التي يتوجب عليها توفير احتياجاته وباستمرار لان ذلك من عوامل اضعاف الجيش المتقدم، وسيتزايد ذلك طردياً مع مواصلة التقدم. ويمكن تشبيه الجيش الغازي بهذا الخصوص بضوء القنديل فكلما قل او تناقص الزيت الذي يغذيه كلما قل تركيز وشدة الضوء،ويستمر هذا التناقص حتى يذوي نهائياً.

ما من شك في قدرة المناطق الغنية بالموارد على تخفيف هذه المشكلة، الا انها غير قادرة على معالجتها كلياً. وستدعو الضرورة باستمرار الى جلب الكثير من (القاعدة الرئيسية) او الوطن- وعلى الأخص الرجال. وعموماً فلن تكون الموارد المتيسرة في أرض العدو، جاهزة عند الحاجة ولا بالمقدار المطلوب كتلك المهيئة مسبقاً من قواعد الجيش الغازي. والمعروف ان المساعدات لا تصل في حالات الضرورة القصوى الا متأخرة كثيراً، ولا يمكن هنا حصر حالات سوء الفهم والاخطاء والعراقيل التي لا عد لها والتي يتعذر ملافاتها مسبقاً او معالجتها بالسرعة المطلوبة.

ما لم يتولى الملك قيادة جيشه بنفسه وكما بات شائعاً ومألوفاً في الحروب الحديثة، وما لم يكن من السهل العثور عليه او حتى تواجده حيث تدعو الحاجة، فسينشئ الكثير من المشاكل الخطيرة والعراقيل الناجمة عن ضياع الوقت الثمين للغاية في نقل وايصال الاوامر والتوجيهات والطلبات، ومهما زاد حجم مسؤوليات مشاوري القيادة العامة فليس ذلك بكاف لمواجهة كافة الاحتمالات التي عليه البت فيها ، او تقع في نطاق اختصاصه.

٤. تغيرّ التحالفات السياسية. فان حدثت مثل تلك التغيرات نتيجة لانتصاره، فمن المحتمل ان تعد لغير صالح المنتصر ، كما يحتمل ان تكون وبنسب مباشرة وتقدمه – وبنفس الدرجة كما لو انها كانت لصالحه. وكل شيء هنا يعتمد على التكتلات السياسية والمصالح، والتقاليد، والاتجاهات السياسية، ونوعية وشخصية الامراء ومستشاريهم، وعلاقاتهم الحميمة، وعقيلاتهم وغير ذلك. والتعليق الرئيسي الوحيد الذي بوسع المرء قوله هو أن قوة كبيرة ولها حلفاء صغار ستجد انهم سرعان ما يتخلون عنها حال اندحارها. وذلك سيؤدي بالتأكيد الى تعزيز الجيش المنتصر مع كل ضربة يوجهها. لكن ومن الناحية الاخرى ان كانت الدولة المندحرة أصغر، فسرعان ما تنهال عليها المساعدات وتجد الكثير من الحماة كلما ظل التهديد موجوداً. كما سيجد بعض الذين شاركوا في خلق تلك المخاطر للدولة الاصغر ان من الأفضل لهم نفض ايديهم من الامر كله لا سيما اذا تأكدوا من قدرة القوى الجديدة، وان انتصارها سيكون كبيراً.

٥. المقاومة المتصاعدة في صفوف العدو. يحدث احياناً ان العدو المباغت وبعد صدمة قاسية تسبب له الكثير من المصائب قد يلقي سلاحه ويستسلم الا ان ذلك وفي حالات أخرى يوقظ فيه العزم وروح المقاومة، ويحدث اندفاعاً في صفوفه لحمل السلاح، وتغدو مقاومته اشد قوة بكثير بعد اندحاره قياساً بما كانت عليه قبل ذلك.والمعطيات التي بوسع المرء ان يبني افتراضاته حول ردود الفعل المحتملة عليها تتضمن،طبيعة وشخصية ابناء الشعب والحكومة، وطبيعة البلاد، وتحالفاتها وارتباطاتها السياسية .

يمكن للنقطتين الاخيرتين احداث اختلاف واضح ومحدد في الخطط التي بوسع الواحد، بل وعليه اعدادها في الحرب ليأخذ في حسبانه كلا الاحتمالين. وفي الوقت الذي قد يضيع فيه طرف ما احسن الفرص بسبب جبنه او بسبب تمسكه

بالاساليب الحرفية الجامدة، قد يندفع آخر بتهور ودون حذر لينتهي زائغ العينين مندهشاً كما لو أنه اخرج لتوه من الماء.

اكثر من ذلك، لا بد للمرء من ادراك حالة الوهن التي غالباً ما تقع للطرف المنتصر فور تجاوزه مرحلة الخطر، وفي الوقت الذي يتطلب الموقف فيه وعلى العكس من ذلك بذل المزيد من الجهد والنشاط لمتابعة وتأكيد الانتصار. لو القينا نظرة عامة على تلك العوامل المختلفة والمتعارضة فسنصل دون شك إلى ان استثمار النصر والتقدم المتواصل في حملة تعرضية، سيستنزفان عادة التفوق الذي بدأ المنتصر حملته به، او ذاك التفوق الذي حصل عليه بانتصاره.

لا بد عند هذه المرحلة من السؤال التالي: ان كان كل ذلك صحيحاً فلماذا يصر المنتصر على متابعة مسار انتصاره، ومواصلة التعرض؟ وهل بوسعنا مواصلة تسمية ذلك بـ «استثمار الفوز»؟ثم اليس من الأفضل له ان يتوقف قبل ان لا تظل له اليد العليا؟

الجواب الواضح على ذلك هو ان القوة المتفوقة ليست النهاية (الغاية) بل مجرد الوسيلة. اما الغاية فهي اجبار العدو على الركرع على قدميه او على الاقل حرمانه من بعض اراضيه – والنقطة الهامة هنا ليست في **تحسين الوضع العسكري الحالي** ، بل لتحسين الموقف العام في الحرب وفي مفاوضات السلام التي تلي. حتى لو حاول ذلك الطرف تدمير العدو نهائياً، فعليه الاقرار والقبول بان كل خطوة متحققة قد توهن تفوقه – ولو أن ذلك لا يعني بالضرورة بانه سيصل الى الصفر قبل استسلام العدو. وقد يتصرف المنتصر على هذه الصورة عند نقطة اولية،فان استطاع نيل مبتغاه ببذل اخر درهم من تفوقه، فمن الحماقة والخطأ الفادح ان لا ينفق كل ما لديه.

هكذا يتضح لنا ان التفوق الذي بيد المنتصر، او الذي حصل عليه، مجرد وسيلة وليس الغاية، وقد تتعرض تلك الوسيلة للخطر من أجل الغاية. الا ان علينا ان ندرك المدى الذي بوسعنا الذهاب اليه مع هذا التفوق، كي لا يفقد هدفه؛ والا فبدلاً من الحصول على فوائد جديدة ، سيلحق بنفسه ضرراً بالغاً.

ليس بنا من حاجة للأستشهاد بأمثلة تاريخية كي نثبت الطريقة التي يؤثر فيها فقدان التفوق على هجوم استراتيجي. وفي الحقيقة، فأن أمثلة كهذه كثيرة الوقوع الى حد نشعر بقدرتنا على الأستفادة من أسبابها الأجمالية. وبعد بروز نابليون بونابرت فقط ظهرت تلك الحملات ما بين دول متحضرة قاد فيها التفوق بالضرورة

وعلى الدوام الى اندحار العدو. اما قبل بونابرت، فقد انتهت كل الحملات، والطرف المنتصر فيها يحاول الوصول الى حالة من التوازن قادرة على الأستمرار، وكان الطرف المنتصر يتوقف عند تلك النقطة (التوازن)، لقد توقف تقدم الانتصار، بل قد يلجأ احياناً الى الانسحاب. يمكن ان يتكرر هذا الوصول الى نقطة ذروة الانتصار في كل حرب مقبلة لا يكون اولا يمكن ان يكون تدمير العدو فيها الغاية العسكرية، وقد ينطبق ذلك الى حد ما على معظم الحروب. لذلك فالهدف الطبيعي لخطط جميع الحملات هي نقطة التحول التي يصبح الهجوم عندها دفاعاً.

ان كان على احدهم الذهاب ما وراء تلك النقطة ، فلن يظل الجهد الاضافي انذاك مجرد جهد غير مجدٍ لا يمكن اضافته إلى النجاح. بل انه في الحقيقة جهد مدمر، قد يؤدي الى نتيجة عكسية، والتجارب المتصلة تظهر لنا ان نتائجاً كهذه لا تتناسب في تأثيرها كلياً. وتعد هذه من التجارب العامة وتبدو طبيعية للغاية وسهلة للفهم، لذا ما من حاجة ملحة لبحث مفصل في اسبابها. وان كانت الاسباب الرئيسية وراء ذلك هي نقص الاستعدادات في الأراضي حديثة الاحتلال، وكذلك التأثير المعنوي للتعارض الصارخ ما بين الخسائر الشديدة التي يتكبدها، وبين النجاح الذي ما زال مأمولاً. هناك تفاعل شديد وغير عادي ما بين الارتفاع العالي في المعنويات – فمن ناحية غالباً ما يخفي التبجح والغرور قدراً من الذعر – وبين اليأس من الناحية الاخرى. ونتيجة لذلك فالخسائر ستكون عالية جداً خلال الانسحاب ولعل ذلك الطرف سيكون سعيداً وشاكراً لو اقتصر الامر على تضحيته فقط بما احتله من اراضي العدو، لا من اراضي بلاده هو.

عند هذه النقطة لابد من القاء الضوء على اللا تناسب هذا .

يستند ذلك على افتراض مفاده، طالما يتقدم الهجوم فلا بد من توفر قدر من التفوق للمهاجم، واكثر من ذلك ولان الدفاع (وهو الشكل الاكثر فاعلية في الحرب) يجب ان يبدأ حال أنتهاء التقدم،فقد لا يكون المهاجم في موقف خطير حقاً لأنه اصبح الطرف الاضعف ولو قليلاً. مع ان ذلك هو ما حدث ويدفعنا التاريخ الى الاقرار بان مخاطر النكسات لا تصل ذروتها في الغالب إلا حين يفقد الهجوم قوته الدافعة ويتحول الى دفاع. وعلينا البحث في سبب ذلك.

يستند التفوق الذي خصصت به الشكل الدفاعي للحرب على ما يلي:

١. الاستفادة من الأرض

٢. امتلاك مسرح منظم للعمليات .

٣. دعم وتعاطف الشعب.

٤. ميزة ان يكون الطرف المنتظر.

من الواضح ان العوامل الاربعة اعلاه لا توجد وبنفس القوة على الدوام، ولا بشكل متعادل في التأثير. فاحد امثلة الدفاع لا يشبه الشكل الاخر كما لا يتمتع الدفاع دائماً بنفس درجة التفوق على الهجوم وينطبق ذلك بشكل خاص في الدفاع الذي يتخذ بعد استنزاف التعرض - دفاع يكون مسرح عملياته عند الحافة الامامية القصوى لتعرض اندفع عميقاً في ارض العدو. يظل العامل الاول من العوامل الاربعة اعلاه، اي الاستفادة من الارض، يظل دون تغيير في اي دفاع كهذا، اما العامل الثاني فيهمل عادة، اما الثالث فذو أثر عكسي، اما العامل الرابع فالأكثر محدودية من حيث القوة. ولعل من المفيد قول بضعة كلمات في تفسير النقطه الأخيرة.

لو تخيلنا موقف متوازن، فسوف تنتهي جميع الحملات وعلى الغالب دون نتيجة بسبب فقدان الطرف الذي أخذ زمام المبادأه للأندفاع والعزم. وهذا بالضبط برأينا ما يجعل القدرة على انتظار العدو ميزة مهمة. اما اذا اربك الهجوم حالة الهدوء هذه، وأضر مصالح العدو وأجبره على العمل، فليس من المحتمل ان يظل هجوماً كهذا سلبياً أو دون عزم. والدفاع عادة اكثر اثارة واستفزازاً في خصائصه،عندما يتخذ في ارض محتلة (معادية) مما لو اتخذ داخل حدود الوطن،لانه سيصاب بفايروس الهجوم ان جاز لنا قول ذلك، الامر الذي يضعف خاصيته الاساسيه. لقد اتاح الجنرال دوان، لفردريك الكبير فترة من الهدوء في سليزيا وساكسوني، ما كان له ان يتيح له مثلها في بوهيميا.

لذلك فمن الواضح ان الدفاع الذي يتخذ ضمن اطار تعرضي سيكون ضعيفاً في كافة عناصره الرئيسية .وهكذا سيفقد التفوق الذي كان له من حيث الاساس.

فكما لا تتألف اية حملة دفاعية من عناصر دفاعية فقط، لذا فما من حملة تعرضية تتألف من عناصر تعرضية صرف. وفيما عدى الفترات القصيرة التي يلجأ الطرفان فيها الى الدفاع في جميع الحملات ، فكل هجوم لا يؤدي الى الصلح (السلام) لا بد ان ينتهي الى الدفاع بالضرورة.

وهكذا فالدفاع نفسه هو الذي يضعف الهجوم. ولا يحسبن احداً إن هذه مجرد سفسطة تافهة، بل نراها نحن من اكبر عوائق الهجوم والتي يتركها المرء عملياً في اكثر المواضع الدفاعية غير الملائمة.

سيفسر لنا ذلك سبب هذا التحول التدريجي في الاختلاف ما بين الفاعلية الاساسية للهجوم والدفاع كنوعين للحرب. وسنحاول الان أيضاح الطريقة التي يمكن ان يتلاشى هذا الأختلاف فيها كلياً، محولاً نفسه عكسياً تماماً.

بوسعنا ان نكون أكثر تحديداً ان استطعنا استخدام مثالاً مناسباً من الطبيعة. فكل قوة طبيعية في حاجة الى وقت ما كي تغدو مؤثرة. فلو استخدمت قوة ما بلطف وتدريجياً فستكون كافية لايقاف جسم متحرك، الا انه سيتغلب على تلك القوة ان لم يتيسر لها ما يكفي من الوقت للعمل. يقدم لنا هذا القانون الطبيعي صورة وثيقة الصلة بالعديد من الخصائص والتأثيرات المعنوية في الحرب. وحال توجيه سيل افكارنا باتجاه محدد سيكون من الصعب على العديد من المبررات ان توقف او تغير مسار تلك الافكار، وان كانت قادرة على ذلك في حالات أخرى. والوقت مطلوب وعامل ضروري لصياغة ودعم العقل الانساني . كذلك الامر في الحرب. فحال توجه الفكر في مسار معين نحو هدفه، او حال نكوصه وعلى العكس من ذلك بحثاً عن مهرب او ملاذ، فقد يحدث عندها ان المناقشة التي قد تجبر أحدهم وببساطة على التوقف، قد تبرر مواصلة العمل للأخر وليس ذلك بالأمر الذي يسهل تدبره او تقديره. وبينما يتواصل العمل، ومن خلال سيل المشاعر فقد يجتاز احدهم نقطة الاستقرار والتوازن، او خط الذروة ، دون ان يدري. بل انه حتى من الممكن للمهاجم الذي يمتلك قوى معنوية عالية ملائمة للتعرض، أن يجد ورغم استنزاف قواه ان مواصلة التقدم أقل صعوبة من التوقف – كالحصان الذي يتسلق مرتفعاً وهو محمل بالأثقال. نعتقد ان ذلك يوضح لنا ودون خلاف، كيفية تجاوز المهاجم للنقطة التي لو توقف عندها وتحول الى الدفاع ، لوجد امامه فرصة مناسبة للفوز بعد – اي نقطة التوازن. لذلك فمن المهم حساب تلك النقطة بدقة عند التخطيط للحملة. وبخلاف ذلك فقد يذهب المهاجم الى أبعد مما قدر كثيراً، فيغدو وكأنه اصبح مديناً، ويجب ان يكون المدافع قادر على تفهم وعلى استعداد لوقوع مثل هذا الخطأ ولاستغلاله كاملاً.

عند اعادة النظر في مجموعة العوامل ككل، على القائد الموازنة ما بينها قبل اتخاذ قراره، وعلينا ان نتذكر قدرته على حصر اتجاه وقيمة اكثرها أهمية بمجرد تقويمه لعدد كبير من الامكانيات الاخرى - بعضها قريب وآني والآخر بعيد. عليه الافتراض ان جاز لنا ذلك، ما اذا كانت الصدمة الأولى للمعركة ستزيد من عزم العدو وتشدد من روح مقاومته، ام انه كدورق بولونا، ستغلق حالما يمسح على وجهها، ويفترض ما يمكن ان يسببه مقدار الوهن الذي أصاب او افرغ وشل مصادر التموين الخاصة، وكذلك ما أصاب اقساماً معينة من خطوط المواصلات، وبالتالي ما أثار كل ذلك على العدو ، وأن يفترض ما اذا كانت المصائب والالام الناجمة عن الخسائر التي عليه التعامل معها ستدفع العدو لقسوتها الى الانهيار بعد انهاكه تماماً، او انه وكالثور الجريح سيثور بفعل شدة الغضب، وما اذا كانت القوى الاخرى ستشعر بالخوف او أن نقمتها ستتصاعد، وفيما اذا كان الحلفاء السياسين،، ومن منهم بالذات سيبتعد او سينضم من جديد. وعندما ندرك ان على القائد الخوض وسط كل هذه الافتراضات واشياء عديدة أخرى بقوة حكمته وتعقله، وكما يفعل الرامي البارع لاصابة الهدف، لا بد لنا ان نعترف بان انجاز كهذا للعقل البشري ليس بالامر اليسير او الصغير. هناك الالاف من التحولات الخاطفة الجارية في جميع الاتجاهات محاولة التأثير على فكره. وحتى ان لم ينجح طول المدى، ولا فوضى ولا تعقيدات الموضوعات في التغلب عليه وسحقه، فقد ينجح الخطر وعظم المسؤولية في ذلك.

لعل هذا يوضح لنا السبب وراء ميل اغلبية القادة والجنرالات في التوقف قبيل اهدافهم مفضلين ذلك على عدم تحمل مسؤولية الاقتراب كثيراً منها، ولماذا يذهب القادة الفائقي الشجاعة والعزم الى ما وراء اهدافهم غالباً فيفشلوا في تحقيق اغراضهم. لكن فقط، الرجل الذي يستطيع تحقيق النتائج العظمى بوسائل محدودة، يكون قد أصاب الهدف حقاً.

الكتـاب الثـامن

خطط الحرب

الفصل الاول
تمهيد

في الفصل الخاص بطبيعة وغرض الحرب كنا بالكاد قد تناولنا البحث في المفهوم العام للحرب، مع الاشارة الى الارتباط ما بين الحرب والظواهر الطبيعية والاجتماعية الاخرى، كي نضيف الى مناقشتنا نقطة إبتداء نظرية معقوله. وسبق وان اشرنا الى المعوقات الفكرية المتنوعة التي تحيط الموضوع، وابقينا الدراسة المفصلة لها فيما بعد، وقد انتهينا الى استنتاج مفاده ان الغاية العظمى لكل العمليات العسكرية هي دحر العدو– او بالاحرى تدمير قواته المسلحة. لذلك فمن الممكن ان نوضح في الفصل التالي بان المعركة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن استخدامها في الحرب. آملين بذلك ارساء مجموعة من النظريات الفاعلة والعملية.

سنتفحص بعدها المواقف والانماط الرئيسية واحداً بعد الاخر، (بالاضافة الى المعركة نفسها بطبيعة الحال) وكلها تحدث في الحرب، محاولين تحديد كل منها باكبر قدر من الدقة، واستناداً الى خصائصها المتأصلة بها من ناحية وعلى ضوء التجارب العسكرية من ناحية اخرى. كما سنحاول ازالة الغموض، والافكار المبهمة التي تلصق بكل منها عادة، كذلك سنحاول التأكيد على أن تدمير العدو هو وعلى الدوام الامر الاكثر اهمية اطلاقاً مع اوسع ايضاح لذلك.

لقد عدنا الان الى الحرب ككل، والى مناقشة التخطيط للحرب، وللحملات، مما يعني العودة الى الافكار الاساسية التي عرضناها في الكتاب الاول.

اما الفصول التالية فستعالج مشكلة الحرب ككل. اذ سنتناول سيطرتها واحكامها، واكثر جوانبها اهمية: الاستراتيجية الخالصة. وسندخل هذه المنطقة الحرجة – النقطه المركزية التي تلتقي عندها كل الخيوط الاخرى– لا اعتباطاً أو دون وجل. وبالتأكيد فلهذا الوجل مبررات قوية جداً.

تبدو العمليات العسكرية من ناحية بسيطة للغاية. والقادة الكبار يناقشون تلك العمليات بابسط العبارات واكثرها صراحة، وعند سماعهم يتحدثون عن اسلوب السيطرة وكيفية ادارة تلك المشروعات الضخمة والمعقدة، سيتصور المرء ان الشيء الوحيد والمهم في الامر كله هو المتحدث نفسه، وان كل ذلك الشيء الرهيب

والهائل الذي يدعى الحرب، سيتضاءل، في الحقيقة، الى مجرد صراع بين اشخاص، او نوعاً من المبارزة. هناك كما يبدو بضعة افكار غير معقدة ستؤثر بشكل او آخر او يعتد بها -الجنرالات- عند وضع قرارتهم- اما ذلك وحسب، او ان التفسير يكمن في حالات المشاعر المختلفة، ويترك المرء بالتالي مع انطباع مفادة ان القادة العظام يتدبرون الامور ببساطة، وثقة حتى لتحسب ان الامر يمر بين ايديهم بكل سهولة ولين. ويمكن ان نرى وفي الوقت نفسه،ما عدد العوامل المتداخلة في الامر والتي يجب موازنة ومقارنة كل واحد منها مع الاخر، والمسافة الواسعة، وغير المحدودة تقريباً التي يمكن ان توجد ما بين السبب ونتيجته، والطرق التي لا عد لها والتي يمكن ان تختلط فيها هذه العوامل فيما بينها. اما اداء النظرية، او بالاحرى مهمتها فهو في وضع كل ذلك في نظام متماسك، واضح وشمولي، ومن ثم متابعة كل عمل وصولاً الى سبب كاف او نهائي. عند التأمل في كل ذلك، يتملكنا خوف طاغ من الضياع والانجرار الى حالة من الحذلقات اللفظية الممجوجة، وان نحفر في الفراغ، وفي متاهات سفلية خرقاء وصياغة بعض الافكار والمفاهيم التي لم يسبق لاي قائد عظيم ومهما كان ملهما او عبقرياً، رؤيتها او السماع بها من قبل، فان كان هذا هو كلما بوسع الدراسات النظرية (المفاهيمية) التوصل اليه، فمن الافضل التوقف حتى عن محاولة ذلك اساساً. اذ سيتجاهلها جميع العباقرة الملهمين، بل ويحتقرونها، كما انها سريعاً ما ستنسى. وبعد قول وفعل كل شيء، فليس سوى عبقرية القائد، وقدرته على رؤية الاشياء ببساطة، ومطابقة كل اعمال الحرب تماماً مع ما في نفسه، وذلك هو جوهر واساس الزعامة (generalship) الجيدة. بوسع العقل البشري العامل وفق هذا النمط الشمولي فقط ان يحظى بالحرية المطلوبة للسيطرة على مسار الاحداث لا أن يتركها لتتحكم فيه.

بعدها نستأنف عملنا، بشيء من التواضع، وسنفشل في مسعانا ما لم نلتزم الطريق الذي حددناه لأنفسنا من البداية. ينبغي للنظرية ان تلقي الضوء دائماً على كافة الظواهر كي يتسنى لنا ادراكها بيسر اكبر، مع رؤية الافكار التي تنبثق باستمرار من العدم، وان تظهر لنا كيفية ارتباط هذا الشيء بذاك، وأن نفصل بين المهم وغير المهم. فان تجمعت المفاهيم ضمن انطقتها الخاصة لتشكل نواة او لب الحقيقة الذي نسميه المبدأ، وان كانت ستشكل وتلقائياً نمطاً او نهجاً سيغدو قاعدة او نظاماً، فان واجب المفكر او المنظر ايضاح كل ذلك.

كل حدس او تبصر نحصل عليه، ويخزنه العقل في دنياه وسط المفاهيم والافكار الاساسية، يعد فوزاً بوسع النظرية برهنته. ولا تستطيع النظرية تقديم الصيغ الجاهزة لمساعدة العقل في حل المعضلات، ولا تستطيع صنع او تحديد المجاز الضيق الذي يفترض العثور على الحل الوحيد فيه بزراعة مجموعة من المبادىء المطاطة على جانبي المجاز. الا انها قادرة على اعطاء العقل حدساً في مجموعة كبيرة من الظواهر، وعن علاقاتها، وتركه من ثم حراً للأرتقاء الى الاجواء العليا للعمل. فبوسع العقل هناك استخدام ذكاءه الفطري لاستيعابها، وجمعها كلها للأمساك **بما هو صحيح وحقيقي**، وكأن ذلك كله، فكرة واحدة تشكلت بفعل الضغط المركز – وكما لو انها استجابة للتحدي الاني، وليست نتاجاً للفكر.

الفصل الثاني

الحرب المطلقه والحرب الحقيقية

تغطي خطط الحرب جميع جوانب واوجه حرب ما، ثم تفرغها في عملية واحدة، لا بد أن يكون لها هدف نهائي واحد تنطوي فيه اية غايات خاصة اخرى. ما من احد سيبدأ حرباً – او بالاحرى ما من احد سيفعل ذلك بوعي – ما لم يكن واضحاً في ذهنه ومقدماً ما الذي يسعى الى تحقيقه من وراء تلك الحرب، وكيف ينوي ادارتها. الهدف الاول هو هدفها السياسي، اما الاخر فهو غاية العمليات العسكرية. هذا هو المبدأ الحاكم الذي سيحدد مسارها، ويعين انطقة الوسائل والجهد المطلوبين لذلك، ويمد تأثيراتها فوق كل شيء، ونزولاً الى اصغر تفاصيل العمليات.

قلنا في الفصل التمهيدي (الافتتاحي) أن الغاية الطبيعية للعمليات العسكرية هي دحر العدو، ويمكن لهذا التحديد القوي للمفهوم، ان لا يسمح في التحليل النهائي باية غاية اخرى. نظراً لأن الطرفان سيتمسكان بهذا الموقف حتماً فسيؤدي ذلك الى صعوبة تعليق (ايقاف) العمليات العسكرية، كما لا يمكن ان تنتهي الاشتباكات حتى يتم اندحار احد الطرفين تماماً.

اظهرنا في الفصل الخاص بتعليق الفعاليات العسكرية[1]، كيف يمكن للعوامل المتأصلة في ماكنة – الحرب نفسها أن تغير وتطور مبدأ العداوة، المتمثل في عنصر الحرب، اي الرجل، وفي كل ما يسهم في صنع الحرب. رغم ان عملية التطوير تلك كافية دون شك لتوسيع الثغرة ما بين المفهوم الخالص (Pure) للحرب، وبين الشكل المكثف الذي، وكقاعدة عامة تتخذه الحرب. تشبه معظم الحروب اندلاع متبادل للغضب، اذ يلجأ كل طرف الى حمل السلاح دفاعاً عن النفس، وكي يرهب خصمه، وكي يوجه اليه ضربة حقيقية احيانا. وهي على العموم ليست قضية او حالة تصادم قوتان متبادلتا التدمير. بل حالة توتر بين عنصرين في حالة انفصال في الوقت الحاضر، ويفرغان طاقتيهما في ضربات صغيرة متقطعة.

لكن ما حقيقة هذا الوسط العصي على الترويض، هذا الحاجز المانع للتفريغ الكامل؟ ولماذا يا ترى لا يتحقق المفهوم النظري كاملا في التطبيق؟ فالحاجز هنا، هو

---

(١) . الفصل السادس. الكتاب الثالث

ذلك المجموع الكبير (الحزمة) من العوامل، والقوة، والظروف المؤثرة في الشؤون الوطنية والتي تتأثر بالحرب، وما من سياق منطقي بوسعه المضي حتى زواياهما والتوائاتهما وكانها مجرد خيط بسيط يصل بين مقطعين. فالمنطق يتوقف في هذا الدهليز[1] (اللايبرنث)، اما الرجال العاملون الذين اعتادوا على التحرك في القضايا الكبرى والصغرى، بفعل انطباعات او مشاعر مسيطرة وخاصة، وليس وفقاً لمنطق محدد، فمن الصعب عليهم أن يدركوا فوضى ولا انسجام، وغموض الموقف الذي يجدون انفسهم فيه.

لعل الرجل الذي يحتل منصب القيادة العامة قد سبقت له معرفة وتفحص كل هاتيك الامور دون أن يفقد حدسه ولا تصوره لهدفه ولا للحظة، وليس من السهل على الكثير من المعنيين بالامر تحقيق نفس المستوى من التبصر. وتحتاج النتائج المعاكسة بسبب ذلك الى شيء ما للتغلب على التسارع الذاتي للحشود. ولا تتوفر عادة كل الطاقات المطلوبة لتحقيق ذلك.

يمكن ظهور مثل هذا التنافر في اي من الطرفين المتحاربين او لديهما معاً، وهذا بالذات هو السبب الذي تتحول الحرب وفقاً له الى شيء مختلف جداً عما يجب ان تكون عليه كما في النظرية – اذ تتحول الى شيء غير متماسك وغير كامل.

ذلك هو مظهرها المعتاد، وقد يتساءل المرء حول صحة او وجود اي قدر من الحقيقة في مفهومنا عن الطبيعة (السمة) المطلقة للحرب، عدى حقيقة رؤيتنا للحرب بام اعيننا وهي تحقق الحالة المطلقة التامة. وبعد المقدمة القصيرة للثورة الفرنسية، حوّل بونابرت الحرب بقوة وقسوة الى تلك الحالة. فأصبحت الحرب تشن من قبله وتتواصل دون هوادة حتى استسلام العدو، كما تتوالى الضربات المقابلة بنفس الشدة تقريباً. وستدفعنا هذه الظاهرة الطبيعية والتي لا مفر منها الى العودة دون شك الى المفهوم الخالص (Pure concept) للحرب مع كل مضامينها الصارمة.

وما دمنا سنجعل من ذلك اساساً، ونحكم على كل الحروب الاخرى وفقاً له، فكم وكيف ستختلف فيما بينها؟ وهل علينا استخلاص نظريتنا بكاملها منها؟ فالسؤال هو ما اذا كان هذا النوع من الحرب سيظل النوع الوحيد ام ستوجد هناك انواع اخرى صالحة ومقبولة. علينا التفكير بروية قبل الخوض في او قول اي شيء فكري عن خطط الحرب.

---

(١) - Labyrinth

اذا كان الرأي الاول صحيحاً فستكون نظريتنا قريبة من الضرورة المنطقية، وستنحو لأن تكون واضحة ودون غموض. لكن وفي هذه الحالة، ما الذي سنقوله حول كل الحروب التي وقعت منذ ايام الاسكندر – عدى حملات رومانية معينة – وحتى ايام نابليون؟ أكان علينا شجبها كلية وصراحة، لكننا قد نندهش لجرأتنا لو فعلنا ذلك. والاسوء من ذلك كله، أن علينا الرضوخ والاعتراف، ورغم وجود نظريتنا، بامكانية وقوع حروب من انواع اخرى خلال السنوات العشر القادمة، وان نظريتنا ورغم منطقتيها الراجحة لن تتطابق مع الواقع، لذلك علينا التهيؤ لتطوير مفهومنا عن الحرب كما يجب ان تدور، لا وفقاً لتحديدها الخالص، مع ترك مجال كاف لكل قضية او أمر غريب، ويتوجب علينا السماح للقصور الذاتي الطبيعي، ولكل انواع الاضطرام والاحتكاك في اجزائها، ولاي عدم انسجام وغموض، وجبن في الرجل؛ واخيراً مواجهة حقيقة ان الحرب واشكالها ناتجان من الافكار والظروف السائدة في ايامها – وكي اكون امينا تماماً علي الاقرار بان القضية كانت كذلك حتى عندما اخذت الحرب حالتها المطلقة مع نابليون.

فان كان الامر كذلك، وان كان علينا الاقرار بان الاصل والشكل اللذان تتخذهما حرب ما، ليسا نتيجة لاي حلول او موقف نهائي لاي مجموعة كبيرة من الظروف ذات العلاقة، ولكن فقط بفعل تلك الاعتبارات التي تغدو قوية ومسيطرة ساعتها، ويلي ذلك أن الحرب تعتمد على تفاعل وتداخل الامكانيات والاحتمالات، وعلى الحظ الحسن او السيء كذلك، وعلى الظروف التي غالباً ما لا تلعب فيها الحجج المنطقية جداً اي دور نهائي، والتي تلعب وعلى العكس من ذلك دور الادوات الفكرية المعرقلة وغير المناسبة. وقد تكون الحرب من ثم أمراً او قضية متعددة المستويات.

يجب ان تذعن النظرية لكل ذلك، الا أن مهمتها هي ان تعطي الاسبقية للشكل المطلق للحرب. وأن تبدأ بذلك من نقطة استناد عامة، كي يكون بوسع من يود التعلم من النظرية، التعود على مراعاة وجهة النظر هذه دائماً وبقوة، وأن يحكم من خلالها على جميع اماله ومخاوفه، وان يقدر ولو بشكل تقريبي، **متى يمكنه عمل شيء ما، ومتى يتوجب عليه القيام به.**

المبدأ الذي يجمل افكارنا وتحركاتنا سيعطيهما ومن دون شك حجماً وخاصية، ورغم ذلك فقد تكون لدوافعنا ومبرراتنا الانية، اصول مختلفة تماماً، كما

يتحدد شكل لوحة او قماش الرسم الذي يختاره الرسام للوحة ما، باللون الذي سيستخدمه في الرسم.

فان كان بوسع نظرية ما تحقيق شيئا من ذلك اليوم، فذلك يعود اساساً الى حروب هذا العصر. وبدون الامثلة المختارة بدقة وحذر للقوة التدميرية المطلقة العنان للحرب، فستغدو النظرية مجرد موعظه تلقى على الصم. وسوف لن يصدق احد ما، بامكانية ما يحدث الان فعلاً.

فهل كانت بروسيا ستجرأ على غزو فرنسا عام ١٧٩٢[1] بقوة تعدادها (٧٠) الف رجل، لو انها فكرت للحظة بان الاثار التي ستترتب على فشل العملية ستكون قوية بما يكفي لقلب موازين القوى السابقة في اوربا؟ وهل كانت ستخاطر بدخول حرب ضد فرنسا عام ١٨٠٦ بـ (١٠٠) الف رجل، لو كانت لديها اية شكوك بان الاطلاقة الاولى في تلك الحرب ستفجر لغما سيلقي بها الى الفضاء؟

---

(١) . ورد في النص الالماني خطأ عام (١٧٩٨). المشرف Eds

الفصل الثالث

أ . الاعتماد المتبادل لعناصر الحرب.

نظراً لامكانية التفكير بالحرب بطريقتين مختلفتين – في شكلها المطلق، او اي واحد من اشكالها المتعددة التي تكون عليها فعلاً – سينشىء مفهومان مختلفان للنجاح.

في الشكل المطلق للحرب، وحيث تنشىء كل الاشياء من الاسباب (المنطلقات) الضرورية، وكل عمل سيؤثر وسريعاً على العمل الاخر فليس هناك، ان جاز لنا استخدام المصطلح، تدخل حيادي خالٍ. ونظراً لاحتواء الحرب على الكثير جداً من التفاعلات[1]، ونظراً لان كل مجاميع الاشتباكات ترتبط[2]، وبالمعنى الدقيق للكلمه، بقوة مع بعضها البعض، ونظراً لوجود نقطة ذروة في كل انتصار، يستقر خلفها مجال الخسارة والاندحار[3] – لذا وعلى ضوء جميع الخصائص الجوهرية للحرب، هناك نتيجة واحدة مهمة وذات جدوى: **الانتصارالنهائي** Final Victory، ولن يحسم اي شيء حتى يتحقق ذلك، ولن يربح او يخسر شيء. وعلينا في حرب من هذا النوع ان نضع نصب اعيننا وعلى الدوام، ان النهاية هي التي تتوج العمل. لذا فالحرب ضمن مفهوم الحرب المطلقة، حرب لا تتجزأ، واجزائها المركبة (الانتصارات المنفردة) ليست بذات قيمة الا بقدر علاقتها بالكل. فلم يكن لاحتلال موسكو ونصف روسيا عام ١٨١٢ اية فائدة لنابليون بونابرت ما لم تحقق له السلام الذي كان يريد. إلا ان تلك الانتصارات ليست سوى اجزاءٍ من خطته للحملة: وما لم يتحقق بعد هو دحر الجيش الروسي. ولو اضيف هذا الانجاز الى البقية، كان السلام الذي يسعى اليه نابليون سيتحقق دون شك وبأفضل شكل يريده. الا أنه فات اوان إنجاز القسم الثاني من خطته، ففاته الحظ وولت الفرصة. لذا لم يضيّع نابليون الموقف المؤزر بالانتصارات وحسب بل تحول الامر كله الى مأساة (اندحار).

تشكل المقارنة والاختلاف مع هذه النظرة الصارمة للعلاقة ما بين النجاحات

---

(١) . راجع الفصل الاول الكتاب الاول. (كلاوزفيتز)

(٢) . راجع الفصل الثاني الكتاب الاول (كلاوزفيتز)

(٣) . راجع الفصلين الرابع والخامس من الكتاب السابع (كلاوزفيتز)

في الحرب قضية اخرى، ونظرة ليست أقل صرامة، وتتضمن هذه النظرة الثانية ان الحرب تتألف من نجاحات منفصلة لا علاقة بينها، وكما في مباراة تتألف من عدة لعبات. فلا تأثير للّعبات الاولى على التي ستليها فيما بعد. وكل ما يهم هنا هو الحساب النهائي، وستسهم كل نتيجة منفصلة بقدر ما في النتاج الكلي.

تستمد النظرة الاولى صحتها من طبيعة الموضوع، اما الثانية فتستمدها من التاريخ الحقيقي. ولدينا ما لا يحصى من الحالات التي وقعت فعلاً وحيث يمكن تحقيق الفوائد الصغيرة دون مرافقة ظروف شديدة في قسوتها. وكلما كان العنف الذي يرافقها معتدلاً كلما كانت حالات كهذه اكثر شيوعاً؛ لكن وطالما لم تتحقق الحرب المطلقة ابداً، لذا فلن نجد حرباً ما كان المفهوم الثاني (النظرية الثانية) واضح الصلة بها والى الحد الذي يمكن ان نهمل فيه النظرة الاولى كليا. لو افترضنا صحة المفهوم الاول، فمن الضروري ان يعني ذلك ومنذ البداية ان نرى كل حرب ككل منفرد، وان على القائد ومع اولى تحركاته امتلاك فكرة واضحة عن الهدف الذي يجب ان تلتقي عنده كل الخطوط.

اما اذا افترضنا صحة المفهوم الثاني فسنجد ان من المشروع متابعة الفوائد الصغيرة كل منها لذاته وان ندع المستقبل للمقادير.

نظراً لان المفهومين يقودان الى نتائج ما، فلا يمكن للنظرية الاستغناء عن اي منهما. وانما تحقق النظرية التمييز بين المفهومين في التطبيق، اذ يجب ان تستند كل الاعمال على المفهوم الاول، نظراً لكونه المفهوم الاساس؛ كما يمكن استخدام الثاني كتعديل تبرر استخدامه الاحداث والظروف.

عندما تحرك فردريك الكبير في الاعوام ١٧٤٢-١٧٤٤، ١٧٥٧، ١٧٥٨، من سيليزيا وساكسوني، دافعاً قوة مقدمة (رأس حربة) الى النمسا، كان يدرك تماماً انها ما كانت ستقود الى سيطرة دائمية (ضم) كما كان الامر بالنسبة لسيليزيا وساكسوني. لقد كانت غايته دحر الامبراطورية النمساوية، وكان ذلك هدفاً ثانوياً، فقد كان يسعى وبالذات الى كسب الوقت وتعزيز قوته. وكان بوسعه متابعة هدفه الثانوي هذا دون خشية تعريض نفسه (وجيشه) الى الخطر[1].

---

(١). ربح فردريك الكبير معركة كولين ونتيجة لذلك امسك بالجيش الرئيسي للنمسا في براغ مع قائديه الكبيرين معاً. وكانت تلك ضربة قاصمة فعلاً لدرجة يكون معها قد فكر بالاندفاع الى فينا، هازاً اسس العرش النمسوي وفارضاً السلام. ليس هناك انتصار موازٍ لنجاحه هذا في تلك الايام، كان بحجم انتصارات نابليون، وان كان يفوقه في القوة والبراعة بسبب التفاوت في الحجم بين (داود) البروسي =

مع ذلك فقد حدد النمساويون عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٩ والبروسيون عام ١٨٠٦ لنفسيهما غاية اكثر تواضعاً من ذلك – وهي سوق الفرنسيين عبر الراين – وسيكونان على درجة كبيرة من الحماقة ما لم يبتدئا باعادة النظر بدقة، والتمعن كثيراً بسلسلة الحوادث التي يحتمل ان يأتي بها النجاح او الفشل وبالتتابع بعد الخطوة الاولى، والتي ستقود الى السلام. لا يمكن الاستغناء عن اعادة النظر هذه، لأمرين معاً **الاول** لاجل القرار على كيفية استثمار النجاح بامان **والثاني** هو كيف وأين يمكن ايقاف وعرقلة اي نجاح معادي.

تظهر لنا الدراسة الدقيقة للتاريخ أين يكمن الاختلاف بين هاتين الحالتين. ففي القرن الثامن، وأيام حملة سيليزيا، كانت الحرب مسألة تخص الحكومات وحدها، اما دور الشعب فلم يتعدى وببساطة دور الالة. اما في مطلع القرن التاسع عشر فقد اصبح الشعب نفسه في الميزان وعلى الطرفين. لقد تصرف الجنرالات الذين تصدوا لفردريك الكبير وفقاً للتعليمات التي لديهم – والتي كانت تتضمن الحذر كاحدى سماتها المتميزة. اما خصم النمسا وبروسيا اليوم فانه – ولو بشيء من الفظاظة – اله الحرب نفسه.

بوسع تحول كهذا للحرب ان يقود الى طرق جديدة في التفكير حولها. وكان بوسع الرجال ان يدركوا في السنوات ١٨٠٥، ١٨٠٦، ١٨٠٩، ان التدمير التام بات ممكناً – لقد صفعت هذه الحقيقة وجوههم حقاً. وكان من الممكن ان يدفعهم ذلك الى بذل مختلف الجهود التي ستتجه نحو اهداف اعظم لا نحو مجرد احتلال زوج من القلاع، او حتى منطقة ليست كبيرة جداً.

مع ذلك فلم يغيروا توجهاتهم بشكل كافٍ، ورغم ذلك تظهر لنا عمليات وحجم اعادة تسليح النمسا وبروسيا، انهم قد تنبهوا الى نذر العاصفة التي تحيط بالعالم السياسي. وقد فشلوا لان التاريخ لم يكشف عن هذا التحول الكبير في الحرب بقوة. وفي الحقيقة فان حملات ١٨٠٥، ١٨٠٦، و١٨٠٩، والحملات التي تلتها هي التي سهلت علينا التوصل الى المفهوم الحديث، للحرب المطلقه وبكل طاقاتها التدميريه.

= و(جاليوث) النمساوي. لقد سهل له انتصاره في كولين نجاحه هذا دون شك وجعله ممكنا. الا ان ذلك لا يلغي تأكيدنا في اعلاه، والذي يتعلق فقط بالغرض الاساسي لتعرض الملك فردريك، الا ان استسلام وحصر جيش العدو الرئيسي لم يكن من الناحية الاخرى قد خطط له بل ولم يكن الملك فردريك قد فكر به حتى (على الاقل) فقد اغراه النمساويين بذلك بالموقع غير الملائم الذي اختاروه في براغ – كلاوزفيتز.

لذلك تتطلب النظرية أنه وفي مطلع كل حرب، يجب ان تحدد سمتها ونطاقها وفقاً للأحتمالات السياسية. كلما اقتربت تلك الاحتمالات السياسيه من دفع الحرب نحو المطلق، كلما ازداد انجرار الدول المتحاربة في دوامتها، وكلما ازداد وضوح الارتباط ما بين اعمالها المنفصلة، وكلما ازدادت الحاجة الى عدم القيام بالخطوة الاولى قبل البحث في الاخيرة.

ب . نطاق الاهداف العسكرية، وقياس الجهد الواجب القيام به

تعتمد درجة القوة التي يجب استخدامها ضد العدو على حجم المتطلبات السياسية للطرفين. وستوضح تلك المطالب وبقدر ما تكون معروفة، نوع الجهد الواجب الذي على كل منهما بذله، الا انها نادراً ما تكون معروفة بشكل تام – ولعل ذلك احد الاسباب في عدم بذل الطرفين او اجهاد نفسيهما بنفس الدرجة.

ولا تتشابه ايضاً مواقف وظروف المتحاربين ايضاً. ويمكن ان يشكل هذا عاملاً ثانياً.

كذلك حال التفاوت في الحكومات من حيث قوة الارادة، والمزايا والسمات وكذلك في القدرات.

تنتج هذه الاعتبارات الثلاث، الشكوك التي تجعل من الصعب قياس حجم المقاومة التي ستواجه، وبالتالي الوسائل المطلوبة وما يجب تعيينه من اهداف.

طالما كان الجهد قليل جداً في الحرب ان ينتج لا مجرد فشل وحسب بل اذى حقيقي، فكل طرف مدفوع للتفوق على الاخر، الامر الذي يؤدي الى التداخل.

يمكن ان يقود تداخل كهذا الى اقصى جهد ان امكن تحديد هذا الحد الاقصى. لكن في حالة كهذه سيضيع كل التناسب ما بين العمل والمتطلبات السياسية، كما سيتوقف تكافؤ الوسائل مع الغايات، وفي معظم الحالات سيفشل نهج policy الجهد الاقصى Maximum exertion امام المعضلات الداخلية التي ستنشأ.

وبهذه الطريقه سيساق الطرف المحارب الى تطبيق مسلك وسط. وسيعمل بمبدأ عدم استخدام قوة اكبر، وان لا يحدد لنفسه غاية عسكرية اعظم. من تلك التي تكفي لتحقيق هدفه السياسي، ولتحويل هذا المبدأ الى واقع عملي عليه التخلي عن الحاجة الى نجاح مطلق في كل قضية على حدة، كما عليه استبعاد الاحتمالات الابعد – من حساباته.

حينئذٍ، وعند هذه النقطة تتخلى الانشطة الفكرية عن ميدان العلوم الصرفة للمنطق والحسابات الرياضية. ويغدو الامر عندها فناً وبكلما في هذا المصطلح من

معنى وعلى اوسع نطاق ايضا – انها القدرة على استخدام ملكة التمييز Judgment للعثور على اكثر العناصر اهمية وحسماً من بين ذلك الخليط الهائل من الحقائق والمواقف. وما من شك في ان قوة التمييز هذه تتكون وبدرجة كبيرة او قليلة في قوة الحدس والمقارنة في كل العناصر والظروف التي فرضت نفسها؛ وما يثبت انه بعيد وثانوي يستبعد فوراً اما الموضوعات الاشد ضغطاً واهمية فسيتم تحديدها باسرع مما يمكن القيام به بالاستنتاج المنطقي المحدد.

للوقوف على حجم الموارد الواجب تعبئتها للحرب، علينا التمعن اولاً في غايتنا السياسية، وغايات العدو. كما علينا تفحص وقياس قوة وموقف الدولة المعادية. وتفحص شخصية وقدرات حكومتها وشعبها وفعل الشيء نفسه مع مثيلاتها لدينا. واخيراً على تقويم التعاطف السياسي للدول الاخرى وحجم التأثير الذي ستصبه الحرب عليها. وتقدير كل هاتيك الأشياء بكل تنوعاتها وتشعباتها هو وبكل بساطة مهمة ضخمة للغاية. يتطلب التقدير السريع والصحيح لكل ذلك وبوضوح حدساً وقدرات عبقرية، لأن السيطرة والتحكم بهذا الحشد المعقد باسلوب التفحص المنهجي (التقليدي) البسيط هو المستحيل بعينه. ولقد اصاب نابليون بونابرت بقوله ان (نيوتن) نفسه سيتهاوى امام معضلات الجبر التي ستفرضها عليه.

يميل حجم وتنوع العوامل الواجب موازنتها، والشكوك وعدم التأكد حول المعيار الصحيح لاستخدامه، الى جعل الوصول الى استنتاجات صحيحة أمر أشد صعوبة. كما ينبغي علينا ان نتذكر الاهمية الضخمة والفريدة للحرب، وبينما لا تزيد تعقيدات وصعوبات المعضلة، بل ستزيد من اهمية وقيمة الحلول الصحيحة. لن توثر المسؤولية والخطر بتحرير أو حث عقل الانسان العادي – ان لم يفعلا العكس فعلاً، لكن وحيثما نجحا بتحرير وانطلاق قوة التميز والثقه في فرد ما، سنتأكد حينئذٍ باننا في مواجهة قدرة غير اعتيادية.

علينا وكخطوة اولى، الاقرار بان حرباً وشيكة الوقوع، وغاياتها المحتملة، والموارد المطلوب توفيرها، هي كلها امور لا يمكن تقديرها الا بعد تفحص لكافة الظروف والمعطيات وضمن سياقها العام (الكلي)، والذي سيشمل بطبيعة الحال اكثر العوامل والعناصر السريعة التأثير والزوال ايضاً. ويجب علينا كذلك ادراك ان الاستنتاجات التي نتوصل اليها لن تكون شاملة في موضوعيتها باكثر من اية اخريات غيرها في الحرب، بل ستتشكل بفعل وقوة القدرات العقلية وشخصية الرجال من

صانعي القرار – كالحكام، ورجال الدولة، والقادة سواء توحدت ادوار ومهمات هؤلاء في كيان واحد ام لا.

قد تغدو الطريقة الاكثر عمومية ومفاهيمية ممكنة اذا تمعنا في طبيعة الدول والمجتمعات وكيفية عملها ضمن عصرها والظروف المتحكمة فيها. لنأخذ ما يكفي لأن نلقي نظرة متفحصة وسريعة على التاريخ.

فالتتار نصف المتوحشين وجمهوريات ودويلات العصور القديمة، والامراء الاقطاعيين، والمدن التجارية في العصور الوسطى وملوك القرن الثامن عشر وحكام وشعوب القرن التاسع عشر – وكلهم كانوا يديرون الحرب بطرقهم الخاصة مستخدمين مختلف الأساليب من اجل غايات مختلفة.

كانت قبائل التتار تبحث عن ارض جديدة، وكأمة، وبما معهم من نساء واطفال فهم اكثر عدداً من اي جيش آخر. كانت غايتهم هي اخضاع وقهر اعدائهم او طردهم، ولو امكن مزج درجة اعلى من التمدن مع اساليب اناس كهؤلاء التتار لامكنهم ذلك من اكتساح كل ما يعترض طريقهم.

كانت جمهوريات العصور القديمه باستثناء روما، صغيرة وكانت جيوشها اصغر من ذلك حتى، اذ استبعد عنه العامه (الدهماء Plebs) وهم اكثرية الشعب عادة، ولما كانت هذه الجمهوريات عديدة ومتقاربة فيما بينها فقد وجدت ان التوازن الذي تفرضه بعض قوانين الطبيعة والذي ينشأ على الدوام بين الوحدات الصغيرة وغير المرتبطه مع بعضها يشكل عائقاً كبيراً بوجه المشاريع الكبرى. لذلك حددوا حروبهم بغزو وسلب الاراضي المجاورة واحتلال مدن قليلة بهدف فرض درجة ما من السيطرة عليها.

كانت روما استثناءً لهذه القاعدة، كما كانت وقتها في اخريات ايامها. وبفعل مجموعات قليله من الرجال واصلت صراعاً غير اعتيادي لقرون مع جيرانها من اجل المغانم والتحالفات، ولا يعود القسم الاكبر من توسعها الى فتوحاتها بقدر ما تم بفعل تحالفاتها، اذ اخذت الشعوب المجاورة تندمج تدريجياً مع روما حتى ذابت في ما اصبح روما الكبرى. وبعد ان امتدت هذه العملية ونشرت قانون روما عبر جنوب ايطاليا بدأت روما انذاك التوسع بقوة فتوحاتها. فسقطت قرطاج، وتم احتلال اسبانيا وبلاد الغال (فرنسا)، كما اخضعت اليونان، كما طبق قانون روما في اسيا ومصر. لقد غدت الة روما العسكرية انذاك هائلة، من دون بذل الكثير من الجهد. وكان

بوسع روما ابقاء هذه الجيوش بما تمتلكه من ثروات. لم تعد روما تشبه الجمهوريات الاغريقية القديمة، بل لم تعد مخلصه او متمسكه بماضيها. وتعد قضيتها هذه فريدة في نوعها.

تتفرد حروب الاسكندر بنهجها الخاص، اذ وبجيش صغير ولكنه فائق التنظيم والتدريب، تمكن الاسكندر من تحطيم الدويلات الاسيوية الهشة. لقد واصل تقدمه بكل قوة ودون توقف خلال المساحات الشاسعة في اسيا حتى وصل الهند. وذلك شيء ما كان بوسع جمهورية واحدة تحقيقه، ولن يفعل ذلك سوى ملك وضع نفسه قائداً لقواته ليحقق ذلك بهذه السرعة.

شن ملوك العصور الوسطى، كبارهم وصغارهم، الحرب ضد جيوش الاقطاعيين بعمليات محدودة. وما لم يتم تحقيقه بسرعة يغدو مستحيلاً. كان جيش الاقطاع حشد من ملاك الارض وخدمهم واتباعهم. وكان يتم جمعهم جزئياً بقوة الالتزامات القانونية، ومن المتطوعين من الحلفاء في جزء آخر - بحيث يشكل مجموع تلك الجماعات تحالفاً حقيقياً. تستند العمليات التعبوية وتدريب السلاح على القتال الفردى، وبالتالي بما لا يناسب الاعمال المنظمة لاعداد كبيرة. لم يكن التماسك داخل الدولة ضعيفاً حقاً كما لم يكن الافراد مستقلين كلياً. لقد منح مزيج كل هذه العوامل حروب العصور الوسطى سمتها الخاصة. كانت تلك الحروب تشن سريعاً نسبياً، ودون ضياع الكثير من الوقت في الميدان، الا ان غايتهم كانت هي معاقبة العدو، لا إخضاعه أو قهره. فبعد الاستيلاء على ماشية العدو، واشعال النار في قلعته، فلا بأس بعدها من الاستراحة والعودة الى البيت.

لقد اوجدت المدن التجارية الكبرى والجمهوريات الصغيرة الكوندوتيري (قائد المرتزقة Condottieri). وكانت قوة المرتزقة هذه باهضة التكاليف لذلك لم تزد عن قوة عسكرية صغيرة. وكانت قيمتها القتاليه حتى اصغر من حجمها؛ وكان بذل المزيد من الجهد والطاقة او التطرف فيهما مما ينافيان الذوق، وليس القتال سوى مزحة ومخادعه. والخلاصة لم يكن العداء والحقد ليدفع بالدولة لتتولى أموراً كهذه بيدها وبحزم، بل تفضل تحويلها الى نقاط وموضوعات في المفاوضات. لقد فقدت الحرب او تخلت عن الكثير من المخاطر، وتغيرت طبيعتها الاصلية كلياً، ولم يجر تطبيق اي من قواعدها وافتراضاتها المناسبة.

تحول الاقطاع تدريجياً الى ملكيات وسيادة على حيز محدود من الاراضي.
كانت الدويلات متقاربة ومتداخلة كالعُقد المتشابكة، وكانت الخدمة الشخصية (العسكرية) تتحول سعياً وراء المكافأة الاكبر، التي كان معظمها (نقوداً)، كما تم استبدال مجندي الاقطاع بالمرتزقة. وكانت الصلة القوية في هذا التحول هم قادة هؤلاء المرتزقة (الكوندوتيري). الذين ظلوا ولفترة ما الاداة العسكرية لدول اكبر حتى. لكن سرعان ما اصبح الجنود يؤجرون بعقود قصيرة الامد ثم تطور ذلك الى مرتزقة دائميين، فأصبحت القوة المسلحة للدولة جيشاً ثابتاً، تدفع مرتباته من خزينة الدولة.

جلب هذا التطور البطيء نحو هذه النهاية معه وبطبيعة الحال تداخلاً هائلاً ما بين انواع المؤسسات العسكرية الثلاث تلك. فقد استخدمت كلها في عهد هنري الرابع ملك فرنسا (أتباع الاقطاع) والمرتزقة (الكوندوتيري) والجيش النظامي سوية. لقد ساهمت الكوندوتيري في حرب الثلاثين سنه (١٦١٨-١٦٤٨)، كما يمكن في الحقيقة متابعة اثار طفيفة لها في القرن الثامن عشر. ومع اختلاف وتنوع سمة المؤسسات العسكرية للدول الاوربية في مختلف المراحل، كذلك تنوعت الظروف الاخرى ايضاً. لقد تفرقت اوربا اساساً الى عدد كبير من الدول الصغيرة. بعضها جمهوريات مضطربة، واخرى ملكيات غير مستقرة مع سلطة مركزية محدودة. ولا يمكن وصف دول كهذه بانها متحدة بقوة، بل لعلها اقرب الى ائتلاف او تكتل قوي لا يشدها سوى القليل من الروابط. لذا لا ينبغي اعتبار دولة كهذه تجسيداً فكرياً قادراً على العمل وفق قواعد منطقية بسيطة.

هذه هي وجهة النظر التي ينبغي علينا تقدير سياسات وحروب العصور الوسطى على ضوئها. ويكفي المرء التفكير في اباطرة الالمان وانحدارهم المتواصل الى ايطاليا طوال خمسة قرون. اذ لم ينتج عن اي من تلك الحملات احتلال تام للبلد (ايطاليا)، بل انها لم تكن حتى مهتمة بتحقيق ذلك. ومن السهل اعتبار تلك الحملات كرعب دوري، وشبح تلده روح العصر، ومع ذلك فهناك ما يبرر ان نعزو اليها حمل قضايا كبيرة قد نتولى تجميعها في اطار فكري، مع عجزنا عن تفهم اليتها او طاقتها الديناميكية بنفس الدقة التي كانت لرجال عاصروها وفرضت عليهم التزاماتهم التعامل معها. طالما كانت القوى الكبرى التي تولدت عملياً من كل تلك الفوضى الاوربية، في حاجة الى الوقت لترصين وتنظيم نفسها، فقد وجهت معظم

طاقاتها وقدراتها لهذه العملية. كانت الحروب الخارجية قليلة، وتلك التي حدثت فعلاً تكشف عن امارات التلاحم السياسي الهش.

حروب الانكليز ضد الفرنسيين هي الاولى التي تبرز بوضوح وثبات. رغم صعوبة اعتبار فرنسا كدولة ملكية حقيقية - فهي مجرد تكتل بالاحرى من الدوقيات والاقاليم (County) ، اما انكلترة ورغم ظهورها بوحدة اقوى فانها ما زالت تقاتل بمتطوعي الاقطاع وسط الكثير من الخلافات والمشاكل المحلية.

اتخذت فرنسا في عهد لويس الحادي عشر خطوات كبرى ومهمة نحو الوحدة الداخلية (الوطنية). واصبحت قوة غازية واحتلت ايطاليا في عهد شارل الثامن، كما اصبحت دولة قوية مع جيش كبير ووصلا القمة في عهد لويس الرابع عشر.

بدأت الوحدة الاسبانية في عهد فرديناند اوف اراغون. وفي عهد شارلس الخامس وكنتيجة لزواج موفق ظهرت الى الوجود فجأة المملكة الاسبانية المؤلفة من اسبانيا وبورجوندي والمانيا وايطاليا. وامكن التعويض عن النقص الذي عانت منه هذه الدولة في التماسك والاستقرار الداخلي بما لديها من ثروة. لقد جابه جيشها القوى والدائم الجيش الفرنسي اولاً. وبتنازل شارل الخامس انقسمت هذه الامبراطورية الضخمة الى قسمين - اسبانيا والنمسا. وقد تعززت الثانية بعد ان أضافت كُلا من هنغاريا وبوهيميا فاصبحت كقوة كبرى وجرت خلفها الاتحاد الالماني كزورق تابع.

يمكن اعتبار عهد لويس الرابع عشر في نهاية القرن السابع عشر النقطة التي وصل عندها تاريخياً الجيش الدائم مرحلة النضج وغدى بشكل مشابه لجيش القرن الثامن عشر. لقد اعتمد هذا الجيش على الاموال والتجنيد. كما انجزت الدول الاوربية الوحدة الوطنيه التامة. كما حولت خدمة مواطنيها الى نظام الرواتب النقدية، فقد باتت قوة الحكومات الان تعتمد على خزائنها. شكراً للتطورات الثقافية، والى تقدم المؤسسات والادارات الاكثر براعة فقد غدت سلطاتها كبيرة جداً قياساً بالايام السابقة. لقد وضعت فرنسا عدة مئات من الالوف من قطعاتها النظامية في الخدمة، كما كان بوسع دول أخرى فعل نفس الشيء قياساً لتعدادها السكاني.

لقد تغيرت العلاقات الدوليه بطرق أخرى كذلك. لقد انقسمت اوربا ما بين دزينة من الملكيات وحفنة من الجمهوريات. لقد كان من الممكن ان تخوض دولتان

حربا كبرى دون توريط عشرين دولة اخرى فيها، كما كان يحدث في الماضي. وما زالت الانحيازات السياسية عديدة ومتنوعة، وكما يمكن أن تستمر، مع ان احتمالاتها يمكن ان تخضع للتقويم لكل حالة على حدة.

اما داخليا فقد تحولت كل دولة الى ملكية مطلقة، واختفت امتيازات وسطوة الطبقات تدريجياً. كما توحدت السلطة التنفيذية وغدت تمثل الدولة في العلاقات الخارجية. وتطورت المؤسسات السياسية والعسكرية الى اجهزة مؤثرة، بوسع السلطة المركزية المستقلة أن تعلن حربا تتماشى ومفهومها الفكري.

واكثر من ذلك فقد ظهر خلال هذه الفترة ثلاث قادة من طراز الاسكندر – غوستاف ادولفوس، وشارلس الثاني عشر، وفردريك الكبير. لقد حاول كل منهم وليس لديه سوى قوات قليلة نسبياً الا انها عالية الكفاءة، تحويل بلده الى مملكة كبرى، وسحق كل معارضيه. ولو كانوا يجابهون امبراطوريات اسيوية فقط لكانوا شابهوا الاسكندر المقدوني بشكل اقوى. لكن ووفقاً للمخاطر التي واجهوها فقد تفوقوا ودون اي شك على نابليون.

فان امكن ربح الحرب بالقوة والتأثير فيمكن خسرانها باوجه اخرى.

كان الانفاق على الجيوش يتم من الخزانة التي كان الحكام يعتبرونها كيسهم الخاص للصرف، او على الاقل من اموال الحكومة وليست ملكاً للشعب. وفيما عدى بعض الامور التجارية، لم تكن العلاقات مع الدول الاخرى لتعني شيئاً للشعب، بل فقط لوزارة المالية (Treasury) او الحكومة. وكان هذا هو الاتجاه السائد على الاقل. اذ كانت الحكومه تتصرف وكانها تمتلك وتدير ملكية كبيرة تسعى دائماً لتوسيعها – بجهد لا يمكن ان نتوقع ان يبدي الشعب اي اهتمام به. كان شعب وجيش التتار واحداً، اما في الممالك القديمة وخلال العصور الوسطى فالشعب (لو طبقنا هذا المفهوم على من يمتلكون حق المواطنة) ما زال يلعب دوراً مهماً؛ اما في ظروف القرن الثامن عشر فقد انتهى دور الشعب. والتأثير الوحيد الذي ما زال الشعب يمارسه على الحرب تأثير غير مباشر – وذلك من خلال مكاسبها او اخفاقاتها.

هكذا غدت الحرب اهتماماً وحيداً للحكومه والى الحد الذي تنهي فيه الحكومة شراكتها مع الشعب وتتصرف وكانها هي الدولة. كما باتت وسائلها لاشعال الحرب تتألف من النقود الموجودة في خزاناتها ومن اؤلئك المشردين الذين بوسعها جمعهم اما من ابناء الشعب او الاغراب (من الخارج). وهكذا بات من

الممكن **معرفة** الوسائل المتيسرة لدى الحكومة وحصرها بدقة، واصبح بوسع كل دولة ان تحدد القوى الممكنة لدى الدولة الاخرى من حيث العدد والوقت. لقد جردت الحرب من اكثر سماتها خطورة – وهي ميلها الى التطرف الحدي، وعن سلسلة الامكانيات والاحتمالات غير المعروفة التي تلي ذلك.

تعتبر موارد العدو النقدية، وخزائنه وحساباته معروفة كلها تقريباً، وكذلك حجم قوته المقاتلة. ولا يُعدّ الانفاق الواسع ممكنا مع اندلاع الحرب. وبفضل معرفة قدرات العدو وتحديداته، يتوفر للرجال شعور بالامان له مبررات معقولة من الدمار الكلي، كما يعرف هؤلاء التحديدات المفروضة عليهم، لذلك يضطر هؤلاء بدورهم الى تقليص وتحديد غاياتهم بالمقابل. ويثير الأمان من التهديد – المعادي – بالتطرف بعدم الحاجة الى التطرف، او ان لا ضرورة لذلك. ولا تعود مثل هذه الضرورة محفزاً لفعل ذلك، والدوافع الوحيدة الباقية هي التي تثيرهما الشجاعة والطموح. الا ان هذه ومن الناحية الاخرى تشكم بفعل وقوة الظروف المسيطرة والسائدة للدولة. وحتى القائد الملكي للجيش عليه، مراعاة استخدام الجيش بالحد الادنى من المخاطرة. فلو دمر هذا الجيش او أبيد فليس بوسعه تشكيل جيش آخر، وليس بعد الجيش من بديل آخر. ويمثل ذلك اقصى درجات الحكمة والتعقل في كل العمليات. اما اذا لاحت فرصة مناسبة لتحقيق بعض الفوائد الحاسمة فيمكن عندها استخدام أو زج تلك الالة الثمينة واستخدامها. ان سوق الامور نحو نقطة او موقف كهذا من المهمات العليا والرئيسية للقيادة (Generalship)، فان لم يتحقق ذلك فستتحول العمليات عندها الى خواء، فما من مبرر كاف للعمل، وكل القوى الدافعة ستبدو في حالة من التعطل والقصور. وستذوي الدوافع الاصلية للمعتدي بتأثير التعقل والانزعاج.

هكذا تغدو ادارة الحرب لعبة حقيقية (للقمار)، توزع الاوراق فيها وفق الاحداث والوقت، وهي في تأثيرها اقوى من الدبلوماسية، فهي طريقة اكثر قوة في التفاوض، تكون المعارك وحالات الحصار فيها المذكرات الرئيسية التي يتم تبادلها. وليس لاكثر الحكام طموحاً غايات اكبر من الحصول على عدد من النقاط والمزايا التي بوسعه استغلالها في مؤتمر الصلح.

يتطابق هذا الشكل المحدود، للحرب وكما قلنا مع القاعدة الضيقة التي تستند اليها، اما عن تفسير وتفهم قبول حتى قادة موهوبين وملوك مثل غوستاف ادولفوس وشارل الثاني عشر، وفردريك الكبير مع ما لديهم من جيوش بقدرات استثنائية، المستوى الذي يعلو قليلاً على المستوى العادي لازمانهم، وعن سبب قبولهم بنجاحات متواضعة، فيكمن ذلك في لعبة توازن القوى في اوربا. ومع تعدد وكثرة الدول الصغيرة في العصور الاولى، لم يكن بوسع اياً منها التوسع سريعاً. فقد حالت دون ذلك مجموعة من العوامل القوية والوثيقة والصلة كالقرب، والتداخل بين تلك الدول وكذلك بسبب الروابط العائلية والعلاقات الشخصية. اما الان فالدول غدت اكبر حجماً كما تباعدت مراكزها كثيراً، كما غدت المصالح الكثيرة والواسعة الانتشار التي طورتها هذه الدول هي العامل الذي حد من نمو تلك الدول. كما باتت العلاقات السياسية وبكل ما فيها من صلات وارتباطات وكراهية غريزية،باتت تشكل نوعاً من الصلة الشديدة الحساسية، الى حد أن ما من مدفع يطلق في اوربا الا احست كل حكومة فيها ان مصالحها قد تأثرت بشكل أو أخر. لذلك سيحتاج الاسكندر الجديد لاكثر من سيفه اللامع؛ سيحتاج الى قلم جاهز كذلك، ومع ذلك فليس بوسعه ان يحقق انتصارات وغزو كبيرين(١).

وحتى لويس الرابع عشر (ملك فرنسا، ١٦٣٨ - ١٧١٤م) والذي صمم على توازن القوى في اوربا والذي لم يأبه الا قليلاً بالمجابهات العدائية العامة عند نهاية القرن السابع عشر، فقد واصل شن حروبه على الخطوط التقليدية. ومع أن الته العسكرية كانت جديرة باكبر الملوك واكثرهم ثراء الا ان سمات وميزات ذلك الجيش ما كانت تختلف كثيراً عما لدى خصومه.

لم يعد مما يتلائم وروح العصر اجتياح ونهب ارض العدو، الامر الذي كان له دور مهم في العصور القديمة، كايام التتار، وفي العصور الوسطى. واعتبر امر كهذا وعن حق كوحشية (بربرية) لا ضرورة لها، وعملية استثارة للأنتقام والثأر، وعمليات كانت تلحق الاذى برعايا العدو اكثر مما تلحقه بحكومته - وهو أمر لا جدوى منه ولا يؤدي الا الى اعاقة دائمة للتقدم الحضاري. لقد اصبحت الحرب وبدرجة كبيرة،

---

(١). لقد صاغ الجنرال ديغول هذا المفهوم بقوله «ليس بين عظماء القادة من لم يغرف من نتاج الفكر البشري، ففي صميم انتصارات الاسكندر نجد دائماً شيئاً من أرسطو». دي غول - نحو الجيش المحترف - ترجمة لويس الحاج - دار المكشوف بيروت - ط ١٩٤٣ ص١٣٧. المترجم

لا بوسائلها فقط بل وحتى في غاياتها ايضاً محدودة بالقوات المقاتلة فقط. لقد اصبحت الجيوش بقلاعها المحصنة ومواضعها المهيئة دولة داخل الدولة، تناقص فيها العنف تدريجياً.

لقد سعدت اوربا كلها بهذه التطورات. واعتبرتها النتائج المنطقية لعصر النهضة. الا ان هذه فكرة خاطئة. فلا يمكن للنهضة ان تقود الى انعدام توافق كهذا، وكما قلنا في السابق وسنعيده ثانية، لا يمكن ان نجعل اثنين زائداً اثنين يساوي خمسة. ومع ذلك فقد افادت هذه التطورات شعوب اوربا، ولو أنا لا ننكر انها قد جعلت الحرب مما تختص به الحكومات كلياً، وابعدتها كثيراً عن اهتمامات ومصالح الشعوب. ففي تلك الايام، كان المعتدي يخطط لاحتلال احدى مناطق العدو او منطقتين. وتتوخى خطط المدافع منعه من ذلك. كما كانت خطة حملة بعينها هي احتلال احدى قلاع العدو او منعه من احتلال احدى القلاع. ولم تطلب المعركة ابداً، او تقع فعلاً ما لم تكن لا بد منها لتحقيق ذلك الهدف. اما الذي يخوض معركة لم تكن ضرورية قطعاً، فهي وبعيداً عن الرغبة الاساسية بالانتصار، لا اكثر من تهور وطيش. وتقضى الحملة بكاملها في حصار واحد او اثنين على الاكثر. كما تعتبر المعسكرات الشتوية ضرورية للجميع. وظروف احد الاطراف السيئة لا تشكل فوائداً او مزايا لطرف آخر، ويتوقف التماس او الاشتباك بين الطرفين كليا تقريباً. معسكرات الشتاء تشكل تحديداً شديداً على اية عمليات للحملة.

ان كانت القوات متقاربة في القوى، او اذا كان الطرف الاكثر إقداماً وشجاعة، هو الطرف الاضعف، فلن تنشب اية معركة، وما من مدينة ستحاصر. وتغدو الحملة بكاملها مجرد احتفاظ بمواضع ومستودعات بعينها، وبالاستثمار المنظم لمناطق معينة.

طالما كان هذا هو النموذج العام للحرب، وبتحديد العنف فيها بطرق قوية وواضحة، لن يرى المرء فيها اي تضارب، او تنافر لا منطقي، بل وعلى العكس ستبدو صحيحة اطلاقاً، وعندما بدأ النقاد في القرن الثامن عشر التحليل والبحث في فن الحرب، تناولوا التفاصيل، دون تكليف أنفسهم بالتمعن في الاساسيات. وتميز العظمة، والكمال الحقيقي باشكال عديدة، بل وحتى الفيلد مارشال دوان (النمساوي) – والذي يعزي اليه الفضل في تمكين فردريك الكبير من تحقيق هدفه، لتفشل الامبراطورة النمساوية ماريا تريزا (١٧١٧ – ١٧٨٠) في تحقيق هدفها –

ممن يمكن اعتباره قائداً عظيماً. ومن بين وقت لاخر فقط قد يقترح البعض من ذوي القدرات النفاذة – والوعي العام الحقيقي – ان القوة المتفوقة لا بد ان تؤدي الى نتائج ايجابية، وخلاف ذلك يعني ان الحرب قد اديرت بصورة سيئة، بغض النظر عما بدى فيها من مناقب وسمات.

هكذا كانت الاحوال عند اندلاع الثورة الفرنسية. لقد حاولت النمسا وبروسيا مجابهتها بحرب من نوع دبلوماسي كالتي وصفناها. وسرعان ما اكتشفت الدولتان انها ليست كافية. عند النظر الى الموقف بهذه الطريقه التقليدية، يلاحظ ان الشعب توقع ابتداء ان يتعامل فقط مع جيش فرنسي بالغ الضعف، لكن في عام ١٧٩٣، كانت قوته تجل عن كل وصف. وغدت الحرب وبشكل مفاجىء عمل وموضع اهتمام الشعب مرة أخرى – شعب تعداده (٣٠) مليون نسمة، وكلهم يعتبرون انفسهم مواطنين. ولسنا بحاجة الى دراسة مفصلة للظروف التي رافقت هذا التطور الهائل، بل نحتاج فقط ملاحظة التأثيرات الوثيقة الصلة بمناقشتنا هذه. لقد اصبح الشعب شريك في الحرب، بدلاً عن الحكومة والجيش كما في السابق، كما زُج بكل ثقل وقوة الامة في الميزان. لقد تجاوزت الموارد والجهد المتيسران للأستخدام كل التحديدات التقليدية، وما من شيء بعد يعيق القوة والعنف اللذان يمكن ان تشن الحرب بهما، وما تلى ذلك من مخاطر جمة لاعداء فرنسا.

لم تتضح تأثيرات هذا التغيير (الاختراع) بسرعة او يحس به كلياً حتى نهاية الحروب الثورية. فلم تتجه الصراعات الثورية نحو النهاية المحتومة وهي: تدمير الملكيات الاوربية. فقد ظل بوسع الجيوش الالمانية المقاومة هنا وهناك، وتوقف مد الانتصار. الا ان كل ذلك يعود الى النقص الفني الذي عانته فرنسا والذي اتضح اولاً في مراتب الجيش Rank and file ، وبعدها في القادة والجنرالات، وفي مساعدي الرؤساء والمديرين في الحكومة نفسها.

حال معالجة هذه النواقص من قبل نابليون بونابرت، بدأ هذا القائد الجبار، بالة الحرب الرهيبة هذه، ومعتمداً على قوة الشعب بأكمله، نهجه التدميري في اوربا. لقد تحرك بثقة عالية واطمئنان كامل بانه وحتى لوجوبه بجيوش من النوع التقليدي في اي وقت ومكان فلا يمكن ان نشك ولو للحظة واحدة في نتيجة الصراع. لقد كان نابليون يوجه الرد اللازم في الوقت المناسب تماماً. لقد باتت الحرب الاسبانية موضع اهتمام الشعب تلقائياً. وفي عام (١٨٠٩م) بذلت حكومة النمسا جهداً لم

يسبق له مثيل كما هيأت احتياطات كبيرة وقوات مليشيا، وباتت قاب قوسين من النصر، وفاقت النمسا بذلك كلما كانت تعتبره ممكنا قبل ذلك. في عام ١٨١٢ اعتبرت روسيا بما حدث لاسبانيا والنمسا: ان مساحات روسيا الشاسعة تسمح لها باتخاذ الأجراءات والتدابير - وان كانت متأخرة - المناسبة والمؤثرة، بل وحتى في مضاعفة هذه التأثيرات. وكانت النتيجة رائعة. اما في المانيا، فقد كانت بروسيا سباقة في النهوض، لقد جعلت هي الاخرى الحرب موضع اهتمام الشعب، ومن ثم وبنصف تعداد سكانها السابق، ودون اموال او اعتمادات، استنفرت قوة بحجم يعادل ضعف ما كان لديها عام ١٨٠٦م. وتبعتها اجزاء المانيا الاخرى شيئا فشيئاً، وحتى النمسا ايضا رغم ان جهدها في ذلك لم يصل هذه المرة ما وصله عام ١٨٠٩ - رغم انها بذلت جهداً شاقاً واستثنائياً، ونتيجة لكل ذلك زجت المانيا وروسيا عامي ١٨١٣م و ١٨١٤م ما يقرب من مليون رجل ضد فرنسا في الميدان - وهم كل من خاض وسقط في الحملتين.

باتت الحرب تشن تحت ظروف كهذه بدرجات متباينة من القوة والنشاط. وكانت الحملات تدار بطريقة جديدة احياناً، رغم انها لم تصل ذلك ولم تجاري الشدة الفرنسية، كما كانت تتسم بالجبن والتخاذل في احيان اخرى، ومع كل ذلك لم يعد الامر يشبه ما كان يجري في الماضي. لقد تحول مسرح الحرب من نهر (اودر) الى نهر السين خلال ثمانية اشهر فقط، وكان على باريس المغرورة أن تحني رأسها لاول مرة، كما استكان نابليون بونابرت الرهيب للقيود والسلاسل في نهاية المطاف.

اصبحت الحرب، ومنذ ايام نابليون وما بعده، تشمل ومن جديد كل الشعب في فرنسا اولاً ومن ثم لدى اعدائها، كما باتت لها سمات جديدة ومختلفة، او بالاحرى تكون الحرب قد اقتربت من طبيعتها الحقيقية، ومن كمالها المطلق. لقد بدى وكأن ما من نهاية للموارد التي يمكن تعبئتها للحرب، واختفت كل التحديدات والمعوقات وسط النشاط الفوار والحماس الطاغي اللذان تبديهما الحكومات ومواطنيها. كما اسهمت مجموعة اخرى من العوامل المتنوعة في زيادة ذلك النشاط قوة. كالاتساع الهائل في الموارد، وكثرة الفرص والاحتمالات، وعمق المشاعر التي تثار عادة في مواقف كهذه. الغاية الوحيدة للحرب هي قهر الخصم ولا يمكن حتي التفكير بالتوقف قبل انهاك الخصم ومن ثم الالتفات لتسوية المصالح موضع النزاع.

بعد ان تحررت الحرب من كل القيود التقليدية انطلقت على سجيتها بكل عنفها البدائي ويعود ذلك الى المشاركة الجديدة للشعب في شؤون الدولة الكبرى، التي نتجت جزئياً بسبب تأثيرات الثورة على الاوضاع الداخلية للدولة من جهة والى الخطر الذي باتت فرنسا تمثله للكل من جهة اخرى.

هل سيكون الامر كذلك وعلى الدوام مستقبلاً؟ وهل ستشن الحرب في اوربا من الان فصاعداً بكل ما لدى الدولة من موارد، وبالتالي لا بد من خوض الحرب لاجل القضايا الكبرى فقط ولما يهم حياة الشعب؟ أو اننا سنشهد ومن جديد افتراق تدريجي بين الشعب والحكومه؟ من الصعب الاجابة على سؤال كهذا، ونحن اخر من يجروء على ذلك. الا ان القارىء سيتفق معنا بقولنا، عندما تتحطم تلك الحواجز التي تألفت في الحقيقه من تجاهل الرجل ما كان ممكنا فقط،وليس من السهل اعادة بنائها ثانية، وعندما يتعلق الامر بالمصالح الكبرى، ستظهر الاعمال العدائية نفسها بمثل الطريقة التي تحدث فيها في ايامنا هذه.

يمكن عند هذه النقطة ان تنتهي مراجعتنا التاريخية. ولم تكن غايتنا تعيين حفنة من مبادىء الحرب لكل مرحلة. بل توخينا ان نظهر وبوضوح كيف ان لكل عصر نوعه الخاص من الحرب، وله كذلك ظروفه المحددة، وله كذلك افكاره وتصوراته الخاصة والمميزة. لذلك لا بد ان كل مرحلة قد تحددت بنظرية للحرب خاصة بها، حتى عندما تدعو السرعة والضرورات التي كانت تطغى باستمرار، وتفرض ان تجري الاشياء وفقاً لمبادىء علمية محددة. يلي ذلك ان لابد من تقويم الاحداث لكل عصر، والحكم عليها على ضوء سمات وخصوصيات ذلك العصر. لذلك لا يستطيع المرء تفهم وتقدير قادة العصور السابقة حتى يضع نفسه في المواقف التي نشأت ايامهم، وليس بالاعتماد على الدراسات المجهدة والمستفيضة لتفاصيل تلك المواقف، بقدر تركيز الاهتمام على التقدير الدقيق لسماتها واحداثها الكبرى والمؤثرة.

الا أن الحرب، ورغم انها محكومة بالسمات الخاصة للدول وقواتها المسلحة، لا بد من احتوائها بعض العناصر العامة – والعالمية بتعبير اكثر تحديداً – والتي يتوجب على كل مفكر وفوق كل شيء الاهتمام بها.

اما العصر الذي كان فيه هذا التفكير، وتلك العناصر الفاعلة على اقوى ما

يمكن فهو اكثر العصور حداثة، عندما حققت الحرب حدها المطلق في العنف. ولكن ليس من المرجح ان تظل الحرب على الدوام هائلة في خصائصها، اكثر من ذلك الحجم الضخم الذي بلغته بل ستنحو الى التضائل الشديد ثانية. ومن ثم فعلى النظرية التي تتعلق بالحرب المطلقة على وجه الحصر؛ اما تجاهل اية حالة تتشكل طبيعة الحرب فيها او تغيرت بفعل تأثيرات خارجية، والا كان عليها استبعاد حالات كهذه كانواعٍ من الحرب جرت بشكل خاطىء. الا ان ذلك يتعارض وما تتوخاه النظرية اصلاً. فالنظرية انما تستهدف استعراض ما كانت عليه الحرب فعلاً، وليس ما يجب ان يكون عليه شكلها المثالي. وهكذا فعلى المفكر تفحص كل المعطيات، بعين المتحري، والمميز، والمصنف المدقق. وان يتذكر وعلى الدوام المواقف العديدة والمتنوعة التي يمكن ان تؤدي الى الحرب. ولو فعل ذلك فبوسعه اجمال سماتها البارزة بطريقة يمكن ان تتلائم وقواعد العصر، ولتلك المتعلقة بالموقف القائم.

عند ذلك فقط بوسعنا القول يجب ان تحكم الغايات التي يضعها الطرف المحارب، والموارد التي يستخدمها بالسمات الخاصة لموقفه، الا انها ستتطابق كذلك وروح العصر، وسماته العامة. واخيراً فانها يجب ان تحكم بالاستنتاجات العامة التي تستخلص من طبيعة الحرب نفسها.

الفصل الرابع
تحديدٌ دقيق للهدف العسكري : دحر العدو

ينبغي لغاية الحرب ان تكون ما يتضمنه مفهوم الحرب نفسه – وهو تدمير العدو. وسنعتبر هذا المقترح الاساسي نقطه انطلاق لنا.

لكن ما الذي يعنيه «التدمير Defeat »؟ ليس احتلال كل اراضي العدو ضرورياً دائماً. فلو تم احتلال باريس عام ١٧٩٢ فلا بد عندها أن تصل الحرب ضد الثورة الى نهايتها. ولم تكن هناك من حاجة لدحر الجيوش الفرنسية اولاً، لانها لم تكن ايامذاك قوية بشكل خاص. لكن ومن الناحية الاخرى، ففي عام ١٨١٤ لم يكن حتى احتلال باريس سينهي الامر ما دام بحوزة نابليون جيش كبير بعد. لكن وكما حدث فعلاً وبعد تدمير القسم الاكبر من قواته، فان احتلال باريس عام ١٨١٤ قد سوى كل شيء، وكذلك الحال عام ١٨١٥. ونكرر مرة اخرى، لو نجح نابليون عام ١٨١٢ بسحق الجيش الروسي الذي تعداده (١٢٠) الف رجل قبل احتلال موسكو، وفي الطريق الى كالوغا، تماماً كما سحق الجيش النمساوي عام ١٨٠٥، والجيش البروسي في العام الذي يليه، فحقيقة احتلاله العاصمة ربما عنى ان بوسع نابليون عقد الصلح بغض النظر عن المساحات الشاسعة – من ارض العدو – التي لم تحتل بعد. كانت معركه (اوسترلتز) عام ١٨٠٥ حاسمة. فاحتلال العاصمة فينا وثلثي الاراضي النمساوية ما كانا كافيان لفرض السلام. ومن الناحية الاخرى فان حقيقة بقاء (هنغاريا) سالمة لم يمنع التوصل الى الصلح. لقد كانت الضربة الاخيرة والقاصمة هي دحر الجيش الروسي؛ فلم يكن تحت يد القيصر اي جيش آخر قريب وكان نصر كهذا سيؤدي الى السلام حتماً. اما لو كان الجيش الروسي مع الجيش النمساوي عند الدانوب عام ١٨٠٥ واندحر معه فلم تكن انذاك من حاجة ابداً لاحتلال فينا، وكان يمكن يومها فرض الصلح في (لنز[1] Linz)، وقياساً على ذلك فقد لا يكفي احياناً احتلال بلد بكامله. تقدم لنا بروسيا عام ١٨٠٧ مثالاً على ذلك. عندما كانت

---

(١). لنز بلدة نمساوية غرب فينا وجنوب غرب اوسترلتز ولم يوضح المؤلف علاقتها بمعركة اوسترلتز التي تعتبر احدى اروع انتصارات بونابرت كما تعد معركة تعبوية نموذجية يضعها النقاد بمصاف معارك أرابيلا (اربيل) و(كاني) و (الوثيرن) راجع الهامش ص ٢٢٩. اما عن حملة فريد لاند فراجع الهامش في الفصل الخامس الكتاب الثاني ص (٢٢٨).

الضربه الموجهة نحو حليف روسيا في النصر غير المؤكد في (أيلو Eylau) غير كافية ولا حاسمة، كان لا بد من انتصار «فريدلاند» لانجاز ما حققته اوسترلتز قبل عام.

تؤكد لنا تلك الاحداث ان النجاح ليس سهلاً في القضايا الكبرى. وغالباً ما تكون بعض العوامل حاسمة - ولا تعرف تفاصيل ذلك الا لمن كانوا هناك. كما قد توجد بعض العوامل المعنوية التي لا تظهر الى السطح، في الوقت الذي تحسم فيه الامور بفعل الصدفة وبفعل احداث عارضة وصغيرة الى الحد الذي لا ترد فيه في التواريخ سوى كحكايات ونوادر.

ما بوسع المفكر ان يقوله هنا هو: على المرء ان يتذكر على الدوام السمات الهامة والحاكمه لدى الطرفين المتحاربين. فمن هذه السمات سيتشكل مركز للثقل، وبالتأكيد سيكون محوراً لكل القوى والتحركات، التي يعتمد كل شيء أخر عليه. كما انه الشيء الذي يجب ان توجه وتتركز كل طاقاتنا نحوه.

تعتمد الامور الصغيرة على الامور الكبيره دائماً، والغير مهم على المهم، والعارض على الاساسي. وذلك ما يجب ان يقود بحثنا ومسارنا.

لقد كانت جيوش الاسكندر المقدوني، وغوستاف ادولف، وشارل الثاني عشر وفردريك الكبير هي مراكز الثقل. ولو اندحر هذا الجيش لفقد احدهم شهرته ومكانته في التاريخ. اما في البلدان المعرضة للنزاعات الداخلية، فالعاصمة هي مركز الثقل عادة. اما في البلدان الصغيرة التي تعتمد على تحالفاتها مع دول اكبر، فمركز الثقل هو جيش الدولة الاكبر الحامية. اما في الدول المتحالفة فهو مصالح المجموعة، وفي البلدان الثورية فهو شخصيات القادة والرأي العام. وضد مراكز الثقل هذه يجب ان توجه قدراتنا. واذا امكن افقاد العدو توازنه فيجب ان لا يعطى الوقت الكافي لاستعادته. ولا بد من توجيه الضربات المتتالية بنفس الاتجاه، وعلى المنتصر من الناحية الاخرى، ان يضرب بكل قوته ولكن ليس ضد جزء من العدو. ودون اخذ الامور ببساطة - اي باستخدام قوة متفوقة لاحتلال بعض مناطق العدو، مفضلاً - ومضيعاً الوقت والجهد - تأمين ما تم احتلاله على الانتصارات الكبرى - لكن بالبحث الدؤوب عن مركز ثقل العدو (قوته)، وبالجرأة التامة للفوز بكل شيء، **فهل يحقق المرء دمار عدوه.**

مع ذلك، وبغض النظر عن السمات المركزية لقوة العدو - وهي ما يجب ان تتركز جهودنا نحوها - فان تدمير واندحار قواته المقاتلة تظل الطريقة الافضل

للأبتداء بها، وهي وفي كل الحالات السمة الهامة والكبرى للحملة.

مستندين في ارائنا وتعليقاتنا على التجارب والخبرات العامة، فالاعمال التي نعدها الاكثر اهمية لدحر العدو هي:

١ . تدمير جيشه، ان كان هذا الجيش بحجم كبير.

٢ . احتلال عاصمته ان لم تكن المركز الرئيسي والوحيد للادارة (الحكومة) فقط، ولكنها ايضاً مركزاً مهماً للأنشطة الاجتماعية والثقافية والسياسية.

٣ . شن ضربة مؤثرة ضد حليفه الرئيسي ان كان هذا الحليف اقوى من العدو بكثير.

لقد واصلنا الافتراض حتى الان – وكما هو مباح لنا عادة – على ان العدو قوة منفردة. لكن وبعد ان اعتبرنا ان دحر العدو يتضمن قهر المقاومة المتركزة في مركز ثقل العدو، فعلينا استبعاد هذا الافتراض وتفحص الحال او الموقف عند وجود اكثر من عدو لدحره.

اذا تحالفت دولتان او اكثر ضد اخرى، فسيظل الامر من الناحية السياسية حرب منفردة. الا ان هذه الوحدة السياسية على درجات. والامر هنا ما اذا كانت كل دوله تسعى وراء مصالح مستقلة مع امتلاكها لوسائلها الخاصة لتحقيقها، أو ما اذا كانت مصالح وقوى معظم الحلفاء تابعة ومرؤوسة لقائد التحالف. وكلما اقتربت القضية من هذه الصيغة كلما سهل علينا اعتبار كل خصومنا كمجموعة واحدة، لذلك سيكون من الاسهل علينا حشد كل مواردنا الرئيسية في ضربة كبيرة واحدة. فان كان كل ذلك ممكناً فسيكون الوسيلة الاقوى والاشد تأثيراً للأنتصار.

لذلك، اود ان اضع وكمبدأ، انك ان استطعت قهر كل اعداءك بدحر واحد منهم يجب ان يكون هذا الدحر هو الهدف الكبير للحرب. وبهذا نوجه ضربتنا للعدو الذي في مركز ثقل الصراع كله.

هناك عدد قليل جداً من الحالات التي لم يطبق فيها هذا المفهوم – حيث لم يكن من المعقول او الممكن اختزال عدة مراكز ثقل في واحد. وحيث يتعذر ذلك، نقر عندها أن البديل الوحيد هو العمل وكأن هناك حربين او حتى اكثر، كل منها بموضوعها وهدفها. ويفترض هذا تواجد عدة خصوم مستقلين، وبالتالي امتلاكهم لتفوق كبير. وفي حالة كهذه يتعذر بطبيعة الحال دحر العدو.

يتوجب علينا الان التركيز وبكل دقة على السؤال التالي: متى يكون هدف كهذا ممكنا ومجدياً؟

وابتداء لا بد ان تكون قواتنا كافية:

١ . وصولاً الى انتصار حاسم على العدو.

٢ . بذل الجهد الضروري لمتابعة انتصارنا (لاستثماره) الى نقطة يغدو بعدها التوازن خارج امكانية اي تصحيح.

بعد ذلك، علينا التأكد من سلامة موقفنا السياسي وأن انتصارنا هذا سوف لن يجلب ضدنا مزيداً من الاعداء القادرين على اجبارنا على ايقاف او الغاء الجهد ضد عدونا الاول فوراً.

كانت فرنسا قادرة على تدمير بروسيا عام ١٨٠٦، رغم انها دفعت بذلك بروسيا الى دخول الحرب ضدها (فرنسا) بكل قوتها، نظراً لقدرة فرنسا على الدفاع ضد روسيا على الاراضي البروسية. وكان بوسعها فعل الشيء نفسه عام ١٨٠٨ في اسبانيا ضد انكلترة، الا انها لم تستطع فعل ذلك فيما يتعلق بالنمسا. حوالي عام ١٨٠٩ كان على فرنسا تقليص قوتها في اسبانيا كثيراً، بل وربما التخلي عن اسبانيا كلياً لو لم تكن تتمتع بميزة مادية ومعنوية على النمسا.

تلك ثلاثة امثلة جديرة بدراسة عميقة. ويمكن للمرء ان يربح دعوى (قضائية) بقرار اولي، الا انه يخسرها في الاستئناف ثم ينتهي بان عليه دفع الثمن كذلك.

عندما يتم حساب قوة وقدرات القوات المسلحة، يستحق الوقت ان يعتبر كاحد العوامل في القوة النهائية (المحصلة النهائية) كما في الميكانيك. ويفترض في النتيجة ان نصف الجهد، أو نصف القوة الكلية يمكن ان ينجز الامر في سنتين على الاكثر بينما الكل يمكن ان يحقق ذلك في عام واحد. وهذا الافتراض الذي يكمن بوضوح احيانا، وضمنياً في احيان اخرى في اساس التخطيط العسكري افتراض زائف كلياً.

تستغرق العملية العسكرية وككل شيء آخر في الحياة وقتاً. وليس بوسع اي كان السير من فيلنا الى موسكو في اسبوع، لكن ما من اثر هنا للعلاقة المشتركة ما بين الوقت والطاقة وكالذي قد نجده في الميكانيك.

يحتاج كلا الطرفين للوقت، والامر هنا فقط، في اي من الطرفين يتوقع الحصول على **فائدة خاصة** من الوقت وعلى ضوء موقفه الخاص واذا كان كل طرف قد اهتم بموضعه بدقة وعناية فسيكون الجواب وبوضوح انه الطرف الاضعف الذي سيفيد من الوقت – وشكراً لقوانين علم النفس لا لقوانين الداينميك. الحسد، والغيرة، والقلق، واحيانا ربما حتى الكرم والتي تشكل المدافع الطبيعي عن الفشل. انها ستربح له اصدقاء جدد كما تضعف وتفرق ما بين اعداءه. لذا ليس من المحتمل كثيراً ان يوفر الوقت أية افضلية للمنتصر واكثر مما للخاسر. هناك بعد نقطة اخرى لا بد من تذكرها. فكما قد اوضحنا في مكان اخر، فان استثمار النجاح الاولي يحتاج الى مجهود كبير. وليس المطلوب القيام بهذا الجهد فقط بل وادامته، كالجهد والمال المبذولان في ادامة القصور الكبيرة. يمكن بطبيعة الحال ان يوفر احتلال بعض مناطق العدو اموالاً اضافية، الا انها قد لا تكون كافية لتغطية الانفاق الاضافي. فان لم تكن كافية فستزداد الاعباء تدريجياً مما قد يؤدي في النهاية الى نضوب الموارد. وهكذا يكون الوقت قد حان لاحداث تغيير ما دون مساعدة.

هل كانت الاموال والموارد التي استولى عليها نابليون في روسيا وبولندا عام ١٨١٢ كافية لسد احتياجات رجال بحدود (١٠٠) الف كان بحاجة اليهم في موسكو للمحافظة على وضعه هناك؟

لكن اذا كانت المنطقه المحتلة مهمة بما يكفي، وان كانت بعض الاقسام الحيوية فيها ما زالت في يد العدو، فان الضرر سينتشر وبنفسه كالسرطان، فان اقتصر الامر على ذلك ولم يحدث اي شيء أخر فسيحظى المحتل بميزة صافية. والوقت وحده كفيل عندها باكمال المطلوب، شريطة عدم وصول نجدات خارجية، وينتهي الحال بالاجزاء غير المحتلة بالسقوط دون المزيد من الجهد[1]. وهكذا يمكن ان يغدو الوقت من عوامل قوة المحتل كذلك، ولكن شرط تعذر شن هجوم مقابل ضده، كما لم يعد التحول المعاكس ممكنا – مع ان هذا العامل لم يعد ذو اهمية حقاً نظراً لان المحتل قد حقق هدفه الرئيسي، فذروة الازمة قد مرت، والخلاصة فان العدو قد استسلم.

لقد رتبت سلسلة المناقشة والحجج هذه لاظهار تعذر تنفيذ اي احتلال بسرعة كبيرة، **وان مده على مرحلة اطول** من الحد الادنى المطلوب لاتمامه لا يجعله **اقل**

---

(١). اليس هذا هو النهج الصهيوني (الكلاوزفيتزي) منذ مطلع القرن العشرين وحتى الان – المترجم

صعوبة، بل اكثر. فان هذا التأكيد صحيح ويليه وبنفس الدرجة امر آخر مفاده ان كانت قوة طرف ما كبيرة عموماً لما يكفي للقيام بعملية احتلال مؤكدة فعلى ذلك الطرف امتلاك القوة الكافية للقيام بذلك بعملية واحدة وليس على مراحل. ولا نعني بـ «المراحل» بطبيعة الحال استبعاد الوقفات القصيرة المطلوبة لاعادة تحشد قواته او لاسباب ادارية.

نأمل ايضاح وجهة نظرنا في ان التعرض يحتاج وقبل كل شيء السرعة والقرار الحازم الذي لا يقاوم. فان كان الامر كذلك، نكون عندها قد فندنا **الفكرة البديل** في ان الاحتلال البطيء والمنهجي كما يدعى اكثر امانا وحكمة من الاحتلال بتقدم متواصل. ومع ذلك، فحتى الذين ساروا معنا حتى الان قد يجدوا بعض التناقض في وجهة نظرنا، في تناقض الانطباع الاول، وتناقض في وجهات النظر التي انغرست عميقاً كميول واهواء قديمه وتظهر واضحة في الكتابات والبحوث. وكل ذلك مما يغرينا بتفحص هذه الموضوعات المطروحة بشيء من التفصيل.

الوصول الى الاشياء القريبة أسهل بطبيعة الحال من الاشياء البعيدة. اما ان كانت الاولى لا تتلائم وغاياتنا، فان توقف، او تعطيل الانشطة، لا يجعل النصف الثاني من رحلتنا سهل الانجاز بالضرورة. والقفزة القصيرة اسهل من الطويلة، الا ان احداً من الناس لا يسعده ان يجعل قفزته عبر فجوة كبيرة لنصف مسافة الفجوة فقط.

ولو تفحصنا الافكار التي تجمل مفهوم ما يعرف بالعملية الهجومية المنهجية فسنجد عادة ما يلي:

١ . احتلال قلاع العدو التي في طريقك.

٢ . جمع (تكديس) ما تحتاجه من مدخرات.

٣ . حصن النقاط المهمة كالمستودعات والجسور والمواضع وغيرها.

٤ . ارح قطعاتك في المعسكرات الشتوية او معسكرات الراحة.

٥ . انتظر تعزيزات العام القادم.

اذا اوقفت هجوماً ما كليةً، وامتنعت عن اية تحركات الى الامام من اجل مراعاة كلما في اعلاه، مدعيا ارساء قاعدة جديدة، كما تريح وتنعش قوتك نظرياً

وكما لو ان بلادك كلها خلفك بامان، ويتجدد نشاط جيشك مع كل حملة.

تلك غايات مرغوبة كلها، وما من شك في انها قادرة على جعل التعرض اكثر سهولة، الا انها اعجز من ان تجعل نتائجه مؤكدة. انها تغطي وتظلل على ظنون وهواجس القائد من جهة وعلى تردد الحكومة من جهة اخرى. وسنحاول الان تفنيدها واسقاطها باحاطة من الجناح الايسر.

١ . لانتظار التعزيزات نفس الفوائد للطرف الاخر - ان لم تكن اكبر برأينا. بالاضافة الى ذلك، فبوسع بلد ما أن يوفر وفي عام واحد من القطعات عدداً مساوياً لما يوفره في عامين، لأن الزيادة المنتظرة في العام الثاني قليلة جداً قياساً بالحجم الكلي للقوات.

٢ . سيريح العدو قطعاته في الوقت الذي نريح فيه قواتنا.

٣ . ليس تحصين المدن والمواضع من عمل الجيوش لذلك لا تشكل عذراً لتعليق العمليات.

٤ . آخذين طريقة تموين الجيوش اليوم بنظر الاعتبار، نرى انها في حاجة الى المستودعات اثناء توقفها اكثر مما في حالة الحركة. وطالما استمر التقدم بطريقة صحيحة وجيدة فسيقع الكثير من تموين العدو في ايدينا للتعويض عن اي نقص في المستودعات المحلية.

٥ . لا يستوجب تقليل عدد قلاع العدو ايقاف التعرض بل ان ذلك يعني تعزيز التقدم، ومع انه قد يسبب تقطعاً واضحاً في العمليات الا ان ذلك لا يتفق وما يهمنا هنا؛ فهو لا يتضمن او يزيد في تعليق او تقليص الجهد. الظروف وحدها هي التي ستقرر ما اذا كان المسلك الافضل هو الحصار الاعتيادي، او مجرد تطويق القلعة، او الاقتصار على مراقبة مجموعة قلاع. وبوسعنا هنا الركون الى رد عام في ان الاجابة على هذا السؤال ستتحول الى اجابة عن سؤال آخر، وهو بالذات اذا ما كان من الخطورة بمكان مواصلة الضغط او ترك قوة كافية خلفنا لمجرد تطويق القلعة. اما ان كان الامر غير ذلك، وما زلت تمتلك بعد فسحة لنشر قوتك، فالمسلك الافضل ان تؤخر فرض الحصار النظامي الى ما بعد اكمال العمل التعرضي. لذلك فمن المهم التخلي عن فكرة وتوفير الحماية لكل شيء احتلته قواتك بسرعة، خوفاً من احتمال نسيانك لشيء بالغ الاهمية.

ونقر بان المزيد من تقدم كهذا وكما يبدو سيعرض كل ما تحقق من فوائد حتى الان الى شيء من الفوضى والتلف.

لذلك نعتقد ان اي نوع من العرقلة ، والتوقف، أو تعليق الانشطة لا ينسجم وطبيعة الحرب الهجومية. وعند صعوبة تجنبها ، يجب اعتبارها كشر لا بد منه، يجعل النجاح لا اكثر بل أقل ضمانة. ولو اردنا التزام الحقيقه فعلاً، فعندما يضطرنا ضعفنا للتوقف، فالاندفاع ثانية نحو الهدف سيغدو مستحيلاً، اما اذا تمكنا من القيام بذلك، فهذا سيؤكد لنا تماماً ان لم تكن هناك من ضرورة للتوقف اساساً. فالهدف الذي يعد خارج او اكبر من قدرات المرء ابتداءً ، سيظل كذلك دائماً.

هكذا يبدو لنا الامر عموماً. وشد الانتباه اليه ناجم من رغبتنا فقط ببيان ان الفكرة بذاتها ممكنة بالنسبة للمهاجم في حينه. الا ان الموقف السياسي يتبدل من عام لآخر، وعلى هذا الاساس وحده ستكون هناك حالات ومواقف لا يمكن تطبيق هذه التعميمات فيها.

ربما نكون قد نسينا فكرتنا الاساسية وتوسعنا في بحث الحرب الهجومية فقط، الا أن الامر ليس كذلك. فمن المؤكد ان الطرف القادر على تحقيق غاية كبرى كالتدمير الكامل للعدو، نادراً ما يضطر للجوء الى الدفاع، وغايته الاولى هي الاحتفاظ بما تم تحقيقه. الا ان علينا الاصرار على ان الدفاع ودون هدف ايجابي يعد تناقض ذاتي، تعبوياً واستراتيجياً، فعلينا بالتالي ان نكرر ان على المدافع وضمن تحديدات قوته ان يسعى دائماً للتحول نحو الهجوم وحال تحقيقه كل ما للدفاع من فوائد. لذلك فلا بد أن تكون احدى غايات هجوم كهذا، والتي يجب ان تعتبر الغاية الحقيقية للدفاع، ومهما كانت كبيرة او صغيرة، هي غاية تدمير العدو. هناك مواقف يفضل فيها القائد ان يبدأ بالدفاع رغم انه يضع نصب عينيه ذلك الهدف الكبير. وهذا ليس مجرد قول او تجريد اكدته لنا حملة ١٨١٢. فعندما بدأ قيصر روسيا الاكسندر استعداداته للحرب لم يكن حتى ليحلم بدحر عدوه كلياً – كما فعل في النهاية تماماً. لكن هل كانت الفكرة مجرد وهم او سخافة؟ ثم اليس من الطبيعي جداً وفي كل الاحوال ان تلجأ روسيا الى الدفاع في مستهل اية حرب؟.

الفصل الخامس
تحديد دقيق للهدف العسكري – تتمة
الغايات المحدودة

لقد حددنا في الفصل السابق تدمير العدو مفترضين انه وبعد كل شيء ممكن، وكي لا نعدو الحقيقة فهو الغاية الرئيسية للفعاليات العسكرية. ونقترح الان النظر فيما يمكن عمله اذا حالت الظروف دون ذلك.

تفترض الشروط الضرورية لتدمير العدو توفر تفوق مادي او معنوي مسبقاً، او على الاقل توفر روح الاصرار الطاغي، وتجاهل أو لامبالاة باية مخاطر جدية. وان تعذر توفر اي من تلك المستلزمات، فستكون غاية العمل العسكري واحدة من اثنتين، اما احتلال جزء صغير او كبير من ارض العدو، او الاحتفاظ بما لدينا لحين تحول الامور نحو الاحسن، والثاني عادة هو غاية الحرب الدفاعية.

عند البحث عن المسلك الاصح، من الافضل تذكر العبارة التي استخدمت في المسلك الثاني وهي **الانتظار حتى تحول الامور نحو الاحسن**، والذي يفترض توفر اساس لتوقع حدوث ذلك. وتلك دلالة تجمل لنا حرب «الانتظار» – اي الحرب الدفاعية – اما الحرب الهجومية – اي استغلال الفوائد الانية – فمرغوبة طالما كان المستقبل سيوفر مواقفاً افضل للعدو مما لنا. أما الامكانية الثالثة، ولعلها الاكثر في العادة، فتظهر عندما لا يعد المستقبل أياً من الطرفين بشيء محدد وبالتالي فما من اساس لقرار حاسم، ومن الواضح في حالة كهذه، ان يتخذ الطرف الذي يتمتع بالمبادأة السياسية موقف المهاجم – اي الطرف صاحب الغاية الايجابية، الغاية التي دفعته للجوء الى الحرب. فاذا اضاع اي وقت دون سبب معقول، فسيتحمل البادىء الخسارة.

القواعد التي حددناها لاختيار الهجوم او الدفاع لا علاقة لها بالقوة النسبية للطرفين، مع ان بوسع المرء الافتراض ان ذلك سيكون الاعتبار الرئيسي. لكننا نعتقد، ان كان الامر كذلك فسينتج عنه قرار خاطىء. وليس بوسع احد القول بان اساس حجتنا ضعيف، ولكن هل سيقود ذلك في التجربة العملية الى استنتاج اخرق؟

لنفترض ان دولة صغيرة في صراع مع دولة اكثر قوة، وتتوقع ان يسوء موقفها عاماً بعد آخر. فاذا كانت الحرب واقعة لا محالة، اليس عليها ان تستغل الفرصة على افضل صورة ممكنة قبل ان يسوء موقفها اكثر؟ والخلاصة، ينبغي عليها ان تهاجم، ولكن ليس لان الهجوم بذاته مفيد (فهو وعلى العكس سيزيد التفاوت في القوة)، بل لان من مصلحة الطرف الاصغر اما تسوية النزاع قبل تردي الموقف، او على الاقل تحقيق بعض الفوائد لاجل مواصلة الجهد. ليس بوسع احد القول ان هذه مناقشة هزيلة. لكن اذا كانت الدول الاصغر على ثقه تامة من ان العدو سيهاجم فبوسعها، وعليها اتخاذ الدفاع، كي تحضى بالفائدة الاولى. وسوف لن تتعرض لاي مكروه لو فعلت ذلك بسبب مرور الوقت.

لنفترض مرة اخرى اشتباك قوة صغيرة في حرب مع قوة اكبر، وأن المستقبل لا يعد اياً من الطرفين بشيء ما قد يؤثر على قراريهما. فان كانت المبادأة السياسية مع القوة الاصغر، فعليها القيام بالهجوم العسكري. اما ان كانت بوضع وقوة اعصاب لبدء عمل ايجابي ضد خصم اكبر، فعليها القيام بشيء محدد - بكلمة اخرى مهاجمة العدو ما لم يفاجئها هذا ببدء الهجوم اولاً. ولن يكون للأنتظار معنى ما لم تكن الدولة الاصغر قد غيرت قرارها السياسي ساعة تنفيذها لسياستها. وهذا ما يحدث غالباً، كما يفسر جزئياً سبب حيرة الباحث امام طبيعة ومواصفات بعض الحروب الخالية من العزم والشدة.

تفترض مناقشتنا للغاية المحدودة امكانية وجود نوعين من الحرب المحدودة هما؛ الحرب الهجوميه مع غاية محدودة، واخرى دفاعية. ونقترح مناقشة كل منهما في فصل خاص. الا ان هناك نقطه اخرى لا بد من بحثها اولاً.

لقد عالجنا حتى الان امكانية تطوير الهدف العسكري كامر ينجم عن اسباب ومراجعات داخلية، كما اقتصرنا في بحث طبيعة الغاية السياسية فقط الى حد تضمن هذه الغاية لمحتوى فعال أولا. ومن وجهة نظر الحرب نفسها، فما من قاسم مشترك سياسي آخر ومناسب نهائياً. ومع ذلك وكما اوضحنا في الفصل الثاني من الكتاب الاول (الغاية والوسيلة في الحرب) فان طبيعة الغاية السياسية، ونطاق المتطلبات التي توضع مقدماً من أي من الطرفين، والموقف السياسي الكلي للطرف نفسه، فهي كلها عوامل لا بد وأن تؤثر في التجربه، وبشكل حاسم على ادارة الحرب. لذلك ننوي ايلائها انتباهاً خاصاً في الفصل القادم.

الفصل السادس

أ . تأثير الغاية السياسية على الهدف العسكري

قد يدعم بلد ما قضية بلد آخر، الا انه لن يأخذ ذلك جدياً كأن يجعلها قضيته هو. وقد يرسل قوة بحجم معقول لاسناد تلك القضية؛ لكن ان تردى الموقف فقد تنتهي العملية كلياً، وقد يحاول ذلك البلد التراجع باقل تكلفة ممكنة.

من الامور التقليدية في سياسات الدول الاوربية التوصل الى احلاف هجومية ودفاعية للأسناد المتبادل – ولكن ليس بدرجة التقارب الوثيق جداً أو الافتراق حد العداء. وبغض النظر عن اغراض الحرب او نطاق جهد العدو، فهي تلزم الجميع ومقدماً بان يسهموا بحجم محدد ومعتدل عادة من القوات. والبلد الذي يعقد حلفاً كهذا لا يعتبر نفسه في حالة حرب فعلاً مع اي كان، لان ذلك يتطلب **اعلاناً** رسمياً للحرب، والى معاهدة للصلح لانهائها. وحتى امر كهذا لم يتم ترتيبه بوضوح ابداً، والتجارب بهذا الخصوص متعددة ومتنوعة.

سيكون من الملح، والاقل صعوبة من الناحية النظرية، لوكانت القوة الموعودة – عشرة، او عشرين، او ثلاثين الف رجل – وضعت تحت تصرف الحليف كلياً، وان يكون هذا حراً باستخدامها حيث يشاء. ستكون حينئذ كقوة معارة فعلياً. الا ان ذلك بعيداً جداً عما يحدث فعلاً. فالقوة الاضافية هذه تعمل عادة بامرة قائدها، الذي يستلم اوامره من حكومته، والهدف الذي تضعه هذه عادة، غامض كما هي غاياتها من العملية ككل.

لكن وحتى عندما تكون الدولتان جادتان في موضوع الحرب ضد دولة ثالثة، فهما لا تقولان باستمرار «يجب ان نعامل هذا البلد كعدو وحيد واكيد وتدميره، والا دمرنا انفسنا». فالواقع بعيد عن ذلك، فغالبا ما لا يعدو الامر عن صفقة تجارية. وعلى ضوء المكاسب التي يتوقعها، والارباح التي يأمل بتحقيقها، سيستثمر كل طرف حوالي (٣٠ – ٤٠) الف رجل، ويتصرف بعدها وكأن ذلك هو كل ما يقبل خسارته.

وليس هذا التوجه خاص بالقضية التي تقدم فيها دولة ما الدعم لدولة اخرى في قضية ليست كبيرة ولا حاسمة لها. وحتى لو اشتركت الدولتان في مصالح كبيرة، سيغلف العمل عادة بتحفظات دبلوماسية، وكقاعدة فالمفاوضات لا تتضمن عادة الا احتمالات محدودة، وبهذه الطريقة يمكن الاحتفاظ بالباقي تحت اليد في محاولة لتحقيق أية نتيجة قد تتقرر على ضوء تحول سياسة الدولة.

تلك هي الطريقة العامة في عمل التحالفات. وفي العصر الحديث فقط ظهرت المخاطر الكبرى بفعل اسلوب بونابرت، أو بفعل قوته المندفعة دون حدود، والتي اجبرت الشعب على التصرف بطريقة طبيعية. بعد ان كانت الطريقة القديمة مزيجاً متساوياً (نص ونص)، لقد كانت خروجاً على القاعدة، طالما ان الحرب والسلام لا يقران في الاساس اي تدرج او تداخل. ومع ذلك فليست الطريقة القديمة اكثر من مجرد صياغات دبلوماسية عفى عليها الزمن وبوسع المنطق تجاهلها الا أن التجارب والممارسات تتجذر عميقاً في اخفاقات الجنس البشري وسهولة انقياده نحو ما لا يفيد.

واخيراً، فان هناك حروباً جرت دون تحالفات، ومع ذلك فقد لعبت الاعتبارات السياسية دوراً كبيراً ومؤثراً في ادارتها.

لنفترض ان دولة ما لا تريد الا اقتطاع جزء صغير من ارض العدو، او مجرد تنازل بسيط، فستخوض تلك الدولة الحرب حتى تحصل على **تعويض مناسب** Quid pro quo ، ولا بد ان جهداً متواضعاً سيكون كافياً لذلك. وما من شك في ان افكار ومبررات العدو ستكون متشابهة وبنفس الاتجاه. لكن لنفترض أن هذا الطرف او ذاك قد اخطأ الحساب، وانه لم يكن أقوى قليلاً من عدوه كما كان يعتقد، بل اضعف. فالاموال والموارد الاخرى تنضب سريعاً كما ان معنويات القطعات ليست بقدر كاف ومناسب للجهد الكبير المطلوب. وفي حالة مثل هذه فانه يفعل افضل ما بوسعه، كما يأمل ان تنتهي الامور على افضل ما يرام رغم ان امله هذا دون اساس. وتمضي الحرب خلال ذلك، في طريقها ببطيء ثقيل كالرجل المتعب الجائع.

وهكذا يتفاعل، الجهد لقهر العدو، ومسار الحرب المليء بالعنف والاكراه، مع كل الترقب والامل في حافز قوي. ولا يقدم اي من الطرفين اكثر من الحد الادنى

من التحركات، كما لا يشعر اياً منهما بانه مهدد بدرجة خطيرة.

وحال القبول بهذا التأثير الذي للهدف السياسي على الحرب، وهذا ما يجب فعلاً، ولا مجال لايقافه بعد، وعلى ذلك، فلا بد ان نكون راغبين بشن حروب صغيرة كهذه، والتي **تقتصر فقط على تهديد العدو، مع الاحتفاظ بالمفاوضات لما بعد.**

يفرض كل ذلك مشكلة واضحة على أية نظرية للحرب تتوخى العلمية والوضوح. كما يبدو ان كل ما كان ثابتاً وواضحاً من**الامرية** والسطوة في مفهوم الحرب، يبدو وكأنه يتفكك، وتهتز اسسه. ولكن سرعان ما سيبرز الحل. فحالما يبدأ عامل التغيير سيطرته على العمليات العسكرية، او بالاحرى حالما يتضاءل تأثير عناصر الاثارة، يتحول العنصر الفعال الى السلبية تدريجياً. ويتناقص حدوثه شيئاً فشيئاً، وما من حاجة لمبادىء محددة لتوجيه ذلك. كما يتحول فن الحرب الى هرطقة ثقيلة، ويتركز كل اهتمامه على عدم تحول الميزان الدقيق للقوى وبشكل مفاجىء لصالح العدو، وان لا تتحول هذه الحرب الفاترة الى حرب حقيقية بعد كل شيء.

ب . الحرب هي اداة للسياسة

لقد تمعنا حتى الان في الاختلاف الذي يميز الحرب عن كل الاهتمامات البشرية الاخرى، فردية او اجتماعية – اختلاف ناجم من الطبيعة البشرية، ولذلك ما من فلسفة للحل. لقد تفحصنا هذا التضارب من زوايا متعددة كي لا نغفل اياً من عناصره المتصارعة. ويتوجب علينا الان ان نبحث عن الوحدة التي تمتزج فيها كل هذه العناصر المتعارضة في الحياة الحقيقية، والتي نتوصل اليها بشل او تعطيل احدها للأخر جزئياً. ولربما كان علينا ان نبدأ بتلك الوحدة، لو لم يكن من الضروري التأكيد على التناقضات بكل وضوح ممكن، وللتمعن بمختلف العناصر كل على حدة. تكمن تلك الوحدة في مفهوم أن **الحرب فرع من النشاط السياسي، وانها ليست مستقلة على اية حال من الاحوال.**

من المعروف تماماً بطبيعة الحال ان المصدر الوحيد للحرب هو السياسة – تعامل وعلاقات الحكومات والشعوب، الا ان ذلك لا يصل حد الافتراض بان الحرب تعلق تلك العلاقات وتستبدلها بظروف مختلفة كلياً، لا يتحكم بها سوى قانونها الخاص.

نحن نؤكد وعلى العكس ان الحرب وببساطة استمرار للعلاقات السياسية، بالاضافة الى وسائل اخرى. لقد تعمدت استخدام عبارة «بالاضافة الى وسائل اخرى» لرغبتنا ان نوضح ان الحرب بذاتها لا تعلق العلاقات السياسية، أو تغيرها الى شيء مختلف كلياً. والشيء الاساس هو استمرار تلك العلاقات، بغض النظر عن الوسائل التي تستخدمها. والخطوط الرئيسية التي تسلكها الاحداث العسكرية، والخطوط التي تتحدد بها تلك الاحداث، هي الخطوط السياسية التي تتواصل طوال الحرب والى السلام الذي يليها. وكيف يمكن ان تكون غير ذلك؟ فهل تتوقف العلاقات السياسية بين الشعوب وبين حكوماتها عندما يتوقف تبادل المذكرات الدبلوماسية؟ اليست الحرب طريقة اخرى بالضبط للتعبير عن افكارهم، وشكل آخر من اشكال الكلام أو الكتابة؟ قد تكون لها قواعد خاصة بها حقاً، لكنها لا تملك منطقا خاصاً.

فان كان الامر كذلك فليس بوسع الحرب الافتراق عن الحياة السياسية، ومتى ما حدث ذلك في تفكيرنا حول الحرب، فستتلف كافة العناصر التي تربط بين الاثنتين وسوف لن يتبقى لنا سوى شيء لا قيمة له وخال من اي معنى.

سيكون من الصعب جداً تجنب او تجاوز هذه المفهوم حتى لو كانت الحرب حرباً شاملة (Total) ، اي انطلاق قوة العداء الصرف دون قيود. أليست كل العوامل التي ستُكونّ الحرب وتحدد سماتها البارزة – القوة والحلفاء لكل طرف، وطبيعة الشعب وحكومته، وغير ذلك، من العوامل التي دونت في الفصل الاول من الكتاب الاول – اليست كلها سياسية، وشديدة الصلة بالانشطة السياسية واللتان يستحيل فصلهما؟ ومع ذلك ما زال من المهم جداً تذكر كل ذلك عند دراسة تجربة حقيقية. وسنجد ان الحرب لا تندفع بعنف وقسوة نحو المطلق، وكما تريد النظرية. فما دامت لم تكتمل بعد ومتناقضة ذاتياً فهي لن تستطيع اتباع قوانينها الخاصة، بل لا بد من التعامل معها كجزء من كل اكبر، هو السياسة.

وباستخدام الحرب، تتجنب السياسة كل الاستنتاجات الصارمة المنبثقة من طبيعة الحرب، ولا تهتم الا قليلاً بالاحتمالات النهائية، وتقصر اهتمامها فقط على الامكانيات الفورية. ورغم ان ذلك سيزيد كثيراً من عدم التأكد في العمل ككل، وتحويله الى نوع من اللعب، وكل حكومة على ثقة من قدرتها على التغلب على عدوها في المهارة والفطنة.

وهكذا فالسياسة تحول العنصر التدميري الساحق للحرب الى مجرد آلة. فالسيف المرهف ذو الحدين والذي ينبغي استخدامه بكل ما يتوفر من قوة لضربة واحدة، اصبح مجرد مغول Rapier [1] دقيق للغاية – بل ولعله احيانا مجرد نصل هش غير مؤذ مما يصلح للطعنات الكاذبة ولتفادي الضربات.

واذا كان ذلك هو الحل الذي نختار، فستحل التناقضات التي تواجهها الحرب ولن تزيد على ما بوسع حتى الرجال الجبناء وقليلي العزم ملافاتها.

اذا كانت الحرب جزء من السياسة، فستقرر هذه طبيعة الحرب. وكلما تزايد نشاط وطموح السياسة، كانت الحرب كذلك ايضاً، وبهذه الطريقة يمكن أن تصل الحرب الى النقطة التي تأخذ فيها شكلها المطلق. واذا نظرنا الى الحرب من هذه الزاوية، فلسنا بحاجة الى تناسي او تجاهل هذا المطلق، بل وعلى العكس علينا ان نضعه في حسباننا على الدوام.

---

(١) المغول (Rapier) نصل دقيق للغاية مما يستخدم في المبارزة ومنه ايضاً النصل الهش غير المؤذي (Foil) . قاموس المورد. المترجم

عند النظر الى الحرب بهذه الطريقة فقط تعود وحدتها الى الظهور، وعند ذلك فقط نستطيع ان نرى كل الحروب انذاك كشيء من طبيعة واحدة، وهذا وحده سيوفر لنا المقياس الصحيح لتصور المشروعات الكبرى والحكم عليها.

لن تمد السياسة تأثيرها بطبيعة الحال الى تفاصيل العمليات، ولا تقرر الاعتبارات السياسية، مواضع الحراسة او استخدام الدوريات. الا انها اكثر تأثيراً في تخطيط الحرب، والحملات، وغالباً ما يمتد ذلك الى المعركة.

لذلك لم نشعر بالحاجة الى تقديم وجهة النظر هذه منذ البداية. فقد لا تساعدنا في مرحلة الدراسة المفصلة كثيراً بل انها قد تربكنا وتظللنا. اما عند دراسة الخطط لحملة او لحرب فلا يمكن الاستغناء عن وجهة النظر تلك.

ليس من شيء اكثر اهمية في الحياة من العثور على قاعدة او نقطة ارتكاز لرؤية الاشياء والحكم عليها ومن ثم الالتصاق بها. نقطة واحدة بعد ومن ثم يحصل المرء على رأي متكامل للظاهرة. بوسع المرء وبالتمسك بوجهة النظر هذه فقط تجنب اي تضارب وتناقضات.

اذا كان تخطيط حرب ما سيعيق تطبيق وجهة نظر ثنائية او متعددة – اي تطبيق مفهوم عسكري اولاً، ثم اداري ثانيا وبعدهما السياسي، وغير ذلك – فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو ما اذا كانت السياسة تنحو لاخذ اسبقية فوق كل ما عداها؟

يمكن الاقرار دون جدال، بان غاية السياسة هي توحيد وملائمة كل اوجه الادارة الداخلية وكذلك القيم المعنوية، وكل ما يحلو لفيلسوف المعنويات ان يضيفه أو يهتم به. ليست السياسة بطبيعة الحال شيئا بذاتها، لانها وببساطة مجمع لكل تلك المصالح ضد عالم خارجي. قد يكون ذلك خطأ، ويثير المطامع والمصالح الخاصة وتطلعات الذين في قمة السلطة ممن لم يكونوا لا في العير ولا في النفير. وعلى اية حال، لا يمكن وتحت اية ظروف اعتبار فن الحرب موجها للسياسة، وهنا فقط يمكن اعتبار السياسة معبراً عن كافة مصالح واهتمامات المجتمع.

لذلك فالسؤال الوحيد، هو وعندما يجري التخطيط للحرب، فهل على وجهة النظر السياسية ان تخلي الطريق للعسكرية الصرف (هذا إن امكن وجود وجهة نظر

عسكرية كهذه)، اي هل على الاولى ان تختفي نهائياً، أو ان تغدو تابعة للثانية، او هل ينبغي أن تظل النظرة السياسية هي المسيطرة وان تكون العسكرية تابعة لها؟

اي، ينبغي اعتبار توقف البحث والنشاط السياسي كلياً في التأثير عند اندلاع الحرب، امراً من الصعوبة بمكان ما لم يجعل الحقد الصرف (المحض) من كل حرب مسألة حياة او موت. الا انها في الواقع وكما قلنا، ليست شيئا اكثر من تعبير السياسة عن نفسها. ولن يكون اخضاع الموقف السياسي للموقف العسكري، سوى تجريد لا معقول، لان السياسة هي التي تخلق الحرب. السياسة هي العقل الموجه، والحرب مجرد الة وحسب وليس العكس. لذلك فلا مجال مطلقاً الا باخضاع وجهة النظر العسكرية للسياسية.

لو تذكرنا طبيعة الحرب، وتذكرنا المناقشة في الفصل الثالث اعلاه – من **أن السمة المحتملة والشكل العام لاي حرب انما تُقوّمان اساساً بالظروف والعوامل السياسية** – كما ينبغي تصور الحرب وغالباً (في الحقيقة قد يكون من الافضل في ايامنا هذه ان نقول عادة) ككل عضوي تصعب تجزأة اقسامه، لذا يعزى كل عمل منفرد فيها الى الكل، كما انها نفسها تتأصل في المفهوم المركزي، لذا سيكون من الواضح والمؤكد تماماً، أن وجهة النظر العليا في ادارة الحرب ووجهة النظر التي تقرر الخطوط الرئيسية لاعمال ومسار الحرب لا يمكن ان تكون إلا سياسية.

لذلك ومن وجهة النظر هذه، تصاغ الخطط، كما تصنع النماذج من اللدائن (Mold) ، اما تقويم وتفهم كل ذلك فكان اكثر سهولة وطبيعيان. وتزداد القناعة قوة، وتجري التحركات والتطلعات في جو من الثقة، ومن الاحساس بالتاريخ.

مرة اخرى ووفقاً لوجهة النظر هذه لا حاجة لاثارة خلاف بعد، بين المصالح السياسية والعسكرية – ليس بسبب طبيعة القضية وباي قدر كان – وحال بروز شيء من ذلك فسيبدو لا اكثر من قلة في المعرفة. قد نفكر بان بوسع السياسة فرض مطالب معينة من الحرب مما تعجز هذه عن تأمينها، الا ان فرضية كهذه تتعارض والافتراض الذي لا يمكن تجاوزه في ان السياسة تعرف حدود وطاقات الالة التي تنوي استخدامها. ولو تابعت السياسة وتفهمت مسار الاحداث العسكرية بصورة صحيحة، لانها بمجموعها وتتابعها انما تتوخى تحديد التوجهات والاحداث الافضل لاهداف الحرب.

والخلاصة، فان **فن الحرب وفي اعلى مستوياته يتحول الى سياسة، الا انها سياسة تدار بخوض المعارك لا بارسال المذكرات الدبلوماسية.**

نستطيع الان ان نرى ان التأكيد على ان التطورات العسكرية الرئيسية، او التخطيط لاي منها ينبغي ان يكون **عسكرياً بكل معنى الكلمة**، هو أمر لا يمكن قبوله ويمكن ان يكون ضاراً. ومن غير المنطقي ايضاً استدعاء القادة كما تفعل حكومات عديدة ابان تخطيطها للحرب، كي تطلب منهم مشورة **أو نصيحة عسكرية مجردة.** بل الاسوء من ذلك هو تأكيد بعض المفكرين على ضرورة وضع كافة الموارد العسكرية المتيسرة تحت تصرف القائد كي يتسنى له واستناداً على ما لديه منها وضع الخطط العسكرية الصرف لحملة او لحرب. والامر وفي كل الاحوال يتعلق بالخبرة العامة، اذ وبغض النظر عن التطورات والاختلافات في الحرب الحديثة فما زالت خطوطها الرئيسية ترسم من قبل الحكومات، وبعبارة اخرى ، لو اردنا ان نكون دقيقين من الناحية الفنية، نقول كي ترسم من قبل السلطة السياسية لا العسكرية.

هذا ما ينبغي ان يكون عليه الامر، ولا يمكن لاي مقترح رئيسي يتعلق بالحرب ان يوضع موضع التنفيذ مع تجاهل العوامل السياسية، وعندما يتحدث الناس، وكما يفعلون غالباً، عن التأثير السياسي الضار في ترتيبات وادارة الحرب، فهم لا يعنون ما يقولونه فعلاً. ويجب ان يكون خلافهم مع السياسة نفسها لا مع تأثيراتها. فاذا كانت السياسة صحيحة – اي ناجحة – فان اي تأثير فكري لها على ادارة الحرب لا يمكن ان يكون الا للأحسن فقط. فان كان لها تأثير معاكس فذلك لانها هي نفسها سياسة خاطئة.

اما اذا انتظر رجل الدولة من تحركات واعمال عسكرية معينة ان تحدث تأثيرات من نوع غريب عن طبيعتها، عندها فقط سينتهي تأثير القرارات السياسية نحو الاسوء. وبنفس الطريقة، وكالرجل الذي لم يتمكن كلياً بعد من لغة اجنبية، سيفشل احيانا في التعبير عما يريد بصورة صحيحة، كذلك، غالباً ما يصدر رجل الدولة اوامراً تفسد وتفشل الغرض الذي سعت الى تحقيقه: لقد تكرر ذلك مرة بعد اخرى، الامر الذي يوضح لنا ان قدراً من تفهم المسائل العسكرية أمر ضروري جداً للمسؤولين عن السياسة العامة.

قبل المضي بعيداً لا بد لنا من الانتباه خشية تقديم تفسيرات خاطئة. ولسنا ممن يعتقدون بان على وزير الحرب الاحاطة بكل التفاصيل وان يغرق نفسه وسط اضابير

المعلومات، كالذي يفعله المهندس العارف والمعني او حتى الجندي المجرب، لان ذلك وببساطة هو اختصاصهم ومجال عملهم، كي يغدو، ذلك الوزير موجهاً افضل للسياسة – بل ونفترض على الدوام ان الامير نفسه لن يتمكن من كل ذلك. بل على عكس ذلك تماماً. المطلوب في مركز كهذا حقاً هو الفكر المتميز وقوة الشخصية. كما بوسعه الحصول على المعلومات العسكرية التي يريد بطريقة او اخرى. ولم تكن الشؤون العسكرية والسياسية اسوء منها يوماً ما، كما كانت عندما تولى مسؤليتهما الاخوين (بيل – ازيل) ، وداك دي غويزيل[1] – رغم كونهما من العسكريين اللامعين.

إن اريد للحرب ان تنسجم كلية مع الاهداف السياسية، وان تتلائم السياسة مع الوسائل المتوفرة للحرب، عندها وما لم يندمج رجل الدولة والجندي في شخص واحد، فالحل المعقول الوحيد هو بجعل القائد العام عضواً في مجلس الوزراء، وبذلك يستطيع مجلس الوزراء المشاركة في الجوانب الرئيسية لأنشطته[2]. الا أن ذلك ممكن بالمقابل فقط ان كانت الوزارة – اي الحكومة – قريبة من مسرح العمليات، كي يسهل اتخاذ القرارات دون تضييع خطير للوقت. وهذا عين ما فعله امبراطور النمسا عام ١٨٠٩، وقادة التحالف الغربي المعادي لنابليون (١٨١٣ – ١٥)، كما اثبتت التجارب جدواه تماماً.

---

(١) الاخوين (بيل ازيل) وهما الفيلد مارشال اوكست ١٦٨٤ – ١٧٦١ والجنرال ارماند ١٦٩٣ – ١٧٤٦م في فرنسا.

(٢) جاء في الطبعة الاولى (So bleibt... nurein gtues Mittel ubrig, namlich den obersten Feldherrn zum Mitglied des Kabinets zu machen, damit dasselbe theil anden Hauptmomenten seines Handelns nehme,) اما في الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٨٥٣، فقد غير الجزء الاخير من العباره الى (damiter inden Wichtigsten Momenten) لقد صحح او. ام جوليس في ترجمته التي ظهرت عام ١٩٤٣ واعتمد فيها الطبعة الثانية التي ما زالت تعد الاخيرة، وجعله andessen Bera tungen und Beschlussen teilnehme « انه – اي القائد العام – قد يشترك في اجتماعات مجلس الوزراء عند اتخاذ القرارات العامة». وهذا بطبيعة الحال يختلف عما اراده كلاوزفيتز اساساً، وقولنا ان القائد العام يجب ان يكون عضواً في مجلس الوزراء كي تشارك الوزارة في الجوانب الهامة من نشاطاته، وتأكيد كلاوزفيتز على مشاركة الوزارة في القرارات العسكرية لا على مشاركة الجندي في القرارات السياسيه. من بين الاختلافات التي بلغت عدة مئات في النص والتي ادخلت في الطبعة الثانية لكتاب «عن الحرب» والتي اصبحت مقبوله عموماً، لعل هذا التعديل اكثرها اهمية. المشرف Eds

اما الامر البالغ الخطورة فهو السماح لاي جندي عدى القائد العام بالتدخل والتأثير على الحكومه. ونادراً ما حقق تدخل كهذا اعمالاً جيدة بشكل ملفت للنظر. ومثال فرنسا ما بين ١٧٩٣ - ٩٥، عندما كان الجنرال (الفرنسي) لازار كارنو (carnot) وزير الحرب، يدير من باريس كل شؤون الحرب، فمثال غير قابل للتطبيق كلياً، ولا يمكن استخدام الرعب والتخويف كسلاح الا من قبل حكومة ثورية فقط.

لننتهي الان مع بعض الملاحظات التاريخية.

في العقد الاخير من القرن الثامن عشر، وعندما حدث ذلك التغيير الهام والملحوظ في فن الحرب، وعندما ادركت افضل الجيوش ان بعضاً من عقيدتها غدى دون فاعلية، وان الانتصارات العسكرية باتت على نطاق فاق كل حدود التصور، وبدى ان كل الاخطاء كانت اخطاء عسكرية. واتضح ان فن الحرب، الذي اعتاد ولامد طويل على نطاق محدود من الامكانيات، قد فوجيء بخيارات تقع خارج ذلك النطاق، الا انها بالتأكيد ليست منافية لطبيعة الحرب نفسها.

يرجع المراقبون الذين يتخذون مواقفاً ووجهات نظر واسعة، الموقف الى التأثير العام الذي للسياسة طوال قرون، والى تحكمها القوي بفن الحرب وتحويله الى قضية مشتركة مناصفة، وغالباً ما تحوله الى دعاوي وافتراضات بكل معنى الكلمة. والحقائق هي كما يرونها فعلاً، الا انهم اخطأوا باعتبارها تطورات واحداث جرت صدفة وبالتالي يمكن تجنبها وتجاوزها. ويرى آخرون أن مفتاح كل شيء يكمن في التأثير الذي لسياسات النمسا وبروسيا وانكلترا ودولاً اخرى غيرها ، تسعى من اجل متابعتها وتحقيقها.

لكن هل صحيح ان الصدمة الحقيقية عسكرية لا سياسية؟ ولصياغتها بما ينسجم ومناقشتنا هذه نقول، هل تعزى المصيبة الى تأثير السياسة على الحرب، او ان السياسة نفسها كانت خاطئة؟

من الواضح ان التأثيرات الهائلة للثورة الفرنسية خارج فرنسا لم تكن بسبب الاساليب والمفاهيم العسكرية الجديدة بقدر ما كانت نتيجة للتغييرات الجذرية في السياسات والنظم، التي ادخلها رجال الحكومة الجديدة، وتبدل ظروف وطبيعة الشعب الفرنسي. وان حكومات أخرى لم تتفهم تلك التغييرات، وعملوا على

مقاومة القوات الجديدة والمتفوقة بالوسائل المعتادة، وهذه كلها اخطاء سياسية. فهل بوسع الموقف العسكري المجرد تمكين اياً كان باكتشاف تلك الاخطاء ومعالجتها؟ كلا ابداً. وحتى لو وجد مفكر استراتيجي بارع حقاً وقادر على استنتاج مدى ونطاق العواقب ببساطة، واعتماداً على تفاعل اطراف وعناصر الصراع، مع الاستفادة من القدرة على التنبؤ بالتأثيرات النهائية، فلن يكون بوسعه مع ذلك أن يعمل وفقاً لافكاره وافتراضاته هذه.

لا بد أن يعي رجال الدولة أخيراً طبيعة القوى الجديدة التي ظهرت في فرنسا، وتفهم الظروف السياسية الجديدة التي تسود اوربا، كي يستبقوا تأثير كل ذلك على الحرب، وبهذه الطريقة فقط بوسعهم تقدير حجم ونطاق الوسائل التي يتوجب استخدامها، والطريقة الافضل لتطبيقها.

الخلاصة، بوسعنا القول أن عشرين عاماً من الانتصارات الثورية لم تتحقق الا بفضل الاخطاء السياسية لاعداء فرنسا.

صحيح أن تلك الاخطاء لم تظهر للعيان الا في مسار الحروب فقط، والتي خيبت كلياً كل التوقعات السياسية، التي أملوا تحقيقها. الا أن المشكلة ليست في تجاهل رجال الدولة لوجهات نظر القادة العسكريين. كان الفن الحربي الذي اعتمده السياسيون جزءٌ من العالم الذي اعتبروه حقيقة - كفرع من فروع فن الحكم المعاصر، والة معروفة ومألوفة وكانت قيد الاستعمال لسنين. **الا إن ذلك الشكل** من الحرب يشارك السياسة اخطاءها بطبيعة الحال، لذلك كان عاجزاً عن تقديم اي علاج. وصحيح ان الحرب نفسها قد تعرضت لتغييرات كبيرة وهامة في اساليبها وسماتها، وهي تغييرات قربت الحرب الى شكلها المطلق. الا ان تلك التغييرات لم تتحقق لان الحكومة الفرنسية حررت نفسها من قيود السياسة، بل تحققت بفعل الظروف السياسية الجديدة التي اوجدتها الثورة الفرنسية في فرنسا وفي أوربا كلها معاً، ظروف أطلقت العنان لوسائل وقوى جديدة، وبالتالي افسحت الطريق لنوع من الطاقة في الحرب ما كانت ممكنة بغير ذلك.

كان تحول فن الحرب بالضرورة نتيجة للتحول في السياسة. ولا نعني بذلك اننا نريد القول او نوصي بامكانية الفصل ما بين الاثنين، بل ان تلك التغييرات دليل

قوي على ارتباطهما الذي لا يمكن فصله.

نؤكد مرة اخرى، كون الحرب الة بيد السياسة؛ لذا لا بد ان تتسم الحرب بسمات السياسة وان تقاس بمعاييرها. لذلك فادارة الحرب في مجملها العام هي نفسها سياسة، تحمل السيف بدل القلم، ولكنها وحتى في حالتها تلك فهي لن تتوقف عن التفكير طبقاً لقوانينها الخاصة.

الفصل السابع
الغاية المحدودة : الحرب الهجومية

حتى لو لم نكن نأمل بدحر العدو كلياً، تظل الغاية الايجابية والمباشرة ممكنة مع ذلك ؛ وهي احتلال جزء من اراضي العدو.

المهم في احتلال كهذا هو تقليص موارد العدو الوطنية، مقللين بذلك قوته القتالية ومعززين قوتنا. والنتيجة هي أن نخوض الحرب على حساب العدو ولو جزئياً. كما سنمتلك ورقة قوية في أيدينا على مائدة مفاوضات الصلح، وسيكون بوسعنا اما الاحتفاظ بها أو مبادلتها بفوائد أخرى.

تلك وجهة نظر طبيعية في أمر احتلال أرض معادية، والعيب الوحيد في ذلك هو ضرورة تحمل أعباء مسؤولية الدفاع عنها حال احتلالها، الامر الذي قد يكون مصدر بعض القلق والمشاكل.

لقد عالجنا في الفصل (٥) من الكتاب السابع والخاص بنقطة ذروة الهجوم، وبشيء من الاطالة، الطريقة التي يضعف الهجوم فيها القوات المهاجمة، وأوضحنا إمكانية تطور الموقف بشكل يؤدي إلى عواقب وخيمة.

سيضعف احتلالنا أرضا معادية من قدرات قطعاتنا بدرجات متفاوتة، تتحدد عادة بموقع الارض المحتلة، فان كانت تلك ملاصقة لاراضينا – كجيب داخل أراضينا أو ملاصقة لها – فكلما كانت على خط تقدمنا الرئيسي مباشرة، كلما زادت سهولة ذلك على قواتنا. لقد كانت (ساكسوني) في حرب السنوات السبع إمتداداً طبيعياً للمسرح البروسي، لذا كان إحتلال فردريك الكبير لها معززاً لقواته وليس مضعفاً لها؛ لان ساكسوني أقرب الى سليزيا منها إلي (المارك)، كما انها تغطي الاثنتين.

حتى احتلال سيليزيا عامي ١٧٤٠، ١٧٤١، لم يشكل بعد اكماله أي ضغط أو قيود على قوة فردريك الكبير من حيث الشكل والمكان أو ترتيب جبهتها. وطالما لم تقع ساكسوني في ايدي النمساويين، فلن توفر سيليزيا الافسحة حدود ضيقة لهم، وهي تقع في جميع الاحوال على المحور الذي يتوجب على الطرفين الاستيلاء عليه اولاً في تقدمه.

من الناحية الاخرى، اذا كانت الارض المستولى عليها محاطة بارض معادية على جانبيها، فمن الواضح تماماً بان احتلالها سيغدو عبئاً ثقيلاً اذ يجعل الانتصار المعادي ليس مؤكدا وحسب بل واكبر حجماً وتأثيراً. وفي كل مرة غزت النمسا فيها منطقة ايطالية كانت تضطر إلى التخلي عنها دون قتال. وفي عام ١٧٤٤ حمد الفرنسيون الله لمساعدته لهم على ترك بوهيميا دون اندحار. وفي عام ١٧٥٨ وجد فردريك الكبير ان من المستحيل ان يواصل احتفاظه بما حققه في بوهيميا ومورافيا بنفس القوة التي قاتلت ببسالة في سيليزيا وساكسوني في العام السابق أما عن الجيوش التي تخلت عن بعض الاراضي التي احتلتها، لأن احتلالاً كهذا قد اضعفها، فامر شائع ومألوف جداً، حتى لسنا في حاجة لازعاج انفسنا بايراد المزيد من الامثلة.

السؤال هنا هو : هل على المرء توخي احتلال كهذا ومن ثم التحول الى التفكير حول القدرة ومدى المحافظة على ذلك، أو وعند تعذر ذلك، فهل من المجدي تنفيذه او هل يستحق احتلال مؤقت (بالهجوم او التشتيت) ما يدفع من ثمن لاجله، وعلى الاخص وجود بعض المخاطر بوقوع هجوم مقابل قوي قد يغير التوازن. اكدنا في الفصل الخاص بنقطة الذروة، على عدد من العوامل التي لابد من مراعاتها في كل قضية على حدة.

هناك أمر واحد فقط لابد من قوله او بحثه، وهو أن هجوماً كهذا ليس بالشيء المناسب على الدوام للتعويض عن الخسائر في اي مكان آخر. اذ وبينما نكون مهتمين باحتلال منطقة معادية قد يفعل العدو شيئاً مماثلاً في مكان آخر. وما لم تكن لمشروعنا اهمية قصوى فقد لا نستطيع اجبار العدو على التخلي عن مشروعه المماثل. لذلك لابد من مراعاة اعتبارات مهمة للقرار على ما اذا كنا سنوفق في مشروعنا ام لا.

عموماً يخسر المرء من جراء احتلال العدو لارضه، اكثر مما يكسب ذلك المرء من احتلاله ارض العدو، حتى لو كانت قيمة كلا المنطقتين واحدة. السبب في ذلك هو حرماننا من مجموعة متصلة من الموارد. وما دام الامر سيكون بنفس الدرجة للعدو ايضاً، لذلك لن يشكل سبباً للتفكير في ان الاحتفاظ اكثر اهمية من الاحتلال. ولو كان الامر كذلك فان إحتفاظ المرء بارضه هو، يظل وعلى الدوام مسألة اهتمام مباشر، كما قد يمكن موازنة ما تقاسيه دولتنا من دمار أو ايقافه إن امكن قول ذلك، ان كان الانتقام يعدنا بفوائد اكبر - بعبارة اخرى أن تكون الفوائد اكبر بكثير.

محصلة كل ذلك ، أن هجوماً استراتيجياً مع هدف محدود سيتحمل عبء الدفاع عن نقاط اخرى لم يكن الهجوم نفسه سيؤمن تغطية مباشرة لها – عبء اكبر بكثير مما لو استهدف قلب قوة العدو. والنتيجة هي تحديد نطاق تحشد القوات في الوقت والمسافة معاً.

اما اذا اريد تحقيق ذلك التحشد على الاقل من حيث الوقت، فلابد من شن الهجوم من كل نقطة ملائمة فوراً. بعدها وكيفما كان الهجوم، سيخسر الفوائد الاخرى في قدرته على البقاء في الدفاع هنا وهناك، كي يحقق ما يريد بقوات اقل بكثير. والنتيجة الصافية في تحديد غاية محددة هي إن كل شيء يميل إلى الزوال. ولا نستطيع عندها وضع كل قواتنا في ضربة شديدة وكثيفة واحدة تنسجم واهتمامنا الرئيسي. سيزداد تبعثر الجهد، وسيزداد اضطرام المواقف بكل مكان كما تزداد كثيراً القسمة التي تترك للحظ.

تلك هي الكيفية التي تتطور عبرها الاحداث، ضاغطة بثقلها على القائد، مع مضاعفة حيرته باستمرار اكثر فاكثر. وكلما ازداد وعيه لقواه هو، كلما ازدادت ثقته بنفسه. وكلما تضاعف حجم القوات التي يقودها، وبالتالي كلما قويت ارادته بالتحرر من القوى التي تشده، لاجل اعطاء نقطة ما اهمية أكبر بكثير من غيرها حتى لو لم يكن ذلك ممكنا دون قبول بعض المخاطر الكبيرة.

الفصل الثامن
الغاية المحدوة – الحرب الدفاعية

لا يمكن ان تكون الغاية النهائية للحرب الدفاعية وكما رأينا، سلبية اطلاقاً، فحتى على اضعف الاطراف امتلاك بعض الطرق والوسائل التي تجبر العدو على ادراك حضوره، وبعض الوسائل لتهديده (العدو).

ما من شك في امكانية متابعة تلك النتيجة نظرياً بدحر العدو. فله غاية ايجابية، لذا فاية عملية غير ناجحة، ورغم انها قد لا تكلفنا اكثر من القوات التي تتولاها، سيكون لها نفس التأثير الذي للأنسحاب. الا إن خسارة المدافع ليست إعتباطاً، فهو متمسك بارضه، وهذا جل ما يريد تحقيقه. ويمكن القول عندها إن الغاية الإيجابية للمدافع هي الاحتفاظ بما لديه. وذلك قد يكون مجدياً إن تأكد أن عدداً معيناً من الهجمات سيؤدي إلى دحر العدو تماماً ودفعه إلى التوقف. الا ان الامر ليس كذلك بالضرورة. اذا تمعنا في الاستنزاف النسبي لقوات الطرفين، فليس المدافع في الموقف **الاسوأ**. قد يمكن اضعاف الهجوم، الا ان ذلك لن يتحقق الا بحدوث انعطاف واضح. وحال ضياع فرصة كهذه سيضعف المدافع اكثر من المهاجم وذلك لسببين. فمن الناحية الأولى المدافع هو الاضعف عادة، اما اذا تساوت خسائر الطرفين فالمدافع هو الاكثر تضرراً. والثانية هي أن العدو سيحرم المدافع من جزءٍ من اراضيه وموارده. ولا يمكن أن نجد في كل ذلك اي سبب لتوقف المهاجم. وليس امامنا سوى استنتاج مواصلة المهاجم لجهده بينما يتوقف الاخر (المدافع) عن كل شيء عدى تفادي ضربات عدوه، فليس بوسع المدافع القيام بما يضمن له دفع المخاطر التي سينجح المهاجم بفرضها عاجلاً او آجلاً.

بالتأكيد سيؤدي استنزاف طاقة، أو ولكي نكون أكثر دقة، انهاك الطرف الاقوى غالباً إلى السلام. ويمكن العثور على السبب في الطريقة اللينة التي تشن وتدار الحرب فيها عادة. لذا لا يمكن اعتبارها ولا باي مقياس علمي كهدف نهائي وعام للمدافع.

تظل امامنا فرضية واحدة فقط: وهي يجب ان تجسد غاية المدافع فكرة الانتظار – وهو بعد كل شيء السمة الرئيسية للدفاع. واكثر من ذلك فالفكرة

تتضمن، امكانية تطوير الموقف، اي ان يتحسن بنفسه، ولنقل ما لم يحدث التحسن من الداخل – اي بفعل المقاومة المحض– فلا يمكن أن يأتي إلا من الخارج فقط؛ ويتضمن التحسن من الخارج تبديلاً في الموقف السياسي. اما بوصول حلفاء جديدين للمدافع أو بانسحاب حلفاء المهاجم.

هكذا اذن ستكون غاية المدافع، إذا كان نقص قواته سيمنع شن اي هجوم مقابل. لكن ووفقاً لمفهوم الدفاع الذي وضعناه، ليس ذلك مما يمكن تطبيقه على الدوام. لقد اكدنا بان الدفاع هو الشكل الاكثر فاعلية في الحرب، وبسبب هذه الفاعلية يمكن استخدامه ايضاً لتنفيذ هجوم مقابل على اي نطاق.

لابد من ابقاء هذين النوعين متميزين منذ البداية لان لكل منهما تأثيره على ادارة الدفاع.

غاية المدافع في النوع الأول هي المحافظة على سلامة اراضيه، والتمسك بها لاطول ما يمكن. سيوفر له ذلك وقتاً، وكسب الوقت هي الطريقة الوحيدة التي تمكن المدافع من تحقيق غايته. اما الغاية الايجابية، وهي أكبر ما يمكن ان يحققه، والتي ستمكنه من نيل مبتغاه في مفاوضات الصلح، فلا يمكن للمدافع ادخال هذه الغاية بعد في خطة عملياته. بقي عليه ان يظل سلبياً استراتيجياً، ويتأتى النجاح الوحيد الذي بوسعه ربحه في صد وافشال الهجمات المعادية في اماكن بعينها. يمكن الاستفادة من هذه الفوائد الصغيرة لتعزيز نقاط اخرى ، اذ قد تكون الضغوط في كل تلك النقاط شديدة جداً. وان لم تسنح له الفرصة للقيام بذلك، فربحه الوحيد عندها هو ان المهاجم سوف لن يزعجه ثانية لبعض الوقت.

يمكن ان يتضمن الدفاع عمليات هجومية صغيرة دونما تغيير كبير لطبيعة واغراض الدفاع. لا ينبغي لتلك الهجمات الصغيرة ان تستهدف احتلالاً دائماً بل مجرد سيطرة مؤقتة على أجزاء معينة يمكن اعادتها فيمابعد. يمكن ان تأخذ تلك الهجمات شكل غارات او عمليات تشتيت، او ربما احتلال هذه القلعة أو تلك، شرط توفر قوات كافية عن واجبها الدفاعي.

يوجد النوع الثاني من الدفاع حال توخي الدفاع غاية ايجابية. عندها يتكشف الدفاع عن سمة فاعلة تبرز الى المقدمة نسبياً مع تزايد امكانية ونطاق هجوم مقابل. ولوضع ذلك بعبارة أخرى : كلما تم اختيار الدفاع بشكل مدروس اكثر لضمان الجولة الاولى، كلما زادت قدرة المدافع على تقبل مخاطر اكبر في نصب الافخاخ

للعدو. ومن بين هذه واكثرها جرأة إن نجحت فالاشد قتلاً، هي بالتراجـع الى داخل البلاد. ومع ذلك فحملة كهذه لا يمكن أن تختلف كثيراً عن النوع الأول للدفاع.

لا يحتاج المرء سوى للتفكير في الاختلاف ما بين موقف فردريك الكبير في حرب السنوات السبع وموقف روسيا عام ١٨١٢ . فعند اندلاع الحرب ، حقق استعداد فردريك الكبير لها بعض الفوائد له . اذ عنى ذلك قدرته على احتلال ساكسوني وهي عبارة عن امتداد طبيعي لمسرح حربه فلم يشكل احتلالها اي عبء اضافي لقواته ، بل ضاعفها . اما في حملة ١٧٥٧ فقد سعى لاجل مواصلة وتطوير هجوم استراتيجي ، ولم يكن ذلك مستحيلاً طالما لم يصل الروس والفرنسيين الى سليزيا ، والمارك وساكسوني . الا ان الهجوم فشل ، وأجبر على الركون الى الدفاع لباقي الحملة ، واضطر الى التخلي عن بوهيميا بل وإلى تطهير قاعدة عملياته هو من العدو. يتطلب ذلك استخدام نفس الجيش لمجابهة الفرنسيين اولاً ومن ثم مع النمساويين[1]. وهو مدين بكل نجاحات حققها إلى الدفاع .

اما في عام ١٧٥٨م وعندما ضيق اعداءه الخناق عليه، وحققوا تفوقاً ملحوظاً على قواته ، فقد واصل التخطيط لهجوم محدود في مورافيا ، واستهدف احتلال اولمتز قبل وصول أعداءه الى الميدان . لم يكن فردريك الكبير حتى ليأمل في احتلال اولمتز ناهيك عن تحويلها إلى قاعدة له لاي تقدم مقبل ، بل وببساطة لاستخدامها كنوع من التحصينات الخارجية ، أو كاجراء مضاد contre - approche ضد النمساويين صمم لاجبارهم على قضاء ما تبقى من وقت الحملة ، وربما العام التالي ايضاً في محاولة استعادته . لقد ضاع كل الجهد سدى ايضاً ، وتخلى فردريك الكبير عن كل فكرة حول هجوم جدي ، مدركاً ان ذلك سيقلص قوته النسبية اكثر ووجد إن موضعاً قتالياً في وسط اراضيه ، في سيليزيا وساكسوني، وبالاستفادة من الخطوط الداخلية في تعزيز سريع لاي موضع مهدد ، مع غارات سريعة كلما تسنح الفرصة ، ومنتظراً بهدوء تتابع الاحداث للأقتصاد في قوته حتى الوقت المناسب – كانت كل هذه الاعمال والاجراءات تعد العناصر الرئيسية في خططه وغدت

---

(١) خلت الطبعة الأولى من مصطلح (die Franzosen, dann gegen) والتي ظهرت في الطبعات التالية ويبدو من الضروري الاشارة إلى تعليق كلاوزفيتز . المشرف .

عملياته من ثم سلبية وغير فعالة تدريجياً . ولادراكه ان الانتصارات تكلف هي ايضاً كثيرا فسيحاول تنفيذها باقل ما يمكن، وستقل رغبته اكثر واكثر في التخلي عن الارض ، ولا يتردد في تطبيق منظومة دفاع نطاقي جيدة الاداء . تستحق مواضع كل من الامير هنري (١٧٢٦-١٨٠٢ وهو شقيق الملك فردريك الكبير) في ساكسوني، ومواضع الملك فردريك في جبال سيليزيا هذا الوصف . ولقد اوضح فردريك الكبير في رسائله إلى المركيز(دو ارجونز)[١] كيف كان ينظر مقدماً وبامعان الى معسكراته الشتوية (Winter quarters) ، وكيف كان يأمل بالوصول إليها دون التعرض إلى خسائر فادحة بسببها .

اما لوم فردريك الكبير بسبب ذلك ، واعتبار تصرفه على هذا الشكل دليل على انحطاط المعنويات فهو بنظرنا حكم سطحي غير منصف. لعل وسائلاً كمعسكرات الخنادق في (بنزيلفتز) ، والمواضع التي اختارها الامير هنري في ساكسوني ، والملك فردريك في جبال سيليزيا، لاتبدو في ايامنا هذه كذلك النوع من الاجراءت التي بوسع المرء اعتبارها أمله الاخير - شبكة عنكبوت تعبوية كان بوسع رجل كنابليون التخلص منها سريعاً . لكن على المرء ان يتذكر ان ذلك الوقت قد تغير، وان الحرب قد تعرضت لتحول كامل ، وانها باتت تستمد حياتها الان من مصادر مختلفة كلياً . والمواضع التي فقدت كل قيمتها اليوم ربما كانت فعالة في تلك الايام ؛ دون ان ننسى ان شخصية القائد المعادي تعد عاملاً كذلك . والطرق التي اغفلها فردريك الكبير نفسه يمكن ان يعد اللجوء إليها ضد القوات الروسية والنمساوية اعلى درجات الحكمة وحسن التدبير، طالما كانت تلك القوات بامرة رجال مثل داون و(بوتورلن)[٢].

يبرر النجاح ابداً وجهة نظر كهذه . ولقد حقق فردريك الكبير هدفه بمجرد انتظار الاحداث ، متجنباً المصاعب التي كانت ستجبره على تشتيت قواته .

في مطلع حملة ١٨١٢ كانت القوة التي جابه بها الروس القوات الفرنسية اقل كفاية من قوات فردريك الكبير في مطلع حرب السنوات السبع . الا ان الروس

---

(١) مؤلف فرنسي كان موضع ثقة فردريك الكبير واقام في بروسيا خلال حرب السنوات السبع . المشرف.Eds

(٢) بوتورلن - الكونت الكساندر بوريسوفتش (١٧٠٤ - ٦٧) وهو فيلدمارشال روسي.

كانوا يأملون تزايد قواتهم خلال الحملة . فقد كانت كل اوربا قلبيا ضد نابليون بونابرت ، الذي بعثر قواه إلى آخر مدى ، وكان يخوض حرب استنزاف في اسبانيا، كما ان مساحات روسيا الشاسعة تعني أن قوات اي غاز يمكن أن تتحطم حتى العظم خلال تراجعها لمسافة (٥٠٠) ميل . فالاشياء العظمى ممكنة ، وليس فقط الضربة الكبيرة المقابلة شيء مؤكد اذا فشل الهجوم الفرنسي (وكيف لهجوم كهذا ان ينجح ما لم يوافق القيصر على قبول السلام لأن شعبه سيثور عليه) فالضربة الروسية المقابلة ستلحق الدمار التام بالفرنسيين . وليس بوسع اعلى درجات الحكمة استنباط استراتيجية افضل من تلك التي نفذها الروس دون قصد مدروس .

لم يفكر احد على هذا الشكل في حينه ، كما ان وجهة نظر كهذه كانت ستبدو غريبة أو ليست في محلها ، ولكن ما من سبب يمنعنا اليوم من الاقرار بصحتها. اذا اردنا التعلم من التاريخ ، فعلينا ان ندرك ان ما حدث مرة يمكن أن يتكرر ، وسيقر كل ذي معرفة أو إلمام بالامر بان سلسلة الاحداث الكبرى التي تلت المسيرة نحو موسكو ليست تتابعاً عرضياً للأحداث . وعلى وجه الدقة ، لو استطاع الروس وضع اي نوع من الدفاع عن حدودهم ، لربما أفل نجم الفرنسي ، ولربما خانه الحظ ، ولكن ما كان ذلك بالتأكيد سيكون هائلاً ولا على نطاق حاسم . لقد كان نجاحاً كبيراً ، وكلف الروس ثمناً باهظاً بالدماء والمخاطر وسيكون غالياً جداً بالنسبة لاي بلد آخر ، والذي يتعذر – على غير روسيا – دفعه ابداً .

لا يمكن تحقيق انتصار رئيسي إلا بتدابير إيجابية تستهدف حسماً ، وليس بمجر انتظار الاحداث ابداً . والخلاصة ، فحتى في الدفاع فالتدابير الضخمة وحدها تحقق انجازات كبرى .

الفصل التاسع

خطة لحرب صممت لتقود إلى اندحار تام للعدو

بعد هذه الدراسة المستفيضة لمختلف الموضوعات التي تثيرها الحرب، علينا البحث في كيفية تخطيط حرب بكاملها ، مع التمعن في الصفحات الثلاث المتميزة والتي يمكن ان تتماشى مع كل غاية محدودة . وبعد كلما قلناه حتى الآن في الموضوع، بوسعنا مطابقة مبدأين اساسيين يجملان لنا كل التخطيط الاستراتيجي، وكدليل لنا لكل الاعتبارات الاخرى .

المبدأ الاول هو أن الحجم النهائي لقوة العدو يجب ان تعقب وتقلص إلى اقل عدد من الموارد ، والصورة المثلى هي ان يحدد المصدر النهائي والوحيد . ويجب ضغط الهجوم على تلك الموارد بعدد محدود من الاعمال – والحل المثالي ومرة اخرى هو بعمل واحد. واخيراً ، يجب جعل كل الاعمال الصغيرة ثانوية في الترتيب كلما كان ذلك ممكناً . والخلاصة فالمبدأ الاول هو : اعمل باقصى تركيز (حشد) .

المبدأ الثاني هو : اعمل باقصى سرعة ويجب ان لا يسمح باي توقف او تحوّل دون سبب هام.

يعتمد واجب تقليص موارد قوة العدو الى مركز ثقل واحد على :

١. توزيع قوى العدو السياسية . فان كانت هذه تقع في القوات المسلحة لحكومة واحدة، فما من مشكلة هناك عادة. اما اذا توزعت ما بين جيوش متحالفة ، ويعمل احدها وببساطة كحليف دون مصلحة خاصة به، فلن يكون الواجب اكثر صعوبة. اما اذا توزعت بين حلفاء تشدهم مصالح عامة مشتركة ، ستتحول المعضلة عندها الى قوة ونوعية التحالف . وقد عالجنا هذا الامر ابتداءً.

٢. الموقف في مسرح الحرب وحيث تعمل مختلف الجيوش . فان تحشدت كل قوات العدو في جيش واحد وفي مسرح حرب واحد فانها تشكل في واقع الحال وحدة، وما من حاجة لمتابعة الامر . لكن إن تألف العدو في مسرح منفرد من حلفاء منفصلين في الجيوش ، فليست وحدتهم تامة أو مطلقة ، رغم انهم مازالوا متحدين في هجوم عزوم موحد كي يعم الجميع . اذا عملت الجيوش المتحالفة في مسارح متجاورة دون موانع طبيعية كبيرة فاصلة فيما بينها ، فقد يظل لواحد منها

تأثير حاسم على الباقين ، الا إن وجود مثل هذا التأثير عندما تتباعد مسارح الحرب مع وجود اراضي محايدة أو سلاسل جبلية فيما بينها ، امر تحيطه الشكوك - وفي الحقيقة غير ممكن - واذا كانت مسارح الحرب على طرفي البلاد المعرضة للهجوم ، والعمليات تشن ضدها معاً، لذلك تتخذ خطوطاً متباعدة ولن توجد علاقة بين تلك المسارح حينئذٍ .

لو هوجمت بروسيا من قبل فرنسا وروسيا معاً فالتأثير في ادارة العمليات هنا سيكون كما لو أن هناك حربين منفصلتين . ولا تظهر وحدتهما جلية بالضرورة الا في مفاوضات الصلح.

وعلى العكس من ذلك ففي حرب السنوات السبع كانت قوات النمسا وساكسوني منفصلتان عملياً، مع انهما مشتركتان في المصير وذلك جزئياً لان مسرحيهما الحربيين يقعان على اتجاه واحد من وجهة نظر فردريك الكبير، وجزئياً لان ساكسوني محرومة من الاستقلال السياسي كلياً .

رغم كثرة الاعداء الذين على نابليون مجابهتهم عام ١٨١٣م ، فقد كانوا جميعاً في اتجاه واحد تقريباً في مواجهته . كانت مناطق عملياتهم المختلفة مترابطة فيما بينها وشديدة التأثير في بعضها البعض . فلو كان قادر على حشد قواته في نقطة واحدة وتدمير عدوه الرئيسي، فسيتقرر مصير اعداءه الاخرين كذلك . ولو دحر عدوه الرئيسي في بوهيميا وضغط من براغ باتجاه فينا ، فلن يظل بوسع الجنرال (بلوخر) حتي لو توفرت له افضل الفرص والارادة في العالم ، البقاء في ساكسوني. اذ كان سيطلب منه تقديم العون في بوهيميا ، كما سيعجز ولي عهد السويد وسيفقد الرغبة في البقاء في مارك براندبيرج .

من الناحية الاخرى فلو شنت النمسا حرباً ضد فرنسا في ايطاليا وعلى نهر الراين معاً ، فستجد أن من الصعب عليها دائماً حسم الامر في كلا المسرحين بتوجيه ضربة شديدة وناجحة في احدهما . لان جبال الالب تشكل مانعاً طبيعياً كبيراً من ناحية ، يضاف إلى ذلك أن الطرق من النمسا إلى الراين وايطاليا تتشعب . وسيهون الامر كثيراً على فرنسا وستكون مهمتها اسهل . وعلى اية حال فان خطوط هجومها تلتقي عند فينا وفي قلب امبراطورية النمسا، وان انتصاراً حاسماً في احد المسارح سيكون حاسماً في الاخر كذلك . ينبغي ان نضيف إن على فرنسا اذا ارادت توجيه ضربة حاسمة في ايطاليا ان تكون اكثر تأثيراً في مسرح الراين مما في اي اتجاه آخر.

كما ان هجوماً يشن من ايطاليا سيهدد مركز قوة النمسا، بينما لا تهدد العمليات من الراين سوى أحد اجنحته.

نستنتج من كل ذلك أن مفهوم انفصال وارتباط قوات العدو مستمر في كل مستويات العمليات ، وهكذا لا يمكن الحكم على التأثير الذي للأحداث في اي مكان آخر الا لكل قضية على حدة . عندها فقط يمكن ان تتضح امكانية تقليص مراكز ثقل العدو إلى واحد .

لا يتقبل مبدأ توجيه كل شيء (جهد) نحو مركز ثقل العدو، سوى استثناء واحد- وهو ، عندما تبدو اية عمليات ثانوية **واعدة بشكل استثنائي** . لكن علينا أن نكرر إن التفوق الحاسم فقط يمكن ان يبرر بعثرة القوى دون المخاطرة كثيراً في المسرح الرئيسي .

عندما سار الجنرال بيلو في هولندا عام ١٨١٤ ، فقد افترض يومها ان رجاله الـ(٣٠٠) الف ليسوا كافين لشل عدد مماثل من الفرنسيين وحسب بل سيمكنوا الالمان والانكليز من زج قوات الى الميدان لم يكن بوسعهم الزج بهم في موقف مماثل دون ذلك ولا حتى التفكير فيه .

المهمة الاولى في التخطيط لحرب ما اذن هي في تحديد مراكز ثقل العدو، ومحاولة ارجاعها الى مركز واحد إن امكن.

المهمة الثانية هي ضمان تحشيد القوة التي ستستخدم ضد تلك النقطة لهجوم رئيسي.

قد نواجه في هذا الموقف بالاسباب التالية لتجزأة قواتنا :

١. الترتيب الاساسي للقوات - وكذلك بالتالي الموقع الجغرافي للدول المهاجمة .

ان كان تحشيد القوات يتطلب حيدانا عن الطريق ، وبالتالي خسارة الوقت، واذا كانت مخاطر تقدم القطعات منفصلة ليست كبيرة جداً ، فبوسع المرء تبرير مسلك كهذا. اذا تعرض اي مفصل (مفرق طرق) لكثير من الجهد ، وكان تعرضه هذا ليس ضرورياً ولا مبرر له ، وتسبب فوق ذلك بضياع الكثير من الوقت الثمين ، وأدى كل ذلك الى ان تشن الصولة الاولى باقل من الحد الاقصى من السرعة

والحماس (elan) ، فسيؤثر كل ذلك سلبياً على مبدأنا العام الثاني . ويستحق ذلك عناية خاصة اينما توفرت فرصة لمباغتة العدو .

ستحتل المناقشة اهمية ووزن اكبر ان نفذ الهجوم من قبل حلفاء لم يكن ترتيبهم بالقدمة (خلف بعضهم البعض) بل في مواجهة العدو جنباً إلى جنب . فلو قاتلت بروسيا والنمسا معاً فرنسا، فان انطلاق الجيشين من نفس المكان سيعني ضياع الكثير من الوقت والقوة. والمحور الطبيعي لبروسيا نحو قلب فرنسا هو من اسفل الراين، وللنمسا من اعلى الراين . يلي ذلك تعذر انشاء مفصل أو نقطة التقاء – بين هذين الجيشين – دون بعض التضحيات ، وسيكون السؤال في كل قضية معينة هو توفر مبرر لمثل هذه التضحية .

٢. قد يكون لهجوم ما يشن على خطوط منفصلة فرصة لتحقيق نتائج افضل.

لقد اتضح لنا من مناقشتنا الحالية ان التقدم المنفصل ضد **مركز واحد** يتضمن **هجوماً مركزياً** . اما الهجوم المجزأ على خطوط متوازية او متباعدة، فسيعد **عملية ثانوية** كتلك التي ناقشناها على التو.

للهجوم المتباعد وفي المستويين الاستراتيجي والتعبوي امل في **نتائج متصاعدة** ، اذ يلي ذلك وعند نجاح الهجوم ان العدو لن يتلقى ضربة فقط بل انه سيعزل نهائياً (Cut off). فالهجوم المتباعد اذن ، وعلى الدوام اكثر املاً وحضاً ، لكن ونظراً لانقسام القوة واتساع المسرح فهو – اي الهجوم– يحتمل مخاطراً اكثر . وكما هو الحال مع الدفاع والهجوم فالشكل الاضعف يعد بنجاحات اعظم .

لذلك يعتمد كل شيء على ما اذا كان المهاجم يحس انه قوي بما يكفي للعمل من اجل جائزة (نتيجة) كهذه .

عندما قرر فردريك الكبير عام ١٧٥٧ غزو بوهيميا جزأ قواته ما بين ساكسوني وسيليزيا . ولديه لذلك سببين . الاول. هو حيث كانت قواته قد استقرت في معسكراتها الشتوية ، وان تحشيد تلك القوات سيفقد هجومه، المباغتة . والثاني. ان تقدمه المركزي سيهدد المسرح النمساوي من الجناح ومن المؤخرة معاً. اما الخطر الذي سيتحمله فهو أن جيشيه قد يدحران امام قوة متفوقة . واذا **فشل النمساويون في التنبه لذلك** فعليهم اما قبول المعركة في المركز ، او قبول احاطتهم من يمين خط مواصلاتهم فوراً وعلى احد جناحيهم حتى اندحارهم. لقد كان ذلك هو النجاح

الاعظم الذي سيحضى به الملك من تقدمه. والحقيقة هي ان النمساويين قد قبلوا معركة في المركز، الا انهم احتلوا موضعاً عند براغ ، وكان مكشوفاً جداً وعرضة لهجوم تطويقي «Enveloping attack» ، كما وفر جمودهم وسلبيتهم الوقت الضروري لاعطاء الهجوم تأثيره الاقصى. لقد كانت النتيجة تحول الضربة الى مأساة حقيقية – يؤكد ذلك حقيقة وقوع وعزل القائد العام وثلثي الجيش في براغ.

يعود هذا النجاح البارع في بداية الحملة الى الرغبة والقبول بمخاطر الهجوم المركزي . ومن بوسعه لوم او انتقاد فردريك الكبير على ثقته بوضوح ودقة تحركاته، وحيوية جنرالاته ، والمعنويات العالية لجيشه ، على عكس الجيش النمساوي المتبلد ، وكان ذلك كافياً لضمان النجاح ؟ وسيكون من الخطأ تجاهل تلك العوامل المعنوية والاعتقاد بأن الشكل الهندسي للهجوم هو كل ما يهم في الامر . لا يحتاج المرء الا لمقارنة حملة فردريك بحملة نابليون التي لا تقل عنها نجاحاً عام ١٧٩٦م ، عندما اجبر النمساويين وبشكل بين على التقدم منفصلين في ايطاليا . ولو تركنا العامل المعنوي جانباً ، فلم تكن الموارد التي بيد القائد الفرنسي تزيد كثيراً على ما كان بيد النمساويين عام ١٧٥٧. لكنها كانت في الحقيقة اقل فعلاً ، الا ان القائد النمساوي ، وخلافاً لما كان عليه بونابرت، لم يكن العدو الاضعف والاقل قوة . لذلك، ان كان هناك من سبب للخوف من ان تجزأة وبعثرة الهجوم سيعطي العدو فرصة لمعادلة قوته مع خصمه باستخدام خطوطه الداخلية ، فمن الافضل عدم اللجوء الى ذلك . اما اذا كان اسلوب انفتاح القوات سيفرض مثل هذه التجزأة والتباعد فلابد حينئذٍ من اعتباره شراً لابد منه.

عند التمعن في الامر من تلك الزاوية، فمن الصعب على المرء الموافقة على الطريقة التي تم غزو فرنسا بها عام ١٨١٤ . لقد تحشدت الجيوش الروسية والنمساوية والبروسية في فرانكفورت، على المحور الاوضح والاكثر مباشرية الى مركز ثقل فرنسا. ومن ثم انفصلت بحيث يهاجم احد الجيوش من (مينز) والاخر ليمر اولاً من سويسرا . لقد كانت القوة العسكرية الفرنسية يومها قليلة الى حد يتعذر معه الحديث عن قدرتها على الدفاع عن حدودها ، لذلك كانت النقطة الوحيدة في تعدد اتجاهات الهجوم هي واذا سارت الامور على ما يرام ان احد الجيوش سيحتل اللورين والالزاس ، بينما يحتل جيش آخر (فرانش–كومت) في فرنسا. فهل تستحق فائدة هامشية كهذه مشاكل التقدم عبر سويسرا ؟. نحن نعرف

تماماً ان هناك اراض اخرى لها نفس المساوئ وقد تم التقدم عبرها ايضاً الا اننا اقتصرنا على ذكر المنطقة الاشد صلة بمناقشتنا هنا .

اوضح نابليون من الناحية الاخرى ومن خلال حملته الرائعة عام ١٧٩٦ انه يعرف تماماً كيفية التعامل مع تهديد من عدة جهات، وان اعداءه قد يحققون تفوقاً خطيراً جداً عليه ، الا ان الجميع يقرون بتفوقه الكبير في المعنويات ومنذ البداية . لقد تأخر عن الالتحاق بجيشه في (شالون chalons) ، كما كان يستصغر خصومه عموماً ، ورتب توجيه ضربة لجيشين منفصلين قبل ان يتصلا معاً. لكن ما مدى ضعفهما عندما التقيا في (بريني Brienne) ! اقل من (٦٥) الف رجل ، كان هناك (٢٧) الف رجل مع بلوخر ، ومن الـ (٢٠٠) الف رجل وهم قوة الجيش الرئيسي لم يتيسر منهم سوى (١٠٠) الف فقط . ولعلهم لم يستطيعوا جعل مهمة الفرنسيين اسهل من ذلك. واكثر من ذلك ومنذ لحظات التقدم الاولى لم تسعى جيوش التحالف لاكثر من الارتباط ببعضها ثانية .

نعتقد وبعد كل هذه المناقشات ان الهجوم على خطوط (متقاربة) وفي الوقت الذي يعد بذاته وسيلة للنجاح ، مع ذلك يجب أن لا يحدث عادة الا كنتيجة لانفتاح اولي للقوات فقط ، ونادراً ما يمكن تبرير الابتعاد عن خط التقدم الاقصر والاسهل .

٣ . يمكن ان يشكل اتساع مسرح الحرب حجة واساساً للتقدم بقوة مجزأة .

عندما يبدأ جيش ما هجومه من نقطة معينة وينجح في اختراق اراضي العدو بعيداً ، فالارض التي سيسيطر عليها لن تتحدد بالطرق التي استخدمها بل تمتد لمسافة ما على الجانبين . أما عرض المنطقة فيعتمد كثيرا (ان جاز لنا استخدام مصطلحاً كهذا) على قوة وصلابة الدولة المعادية . أما إن كان البلد المعادي ضعيف التماسك، وان كان شعبه ليناً وقد نسي ماهية الحرب ، فلن يواجه الغازي المنتصر اية مصاعب بتركه جزءً عريضاً من البلاد خلفه بامان ، اما اذا جوبه بشعب شجاع ومخلص فستضيق فسحة منطقة الامان كثيرا ، وتقتصر على مثلث صغير .

لتجنب ذلك الخطر عليه التحايل والعثور على اساليب مناسبة للتقدم على جبهة واسعة ، اما اذا احتشدت القوة المعادية في مكان واحد فبوسع المهاجم المحافظة على تلك الجبهة حتى حصول التماس . وعليه تقليص تلك الجبهة عند تقربه من مواضع العدو . وذلك امر بديهي.

اما اذا كان موضع العدو نفسه متسعاً لأكثر من مدى بعينه فمن الافضل للمهاجم مدّ جبهته بنفس الدرجة . نحن نضع نصب اعيننا مسرح عمليات منفرد ، أو عدة مسارح متجاورة ، لذا فان ملاحظتنا ستنطبق بنفس الدرجة على الحالات التي يوفق فيها الهجوم الرئيسي بتسوية المسائل الاخرى الاقل أهمية .

لكن هل يمكن الإعتماد على ذلك **دائماً** ؟ وهل بوسع المرء تحمل المخاطر التي ستنشأ ان لم يكن تأثير الهدف الرئيسي على الاهداف الثانوية كافياً ؟ ربما ينبغي علينا التمعن بدقة وعن قرب في تلك المتطلبات ، التي لابد ان تظهر لنا ان مسرح عمليات ما لابد ان يكون باتساع معين .

وكالعادة ، فليس من الممكن تماماً تغطية كل حالة يمكن او يحتمل ظهورها ، الا اننا نؤكد ان القرار على الهدف الرئيسي ، سيتضمن وفي الوقت نفسه عدى بعض الاستثناءات الاهداف الصغرى كذلك . هذا هو المبدأ الذي يجب ان يعتمد عليه العمل بشكل أو آخر ما لم تكن هناك أسباب واضحة لعكس ذلك .

غزى نابليون ، روسيا باعتقاد اكيد بان نجاحه بدحر الجيش الروسي الرئيسي سينريح القوات الروسية في اعالي (دفنا) ايضاً . وقد خصص فيلق الجنرال اودينوت (١٧٦٧ - ١٨٤٧م المارشال شارلس نيكولاس) ليتولى وبشكل رئيسي ذلك ، الا انه وبعد هجوم الجنرال ويتنشتاين (الفيلدمارشال لودفيك ادولف بيتر ١٧٦٩-١٨٤٣، جنرال روسي) اضطر نابليون بونابرت الى ارسال الفيلق السادس كذلك .

لقد افرز نابليون ، ومن الناحية الاخرى ، جزءً من قوته ومن البداية للتعامل مع قوات الجنرال الروسي باكاريشين (الامير بيتر ايفالنوفيتش ١٧٦٥-١٨١٢) ، الا ان انسحاب الرتل الروسي المركزي ازاح قوات الجنرال باكاريشين بعيداً ومكن نابليون من استدعاء القوة التي سبق افرازها . ولو لم يكن الجنرال ويتنشتاين قد ألزم بستر العاصمة الثانية (سانت بطرسبرج) لكان هو الاخر قد عقب الجيش الرئيسي المنسحب بقيادة المارشال باركلي (١٧٩١-١٨١٨م) .

لقد قرر انتصار نابليون بونابرت في (اولم)[1] و (راتسبيون)[2] عامي ١٨٠٥ و ١٨٠٩ مصير ايطاليا والتيرول ، رغم ان المسرح الايطالي يعد مسرحاً مستقلاً وبعيداً

---

(١) معركة اولم راجع الهامش في الفصل (١١) الكتاب الرابع (ص ٣٦٥) .

(٢) معركة راتسبيون او (ريجينسبرج) راجع الهامش في الفصل (١٢) الكتاب الرابع (ص ٢٨٣) .

إلى حد ما . اما معركتي ينا (١٨٠٦) و (اويرشتاد ١٨٠٦) فقد وضعتا حدا لاي تهديد قد ينشأ في ويستفاليا ، او في (هيس) او على طريق فرانكفورت.

من بين العديد من العوامل التي قد تؤثر على المقاومة في النقاط الثانوية فلأثنين منها اهمية كبيرة بشكل خاص:

الاول هو أن توجيه ضربة قوية وحاسمة في المكان الحيوي قد تتأخر طويلاً في بلد كبير الاصقاع وقوي نسبياً كروسيا لذلك ما من حاجة الى تحشيد سريع لكل القوات .

اما العامل الثاني فينشأ حين يشكل عدد كبير من القلاع تجمعاً مستقلاً بشكل غير اعتيادي في منطقة ثانوية، وتقدم لنا سيلزيا عام ١٨٠٦ مثالاً على ذلك . رغم ان نابليون لم يوليها الا اهمية قليلة ، ورغم ان عليه تخطي سيليزيا في تقدمه نحو وارشو، فقد افرز لها اخوه (جيروم) ومعه قوة من (٢٠) الف رجل لمعالجتها .

اما اذا بدى محتملاً وفي أية حالة بعينها ان الهجوم على الهدف الرئيسي لن يؤثر على الاهداف الصغرى الاخرى ، أو انه عجز فعلاً عن ذلك ، واذا تمكن العدو من زج قوات لهذا الغرض في تلك النقاط ، فمن الضروري عندها توجيه قوة اخرى اكثر كفاية لمعالجتها ، ما دام من المتعذر او غير الممكن ترك خطوط المواصلات دون حماية كلياً .

بوسع المرء حتى ان يكون اكثر تعقلاً . فقد يصر على ربط التقدم نحو الهدف الرئيسي وبكل دقة، سوية مع التقدم ضد الاهداف الصغرى (الثانوية) ، حتى إذا رفض العدو افساح الطريق في نقاط اخرى ، يتم ايقاف التقدم الرئيسي[1].

لا يتناقض هذا المسلك بالتأكيد وبشكل مباشر مع مبدأنا بتحشيد اقصى قوة ضد الهدف الرئيسي ، الا ان الجو الذي يكتنفه مختلف كلياً . وسيفرض عطالة أو تبلد على الحركة ، وسيؤدي شلل كهذا في الهجوم زيادة احتمالات الصدف والحظ والى ضياع الكثير من الوقت ، اي كل ما لا يتطلبه هجوم يتوخى دحر العدو .

---

(١) يصعب تعميم هذا المفهوم او الاجراء حتى اذا اصح في واحد او اكثر من المواقف ، اذ كيف يمكن ايقاف تقدم ناجح نحو هدف رئيسي لمجرد عرقلة او تأخير في اتجاه هجوم أو هجمات ثانوية ويصح مفهوم كلاوزفيتز في ظروف واعتبارات معينة أهمها تزامن عمليات جيوش حليفة في مناطق قريبة او ملاصقة لمسرح العمليات موضوع البحث - المترجم -

تغدو المصاعب اكبر بكثير اذا نجح العدو بسحب قواته من تلك النقاط الثانوية على خطوط متباعدة . فما الذي يتبقى لنا من وحدة في هجومنا ؟

لذا يتوجب علينا وعلى وجه التحديد رفض المبدأ الذي يجعل الهجوم الرئيسي معتمداً على عمليات صغيرة ، وبدلاً من التأكيد على توخي الهجوم دحر العدو فانه سيفشل ما لم يجرؤ ويصر على الاندفاع كالسهم باتجاه منطقة العدو .

٤ . القاعدة الرابعة للتقدم بقوة مقسمة (مجزأة) هي ان ذلك قد يقلل معضلات التموين.

ما من شك في ان دفع قوة صغيرة خلال منطقة غنية اكثر تقبلاً بكثير من دفع جيش كبير في منطقة فقيرة (مجدبة) ، الا ان المرور في الاخيرة ليس مستحيلاً عند اتخاذ التدابير الضرورية وكان الجيش معتاداً على تحمل المشاق وشظف العيش . لذلك لا ينبغي ان يكون للخيار الاول الكثير من التأثير في الخطط كأن يدفعنا الى قبول مخاطر كثيرة .

لقد بحثنا الآن في الاسس التي تبرر تجزأة القوة وتقسيم العملية الواحدة إلى عدة عمليات . فاذا تم تقسيم كهذا استناداً إلى احد الاسس اعلاه مع فكرة واضحة تماماً عن الغاية من ذلك، وبعد موازنة دقيقة للحجج والحجج المضادة فلن يفترض بنا الاستمرار بانتقاد ذلك .

لكن عندما يحدث الشيء المعتاد ، وتنجز هيئة ركن «مدربة» خطة كهذه وكأنها عمل روتيني ، وعندما يتوجب اشغال مختلف مسارح العمليات ، كمربعات لوحة الشطرنج ، وكل منها بوحدات مناسبة وقبل بدء العمل الحقيقي ، وعندما تنفذ التحركات نفسها بخبرات كاذبة او مزيفة للوصول إلى أهدافها بطرق ملتوية ومزدوجة ، وعندما يتوجب تقسيم الجيوش الحديثة للتباهي بـ «فن البراعة التام» باعادة توحيدها بعد اسبوعين وسط اقصى المخاطر؛ عندها بوسعنا القول باننا نشمئز من تحرك كهذا ، بدلاً من المسلك الواضح والسهل والبسيط كي نوقع انفسنا في فوضى متعمدة . ويزداد احتمال تكرر غباء مثل هذا كلما قلت حالات ادارة الحرب من قبل القائد – العام نفسه وبالاسلوب الذي أوضحناه في الفصل الافتتاحي ، اي كفعالية منفردة لشخص يتمتع بسلطة كبيرة ، او،و بكلمات اخرى ، كلما زاد واتضح كون الخطة أعدت (طبخت) من قبل هيئة ركن غير كفوءة ووفق وصفة أعدتها نصف دزينة من الهواة وعديمي الخبرة .

ما زال امامنا البحث في الجزء الثالث من مبدأنا الاول ، اي ابقاء كل عملية صغرى كعمل ثانوي قدر الامكان .

اذا سعى طرف ما لتركيز كل العمل العسكري على هدف منفرد ، فان تحقق ذلك وبقدر ما يمكن ، فسينظر الى العملية المكثفة**المنفردة** كوسيلة لتحقيق الهدف ، اما النقاط الاخرى التي للعدو تماس فيها فيجب ان تفقد جزءً من استقلالها وتغدو عمليات ثانوية . ان امكن حشد كل شيء اطلاقاً في عمل واحد ما فسيتم تحييد كل نقاط التماس الاخرى كلياً . لكن لن يتم ذلك الا نادراً ؛ لذا تغدو المشكلة في ضبط تلك النقاط ضمن حدود السيطرة والتأكد من انها لن تجر المزيد من القطعات على حساب العملية الرئيسية .

أكثر من ذلك ، نحن نرى ان خطة العمليات ينبغي ان تراعي حتى عند تعذر تقليص مقاومات العدو الى مركز ثقل واحد ، وكذلك ، وكما اوضحنا على التو، اي عند خوض حربين منفصلتين كلياً في آن واحد . وحتى ان حدث ذلك فلابد من اعتبار احدى الحربين **كعملية رئيسية**، تتطلب توجيه اكبر الموارد والفعاليات نحوها .

ما دام الامر كذلك فمن الافضل العمل**تعرضيا** في ذلك المسرح الرئيسي فقط والبقاء دفاعياً فيما عداه . هناك هجوم اخر قد تبرره ظروف استثنائية. اكثر من ذلك ينبغي ادامة الدفاع عن النقاط الثانوية بالحد الادنى من القوة، كما لابد من حساب أهمية اية فوائد قد يتيحها ذلك النوع من المقاومة . وما الذي سنجنيه فيها .

يطبق هذا الرأي حتى مع قوات كبيرة جداً وفي أي مسرح للعمليات تشارك فيه عدة جيوش حليفة للعدو بطريقة تتأثر فيها هذه الجيوش جميعها عند توجيه ضربة الى مركز الثقل المشترك .

اما ضد العدو الذي يشكل هدف التعرض الرئيسي فلا مكان لذلك النوع من الدفاع في مسارح العمليات الثانوية.يتضمن هذا التعرض هجوماً رئيسياً ، وهجمات ثانوية بالقدر الذي تجعله الظروف ضرورياً . ويلغي ذلك الحاجة الى الدفاع عن اي نقطة لا يعني بها الهجوم مباشرة . فالمعركة الكبرى (الحسم الرئيسي) هو كلما يهم هنا . اذ سيعوض عن اية خسائر . واذا كانت القوات كافية بشكل يسمح بالبحث عن معركة كبرى فلن تعود **امكانية الفشل** عذراً كافياً لمحاولة تغطية الوضع في اي مكان آخر. إذ سيجعل ذلك الفشل في المعركة الحاسمة أكثر احتمالاً ، كما سيدخل لذلك عنصراً من التناقض في اعمالنا .

لكن وفي الوقت الذي يجب أن تمضي فيه العملية الرئيسية بالاسبقية على الاعمال الصغيرة ، لابد أن تعمم هذه الاسبقية على كل اجزائها . اما القرار على اية قوات ومن اي مسرح يجب أن تتقدم نحو مركز الثقل المشترك فيتخذ عرضاً ، لذلك فكل ما نقوله هو ضرورة توفر **جهد** للتأكد من ان للعملية الرئيسية **حق التصدر والاسبقية**. وكلما تحققت هذه الاسبقية بشكل أكبر واقوى ، كلما زادت بساطة كل الامور الاخرى ، وكلما قلّ ما يُترك للصدفة .

المبدأ الثاني هو الاستخدام السريع لقواتنا

كل هدر غير ضروري للوقت ، وكل انحراف أو تحويلة لا مبرر لها ، هما تضييع للقوة وبالتالي منافٍ للفكر الاستراتيجي . ومع ذلك فمما له اهمية اكبر بعدُ هو أن نتذكر أن الفائدة الوحيدة للهجوم تقريباً ، ترتكز في المباغتة الاولية. السرعة والزخم هما اقوى عناصرها، ولا يمكن الاستغناء عنهما عادة إن اردنا دحر العدو .

وهكذا **تتطلب النظرية أقصر الطرق إلى الهدف**. اما المناقشات التي لا نهاية لها حول الحركة يميناً او يساراً ، او للقيام بهذا الشيء او ذاك فمناقشات عقيمة لا طائل ورائها .

إذا تذكرنا ما سبق لنا قوله[1] عن غاية الهجوم الاستراتيجي ، وعما قلناه في الفصل الرابع اعلاه ، حول تأثير الوقت ، فلا نرى من ضرورة لاي جهد اضافي لتأكيد أهمية اعطاء هذا المبدأ الاسبقية التي اعتبرناه جديراً بها .

لم ينسى نابليون بونابرت ذلك ، وكان يفضل سلوك أقصر الطرق دائماً بين جيش (معادي) وآخر ، أو ما بين اية عاصمتين .

والان ، فما الذي يحدد العملية الرئيسية التي اعتبرناها مركزية لكل ما عداها والتي نؤكد على السرعة والتنفيذ الدقيق؟

لقد اوضحنا في الفصل الرابع اننا نعني بدحر العدو ، ان يتم ذلك الى الحد الذي يمكن ان يعنيه في التعابير العامة ، لذلك ما من حاجة لتكرار ذلك . مهما كان الشيء الذي سينتهي إليه العمل الاخير في اية حالة بعينها ، تظل البداية هي نفسها،

---

(١) الفصل ٣ الكتاب السابع – المشرف . Eds

ودونما تغيير يذكر – ابادة القوات المسلحة المعادية ، والتي تتضمن انتصاراً رئيسياً ، والتدمير الفعلي لها . كلما أمكن تحقيق نصر كهذا مبكراً – اي كلما كان اكثر قرباً إلى حدودنا – كلما **زادتسهولته**. وكلما تأخر خوض المعركة الرئيسية – اي الاكثر عمقاً في اراضي العدو – كلما **زادحسمها** تأثيراً . هنا ، وكما في اي مكان آخر ، تظل قضية النجاح وحجمه في الميزان In balance.

لذلك ، وما لم يكن الطرف المعني قوي لدرجة يعد النصر فيها مؤكداً ، فيجب ازاحة قوة العدو الرئيسية ان امكن . ونقول « أن امكن » اذ سيعد ذلك خطأً اذا تضمن انحرافاً كبيرا (detours) ، أو اتبع الطريق الخطأ وتسبب في ضياع الكثير من الوقت . وما لم تكن قوة العدو الرئيسية على طريق تقدمنا ، وإن حالت اسباب اخرى دون ازاحتها ، فعلينا تأجيل البحث عنها ؛ نظراً لانها لن تعجز في النهاية عن مجابهتنا . لذلك وكما اوضحنا للتو سنخوض المعركة في ظروف أقل ملائمة لنا – وهذا ضرر لابد لنا من قبوله. مع ذلك، فان ربحنا المعركة فسيكون نصرنا اكثر حسماً .

اما ان كانت القوة الرئيسية للعدو ، في هذه الفرضية ، تقع على طريق تقدمنا، سيكون من الخطأ تخطيها عمداً ، على الاقل ان كنا نهدف من وراء ذلك تسهيل انتصارنا . من الناحية الاخرى تفترض فكرتنا قدرتنا على تجنب العدو شرط تفوقنا الحاسم، كي نجعل انتصارنا النهائي مدوياً .

نحن نتحدث عن انتصار شامل – لا مجرد ربح معركة بسيطة ، بل اندحار كامل للعدو . يتطلب انتصار كهذا هجوماً تطويقياً ، أو معركة بجهات متعاكسة ، أياً منهما ، سيجعل النتائج حاسمة دائماً . عندها من الضروري لاية خطة عمليات توخي ذلك من حيث القوات اللازمة لمهمة كهذه ، وكذلك الاتجاه الذي سيحدد لها . سنقول الكثير في الفصل الخاص[1] بالتخطيط لحملة .

ليس من المستحيل بطبيعة الحال ان تنتهي معركة ما بانتصار شامل حتى لو جرت بجبهات متوازية ، ويقدم لنا التاريخ العسكري امثلة على ذلك ، الا ان حالات كهذه نادرة وتقل اكثر كلما تقاربت الجيوش من بعضها في التدريب والمهارة . اذ لا

---

(١) لم يكتب فصل كهذا – المشرف .

يمكن أسر واحد وعشرين فوجاً في قرية واحدة كما حدث في بلنهايم [1].

حال تحقيق انتصار كبير فلا مجال لاي حديث عن توقف اوراحة ، او حتى لاستعادة الانفاس ، أو لاعادة النظر في الموقف او لتقويته وغير ذلك ، بل بالتركيز على المطاردة فقط ، ومهاجمة العدو من جديد ان لزم الامر ، واحتلال عاصمته ، ومهاجمة إحتياطاته أو أي شيء آخر قد يمنح بلد العدو المساعدة والانعاش .

اذا ما دفعنا زخم الانتصار الى اكتساح حصون العدو ، سيعتمد أمر محاصرة تلك الحصون من عدمه على قوتنا . فان كان تفوقنا كبيراً ، فلن نخسر الكثير من الوقت في احتلالها باقرب ما بوسعنا ، لكن ان لم نكن على ثقة تامة من ان نجاحاً جديداً بانتظارنا، يتوجب علينا محاصرة تلك الحصون باقل ما يمكن من القوات التي تستبعد أي تفكير بفرض حصار تقليدي . ومنذ اللحظة التي يفرض علينا فيها حصار قلعة ما تعليق التقدم، يكون الهجوم **وكقاعدة** قد وصل نقطة الذروة . لذلك نسعى من اجل مواصلة القوة الرئيسية التقدم السريع وادامة الضغط . لقد رفضنا للتو ، بل واستسخفنا فكرة ايقاف التقدم نحو الهدف الرئيسي وأنتظار تحقيق النجاح في نقاط ثانوية . لذلك وكقاعدة فلن تترك القوة الرئيسية خلفها أكثر من شريط ضيق من الارض ، يمكن ان تدعي عائديته والذي سيشكل مسرح عمليات لها. قد يحد ذلك

---

(١) معركة بلنهايم (اب/١٧٠٤) احدى معارك حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١-١٤) عندما لم يترك اخر ملوك آل هابسبرج في اسبانيا وريثاً فسعت فرنسا والنمسا الى ايصال مرشحيهما الى العرش ولم توافق بريطانيا وهولندا البحريتين على اتحاد اسبانيا مع اي من فرنسا او النمسا ، وتألف التحالف العظيم من انكلترا وهولندا والنمسا وبروسيا ومعظم الولايات الالمانية كما انضمت البرتغال فيما بعد ضد فرنسا التي تحالفت معها سافوي ومانتوا وكولون وفيما بعد (بافاريا) كما غيرت سافوي موقفها بعد ذلك. وفي حملة بلنهايم هذه هاجم الانكليزي (مارلبورو) وايوجين (النمساوي) في آن واحد وعبر نهر (نيل Nebel) في الساعة (١٢٣٠). هاجم مارلبورو اولاً قرية بلنهايم (قرب النهر) و(اوبركلو) حوالي ميلين الى الداخل لتثبيت احتياطات الفرنسيين . كانت خسائر البريطانيين في هجومهم كثيرة الا انهم حققوا هدفهم . كما استخدم الجنرال تالارد (الفرنسي) الاحتياط في القتال . بعد ان عرف مارلبورو أن ايوجين يتقدم ببطء ويخوض قتالاً عنيفاً على اليمين وفقاً للخطة المعدة ، هاجم مارلبورو في الساعة ١٦٣٠ بخيالته ونجح بعد ساعة باختراق مركز قوات (تالارد) الذي تمزق جيشه ووقع هو نفسه اسيراً كما غرق الكثير من رجاله في الدانوب ، وقبل ان يكمل مارلبورو احاطته من اليمين عند الغروب تمكن الجنرال مارسن (الفرنسي) وما كسميليان (ناخب بافاريا) من جر معظم جيشيهما من كماشة ايوجين ومارلبورو . خسر الحلفاء (-ر١٢) الف بين قتيل وجريح وبلغت خسائر الفرنسيين والبافاريين (٦٠٠ر٢٨) الف بين قتيل وجريح واسير (تعليق للموسوعة العسكرية - ما من مثال افضل في التاريخ للتعاون والتنسيق بين الحلفاء مما فعله مارلبورو وايوجين في هذه المعركة والحملة وقد انحطت مكانة فرنسا وجيشها كما هرب ناخب بافاريا من بلده التي ضمت الى النمسا). موسوعة التاريخ العسكري (بالانكليزية) ص ٦٢٠ . المترجم

من الزخم عند الجبهة وكما سبق لنا القول ، ويعرض المهاجم الى بعض المخاطر . انها معضلة ؛ فهل لن تصل تلك التوجيهات الى المكان الذي سيتوقف فيه اي تقدم اضافي ؟ هذا أمر ممكن تماماً . لكن وكما أوضحنا فمن الخطأ المحاولة ومنذ البداية بتجنب مسرح عمليات ضيق وبالتالي تجريد الهجوم من زخم اندفاعه ، ونصر على الدوام بان القائد وطالما لم ينجح بدحر عدوه بعد ، وطالما ما زال واثقاً من كفاية قوته لتحقيق أهدافه ، فعليه ان يواصل ذلك بدأب . قد تتزايد المخاطر التي يواجهها وهو يفعل ذلك ، الا ان نجاحه بالمقابل سيكون اكبر كثيراً . اما اذا بلغ النقطة التي لا يجروء على المضى لما بعدها، واذا ما شعر بان عليه الامتداد يميناً ويساراً لتأمين الحماية لمناطقه الخلفية عندها من المحتمل كثيراً ان هجومه قد وصل ذروته . وقد استنفذ زخمه ، واذا كان العدو سليماً بعد ، فمن المحتمل ان لا مستقبل امام المهاجم على اية حال بعد.

يعني ما بوسع القائد فعله لتطوير تعرضه باحتلال القلاع ، والممرات والمناطق، من جهة اخرى ابطاء التقدم، الا ان التقدم أمر نسبي ، وليس مطلقاً ابداً فقد اوقف انسحاب العدو السريع والماحق ، ولعله اكمل استعداداته لتجديد المقاومة ، ومن الممكن الآن ورغم مواصلة المهاجم تحسين موقفه ، فان المدافع ، وبمحاولته الشيء نفسه سيزيد من فرص نجاحه يومياً . والخلاصة ، نحن نكرر، انه وحالما يغدو التوقف ضرورياً ، فليس من مجال بعده وكقاعدة لمعاودة التقدم .

كلما تفرضه النظرية وما دامت الغاية هي دحر العدو ، ان لا يعرقل الهجوم أو أن يُعتَرض واذا تخلى القائد عن تلك الغاية لضخامة المخاطر التي تعترض الهجوم ، فمن حقه ايقاف الهجوم وتوسيع جبهته . والنظرية لا تتفق معه وستلومه فقط اذا فعل ذلك لاجل تسهيل دحر العدو .

لسنا حمقى حد الادعاء بخلو التاريخ من مثال انهكت فيه دولة ما حتى النهاية على درجات. والفرضيات التي نطرحها ليست حقائقاً مطلقة ودون استثناء لكنها تعتمد وببساطة على المسار الطبيعي والمحتمل للأحداث . بالاحرى ، علينا أن نميز ما اذا كان سقوط دولة ما كان النتيجة المتدرجة لعملية تاريخية ، أو أن ذلك كان نتيجة لحملة منفردة . نحن نعالج هنا ونتعامل مع النوع الاخير فقط ، اذ وهنا فقط تكون القوات في حالة توتر وجهد وليس امامها سوى التغلب على مثل تلك المصاعب والا تعرضت لخطر الخضوع امامها . ان لم يحقق القتال في السنة الأولى سوى فوائداً

قليلة ، الا انه يتزايد في السنة التالية شيئاً فشيئاً ولكن بنسب صغيرة في التقدم نحو الهدف ، فالخطر مميت لا محالة ، الا انه ولهذا السبب بالذات سيكون اكثر انتشاراً. كل توقف ما بين احد النجاحات والاخر يعطي العدو فرصاً جديدة ، وليس لاي نجاح سوى تأثير قليل على النجاح التالي[١] ، وغالباً ما ينعدم هذا التأثير . بل قد ينعكس حتى، فاما سينجح العدو بالتغلب على المصاعب والنهوض من جديد في مقاومة اشد عنفاً ، او يحضى بالمساعدة من اي مكان آخر . لكن عندما يستمر زخم واندفاع عملية منفردة من البداية حتى النهاية ، فإن انتصار الامس سيؤكد انتصار اليوم ، وان كل نار ستوقد ناراً أخرى. ففي كل حالة تقترب فيها دولة ما من الدمار بفعل الضربات المتتالية – والتي تعني في حينها ان انصار المدافع قد تحولوا إلى الجانب الاخر – فهل هناك من حالات اكثر كان الدمار فيها من تخطيط المهاجم!. يكفي الاستشهاد بنتائج حرب السنوات السبع ، وحيث سعى النمساويون من اجل هدفهم بمثل هذا التلهي والاحتراس والحذر حتى عجزوا عن تحقيقه نهائياً .

على ضوء ذلك لا نستطيع الاعتقاد بأن الاهتمام بتأمين مسرح العمليات وادارته بشكل جيد يجب ان يسيرا سوية مع اندفاع الهجوم وان يكون على كفتي ميزان . بل وعلى العكس ، فنحن نعتبر الاضرار والمحاذير المرافقة للهجوم كشرور لا يمكن تجنبها ولا يجوز لها أن تستأثر بانتباهنا الى ان تنتهي اية امال في الهجوم [٢].

اما حملة نابليون عام ١٨١٢ ، فهي ابعد كثيراً من ان تقلل او تضعف حجتنا، بل انها تدعمها وتؤكدها .

لقد فشلت حملة نابليون ليس لتقدمه السريع ، أو انه ذهب بعيداً كما يُعتقد عادة ، بل لفشل الطريقة الوحيدة لتحقيق النجاح . فليست روسيا بالبلد الذي يسهل قهره اسمياً او صورياً – اي احتلاله – وبالتأكيد ليس بالقوى الحالية للدول الاوروبية، حتى ولا بنصف المليون جندي الذين حشدهم نابليون لهذا الغرض . الا ان الضعف والانهيار الداخلي، ومعضلات التمزق والتجزأة يمكن ان تؤدي ببلد بهذا الحجم الى الدمار . وللضرب على انواع الضعف تلك في حياته السياسية من

---

(١) ليس من السهل الاقرار بانعدام العلاقة بين نجاح وآخر لا سيما في مسرح حرب او عمليات واحد الاعلى سبيل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، والطبيعي ان النجاحات المتالية تشكل حلقات متالية في سلسلة واحدة حتى وان بدت على انها منفردة وكل على حدة – المترجم .

(٢) تابعنا هنا النص كما في الطبعة الثانية نظراً لان النص في الطبعة الاولى قد تعرض لتشويه كثير – المشرف. Eds

الضروري الاندفاع نحو مركز (قلب) الدولة . بوصول نابليون الى موسكو وهو قوي فقط، بوسعه ان يأمل بهز عصب الحكومة (الروسية) واخلاص وتماسك الشعب وصمودهما، وفي موسكو كان يأمل بالوصول إلى السلام ، وهي الغاية المعقولة للحرب التي بوسع نابليون توخيها لنفسه.

لقد تقدم بقوته الرئيسية ضد مثيلتها الروسية . لقد تقهقرت القوات الروسية امامه ، وتجاوزت معسكر (دريسا) ولم توقف انسحابها الا في سمولنسك . وقد اجبر الجنرال بكراشين على الانسحاب كذلك ، ثم دحر الجيشين واحتل موسكو . وكرر نفس ما كان يعمله دائماً . اذ تمكن بذلك من السيطرة على اوربا ، وهي الطريقة الوحيدة التي مكنته من تنفيذ ما فعله. ما من أحد ممن اعجبوا بنابليون بونابرت كقائد عظيم في حملاته السابقة يشعر نحوه بأي شيء من ذلك أو بتفوقه وعلى الاخص في حملته هذه .

من المعقول جداً ان نحكم على الحدث على ضوء نتائجه ، لانها تشكل المقياس الاكثر منطقية . لكن لا يجوز اعتبار الحكم المبني على النتيجة وحدها دليلاً على الحكمة الانسانية . ليس محاولة اكتشاف سبب فشل حملة ما كانتقادها ، أما أن مضينا بذلك واوضحنا الاسباب التي كان يجب ويمكن رؤيتها ومعالجتها ، فنحن نأخذ دور الناقد ، ونضع انفسنا غالباً فوق القائد .

اما من يؤكد ان حملة ١٨١٢ كانت حماقة كاملة بسبب فشلها الذريع الا انه كان سيعتبرها انجازاً رائعاً لو انها حققت اهدافها فانما يؤكد لنا عجزه التام عن الوصول الى احكام سليمة .

لنفترض أن نابليون قد توقف في (ليثوانيا)، كما يرى الكثير من نقاده ان عليه التوقف والانتظار هناك للأستفادة من قلاعها (ومن عرض القول التذكير ان «ريغا» التي تقع على احد جانبي محور التقدم كانت هي الوحيدة، اما بوبروسك فليست سوى موضع صغير وبائس)، اذ كان ذلك سيجره الى عمليات دفاعية طوال الشتاء. عندها سيكون اؤلئك النقاد أول من يعلن «انه لم يعد نابليون نفسه: انه لم ينجح حتى بفرض اولى معاركه الكبرى – فهو الرجل الذي اعتاد ان يختم اجتياحه الدول المعادية بانتصارات في اخر مواضعهم واستحكاماتهم، كما فعل في

(معسكر دريسا) – راجع الهامش في الفصل (١٣) الكتاب السادس. ص(٥٧٤)

اوسترلتيز وفريد لاند. كانت موسكو، العاصمة المعاديه دون دفاع – ومتهيئة للأستسلام. فلماذا فشل في احتلالها، واضطر الى تركها كنقطة تجمع للمقاومة الجديدة؟ لقد كان حظه لا يصدق في مباغتة هذا العملاق البعيد، وكأنه مدينة قريبة، او كما تفوق الملك فردريك الكبير على جارته الصغيرة سيليزيا – مع انه لم يستثمر هذه الميزة، فقد ضيع انتصاره المدوي وكأن الشيطان في اعقابه». وهذا هو ما اعتدنا سماعه من كلام، اذ وبهذه الطريقه صاغ معظم النقاد احكامهم.

اما نحن فنرى ان حملة ١٨١٢ قد فشلت بسبب محافظه الحكومة الروسية على اعصابها ومواصلة الشعب صموده وولاءه. وما كان يمكن ان تنجح الحملة . بل لعل نابليون قد أخطأ بالتورط فيها اساساً . ونتائجها وحدها تؤكد لنا على الاقل انه اخطأ حسابها ، الا اننا نرى ، إن كان نابليون قد توخى ذلك الهدف حقاً ، فما من طريقة أخرى عموماً لتحقيقه .

بسبب قلقه من التورط بحرب دفاعية باهظة التكاليف ولا متناهية في الشرق تضاف الى حربه في الغرب ، جرب نابليون الوسائل التي بحوزته فقط – أي هجوم مقدام كان سيجبر عدوه المنهار على عقد الصلح . وكان عليه قبول مخاطر فقده لجيشه في العملية ، كان هذا هو الرهان الكبير في اللعبة، وثمن امله الكبير. لعل خطأه هو أن جيشه عوقب باذلال قاس اكثر من المعتاد، الا ان الخطأ لم يكن في العمق الذي اندفع إليه عند اختراقه روسيا، فذلك كان هدفه وأمر لا يمكن تجنبه. بل يكمن الخطأ في تأخيره بدء الحملة، وفي الارواح التي اتلفها بسبب اساليبه في العمل، وتجاهله شؤون التموين وسلامة خط انسحابه. واخيراً طول اقامته في موسكو.

اما ما فعله الروس لقطع طريق نابليون عند نهر بيريسنا[1] بأمل قطع خط انسحابه ، فلن يشكل ايضاح ذلك حجة كبيرة ضدنا[2] فقد اوضحت المعركة نفسها

---

(١) نهر بيريسنا – يقع شرق منسك في روسيا ، وهو احد روافد نهر الدنيبر وعمودي على طريق انسحاب نابليون بعد فشل حملة ١٨١٢ . المترجم .

(٢) تستحق حملة ١٨١٢ بحثاً خاصاً لما تثيره من جدل حتى الآن ، وتمثل اراء كلاوزفيتز وجوميني وهانزدلبروك اكثر الاراء أهمية ، ويرى دلبروك ان فشل الحملة يعزى الى قلة ما تبقى من قطعات مع نابليون عند وصوله موسكو اذ لم يكن معه سوى (١٠٠) الف ولو كان معه ضعف هذا العدد لانهى الحملة بنجاح اما الطقس فكان عام ١٨١٢ افضل من غيرها بكثير . راجع للمزيد.

History of the Art of war . Vol-IV-Hans Delebruck - chap-3 . pp-421-448

حيث قدم دلبروك دراسة قيمة ومستفيظة للحملة – المترجم .

صعوبة انجاز هدف كهذا . كما كانت الظروف على اسوأ ما يمكن تصوره ، الا أن الفرنسيين تمكنوا من شق طريقهم بالقتال بشكل ما . لقد عمق هذا الحدث ككل من المأساة الا انه لم يكن سببها . ثانياً : مكنت الطبيعة غير الاعتيادية للبلاد وحدها الروس من انجاز معظم ما انجزوه فلو لم يتقاطع الطريق الرئيسي مع مستنقعات (بيريسنا) وحيث تكثر الغابات التي يصعب اجتيازها ، لكان من الصعب جداً عرقلة انسحاب الجيش الفرنسي. ثالثاً : كانت الطريقة الوحيدة للتحسب لذلك الخطر هي بالتقدم على جبهة بعرض مناسب الامر الذي كنا قد اعترضنا عليه للتو ، فحالما نبدأ بالتقدم في الوسط (المركز) تاركين خلفنا جيوشاً (قوات) كقوات حماية جناح (أو ، مجنبات) إلى اليمين واليسار ، فاي حادث سيء على احدها سيدفعنا الى سحب المركز، وبعدها لا يمكن ان نأمل بشيء من التعرض .

لا يمكن القول ان نابليون قد تجاهل اجنحته . فهناك قوة متفوقة تجابه ويتنشتاين . اما في «ريغا» فهناك قوة حصار كافية – والتي كانت ، بالصدفة ، اكثر من الحاجة، كما كانت قوة من (٥٠) الف رجل بقيادة شوارزنبرغ في الجنوب ، تتفوق على قوة الجنرال تورمازوف وتعادل تقريباً قوة الاميرال (الروسي) شيشاكوف. تضاف الى ذلك قوة الماريشال الفرنسي فكتور من (٣٠) الف رجل كاحتياط مركزي . وحتى في اشد الظروف حراجة ، اي في شهر نوفمبر (تشرين ثاني) وعندما زادت القوات الروسية في الوقت الذي تناقصت فيه القوات الفرنسية ، لم يحقق الروس تفوقاً فيما وراء جيش موسكو . بلغ مجموع قوات ويتنشتاين ، وشيشاكوف والماريشال ساكن (١١٠) الف رجل موزعة ما بينهم . اما القادة الفرنسيون شوارزنبرغ وفكتور والجنرال جان رانيير فما زال بامرتهم (٨٠) الف رجل . ولم يعط اكثر القادة حذراً حماية اكبر من هذه لاجنحته في مسيرته. ومن الـ (٦٠٠) الف رجل الذين عبر بهم نابليون نهر نيمين عام ١٨١٢م كان بوسع نابليون الانسحاب ومعه (٢٥٠) الف رجل بدلاً من الـ (٥٠) الف رجل الذي عبروا النهر بامرة شوارزنبرغ ونايير وفكتور وماكدونالد، لو لم يرتكب نابليون الاخطاء التي استحق لومنا له بسببها، ومع ذلك فستظل الحملة فاشلة بنفس الدرجة. وليس هناك ما يمكن انتقاده من الناحية النظرية ، ففقد اكثر من نصف الجيش في حالة كهذه ليس امراً غير اعتيادي . وان هزنا ذلك على هذه الصورة فالسبب هو وبكل بساطة نطاق الحملة .

قلنا الكثير عن العملية الرئيسية ، والشكل الذي يجب أن تتخذه والمخاطر التي لا يمكن ملافاتها . اما عن العمليات الثانوية فنحن نؤكد ان لها غاية عامة ، الا ان هذه الغاية يجب أن تكون بشكل لا تشل او تعرقل معه انشطة الاجزاء المختلفة . فلو فكر أحدٌ يغزو فرنسا من اعالي واسفل الراين ومن هولندا ، مستهدفاً التقاء قواته في باريس ، ثم اذا أمر كل جيش بعدم قبول اية مخاطر ، والمحافظة على الجيش سالماً (intact) لاطول فترة ممكنة حتى الوصول إلى نقطة الالتقاء (المثابة Rendezvous)، فخطة كهذه في نظرنا ليست سوى **كارثة** . لابد ان تحقيق نوع من التوازن بين الجيوش امر شبه مؤكد كما سيؤدي الى بعض التعويق ، والجبن والتردد والحيرة لكل منهن . وسيكون من الافضل تخصيص مهمة (Mission) كل جيش والاصرار فقط على العمل الموحد عندما تتزامن الانشطة المختلفة لتلك الجيوش الثلاث في نقطة ما .

يعد فصل القوات من اجل اتحادها ثانية بعد بضعة ايام، سمة لكل الحروب تقريباً ، الا انها في الاساس لا معنى لها . اذا أُفرزت قوة فينبغي ان يعرف السبب (لماذا) ، **والغرض** (Purpose) من وراء ذلك . ولا يمكن ان يكمن هذا الغرض في التجمع التالي وكما في الرقصة التي يؤديها اربع ازواج من الراقصين (quadrille) وتدعي «الكوادريل»[1] .

لذا اذا شنت الجيوش هجماتها في مسارح عمليات مختلفة ينبغي اعطاء كلاً منها هدفاً متميزاً . **والمهم هنا** ان الجيوش وحيثما استنزفت كل طاقاتها فلن يعني ذلك انها حققت نجاحات تتناسب وذلك .

اذا وجد احد الجيوش ان مهمته جمة المصاعب لان خطة ودفاعات العدو لم تكن كما كان متوقعاً ، او لسوء حظ صادف ذلك الجيش المهاجم، فلا يجوز تعديل اعمال وتحركات الجيوش الاخرى ، والا لتعذر تحقيق اي نجاح عام وشامل منذ البداية[2]. لكن وعند مصادفة كل الجيوش لمصاعب، او لسوء حظها جميعاً أو عند فشل العملية الرئيسية، عندها فقط، من الضروري والمناسب ايضاً ان تتأثر اعمال الجيوش الاخرى . وسيغدو من المؤكد ان الخطأ يكمن في الخطة او انها سارت مساراً خطأً .

---

(١) رقصة الكوادريل – رقصة من خمسة حركات يؤديها اربع ازواج من الراقصين يحتل كل زوج منهم احد اضلاع المربع ، كما تطلق التسمية على الموسيقى المرافقة للرقصة – قاموس موسوعة وبستر – المترجم.

(٢) راجع الهامش السابق (ص٨٦٦) لملاحظة التناقض في الموازنة بين تحركات الجيوش وعلاقة نجاح احدها بالاخر – المترجم .

ينبغي كذلك تطبيق تلك القاعدة على الجيوش والقوات المفرزة التي حدد لها دور دفاعي وتركت لها الحرية عند نجاحها بالتحول الى التعرض – ما لم يفضل احدهم تحويل وحداتهم المتفوقة الى النقطة الرئيسية للتعرض . عندها سيتحول الامر اساساً الى نوعية وجغرافية مسرح العمليات .

لكن ما الذي سيأتي من الشكل الهندسي ووحدة الهجوم ككل ؟ وماذا سيحدث على جناحي ومؤخرة الارتال الموازية للوحدات القائمة بالعمليات ؟ هذا هو بالضبط النوع الذي يهمنا من التوجه القتالي . فالدمج ما بين التعرض الرئيسي ومساحة هندسية ليس سوى تخبط وضياع في اطر فكرية زائفة .

اوضحنا في الفصل الخامس عشر من الكتاب الثالث ، ان العنصر الهندسي اقل تأثيراً في الاستراتيجية منه في التعبية ، ولا نحتاج عند هذه النقطة اكثر من تكرار هذا الاستنتاج وهو ان النجاح الحقيقي في نقاط محددة، وخصوصاً في التعرض ، يستحق انتباهاً اكثر من الشكل الذي قد يتطور تدريجياً من الفرص المتعددة والمتنوعة للهجوم في نقطة او اخرى.

على اية حال ، وبملاحظة المناطق الواسعة التي تهتم بها الاستراتيجية، يمكن ان يترك للقائد العام حرية التعامل مع الحجج والقرارات التي تنظم النمط الهندسي للأقسام ، لذلك فليس للقادة المرؤوسين (الثانويين) الحق بالتساؤل عما يفعله جيرانهم او عما فشلوا في فعله. يمكن ان يطلب من اي منهم التركيز على تنفيذ الاوامر الصادرة اليه. فان حدث تبدل او انحراف جدي في اماكن القوات فللقائد العام الحق بتصحيح ذلك. وبهذه الطريقة يمكن الغاء الاعتراضات التي توجه للعمليات المنفصلة – ونعني بها ، الشكوك والظلال التي تحيط بالحقائق بسبب المخاوف والافتراضات التي تتسرب الى المسار الحقيقي للأحداث ، لذلك لن يقتصر تأثير الاخطاء وسوء الحظ على الجزء الذي يتعرض له فقط ، بل سينتقل وكالعدوى الى كل الاجزاء الاخرى ، كما سيعطي للضعف البشري والتعاطف ما بين القادة المرؤوسين دورا وأهمية اكبر .

لا نعتقد ان وجهة النظر هذه ستبدو ، او يحتمل ان تبدو متناقضة في نظر اؤلئك الذين امضوا الكثير من الوقت والتفكير في دراسة التاريخ العسكري ، وتعلموا التمييز ما بين الاساسي والثانوي ، ويدركون تماماً تأثير الضعف البشري.

من الصعب وكما سيقر بذلك كل ذوي الخبرة من القادة ، وحتى من وجهة

النظر التعبوية تحقيق النجاح لهجوم يشن بعدة ارتال منفصلة بتنسيق بسيط بين كل الاقسام . لكن كم هي درجة الصعوبة ، او بالاحرى ، ما مدى استحالة ذلك في الاستراتيجية ، وحيث تكون الفاصلات اكبر بكثير!!. ان كان التنسيق الهادىء بين جميع الاقسام سيكون شرطاً مسبقاً للنجاح، لعل من الافضل التخلي عن هجوم استراتيجي من هذا النوع كليا. إلا أن المرء ليس حراً كلياً من ناحية اولى لرفض ذلك، طالما انه قد يفرض بحكم الظروف التي يعجز المرء عن تغييرها ، بينما ومن الناحية الاخرى ، فان التنسيق الهادئ لكل اجزاء العمل من البداية الى النهاية ليس ضرورياً حتى في التعبية ، ناهيك عن الاستراتيجية . اذن فهناك من وجهة نظر الاستراتيجية ، كل ما يبرر تجاهله من اسباب ؛ ومما له اهمية اكبر هو الاصرار على اعطاء كل جزء واجب مستقل .

يجب علينا اضافة تعليق مهم يخص التقسيم الواضح والدقيق للعمل .

كان الجيش النمساوي الرئيسي عام ١٧٩٣و ١٧٩٤ في هولندا ، والجيش البروسي في اعلى الراين . ثم سارت القطعات النمساوية بعدها من فينا الى كونديه (Conde) و(فالينسيانيز) وقد اجتازوا الممر البروسي الى (لاندوا) من برلين. نقر بان النمساويين كانوا معنيين بالدفاع عن المناطق البلجيكية التي بحوزتهم ، وانهم كانوا يرحبون بأي غزو للفلاندرز الفرنسي . الا ان ذلك الاهتمام لم يكن سبباً كافياً لتلك الترتيبات ، ثم وبعد موت الامير كوانتز (كونت نمساوي ورجل دولة ١٧١١ - ١٧٩٤) ، قرر البارون ثوكوت (١٧٣٦-١٨١٨) وزير خارجية النمسا ، اخلاء الاراضي المنخفضة كلياً ليوفر لقواته تحشداً أفضل . وتبعد النمسا عن الفلاندرز ضعف بعدها عن الالزاس ، وفي وقت تكون فيه القوات محدودة جداً، ويتم فيه دفع اثمان مذخرات التموين نقداً فليس ذلك بالامر الهين او قليل الاهمية . لكن ما زال فكر البارون ثوكوت مشغولاً بأمر أخر . كان يريد مجابهة هولندا ، وانكلترة وبروسيا، وهي القوى الاكثر اهتماماً في الدفاع عن الاراضي المنخفضة واسفل الراين، مع تزايد الخطر كثيراً، والحاجة الى بذل جهود كبيرة جداً . لقد اخطأ الحساب فما من طريقة يومذاك لدفع بروسيا الى تغير سياستها ، الا أن تلك الاحداث تظهر لنا مدى تأثير الأعتبارات السياسية على مسار الحرب .

لم يكن لبروسيا ما تدافع عنه او تجتاحه في الالزاس. لذا جرى مسيرها عام ١٧٩٢ عبر اللورين الى (شامبين) بروح الفروسية ، لكن وطالما تحولت الامور بشكل

تعد معه العملية بشيء ولو قليل ، تابعت بروسيا الحرب دون حماس . لو كانت القطعات البروسية في الاراضي المنخفظة ، فانها ستكون جوار هولندا التي كانوا يعدونها ملكاً لهم ، وقد احتلوها عام ١٧٨٧ ، وكان بوسعهم يومها تغطية اسفل الراين ومعه جزء من بروسيا ، وهو القريب الى مسرح العمليات . لقد حققت بروسيا وعبر علاقات دولية تحالفاً قوياً مع انكلترة ، وبذا غدت اكثر تورطاً في المكيدة التي ستغدو مع الوقت جريمة.

لو كانت النمسا قد حشدت قوتها الرئيسية في اعالي الراين ، وحشدت بروسيا قواتها في الاراضي المنخفضة ، لكان لذلك تأثير اكبر ، الا ان النمسا لم تترك هناك سوى قوات قليلة.

لو كان الجنرال (براكلي) هو الذي قاد جيش سليزيا عام ١٨١٤ بدلاً من الماريشال الشجاع بلوخر ، وبقي بلوخر مع الجيش الرئيسي بقيادة شوارزنبرغ لانتهت الحملة الى فشل ذريع وكامل . ومرة اخرى فلو ان القائد الشجاع (لادون) لم يتخلى عن سليزيا التي تعد الجزء الاقوى من بروسيا ، كمسرح للعمليات ، وظل بدلاً من ذلك مع جيش الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لتغير مصير حرب السنوات السبع ولانتهت عكس ما انتهت إليه فعلاً .

لنلقي نظرة اكثر قرباً ، ولنتفحص السمات الرئيسية للحالات التالية:

الاولى : عندما تشن حرب مشتركة مع قوى اخرى لا تعد حليفة لنا بل، لها مصالح مستقلة .

الثانية : عند تسارع كل جيوش حلفاءنا لمساعدتنا .

الثالثة : وهي حيث كل ما يهم في الامر هي شخصيات القادة .

اما في الحالتين الاولى والثانية اعلاه فالسؤال هو اذا ما تم جمع ومزاوجة مختلف القطعات المتحالفة بشكل جيد ، بحيث تضم الجيوش فيالقاً من جنسيات مختلفة وكما في عامي ١٨١٣-١٨١٤ ، او بقاءها منفصلة ومنظمة على افضل ما يمكن ليؤدي كلا منها دوراً مستقلاً . من الواضح ان الاسلوب الاول يعد الخطة الافضل، الا انه يتطلب حداً فريداً من الصداقة والمصالح المشتركة . ما من شك في ان دمج القوات على هذا الشكل سيجعل من الصعب على حكومات تلك القوات مراعاة ومتابعة مصالحها الخاصة؛ اما بخصوص انانية وتطلعات قادتهم ، فان التأثير

الضار لذلك يمكن وفي ظروف كهذه ان يظهر بوضوح بين القادة المرؤوسين (الثانويين) – اي في المستوى التعبوي ، ومع ذلك فلن تنطلق هذه النزعات بحدة ودون رقابة لو كانت القوات الوطنية منفصلة تماماً. اما في الحالة الثانية فانها ستمتد الى الاستراتيجية ، كما ستتأثر القضايا الحاسمة . لكن وكما سبق لنا القول ، فان درجة فذة من التواضع والصمت مطلوبان من الحكومات. والضرورة المحض هي التي دفعت الجميع في ذلك الاتجاه عام ١٨١٣. مع انه ليس بوسع المرء بعد ان يثني على او يمتدح قيصر روسيا. فمع انه قاد اكبر الجيوش في الميدان ، وكان له النصيب الاكبر في تحويل حظوظنا ، الا انه وضع قواته تحت امرة جنرالات بروسيين ونمساويين ولم يبد اي رغبة او استعداد لقيادة قوة روسية مستقلة.

ان تعذر دمج القوات بهذه الطريقة ، فنحن نقر بان الافضل ابقائها متكاملة بدلاً من الفصل الجزئي لها . واسوأ المواقف كلها وعلى الدوام هو ما ينتج عندما يقتسم جنرالان مستقلان ومن جنسيتين مختلفتين مسرحاً واحداً كما حدث غالباً بين روسيا ، والنمسا والقوات الامبراطورية[1] في حرب السنوات السبع . فان جرى تقسيم القوات كلياً فمن السهل عندها تجزأة الاعباء ، وسيعاني كل جيش عندها من معضلاته هو. وستدفع الظروف الانية كل جيش لبذل أكبر ما يمكنه من الجهد، اما ان كانت بتماس وثيق مع بعضها البعض ، او حتى عندما تكون في مسرح عمليات واحد ، فان ذلك لن يقع ، بل وما هو اكبر من ذلك فان ابدى احدهم اخلاصا اقل فسيصيب ذلك الاخرين بالشلل .

لن يتسبب التقسيم (الفصل) الكلي باي اذى في الحالات الثلاث التي حددتها، فالمصالح الطبيعية لكل دولة هي التي توضح الكيفية التي ينبغي ان تستخدم قواتها فيها . إلا أن الامر قد لا يكون كذلك في الحالة الثانية ، وفي حالة كهذه ليس هناك عادة خيار عدى عن وضع الطرف المعني لقواته بكاملها تحت تصرف جيش التحالف، مفترضين ان حجم الاخير سيكون مناسباً تماماً. لقد فعل النمساويين ذلك في نهاية حملة ١٨١٥ وكما فعل البروسيين عام ١٨٠٧.

---

(١) جيش الامبراطورية الرومانية المقدسة – المترجم

اما عن شخصية القادة ، فكل شيء يعتمد على الافراد ، ولكن لابد من ايراد تعليق واحد. لا ينبغي وضع القوات الثانوية بأمرة القادة التقليدين الشديدي الحذر . والرجال المناسبين هنا هم **اكثرهم شجاعة وعزماً** ، اذ علينا الاصرار ثانية ان ما من شيء اهم في العمليات الاستراتيجية المنفصلة من ان يترك لكل قسم تقديم افضل ما عنده، وتطوير استخدام قواه بكاملها . يمكن لاي خطأ يرتكب في نقطة ما ان يعرقل النجاح في اي مكان آخر . الا ان بذل الجهد الاقصى من قبل الجميع هو الذي يؤكد ولوحده ما اذا كان كل القادة شجعان وفعالون ، ومتحمسون لاداء مهماتهم ، وبطاقات داخلية دافعة وقوية . اما الهدوء الموضوعي المتروي حول الحاجه الى العمل فليست كافيه هنا .

اخيراً ، يبقى علينا التأكيد بضرورة اختيار القطعات والقادة للمهمات والمناطق المناسبة لهم كلما كان ذلك ممكنا . ينبغي استخدام الجيوش النظامية ، والقطعات الممتازة ، والكثير من الخيالة ، والقادة الاكبر عمراً واكثر حكمة وخبرة في المناطق المفتوحة ، اما المليشيات والقوات الوطنية (المحلية) ، والحشود التي تعبأ بسرعة، والقادة الشباب الشجعان فينبغي استخدامها في المناطق المشجرة، والجبال والمضائق ، اما القوات الاحتياطية فتستخدم في المناطق الغنية التي بوسعهم اراحة انفسهم فيها.

كل ما سبق لنا قوله حول خطط العمليات بشكل عام، وفي هذا الفصل وبشكل خاص حول الخطط التي تستهدف انجاز الدحر التام للعدو، قد سعت لتأكيد هدفها، ومن ثم ارساء المبادئ والاساس لتوجيه التدابير العملياتية . نود الحصول على تفهم واضح لما نريد وما ينبغي عمله في حرب كهذه . وسنؤكد على الاساس والمشترك، تاركين فسحة كافية للاحداث العرضية والمفردة مع استبعاد كل ما هو **اعتباطي ، وغير جوهري ، ومتكلف او زائف شديد السذاجة** ، فان انجزنا ذلك نعتقد اننا قد حققنا غايتنا .

فان صدم اي قارئ لانه لم يجد هنا شيئاً عن كيفية الاستدارة حول نهر ، او السيطرة على منطقة جبلية من اجزائها العالية وعن تخطي المواضع القوية او تحديد النقطة الحيوية (المفتاح) الى بلاد بكاملها ، فقد فشل في تفهم غايتنا، بل واكثر من ذلك نخشى انه لم يفهم بعد العناصر الاساسية للحرب .

لقد عالجنا في الكتب السابقة تلك التفاصيل بشكل عام ، ووصلنا الى استنتاج مفاده انها قد لا تكون مهمة بالقدر الذي نظنه عادة وليست اكثر من

ركامات كبيرة اقل اهمية مما يعتقد المرء عادة في البداية . والدور الذي يمكن ان تلعبه في حرب تستهدف تدمير العدو اقل اهمية من ذلك ايضاً . وهي في النهاية اعجز من أن تؤثر على الخطة العامة.

سنكرس فصلاً خاصاً في نهاية هذا الكتاب لبناء وتنظيم القيادة العامة[1]. وقبل ان ننهي هذا الفصل سنقدم المثال التالي :

لو قررت النمسا ، وبروسيا ، والاتحاد الجرماني ، والاراضي المنخفضة وانكلترة اعلان الحرب ضد فرنسا ، مع بقاء روسيا على الحياد – الامر الذي تكرر حدوثه في القرن والنصف الماضيين – فلدى تلك الدول قدرة كافية على شن حرب تعرضية (هجومية) مستهدفة تدمير العدو كلياً (فرنسا) . وحتى لدولة كبرى وقوية كفرنسا ، يمكن اجتياح القسم الاكبر من اراضيها من قبل جيوش الاعداء، وستسقط فرنسا بيد الاعداء ، وتتقلص موارد فرنسا حداً لن تعد معه كافية، وما من دولة اخرى غير روسيا قادرة على تقديم مساعدة فعالة اما اسبانيا فبعيدة جداً ولا يساعدها مكانها على التدخل، والولايات الايطالية هي الاخرى بالغة الضعف وغير مستقرة. هذا دون ان نذكر ان لتلك الدول وممتلكاتها فيما وراء البحار حوال (٧٠) مليون نسمة بينما ليس لفرنسا سوى (٣٠) مليون نسمة فقط. ومع تقدير متحفظ فان الجيش الذي بوسعه السيطرة على الميدان بهجوم جاد ضد فرنسا يمكن ان يتألف كما يلي:

النمسا	٢٥٠ الف رجل
بروسيا	٢٠٠
باقي المانيا	١٥٠
انكلترة	٥٠
المجموع	ـر٧٢٥ (الف رجل)

فان امكن زج قوة كهذه في الميدان فستفوق بالتأكيد على اي قوة بوسع فرنسا حشدها ضدها . ولم تتمكن فرنسا بقيادة نابليون على حشد هذا القدر . ولو طلب من القوات الفرنسية اشغال حاميات القلاع والمستودعات وحماية السواحل ، فما من اي شك نهائياً بقدرة الحلفاء على تحقيق تفوق هائل في المسرح الرئيسي ،

(١) لم يكتب هذا الفصل ابداً – المشرف .

وسيشكل هذا التفوق الاعتبار الرئيسي في خططهم لاجل دحر فرنسا .

يكمن مركز ثقل فرنسا في قواتها المسلحة وفي العاصمة باريس . لذلك يجب ان يستهدف الحلفاء دحر الجيش الفرنسي في واحدة او اكثر من المعارك الكبرى ، واحتلال باريس ، ودفع ما يتبقى من القوات الفرنسية عبر اللوار . تعد المنطقة ما بين باريس وبروكسل اكثر المناطق وهناً في فرنسا ، اذ لا تبعد الحدود اكثر من (١٥٠) ميلاً عن العاصمة . وذلك هو المكان الطبيعي لتحشد احد جحافل التحالف - انكلترة ، الاراضي المنخفضة ، وبروسيا ، والولايات الالمانية الشمالية - التي لكل منها اراضي قريبة ، وبعضها اراضٍ ملاصقة حتى. بوسع النمسا وجنوب المانيا العمل بحرية فقط من اعالي الراين او الاتجاه الطبيعي لهجومها نحو «تروي» وباريس ، وربما ايضاً باتجاه اورليان . وكلا خطي الهجوم ، الاول من الاراضي المنخفضة والثاني من اعالي الراين خط طبيعي تماماً ، قصير ، ودون عراقيل وشديد التأثير ، كما ان مركز ثقل القوة الفرنسية يقع حيث يلتقي الخطان . لذلك لابد من تقسيم مجموع قوة الهجوم ما بين هاتين النقطتين .

هناك اعتباران فقط يعززان ويؤكدان بساطة هذه الخطة .

على النمسا ان لا تترك مناطقها الايطالية دون غطاء فالنمساويين يريدون السيطرة على الموقف هناك دائماً ، لذلك لن يسمحوا بوصول الامور درجة تكون فيه ايطاليا مغطاة (محمية) بصورة غير مباشرة فقط اي من قبل القوات المنهمكة بمهاجمة وسط فرنسا . وما دامت حالة السياسات الايطالية على ما هي عليه، فالاهتمام النمساوي هذا وان كان ثانويا فهو حقيقي؛ الا ان ترك المشروع القديم والذي تكررت محاولته (oft - attempted) بمهاجمة جنوب فرنسا من ايطاليا مرتبطاً بذلك، خطأً كبير . عندها ستزداد القوة النمساوية في ايطاليا الى مستوى عالٍ جداً واعلى مما تقتضيه دواعي الامن ان انتهت الحملة الاولى بانسحاب مدمر . لذا ينبغي ترك قوة متواضعة الحجم في ايطاليا ، ولا يمكن عرقلة او اضعاف التعرض الرئيسي ان اريد مراعاة قاعدة القواعد (أو أهمها اطلاقاً) - أي **وحدة المفهوم** unity of concep-tion، وحشد القوات . بوسع المرء وببساطة أخذ بندقية مزودة بحربة في محاولة لاجتياح فرنسا عن طريق نهر الرون (Rhone) . وحتى على اعتبار ذلك عملية ثانوية مساعدة، ينبغي مع ذلك التوصية بهجوم من جنوب فرنسا ، لانه فقط سيحفز مصدراً جديداً للمقاومة. وحيثما تهاجم منطقة نائية ، فسيتحرك المرء ويزداد اهتمامه

وانشطته التي كانت ستظل لولا ذلك خامدة . لا يمكن تبرير هجوم نحو جنوب فرنسا من ايطاليا ما لم يتضح ان ما ترك من قوات في ايطاليا اكثر مما يستدعيه أمنها ، لذا ستكون تلك القوات دون فائدة ما .

من هنا ، نكرر ان القوة التي ستترك في ايطاليا يجب ان تكون باصغر حجم تسمح به الظروف . وسيكون حجمها كافياً اذا أمنت للنمساويين عدم فقدانهم المنطقة في حملة واحدة . ولاغراض بحثنا والفكرة التي نريد نرى أن يكون حجم هذه القوة من (٥٠) الف رجل .

الاعتبار الثاني هو الساحل الفرنسي . بما ان بريطانيا تسيطر على البحر ، على فرنسا لذلك ان تكون شديدة الحساسية حول كل ساحلها على الأطلسي ، وعليها ابقاء بعضاً من قواتها للدفاع عنه . ومهما كانت درجة ضعف دفاعاتها الساحلية فانها جعلت الجبهات الفرنسية اطول ثلاث مرات، لذلك يتوجب عليها سحب قوات كبيرة من مسرح الحرب . وان كان لبريطانيا من (٢٠-٣٠) الف رجل من قوات الانزال لتهديد فرنسا ، فهي كافية لشل قوة فرنسية بضعفي او ثلاثة اضعافها ، ولن يقتصر ذلك على القطعات بل سيشمل المال والمدافع ... الخ، للأسطول والبطريات الساحلية . ولهذا الغرض لنفترض ان بريطانيا احتفظت بـ (٢٥) الف رجل .

لذلك وبتعبير بسيط يجب ان تكون خطة العمليات كما يلي :

اولاً : لتجميع قوة في الاراضي المنخفضة من (٢٠٠) الف بروسي ، و(٧٥) الف من الاراضي المنخفضة ، و(٢٥) الف انكليزي ، و(٥٠) الف من قوات اتحاد شمال المانيا – المجموع – (٣٥٠) الف رجل .

سيستخدم (٥٠) الفاً من تلك القوة كحاميات في القلاع الحدودية ، مما سيترك (٣٠٠) الف جاهزين للتقدم نحو باريس وخوض معركة رئيسية ضد الفرنسيين .

ثانياً : سيحشد (٢٠٠) الف من النمساويين ، و(١٠٠) الف من قوات جنوب المانيا في ارض الراين (Rhineland) . وستقدم هذه وفي آن واحد مع الهولنديين نحو اعلى نهر السين ومن ثم نحو (اللوار) وستسعى لاجل معركة كبرى . وقد يتحد الاندفاعان في (اللوار).

نجمل هذا النقاط الرئيسية . وتتركز نقاطنا الباقية اساساً لازالة اي سوء فهم وستعرض كما يلي :

١. يجب ان يكون الاهتمام الرئيسي للقائد العام هو البحث عن المعركة الحاسمة والرئيسية وخوضها بتفوق عددي كهذا، وفي ظروف كالتي يستلزمها الانتصار الحاسم . يجب التضحية بكل شيء لاجل ذلك الهدف ، كما يجب سحب اقل ما يمكن من الرجال لواجبات الحصار والتطويق، والحاميات وغيرها . اما اذا فعلوا كما فعل الجنرال شوارزنبرغ عام ١٨١٤، وتفرقوا حال دخولهم ارض العدو فسيضيع كل شيء . اما عام ١٨١٤ فان عجز فرنسا وحده هو الذي انقذ الحلفاء من هزيمة كاملة في الاسبوعين الاولين . ينبغي ان يكون الهجوم كالاسفين الذي احسن صقله ، وليس كفقاعة تزداد انتفاخاً حتى تنفجر .

٢. يجب ان تترك سويسرا لتتولى تدبير امورها . فان كانت على الحياد فستشكل نقطة اسناد (Point d'appui) جيدة في اعلى الراين . اما اذا هاجمتها فرنسا، فلتتولى الدفاع عن نفسها – الامر الذي ستؤديه بشكل جيد وفي اكثر من مجال . وما من شيء اكثر حماقة من التفكير بان على سويسرا ، وكأعلى بلدان أوروبا التحكم بالمسار الجغرافي للحرب . ويمكن ان يتم ذلك وبشكل مؤثر تحت ظروف بعينها فقط ، وهي شروط محدودة جداً ، ولا تتوفر في الحالة التي نبحثها .

في الوقت الذي يتعرض فيه قلب فرنسا للهجوم ، يتعذر على فرنسا شن هجوم قوي مستندة فيه الى سويسرا وضد ايطاليا او (سوابيا) ، واقل من ذلك حتى امكانية اعتبار ارتفاع سويسرا عاملاً حاسماً . واية فوائد من سيطرة استراتيجية من هذا النوع تضاف الى الدفاع بالدرجة الاولى ، وكل ما يمكن ان يناله الهجوم من اهمية هنا انما يمكن ان تظهر في مراحل الهجوم الاولى . ومن يعجز عن تفهم ذلك فهو لم يفكر في الامر بصورة صحيحة . واذا حاول بعض ضباط الاركان العامة في اي مجلس حرب في المستقبل تطبيق هذا النوع من الحكمة بشيء من التقديس الكئيب ، فسنعلن مقدماً ان ذلك سخافات رديئة جداً ، كما نأمل ساعتها وجود بعض القادة المقاتلين الشديدي التفهم لايقاف اشياءٍ كهذه أو منعها .

٣. لا تستحق المسافة ما بين الهجومين مناقشة واسعة ففي حشد (٦٠٠) الف جندي على مسافة (١٥٠) او (٢٠٠) ميلا من باريس ، اعدوا للضرب في قلب فرنسا ، هل يحتاج المرء للتفكير بستر اعلى الراين – اي تغطية برلين، ودريسدن،

وميونيخ؟ وما من غاية او غرض للقيام بذلك. إن تمت تغطية المواصلات الجانبية ؟ إن ذلك يستحق بعض الانتباه ، لكن قد ينجر المرء بعدها منطقياً لجعل مثل هذه التغطية بقوة وأهمية تعرض آخر . عندها وبدلاً من التقدم على خطين، الامر الذي لابد منه بفعل موقع الدول المتحالفة ، سيجد المرء ان التقدم جرى على ثلاثة اتجاهات الامر الذي لا ضرورة له. فالثلاث يمكن ان تغدو خمسة او حتى سبعة وسيتكرر العمل المحزن كله مرة اخرى.

سيكون لكل من الهجومين هدفه الخاص به ، وما من شك في ان القوات التي ستخصص لكل منهما ستتفوق وبشكل ملحوظ على العدو امامها . واذا سار كل هجوم بعزم وضغط شديدين فسيفيد كل منها الاخر دونما شك. اما اذا تعرض ايا منهما لمعضلة او عرقلة، لان قوة العدو امامه لم تكن قسمت بالتساوي فبوسعه الاعتماد على نجاح الاخر لملافاة هذا الضرر . ويمثل ذلك ارتباطاً حقيقياً بين الجيشين. تؤكد لنا رؤية مدى التباعد بينهما استحالة تغطية الاحداث المتبادلة بينهما يوما بعد آخر . بل وغير مهم او ضروري ايضاً ، فان اي ارتباط قريب او بالاحرى مباشر بينهما قليل الاهمية.

ليس بوسع العدو (المدافع) وبسبب الهجمات الموجهة لمختلف مناطقه تخصيص قوة تذكر لعرقلة التنسيق بين الهجومين . واسوء ما يمكن ان يحدث هو ان جماهير الشعب (الفرنسي) مدعومة بالجماعات المغيرة قد تحاول التوسع في ذلك مما يتيح للفرنسيين تعين جزءٍ من القوات النظامية لهذا الغرض. وللتصدي الى نشاطات كهذه لابد لقوة من (١٠–١٥) الف رجل ، معززة بالخيالة ، تتحرك من (تريفز) بالاتجاه العام لـ (ريمز Rheims) . وقوة كهذه كفيلة بالتصدي وتقليم اضافر اية جماعات مغيرة كما بوسعها المحافظة على التنسيق ومواكبة عمل القوة الرئيسية . وليس على هذه القوة لامراقبة الحصون ولا تطويقها بل تخطيها ، كما ليس عليها الاعتماد او الاستناد الى اية قاعدة محددة، وعليها التراجع امام اية قوة متفوقة تصادفها على طريق عملها . ولا يمكن ان تصاب باذى كبير ، وان حدث لها شيئ كهذا فلن يعد ذلك خسارة فادحة لمجموع الجهد . وفي ظروف كهذه يمكن ان تعمل قوة كهذه (corps) كقوة ارتباط بين الهجومين .

٤. تستطيع العمليتان الثانويتان – الجيش النمساوي في ايطاليا وقوة الانزال الانكليزية – متابعة هدفيهما بحذر وتحفظ شرط ان لا يعني ذلك الكسل والعطالة ،

وان يبررا المعنى المقصود من وجودهما ، لكن لا يجوز وتحت اية ظروف ان يعتمد اي هجوم رئيسي عليهما .

نحن مقتنعون تماماً بامكانية تركيع فرنسا على قدميها بهذه الطريقة ، واعطائها درساً لن تنساه كلما همت باستئناف سلوكها المتغطرس الذي اثقلت به كاهل اوربا طوال مائة وخمسين عاماً . ولا يمكن فرض السلام في اوربا الا في الجانب البعيد من باريس ، وفي اللوار فقط ، فهناك فقط ستقبله فرنسا . وما من شيء اخر يستعرض العلاقة الطبيعية بين (٣٠) و(٧٥) مليون. ولن يتم ذلك بالتأكيد ان طوقت فرنسا بجيوش من دنكرك الى جنوا ، كما كان الحال لقرن ونصف ، وبينما تتم متابعة خمسين هدفاً مختلفاً ، فليس لاي واحد منها ما يكفي من الاهمية للتغلب على القصور الذاتي ، والاضطراب والاهتمامات الخارجية التي تطرح نفسها على الدوام ، خصوصاً في الجيوش المتحالفة ، وتعود الى الظهور باستمرار .

ليس من الصعب على القارئ ان يتفهم ان مشروعاً كهذا غير مناسب الا قليلاً في التنظيم الإقليمي لجيوش الاتحاد الالماني . اذ سيشكل الجزء الاتحادي من المانيا بذلك نواة القوة الالمانية ، وهكذا ستضعف بروسيا والنمسا ويخسران الارجحية التي يجب ان يحظيا بها . الا ان الدولة الاتحادية نوع ضعيف من المراكز وقت الحرب ، وتعوزه الوحدة والنشاط ، ولا تمتلك اسلوبا رشيداً في اختيار القادة ، ودون سلطة او مسؤوليات .

ظهر مركزان طبيعيان للقوة في الرايخ الالماني – النمسا وبروسيا . يمتلكان العبقرية الاخاذة ، ويمتلكان السيف الصقيل . وكلتاهما ملكيتان ولديهما خبرة بالحرب . كما تحددت مصالح كل منهما ، وهما قوتان مستقلتان ومتفوقتان على الدول الاخرى . يجب لمثل هذه الخطوط (المعايير) الطبيعية لا الفكرة الخاطئة عن «الوحدة» ان تحدد الخطوط التي على المؤسسة العسكرية الالمانية اتباعها . وعلى كل حال فالوحدة مستحيلة تحت تلك الظروف ، والرجل الذي يضحي بالممكن من اجل المستحيل ليس سوى رجل احمق .

ملحق

دليل لقراءة كتاب «عن الحرب»

بقلم– برنارد برودي

لقد لاحظت في مقدمتي التمهيدية ان الكثير من القراء يرون ان كلاوزفيتز ممن تصعب قراءتهم بتفهم شامل، حتى حين لا تكون الافكار المعروضة صعبة بشكل جوهري. واسباب ذلك عديدة، الا أن أهمها هو عندما يعود السبب الى وفرة الامثلة وثراء المادة، واحياناً بسبب الترتيب الخاطىء، حيث غالباً ما يضيع الخيط الاساسي للمناقشة خلال عرضها وتطورها. كذلك يبدو كلاوزفيتز احياناً، وليس دائماً، غيبياً (Metaphysical) وتجريدياً مغرقاً، وذلك ما يزعج القراء باكثر مما يستحقه الامر فعلاً. بالاضافه الى ذلك، فبعض الاجزاء الطويلة ذات قيمة تاريخية محض، أو أنها وكما يرى البعض دون أهمية تذكر، في الوقت الذي تتميز اجزاء أخرى باهمية عظيمة حتى بمعايير الايام المعاصرة. لعل مما يساعد القاريء كثيراً ان يعرف مقدماً من هو من النوع الاول ومن من النوع الآخر. أخيراً فالقارىء الذي لم يألف هذا الميدان لا يمتلك الوسائل الملائمة لادراك المكانة المتميزة لبعض ما أوضحه المؤلف من نقاط، ولعل هذا القارىء سيستفيد لو أوضحت له هذه السمات في المكان المناسب. ولا رغبة لدي في زيادةالزخرفة والتجميل، وأن اخطأت احياناً في زيادة الاطراء، لا بد لي بالمقابل من التحذير عن الفصول التي لا تستحق اي مديح.

الخلاصة، ان الغاية الرئيسية لهذا الدليل هي التأكيد على تفهم القارىء واستيعابه للنص بالقراءة الأولى. فاذا شعر أنه فشل في ذلك ، أو أنه لم يوفق فيه بما يعادل ما أنفقه من وقت ، فليريح نفسه من القراءة عند اقرب توقف او مخرج والذي يكون عادة عند اقرب فاصلة أو نهاية اية جملة.

سيجد القارىء افضل طريقة له للأستفادة من هذا الدليل. ولعل بعضهم سيفضل قراءته قبل قراءة النص. وقد يفضل اخرون قراءة الدليل مجزأ كتاباً بعد آخر (أقسام نص كلاوزفيتز) او حتى على أقسام صغيرة وسوية مع نصوص او فصول الكتاب. وقد يفيد ايضاً قراءة الدليل قراءة سريعة بعد الأنتهاء من النص، وكذلك لاستخدام الدليل كمرجع للعبارات والفقرات التي قد لا يتذكر اماكنها في النص الاصلي[1].

---

(١). لقد أشرت لكل عبارة اقتبسها واضع الدليل الى مكانها في النص المترجم لمساعدة القارىء بالعودة اليها وهو ما لم يفعله برودي في الدليل – المترجم.

لأن هذا الدليل ليس مجرد اختصار للكتاب، بوسعنا التوسع بحرية في تفاصيل بعض الفصول او الفقرات والمرور سريعاً على البعض الاخر أو حتى تجنب الاشارة اليها، وفي حالة تجاهل بعض الفصول والصفحات فلسنا ملزمين بالاشارة الى ذلك. ليس لأن لبعض أجزاء الكتاب أهمية كبيرة جداً بل وحتى رائعة ولا يمكن اغفالها على عكس اقسام اخرى وحسب، بل ولأن بعضاً من أروع فصول الكتاب لا تقدم لنا ما يمكن الحديث عنه.

تؤكد لنا «ملاحظة» المؤلف في تموز ١٨٢٧، والملاحظة التي تليها وان لم يؤرخها كلاوزفيتز واللتان تركهما مع مسودات كتابه، انه لم ينجز خططه لاعادة كتابة وصياغة كتابه. وفي الفاصلة (الزمنية) ما بين هاتين المذكرتين اعاد كتابة الفصل الاول من الكتاب الأول، والذي يشكل النص الوحيد الذي اعتبره المؤلف تاماً، . كانت خططه لاخراج نسخة جديدة لكتبه ستركز اساساً على ابراز فكرتين وعلى شكل واضح خلال الكتاب، وهما ..(١) أهمية التمييز الدائم ما بين المتطلبات الخاصة للقائد وتلك التي للحرب المحدودة (مستخدمين المصطلحات الحديثة). و(٢) اهمية ادراك وتعميم المقولة الجوهرية لكلاوزفيتز في أن «الحرب وببساطة استمرار للسياسة بوسائل أخرى» – كما صاغها بنفسه – يمكن ان يتحسس المرء ان الفكرة الاخيرة وأن عالجها المؤلف في أوائل حياته العسكرية، الا انها لم تتركز في ذهنه ، او لم تتبلور الا في الاجزاء الاخيرة من كتابه، وذلك هو الفصل السادس من الكتاب الثامن والفصل الذي اكمل تنقيحه وهو الفصل الأول من الكتاب الاول، وكذلك لانه تحدث عن اعادة صياغة الكتاب الثامن من جديد والعمل على توضيح افكاره حول الموضوع. لعل الكتاب الثامن وكما هو عليه الان قد أخضع لاعادة كتابة من جديد بعد«ملاحظة» ١٨٢٧، الا أنه لم يأخذ الصيغة النهائية بعد عندما ترك المؤلف سيلزيا عام (١٨٣٠)، حيث قدر له ان يموت بعد عام من ذلك، ولم يتح له المجال لمد تأثير هذه الفكرة في كل الكتاب.

الكتاب الأول : في طبيعة الحرب

لقد مررنا دون تعليق ما على «مقدمة المؤلف» والى الفصل الأول من الكتاب الأول وهو الفصل الوحيد الذي أتمه المؤلف كما يريد . وأنه اكثر الفصول كثافة وتركيزاً من حيث الافكار، في العمل بكامله، وأن الكثرة الطاغية، والأهمية الكبيرة التي لتلك الافكار جعلا هذا الفصل مقدمة شاملة، وقد يحسبه بعض القراء فصلاً مربكاً وصعباً دون دليل واضح لفهمه، وذلك ما سأحاول فعله وبتفصيل أكبر مما سأفعل مع فصول اخرى.

يقول كلاوزفيتز عن، **هدف الحرب** وفي ثلاثة جمل متتالية بانه (أ) فرض رغبتنا على العدو لفعل ما (ب) استخدمنا الحد الأقصى من**وسائل القوة** المتيسرة، مع (ج) توخينا جعله دون حول ولا قوة. هكذا نلاحظ ومنذ البداية التمييز بين الهدف العسكري والغاية السياسية.

لا يجوز ان نسمح لما يثور من اسيً حول وحشية الحرب ان يمنعنا من استخدام الوسائل، لأن «الحرب عمل بالغ الخطورة، والاخطاء التي تسببها الطيبة والسذاجة هي من اسوأ الاخطاء». (ص ١٠٤) قد تمارس الأمم المتحضرة المنع، الا أن ذلك عائد الى القوى الاجتماعية التي «ليست جزءً من الحرب». ومن ثم «فادخال مبدأ الاعتدال في [**نظرية الحرب نفسها**] سيقود دائماً الى منطق غير معقول» –(ص١٠٥). مابين الحاصرتين مضاف–

سيتضح المعنى اكثر قليلاً لو لاحظ القارىء ان كلاوزفيتز يستخدم في تلك الصفحات الافتتاحية كلمات – مصورة Word - Images كانت شائعة في استخدام الفلاسفة الالمان الكبار ايامها، وعلى الأخص (كانت) وهيجل. لقد أحيوا وبقوة، مدرسة ما وراء الطبيعه (المتافيزيفيا) القديمة، التي تحمل اسماً خادعاً وليس واقعيا هو «المثالية». وهكذا فالحرب في لغة تلك المدرسة هي وببساطة نوع أخر من الوجود (of being)، كأي شكل آخر من أشكال الكينونة، ومستنبط من نمط اساسي او «فكرةidea» يكمن فيها واقعها الحقيقي. يجب على المرء، ولكي يتفهم الحرب بصورة صحيحة، ان ينظر اليها أولاً في شكلها «المطلق absolute» أو بشكل «فكرة»

يدعوها كلاوزفيتز «المفهوم النقي للحرب». ووسط جو كهذا تحدث كلاوزفيتز عن «نظرية للحرب (بـ)ذاتها»، والتي تذكرنا بمقولة الفيلسوف كانت عن «الشيء بذاته»[1]. لحسن الحظ كان كلاوزفيتز ذرائعياً جداً، الخيط الذي كان من دونه سيذهب بعيداً او عميقاً في هذا النوع من المثالية، لكن وبعد رفع الستار عن هذا العمل الكبير له ، اتضح لنا ان هذا الرجل الذي لم يتخرج من ايه جامعة قد ارتدى وشاح الاستاذية.

مع ذلك ظل وفي الوقت نفسه واقعياً بالمفهوم الاعتيادي للكلمة. وهو بالتأكيد مؤمن تماماً بما يقوله، ولقد شهد بعضاً من أسوأ المآسي والرعب في التاريخ الكالح للحرب، بما في ذلك مأساة وعبور الفرنسيين لنهر بيريسنا (في روسيا قرب بوريزوف) في تراجعهم من موسكو ، والذي رأه كلاوزفيتز بعينيه من الجانب الروسي، ووصفه بتأثر عميق، وهو يرتعد فرقاً في رسالة الى زوجته. مع انه كان سيكتب عن ذلك فيما بعد منتقداً القائد الروسي الذي كان قريباً من المشهد، الجنرال ويتنشتاين، والذي لو شن هجومه بعزم اكثر ودون تردد «فقد كان ذلك سيزيد من خسائر الفرنسيين كثيراً». وما من شك في أن كلاوزفيتز رجل حساس للغاية وقد تطلب قبوله ذلك وقتاً طويلاً، على الأقل فكرياً، مع كل المتطلبات القاسية لمهنته. كان يدرك بعمق ان عليه تحصين نفسه عاطفياً لمواجهة تلك المطالب ، ليس لمرة واحدة والى الأبد بل لتكرار ذلك مرة بعد آخرى، لذلك لم يتوانى ولا للحظة من فرض شيء مشابه على القارىء، وليس مجدياً القول انه يشعر بضرورة ترديد وذكر العديد من الأشياء المؤلمة والمربكة التي يتجنب كتاب آخرون عن الاستراتيجية ايرادها.

تلمس كلاوزفيتز في تلك الصفحات الافتتاحية أيضاً وببصيرة رائعة الدور الذي تلعبه العاطفة في الحرب، والتي ستشوه المفهوم الواضح للأمر لا محالة، « اذا كانت الحرب من اعمال القوة، (العنف)، فلن تعجز العواطف عن التورط فيها» (ص١٠٥). نظراً لان توجه المناقشة الرئيسية للعمل ستكون في الأتجاه المعاكس، فمن الضروري تناول تلك الموضوعات منذ البدايه.

لقد ركز كلاوزفيتز جهده على «الحد الأقصى Extremes» في الحرب، وهو المجال الذي لم يفشل في التوصل فيه الى بعض الأفكار العملية المهمة. ثم اجرى تحولاً

( ) "Das Ding an sich"من الألمانيه وترجمته الى الأنجليزيه "The thing in itself"

رئيسياً الى الميدان الذي سيشغله عملياً لكل ما تبقى من العمل «الكتاب». لقد أعطى الفقرة السادسة عنوان «تعديلات في التطبيق العملي». فعند تحولنا من التجريد الى العالم الحقيقي فـ«كل شيء سيبدو مختلفاً كلياً». (ص ١٠٨) فالحرب في شكلها المجرد(abstract) أو التام (Perfect) لا يمكن ان توجد في الواقع الا عند توفر مجموعة شروط فقط، أهمها ان الحرب ينبغي ان تكون «عملاً معزولاً كلياً، ويحدث فجأه وليست نتاجاً لاحداث سابقة في العالم السياسي» (ص١٠٨) الا انه قال (في عنوان الفقرة السابعة) «لم تكن الحرب عملاً منعزلاً ابداً» كما لاحظ كذلك «حتى النتائج الاخيرة لا تعتبر نهائية دائماً..» (ص ١١١) (لقد دحرت بلاده (بروسيا) نفسها وانتهت كقوة عسكرية في حملة (ينا – ١٨٠٦)، الا انها عادت قوية مرة أخرى في حملتي ١٨١٣و ١٨١٤ وحملة واترلو ١٨١٥، وقد شارك كلاوزفيتز نفسه بشكل كبير في كل تلك الاحداث.

بمتابعة نهجه هذا برزت الغاية السياسية الى المقدمة. وأنها المحرك الاصلي نحو الحرب، ولعلها عدلت الان من خلال فاعليتها في بيئة ومحيط الحرب. تكون الاهداف السياسية والعسكرية واحدة في بعض الحالات، كما عند احتلال منطقة ما بهدف الاحتفاظ بها، اما في حالات أخرى «لا بد من اختيار هدف عسكري آخر يخدم الغرض السياسي ويمثله في مفاوضات السلام »(ص ١١٢) هنا يضع كلاوزفيتز نصب عينيه، على سبيل المثال ، احتلال منطقة ما والاحتفاظ بها فقط لاغراض تفاوضية (مساومة) فقط. لكن على المرء التيقض والحذر في قرارات كهذه، «لكن لا بد من الانتباه الى خصائص وميزات كل دولة ذات علاقة» (ص ١١٢) فما قد يدفع دولة ما الى الاستسلام قد يدفع اخرى الى مقاومة ضارية.

يلي ذلك مناقشة في العوامل التي تعرقل وتقاطع الفعاليات في الحرب، حيث طور كلاوزفيتز مفهوماً دعاه(مبدأ الثنائية Polarity) (عنوان الفقره ١٥)الا أن ذلك تحول الى الفكرة التي تشبه تماماً ما نستخدمه اليوم لمصطلح «لعبة مجموعة – الصفر» (وهي صراع يتناسب فيه فوز احد الطرفين مع خسارة الآخر بشكل مباشر). الا أنه اوضح ان العديد من المواقف الحربية لا تعد من هذا النمط، اذ خسارة أحد الطرفين ليست دائماً ربحاً للآخر. لقد قدم فكرة اولية ستتطور فيما بعد الى ان «الدفاع هو الشكل القتالي الاقوى من الهجوم ». رغم ان كلاوزفيتز واصل الاشارة بين أونة وأخرى الى «المطلق»اي، الشكل النقي او الكامل للحرب، الا انه يضاعف تأكيده

ويسهب في النقاط والخصائص التي تبعد الحرب عن نطاق الكامل والمطلق.

لقد تحول الان نحو تحديد اكثر دقة للحرب « فان كانت (الحرب) مظهر مطلق وصريح وكامل وغير مقيد للعنف (كما يوحي بذلك مفهومها الخالص) فانها وباستقلالها الذاتي ستحل محل السياسة منذ اللحظة التي تتولى السياسة فيها اشعال (خلق) الحرب » (ص ١٢٠). وهذا هو في الواقع ما يشعر معظم القادة المعاصرون بضرورة حدوثه . ويتجلى الكثير من مضامين هذه الفكرة في عبارة الجنرال ماك ارثر... «ليس هناك من بديل عن النصر» . وتلك هي وجهة النظر التي عايشها كلاوزفيتز عموماً في ايامه ، الا انه دعاها ودون وجل او تواني بانها ، «خاطئة تماماً» – (ص ١٢١). انه يقودنا الان الى فكرته العظيمة والشهيرة التي صاغها كما يلي.. «اذا تذكرنا دائماً أن الحرب تنبع من هدف سياسي ما ، فمن الطبيعي ان السبب الرئيسي في وجودها سيكون الاعتبار الاهم في ادارتها ... اذ عليها أن تنسجم مع الوسائل المختارة ، وهي عملية يمكن ان تغيرها جذرياً ، مع بقاء الغاية السياسية كاعتبار اول . عندها ستنفذ السياسة الى جميع العمليات العسكرية ، ومن ثم وإلى الحد الذي يسمح به العنف الطبيعي لتلك العمليات فستواصل (اي السياسة) تأثيراتها عليها» (ص ١٢١) . لقد قاده ذلك وبشكل طبيعي الى رأيه الهام الذي جعله عنواناً للفقرة التالية (٢٤) في ان «الحرب ليست سوى استمرار للسياسة بوسائل أخرى» .

هكذا وقبل استخدام كلاوزفيتز لرأيه الكبير هذا لأول مرة ، كان قد اوضح لنا ما يعنيه بالضبط . وهو معنى محدد وليس من المحتمل أن يفهم بشكل صحيح من قبل الشخص الذي يسمعه مقتبساً. ومع قدم هذا المفهوم ومرور كل هذه السنين عليه ما زال محل تجاهلٍ ورفض ، ويعود ذلك الى عدد من الاسباب ، احدها هو أن الحرب تثير المشاعر فعلاً ، وتكون هذه شديدة عادة ، والسبب الاخر ، هو أن القادة يحبون الانتصار الحاسم مهما كانت الصراعات التي يخوضونها ، ولا يسعدهم أن تقيدهم السلطة السياسية بفرض اجراءات واعتبارات قد تعدل هذه الغاية.

يقر كلاوزفيتز للقائد بحق المطالبة بان لا تتعارض توجهات السياسة مع الوسائل التي اريد منه استخدامها . واضاف بان ذلك ليس سوى مطلب صغير، الا انه لن يفعل اكثر من تعديل الغايات السياسية . ثم كرر قوله بعدها بان .. « المطمح السياسي هو الهدف ، والحرب هي وسائل تحقيقه ، ولا يمكن التمعن في الوسائل بمعزل عن غاياتها ..»(ص ١٢١).

اوضح بعد ذلك أن الحدود والابعاد بين الغاية السياسية والهدف العسكري هي بالحد الادنى فيما ندعوه اليوم بالحرب العامة .. « كلما قويت واتسعت البواعث للحرب .. كلما اقتربت الحرب من مفهومها المجرد ... وكلما زاد تزامن الغايات السياسية والاهداف العسكرية ، كلما زاد المظهر العسكري وقل المظهر السياسي للحرب ...».(ص١٢٢) من الناحية الاخرى وكلما قلت شدة البواعث كما في الحرب المحدودة.. و «سيزداد اختلاف الهدف السياسي اكثر واكثر مع غاية الحرب المثالية، وسيبدو الصراع اكثر سياسية في سماته»(ص ١٢٢). ومع ذلك «وبينما تبدو السياسة متخفية ظاهريا في نوع واحد من الحرب مع انها جلية وبقوة في نوع اخر ، فكلا النوعين متساويين سياسياً »(ص ١٢٢) والسبب هو أن ..« بين الاحتمالات التي يتوجب على الدولة التهيؤ لها ، احتمال حرب يستدعي كل عنصر فيها سياسة يطوقها العنف» (ص ١٢٢). انه يصف الحرب الشاملة (Total) ، التي ستكون نووية اليوم ومع ذلك فقبول قضية من هذا النوع ما زال من السياسة .

يبدو ان كلاوزفيتز لم يسع فقط لاخبارنا عن كلما تعنيه الحرب وحسب بل كذلك لالزامنا بابقاء ذلك حياً في اذهاننا . ويصر ويكرر على ان الحرب هي وعلى الدوام اداة للسياسة لانه يعرف ، كما نعرف نحن اليوم ، ان الممارسة الاعتيادية هي بالاحرى ان نترك للحرب تولي السياسة الوطنية .

الكتاب الاول . الفصل الثاني . يبحث كلاوزفيتز في هذا الفصل في سبب كون بعض الحروب أو انها يجب ان تكون محدودة ، في امدها وفي هدفها وكذلك في شدتها ووسائلها . وفي قراءة هذا الفصل (والفصل الذي يليه) ، يتذكر المرء وبشيء من السخرية وعدم الرضا أن كلاوزفيتز غالباً ما يدعى (حواري الحرب الشاملة) ، ومن المحتمل ان يقتصر هذا الرأي على اؤلئك الذين لم يلمسوا الكتاب ، فحتى العقيد جوزيف . أي . كريني الذي كتب مقدمة الترجمة السابقة لكتاب عن الحرب ، نسب الى كلاوزفيتز النظرية المركزية في ان غاية الحرب هي القضاء على قوات المقاومة المعادية ومن ثم اضاف « لقد شهد كافة احداث حملات نابليون كلها، ورأى نابليون وهو يخوض حروبه لينتصر فيها . يمكن ان يكون هناك رجال او امة يخوضون الحرب وليس في اذهانهم سوى القليل من الافكار والتوجهات . الا ان الحرب ليست في مجموعها مما يمكن مناقشته بجدية بهذه الطريقة الجزئية[1]» فاما إن

(١) العقيد جوزيف . أ . كريني « مقدمة » لكتاب « عن الحرب» لكارل فون كلاوزفيتز ترجمة – او. جي . ما تجيز (نيويورك : المكتبة الحديثة ١٩٤٣) المقدمة (صXiii) .

العقيد كريني لم يواصل القراءة حتى الفصل الثاني للكتاب الذي كتب مقدمة عنه (في الحقيقة لقد اوضح كلاوزفيتز رأيه في الموضوع في الفصل الاول) او ان العقيد كريني ، وهذا هو الاحتمال الاكثر قارىء عادي (رغم انه حذر ضد هذا النوع من القراء) لم يتمعن بدقة فيما اهتم به .

بعد افتتاح الفصل بمناقشة قصيرة للحروب غير المحدودة بغاياتها ، وحيث يذكرنا المؤلف مرة اخرى انه وحتى الانجاز الناجح لهذه الغايات ليس نهائياً بالضرورة (تعد انتصارات نابليون وثيقة الصلة بذلك وكذلك انتصارات هتلر)، مضى يستعرض بعض الامثلة حيث استهدف احد أو كلا الطرفين شيئاً اقل من التجريد الكامل للعدو من سلاحه .

رغم ان هذا النوع من الصراع لا يتطابق والنظرية الصافية للحرب ، بل وهناك ما هو أسوأ لها ، « فعلى اية حال» كما يقول « **لا ينبغي للنظرية أن تصعد (غاية تجريد العدو من سلاحه) الى مستوى القانون**» (ص ١٢٦).

مع ذلك فان «**غاية تجريد العدو كلياً من اسلحته ليست واقعية تماماً** في كل الحالات التي كان العدو فيها قوياً جداً» (ص ١٢٦). وحتى عندما يمكن مواصلة الصراع ، فالاساس للتوصل الى السلام موجود ، **اولاً** ، عند تعذر احراز النصر ، **وثانياً** : عند تجاوز تكلفة هذا النصر الحدود المقبولة . وسواء اكان معتمداً ليس على القوة فقط بل وكذلك على الدوافع .. « طالما لم تكن الحرب من اعمال العواطف المتبلدة بل تخضع كليا لهدف سياسي ، فستحدد قيمة واهمية ذلك الهدف حجم التضحيات التي ستقدم لاجله في **الحجم والمرحلة** . وحالما تتجاوز الجهود المبذولة قيمة وحدود الهدف السياسي فلابد عندها من التخلي عن ذلك الهدف والسعي لاجل السلام » (ص ١٢٧) .

يدرك كلاوزفيتز بطبيعة الحال ان « الاهداف السياسية الاصلية يمكن ان تتغير الى حد كبير خلال مسار الحرب ، وقد تتغير كلياً ما **دامت تتأثر بالاحداث ونتائجها المحتملة**» (ص ١٢٨) . ومع ذلك يبدو انه قد استبعد تماماً اي تقدير للحتمية بخصوص تغيرات اساسية كهذه ، خصوصا لما يمكن ان ينشأ منها من الحرب نفسها. اذ حتى القبول بان لهذا التأثير العكسي احتمالية عالية سيعني تدمير رأيه الهام والاساسي في ان الحرب الة بيد السياسة وليس العكس . من الواضح انه يعني ضمناً ضرورة السيطرة على الناحيتين العاطفيتين وعلى الجانب الفكري للنفوذ .

« في الحرب » يقول كاتبنا « العديد من الطرق توصل الى النجاح ... و.. ليست جميعها تتضمن التدمير التام للعدو » . ثم يستعرض تلك الطرق العديدة ، التي تشمل ايضاً الاستنزاف و(مجرد الانتظار السلبي لهجوم العدو[1]) الامر الذي قد يحطم رغبة العدو الذي لم تكن لديه اساساً رغبة شديدة ابتداءً ، كما لاحظ ان من المهم دائماً ان «نتذكر الظروف العاطفية «ad hominem» . « تمثل شخصيات رجال الدولة والقادة العسكريين نوعاً من العوامل المهمة التي تعد في الحرب وفوق كل شيء أساسية لا يمكن الاستهانة بها » (ص ١٣١).

رغم ان الغاية السياسية للحرب يمكن ان تتغير بما لا نهاية له ، من الرغبة بالابادة الى الانجاز الذي لابد منه لالتزامات تحالفية ، اما **وسائل الحرب فهي** واحدة على الدوام – القتال . ومع ذلك فاشكال القتال هي الاخرى واسعة التنوع ، ما بين ذاك الذي يستهدف تدمير القوات المعادية الى مجرد المقاومة السلبية . الا ان القائد الذي يفضل اية استراتيجية اخرى غير تدمير قوات العدو المسلحة عليه ، «التأكد اولاً من أن عدوه ، اما سوف لن يلجأ الى ذلك الحكم الاعلى ... او انه سيخسر الدعوى لو فعل ذلك ..» (ص ١٣٨) .

الكتاب الاول . الفصل الثالث . نظراً لما سيوليه الكاتب من أهمية كبرى لذكاء وعبقرية القائد ، فقد خصص له هذا الفصل الاولي لتحليل الشخصية والروح العسكرية . وهي متميزة تماماً عما ندعوه بالعبقرية في مجال اخر . اذ ومن ناحية اولى ، تعد الشجاعة الطبيعية المحض « اول مستلزمات الجندي» . وما من شك في ان اهمية الشجاعة كانت اكبر في ايامه مما هي عليه الآن – بوسع المرء ان يتذكر بقاء (ويللنكتون) في خطر مستمر ايام حملة واترلو ، او الجرح الذي اصيب به العجوز بلوخر قبل يومين من ذلك في معركة (ليني Ligny) بعد ان نفق حصانه تحته – لكن وحتى في ايامنا هذه لا يرقى القادة الاعلون إلى مناصبهم الا بعد ان يؤكدوا صلابة وشدة احتمال في القتال . وبنفس القدر على القائد ان يظهر تجاهله للجهد البدني وان يعاني كالاخرين .

الا ان الصعوبة تكمن في تحديد ووصف الميزات الفكرية المطلوبة . لقد بحث

---

(١) ورد في النص الانكليزي ص (٩٤) « واخيراً الانتظار السلبي» الا ان الاستاذ بيرنارد برودي غيرها الى «Merely» بدلاً عن Finally to مع الفرق الكبير باعتبار الانتظار السلبي كاجراء اخير عند كلاوزفيتز أو «وحيد» او فقط. عند «برودي». المترجم

كلاوزفتيز في ذلك بدقة متناهية واستنتج انه ولما للقرار البديهي السريع والعزم الحاسم من أهمية تفوق (القوة الكبرى للتأمل)(ص ١٤٤)، فما نحتاجه اذن «العقل القوي وليس اللامع»(ص ١٤٤) وليست الاستجابة والتهيؤ لما ليس متوقعاً مما يستثنى عن ذلك .. «طالما انها تعالج الموقف» . اما خواص الطبع كتلك التي تفصح عن قوة الارادة والطاقة في العمل فانها تدخل وبنفس الدرجة في قدرات القائد .

لعل هناك شيئاً من الالهام – الذاتي في اصراره على أن «من بين جميع المشاعر التي تذكي حماس الرجل في المعركة » – والتي تعطيه الطاقة الضرورية في العمل «ما من شيء .... هو اقوى واثبت من السعي للمجد والشهرة» . اما العواطف الاخرى ، فيرى انها قد تكون اكثر شيوعاً واكثر تبجيلاً (توقيراً) « الا انها لا تشكل بديلاً للتعطش للشهرة والشرف».(ص ١٤٧) وبهذا الخصوص فان دوافعه الفكرية قد اعانته في الوصول الى احكام موضوعية ، وما من شك في ان كلاوزفيتز انما يصف التعطش الذي أثر فيه بعمق. مع ذلك ينبغي ان نلاحظ ، انه وعند معالجته تلك الموضوعات المثيرة والضبابية ، لم يسمح لنفسه بالانزلاق في الرومانتيكية ، كما فعل كثيرون غيره .

لقد كان سلبياً بشكل ملفت للنظر حول سمة ما ندعوه «الخيال» . وبعد التأكيد على أهمية ما دعاه بالاحساس بالارض (Terrain) و«بالمكانية،، Locality..» قال، .... «نعزو تلك القدرة إلى التخيل ، الا ان ذلك بخصوص الخدمة الوحيدة التي يمكن ان تطلبها الحرب من آلهتها اللعوب ، والقادرة وفي معظم الشؤون العسكرية على التسبب بالاذى اكثر من المنفعة »(ص ١٥٥). وترك لخيال القارئ فهم هذه العبارة الغامضة الموجزة ، لكن عند ايجاز سمات العبقرية الحقيقية في القائد الاعلى (بعد ذكر اسم نابليون بونابرت مباشرة) قال .. « ما يحتاجه هذا الواجب في مستوى المواهب الفكرية العالية هو الاحساس بالوحدة وقوة حكم ترقى الى مستوى عالٍ من التبصر بوسعه الامساك واستبعاد الاف الاحتمالات البعيدة بسهولة سيجهد العقل العادي نفسه حد الارهاق لاجل تحديدها . مع ذلك سيظل هذا البرهان الرائع للحدس، وقدرات البصيرة العبقرية ، دون مستوى الاهمية التاريخية بدون قرارات وميزات الشخصية والطبع اللذان وصفناهما ... ».(ص ١٥٧) كما لم يفشل في طلب الانتباه الى اهمية امتلاك القائد لمعرفة واضحة حول السياسية الوطنية ، «في

ذلك المستوى تندمج الاستراتيجية والسياسية ؛ فالقائد العـام رجـل دولة كـذلك» (ص ١٥٦) ومن ثم يطابق كلاوزفيتز في النهاية العبقرية العسكرية مع « العقل الباحث وليس الخلاق ، الشمولي وليس ذو المسلك المحدد ، العقل الهادئ وليس السريع الهياج » (ص ١٥٨).

الكتاب الاول . الفصول الرابع – الثامن : تشكل هذه الفصول الخمسة الموجزة ولكن الرائعة وحدة، في ان اهتمامها المركزي منصب على سمة الحرب التي يدعوها كلاوزفيتز «الاضطرام Fricton » والتي اوضحها بشكل اساسي في الفصل السابع . واضطرام الحرب هو ما يحول كل ما يبدو سهلاً للغاية على الورق الى امر صعب وبالتالي محفوف بالمخاطر في التنفيذ ، وهو ما يزيد في الاعتماد على عزيمة القائد وكذلك على قدرته الفكرية .

الفصل الرابع « عن الخطر في الحرب » ، يوضح في بضعة عبارات معوقات التفكير بعد صوت الاطلاقه المارقة قرب رأس رجل ، ومن مشهد رجال يقتلون ويمثل بهم ، وفي جو كهذا « يتموج منطق الاشياء بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة المعتادة في التفكير الاكاديمي» (ص ١٦٠).

الفصل الخامس يبحث في **الاضطرام** الذي ينجم عن الجهد المادي الذي غالباً ما يصعب تصوره او تصديقه . يشمل ذلك كلا نوعي الجهد سواء ما بوسع القائد ان يطلبه من قواته، والذي يتخذ عادة اشكالاً متنوعة من المآسي والمعضلات كما في المسيرات العسكرية (المفروضة) من قبل القائد ، أو في تأثيرات ذلك على شخصية القائد نفسه وعلى احاسيسه.

الفصل السادس تمهيد لدراسة العامل الذي يدعوه آخرون « ضباب الحرب » ، او النقص الابدي والدقة في الاستخبارات، يخبرنا كلاوزفيتز انه و(كقاعدة نرى ان معظم الرجال يميلون الى تصديق الانباء السيئة اكثر من الجيدة » (ص ١٦٣)، وهكذا فما لم يكن لدى القائد طوق نجاة ، « فالافضل له وكقاعدة ان يكبح جماح قناعاته الشخصية ويحول منافع الشك صوب اماله لا مخاوفه» (ص ١٦٤). ويعجب المرء مرة اخرى ، فهل يخبرنا كلاوزفيتز هنا شيئاً ما عن نفسه . فهو لم يكن «طوق نجاة»، ولربما مثل شيئاً من ذلك باعتباره احد كبار ضباط الركن الذين اشغلوا مناصباً متنوعة لم يكن من بينها منصباً قيادياً .

يعالج **الفصل السابع** وبشكل مباشر الموضوع الذي قادت إليه الفصول الثلاث

(الرابع – السادس) الا وهو «الاضطرام في الحرب » . وهو احد اكثر الفصول دقة واحكاما وحيوية . في الحرب ، يقول كلاوزفيتز ، كل شيء بسيط .. «الخيارات الاستراتيجية واضحة المعالم جداً ، حتى ان مقارنتها مع ابسط المعضلات الرياضية العليا يترك انطباعاً بالاهمية العلمية » (ص ١٦٥). مع ان السهل هو نفسه صعب ايضاً .. «العمل في الحرب كحركة في وسط مقاوم . وكما يحدث مع ابسط الحركات واكثرها طبيعية ، اي المسير الذي لا يمكن انجازه ببساطة في الماء . كذلك الحال في الحرب ، اذ يصعب على الجهود الاعتيادية تحقيق نتائج متوسطة حتى. (ص ١٦٦).كذلك «فكل حرب غنية بالمأسي الفريدة ، وكل منها بحر لم يسبر غوره ومليء بالصخور . قد يتحسب القائد لمثل هذه النتوءات الصخرية حتى قبل ان يراها ، وعليه الان قيادة سفينته في الظلام » (ص ١٦٧). مع ان تقدمه سيتم فقط بقوة تفوقه وتمكنه من التغلب على المصاعب الكبيرة « المقاومة هي « قوة (عامل) يصعب على النظرية تعريفه بدقة ابداً» (ص ١٦٧) مما يجعل كل نظرية دقيقة غير ذات صلة . لقد وعد المؤلف بالعودة مراراً الى الموضوع .

الفصل الثامن ، الذي انهى به الكتاب الاول ، يعالج معضلات الحصول على الخبرة الضرورية لكافة الرتب ولكن بشكل خاص للقائد نفسه ايام السلم « ومما له اهمية بالغة الا ينتظر اي جندي (قائد) .. الحرب لتعرض له تلك الجوانب التي تدهشه وتربكه في الخدمة الفعلية وذلك عند مجابهته لها وجهاً لوجه لاول مرة » (ص١٦٨).

من الصعب التخمين او القطع فيما اذا كان كلاوزفيتز قد ضمن خططه لتنقيح كتابه ، توسيع الفصول الخمس الاخيرة من الكتاب الاول كثيراً ، ربما باستثناء الفصل الثامن والاخير الذي قال فيه كلما يجب قوله في الموضوع . بقي ان نضيف ان عدداً من الكتاب الاخرين في الاستراتيجية قد ذكروا « الاضطرام Friction » الناجم بسبب الخطر ومشاق الافراد ، رغم ان الكثيرين منهم قد أخذوا بالمصاعب الناجمة عن الاستخبارات المغلوطة . يعد الفصل الذي كرس اساساً لموضوع « الاضطرام» تحفة رائعة ، كما اوضح لنا من بين اشياء اخرى لماذا افترق كلاوزفيتز كثيراً عن تركيبات الحقائق العامة والقواعد والبديهيات وعن الاشخاص الذين يتمسكون بها .

الكتاب الثاني
في نظرية الحرب

عندما وصف كلاوزفيتز في «الملاحظة» المؤرخه ١٠/ تموز/ ١٨٢٧ والتي وجدت مع مخطوطته بعد موته، كتبه الستة الاولى وكما هي عليه وكانها.. «مجرد مسودات اوليه لا شكل لها، ولا بد من اعادة كتابتها مجدداً»، فهو لم يسهب عبثا بالانتقاد الذاتي. اما المعيار الذي كان يقيس نفسه من خلاله فهو عال دون شك، لكنه ضمن الحدود الواقعية، اذ نلمس تحققه في معظم الكتاب الاول وعلى الاخص في الفصل الوحيد الذي اعتبره كاملاً. ففي هذا الفصل، ولما تبقى من الكتاب الاول وان بدرجة اقل، كان البناء محكماً وانيقاً، وكذلك فالافكار واضحة وان كانت كثيفة دون فواصل من الحشو الفارغ، كما تنبع تلك الافكار فيها واحدة من الاخرى باقصى حد من التلاحم المنطقي. ليس في تلك الاجزاء شيئاً مما دعاه بـ «الكثير من الاضافات والمواد الزائدة» في «الملاحظة» اعلاه. ومع ذلك، ففي الكتاب الثاني، وكما في الكثير من الكتب التالية، سنرى نوعاً آخراً من الكتابة. لكننا اشد تصميماً على التعامل مع كلاوزفيتز الذي قدم لنا «ثمار سنوات من التأمل والدراسة المتأنية للحرب» الا اننا نتعامل كذلك مع مخطوط لم يتم بعد. فهو وبعد كل شيء ليس «مسودات لا شكل لها» بل اقل تنظيماً مما يمكن ان يكون عليه، ولقد وجدنا هنا وهناك بعض الحشو والتكرار. ليس من شك في ان تلك السمات تعزى الى الصعوبة التي وجدها البعض في قراءة وفهم كلاوزفيتز، ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبة الا بمواجهة صريحة لسببها.

الكتاب الثاني. الفصل الاول: خصص هذا الفصل على سبيل المثال لبعض التعاريف والاختلافات التي لم تدفع المناقشة كثيراً الى الامام. هناك بعض العبارات التي أحسنت صياغتها كما يصح جداً اقتباسها، كالتي في الفقرة الاولى من الفصل والتي تقول .. «القتال.. تجربة للعوامل المعنوية والمادية خلال وسط مادي». كذلك عبر مرتين، وان كان ذلك بلغة مختلفة عن الاختلاف ما بين التعبية (Tactics) والاستراتيجية. ففي محاولته الاولى دعى التعبيه بـ «**دراسة استخدام القوات المقاتله في المعركة**» كما وصف الاستراتيجية بـ «**دراسة استخدام المعارك من اجل هدف الحرب**[1]» –(ص ١٧٥) لقد كتب كلاوزفيتز التعريف بحروف متميزة (italics).

---

(١). استخدم المترجم الى الانكليزيه في تعريف التعبية «القوات المسلحة» وفي تعريف الاستراتيجية استخدم تعبير «الاشتباكات» اما الاستاذ برودي فقد اختار تعبيري (القوات المقاتلة) في الاولى و(المعارك) في الثانيه – المترجم

الكتاب الثاني. الفصل الثاني. لقد بدأ هذا الفصل ملفتاً للنظر منذ البداية. اذ يصف بالتفصيل وبمصطلحات عامة الطبيعة غير المرضية لكل الدراسات الاستراتيجية التي سبقته. ومع انه لم يذكر اسماء محددة، الا انه بدى وفي اماكن مختلفة وكأنه يتحدث عن استاذ حرب الحصار الشهير ايام لويس الرابع عشر (الفرنسي) وهو الماركيز دو فوبان، وعن الماريشال الماركيز دو ساكس ايام لويس الخامس عشر، وعن فردريك الكبير، وعن الكونت ديترش فون بيلو الذي سبق كلاوزفيتز نفسه بقليل، وكذلك عن معاصره الشهير (جوميني). لقد لاحظ وجود اختلافات فيما بينهم وبين اخرين، بل وحتى بعض التقدم لدى البعض منهم، الا انه وعموما وجد ضيقاً في افكارهم، اي انهم، لم يدخلوا في حساباتهم «التعقيدات التي لا نهاية لها» والتي ترافق الحرب، وكذلك «بما يتعلق[1] فقط بالقضايا المادية والانشطة الاحادية الجانب» (ص ١٨٤) وواصل كلاوزفيتز القول من المهم بشكل خاص ان ندخل في حسابنا حقيقة ان في الحرب «كل شيء غير مؤكد (uncertain) ، ولا بد من اجراء الحسابات على كميات متعددة ومتنوعة» (ص ١٨٦) فـ «كل الاعمال العسكرية تتشابك مع العوامل والتأثيرات النفسية psychological (أو المعنوية)»(ص ١٨٦) ؛ومن ان الحرب تتألف من «تفاعل مستمر بين الاضداد»(ص ١٨٦) – واكثر من ذلك فهي بين اضداد تمثل درجات مختلفة من الذكاء والبراعة.

يجب ان يصر المرء على ضرورة تجنب اية عقائد تسعى لاصدار منهج او كراسة للعمل. انه يؤمن حقاً بالنظرية، ولكن بذلك النوع الذي يتطور منها عبر دراسة طويلة لتاريخ الحرب. يتابع كلاوزفيتز القول بان النظرية توجد لـ «التميز وبوضوح ما يبدو لأول وهلة مشوشاً». (ص ١٩٤) بوسع المرء مع نظرية جديدة استيعاب خبرة ومعلومات جديدتين دونما حاجة لان يبدأ من جديد كل مرة. انها، وبعبارة اخرى طريقة لتنمية القدرة على التصور من تنمية وتنظيم الخبرة في عقل الانسان. يخدم هذا النوع من النظرية قائد المستقبل بتوجيهه في تثقيف نفسه، الا انها ليست مما يرافقه الى ساحة المعركة. الخلاصة، فالامر اذن يعني بتدريب الفكر لا

---

(١) استخدمنا كلمة (بما يتعلق) هنا ترجمة لكلمة (pertaining) التي استخدمها الاستاذ برودي وادخلها بين حاصرتين وكانها من النص الانكليزي (فصل/٢ الكتاب/٢) لكلاوزفيتز الا انه في الحقيقة قد اختصر بها سطرين من النص المترجم وكما ورد في (ص١٣٤) من النص الانكليزي الذي ترجمنا عنه. يوضح لنا ذلك طرق اختلاف الترجمة والاقتباسات وبالتالي اختلاف المعاني المقصودة في مؤلف كلاوزفيتز ، وقد اضطرني دليل الاستاذ برودي هذا الى اعادة قراءة الكتاب مجدداً بحثاً عن اماكن العبارات التي اقتبسها كي لا اقع في مأزق ازدواجية الترجمة في المعنى والكلمات للنص المقصود – المترجم –.

املاءه بعقيدة.

حتى ان بدى كل ذلك غامضاً وغير عملي، إلا إنه كاف لايضاح ان كلاوزفيتز انما يصف حقيقة تجربة قد خبرها الكثيرون لكن لم يعيها سوى القليل - التأثيرات الدقيقه والبارعة للتعليم على العقل. التعليم وبغض النظر تقريباً عن ميدان التخصص انما يؤكد احاسيسنا الفكرية، كما انه احدى الطرق التي تفعل ذلك بتوسيع ادراكنا للروابط ما بين الاحداث، او الحدس البعيد من حيث الوقت والظروف. النظرية بالغة القيمة الى الدرجة التي تحدث فيه مثل هذا التوسيع في الادراك في اشكال محددة وتجنبنا الوقوع في الحذلقة وادعاء الاستاذية. لقد قال كلاوزفيتز شيئاً مشابهاً، فالاستاذ المتفهم « الذي يوجه ويستثير العقل المبدع لتلميذه، ولكن الحذر في عدم قيادته بيده لما بقى من حياته» (ص ١٩٤) انه لا يكره ولا يبتعد عن المبادىء والقواعد ان كانت «الحقيقة تتبلور بشكل طبيعي (تلقائياً) بتلك الصيغ والاشكال»(ص ١٩٥). وذلك النوع من التبلور القسري هو الذي اثار نفرته.

لقد اقترح ان يبدأ نظرية للحرب بدراسة العلاقة ما بين الوسائل والغايات، اولاً في التعبية ومن ثم في الاستراتيجية. والغرض من وراء ذلك هو استبعاد كل ما ليس له علاقه تقريباً. فادارة الحرب على سبيل المثال تتم مع استخدام المدافع، ولكن ليس مع كيفية صنع تلك المدافع. وعلى شاكلة ذلك «الاستراتيجية تستخدم الخرائط دون الاهتمام بالمساحة التثليثية». (ص ١٩٩) هذا التبسيط في المجالات الوثيقة الصلة يفسر برأي كلاوزفيتز «كيف يبرز ويتميز الرجال في الحرب بسهولة في المراتب العليا، وحتى كقادة أعلون، رغم ان مجال عملهم السابق كـان مختلفـاً كليـاً» (ص ١٩٩). لا يعرض كلاوزفيتز علينا اسماء، لكن لعله كان يفكر بالانكليزي (كرومويل) (١٥٩٩-١٦٥٨)، وقائده البحري الادميرال روبرت بليك، واي عدد من الملوك المقاتلين بدءً بالاسكندر المقدوني وحتى الملك البروسي العظيم ايام كلاوزفيتز نفسه (فردريك الثاني أو الكبير ١٧١٢ - ١٧٨٦). وهذا الاخير وحتى اعتلائه العرش كان يعرف باهتمامه بالموسيقى والادب الفرنسي اكثر من اهتمامه باي شأن عسكري. هذا الخلط مع رجال تحولوا الى قادة عظام مع ادنى قدر من التهيئة قرب كلاوزفيتز حداً خطيراً من استنكاره، او على الاقل بدى وكأنه ينكر قيمة اي نوع من التهيئة والمران الفكري. وكما قال احد الكتاب عن مؤلف كلاوزفيتز «الفكرة الهامة لمئات الصفحات من الخزين الهائل من المعرفة، هي باقناع عقل

القارىء بعبثية ولا جدوى كلما نتعلمه من الكتب..[1]» حسناً، الا أن الامر ليس كذلك. وقبل نهاية هذا الفصل أصر كلاوزفيتز اولاً، على أن «ليس بين القادة العظام اي رجل محدود الفكر...» (ص ٢٠٢) وثانياً، يجب على **الموهبة الطبيعية** واينما توفرت، تطوير القدرات على التوصل الى القرارات الصحيحة، مما يعني ضرورة ان تكون تلك الموهبه الطبيعة قد «دربت وتعلمت من التفكير والدراسة»(ص ٢٠٣).

الكتاب الثاني. الفصل الثالث. يعالج كلاوزفيتز هنا السؤال المألوف الان فيما اذا كانت ادارة الحرب فناً أو علماً، ويستنتج في النهاية ان ادارة الحرب وفي الوقت الذي تبدو فيه فناً اكثر منها علماً الا انها في الحقيقه ليست اياً منهما. ويقول انها تصادم في المصالح، ومن ثم ويا للغرابة يقارنها بالتجارة، التي يعتبرها «تصادم في المصالح والفعاليات البشرية»!! (ص ٢٠٥) انه يعبر بطبيعة الحال عن رأي تاجر(Mercantilist) محض. ولم تتح له الفرصة لقراءة كتاب ادم سمث الكبير[2] (ثروة الامم) الذي نشر قبل اربع سنوات من مولد كلاوزفيتز. ومع ذلك فنقطته الرئيسية صحيحة: فالحرب ليست ممارسة للارادة موجهة ضد مادة جامدة (التي يفترض انها تعريفه للفن)، بل انها بالاحرى موجهة «نحو هدف حي ذو رد فعل»(ص٢٠٦). اي نفس المعتقد الاساسي الذي يميز نظرية اللعب الحديثة عن النظرية البسيطة للأحتمالات.

الكتاب الثاني. الفصل الرابع. بعد بعض التعاريف الموجزة لمصطلحات، يوضح كلاوزفيتز شيئاً يخص نظرية الحرب[3] «ما من صيغه معترف بها وشاملة الى حد ترقى معه الى مستوى القانون»(ص ٢٠٨). ومع ذلك امكن تطبيق المبادىء والقواعد، ولو في التعبية اكثر مما في الاستراتيجية. وهي مفيدة لان نضعها نصب اعيننا لمساعدتنا، الا انها لا يمكن ان تطبق بالمعنى العقائدي المؤكد وفي كل موقف. كذلك فالسياقات الثابتة (Routine) يمكن ان تكون مفيدة وعلى الاخص فيما يتعلق بالضباط الاحداث، فالسياق المنهجي «سيعزز من قدراتهم في القرار، ويحصنهم ضد الافكار والمشروعات الغريبة والخاطئة والتي تشكل التهديد الاكبر في المجالات التي

(١) . حوليس. في «مقدمته» لكتاب «عن الحرب» ص ٢٣.

(٢) ادم سمث (١٧٢٣ – ١٧٩٠) اسكتلندي يعتبر مؤسس الاقتصاد الكلاسيكي وقد نال مؤلفه (ثروة الامم) شهرة واسعة.

(٣) اختلاف أخر في ا لترجمة من الالمانية الى الانكليزية بين كتاب عن الحرب ودليل الاستاذ برودي الذي لم يذكر كلمة (Prescprictive) في وصف الصيغة، وقد ترجمت هذه الكلمة بـ (معترف بها) او شائعه. (المترجم)

تستحق الخبرة، كلما يبذل في سبيلها» (ص ٢١٠). وفي حالة غياب نظرية جيدة فستوثر السياقات حتى على القرارات الهامة في المراتب العليا. ورغم ان القادة الكبار يعملون وفقاً لاساليبهم الشخصية، لكن حين يحاول قادة اخرون تقليد تلك الاساليب فقد ينتهون بتطبيق اسلوب او سياق لا معنى له. كمثال على ذلك يقدم لنا كلاوزفيتز الاندحار الذي يمثل تجربة مريرة له. فقد شهد معركة (ينا) عام ١٨٠٦، عندما حاول القادة البروسيين تقليد الاسلوب التعبوي لفردريك الكبير فجعلوا الجيش البروسي لقمة سائغة بين يدي نابليون وانتهى الامر باندحاره.

الكتاب الثاني. الفصل الخامس. يلقي هذا الفصل المهم ومن البداية قليلاً من الابعاد الاضافية لصعوبة القراءه، لان لدى كلاوزفيتز من البراعة الفلسفية ما يكفي كي يفهم ان مسألة السبب والنتيجة اكثر تعقيداً مما يظن الرجل العادي. والموضوع يتعلق بنقد حملات او معارك سابقة، وجد فيها المؤلف طريقة جيدة في دراسة نظرية عسكرية، جزئياً، لأن الافكار النظرية التي لا بد لاي نقد من الاعتماد عليها، تغدو مألوفة اكثر من خلال التطبيق المتكرر. ومع ذلك، ولأن النقد يهتم اساساً بمتابعة دقيقة للسبب والنتيجة، فليس لذلك اية قيمة ما لم يستند على رواية مفصلة وشاملة ودقيقة للأحداث موضوعة الدراسة. على الناقد ان يستخدم مفاهيمه النظرية كما ينبغي على القائد ان يستخدمها – كمعين له في اتخاذ القرار لا كقانون. لم يفشل كلاوزفيتز في اعادة عرض فكرة انه ونظراً لتصميم كافة الاعمال العسكرية للوصول الى نتائج بعينها، ففي «تلك المتعلقة بالاعمال العظيمة والحاسمة، على التحليل ان يتوسع حتى **الهدف النهائي**، الذي سيأتي معه بالسلام» (ص ٢١٧).

في اي نقد جيد فحتى «الاشياء التي لم تحدث فعلاً لكنها تبدو ممكنة... لا يمكن تركها بعيداً عن حساباتنا[1]». (ص ٢١٧) لقد اختار الكاتب حملة نابليون بونابرت عام ١٧٩٧ في النمسا التي دخلها من ايطاليا، كمثال ومن خلال استعراضه توصل الى الملاحظات الكلاوزفيتزية الاساسية، في ان نابليون عام ١٧٩٧ وعلى عكس الموقف الذي جابهه في موسكو عام ١٨١٢، «لم يكتشف يومها سر وفاعلية المقاومة حتى النهاية»(ص ٢٢٠). لقد استخدم مثالاً اخراً، ففي عام ١٧٩٦ رفع

(١) مرة اخرى يلاحظ اختلاف في الترجمة لدى برودي عن النص اذ ابتدأ برودي «بالاشياء التي لم تحدث فعلاً لكنها ممكنة» اما في النص فالجملة موضوعة البحث تتحدث عن افتراضات عديدة لا بد منها عن الاشياء التي لم تحدث ولكنها محتملة وبوسع القارىء المقارنة والمهم هنا ان ذلك مثالاً على ما يتعرض له كلاوزفيتز من فهم متعدد الاشكال وكما يشاء المترجم او الشارح يتساوى في ذلك مناصريه ومعاديه. المترجم

نابليون الحصار عن (مانتوا) لينقض على بعض ارتال الانقاذ، ليوضح لنا، ان النهج الاستبدادي قادر على منع عقل الانسان من التمعن في بدائل صحيحة وممكنة. يمكن ان يكون للنزعة الطاغية نفس التأثير، يؤكد لنا ذلك مثل آخر من حملات نابليون، تلك هي حملة ١٨١٤.

الغرض الرئيسي للنقد الذي وصف على التو، ليس توجيه المديح او اللوم الى القائد، وذلك أمر يصعب تحقيقه وفق معايير العدالة، اذ لا يستطيع الناقد ان يضع نفسه عقلياً في الموقف الذي شارك فيه ذلك القائد. وأحد الاختلافات البارزة هو انه بات يعرف النتيجة «ينبغي على الناقد.... تجنب تفحص قرارات وحلول قائد كبير لمعضلة ما وكما لو انها مسألة حسابية».(ص ٢٢٧) ولعل من المفيد حتى تجنب مناقشة عمل بعينه، او قرار ما، بما يوحى بالمديح او اللوم، لكن على الاخص فيما يخص قائد عظيم، وعلى الناقد عدم تضمين نقده ما يوحى أن بوسع ذلك القائد تقديم ما هو افضل.

الاختلاف بين فشل نابليون المأساوي في حملة موسكو عام ١٨١٢، ونجاحه في حملاته السابقة مثل اوسترلتز (١٨٠٥)، وفريدلاند (١٨٠٧) ووكرام (١٨٠٩)، لم يكن مسألة اختلاف في الاستراتيجية، اكثر من كون نابليون في حملاته الاولى كان يحسن تقدير اعداءه بدقة، ولم يكن كذلك عام ١٨١٢. وقد أكدت النتائج ذلك ببساطة (سيعود كلاوزفيتز الى هذه الفرضية في الفصل التاسع من الكتاب الثامن). رغم ان كل الاعمال في الحرب تهدف نحو نجاحات محتملة اكثر منها مؤكدة، وان هناك أوقات تمثل فيها الشجاعة القصوى، قمة الحكمة.

ينهي كلاوزفيتز هذا الفصل باستعراض ثلاثة اخطاء شائعة يقع فيها النقاد. يعلن الاول مباشرة بعد اعادة عرضه لاخطاء استخدام المبادىء او القواعد كادلة خارجية في الادارة وليست كأشياء مساعدة في تدريب ذهنية القائد (او الناقد).. «ينبغي على المرء أن لا يستخدم الصيغ العلمية الجاهزة والمحكمة وكأنها نوع من الادوات الحقيقية»(ص ٢٣٢) والثاني هو الاستخدام المفرط للحواشي (الهوامش) الطنانة، والتقنيات والمجازات اللفظية، حيث «لا يعود الناقد يعرف تماماً ما الذي يفكر فيه، ويحيط نفسه بافكار وعبارات فارغة لا ترضيه هو نفسه إن وضعت في اسلوب وكلمات بسيطتين» (ص ٢٣٣). والثالث هو سوء استعمال واهمال الامثلة التاريخية، حيث يختار الناقد لبحثه ثلاث أو اربعة امثلة من ازمان واماكن بعيدة

متذرعاً بها لمجرد اظهار سعة معرفته. ولن تُحدث هذه الامثلة المجردة والنصف كاذبة على الاقل عادة، او تترك سوى تأثيرات عكسية على الرجل العسكري العملي الذي اريدت منفعته.

على النظرية ان تتمسك بمصطلحات مبسطة وملاحظات اساسية ومباشرة في ادارة الحرب، وان تتجنب الدعاوي الزائفة والعرض الفج للصيغ العلمية والخلاصات التاريخية، كما عليها التمسك بالنقطة (المركزية) وان لا تتخلى عنها، مع اؤلئك الذين «سيتولون معالجة الامور في المعركة على ضوء حصافتهم ومواهبهم الخاصة»(ص ٢٣٤).

الكتاب الثاني. الفصل السادس. في هذا الفصل الختامي للكتاب الثاني طور كلاوزفيتز فكرة اهملها في الفصل السابق، عندما ذكر احد الاخطاء الرئيسية الثلاث الشائعة للنقاد وهو سوء استخدامهم للأمثلة التاريخية. ويحاول هنا عرض الاسلوب الصحيح في استخدام تلك الامثلة.

يقول كلاوزفيتز «المعرفة التي هي اساس لفن الحرب، تجريبية»(ص ٢٣٥). هكذا لا تتكشف لنا طبيعة الحرب الا من خلال الامثلة التاريخية فقط. نستطيع دراسة الوسائل، كالتأثير المادي لمقذوفة اطلقت من مدفع، الا انها لا تفيدنا كالمثال التاريخي عن الاختلافات بين قوات حسنة التدريب وقوات عديمة الخبرة في الاستعداد والصمود المتوقع منها بوجه القصف المدفعي. في الحقيقة، نحن لا نملك ذلك القدر الكافي من التجربة الكفيلة بتزويدنا بالكثير عن كل الاشياء التي نود معرفتها. ومن المصادفات الملفتة للنظر، ان كلاوزفيتز الذي لم يعرف بالتغييرات التقنية السريعة في ادوات الحرب، مفضلاً قلب الموقف الذي جعلنا ميالين الى مسايرة الاهتمام الحالي بالاستفادة من الامثلة التاريخية لتبرير التحول عن الاستخدام المألوف لها، وحيث اثبتت الطرق فعالية عالية حداً اصبحت معه الاكثر شيوعاً. يقول كلاوزفيتز ان لا بد لنا من اسباب جيدة، يعني كتلك التي يمكن استخلاصها من التاريخ، لاجل تغييرها. لهذه المناقشه وقع غريب في عصر الاسلحة النووية – ومع ذلك قد يظل رأيه صحيحاً بالنسبة للتحولات الاقل مأساوية. كما سبق وان رأينا، ففي عصر القوة البخارية والسفن الحديدية اقام (الفريد ثاير ماهان) نظرية بحرية صالحة وشديدة الاقناع استنبطها كلها وعلى وجه الحصر من الحرب البحرية ايام السفن الشراعية.

هناك، كما يقول كلاوزفيتز، اربعة استخدامات مختلفة للامثلة التاريخية. **الاول** وببساطة هو **بتفسير** فكرة ستظل دون ذلك كمعلومة تجريدية غامضة، **والثاني بايضاح** تطبيق فكرة ما، كي نتمكن من تلمس دور الظروف والاحداث الصغيرة بذاتها وليست كاجزاء متداخلة في تركيب عام. ويشترك هذان الاثنان في حقيقة عدم حاجة الامثلة التاريخية لان تكون دقيقة ولا اصلية كليةً، اذ ليس هناك من مسعى **لاثبات** اي شيء. وليست الامثلة التاريخية في حالات كهذه سوى ادوات تفسيرية مساعدة.

في الحالة الثالثة، يرغب المرء بتأكيد **امكانية** بعض الظواهر او النتائج والتأثيرات، وفي الرابعة يرغب المرء **باستنتاج قاعدة** او عقيدة، حين لا يتوفر الدليل الا في القرينة التاريخية نفسها. يحتاج المرء هنا الى تاريخ دقيق، الا في الحالة الثالثة اذ ان مثالاً واحداً قد يكون كافياً، اما في الرابعة فالمطلوب اكثر تحديداً ودقة. ففي الحالة الرابعة يحتاج المرء عدداً لا بأس به من الحالات **المساعدة وعدم** وجود او قلة الحالات المعاكسة، واكثر من ذلك، وفي كل حالة «لا بد من الحذر والدقة في ضمان متابعة التطور وبالتفصيل لكل جوانب واجزاء ترد في الحقيقة موضوعة البحث»(ص٢٣٨).

المعضلة الرئيسية عند الخوض في تجارب وامثلة عامة والاكتفاء بايراد تفاصيل قليلة او حتى مجرد اشارة عابرة للعديد من تلك الشواهد، هي ان القارىء لا يعرف عنها بما يكفيه لتقويم حكم المؤلف ومحذور ذلك اقل ضرراً مما لو كان المؤلف، نفسه لم يتمكن او يتفهم بعمق ما يستشهد به من احداث ووقائع. «ان هذه المعالجة اللامسؤولة للتاريخ أوجدت مئات من الافكار الخاطئة والتنظير الزائف» (ص ٢٤٠) فمثال واحد بتفاصيل دقيقة وصحيحة افضل من عشرة مر عليها مرور الكرام. لذلك وللأسباب ذات العلاقة، من الافضل استخدام الامثلة التاريخية الحديثة لا البعيدة في التاريخ العسكري. ليس لاننا نفهم التاريخ القريب بشكل افضل، بل لان الظروف، بما فيها التي تخص الاسلحة هي ايضاً قريبة لما يتيسر منها اليوم. وهذا يعني لكلاوزفيتز البدء بحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠–٤٨) والتي تصادف ايضاً كونها اول حروب فردريك الكبير. وتقتصر هذه على حوالي (٧٥) سنة من التاريخ العسكري تقريباً (والتي تنتهي وبالضرورة مع حملة واترلو)، ومع ذلك يقر كلاوزفيتز بعدم استبعاد الازمنة الابعد، بما فيها القديمة اطلاقاً، اعتماداً على ما نريده بالذات من ذلك التاريخ.

يلاحظ المرء اهتمام كلاوزفيتز بالامانة في العملية التي يعالجها. فاؤلئك الذين يكتفون باشارات عابرة الى احداث بعيدة في التاريخ نادراً ما نعثر لديهم «على شيء من الامانة في الغرض، او اية محاولة جادة للأرشاد (للبناء) أو الاقناع» (ص ٢٤٢). بل انهم يتباهون بما لديهم فقط. لكن ما الذي كان سيقوله كلاوزفيتز بحق معظم كتاب الاستراتيجية لما بعد الحرب العالمية الثانية، والذين لم يظهروا اية اهتمامات مفرطة او غير اعتيادية في معرفة التاريخ العسكري، ولم يقلقوا او يشعروا باي حرج لعدم امتلاكهم اية معرفة بتاريخ كهذا؟

الكتاب الثالث ! في الاستراتيجية عموماً

الكتاب الثالث ، الفصل الأول : يمضي الكاتب هنا بعيداً في عمق ومعنى الاستراتيجية وكذلك في العبقرية العسكرية . والشيء المهم هو ان يبقي المرء عيناً على الهدف ، كمشارك وكناقد معاً ، وليرى باي طريق او تصرف ، وباي قدر من العبقرية والحدس والقدرة على القرار، حقق القائد الذكي هدفه .

يقول كلاوزفيتز ثانية أن « كل شيء في الاستراتيجية بسيط ، لكن لا يعني ذلك أن كل شيء سهل جداً . فحالما يتم القرار وانطلاقاً من الظروف السياسية ، وما الذي تعنى الحرب بتحقيقه ، وما الذي بوسعها انجازه ، فمن السهل رسم مسار الاحداث . الا أن المضي في تنفيذ ذلك بثبات يتطلب قدراً كبيراً من قوة الشخصية، وكذلك الكثير من الوضوح الفكري ومتانة العقل لكي تنفذ الخطة الموضوعة ، وان لا تترك وكالقشة في مهب الريح وعرضة لآلاف التحولات والتغييرات »(ص٢٤٧).

في حملة فردريك الكبير لعام ١٧٦٠ (وسط حرب السنوات السبع ١٧٥٦-٦٣) فان ما حضي بالثناء على الدوام هو مسيراته ومناوراته السريعة ، فعندما كان الدليل الحقيقي لبراعته وحكمته هي حقيقة أنه وخلال «متابعة (توخي) الهدف بموارد محدودة ، لم يحاول انجاز اي شيء فوق طاقته»(ص ٢٤٨). تستحق مناوراته الاعجاب فعلاً ، وان لم يكن ذلك بسبب المفاهيم التي وضحتها بل بالاحرى للأقدام والعزم وقوة الارادة التي مكنت ذلك الملك من تنفيذها . ويقول ان هذه المعجزة في التنفيذ لا يمكن تقديرها بصدق الا من قبل من يمتلكون تجربة حقيقية في الحرب فقط.

يمكن ان نضيف ، بان الفكرة الاخيرة هي مفتاح تأكيد كلاوزفيتز الدائم على أهمية الخبرات العملية ، هذا التأكيد الذي دفع ببعض شارحيه إلى التساؤل عما اذا كان كلاوزفيتز يعتقد بامكانية الحصول على أي شيء ذي قيمة حول نظرية الحرب من الكتب ! انه يتوقع امتلاك معظم قراءه للخبرة ، وان يتفهم الاخرون ما الذي يعنيه نقصها او عدم وجودها . «لا يمكن لمن تقتصر معرفته بالحرب على الاستعراضات - الاحتفالية وقراءة الكتب عنها، أن يدرك ويتفهم ضغط هذه الويلات على العمل ، ولابد لهم القبول وبامانة ما يعنيه نقص التجربة لديهم » (ص ٢٥١).

لعله لن يكون لاحتلال مدينة او منطقة سوى قيمة عسكرية قليلة ، إلا انها

تضيف ضغوطاً اخرى على العدو . من الناحية الاخرى، فان فقدنا التركيز على الهدف النهائي (الاهم) واستسلمنا لاعتبار (لفكرة) ان المناطق المحتلة ذات قيمة لذاتها، فقد ننسى او نتجاهل امكانية تحول ذلك الى اضرار . والمهم ليس الفائدة الوحيدة المعزولة بل الميزان النهائي . ما من شك بامتلاك كلاوزفيتز للعديد من الامثلة نتيجة لملاحظاته الخاصة – كنجاح نابليون باحتلال موسكو – رغم اننا شاهدنا كذلك وفي ايامنا هذه، حقيقة ملاحظاته تلك . فالجزر والمناطق الاخرى التي احتلتها اليابان بعد هجومها على (بيرل هاربر) في ديسمبر ١٩٤١ ، تحولت الى اعباء في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، عندما تم عزل حامياتها وشل قدراتها . ومثال اخر اكثر حداثة هو احتلال اسرائيل لسيناء عام ١٩٦٧ والذي انتهى كاضرار مأساوية في حرب ١٩٧٣ ، لانه يعني وضمن اشياء اخرى ، قبول مشاكل ادارية فائقة كانت قبل ذلك عبئاً على العدو وحده . بالاضافة إلى ذلك فقد اكدت حرب عام ١٩٦٧ أن من الافضل خلال المعركة ان تظل الصحراء المزعجة في جانب العدو لا في جانبنا نحن . بارسال الرئيس عبد الناصر جيشه عبر تلك الصحراء فقد كشف عن نواياه العدوانية ، وعندما تحطمت قواته بفعل الهجوم (المعادي) فان الصحراء هي التي قضت عليها .

الكتاب الثالث : **الفصول الثاني – السابع** : يجب ان يفسر الفصل الثاني الشديد الاختصار وببساطة كرفض وازدراء شديدين لبعض من سبق كلاوزفيتز ومعاصريه ، وبالاخص (فون بيلو) يعيد الفصل الثالث «العوامل المعنوية» ، الفرضية التي يكرر كلاوزفيتز تأكيدها باستمرار ، في كتابه ، والتي يدرك تماماً انه ليس وحيداً في ذلك . رغم شكواه من تجاهل منظرين أخرين لها ، وفي الحقيقة فان معاصريه بما فيهم الجنرال جوميني ، وجهوا تأكيداتهم على «المبادئ» ، أي وبمعنى آخر على الاساليب. ومع ذلك فالمجد الذي يحصده القادة في الحرب، قد أُدرك تلقائياً بالميزة التي دعاها كلاوزفيتز وكتاب عسكريون اخرون « المعنويات » التي وبهذا الخصوص ليس لها علاقة طبعاً بالاخلاق .

من المؤكد ايضاً أن الاكثرية الكبيرة من كتاب الاستراتيجية منذ ايام كلاوزفيتز لم يغفلوا عن ادراك أهمية هذه الصفة حتى عند مناقشتهم لامور أخرى – واحيانا وكما بالنسبة للماريشال فوش ، فقد خصها بالكثير جداً عند مقارنتها بامور أخرى . مع ذلك لم يكن الغرور وحده الذي دفع بويللنكتن للاعتراف لصديقه توماس

كريفي في اليوم التالي لمعركة واترلوا بعدم امكانية ربح تلك المعركة « لو لم اكن انا هناك» . كما لم يشك ويللنكتون مطلقاً لو أن جنرالاً اقل عزماً من بلوخر هو الذي جاء لنجدته لتعذر كذلك ربح المعركة . لقد شهد كلاوزفيتز ذلك العزم في تلك المناسبة – اذ كان ايامها رئيساً لاركان الجنرال البروسي ثيلمان (١٧٦٥–١٨٢٤) احد قادة فيالق بلوخر كما شهده ايضاً في العديد من المناسبات الاخرى في السنتين السابقتين [١] .

تدهشنا مناقشة الكاتب للروح القتالية للجيش لعصريتها . ويتميز كلاوزفيتز في الامور السايكولوجية دائماً بأنه الاكثر تحمساً وقطعاً ، وانه الاكثر عمقاً وترو في ملاحظاته «تستمد كفاية الجيش حياتها وروحها من الحماس للقضية التي يحارب لاجلها ، الا أن حماساً كهذا ليس امراً اساسياً لا يمكن الاستغناء عنه» (ص ٢٥٩) . لكن وبعد تحديد ووصف ما يخلق «الروح العسكرية (القتالية) الحقيقية» ، وبيان اهميتها يذهب الى القول «لايمكن التأكيد باستحالة خوض حرب ناجحة دون تلك المزايا . نحن نؤكد ذلك ايضاحاً للمفهوم ، وكذلك كي لا نفقد التمعن في الافكار وسط ضباب العموميات وموحين بان الروح القتالية هي كل ما يعول عليه في النهاية .. فروح جيش ما ... **هي الالة التي يمكن حساب القوة بها»**[٢] .(ص ٢٦٠) ولا يعني الكاتب بـ« امكانية القياس Measurable » بطبيعة الحال انه يمكن قياسها او التعبير عنها بارقام ، بل يعني وببساطة بامكانية المبالغة في اكثر الاشياء أهمية . يمكن وضع نفس الفكرة ببداهة : حيثما توجد عدة مزايا (في جيش ما وفي قيادته) مهمة، فلا يمكن لاي منها ان تكون شديدة الأهمية . ومع ذلك فلم يتمسك الكتاب الاخرين صراحة بهذه البديهيات البسيطة .

---

(١) كان يمكن أن يضحى بكلاوزفيتز في تلك المعركة الحاسمة بسبب عزم بلوخر وروحه القتالية وبسبب الحس الاستراتيجي لرئيس اركانه الشهير الجنرال فون جينيسناو صديق كلاوزفيتز وحاميه ، اذ وبسبب الاستجابة الصادقة لطلب المساعدة من ويللنكتون لم يترك بلوخر خلفه في «ويفر» التي تقع على مسافة (١٤) ميلاً تقريباً عن واترلو سوى فيلق الجنرال ثيلمان (ومعه كلاوزفيتز) لمواجهة الماريشال كروشي . وعندما إتضح ان لدى هذا قوة متفوقة كثيراً الح ثيلمان على ارسال نجدة سريعة له ، الا ان جينسناو وهو يقترب من واترلوا رفض ذلك قائلاً « ليس مهماً ان يسحق (ثيلمان) طالما سنحقق النصر هنا» المشرف Eds.

(٢) التأكيد اعلاه (الحروف الغامقة التي يعبر عنها بحروف ناعمة بالانكليزية (italics) هي لبرنارد برودي كما يلاحظ هنا ايضاً بعض الاختلاف عن النص . المترجم .

هناك مصدران فقط للروح القتالية ؛ الاول هو سلسلة من الحملات الناجحة ، والثاني «جهد مستديم يبذله الجيش حتى الحدود القصوى لطاقته»(ص ٢٦٢). قد يبدو ذلك فظيعاً ، الا أن « الجندي يعتز ويفخر تماماً بالمصاعب التي تغلب عليها اعتزازه بالمخاطر التي واجهته» . نسمع ثانية الحديث عن الخبرة الطويلة . ويعرف كلاوزفيتز جيداً ما يعنيه ان تكون في جيش دفع الى اقصى حدود تحمله ، التي وبفعل فضائل كلاً من جهدهم وما بوسع الانتصار عمله ان «يصمد بوجه اعتى أعاصير سوء الحظ والاندحار» (ص ٢٦٢). ويتابع كلاوزفيتز القول بان علينا الحذر وأن « لا نخلط بين الروح (القتالية) الحقيقية لجيش ما ومزاجه»(ص ٢٦٣).

في الفصل السادس « الاقدام » ، يبدو وكأن كلاوزفيتز يواجه مشكلة في التوصل الى شيء مع ذلك . هو لا يشك بان الاقدام أمر مرغوب به في المستويات الادنى وحيث يمكن ملاحظته بسهولة . اذ يمكن كبحه والسيطرة عليه هناك ، الا انه وفي الوقت نفسه «يعمل كالنابض الحلزوني المشدود (Coiled spring) . يمكن افلاته في اية لحظة» (ص ٢٦٤) اما في المراتب العليا فالموقف مختلف ، ويستعرض الكاتب هنا ازدواجية وتناقض غير مألوفين . ومن الواضح اننا نرى هنا كلاوزفيتز الذي يناضل ضد مزاجه الخاص .

انه يعرف قيمة الاقدام لدى القائد، ولكنه غير قادر على المطالبة بان «يكبح ذلك الاقدام بالتفكير»(ص٢٦٥). وكانت النتيجة سلسلة من التمييزات الرائعة غير العملية رغم غنى معانيها – على سبيل المثال التمييز الثلاثي ما بين « الاقدام» و«الحذر المدروس» و«الجبن» – وسلسلة اخرى من البيانات المتناقضة صراحة . وفي النهاية لعله اراد أن يسجل عنه تفضيل صريح للأقدام، الا انه قدم بعض البيانات البليغة في مصلحة الميول والامزجة . لكنه بعد ذلك قال « الاقدام المسيطر عليه بفكر متفوق (الاقدام الواعي) هو علامة البطل . ولا يتأتى هذا النوع من الاقدام من تحدي النظام الطبيعي للأشياء ومن الخرق المتمادي لقوانين الاحتمالات »(ص ٢٦٦). اما ما يعنيه الاقدام حقيقة فقد وصفه بمصطلحات غامضة نوعاً ما وبشيء من العمومية ، وهي طريقة استخدمها كلاوزفيتز بشكل افضل من كتاب الاستراتيجية الاخرين في القرنين التاسع عشر والعشرين . وفي النهاية اتضح لنا انه يعتقد بان « لا يمكن تصور وجود قائد فذ بشكل متميز دون اقدام » (ص ٢٦٧) كما انه يدعو هذه السجية بـ« اولى مستلزمات القائد العسكري العظيم»(ص ٢٦٧) . ومن الملفت للنظر على اية

حال افتراض قدرة كلاوزفيتز على تكريس هذا القدر ، المتواضع نوعاما ، لميزة لعله يعرف انه لا يمتلكها.

يخلو الفصل الموجز جداً « **المثابرة** Perseverance » – **الفصل السابع** – مع ذلك من الالتباسات . فالرجل الذي شارك في الحملة الروسية عام ١٨١٢ ، وفي الحملات في اوربا الغربية في الاعوام ١٨١٣ ، و١٨١٤، و١٨١٥، يعرف **عن ماذا** يتحدث عندما قال «من الصعوبة بمكان ان نجد مشروعاً او مهمة ذات شأن لا يتطلب تنفيذهما جهوداً لا نهاية لها ، ومشاكل وقوة وحرمان» (ص ٢٦٨).

الكتاب الثالث: الفصل الثامن « التفوق العددي ، والذي يعيدنا الى لمسة كلاوزفيتز الواثقة . انه يخبرنا اولاً عن شيء نعرفه ، وهو إن القائد الفذ غالباً ما ربح معركة ضد خصم اضعف وان كان –ذلك الخصم– متفوقاً عددياً كثيراً لكنه اوضح – شيئاً من السهل علينا نسيانه – ان هناك حدوداً للتعويض الذي توفره القيادة الفذة عن النقص العددي ، على الاقل في الجيوش الاوروبية التي تميل الى التقارب في نواح اخرى . هكذا توضح لنا الامثلة ،انه « حتى اكثر القادة براعة سيجدون صعوبة في دحر خصم تصل قوته إلى ضعف حجم قوتهم»(ص ٢٧٣). لذلك يتوجب علينا الاقرار انه وفي الحالات الاعتيادية « فتفوق عدد كبير ... سيكون كافيا لضمان النصر ، ومهما كانت الظروف الاخرى معاكسة»(ص ٢٧٣). هذا يعني ان القاعدة الاولى للأستراتيجية ينبغي ان تكون بوضع اكبر جيش ممكن في الميدان .

لكن لماذا نزعج انفسنا بمثل هذه التفاهات ؟ لأن كلاوزفيتز يؤكد لنا انها لم تكن كذلك في ايامه . ويقدم لنا معلومات خادعة ، فلم يبدو ان لقوة وحجم الجيوش اهمية كبيرة لدى معظم المؤرخين العسكريين حتى نهاية القرن الثامن عشر اذ نادراً ما يرد ذكرها حتى عند تطرقهم لكل انواع التفاصيل الاخرى . ويبدو ان بعض الكتاب يعتقدون « أن هناك بالتأكيد حداً اقص لحجم جيش ما يعد مثالياً حتى ان اضافة اية قطعات أخرى ستسبب من المشاكل اكثر مما تستحق ..»(ص ٢٧٤) بالاضافة إلى ذلك فنحن نعرف ان هناك معاركاً لم تستخدم فيها كل القوات المتيسرة « بسبب عدم اعطاء التفوق العددي الاهمية التي يستحقها »(ص ٢٧٤).

هكذا نجد امامنا مبدأين اذ ينبغي على المرء ان يعمل باقصى ما يمكن من القطعات ، وان تلك القطعات يجب ان تستخدم بنوع من المهارة بحيث « حتى عند تعذر التفوق المطلق ، يمكن تأمين التفوق النسبي في النقطة الحاسمة»(ص ٢٧٥). من

الواضح ان هذا الموضوع يحتاج الى التدقيق في «حسابات الوقت والمسافة» لكن من الواضح أيضاً ان هذا المصطلح – المبدأ – قد اصبح صيغة شائعة ومبتذلة في ايام كلاوزفيتز ، حتى انه قال « دعونا لا نربك انفسنا دونما ضرورة بمصطلح تقليدي»(ص ٢٧٥) .

انتهى من ثم بميزة تستحق الاعجاب . فللتفوق العددي اهمية كبرى ، الا ان درجة تلك الاهمية تظل نسبية « سيراعى ذلك المبدأ لو استخدمنا اكبر حجم من القطعات ، اما أمر القرار على تجنب القتال بسبب نقص القوة فيمكن البت فيه على ضوء كل الظروف الاخرى»(ص ٢٧٦) .

الكتاب الثالث ، الفصل التاسع : يتفق كلاوزفيتز مع كل كتاب الاستراتيجية الاخرين فيما يخص الرغبة العامة بتحقيق المباغتة ، الا انه رغم ذلك يظن ان التأكيدات العامة مبالغ فيها نوعاً ما . والسبب هو ان تحقيقها اكثر صعوبة مما يفترض عموماً « المبدأ شديد الجاذبية نظرياً ، اما عمليا فغالباً ما يتعثر تحقيقه بفعل الاحتكاك (الاضطرام) في الماكنة الحربية ككل» (ص ٢٧٧). وغالباً ما يتحقق النجاح فيها بفعل ظروف مؤاتية خارج سيطرة القائد، وغالباً ما تكون من محاسن الحظ والصدف.

المباغتة وسيلة تعبوية كذلك من حيث الاساس «في الاستراتيجية تغدو المباغتة اكثر سهولة كلما كانت اقرب الى المجال التعبوي ، وتزداد صعوبة كلما دنت من المستويات الاعلى سياسياً» (ص ٢٧٨). هكذا وبينما «تكمن المباغتة في جذور كافة العمليات دون استثناء » هي كذلك « بدرجات تتفاوت كثيراً فيما بينها اعتماداً على طبيعة وظروف العملية»(ص ٢٧٧) .

يقدم لنا الكاتب بضعة امثلة من قراءته للتاريخ العسكري – والتي غالباً ما تختلف كثيراً جداً عن قراءات المؤرخين العسكريين من معاصريه ، الذين مالوا دائماً الى تضخيم أمثلة المباغتة – لكن بوسعنا استخدام بعض الامثلة من عصرنا ، توفر تماماً ما كان كلاوزفيتز يود قوله في الامر ، وخصوصاً ما يتعلق بالسهولة العظمى في تحقيق المباغتة عند تحولنا من الاستراتيجية الى التعبية ، وكذلك في مجمل الظروف المناسبة .

لم يكن في ربيع عام ١٩٤٤ من شيء اكثر وضوحاً من ان قوات التحالف البريطاني – الامريكي ستنزل في الساحل الشمالي لفرنسا ولقد بذلت القيادة العليا للحلفاء جهوداً عريضة من اجل اخفاء نواياها ، الا انه كان من المستحيل ولعدة أشهر

سبقت الحدث، اخفاء حقيقة كون الغزو سيحدث ، ولدى الالمان أسس قوية لافتراض الوقت والمكان التقريبين ايضاً (اي سيتم الانزال على ساحل القتال ، لا على ساحل الاطلسي) . وهكذا فلا مباغتة في المجال الاعلى للأستراتيجية . لقد حقق الحلفاء بعض المباغتة في التوقيت الحقيقي لانزالهم (والا فما كان الماريشال رومل سيكون بعيداً عن مقره) . وكذلك في المكان الحقيقي للأنزال ، الا أن المباغتة الحقيقية هي ان الانزال الاصلي المتزامن في ساحل نورمندي لم يكن خدعة كما كان الالمان يحسبونها بل انها كانت القضية الكبرى ، وهكذا ، ابقى الالمان بعض الفرق في الاحتياط طويلاً ، بينما كانت ستؤثر كثيراً لو زجت في القتال مبكراً .

كان الهجوم الياباني على بيرل هاربور (ميناء اللؤلؤ) مباغتة كبرى حقاً ، استراتيجياً وتعبوياً - واكثر حتى مما يفترض ان يحقق ذلك . لقد كانت حكومة الولايات المتحدة تعرف ، كما حذر قادتها الاعلون في الميدان بان الحرب وشيكة الوقوع . كما يحتمل ان تتخذ هذه الحرب بمبادأة يابانية بهجوم مفاجيء في مكان ما، قياساً على مبادأتهم في الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٤ بهجوم مباغت ضد الاسطول الروسي في الشرق الاقصى في بورت أرثر . فلماذا لم تتخذ التدابير الضرورية ضد هذا النوع من الهجوم الذي وقع تماماً ؟ لقد كانت الطريقة التعبوية للهجوم مباغتة ، رغم انها ما كانت لتكون كذلك . فقد ادخل هذا النوع من الهجمات في تمارين الاسطول الامريكي منذ سنوات قبل ذلك الا انه نسي تماماً او اغفلت مراعاته .

كان الاجراء الدفاعي الحاسم هو بابقاء القطعات البحرية الكبرى في عرض البحر ، وقد كانت بعض الحاملات الامريكية كذلك يوم الهجوم (لقد لعب الحظ هنا ضد اليابانيين) . الا ان قائد الاسطول الامريكي ومساعديه لم يكونوا قادرين كما يبدو على تصور شن هجوم ياباني جوي ضد قاعدة للأسطول على هذا البعد . وهكذا ، وحتى مع الحظ الرائع الذي حضي به اليابانيون بسبب تجاهل الرصد الراداري باقتراب الطائرات ، فقد كان امل اليابانيون بتحقيق المباغتة لعبة (مقامرة) يائسة ، لكنهم ربحوها .

لكن وكما انتهى الامر فيما بعد ، لم يكن بوسع اليابانيين فعل اكثر من ذلك في اثارة عزم وتصميم ووحدة، دعاة الحرب في الولايات المتحدة التي كانت منقسمة على نفسها انذاك . لقد كان ذلك (الهجوم) ثمناً باهظاً لدفعه بتدمير او شل

واخراج بعض السفن الحربية القديمة التي كان سيجري اصلاحها او تبديلها قريباً لكننا اقتربنا الان من حدود الارتباط ما بين الاستراتيجية والسياسية ، الامر الذي عالجه كلاوزفيتز في فصول اخرى .

الكتاب الثالث : الفصل العاشر ، في هذا الفصل الوجيز «المكرCunnning» او استخدام الدهاء والخديعة ، يعود كلاوزفيتز سلبياً بشكل ملفت للنظر ، لاسباب تتعلق باقتصاد الحرب . فهو يتحدث عن المخادعة الاستراتيجية لا التعبوية ، كما يعتقد ان النوع الوحيد الذي يحتمل ان يؤثر عن طريق المخادعة (deception) هو ذلك الذي لا يكتفي باطلاق الكلمات بل بقوى مادية. الا انه يقول « من الخطر ... استخدام قوات كبيرة ولاي قدر من الوقت لمجرد خلق وهم ، فهناك خطر ماثل باستمرار بعدم تحقيق اي شيء، وان القطعات التي استخدمت في ذلك سوف لن تكون متيسرة حين تدعو الحاجة إليها فعلاً»(ص ٢٨٣).

يبدو لنا انه وجد نوعاً من الارتباط الغريب بين سعة المخادعة في الحرب ، وشخصية الجنرال (القائد) . ونلاحظ ذلك عنده وعلى سبيل المثال في استنتاجه « إن تفهماً دقيقاً ونفاذاً ، هما ملكتان اكثر جدوى وأهمية للقائد من اي قدر من الدهاء – مع ان هذا الاخير ليس ضاراً طالما لم يستخدم ، وكما حدث فعلاً وغالباً وعلى حساب خصائص وسمات أكثر أهمية في الشخصية » (ص ٢٨٣). ويبدو لنا من المؤكد انه يوصي بالدهاء والمكر عندما يكون القائد ضعيفاً وبالتالي وبغير ذلك سيكون دون أمل .

رغم ان حججه معقولة دون شك طالما كان يتحدث عن استخدام قوات مادية كبيرة منفصلة للتظليل ، فليست كل اعمال المخادعة كذلك . من المؤكد ان كلاوزفيتز اطلع على الامثلة التي استخدم فيها (مارلبورو) وفردريك الكبير وبنجاح مناورات تظليلية (خادعة) بجيوش بكاملها ، وكذلك لحيل اخرى غيرها .

لدينا مثال كبير معاصر عن مخادعة ذكية وناجحة ، تتطابق رغم احتمال ان لا تكون استلهمت من افكار كلاوزفيتز ، وحدث ذلك في معركة خليج لايتي (Leyte) البحرية[1] في اكتوبر / ١٩٤٤ ، حيث مثل الاميرال (أوزاوه) الفخ (قوة

---

(١) معركة خليج لايتي ، وهي بصفحاتها الاربع تعد احدى معارك «حملة بحر فيزاياس (Visayas) في منتصف الفليبين وحيث يقع خليج لايتي . لقد انهت هذه المعركة الاسطول الياباني كقوة مقاتلة منظمة ، =

طعم) في ارخبيل الفلبين والذي أبعد الاميرال الامريكي هالسي وكل الاسطول الثالث بعيداً عن الخليج ولمسافة (٣٠٠) ميل جنوباً ، وحيث شوهد الاميرال كوريتا

= إذ تكبدت اليابان فيها (٤) حاملات و (٣) بوارج Battle Ship و (٦) طرادات ثقيلة و(٤) خفيفة، مع اغراق (١١) مدمرة وغواصة ، مع اصابة معظم السفن الاخرى التي شاركت في المعركة . مع فقدان (٥٠٠) طائرة مع وفاة (٥٠٠ر١٠) الاف بحار ، اما خسائر الاميركان فهي حاملة خفيفة ، وحاملة حراسة (escort) ومدمرتين مع مدمرة حراسة، و(٢٠٠) طائرة مع (٢٨٠٠) قتيل والف جريح فيما يعتبر اكبر معركة بحرية شارك فيها (٢٨٢) سفينة (٢١٦) امريكية و (٢) من طيران البحرية البريطاني RAN ، و (٦٤) يابانية اما القوات فكانت (٦٦٨ر١٤٣) امريكي وبريطاني و (٨٠ر٤٢) ياباني .

الموقف الامريكي . أقرت استراتيجية التحرك التالي في الحرب من حيث المبدأ في مؤتمر عقد في بيرل هاربور في تموز ١٩٤٤. وازن الرئيس الامريكي روزفلت خلاله بين مفهومين للأقتراب من الهدف النهائي وهو حملة ضد اليابان نفسها (١) للادميرال نمتز ويفضل قفزة وسطية في فورموزا او الصين ومن ثم اليابان (٢) للجنرال ماك ارثر الذي اصر على صولة اولى لتحرير الفلبين لاسباب عسكرية وسياسية ومن ثم اليابان بعدها. اقر روزفلت مفهوم ماك ارثروتم الاتفاق على عملية منسقة يهاجم فيها ماك ارثر جزر (منداناو) في الفلبين ويهاجم (نمتز) جزيرة (ياب yap) غرب الفلبين (ولا تظهر في معظم الخرائط لصغرها). ومن ثم يقومان بصولة مشتركة ضد اليابان .

لقد ادركت اليابان ان احتلال امريكا للفلبين وفرموزا او جزر (رايوكوس) – منتصف المسافة بين فرموزا واليابان)– سيقسم الامبراطورية الى قسمين ويعزل المنطقة الغنية ومستودعات الوقود جنوبا عن الوطن الام ، وعليه تولى الجنرال (ياماشيتا) الدفاع عن الفلبين وبامرته حوالي (٣٥٠) الف رجل كما تولى الجنرال (سوسكاسوزي) وبامرته (٣٥) الف رجل الدفاع عن وسط وجنوب الفلبين وفق خطة دفاعية أطلق عليها اسم (شو sho) اي النصر وتركز على استخدام جزء من الاسطول المبعثر حالياً كطعم لاجتذاب قوة الحاملات الامريكية بينما يوجه الباقي ضد اي انزال جديد بهدف تدمير قوة الاسناد البرمائية وعزل القوات البرية على الساحل . والخطة جيدة مع نقص واحد يحرمها من اي أمل للنجاح كونها دون اسناد جوي كاف ، اذ كانت معركة فرموزا (١٣–١٦/١٠/١٩٤٤) قد دمرت معظم القوة الجوية للأسطول . مع ذلك أمل الاميرال (تويودو) أن تعوض الطائرات اليابانية من قواعدها في الفلبين هذا النقص .

الاقتراب من لايتي (١٤–١٩/١٠/٤٤) اقتربت حملة برمائية ضخمة من ساحل لايتي تضم (٧٠٠) سفينة تحمل (٢٠٠) الف رجل بامرة الجنرال كروجر (الجيش السادس) والاسطول السابع (الاميرال كنكيد) ومجموعة الاسناد الجوي الاميرال سبراجو (اكثر من (١٠٠٠) طائرة . (تعليق للموسوعة) . هناك خطأ عملياتي في هذا التجمع البرمائي الهائل ، كون القيادة فيه مشتركة ولم يراعى فيه مفهوم وحدة القيادة فالقوات البرية بامرة ماك ارثر والاسطول السابع بقيادة الاميرال كنكيد ، بينما ظل الاسطول الثالث (الاميرال هالسي) وقوة الواجب (Task Force) تحت توجيه الاميرال نمتز الذي خص هالسي بمهمتين :–

(١) تدمير الاسطول الياباني حال نزوله البحر (٢) تقديم المساعدة الممكنة للأميرال كنكيد ، والغريب أن الاميركيين لم يتنبهوا الى ازدواجية هذا الواجب .

الانزال في لايتي (٢٠–٢٢/١٠) بعد استطلاع وقصف بحري شديد بدأت قوات الفيلق العاشر من الجيش السادس بقيادة اللواء سيبرت ، والفيلق (٤٤) بقيادة اللواء هودج الانزال في لايتي حيث كانت حاميتها اليابانية تضم حوالي (١٦) الف رجل من جنود الفرقة (١٦) ولم تبدي سوى مقاومة قليلة في البداية وامكن حتى منتصف الليل انزال (٤٠٠ر١٣٢) الف رجل و(٢٠٠) الف طن من المعدات. =

وهوجم ، والذي كان سيهاجم بدوره في الصباح التالي . من الواضح اعتماد مهمة «اوزاوة» على أمل ان يتقيد هالسي بقاعدتين سخيفتين كان يعرف عن الامريكيين التمسك بهما . **اولاهما** ، وهي عادة مقبولة وصحيحة في مراحل الحرب الاولى فقط ولم تعد كذلك الان ، وهي القاعدة التي تقول « قوة العدو الرئيسية هي حيث تكون حاملاته..» ولم يكن لدى الاميرال (اوزاوه) وقتها سوى اربعة حاملات فقط هي كلما تبقى في البحرية اليابانية ، ثلاث منها صغيرة جداً كما ان الرابعة ليست كبيرة ، اما الطائرات التي تحملها فهي قليلة العدد ويقودها طيارون ضعيفوا التدريب . والالعن من ذلك ان لدى هيئة ركن هالسي من المعلومات ما يؤكد تلك الحقائق . لذا كانت قوة اوزاوة من الوهن ما لا يجعلها اكثر من طُعم ، ولم يكن قائدها حتى واثقاً من قدرتها على تحقيق ذلك . الان قوة الاميرال كوريتا المؤلفة من سبعة بوارج قوية و(١١) طراداً ثقيلاً بالاضافة الى سفن اخرى ، كانت تشكل القوة الرئيسية لليابان .

= **معركة خليج لايتي** (١٧-٢٣/١٠) بعد استطلاع ياباني للخليج يوم ١٠/١٧ صدرت الاوامر بتنفيذ خطة (شو) فوراً وتحرك الاسطول المشترك من قواعده المتعددة (الاسطول الثالث) بامرة الاميرال (اوزاوة) من اليابان نحو جزيرة لوزون - اكبر جزر الفلبين لجر الاسطول الامريكي الثالث بعيداً عن منطقة الانزال . وقوة الاميرال (كوريتا) - وتؤلف الرتل الاوسط وقوة الهجوم الاولى - من الملايو وبورنيوو بحر الصين ، لحماية مضيق سان بيرناردينو . والقوة الجنوبية بامرة نائب الاميرال نيشمورو من الملايو وبورنيو تليها قوة الهجوم الثانية بقيادة نائب الاميرال كوهايد شيما تحركت من جزر (رايكوس) للمرور عبر مضيق (سوريا جوس) . كان واجب القوتين الوسطى والجنوبية تدمير كل القوات البرمائية الامريكية في خليج لايتي بهجمات مركزة ضد القوات على الساحل .

جرت بعد ذلك معركة بحر سيبويان (٢٣-٢٤/١٠) ومعركة مضيق سوريجاو (٢٤-٢٥/١٠) ومعركة سان بيرنادينو (فجر يوم ٢٥/١٠) ومعركتي (سمرة) و(انجانو) يوم (٢٥/١٠) .

الصراع من اجل لايتي (٢١/١٠-٣١/١٢) بعد ان تخلص الجنرال يا ماشتيا من صدمة المباغتة الاستراتيجية للانزال قرر القتال لاجل لايتي . كانت الفرقة (١٦) قد احسنت ادارة قتال التعويق بعد وصول نجدات سريعة من الجزر الاخرى كما تم تشكيل الجيش ٣٥ الا ان الطيران الامريكي نجح بايقاف اية نجدات اخرى وبعد قتال دامي حصل الامريكيون على موطئ قدم وتشكيل القاعدة التي ارادها (ماك ارثر) للأنطلاق نحو اليابان .

لقد كان قرار اليابان خوض معركة فاصلة في لا يتي مكلفاً فقد دمر اسطولها وقوتها الجوية وقلصت قواتها البرية في الفلبين وتعرقلت مواصلاتها مع مواردها الجنوبية كثيراً وانخفضت قدرة الشحن الجوي لليابان من (٦) مليون طن عام ١٩٤١ الى (٥ر٢) مليون طن (بخسارة ٦٠٪) بفعل الغواصات الامريكية ، كما حوصر (١٣٥) الف رجل تقريباً خلف الخطوط الامريكية ، ومع ان اليابان قد خسرت الحرب فعلاً الا انها لم تعترف بالهزيمة بعد - عن موسوعة التاريخ العسكرية (ص١١٧٧-١١٨٢) وكان بودي ان استعرض كافة تفاصيل اشهر واكبر المعارك البحرية في التاريخ لولا خوف الاطالة - المترجم -

القاعدة الخرقاء الثانية التي وقع هالسي ضحية لها ، هي بعدم تجزأة الاسطول في مواجهة العدو - المبدأ القديم في «حشد القوة» . الا ان قوته المتفوقة تؤهله وببساطة الى تجزأة اسطوله مع محافظته على تفوق كبير على كلتا القوتين اليابانيتين بقيادة الاميرالين اوزاوة وكوريتا، كما حاول اثنان من مرؤوسيه ان يذكراه بقدرته على ذلك . شن كوريتا هجوماً عبر مضيق سان بيرناردينو ، وكان قادراً على توجيه ضربة مدمرة للسفن الامريكية وللقوة البحرية الصغيرة المكلفة بستر الانزال في خليج لايتي ، الا انه فقد كل قدرة وعزم للقيام بذلك واثر العودة في آخر لحظة من حيث أتى . مانحاً بذلك الفرصة لهالسي للنجاة من العقاب المتوقع على خطأه الفادح، وظل فشله محصوراً في عجزه عن تدمير لا قوة اوزاوة (الذي كان عليه ان يناور للوصول إليها) ولا قوة كوريتا .

الكتاب الثالث : الفصول الحادي عشر - والثالث عشر . يوحي لنا الفصل الحادي عشر الشديد الايجاز الى حد غير اعتيادي ، والمعنون « حشد القوات في المكان» انه لا أكثر من معلومات اولية ينوي كلاوزفيتز التوسع فيها في الصياغة الاخيرة لكتابه ، ومن المحتمل انه وجد الموضوع معروف تماماً ولا اعتراضات حوله لذا ما من مبرر لتضييع المزيد من الجهد فيه حتى في الصيغة النهائية . ونرى هنا كلاوزفيتز الذي يحتقر «مبادئ الحرب» كلياً يتقبل هنا احدها دون تردد ودون المزيد من التدقيق في الخصائص الاساسية . ومع ذلك فالخصائص والمؤهلات هي التي يرى أن لها ورغم كل شيء أهمية قصوى . رغم أنه « ما من قانون اعلى وابسط في الاستراتيجية من ذاك الذي يؤكد **على الاحتفاظ بالقوات متحشدة** »(ص ٢٨٥) الا ان ذلك لا يعني ابقائها متحشدة ان كانت هناك حاجة محددة وملحة للقيام بغير ذلك - الامر الذي وعد بالتوسع فيه في فصل تالٍ (وفعل ذلك ، ولكن بشكل متواضع وفي عدة فصول ، وعلى الاخص الفصل التاسع من الكتاب الثامن) .

الفصل التالي «ضم الوحدات في الوقت» يتناول وفي المستوى التعبوي للمعركة أهمية ابقاء بعض القوات في الاحتياط . وهكذا يحشد طرف ما قواته في ساحة المعركة ، الا انه لا يستخدمها كلها مرة واحدة . اخيراً ، وفي مناقشة «الاقتصاد في القوة» سنتعلم ، ان مما له نفس الاهمية هو ان على ذلك الطرف التأكد من استخدام كل القوة . يلاحظ أن مناقشة كلاوزفيتز لحشد او توحيد القوات في المستوى الاستراتيجي ينقصها الوضوح ، ولعل ذلك لأنها لم تكن نهائية . ويبدو انه

يريد القول، طالما ليست هناك مماثلة للأحتفاظ بقوات منتعشة في الاحتياط في المستوى الاستراتيجي ، لذا ينبغي زج كافة القوات المتيسرة في العمل لاجل الهدف الاستراتيجي منذ بدء الحرب، ويكتسب مفهومه هذا بعض التبرير من مثاله على مسيرة نابليون الى روسيا عام ١٨١٢، اذ يرد الكاتب بقوة على ان احد الانتقادات التي وجهت لنابليون هو احتفاظه بجيش كبير جداً وكان ذلك من بين اخطاء اخرى . وحجة كلاوزفيتز ان تلك هي طريقة التقدم على طول جبهة ضيقة وليست واسعة والى هذا ينبغي توجيه النقد لا إلى حجم الجيش . لم يكن بوسع نابليون ان يعرف الحجم الكافي والحد الادنى من القوات ، لذا كان محقاً بارسال اكبر جيش كان بوسعه جمعه . وعلى اية حال وكما اوضح المؤلف في فصل آخر فان ما وصل من القوات اخيراً الى موسكو كان اقل بكثير من تلك التي اجتازت نهر نيمين (Niemen) .

هناك تشابه سطحي (تافه) ما بين الحجة التي قدمها كلاوزفيتز هنا والانتقادات التي نادى بها بعض العسكريين حول بطاءة بناء القوات المسلحة للولايات المتحدة في فيتنام بعد القرار الذي اتخذ في اذار ١٩٦٥ بارسال القوات المقاتلة هناك وتضمن نقدهم ضرورة استدعاء الاحتياط على الفور مع ضرورة الاسراع في ايصال حجم القوات حدها الاقصى وهو نصف مليون جندي وتحقيق ذلك بوقت مبكر . وليس لهذه الحجة ميزة وجدارة ، جزئياً لانها تتجاهل شرعية ومكانة الضغوط السياسية الداخلية التي تؤثر على مشاركة الولايات المتحدة في فيتنام ، كما وان تلك الحجة واكثر من ذلك لا تهتم بايضاح ما بوسع ذلك العدد من الرجال (المقاتلين) عمله عام ١٩٦٥ والذي فشلوا في تحقيقه عام ١٩٦٨ . ومع ذلك فالفكرة الكلاوزفيتزية اعلاه تستحق الملاحظة .

الفصل التالي « الاحتياط الاستراتيجي » يبدو متناقضاً والفصل السابق ، لكن سرعان ما يمكن ابعاد خطر كهذا . يقول الكاتب بوجود بعض الفائدة في الاحتياط الاستراتيجي ، لكن فقط عند توقع حالات طارئة . وبوسع المرء ان يتساءل ومتى لا يمكن توقعها في وقت الحرب؟ يجيب المؤلف عن ذلك « تزداد المجهولات (Uncertainty) كلما زادت المسافة ما بين الاستراتيجية والتعبية ؛ كما انها تختفي عملياً في المجالات المتاخمة للسياسة » (ص ٢٩٤) . ومرة اخرى يوضح لنا مقصده بالامثلة التي يختار، كما نحس ثانية، اية تجربة مرة كان اندحار «ينا» عام ١٨٠٦

بالنسبة له . اذ وخلال تلك الحملة ، التي كان هدفه وهدف العدو واضحين وليسا موضوعاً لاي تغيير ، احتفظ البروسيون بقوتين كبيرتين في الاحتياط الاستراتيجي الذي لم يقم باي عمل .

الكتاب الثالث ؛ الفصل الرابع عشر . يمكن ان يفيد المثال الذي أخذناه من حملة «ينا» تواً أيضاً في تصوير مناقشة الفصل الموجز التالي «الاقتصاد بالقوة». ونرى ثانية استبعاد كلاوزفيتز لفكرة أن بوسع نظرية الحرب الاعتماد على مجموعة من «المبادئ» التي لم يمنعه تطبيقها شبه التام من ادخالها في نظريته هو .

بحث هنري جوميني « مبدأ الإقتصاد بالقوة» بشيء من الاطالة ، كما تواصل ظهور هذا المبدأ في القوائم القياسية للمبادئ حتى ايامنا هذه، ومما يثير الدهشة ، مع ذلك ، أن الكتاب المعاصرين يظهرون عجزهم عن تفهم ذلك الموضوع بتحريفهم لمعنى كلمة «اقتصاد Economy» إلى عكس المعنى الذي أريدت له اصلاً تقريباً ، والذي لا يعني «التوفير» او التقتير والبخل، بل وعلى العكس من ذلك ، يعني الاستخدام المؤثر، يقول كلاوزفيتز ان على المرء في الحرب « التأكد وبإستمرار من زج جميع القطعات .. وان اي جزء من القوة الكلية ليس في حالة عطالة ..» (ص٢٩٧) . والقوات غير المشغولة مع العدو «هي قوات ضائعة ، وهذا حتى أسوأ من مسألة استخدامها بشكل غير صحيح» (ص ٢٩٧) ، فالقوات التي تستخدم بشكل غير مناسب ستولى على الأقل اشغال بعضاً من قوات العدو وبالتالي تقلل من الحجم النهائي لقوته . لقد فسر معظم الكتاب في ايامنا هذه المصطلح القديم «الاقتصاد بالقوة» ليعني استخدام الحد الادنى الضروري فقط من القوة للواجب – وذلك المفهوم مقبول فقط في عمليات التشتيت والتثبيت فقط، حيث يكون الامر المهم هو حشد الحد الاقصى في مكان آخر .

يبدو أن كل حرب تقدم امثلتها النموذجية (الكلاسيكية) لخرق مبدأ الاقتصاد بالقوة . ففي معركتي (ليني Ligny) و(كواتر براس) قبل يومين من معركة واترلو ، ظل الجنرال (الفرنسي) ايرلون يتنقل ما بين موضعي المعركتين بسبب عدم وضوح الاوامر دون ان يشترك في اي منهما . وكان نابليون في حاجة ماسة للغاية إليه في (ليني) . وخلال معركة واترلو. لم يعيد الدوق ويللنكتون او يستدعي الامير فردريك (الهولندي) وقوته من (١٧) الف رجل تقريباً ، والذي كان قد أرسله ليحتل موضعاً يقع على (١٠) اميال شرقاً، فقد توقع اساساً ان يتقدم نابليون من ذلك الاتجاه . الا ان

نابليون فعل ما هو أسوأ من ذلك في تضييع المزيد من قطعاته، اذ اصدر امراً مربكاً ادى الى افراز (٣٣) الف رجل ، ثم تعزيزهم فيما بعد للحركة بقيادة الجنرال كروشيه قرب (ويفرر) التي كان الجنرال العجوز بلوخر ومعظم قواته قد غادرها للتو متجهاً نحو واترلو . والمثال الشهير بهذا الشأن من الحرب العالمية الاولى هو حين أفرز (مولتكة) فيلقين من جناحه الايمن المتقدم في فرنسا لارسالها الى القوات التي تصدت للغزو الروسي في بروسيا الشرقية ، الا ان هذه القوة الكبيرة كانت ما تزال بعد تنتقل عبر المانيا عند نشوب المعركتين الحاسمتين في الشرق ، حيث تعذر على المانيا دونهما ابادة جيشين روسيين في (تاننبرج) وبحيرات ماسوريان ، وفي الغرب حيث احس الالمان باهمية تلك القطعات (الفيلقين) بعد اندحار المانيا في (المارن) الامر الذي يعني فشل وتعطل خطة شليفن . لقد ضربنا للتو مثلاً بحرياً من الحرب العالمية الثانية عندما قاد الاميرال هالسي اسطوله الثالث الكبير باقصى سرعة مندفعاً مسافة (٣٠٠) ميلاً شمالاً ضد الاميرال اوزاوة ، الا انه توقف قبل ان يصل إليه وعاد لمطاردة قوة الاميرال كوريتا ، الذي لم يصل إليه كذلك . لقد استهلك الاسطول الثالث في تلك المناسبة الكثير من الوقود ، لكن لاعتاد ، كما انها وكقوة منظمة لم تحظ باية فرصة اخرى. يقع بعض تلك الامثلة ضمن حدود التعبية وليس الاستراتيجية ، الا ان هذا التفرد ليس صعباً ، ولا ضخماً ، والمبدأ على اية حال هو نفسه . هناك كل ما يخطر على البال من الطرق لجعل القوات المتيسرة لطرف ما أعجز من ان تكون قوية او كاملة التأثير ، ولعل التمسك بالحركة في الاتجاه الخاطئ لا اكثر من واحدة من تلك الطرق.

الكتاب الثالث ، الفصول الخامس عشر الثامن عشر ؛ ليس الفصل الشديد الايجاز « العامل الهندسي» سوى اكثر بقليل من رفض لفكرة (فون بيلو) ، الذي اراد جعل الاستراتيجية «اكثر علمية» بالبحث فيها بمصطلحات هندسية . ويقر كلاوزفيتز ان لذلك صلة قوية مع التعبية ، دون اي ارتباط عملي بالاستراتيجية ، يقول كلاوزفيتز «نحن نعتقد ان احدى الوظائف الرئيسية لنظرية شاملة في الحرب هي الكشف عن اوهام كهذه » (ص ٢٩٩).

في الفصل التالي « تعليق العمل في الحرب» يواصل كلاوزفيتز تطوير فكرته التي ابتدأها في الفصل الافتتاحي الكبير للكتاب الاول . كيف يحدث لحرب تدعو وبما تأصل فيها الى تقدم لا يعرف الراحة نحو الهدف الذي هو غايتها (او على الاقل غاية الطرف الذي ابتدأها)، أن تتميز غالباً بشيء من الجمود (اللافاعلية)؟. لقد عبر

عن جزء من الاجابة للتو في ذلك الجزء المبكر – وهو ان قرار الطرف الا قوى بتأجيل هجومه لا يجعل بالضرورة ان من المناسب للطرف الاضعف ان يتحول الى الهجوم – فهناك ايضاً اسباب اكثر جوهرية . كان فقدان التحرك في الماضي يعود في معظمه الى فقدان القدرة ، اي انها «مقيدة بالضعف البشري»(ص ٣٠١). لقد رأينا مع نابليون كم بوسع الطاقة –البشرية– انجازه « ما دام ذلك ممكنا ، فهو ضروري اذن»(ص ٣٠١) .

الاسباب الرئيسية لفشل القدرة البشرية عن انجاز الضروري الذي عليها ، تعود من ناحية الى الخوف والعجز الطبيعيان في العقل البشري ، عند مجابهة الخطر، ومن الناحية الاخرى الى ضخامة قوة المدافع . مع ذلك هناك حروب يفتقد فيها الطرفان الروح [القتالية] لعدم وجود دوافع مصلحية قوية . اما اعتبار هذا النوع من الجهود التي يعوزها الحماس والهمة على انها تعكس« فن الحرب الاصيل والحقيقي»(ص ٣٠٤) فخطأ فادح . تعد حروب نابليون في نظر البعض من معاصري كلاوزفيتز «كمهارشات متوحشة لا يمكن ان نتعلم منها شيئاً ما ، يجب اعتبارها وكأنها نكسة وعودة الى البربرية » (ص ٣٠٤) ، أولئك الناس لم يعرفوا ما الذي تعنيه الحرب حقاً «فتعساً لحكومة تركن الى سياسات مائعة ، واساليب عسكرية مقيدة في مواجهة خصم كقوة هوجاء – او جواد جموح – لا تعرف قانوناً اخراً سوى قانون سطوتها»(ص ٣٠٥).

يواصل الفصل التالي المناقشة الى أبعد من ذلك ، فقد أظهر نابليون للعالم، الطبيعة الحقيقية للحرب ، كما علم خصومه الارتفاع الى مستوى المعركة . قبل ايام نابليون كان الدبلوماسيون يحثون عادة على سرعة التوصل الى الصلح مهما كان سيئاً حال خسارة جيشهم بضعة معارك ، إلا أن روسيا عام ١٨١٢ وبروسيا وامم اخرى في عام ١٨١٣ اظهرت « اي اسهام هائل لقلب واعصاب الامة يمكن أن يضاف الى المجموع الكلي لسياساتها . وقدراتها الحربية وقوتها القتالية. وبعد ادراك الحكومات لموارد الطاقة تلك فلن نتوقع أن تظل قدرات كهذه دون استخدام في المستقبل »(ص ٣٠٦) وسيعود كلاوزفيتز الى هذه الفرضية مرات عديدة .

يحلل كلاوزفيتز في الفصل الاخير من هذا الكتاب [الثالث] ما يمكن انجازه من خلال تفهم الطبيعة المتحركة للتبدلات ما بين التوتر والراحة في الحرب «فكل تحرك ينفذ في حالة التوتر سيكون اكثر اهمية ، وستكون له نتائج اكبر مما لو نفذ في

حالة التوازن »(ص ٣٠٩) . يستخدم الكاتب حملة (ينا) عام ١٨٠٦م مرة اخرى كمثال . «فخلال فترة التوتر الهائل ، تضغط الاحداث باتجاه القرار الحاسم الذي ، ومع كل نتائجه ، سيستحوذ على كل اهتمام القائد [البروسي] »(ص ٣١١) ؛ رغم ان القادة البروسيين قد ضيعوا طاقاتهم في مشروعات غير واضحة .

يقول كلاوزفيتز في نهاية الفصل « ان حالة التأزم هي الحرب الحقيقية ، اما الاستقرار والتوازن فليسا اكثر من انعكاس لها »(ص ٣١١) .

الكتاب الرابع
الاشتباك

الكتاب الرابع، الفصلين الاول – الثاني: بينما اهتم الكتاب الثالث بـ «العناصر الفعالة» في الحرب، اهتم الكتاب الرابع بـ «انشطتها العسكرية الاساسية»، اي الاشتباك. بوسع المرء القول ان ذلك تحول من الاستراتيجية الى التعبية، الا ان من الواضح ان كلاوزفيتز لا يفصل بين الاثنين بحدة، وعلى ايه حال فهو مهتم بتحليل الحرب وليس الاستراتيجية فقط. هكذا كان من السهل عليه التوصل الى ان «تغييراً في طبيعة التعبية سوف ينعكس تلقائياً على الاستراتيجية» (ص ٣١٦) وهذا رأي يفصل بينه وبين جوميني واتباع هذا الاخير الذين يعيدون وباعجاب مقولة «الطرق تتبدل الا ان المبادىء ثابتة» الا اننا رأينا للتو ان المبادىء التي اكد كلاوزفيتز عدم تأثرها الا قليلاً بالتغييرات في الطرق والوسائل هي فقط المبادىء الاكثر اهمية وقوة مثل مبدأ الاقتصاد في القوة ومبدأ التحشد، والذي بوسع كلاوزفيتز مناقشة ايا منهما بفقرات قليلة. ومفاهيم كهذه شديدة الوضوح في ذهنه ولكن كروابط للأستراتيجية فقط وليست جوهراً بذاتها.

عندما يتمعن المرء في التغييرات التي تأثرت بها الاستراتيجية بدخول البندقيه التي تملاء من مؤخرتها (المغلاق breechloading)، والتي سمحت باطلاق النار من وضع الانبطاح [على الارض] مما ضاعف قيمة الاستار كثيراً وبالتالي زيادة قدرة القوات الصغيرة على تأخير او حجز قوات اكبر. اما الرشاشات (Machine Gun) فقد ضاعفت تلك التحسينات وحولت مصير الحرب العالمية الاولى، وعن حرب الغواصات التي كان لها تأثير مشابه في البحار في نفس تلك الحرب، هذا التأثير الذي فشل (ماهان) وآخرون غيره عن توقعه، وعن الطائرة، سواء المنطلقة من قواعد جوية على الارض او على حاملات الطائرات، والتي كان لها تأثير مشابه في الحرب العالمية الثانيه (ولا حاجه الى ذكر الاسلحة النووية في هذا السياق)، وعلى المرء ان يقر بان كلاوزفيتز كان مصيباً في هذه الامور، ولنا ان نندهش بقدرته على تلمس كل تلك التغييرات من مجرد تبدلات طفيفه حدثت في ايامه في التعبية.

الكتاب الرابع، الفصلين الثالث والرابع: تتعلق المعضلة الاولى التي تناولها كلاوزفتيز حول الاشتباك بالسؤال التالي: ما الذي نعنيه بدحر العدو؟ والجواب

بالنسبة للأشتباك هو نفسه للحرب والذي هو (الاشتباك) جزء منها – تدمير قوات العدو، «نقر بان اشتباكاً في نقطه ما، قد يساوي اكثر مما في نقطة اخرى... وهذا هو كل ما تدور الاستراتيجية حوله». انه يريد ابتداء «ارساء الاهمية الحاكمة لمبدأ التدمير»(ص ٣٢٠) – الذي شعر كلاوزفيتز بالحاجة الى ارسائه لوجود اراء مضادة لذلك ومنذ امد بعيد.

لا بد ان يكون تدمير قوات العدو متعارض بطبيعة الحال من بعض النواحي الهامة لتدمير قوتنا نحن. وجد كلاوزفيتز انه وخلال مسار معركة ما، أن «خسائر المنتصر... (نادراً)[1] ما تظهر اختلافاً كثيراً عن خسائر المندحر» (ص ٣٢٤) – وتلك احدى السمات او الظواهر التي تميز عصره عن ايامنا هذه، وعند وجود احتمالات كبيرة بوجود اختلافات واضحة في المعدات والتعبية. ففي ايامه «لا تبدأ الخسائر الموجعة فعلاً، والتي لا يشارك المنهزم تكبدها كالمنتصر الا بعد ان يبدأ المهزوم انسحابه»(ص ٣٢٤)، فالمطاردة وكل المكاسب التي تأتي معها هي التي تحدث الاختلاف [في الخسائر].

تكون معظم الخسائر خلال المعركة بالقتلى والجرحى والتي قد يتساوى فيها نصيب الرابح والمندحر، اما بعد المعركة فاكثر الخسائر في المدافع (جمع مدفع) والاسرى، والتي تتزايد اعدادها في الطرف المندحر«لهذا السبب اصبح عدد الاسرى والمدافع يعدان دائماً الغنائم الحقيقية للمنتصر، كما تشكل دليلاً ملموساً على حجم الانتصار»(ص ٣٢٦).

السؤال عندها هو، ما هي الاسباب التي تجعل هذا الطرف او ذاك يتحول من القتال الى الانسحاب، معرضاً نفسه للخسائر الثقيلة التي ستلحقها مطاردة العدو به؟ قد تسبب خسارة الارض والفشل بتشكيل احتياط جديد منتعش، القناعة بالاندحار، والذي يعني اخيراً «لقد ثبت ان فقدان المعنويات هو العامل الحاسم والرئيسي»(ص ٣٢٥). ويزداد انهيار المعنويات اكثر بالانسحاب او الهزيمة ومطاردة العدو. الا ان الامر هنا يعتمد كثيراً على الظروف.

عند احدى النقاط في المناقشة الرائعة والمفصلة لهذه الجوانب التي يعتمد فيها كلاوزفيتز اساساً على تجربته الشخصية يلاحظ «تتسم تقارير الخسائر للطرفين ودائما بعدم الدقة، ونادراً ما تكون حقيقية، بل تكون وفي معظم الحالات ملفقة عمداً»(ص ٣٢٩)، وهذا احد الجوانب الذي يختلف فيه عصره عن عصرنا[2].

---

(١). لم ترد كلمه (نادراً) في النص واضافها برودي في دليله. المترجم

(٢). بل لعل الامر ازداد سوء وتضاعفت الاكاذيب والمبالغات مئات المرات – المترجم –

يميز كلاوزفيتز اخيراً بين الانتصار الذي يمثل للمندحر خسائراً فادحة يصعب تلافيها، وذاك النوع النادر من الانتصار الواسع النطاق الناجم عن اندحار تام لقوة رئيسية للعدو. وكمثال على ذلك يورد لنا كلاوزفيتز مأساته التي لا تنسى في معركة (ينا-١٨٠٦م)، وكذلك واترلو (التي اطلق عليها البروسيين اسم فندق قريب من ساحة المعركة هو بيلي - اليانس Belle - Alliance) وكمثال على معركة كبيرة انتهت باندحار طفيف لاحد الطرفين يذكر لنا معركة (بوردينو) التي جرت في الطريق الى موسكو وحيث بدل الماريشال كوتزف موضعه دون استسلام (والتي عدها الاديب تولستوي في روايته الحرب والسلم انتصاراً رائعاً لكوتزوف).

في اواخر القرن التاسع عشر قام الضابط الفرنسي (اردانت دوبيك) الذي سيفقد حياته عام ١٨٧٠ على رأس وحدته، بمتابعة فكرة كلاوزفيتز التي اوضح فيها اهتمامه باخطار ما سيصيب المستسلم للعدو من تكاليف باهظة في المعركة والانسحاب، او ما هو اسوأ، اي الهزيمة. لقد توصل (دو بيك) الى رأيه هذا بنفسه من دراسة المعارك الحاسمه للعصور القديمة، حيث بدى ان المندحر يتكبد خسائراً كبيرة جداً، وتفوق خسائر الطرف الاخر. وتوصل الى ان مرد ذلك ، ان الهزيمه تجعل المندحر يكشف ظهره دون حماية لعدوه الذي يتولى مطاردته وذبحه. ستبدو لنا الاقتباسات من (دوبيك) وكانها شعارات مكبلة (ملزمة) مثل «من يملك الشجاعة للتقدم هو الذي سينتصر». وفي مطلع القرن العشرين حولت المدرسة الفرنسية للماريشال فوش واتباعه تلك الشعارات وادخلتها في عقيدة الهجوم L'offensive a' Outrance التي خاضوا الحرب العالمية الاولى وفقاً لها - وفي ظروف تختلف فيها المعارك كثيراً عما جرى في العصور القديمة (Antiquity) .

الكتاب الرابع، الفصول الخامس - العاشر، ليست هذه الفصول في حاجة لاكثر من تعليق بسيط، لوضوحها الشديد كما لا تستحق الذكر. واصل كلاوزفيتز وصف المعارك التي ميزت عصره، حيث كان يكفي يوم (قتال) واحد للزج بالاحتياط وحيث يؤمن ظلام ليلة واحدة ستر كاف لانسحاب المندحر. كانت المعركه تلحق الضرر بالطرفين، الا ان احدهما كان يعاني بالاضافة، من كل ما يحيط بالاندحار، الذي وجد فيه كلاوزفيتز دون شك ان «التأثير النفسي (المعنوي) لمعركة كبرى على الطرف الخاسر اكبر بكثير مما على المنتصر»(ص ٣٥٥).

الكتاب الرابع، الفصل الحادي عشر؛ يجب التمعن في هذا الفصل، حول

«استخدام المعركة» على ضوء الفلسفات (النظريات) العسكرية لما قبل مرحلة نابليون التي تعد حديثة للغاية بالنسبة لكلاوزفيتز. لقد كتب الماريشال العظيم (دي ساكس) المتوفي عام ١٧٥٠ في مذكراته(Mes Reveries) التي نشرت بعد وفاته «انا لا احبذ المعارك الدامية، وعلى الاخص في بداية الحرب، كما انا مقتنع تماماً بقدرة القائد الجيد على خوض الحرب طول عمره دون الاضطرار لخوض معركة واحدة». وحتى فردريك الكبير اصبح اقل حماساً في اخر حياته للتعرض الدموي وللمعارك الفاصلة، التي اتضح له انها تترك الكثير للحظ. كان نابليون نبي المعركة الحاسمة، لكنها المعركة التي خاضها عام ١٨١٥ والتي اكدت اندحاره التام. من الواضح ان ما سمعه وقرأه لبعض معاصريه اشعراه بالخوف من تجدد سطوة المفهوم السابق حول القيام بحملة دون خوض معارك «كدليل على مهارة عالية». ويصف خط التفكير هذا بقوله «لقد قادنا خط التفكير هذا تقريباً الى حد اعتبار... المعركة نوعاً من الشر الذي يقع بسبب خطأ ما»(ص ٣٦٥).

لقد ادرك ان «سمة المعركة ... كمجزرة، وثمنها الدم»(ص ٣٦٤) لذلك ولهذا السبب على القائد وكانسان الابتعاد عنها، مع ذلك وما دامت الغاية العسكرية في الحرب هي تدمير قوات العدو، فالمعركة هي الطريقة الوحيدة لانجازها. وكخطأ مشابه لذلك، هو محاولة تحديد العمل العسكري بسلسلة من الاشتباكات (المعارك) الصغيرة، لان هذه تنحو الى معادلة الخسائر والسيطرة على الامر. لا يبرر كلاوزفيتز في هذا الفصل مواصلة القتال ببساطة بل يبرر **المعركة الحاسمة**، اي ذلك النوع الذي يقرر مصير الحرب. ما من عامل آخر ينازع المعركة في اهميتها «كلما عظمت المهارة الاستراتيجية المستخدمة من اجل تهيأة الظروف الصحيحه لها، مع اختيار المكان، والوقت، وخط التقدم المناسبين، مع العمل على استخدام والاستفادة من نتائجها الى اقصى حد»(ص ٣٦٨).

الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر، يغور كلاوزفيتز عميقا هنا في الموضوع الذي تناوله للتو في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وهو الحاجة الملحة للمطاردة بعد الانتصار، والاسباب وراء فشل القادة غالباً في تحقيق ذلك.

يعد الانهاك والفوضى أحد الاسباب الرئيسية التي يتعرض لها المنتصر بدرجة مماثلة لعدوه. بوسعنا ان نلاحظ مرة اخرى ادراك كلاوزفيتز واكثر من اي كاتب اخر في الاستراتيجية تقريباً لاهمية الاجهاد والجوع والشقاء العام للجندي - وهي احدى

العوامل التي ارسى عليها مفهومه الاساسي في «الاضطرام Friction » في الكتاب الاول. لقد استنزفت طاقة وقدرة القائد بالجهدين المادي والعقلي، مما يدفعه الى الاستسلام للراحة واستعادة قواه. وكل ما تحقق يعود كما يقول كلاوزفيتز «الى **طموح، وحيوية وطاقات**، ولربما كذلك الى **صلابة القائد** الاعلى»(ص ٣٧١).

كذلك، ففي الحروب المبكرة «وان كانت اصغر نطاقاً واكثر محدودية في انطلاقها» (ص ٣٧٤) فقد تطورت قناعات تحد من كافة انواع العمليات وعلى الاخص المطاردة «وبدت الفكرة المطلقة لهيبة الانتصار وكانها الامر الوحيد .... وحالما يتم حسم المعركه، يتوقف القتال وكأن ذلك مجرد تحصيل حاصل، وباعتبار ان اي مزيد من سفك الدماء مجرد وحشية»(ص ٣٧٤). الا ان رأيا كهذا يسود «فقط عندما لا تعتبر القوات المقاتله هي العامل والحاسم والمهم» (ص ٣٧٥) اذ ما من شيء اوضح من تكبد القوات المهزومة خسائر لا قياس لها.

عند وصف الامثلة التاريخية يقوم كلاوزفيتز بنقلة متميزة لايضاح اسباب عدم قيام نابليون بمطاردة جيش كوتزوف بعد معركة بورودينو وتبرير ذلك. فقد كان هم نابليون الطاغي انذاك هو الوصول الى موسكو دون مزيد من الخسائر في جيشه الذي كان قد فقد الكثير. الا ان ذلك الموقف وكما هو واضح موقف استثنائي.

كذلك وعن طريق تقديم الاستثناء المبرّر للقاعدة، ينتهز كلاوزفيتز مناقشته الطويلة لمختلف انواع المطاردة، لتأكيد انه وفي وقت كهذا «على المنتصر الا يخشى من تجزأة قواته لتطويق كل ما يمكن الوصول اليه بجيشه، ولعزل اية وحدات بعيدة والاستيلاء على الحصون التي خلت من حامياتها، واحتلال المدن الكبيرة وغير ذلك. اذ بات بوسعه القيام بكل ما يحلوله حتى تبدل الموقف، وكلما كان اكثر انطلاقاً كلما زاد تأخر لحظة التبدل تلك»(ص ٣٨٩).

تشتمل امثلته التاريخية. ثانية على (ينا) وواترلو (بيللي - اليانس)، وتعد الاخيرة احدى المطاردات الكلاسيكية في التاريخ، حيث تولى الجيش البروسي المتعب بقيادة (بلوخر) مكان الجيش البريطاني - الهولندي المنهك تماماً بقيادة ويللنكتون، وتمزق جيش نابليون تماماً في الليلة التي تلت المعركة. هناك مثال عن فرصة عظيمة ضاعت، وحدث ذلك بعد اثنين وثلاثين عاماً من وفاة كلاوزفيتز في معركة كيتسبرج، عندما سمح الجنرال جورج ميد (عام ١٨٦٣) للجنرال روبرت لي بالانسحاب دون مطاردته او الضغط عليه، رغم ان ارتفاع مستوى نهر بوتوماك

قد منع (لي) من العبور لسبعة ايام. لقد تبعه (ميد) ورغم وصول المزيد من التعزيزات له وتفوقه الكبير على خصمه الا انه لم يهاجم، كما سعى لنكولن الذي اهاجه تملص (لي) كثيراً في البحث ثانية عن قائد جريء، ووقع اختياره على القائد الذي احتل (فيكسبرج Vicssburg). [اي الجنرال كرانت]

الكتاب الرابع، الفصلين الثالث عشر والرابع عشر، يعد هذان الفصلان الختاميان للكتاب الرابع اقل ترابطاً واهمية. يتمعن الفصل الثالث عشر في استراتيجية الطرف الذي يجبر على الانسحاب بعد خسارته المعركة. اولاً وقبل كل شيء، يتولى ذلك الطرف كافة التدابير لقطع التماس قبل استنزاف قدراته القتالية كلية، ليضمن القيام بانسحاب مدبر (مسيطر عليه)، مع تهديد تام للمطارد. والامر الاكثر اهمية والحاحاً عندها ليس ابقاء اقصى مسافة ممكنة بين المنسحب وعدوه المتفوق بل بمنع تحول الانسحاب الى فوضى وهزيمة. الفصل الرابع عشر عموماً تحذير ضد محاولة شن هجوم واسع النطاق ليلاً، فهجمات كهذه شديدة الخطورة وصعبة التنفيذ.

في هذين الفصلين، بل في الحقيقة في كل الكتاب الرابع، القارئ مدعو واكثر مما في الكتب السابقة الى التمييز ما بين ايام كلاوزفيتز وعصرنا، وسيسم هذا العنصر الكتاب بسمته باستمرار وحتى نصل الكتاب الثامن.

الكتاب الخامس
القوات العسكرية

الكتاب الخامس، الفصول الاول – الخامس، وهذا كالكتاب الذي سبقه الا انه اكثر منه نوعاً ما فهو يعالج (اي الكتاب الخامس) بعض المواضيع التقنية الاكثر تحديداً للحرب، لذلك سيبدو قديماً في موضوعاته نوعاً ما وهذا امر مشوق للمؤرخ العسكري لا لدارس معاصر للحرب، رغم احتواء الكتاب لفقرات مفيدة بشكل استثنائي واا ِ الاخير.

يعود كلاوزفيتز في الفصل الثالث ثانية الى فكرة انه وحتى افضل القادة نادراً ما يحرزوا انتصارا ن اذا دخلوا المعركة بقوات أقل، ومع ذلك يقول «ليست الحرب دائماً وليدة قرار سياسي اختياري»(ص ٤٠٠) فان أجبر أحد على القتال باعداد أقل «ستبدو نظرية الحرب غريبة للغاية اذا اندلعت الحرب تماماً حيثما تكون الحاجة اليها ماسة»(ص ٤٠١) لكن كل ما كان عليه الخروج به عند هذه النقطه هو مجرد التذكير بـ[كلما ازداد تحديد القوة، كلما ازداد تحديد الاهداف... وزاد تحديد[1] او تقليص المدة] «اذا امتزجت زيادة النشاط مع تحديد حكيم للهدف فستكون النتيجة مزيجاً من التوقد الاخذ والحذر الحصيف (المتعقل) اللذان اثارا اعجابنا في حملات فردريك الـ كبير»(ص ٤٠١).

الفصل الرابع «العلاقة بين فروع الخدمة» وهو رائع بسبب تلمس الكاتب طريقه نحو ما يعد واحداً من اكثر التطورات حداثة في الدراسات العسكريه – ما ندعوه تحليل «المنظومة» او «جـ.وى – الكلفة» ذات العلاقة بشكل ما بما يدعوه الاقتصاديون بتحليل «المنفعه – الهامشية». مؤكداً على ان [سلاح] المشاة هو اكثر الاسلحة تعدداً في الاستخدام والذي لا يمكن الاستغناء عنه، ومع ذلك يحتاج المرء الى المدفعية والخيالة. السؤال الذي يبرز عندها هو: ما الذي يشكل المقادير او الحصص المثالية نسبياً؟ [اي من بين الاسلحه الثلاث انفاً]. يلي ذلك فوراً وبشكل دراماتيكي مفاجيء حدس معاصر «فلو كان بوسع المرء مقارنة قيمة وكلفة زيادة،

---

(١) العبارة داخل [ ] المستطيل المفتوح هذا وردت في سياق الكتاب لكلاوزفيتز نفسه ولعل الاستاذ برودي نسي نسبتها الى صاحبها، اما المستطيل الثاني فعبارة تفسيريه للمترجم.

وادامة مختلف الاسلحة مع الخدمة التي يؤديها كلا منها ايام الحرب، فسيتوصل الى اعداد محددة تعكس المعادلة المثالية من الناحية المجردة» (النظرية) (لكن) اضاف كلاوزفيتز «ذلك اصعب من لعبة الافتراضات»(ص ٤٠٤) وقد نضيف أنه وبغض النظر عن بعض التعديلات الحديثة، المثيرة والمفيدة والخاصة بالمزيد من المناطق المحدودة للقرار، ما زال النوع الذي يعرضه كلاوزفيتز من المعضلة وحتى يومنا هذا لعبة افتراضات. مع ذلك تابع كلاوزفيتز فكرة كون النقود هي الوحدة العامة للحساب في البحث عن «المعادلة المثالية» التي اشرنا اليها اعلاه، مقترباً بذلك كثيراً جداً من المفهوم المعاصر لتحليل «جدوى - الكلفة».

«لكن وطالما... لا نستطيع الاستغناء كلياً عن كافة معايير المقارنة... علينا وببساطة استخدام العامل الوحيد القابل للقياس، الكلفة المالية. ويكفي لاغراضنا هنا ان نوضح، ووفقاً للخبرة العامة، أن سرية خيالة (squadron) من (١٥٠) حصان، وفوج (Battation) من (٨٠٠) رجل، وبطرية (Battery) مدفعية من (٨) مدافع (٦ باوند) تكلف مبالغاً متساوية تقريباً من حيث المعدات والادامة & Equipment) (maintenance (ص ٤٠٤). لسوء الحظ (وذلك حقيقة اليوم) يصعب جداً تحقيق جانب الجدوى (الفاعلية) في المعادلة «لعل ذلك ممكنا لو اقتصر الامر على مجرد حساب التدمير وحده، الا ان لكل فرع (سلاح) استخدامه الخاص، وهكذا له بالتالي مجال مختلف من العمل الفعال» (ص٤٠٤).

بعدها، لنضيف شيئاً يبهج المنظرون المعاصرون، وهم غالبا من المدنيين الشباب الساعين لاقناع ضباط عسكريين كبار بامتلاكهم حلولاً عظيمة لبعض المعضلات التي يسعى الاخيرون لحلها وفقاً لـ «القدرات العسكرية العريقة» «غالباً ما يتحدث الناس عن دروس الخبرة في هذا السياق، معتقدين ان تاريخ الحرب يوفر مصدراً كافيا لاجابات محددة. من الواضح ان ذلك لا اكثر من عبارات فارغة هي، ونظراً لتعذر تعقبها رجوعاً الى اي اسس مهمة وملزمة ولا تستحق ادخالها في البحوث النقدية»(ص ٤٠٤).

يظل كلاوزفيتز مع ذلك متماسكاً. ويخصص ما تبقى من الفصل الرابع لحل منطقي ودقيق لتلك المعضلة النظرية التي اقر بكونها عصية تماماً على اي حل شامل. وطريقته مثيرة كاستنتاجاته، التي لخصها في آخر الفصل باربع استنتاجات. واكثرها الفاتاً للنظر حدسه المبكر عن تناقص قيمة الخيالة نسبياً امام المشاة.

الفصل الخامس «نظام معركة الجيش»، وهو كذلك قديم في خصوصياته، الا

انه متجدد في طبيعة المعضلات التي يسعى الكاتب لحلها. لقد ركز اهتمامه على الروابط ما بين التعبية والاستراتيجية فيما يتعلق اساساً بمعضلتين: الحاجه الى زيادة مرونة الجيش، والرغبة في تقليص سلسلة القيادة. لقد شهد كلاوزفيتز خلال حياته تغييرات هائلة في تنظيم الجيوش، لقد كان التحول من الضخامة، والحشود الكبيرة الى وحدات أصغر لكل منها اجزائها الخاصة بها من الاسلحة الثلاث – أي المشاة والمدفعية والخيالة. يؤلف الجيش من فيالق وفرق تسهل عليه المناورة، كما يسهل على اجزاءه وعناصره تشكيل نفسها في مفارز لمهمات منفصلة. الاسئلة عندها هي: كم من الفيالق والفرق ينبغي ان توجد، وكم يجب ان يكون حجم كل منها؟ وجد كلاوزفيتز الاجابات في سمات وجوانب معضلة القيادة، وليس في اي حجم مثالي للوحدات. سيفضل القائد الاعلى التعامل مع قادة الفرق مباشرة، الا انه وفي الجيش الكبير قد يجد ان عليه ادخال قادة الفيالق بينه وبين قادة الفرق، مخافة زيادة مصاعب التعامل مع الفرق واجزائها من الالوية. هكذا تتضمن العبارة الاساسية للفصل؛ «ينبغي ان يكون عدد الاقسام (الوحدات) الفرعية المتساوية في الشكل العام باكبر عدد ممكن، وان تكون سلسلة القيادة على اقصر ما يمكن، والسمة الوحيدة هي صعوبة ممارسة القيادة على اكثر من (٨-١٠) تشكيلات فرعية في الجيش...» (ص٤١٧).

الكتاب الخامس، الفصول السادس – الثالث عشر؛ ليس في هذه الفصول سوى القليل لتلميذ معاصر للحرب، ويعتذر كلاوزفيتز في نهاية الفصل الثالث عشر عن وضعه مقدماً اعتبارات «من الواضح انها ذات طبيعة تعبوية اكثر منها استراتيجية»(ص ٤٦٣) لكن، وكما يقول، فانه «يعتقد ان من الافضل التوغل في ميدان التعبية بدلاً من تحمل اعباء ومخاطر الا نكون واضحين»(ص ٤٦٣). مع ذلك بوسع المرء ان يتذكر ان مواضع ومعسكرات الجيش التي تحدث عنها كلاوزفيتز في الفصول السادس – التاسع، واكثر من ذلك حتى، المسيرات التي عالجها في الفصول العاشر – الثاني عشر تلقي لنا الضوء على بعض معضلات الانفتاح والتنقل التي جابهتها الجيوش في الميدان بل وحتى اثناء المعارك الافتتاحية للحرب العالمية الاولى. وهكذا فكل طالب للتاريخ العسكري لم يسبق له الاطلاع على تلك الموضوعات ستفيده قراءتها هنا. لقد تعلمنا ما يكفي هنا حول المسيرات القسرية وحول تجمع القطعات في المراحل الافتتاحية للمعارك الكبرى بحيث يسهل علينا تفهم ما تعنيه تلك العبارات عندما يمطرنا بها المؤرخون، رغم انهم انفسهم لا يعرفون معانيها

الكاملة غالباً.

لقد تعلمنا ايضاً، وكالمعتاد، تلك التغييرات ذات العلاقة والتي شهدها كلاوزفيتز في ايامه. اذ ففي الجيل الذي سبقه كانت «المدفعية تتنقل بمفردها كي تضمن افضل الطرق وآمنها، بينما تتبادل كتائب الخيالة اماكنها على الاجنحة كي يحظى كلاً منها بشرف الركوب على ميمنة الجيش» (ص ٤٢٠). لاحظنا كذلك حساسية المؤلف ازاء عواقب تغييرات كالتي حذف بموجبها ذلك الجزء من الرتل الاداري الذي كان يحمل الخيم. ويعني التغيير زيادة في قابلية حركة الجيش، والخيول التي تتولى في السابق جر العربات يمكن استخدامها لسحب المزيد من المدافع او حمل الفرسان، ومع ذلك «قد لا تكون الحماية التي يوفرها سقف خيمة عادية بالشيء الكثير الا ان القطعات وبعد فترة من الزمن ستفتقد هذه الميزة اذا حرمت منها» (ص ٤٤٠). والفرق ضئيل بعد يوم واحد، الا ان الامر سيختلف كثيراً بعد عدة ايام، و«سيتسبب ذلك بتزايد الخسائر بسبب الامراض بطبيعة الحال».

يتضح هذا النوع من الحساسية المهذبة كذلك في مناقشته للخسائر الثقيلة (العالية) والتي ستحدث لا محالة بفعل المسيرات القسرية التي تمتد لأكثر من بضعة ايام، والتي تتوالى احياناً بفاصلات قصيرة. وبعد وصفه للجندي الذي يسقط مريضاً على حافة الطريق، او الذي يقتله العطش والمسير الشاق في قيض الصيف يضيف «لا يعني اي من ذلك القول ان تكون الانشطة اقل في الحرب، فالادوات انما وجدت كي تستخدم، وان الاستخدام سيتلفها لا محالة. غايتنا الوحيدة هي الوضوح والنظام، ونحن نعارض النظريات الطنانة التي تدعى بان المباغتة الساحقة وأسرع المسيرات، او اكثر الانشطة اجهاداً لا تكلف شيئاً» (ص ٤٥٤) شيء واحد حول تنفيذ خطة شليفن في اب / ١٩١٤، وعجب حول حالة جنود الاحتياط الالمان وهم ينوؤن خلال سيرهم، وكل منهم يحمل رزمة تزن (٦٥ رطلاً) من الامتعة وبندقية عبر بلجيكا وشمال شرق فرنسا نحو المارن (Marne) . ويعجب المرء فيما اذا راعت الخطة حالتهم والخسائر في المشردين من الجيوش الالمانية عند وصولهم الموضع الاخير. وكم من المؤرخين اثاروا أمراً كهذا؟. لحسن حظ الالمان انهم وعند ملاقاتهم الفرنسيين والبريطانيين على طول النهر [المارن]، أن الاخيرين كانوا في نفس حالة الشرود والانهاك.

حوى الجزء الاخير من الفصل الثاني عشر بعض الارقام الملفته للنظر عن اعداد

الخسائر في القطعات بسبب المسيرات القسرية خلال حملات عامي ١٨١٢، ١٨١٣م اللتان شارك كلاوزفيتز فيهما، مما اضاف عاملاً جديداً لاهتماماته بسبب هذه المشاركة (تحت قيادة الجنرال البروسي جوهان ڤيلمان - ١٧٣٦ - ١٨١٨م)، ووصفه في الجزء الاخير من الفصل الثالث عشر لتجميع الجيش البروسي المنتشر على مسافات شاسعه ليلة معركة (ليني)، التي سبقت معركة (واترلو) بيومين.

الكتاب الخامس؛ الفصل الرابع عشر؛ رغم تأكيده الشديد على القيمة التاريخية، فلهذا الفصل الطويل عن توفير مستلزمات الجيوش في الميدان، اهمية خاصة. لقد سمعنا الكثير عن جيوش تقتات على حاصلات الارض، وعن «سيرهم على بطونهم»، وعن التغييرات الكبيرة وعلى الاخص بهذا الصدد والتي ميزت الحملات التي شهدها كلاوزفيتز عن الحملات السابقة، ونحن نرحب بفرصة تعلم شيئاً ما حول ما حدث.

منذ عهد لويس الرابع (الذي توفي ١٧١٥م، قبل قرن من معركة واترلو) اتسع حجم الجيوش. والاكثر اهمية من ذلك، أنه لم يزد ترابط الحملات ضمن اي حرب الا مؤخراً فقط، ولم نعد نرى تلك الفاصلات الطويلة من الجمود فيما بينها. وهكذا لم يعد بالامكان التعويل على منظومة الاعاشة السابقة بالاعتماد على المستودعات اثناء الراحة والتوقف ، وعلى رتل العجلات الكبيرة خلال الحملة. فالتأكيد الجديد على التنقلات السريعة يتطلب وجود منظومة اعاشة (توفير ومصادرة) تعتمد هي نفسها على الحركة. ويشير كلاوزفيتز صراحة ومن بين اشياء اخرى تعتمدها - القسوة البالغة نحو المواطنين الاجانب في المناطق التي يخترقها الجيش. كما يتحدث عن نوع آخر من القسوة، يمارسه القائد ضد قطعاته «ما الذي يمكن ان يحركنا اكثر» يتساءل كلاوزفيتز «من التفكير بالاف الجنود، البالغي التعاسة، بملابسهم الرثة، تنوء اكتافهم تحت ثقل رزمة تزن (٣٠-٤٠) باوند، وهم يسيرون بتثاقل لايام دون انقطاع وسط كل انواع الطقس والطرق وفي مواجهة مخاطر تهدد صحتهم وحياتهم وحتى دون لقمة طعام او كسرة خبز تقيم أودهم؟ وعندما يعرف المرء ان ذلك غالباً ما يحدث في الحرب، لا بد ان يعجب لعدم انهيار قلب الجندي وقواه»(ص ٤٧٩) كما لاحظ بعد ذلك «ينتهي - ينفق - الحصان بسبب الحاجة قبل الرجل بكثير»(ص ٤٨٠).

يضف كلاوزفيتز وبنفس الاسى «ان كانت الحرب ستشن وفقاً لروحها الاساسيه – وبالعنف الذي بلا حدود والكامن في جوهرها، وبالتعطش واللهفة للمعركة والحسم – عندها فاطعام القطعات ومهما كان مهماً سيغدو أمراً ثانوياً(ص ٤٧٨) بل انه يقتبس مع التأييد مقولة نابليون التي تعبر عن اصرار ونفاذ صبر «لا يحدثني احد عن التموين[1]»

لكن يرد في الفقرة التالية بان حملة الاخير (نابليون) في روسيا «اثبتت ان لمثل هذا التجاهل ما بعده وانه قد يسبب الكثير»(ص ٤٧٨). اذ لا يمكن نكران «ان نقص الاهتمام بالتموين كان مسؤولاً عن الدمار والضياع اللذان لا سابق لهما لجيشه خلال التقدم، وكذلك في تراجعه الذي كان بمجمله كارثه»(ص ٤٧٨) لقد نسي نابليون «ضخامة الاختلاف بين خط امداد يمتد من فيلنا (شمال شرق وارشو) وموسكو... وخط يمتد من كولون الى باريس»(ص ٤٨٠).

الكتاب الخامس، الفصلان الخامس عشر – السادس عشر: لهذين الفصلين علاقة عضوية بالفصل السابق والمهم حول تأمين المستلزمات. كما لا يعدان قديمان جداً لاننا نبتعد خلالهما عن مفهوم العيش على حساب الارض بالاستيلاء والمصادرة، اللذان ما عادا مألوفان اليوم الا عند العصابات والانصار. نلاحظ في هذين الفصلين وكما في الفصل الذي سبقهما شيئاً من خبرات وتجارب الكاتب كضابط ركن.

يعيدنا الفصل الخامس عشر الى حقيقة ان مذخرات الاعاشة وحيثما امكن توفيرها او مصادرتها، لا يمكن تأمين المستلزمات والبدائل العسكرية الاخرى (لسد النقص) بنفس الطريقة. والطريقة الوحيدة لتأمينها هي بنقلها الى الامام من القاعدة، التي ستصبح لذلك جزء عضوياً من الجيش، وتغدو العلاقة بين الجيش وقاعدته في رأي كلاوزفيتز كتلك التي بين الشجرة وجذورها. الجيش، من الناحية الاخرى يجب ان يكون متحركاً (وليست الشجرة كذلك) وان لا تكون القاعدة بعيدة كثيراً خلفه. ولا يجوز ان يكون ايا منهما واهنا ازاء العدو، القادر في اختراقاته العميقة في ارض العدو على التسبب ببعض المشاكل.

---

(١). قال نابليون « qu'on ne me parle pas des Vivres ! » وقد ترجمها الاستاذ برودي الى الانكليزية Let no one speak to me of Provisions! – المترجم

الفصل السادس عشر، خطوط المواصلات Line of Communications يعالج روابط الجيش بقاعدته. توفر خطوط كهذه وسائل التقدم وكذلك تؤمن خطوط الانسحاب. المعضلات الرئيسية ذات العلاقة هنا تخص الطرق – اي ما يتعلق بطول واتجاه ونوعية الطرق، بل وكذلك الارض التي تمر تلك الطرق عبرها، وظروف وميول وتوجهات السكان المحليين واخيراً مقدار الحماية التي يمكن ان تقدمها القلاع (للمواصلات) عند وجودها وكذلك الحاميات. وحقيقة الامر هي ان جيش العدو موجود وعلى الدوام في مكان ما امامنا. وما لم يلجأ هذا الى شن عمليات جانبية (على الاجنحة) – «التي كانت شائعة ومعروفة دائماً في الكتب اكثر منها في الميدان»(ص ٤٨٩)– فان الحماية التي تؤمن للمستودعات المنشأة على طول خطوط المواصلات ستكون كافية ان تمكنت من معالجة تدخل مفارز العدو المتواضعة الحجم التي تفرز من قوة العدو الرئيسية، او مفارز الانصار.

ما من شك في ان كلاوزفيتز كان سيخفف من حدته لو قدر له توقع حركة الجنرال ستونويل حول جيش الجنرال جون بوب (Pope) لتدمير مستودعات الاتحاديين الكبيرة عند (ماناساس) في الواقعة التي ادت الى معركة (ماناساس) الثانية[1].

الكتاب الخامس الفصلين السابع عشر والثامن عشر. يكشف هذا الفصلان «الجغرافيا والارض»[2] و «المرتفعات الحاكمة» قلة اهتمام الكاتب الواضحة بالمواضيع التي يعالجها على عكس ما كان عليه في الفصول السابقة. وترد بعض التعليقات والبيانات احياناً على سبيل الاستطراد، منها على سبيل المثال... «المجموع الكلي للنجاحات المنفردة في الحرب اكثر حسماً واهمية من النمط الذي يربط ما بينها»(ص ٤٩٢). ونتعلم من الفصل السابع عشر القليل الى جانب حقيقة ان المناطق الوعرة تسبب او تفرض على القوات العاملة فيها ان تتجزأ الى مجموعات صغيرة الامر الذي يعطي الطرف الاكثر اعتماداً على المبادرات الفردية ميزة ملحوظة. لذا لا بد للقطعات التي يوفر لها خوض القتال وهي متحشدة فائدة ما، تجنب المرور بتلك المناطق. كذلك ففي الاراض الشديدة الوعورة يغدو المشاة هو السلاح المسيطر.

---

(١) للمزيد عن تفاصيل المعركه راجع موسوعة التاريخ العسكري ص٨٧٧ ودور الجنرال جاكسون «ستونويل» فيها. المترجم

(٢). اختار صاحب النص الانكليزي الذي نترجم عنه اسم «الارض» للفصل السابع عشر اعلاه ويبدو انه ورد باسم «الجغرافيا والارض» في طبعات اخرى (المترجم).

الفصل الثامن عشر يواصل الكاتب فيه فضح زيف الشعارات والمفاهيم القديمة. الارض المرتفعة تشكل ميزة لا جدال حولها، الا اننا غالباً ما نبالغ في تقديرها. «نحن لا ننكر حقيقة ذلك» لكن وبعد قول وعمل كل ما يمكن، تبدو هذه المصطلحات، مثل «المنطقة المسيطرة» و «الموضع الساتر» و «مفتاح المنطقة»، وبقدر تعلق الامر بالاشارة الى الاراضي العالية والواطئة، لا اكثر من محارات وقواقع خالية»(ص ٤٩٨). يلي ذلك تأكيد جديد على نوعية الجيوش المتقابلة نسبياً ونوعية قادتها كذلك، وعبارته الاخيرة في هذا الفصل الاخير للكتاب الخامس هي: «تستطيع الارض ان تلعب دوراً صغيراً فقط»(ص ٤٩٨).

يرتكب كلاوزفيتز في هذا الفصل خطأً فادحاً. فمن بين المزايا، يقول كلاوزفيتز، في ان تكون في الارض العالية ان «اطلاق النار نحو الاسفل، يظل وفقاً لجميع العلاقات الهندسية ذات العلاقة، اكثر دقة من اطلاق النار نحو الاعلى..»(ص ٤٩٥) ومن المستحيل تماماً ان نبين امكانية ذلك في الارض التي يعنيها سواء في ايامه او اليوم.

الكتاب السادس ، الفصول الاول – الرابع ؛ الدفاع في مفهوم كلاوزفيتز هو **الشكل الاقوى للحرب ؛** وليس من السهل تقبل ذلك الا بشيء من التحفظ ان لم نقل الشك من قبل معظم منتسبي الحرفة العسكرية اليوم ، كما كان الامر عليه في ايامه . لقد رأينا كلاوزفيتز وهو يشكو في الفصل الاول من أن رأيه هذا « لا يتماشى والرأي السائد» (ص ٥٠٢) وفي الفصل الثاني، من اصرار اصحاب « الاراء البالية» التي ترى أن « قبول المعركة – اي التي يبدأها الخصم – يعتبر نصف الخسارة»(ص ٥٠٦). كذلك سنرى في فصل لاحق (الثامن عشر) حديثه بازدراء عن « الضجيج الذي يثيره اؤلئك الذين تدفعهم عواطفهم الطائشة وعقولهم الاكثر هشاشة للخوض في كل شيء عن الهجوم والحركة ، والذين يمكن اختزال فكرتهم عن الحرب بفارس مغوار ينطلق شاهراً سيفه وسط الميدان »(ص ٦١٢) .

قد يعرف الجندي المعاصر وكحقيقة مستمدة من التجربة العملية ان من الضروري احياناً اتخاذ موقف دفاعي (وانه حتى قد يعتاد على رؤية «مبدأ الامن» ضمن قائمة تضم مختلف «مبادئ الحرب) الا انه يتمسك بمثل هذه الضرورة الملحة احياناً ويصر على تحويلها الى مذهب يعزو للدفاع منقبة أو قيمة خاصة . بل ويمنعه تفكيره من التنبيه لميزة الطرف الاخر . وغاية مذهب كهذا هي ودون شك استثارة تعرضية (عدوانية) القائد تعبوياً واستراتيجياً ، اذ تشير التجارب الطويلة ان القليلين فقط يميلون دون ذلك للتسبب في مخاطر ، أو مجازفات شديدة أو حتى بذل جهد استثنائي .

هذا التمجيد غير المعقول للهجوم والذي ساد تفكير هيئات اركان حرب دول التحالف الغربي خلال الحرب العالمية الاولى لم يكن سوى زيادة تأكيد القناعة القديمة به . هذه السطوة ، التي تعكسها كتابات فرديناند فوش[1] وآخرين قبيل الحرب والتي ترسخت بشكل مأساوي خلال تلك الحرب العظمى التي جعلت ظروفها التعبوية منه (اي الهجوم) شكلاً غريباً ومنافياً للعقل بشكل لم يسبق له مثيل . كانت الظروف

---

(١) اكثر الكتب تيسراً في الانكليزية هو ترجمة (موريني) حول (فرديناند فوش (مبادئ الحرب – ١٩٠٣) . نيويورك أج . كي . فلاي ١٩١٨) . راجع ايضاً كتابي الاستراتيجية في عصر الصواريخ (برنستون، مطبعة جامعة برنستون ١٩٥٩). الفصل الثاني – بيرنارد برودي.

التعبوية ايام كلاوزفيتز شديدة الاختلاف ، ونجد في الحقيقة أن معظم المزايا التي يعزوها كلاوزفيتز للدفاع هي في المجال الاستراتيجي لا التعبوي .

يظن المرء ان المناقشات التي سادت الفصول الاربعة الاولى لهذا الكتاب وليدة قناعة عميقة استندت الى تجربة المؤلف الشخصية ، ولقد ذكر فعلاً الحملتين اللتين شارك فيهما . حملة عام ١٨١٢. في روسيا ، والتي اشار إليها ثانية في الفصل الثالث والتي تشكل أعظم انتصار لاستراتيجية الدفاع في كل التاريخ العسكري . أما في حملة (واترلو) عام ١٨١٥ فقد اعتمدت قوات التحالف البريطاني – والهولندي (والبلجيكي) والبروسي على استراتيجية الدفاع ايضاً . لقد عرفوا أن نابليون أت إليهم لا محالة ، فنظموا أنفسهم وزادوا من قوتهم خلال الإنتظار في مواضع قريبة الى قواعدهم وقد أحسنوا استطلاعها وكانت ملائمة لاحتياجاتهم من النواحي الاخرى .

انتظار ضربة العدو ، هو ، وكما يخبرنا كلاوزفيتز في مطلع هذا الكتاب (السادس) هو ما يميز الدفاع . فللمدافع فرص عديدة لمباغتة عدوه تعبوياً ، الا ان هذا الخصم هو الذي سيتحرك ضده وليس العكس . فهدف المدافع هو المحافظة ، وهو هدف سلبي ، ولذلك يكون تالياً «لذلك ينبغي اللجوء الى الدفاع بالقدر الذي يحتمه علينا الضعف، وان نتخلى عنه حالما نتقوى بما يكفي لمتابعة هدف ايجابي»(ص٥٠٣) هذا التأكيد قدمه كلاوزفيتز في الفصل الاول ، الا انه يصر على ان يبرهن على تطبيق القائد الأضعف للدفاع لان قوة الدفاع المتأصلة ستعوض عن ضعفه . يقدم كلاوزفيتز شتى انواع المبررات لذلك ، واكثرها يتعلق بحقيقة تمتع المدافع بخطوط مواصلات وانسحاب مثالية، بينما يمدد المهاجم خطوطه ويعاني جراء تضييع وبعثرة قوته مع تقدمه الى الامام ، كما ان المدافع يختار ووفقاً لمصلحته مكان التماس او المعركة . أن أُس مناقشته النظرية هو ، ما لم يكن الدفاع هو الشكل الاقوى فما من اي سبب اذن يبرر اللجوء إليه .

يؤكد في نهاية الفصل الثالث أن هناك « احساس الجيش بالتفوق الناجم عن ادراكه بامتلاك زمام المبادأة » (ص ٥١٢)– الامر الذي كان الماريشال فوش وأخرون سيؤكدوه باقصى حد ممكن – الا انه سرعان ما يضيف ان هذا الاحساس «سرعان ما تتفوق عليه روح أقوى واعم يستمدها الجيش من انتصاره او اندحاره ، ومن كفاءة او عجز القائد »(ص ٥١٢). وسيعيد طرح الموضوع بشكل اقوى في الفصل الخامس عشر من الكتاب السابع .

في الفصل الخامس يعود كلاوزفيتز لاعطاء المزيد من التأكيدات والصيغ البلاغية للنقطة التي عالجها في الفصل الاول ، بضرورة النظر الى الدفاع كوسيلة مفيدة مؤقتا ، في الوقت الذي يتم فيه تهيأة اسس التحول الى الهجوم .«يعتبر التحول القوي والمفاجيء الى التعرض – أو سيف الانتقام الصارم – اعظم لحظات الدفاع»(ص ٥١٧) لماذا اذن كل هذه المبالغة حول موقفه الخاص من هذا الامر ؟ يأتي الجواب من التعارض ما بين موقفه هذا وموقف كتاب آخرون ، وبالاخص الذي ذُكر للتو أي الماريشال فوش ، الذي اقام ورفاقه مكانة عالية للهجوم ، ونسبوا إليه كل ميزة ممكنة بما في ذلك قلة الخسائر . وخلال اندفاعاتهم «Pushes» المميتة والمتتالية واللامجدية طوال الحرب العالمية الاولى ، لم يستطع قادة التحالف الغربي ابداً التخلص من الخطأ الطاعن الذي تمكن منهم وهي انهم اوقعوا من الخسائر في العدو اكثر مما يعانون هم انفسهم وواصلوا ومن تبعهم الاصرار على هذا الامر حتى بعد الحرب ، بل ان بعضهم لجأ إلى تعديل الارقام لحماية رفاقهم من مغبة الانكشاف(١) .

مع ذلك ، ورغم تلك المدارس الغربية ، فالذي ميز كلاوزفيتز عن معظم زملاءه في مناقشة تلك الموضوعات هو على الاكثر مسألة درجة . ورغم انه تقبل عن قناعة بالحاجة الى التحول الى الهجوم اذا ، وعندما يكون ذلك ممكناً ، الا انه لا يريد تجاهل الموقف الدفاعي . ذلك لانه ازدري فعلاً في ايامه وفي ايامنا ايضاً ويتضح ذلك من اخر عبارة في الفصل الخامس «وهكذا فان دفاعاً أعد بهذه الطريقة لا يثير الاسى عند مقارنته بالهجوم ، كما ان هذا الاخير لم يعد ذلك الشكل البسيط جداً والمعصوم من الاخطاء كما كان يلوح في مخيلة اؤلئك الذين يعدون الهجوم وبيساطة شجاعة ، وعزم ، وحركة ، ولا أن الدفاع لا اكثر من العجز والشلل». (ص٥١٨).

الكتاب السادس ؛ الفصلين السادس والسابع ، يتوسع الفصل السادس في الاسباب التي ذكرت في الفصلين الثاني والثالث عن تفوق قوة الدفاع . هناك من ناحية ، انواع معينة من القوات التي يمكن استدعائها ، كالمليشيات ، التي لا تكون

---

(١) راجع السير، بي. أ. ج. ليدل هارت « الحقائق الاساسية عن باشنديل» ، مجلة معهد الخدمات المتحدة الملكية – لندن ، ١٠٤ ، ٦١٦ (تشرين ثاني ١٩٥٩) ١–٧ . عن تفاصيل معركة باشنديل الثالثة تموز/١٩١٧ . راجع موسوعة التاريخ العسكري ص ٩٨٠ – المترجم .

متوفرة عادة للجيوش النظامية ، الا ان ذلك ليس سوى مثال واحد على حقيقة الدعم الشعبي المتيسر على الفور خلال العمليات الجارية في بلد كل منا ، والتي يتوقع ان تكون دفاعية. ويورد كلاوزفيتز وكمثال بارز الحرب التي دارت في شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا) للفترة ما بين (١٨٠٨-١٨١٤م) والمعروفة بحرب شبه الجزيرة، والتي انهمك كل الشعب عمليا في الكفاح فيها ، مؤلفاً ما لا يحصى من العصابات في كل من اسبانيا والبرتغال .

اكثر ما يلفت النظر تعليقه عن الاسناد الكبير الذي يمكن توقعه من الحلفاء في الدفاع . فهناك بعض الدول التي ستهتم كثيراً بوحدة وسلامة بلدان اخرى لان حكامها يشعرون بأمان أكثر في حالة بقاء الاوضاع على ما هي عليه في مناطقهم. يفسر لنا تركيز كلاوزفيتز هذا على الوضع الراهن، التطور العفوي غالباً لميزان القوى المعنية. «وما لم تكن كذلك» يقول كلاوزفيتز «وما لم يتوجه ذلك الجهد العام نحو المحافظة على الوضع الراهن ، فليس بوسع عدد من الدول المتمدنة التعايش بسلام لفترة من الوقت ابداً ... اما حقيقة كون اوروبا ، وكما نعرفها قد استمرت لاكثر من الف سنة [وبدلاً من صيرورتها دولة واحدة] فيمكن تفسيره بفاعلية وتأثير تلك المصالح»(ص ٥٢٢) لقد حدثت تغييرات كبيرة جداً في الاراضي طبعاً ، وبولندا مثال خاص على امة كبيرة انتهت [في ايام كلاوزفيتز فقط] كنظام سياسي قائم ، الا ان هناك اسباباً خاصة ومعقولة لذلك . فالمدافع على اية حال قادر عادة على التعويل على المعونه الخارجية اكثر من المهاجم ، ويزداد امله في ذلك كلما كانت ظروفه السياسية والعسكرية معقولة اكثر .

يتوسع كلاوزفيتز في **الفصل السابع** في النقطة التي اوضحها للتو وهي أن الحرب تأخذ شكلها وسمتها من منع المدافع للمهاجم أمتلاك أي شيء كان هذا الاخير سيحصل عليه دون حرب . والمدافع بذلك هو « الذي يباشر اولاً العمل الذي يتلائم ومفهوم الحرب حقاً»(ص ٥٢٦) عند هذه النقطة يؤكد كلاوزفيتز انه يتحدث من وجهة نظر النظرية فقط ؛ وهو يدرك بطبيعة الحال وكلية بان المهاجم ينفذ هجومه عادة وهو يفترض ان عمله العدواني سيثير رد فعل عسكري .

الكتاب السادس، الفصل الثامن: هذا الفصل الطويل والشامل نوعا ما« انواع المقاومة» يحمل في جزءه الجيد افكاراً متقدمة عبر عنها المؤلف في فصول سابقة من هذا الكتاب . فالدفاع ، يقول الكاتب ، يتألف من جزئين متميزين هما **الانتظار،**

والعمل . لكن، وخصوصاً في العمل الدفاعي الواسع النطاق وكالذي يغطي أو يستغرق حملة بكاملها في الحرب فمن الصعب عندها الفصل بين الانتظار والعمل إلى صفحتين متميزتين لذا سيتنقل التأكيد ما بينهما . يميل كلاوزفيتز الى تحديد نقطتين اساسيتين :

(١) الانتظار وبكل الحيوية التي يفترض المصطلح قدرته، والى حد اجبار العدو على تخصيص جزء من قوته اثناء التقدم ، حتى ليستحق عندها وضع مفهوم مستقل، أو (مبدأ) – انها «سمة بارزة واساسية في كل الحروب ، ولا يمكن تصور الحرب من دونها» (ص ٥٢٨).

(٢) نادراً ما تتحقق فوائد الانتظار هذا ان تحققت بدون عمل ، حقيقي أو بالتهديد به.

يشير الكاتب بعدها إلى اربعة طرق بوسع المدافع ان يختاره أياً منها في دفاعه. مع ذلك فالثلاث الاولى منها تشترك في شيء عام مع بعضها في انها تقع عند او على مقربة من حدود البلاد ، بينما في الرابعة على المدافع الانسحاب داخل البلاد والمقاومة هناك . والرابعة وهي التي اهتم بها الكاتب اكثر من الاخريات ومن الواضح ان في ذهنه تجربتين مأساويتين من التاريخ . كانت **الأولى** حملة توريس فيدراس[١] عامي (١٨١٠–١٨١١م) حين انسحب الدوق ويللنكتون امام الماريشال (الفرنسي) مسينا الى خط محصن كان قد اعده في الجبال المطلة على لشبونة . حيث حاصره مسينا هناك عند نهاية خط مواصلات امتد على طول الاراضي الاسبانية العدائية والمليئة بعصابات الانصار ليضطر (اي مسينا) اخيراً الى الانسحاب تحت وطأة الجوع الذي انهك قطعاته . اما **الثانية** فكانت الملحمة التي وقعت في العام الثاني عند ذهاب نابليون والجيش العظيم «Grande armee» الى موسكو ودحر بسبب الجوع والبرد خلال الانسحاب .

كانت قوات المدافع وفي كلتا الحالتين ، وبما فيها الانصار قد لعبت دوراً كبيراً وكذلك بعد المسافة والظروف الطبيعية العدائية في التسبب بتدمير الجيش الغازي – بعد شن هجوم فعلي او التهديد بذلك. وخلاف ذلك كان بوسع الجيشان الغازيان توفير ما يحتاجانه من مستلزمات وما كانا سيضطران الى الانسحاب . بالاضافة الى

(١) راجع الهامش في الفصل الثامن الكتاب السادس (ص ٥٣٣) حول حملة توريس فيدراس . المترجم

ذلك وعلى الاخص في حملة روسيا (١٨١٢) فقد أصبح الانسحاب الذي اجبر عليه الجيش الغازي في النهاية اقسى، وزيدت خسائره كثيراً بالسرعة والفوضى الناتجتين عن الهجمات الروسية المتتالية .

كذلك كان كلاوزفيتز مذهولاً بالحالات «التي ليس فيها قتال فعلي ، بل تتأثر النتائج بحقيقة امكانية حدوثه »(ص ٥٣٧) انه يبحث في الموقف الذي يفقد الغازي قوته خلال ضغطه في تقدمه الى الامام . ويبدأ بالخوف من أن عدوه المدافع بات متفوقاً تعبوياً ، ويبدأ عزمه بالانحسار . ويذكر عدة مواقف كهذه ، الا ان القارئ سيفكر في تمييع الالمان لخطة شليفن عام ١٩١٤ والانسحاب الى «أيسن Aisne » بعد معركة المارن التي لم تكن ذروة في وحشيتها ولا انتصاراً تعبوياً للفرنسيين . مع ذلك اصبحت وبسبب عواقبها « معجزة المارن » .

الكتاب السادس ؛ الفصل التاسع ؛ بعد وصف معركة متخيلة ، معركة تعتمد تعبية معاصرة ، لاظهار مزايا المدافع التي بوسعه الاعتماد عليها إلى درجة كبيرة ما لم يكن أقل قوة بشكل فاضح – وهكذا ليظهر (وضد الافتراض الذي وجده سائداً في ايامه) ان الطرف المدافع تعبوياً ليس الاقل حظاً بالضرورة في الفوز بنصر حاسم من الطرف الذي بادر بالهجوم ، ويواصل كلاوزفيتز بيان سبب ندرة انتصارات دفاعية كهذه في التاريخ . كان المدافع وفي معظم الحالات اما اضعف الطرفين بشكل ملحوظ جداً او انه يحسب انه كذلك . ومن الغريب انه يتطرق الى ما كان سيحدث لو انتصر نابليون بدفاعه في (لايبزك) ، لكنه لم يذكر **ما حدث** في النصر الدفاعي الكبير في واترلو . لقد كان كلاوزفيتز نفسه قرب (ويفر) في اليوم الذي جرت فيه تلك المعركة وشارك في العمل الدفاعي الضاري ضد الماريشال كروشي. ليس امام المرء سوى العجب لعدم ذكر كلاوزفيتز لكبرى العمليتين وهو العمل الذي نال فيه الطرف المدافع حتى نهاية ذلك اليوم الطويل واحداً من اكثر الانتصارات حسماً على مدى التاريخ .

الكتاب السادس ؛ الفصول العاشر – الرابع عشر ، الفصلان الخاصان بالقلاع اقل قدماً مما يظن المرء من عنوانهما . فبعد بيان الاختلاف في الاداء بين قلاع القرون الوسطى وتلك الموجودة في ايامه ، يستمر كلاوزفيتز ليصف لنا في الفصل العاشر الاغراض العديدة التي بوسع القلاع الحديثة تحقيقها ، وفي الفصل الحادي عشر الاعتبارات التي تتحكم في اختيار مواقع القلاع . من الواضح ان تلك

الاغراض والاعتبارات قد تغيرت مع الوقت ، ولكن باقل مما يتخيل القارئ . لقد إستنبطت خطة شليفن التي نُفذت عام ١٩١٤ لاحاطة خط المدن الفرنسية المحصنة الكبيرة في الحدود الفرنسية الشرقية . وفي عام ١٩٤٠م صمم الهجوم الالماني عبر بلجيكا والاردين لاحاطة خط ماجينو ، وهو خط محصن اكثر منه خط قلاع حصينة. وفي كل حالة تولت المنظومة (الحصينة) توجيه مسار الهجوم المعادي، ولو فشل الفرنسيون في تحقيق منافع اكثر مما نالوه من تلك الحقيقة، فلن يقع الخطأ كله على فكرة القلاع .

ما من شك ان التحصينات ومنذ الحرب العالمية الثانية قد اصبحت اقل تأثيراً ، ولم تعد تفي بتحقيق كل الاغراض التي يصفها كلاوزفيتز ، الا تدريجياً وكنا غالباً ما ندرك فشل منظومات القلاع، بما في ذلك الامثلة اعلاه ، لكن وكما اوضح كلاوزفيتز وسواء كان تأثيرها مباشراً او غير مباشر ، فالقلاع « لن تجعل تقدم العدو مستحيلاً ، بل اكثر صعوبة وارتباكاً فقط – وبكلمة اخرى اقل احتمالاً وأقل خطورة على المدافع »(ص ٥٥٦) . اما ان الكثير والكثير جداً كان منتظراً من قلاع او تحصينات بعينها وكما في سجلات التاريخ ، فلابد اذن من اعادة قراءة تلك السجلات بدقة قبل الحكم على مزايا وفوائد تلك المنظومات التي فشلت في مهمتها. بالاضافة إلى ذلك لم تفشل كل المنظومات ضد الهجوم . فقد ساعدت القلاع التركية على طول الدردنيل على منع اختراق الاسطول البريطاني عام ١٩١٥ واثرت بالتالي والى حد كبير على مسار وعواقب الحرب العالمية الاولى .

النصيحة الحكيمة لكلاوزفيتز حول وضع القلاع على عمق معقول لا الاقتصار على انشائها على طول الحدود ، لم تتبع الا نادراً في العصر الحديث فيما عدى بعض الدول الصغيرة مثل بلجيكا – التي لا تملك سوى عمقاً قليلاً لتختار كما تشاء – لان الدول الكبرى لم تهيئ نفسها للقبول لنفسها او للآخرين بعدم ايقاف العدو عند حدودها .

الفصول الثاني عشر – الرابع عشر حول المواضع الدفاعية الجانبية تبدو قديمة نوعاً ما لانها اكثر اهتماماً بامور تعبوية منها كفصول حول القلاع.

الكتاب السادس الفصول الخامس عشر – السابع عشر ، يكشف كلاوزفيتز في هذه الفصول الثلاث حول «الحروب الجبلية الدفاعية» مرة اخرى عن سروره باسقاط الإستنتاج الذي اتضح تضمنه الكثير من الاستثناءات او بالاحرى

خاطئ . فالاستثناء في هذه الحالة اذن هو ما ينعكس في التعابير المستخدمة من قبل اؤلئك « الذين يتحدثون عن مضيق (ممر جبلي) ضيق الى حد ان بوسع حفنة من الرجال ايقاف جيش من المرور» (ص ٥٨٣). ينكر كلاوزفيتز الاعتقاد بان السلسلة الجبلية توفر ارضية ملائمة لجهد دفاعي رئيسي ، ويبحث الموضوع على المستوى التعبوي والاستراتيجي مع الاهتمام بالتفاصيل حول ذلك والتي ترد في دراسة الموضوع في الادبيات التاريخية والملاحظات الشخصية . واكثر من ذلك ، يبدو ما قاله عن الدفاع الجبلي وكأن هذا لم يتأثر بالتغييرات التعبوية الا قليلاً منذ أيامه .

السؤال المركزي الواجب البت فيه ، يقول كلاوزفيتز ، هو «ما اذا كانت المقاومة في الحروب الجبلية الدفاعية تتوخى أن تكون **نسبية او مطلقة**»(ص ٥٨٦). فبوسع مجموعة صغيرة من الرجال، ابطاء تقدم قوات كبيرة للمهاجم بالتأكيد ، وهذا ما كان في ذهنه عن مصطلح «نسبي Relative» ، أما «المطلق» فيعني به إيقاف العدو تماماً أو في تحقيق نصر حاسم عليه ، ولهذا السبب تعد الجبال عموماً غير مناسبة اطلاقاً .

معضلات الدفاع عديدة ، ويصفها كلاوزفيتز بالتفصيل ويركز على السلبية الحادة للمواقع الدفاعية . فالمهاجم يرتب نفسه وفقاً لها وليس العكس . يضاف الى ذلك أن مواضع تلك المواقع يعني انها تشغل عادة من قبل المشاة فقط، والمحدد بدوره بالمديات القصيرة للاسلحة الصغيرة (لقد تغير هذا العامل بفعل الاسلحة الحديثة ، رغم ثباته عموماً). لا تشغل القوات المدافعة القمم والقطوع ، التي يصعب اجتيازها في الجبال العالية ، وتكتفي بالوديان (الاقسام السهلة) لذا تعد مواضعها معزولة وعرضة للتطويق عادة .

مع ذلك ، يمكن للحاجز الجبلي تقديم الكثير من المساعدة للمدافع استراتيجياً شريطة الا يفتح القسم الاعظم من جيشه خلال المضايق ، حيث ستغدو شراذم معزولة ، وعديمة الحركة ، وسلبية وينبغي عليه القيام بكل ما بوسع القوات الصغيرة المفرزة القيام به لاعاقة العدو خلال تلك المضائق ، على أن يحشد قواته الرئيسية في الارض المفتوحة خلف الحاجز «نحن لا نؤكد» يقول كلاوزفيتز «ان اسبانيا ستكون أقوى دون (جبال) البيرنية ، ولكنا نرى ان الجيش الاسباني الذي يشعر بانه من القوة بما يكفي لتقبل مخاطر معركة حاسمة ، سيكون أكثر حكمة لو حشد قوته خلف نهر (ايبرو Ebro) في شمال شرق اسبانيا – بدلاً من بعثرتها فوق مضائق البيرنية

الخمسة عشرة . وسوف لن يودي ذلك الى تجاوز تأثير سلسلة البيرنية على الحرب . وينطبق ذلك كما نعتقد على الجيش الايطالي بنفس الدرجة .. وما من أحد سيصدق بان اي مهاجم سيرضى بالمسير فوق خط قمم جبال شاهقة كالالب أو حتى ليتركها خلفه» (ص ٥٩٨). يريد بتركها خلفه زيادة صعوبة الامر ، لخطوط المواصلات والانسحاب غير الامينة والمعرضة للخطر .

الكتاب السادس ؛ الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر إعتمد كلاوزفيتز كثيراً على تجربته الشخصية في كتابة هذين الفصلين الطويلين في « الدفاع عن الانهار ومجاري الماء » اكثر مما كان بوسعه ذلك حول الجبال ، لذا جاءت معالجته اكثر تفصيلاً . مع ذلك كانت استنتاجاته الاستراتيجية العامة متشابهة . ويطلب منا مرّة أخرى التمييز ما بين الدفاع النسبي والمطلق فالانهار والجبال تعزز دفاعاً محدوداً «الا أن سمتها الخاصة هي إنها تعمل كالالة المصنوعة من مادة صلبة وسريعة الانكسار، فاما ان تصمد ضد اقوى الضربات دون اي أثر ، أو تتحطم قدرتها الدفاعية الى اجزاء صغيرة سرعان ما تخمد نهائياً »(ص ٦٠٥). ويضيف كلاوزفيتز بان الامثلة التاريخية على دفاعات ناجحة عن الانهار قليلة جداً .

يذكر لنا ثلاثة عوامل حاكمة :

١. عرض النهر .

٢. وسائل العبور المتيسرة .

٣. قدرات القوة المدافعة .

يتابع كلاوزفيتز القول ، بان القوة الكلية للمهاجم (ليست ذات علاقة في هذه المرحلة) ، اذ من الواضح عدم قدرته الا على المجيء بجزء من قوته للعبور ابتداءً ، والموضوع الملح والمعلق حينئذ هو ما اذ كان المدافع قوي بما يكفي لتدمير ذلك الجزء قبل ان يتمكن هذا من الثبات وتحقيق تفوق محلي . والعامل المهم جداً هنا هو ان المعتاد استخدام القليل من الحشود للدفاع عن شريط صغير من النهر (فاي دفاع مباشر عن نهر ما ، يجب أن يمتد ودائماً حتى يبدو وكأنه منظومة طوق «Cordon system»(ص ٦٠٩). وجهد كهذا يمكن أن يمتص قوات كبيرة. وبعد تمعنه بالمعضلة بعمق ، توصل الى ان «الدفاع المباشر عن النهر مناسب فقط وكقاعدة للانهار الاوروبية الكبيرة جداً ، وفي النصف الاسفل من مجراها فقط»(ص ٦١٣)

من الناحية الاخرى ، وكما هو الحال في الجبال ، فوجود نهر عريض خلف جيش متقدم يشكل محذوراً كبيراً وليس في صالحه، عدى عن التهديد الموجه الى خطوط مواصلاته وانسحابه واقتصارهما على عدد محدود جداً من نقاط العبور .

ما من سجلات خلال الحرب العالمية الثانية عن اجتياز نهر يُعدُّ حاجزاً كبيراً أمام قوة غازية ، للأسباب التي أوردها كلاوزفيتز تماماً . ومع ذلك فقد قدم القنال الانكليزي خدمات مهمة للبريطانيين خلال اربع سنوات طويلة ، ولم يكن لدى الالمان القوة والوسائل الكافية لعبوره. من الناحية الاخرى فقد نجح البريطانيون وحلفائهم الامريكان بعبوره بينما تولى الالمان الدفاع عن سواحل القنال ، ويمكن وصف فشل الدفاع إستراتيجياً بنفس التعابير التي استخدمها كلاوزفيتز في عبور الانهر . لقد كان على الالمان مدُّ دفاعاتهم على طول القنال ، مما يجعلهم ضعفاء محلياً لتدمير القطعات التي بدأ الحلفاء بزجها في نقاط منتخبة من ساحل نورمندي في ٦/حزيران/١٩٤٤ .

لتقديم مثال مختلف جداً ، يندهش المرء عن كيفية سماح الاسرائيليين لأنفسهم الاعتقاد بان قناة السويس وهي بعرض (٢٠٠ قدم) فقط، تشكل مانعاً قوياً بوجه القوات المصرية العابرة ، الامر الذي ثبت بطلانه في اوكتوبر ١٩٧٣. لقد إحتجّوا بثقتهم بقلة قدرات القوات المصرية الامر الذي ثبتت حاجته الى بعض التصحيح .

الكتاب السادس ؛ الفصول العشرون – الثاني والعشرون . يبحث الكاتب هنا في الدفاع عن المستنقعات والغابات ، والدفاع عن الاراضي بالطوق . وهي تشترك مع الدفاع عن الجبال والانهار بعامل عام هو السلبية وكذلك بكون المناورات الدفاعية مما تعد محلية إلى حد كبير ، وكما قال المؤلف في الفصل العشرين « دائماً هناك شيء خادع وخفي وشديد الخطورة حول الدفاع المحلي»(ص ٦٢٥) . مع ذلك هناك اختلاف مهم ايضاً . فالمستنقعات عادة اوسع بكثير من الانهار ، كما انها اكثر صعوبة في العبور خصوصاً مع معدات ثقيلة، من الناحية الاخرى ، فان تم وضع معدات العبور، فامر ازالتها اصعب على العدو من تدمير الجسور في عبور الانهر . ويقر كلاوزفيتز أخيراً مع شيء من عدم الرضا بان الاهوار والمستنقعات العريضة «من بين اقوى الخطوط الدفاعية الممكنة»(ص ٦٢٥).

بعد ان أولى القضية الخاصة بالدفاع في الاراضي المغمورة بالمياه

(Nether Land) ، ومعدات عبورها عناية خاصة والمزيد من الاعتبارات (الاراضي المنخفضة بعد كل شيء تحادد بروسيا) ، ينتقل الكاتب الى بحث الدفاع عن الغابات. الدفاع المباشر الغابات خطر ، لحاجة المدافع وفوق كل شيء الى أن يرى. فوجود غابة ما امامه هو اسوأ المواقف ، أذ بوسع المهاجم أن يَرى دون أن يُرى ، اما وجود الغابة خلف المدافع فقد تكون شيئاً نافعاً في الانسحاب .

قد يكون الدفاع – الدائري (الطوق) مجدياً عندما يكون الهدف هو الصمود بوجه هجوم خفيف – «خفيف اما لحذر المهاجم وتردده ، او لقلة ما لدى المهاجم من قوات»(ص ٦٣٤)، من الناحية الاخرى ، فسيكون منافياً للعقل «أن نبقي القوة الرئيسية التي اعدت للدفاع عن المنطقة في سلسلة طويلة من المواقع الدفاعية ضد القوة الرئيسية للعدو – في الحقيقة في طوق . فمن غير المعقول جداً ومن السخف عندها أن يحاول المرء البحث في الظروف الانية التي رافقت ذلك ، وتفسير ما يجري»(ص ٦٣٥) .

اما الذي لم يتوقعه كلاوزفيتز ، ولم يختلف في ذلك عن جنرالات اوربا عند وقوعه ، فهو دفاع الطوق الذي ميز عملياً كل دفاعات الحرب العالمية الاولى وعلى الاخص في الجبهة الغربية . فما الذي ادى الى حدوث ذلك :

١. الحجوم الهائلة الضخامة للجيوش لدى الطرفين ، وقابلية الحركة التي لتلك الجيوش بشكل لم يسبق لها مثيل. و

٢. التزايد الهائل والمتساوي في النيران الدفاعية ، وعلى الاخص نيران الرشاشات «Machine gun».

لقد تغير الموقف التعبوي ثانية في الحرب العالمية الثانية . بسبب الاستخدام الواسع جداً في الدبابات والطيران التعبوي . وتسببت ضخامة الجيوش ثانية في جعل نوع أو درجة من الدفاع الدائري (الطوق) لابد منه تقريباً ، لكن وخلال الوقفات ما بين القتالات الرئيسية فقط وعندما كانت الخطوط هادئة نسبياً .

الكتاب السادس ؛ الفصلين الثالث والعشرين – والرابع والعشرين ؛ ليس الفصل الثالث والعشرين الموجز سوى استطراد ، ولا يستحق الذكر الا بسبب الازدراء الثقيل الذي يبديه كلاوزفيتز من زملاءه المنظرين . والمصطلح الاستفزازي هنا هو «مفتاح المنطقة» ، والذي يدعوه بـ«التعويذة Incantation » ، كما انها تعني،

و«كما يبدو ، شيء غامض ، وفوق نطاق التفهم العادي ، وفي حاجة لشيء من سحر علم التنجيم » (ص ٦٣٩) مع ذلك هناك وكما اوضح مثالين كان المفهوم سبباً لبعض التحركات الخرقاء فيهما. و«المفتاح الحقيقي لبلاد العدو» كما يقول كلاوزفيتز « هو جيشه عادة» . رغم انه قبل ببعض التساهل في استخدام المصطلح بما يشير الى «منطقة ما ، يتوجب احتلالها قبل المخاطرة بالتقدم في ارض العدو» (ص٦٤٢) وهو يفضل تجاهل المفهوم كلياً .

يبحث الفصل الطويل التالي في معضلة الدفاع الاستراتيجي بالتحرك ضد جناح جيش غاز . وقدم الموضوع بعرض اخاذ في تناوله للحملة التي اشار إليها مبكراً، مسيرة نابليون الى موسكو عام ١٨١٢م ، اذ وبالاضافة الى مشاركة الكاتب الشخصية فيها ، فتلك الحملة تثير الاسئلة ذات العلاقة وباكثر اشكالها صراحة فكيف حدث ان تمكن نابليون من قيادة جيش ضخم جداً مسافة (٦٠٠) مَيل في ارض معادية ، متقدماً على جبهة ضيقة ، واثقاً من عدم تعرض خط مواصلاته لاية تهديدات جدية؟ ولم يتعرض ذلك الخط فعلاً ، على الاقل خلال تقدمه . ولم تكن القوات التي كلفها بواجب حماية مواصلاته خلال تقدمه كبيرة – وكما عرفنا في فصل سابق – بل كانت حتى أقل مما فقده من الفارين من الخدمة (راجع الفصل الثاني عشر الكتاب الخامس) .

يبدو ان كلاوزفيتز نفسه يواجه بعض الصعوبة في توضيح الامر على الارض ناهيك عن الاعتماد على التجربة . وحتى عند تقديمه لمثال يحاول فيه جيش متفوق ، تنفيذ عملية احاطة جناح عدوه فيقول «سيبدو أن الاخير قد تعرض لضغط شديد لحماية مؤخرته . وهذا صحيح تماماً فقط لو كانت الحرب مما يمكن التنبؤ بها في الحياة الحقيقية كما هو الامر في الكتب»(ص ٦٤٥)[1] ، حسناً من الواضح انها ليست كذلك ، لكن وفي هذا الموضوع بالذات لماذا لا ؟

اولاً وقبل كل شيء ، انه يخبرنا بأن «القوات التي ترسل للعمل ضد أجنحة ومؤخرات العدو لن تكون متيسرة لاستخدامها ضد جبهته»(ص ٦٤٣) اما في الحالات الاعتيادية ، وحيث لا يتمتع المدافع بالتفوق ، كما كان حال (كوتزوف) وهو يتراجع امام نابليون ، فهذا أمر حاسم . كذلك فالانقضاض على مواصلات

---

(١) من السهل ان يلاحظ القارئ الفرق بين النص وبين ما استشهد به برودي هنا – المترجم .

العدو ليس انجازاً معزولاً . فما الذي هناك لضربه ، ولاي سبب؟ يضاف الى ذلك نقص الاستخبارات ، كما أن «المجموعة التي ارسلت حول جناح العدو للغارة على مؤخرته تشبه رجلاً في غرفة مظلمة وسط عصابة معادية »(ص ٦٤٦) .

يتعلق هذا بعدو يتقدم بقوة كبيرة . ومع ذلك فعندما يعاني ، اما من نقص الغرض او القدرة على التقدم أبعد من ذلك – كموقف نابليون عند وصوله موسكو فسيتغير الموقف .

«فلو منع العدو من متابعة تقدمه بشيء اخر عدى دفاعنا نحن – وبغض النظر عما هو ذلك الشيء – فليس لنا ان نخشى بعد احتمال اضعاف قوتنا بما قد نخرجه منها من مفارز قوية . وحتى لو أمل العدو احراجنا وتكبيدنا بعض الخسائر بشنه لهجوم ما ، فبوسعنا وببساطة التخلي عندها عن بعض الارض ، او التخلي عن المعركة»(ص ٦٤٩) كما فعل الجيش الروسي الرئيسي امام موسكو .

يميز كلاوزفيتز بشدة بين التدخل في مواصلات العدو ، والذي يعني في معظم الاحوال قوة صغيرة أو رتلا إدارياً ، وقطع خط إنسحابه . والامر الاول لا يعني الكثير ان كان العدو يتقدم بقوة كبيرة . وكذلك الحال مع الامر الاخير إن لم يكن العدو ينوي الانسحاب. اما اذا كان عليه التفكير جدياً في الانسحاب او انه بدأ التهيؤ فعلاً لذلك فسيتغير الموقف بشكل جذري . عندها قد يؤدي الخوف من العزل، وتهويل ذلك بالهجمات المتوالية وحرمانه من مواد التموين الى بث الذعر والانهيار .

وهكذا فالعمليات التي يشنها المدافع ضد اجنحة العدو اكثر فائدة قرب نهاية الحملة « وعندما يستنفذ المهاجم قوته » (ص ٦٥٢) وبالترابط مع عمليات الانصار (أو ما يدعوه كلاوزفيتز) « الترابط مع العصيان المسلح Armed Insurrection – الفقرة (٤) الفصل ٢٤» . ولن يضطر الجيش الى اخراج هؤلاء الانصار من الجيش، فهم ليسوا منه .

قد يتساءل المرء حول التغيير الذي حدث اليوم، فمعظم الهجمات تشن اليوم على مؤخرات العدو اما جوا، أو بقوات الانصار في بعض الحالات، وصحيح كذلك بان « التجريد Interdictions » هذا وما لم ينفذ بالتنسيق مع فعاليات رئيسية على جبهة القتال فلن تحقق هجمات «التحريم interdictions» سوى القليل. تعمل القوات البرية التي تتقدم اليوم وفق ذلك عادة وعلى جبهة اوسع مما كانت عليه ايام كلاوزفيتز، لذا لابد ان تشن الهجمات على الاجنحة والمؤخرات بقوات تختلف عن تلك التي تدفعها القوات المتقدمة امامها، كما كان الحال في تقدم حامية باريس عام ١٩١٤م

بقيادة الجنرال جاليني[1] ، والانزال الامريكي بقيادة الجنرال ماك ارثر عام (١٩٥٠م) على ساحل (انشون)[2] على البحر الاصفر غرب عاصمة كوريا الجنوبية (سيئول) ،

---

(١) الجنرال جاليني . معركة المارن (٥-١٠/٩/١٩١٤) تضمنت خطة القائد العام الجنرال جوفر للهجوم المقابل، هجوم الجيش السادس (الجنرال ما نوري) شرقاً باتجاه (شاتوثيري) والقوة البريطانية (BEF) باتجاه (مونت ميريال) شرق باريس ، على ان يتهيء الجيش الخامس وباسناده الجيش التاسع للتحرك بنفس الاتجاه . اما الجيش الرابع فعليه البقاء في مواضعه مع التهيوء للتقدم . اما الجيش الثالث فواجبه الهجوم من (فردان) غرباً . عين يوم ٦/ايلول كيوم (ي – D-Day) ، كان مصير فرنسا متوقف على نجاح خطة التطويق هذه . وكان الجيش السادس وقتياً تحت قيادة الجنرال جوزيف جاليني الحاكم العسكري لمنطقة باريس وهو معروف بحيويته واقدامه وتحرك يوم (٧) لتنفيذ اوامر جوفر متجهاً نحو نهر (ارك) مستهدفاً الجناح الايمن للالمان المفتوح دون حماية ، وكاد جاليني ينجح بعملية التطويق لولا تنبه قائد الفيلق الالماني هناك ،الجنرال كروناو الذي انقذ جيش الجنرال كلوك من التطويق . ومع أن معركة (المارن) لم تكن حاسمة الا انها كانت اشهر واقوى معارك الغرب بعد واترلو ، وكان نجاح الالمان فيها سيغير تاريخ القرن العشرين . خسر الطرفان نصف مليون لكل منهما ما بين قتيل وجريح واسير ويعزى فشل خطة جوفر الى كونها غير واقعية لا في المفهوم ولا في التنفيذ (موسوعة التاريخ العسكري ص ٩٣٨ – ٩٣٩) المترجم .

(٢) انزال انشون بقيادة الجنرال ماك ارثر / ١٩٥٠ في كوريا الجنوبية .

أ. نبذة تاريخية . كانت اليابان قد ضمت كوريا ومنشوريا إليها بعد حربها مع روسيا عام ١٩٠٤ ، وبعد استسلام اليابان (١٠/اب/٤٥) تقرر ان تستسلم القوات اليابانية شمال خط ٣٨° الى الاتحاد السوفيتي والى الامريكين جنوبه فتكرس ظهور جمهوريتا كوريا الشمالية والجنوبية . وفي ١٩٥٠/٦/٢٥ ، شنت القوات الشمالية بقيادة الماريشال (شوي يونك كان) هجوماً لضم كوريا الجنوبية اليها بعد ان ادعت انها تدافع ضد هجوم جنوبي . عقد مجلس الامن اجتماعاً طارئاً غابت عنه روسيا فأستغلت الولايات المتحدة والغرب فرصة غياب الفيتو الروسي واستصدرت قراراً بـ (اولاً) انهاء الحرب فوراً . (ثانياً) انسحاب الشماليين (ثالثاً) دعوة اعضاء الامم المتحدة للمساعدة في صد العدوان . كما اصدر الرئيس الامريكي ترومان اوامره الى الجنرال ماك ارثر قائد القوات الامريكية في الشرق الاقصى باسناد الجنوبيين جواً وبحراً فبدأت القوات الامريكية بالوصول بدفعات الى مسرح العمليات ، ونجح الجيش الامريكي الثامن بقيادة الجنرال (والكر) في احتلال رأس جسر في منطقة (بوسان) على السواحل الجنوبية واسس قاعدة فيها للتوسع شمالاً .

ب. الانزال في انشون (١٥-٢٥/ايلول/١٩٥٠) . بدأ الفيلق العاشر (فل ١٠) بقيادة الجنرال الموند ، الانزال في سواحل انشون الصعبة وغير الصالحة للعمليات البرمائية على الساحل الغربي لكوريا الجنوبية غرب العاصمة سيئول . كانت المباغتة كاملة رغم القصف التمهيدي للمنطقة ليومين قبل الانزال والذي حذر الشماليين بعدم وصول العاصمة سيئول . نجحت فرقة المارينز الاولى بالتقدم بوجه مقاومة خفيفة واحتلت مطار (كيمبو). بعدها جرى انزال فرقة المشاة السابعة (فق مش ٧) وطوقت سيئول حتى تحريرها يوم ٢٦/ايلول/١٩٥٠ .

جـ. تعليق موسوعة التاريخ العسكري . يعتبر انزال انشون من اكبر الضربات الاستراتيجية في التاريخ من حيث المفهوم والتنفيذ والنتائج . لقد كان انتصار ماك ارثر تاماً نتيجة لاصراره على خطته رغم شكوك هيئة الاركان المشتركة ، ويعزى نجاح الانزال الى :

اولاً : كفاءة النقل المائي الامريكي .

ثانيا : الضغط الشديد للجيش الثامن ومشاغلته لقوات كورية شمالية كبيرة .

ثالثاً : التوقيت الجيد باستغلال ساعات المد الملائمة للصولة وهي (٦) ساعات من كل (٢٤) ساعة . (موسوعة التاريخ العسكري ص ٨٦٤ ، ٩٢٠ ، (١٢٠٨-١٢١٢) – المترجم .

الا ان هذين المثالين وغيرهما من الحالات النادرة .

عندما غزا الالمان بقيادة هتلر ، الاتحاد السوفيتي في حزيران / ١٩٤١ ، كان من الواضح انهم درسوا حملة نابليون والمأساة التي انتهت اليها عام ١٨١٢م ، لذا هاجم الالمان هذه المرة بقوات كبيرة وعلى جبهة واسعة ، وكانت مفاجئة الجيش الاحمر كاملة ، وقد قبل هذا معركة عند الحدود تكبد فيها خسائراً فادحة مع اعداد كبيرة من الاسرى . لقد فرض الالمان قيوداً صارمة بالاضافة إلى القسوة الشديدة ضد السكان في الاراضي التي احتلوها أملين من وراء ذلك القهر ، الحد من نشاط الانصار ضد خطوط مواصلاتهم ، رغم ان العملية كانت باهظة التكاليف للالمان ولم تختلف نتيجتها عن الاندحار الذي لحق نابليون .

الا ان ذلك استغرق ثلاث سنوات بدلاً من بضعة اشهر . وما عدى بعض عمليات التطويق المحلية لم تتعرض مؤخرة الالمان الى تهديد خطير .

ينبغي للاختراق الذي أنجزه الجيش الالماني على جبهة ضيقة ضد الفرنسيين المواجهين لغاية الاردين في مايس ١٩٤٠ ، ينبغي أن يبرهن مبدأياً الوهن ضد هجوم على الجناح ، الا ان الجيش الفرنسي كان يعاني من نقص في قابلية الحركة ، والاكثر من ذلك فقدان الروح القتالية لفعل مضاد من الناحية الاخرى ، وعندما فعل الالمان نفس الشيء وفي نفس القاطع تقريباً ضد الامريكيين في ديسمبر / ١٩٤٤ — بما عرف بمعركة بولج — كان لدى البريطانيين والامريكيين القوة الكافية لضربة حاسمة ضد عمق جناحي الالمان ، ولقد تضخمت هذه القوة بعد تحسن الاحوال الجوية اخيراً ، بهجمات جوية شديدة للغاية . لقد أثبت انهيار التعرض الالماني ان اهدافه كانت أكبر بكثير مما لديهم من وسائل .

الكتاب السادس . الفصل الخامس والعشرون . في هذا الفصل الهام عن «الانسحاب الى داخل البلاد » يحلل كلاوزفيتز وباسلوب عام نوعا ما حملة الدفاع الروسية عام ١٨١٢ ، التي استمد منها معظم تصوراته . إتخذ الدفاع الروسي ، ودون خطة مسبقة ، الشكل الذي «يدحر العدو بجهده هو، اكثر مما بسيف المدافع[1]» (ص ٥٣٤). وتتحقق هذه المنفعة من حقيقة أن قوى المهاجم تتضاءل

(١) مع بعض الاختلاف عن النص في ص ٣٨٤ من النص الانكليزي — المترجم .

باستمرار خلال تقدمه ، شريطة مواصلة المدافع للأنسحاب الذي يغري ويجبر على دفع ذلك التقدم عميقاً . من المهم جداً أن لا يتم إنسحاب المدافع بعد معركة خاسرة، إذ يحتمل عندها أن يكلفه الانسحاب اكثر مما يكلف الغازي ، وهذا يعني عدم قبول المعركة اعتباطاً وبجهد مبتسر . لقد تجنب الروس إرتكاب هذا الخطأ لا رجماً بالغيب بل لتفوق الفرنسيين الساحق في بداية تقدمهم .

تستولي القوات المنسحبة على مذخرات التموين المحلية المتيسرة اثناء تنقلها ، كما تستخدم الجسور الا انها تدمرها بعد مرورها ،منفذة ما يعرف عموماً بسياسة الارض المحروقة «Scorch earth» ثم واعتماداً على الفروق الاساسية في القوة وفي مختلف العوامل الاخرى، بوسع المدافع نهائياً الاستعداد للمعركة مع فرص أفضل لربحها ؛ ذلك لانه «في الحقيقة ، قد تصل حالة المهاجم في نهاية شوطه وغالباً حداً يجبره فيه حتى **الانتصار** على الانسحاب » (ص ٦٥٧). اذا كان قد استنفذ الاحتياط، الذي لم يعد قادراً على تعويضه [1].

هناك نوعان من الاخفاق في هذا النوع من الدفاع . **الأول** ويشمل خسارة منطقة للمهاجم ، ويعتمد ذلك على درجة غنى واهمية سكان المنطقة التي إحتلها . ومع ذلك فالنقطة الاساسية هي «لا يمكن ان يستهدف الدفاع حماية البلاد من الضياع ، ويجب ان يكون الهدف سلاما مرضياً»(ص ٦٥٧). اما **الثاني** وهو الاخفاق الاكثر أهمية (خطورة) عادة فهو معنوي . لا يتوقع الجيش والشعب عادة ان يخبرا عن «الفرق بين انسحاب مدبر (منظم) وآخر قسري وسط فوض وارتباك عظيمين ، رغم انهما قد لا يريان في خطة ما للأنسحاب أية حكمة او جدوى، وفقاً لما تؤدي إليه من فوائد ايجابيـة ، او لانها اتخـذت بسبب الخـوف من العـدو»(ص ٦٥٨). ثم هناك اعتبارات لا مناص منها كالشرف والاعتزاز الوطني، والتي تتطلب «ان العدو الذي يتعدى حدود البـلاد سيـدفع ثمـن ذلـك بالـدم»(ص ٦٥٨).

---

(١) العبارة التي تلي المقتبس «بين القوسين » هي ايضاً له وان كان ذلك في المعنى ، فقد حور فيها الاستاذ برودي عن نصها الاصلي مع ان العبارة كانت اكثر ايضاحاً وكما جاءت في الفصل (٢٥) ، اذ توضح المقتبس بشكل افضل فقد ورد في النص « اذ قد لا يتيسر له احتياط كاف لمتابعة واستثمار انتصاره وتحقيق الكثير من خلاله ، كما قد يعجز عن تعويض خسائره ؛ ومع ان موقفاً كهذا نادر الحدوث جداً (كما فعل فردريك الكبير في معركة (سور عام ١٧٤٥) الا إنها تمثل احدى الحالات التي يصل فيها الجهد حده الاقصى . وهي ليست المرة الوحيدة التي يستخدم فيها (برودي) عبارات كلاوزفيتز مع بعض التحوير ودون اشارة – المترجم.

يتطلب غزو بلد كبير لا مجرد تفوق عددي على المدافع ، بل توفر قوة مطلقة في تفوقها «بوسع قائد ما المسير الى موسكو بـ(٥٠٠) الف رجل ، ولكنه لا يستطيع ذلك ابداً بـ(٥٠) الف رجل فقط»(ص ٦٦٠) وسيزيد ذلك من تأثير الانهاك الذي سيفرضه المسير الطويل على الغازي . وكلما ازداد ثقل الحشود المتنقلة كلما ازداد التنقل بطأ وهكذا تزداد بالتالي فرص التغلب على الجيش المنسحب وتدميره ؛ وتتزايد معضلات التموين والايواء (المبيت) وتتصاعد نسبة الخسائر بعد كل مسافة محددة يتم قطعها .

بحث كلاوزفيتز كذلك ومطولاً في الدرجة التي بوسع الجيش المنسحب القرار منها على إتجاه مناورة الغازي ، لانها بذاتها اغراء (طعم) وتهديد، وتعتمد فرصة المدافع في تحديد ذلك اكثر واكثر على الظروف المحيطة .

ما مدى الاختلاف في الموقف هذه الايام عما كان عليه في الوقت الذي يصفه كلاوزفيتز في ملاحظاته عام ١٨١٢م؟. ما من شك في ان الدبابات والمدافع والعجلات الالية من كل الانواع قد احدثت فرقاً هائلاً خصوصاً في سرعة إختراق قوة هاجمة ، كذلك هناك تأثير الطائرة والمواصلات اللاسلكية . لكن هناك اثمان مكافأة في متطلبات التموين الهائلة ، خصوصاً في الوقود السائل الذي تعتمد عليه كل العجلات المتحركة . والتعارض كبير وواضح بين التنقل المضني للجيش الالماني في اب /١٩١٤ في جهده الفاشل لتنفيذ خطة شليفن وبين الاختراق العنيف والناجح تماماً ضد فرنسا في ربيع ١٩٤٠ ، الا ان الهجوم الواسع النطاق ضد روسيا بعد عام من ذلك فشل كلياً، وكما رأينا وبغض النظر عما لاح من امارات النجاح الالماني في البداية والذي تسبب بخسائر روسية مفجعة . اصبح الجيش الالماني في نوفمبر / ١٩٤١ يمتد عميقاً في روسيا على جبهة واسعة ، الا انه كان في ظروف بالغة التعاسة والمعاناة في نهاية خط امداده ، بينما استدعى الروس قوات جديدة ونشطة من سيبيريا وبدأوا تحقيق نجاحات محلية . شن الالمان في الصيف التالي هجوماً قوياً جديداً ، خصوصاً في الجنوب ، الا انهم ورغم ما عاناه الروس وحلفائهم الغربيين من جراء ذلك لبضعة شهور فقد فشل الالمان في تحقيق أهدافهم الرئيسية . وقبيل نهاية عام ١٩٤٢ كان جيشهم السادس قد تم تطويقه في ستالينغراد وحلت المأساة . كان كلاوزفيتز سيؤخذ دهشة بما حدث في ١٩٤١-٤٤ ، ونطاقه الذي ما كان سيحلم به، مع أن بوسع الروس القيام بافضل واكثر من ذلك لانفسهم باتباع تعاليمه وما

تضمنته ضد الدفاعات الحصينة عند الحدود . يمكن إجمال دروس اخرى مماثلة في مناطق أخرى في تلك الحروب التي اتسعت في أقصى الشرق ، وفي نطاق أضيق في الحرب الكورية ـ ١٩٥٠-٥٣) ، ومرة اخرى في حرب فيتنام .

ينبغي كذلك ملاحظة أن الكثير مما يفترض أنه يشكل شيئاً متميزاً وأصيلاً لماو تسي - تونك عن «الحرب المؤجلة» هو في الحقيقة استغلال لنهج تطبيق دفاع استراتيجي كالذي اوضحه كلاوزفيتز. في الحقيقة قد تكون (لماو) افكاره الخاصة ، التي مكنته من دحر قوات اكثر عدداً بكثير ومتفوقة كثيراً في معداتها لشان كاي - شيك ، من دراسته للأستراتيجي الصيني القديم (سان تسو) - الذي لديه الكثير مما يمكن تعلمه حقاً - اكثر مما لدى كلاوزفيتز . او لعل (ماو) قد طور افكاره ببساطة مستندا على احساسه وادراكه القويين . اذ لا يتطلب امر تفهم استخدام وقوة الدفاع الاستراتيجي في ظروف ملائمة ، قدر كبير من التفهم الاستراتيجي . بل وعلى العكس لا يتطلب ذلك الا لنوع معاكس من التعليم، يهزأ بالنظريات الدفاعية الاساسية .

الكتاب السادس . الفصل السادس والعشرون ؛ « الشعب المسلح» يعالج كلاوزفيتز هنا ظاهرة جديدة على اوربا في ايامه - نتيجة لحروب نابليون اكثر منها للثورة الفرنسية . وهو لا يأبه بمخاوف معاصريه من تصاعد نشاط الانصار اذ لا علاقة لذلك باغراضه هو ، ونشاط الانصار هذا «فوضى قانونية ... اكثر تهديداً للنظام الاجتماعي للبلاد منها للعدو»(ص ٦٦٩) الا انه اهتم بقيمتها العسكرية .

فالمقاومة المنتشرة والمتعددة لمجموعات العصابات ، بحد ذاتها «لا تلزم نفسها باعمال رئيسية ، تعرضها لضغوط شديدة في الوقت والمسافة»(ص ٦٧٠). مع ذلك واذا اخذنا بنظر الاعتبار الوقت الكافي لها ، وانكشاف العدو الواسع امامها وكل ذلك لمصلحتها هي في «استنزاف المقومات الاساسية في جيش العدو»(ص٦٧٠) الا أن العصيان بحد ذاته لا يفعل الكثير لكن وضمن اطر الحرب التي تدار من قبل جيش نظامي ، سيكون تأثيره حاسماً .

يضع كلاوزفيتز بعدها خمسة شروط يمكن ان يكون العصيان العام مؤثراً معها، وهي معاً تصف شروط وظروف حرب شبه الجزيرة (اسبانيا)، التي ولسبب ما لم يذكرها . ورغم حداثة هذا النوع من الحرب في ايامه وبالتالي قلة التجارب والخبرات فيه ، فقد إستطاع كلاوزفيتز تحديد سماته وحدود متطلباته «ليس مهماً

دحر وتشتيت قوة عصابات – فهذا هو ما أعدت له – على ان لا يتم ذلك الاندحار عبر موت أو أسر الكثير من الرجال أو اصابتهم بجراح ، اذ سرعان ما يؤدي اندحار كهذا الى اخماد روح الحماس»(ص ٦٧٤) . مع ذلك يعترف بانه إنما يتلمس طريقه الى الحقيقة . هذا نوع جديد من الحرب و«الذي كانوا قادرين على متابعته لبعض الوقت لم يتناولوه فيما كتبوا بشكل وافٍ»(ص ٦٧٤) ويوضح هذا البيان الاخير ان الهياج الشعبي لم يلعب الا دوراً ضئيلاً ، هذا إن كان له شيء ما، في الحملات التي تمعن وشارك فيها بنفسه ، بما فيها تلك التي في روسيا عام ١٨١٢م والتي كانت ومن بين اشياء اخرى محدودة جداً.

يقترب الكاتب في نهاية الفصل من موضوع جديد ، ولو انه كان قد علق مناقشته له، وهو استدعاء الحرس الوطني بعد خسارة معركة حاسمة «وحتى بعد الاندحار» يقول كلاوزفيتز «هناك وعلى الدوام امكانية لانقلاب في الحظ بفعل تطوير واستغلال موارد جديدة للقوى الداخلية ، او من خلال المعاناة الطبيعية والمتالية التي تقاسيها كل الاعمال التعرضية على المدى البعيد ، او بفعل مساعدات خارجية . فهناك وعلى الدوام وقت كاف للموت» ومن ثم يقول في الاخير«بغض النظر عن صغر حجم وضعف الدولة مقارنة باعدائها ، فعليها ان لا تدع أو تتجاهل تلك الجهود والمساعي الاخيرة، والا فبوسع المرء الاستنتاج بان روحها قد ماتت»(ص ٦٧٥). يتذكر المرء في حالة كهذه الاراضي المنخفضة وبلجيكا والنرويج في الحرب العالمية الثانية وفي امثلة معاكسة كفرنسا التي ربما استسلمت بسهولة كبيرة. كما يفكر المرء ايضاً في فرنسا عامي ١٨٧٠ – ٧١م التي وبعد اندحارها الحاسم في معركة سيدان بعد ستة اسابيع من نشوب الحرب الا انها مع ذلك واصلت القتال ، ويعود معظم ذلك الى تصاعد (تسارع الحشود Levees en masse» حتى استسلام باريس بعد خمسة أشهر تقريباً . العزم عندما تكون المقاومة البائسة هي الحكمة الاخيرة او وعلى العكس مجرد تضحية لا معنى لها بالحياة . هو قضية لم تغطى بصيغة او وصفة وهمية – حتى ولا من قبل كلاوزفيتز .

الكتاب السادس ؛ الفصول السابع والعشرون – الثلاثون ؛ في هذا القسم الطويل وحيث تعالج اربع فصول منه موضوعاً هاماً منفرداً ، الدفاع عن مسرح العمليات ، وان لم يكن كلاوزفيتز خلالها في احسن حالاته . ويعود ذلك في جزء منه الى طريقته في الكتابة ، والتي تغوص أحياناً في تجريدات غامضة، وفي الحشو

والاستطراد احياناً ، الا ان المهم هو أنه توصل الى موضوعاته الرئيسية في فصول سابقة ، ولم يدع لهذه الفصول سوى بعض النقاط التي تستحق كذلك أن تبحث .

إبتداءً يعيد صياغة ما كان ارساه للتو – أي أن من المهم دائماً المحافظة على قواتنا المسلحة وتدمير قوات العدو ، بدلاً من احتلال الارض . رغم أن فقدان الارض سيضعف من قدراتنا على المدى البعيد ، الا ان ذلك لا يحدث عادة «خلال المرحلة الحاسمة من الحرب »(ص ٦٧٨) . مع ذلك فقوات العدو لن تعرض نفسها دائماً بطريقة يسهل معها توجيه ضربة حاسمة منفردة لها . فمن ناحية قد يمثل الغزاة تحالفاً معادياً ينفذ عملياته من اتجاهات مختلفة . وهي فرصة مناسبة للمدافع للتفكير بحشد قواته ومهاجمة القوات المعادية واحدة بعد اخرى ، الا ان ذلك ليس بالامر المضمون التحقق باستمرار . فقد يضطر المرء احياناً الى تجزأة قواته. وهناك معضلات اخرى ، حتى عندما لا يكون العدو مجموعة بل منفرداً . وعلى سبيل المثال فقد لا يختار التقدم بالطريقة المثالية التي يريدها المدافع ، اي ، متجهاً نحو المواضع التي أحسن هذا اعدادها مفضلاً تخطي تلك المواضع ومتجهاً نحو اهداف اخرى . أو قد يعمل وبطرق أخرى على إجبار المدافع على القيام بهجمات تعبوية بغض النظر عن تفضيل هذا خوض معركة دفاعية .

لقد ذهب كلاوزفيتز باسلوب غير متميز خلافاً لعادته للخوض في قائمة طويلة من الامكانيات عارضا بعض الاقتراحات، لكل منها، وحول طريقة التعامل معها.

انه يستعرض هنا رفضه بان يدع وضع احكامه في صياغات مهما كانت جديرة بذلك ، فقد تظل مجرد مقترحات . ولسوء الحظ كانت امثلته التاريخية والتي غالباً ما يختارها من حملات فردريك الكبير ، عاجزة عن مساعدته في اضفاء شيء من الحيوية على النقاط التي يعرضها على القارئ المعاصر . لقد رأينا في العصر الحديث عدداً من الامثلة التي يضطر القائد العام فيها لرفض حلول مثالية وبسيطة من اجل تأمين الحماية للاراضي . وعلى سبيل المثال فقد تعرض مولتكة الصغير الى انتقاد عام بـ (افساد) خطة شليفن من خلال تقوية الجزء الجنوبي من الخط المواجه لفرنسا، وكذلك لاتخاذه خطوات حمايوية ضد اختراق عميق جداً لبروسيا الشرقية من قبل الروس. الا ان قراراته لم تكن طائشة ، وعلى المرء تفحصها بدقة وبتفصيل على ضوء الظروف التي كانت سائدة في حينه قبل القرار على تخطأته . وذلك هو مقترب

كلاوزفيتز على الاقل. وكشيء مشابه في الحرب العالمية الثانية فقد قرر كل من روزفلت وشرشل وكانا على صواب في ذلك ، بعد الهجوم الياباني على (بيرل هاربر) أن عليهما العمل معاً وحشد جهودهما لدحر المانيا اولاً ، دون أن يعني ذلك السماح لليابان بمواصلة التقدم في المحيط الهادي وفي شرق وجنوب شرق اسيا دون صد . قد يقدم مبدأ او صيغة «حشد القوى» الحل المثالي ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون ملائماً أو صحيحاً بشكل أو آخر.

الكتاب السابع
الهجوم

الكتاب السابع، الفصول الاول – السابع : لمعظم هذه الفصول صياغة اوليه مؤقته. ولا يعود ذلك الى بعض الايجاز الذي سادها، فقد بدت بعض الفصول الموجزة في الكتب الاخرى وقد احسن اعدادها، وكذلك الفصل الاول من الكتاب الحالي (السابع)، وان كان في الحقيقه اكثرها ايجازاً ايضاً، والذي قال في فقرتيه كلما كان في حاجة لقوله حول التحول من الكتاب السابق الى الكتاب الحالي. لكن، وعدى عن عدم كفاية شروح وعرض بعض الافكار، سيلاحظ القارىء الطريقة الشديدة الايجاز في تصوير حملات لم ترد الا في نهاية الفصل الرابع وفي الفصل السابع، وبطبيعة الحال في الهامش الذي اضافته زوجته ماريا فون كلاوزفيتز في نهاية الفصل الخامس والتي اوضحت ما لم يكن سيلفت النظر. ونذكر هنا ما اورده في «ملاحظة» عام ١٨٢٧ التي اشار فيها الكاتب الى فصول هذا الكتاب «كمسودات» لا اكثر.

يلاحظ الكاتب ان الكثير مما كان سيقوله عن الهجوم هنا، قد سبق له قوله، صراحة او ضمناً في الكتاب السابق عن الدفاع والا كان اورده هنا. مع ذلك هناك علامات واشياء خاصه بالهجوم قد لا ينجم بعضها عن الدفاع مباشرة. وكواحد منها، نذكر ان الهجوم المقابل **شيء متأصل**، ضمن او كجزء من الدفاع، الا ان اندفاع الهجوم شيء خاص بذاته. ورغم ان الحاجة الى الدفاع تفرض نفسها عنوة على الهجوم، ولكن فقط «**كشر لا بد منه**».(ص ٧٢٢) **اولاً**، لضرورة تقطع الاندفاع الهجومي بفترات للراحة، وحيث يسود الدفاع خلالها طوعياً، **والثاني**، لان المنطقة المتروكة خلف القوات المتقدمة لن تكون بالضرورة محمية بالهجوم، وقد تحتاج الى حماية خاصة. الخلاصة إن الدفاع عبء يهدد الهجوم «انه خطيئته الاصلية، ومرضه المميت». (ص ٧٣٢)

الفصل الرابع، «تناقص قوة الهجوم» الذي تمت تغطيته في الكتاب السابق. رغم ان المؤلف يعرض هنا قائمه بسبعة طرق يمكن من خلالها تناقص القوة الكلية للغازي. اما الفصل الخامس **«نقطة ذروة الهجوم»** فمجرد عرض للموضوع الذي سيناقش بعمق كبير فيما بعد. الفصل السادس **«تدمير القوات المعادية»** ورغم انه موجز

وغير نهائي، الا إنه يعرض بعض الاراء الجديدة والهامة معاً. وبعد اعادة لازمته المحببة بان تدمير القوات المعاديه هو الهدف العسكري، يثير كلاوزفيتز سؤالاً هو: ما الذي نعنيه بـ «تدمير قوات العدو»؟. وباي ثمن؟. لا تبدو هذه الاسئلة مثيرة حتى يتذكر المرء أن القليل ممن كتبوا في الاستراتيجية فكروا بطرحها، ناهيك عن محاولة الاجابة عليها. يذكر كلاوزفيتز اربعة طرق غير مألوفة تماماً ويستطيع المرء منها البحث في موضوع «تدمير القوات المعادية» ويورد بعدها بعض الطرق غير المباشره لانجاز هذا الهدف، كاحتلال قاطع من ارض او قلعة معاديتين. ويقر بان هذه الطرق غير المباشرة قد بولغ في تقديرها، وان ما يغري بذكرها هو فقط قلة تكلفتها، الا انه يضيف بعد ذلك وبكل اهتمام بانها «كما يدو مرغوب فيها اكثر من المعارك اللاهادفة» (ص٧٣٨). ويعني بـ «اللاهادفة» وبوضوح معاركاً غير حاسمه الا انها باهظة الثمن. فما هو اكثر وضوحاً من الحاجة للتمعن في الثمن عند متابعة تحقيق مكسب، سواء كان هذا استراتيجياً او غيره؟ مع ان استعداده الدائم للقيام بذلك ليس اقل الخصائص التي تميز كلاوزفيتز عملياً عن كافة الكتاب الاخرين في هذا المجال.

الفصل السابع، «المعركة التعرضية» يقدم لنا هذا الفصل نقطة واحدة جديدة ومفيدة حقاً – انها «السمة الغريبه لمعظم المعارك التعرضية. هي الشك حول موضع العدو» (ص ٧٤٠) الامر الذي يجعل من الضروري جداً أن يحشد الواحد قواته. ولهذا السبب يلح في محاولته احاطة جناح العدو لا تطويقه. ويترك ذلك الكثير مما لم يقال حول امكانية احاطة جناح العدو الذي لم يكمل موضعه بعد، والذي يفترض اتخاذ ما يكفي من التحوطات ضد حركة كهذه، وذلك يؤكد لنا على الاقل عدم قبول كلاوزفيتز بالهجوم الجبهوي.

الكتاب السابع الفصول الثامن – العشرون: لهجة هذه الفصول اقل هشاشة نوعما ولكنها ما زالت عجلة، وما زالت مثقلة بشعور الكاتب بان هذا الكتاب (السابع) ومهما كان ليس سوى الوجه الاخر للكتاب السابق، ومعظم ما يتوجب قوله تحت عناوين مختلف الفصول التي تحمل عنوان الهجوم قد تم قوله في الفصول المقابلة وذات العلاقة في الدفاع. ومع ذلك وكي يتجنب تكرار نفسه دون معنى، بدى وكانه اقل اهتماماً وأقل انسجاماً احياناً.

وهكذا ففي الفصل الثامن «عبور النهر»، قد يفكر القارىء بان كلاوزفيتز قد نسي تقليله السابق من قيمة النهر في الدفاع الاستراتيجي. وتنص جملته الاولى على «يشكل النهر الكبير الذي يتقاطع مع خط الهجوم، معضلة كبيرة للمهاجم»

(ص٧٤٢). ومع ذلك فهذا التعارض سطحي. وهو يتحدث عند هذه النقطه عن المستوى التعبوي اكثر مما عن المستوى الاستراتيجي، ويتذكر القارىء ان كلاوزفيتز لا يهتم دائماً بايضاح إلى اي مستوى من هذين يتوجه في لحظة ما. ثم قال بعد ذلك بان النهر المدافع عنه يعد في صالح المهاجم «اذا ارتكب المدافع خطأ تركيز كل مشروعه على هذا الدفاع»(ص ٧٤٣) لذا فليس هناك الكثير من التعارض بعد كل شيء. كذلك يتحدث كلاوزفيتز ثانية، ولو بشكل ملتو نوعا ما، وكانه يطرح بعض المعايير المنطقية او النسب المنسجمة. وهكذا ورغم أن «عبور نهر كهذا نادراً ما يسبب مصاعب كبيرة»(ص ٧٤٤) يحتمل أن المهاجم لا «تنتابه الشكوك» حولها «ما لم يتعلق الامر بقرار هام».(ص ٧٤٤) لقد تحدث في الكتاب السابق عن عرض النهر وعن معدات العبور المتيسرة كعاملين مهمين للبحث فيهما، وهو يتحدث هنا كذلك عن الموضوع المطروح للبحث، والمتعدد الجوانب ثانية. والمرء لا يواجه مخاطر كبيرة لاجل نهايات متواضعه.

في الفصلين التاسع والعاشر يعبر الكاتب ثانية عن بغضه العميق لمهاجمة عدو قادر وفي موضع دفاعي قوي او في معسكر حصين. ليس لسبب واحد فقط، بل يقول «المئات، بل والالاف من الامثلة التي تظهر لنا بان الخنادق الحسنة الاعداد، والتي اشغلت بكفاءة، وأحسن الدفاع عنها **يجب اعتبارها عموما نقاطاً يصعب اختراقها»**.(ص ٧٤٦) ولا بد ان «الالاف» عددٌ مبالغٌ فيه بالتأكيد – وغير عادي بالنسبه لكلاوزفيتز – الا انه يوضح قوة مشاعره في امور كهذه. ثم ان ذلك يتم على ضوء الاسلحة المستخدمة في ايامه، بالبنادق التي تملأ من فوهتها مع بطاءة اعادة املائها! كان جنرالات الحرب العالمية الاولى سيستخدمون بعض تحذيراته.

الفصل الحادي عشر «هجوم في منطقة جبلية» وكالفصل الثامن، عبارة عن تكملة للفصل المشابه في الكتاب السادس، وليس هنا الا سبب أقل للحديث عن التعارض. كذلك **فالفصل الثاني عشر** موجز وسريع **«مهاجمة الخطوط»** الدفاعية، الا ان الفصل التالي، **«المناورة»** اكثر اهمية. فالطالب المعاصر يقرأ ويسمع الكثير عن جيوش القرن الثامن عشر (واساطيله) وهي تناور أمام بعضها البعض – اذ كان التناور بديل هام، او مؤجل للقتال – وليس بوسع الطالب تقديم شيء ما، بل يشده العجب حول ما يدور كل ذلك لاجله. انها وباوسع مقياس نتاج ثانوي (By-Product) للأسلحة القصيرة المدى جداً المستخدمة، لذا كانت القوى المتقاتلة على مرأى بعضها البعض رغم انها لم تشتبك بمعركة بعد. فالاشتباك يتطلب رغبة هذا الجانب او ذاك

بالهجوم، فقد ينتظر بعض الفوائد الواضحة. وهكذا ففي عام ١٨١٢ ظل كل من ويللنكتون والماريشال مارمونت امام (سلامانكا) – في اسبانيا – يناوران طوال ثلاثة اسابيع امام بعضهما قبل أن يرى ويللنكتون الفرصة المؤاتيه له للهجوم. ستناور القوات الحديثة كذلك بحثاً عن فائدة أو فرصة مواتية، الا ان خصماً قريباً سيكون ضمن مدى النيران لذا سيطلق قذائفه ويستتر بعدها. يضع كلاوزفيتز خمسة اهداف للمناورة، لكنه يستنتج أخيراً صعوبة وضع قاعدة من أي نوع للحكم على قيمة العمل، عدى عن امتلاك نفس خصائص التفوق العسكري التي تقرر عموماً نتيجة المعركة.

الفصل الرابع عشر «الهجوم في المستنقعات والمناطق المغمورة والغابات» ولا يضيف عملياً أي شيء الى ما نوقش تحت نفس العنوان في الكتاب السابق. ويمكن قول نفس الشيء حول الفصلين التاليين والخاصين بالهجوم على مسرح الحرب، عدى عن عثورنا على تعليق هنا وآخر هناك يستحقان ملاحظة خاصة. وعلى سبيل المثال ففي الفصل الخامس عشر يشير الكاتب ثانية الى الفائدة التي يستنبطها الجيش من معرفة انها الى جانب المهاجم، بل انه حتى اكثر تحديداً ووضوحاً في تحديده الفائده بـ (متواضعة). وعادة «مبالغ فيها كثيراً» و «انها قصيرة عمر ولن تصمد أمام معضلة جدية».(ص ٧٥٧) لقد لاحظنا للتو (في الفصل الثالث الكتاب السادس) كيف يتعارض هذا الموقف مع موقف رجل خيالي مثل الماريشال فوش. هناك كذلك فقرة مرتبكة نوعاً ما حول ما اذا كان بوسع المهاجم أو ينبغي عليه تجزأة قوته عندما يسعى نحو قرار حاسم، والذي يبدو اولاً معارضا بعناد له ثم يغدو وبعد بضعة سطور موافقاً على قيام المهاجم بذلك في ظروف معينة، خصوصاً عندما تكون قوة الخصم مجزأة ايضاً. من المؤسف ان لم يكرس كلاوزفيتز فسحة اكبر لهذا الموضوع، الذي ما زال، بحاجة الى شيء من التبسيط. لقد علمنا ان الجيش الكبير في ايامه يتقدم دائماً على جبهة بعرض مسير يوم واحد على الاقل، لذا فان لم تنحرف خطوط المواصلات والانسحاب كثيراً عن الخط العمودي، فالجبهة نفسها عادة ستوفر كل الحماية الضرورية لتلك الخطوط – النقطة التي توضح وتكمل معاً المناقشة حول ذلك في الفصل الرابع والعشرين من الكتاب السادس. وما هو اكثر اهمية للعصر الحديث، ما ورد في الفقرة الاخيرة، ويخص ثانية حماية مؤخرة الهجوم «فان اعتبرت كل الاشياء الاخرى ثانوية وتابعة امام الضغط نحو حسم رئيسي [معركة][1] وشيك، فلن

(١) ما بين الحاصرة المستطيله [ ] شارحة للمترجم.

يظل للمدافع سوى مجال قليل للقيام بعمليات ثانوية [كالمشاغلة والتشتيت] لذا لن يتعرض المهاجم الى مخاطر جسيمة عادة. لكن وحال انتهاء التقدم وتحول المهاجم تدريجياً الى وضع دفاعي، ستعود قضية حماية المناطق الخلفية مهمة وملحة معاً» (ص ٧٦٠) وايا كانت الحملات التي كان كلاوزفيتز يفكر فيها وهو يخط هاتين العبارتين، فانهما تنطبقان وبنفس الدرجه على حملات الحرب العالمية الثانية.

الفصل السادس عشر مشوق لعرضه مواضيعاً – او لنقصها فيه – كانت تتعلق في ايامه بالاحتلال الوقتي لشريط من الارض أو لقلعة. قد يكون ذلك لاستخدامها كورقة رابحة في مؤتمر السلام، لكن قد يتم ذلك سعياً وراء انتصار أو مجد أو وراء الغنائم، «وحتى **لارضاء طموح وغرور القائد**» وتبدو احياناً وكأنها نوع من الملاكمة الوهمية «فالمهاجم، كشخص عليه في النهاية القيام بشيء ما» (ص ٧٦٢) مرة اخرى، الفرق بين ايامه وأيامنا في تلك الجوانب، هو في معظمه اختلاف في الدرجة.

الفصل الثامن عشر «مهاجمة القوافل (الارتال)» هو ايضاً تكملة ومساعد في ايضاح الغموض الذي أشرنا اليه عند مناقشة الفصل الرابع والعشرين من الكتاب السادس. تحمل الارتال مواد التموين الى جيش اخترق عميقاً في ارض معادية، وتكون هذه الارتال واهنة جداً، خصوصاً عندما نتذكر ان القوة المرافقة لها لا تؤمن سوى حماية ضئيلة. الا ان كلاوزفيتز يوضح بان الموقف الاستراتيجي عادة، وليس التعبوي هو الذي يحمي الارتال.

الفصل التاسع عشر؛ «مهاجمة جيش معادي في المأوى». الفصل قديم فات وقته بكامله لاسيما عند محاولة تطبيقه ضد قوات كبيرة، حتى في ايام كلاوزفيتز، ويتضح ذلك من كون المثال الوحيد على نجاح عملية كهذه جاء بها من جيل قديم. والغريب ان كلاوزفيتز خص موضوعاً كهذا بصفحات عديدة، والقليل نسبياً من الصفحات لموضوع الفصل التالي «التشتيت Diversion » وهو موضوع دائم ولا حدود على تطبيقه. فالتشتيت الناجح سيدفع بالعدو لاستخدام قوات اكثر للتعامل معه، وتفوق ما قرر استخدامه ابتداء، ويحقق بذلك مكسباً صافياً للهدف الرئيسي للعملية. مع ذلك، يسمح كلاوزفيتز بتوسيع مجال استخدام المصطلح ليشمل الهجمات التي تشن حيث لا يوجد جهد كبير في مكان آخر او لا يتوقع حدوث مثل ذلك، وفي جميع الاحوال ليس التشتيت مجرد مخادعة بسيطة، بل وعلى العكس فهو عبارة عن عملية ازعاج محدودة تشن على محيط او حافات القوة

المعادية بدلاً من هجوم يشن على قوة اكبر ويستهدف نتيجة حاسمة. ، ويمكن أن نعثر لكلا معني المصطلح على امثلة مناسبة من كل الحروب الكبرى، بما فيها الحرب العالمية الثانية بالتأكيد.

الكتاب السابع؛ الفصل الواحد والعشرون، يستحق هذا الفصل[1] التمعن فيه لذاته. إذ وبعد سلسلة من الفصول البالية، والمختصرة أو غير الكافية ولا المقنعة، نصل اخيراً الى فصل ذو اهمية اساسية كما انه الفصل الاخير في هذا الكتاب. وانه الفصل الذي ذكر كلاوزفيتز في وقت مبكر توقعه له، لان الموضوع المركزي الذي يعالجه هذا الفصل هو «نقطة ذروة الهجوم». هناك اوقات تتنامى فيها قوة الجيش الغازي أثناء تقدمه، الا ان العكس هو الصحيح عادة، لاسباب يجملها كلاوزفيتز ثانية، مع انه في الحقيقه قد بحثها في بعض الفصول السابقة، وعلى الاخص في الكتاب الخامس، ويلاحظ القارىء بعض الاختلافات الهامة بين هذا الفصل (الثاني والعشرين) والفصول السابقة ذات العلاقة، وعلى الاخص فيما قاله هنا حول المتطلبات الثقيلة المفروضة على الجيش الغازي لحماية المؤخرة والاجنحة، وحتى حول ما تجاهله كلاوزفيتز هنا وقاله مبكراً حول الخسائر الناجمة عن الانهاك والأمراض (راجع بشكل خاص الفصل الثاني عشر، الكتاب الخامس).

على اية حال، فما لم تتحقق نتائج تعرضية جراء انهيار المدافع، ستكون هناك «نقطة ذروة Culminating Point » يوشك المهاجم عندها ان يفقد تفوقه المؤثر. والاندفاع الى ما وراء هذه النقطه دون فرصة معقولة لحسم ايجابي وشيك، أمر خطير. وهكذا «فكل هجوم لا يؤدي الى الصلح (السلام) لا بد أن ينتهي الى الدفاع بالضرورة». (ص ٧٩٢) مع ان ذلك قد يكون موضعاً دفاعياً سيئاً او غير ملائم. والمعتاد أن القادة الفائقي الشجاعة وذوي العزم الشديد، من يستحقون عادة كل تقدير هم الذين يذهبون الى اكثر من الحدود المعتادة (Overshoot the mark) .

يصف كلاوزفيتز نابليون بانه الذي «ثور» الحرب، بدفع هجومه نحو الانتصار الكامل، الا انه يحجم عن ذكر المسيرة الى موسكو عام ١٨١٢م، والتي تظل في ذهن القارىء كمثال اولي «للروح الوثابة» المندفعة بعيداً جداً. ويبدو ان كلاوزفيتز لا يعدها كذلك. اذ وكما سيوضح في الفصل الاخير من الكتاب الثامن، فغزو نابليون لروسيا يعني لا محالة التزامه بالذهاب الى موسكو – ما لم يسهل قيصر روسيا الامر

(١). المقصود هو الفصل الثاني والعشرين – المترجم

عليه بقبوله المعركة قرب الحدود. الامر الذي لا يحتمل أن يفعله القيصر على ضوء التفوق الهائل لنابليون في تلك المرحلة. كما ان كلاوزفيتز، وكما سنرى في الفصل الاخير، لا يعزي اندحار نابليون لذهابه الى ما وراء «نقطة الذروة» بل الى بعض الاخطاء في الحسابات الاساسية.

ليس من الواضح لنا، اية حملات حديثه سيقبلها كلاوزفيتز لتصوير العقيدة التي يعرضها هنا. وهل ستشمل الهجوم الياباني غرب المحيط الهادي وفي جنوب شرق اسيا ابتداءً من ديسمبر ١٩٤١؟ فمن المحتم ان اليابان كانت ستصل الى نهاية قدراتها قبل تسجيل انتصار ضد خصمها الرئيسي، كما أن استراتيجيتها كانت خاطئه ابتداء من مفهومها الاساسي – كما حاول الادميرال ايزوروكو ياماماتو تحذير زملاءه قبل تورطهم. وشبيه ذلك محاولة الالمان قهر الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤١ والذي ثبت انه فوق طاقة الالمان اساساً، وهكذا فمن الصعوبة بمكان اعتبار خط التقدم الاقصى «نقطة ذروة الانتصار»، لقد كان قرار الحكومة السوفيتية واضح العزم والاصرار كقرار قيصر روسيا الاسكندر [مع نابليون]، انا لن اتفاوض على السلام.

رغم أن المبدأ الذي يصفه كلاوزفيتز في هذا الفصل جيد وصالح اليوم دون شك، وان كان تطبيقه مقيد بان يتأثر باختلافات مهمة بالطريقة التي تعمل بها الجيوش. كان المشاة ينتقلون في ايامه على الاقدام على وجه الحصر، وفي المسيرات القسرية الطويلة كانت معظم الخسائر هي من المتشردين المتساقطين بسبب الانهاك والمرض. كان الجيش المتنقل يعيش على محاصيل الارض، وكانت عربات الذيل الاداري المرافق له تحمل فقط ما يكفي من مواد التموين لبضعة ايام وما يكفي من العتاد لخوض معركة كبرى دون الاضطرار الى القاء السلاح بسبب نقص العتاد. وهكذا ليست معضلة التموين ومع انها ليست قليله الخطر، هي السبب الرئيسي في التناقص المستمر في الكفاءة القتالية مع استمرار تقدم الجيش الى الامام. اما اليوم، فقد تقلصت معضلة الانهاك كثيراً بسبب وفرة العجلات الالية، الا ان معضلة التموين وبالمقابل قد زادت. فالجيش السريع التنقل اليوم عرضة لنفاذ مؤقت في مذخرات التموين، خصوصاً الوقود السائل. وتعتمد قدرة الجيش في استعادة زخم الاندفاع على كفاية وضخامة الاسناد الاداري الى حد كبير، ومدى وهن هذا الاسناد امام قوة وهجمات العدو جواً وغير ذلك.

غالباً ما يوجه الانتقاد الى الجنرال ايزنهاور لايقافه الاندفاع شرقاً اواخر صيف

عام ١٩٤٤، وذلك راجع والى حد كبير الى خوفه من استنفاذ دباباته للوقود، وان هذه الوقفة قد سمحت للجيش الالماني المنسحب والذي سادته الفوضى باعادة تجحفله واستعادة خط القتال. الا ان الالمان وبعد ان شنوا هجومهم المقابل في الاردينز في ديسمبر من ذلك العام نفذ وقود دباباتهم فاضطرت للتوقف حيث هي وتحولت الى اهداف سهلة لطيران الحلفاء. لقد ركز ايزنهاور على عامل الامان ودفع ثمن ذلك، الا ان ذلك الثمن كان حصانة ضد الاندحار. لقد رفض تجاوز «نقطة ذروة انتصاره»، وتوقف لتهيئة القاعدة للتعرض الجديد الذي انهى في واقع الحال الحرب.

الكتاب الثامن : خطط الحرب

الكتاب الثامن ، الفصلان الأول -الثاني . عدنا مع الكتاب الثامن الى عالم الذهب الخالص . فلم ينطلق الكتاب السابع وسط البراري والمجاهل بل اقتصر على التحديدات ولذا لا بد ان يكون قديما، حتى ان كلاوزفيتز وكأنه يود الانتهاء منه سريعاً . «لقد عدنا الآن» يقول في مطلع الكتاب الثامن « الى الحرب ككل ... مما يعني العودة الى الافكار الأساسية التي عرضناها في الكتاب الأول» كما يخبرنا بان المنطقة الحرجة التي ندخلها الآن هي الاساسية والمركزية « والتي تلتقي عندها كل الخيوط» (ص ٧٩٧) - ويقر بدخوله اياها مع شيء من الحياء والوجل . الا إن هذا الحياء محاط ومحمي بجرأة المفهوم ، وقد اثبت الكاتب ثانية أنه في مستوى التحدي. كما تعكس هذه الكتب البالغة القوة عظمة فكره ايضاً وحملتنا الى الامام كثيراً في تفهم كلا من طبيعة الحرب، وما يميز كلاوزفيتز عن غيره من الكتاب الذين بحثوا في الموضوع، ولكتابيه الاول والثامن يعود الفضل الاول في اعطائه المكانة الفريدة التي ما زال يحتلها والسبب فيما يحضى به من اهتمامنا اليوم.

عاد كلاوزفيتز في مقدمته الموجزة الى الموضوع الذي ناقشه في الكتاب الاول ومازال يعتقد انه يستحق مزيداً من البحث والتفكير . فان لم يكن هناك من بديل لموهبة القائد، وان كانت احدى علامات موهبته هذه هي رؤيته للأشياء ببساطة، فلم ينبغي علينا -وعليه - دراسة نظريتي الاستراتيجية والحرب ، المهددتان ابداً بالسقوط في «الحذلقة اللفظية»؟ انه يحاول ثانية مساعدتنا بالاجابة : «ينبغي للنظرية ان تلقي الضوء دائماً وعلى كافة الظواهر كي يتسنى لنا ادراكها بيسر اكبر ، مع رؤية الافكار التي تنبثق باستمرار من العدم، وان تظهر لنا كيفية ارتباط هذا الشيء بذاك ، وان تفصل بين المهم وغير المهم»(ص ٧٩٨)، ومن ثم وبقدر تعلق الامر بتأثيرها على القائد «فلا تستطيع النظرية تقديم الصيغ الجاهزة لمساعدة العقل في حل المعضلات، ولا تستطيع صنع او تحديد المجاز الضيق الذي يفترض العثور على الحل الوحيد فيه، بزراعة مجموعة من المباديء المطاطة على جانبي المجاز. الا انها قادرة على اعطاء العقل حدساً في مجموعة كبيرة من الظواهر وعن علاقاتها ، وتركه من ثم حراً للارتقاء الى الأجواء العليا للعمل. فبوسع العقل هناك استخدام ذكاءه الفطري

لاستيعابها، وجمعها كلها ، للأمساك بما هو صحيح وحقيقي ، وكأن ذلك كله فكرة واحدة تشكلت بفعل الضغط المركز لهن – وكما لو انها استجابة للتحدي الاني وليست نتاجاً للفكر».(ص ٧٩٩)

الفصل الثاني عودة ثانية الى التميز بين **«الحرب المطلقة والحرب الحقيقية»** ويقدم لنا في الفقرة الاولى للفصل حقيقة لا تقدر بثمن «ما من احد يبدأ حرباً – او بالاحرى ما من احد سيفعل ذلك بوعي – ما لم يكن واضحاً في ذهنه اولاً ما الذي يسعى لتحقيقه من وراء تلك الحرب وكيف ينوي ادارتها» (ص ٨٠٠) فاي شيء اخر يمكن ان يكون ابسط من ذلك واشد وضوحاً – رغم انه كان موضع تجاهل في الغالب!! .

بعدها يتساءل ثانية عن سبب وجود ثغرة كبيرة جداً بين المفهوم النقي للحرب والشكل الصلب الذي تتخذه الحرب عموماً ويعترف بان اجاباته السابقة على هذا السؤال كانت اجابات جزئية. فهناك في الواقع مجموعة كبيرة من العوامل والقوى والظروف في المسائل الوطنية تتأثر بالحرب «فالمنطق يتوقف في هذا الدهليز (اللابيرنث)، اما الرجال الذين اعتادوا، على: التحرك في القضايا الكبرى، والصغرى بفعل انطباعات مسيطرة وخاصة ، وليس وفقاً لمنطق محدد ، فمن الصعب عليهم أن يدركوا فوضى ولا انسجام وغموض الموقف الذي يجدون انفسهم فيه» (ص٨٠١). قد يرى البعض ، وربما معهم الرجل الذي يتولى القيادة الكلية، الهدف بوضوح، وكذلك المتطلبات لتحقيقه ، ولكن الاكثرية لا. والطاقة للتغلب على معارضة الاخرين ليست متوفرة في اغلب الحالات. وهكذا ظلت الحرب (حتى ايام كلاوزفيتز) عادة « شيئاً غير متماسك ولا كامل» (ص ٨٠١). وكان معاصروه سيتساءلون عجباً فيما اذا وجدت هناك أية اسس لمفهوم الحرب المطلقة أبداً ما لم يكن نابليون قد اظهر قدرته على اظهار شيء قريب من ذلك .

السؤال الذي يواجهه كلاوزفيتز هو : هل ان نمط الحرب الجديد هذا للمستقبل ، ام يتوجب عليه كمفكر (كمنظر) الاعتقاد كذلك انه يحوم حول عودة بعض «اللاتماسك» الذي وبعد كل شيء يميز معظم الحروب التي دارت ما بين الاسكندر المقدوني ونابليون ؟ يبدو ان الامر وكما سيقول في الفصل التالي « عندما تتحطم تلك الحواجز التي تكونت في الحقيقة فقط من تجاهل الرجل ما كان ممكنا ، وليس من السهل اعادة بنائها ثانية» (ص ٨٢٠). من الناحية الثانية، كان الاعتقاد انه

سيفترض ان كل الحروب ستكون لذلك من نوع متحرر (غير مقيد) ، «يتوجب علينا السماح للقصور الذاتي الطبيعي ، ولكل انواع الاحتكاك والاضطرام في اجزائها ، ولاي عدم انسجام، وغموض وجبن في الرجل؛ واخيراً مواجهة حقيقة ان الحرب واشكالها ناتجان من الافكار ، والظروف السائدة في ايامها – وكي اكون اميناً تماماً على الاقرار بان القضية كانت كذلك حتى عندما اخذت الحرب حالتها المطلقة مع نابليون».(ص ٨٠٢)

إجمالاً اثبت كلاوزفيتز انه متنبئ جيد. ذلك ان المستقبل الذي حاول اختراقه بعقله كان سيضم حروباً تصل درجة من «الاطلاق absoluteness »، يشكل نمط نابليون نذيراً باهتاً لها، لكن لن تكون كل حروب المستقبل من هذا النوع. واثناء كتابة هذا البحث كانت الولايات المتحدة قد خلصت نفسها حديثاً من حرب في فيتنام كانت فيها كل درجة ونوع ممكنان من اللاتماسك في الهدف والاسلوب معاً.

الكتاب الثامن، الفصل الثالث؛ لا يحمل هذا الفصل الطويل اي عنوان خاص، الا إن لكل من جزأيه عنوانا منفرداً لكل منهما. عنوان القسم (أ) هو « الاعتماد المتبادل لعناصر الحرب» ، ويقترب فيه ثانية من زاوية اخرى من الاختلاف بين الحرب المطلقة وتلك التحويرات الهامة لهذا المطلق والتي لوحظت في التاريخ. تتألف الحرب من مجموعة من الاشتباكات المتفاعلة والمكونة عادة من سلسلة كاملة. عندها، فما هي العلاقة بين تلك الاجزاء المنفصلة؟ كلما زاد اقتراب الحرب من الاطلاق ، كلما اتضح اكثر ان النتيجة الوحيدة المهمة هي الانتصار النهائي . ولابد للقائد في حرب كهذه ان يحمل معه «فكرة واضحة عن الهدف الذي يجب ان تلتقي عنده كل الخطوط».(ص ٨٠٥)

مع ذلك ، ففي ذلك النوع من الحروب التي شاعت في القرن الثامن عشر، وقبله، لم تكن الحملات والاعمال [القتالات والمعارك] المنفصلة توجه نحو هدف نهائي كهذا الا نادراً . ففي تلك الحروب كان من « المشروع متابعة الفوائد الصغيرة كل منها لذاته وان ندع المستقبل للمقادير »(ص ٨٠٥). مرة اخرى يغير نابليون كل ذلك ، لكن علينا ومرة أخرى ايضاً البحث فيما اذا كان من الواجب تطبيق هذه التغييرات على كل الحالات في المستقبل . لقد استنتج كلاوزفيتز أنه وفي مطلع كل حرب «يجب ان تحدد سمتها ونطاقها وفقاً للأحتمالات السياسية »(ص٨٠٧)، واذا قادت تلك الاحتمالات الحرب نحو المطلق ، فستصبح قاعدة « بعدم القيام بالخطوة الاولى دون البحث في الاخيرة».(ص ٨٠٧)

اما القسم (ب) وهو «نطاق الاهداف العسكرية وقياس الجهد الواجب القيام به» فينطلق مباشرة من السؤال الذي عرض في القسم (أ). فالحرب المطلقة سوف لن تحتاج فقط الى غرض موحد، بل وكذلك الى جهد شامل. ومع ذلك فنحن نرى في الحقيقة كل انواع العوامل التي تحور الجهد . ومرة اخرى علينا البحث في نطاق المطالب السياسية لدى الجانبين ، وكذلك حقيقة ان للمتخاصمين سمات مختلفة تماماً، ولهم درجات مختلفة من القوة كذلك. وهكذا ولعدد متنوع من الاسباب ، ليس من المحتمل ان يجهد الطرفان نفسيهما بنفس الدرجة، من ناحية ثانية ينجم المأزق من حقيقة «طالما كان لجهد قليل جداً في الحرب ان ينتج لا مجرد فشل وحسب، بل اذى حقيقي».(ص ٨٠٨). قد يسبب هذا العامل دفع المرء نحو الجهد الاقصى ، الا انه وفي حال كهذه «سيضيع كل التناسب ما بين العمل والمتطلبات السياسية»(ص ٨٠٨) ومن الواضح ان ذلك ليس منطقياً وبالتالي لا يمكن قبوله. والمطلوب عندها هي «القدرة على استخدام ملكة التمييز للعثور على اكثر العناصر اهمية وحسماً من بين الخليط الهائل من الحقائق والمواقف».(ص ٨٠٩)

الوصف الذي يلي ذلك يذكرنا ثانية بالمعضلة التي واجهتها الولايات المتحدة في فيتنام «للوقوف على حجم الموارد الواجب تعبئتها للحرب، علينا التمعن اولاً في غايتنا السياسية وغايات العدو . كما علينا تفحص وقياس قوة وموقف الدولة المعادية. وتفحص شخصية وقدرات حكومتها وشعبها وفعل الشيء نفسه مع مثيلاتها لدينا، واخيراً ، تقويم التعاطف السياسي للدول الاخرى وحجم التأثير الذي ستصبه الحرب عليها».(ص ٨٠٩) يقر كلاوزفيتز بان التقويم السريع والدقيق لتلك العوامل وتشعباتها «يتطلب بالتأكيد حدساً وقدرات عبقرية»(ص ٨٠٩) لكنه يحذرنا ثانية من أن «الاهمية الضخمة والفريدة للحرب، وبينما لا تزيد تعقيدات وصعوبات المعضلة ، ستزيد من اهمية وقيمة الحلول الصحيحة».(ص ٨٠٩)

ثم يلي ذلك ولباقي الفصل ، خلاصة رائعة للتغييرات الوثيقة الصلة في الحرب منذ أيام روما والاسكندر المقدوني وحتى ايامه. يكشف كلاوزفيتز عن فهمه الواسع والدقيق للتاريخين السياسي والعسكري. انه عمل دال على قوة فكر شديد القدرة. ولعل اكثر اجزاءه قوة واقناعاً ذاك الذي يصف فيه الكاتب التحولات التي حدثت ابان حياته، والتي دفعته الى إثارة هذا السؤال ثانية : ماذا يعنيه كل ذلك للمستقبل؟ وينتهي الفصل مع هذه الخلاصة «يجب ان تحكم الغايات التي يضعها الطرف

المحارب، والموارد التي يستخدمها ، بالسمات الخاصة لموقفه ، الا انها ستكيف كذلك وروح العصر وسماته العامة. واخيراً ، فإنها يجب ان تحكم بالاستنتاجات العامة التي تستخلص من طبيعة الحرب نفسها ».(ص ٨٢١)

الكتاب الثامن، الفصلان الرابع والخامس: يشترك هذان الفصلان في عنوان عام «تحديد دقيق للهدف العسكري». يبحث الفصل الرابع بما يعني حقيقة بـ «دحر العدو»، اما الفصل الخامس فيعالج السؤال حول ما يجب عمله عندما يتضح ان دحر العدو فوق طاقة ووسائل المرء.

دحر العدو، كما يقول كلاوزفيتز ، يعني سحق جيشه، وان كان ذلك ممكنا فستظل على الدوام «الطريقة الافضل للأبتداء بها»(ص ٨٢٣) مع ذلك قد تنشأ ظروف تحور هذه البديهية البسيطة «على المرء ان يتذكر على الدوام السمات الهامة والحاكمة لدى الطرفين المتحاربين. فمن هذه السمات سيتشكل وبالتأكيد مركز للثقل سيكون محوراً لكل القوى والتحركات، التي يعتمد كل شيء اخر عليه، كما انه الشيء الذي يجب ان توجه وتتركز كل طاقاتنا نحوه»(ص ٨٢٣) وهكذا فاحتلال عاصمة العدو اكثر اهمية احياناً من تدمير جيشه، واذا كان للعدو حليف قوي فان ضربة مؤثرة ضد هذا الحليف قد تحقق الغاية المرجوة اكثر من الاهتمام بالطرف الاضعف «لو استطعت قهر كل اعداءك بقهر واحد منهم ، فيجب أن يكون هذا الدحر هو الهدف الرئيسي للحرب».(ص ٨٢٤)

لكن علينا التفكير مقدماً فيما اذا كنا سنحقق دحر العدو. اذ يتطلب ذلك قوات كافية لتسجيل نصر حاسم على العدو ولمتابعة انتصارنا «الى نقطة يغدوبعدها التوازن خارج امكانية اي تصحيح» (ص ٨٢٥) الا ان كلاوزفيتز يضيف ايضاً متطلبات سياسية، «يجب علينا التأكد من سلامة موقفنا السياسي ، وأن انتصارنا هذا سوف لن يجلب ضدنا مزيداً من الاعداء القادرين على اجبارنا على ايقاف او الغاء الجهد ضد عدونا الاول فوراً ». (ص ٨٢٥)

يؤكد الكاتب على أهمية الزخم . الوقت يميل عادة لصالح الطرف الذي عانى الانحدار اولاً، جزئياً لان ورطته قد تنذر دولاً اخرى وتحثهم على التحرك الى جانبه. هناك ايضاً ، وفي احسن الاحوال ، القليل من الوقت لجني فوائد عسكرية من الارض التي تم احتلالها. وهكذا توجب اكمال الاحتلال باسرع ما يمكن وليس على صفحات بل بتقدم واحد مستمر.

من الواضح ان اصرار كلاوزفيتز على النقطة الاخيرة هو رد فعل ضد ذلك النوع من اساليب العمل (السياقات النمطية) التي زاد شيوعها وترسخ في عصور ما قبل نابليون ، ويؤكد ان الوقفات يمكن على الاقل ان تكون لصالح الخصم الذي دحر جزئياً بقدر ما تكون لنا «نعتقد لذلك، ان اي نوع من العرقلة والتوقف، او تعليق الانشطة، لا ينسجم وطبيعة الحرب الهجومية. وعند صعوبة تجنبها ، فيجب اعتبارها كشر لابد منه، يجعل النجاح لا اكثر بل اقل ضمانة» . (ص ٨٢٩)

على المرء ان يتذكر ثانية بانه يتحدث عن الجيوش في أيامه، فهو يقول في مكان ما، «أخذين طريقة تموين الجيوش اليوم بنظر الاعتبار، نرى انها في حاجة الى المستودعات اثناء توقفها اكثر مما في حالة الحركة»(ص ٨٢٨) ولابد ان ما يقترحه قد تعرض الى الكثير من التحوير في الحروب الحديثة، فالجيوش المتقدمة اصبحت تعتمد كثيراً على السيل المستمر لمذخرات التموين، وخصوصاً الوقود السائل. وكما رأينا في عدد من امثلة الحرب العالمية الثانية، فحتى لو كانت الوقفة في التقدم ستستغل من الطرف المنسحب ، فالطرف المهاجم مضطر عليها احياناً بسبب موقف التموين، وفي احيان اخرى لتوسيع جبهته والا كان عليه ترصين مواضعه . حتى اندحار فرنسا عام (١٩٤٠) لم يتم بإندفاع الماني واحد، بل تم في الحقيقة بصفحتين. وهكذا يجب اعتبار التعرض المستمر دون توقف الشكل المثالي الذي يتوجب احيانا موازنته في التطبيق في ايامنا هذه.

الفصل الخامس؛ ويتناول عنوانه الفرعي « الغايات المحدودة» السؤال عما يتوجب عمله اذا استبعدت الظروف دحر العدو. يبدو ان المناقشة استندت على فرضية مفادها تعذر خيار تجنب الحرب. والخيار، كما يقول ، بين احتلال جزء من ارض العدو والتمسك بها، او محاولة الاحتفاظ المرء بارضه« لحين تحول الامور نحو الاحسن»(ص ٨٣٠) الا ان العبارة الاخيرة تتضمن افتراض وجود اساس لتوقع تحقيق ذلك. الامكانية الثانية هي ان المستقبل يقدم للخصم مجالات افضل مما لنا . ويرى كلاوزفيتز في هذه الحالة، ان على المرء القيام بالتعرض ، الذي يعني «استغلال الفوائد الآنية».(ص ٨٣٠). اما الامكانية الثالثة؛ والاكثر شيوعاً «وتظهر عندما لا يعد المستقبل ايا من الطرفين بشيء محدد، وبالتالي فما من اساس لقرار

حاسم»(ص٨٣٠). في تلك الحالة ينبغي ان يتخذ التعرض من قبل الجانب الذي يمتلك المبادأة السياسية ، ونعني به صاحب الغرض أو الغاية الايجابية التي لاجلها ذهب الى الحرب[١]

الامكانية الثانية من بين الثلاث التي ذكرت للتو تلائم حالة اختيار اليابان الذهاب الى الحرب ضد الولايات المتحدة عام ١٩٤١م ، ليس لان قادة اليابان اعتقدوا بامتلاكهم الوسائل الكفيلة بالنصر، بل لشعورهم ان ليس بوسعهم الانتظار . لم يكن الوقت في صالحهم ومعظم السبب في ذلك راجع الى الحضر البترولي الذي فرضه الرئيس روزفلت عام ١٩٤٠، والذي اثر مباشرة على الاحتياط البترولي للأسطول الياباني. وكانت النتيجة ان اليابانيين تصرفوا وفقاً لخيار « الان أو أبداً» الذي يتضمن نوعاً من الاخطار في نهج العمل هذا.

لعلنا نلاحظ ان كلاوزفيتز قد ازاح هنا موضوعاً له وزنه . فحقيقة كون الوقت يبدو الى جانب الخصم لا يعني بحد ذاته ان الاخر قادر على دحره الان. من المفيد ان نذكر ان لينين الذي درس (كانجلز)، كلاوزفيتز، ركز كثيراً على هذه النقطة في تعاليمه الى رفاقه، وكان يكرر كثيراً رفضه لقاعدة «الان او ابداً» طالما ظل «الان» موقفاً غير ملائم لعمل تعرضي[٢]. من الناحية الاخرى ، يؤيد كلاوزفيتز مذهب «الان او ابداً» فقد كان في حالة من التعاسة عام١٨٠٩م بسبب رفض مليكه فردريك وليم الثالث مساعدة النمسا ضد نابليون دون الدعم الروسي، في الحملة التي انتهت بمعركة (واكرام)[٣]، وكذلك عندما اختار الملك وبعد عامين عدم مقاتلة نابليون ، بل وقبول تحالف محدود معه ومشاركته غزو روسيا. وقد صب كلاوزفيتز غضبه في رسالة الى صديق له «قد يجبر المرء على القيام بعملية ما دون اية فرصة للنجاح ان استحال عليه القيام باي شيء آخر». لعله يعني بـ(المستحيل» هنا «المخزdishonorable»، وقد يعني به كذلك «تضييع فرصة ما». بعدها ترك كلاوزفيتز

---

(١) تقدم الحروب العربية الإسرائيلية امثلة جيدة على امتلاك المبادأة السياسية، ففي حرب ١٩٦٧ نجحت اسرائيل بتصوير العرب وكأنهم ساعون الى مهاجمتها والقضاء عليها وشنت هجومها في ظل اسناد وتفهم عالمين مع انها لا تأبه بالرأي العام العالمي ما دامت ضمنت اميركا، اما عام ١٩٧٣ فقد نجح العرب بالمقابل في اظهار حقيقة معاداة اسرائيل للسلام فظمنوا وقوف الرأي العام العالمي الى جانبهم او بتفهم الدوافع التي الجأتهم الى الحرب. لقد حقق العرب هنا المبادأة السياسية كما فعلت اسرائيل عام ١٩٦٧ ولطالما اعجب الرأي العام العالمي بالقوة وحد السيف. – المترجم

(٢) راجع حول ذلك «دراسة في البلشفية» لناثان ليتس (كلينسو، ٣، المطبعة الحرة، ١٩٥٣) ص٥١٢ – ٢٤.

(٣) راجع الهامش في الفصل الخامس الكتاب الثاني .(ص ٢٢٩)

الخدمة في بروسيا ليدخل في خدمة روسيا، وسرعان ما اصبح عدواً ولو اسميا لمليكه. ومهما عد عمله هذا صحيحاً على ضوء كرهه الشديد لنابليون، فلم يخلو موقفه حول ما يتوجب على بروسيا القيام به من جوانب عاطفية اكيدة. فبروسيا، بجيشها الذي قلص حجمه كثيرا بموجب معاهدة (١٨٠٦م) لا تملك اية فرصة للصمود بوجه جيوش نابليون، وقد اعتبر قرار ملك بروسيا في النهاية الاحكم في مصلحة الدولة.

الكتاب الثامن، الفصل السادس؛ يرقى هذا الفصل المهم الى مستوى رائع جداً – على الاقل بعد انتهائه من القسم (أ) وعنوانه الفرعي «تأثير الغاية السياسية على الهدف العسكري»، والذي يقدم لنا ابتداءً بعض الصور عما يريد الكاتب قوله في القسم (ب)، بعنوانه الفرعي المحمل بالمعاني «الحرب كاداة للسياسة»(ص ٨٣٥). لنا هنا عودة الى المناقشة في الفصل الافتتاحي الكبير للكتاب الأول، حيث التقينا ولأول مرة مع مبدأ ان «الحرب ... هي استمرار (للنشاط) السياسي بوسائل اخرى»[١]. (ص ١٢١) لدينا الان توضيح اضافي لمعنى ما بات الان عبارة شهيرة، يعطي بعض التبسيط لتشعباته. وعلينا كذلك ان نتذكر التخطيط الهام الذي وضعه كلاوزفيتز لتطوير الفكرة في نسخته المنقحة التي ارادها.

يقول كلاوزفيتز ، لا يمكن اطلاقاً قبول الفكرة الشائعة بان الحرب تعلق النشاط السياسي بين المتحاربين واستبداله بوضع مختلف كلياً، لا يتحكم فيه اي قانون عدى قانونه هو. «قد تكون للحرب قواعدها الخاصة، لكن ليس لها منطق خاص»(ص ٨٣٥). يحدد المنطق بالغاية السياسية، وتحل اعمال الحرب محل التبادل المعتاد للمذكرات الدبلوماسية. وما لم يكن الامر كذلك ستغدو الحرب «شيء لا قيمة له وخال من اي معنى». (ص ٨٣٥)

السبب في ان الحرب لم تتقدم ودون رحمة نحو المطلق، واضح في انها « لن تستطيع اتباع قوانينها الخاصة، بل لابد من التعامل معها كجزء من كل اكبر، هو السياسة»(ص ٨٣٦). لذلك، ان كانت الحرب جزءٍ من السياسة، عندها يجب ان تقرر السياسة سمتها . وهذا لا يعني ان السياسة ستدخل في تفاصيل العمليات –

---

(١) الفصل الأول الفقرة (٢٤) مع بعض الاختلاف في النص – المترجم .

«لاتقرر الاعتبارات السياسية مواقع الحراسات، او استخدام الدوريات»(ص ٨٣٧) – بل انها ستؤثر في «تخطيط الحرب، والحملات، وغالباً ما يمتد ذلك الى المعركة» (ص ٨٣٧). ثم وبعد قليل من ذلك يضيف ؛ « لا يمكن وتحت اية ظروف اعتبار فن الحرب موجهاً للسياسة».(ص ٨٣٧).

النقطة مهمة للغاية وليس لنا ان نقلق لاعادتها، وقد ظل كلاوزفيتز يطرقها «ينبغي اعتبار توقف البحث السياسي كليا في التأثير عند أندلاع الحرب أمراً من الصعوبة بمكان ما لم يجعل الحقد الصرف من كل حرب مسألة حياة او موت» (ص ٨٣٨) ومرة اخرى «السياسة هي العقل الموجه، والحرب مجرد الة وحسب ، **وليس العكس**».(ص٨٣٨) عليه يجب ان تكون وجهة النظر العسكرية **وعلى الدوام** تابعة للسياسية.

يجب ان يتفهم رجال الدولة بطبيعة الحال لغة الحرب، كي لا يخطأوا استخدامها. أما إن حدث ذلك فالسياسة هي الخاطئة ، لاحقيقة بان السياسة تؤثر في الحرب. لكن اذا كان القائد السياسي رجل «متميز الفكر وقوى الشخصية ، فبوسعه دائماً الحصول على المعلومات العسكرية التي يريد بطريقة او اخرى». (ص ٨٤٠) من الواضح ان كلاوزفيتز يرى ان العكس غير ممكن ، او وعلي اية حال ليس صحيحاً.

ينتهي الفصل بتذكيرنا بان التغييرات الواسعة جداً التي تفجرت في حروب عصر نابليون انما جاءت من «الحياة[1] السياسية الجديدة التي أوجدتها الثورة لاوربا وكذلك لفرنسا . هكذا ظهرت وسائل وقوى جديدة ادخلت في الحرب درجة من الطاقة ما كانت ممكنة دونها» ويقول بعدها «كان تحول فن الحرب بالضرورة نتيجة للتحول في السياسة».(ص ٨٤٢)

هذا فصل يأخذ بالانفاس . وقد ساق مناقشته بحماس شديد ينبعث من قناعته بأن ما من شيء قاله في كتابه كله اكثر اهمية او اكثر صلابة – او الاكثر احتمالاً ان ينسى. من الواضح ان الحرب العالمية الأولى لم تخض وفقاً لهذه القواعد. الا ان كلاوزفيتز لم ينكر ان الحرب يمكن ان تصبح «شيء لا قيمة له وخال من اي معنى» (ص ٨٣٥) وهو يحاول التأكيد على ان لا تكون كذلك.

الكتاب الثامن، الفصلان السابع والثامن؛ يحمل هذان الفصلان المختصران

(١). هكذا وردت في دليل برودي (الحياة) وليس الظروف كما في النص وكذلك في تعابير اخرى في هذا المقتبس. المترجم

عنوانا مشتركاً «الغاية المحدودة»، وهما دون المستوى العالي الذي ارساه في الفصل السادس. وأحد الأسباب انهما باليان بطريقة لم يكن الفصل السابق مثلهما!. كما يبدو ان كلاوزفيتز ليس سعيداً بالمقدمات التي وضعها لهذين الفصلين، المضاعفين اساساً، المقدمة الصريحة عن الذي تعوزه الوسائل لايقاع تدمير حاسم بالعدو، والمقدمة الضمنية في ان ذلك العدو ليس أقل منه في مجمل قوته. وتحت تلك الظروف قد يظل ذلك الطرف (**الفصل السابع**) الذي احتل بعمل تعرضي جزءً من ارض العدو، مقللاً بذلك من موارده الوطنية، ممسكاً بيده شيئاً لمفاوضات السلام. السؤال المهم في تلك الحالة هو ما اذا كانت هناك فرصة جيدة للسيطرة على الارض لما يتبقى من الحرب، وان لم يتيسر ذلك، فهل الاحتلال الموقت جدير بما يتكلفه من ثمن. «عموماً» يقول كلاوزفيتز «يخسر الواحد كثيراً من جراء احتلال العدو لارضه، واكثر مما يكسب من احتلال أرض العدو، حتى لو كانت قيمة كلا المنطقتين واحدة».(ص ٨٤٥) والاكثر اهمية من ذلك مواصلة الدفاع فوق منطقة واسعة، يتخلى المرء عن المبادأة دون أية محاولة ومهما كانت لتوجيه ضربة حاسمة نحو قلب قوة العدو. يبدو كلاوزفيتز وكأنه ينزلق بعيداً عن مقدمته الاولى، وينهي هذا الفصل باعادة التأكيد على مدى النبل في رضاك بقبول مخاطر كبيرة.

في **الفصل الثامن** يتناول الكاتب شكلاً اكثر سلبية استراتيجيا من الدفاع، وحيث يكون الهدف الرئيسي هو كسب الوقت بينما يحافظ المرء [المدافع] ولأطول فترة ممكنة على ارضه بعيداً عن سيطرة العدو. بوسع المرء صد الهجمات اينما تقع، بل وحتى شن عمليات تعرضية صغيرة على شكل غارات أو تشتيت، لكن فقط حين لا يكون الهدف الأساسي للدفاع قابل للتسوية. الغرض وراء كسب الوقت، هو انتظار تبدل سياسي، كأن يعثر العدو جهده، أو بضم حلفاء الى جانبنا او بابعاد ما لدى الخصم منهم.

مع ذلك، فان كان لتعرض العدو اثر في انقاص قوته الى الحد الذي يتفوق معه الاخر عليه فسيكون الهجوم المقابل امر معقول. عند هذه النقطة تحول كلاوزفيتز بعيداً عن أمثلة تصف استراتيجية فردريك الكبير، ليبحث في اعتبارات وجوانب اخرى من حملة ١٨١٢، ثم ليكشف لنا هذه الملاحظة « ليس بوسع اعلى درجات الحكمة استنباط استراتيجية افضل من **التي حدث ونفذها الروس**»[1]. لقد كان

---

(١) تميز هذه العبارة لبرودي وليس لكلاوزفيتز – المترجم.

كلاوزفيتز واضحاً حول تلك الحملة وجديراً بالقراءة .

لقد تجرأنا على نعت الفصلين بالقدم لان كلاوزفيتز نفسه اعتبرهما كذلك في ايامه. فبعد وصف استراتيجيات فردريك الكبير الدفاعية الناجحة ، يلاحظ «على المرء ان يتذكر ان ذلك الوقت قد تغير، وأن الحرب قد تعرضت لتحول كامل وانها باتت تستمد حياتها الان من مصادر مختلفة كلياً، والمواضع التي فقدت كل قيمتها اليوم ربما كانت فعالة في تلك الايام، دون ان ننسى أن شخصية القائد المعادي تعد عاملاً كذلك».(ص ٨٥٠) تشير النقطة الاخيرة الى نقص الروح العدوانية لدى خصوم فردريك الكبير . ويشير المثال الروسي، الذي لا يعتبره كلاوزفيتز قديماً بطبيعة الحال، الى بلاد كبيرة جداً. وهو كما رأينا، ولنفس السبب لا يعد بالياً حتى الآن.

الكتاب الثامن؛ الفصل التاسع؛ وهو الفصل الاخير والاطول في العمل بكامله «خطة حرب صممت لتقود الى إندحار تام للعدو» ويعيدنا الى الاجواء الراقية للفصل السادس. لكن بينما ركز الفصل السادس على مستوى الزعامة (Statesmanship)، يركز الفصل التاسع على مستوى الاستراتيجية العسكرية الكبرى. ومن الواضح ان الموضوع الذي عبر عنه عنوان الفصل أقرب الى روح الكاتب من الفصلين اللذين سبقاه، كما سنرى خلاصة مركزة لافكار تعد كلاوزفيتزية نموذجية .

هكذا وبعد ان تنصل وبشيء من التردد من اي ولاء او التزام بـ (المبادئ) كدليل قوي وثابت للعمل، يبدأ الكاتب هذا الفصل باعلان محدد عن مبدأين. **الأول** هو، العمل بأقصى تركيز على الغاية وعلى القوة. اما**الثاني**، فهو العمل باقصى سرعة. لا يعني هذا ان القوات يجب ان لا تجزأ من حيث المكان ولا المهمة، ويمضي كلاوزفيتز في البحث بعمق وتفصيل في اربع اسباب اساسية لتجزأة القوات . يجب ان تكون الأسباب لكل حالة قوية ومقنعة كي تتم موازنتها بوعي وحذر تامين مع المطلب الأول والمبدأي في حشد القوة. مع ذلك فمن سمات كلاوزفيتز استغلاله الاستثناء حتى في احب القواعد إليه.

القرار الحاسم [المعركة مثلاً] لاجل هدف رئيسي سيتضمن تنفيذ الأهداف

الاصغر كذلك. ومرة اخرى يمكن ان تكون هناك استثناءات، لكن وفي كل حالة يجب اعتبار كل عملية صغرى نباشرها كعملية ثانوية باكثر ما نستطيع .

مع تطويره لتلك النقاط ، يلاحظ المرء فجأة ان كلاوزفيتز يطرح الاطار الفكري لما سيغدو بعد قرن من الزمان خطة شليفن الشهيرة. هناك اوقات، كما يقول، عند «خوض حربين منفصلتين كلياً في ان واحد. ومع ذلك فلابد من اعتبار احدى الحربين **كعملية رئيسية** تتطلب توجيه اكبر الموارد والفعاليات نحوها. ما دام الأمر كذلك فمن الافضل العمل **تعرضياً** في ذلك المسرح الرئيسي فقط والبقاء دفاعياً فيما عداه. هناك هجوم ما، ستبرره ظروف استثنائية فقط. اكثر من ذلك ينبغي ادامة الدفاع عن النقاط الثانوية بالحد الادنى من القوة، كما لابد من حساب اهمية اية فوائد قد يتيحها ذلك النوع من المقاومة، وما الذي سنجنيه منها».(ص ٨٦١) يوضح هذا المفهوم تجزأة الالمان للقوات ما بين الجبهتين الشرقية والغربية في اب/١٩١٤، وكذلك تجزأة القوات على طول الجبهة الغربية نفسها. الا انه يمضي في البحث في العدو الذي هو هدف التعرض الرئيسي «فالمعركة الكبرى – الحسم الرئيسي– هي كلما يهم، وستعوض عن أية خسائر. واذا كانت القوات كافية بشكل يسمح بالبحث عن معركة كبرى، فلن تعود **امكانية الفشل** عذراً كافياً لمحاولة تغطية الوضع في اي مكان آخر، اذ سيجعل ذلك الفشل في المعركة الحاسمة اكثر احتمالاً».(ص ٨٦١)

يعود وبنفس الطريقة الى مبدأه الثاني الذي يخص السرعة «فالفائدة الوحيدة للهجوم تقريباً» يقول كلاوزفيتز «ترتكز في المباغتة الاولية. السرعة والزخم هما اقوى عناصرها ولا يمكن الاستغناء عنهما عادة إن أردنا دحر العدو».(ص ٨٦٢) هناك ميزة اخرى للسرعة، وهي انها ستوصل المرء وسريعا الى قلب بلاد العدو، لان النصر بذلك سيكون اسهل في التحقيق اذا تم خوض المعركة على مقربة من حدوده. وان كنا نتحدث عن التدمير التام للعدو «يتطلب انتصار كهذا هجوماً تطويقياً (Envloping) أو معركة بجبهات متعاكسة».(ص ٨٦٣) ومن البديهي ان انتصاراً كهذا لابد ان تليه مطاردة لا هوادة فيها .

كذلك ينبغي ان يجتاح زخم الانتصار الى ما وراء قلاعه (كما في بلجيكا عام ١٩١٤)، وان نحاصرها باقل ما يمكن من القطعات. «منذ اللحظة التي يفرض علينا فيها حصار قلعة ما، تعليق التقدم، يكون الهجوم وكقاعدة قد وصل نقطة الذروة. لذلك نسعى من اجل مواصلة القوة الرئيسية التقدم السريع وادامة الضغط» (ص ٨٦٤). يجب ان لا يقلق المرء لأن جبهة التقدم ضيقة جداً طالما تواصل الزخم «طالما لم ينجح القائد بدحر عدوه بعد، وطالما ما زال واثقاً من كفاية قوته لتحقيق اهدافه، فعليه ان يواصل ذلك بدأب. قد تتزايد المخاطر التي يواجهها وهو يفعل ذلك الا ان نجاحه بالمقابل سيكون اكبر كثيراً. اما اذا بلغ النقطة التي لا يجروء على المضي لما بعدها، واذا ما شعر بان عليه الامتداد يمينا ويساراً لتأمين الحماية لمناطقه الخلفية، — فان كان الامر كذلك: من المحتمل كثيراً وصول هجومه ذروته. لقد استنفذ زخمه، واذا كان العدو سليماً بعد ، فمن المحتمل ان لا مستقبل امام المهاجم على اية حال بعد».(ص ٨٦٥)

هذا الحشد من الرؤى الشليفنية والكلاوزفيتزية الذي اجملناه هنا ، حاد جداً وكثير التفصيل كما ليس من قبيل المصادفة ان يتميزا عن غيرهما من الكتاب ، خصوصاً بقدر ما نعرفه عن كون، (شليفن) تلميذاً شديد الذكاء ومتحمساً لكلاوزفيتز .

يلي ذلك من ثم تحليل رائع جداً لحملة نابليون عام ١٨١٢م، التي يعود فشلها كما يدافع الكاتب بقوة لا الى كون التقدم فيها سريعاً وذهب بعيداً. كما لم يكن ذهابه الى موسكو خطأً « بوصول نابليون الى موسكو وهو قوي فقط، كان بوسعه ان يأمل بهز عصب الحكومة [الروسية] وهز اخلاص وتماسك الشعب وصمودهما». (ص ٨٦٧) لقد فشلت الحملة «بسبب محافظة الحكومة الروسية على اعصابها ولمواصلة الشعب صموده وولاءه».(ص ٨٦٨) لقد اثبتت النتائج خطأً حسابات نابليون، وقد يكون اخطأ بالمخاطرة بحسابات مغلوطة كهذه، الا أن تقديره لما سيكون عليه رد فعل الحكومة والشعب الروسيان ازاء احتلاله موسكو لم يكن خطأً يمكن التنبؤ به، والى الحد الذي تصبح فيه الحملة عملا جنونياً ولا معقولاً. لو كانت معاناة جيش نابليون اسوأ بكثير مما كان عليه الحال ، لكان اللوم الذي يوجه الى نابليون لا

بسبب العمق الذي اخترق فيه روسيا بل «يكمن الخطأ في تأخيره بدء الحملة، وفي كثرة الارواح التي اتلفها من جراء اساليبه وفي تجاهله شؤون التموين وسلامة خط انسحابه، ولبقاءه طويلاً جداً في موسكو». (ص ٨٦١)

اكثر ما يلفت النظر هي المعايير التي استخدمها كلاوزفيتز في حكمه على هذه وغيرها من الاحداث « من المعقول جداً ان نحكم على الحدث على ضوء نتائجه، لأنها تشكل المقياس الاكثر منطقية . لكن لا يجوز اعتبار الحكم المبني على النتيجة وحدها دليلاً على الحكمة الإنسانية ... وكل من يؤكد ان حملة ١٨١٢م كانت حماقة كاملة بسبب فشلها الذريع، الا انه كان سيعتبرها انجازاً رائعاً لو انها حققت اهدافها فانما يؤكد لنا عجزه التام عن الوصول الى احكام سليمة»،(ص ٨٦٧) وبكلمة اخرى، لن يكون هناك من سبب واحد فقط ابداً للنجاح او للفشل، ويجب ان يراعي الحكم النقدي الجيد عدداً مهماً من الأسباب لكل منهما.

يواصل هذا الفصل الكبير مناقشة هجوم على هدف مشترك، ينفذ بجيوش متباعدة كثيراً، لتمييزه عن هجوم ينفذه حشد منفرد. ويفضل كلاوزفيتز النوع الاخير، الا ان النوع الأول «قد يفرض بحكم الظروف التي يعجز المرء عن تغييرها» (ص ٨٧٢) والكاتب يتحدث طبعاً عن عصرٍ لم يعرف شيئاً عن المواصلات الالكترونية، الا ان براعته في معالجة المعضلة كانت رائعة رغم كل شيء. اذا عملت القطعات في مسارح مختلفة ، وربما متباعدة كثيراً، ضد عدو مشترك ، فعليها ان لا تقلق كثيراً حول التنسيق الوثيق لجهودها «فإن التنسيق الهادئ لكل اجزاء العمل من البداية الى النهاية ليس ضرورياً حتى في التعبية ، ناهيك عن الاستراتيجية» (ص٨٧٢). لذا ينبغي اعطاء كل قوة منفصلة واجباً مستقلاً. في الحقيقة، ما زالت هذه النصيحة جيدة حتى في العصر الحديث.

يلاحظ المرء بشيء من المرارة عند قراءته عن الحملة البروسية في فرنسا عام ١٧٩٣م – التي ساهم فيها كلاوزفيتز كجندي في الثالثة عشرة– «لم يكن لبروسيا ما تدافع عنه ولا ما تحتله في الالزاس».(ص ٨٧٢) الا ان اكتشاف كون هذه المنطقة جزء من المانيا قديما لم يأت الا في وقت متأخر كثيراً. كما نلاحظ كذلك، وربما

بشيء من الدهشة، أن قيصر روسيا لم يصر في حملة ١٨١٣-١٤ على استقلال جيشه في العمل، بل وضع قواته، وبمستوى فيلق منفرد ، تحت قيادة البروسيين والنمساويين.

تأتي الخطبة الختامية للكتاب ليس في نهايته بل وعلى العكس في الفقرات القليلة والمجملة حول الخطط التي تستهدف التدمير التام للعدو، وحيث يقول في احدى الفقرات «سنؤكد على الاساسي والمشترك ، تاركين فسحة كافية للأحداث العرضية والمنفردة ، مع استبعاد كلما هو اعتباطي، وغير جوهري ، ومتكلف او زائف وشديد السذاجة ... فان صدم اي قارئ لانه لم يجد هنا شيئاً عن كيفية الاستدارة حول نهر، او السيطرة على منطقة جبلية من اجزائها العالية، وعن تخطي المواضع القوية او تحديد النقطة الحيوية (المفتاح) الى بلاد بكاملها، فقد فشل في تفهم غايتنا بل واكثر من ذلك، نخشى انه لم يفهم بعد العناصر الأساسية للحرب. لقد عالجنا في الفصول السابقة كل تلك التفاصيل بشكل عام ووصلنا الى استنتاج مفاده انها قد لا تكون مهمة بالقدر الذي نظنه عادة».(ص ٨٧٥)

الخطة التي تلي بعد ذلك لغزو فرنسا في المستقبل - في حالة لجوئها الى «استئناف سلوكها المتغطرس الذي اثقلت به كاهل اوربا طوال مائة وخمسين عاماً» (ص ٨٨١)- شيء مفيد لكن دون اهمية حقيقية عدى ما قاله حول الجيوش التي تغزوا منفردة ومن مسارح مختلفة، والفقرة التي تعيد الى الذهن خطة شليفن «يكمن مركز ثقل فرنسا في قواتها المسلحة وفي عاصمتها باريس... وتعد المنطقة ما بين باريس وبروكسل اكثر المناطق وهنا في فرنسا، اذ لا تبعد الحدود اكثر من (١٥٠) ميلاً عن العاصمة».(ص ٨٧٧)

العقيد الركن المتقاعد

سليم شاكر الامامي

شميساني - عمان - الأردن

نيسان - ١٩٩٤

جدول زمني بالحروب والحملات والمعارك

الحروب

١. حروب العصور القديمة .

٢. حروب الاسكندر الكبير (المقدوني).

٣. حروب الجمهوريات القديمة .

٤. حروب روما .

٥. الحملات الرومانية.

٦. الحرب البونية الثانية .

٧. حروب التتار .

٨. حروب العصور الوسطى .

٩. حملات الامبراطورية الألمانية في ايطاليا .

١٠. حرب المائة عام.

١١. معارك سويسرا ضد النمساويين والبورجنويين والفرنسيين .

١٢. حروب الكوندوتيري (المرتزقة) .

١٣. حرب الثلاثين عاماً .

١٤. حروب وحملات عهد لويس الرابع عشر .

١٥. حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر .

١٦. حملات فردريك الكبير .

١٧. حروب سليزيا .

١٨. حملات دوان (Daun).

١٩. حروب ما قبل الثورة (الفرنسية ١٧٩٢) .

٢٠. حروب الثورة الفرنسية .

٢١. حروب نابليون .

٢٢. الحروب المعاصرة (مابعد عام ١٧٩٢) .

٢٣. حروب القرن التاسع عشر .

٢٤. حرب التحرير الأسبانية .

الحملات والمعارك

١. الحرب الفارسية الثانية (٤٠٠ ق.م).

معركة ماراثون (ايلول ٤٠٠ق.م).

٢. حرب الثلاثين عاماً

أ. الهجوم المباغت على توتلنجي

ب. معركة (هجوم مباغت) ميرجنتهايم (٥ مايس ١٦٤٥)

جـ. صلح ويستفاليا

٣. الحرب الهولندية

أ. الحملة في الأراضي المنخفضة

ب. حملة عام ١٦٧٣

جـ. حملة عام ١٦٧٤

د. حملة عام ١٦٧٥

هـ. حملات الناخب العظيم ضد السويد .

٤. حرب السنوات التسع (١٦٨٨ - ١٦٩٧) .

أ. معركة فليورز (١/ تموز/ ١٦٩٠) .

ب . معركة ستينكيرك (٣/اب / ١٦٩٢) .

جـ . معركة نيرويندين (٢٩/تموز/ ١٦٩٣).

٥. حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١-١٧١٣).

أ. الدفاع في خط ستولهوفن (١٩-٢٥/ ابريل/١٧٠٣).

ب. معركة بلنهايم (١٣/اب/١٧٠٤).

جـ. حصار ليل (١٤/اب-٢٣/اوكتوبر/١٨٠٨) .

د. الاصطدام في دينان (٢٤/مايس/١٧١٢).

هـ. حصار لاندريسيز (١٧-٢٨/تموز/١٨١٢) .

٦. حرب الشمال (١٧٠٠ - ١٧٢١) .

معركة نارفا (٣٠ نوفمبر/١٧٠٠).

٧. الحروب التركية ضد روسيا والنمسا (١٧٣٦-١٧٣٩) .

٨. حرب الوراثة الأسبانية (١٧٤٠-١٧٤٨).

الحملة الفرنسية في استراليا وبوهيميا.

٩. الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ - ١٧٤٢) .

أ. حملة ١٧٤٠- ٤١: معركة مولوفتز (١٠/ابريل/١٧٤١).

ب. حملة ١٧٤٢ : معركة جوتوسيتز (١٧/ مايس/١٧٤٢).

١٠. الحرب السيليزية الثانية (١٧٤٤-١٧٤٥).

أ. حملة عام ١٧٤٤.

ب. حملة عام ١٧٤٥: معركة هوهنفريد بيرج (٤/حزيران/١٧٤٥).

معركة سور (٣٠/ايلول/١٧٤٥).

اشتباك كاتوليش - هينرزدورف (٢٣/نوفمبر/١٧٤٥) .

١١. حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣).

أ. حملة عام ١٧٥٦: معركة لوبوستز (١/ اوكتوبر/ ١٧٥٦).

اشتباك بيرنا (١٠/ايلول - ١٦/ اوكتوبر/١٧٥٦).

ب. حملة عام ١٧٥٧: معركة براغ (٦/مايس / ١٧٥٧).

حصار براغ (٧/مايس-٢٩/حزيران/ ١٧٥٧).

معركة كولين (١٨/حزيران/١٧٥٧).

اتفاقية كلوستر – زيفين (٨/ايلول/ ١٧٢٧).

معركة روزباخ (٥/ نوفمبر/١٧٥٧).

احتلال شويدنتز (١٢/كانون ثاني/ ١٧٥٧)!

معركة بريسلاو (٢٢/نوفمبر/١٧٥٧).

معركة ليوثين (٥/ديسمبر/١٧٥٧).

جـ. حملة عام ١٧٥٨: حصار اولمتز (٥/مايس–٢/ تموز/ ١٧٥٨).

الهجوم المباغت على دومشتاد (٣٠/حزيران/١٧٥٨).

معركة هوشكيرج (١٤/اوكتوبر/١٧٥٨).

د. حملة عام ١٧٥٩: الاشتباك في شموتزيفين (١٠/تموز/١٧٥٩).

معركة كاي (٢٣/ تموز/ ١٧٥٩).

معركة مندين (١/اب/١٧٥٩).

معركة كونرزدورف (١٢/اب/١٧٥٩).

الاستباك في ماكسين (٢٠/ نوفمبر/ ١٧٥٩).

احتلال ماكسين (٢١/نوفمبر/١٧٥٩).

هـ. حملة عام ١٧٦٠: الاصطدام في لانديشوت (٢٣/حزيران/١٧٦٠).

حصار دريسدن (١٨–٣٠/تموز/١٧٦٠).

معركة لايجنتز (١٥/اب / ١٧٦٠).

معركة توركاو (٣/نوفمبر/ ١٧٦٠).

و. حملة عام ١٧٦١: الاشتباك في كولبيرج (٤/حزيران–١٦/ديسمبر/١٧٦١).

التعسكر في بنزيلفتز(٢٠/اب–٢٥/ايلول/١٧٦١).

ز.حملة عام ١٧٦٢:حصار واحتلال شويدنتز (٧/اب–٩/اكتوبر/١٧٦٢).

معركة فريبرج (٢٠/اوكتوبر/١٧٦٢).

١٢. الحملة البروسية في هولندا (١٧٨٧).

١٣. حرب التحالف الأول (١٧٩٢-١٧٩٧).

أ. معركة (قصف) فالمي (٢٠/ايلول/١٧٩٢).

ب. الاشتباك في مونتينوتي (٢١/ابريل/١٧٩٦) .

جـ. معركة مالش (٩/تموز/١٧٩٦).

د. معركة نيريشام (١١/اب/١٧٩٦).

هـ. حصار ومحاولات تحرير مانتوا (١٧٩٦/٩٧).

و. معركة ريفولي (١٤-١٥/كانون ثاني/ ١٧٩٧).

ز. العملية في تاكليامنتو (اذار /١٧٩٧).

ح. الهدنة (صلح) في ليوبين.

ط. صلح كامبو فورميو.

١٤. حرب التحالف الثاني (١٧٩٩-١٨٠٠).

أ. الاشتباك في فيلدكيرج (٢، ٢٣/ اذار / ١٧٩٩).

ب. الانزال الانكليزي في شمال هولندا (١٧٩٩) .

جـ. معركة مارينكو (١٤/حزيران/ ١٨٠٠).

د. معركة هوهينلندين (٣/ديسمبر/ ١٨٠٠).

١٥. حرب التحالف الثالث (١٨٠٥).

أ. احتلال اولم (١٧/اوكتوبر/ ١٨٠٥).

ب. معركة اوسترلتز (٢/ديسمبر/ ١٨٠٥).

١٦. الحرب الفرنسية ضد بروسيا وروسيا (١٨٠٦-١٨٠٧).

أ. حملة عام ١٨٠٦: الاشتباك في سالفيلد (١٠/ اوكتوبر/١٨٠٦).

معركة ينا (١٤/ اوكتوبر/٨٠٦).

معركة اويرشتاد (١٤/اوكتوبر/١٨١٦).

الاستسلام في ماجدبورج (٨/نوفمبر/ ١٨٠٦).

ب. حملة عام ١٨٠٧: معركة ايليوا (٨/ شباط/ ١٨٠٧).

معركة فريدلاند (١٤/حزيران/١٨٠٧).

١٧. الحرب الفرنسية في شبه جزيرة ايبريا ضد البرتغال واسبانيا وانكلترا (١٨٠٧-١٤).

أ. حملة الجنرال مسينا الشتوية في البرتغال (١١/١٨١٠).

ب. دفاع خط توريس فيدراس (١١/١٨١٠).

١٨. الحرب الفرنسية ضد النمسا (١٨٠٩).

أ. الاشتباك واحتلال ريجنسبرج (٢٣/نيسان/١٨٠).

ب. معركة اسبيرن (٢١، ٢٢/مايس/ ٩ ٠ ١٨).

جـ. معركة واكرام (٥-٦/تموز /١٨٠٩).

١٩. حرب عام ١٨١٢:

أ. الاشتباك في دريسا (صيف عام ١٨١٢).

ب. الاصطدام في فيتبسك (٢٥-٢٧/تموز/١٨١٢).

جـ. معركة سمولنسك (١٧/اب/١٨١٢).

د. معركة بوردينو (٧/ايلول/ ١٨١٢).

هـ. الهجوم المباغت والاصطدام في تارتينو .

و. معركة مالوياروزلافيتز (٢٤/اوكتوبر/ ١٨١٢).

ز. معركة بيريسنا (٢٦-٢٨/نوفمبر/ ١٨١٢.

٢. حروب التحرير (١٨١٣-١٨١٥).

أ. حملة عام ١٨١٣: معركة كروس - كروشين (٢/مايس/١٨١٣).

معركة بوتزان (٢٠.٢١/مايس/١٨١٣).

الاشتباك في كولدبيرج (٢٧/ مايس/١٨١٣).

الاشتباك في لوفينبيرج (٢١/اب/١٨١٣).
الهدنة في بلازفتز (٤/حزيران/١٨١٣).
معركة كروس بيرين (٢٣/اب/١٨١٣).
معركة كاتزباخ (٢٦/اب/١٨١٣).
معركة دريسدن (٢٦، ٢٧/اب /١٨١٣).
معركة كولم ، و(نوليندورف) في (٣٠/اب/١٨١٣).
معركة دينيفتز (٦/ايلول/١٨١٣).
معركة وارتنبرج (٣/اوكتوبر/١٨١٣).
معركة لايزك (١٦-١٩/اوكتوبر/ ١٨١٣).
معركة موكيرن (لايزك) (١٦/اوكتوبر/١٨١٣).
الاشتباك ومعركة هاناو (٢٨-٣١/اوكتوبر/١٨١٣).

ب. حملة عام ١٨١٤:

الاشتباك في بريني (٢٩/كانون ثاني/ ١٨١٤).
معركة مينيشيو (٨/شباط/ ١٨١٤).
الاشتباك في شامب-اوبرت (١٠/شباط/١٨١٤).
المهارشة في مونت ميريال (١١/شباط/١٨١٤).
المهارشة في ايلوجيس (١٣و١٤/ شباط /١٨١٤).
الاشتباك في مورمانت (١٧/شباط/١٨١٤).
الاشتباك في مونتروا (١٨/شباط/١٨١٤).
معركة لاون (٩/اذار/١٨١٤).
معركة (ارسيز سور اوب) في (٢٠و٢١ / اذار / ١٨١٤).

جـ. حملة عام ١٨١٥:

معركة ليني (١٦/حزيران/١٨١٥).
معركة واترلو (يللي - الياتز)- (١٨/حزيران/١٨١٥).

المراجع

1. Dupuy and Dupuy - The Encyclopedia of Military History - Pub - Harper and Row N.Y - 1970.
2. Delbruck, Hanz - history of the Art of War (4-vol) , Bison Book, London 1985.
3. Earle , E. M. The Makers of Modem strategy Princeton 1984.
4. Fuller, J.F.C- Military History of Western world, Pub- Da capo Press. inc - N.y 1987.
5. The New Webster Encyclopedia Dictionarzy .
6. Wylie . J.C- Military strategy. Pub-Rutgers university press 1966.

٧. ديغول . الجنرال شارل. الجيش المحترف ترجمة لويس الحاج – دار المكشوف– بيروت (١٩٤٣).

٨. قاموس المورد طبعة، ١٩٨٥–١٩٩٣–١٩٩٤.

9. Windrow . M-Military Biography - Pub - Book club, by purnell book service, London 1975 .
10. Longsman English Lasousse Diction London - 1962.
11. Maksey K. Land warfare London - 1973.
12. Jominni. H. A- The Summarsy of Arst of War Root of Strategy of stratey , Vol.
13. Dictionary of Phrase and Fable Brewers - London - 1975. - stacbpole book , Pa-1987.
14. Road Atlras Europe - Barstholomew - Edinburgh 1976.

١٥. مجموعة كبيرة من القواميس العسكرية وقواميس المصطلحات والأمثلة والعبارات الانكليزية.

المحتويات

الكتاب الثاني
عن نظرية الحرب

الكتاب الثالث
عن الاستراتيجية عموماً

الكتاب الرابع
الاشتباك

الكتاب الخامس

القوات العسكرية

الكتاب السادس

الدفاع

الكتاب السابع

الهجوم

الكتاب الثامن

خطط الحرب

تعليق وملحق